أ. د. عماد الدين خليل

أشهد أن لا إله إلا أنت

سيرة ذاتية



- الموضوع: سيرة ذاتية
- العنوان: أشهد أن لا إله إلا أنت
  سيرة ذاتية
- تأليف: أ.د. عماد الدين خليل

الطَّبْعَةُ الأُولَى

١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م

ISBN 978-614-415-310-9

- الطباعة : مطبعة هادي برس - بيروت / التجليد: شركة فؤاد البعينو للتجليد - بيروت
- الورق: كريم / الطباعة: لون واحد / التجليد: كرتونيه
- القياس: 17×24 / عدد الصفحات: 976 / الوزن: 1300 غ



DAR IBN KATHEER

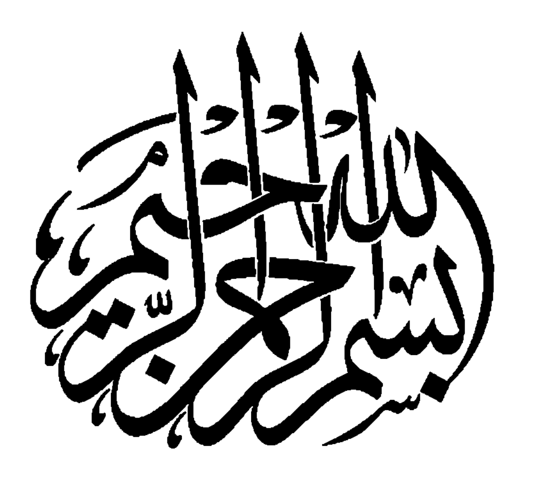
دمشق - سورية - ص.ب: 311
حلبوني - جادة ابن سينا - بناء الجابي
تلفاكس: 2225877 11 963+
2228450 11 963+

بيروت - لبنان - ص.ب: 113/6318
برج أبي حيدر - شارع أبو شقرا
تلفاكس: 817857 1 961+
705701 1 961+
جوال: 204459 3 961+

website: www.ibn-katheer.com / e-mail: info@ibn-katheer.com

 /daribnkatheer  @daribnkatheer  daribnkatheer  daribnkatheer


أشهد أن لا إله إلا أنت
سيرة ذاتية


بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

هذا غيض من فيض... فلقد اعتدت كتابة مذكراتي يوماً بيوم، منذ عام (١٩٥٦) وحتى عام (٢٠١٠م)، وقد تجمعت لدي ـ بناء على ذلك ـ أكداس من الكراريس والدفاتر والأوراق، بحيث أصبحت محاولة توظيفها في كتابة سيرتي الذاتية، تكاد تكون مستحيلة... ولذا ـ فيما عدا بعض الحلقات ـ اعتمدت على ذاكرتي بدلاً من الرجوع إلى تفاصيل المذكرات اليومية، فهي فضلاً عما تتطلبه من جهد مستحيل؛ تنطوي على الكثير مما لا يهم القارئ الاطلاع عليه، هذا إلى أن الذاكرة تميل للاحتفاظ في معظم الأحيان بالخبرات الأكثر أهمية في حياة الإنسان.

ولطالما خشيت ـ أسوة بغيري من العديد من الكتاب الإسلاميين ـ أن تكون السيرة الذاتية حديثاً عن (الذات) وعرضاً للمزايا، وتجاوزاً للمناقص والعيوب، وأنا أتذكر حديث رسول الله ﷺ: «حتى يقال أنه عالم فها قد قيل، فيكب على وجهه في النار». ولذا ظللت متردداً في كتابة سيرتي الذاتية وإخراجها للناس، لكنني إذ أدلف إلى حافات عمري، ولعلي أغادر الدنيا قبل أن تتاح فرصة نشر مذكراتي، ارتأيت أن أتوكل على الله، وأشمر عن ساعد الجد، وأنجز المهمة، كآخر عمل لي في ميدان التأليف، رغم ما قد يتركه ذلك في نفسي من المرارة للسبب إياه... فلعل فيها من الخبرات والتجارب والآلام والانكسارات والانتصارات، ما يعلّم الآخرين، خاصةً وأن تعاملي مع (الكلمة) محض ـ بفضل الله وحده ـ ومنذ اللحظات الأولى وحتى الحرف الأخير، لمقارعة خصوم هذا الدين، وعرض تفوقه المدهش في الميادين كافة، متمحوراً عند مفهوم التوحيد الذي شكل الجملة العصبية لعقيدتنا وشريعتنا

وحضارتنا ووجودنا وحياتنا اليومية... الأمر الذي دفعني لأن أختار هذا العنوان الذي يعلن شهادتي وشهادة قلمي على مدى ستين عاماً بأن (لا إله إلا الله)!

وكنت دائماً أقول بأن الحياة الدنيا إن هي إلا لحظات من عمر الزمن، وأن الحياة الحقيقية ذات الامتداد في الطول والعرض والعمق... هي الحياة الأخرى... وهي (الثيمة) التي طالما ترددت في كتاب الله وأحاديث رسوله العظيم عليه أفضل الصلاة والسلام... فعلام نحزن؟ وعلام نتردد؟ وعلام نخاف؟ وكل ما في الدنيا من مخاوف وأحزان وانكسارات، سبق وأن خطت في كتاب الكون الكبير: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٢ ـ ٢٣].

إنني أنتمي إلى جيل استثنائي كتب عليه أن يجتاز قرنين ميلاديين وقرنين هجريين... وأن يعايش نمطين من الحياة، يختلف أحدهما عن الآخر اختلافاً يكاد يكون جذرياً...

فأما أولهما، فهو تلك الحياة الهادئة، البطيئة بوسائلها المتواضعة وخبراتها البسيطة... بعلاقاتها الاجتماعية الحميمة، وصدق تواصلها مع الآخرين... بأجوائها النقية وهوائها النظيف... بمتعها اليومية البريئة وتقاليدها الملزمة... بأفراحها التي توغل في وجدان الناس وتتغلغل في شرايينهم... بأكلاتها الشهية... ووسائل لعبها البسيطة، ولكن المترعة بالغبطة والبهجة... بصحّتها وعافيتها وقلة منغصاتها... ببراءتها ونقائها... بغياب الصخب والضوضاء... بطقوسها المتكررة صيفاً وشتاء... برحلاتها الربيعية الرائعة...ومهرجاناتها الرياضية المتألقة... وبكل ما يخطر على البال... من حياة ذات إيقاع بطيء وتغيّر هادئ وتوافق ومحبة وانسجام.

وأما ثانيهما، الذي بدأ حصاره يحكم قبضته علينا بعد مضي عقدين أو ثلاثة... فيما يحلو للبعض أن يطلق عليه عصر التكنولوجيا؛ فقد تغيّر الحال غير الحال، وأخذ الناس يركضون إلى أهدافهم ركض الوحوش في البراري

ويريدون المزيد... أصبحت المصلحة هي الهدف الأسمى لمعظم الناس... ومن لا يركض معهم يتخلف ويداس بالأقدام... تلوّثت العلاقات الاجتماعية... وضاع الصدق في التعامل بين الأقران... فقدت المتع اليومية براءتها ولم تعد تنطوي على أي قدر من الإلزام... الأفراح أصبحت قشوراً لا يتغلغل إسقاطها في الأعماق!! غابت الصحة والعافية وكثرت المنغصات... ازداد صخب الأجهزة والمكائن وطغت الضوضاء... غابت الرحلات الربيعية، وانطفأت المهرجانات الرياضية... استوت فيها تقاليد الصيف والشتاء... أصبح إيقاع الحياة سريعاً، وضاع التوافق والمحبة والانسجام...

التكنولوجيا نعم... وبكل تأكيد... وهي تعدّ ولا ريب ضرورة من ضرورات الحياة عبر تجدّدها... ولكن آه مما اقترن بها من رغبات محمومة بالتكاثر بالأشياء... من ركض مجنون صوب الأهداف حتى تتقطع الأنفاس... من تمزّق للعلاقات الاجتماعية... من ضمور للمشاعر الإنسانية الحميمة...

في ظلال التكنولوجيا التي كان يتحتم أن تسعد الناس... حدث هذا الذي حدث، والذي عايشه جيلنا لحظة بلحظة ودقيقة بدقيقة... وهو يسترجع ذكريات الحياة المبكرة ويجرّ عليها الحسرات والآهات.

ها أنا ذا، وقد تجاوزت الخامسة والسبعين، وقطار العمر يمضي صوب المحطات الأخيرة، فإن الفاصل يكاد يتلاشى تماماً ما بين الأشياء والخبرات والظواهر والموجودات، وبين جوهرها ومغزاها، ما من لحظات كهذه، تتكشف فيها المرئيات، وتتعرى التجربة، كهذه اللحظات... وكلنا يتذكر، والقطار يمضي به متسارعاً إلى هدفه، كيف تفقد رؤيته القدرة على التركيز في الأبعاد المنظورة للمرئيات... كيف تلتمّ هذه كلها وتفقد، شيئاً فشيئاً، خصائصها الذاتية، لكي ما تلبث أن تصير هي نفسها جزءاً من المنظور الشامل، الذي يعبر فيه الإنسان حافات الحس إلى الوجدان، والبصر إلى البصيرة، والتعامل المباشر مع الأشياء، إلى الإيغال بعيداً بحثاً عن الوحدة التي تلمّها جميعاً لكي تجعل منها منظوراً واحداً... هنا تصير (الكلمة) الأداة الوحيدة القادرة على

التعامل مع الظاهرة، تماماً كما يصير الإيمان الكشف الوحيد القادر على الإضاءة والتفسير، وفي الحالين يجد الإنسان نفسه قبالة اللحظة المشحونة بالوعد والعطاء... وإزاء الدافع الملح، المترع باللهفة والشوق، للإفصاح والتعبير... فمن يقدر، وهو يطل من نافذة قطار يرحل بعيداً، عبر وقبالة المغزى الكوني للوجود البشري في هذا العالم... ألا يقدم خبرة حياته للناس؟ من؟

اعتمدت في كتابة سيرتي هذه اللغة الواضحة التي تخاطب الناس كافة... فالسيرة الذاتية هي خبرة حياة تنطوي على الكثير من القيم والتعاليم، التي يتحتم نقلها إلى الآخرين بأكثر الأساليب وضوحاً وبياناً.

تضمنت مذكراتي هذه جملة من الفصول والملاحق... تابعت فصولها العشرة الأولى الخطوات والمنحنيات الأساسية في حياتي، وأعقبتها ثلاثة فصول أخرى في رحلتي مع الكلمة... أما الفصل الأخير فقد آثرت فيه أن أنقل للقراء مياوماتي عبر رحلاتي العديدة خارج العراق، بدءاً من رحلتي الأولى عام (١٩٦٣)، وانتهاء برحلة فرنسا عام (٢٠٠١م)، دون أن أعمل فيها تغييراً أو تبديلاً... وأما رحلات ما بعد (٢٠٠١م)، فقد أوردت جانباً من تفاصيلها في سياق الفصلين الأخيرين (التاسع والعاشر) من سيرتي الذاتية هذه.

وقد يجد القارئ، عبر متابعته لسيرتي الذاتية هذه الكثير من المفارقات المثيرة للضحك، وذلك ليس فقط من قبيل احترام الحقائق والخبرات التي مررت بها، وإنما ـ أيضاً ـ للترويح عن القرّاء، فإن الجد المتواصل يقودهم إلى الإعياء، ولا بدّ من الترويح عنهم بين الحين والحين، فإن القلوب إذا كلَّت عميت... وقد لاحظت عبر لقاءاتي المتكررة بعلماء الأمة وشيوخها الكبار، أنهم أحرص من الشباب على متابعة ورواية النوادر والتحميضات والنكات النظيفة، بطبيعة الحال.

قد يسألني الكثيرون عما أحب وأكره... وهذا حق... فليس ثمة إنسان في هذه الدنيا لا يحب ولا يكره... ولقد أحببت عبر حياتي الكثير من القيم

والممارسات والخبرات إلى حدّ العشق، وكرهت أخرى إلى حدّ الخصام والتوتر والمقت والبغضاء... والمنظومة في جانبيها، المحبة والكراهية، تنطوي على العديد العديد من الخبرات، التي تتدرج من قضايا السلوك اليومي وتمضي باتجاه عالم الأفكار الرحيب.

فلقد أحببت التواضع إلى درجة العشق، وجعلت ممارسته جزءاً أساسياً من حياتي وسلوكي اليومي وتكوين شخصيتي، التي طالما جذبت محبة الآخرين وتقديرهم... ذلك أنني رأيت في التواضع تعليماً أساسياً من تعاليم هذا الدين، الذي أعلن حملته الشعواء ضد التكبر والكبرياء... بل إنه حرم الجنة على المتكبرين، في حديث رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»... كما أن ذوقي الشخصي ـ بحمد الله ـ يرفض أية صيغة من صيغ التكلف والتمثيل وابتزاز الآخرين تحت مظلة الاستعلاء الممقوت.

وأحببت الصداقة الحقة التي يتبادل فيها الطرفان وفاء بوفاء وإحساناً بإحسان... وأحببت الإنسان المتوحد بين الكلمة والسلوك، بين القول والفعل، ذلك الذي إذا حدّث صدق، وإذا وعد نفّذ، وإذا أؤتمن حرص على ما بين يديه... وأحببت الإنسان الذي تغمر البشاشة وجهه، وتفيض من مشاعره، وتتدفق من كلماته... وأحببت الإنسان ذا القلب النظيف، والروح النقية الطاهرة، والذي لا ينطوي في سلوكه مع الآخرين على أي قدر من الخبث والالتواء... وأحببت الإنسان (الأنيق) في ذوقه وعلاقاته وتصرفاته... بدءاً من حسن اختياره لكلماته مع الآخرين وصولاً إلى طريقته المهذبة في تناول الطعام، وقلة كلامه إلّا فيما هو ضروري... وإفشائه السلام على من يعرف ومن لا يعرف... وسخائه على نفسه وعلى أسرته... وعلى أصدقائه ومحبيه...

وأحببت الأجواء الماطرة وأماسي الشتاء العميق، والجلوس عند المدافئ لتبادل الأحاديث والذكريات، أو الانغمار في قراءة رواية رائعة أو كتاب ينطوي على فكر عميق... وبطبيعة الحال فلقد أحببت إلى درجة العشق الكتابة والإنجاز المتواصل والسعادة الطاغية التي تملك عليّ مشاعري وأنا أنجز هذا العمل أو

ذاك فيما يدخل دائرة قناعتي، ويجعل من أوقات الاسترخاء، بعيداً عن الكتابة والإنجاز، مترعة بالملل والتشتت والإحساس بأني فرطت بشيء ثمين... وهذا ينسحب على تعاملي مع الزمن الذي أرى ضرورة اعتصار ساعاته حتى الثمالة، فيما يخرج على الناس بهذا البحث أو الكتاب أو ذاك... وأحببت إلقاء المحاضرات، حيثما طلب مني ذلك، والتي أتجاوز فيها الصراخ، والطرائق التقليدية، والمواضيع المكرورة، وأحاول ما وسعني الجهد أن أقدّم في كل منها جديداً مبدعاً، بحيث أن قاعدة متابعي محاضراتي داخل الموصل أو العراق، أو في البلدان التي تجولت فيها راحت تتزايد عدداً مع الأيام...

وأحببت الحوار الهادئ، والجاد، والذي يبتغي فيه الطرفان الوصول إلى الحقيقة بعيداً عن دائرة (الأنا) التي تحيله إلى صراع لا يرحم بالكلمات، وربما بالأيدي والأرجل...

وأحببت الجلوس وراء شاشة التلفاز لمتابعة البرامج الثقافية التي أحرص على ألا تفوتني، وبخاصة تلك التي تبثها فضائيات معروفة من مثل الناشيونال جيوغرافي، والجزيرة الوثائقية، والسكريتس، وقنوات الجزيرة، والحوار، والتركية العربية، على ما فيها من دَخَل قد لا يتقبله الإنسان...

وأحببت ـ ولأقلها بصراحة ـ اللقمة الطيبة في البيت، أو عبر الدعوات، أو في المطاعم الخارجية... وحرصت على مدى حياتي في البحث عن وجبات الطعام المتميزة، والشهية، بحيث أخفقت مراراً في ترشيد وجباتي، وفق نصائح الأطباء، ولذا ازداد وزني بحوالي عشر كيلوات عن المطلوب، فيما يؤثر بطبيعة الحال على الجهد القلبي، وضيق النفس الذي عانيت منه على مدى حياتي...

لقد أحببت التعامل بيسر وسماحة مع مطالب هذا الدين... وبالمقابل كنت أحاول أن أعيش حياتي بكل تفاصيلها ومنحنياتها الممتعة والبهيجة... لم أنس يوماً الترفيه عن نفسي وعمن يحيط بي... بممارسة اللعب في مختلف صنوفه، بالرحلات الداخلية والخارجية للتمتع بمناظر الطبيعة الرائعة، ومعاينة إبداعية الله في الخلق... بجولات التخطي اليومي، ومشاهدة البرامج التلفازية، ومتابعة

مسابقات كرة القدم والسلة والطائرة والمنضدة وألعاب الساحة والميدان، لعباً ومشاهدة، وأنتظر لقاءات كأس العالم كل أربع سنوات وأتابعها باهتمام كبير، وكذلك مع بطولات الدوري الممتاز لكرة القدم الأوربية... والبحث عن الوجبات الطيبة من الطعام، والجلوس في المقاهي والكازينوات والحدائق والمتنزهات، والمطالعة المتواصلة، وتبادل الأحاديث التي يمتزج فيها الجد بالهزل ترويحاً عن النفس وإراحة للجملة العصبية من الشدّ المتواصل.

وبالمقابل فقد تعاملت بالجد المطلوب مع الزمن، وسعيت إلى توظيف ساعاته ودقائقه بكل ما أقدر عليه في ساحات الفكر والقلم، وكنت أكره الكسل والاسترخاء وقتل الوقت، وأقول لطلابي على مدى خمسين عاماً من التدريس الجامعي: إنكم إذا أردتم أن تكونوا شيئاً فعليكم باحترام الزمن وحسن توظيفه، ولطالما أكدت على ضرورة التثقيف الذاتي، وإذا أراد الطالب أن يتخرج وهو يحمل بحق شهادة البكالوريوس أو الماجستير أو الدكتوراه؛ فإن عليه أن يقرأ ويقرأ، ويقرأ، حتى تعمى عيناه ويدس أنفه في التراب!!

كرهت التكبر إلى حدّ الاحتقار، وكنت أنظر إلى المتكبرين ـ الذين يجرون أثوابهم بخيلاء ـ بازدراء بالغ، وأعاملهم ـ متعمداً ـ بقدر كبير من تقليل القيمة وعدم الالتفات، وأنا أتذكر حديث رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»... وقد امتدت كراهيتي هذه إلى الطبقات الغنية المترفة التي تصوّر أربابها ـ للأسف الشديد ـ أن المال هو الذي يمنح الإنسان قيمته الحقيقية ويرفعه فوق الآخرين، فكنت أكره مجالسهم المصطنعة وأحاديثهم الفارغة وادعاءاتهم الكاذبة...

كرهت تيبّس الطرفين: البائعين والمشترين، في عمليات البيع والشراء، وإلحاحهما الشديد في تحديد سعر البضاعة المطلوبة، وكذبهما ـ أحياناً ـ بل قسمهما بالله لمرة ومرتين وعشرات المرات من أجل الدرهم والدرهمين... وكنت وأنا أبيع أو أشتري أتذكر دائماً حديث رسول الله ﷺ وهو يصف المسلم الصادق لدى تعامله مع الآخرين «سمحاً إذا باع سمحاً إذا اشترى»... ولذا

أتجاوز الإلحاح على البائعين في تنزيل أسعار بضائعهم، كما أنني في المقابل أوافق على معظم ما يطلبه مني المشترون... دونما أي قدر من التشبث بالحصول على دينار أكثر...

كرهت حتى النخاع ذوي الشخصية المزدوجة، أولئك الذين يقولون ما لا يفعلون... قلوبهم سوداء كالفحم والقار، ولكن ألسنتهم تنضح ـ بما يبدو للوهلة الأولى ـ عسلاً وشهداً، ولكنك إذا تمعنت فيها كشفت لك عن أنيابها الصفراء... أولئك الخبثاء بالسليقة، الذين يحلو لهم أن يمارسوا اللدغ لحظة بلحظة ودقيقة بدقيقة، كأنما خلقت ألسنتهم وقد اختفت تحتها أكياس السم الصفراء... لقد عايشت نمطين من الأصدقاء، بعضهم ممن تتمنى أن تفتح لهم قلبك لكي تضعهم فيه، وبعضهم الآخر تتمنى ألا تلتقي بهم أبداً، حتى إذا ما فرضت عليك الظروف لقاءهم انعصر قلبك، وأظلمت الدنيا في عينيك لأنك تثق ابتداء أنك مهما جاملتهم وأبديت لهم عواطف المحبة الصادقة؛ فلا بدّ أن يدوروا حولها بحثاً عن مكان في كيانك لكي يوجهوا لدغاتهم إليه، وأنا أتذكر قول الشاعر:

وفي الناس من فمه عقرب فيا ويلنا من سموم الشفاه!!

ولطالما قلت لأصدقائي: إن بعض الناس ممن تربطك بهم علاقة ما، لو عشت معهم خمسين عاماً فلن تتلقى منهم كلمة واحدة مما يجرح، ويؤذي، وبعضهم الآخر لو التقيته لدقيقة واحدة فإنك قد لا تخرج سليماً من لدغاته الصفراء...

أكره إلى حد المقت فئة المَصلحيين والانتهازيين الذين طالما باعوا مبادئهم لقاء الحصول على منصب ما، أو حفنة من الذهب والفضة، أو حموا أنفسهم وأسرهم من الأذى والخوف... ولسوف يمرّ القراء بنماذج كثيرة من هؤلاء وأولئك عبر قراءتهم لمذكراتي هذه التي تنطوي على الأبيض والرمادي والأسود.

أكره الإنسان الثرثار الذي لا يكف لسانه عن الحركة ذات اليمين وذات

الشمال، ولا يعطي الطرف الآخر الفرصة للإدلاء برأي أو تعليق على مقولاته، بل حتى لالتقاط الأنفاس... ويزيد الأمر سوءاً أن هذه النماذج من الناس عند تناول وجبات الطعام، تتطاير الكلمات من أفواههم ومع الكلمات رشاش من بقايا الطعام العالق بين شفاههم... فوالله لو أتيح لهم أن يروا السيال الذي يخرج من أفواههم منصبّاً على أطباق الطعام؛ لتقززت نفوسهم من هذا الذي يفعلونه، فكيف بالآخرين؟

وثمة من يأتي لزيارتي في أعقاب عودتي من هذه الرحلة أو تلك، قائلاً: أريد أن أسمع منك ما شهدته في رحلتك... ثم ما يلبث سيّال كلماته أن يتدفق حتى آخر لحظة من اللقاء، وعندما يهم بالمغادرة يقول كالمعتذر: لم نسمع منك شيئاً... أتراه قد ترك لي فسحة من الزمن لكي أحكي له عما يريد؟ فآه من شهية الكلام التي تتحول لدى البعض إلى ما يشبه الحالة المرضية، أو الوسواس التسلطي القاهر...

كرهت أولئك الذين لا تفوتهم صلاة ولا صيام، ولكنك عندما تضرب معهم موعداً يجدون أنفسهم في حِلّ من الالتزام بمواقيته التي حددت سلفاً، وكأنهم ـ بصلاتهم وصيامهم ـ قد أخذوا رخصة مفتوحة من الله ﷻ في ألّا يلتزموا بالتوقيت، وأن يأخذوا حريتهم الكاملة في أن يأتوا بعد ساعة أو ساعتين من الموعد المضروب، وقد لا يأتون مطلقاً، دون أن يكلفوا أنفسهم حتى بتقديم الاعتذار عن أسباب تأخرهم أو تغيبهم عن الحضور... وأنا بسبب حساسيتي الفائقة مع المواعيد، أحسّ عبر الهامش الزمني الذي يسبق الموعد كما لو أن عشرين ساعة منبهة تدق في جملتي العصبية، تنبهني الواحدة تلو الأخرى إلى اقتراب أجل الموعد المضروب حتى أكون في المكان المحدّد في الوقت المتفق عليه تماماً... ولهذا السبب فإنني أدفع بمشاغلي وكتاباتي وارتباطاتي جانباً، مركّزاً عيني على عقرب الساعة كي لا يفوتني الموعد المضروب، أو يجيئني الأصدقاء وأنا منشغل عنهم...

ولكم أن تتصوروا كيف لو امتدت هذه الحالة من التوتر العصبي لأكثر من

ساعة أو ساعتين كيف يكون العذاب؟! وأستطيع أن أقول بأن كل تسعة مواعيد من عشرة مما ضربته مع أصدقائي الذين يصلون ويصومون... كنت أسبقهم فيها إلى المكان المحدّد للقاء فلا أجدهم... وبعد نصف ساعة أو أكثر يجيئون دون أن يبدو على ملامحهم أي أثر للإحساس بالخطأ الذي ارتكبوه...

وفي هذا السياق كرهت أولئك المتدينين الذين يقترضون منك مبلغاً من المال، قلّ أو كثر، فلا يكلفوا أنفسهم، بل هم لا يشعرون بأية مسؤولية شرعية ترغمهم على تثبيت الدين في ورقة مكتوبة... والأنكى من هذا أنهم يحددون موعداً للسداد، فإذا بالموعد يحين، دون أن يكلفوا أنفسهم اتصالاً هاتفياً يعتذرون فيه عن التأخير... وتمرّ الأسابيع والشهور وربما السنوات، وهم قد تناسوا حقوق الآخرين في ذمتهم... يستثنى من هؤلاء أولئك الذين تضطرهم الحاجة إلى التأجيل... فنَظِرة إلى ميسرة... ولكن كم من المقترضين من تنطبق عليهم الحالة؟!

أكره أولئك الإمّعات الذين لا يملكون رأياً ولا موقفاً إزاء ما يعترضهم، وما يعايشونه من وقائع وأحداث، وما يجبههم من تحديات... تقول لهم: أبيض فيلووا رؤوسهم موافقين... تغير موقفك ـ لهذا السبب أو ذاك ـ وتقول لهم أسود، فيلووا رؤوسهم موافقين... ينجرفون بيسر وسهولة مع كل دعوة أو واقعة، دون أن يعملوا عقولهم ويشحذوا إرادتهم لتبين ما تنطوي عليه من خطأ أو صواب... يهرعون مع كل ناعق... يستكينون لكل سلطة قاهرة، وسرعان ما يصيرون من أبواقها... والناعقين بشعاراتها... لا يهمهم سوى حماية مصالحهم من أي شيء قد يتصورونه سيمس بها، ويؤثر عليها...

ويتساءل المرء: أتراهم لم يسمعوا صوت رسول الله ﷺ وهو يحذرهم من هذه الخصيصة المرذولة... ويناديهم بأعلى صوته: «وطِّنوا أنفسكم... إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساؤوا أن تجتنبوا إساءتهم...»... لكأنهم قد وضعوا على آذانهم شمعاً أحمر كي لا ينصتوا إلا لما تمليه عليهم مصالحهم القريبة وأمنهم الذاتي، والرغبة المحمومة في حماية أسرهم وذراريهم...

أكره من أسميهم بفرسان المجالس، أولئك الذين يستعرضون بطولاتهم الكاذبة وادعاءاتهم التي لا رصيد لها من الواقع، في الجلسات الخاصة، حتى ليخيل إليك أنهم ـ بحق ـ من أولئك الرجال الذين لا يخشون في الله لومة لائم... حتى إذا ما غادروا المجالس البيتية غدوا من أجبن الجبناء وانكفؤوا كالجرذان أمام خصومهم... فإذا بطولاتهم البيتية الباهرة تتكشف عن لا شيء، لقد أدانهم القرآن الكريم بكلماته القاطعة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢ ـ ٣].

أكره المتحذلقين، المتفيقهين، أدعياء العلم ومحتكري المعرفة، أولئك الذين يصمّون آذانهم عما يقوله الآخرون، معتقدين أن ما يملكونه من علم يغنيهم عن كل إنسان... كما أكره أولئك الذين لا يعرفون للمجاملة في الحق أصولاً، ولا تصدر منهم كلمة طيبة، تلامس أفئدة الآخرين وتلطف مشاعرهم... يكسو الغضب الدائم ملامح وجوههم... تسلّم عليهم بحرارة علك ترطب أفئدتهم المتيبسة، فهم إما يكتفون بالرد على التحية بنصفها أو ربعها، أو يشيحوا بوجوههم الكالحة عنك، فلا يردون على التحية بمثلها، وكأنهم لم يقرؤوا في كتاب الله ﷻ: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾ [النساء: ٨٦].

ومع الخبث والالتواء، والمصلحية، والانتهازية، والادعاء، والتجهم، وغياب الكلمة الطيبة... هنالك الأنانية التي انتشر سرطانها بين الناس، فكل ما يقولونه ويفعلونه، إنما يدورون فيه حول ذواتهم، فكأنهم يلغون من يحيط بهم من الحساب فلا يرون إلا أنفسهم...

ولشد ما أكره بناء مكانة الإنسان، مفكراً كان أم كاتباً أم أديباً، على حساب الآخرين، حيث تأخذ (الأنا) بخناق الإنسان، فيغمض عينيه عما أنجزه الآخرون، ولا يرى إلا إنجازه هو... بل هو يمضي إلى أبعد من ذلك فيوجه إليهم النقد القاسي، ويكيل لهم الاتهامات، من أجل أن يشبع في نفسه حاجة للتميز والظهور... وأنا أفهم سلوكاً ملتوياً كهذا يصدر عن غير الإسلاميين،

ولكن كيف إن صدر عن بعض الكتّاب الإسلاميين أنفسهم أولئك الذين يحلو لهم الطعن في منجزات الآخرين، من أجل أن يلمّعوا نتاجهم ويبرزوه للناس.

بل إن بعضهم قد يسرق جهود إخوانه ويدّعي هذا الذي سرقه لنفسه، فيضيف بذلك إلى جرمه جرماً قبيحاً... ومن أجل ذلك خلت كتاباتي كافة من هذه الخطيئة والحمد لله، بل إنني كنت أمضي أبعد من ذلك، فأقيّم كل أعمال أولئك الذين سبقوني في الكتابة حول الموضوعات ذات العلاقة... بل إنني كنت في كثير من الأحيان أسرف في توجيه التقييم لهم، تشهد بذلك مقدماتي لمؤلفاتهم، والتي جاوزت المائة مقدمة عدداً، حتى أن بعضهم كان يعترف لي بأن ما كتبته في مقدماتي لبحوثهم يفوق في مستواه بكثير معطياتهم ذاتها، ولكني كنت أطمئنهم بخطأ هذا الذي يتصورونه.

أكره أولئك الذين لا زالت البداوة تهيمن على سلوكهم، وتطبع مفردات حياتهم، فهم لا يرعون لجيرانهم حرمة، ولا للطريق نظافة، ولا لأصول الحياة الاجتماعية وقاراً. كما أنني كرهت أولئك الجفاة الغلاظ من عديمي الذوق الذين يتعاملون مع عالم الأشياء الجميلة بغلظة وجفاء فيلحقون بها الأذى والتشويه، وبخاصة، أولئك الذين يستعيرون الكتب فيعيدونها إلى أصحابها وقد تمزقت صفحاتها، والتوت زواياها...

ولقد كان من طبيعتي، على مدى سنوات تدريسي الجامعي، ألا أردّ طلباً لأحد من المستعيرين، حتى لو حملني ذلك أكداساً من الكتب كنت أسلمهم إياها طالباً فقط أن يعتنوا بها، لأن الكتاب عندي حتى لو بقي عشرات السنين فإنه يظل محتفظاً بأناقته كيوم خروجه من المطبعة... فاذا ببعضهم يعيدونها إلي وقد تغير حالها وأصبحت المطالعة فيها تدعو إلى الاشمئزاز، فكنت أرمي بها في وجوههم وأقول لهم: لن تعثروا بعد اليوم على كتاب واحد من مكتبتي!!

وفي هذا السياق كرهت أولئك الأشخاص من عديمي الذوق، الذين يمارسون على المكشوف قبالة الآخرين، اللعب المتواصل بأنوفهم وأسنانهم، ويستخرجون منها ما يثير القرف والتقزز والاشمئزاز، لدى النفوس الحساسة،

خاصةً إذا كان ذلك يتم على موائد الطعام... وهم لا يكتفون بذلك، بل إنهم طالما مدّوا أيديهم إلى أيدي الآخرين وملابسهم، مصافحين أو ماسحين ما يعلق بها، فيما كان يصيبني بتوتر نفسي يهيمن على جملتي العصبية، ويكبسني أوقاتاً قد تطول وقد تقصر، فلا أسترجع توازني وأستعيد وضعي إلا بعد أن أشرع إلى أقرب مغسل لكي أقوم فيما كنت أسمّيه دائماً: إزالة آثار العدوان... بل إن الأمر تجاوز، بالنسبة لي على الأقل، حالة التوتر النفسي، إلى نوع من الشد والتشنج العضلي في قلبي وذراعي الأيسر، وبضيق في أنفاسي إلى درجة الاختناق، فيما كنت أعاني منه الأمرّين... ويبدو أن الأمر قد تحوّل بمرور الوقت إلى ما يسميه علماء النفس بالوسواس القهري أو التسلّطي، الذي لا يدفعه حساب ولا منطق، وانما هو يفرض نفسه فرضاً بعيداً عن كل حساب، فيضعني في حالة الجحيم النفسي والجسدي، وبخاصة في الحالات التي أجدني محصوراً في قاعة للاحتفالات أو المناسبات العامة، حيث يصعب علي العثور على مصدر قريب للماء، لكي أزيل آثار أولئك الذين لا يرعون لمشاعر الآخرين حرمة ولا مقاماً... فتظل أيديهم تجوس في أنوفهم أو أسنانهم... دون أن يكترثوا لنظرات المقت والازدراء التي تنصب عليهم ممن يحيطون بهم من مرهفي الإحساس... لقد افترست هذه الحالات الكثير الكثير من لحظات السعادة في حياتي، وغطت مساحات كبيرة منها، وحولتها إلى جحيم مشبوب، ولقد قمت بمحاولات متواصلة لتجاوز هذا الوسواس القهري، والتغلب عليه، ولكن عبثاً... فليس ثمة إلا الماء ما يطهرني من ويلاته!!

(ولكني، وأقولها بصراحة، هل أنني لم أمارس وأقع في واحدة أو أكثر من حلقات الكراهية هذه أبداً؟ فإن الإنسان يظل إنساناً... كائناً معجوناً من نفخة الروح العلوية وقبضة الطين السفلية... ولطالما وجدت نفسي أنساق مختاراً أم مرغماً صوب واحدة من مطبات الكراهية هذه، لكنها وبفضل الله وحده، حالات عابرة لا تسعى لأن تتأصل في السلوك فتصير ممارسة يومية، كما هو الحال عند الكثيرين).

أستقبل يوماً بيوم، سواء في بيتي أم في دائرتي، حشوداً من الأصدقاء والضيوف والطلبة والباحثين والمفكرين والأدباء... أتبادل معهم الرأي، وأبدي ملاحظاتي بخصوص بحوثهم ودراساتهم، ونتابع معاً ما تشهده الساحة من متغيرات في عالم السياسة والفكر والاقتصاد.

لم أتنازل يوماً عن رأي أؤمن به، أو أساوم على موقف قد ينزاح بي بعيداً عن قناعاتي... ولقد ألحق هذا بي ـ كما سيجد القارئ ـ الكثير من الأذى، ولكني كنت سعيداً به. أما على مستوى العلاقات الشخصية والاجتماعية فلطالما تنازلت للآخرين، سواء كان الحق معي أو معهم... وكان ذلك ينزل على قلبي برداً وسلاماً، ويزيد من أواصر المحبة بيني وبين الآخرين.

لم أرتكب في حياتي، على امتدادها، كبيرة من الكبائر والحمد لله... ودائماً أذكّر نفسي بالرؤية التي رأتها جدتي يوم كانت تحمل بأمي، وقصّتها لها ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦]...

ولكن ممارستي للأخطاء، والخطايا الصغيرة، أو ما يسمى (باللمم) تغطي حياتي من أقصاها إلى أقصاها... تكتسحني كسيل لا يرحم، فأستجيب للكثير من مطالبها، ثم ما يلبث الاحساس بالندم أن يمسك بخناقي... وثمة ما هو أكبر من الندم... إنه الخوف من الحساب يوم الحساب، حيث لا يخفى على الله ﷻ شيء من ممارسات الإنسان ظاهرة أو خفية، صغيرة أو كبيرة... ولهذا طالما دعوت الله أن يغفر لي أخطائي هذه... توسلت إليه أن يحيطني بعفوه... أن يتكفلني برحمته التي وسعت كل شيء... مؤملاً أن تكون كتاباتي التي افترست عمري وصحتي وعافيتي، جواز سفري إلى عفوه ورضوانه...

ومع هذا الجهد اللافح على مدى ستين عاماً، دقيقة بدقيقة ويوماً بيوم: والذي أسفر بعون من الله عن تسعين مؤلفاً... هنالك ما أرجوه من عفو الله ورحمته، بما أصبت به من ضيق في النفس، والذي لازمني منذ مطلع حياتي وحتى اللحظات الأخيرة... ولطالما كان يشدد علي الخناق خلال ممارستي الكتابة والتبييض، حيث كنت أبذل جهداً شاقاً لالتقاط الأنفاس بصعوبة بالغة

لإدخال ولو حفنة من الأوكسجين إلى رئتي المحترقة، لا لشيء إلا لأستطيع مواصلة الكتابة والتبييض... ومع ضيق النفس هنالك الشد والألم الذي ينصب على ساعدي الأيسر، والتشنج الذي يمسك بقلبي فلا يفلته حتى أكف عن الكتابة والتبييض...

ولكنني ـ مع ذلك ـ كنت أواصل العمل الساعات الطوال التي ألزمت بها نفسي، موقناً بأن مهمتي في الحياة هي هذه: أن أواصل الكتابة حتى لحظة وضعي في التراب... وأن الكف عنها، ومحاولة الاسترخاء بعيداً عن الكتابة، يضعني دائماً في دائرة الإحساس بالتفريط والندم، ويحيطني بالملل وبفقدان طعم الأشياء... فبالإنجاز وحده كنت أحس بالسعادة، والفرح، والتوازن والاستقرار... وحتى المتعة بالأمور اليومية للحياة من مأكل ومشرب ولعب وحوار...

وإلى جانب ضيق النفس عانيت الكثير الكثير من المتاعب المرضية والأوجاع شبه المزمنة من مثل الالتهاب الدوري للجيوب الأنفية والسعال المتواصل... والاحساس القاسي بحالات الدوار وتنميل الرأس... والغياب المفاجئ للنفس، واختراق نقطة قاسية لقلبي من أقصاه حتى أقصاه في العديد من الليالي... وآلام الساق الروماتيزمية... وآلام الأضراس وفقاعة الفم التي افترست معظم حياتي... وأوجاع الصدر... والحساسية الجلدية... وتكلس الفقرات العنقية والقطنية... وكنت دائماً أتوجه بالشكر والامتنان إلى الله ﷻ، والدعاء الحار بأن يجعل من هذه الأوجاع تكفيراً عن أخطائي الكثيرة، وتخفيفاً من عذاب القبر وحساب يوم الحساب...

هذا إلى أنني أجريت ست مداخلات جراحية، بما فيها استبدال الصمام الأهليلي، ووضع بطارية لتنشيط حركة القلب التي قال الأطباء أنها قد انخفضت إلى الثلث، ولكن المداخلات الجراحية الست (الزائدة، الغدة الدرقية، الصمام، الفتقة، البطارية، وإزالة الماء الأبيض من العين اليمنى)، تكللت بعون الله ﷻ ومهارة الأطباء الاختصاصيين بالنجاح.

لم أتردد يوماً في الإجابة على رسائل الأصدقاء والمتابعين والطلبة

والمفكرين والأدباء، والتي تتدفق علي من مشارق الأرض ومغاربها، سواء بالبريد أم الإنترنيت، حتى أولئك الذين لم يتجاوزوا في دراستهم المرحلة الإعدادية... وكنت أرى في عدم الإجابة هذه نوعاً من التقصير وانعدام الذوق... ولذا كنت أسارع في الإجابة على عشرات الرسائل ومئاتها في العام الواحد، حتى أنني في أحد أعوام الثمانينيات أجبت على ما يزيد عن الثلاثمائة والخمسين رسالة، الأمر الذي وسّع من شبكة أصدقائي ومحبّي كلماتي، أولئك الذين انتشروا في قارات الدنيا الستّ بحمد الله وفضله.

ولم أتردد يوماً في السعي للتوسط لذوي الحاجات وحلّ مشاكلهم، حيثما وجدت في نفسي وعلاقاتي القدرة على ذلك، وكنت أقتفي بذلك خطوات أبي ـ رحمه الله ـ الذي طالما أمم وقته وجهده للسعي في حل مشاكل الآخرين مبتغياً وجه الله وحده...

القطيعة، حتى مع خصومي وأعدائي، تؤلمني وتؤرقني، ولذا وجدتني أسعى دائماً لمصالحتهم، رغم سلامة موقفي أحياناً، وكنت أشعر ببرد الرضا والسعادة وأنا أتجاوز قطيعتي إياهم، وأعيد علاقتي بهم كما كانت أول مرة.

ما أكثر حلقات الندم على شبكة من الأخطاء وسوء التقدير، وقعت فيها عبر حياتي من بدئها حتى اللحظات الراهنة... وأنا إذ كنت أدوّن مذكراتي يوماً بيوم... فقد أتيح لي أن أعدّ حلقات الندم تلك، فإذا بها تبلغ المائة والثمانين، تقابلها مائة حلقة من التوجس والقلق والخوف مما قد يحدث مستقبلاً، دون أن يتحقق هذا الذي توجست من وقوعه خيفة... ودائماً أذكر الإعجاز المدهش للآيتين الكريمتين: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٢ ـ ٢٣] فيقودني هذا إلى برد السكينة والرضا والاطمئنان...

تعرضت عبر حياتي لانكسارات مالية شتى... ورفضت إغراءات مالية أخرى بسبب قناعاتي الذاتية... وكدحت كثيراً لتغطية حاجاتي المالية

المتزايدة... حاصرت أسرتي الأمراض والمداخلات الجراحية التي لا أوّل لها ولا آخر... آثرت البقاء في مدينتي رغم التحديات التي مررت بها، ودفعتِ الكثيرين للهجرة، أو الاعتقال، أو التصفية الجسدية... شاركت في معظم التظاهرات التي ندّدت بالحكام منذ بداية الخمسينيات وطيلة العصور التالية... طالبت أكثر من مرة وعبر أكثر من مناسبة بإعطاء هامش لحرية العمل الأكاديمي في زمن البعث حيث كممت الأفواه، ودفعت ثمن ذلك بإخراجي من الجامعة...

تعرضت في العديد من مقالاتي ومؤلفاتي لنقد صريح للحكام والطواغيت رغم ما في ذلك من محاذير... ومنع العديد منها في بعض البلدان العربية، وبخاصة في بلدي العراق، حيث كانت تعليقات الرقباء عليها تحمل تنديداً صريحاً بالعديد من مضامينها الحادة والساخرة... وطالما قامت الأجهزة الأمنية بمصادرة العديد من كتبي المنتشرة في المكتبات...

تعرضت للموت مراراً، ولكني خرجت من مآزقه سالماً غانماً بمعونة الله وحده... العديد من أصدقائي وأقربائي أخذوا يغيبون الواحد تلو الآخر ويحتويهم والتراب... بما فيهم أبي وأمي وأخي الغالي نبيل (رحمهم الله)... ولقد أحصيت يوماً أولئك الذين رحلوا ممن تربطني بهم أشد الروابط قوة فإذا بهم يتجاوزون المائتين... أخذت الدنيا تتصاغر وتتضاءل في عيني وأنا أتجاوز السبعين من العمر، فلم أعد أكترث لشيء... لا لمال ولا لوظيفة ولا لصحة أو عافية...

تلقيت عبر حياتي حشداً كبيراً من الدعوات، بلغ ما يزيد على السبعمائة دعوة لحضور الندوات والمؤتمرات والملتقيات وجلسات الحوار وإلقاء المحاضرات وتسجيل اللقاءات الفضائية والتأسيس للمراكز العلمية والأدبية... والتكريم الشخصي والحصول على الجوائز.

لم أنفذ من مئات الدعوات التي وصلتني سوى عدد محدود جداً لا يتجاوز العشرات، لأسباب شتى منها عوائق السلطات، والموانع الوظيفية، والمتاعب

الشخصية، والظروف العائلية... كما أن بعض تلك الدعوات كان يرتبط بشكل أو آخر، بتوظيف السلطات الحاكمة، فكنت أسارع بالاعتذار عن الحضور.

ومن بين مشاركاتي في تلك الندوات والمؤتمرات: المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية ـ الدوحة ـ قطر ـ (١٩٧٩)، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام (فلسطين) ـ عمان ـ الأردن ـ (١٩٨٠)، الندوة العالمية الثالثة للآثار والتراث ـ بغداد ـ العراق ـ (١٩٨١)، ندوة حوار حول الأدب الإسلامي ـ المدينة المنورة ـ السعودية ـ (١٩٨٢)، ندوة كتابة تاريخ الأمة الإسلامية ـ الزقازيق ـ مصر ـ (١٩٨٩)، ندوة المنهاجية وإسلامية المعرفة ـ أكسفورد ـ المملكة المتحدة ـ (١٩٩٠)، الأسبوع الثقافي للمعهد العالمي وجمعية الدراسات والبحوث الإسلامية ـ عمان ـ الأردن ـ (١٩٩٢)، المؤتمر العالمي الثاني حول سعيد النورسي وتجديد الفكر الإسلامي ـ إسطنبول ـ تركيا ـ (١٩٩٢)، ندوة مستقبل العالم الإسلامي الثقافي من خلال واقعه المعاصر ـ فاس ـ المغرب ـ (١٩٩٣)، المؤتمر العالمي الثالث حول فكر سعيد النورسي ـ إسطنبول ـ تركيا ـ (١٩٩٥)، المؤتمر الثاني لجامعة الزرقاء الأهلية حول الأدب الإسلامي: الواقع والطموح ـ عمان ـ الأردن ـ (١٩٩٩)، الملتقى الدولي الثالث للأدب الإسلامي ـ أغادير ـ المغرب ـ (٢٠٠١)، الملتقى الدولي الرابع للأدب الإسلامي ـ فاس ـ المغرب ـ (٢٠٠٤)، مؤتمر العولمة ـ المعهد العالمي للفكر الإسلامي ـ عمان ـ الأردن ـ (٢٠٠٤م)، مؤتمر حول الفكر الخلدوني، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، عمان ـ الأردن ـ (٢٠٠٧م)، المؤتمر العالمي الثامن حول فكر سعيد النورسي ـ إسطنبول ـ تركيا ـ (٢٠٠٧م)، ندوة أسواق الموصل ـ كلية الآداب ـ جامعة الموصل ـ (٢٠٠٨م)، ندوة مورفولوجيا مدينة الموصل التراثية: مقترحات تطويرية ـ مركز دراسات الموصل ـ جامعة الموصل ـ (٢٠٠٨م)، المؤتمر العلمي السادس ـ كلية الآداب ـ جامعة الموصل ـ (٢٠٠٩م)، ندوة المناهج الجامعية ـ المعهد العالمي للفكر الإسلامي، بيروت ـ لبنان ـ (٢٠١٠م)، ندوة العلاقات التركية

العراقية والآفاق المستقبلية ـ إسطنبول ـ تركيا ـ (٢٠١٠م)، مؤتمر التكامل المعرفي ـ المعهد العالمي للفكر الإسلامي ـ تلمسان ـ الجزائر ـ (٢٠١٠م)، المؤتمر القرآني الثالث لجمعية المحافظة على القرآن الكريم ـ عمان ـ الأردن ـ (٢٠١٠م)، المؤتمر العالمي التاسع حول فكر سعيد النورسي ـ إسطنبول ـ تركيا ـ (٢٠١٠م).

أما تلك التي رفضت أو اعتذرت عن المشاركة فيها، فهذه بعض نماذجها: رفض الانتماء لاتحاد الكتاب والأدباء العراقيين، رفض الانتماء لاتحاد المؤرخين العرب، رفض المشاركة في كتاب يصدر في الكويت بدعوة من اللجنة التحضيرية لمؤتمر القمة الإسلامي عام (١٩٨٦م)، رفض عرض كتابة مقال لمؤتمر القمة عام (١٩٨٠م)، رفض الموافقة على دعوة اللجنة المشرفة على جائزة أبو ظبي لأكون عضواً فيها عام (٢٠٠٨م)، رفض دعوة دار الحكمة في بغداد لأكون ممثلها في الموصل عام (١٩٨٤م)، رفض دعوة رابطة العالم الإسلامي لأكون ممثلها في العراق عام (٢٠٠٣م)، الاعتذار عن الإسهام في موسوعة تاريخ الموصل التي تصدرها جامعة الموصل في الثمانينيات، الاعتذار عن تسجيل حلقة لتلفزيون بغداد عن تراث الموصل في الثمانينيات، رفض محاولة السفارة العراقية في المغرب استدعائي لإلقاء جملة من المحاضرات بسبب ضغط المعجبين هناك، اعتذار عن قبول منصب معاون المدير العام لآثار المنطقة الشمالية عام (١٩٨٧م)، اعتذار عن رئاسة هيئات المنطقة الشمالية عام (١٩٨٧م)، اعتذار عن تسجيل ربيورتاج عن إحدى الدور التراثية في الموصل لمجلة ألف باء العراقية، اعتذار عن دعوة من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية للمشاركة في كتاب منهجي عن الثقافة الإسلامية عام (١٩٨٧م)، اعتذار عن دعوة اتحاد المؤرخين العرب في بغداد للمشاركة في مؤتمر حطين عام (١٩٨٧م)، اعتذار عن دعوة وزير الأوقاف العراقي للكتابة في مجلة (الرسالة الإسلامية) في عددها الخاص، الاعتذار عن برقيات ودعوات متواصلة وترشيح لعضوية الهيئة الاستشارية لكتاب (الإسلام

والمستقبل) وحضور المناقشات حول الكتاب في الكويت، اعتذار عن دعوة الدكتور المشهداني أمين سر اتحاد المؤرخين العرب لترشيحي لنيل وسام المؤرخ العربي في ثمانينيات القرن الماضي، اعتذار عن قبول جائزة تقديرية من اتحاد المؤرخين العرب عام (١٩٨٧م)، الاعتذار عن المشاركة في المؤلف الشامل عن تاريخ الأمة العربية بدعوة من الأستاذ الدكتور عبد العزيز الدوري عام (١٩٩٠م)، الاعتذار عن المشاركة في مؤتمر أقامته جامعة الزيتونة في تونس بسبب من ارتباطه بالطاغية (زين العابدين بن علي) عام (١٩٩٤م)، الاعتذار عن ترشيحات عديدة من جامعة الموصل لأكون الأستاذ الأول فيها، رفض ملء الاستمارة الخاصة باختيار علماء العراق عام (١٩٩٧م) بسبب ارتباطها بالضوابط الحزبية... الاعتذار عن الترشيح لجائزة الملك فيصل عام (١٩٩٥م)، الاعتذار عن الترشيح لجائزة دبي الدولية عام (٢٠٠٨م)، الاعتذار عن المشاركة في مسابقة للسيرة النبوية أعلنت عنها رابطة العالم الإسلامي، وأخرى أعلن عنها مركز دراسات السيرة النبوية في المدينة المنورة، الاعتذار مرتين عن دعوة شخصية وجهها إلي أحد الأمراء السعوديين لإلقاء جملة من المحاضرات في شهر رمضان بالمدينة المنورة في عامي (٢٠٠٨ و٢٠٠٩م)، الاعتذار عن قبول ترشيح مؤسسة آل البيت في عمان لأكون مندوبها في العراق عام (٢٠٠٤م)، الاعتذار عن المشاركة في الجائزة الثقافية لجامعة اليرموك، الاعتذار عن العرض الذي طرحه علي الثري الإماراتي (ماجد الفطيم) في طبع ما أشاء من كتبي وتوزيعها مجاناً... الاعتذار عن عرض آخر من الوقف السني في بغداد لطبع خمسة من كتبي وتوزيعها مجاناً، الاعتذار عن تكليفي برئاسة لجنة إعادة كتابة التاريخ الإسلامي تتولاه جامعة الإمام محمد بن سعود عام (١٩٧٩م)، رفض دعوة الرئيس العراقي صدام حسين للحوار مع المؤرخين العراقيين... الخ... الخ...

وبالمقابل فقد تلقيت عبر حياتي الفكرية والثقافية والأكاديمية، حشوداً من التقييمات ومناسبات التكريم، يصعب على المرء أن يلمها في ذاكرته، وقد

يكتفي في مقدمة كهذه بالتأشير على بعضها فحسب... رغم ما في ذلك من حساسية بالغة وإحساس قاس بالتأثم لأنه ينطوي على تمجيد الذات!!

فقد عُرضت عليّ رئاسة تحرير اثنتين من أكثر المجلات الإسلامية أصالة وانتشاراً (الأمة) القطرية و(المسلم المعاصر) المصرية، ولكني وجدت نفسي مضطراً للاعتذار عن الاثنتين بسبب ارتباطاتي العائلية. كما عُرض علي أن أتولى منصب المستشار الأكاديمي للمعهد العالمي للفكر الإسلامي في العراق، فاعتذرت خشية أن أوزع جهدي على حساب عملي التأليفي... وكذلك الحال بالنسبة لمنصب رئيس رابطة الأدب الإسلامي في العراق، حيث جرى التصويت على المرشحين للرئاسة عام (٢٠٠٣م) فإذا بي أفوز بكل الأصوات، ولم يكن هذا مما أرغب فيه، ولكن لا بدّ مما ليس منه بد، وقد قمت باختيار أعضاء اللجنة الاستشارية للرابطة، وتم عقد عدة لقاءات أسبوعية لترتيب جدول بالأنشطة التي سنتولاها، وبدأنا بتنفيذ بعضها... لكن ما حدث في العراق عامة والموصل على وجه التحديد من تضييق حرية الحركة، والظروف الأمنية القاسية التي عاشها الموصليون... دفعتنا إلى تجميد لقاءاتنا، بانتظار ظروف مناسبة أكثر مواتاة... كما تلقيت دعوة من سويسرا من المجلس العالمي للبحوث باعتباري عضواً في هيئته العليا... وقامت جامعة الخرطوم بترشيحي عضواً في هيئتها التنظيمية، لأنشطة التأصيل الإسلامي للمعرفة.

وأما ترشيحي عضواً ممثلاً للهيئة التدريسية في جامعة صلاح الدين بأربيل، وفي الهيئة المركزية للترقيات العلمية، فقد أصابني بهمّ كبير خشية مداخلاته السياسية، ولأنني فطرت على كراهية المناصب، فانتهزت فرصة إجراء المداخلة الجراحية لقلبي وقدمت طلباً بالاعتذار عن الاثنتين، ولا تسل عن الفرحة التي غمرتني لدى تلقي نبأ قبول استقالتي... وثمة دعوة لتكريمي في المغرب لم أقدر على تلبيتها بسبب تعارضها مع موعد سفري للحج عام (١٩٩٨م).

العديد من رسائل الأدباء المغاربة تعتبرني أستاذاً لهم... مركز أسلمة

المعرفة في فيرجينيا بالولايات المتحدة، يقيّم كتابي (تحليل للتاريخ الإسلامي) (١٩٨٧م)... إذاعة مغربية تشير إلى كتابي (مقال في العدل الاجتماعي) وتستشهد بمعطياته عبر حوار حول الموضوع (١٩٨٧م)، تقييم سخي لكتابي (قالوا عن الإسلام) من مفكر إسلامي كبير (١٩٨٧م)... الدكتور عمر الطالب يشير إلى أن فكري المتميز بالأصالة هو سبب انتشاري في المغرب (١٩٨٧م)... نشر العديد من مقالاتي كافتتاحيات لمجلة (المسلم المعاصر) (١٩٨٧م)، نبأ خاطئ عن وفاتي (في نيسان ١٩٨٧م) يصل تونس فتتدفق علي من هناك جملة من رسائل النعي يصفني أصحابها (بالعملاق)، وأن كتاباتي تحرك الهمم الخامدة وتنفخ فيها النار، وأن خبر الوفاة يصيب بالحزن قسماً داخلياً بكامله في تونس... تقييمات عديدة أتلقاها من عدد من الكتاب والأدباء والمثقفين... فثمة رسالة تصلني من الأخ الشاعر المغربي حسن الأمراني الذي يحضر للدكتوراه في باريس عن الأدب العربي يقول فيها: (بلغني أن روايتك (الإعصار والمئذنة) قد نزلت إلى السوق المغربية ونفدت في فترة وجيزة جداً... وقد زارني أحد الأخوة من المغرب، وقد قرأ الرواية بإعجاب كبير، وكان ذلك هو الانطباع العام الذي تركته الرواية في أنفس القراء، بعد ما اقترب من قراءتها بحذر شديد وتساؤل ضخم: أيمكن للدكتور عماد الدين خليل المبرز في التاريخ والنقد والمسرح والشعر أن يوفق أيضاً في الرواية؟ وقد كان الرهان صعباً، فإن الإحسان في كل ضروب القول، أو حتى في بعض ضروب القول أحياناً مما تنقطع دونه الاعناق، ولكن بحمد الله ﷻ، كان التوفيق أكثر مما يتوقع، وقد جعلني هذا الحديث أشدّ شوقاً إلى قراءة روايتك)...

ورسالة الناقد المغربي الدكتور محمد إقبال عروي يقول فيها: (يخيل إليّ كثيراً أنكم تملكون زمناً خاصاً، وأن اليوم عندكم كألف ساعة مما نعد، وإلّا كيف لم تنسوا مد القنوات العديدة التي تمتص قسطاً كبيراً من جهدكم ووقتكم؟ وكيف وكيف؟ إن الفضل ـ بعد الله ﷻ ـ يعود إليكم في تلمّس طريق الأدب الإسلامي، ومن ثم كيف يحلو لتلميذ أن يرفع صوته بين يدي أستاذه؟)...

ورسالة من الناقد الدكتور حلمي القاعود يقول فيها: (أنني واحد من قلة مؤمنة ومخلصة للأدب الإسلامي في إطاره الناضج والفعال، وتشغله دائماً قضية المواجهة مع الأدب المنحرف... وكانت حركته في اتجاهين متكاملين: مجال الإبداع فكتب القصيدة والمسرحية، ومجال المتابعة فكتب وتناول كثيراً من الأعمال الأدبية، التي تنطلق من مفهوم إسلامي، وتصدى لأكثر من عمل أدبي يهدف إلى تدمير الشخصية الإسلامية)...

وأخرى من طالب في دار العلوم في القاهرة حول تصحيح كتاباتي للمسار الإسلامي، وإزالتها للازدواجية بين الأصالة والمعاصرة، وإزاحتها للغيوم التي أحاطت بالتاريخ والفكر الإسلامي وما تتميز به من إخلاص...

الدكتور عمر الطالب يقدم تقييماً سخياً لمسرحيتي (المغول)، ويعتبرها عملاً متقدماً ومقنعاً وأنها من أحسن أعمالي، كما أنها تدل على قدرتي على تطوير كبير لأداتي المسرحية...

ورسالة من مثقف جزائري يقول فيها: (حقيقة أن الله ﷻ منّ علينا بالخير الكثير الذي نستحسنه ونذكره؛ أن جعلنا نتشرف بلقائكم والاجتماع بكم من خلال كتبكم القيمة التي تزخر بها المكتبة الإسلامية والعربية، والتي كانت لنا مفتاحاً لباب المعرفة... ونحن نقر ونشهد لكم بالدور العظيم الذي ما فتئتم تقومون به في ظل الدعوة الإسلامية، وإننا لنقدّر فيكم روح البذل والعطاء. لقد تأسفنا أشد الأسف لعدم حضوركم لملتقانا للفكر الإسلامي العشرين... وقد علمنا من وزارة الشؤون الدينية أنه قد وجهت إليكم الدعوة للمشاركة، وأرسلت عن طريق وزارة الخارجية... وهذا ما أدى بنا إلى التساؤل عن أسباب غيابكم، ونحن إذ نهتم بهذا فلأننا تحدونا في ذلك روح التقدير لفضيلتكم، والاشتياق لسماع محاضراتكم القيمة ذات الأهمية الكبرى. وهذا ليس من باب المبالغة، وانما هي الحقيقة التي تكمن في قرارة نفس كل أخ أو أخت حضروا إلى ذلك الملتقى، ولا يزالون يحضرون مثله من الملتقيات...).

ورسالة من أديب مغربي يقول فيها أنه يعتبرني المدرسة الرابعة التي

تخرج فيها بعد المنفلوطي والرافعي وسيد قطب، وأنه أخرج مسرحيتي (معجزة في الضفة الغربية) فنالت نجاحاً كبيراً، ويقيم روايتي (الإعصار والمئذنة) باعتبارها (رائدة) وكذلك مسرحية (المغول)...

رسالة من عدد من الطلبة السودانيين الجامعيين تعرب عن تقييمهم البالغ لكتابي (التفسير الإسلامي للتاريخ)، واعتبارهم إياه منطلقاً فكرياً وحركياً للإسلاميين في الفترة الراهنة...

ورسالة من أستاذ هندي تؤكد اعتماد مقدمتي لكتاب الشيخ الندوي عن السيرة في الطبعة القادمة، وتحمل سلاماً عطراً من الشيخ نفسه الذي سبق وأن اقترح أن أتولى كتابة مقدمة لكتابه...

رسالة من البروفيسورة الأمريكية إيفون حداد تقيّم فيها كتابي (التفسير الإسلامي للتاريخ) وتعتبره مرجعاً مهماً للعديد من أبحاثها.

الأستاذ الدكتور توفيق الطويل يقيم كتابي (أصول تشكيل العقل المسلم) ويبدي إعجابه برؤيته، والأستاذ الدكتور حسن شلبي يقيم كتابي (مدخل إلى التاريخ الإسلامي)، والدكتور الشيخ يوسف القرضاوي يقيم كتابي (ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز)، والناقد المعروف الأستاذ الدكتور أحمد بسام ساعي يقول بأنه على مكانته المتقدمة في ميدان النقد إلا أنه عندما يجد نفسه قبالتي يصير قزماً!! (وحاشاه)، والداعية الكبير الدكتور طارق سويدان يعلن في حوارياته التلفزيونية عن تلمذته على كتاباتي، ويدعو جماهير متابعيه إلى التعلّم منها...

العديد من الإذاعات العربية والإسلامية والعالمية، عقدت لقاءات شتى تحدثت فيها عن مؤلفاتي: في لندن حيث قورن اسمي باسم سيد قطب، ومونت كارلو حيث كتبي الأكثر مبيعاً في معرض للكتاب الدولي في القاهرة، والكويت، وتونس، وطهران، وإسطنبول، والمغرب وبغداد وصنعاء والخرطوم... الخ... وفي استفتاء ثقافي جرى في تونس في ثمانينيات القرن الماضي، عن أكثر الكتاب الإسلاميين إقبالاً جماهيرياً في العالم الإسلامي كله، وضع اسمي سادساً بين

حشد من الكتاب المعروفين، كما تم تقييم كتابي (مدخل إلى الحضارة الإسلامية) من قبل مؤسسة أراميكس ميديا في عمان، واحداً من أفضل عشرة كتب في العالم عام (٢٠٠٥م)...

وثمة تعليق للدكتور حسن الأمراني يرد في مقدمته للكتاب الذي أصدره المعهد العالمي للفكر الإسلامي بعنوان (المداولة في أعمال عماد الدين خليل) وهو في الأصل أطروحة دكتوراه من إحدى الجامعات المغربية في الدار البيضاء أنجزها الأخ الباحث سعيد لغزاوي، ما يلي: (مهما يكن من أمر فإن القارئ المتخصص قد يخالف الباحث في بعض اجتهاداته، إلا أنه لا يملك في نهاية الأمر إلا أن يكبر هذا الجهد العظيم الذي بذله في قراءة أدب علم من أعلام الأدب الإسلامي المعاصر، إبداعاً وتنظيراً، وأن يقدر هذه النتيجة التي استخلصها، فوضع بذلك في يد القارئ مفتاحاً حقيقياً يمكنه من قراءة أدب عماد الدين خليل، في جميع مظاهره وتجلياته، قراءة تمكنه من كشف أغوار أدب رجل عملاق).

العديد من المعنيين بالهمّ الثقافي أخذوا يطلقون عليّ لقب (العلّامة) وأنا أرفض هذا الذي لا أستحقه، حتى أن الأخ الدكتور مهند العاني الذي تولى تصميم موقع لي على الإنترنيت أراد وضعه تحت عنوان (العلامة الدكتور...) وأصر على ذلك، لكنني رفضت عرضه بشكل قاطع واخترت عنوان (موقع الأستاذ الدكتور...) وكذلك فعلت مع الأخ الدكتور زكريا الملكاوي الذي سبق وأن منحني مساحة على موقعه (الفكر الحرّ)... فمن أنا حتى أستحق هذا اللقب؟!

وفي رسالة على الإنترنيت تلقيتها من الأخ المؤرخ الأديب الأستاذ الدكتور أحمد الحسّو يقول فيها:

أمضيت أياماً سحبتني فيها (تأملات في الكتابة والإبداع) إلى البدايات قبل سبعة عقود، واستمر بي المطاف إلى أيامنا هذه، وأنا وأنت في مرحلة عمرية نحمد الله أنها لما تزل ذات حيوية.

أرفق لكم مع هذه الرسالة تعقيباً متواضعاً عن تأملاتك الجميلة والفنية والمفعمة بالكثير.

كنت أحسب أنني قادر على أن أكتب لك بعد وصول رسالتك بيومين اثنين، ولكن النص ثر ومليء بما اقتضى مني تأملاً وتوقفاً وأنا أشهد تجربة صدقك ونقائك.

قرأت كل شيء بتمعن، ووقفت كثيراً عند قناعاتك الخاصة في موضوعات عامة، فإذا أنا أمام زخم كبير من الثمار المهمة، والتي تعكس كل مفرداتها كماً ونوعاً كبيراً من المعلومات، وقد وجدت الصادق الأول قبل سبعين عاماً هو ذاته الصادق الدائم الآن.

تمنيت ـ وأنا أقرأ ـ أن يتسع الحديث، فهو يشعر بأهمية وضرورة تفصيل ما لم يفصّل فيه... فلعلك تجود علينا يوماً بمفصّل يبدأ بخطواتك الأولى وأنت تمر عبر دروب بيتكم الذي أحبه قرب جامع خزام...

تجربتك غنية وثرية، وأفكارك متفردة من حيث النمط الذي اتخذته مؤمناً به ومتفاعلاً معه، ومن حق نفسك عليك وحق الآخرين عليك ألا تكتفي بإيماء.

كلما قرأت لك، أو مر أمامي ذكر لكتاب جديد لك؛ كنت أتوقع أن يأتي تكريم لك من هذه الجهة أو تلك... ثمانون كتاباً ومئات المقالات وأعمال أكاديمية معروفة كانت وما تزال تستحق الكثير... ومع ذلك فإنها حظيت بما هو أهم، وهو تقييم يتمثل بقرائك ومحبيك عبر المعمورة، وقد أشرت أنت إلى أنهم سندك وقاعدتك؛ وإنك لمحق.

إن إنجازاتك أكبر من أن يغطي عليها أحد، وهي من السعة والانتشار ما يفتخر به، أما التجاهل لها من قبل البعض سواء في المدينة أو غيرها؛ فهو انعكاس لغياب الجو الثقافي النقدي في عصر متعب مترهل. نحن نعيش في عالم من التسطيح الثقافي وسيادة الجهالة التي تلبس لبوس العلم. تصور لو أنك كنت في وسط ثقافي علمي كبير متفاعل، أكان رد الفعل سيكون مساوياً.

فاقد الشيء لا يعطيه كما لا يخفى عليك.

لقد قدمت يا سيدي العزيز عصارة فكرك ورائع كلمك وحسبك ـ كما عبرت ـ أنك ابتغيت في ذلك مرضاة الله وأنك حاولت أن تغير واقع المجتمع.

كثير من الكتاب يؤلفون وينشرون الكثير إلا أنهم يغادرون كتاباتهم ويدعونها تفعل فعلها في ساحة المتلقي، وثمة آخرون يفعلون الفعل ذاته بيدَ أنهم لا يغادرون ما يكتبون، فالحرف الأخير لديهم هو الوليد الطبيعي لكل آفاق التجربة الفكرية التي ابتدأت بالحرف الأول.

إنهم يحيون ما يقولون، بل إن حياتهم بكل تموجاتها تأخذ ذات الأبعاد في تجربتهم الفكرية والأدبية بين الحرف الأول وآخر الحروف استمراراً نحو تشكيل حروف المستقبل.

هذا ما أحسسته وأنا اقرأ بشغف (تأملات في الكتابة والإبداع) للمؤرخ المفكر الروائي الأستاذ الدكتور عماد الدين خليل.

عشت معه وهو يصور مسار الفكرة لديه ويحدد أبعادها وأوجهها، ثم وهو يقلبها يمنة ويسرة حتى إذا وصل إلى قرار، صنع منها معماراً متناغماً حاول جاهداً أن يجعله (مقنعاً في نسبه وأبعاده ومساحاته...).

بيد أن هذه المعمارية الفكرية في أدبيات الدكتور عماد لها طابعها الخاص، فهي لديه دونما جدوى ما لم تكن (مرآة لكلمة الله في العالم... لوحدانيته جلّ في علاه، ولحاكميته التي كانت الأديان كلها، وخاتمها الإسلام، تعبيراً عن بعدها الأول والأخير: أن يكون منهاج العمل في هذا العالم قادماً من فوق... من عند الله).

عبر هذا المنظور، نشأت التجربة الفكرية لدى الدكتور عماد منذ بدايات مراحل حياته، وظلت تعتمل في عقله ووجدانه مرحلة فأخرى حتى يومنا هذا.

وإذا كان لكاتب هذه السطور الذي كان شاهداً على كثير من محطات هذه التجربة الثرة، أن يقول كلمته عنها؛ فإنه يشهد أن مالك ناصيتها الدكتور عماد الدين خليل كان عاشقاً للحقيقة باحثاً عنها مخلصاً لها متجرداً إليها.

إنها تجربة حية لم تتخلّ عن محتدمها بدءاً وانتهاء؛ رسماً للخيوط

النهائية وإضفاءً لتصوراتٍ مستجدةٍ، وولادةً لرؤى جديدة في إطار نظرة واضحة للعلاقة بين الإنسان والكون والله.

في أول تأملاته التي عنوانها (البحث عن اللغة) وجدت نمطاً من المسؤولية أصبحت مغيبة في عصرنا هذا مع الأسف... مسألة الغوص في اللغة وفقهها والبحث خلالهما عن التوأم الأكثر اقتراباً مما يعتمل في العقل والروح، وعاء قادراً على الوصول إلى المتلقي بأمانة دقيقة.

بيد أن التعامل مع اللغة عند عماد الدين خليل ظل مع ذلك، قلقاً بين اختيارين؛ الكتابة بلغة مبسطة تتلاءم مع ثقافة الجماهير العامة، أو الكتابة بلغة أكاديمية ترضي شرائح المثقفين والمتخصصين.

إن من يقرأ كتب الدكتور عماد الدين؛ وهي غزيرة ومتنوعة، يدرك تماماً أنه نجح إلى حدٍ كبير في اختيار اللغة والأسلوب اللذين جاءا حلاً وسطاً لهذه الإشكالية، ضمن له ارتباطاً عميقاً وواسعاً مع قاعدة واسعة من قرائه ومحبيه، بل إن كتاباته كانت مثار اهتمام كبير حتى من أولئك الذين اختلفوا معه.

لقد أحسن الدكتور عماد الدين في تناوله لأبعاد تجربته الفكرية وأسرارها وخلفياتها وردود الفعل تجاهها ودوره فيها، والواقع أن ما كتبه يقدم نصاً سيأخذ مكانته ضمن أدب الترجمة الذاتية في عصر الحداثة.

وبعد... فإنها لسعادة غامرة، أن أقرأ بل أعيش كل كلمة في تأملات الدكتور عماد الدين، وكم آمل أن يتاح للكاتب الفاضل والصديق العزيز، أن يتوسع فيما أوجز، وأن يوضح ما أومأ، فالمرحلة التي عاشها وعشناها معه غنية وحمّالة أوجه.

ولا بدّ لي في ختام كلمتي هذه أن أقف عند عبارات وردت في متن هذه التأملات، ومنها:

(أحترق بنار التجربة... النار التي تنزّ في جملتي العصبية... الهاجس نفسه يلحّ عليّ، ويتقلب بي، كالموج الصاخب... إنها مأساة الرغبة في التحسين... رحلة الذبول والانطفاء... كنت أعتصره حتى الثمالة... بلغت غورها

العميق وأدركت سرّها المخبوء... الفضاء الرؤيوي...) فإذا أنا أمام حالة من غوص متأجج وعنفوان لا نهاية له، لرجل كان شاعراً وروائياً ومؤرخاً في آن واحد.

وعبر رحلاتي إلى خارج العراق لحضور المؤتمرات وإلقاء المحاضرات، تلقيت على لسان القائمين عليها جملة من التقييمات والعروض... و... و... والحديث في هذا الموضوع يطول، ويكفي أن يصفني العديد من المعنيين بالهمّ الثقافي بأني (عقاد) العراق و(سيد قطب) العراق.. وحاشا لله... وبخاصة بالنسبة لثانيهما، الذي لا زلت أعتبر نفسي تلميذاً مخلصاً ومتواضعاً له ولأفكاره المتميزة... لاسيما ونحن الثلاثة مارسنا التأليف الغزير، وبالقوة نفسها، في السياقات الثلاثة: الفكر، والتاريخ، والأدب (تنظيراً ونقداً وإبداعاً)...

ولقد لقيت مؤلفاتي رواجاً كبيراً بفضل الله ﷻ، وتوفيقه، وطبع كل واحد منها أكثر من مرة، حتى أن أحدها (وهو دراسة في السيرة) طبع ما يقرب من العشرين مرة... فلا أدري كيف أزجي شكري وامتناني لله الذي أعانني على هذا التوفيق... ولجماهير القراء والمتابعين التي لولاها لما قدرت على مواصلة الطريق...

ما كتب وقيل عني وعن أعمالي في الصحف والمجلات والبحوث والمؤلفات ورسائل وأطروحات الدراسات العليا... وفي الإذاعات والفضائيات... وعبر الحواريات والندوات والمؤتمرات... وفي قصائد الشعراء... يغطي مساحة واسعة جداً... ولا زلت أحتفظ بإضبارة ملأى ببعض هذا الذي قيل... ولكني آثرت عدم إدراجه في سيرتي الذاتية هذه خوفاً من تضخم صفحاتها والتي جاوزت السبعمائة... فضلاً عن تحسّبي الذي يمسك بخناقي، وهو التخوّف من الانسياح وراء إغراءات (الأنا) التي سيحاسب عليها بنو آدم يوم الحساب... ولذا اكتفيت بإيراد بعض الشواهد فحسب.

وطالما سألني أصدقائي عن السبب في التعتيم على حضوري في الساحة العراقية، في الوقت الذي حققت فيه ذلك الانتشار الواسع في سائر البلدان

العربية والإسلامية والغربية... فكان جوابي أنه فضلاً عن حصار السلطة في العراق؛ فإن معظم أعمالي نشرت خارج بلدي، ولم يدخل منها إلى العراق إلا القليل، وأنا أتذكر المثل المعروف أن (لا كرامة لنبي في وطنه)... ومع ذلك فقد شكلت في العراق جمهوراً عريضاً من متابعي محاضراتي ومُلاحقي أعمالي ومؤلفاتي، كما كتب عنها في الجامعات العراقية العديد من رسائل الماجستير وأطروحات الدكتوراه.

عملت على مدى خمسين عاماً محاضراً في العديد من الجامعات والكليات العراقية والعربية والإسلامية والأوربية، من مثل: جامعة الموصل، جامعة صلاح الدين، جامعة محمد بن سعود الإسلامية، جامعة العين، جامعة قطر، جامعة صنعاء، جامعة العلوم والتكنولوجيا في صنعاء، جامعة الزرقاء الأهلية، كلية دبي للدراسات الإسلامية والعربية، جامعة عجمان، جامعة زايد، جامعة جرش، جامعة اليرموك، الجامعة الأردنية، مركز الدراسات الإسلامية في أكسفورد، الجامعات المغربية، جامعة الزقازيق، جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية في السودان، جامعة الجزيرة الوسطى في السودان، جامعة أم درمان في السودان، كلية الإلهيات في إسطنبول، الجامعة الإسلامية العالمية في كوالا لامبور، كلية الدراسات الإسلامية في فرنسا، جامعة البحرين العالمية... الخ... فضلاً عن عدد كبير من مراكز البحوث والمؤسسات الفكرية والثقافية.

شاركت في إنجاز عدد من الأعمال العلمية لبعض المؤسسات ومنها: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في تونس، مركز الدراسات الإسلامية في أكسفورد، المعهد العالمي للفكر الإسلامي في فيرجينيا، الندوة العالمية للشباب الإسلامي في الرياض، مكتب الأردن للمعهد العالمي للفكر الإسلامي. كما ساهمت في صياغة مناهج التاريخ لعدد من الجامعات منها: جامعة الموصل، جامعة صلاح الدين، جامعة العلوم والتكنولوجيا في صنعاء، الجامعة الإسلامية العالمية في ماليزيا، المعهد الأوربي للدراسات الإسلامية في فرنسا.

أنجزت العديد من المواد العلمية والثقافية في التاريخ والحضارة والفكر

والأدب للموسوعات العربية والإسلامية ومنها: موسوعة دار الشروق في القاهرة، الموسوعة العلمية المتطورة في مدريد، موسوعة التاريخ والحضارة الإسلامية في القاهرة، موسوعة مؤسسة الوقف القرآنية في إسطنبول، والموسوعة الدينية في بيروت.

شاركت في عضوية اللجان الاستشارية لهيئات تحرير عدد من المجلات العلمية والفكرية المحكمة ومنها: مجلة المسلم المعاصر (مصر)، مجلة الإنسان المعاصر (لبنان)، مجلة المنعطف (المغرب)، مجلة إسلامية المعرفة (ماليزيا)، مجلة الدراسات الإسلامية (الباكستان)، مجلة التاريخ الإسلامي (الهند)، مجلة كلية الشريعة والقانون والدراسات الإسلامية (الإمارات العربية المتحدة)، مجلة النور (تركيا)، مجلة العلوم الإسلامية لجامعة الموصل (العراق)، مجلة كلية التربية الأساسية لجامعة الموصل (العراق).

أشرفت وناقشت العديد من طلبة الماجستير والدكتوراه في التاريخ الإسلامي، والاقتصاد، والأدب.

كتب عن أعمالي عدد من رسائل الدبلوم والماجستير وأطروحات الدكتوراه في العديد من الجامعات العراقية والعربية والإسلامية.

تُرجمت بعض مؤلفاتي إلى عدد من اللغات وبخاصة الإنكليزية والفرنسية والتركية والفارسية والكردية والإندونيسية.

نشرت عشرات البحوث في العديد من المجلات العلمية والأكاديمية والمحكمة ومنها: سومر (بغداد)، المؤرخ العربي (بغداد)، المورد (بغداد)، مجلة المجمع العلمي العراقي (بغداد)، آداب الرافدين (الموصل)، المسلم المعاصر (القاهرة)، إسلامية المعرفة (ماليزيا)، التجديد (ماليزيا)، العلم والإيمان (الخرطوم)، مجلة جامعة أم القرى (مكة المكرمة)، المنعطف (المغرب)، الإنسان (باريس)، الدراسات الإسلامية (باكستان)، مجلة التاريخ الإسلامي (الهند)، آفاق الثقافة والتراث (الإمارات العربية المتحدة)، حولية كلية الشريعة والقانون والدراسات الإسلامية (الدوحة)، عالم الفكر (الكويت)،

مجلة مركز الوثائق والدراسات الإنسانية (الدوحة)، الآفاق (عمان)، مجلة الأدب الإسلامي (الرياض)، مجلة المشكاة (المغرب)، مجلة حراء (إسطنبول).

نشرت مئات المقالات والبحوث الثقافية والأعمال الأدبية (دراسة وتنظيراً ونقداً وإبداعاً) في سبعين مجلة وصحيفة عربية وإسلامية وأوربية، فضلاً عن عشرات المقابلات الصحفية.

حصلت على العديد من التقييمات من دوائر وجامعات ومؤسسات شتى، كان من بينها: حصولي على جائزة الدولة التقديرية لرئاسة دولة السودان عام (٢٠٠٥م)، وجائزة جامعة الزرقاء الأهلية لأفضل كتاب عن عام (٢٠٠٣م)، واعتبرت الأستاذ الأول في جامعة صلاح الدين في أربيل عن عام (١٩٨٩م)، كما قيّم كتابي (مدخل إلى الحضارة الإسلامية) من قبل مؤسسة أراميكس في عمان واحداً من أفضل عشرة كتب في العالم لعام (٢٠٠٥م).

هذا إلى أنني تلقيت عبر حياتي العديد من قصائد التقييم والتكريم من حشد من الشعراء لا يتسع المجال لإيراد نماذج منها:

- مؤسس وعضو في رابطة الأدب الإسلامي العالمية.
- عضو في الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين.
- متزوج منذ عام (١٩٧٢م) ولي ولد (محمد) وابنتان (مها) و(علا).

ثم ها إنني أدعو قرّائي الأعزاء لكي يبدؤوا قراءة سيرتي الذاتية بأبيضها ورماديّها وأسودها على السواء، فلعل في خبرات الآخرين ما يعين المرء على تجاوز الأخطاء والعثرات ما وسعه الجهد، وتبيّن معالم الطريق...

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.






القسم الأول

رحلتي مع الحياة




الفصل الأوّل

١٩٤١ ـ ١٩٥٣م

أحاول أن أمسك بخبراتي المبكرة الأولى فلا أستطيع... أُعمل ذاكرتي لالتقاط مرئياتي ومشاهداتي فلا أكاد أصل إلى شيء... كيف يقدر الإنسان، مهما أوتي من قدرة على استعادة ماضيه البعيد، أن يسترجع شيئاً ولو محدوداً من زمن بعيد... بعيد... من سنيّ ولادته الأولى، الثلاث أو الأربع، إلا أن يملك عقلاً استثنائياً يخترق حجب الزمن وضبابه الكثيف، من أجل استعادة تخيّل ما كان عليه؟

ومع ذلك ثمة خبرات مبعثرة لا يربطها رابط، ولا يمسك بها خيط، تخترق الذاكرة مؤكدة حضورها الملحوظ، بعضها يتشكل من رؤى مباشرة علقت ـ لا أدري لماذا ـ من بين عشرات الرؤى ومئاتها، في الذاكرة، وبعضها الآخر ترسّب في العقل، فيما بعد، من خلال الأحاديث المكرورة التي كانت العائلة تستعيدها بين الحين والحين... فلا بأس.

أنا من مواليد عام (١٩٤١م)، وليس (١٩٣٩م) كما هو مدوّن في شهادة ميلادي... لا أدري لماذا؟ ففي ذلك الزمن كان بمقدور الآباء أن يحدّدوا تواريخ ميلاد أبنائهم دون اعتراض من لدن الدوائر الرسمية... ودون تدقيق... وقد يكون هذا الاختزال الذي يبلغ السنتين على طولهما، رغبةً من الآباء في تكبير أعمار أبنائهم لإدخالهم المدرسة وقد بلغوا السادسة من العمر... وطالما سمعت من أبي أنه أراد توظيف علاقاته الوثيقة بمدير المدرسة الابتدائية ومعلميها، لكي يقنعهم بقبولي في المدرسة ولما أتجاوز الخامسة من العمر، وأن مدير المدرسة وافق ـ على مضض ـ ولكنه حذّر والدي من أن رسوبي في

الصف الأوّل أمرٌ محتوم، وأنه لن يقبل بهذا الخصوص أية وساطة، ليس فقط لأن قبولي وأنا في الخامسة من العمر أمر يخالف التعليمات، بل لأن بديهيات التربية تتطلب مرحلة معينة من العمر لتلقي المعلومات بشكل صحيح، ولقد قُبلت في ضوء تلك التحذيرات، ثم ما لبثت أن فوجئت في نهاية السنة الدراسية الأولى ـ والحديث لأبي ـ بالمدير يدخل عليه الدكان ويخيّره بين إنجاحي أو ترسيبي، وأنه يفضل الثانية من أجل ـ كما كان يقال يومها ـ تقوية (سوادي) أي لغتي في الكتابة، فما كان من أبي الا أن يعلن موافقته...

وكانت تلك السنة هي السنة الأولى والأخيرة التي ذقت بها مرارة الرسوب في حياتي كلها، ولكنها ـ والحق يقال ـ كانت واحدة من أمتع سنوات دراستي على الإطلاق، حيث لا زلت أذكر معلمنا الأستاذ رؤوف زين العابدين، الذي كان يتولى تعليمنا المواد كلّها، أسوةً بتقاليد التعليم يومذاك، وهو يدخل إلى الصف ـ في مدرسة الوطن الابتدائية ـ لكي يقسم الدرس اليومي إلى قسمين: قسم يمارس فيه التعليم، وقسم آخر يمارس فيه الترفيه، إما بإسماعنا واحدة من روايات جورجي زيدان التاريخية، حيث كان يعرف كيف يقطعها، فيلقي علينا جانباً منها، يقف عند نقطة متوترة منها، لكي يجعلنا مشغوفين بانتظار اليوم التالي لكي يواصل الحديث. وإما بإجراء مسابقات (المحيبس) بأن يقسمنا إلى قسمين لممارسة اللعبة... وإما أن يخرج بنا من الصف إلى ساحة النبي شيت المجاورة للمدرسة، لكي نمارس هناك بمعيته لعبة كرة القدم، حيث كان ـ رحمه الله ـ من ممارسيها الذين يشار إليهم بالبنان!! ولا زلت أذكر إعجابنا ودهشتنا وهو يضرب الكرة بعنف فما تلبث أن تحلّق في الهواء بعيداً، فيما كانت أقدامنا الصغيرة غير قديرة على فعل ذلك.

ولا زلت أذكر ـ كذلك ـ كيف كان لدى دخوله الصف ينادي على المراقب (إسماعيل) الذي كان يلقبه بـ (مسمّوعي البنا) قياساً على بائع خمر في شارع الدوّاسة القريبة من المدرسة، فيسلمه فلسين، ويطلب منه أن يهرع إلى البقال (زيدان) المجاور للمدرسة لشراء قطعة من (قمر الدين) وكيف

كان يمتصها بشغف ونحن ننظر إليه، يكاد لعابنا يسيل تشهياً لهذه اللقمة الطيبة.

بعدها ـ وقبل أن يبدأ الدرس ـ يطلب من التلميذ (جلمان) وهو ابن عامل في ملهى ليلي في باب السراي، أن يغني أنشودته التي تعلمها ـ كما يبدو ـ من حضوره ليالي الملهى الذي تختلط في أدائه اللغات كافة: عربية وفارسية وكردية وتركية... (جك بم زلاطة: جك بم زلاطة... عيني ما تأخذ نوم... جك بم زلاطة)... ثم يجلس... وكأن ما أنشده ـ وهو يتمايل ذات اليمين وذات الشمال مقلداً حركات الراقصات ـ هو السلام الملكي أو الجمهوري الذي تفتتح به المناسبات.

ولا زلت أتساءل لحدّ الآن... كيف يبيح معلمنا لنفسه أن يسحق نصف وقت الدرس في هذه الألاعيب، وأين هو مدير المدرسة، الأستاذ بشير الدليمي، بقوة شخصيته، وإدارته الحازمة؟ كيف يسكت على تصرفات معلمه هذه؟ ولعلّ الجواب الوحيد يكمن في قدرة (رؤوف زين العابدين) على توظيف إمكانياته الرائعة في التعليم، وذلك بالاكتفاء بنصف الدرس، فيما تذهب إليه أحدث النظريات التربوية، وفيما يسمى بالاقتران الشرطي، حيث يلتحم الجدّ باللعب، فيجد الأطفال سعادتهم بهذا الالتحام، وترسخ المعلومات التي يتلقونها عن معلمهم ذاك... ربّما!!

ها أنا ذا أمارس نوعاً من التزييف وأنا أتحدث، وأسترجع خبراتي المبكرة، إذ ما ألبث أن أجد نفسي تنزاح قليلاً في مجرى الزمن لكي تذهب للحديث عن خبرات السنة الخامسة من العمر... إذن أين ذهبت الخبرات الأخرى الأكثر إيغالاً في الزمن؟!

ليس ثمة سوى الشتات، فيما يبدو أنه قدر كل إنسان في هذا العالم... جدّي لأمي محمد بن الملا حسن أفندي البزاز... الشاعر المعروف الذي كانت قصائده تغنى على أحواض المنائر في أمسيات رمضان، والذي توفي شاباً بعشقه لرسول الله ﷺ وكتابته القصائد المؤثرة في مديحه... يدخل جدي

الدار عصراً، عائداً من عمله في سوق البزازين، وهو يتلفع بعباءة سمراء تغطي ثوبه الداخلي المقلّم، ويشد على رأسه عمامتين من القماش الأبيض... يمدّ يده إلى المنديل الذي كان يحمله، فيستخرج منه قطعة من السكاكر ويسلمني إياها وأتلقاها بشغف بالغ، ثم فجأة، ولا أدري في أية مرحلة من الزمن، أتذكر بيت جدّي، والحزن يخيّم عليه، والغادون والرائحون يجتازون فناءه لتأدية واجب العزاء بوفاة جدي ـ ﷺ ـ لمسة مبكرة من الأحزان التي كتبت علينا في هذه الدنيا، منذ لحظات ميلادنا المبكرة وحتى مغادرة الحياة... لكنها في تلك المرحلة لم تكن سكينها الحادة لتوغل في جملتنا العصبية التي لم تعتد على تلقي الأحزان، وهضمها، وتخزينها، واستعادتها بين الحين والحين.

أتذكر أيضاً تلك اللحظات الكئيبة، عندما أيقظوني وأخي الأكبر (مظفر)، حيث كنا ننام عبر ليالي الصيف في سطح المنزل... وجرّوني جرّاً إلى الطابق الأرضي، حيث فوجئت بوالدتي تجلس على حافة درج السرداب، وقد خطف لون وجهها وأصبح شاحباً بأكثر مما يجب، والدموع تنساب من عينيها بهدوء... وحركة غير معتادة من الغادين والرائحين في فناء الدار... لم أدرك لحظتها ماذا جرى... ولكني ـ بالعكس ـ قبضت يوميتي من أمي التي دفعتني وأخي خارج البيت قائلةً بصوت مختنق: اذهبا إلى بيت جدكما لكي تمارسا اللعب هناك...

ولسذاجتي يومها ـ ورغم أنني شاهدت أمي رأي العين تجلس على عتبة السرداب ـ إلا أنني قلت لأخي الذي كان يمسك بيدي في طريقنا إلى أوّل بقال في محلة باب لكش، والذي قال لي أن أمي هي التي منحتنا هذه اليومية... أليست أمي هي التي ماتت؟! فما كان منه إلّا أن يلتفت إلي وقد أحمرت عيناه من البكاء: إنها أختك سناء!!

لا زلت أذكر سناء... آية من آيات الله في جمالها، وفي حركاتها التي كانت تحببها للأقرباء والبعيدين. كانت في السنة الثالثة من العمر: بشعرها

الذهبي الأصفر... وبياض بشرتها... وبعينيها اللتين اختلطت فيهما بنسبة مدهشة الألوان الخضراء والبنية والزرقاء!!

لقد سحرت سناء كل من عرفها... وكان عمي (إسماعيل) أشد المعجبين بها... يمرّ يومياً، وهو في طريقه إلى المحل الذي يبيع فيه التحافيات في شارع غازي، فيأخذها معه إلى هناك، ويعود بها ظهراً إلى البيت... ولا زلت أذكر كيف دخل البيت لدى سماعه نبأ وفاتها، وهو يضرب وجهه بكلتا يديه... ويترنّح... حتى ليكاد يسقط مغشياً عليه... لم أكن يومها أدرك ما الذي جعله يفعل هذا... وكان يصرخ: سناء... سناء!!

ولا زلت أذكر كذلك خالي (يحيى البزاز) الذي كان مسافراً إلى لبنان... ثم ما لبث أن عاد... كان هو الآخر يحب سناء حباً يصعب وصفه... قلّب بصره في فناء الدار، وكان الوقت ضحى: وسأل جدتي وأمي: أين سناء؟ قالتا له: إنها لا تزال نائمة في السطح... فلم يقتنع بكلامهما، حيث كان وقت البقاء في السطح قد فات، فرفع صوته: أين سناء؟ لقد جلبت لها معي لعبة رائعة... فأين هي؟ وحينذاك لم تتمالك جدتي وأمي نفسيهما من الانفجار والبكاء... وأدرك خالي حينئذ أن فاجعة قد اختطفت حبيبته سناء، فراح يضرب وجهه وهو يدور في الفناء، ويذرف الدموع، صائحاً بصوت مختنق: كيف سمحتم لها أن تموت في غيابي... أما كان الأولى أن تنتظرني حتى أعود فأمسكها اللعبة بيدي هاتين، وأطبع على خدها قبلة؟ فكيف سمحتم لها؟!

كانت (سناء) ملاكاً يمشي على الأرض... كانت بدراً يمطر حياتنا بأجمل الأضواء... وكان غيابها السكين الأولى التي افترست الكثير من سعادتي... فواحزناه...

حاولت مراراً البحث عنها لعلّي أجدها... وكنت أخرج يومياً مع ابن خالتي (رضوان البزاز) إلى المقبرة القريبة من باب لكش، لكي نلاحق الفراشات الطائرة بين القبور علنا نعثر في إحداها على سناء... حيث كنا قد سمعنا بأن

أرواح الموتى الصغار تتربع في حناجر الطيور... ولكن دون أن نصل إلى شيء، فنرجع إلى الدار محزونين كسيري الجناح!!

أذكر أيضاً أمي، التي كان يحاصرها، بين الحين والحين، مرض كانوا يسمّونه (المخبّث)، كيف أنها كانت تضطجع الأيام الطويلة، وهي تعاني آلام المرض، وملامح الكآبة تغطي وجهها.. وتمتد... تمتد... حتى تظلل أجواء البيت كلّه... وكيف كان أخي الأكبر (مظفر) يجلس عند رأسها مواسياً وهو يبكي بصمت... وكيف كان أبي يستأجر عربة مما تجره الخيول، فيسحبها سحباً لكي يتجها إلى دار (السيد توحي)، كبير معزّمي الموصل، الذي كان يقرأ جملة من التعازيم وينفخ بها عليها، فتعود وقد زال المرض، الذي يظل يعاودها لعدة سنين... لمسة أخرى من لمسات الحزن، لكنها ـ والحق يقال ـ لا تقارن بالحزن على وفاة سناء...

ثم ما لبث أبي أن حوصر باثنتين: مرض جلدي يدعى (الخفيون أو الشفي) استمر يفتك به الأشهر الطوال... وداء الحصر النفسي الذي اعتصره لمدة سنتين... ولكم أن تتصوروا ملامح الكآبة الحادة عندما تحكم قبضتها عليه، فتضعه في دوّامة القهر والحصر التي تنسحب على أجواء البيت كلّه، وليس ثمة أمل في انفراجها عنه...

ولكنها رحمة الله... (غمة وانفرجت) كما كانوا يقولون، ويعود أبي بعدها إلى بشاشته ومرحه المعهود... فيغسل أجواء البيت مما علق بها عبر سنتي الحصار، من هم وغمّ واكتئاب...

أسمح لنفسي بالانزياح مرةً أخرى... ما دمت بصدد ضربات الحزن التي تلقيتها في طفولتي... وأنا عائد من الدوام الصباحي للمدرسة، وكنت يومئذ في الصف الخامس الابتدائي، إذا بي أفاجأ بأمي وقد خطف لون وجهها، وأخي الأصغر (نبيل) منطرح على الفراش دونما أية حركة على الإطلاق... تبين لي أنه وهو يمارس اللعب في زقاق المحلة ضربته دراجة هوائية بعنف على رأسه، فخّر صريعاً وفقد الوعي، وساد الاعتقاد بأن رجة دماغية قد حدثت له...

ولا أدري كيف تلقيت النبأ وأنا أجابه بأعز إنسان على قلبي... شقيقي (نبيل) تطحنه ضربة هوجاء كهذه... عدت إلى المدرسة في دوامها المسائي، ولا أدري كيف مضت ساعتا الدرسين الأوّل والثاني... إذ ما أن انقضيا حتى هرعت إلى البيت لا ألوي على شيء، والهواجس السوداء القاتمة تهيمن على مشاعري وأفكاري... ولكني ما أن وصلت البيت حتى وجدت أخي في غير الحال التي كان عليها... عادت إليه بشاشته وقدرته على الحركة... وتبين أن دماغه سلم من تلك الضربة القاسية، فكانت فرحة كبرى لم أذق لها طعماً في حياتي إلاّ نادراً...

والآن... عودة لتجميع شتات الوقائع والخبرات في المراحل المبكرة من حياتي...

ولدت ـ إذن ـ عام (١٩٤١م) في دار متواضعة في أحد أزقة محلة الشيخ أبو العلا... بعدها بعام أو عامين، استأجر أبي داراً قريبة بعض الشيء في محلة (السوق الصغير)، قريباً من جامع (التوكندي) لا زلت أذكرها جيداً، بفنائها الصغير، وغرفتها الواسعة التي تتصدره، وعلى يسارها سلّم ينزل بنا إلى سرداب عميق كنت أخشى الاقتراب منه خوفاً من الجن... وممن هو ألعن من الجن: الأفاعي المعمرة التي كانوا يسمونها (الألفية)، لأنها تعيش في اعتقادهم ألف عام... وقبالة تلك الغرفة مطبخ وحمام، وثمة درج يصعد إلى الدور الثاني الذي يتضمن غرفة أخرى، ثم يمضي صاعداً إلى السطح، حيث كان يعجبني أن اتسلق جداره المعدني الحادّ لكي أطل على المارة أسفل الطريق... وكانت المسألة فيها قدر كبير من المجازفة... ولهذا وجدت أبي يصعد ـ يوماً ـ مسرعاً ويصرخ بي أن أنزل... فلم أردّ عليه... فما كان منه إلّا أن سحبني بعنف، وإذا بحافة السياج الحادة تسحب معي جلد يدي اليسرى، حيث راح الدم يتدفق بغزارة ووالدتي تصرخ بأبي: ماذا فعلت؟! ولا تزال آثار تلك السحبة القاسية مطبوعة على باطن يدي، بعد مرور ما يقرب من السبعين عاماً... شهادة دائمة على عبث الصبيان.

مرةً أخرى، عبر أمسية شتائية رائعة، كنا في غرفة الجلوس الأرضية نتحلق حول النار، ونتناول الحلويات التي كان أبي يسخو علينا بها يومياً، وكان أخي الأكبر (مظفر) من أجل إغاظتي لا يستعجل في تناول حصته منها إلا بعد أن أنهي أنا حصتي... فما كان مني إلا أن أجلس بهدوء خلف ظهره، وأبدأ، بعد أن التهمت وجبتي، بسحب وجبته قطعة قطعة، وأتناولها، حتى لم أكد أبقي في جيبه شيئاً منها... فلما اطمأن إلى أنني قد أجهزت على حصتي، مدّ يده على جيبه لكي يبدأ هو التهام ما فيه، وإذا به يصرخ صرخة اجتازت لعنفها الدار إلى الخارج... لقد اكتشف أن محتويات جيبه قد أجهز عليها...

ما لبث أبي بعد ثلاث سنوات من سكنناً في محلة (السوق الصغير) أن اشترى داراً في محلة (جامع خزام) المتفرعة عن محلة (باب لكش)... داراً ـ على صغرها ـ إلا أنها كانت آية من آيات الفن المعماري الجميل، وحسن توظيف المكان... الفناء مبلط بالكاشي الملون، وعلى يساره درج يصعد إلى غرفة الجلوس المطلة على الزقاق، وآخر ينزل إلى (الرهرة) المفروش بالمرمر الأزرق... ثم إلى السرداب... وعلى يمينه درج آخر يصعد إلى الطابق الأعلى حيث تقوم غرفتا النوم، ومن ثم إلى السطح الذي كنا ننام فيه عبر أشهر الصيف كلها... أما في الجهة اليمنى من الفناء الأرضي فيمتد ممر طويل فيه المطبخ والمرافق والحمام...

لم تكن مساحة البيت تتجاوز الخمسين أو الستين متراً، لكن صاحبها المهندس عرف كيف يوظف كل شبر فيها، والحق أن أجمل سنوات حياتنا العائلية هي تلك التي قضيناها في هذا البيت بين سنتي ١٩٤٥ ـ ١٩٥٨ م، فيما عدا سنة واحدة غادرناه لكي نقطن، حسب توجيهات الأطباء لوالدي الذي كان يلازمه الحصر، في محلة الشفاء قريباً جداً من سور المستشفى الملكي الذي تحوّلت أراضيه فيما بعد إلى الكلية الطبية.

قضينا هناك عاماً بكامله، ثم ما لبثنا أن عدنا إلى بيتنا الجميل، الأنيق في (جامع خزام) بعد أن زالت الغمة عن أبي والحمد لله...

ثمة مساحات واسعة من جدران البيت كانت تزينها لوحات منقوشة بالألوان الرائعة للمناظر الطبيعية... والباب الخشبي الخارجي للدار كان مزيناً برأس تمثال محفور على الخشب، فيما لم يرتح له والدي بسبب حسّه الديني... ولا زلت أذكر يوم خرج صباحاً وفي يده فأس حادة، راح يهشم بها رأس التمثال!!

أما (الرهرة) التي ينزل إليها بالدرج، فكانت أشبه بغرفة أنيقة، كنا نقضي فيها أمسيات الشتاء متحلقين حول النار... وفي الصيف كنا لشدة برودتها نتناول فيها وجبتي طعام الظهر والعشاء، ونأخذ فيها قيلولتنا دون أن يزعجنا أي صوت طارئ على الإطلاق، كالذي يحدث زمن المبردات والسبالت والأجهزة الكهربائية.

ولدت لأب ينتمي إلى قبيلة طيء العربية... كان قبل زواجه، ربما في عام (١٩٣٧م)، يلبس الثوب المقلّم ذا اللمعان، والقبعة العثمانية الحمراء التي كنا نسميها (الفيس) مما كان دارجاً لدى أهل الموصل، تقليداً للزي العثماني، لكنه ما لبث أن تحوّل بعد الزواج إلى الزي الفرنجي: البدلة والحذاء، لكنه لم يشأ أن يترك رأسه مكشوفاً فاستبدل القبعة العثمانية بالسدارة العراقية التي كان الملك فيصل الأوّل قد أدخلها إلى العراق، وأصبح (الأفندية) يلبسونها باعتزاز تعبيراً عن ارتباطهم بوطنهم: العراق...

كان ـ رحمه الله ـ متأنقاً في ملابسه، وكان زيادةً في التأنق يضع في جيب سترته العلوي منديلاً يحمل اللون نفسه للرباط الذي يحلّي به عنقه... وكان ينثر الروائح العطرية غالية الثمن على وجهه وذقنه، فكنت أعشق الاقتراب منه لشمّ عطره الفوّاح.

وكان على المستوى الديني ملتزماً أشد الالتزام بالمطالب التعبدية لهذا الدين، فكانت لا تفوته صلاة الفجر ولا بقية الصلوات في الجوامع... وكان يحتفي بشهر رمضان أشد الاحتفاء، ويتولى بنفسه الاحتفالات السنوية في سوق باب السراي الذي كان يعمل في أحد محلاته تاجراً للتحافيات، حيث علق على مدخله اسم المحل: (محل الصباح لصاحبه خليل الحاج عمر)، في كل مناسبة

من مناسبات المولد النبوي الشريف، حيث كان السوق يقطع من كافة مداخله بالبسط والبطانيات، وحيث يتم الاتفاق مع أحد الشيوخ الأعلام لإلقاء محاضرة في جامع عبدال الذي يقبع داخل السوق... وكان يتولى بنفسه شراء السكاكر والشيكولاته التي توزع على المشاركين في الاحتفال.

ومنذ طفولتي المبكرة كنت ألحظ على جدار (الزهرة) صورة كبيرة لرجل معمّم ذي لحية طويلة، مكتوب تحتها (الشيخ عبد الحق حامد النقشبندي المصطوني الموصلي)، فلما كبرت عرفت من هو، إنه شيخ أبي وأعمامي، حيث كانوا يتلقون منه التوجيهات الدينية ذات الطابع الصوفي المعتدل، والذي يؤكد على الالتزام الكامل بمطالب الشريعة الغرّاء...

كان أبي يملك إحساساً مرهفاً تجاه كل ما هو جميل، ويملك معه صوتاً عذباً، كان يتحفنا بسماعه وهو يرتل صباح كل يوم شيئاً مما يتيسّر من كتاب الله، أو يتغنى بالأناشيد الدينية والمقامات العراقية الأصيلة... وكان فضلاً عن هذا وذاك، يملك روح النكتة والدعابة والقدرة المدهشة على كسب الأصدقاء، الذين كانوا يتدفقون على محله للتناوش معه بالنكات وبالأحاديث الجادة على السواء، حتى أن والدتي كانت تعترض عليه في ذلك قائلة إن هذا مما يجعل المشترين ينفضّون عن دخول المحل خجلاً من هذه التجمعات الملتمة حولك في المحل، وكان من بينهم ساسة كبار، وزعماء من ذوي التوجه الإسلامي والوطني، ومدراء مدارس ومدرّسون وقضاة ومحامون، وضباط جيش وشرطة وموظفون... بحيث أنه أصبح بمرور الوقت وسيطاً للعديد من أصحاب المظالم والشكاوى الذين يتصلون به لحلّ مشاكلهم، فكان يتبناها بنفسه، ولا يكف عن ملاحقة مطالبها حتى يعيد الحقوق إلى أصحابها...

وكان من بين الذين يترددون على محله بشكل شبه يومي... الدكتور عبد الجبار الجومرد، الذي أصبح أوّل وزير لخارجية العراق بعد انقلاب عام (١٩٥٨م)، ومحمد علي الخشاب الذي كان يقود التظاهرات الجماهيرية في شوارع الموصل ضد سياسات نوري السعيد، والعقيد سالم الجومرد وابن عمه

المقدم عبد الجواد الجومرد، وبشير الدليمي مدير مدرسة الوطن الابتدائية، وفخري الخيرو المحامي المعروف، وخط طويل من مدرّسي ومعلمي الموصل المعروفين، وأساتذتها الجامعيين، وموظفيها وتجارها ومحامييها... وحشد من أبناء الأسر الموصلية المعروفة كآل الجليلي وآل حمو القدو وآل الأرحيم وآل حديد وآل العناز، وغيرهم كثيرون... ولا زلت أذكر أنني عندما كنت أقدّم إليه أحد زملائي من أساتذة جامعة الموصل كيف أنه سرعان ما يكسبه كصديق، ببشاشة وجهه، وقدرته على فتح أبواب الحوار المتنوع معه، بحيث أنهم طالما حدثوني كيف أصبحوا منذ لقائهم الأول به بمثابة أصدقاء دائميين، للوالد، يحرصون على حضور مجلسه في السوق.

وكان يمارس في تربيته معنا الأسلوب الأكثر حداثة، ذلك الذي تؤكد عليه أحدث النظريات التربوية: بأن يفتح أمامنا المجال لحرية الحركة، واللعب، والذهاب والإياب... دونما أي قدر من القسر أو الكبت، ولكنه ـ بالمقابل ـ يخضعنا من بعيد وبشكل غير مباشر، لرقابته الدقيقة الصارمة... فما لبثنا أن اجتزنا مرحلة الطفولة وكبرنا، ونحن لا نعاني من أية عقدة أو التواء، مما تسببه التربية العتيقة التي يهيمن فيها الآباء على تصرفات أبنائهم، وذلك من فضل الله ﷻ.

لقد تحقق أبي بالمفهوم الإسلامي الأصيل في التعامل مع الحياة الدنيا، ذلك الذي يدفع الإنسان إلى أن يحيا حياته كاملة، بأفراحها، ومتعها المباحة، وزينتها، وكأنه سيعيش أبداً، والذي يضع في منظوره دائماً الآخرة وكأنه سيموت غداً... لقد تعلمنا منه، وتربينا على يديه... ومن هذه المعادلة التي ترفض الجنوح باتجاه التشدد، أو الانحراف باتجاه التسيّب، وأن نظل في النقطة الوسط، قدر الإمكان، وكما أراد لنا هذا الدين.

أمي ـ رحمها الله ـ ما كانت تقل عنه عشقاً للجمال، ورهافة في الإحساس، وأسلوباً مرناً في التعامل معنا، ولعلّ مكونات الأب والأم هذه، وانتقالها إلينا وراثياً، هي التي جعلتنا أنا وأخي الأصغر نبيل ـ رحمه الله ـ

نعشق الجمال، ونوظف الكلمة في أقصى حدود قدراتها الجمالية، للتعبير عما كان يجيش في نفوسنا من مشاعر واهتمامات.

تنتمي أمي، ابنة محمد حسن البزاز إلى عشيرة الخزرج، التي انحدر قسم منها إلى الموصل واستقر في حافاتها الغربية، حيث لا تزال المحلة التي سكنوها تحمل الاسم نفسه... وجدّها الملا حسن البزاز هذا كان شاعراً قديراً نشر ديوانه بمعية بعض أشعار الحاج محمود شيت الجومرد، متضمناً أروع القصائد التي قالها في مدح رسول الله ﷺ، مما كان يرتل على أحواض المنائر في الموصل في ليالي رمضان. لقد كان مندفعاً في محبته إلى درجة العشق، التي أتت على صحته وعافيته وساقته إلى الوفاة مبكراً، ولم يتجاوز من العمر الأربعين عاماً إلا قليلاً. وهو ينتمي كما كان يقال لنا إلى خادم رسول الله (ﷺ): أنس بن مالك (رضي الله عنه).

وكان أبي يصطحبنا أنا وأخي الأكبر (مظفر) وخالي (برهان البزاز) ـ وكنا بعد صغاراً ـ إلى مسجد الشيخ نذير الروّاس رحمه الله القابع في زقاق داخلي في محلة (حوش الخان) فيما وراء شارع نينوى، حيث كان ورفاقه الحاج عبد الفتاح الجومرد ورجلين من آل العناز، وآخرون، يقيمون صلاة التراويح في كل رمضان هناك... وكنا نحن مع الأطفال الآخرين، ننتهز فرصة انشغالهم بالصلاة لكي نمارس اللعب الساعات الطوال، وكلما دهمنا العطش لجأنا إلى (الحب) وهو إناء فخاري كبير مليء بسائل عرق السوس المثلج، لكي نبل ريقنا بذلك المشروب الرائع الذي عرف عن الشيخ (نذير الرواس) إتقان صناعته.

وكان الرجل أعزباً، يعيش وحيداً في ذلك المسجد، ويتفنن عبر أوقات فراغه، بعمل بعض الأكلات الموصلية كالباميا والطرشي، التي كان يعبئها بأوانٍ خاصة ويقوم بنفسه بتوزيعها على دور أصدقائه عند حلول شهر رمضان... رحمه الله...

وفضلاً عن ذلك، فقد هيّأ لنا أبي للعبنا، وملء أوقات العطل الصيفية الطوال، البستان الملحق بالمحل، والذي كانت تتوسطه شجرة تين مثمرة، كنا في كل موسم نأتي بالصناديق الكارتونية لكي نجني الثمر، ونقوم بتوزيعه على

الأهل والأقرباء... وكنا على مدى أشهر العطلة الصيفية الطويلة، زمن الدراسة الابتدائية، نجتمع صبيحة كل يوم في تلك البستان: أنا وأخي وخالي وأبناء عمومتي، لكي نمارس فنوناً من اللعب الساعات الطوال، وكان ابن عمي هشام الطالب أحد المداومين بشكل يومي على مهرجان اللعب هذا، والذي كنا نمارس فيه ألعاباً شتى بعضها مما يستدعي السخرية والضحك، وبعضها الآخر يكشف عن طموح عجيب لابتكار أصناف من الألاعيب التي لم يعرفها أحد من قبل.

وكان عنف اللعب يتحوّل أحياناً إلى شجار حاد وتقاتل بيننا بالأيدي والأرجل، لكننا ما نلبث بعد دقائق معدودات أن نتصالح ونرجع إلى لعبنا بمحبة وانسجام.

وكان كل واحد منا يكنى بلقب قريب من اسمه، فكان اسمي (أسطه حمودي)، واسم هشام (أسطه هاشم)، وأخيه إنعام (أسطه نعمان)، وخالي برهان (أسطه إبراهيم)، وأخي مظفر (أسطه أحمد)... وهكذا، والأسطه تعني رئيس المهنة!!

ويوماً تفتق خيالنا عن ابتكار طريقة لصناعة السيكاير المحلية لا تكاد تكلف شيئاً، سوى ورق اللف، وماكنة اللف الصغيرة التي كنا نشتريها بثمانية فلوس، أما التبغ فهو مما نجففه من ورق شجرة التين ثم نسحقه بأيدينا ونضعه في الماكينة الصغيرة لكي يخرج لنا السيكاير المطلوبة، التي كنا نرتشفها بشغف رغم طعمها الحرّيف، ورغم أنها كانت تساقط على ثيابنا شراراً من نار فتملؤها بالثقوب، وعندما اكتشفت والدتي يوماً هذه الثقوب، وأرادت أن تعاقبني اعتذرت لها بأن هذا سببه وقوفي أمام دكان بائعي الكباب للإتيان بطبق للبيت في منتصف كل أسبوع حسب توجيهات أبي... وبذلك أفلت من العقاب.

ويوماً آخر تفتق ذهننا عن فكرة بناء مسبح، وما لبثنا أن شمرنا عن ساعد الجدّ وبدأنا بناء سور سميك بارتفاع نصف المتر، ثم سلطنا على المكان ماسورة الماء عبر الليل كله، لكي نجيء في اليوم التالي فنجد المسبح

جاهزاً، لا يعوزه إلا واسطة الركوب وهي (الجربة) أو الإطار المطاطي الذي ينفخ ثم نجلس عليه مجدّفين عبر مسبحنا الجميل هذا... لكننا للأسف لم نعثر بعد تجوال طويل في أزقة المدينة، على الاثنين معاً فاكتفينا بالسباحة بالماء الموحل، ولكم أن تتصوروا كيف خرجنا من المسبح، وبأية صوة محزنة!!

وكان هناك إلى شمال البستان درج يصعد إلى جدار الفندق الذي يطل عليه، فتفتق ذهني عن لعبة رائعة: أن أجعل أخي الأصغر (نبيل) يصعد إلى أعلى الدرج، وأنا من ورائه أمسك ببرميل حديدي فارغ، ثم أطلب منه أن ينزل بأقصى ما يستطيع من سرعة، بعد أن أكون قد أفلت البرميل من يدي، فإذا وصل الأرض سالماً يكون قد ربح الجولة، وإذا ضربه البرميل قبل الوصول أكون أنا الرابح، وفي إحدى المرات لم يتح لأخي أن يصل فإذا بالبرميل يضربه على رأسه ضربة موجعة، خشيت من آثارها بعد أن رفع عقيرته بالصراخ ولكن الله سلّم.

ويوماً، ونحن نمارس لعبنا في البستان إذا بنا نسمع من يأتي إلى الوالد ويلقي إليه بخبر لم نكد نتبينه حتى شمرنا عن سيقاننا، ورحنا أنا وأخي وخالي نركض وراء أبي وهو يجتاز مسرعاً الزقاق الذي يفصل محلة البريد عن جامع خزام... لقد كان النبأ بمثابة صاعقة نزلت على رؤوسنا: أن بيتنا يحترق وألسنة النيران تتصاعد من جنباته... وأنا أركض لاهثاً، متقطع الأنفاس، ما كان يهمني البيت ومحتوياته ولكن كانت تهمني أمي التي خيّل إليّ أن النار أتت عليها... ولكننا ما أن وصلنا حتى وجدناها واقفة في أسفل فناء الدار توجه شبان المحلة إلى السطح حيث اشتعلت فيه النار، كي يتولوا إطفاءه قبل أن تقع الكارثة، لقد أتت النار على مناماتنا في السطح، ربما بسبب شرارة من نار رمى بها أحد الجيران عن غير قصد... وحينذاك فقط عاد إليَّ وعيي والتقطت وأخي وخالي أنفاسنا، بينما كان الوالد يساعد شباب المحلة على إطفاء ما تبقى من جمر في سطح الدار!!

بعد ذلك بعدة سنوات، حيث انتهينا من دراستنا الابتدائية، وشببنا عن

الطوق، انفض السامر كما يقولون، ولم يعد أحد يأتي إلى البستان سواي وأخي الأصغر نبيل وابن عمي شمس الدين... وكنا نجمع النقود المرسومة على الورق مما كان يوضع في علب السيكاير، فنمارس اللعب بها بيعاً وشراء... وكان ابن عمي هذا يأتي يومياً ومعه شيء من الخبز الجاف والبصل والكاري والسماق، ويفرش بضاعته أمامي لكي يغريني بالشراء، فكان لعابي يسيل وأنا أراه يخرج البصل بالكاري والسماق، فأطلب منه أن يبيعني بدرهم أو درهمين، لكنه ما لبث أن اكتشف شهيتي المبالغ فيها لوجبته الرائعة هذه وعدم قدرتي على مدافعتها، فأخذ يقسط في كمية ما أشتريه منه، بحيث أنني أخيراً طلبت منه وجبة بعشرة دنانير، مما كاد أن يأتي على مدخراتي، فما كان مني في اليوم التالي إلا أن آتي إلى البستان مبكراً وأضع يدي على نقوده التي ادخرها تحت قطعة من الحجارة، وأخزنها في مكان أمين لكي أشتري بها وجبات أخرى، حيث كنت أرجع إلى البيت شبعاناً فلا أشتهي أن أشارك العائلة في تناول أدسم الأكلات وأروعها!!

لقد كنت أنا وأخي الأكبر وخالي زمن طفولتنا تلك أشقياء بمعنى الكلمة، وطالما تشاجرنا مع هذا الولد أو ذاك وخرجنا منتصرين، أو تلقينا ما لا يسرّ أحداً...

وأذكر أني في إحدى الليالي كنت أتجول وحدي قريباً من البحيرة الاصطناعية المجاورة لحديقة الشهداء، وإذا بمجموعة كبيرة من الصبيان تحاول أن تتصدى لي، فدفعوا بأحدهم لكي يستفزني ثم ينقضوا علي... فما كان مني إلّا أن أنزع نعلي وأمسك الولد من خناقه ثم أسلّط على رأسه سيلاً من ضربات النعل القاسية، فما كان منه إلا أن تراجع مستنجداً بزملائه، لكن بعد أن كنت قد شمّرت عن ساقي وانطلقت عبر شوارع المدينة باتجاه البيت، وهم يركضون ورائي في محاولة منهم للردّ، لكن محاولتهم تلك باءت بالفشل لأني قدرت على تضييعهم عبر الطرقات... ولا زلت أذكر مشاجرتي مع أحد طلبة الابتدائية، حيث توعّد أحدنا الآخر، فما كان منّي بعد أن عدت إلى البيت

إلا أن أهيئ عصا غليظة لكي أحملها في حقيبتي ليوم غد، حيث سيكون اللقاء، وكتبت عليها (لا إله إلا الله محمد رسول الله... إن ينصركم الله فلا غالب لكم) فكنت ـ فيما بعد ـ أضحك دائماً مع نفسي وأقول هذه هي المحاولة المبكرة الأولى في (التأصيل الإسلامي) للصراع، أو (أسلمته) بعبارة أخرى... ولقد سلطت على رأس خصمي سيلاً من ضربات العصا، رغم أنه كان يقف إلى جوار عدد من أقربائه وأصدقائه، ثم ما ألبث أن أطلق ساقي للريح قبل أن يقع المحذور!!

وفي مرة ثالثة حيث كنت أنا وأخي وخالي نحاول اجتياز شارع غازي، إذا بأخي يتعثر ويسقط أرضاً، في اللحظة التي كانت تمر بها عربة من تلك التي تجرّها الخيول فإذا بالعجلة الأمامية تصعد على رأس أخي ثم تنزل، ونحن واقفان نتفرج على هذا المنظر الرائع بانتظار أن تأتي العجلة الخلفية فتمارس الدور نفسه، لكن أخي ما لبث أن نهض قائماً والدم ينزف من أذنه اليسرى... ومرة أخرى ونحن نلعب في بستان محل الوالد، إذا بابن عم لي يسقط مغشياً عليه بسبب الشجار الذي نشب بيننا، فما كان مني لكي أوقظه من إغماءته تلك إلا أن أتيت بقطعة خيش مترعة بالأقذار ووضعتها في الماء ثم غطيت بها وجهه، فإذا به يستفيق وينهض قائماً، وكأن شيئاً لم يكن...

ولا زلت أذكر كذلك أننا نحن الأشقياء الثلاثة خرجنا يوماً من دار جدتي في منطقة العكيدات، لكي نتصدى لمجموعة من الأشقياء الآثوريين، ولكننا بعد أن بدأنا التحرّش بهم، ما لبثنا أن فوجئنا بعددهم الكبير، فشمرنا عن سيقاننا، حيث راحوا هم يلاحقوننا ونحن نركض للوصول إلى بستان بيت جدي المسوّر واجتياز بوابته، للاحتماء به... وكان خالي لسوء الحظ يركب حماراً ويحثه على الإسراع، حتى إذا ما وصل الحمار البوابة تلك انحصر خالي بجلال الحمار بين طرفي البوابة، وأفلت الحمار من تحته داخلاً إلى البستان، وراح خالي يصرخ طالباً النجدة، والآثوريون يقتربون منه لكي يذيقوه جملة من الركلات القاسية قبل أن يتركوه وشأنه!!

فيما بعد، في مرحلة المتوسطة، بقيت أنا وحدي في بستان أبي، وكنت قد شببت عن الطوق، فما كان مني من أجل ملء الفراغ سوى أن أحوّل جانباً من البستان إلى مكتب صيفي أمارس فيه إرسال الرسائل إلى المجلات العالمية التي ترسل أعمالها مجاناً للطالبين، حتى أنني قرأت في إحدى المجلات وصفاً لصنارة سمك أغرتني بمراسلة هيئة التحرير لإرسال واحدة مجانية إلي... وإذا بهم بعد أسابيع قليلة يجيبونني على طلبي هذا بإرسال صورة الصنارة أما الصنارة نفسها فعليّ أن أدفع حسابها مقدماً... يا أولاد الأبالسة!!

وكنت أتابع ـ كذلك ـ بيع ملاعيبي التي تجمعت لدي زمن الطفولة، فكان مساعد أبي في المحل: الحاج أحمد السلّو ﷺ يدخل عليّ في البستان بين الحين والحين لكي يزف إلي بشرى بيع إحدى ملاعيبي تلك، التي كنت أتعامل معها السنوات الطوال بأفضل درجات العناية واللطف، بحيث أنها تظل محتفظة بجمالها فيما يغري المشترين بها.

كانت أمسياتنا البيتية، وبخاصة في فصل الشتاء، من الروعة بمكان... كنا نلتمّ في غرفة النوم العلوية الصغيرة حول منقل الفحم المشتعل طلباً للدفء، وكانت أمي ـ رحمها الله ـ تمسك بيدها واحدة من قصص الأطفال التي كنت أستعيرها من مكتبة المدرسة بأربعة فلوس، وتبدأ في قراءتها لنا، على مكث، كان أبي يكاد يذوب عشقاً في سماعه لوقائع القصة، وتتغير ملامح وجهه مع تغيّر وقائعها وأحداثها، وكنا أنا وأخي الأكبر نكاد نغيب عن الدنيا وما فيها ونحن نتابع أحداث القصة، نضحك حيناً ونبكي حيناً آخر، ونتنفس الصعداء حيناً ثالثاً حتى تأتي الوالدة على نهاية القصة، حيث يبدأ فصل تالٍ لا يقل متعة: تناول الطيبات التي لم يدّخر والدي وسعاً في شرائها من شارع النجفي ومنطقة البريد، وعودته بها مساء كل يوم: الشاه بلوط المحمص على الفحم المشتعل... اللوزينة... الجوزينة... حلاوة جوز الهند... قشور النارنج المسكرة، الجرز... الحلاوة... بطيخ التعليق... الرمان... الخ... الخ...

والمطر في الخارج يتساقط بعنف على السطوح المعدنية المنتشرة في

مساحات البيت، فيسمع لصوته لحن رائع يزيدنا نشوةً وإحساساً بالطمأنينة والأمان...

فيما بعد تحوّلت هذه الجلسات العذبة إلى الرهرة أو السرداب العلوي الأنيق الذي يتميز بدفئه في أيام الشتاء، حيث كنا نتناول عشاءنا، ثم نبدأ الأمسية بالأحاديث وتناول الطيبات، ثم ما لبثنا أن انتقلنا إلى غرفة الضيوف على يسار البيت، حيث وضع في شباكها جهاز الراديو، وحيث أخذ يتردد علينا يومياً عدد من الأقرباء من الأخوال وأبناء العم والعمة لكي يقضوا مع الوالد أجمل الساعات... وكنت أنا أحس بسعادة بالغة، وأنا أنزوي في الغرفة بعيداً عنهم لمتابعة دروسي، أو هواياتي، أو مطالعاتي الخارجية التي كانت تزداد متعة في ليالي الشتاء البارد الممطرة والمترعة بالأحاديث العذبة.

عندما جاء أخي نبيل رحمه الله إلى الدنيا عام (١٩٤٨م)، كان بمثابة فرحة كبرى بالنسبة لي، أنا الذي كنت أتشوق لأخ أصغر مني، أمارس معه اللعب عندما يشب عن الطوق... وكان أبي يريد أن يسميه (قيس) لا أدري لماذا؟ أما جدتي لأمي فأرادت أن تسميه (مطر طين)!! باعتباره أطل على الدنيا في يوم طيني ماطر، لكن الوالدة أصرت على تسميته (نبيل)، فكان لها ما أرادت.

وكان أبي لشدة تعلّقه بالمولود الجديد وعشقه له، لا يكاد يتركه لحظة واحدة، الأمر الذي أطمع فيه ابنه، فأصبح لا ينام إلا بجوار أبي، الذي كان من أجل طمأنته يشد على أصبعه خيطاً يربطه بذراعه من الطرف الآخر... وكانت والدتي تلومه على هذا التدليل الزائد، وتسمي نبيل (معشوق أمريكا) بسبب من محبة أبي الزائدة له!!

عندما كبر، وشب عن الطوق، عثرت فيه على ذلك الصديق الذي انتظرته طويلاً، فكنت أمارس معه فنوناً من اللعب، وأحسّ بسعادة غامرة عندما أغادر البيت عصراً للذهاب إلى مدخل محلة باب لكش لاستقبال أخي العائد من المدرسة.

أما قصته مع المدرسة فأمرها عجيب... فلشدة ما أغريناه بها، أصبح قبل أيام من التحاقه بها يجرّ الحسرات ويقول مع نفسه مخاطباً جدار الغرفة:

يا ليتك تنفتح اللحظة على الطريق الذي يوصلني إلى المدرسة... الله كم أنا مشتاق للذهاب إليها!!

ولكن حينما جدّ الجدّ أصر نبيل، ورفض وهو يجأر بالبكاء، أن يذهب إليها... ومضت على ذلك أيام حتى ابتكر والدي صيغة لإقناعه بها، بأن يذهب بمعيته صباح كل يوم، ويجلس معه على الرحلة ذاتها، طيلة الدرس، ثم ما يلبثا أن يغادرا المدرسة سويةً عائدين إلى البيت... وحينذاك قبل نبيل الذهاب إلى المدرسة... والطريف أن المعلمين عندما كانوا يوجهون الأسئلة إلى الطلبة كان أبي أوّل من يرفع يديه ويطالب بالإجابة على السؤال، وسط ترحيب وابتسام أصدقائه من المعلمين... رحمك الله يا أبي ويا أخي... لقد كنتما نموذجين نادرين في التعامل مع الحياة!!

في أيام رمضان الصيفية في أربعينيات القرن الماضي، كنت وأخي الأكبر نصعد قبيل الغروب إلى سطح الدار لمتابعة صوت المؤذن محمد وهو يرفع صوته العذب بالأذان... كانت تلك من أمتع الساعات في طفولتنا... لا زلت أذكر كيف كنا نتعلق على سياج السطح وعيوننا مركزة على مئذنتين، حيث كان الأذان يرفع من أحواضها العليا، قبل اكتشاف أجهزة التوصيل الصوتي... منارة جامع خزام القريب من دارنا، ومنارة جامع النبي جرجيس الذي يبعد كثيراً عن الدار، والذي تم الاتفاق على أن تكون إشارة البدء بالفطور، من خلال راية كبيرة تطوف على حوض المنارة معلنةً حلول موعد الأذان... وكان كل مؤذني البلد يشيحون بوجوههم صوب منارة جامع النبي جرجيس تلك بانتظار الإشارة المحببة... وما أن تتحرك الراية ذات اليمين وذات الشمال، حتى كنا نرى مؤذننا (محمد) يرفع إناء الماء الفخاري المعلق على حافة الحوض، ويسفحه في فمه، ثم يبدأ الآذان، وما نلبث نحن أن نغادر مكاننا مسرعين إلى حافة السطح المقابلة والمطلة على فناء الدار، لكي نصيح معاً: أفطروا... أفطروا... ثم ننزل بسرعة مجتازين الدرج اثنتين اثنتين وثلاثاً ثلاثاً، قبل أن تفوتنا لقمة شهية من طعام الإفطار الذي كانت الوالدة تجيد طهيه.

يا لتلك الساعات السعيدة التي لا يزال طعمها العذب يلامس أفواهنا ومشاعرنا ويعيدنا إلى ذلك الزمن الجميل!... وكان خالي (برهان البزاز) سرعان ما يلتحق بنا بعد الإفطار، لكي نبدأ في مساء كل يوم من أيام رمضان مغامراتنا المحببة: التنقل مجاناً من محلة إلى أخرى، ومن شارع إلى آخر، ونحن نتسلق ظهور المركبات التي كانت تجرها الخيول، دون أن ينتبه سواق العربات لركوبنا... ولكنهم ما أن يقطعوا أشواطاً من الطريق حتى ينبههم أحد المارة إلى أن صبياناً قد تعلقوا على ظهر المركبة، فما يكون من السائق إلّا أن يضرب بسوطه الحاد خلفية العربة التي نكون نحن قد قفزنا منها في اللحظة المناسبة، وإلا أصابنا السوط بآلام يصعب وصفها... ثم ما نلبث أن نتحول إلى عربة أخرى لكي لا ندع شبراً من مدينة الموصل إلا وقد اجتزناه!!

أما ليلة العيد فكانت مهرجاناً من السهر والفرح والغبطة حتى مطلع الفجر... في لعبنا المتواصل عبر شوارع الموصل... في استعراضنا لبسطات العيد التي تُهيأ منذ الليل بما تحمله من شيكولاتة وجرزات وأنواع مختلفة من الحلويات الموصلية... في عودتنا إلى البيت لكي نلتقي الوالد الذي يعود من محله قبيل الفجر، وهو يحمل أكياس الجرز والملبس والحلويات... وفي نومنا المتقطع المتوفز بانتظار حلول الصباح الذي ما يلبث أن يطل علينا، حيث تغمرنا فرحة يصعب وصفها، إذ ما نلبث أن نلبس الملابس الجديدة، ونتناول لقيمات من الفطور بانتظار مجيء خالنا، والانطلاق لقضاء أجمل الساعات في شوارع الموصل وما تمتلئ به من أنواع الأطعمة والأشربة والمثلجات والألعاب...

وكنا نفتح شهيتنا بنصف صمونة سمراء مترعة بالعنبة الهندية اللذيذة، ثم نثني بقطعة من الدوندرمة المسماة بالكريمستك، ونثلث بقطعتين أو ثلاث من راحة الحلقوم، أو أم الثوب، ثم نتجه بعد ذلك لركوب المراجيح ودواليب الهواء مع بقية الصبية، أو نؤجر عربة مما تجرها الخيول لكي نتجول في أطراف المدينة ثم نغادرها متقافزين هنا وهناك، باحثين عن مكان لنا في هذه السينما أو تلك مما تعرضه من أفلام (طرزان) و(جابك والي) و(هونك

كونك) و(فلاش جوردون) و(الجمجمة) و(توم ميكس) و(عنتر بن شداد) و(علاء الدين) و(علي بابا)، من تلك الأفلام المليئة بالمآزق والمفاجآت والبطولات، التي كانت تسحرنا وتدفعنا إلى إعادة مشاهدة الفلم الواحد أكثر من مرة.

ولا زلت أذكر حادثتين كادتا تودي بنا أنا وابن خالتي (ساطع البزاز) أيام العيد، وكنا بعد صغاراً لم نتجاوز السابعة من العمر... في أولاهما وكنا قد أوغلنا بعيداً عن مركز المدينة، حيث مباهج العيد في باب الطوب، باتجاه الدوّاسة، وما لبثنا أن وجدنا أقدامنا تغوص في بحر من الطين اللزج الذي راح يسحبنا بسرعة أكثر فأكثر، إلى الأعماق، لولا أن قيّض الله ﷻ لنا أحد الشباب الذي هرع إلينا ونحن نصرخ ونستغيث، وسحبنا بقوة لكي يضعنا على حافة الرصيف وينصحنا بألا نعود لمثلها مرةً أخرى... وفي الثانية، أشيع في سينما الملك غازي بأن السينما قد تعرضت للحريق، حيث كنا نشاهد فيلماً لطرزان، وبدأ المشاهدون يتقافزون هاربين من الصالة باتجاه درج السينما لكي ينجو بأنفسهم، ورحنا أنا وابن خالتي نركض مع الراكضين، وخلال نزولنا الدرج تناوشتنا أجساد الهاربين وأسقطتنا أرضاً، وكادت أن تقضي علينا، لولا أن يقيّض الله ﷻ أحد طلبة مدرسة (الوطن) التي كنا ندرس فيها، لكي يرفعنا معاً على كتفيه وينزل بنا إلى أسفل السينما سالمين بحمد الله ﷻ.

ولكن، وكما هو معروف، فإن لكل شيء نهاية، فها هي متع رمضان والعيد، سرعان ما تتبخر، وإذا بنا نرجع إلى دورنا مساء اليوم الأخير من العيد، ونحن مثقلون بالحزن والاكتئاب... ولكن لا بأس، فها هي ذي العطلة الصيفية تقرع الأبواب، ولسوف يكون لنا معها أكثر من شأن، فلا بأس.

أما الحياة المدرسية زمن الدراسة الابتدائية، فكانت هي الأخرى واحدة من الصفحات البيضاء المشعة في حياتي، بخلاف العديد من الأطفال الذين كان شبح الدراسة يصيبهم بالاكتئاب... فمع حلول شهر أيلول في مدينتي العزيزة، المسماة أم الربيعين، بسبب من جمال خريفها الشبيه بالربيع،

واعتداله، ونسماته الرقيقة الرائعة... يعلن عن افتتاح الموسم الدراسي... وكنت أتجه إلى المدرسة تغمرني فرحة يصعب وصفها، لأننا في اليوم الأوّل من الدوام سنتسلم الدفاتر والأقلام والمماحي والكتب المدرسية... وكان كتاب (المطالعة) بالذات يملؤني فرحاً وغبطة بما ينطوي عليه من قصص ومفارقات وحكايات... وكنت أرجع إلى البيت محملاً بهذا الكنز الثمين، لكي ما ألبث أن أبدأ رحلتي مع الحياة المدرسية... وما أجملها وأمتعها من حياة، بمعلميها، بمفارقاتها، بأناشيدها وعروضها المسرحية، بما كان يقصه علينا المعلمون من قصص وروايات، بألعابها التي تخفق في جنباتها، وعبر أحيائها المجاورة على مدى الأسبوع، بما يبتكره الطلبة من وسائل وألعاب كنا ننغمر فيها حتى شحمة أذنينا، ونشعر خلالها بسعادة بالغة، بالتفوّق الدراسي لحظة إعلان النتائج الامتحانية، بقصصها التي كان المعلمون يعلنون في ختام كل أسبوع عمن يرغب في استعارة إحداها، لكي ما نلبث أن نلتهمها أيام الخميس والجمعة التهاماً، وبما تنطوي عليه الحياة الدراسية من طرائف وغرائب، وبحملات التبرعات التي كانت إدارة المدرسة تعلن عنها لهذا السبب أو ذاك، وكنت أشعر بفخر واعتزاز وأنا أرفع يدي لكي أعلن عن المبلغ الذي كلفني أبي بتقديمه، والكبير نسبياً في ذلك الزمن!!

ولا زلت أذكر، من بين تلك الطرائف والمفارقات، معلمنا في الصف الأول (رؤوف زين العابدين) ﷺ وهو يعلمنا رسم الحروف الأبجدية، فعندما بلغ حرف الصاد بتكوينه المعقد وكسرته الحادة، وأخذ يطالب التلاميذ واحداً واحداً أن يتقدم إلى السبورة لكي يخط الحرف، حتى إذا جاء الدور علي، اضطربت، والتصقت بالسبورة دون حراك... وعبثاً حاولت رسم حرف الصاد، فما كان منه إلا أن يوبخني بعنف ويدفع بي لكي أعود إلى حيث كنت أجلس... وثقل الأمر علي، وأدخلني دوّامة من الهمّ والاكتئاب، إذ كيف سأجتاز محنتي مع حرف الصاد، وما لبثت أن غادرت المدرسة، وأنا أبكي بصمت حتى وصلت البيت وقد تغيّرت ملامحي... ولحدّ الآن وبعد مرور حوالي السبعين عاماً على

الحادثة لا زلت لا أعرف كيف أرسم حرف الصاد... لا بل، وأقولها لكم بصراحة، إن خطي كان ولا يزال، لا يحمل أية لمسة جمالية من تلك التي يتيحها الحرف العربي للمبدعين، رغم أنني كتبت آلاف الصفحات... ولا يزال حرف الصاد يمثل عقدتي الأساسية... ولكن، ولحسن الحظ، فإن خطي ـ على بشاعته ـ مما يقرأ بوضوح وذلك من أفضال الله علي.

كان (إسماعيل) ﷺ مراقب الصف ذو الجسم الفاره، قد ابتكر لعبة سهلة لابتزاز زملائه... مجموعة من الصور المقتطعة من المجلات يضعها على غير اتساق بين صفحات إحدى الكتب المدرسية، ثم يبدأ بالنداء على بضاعته فكنا نحن ننهال عليه ونعطيه لقاء كل سحبة فلساً، أو قلماً، أو ممحاة، أو صورة، لكي نضع أصبعينا على جانب من الكتاب ونفتحه فإذا به فارغ من أية صورة... إلا فيما ندر... وهكذا وبمرور الوقت تبين أن إسماعيل سيجردنا من كل موجوداتنا المدرسية وغير المدرسية، ويبدو أن أحد الطلبة المتضررين رفع شكوى ضده إلى إدارة المدرسة فأوقفت اللعبة.

في الصف الثالث الابتدائي، حدث وأن أحاق بالموصل جو شتوي شديد البرودة، انخفضت فيه درجات الحرارة إلى ما دون الصفر بكثير، ولم تعد أجهزة التدفئة المتواضعة في كل صف تجدي نفعاً... فما كان من مدير المدرسة إلا أن ابتكر طريقة طريفة لتدفئة الصف... أن يشترك كل طالبين متجاورين بمنقل يأتيان به من بيوتهما ويضعانه بين أقدامهما لكي يمنحهما الدفء المطلوب، أما الفحم فكنا نتسلمه وقد احترق تماماً من الكومة الكبيرة التي تشعل فيها النار وسط فناء المدرسة في ساعة مبكرة من صباح كل يوم... ولقد وجدنا في تلك التجربة متعة بالغة، ذلك أن أي تغير يضاف إلى نمط التدريس وتقاليده يمنحنا فرحاً ودهشة وإحساساً عميقاً بالغبطة، وتلك هي حالة الإنسان الذي يتعامل مع الخبرات والأشياء لأول مرة، فيما يكسر به تسلسل الحياة الاعتيادي الذي قد يصل إلى درجة الملل.

ومن أجل كسر الملل هذا، انتهزت يوماً فرصة إدارة ظهر معلم الرياضة

(بهنام) أفندي، وهو يمارس تخطيه اليومي داخل غرفة الدرس، فما كان مني إلّا أن أرفع عجوة من الأرض ثم أضعها بين أصبعيّ وأدفع بها إلى رأسه... يبدو أن الضربة قد أوجعته قليلاً، إذ ما لبث أن التفت بسرعة فائقة واكتشف الفاعل... ويومذاك تلقيت (بسطة) ما تلقيت مثلها في حياتي!!

ومع بدء الربيع، كانت تنقل إلى فناء المدرسة أكداس البعر الحيواني الذي يتخذ سماداً لحدائق المدرسة وأصصها وزهورها... وكان المدير يطلب منا أن نسحق بأقدامنا هذه الأكداس... ولكم أن تتصوروا فرحتنا الغامرة بهذه المناسبة التي نكسر بها الملل هي الأخرى، والتي ابتكرت لها فيما بعد اسماً مقتبساً من أسماء المناسبات التي شاعت عالمياً من مثل (يوم المرأة) و(يوم الطفل) و(يوم المعلم) و(يوم العمال) فأضفت إليها (يوم البعر).

وكنا نرجع من يوم البعر هذا إلى دورنا وقد غطانا غبار الروث من رأسنا حتى قدمينا، ولكم أن تتصوروا ما سنلقاه من أمهاتنا من عقاب!!

يوماً، انتشرت في المدرسة شائعة تقول أن ثمة لقاء في الملاكمة سيجري بين معلم الرياضة (توفيق) أفندي ﵀ وبين ملاكم محترف جيء به زائراً لمدينة الموصل، فتملكنا فرح غامر، ووقفنا قبالة شرفة المدرسة بانتظار بدء اللقاء ونحن نتمنى من أعماقنا انتصار معلمنا العتيد، الذي قيل لنا بأن خبرته في الملاكمة لا يشق لها غبار، وأنها قد تجاوزت كل حدّ، وما لبث أن خرج (توفيق) أفندي بشورت الملاكمة وكفيها الكبيرين، وراح يحرك قدميه، ويتقافز، ويضرب الهواء بكلتا يديه، ونحن نصفق له ونهتف لقدراته الفريدة، ثم ما أن تصدى له الملاكم الزائر ووجه إليه أولى لكماته القاسية، حتى خارت قوى (توفيق) وأخذ يضرب على غير هدى، وهو يتلقى ضربات أشد قسوة من سابقاتها، حتى لقد أطمع ذلك خصمه فيه فراح يركله بقدميه فضلاً عن يديه، حتى ورم وجهه، وأخذ يترنح، ثم ما لبث أن سقط مغشياً عليه... ونحن لا زلنا نصفق ونهتف ونصيح (بصّ شوف توفيق بيعمل ايه)!!

كان لدينا فريق رائع لكرة السلة يتضمن (خالد فصوله) و(إسماعيل

إبراهيم) و(سالم نوري)، و(محسن نايف) و(سالم...) وكنا نستمتع بفنهم المتميز في اللعب وباكتساحهم للفرق المدرسية واحدة إثر أخرى، ولكن وكما هو معروف فإن (فوق كل ذي علم عليم)، إذ ما لبث أن دعي للمدرسة فريق متوسطة المثنى لإجراء لعبة ودية مع فريقنا، وكان من بين لاعبي الفريق الزائر (مسعود شريف) الذي لا يشق له غبار، فما أن بدأت اللعبة حتى راحت الأهداف تنهال على فريقنا بحيث أنهم لشدة إحساسهم بالإحباط توقفوا عن التهديف إلى سلة الخصم، وراحوا يتفرجون على فن (مسعود شريف) الذي سيقدّر له فيما بعد أن يكون أحد أبطال العراق في لعبة كرة السلة هذه، والذين يشار إليهم بالبنان.

يوماً كان (مسعود) أفندي مدرّس الجغرافيا، يشرح لنا على الخارطة جانباً من تكوين قارة آسيا، ويبدو أنه لحظني وأنا منهمك بالحديث مع جاري في الصف، فما كان منه إلّا أن استدعاني وسلمني العصا التي كان يؤشر فيها على الخارطة وطلب مني أن أؤشر على سيبيريا... وكانت سيبيريا هذه على جلالة قدرها، مفروشة بمساحاتها الواسعة أمام عيني، ولكني لشدة ارتباكي لم أتبين موقعها، فما كان من (مسعود) إلا أن يوجه إلي صفعة قاسية، لا زلت أتذكر طعمها حتى الآن... لقد كان بعض المعلمين دون مستوى مهمتهم التربوية بكثير وكانوا يعتمدون أسلوب العنف، والبسط، والتخويف، لإرغام الصغار على الإجابة عن الأسئلة... ولكن دون جدوى...

معلمنا الآخر في الصف السادس الابتدائي (عبد الله أفندي عبيد أغا) رَحِمَهُ اللهُ أراد أن يجري تجربة فيزيائية عن قوة البخار أمام أعيننا، وأعلمنا بالأمر في اليوم السابق، فتملكتنا فرحة غامرة، ورحنا نعدّ الساعات والدقائق بانتظار حلول اليوم التالي لمشاهدة إجراء التجربة... وحان موعد الاختبار، فإذا بمعلمنا يأتي (بالبريمس) وهو جهاز صغير مما يحمى عليه الماء، وأشعله، ووضع فوقه إناءً معدنياً مملوءاً بالماء ثم جاء بمحمل حديدي وضع فوقه حلقة ذات رياش معدنية ملتوية، وقبل أن يبدأ التجربة نادى متباهياً على (محمد

علي) الفراش أن يذهب ويستدعي مدير المدرسة (بشير الدليمي)، وجاء الرجل يتمخطر بجسمه الفارع، وسيدارته المرتفعة، وهو سعيد لمشاهدة أحد معلميه يمارس تجربة عملية قبالة أعين التلاميذ، والدعاية ستصب في نهاية الأمر في جيب إدارة المدرسة... وبدأت المهمة: حيث سلط المعلم (عبد الله أفندي) فم الإناء المعدني الذي كان يخرج البخار بغزارة، على الريش المعدنية، ووقف ينتظر تحركها بقوة البخار... ولكنها ـ لسوء الحظ ـ صمدت أمام الاختبار وأصرّت على ألّا تتحرك!!

مرةً ومرتين وثلاثاً وعشراً، وعبد الله أفندي يسعى لجعل البخار يحرك الريش، فلا يستجيب له، فما كان من المدير إلا أن نظر إليه نظرة ذات دلالة بالغة وغادر الصف... ونحن لا زلنا غارقين في غبطتنا البالغة والخبيثة، بفشل معلمنا عبد الله أفندي في تجربته هذه!!

وبشير الدليمي هذا نفسه، هو الذي أصدر يوماً أوامره الصارمة بأن يحلق الطلبة جميعاً شعر رؤوسهم، ولا يتركونها تتهدل على الأطراف... يبدو أنه كان يريد أن يعطي درساً تربوياً بضرورة الالتزام بقيم الرجولة، وحدّد أحد أيام الأسبوع كآخر موعد لتنفيذ المطلوب، وإلا فإن التلاميذ الذين لم يلتزموا سيلقون عقاباً من نوع فريد... أن يقوم المدير بنفسه، وبيده مقص الحلّاقين، بتمرير المقص على وسط الشعر، وترك الطالب عرضة لتندّر المتندرين!! إلا أنني لم أدر لماذا، لم أكترث للأمر، ولم أسارع بالذهاب إلى الحلاق، لعل ذلك يقيناً مني بالصداقة العميقة التي تربط المدير بوالدي... ولعله الكسل... ولعله... والمهم أن المدير دخل علينا في اليوم المحدّد، وأخذ يجزّ شعور الطلبة الذين لم ينفذوا أوامره، وكنت أنا أحد ضحاياه، ولا تدرون كم كانت وضعيتي حرجة، وأنا أجتاز الدروب والأزقة عائداً إلى البيت، ويدي فوق رأسي لتغطية الخندق العميق الذي أحدثه مقص المدير... الصديق الحميم للوالد!!

و(فيصل الأرحيم) ﷺ أعطانا في الخامس الابتدائي درساً لن ننساه... كان قد التحق عام (١٩٥٢م) ضمن وجبة جديدة من المعلمين المتميزين،

للتدريس في مدرستنا (الوطن)، وكلّف بتدريس مادة التاريخ، وكان من عادتنا أننا قبل انتهاء الدرس الرابع والأخير بخمس دقائق أو عشر، نخرج حقائبنا من مجراتها، ونضعها على سطح الرحلة، قبالتنا، استعداداً للانصراف... لم يرتح الرجل لهذا التقليد الذي قد يعكس حالة كراهية ونفور من التدريس، فما كان منه في اليوم الأول لتدريسنا إلّا أن يتقدم إلى ابن أخته (أسامة الأرحيم) من بين سائر التلاميذ، ثم يمسك حقيبته بيده ويرفعها بأعلى ما يستطيع ويرمي بها بعيداً باتجاه اللوحة...

أُخذ (أسامة) بالموقف الغريب، أما نحن فسارعنا في إعادة حقائبنا إلى أماكنها من المجرات قبل أن يصيبها ما أصاب حقيبة (أسامة)، التي أخذ يضرب بها المثل على صرامة معلمنا الجديد... ونزاهته... رحمه الله...

و(فيصل الأرحيم)، هو نفسه الذي تولى إخراج مسرحية (وامعتصماه) لكي تعرض في ساحة المدرسة في أحد فعاليات (الخميس)، وكلفني أن أكون أحد الأشراف العشرة الذين يستشيرهم الخليفة المعتصم فيما يجب اتخاذه تجاه غزو الروم... ولقد بذلت جهداً استثنائياً في البحث عن ثوب ملائم وعمامة لائقة، كما كلفت أحد زملائي برسم شواربي بالقلم الأسود... أو الفحم.

كانت المدارس الابتدائية يومذاك تشهد صبيحة كل خميس، جملة من الفعاليات منها: تحية العلم، والأناشيد الوطنية، وتقديم المسرحيات الهادفة... ثم جاء الدور علينا... ولكن... المفاجأة التي لم تكن في حسباني، أن الكراسي التي يجلس عليها الشرفاء لم تكن على عددهم، الأمر الذي جعلني أمارس دوري واقفاً وأنا أكاد أتصبب عرقاً من شدة الخجل...

كان بمعيتنا في الصفوف المتقدمة، الخامس والسادس الابتدائي، شباب كبار، ممن كان منظرهم يدهشنا وهم يأتون إلى المدرسة بالبدلة والرباط والحذاء الأنيق، وصفة الشعر الممشط بعناية وربما كان بعضهم متزوجاً... حيث لم يكن الطرد من المدرسة لمن يرسب أكثر من سنتين قد نفذ بعد... ولهذا كان بعض الطلبة يرسبون السنوات الطوال... ويكبرون... ويتزوجون... وهم بعد

طلبة في المدرسة الابتدائية... وقد يزوجون أولادهم وهم بعد طلبة في المدرسة الابتدائية... فتأمل!!

لا زلت أذكر يوم خرجنا إلى ساحة الطيران لمشاهدة السباق النهائي في كرة القدم، بين فريقَي المعارف ونادي الجزيرة ذي الشهرة الواسعة، وحارس مرماه العملاق (صامو) الذي كان يصعب اختراق هدفه... كان معظم لاعبي فريق المعارف من طلبة مدرسة الوطن الابتدائية: غانم أبو لغد، سالم الأعور، عبد الكريم القطان، عبد الجبار خضير... وغيرهم، وكنا واثقين من هزيمتهم على يد وبأقدام أبطال نادي الجزيرة المعروفين، ولكن ـ ويا للعجب ـ ما أن بدأت اللعبة ونحن نتقلب على أحرّ من الجمر، ودخل أوّل هدف ضد نادي الجزيرة حتى ارتخت مفاصل (صامو) وتملكه الارتباك فإذا به يتلقى هدفاً ثانياً... وثالثاً... ورابعاً... فما كان منه إلّا أن تحوّل إلى حالة من اللا أبالية أو اللا اكتراث، وأصبح يرد على القذائف الموجهة إليه من منتخب المعارف، بأن يقوم بعمل استعراضي، فيتعلق بالعارضة ثم يروح ويجيء عدة مرات في محاولة منه لصد الكرات، وهو في هذه الحالة الغرائبية التي انتهت باكتساح فريقه بستة أهداف مقابل لا شيء... لقد سقط (صامو) ولم يعد له ذكر طيلة ما تبقى له من عمر!!

وثمة جملة من الطلعات خارج المدرسة بمعية معلمينا... كان لها طعم خاص في أفواهنا ووجداننا، لا زلنا نستشعره حتى الآن... أذكر من بينها طلعة تلاميذ المدرسة يوم (عيد الشجرة) في الحادي والعشرين من آذار، حيث كلف كل واحد منا بزرع شتلة في أحد الأحواض المرصوصة على أرصفة المدينة... وكان الحوض الموازي لحديقة المتحف من نصيبي... زرعت الشتلة وأنا في غاية السعادة، وعدت إلى البيت على أجنحة الفرح والغبطة لإنجازي شيئاً ما خدمة لبلدتنا الغالية الموصل... ولكني وكل التلامذة الآخرين، لم ندر أن يد السوء أكثر فاعلية من يد الخير والعطاء، إذ ما لبثنا بعد يوم واحد أو يومين، أن وجدنا كل ما زرعناه قد اقتلعته أيادي الشر والإفساد.

ومن بين تلك الطلمات الجميلة، زيارتنا لعدد من مصانع النسيج والطابوق في الموصل... واصطفافنا على أرصفة شوارع الموصل لمشاهدة مهرجان الاحتفال بتتويج الملك فيصل الثاني، أو المشاركة في مشاهدتنا للمسيرات العسكرية في ذكرى تأسيس الجيش العراقي في السادس من كانون الثاني من كل سنة...

وثمة الرحلات الربيعية... وما أدراكم ما الرحلات الربيعية في الموصل أم الربيعين؟ سواء كانت تلك التي ترتبها العوائل أو تتولاها إدارة المدارس... حيث كان ربيع الموصل يغري الناس كافة بالخروج إلى البراري للتمتع بجمال الطبيعة، واستنشاق الهواء الطلق، واللعب، وتناول الطيبات، والتقاط الصور التذكارية... كانت هنالك تقاليد جماعية أشبه بالطقوس التي ترتبط بكل رحلة... ومن بينها: تناول المخللات، والبيض المسلوق، وأكلات الموصل الشهية، والجرز، والخس، والأغاني والأناشيد المصوغة خصيصاً لهذه الرحلات... وثمة أيام معينة من كل ربيع تحمل تسمياتها الثابتة من مثل: عيد مار كوركيس، وعيد مار ميخائيل، وعيد الطوافة... وغيرها مما كان يعكس الألفة والمحبة والانسجام بين طوائف الموصل كافة... ويجد المرء نفسه مضطراً للمقارنة بين ذلك العصر الذهبي من التعايش السلمي، وبين ما شهده العراق، والموصل، فيما بعد، من تمزق طائفي وحروب أهلية وقتل وتهجير...

أذكر رحلتنا إلى (الجيلة)... وكنا يومها في الصف الرابع الابتدائي... حيث تجمعت الباصات أمام المدرسة وأخذ كل واحد منا مكانه وهو يحمل معه (الزنبيل) المليء بالأطعمة والفواكه والخضار... كنا أنا وأخي وخالي وابن خالتي وابن عمي في مجموعة واحدة، وما أن استقرت بنا الباصات في روابي الجيلة، حتى انطلقنا نركض ونلعب ونتسابق ونلتقط الصور ونحن في غاية الحيوية والنشاط... حتى إذا عضنا الجوع بنابه افترشت كل مجموعة جانباً من العراء وراحت تتناول وجبتها بشهية بالغة، ولكن الذي عكرنا أن ابن خالتنا الذي تناول طعامه مما أتينا به، لم يكلف نفسه، حرصاً وربما بخلاً، في أن

يخرج الدجاجة المحشية التي عملتها لنا أمه، وأن يعود بها سالمة إلى البيت!! ولا زلنا حتى اللحظات الراهنة نتذكر هذا الموقف غير المقبول، والذي يدل على قدر كبير من الأنانية... وزادنا امتعاضاً أن الغيوم الربيعية الكثيفة السوداء ما لبثت أن تجمعت في كبد السماء وأنذرت بمطر غزير، مما دفع معلمينا بأن ينادوا علينا بالتهيؤ للعودة ولم يمض على العصر سوى دقائق معدودات.

وكنا أنا وخالي برهان نعرف كيف نوظف الزمن للمزيد من المتع والمسرّات، فكنا في ليالي الصيف نغادر دار خالي الكبير (يحيى البزاز) ﷺ في منطقة العكيدات، ونصعّد في الشوارع التي تفصل بين الدار وبين محطة القطار الصاعد إلى بغداد، حيث الهواء الرقيق والأرض المكشوفة التي لم تكن قد ازدحمت بالبنيان، وحيث كان خالي يردّد بعض الأغاني وأنا أنصت إليه بتأثر بالغ... حتى إذا وصلنا المحطة، ذلك البناء الإنكليزي الأنيق، والرصيف الرائع والموازي للسكة التي يقف عليها القطار بانتظار موعد الانطلاق إلى بغداد، في التاسعة من مساء كل يوم، ونحن نمتع أنظارنا بالمسافرين الذين يلوّحون بأيديهم وهم في أقصى حالات السعادة والانسجام.

وكان القطار يومذاك، غاية في النظافة والخدمات التي كان يتولاها مجموعة من الآثوريين، يرأسهم رجل معروف، كنا نسميه (التيتي) لا أدري لماذا، وهو يتجول بين الدرجات الأولى والثانية لتقديم أكواب الشاي بالحليب للطالبين... وكم كنا نتمنى يومها أن نستقل القطار نحن الآخرين لكي نتذوق طعم الرحلة الممتعة إلى بغداد، حيث أتيح لنا ذلك فيما بعد عشرات المرات وربما مئاتها!!

في الخريف يتحول اتجاه الرحلات جنوباً صوب (حمام العليل) حيث كان الموصليون، فقراء وأغنياء، يتجهون إلى هناك لقضاء الأسابيع الطويلة مستأجرين دورهم وعرازيلهم قريباً من الحمام ذات المياه المعدنية الحارة، لكي يمارسوا الاستحمام اليومي الذي يقال أنه يشفي من الكثير من الأمراض، وليقضوا بقية اليوم ما بين الجلوس في دورهم، أو في المقاهي العديدة المنبثة

في شرايين حمام العليل، أو الذهاب إلى البراري الرائعة المليئة بالخضار واللوبيا، والمطلة على نهر دجلة لتناول عشائهم هناك.

كان ذلك من التقاليد الأصيلة للموصليين، ولا زلت أذكر رحلتي الأولى إلى حمام العليل، وكنت يومها في الصف الأوّل الابتدائي، حيث دعي والدي وأعمامي لحضور حفل ختان ابن لأحد معارفهم هناك... تملكتني لحظة اختيار أبي للذهاب معهم فرحة غامرة... وعندما انطلقت السيارات عصراً عبر الطريق الملتوي جنوب الموصل، فيما كانوا يطلقون عليه اسم (الحيّة) بسبب من شبهه بالتواء الأفاعي، تصوّرت أن السيارات تتحرك بالفعل على ظهر أفعى كبير، وتملكني خوف شديد لم أتخلص منه إلا بعد أن استقام لدينا الطريق... وهناك نزلنا في أحد الفنادق المتواضعة لكي نقضي ليلتنا في سطحه... كان الهواء منعشاً والقمر يشع ضوءه على المكان، ورحنا نحن الصغار نتحدث ونمزح حتى أخذتنا سنة من نوم عميق... وفي اليوم التالي حضرنا حفل الختان الذي بدأ بتناول وجبة شهية من الفطور بما يتضمنه من كيك وقيمر وبقلاوة وحاجي بادة ومعكرونة وجرزات، ثم ينتهي بختان الطفل بعد أن يقف على رأسه مجموعة من الشبان وهم يهرجون بصوت عال لكي يغطوا على صرخات الطفل... أما النساء فيرفعن أصواتهن بالهلاهل المتواصلة... ولم يكن لنا نحن الصغار شأن بهذا كله، فكنا نلعب ونتقافز هنا وهناك حتى أذن الوقت بالعودة إلى الموصل، بالقطار العائد من بغداد... حيث يمثل ركوبه بالنسبة لنا معشر الأطفال متعةً بالغة...

بعدها كثرت الرحلات إلى حمام العليل في كل خريف... ننزل حيناً في بيوت أحد أعمامنا المستأجرة هناك، وحيناً آخر في البيت الذي أستأجره أبي... وكان يعجبني أن أغادر البيت فجر كل يوم لمتابعة ما تشهده ساحة المزاد، حيث تتدفق الفاكهة والخضار من المزارع القريبة لكي يتم بيعها بالمزاد، بعد أن يأخذ المنادي حصته الدسمة من كل وجبة منها... ثم يجيء دور النزول مع أبي وأخي وبقية الأقرباء المدعوّين إلى الحمام، حيث فرصة

برد الخريف تمنحنا متعة بالغة ونحن نغمر أجسادنا في حوض الحمام المتدفق الساخن، لكي ما ألبث في كل مرة أن ينتابني الغثيان من شدة الحرّ ورائحة المياه المعدنية وكثافة البخار، فأنتقل إلى مكان الاستراحة، ولا أسترجع وضعي إلا بعد شرب كوب الحامض (المصنوع من نوم البصرة)، ونعود بعدها إلى البيت وقد اعتصرنا الجوع فنتناول وجبة شهية من المعلاق المشوي.

لا زلت أذكر، وكنت يومها في السادس الابتدائي، كيف أغرتني نفسي بالصعود إلى سطح خزان الماء الكبير العالي والذي يغطي حاجة المدينة كلها، وذلك من خلال السلّم الحديدي الضيق الذي أمسكت... به جيداً، حتى إذا ما وصلت إلى حافة السطح تشبثت به، وأفلت قدمي من الدرجة الأخيرة من السلّم، فإذا بي أفاجأ باثنتين: أن سطح الخزان الحديدي ليس مستوياً وإنما هو منحنٍ بشكل مخيف، وأن الريح القوية كانت تهب هناك بعنف ويمكن لها أن تقتلعني وترميني حطاماً... لحظات قاسية من الرعب، وأنا أجد نفسي وحيداً قبالة الموت... ورحت أقرأ ما تيسّر من آيات القرآن الكريم، وأدعو الله ﷻ أن ينقذني من هذه الورطة، ثم أغمضت عيني، وبدأت أتحسس الدرج الأول النازل إلى الأرض، حتى إذا ما لمسته ثبّتُّ عليه قدمي اليمنى وصحت: يا الله... وأخذت أنزل وأنا متشبث بقوة بطرفَي الدرج، حتى إذا ما بلغت الأرض غمرني فرح يصعب وصفه، فرح الذي تنقذه مشيئة الله ﷻ من كماشة الموت...

ومنذ ذلك اليوم، وحتى الآن، وأنا أتقدم باتجاه الخامسة والسبعين من عمري، أصبحت أخشى الأماكن المرتفعة ولا أجرؤ على الصعود إليها خشية أن ينتابني هاجس السقوط... حتى أنني بعد أن أصبحت أقود سيارتي، كنت لا أجرؤ على الصعود بها عبر المنحنيات الجبلية العالية في طريق مصيف صلاح الدين في شمال العراق، فكنت أطلب من أحد أقربائي أن يصعد بالسيارة بدلاً عني...

هناك الرحلات الأبعد في المكان عبر (الألوية: المحافظات)، ولا زلت أذكر الطعم العذب لرحلتنا العائلية الأولى إلى دهوك بدعوة من أحد أصدقاء

أبي الذي يعمل موظفاً هناك... استأجرنا سيارة حشرنا فيها أنفسنا: عائلتنا وعائلة خالي، وانطلقنا صباحاً والفرح الذي يصعب وصفه يغمرنا بفيضه... كان ذلك ـ ربما ـ عام (١٩٤٩م) حيث ما لبثنا أن نزلنا في بيت صديق الوالد المدعو (أبو منيب) ﷺ، ومن هناك كنا ننطلق يومياً إلى إحدى بساتين دهوك الخصبة المحملة بالأثمار: الروبال، أو صندور التي كانت تتميز بكثافة ثمرها، وكنا نحن الصبيان نلعب ونمرح ونتقافز هنا وهناك، ونقطف ما يلذ لنا من الفاكهة لكي نحشرها في بطوننا... ونعود لكي نواصل اللعب العنيف في سطح البيت حيث كنا ننام، فيكون التضارب بالوسائد لعبتنا المفضلة... وفي اليوم الثالث شعرت أمي بأن العائلة التي استضافتنا قد بدأت تمل من وجودنا، وأنها أخذت تحتاط من تصرفاتنا العنيفة قبل أن نهدم البيت على رؤوس أصحابه، فما لبث والدي أن قرر العودة بنا من حيث أتينا.

وثمة رحلة طويلة، أخرى في العام التالي (١٩٥٠م) إلى بغداد العاصمة هذه المرة، حيث كان أبي يسافر بين الحين والحين للتبضع من هناك بما يحتاجه محله الكبير في باب السراي. وقد اختارني لكي اصطحبه وزميله التاجر الآخر (يحيى عبدال) ﷺ، وتنفيذاً للوعد الذي قطعه على نفسه بشراء دراجة لي مكافأة على نجاحي.

وانطلق بنا القطار في التاسعة مساءً، وراح أبي ـ كعادته ـ يوزع النكات، ويكسب الأصدقاء، ويقوم بمقالبه الصغيرة المحببة التي كانت تضحك الجميع وتنسيهم متاعب السفر والسهر القاسي الذي يمتد لأكثر من عشر ساعات. ولدى وصوله بغداد توجهنا بباص مصلحة نقل الركاب ذي اللون الأحمر المعروف إلى أحد فنادق ساحة الأمين المحاذية لشارع الرشيد في جانب الرصافة.

والآن، فإني عندما أقوم بمقارنة بغداد يومذاك، بما هي عليه في بدايات القرن الجديد، أجد الفرق شاسعاً... شاسعاً... في مساحتها... في عدد سكانها... في سهولة خدماتها... في كثرة بساتين النخيل بين دورها... وفي

هوائها النقي المغسول... كانت بغداد يومذاك، مدينة رائعة، تتجول في شوارعها فلا يزحمك أحد... تركب وسائط نقلها فتجدها ميسرة أمامك... مدينة هادئة يسودها الوئام والانسجام والمحبة والتعايش بين الطوائف والأديان... أسوة يومها بمدن العراق كله... حيث كان أبي ـ على سبيل المثال ـ يتبضّع من كبار تجار الشيعة في الشورجة في بغداد فيتلقونه بالأحضان... وحيث كان يجاوره في محله بالموصل تاجر مسيحي يدعى (يوسف حنا بحّو)، وكانت تربط بين الجارين علاقة مودة وانسجام، ووجبات طعام، ورحلات ربيعية مشتركة، وقبالة محله تماماً كان يقبع محل رجل يهودي يدعى (أبو يونها)، كان كثيراً ما يتردد على محل والدي لتبادل الأحاديث...

وكان طبيب عائلتنا وصديق الوالد الدكتور المسيحي (يوسف سرسم)... أما التجار الكرد والآشوريون الذين يتدفقون على محل أبي باستمرار، قادمين من دهوك وأربيل، فكانوا هم الأكثر عدداً من بين كل المتبضعين من سوق والدي، وكانت تربطه بهم علاقات حميمة من المودة والمحبة والانسجام، وبعضهم كان يزورنا في البيت ويقضي معنا الساعات الطوال، وهم يحملون معهم دائماً الهدية المفضلة (لبن أربيل) الموضوع في قدر كبير مغطى بالخام والحشيش.

وعندما أقارن بين الوضع في بغداد يومذاك، وما هو عليه اليوم من تمزق طائفي... وعندما ألقي نظرة على ما شهدته الموصل يومذاك وما ذاقت ويلاته بعد الاحتلال... أقول في نفسي: إنها تعاليم هذا الدين الذي جعلنا نتعايش بعفوية وانسجام مع كل الطوائف، قبل أن يدس الاستعمار أنفه، ويفرّق بين أبناء الشعب الواحد... ولقد كانت الموصل بالذات أشبه بخارطة فسيفسائية تنطوي على كل الألوان العرقية والطائفية، التي كنا نمرّ بها صباح مساء ونحن ذاهبون إلى المدرسة أو السوق أو عائدون منهما: المسلم والمسيحي... العربي والكردي والتركماني والشبكي والإيزيدي... السني والشيعي... اليهودي والصابئي (وكنا نرى هؤلاء وهم يعملون في دكاكينهم بمهنة صياغة المواد الفضية)، والمسيحيون

أنفسهم كانوا يتواجدون بطوائفهم كافة: الكاثوليك والأرثذوكس والبروتستانت والأرمن والسريان والآراميين والآشوريين... وطالما برز من الأرمن والآشوريين رياضيون كبار غزوا الساحات ببطولاتهم في كرة السلة والقدم وألعاب الساحة والميدان.

بغداد عام (١٩٥٠م) كانت مدينة رائعة... تجولنا في شوارعها ومتنزهاتها ومطاعمها الأنيقة واجتزنا أسواقها، التي لا زلت أذكر كيف أننا كلما دخلنا سوقاً نادى أصحابه على قناني البيبسي والكوكا كولا، وكانت حديثة عهد في دخول العراق، ذات غاز مكثف يتكسر في الحلق ويمنح المشروب لذة بالغة، ولا أدري لحدّ الآن مدى صحة ما قاله لنا مدير مدرستنا الابتدائية (بشير الدليمي) عبر اجتماع حاشد في المدرسة، بأن في هذين المشروبين شيء من معدة الخنزير وأن علينا أن نتجاوز شربهما، ولكن المؤشرات تدل على مصدر الخطر باتجاه آخر: إن مالكي هاتين الشركتين هم من يهود أمريكا ورأسمالييها الكبار، وأن علينا إذا أردنا اتخاذ الموقف السليم، مقاطعتهما...

بعد بضعة أيام من البقاء في بغداد، عدنا بعد أن حصلت على جملة من اللعب وعلى الدراجة الهوائية التي وعدني بها أبي، لكي ما نلبث بعد سنتين (١٩٥٢م) أن نقوم برحلة طويلة أخرى بمعية الوالد والجدة، اجتزنا فيها أربيل، حيث قضينا هناك بضع ساعات، ثم ركبنا القطار الذي اخترق كركوك في طريقنا إلى جلولاء، حيث كان زوج خالتي المقدم (حسين الزرقي) في استقبالنا لكي يأخذنا إلى داره هناك.

قضينا في جلولاء، أياماً طيبة، وكنا نقضي أمسياتنا في النادي العسكري حتى ساعة متأخرة من الليل... ثم ما لبثنا أن ركبنا القطار، بعد أن تركنا جدتي عند ابنتها، واتجهنا إلى بغداد لكي نحلّ ضيوفاً على بيت عمي (الحاج أحمد)، القريب من جسر الصرافية لعدة أيام...

وفي العالم التالي (١٩٥٣م) أعدنا الكرة، هذه المرة، نحن مجموعة كبيرة

من آل الحاج عمر الطالب في زيارة أخرى إلى بغداد ضمت والدي وأخي الأكبر واثنين من أبناء عمي (الحاج محمد)، حيث قضينا في دار العم الحاج أحمد، الذي كان قد تحوّل قليلاً إلى شمال جسر الصرافية، بضعة أيام...

كان يوم ختاننا في خريف (١٩٤٩م) يوماً مشهوداً، حيث أعلن في إحدى الصحف الموصلية عن أن ولدي خليل الحاج عمر: مظفر وعماد وخالهما برهان البزاز سيختنون في اليوم المحدد، وفي دار الخال يحيى البزاز في منطقة العكيدات على الطريق الصاعد إلى محطة القطار.. وبدأ المدعوون صباح ذلك اليوم يتدفقون على الدار لتناول الفطور الدسم من القيمر والكيك والبقلاوة والحاج بادة ومنّ السماء والجرزات والشاي، قبل عملية بدء الختان وتنفيذاً للتقليد السائد في الموصل لدى كل ختان... كنا نحن الصبيان نركض في الشوارع والأزقة المحيطة بالدار، ولا ندري ماذا يراد بنا، دون أن نكترث لطعام أو شراب...

لكننا عندما أزفت ساعة الحسم، رأينا بأم أعيننا (المطهرجي) وهو الرجل المكلف بعملية الختان، يحمل حقيبته السوداء المقوسة، ويصعد الدرج إلى الرواق العلوي حيث فرشت الأرض، وأمسك والدي بطرف قطعة من القماش التي ستغطى علينا، بينما أمسك خالي الأكبر بالطرف الآخر، ووضع خالي (برهان) وهو يصرخ من الخوف، ويحاول أن يتخلص دون جدوى، وراء الستارة، وبدأ رجل الختان عمله، واختلطت أصوات الصراخ والبكاء التي أطلقها خالي (برهان) بأصوات المدعوين وهم يرددون بصوت عالٍ عبارة (وردة حاق ساق ناصي... هي)، ويبدو أنها عبارة ذات أصل تركي تتضمن معنى ما لم ندركه حتى الآن... وأنا وأخي مظفر نرتجف خوفاً ورعباً. ثم ما لبث (برهان) أن أخرج من وراء الستارة محمولاً على الأكتاف، لكي يوضع على سريره في الغرفة المجاورة، وجاء الدور على أخي، وتكرر المشهد... وأنا الذي يفترض أن تبدأ العملية بي تجاوزاً لتعذيبي، باعتباري الأصغر عمراً، كنت آخر المعذبين،

ورحت أبكي وأصرخ وأرفس بيدي وقدمي كي لا أوضع تحت سكين (المطهرجي)، ولكن عبثاً... وأخيراً وضعنا نحن الثلاثة كلٌّ في سريره الخاص، وبدأنا نتلقى هدايا المعارف والأقرباء من التفاح الشامي والفستق الأخضر، وعلب السكاكر الإنكليزية الرائعة التي كادت تنسينا متاعبنا تلك التي استمرت ثلاثة أيام، كان رجل الختان يأتينا خلالها لاستبدال الضمادات، ثم ما لبثنا أن تماثلنا للشفاء.

ثمة واحدة من أجمل سنوات الطفولة لا بدّ من الوقوف عندها قليلاً... تلك السنة التي غادرنا فيها دارنا في جامع خزام وأستأجرنا داراً مجاورة لدار (زهدي النقيب)، قريباً من دورة الشفاء، حيث كانت هي الدار الأخيرة في شمال الموصل، وبعدها مباشرة تمتد الأراضي الشاسعة ومبنى المستشفى الملكي ذو اللون الأحمر، بحدائقه الرائعة، وخدماته المتميزة، ونظافته وهدوئه... وإلى الجنوب قليلاً تقوم (باشطابيا)، القلعة الموصلية العريقة التي تصدّت للصليبيين والمغول معاً، وإلى جوارها يقوم مرقد أبي القاسم ذي النقوش المدهشة على المرمر، فيما يعد واحداً من أغنى الأبنية التراثية في العالم.

وكان فصل الربيع يحيل المنطقة إلى جنة خضراء، تتفجر في جنباتها أزهار النفل ذات الألوان البهيجة والروائح العطرة، وعلى أطرافها تطل شقائق النعمان بلونها الأحمر الفاقع، والصفوّ صفير الذي طالما نافس سيقان الحنطة، وأطل برأسه على الفضاء الكبير.

انتقلنا إلى هذه الدار، المبنية حديثاً، والتي يملكها أحد أنسباء والدتي (زهدي النقيب) ﷺ في خريف عام (١٩٥٠م)... كانت ذات حديقة واسعة تحيط بها من جهاتها الأربع، مترعة بأنواع الزهور الخريفية ذات الألوان الهادئة والعطر الخفيف، وكنا نمارس فيها اللعب، والجلوس، وقراءة القصص والروايات... وعندما حلّ الشتاء، وبدأ المطر يتساقط بغزارة أوينا إلى غرفة

الجلوس، حيث كانت الوالدة تقص علينا من ذاكرتها أجمل القصص وأشدها تشويقاً، فضلاً عما كانت تقرأه لنا مما كنت أستعيره من مكتبة المدرسة.

وعندما يطل موسم الربيع تتحول حديقة البيت، وكل البراري المحيطة به، إلى ساحة لعروض الخضرة الفاقعة والأزهار الملونة: الشبّو والقرنفل والعطر والبانسي وعرف الديك وأشجار الورد... أما في الصيف فقد اخترت لي زاوية من الحديقة الشمالية، محاطة بورود النازناز الرائعة ذات الألوان، وفي وسطها دائرة يكسوها الثيل ويحيط بها الحصى الملون، حيث كنت أقضي الساعات الطوال هناك، قارئاً، متأملاً، مسترخياً... ومتناولاً بعض وجبات الطعام الخفيف... وكنت أدعو للعب معي هناك اثنين من أبناء جيلي هما (عبد الإله الحاج يعقوب الخياط) ﷺ وأخوه (عبد المنعم) اللذان كانت دارهما قبالة دارنا، وحيث كنا نقضي الساعات الطوال في هذه الجنينة الجميلة، أو في التجوال عبر البراري المحيطة بالدار، وصولاً إلى نهر دجلة المتدفق بغزارة في موسم الربيع... وكنا أحياناً نقترب من مسجد أبي القاسم حيث كنا نسمع من داخله، وبأصوات لا نكاد نتبينها، فيما كان يقوله لي (عبد الإله): أن عالم الموصل الجليل حبيب أفندي العبيدي ﷺ، الذي كان والده (الحاج يعقوب الخياط) يحرص على حضور مجلسه عصر كل يوم، يتحدث فيه... وكنا في كثير من الأحيان وحيثما تجمع بمعيتنا عدد من الأصدقاء، نمارس لعب كرة القدم في العراء المجاور للدار.

إنها والحق يقال واحدة من اللوحات الجميلة التي انطبعت في ذاكرتي ووجداني من أيام الطفولة... حيث ما لبثنا، بعد انقضاء العام، أن قفلنا عائدين إلى دارنا الصغيرة الأنيقة في محلة جامع خزام.

وثمة لوحة أخرى لا تقل روعة... تلك هي حياتنا أنا وأخي وخالي مع نهر دجلة الذي يتدفق رخاء عند حافات الموصل، حيث كانت تقام هناك الجرادغ وأسواق بيع الرقي والبطيخ والخيار فيما يسمى (بالكب)... كنا نعبر الجسر الحديدي، الوحيد

الذي يربط بين ضفتي المدينة، عصر كل يوم، لكي نذهب إلى الجانب الآخر، فنغطس في مياه النهر الباردة الساعات الطوال، حتى إذا عضنا الجوع بنابه غادرنا النهر إلى (الكب) فاشترينا شيئاً من الرقي والبطيخ، ورحنا نتناوله بشهية بالغة، لكي ما نلبث أن نغطس في الماء مرةً أخرى... وقد يستمر بنا المقام هناك إلى ساعة متأخرة من الليل، حيث يرى الناس وهم يعبرون الجسر، زرافات ووحداناً، عائدين إلى دورهم... لقد كان تقليداً يومياً رائعاً لا يمكن أن ينسى...

وكنا، أنا وأخي وخالي، نجتاز شوارع الموصل الجنوبية المحاذية (للسيب) (وهو قسطل كبير لسحب المياه يمتد لمسافات طويلة لتخليص المنطقة من مياه الفيضانات الربيعية الغزيرة)، حيث تتحول الشوارع إلى أنهار، ونقطع المسافات الطوال ونحن نخوض في الماء... وكنا في أخريات الربيع ننحدر إلى أقصى جنوب المدينة فيما وراء معمل الدباغة، حيث تصطف أشجار التوت، وتتساقط منها على الأرض كميات كبيرة، كنا نلتهمها التهاماً حتى نكاد نحس بالغثيان فنتوقف عن الأكل ونقفل عائدين مما كنا نطلق عليه (أرض التوت).

وفي إحدى المرات توجهت أنا وابن عمي (إنعام الطالب) باتجاه أراضي الخس الواسعة على الطريق إلى أرض التوت، وحدثتنا أنفسنا بأن نغافل حارس البستان ونقتلع رأسي خس لغرض التهامهما، فما كان منه إلا أن يلحظنا ونحن ننحني لاقتلاع الخس، فيهرع إلينا صائحاً متوعداً، ويلقي القبض علي، بينما يهرب ابن عمي الذي طلبت منه أن يصل بأسرع ما يستطيع إلى أقرب شارع ويطلب نجدة المارة من هناك... أما أنا فقد ساقني الحارس إلى جذع شجرة قريب وراح يتوعدني بربطي به عقاباً على محاولتي، ولكن ما لبث ابن عمي بعد دقائق معدودات أن جاء بالنجدة، التي راح أصحابها يقنعون الحارس بأنها كانت مجرد غلطة ولن يعودوا لمثلها، فما لبث أن أطلق سراحي... وكان هذا درساً قاسياً لي ألّا نعود للسرقة مرةً أخرى!!

في هذا السياق أذكر أنني عبر رحلة عائلية رائعة إلى حديقة الجانب

الأيسر للمدينة، أغراني (قرنطراش) (وهو الموس الصغير ذو الغلاف الخشبي الملوّن مما يوضع في الجيب ويقشّر به الخضار) إحدى العوائل التي شاركتنا تلك الرحلة، فدسسته في جيبي، وعدت به فرحاً سعيداً إلى البيت، وأنا بين لحظة وأخرى، أمدّ يدي إلى جيبي لكي أتحسّس وجوده... ولكني ما أن وصلت الدار حتى تملكني ندم عميق وإحساس هائل بالتأثم، وأنني قد اقترفت خطأ كبيراً بسرقة أحد موجودات الأقرباء... فما كان مني في رحلة الأسبوع التالي بمعية العائلة نفسها إلّا أن أتسلل إلى موجوداتهم وأدسّ على حين غفلة (الموس) فيها ثم أنسحب بهدوء وأنا أحس بسعادة غامرة... سعادة من يتخفف من عبء ثقيل كان يجثم على كتفيه.

كنا بسبب الحرية التي أتاحها لنا الوالد ﷺ نحشر أنفسنا في كل ما نصادفه، حتى لأذكر أنني وأخي وخالي فوجئنا يوماً بجنازة عامل دوندرمة، ذهب ضحية سقوط سقف المحل عليه، وهو بعد شاب لم يتزوج، وكان تقليد الموصليين، أن حالات كهذه يمارس تشييعها وسط نقر الدفوف وإطلاق الأهازيج، فما كان منا، مشاركة في الحزن على شاب طالما تناولنا عنده أكلتنا المفضلة، إلا أن نندمج في التشييع ونذهب إلى المقبرة القريبة في باب الطوب حيث دفن الشاب هناك، ثم ما لبثنا أن قفلنا عائدين وقد انتفخت عيوننا من كثرة البكاء.

وكان اللعب، بمختلف صنوفه، يمثل حلقة أخرى رائعة في زمن طفولتنا... وسواء كنا نشاهد الآخرين وهم يمارسون اللعب، أو أن نلعب نحن بأنفسنا، فالأمر سواء... متعة بالغة لا تضاهيها أية متعة أخرى... كنا أيام السباقات المدرسية النهائية لكرة السلة أو الطائرة، أو القدم نهرع إلى الساحات العامة لمشاهدة اللعبة وتشجيع مدرستنا بحماس منقطع النظير... وكنا نرجع في باص واحد مع فريقنا الفائز ونحن نتهلل طرباً وهتافاً...

أما في شهر نيسان من كل سنة، حيث يقام في ساحة الطيران

الاستعراض النهائي في ألعاب الساحة والميدان، للمدارس أو للجيش، فكنا نتدفق إلى الساحة لكي نحجز لنا موقعاً يتيح لنا الاطلاع على ما يجري في الساحة عن كثب... وكان (شفيق الجليلي) ﷺ الذي كنا نسميه (ملاك الموت) يركض بعصاه بجوار الخطوط المعلمة بالجص ويضرب بعنف كل من تحدثه نفسه بتجاوزها... فكنا عندما نراه يقترب يتملكنا الذعر ونضطر للانسحاب ريثما يبتعد قليلاً... كانت تلك المناسبات مهرجاناً رائعاً يقضي معه الموصليون أجمل الأوقات من كل سنة، حيث كان ينتشر في الأماكن المجاورة للساحة باعة المخللات والعرقسوس والخس والجرز... وغيرها مما اشتهر تناوله في الموصل.

ولكننا لم نكتف بالمشاهدة، بل كنا نحن أيضاً نمارس فنوناً من اللعب والتي نحس ونحن نمارسها بسعادة بالغة: لعبة الهوكي، كرة القدم، الكرة الطائرة، كرة السلة، كرة المنضدة، الريشة، العاب الساحة والميدان... ثم الألعاب الشعبية الموصلية السائدة في الأزقة والمحلات والدور، من مثل (الحاح والكطا، وهبابة الهبابة، والحرامية والبوليس، وجط ونام، والمصاريع، والكعاب، وفتح السيفون، ولعبة التبيل) (وهي الكرات الزجاجية الملونة، بمختلف تسمياتها). وكانت أجمل لعبنا هي إطلاق الطائرات الورقية في الفضاء البعيد، ثم نتبعها بتعليق الفوانيس الملونة على الخيط نفسه الذي ربطت به الطائرة، لكي ما تلبث أن تصعد هي الأخرى إلى الأعلى وتشكل منظر جميلاً رائعاً يملؤنا سعادة وغبطة، ونحن نرى طائرتنا الورقية بفوانيسها الملونة تحلق في أعماق السماء!!

وكان يرتبط بذلك كله عشقنا للمقتنيات وما يسمى أحياناً بالهوايات، (من مثل تجميع أغلفة الشيكولاتة والسكاكر، وعلب السيكاير، والكرات الزجاجية، والدمالج المكسرة ذات الألوان الرائعة، وعلب الشخاط، وصور النقود التي كانت توضع داخل علب السيكاير، وصور الأشخاص، والإعلانات السينمائية... الخ)،

حيث كنا نبذل من أجل تجميعها جهوداً صعبة، وأحياناً كنا نشتريها بالمال... وعندما نجلس قبالتها لتقليبها أو اللعب بها، كنا نحس بسعادة لا تعدلها سعادة... وللأسف الشديد، فإنني في لحظة نزق، عقب إنهاء دراستي الإعدادية، قمت بالتخلص منها جميعاً... ولا زلت أحس بندم عميق تجاه فعلتي تلك!!



الفصل الثاني

١٩٥٣ ـ ١٩٥٨م

في خريف عام (١٩٥٣م)، حيث كنت قد اجتزت امتحان البكالوريا بنجاح، تحوّلت إلى متوسطة المثنى التي تقيم في زقاق عريض متفرع عن شارع العدالة، وتطل على نهر دجلة الذي يبعد عنها خطوات... لكي أقضي هناك سنوات ثلاث هي من أعذب سنوات العمر وأشدها سعادة وانسجاماً... كان طلاب الصف الذي انتميت إليه متآلفين إلى حدّ كبير، رغم أنهم جاؤوا من بيئات وطبقات مختلفة، بعضها يملك الكثير وبعضها الآخر لا يكاد يجد شروى نقير... وكان فيها المسلم والمسيحي المحلي والآشوري والأرمني، المدني والقروي... ولكن هذه الفوارق لم تؤثر البتة على صفاء العلاقة بين التلاميذ، وقيامهم بالاشتراك بجملة من المفارقات والاستفزازات للمدرّسين الذين كانوا يعجزون عن إدارة الصف، قبالة مجموعة متميزة من المدرسين الذين كان كل منهم يملك شخصية آسرة وثقافة واسعة، كعبد الرحمن صالح رحمه الله الذي بدأ حياته الوظيفية ضابطاً في الجيش العثماني، فيما جعله يحتفظ بولائه للدولة العثمانية، وبذاكرة مترعة بالوقائع والأحداث من تاريخها المعاصر... كان يدرّسنا مادة (التاريخ القديم) وكان يشد اهتمامنا بطريقة عرضه، وأسلوبه في التدريس... وكان هناك إلى جانبه مدرّس الجغرافيا محيي الدين العشائري، وهو أحد أقرباء والدي رحمه الله... وغانم مطلوب مدرّس العلوم... ومهدي السامرائي مدرّس العربية، وإدريس التلعفري مدرس الإنكليزية، ونجيب لازار ذو الشخصية المتفردة في قدراتها العلمية، والفنية، وفي غرائب أطوارها التي انتهت به إلى مستشفى المجانين في بغداد وحيث توفي هناك... وأحمد

الصوفي مدرّس الدين ذو التكوين العصبي والعصا الغليظة.. وعوني سليم مدرّس الرياضة، وهو ابن عم والدي ﷺ، وعبد العظيم المصري المنتدب من بلده للتدريس في العراق، والذي كان من ذوي الاعتناء بكمال الأجسام، حيث كان يملك جسداً مؤهلاً لذلك، ولم يكن ممن يملكون القدرة على ضبط الصف، وخصوصاً في أوقات الامتحانات حيث يسود الغش... بل إنه في إحدى المرات طلب من التلاميذ صراحة أن يخرج كل واحد منهم الكتاب المقرر ويأخذ منه الجواب المطلوب!! لكنه ما لبث أن توفي فجأة بالسكتة القلبية، وخرجنا عصر يوم حزين لتشييعه إلى مطار الموصل حيث نقل جثمانه بالطائرة إلى بغداد ومنها إلى بلده مصر.

هذا هو الكادر التدريسي الذي تولى تعليمنا في الصف الأوّل المتوسط، حيث تعاملنا معهم وفق قدرتهم على ضبط الصف، والمادة العلمية التي كانوا يقدمونها لنا... ولا زلت أذكر ما كان الطلاب يفعلونه مع (نجيب لازار) مستغلين شروده، من مثل الإتيان بالضفادع ورميها في ممرات الصف وهم يضحكون ويتصايحون، وتعليق النبات الشوكي المتسلّق في خلفية الأستاذ، فيما يشبه الذيل، والأستاذ غافل عن هذا الذي علّق في ظهره... ومن مثل رسم صورته على اللوحة فيما يجعله ينظر إليها بطرف خفي ويحس بالإحراج الشديد... ومن مثل وضع قطعة من القماش المبلل بالماء في خزان المدفأة الخشبية، التي سرعان ما تروح تنفث كميات هائلة من الدخان الذي يملأ الصف ولا يسمح باستمرار التدريس... الخ فيما أخطر إدارة المتوسطة إلى طلب نقله إلى زاخو في أقصى الشمال، حيث تدهور وضعه النفسي فانتهى به الأمر إلى مستشفى المجانين في بغداد.

أنا شخصياً لم أعتد الغش في حياتي الدراسية على امتدادها، بل إنني كنت أستهجن أولئك التلاميذ الذين اعتادوا الغش، ولكن الضرورات تبيح المحظورات كما يقول المثل، ولشدة ضغط مادة الهندسة، على جملتي العصبية، قررت يوماً أن أنتهز فرصة غفلة نجيب لازار، عن مراقبتي فأخرجت الكتاب

المقرر ورحت أنقل منه بطريقة مباشرة ومكشوفة لا تدلّ على أي قدر من الخبرة بالغش، وإذا بي أجدني وأنا بين يدي (نجيب لازار)، الذي كان يقف على رأسي وهو يحدّق في الكتاب الذي أنقل منه... فما كان مني بردّ فعل خائف إلّا أن أبتسم في وجهه وإذا به يبتسم في وجهي هو الآخر، ثم ما لبث أن تركني ومضى لمراقبة بقية التلاميذ... فقلت في نفسي: أبشر يا عماد، فقد اجتزت المشكلة، ولكني ما لبثت أن فوجئت بعد أيام، و(نجيب لازار) يعلن من دفتر جيبه الخاص نتائج الامتحان بحصولي على درجة (١٨) من مائة... إذن لقد أسرّها (لازار) في نفسه، ولم يبدها إلا لحظة التصحيح، فيما أستحقه بحق وحقيق... وتلك كانت المحاولة الأولى والأخيرة في حياتي الدراسية التي مارست فيها الغش!!

أذكر أيضاً تجربة (غانم مطلوب) مدرّس العلوم في (كرة كوتنبرغ)، حيث دعانا يوماً لمغادرة الصف، والذهاب إلى مختبر العلوم المجاور للاطلاع على تجربة في ضغط الهواء... ذهبنا إلى هناك تحملنا أجنحة الفرح والغبطة لأننا سنكسر بذلك الروتين اليومي لدرس العلوم... وما أن أخذ كل واحد منا مكانه في المختبر، حتى تعلّقت عيوننا باتجاه المنضدة التي وضع عليها المدرّس كرة معدنية، وراح يشرح كيف أنها وهي مليئة بالهواء يسهل فكها بسبب الضغط المتوازن للهواء في الداخل والخارج... ولكننا إذا أفرغناها من الهواء أصبح أمر فكها في غاية الصعوبة بسبب الضغط الخارجي عليها... تلك هي نظرية (كوتنبرغ)، ثم ما لبث أن نادى على أحد التلاميذ وسلّمه الكرة التي أفرغها من الهواء، وطلب منه محاولة فكها ليرينا صعوبة ذلك... لكن الطالب ما أن تناول الكرة، وأعمل يده في فكها حتى استجابت له بسهولة بالغة، فما كان منا إلا أن نغرق في ضحك متواصل، والمدرّس يجيل أبصاره فينا دون أن ينبس بكلمة واحدة... لقد ثأرنا منه... هكذا قال كل واحد منا مع نفسه، وغادرنا المختبر بمنتهى الحيوية والنشاط، فيما ذكرني بتجربة (عبد الله أفندي عبيد آغا) الفاشلة هي الأخرى مع اختبار قوة البخار!!

وأذكر أن (العشائري) الذي كان على صلة قربى مع والدي رحمه الله ويتردد على محله بين الحين والحين، كان يعمل عكس المطلوب كلما توسط والدي لديه... ونادراً ما كنا نلجأ إلى الوساطات، ولعل تلك المحاولات مع العشائري هي الوحيدة في حياتي الدراسية على امتدادها... فلم تكن معدلاتي في مادة الجغرافيا تتجاوز الخمسينيات حتى لو كان جوابي كاملاً... فسبحان الله...

كان يجلس إلى جواري في الصف ابن عمي شمس الدين... ويوماً دخل علينا مدرّس الدين، الذي يتميز بعصبيته وقسوته (أحمد الصوفي) رحمه الله، وبيده دفتر الدرجات لكي يطلب من كل تلميذ قراءة ما كلّف بحفظه من كتاب الله... وحدث أن تغيّب الطالب الذي يجلس أمام (شمس الدين)، فلما جاءه الدور كان عليه أن يقرأ ما تيسر من حفظ زميله الغائب، فارتبك، واصفرّ وجهه خوفاً من عقاب (الصوفي) الذي ما لبث أن صاح به، ما اسمك؟ أجاب مرتعشاً: (شمس الدين)... ومن هو أبوك؟ أجاب: (الحاج محمد)، فقال الصوفي بعصبية: اقرأ سورة الفاتحة... فتلعثم شمس الدين ولم يعد يعرف كيف يقرأها، فما كان من الصوفي إلا أن صبّ عليه جام غضبه وهو يقول: ابن الحاج محمد! أي أنك من رجل مسلم ولا تعرف كيف تقرأ سورة الفاتحة؟ وما لبث أن وضع أمام اسمه صفراً وهو يقول بأعلى صوته: اجلس... يا...

وكنا نأتي إلى المدرسة وفي جيوبنا صنفان من العدسات: لامّة ومفرّقة، وفي الفرص كنا ندعو زميل لنا يدعى (موفق) أن يبسط ظهر كفيه قبالتنا، لكي يقف اثنان منا مسلطين العدسات اللامة على يديه... فإن استطاع أن يتحمل بؤرة الشمس ولم يصرخ كان هو الفائز، وإن لم يتحمل ويصرخ من الألم كنا نحن الفائزين... وكان هذا المشهد يتكرر في معظم الفرص!!

كان مهدي السامرائي مدرساً للغة العربية، وراجت بيننا شائعات عنه بأنه ينتمي للحزب الشيوعي، وأنه بدأ حياته العملية نائب ضابط في الجيش، فعندما اكتُشفت ميوله، طرد من الجيش وتحوّل للعمل التدريسي... كان فظاً قاسياً، وطالما تلقيت منه، بسبب مشاكساتي، أشد أنواع الضرب.

عندما انتقلنا إلى الصفين الثاني والثالث، تولى أمر تدريسنا مجموعة أخرى من المدرسين لا زلت أذكر منهم: عبد المسيح (المصري) مدرّس الإنكليزية، وإدريس عبد القادر خطاب مدرّس الكيمياء، وسالم الدباغ ومحمد سمير التكريتي مدرسا العربية، وفخري الحاج أحمد مدرّس التاريخ، وسالم الملقب بالأصفر مدرّس الرياضيات، وعطية (المصري) مدرّس العربية، وزكي الحاج داود مدرّس الإنكليزية، وعبد الرحمن صالح مدرس التاريخ، ومحيي الدين العشائري مدرس الجغرافيا، وعبد الرحمن مدرس الصحة، وشاكر محمود مدرس الرياضة، ومحسن الحبيطي مدرس الرسم، ورمّو أفندي مدرس الفيزياء، وتوفيق الدباغ مدرس الواجبات الوطنية...

ولا زلت أذكر يوم زارنا مفتش العربية العام (محمد بهجت الأثري)، وكان (سالم الدباغ) يلقي علينا درساً في العربية، فتوقف عن الكلام مرحباً بالمفتش الذي ما لبث بعد أن أعطى توجيهاته بخصوص طرائق تدريس العربية؛ أن سلط جام غضبه على عميد الأدب العربي (طه حسين) الذي كان سالم الدباغ يحبه حباً جماً، ولكنه لم يستطع أن ينبس ببنت شفة خوفاً من العقاب، فما أن غادر (الأثري) الصف حتى راح (سالم الدباغ) يشن حملة قاسية عليه، ويدافع باستماتة عن (طه حسين) ودوره الكبير في حركة الأدب العربي المعاصر.

كان (سالم الدباغ) أديباً ذا إحساس فائق باتجاه التعامل مع اللغة، وكان مدرساً ناجحاً بمعنى الكلمة، ولكنه ما لبث أن ضيّع نفسه باندفاعه وراء الشيوعيين، يوم تمت لهم السيطرة على مقدرات الموصل في ربيع عام (١٩٥٩م) وفي أعقاب ثورة الشواف، وحصل على إدارة إحدى المدارس، ثم انقطعت أخباره بعد ذلك لكي نفاجأ ـ بعد سنوات ـ بنبأ وفاته.

ومن عجب أنني كنت أجتاز معظم المواد الدراسية بنجاح، وربما بدرجات عالية، ولكن هاجسي هو الخوف من الرسوب في درس ثانوي هو الرسم، لولا أن الله سلّم... رغم أنني بدأت حياتي بالتعامل مع اللون للتعبير عما يجول في

نفسي، ولكني لم أصل إلى نتيجة، وكان هذا مما دفعني إلى التعبير بالكلمة عما كنت أعانيه أو أريد قوله...

كنا في كل سنة من سنوات دراستنا المتوسطة الثلاث نخرج في الربيع في رحلة مدرسية إلى أطراف الموصل: بعشيقة، أو منـدان، وكانت تلك تمثل أقصى درجات الفرح والسعادة، حيث كنا نتفق كمجموعات متآلفة، ويحمل كل منا زنبيلاً من المواد الغذائية والمشروبات الغازية، ونختار موقعاً ملائماً للجلوس فيه، ثم نبدأ باللعب والمسابقات والتقاط التصاوير، حتى إذا ما شعرنا بالجوع، انقضضنا على الطعام بشهية بالغة... ولا زلت لحدّ الآن أحتفظ بمجموعة التصاوير التذكارية التي التقطناها عبر رحلاتنا تلك.

وكان عشقنا الآخر للرياضة قد جمعنا بفريق متوسطتنا لكرة السلة، والذي كان يتميز بتفوقه الملحوظ، وعروضه المدهشة، وبما يضمه من لاعبين كبار كمسعود شريف وغانم ايرم وزهير كساب وعبد الكريم القطان وحازم... بحيث أننا عندما ذهبنا إلى ساحة الثانوية الشرقية لمشاهدة اللعبة النهائية على الكأس بين فريق متوسطتنا وفريق المتوسطة الغربية؛ كنا واثقين من فوز فريقنا... لكن النهاية جاءت على غير ما نتوقع فعدنا إلى دورنا ينتابنا حزن عميق...

كان عشقنا اليومي هو التجوال على السدة المطلة على نهر دجلة من جانبه الغربي، والتي تبدأ قريباً من الثكنة الحجرية جنوبي الموصل، وتمتد لمسافات طويلة بموازاة النهر، ثم ما تلبث أن تنحرف يميناً باتجاه المدينة لحمايتها من الفيضان، تاركة لدى انعطافها فسحة رائعة من الأرض الملأى بالأشجار والخضار، حيث يكون التعب قد أنهكنا فما نلبث أن نجلس تحت ظلال إحدى الأشجار نتبادل اللعب والأحاديث. ولا زلت أذكر كيف أن بداية الطريق إلى السدة كانت أرضاً مكشوفة حفر في وسطها بئر عميق، كنا نسميه (الديلي) والذي يدور في أطرافه ناعور يجره الحصان، فيتدفق الماء من الأواني المتحلقة على دائرة الناعور لكي ما يلبث أن يغطي البستان بالماء. ثم ما لبث هذا البئر أن ردم للأسف الشديد، أسوة بما تم من ضياع العديد من

معطيات الموصل التراثية، عبر الصراع الأبدي الدائم بين القديم والجديد... بين التراث والمعاصرة... أما السدة فاستمرت على وضعها ولا تزال، اللهم إلا الجانب الغربي منها، حيث قسمت الأرض وتحولت من مزارع وبساتين مترعة بالخضرة والجمال إلى دور ودكاكين... وظللنا نحن نمارس التخطي اليومي على هذه السدة السنوات الطوال.

في عام (١٩٥٤م) ولدت أختي الثانية: (ندى)... عدت من المتوسطة، بعد سماعي نبأ ولادتها، على أجنحة الشوق، وأسرعت بالتوجه إلى حيث وضعت على السرير الصغير بجوار والدتي، فإذا بي أجدني قبالة ملاك أبيض جميل ذي عينين خضراوين، فوقفت قبالتها مبهوتاً بذلك الجمال، حيث لم يكن قد مضى على ولادتها سوى ساعات قلائل... ولقد جاءت ولادتها تعويضاً إلهياً لأمي التي فقدت مولودتها الأولى (سناء)، وكانت على مدى سنوات عديدة دائمة الشكوى، داعية الله ﷻ، أن يرزقها بابنة، وها هي ذي هدية السماء قد جاءت، فحمداً لله...

كانت مغادرة صديقي الحميم (طارق صالح العباوي)، وأسرته إلى بغداد (الدكتور طارق) فيما بعد وأستاذ علوم الجيولوجيا المتميز في (جامعة الموصل)، ضربة موجعة بالنسبة لي، حيث ربطت بيننا أواصر عميقة من المحبة والصداقة والانسجام، حتى أني كنت تعبيراً عن آلامي لفراقه أبعث إليه وأتلقى منه الرسائل المتواصلة، من بغداد ومن ألمانيا فيما بعد، والتي لم تكن لتطفئ الحنين الذي يعتلج في الجوارح والصدور.

ما لبث أن حلّ موعد الامتحان النهائي في السنة الثالثة الأخيرة، من دراستنا المتوسطة، حيث أعلمنا بإلغاء الامتحان الوزاري، واستبداله بعد النجاح الشامل بامتحان آخر موجز في سياقين، العلمي والأدبي، وفق اختيار الطلبة أنفسهم.

اجتزت الامتحان الشامل بنجاح وحصلت في المواد الرياضية على الدرجات الكاملة (١٠٠/١٠٠) أو قريباً من (٩٥٪)، أما المواد الإنسانية كاللغة العربية والتاريخ، فقد حصلت فيها على درجات متواضعة رغم عشقي لها، حتى

أن المسجل سألني لدى التقديم للامتحان الوزاري: أين تريد التوجّه؟ فقلت له دون أي تردد: القسم الأدبي، فدهش الرجل وقال وهو يؤشر على معدلاتي في الدروس العلمية: وهذه؟ أجبته بأن الرغبة هي صاحبة القرار.

التحقت بالثانوية الشرقية، ذلك البناء العثماني الأصيل، المطل بساعته الحمراء الكبيرة على شارع العدالة، والذي يتميز باتساعه، وكثرة ساحاته، وحدائقه، بعد ثلاثة أيام قضيتها في الثانوية المركزية، إلّا أن أبي سعى من خلال علاقته الوثيقة بمدير الشرقية الحاج محمود الجومرد ﷺ إلى التحول إلى الشرقية رغم اكتظاظ مقاعدها.

كان الدوام في الثانوية يومذاك، سنتين فحسب، قبل أن تضاف إليهما في أواخر الخمسينيات سنة ثالثة، واستقبلتنا هناك عبر هذين العامين مجموعة متميزة من المدرسين أذكر منهم: عباس بلال في التاريخ، ونجيب الخفاف في الجغرافيا والأحوال، وذا النون الشهاب ومحمد نوري في اللغة العربية، وإبراهيم غزالة في الرياضيات، وسعيد الملاح في العلوم، وبشير حسن ويونس عزيز ويوئيل عزيز، ومستر ادوارد (وهو جندي إنكليزي عمل في الحرب العالمية الثانية) في اللغة الإنكليزية، وعمر الطالب في الاقتصاد، وأحمد الكبيسي في الدين، ويوسف أبو جنان في الرسم، ومحمود أبو ليلى في الرياضة.

أما مجموعتنا الطلابية فكانت متجانسة إلى حدّ كبير، تسود العلاقات فيما بينها أجواء المحبة والانسجام... وقد تخرج العديد من طلابها وتفوّقوا، وأصبح بعضهم محامين يشار إليهم بالبنان، أو أساتذة جامعيين، أو عسكريين، أو شرطة، أو مدرّسي ثانويات، والعديد منهم اكتفى بدراسة سنة واحدة، بعد إنهاء الثانوية، لكي يصبح معلماً.

ولا زالت ذاكرتي تحمل أسماء بعض أولئك الطلاب: عبد الجبار حسن ﷺ، عامر الجومرد (الدكتور فيما بعد)، محمد قاسم (الدكتور فيما بعد)، عبد الجبار النوح ﷺ، هاشم الجماس ﷺ، مؤيد عبد الله ﷺ، عبد السلام الدباغ، ابن أخ صديق شنشل، أكرم ناجي، عماد قاصد الحرباوي، جودت

الدباغ، عدنان دحام رحمه الله، سالم داود رحمه الله، وآخرين... وقد ربطت بيني وبين بعضهم علاقة صداقة وثيقة استمرت بعد ذلك السنوات الطوال، وبخاصة عبد الجبار حسن، وعامر الجومرد، وهاشم الجماس، ومؤيد عبد الله، وعبد السلام ياسين، وعماد قاصد الحرباوي.

ما أن مضى على الدوام في الشرقية بضعة أيام، حتى دعينا نحن مجموعة من الطلبة للاجتماع في قاعة الثانوية، حيث وزعت علينا مجموعة من الاستمارات، وشرح لنا القائمون على الاجتماع مهمة كل واحد منا في كيفية ملء هذه الاستمارات وتحديد المناطق التي كلفنا بجردها... استعداداً ليوم تسجيل النفوس العام لسنة (١٩٥٧م)... كان بمعيتي ضمن القاطع نفسه زميلي عبد الجبار حسن، حيث قمنا معاً بعدة زيارات لدور القاطع من أجل السيطرة على عملنا... وما لبث يوم التسجيل أن جاء، فرحنا ننتقل من دار إلى دار مسجلين المعلومات المطلوبة عن كل عائلة في الاستمارات الخاصة، وكانت مفارقة محزنة ومضحكة معاً أن يكون ضمن منطقتنا زقاق للمومسات، فكنا ندق الأبواب على وجل، ثم ما نلبث أن ندخل لأخذ المعلومات... وعندما كنت أسأل عن رب العائلة الغائب كان الجواب المعلق على ألسنة النساء: إنه صعد إلى الجبل!!

في اليوم التالي للتسجيل العام هذا ذهبنا إلى المركز العام في متوسطة المثنى لتسليم الاستمارات، ولتسلّم المكافأة المالية التي وعدنا بها، ولقد كانت دينارين فقط لكل طالب، حيث سارعت بصرف جزء منها في شراء أحد الكتب المعنية بالقضية الجزائرية وبطولات جميلة بوحيرد بعنوان (دفاع عن جميلة).

ربطتني بعبد الجبار حسن علاقة وثيقة بسبب اهتماماتنا الثقافية وقراءاتنا الأدبية النهمة... وأذكر أننا كنا بعد نهاية الدوام المسائي في بعض الأيام نجتاز الجسر الجديد القريب من الثانوية في جولة تخطي قد تصل بنا إلى دورة النبي يونس في أقصى الجانب الأيسر للموصل يومذاك، وكنا نتبادل الآراء بخصوص ما كنا نطالعه من كتب الأدب، وطالما ثار جدال حاد بيننا

حول العنصر الأساسي الذي يشكل المبدع ويدفعه إلى التعبير بالكلمة عما يعتمل في وجدانه، فكنت أنا أصرّ على الخبرة الشخصية... على المعاناة الذاتية المتفجرة من الداخل، وكان هو يصر على القراءة الخارجية والمعرفة المتشكلة بقوة المطالعة... والحق أن كلينا كان محقاً وكان مخطئاً في الوقت نفسه، ذلك أن القدرة الإبداعية تتشكل من الاثنتين معاً.

ولا زلت أذكر أنني تلقيت منه يوماً ـ على سبيل الإعارة ـ ديوان الشاعرة الفلسطينية (فدوى طوقان): (وحدي مع الأيام) وكيف أنني قضيت مع الديوان واحدة من أجمل الساعات في حياتي بسبب من رومانسيته الرائعة التي تمنح الإنسان جناحين يطير بهما في الفضاء الكبير.

ثمة جملة من المفارقات شهدتها حياتنا الدراسية في الثانوية... ولن يتسع المجال لسردها جميعاً ولذا سأكتفي بالتأشير على بعضها فحسب...

في إحدى محاضرات المستر إدوارد راح يطلب منا ضرب الأمثلة باللغة الإنكليزية على واو المعية، وراح الطلبة يرفعون أيديهم ويقدمون أمثلتهم... حتى إذا جاء الدور على أحدهم إذا به يقول: (أخرج إلى السينما أنا وصديقتي)!! فإذا بالمستر يبشّ لهذا المثل ويثني عليه... فما كان مني، وقد ثارت ثائرتي لهذا المثل المرفوض في مدينة محافظة ملتزمة كالموصل، فرفعت يدي وقمت لكي أبدي اعتراضي... ولا تسلوا عن صيغة الاعتراض ومفرداته الإنكليزية، وعن حركتي المتشنجة وأنا أكافح لالتقاط المفردات المناسبة، فأضرب بيدي وقدمي، محاولاً تركيب المعنى الذي أريد إيصاله للمدرس... والمهم أنه فهم ما كنت أقصد إليه فاعتذر... وحينذاك فقط استرددت أنفاسي، وشعرت بأنني أدّيت دوراً إيجابياً في مجابهة هذا الإنكليزي الماكر، والردّ على الطالب الذي لا يفرّق بين التقاليد النبيلة والتقاليد الدخيلة...

في الخامس الإعدادي، وقبيل حلول امتحانات البكالوريا، جمعنا مدرّس الرياضيات إبراهيم غزالة لكي يوجهنا إلى الصيغة السليمة في مراجعة المادة للحصول على الدرجات وتبييض وجه الإعدادية الشرقية بالنتائج المتميزة... ثم

راح يقرأ علينا حصيلة سعينا السنوي في الرياضيات... حتى إذا بلغ اسمي توقف قليلاً ثم رفع وجهه إليّ وحدّق بي لدقيقة أو أكثر، وقال باستهجان: (١٨ من ١٠٠)، ولما أحسست أنه بدأ بتوجيه كلماته القاسية إليّ، رفعت يدي وقمت لكي أقول له: أستاذ! ألست أنت الذي قلت لنا أنك تقدّر الطلبة الذين يبذلون جهداً متواصلاً لتحسين أدائهم، ورفع درجات سعيهم السنوي؟ أجاب بامتعاض: نعم. فقلت له: إذن أنا أوّل من يستحق التقدير، بدلاً من انزعاجك غير المبرّر هذا... قال: كيف؟ قلت: بدليل أن معدلي السابق كان (١٦٪) والآن أصبح (١٨٪)، فشعرت أنه أسقط في يديه، إذ ما لبث أن غيّر لهجته معي وقال: هذا جيّد يا بني... وعسى أن تزداد جدية ونشاطاً وأن تحصل في امتحان البكالوريا على عشرين بالمائة!!

والحق أن موقفي من مادة الرياضيات والجبر والهندسة والمثلثات... الخ كان يدعو إلى العجب، فأنا عندما لا أكترث لهذه المواد وأعدّ لها العدة من الدراسة والمتابعة؛ أحصل فيها على أدنى المستويات... ولكن عندما أقرّر أن أخوض غمارها بجدّ أحصل على الدرجات الكاملة أو قريباً منها... والمسألة مسألة رغبة في المادة أولاً وأخيراً.

يوماً تسلمنا درجاتنا في مادة الإنشاء، فإذا بي أحصل على أعلى الدرجات عن موضوع طلب منا مدرّس العربية أن نكتبه حول قضية المرأة... وإذا بزميلي (... الذي يجلس إلى جواري) تتغير ألوانه، وينفعل وهو يعاين الموضوع الذي كتبته، ثم ما يلبث أن يقف عند كلمة (إيجابي) التي وردت عرضاً، وقال ويده ترتجف: أتحداك أن تكون هذه الكلمة من عندك... فما هي إلا ترديد لما سبق وأن سمعته من مدرس العربية... لم أحاول أن أرد عليه لأني أدركت منذ اللحظة الأولى أن موقفه هذا ينبثق عن حسد جارف، ومن ثم فإن الرد قد لا يأتي بنتيجة على الإطلاق!!

ولا زلت أذكر يوم دخلنا مختبر الرسم، وطلب منا المدرّس (أبو جنان) أن يرسم كل منا اللوحة التي يراها تنسجم وقدرته وتطلعاته... ولما كانت

قدرتي في الرسم محدودة... ومحدودة جداً... أردت أن أعوض عنها بطرح فكرة ما حتى ولو جاء رسمها بسيطاً لا يدل على أية مقدرة فنية... فما كان مني إلّا أن رسمت طريقين يتجه أحدهما يميناً والآخر يساراً، ثم وضعت علامة × في نهاية الطريق الثاني، وتركت الطريق الأوّل مفتوحاً، وقد علقت عليه لافتة كتبت عليها: (إلى أين؟) فما كان من مدرس الرسم إلا أن أعجب به ومنحه درجة مناسبة!!

تفوقت في مادة اللغة العربية لدى مدرسها المعروف (ذو النون الشهاب) فما كان منه إلا أن يهديني مكافأة منه، كتاباً يتحدث فيه (سعيد الديوه جي) رحمه الله عن جسور الموصل... وكم كنت وقتها أتمنى أن أتلقى من أستاذي رواية من الروايات الرائعة التي كانت تصل الأسواق بين الحين والحين... ولم أكن أدري يومها أن هذا الكتاب كان إشارة من نوع ما على ما سيجيء به المستقبل، حيث سأقضي عشر سنوات من حياتي الوظيفية في متحف الموصل، وأتولى مهمة الإشراف على أنشطته التراثية، بما فيها الجسور القديمة، وأن أكتب الكثير عنها... وأن تربطني (بالديوه جي)، المدير السابق للمتحف، علاقة صداقة يومية وثيقة حتى وفاته رحمه الله...

في صيف عام (١٩٥٨م) بدأ امتحان البكالوريا الذي كان سيتقرر في ضوئه مستقبل كل واحد منا... وقضينا شهرين متفرغين للمراجعة، والحق لقد كان هذان الشهران من أسوأ ما مرّ في حياتي بسبب ما بذلت فيهما من جهد، وما كنت أتلقاه يومياً من رشقات الاكتئاب لدى كل استيقاظ، حيث تنتظرني الساعات الطوال صباحاً وظهراً ومساء من المراجعة القاسية التي كنت أحتال على حصارها المرّ، بأن أنتقل من مكان إلى مكان وأنا أحمل كتبي وكراريسي، فحيناً أمارس المراجعة في غرفتي العليا، وحيناً أنزل إلى غرفة الضيوف، أو إلى السرداب أو أصعد مع اقتراب المغرب إلى السطح... وحيناً آخر كنت أهرب لكي أمارس المراجعة في حديقة الشهداء العامة المجاورة للإعدادية الشرقية، أو في البحيرة الجميلة التي افتتحت قبل سنوات وأحيطت بصف من

المقاعد الخشبية. وحيناً ثالثاً كنت أوغل بعيداً باتجاه كازينو (الخيام) في منطقة الدواسة جنوبي الموصل، تلك الكازينو الرائعة ذات الهواء العليل والإطلالة البديعة على الشارع، والتي اعتدت أنا وابن عمي وعدد من الأصدقاء الجلوس اليومي فيها عبر كل أمسيات الصيف منذ عام (١٩٥٦م) وحتى عام (١٩٦٦م) نلعب بها الداما والشطرنج، ونتبادل الأحاديث، والنكات الطيبة، ونؤدي فيها صلوات الجماعة، ونتابع الأخبار على شاشة التلفاز.

كنت أنا وابن عمي (شمس الدين الحاج محمد) نغادر دورنا بعد الثالثة عصراً من كل يوم، ونجتاز شارع الدواسة الهادئ الجميل وصولاً إلى الكازينو، حيث نتناول لدى جلوسنا قنينة الكوكا كولا المثلجة، ثم نبدأ اللعب أو الحوار، أو التأمل في المارة، وطالما كنا نغادر الكازينو لتناول عشاءنا من الباجة الموصلية، أو الكباب، أو السندويج، ثم ما نلبث أن نقفل عائدين لمواصلة الأمسية حتى ساعة متأخرة من الليل.

وأذكر يوماً، ونحن نوشك أن نغادر الكازينو لتناول العشاء، أو لممارسة التخطي عبر الشوارع النظيفة المحيطة بالمكان، أن تصدّى لنا صاحبها (أحمد باري) ﷺ طالباً منا أن نعطيه اليومية وهي لا تتجاوز الخمسة والعشرين فلساً للشخص الواحد، فقلت له إننا سنعود ثانية كما كنا نفعل دائماً، وأننا من روّاد الكازينو الدائميين فأصر على الدفع، فما كان مني إلا أن أخرج من جيبي ربع دينار (وكان يمثل يومذاك مبلغاً كبيراً) وأرميه في الصينية أمامه، وأغادر المكان بصحبة ابن عمي، فلما عدنا نهض الرجل قائماً وأبدى اعتذاره عن تصرفه معنا، ولكنه برر فعلته بأننا في موسم عيد، وما أكثر الصبيان الذين يغادرون الكازينو متسللين دون أن يدفعوا فلساً واحداً!!

وكان مقهى (الأعرجي) في الدور العلوي من البناية المحاذية للجانب الأيمن من جسر الموصل الحديدي، مستقرنا الآخر، صباحاً ومساء، حيث كان رواقها المفتوح يطل على نهر دجلة والساحل الأيسر، ويتلقى بين الحين والحين دفقات من الهواء المنعش في أيام الصيف... وكان معظمنا وهم يدلفون إلى هذا

المقهى الرائع، يحملون معهم كتاباً لكي يواصلوا القراءة في صفحاته، ثم ما نلبث أن ندخل في حوار جاد مع هذا الأخ أو ذاك من روّاد المقهى... كانت جلساتنا فيه تحمل أقصى درجات الجدية في التعامل مع الزمن، وتوظيف دقائقه وساعاته للمزيد من القراءة والمعرفة والنقاش... وكان معظم الذين يرتادونه من الشباب المسلم الذي طبع على احترام الزمن... وحتى عندما كان يزور الموصل بعض إخواننا من بغداد، أو مدن العراق الأخرى، كان لا بدّ لهم من أن يجلسوا في هذا المقهى ويذوقوا طعم القراءة والحوار في رواقه الجميل...

وما لبثنا أن اجتزنا أيام الحصار الصعب لمراجعات البكالوريا، ثم دخلنا الامتحان الذي كان لحسن حظنا يجري يومياً، وينتهي على مدى أسبوع واحد، لكي نستقبل العطلة الصيفية، ونتهيأ لتحديد الكلية التي سننتمي إليها بعد ظهور نتائج الامتحان.

والحق أنني في مرحلة الثالث المتوسط بدأت أتأرجح في اختيار الكلية التي تناسبني، فحيناً كنت أقنع نفسي بدخول كلية الزراعة، بسبب عشقي للثمار والخضار، وما ينطوي عليه هذا التخصص من خبرات جمالية، وحيناً آخر كنت أميل، متأثراً بمنظر الضباط الذين شهدتهم في نادي الضباط في جلولاء بمعية زوج خالتي المقدم (حسين الزرقي) لدخول الكلية العسكرية، ثم ما لبثت بعد سنتين أن تحدّد ميلي بإحدى كليتين: إما الحقوق وإما التربية، وأخيراً استقر رأيي على دخول التربية بما تتضمنه من ميزات حيث توفير القسم الداخلي، بوجباته الثلاث ومبيته، وحيث التخرج للعمل في التدريس الذي كنت أعشقه... هذا فضلاً عما يتيحه لي من عطل متطاولة في الربيع والصيف... وإلى جانب هذا كله التزوّد بمزيد من الزاد الفكري والثقافي الذي بدأت أتعامل معه بشغف من خلال مطالعاتي النهمة في الكتب المختلفة.

وما لبثت النتائج أن أعلنت... وإذا بي من الناجحين بفضل الله سبحانه ورحمته، وإذا بدرجاتي الجيدة تؤهلني للدخول في كلية التربية، حيث سارعت

بملء استمارات التقديم ورحت أنتظر النتيجة للبدء في مرحلة جديدة من الحياة...

كانت الموصل في مرحلة الأربعينيات وحتى أواخر الخمسينيات مدينة صغيرة نسبياً لا يتجاوز عدد أفرادها الربع مليون نسمة إلا قليلاً، وكانت لا تزال محصورةً في بيئتها التاريخية القادمة من أيام السلاجقة والأتابكة والعثمانيين، حيث تحدها من الشمال قلعة باشطابيا والمستشفى الملكي ومحلة الشفاء ومن الشرق نهر دجلة، ومن الغرب باب سنجار وباب البيض ومحلة الطوّافة القريبة من محطة القطار... أما جنوباً فمحلة باب الجديد وباب لكش والشيخ عمر وباب الطوب... ثم ما لبثت أن راحت تتمدد وتنشأ فيها بعض الأحياء الجديدة المتناثرة التي تخترقها الأراضي الجرداء والبساتين، من مثل محلة السجن ومحلة الدوّاسة التي قطنها اثنان من أعمامي: (الحاج أحمد وإسماعيل)، ولم نكن نصل إلى بيتيهما إلّا باستئجار عربة من تلك التي تجرّها الخيول... أما شرقاً فلم يكن يربط الموصل بذلك الجانب سوى جسر حديدي واحد، كان قد أنشأه الملك غازي رحمه الله في ثلاثينيات القرن الماضي، حيث الممر الوسطي للعجلات، والممران الجانبيان للذاهبين والعائدين، حتى إذا انتقلنا إلى الضفة الأخرى لم نكد نجد فيها حياً واحداً إلا حي النبي يونس (عليه السلام) وحي الفيصلية، وما عداهما فهي الأرض العراء والبساتين والأشجار... وكان ثمة في جوار تل النبي يونس قصر مصمم على الطريقة الصينية ـ اليابانية هو قصر الطبيب الأرمني المعروف (ستارجيان).

هذه هي مدينة الموصل في مرحلة الطفولة والصبا، حيث راحت في أخريات ذلك الزمن تشهد نموّاً عمرانياً ملحوظاً، في جانبيها الشرقي والغربي على مستوى بناء الدور، والأحياء الجديدة، أو شق الشوارع والطرقات العامة والجسور، ولكنه على أية حال كان نمواً بطيئاً، قياساً على ما ستشهده مرحلة الستينيات والسبعينيات وما أعقبها بتأثير الانفجار السكاني، وتزايد الدخل القومي، والتوجه الحضري لكل الحكومات التي تعاقبت على قيادة العراق، قبل

أن يدهى بكارثة الاحتلال الأمريكي الخبيث الذي نفذ فيه واحدة من أبشع الأعمال القذرة في التاريخ المعاصر!!

كان يخترق الموصل من أقصاها إلى أقصاها شارعان رئيسيان، أحدهما يسمى شارع نينوى يبدأ من رأس الجادة غرباً وينتهي عند مدخل الجسر الحديدي شرقاً... والآخر يبدأ من الغزلاني في أقصى الجهة الجنوبية ويجتاز محلة السجن ثم يخترق الأحياء القديمة في باب الجديد وباب العراق، فيما سمي بشارع الفاروق الذي أضيف إليه في أواخر الأربعينيات شارع آخر هو الفاروق الجديد، بعد عمليات هدم واستملاك واسعة، من أجل إيصاله إلى المستشفى الملكي في أقصى الشمال.

وكانت ثمة شوارع رئيسية، وفرعية، تخترق نسيج المدينة ذهاباً وإياباً، من أمثال شوارع ذي النورين، والعدالة، وغازي (الكفاح فيما بعد)، والنجفي، والنبي جرجيس، وحلب... الخ... هذا إلى شبكة كبيرة من شرايين المرور الصغيرة المسماة بالأزقة، والمنتشرة في أحياء المدينة كافة.

ولن أنسى الشارع الفرعي الجميل الذي كنا نسلكه أيام دراستنا الابتدائية، والذي يبدأ من دورة باب لكش ويمتد جنوباً باتجاه الدوّاسة... إذ كنا نجتازه صبيحة وعصر كل يوم من أيام دراستنا الابتدائية التي استغرقت سبع سنوات... شارع هادئ، لا تجتازه السيارات إلا نادراً بسبب قلتها يومذاك، وتمتد على جانبيه أشجار السبحبح بأحواضها التي كان الماء يتجمد فيها في موسم الشتاء فيزيدها جمالاً على جمالها... وكانت بعض مقابر المدينة تنتشر على الروابي والمساحات الممتدة على جانبي الشارع، والتي تزهو بخضرتها أيام الربيع بحيث تجلب إليها العديد من العوائل في رحلاتهم اليومية إلى الجهات القريبة من دورهم حاملين طعامهم وألعابهم، لكي يقضوا هناك أجمل الأوقات. وكانت مقبرة جدي الحاج عمر تقوم على يسار الشارع، وقد أحكم تسييجها وانتشرت فيها الزهور ذات الألوان الفاقعة.

سبع سنوات ونحن نجتاز هذا الشارع أربع مرات في اليوم الواحد ذهاباً

وإياباً دون أن نملّه أو يملّنا... يا لتلك الأيام السعيدة التي تنطبع ذكرياتها العذبة في الوجدان فلا تغادره أبداً!... إنها جماليات المكان، كما سماها الناقد الفرنسي (غاستون باشلار)، والتي تمارس دورها في تكوين الذائقة البشرية والحس بالانتماء الأصيل لدى الإنسان.

وثمة شارع (حلب)... وما أدراك ما شارع حلب؟... إنه ذلك الذي يبدأ من دورة التقاطع الرئيسية وسط الموصل بين شارع ذي النورين وشارعي باب لكش والدوّاسة، وينعطف شرقاً بموازاة شارع المتحف، لكي ما يلبث أن يلتقي بشارع العدالة الموازي لنهر دجلة... إنه الشارع الذي اجتزناه يومياً، مراراً وتكراراً على مدى سنوات دراستنا الخمس في متوسطة المثنى والثانوية الشرقية... كان شارعاً مترعاً بالمتع والمسرات، فثمة المطاعم، وبائعو الجرز والسكريات، والمقاهي الصيفية والشتوية، وأفران المعجنات اللذيذة، والفنادق، والسينمات الصيفية والشتوية... هذا إلى عدد كبير من محلات بيع التحافيات وخياطي ملابس الجنود وشاراتهم... كانت نفوسنا تنشرح وتزداد بهجةً كلما اجتزنا هذا الشارع ذهاباً وإياباً، ومددنا أيدينا لكي نشتري (مائة غرام) من الجرز الحار أو ملبس فستق العبيد أو قشر البرتقال أو الفستق من هذا البائع أو ذاك، ونحن نتحدث عما شهدنا وفعلنا عبر دراستنا اليومية في المتوسطة أو الإعدادية... وزاد الشارع اعتزازاً في نفسي وجود بيت صديقي الحميم (حكمت سليمان) في أحد أفرعه، حيث كنت أزوره بين الحين والحين لاستعارة جملة من المجلات والكتب من مكتبته الخاصة.

أما الآن، وبعد الانفجارات السكانية والمصلحية والمتغيرات السياسية التي شهدها البلد، فضلاً عن تضاؤل الخدمات والنظافة اليومية، وربما غيابها، فلكم أن تجتازوا هذا الشارع، وأن تجدوا فيه موطئ قدم للعبور، أو ملمح أصيل مما كان يزينه ذات اليمين وذات الشمال...

وثمة الأسواق العديدة التي كانت تتمركز يوماً، فيما أطلقت عليه زمن عملي في رئاسة قسم التراث في ثمانينيات القرن الماضي: مثلث الخدمات،

الذي تحدّه شوارع نينوى وغازي والعدالة، ونهر دجلة، والذي يبدأ عند مدخل الجسر الحديدي، ويمتد جنوباً وغرباً حتى يصل إلى آخر نقطة له: جامع الخضر (الجامع المجاهدي نسبة إلى من تولى بناءه: مجاهد الدين قيماز زمن الحكم الأتابكي للموصل)، والذي يقبع عند الزاوية الجنوبية لهذا المثلث المترع بالأسواق والحرف والأبنية الخدمية كالقيصريات والخانات والحمامات والقناطر والمطاعم والمقاهي الشعبية والدكاك الممتدة ذات اليمين وذات الشمال.

وقد بيّنت في تقرير مفصل رفعته إلى المديرية العامة لآثار ومتاحف المنطقة الشمالية عام (١٩٨٠م) الأهمية التراثية البالغة لهذا المثلث، والعوامل المضادة التي راحت تفترسه كالمنشار، وقدمت جملة من الخطط العملية لحمايته من التآكل، ثم استعرضت قائمة تفصيلية بموجوداته التراثية التي تعرض معظمها للهدم والإزالة، وقد تضمنت تلك القائمة الموجودات التالية:

القيصريات: قيصرية سباهي بازار، قيصرية القزازين، قيصرية السبع أبواب، قيصرية اليوزبكية، قيصرية مدرسة حسن باشا، قيصرية باب السراي، قيصرية العطارين، قيصرية البزازين.

الخانات: خان الغنم، خان السواد، خان الكمرك، خان القلاوين، خان النفط، خان المفتي، خان الفحامين، خان حمو القدو.

الأسواق: سوق الهرج، سوق الصوافة، وسوق البقالين، سوق التنكجية، سوق الملاحين، سوق الفخارين الموازي لجامع الأغوات، سوق الصناعات والحرف اليدوية الحديدية والخشبية، سوق العطارين، سوق اليمنجية، سوق العتمي، سوق الكمرك، سوق التحافيين في باب السراي، سوق الفحامين، سوق الصفارين، سوق الفرش الموازي لخان المفتي، سوق القوندرجية الموازي لخان حمو القدو.

الحمامات: حمام العطارين، حمام الصالحية.

المقاهي: مقهى الخضراء، مقهى (أبو صبحي) في مداخل سوق العطارين، مقهى قيصرية علي أفندي.

المطاعم: مطعم كباب سيد بكر، مطاعم السمك (في مدخل سوق العطارين)، مطاعم القلية في باب السراي، مطاعم الباجة...

الجوامع: جامع العبدال، جامع الباشا، جامع الأغوات، جامع سوق الحنطة، جامع باب الطوب، الجامع المجاهدي.

كما أنني قمت في تقريري ذاك بانتقاء نماذج نمطية من هذه الموجودات، لغرض حمايتها وصيانتها مقابل تعويض أصحابها بمبالغ مجزية من المال، كي لا يغريهم البحث عن الربح السريع بهدمها وإزالتها.

وكان سوق باب السراي الذي كان يحتضن محل والدي، جزءاً أصيلاً من هذا التكوين المعماري الغني، الذي قضينا فيه أجمل الساعات من زمن طفولتنا السعيدة.

أما شارع النجفي، القريب نسبياً من هذا المثلث، والذي يمتد إلى الشمال الغربي منه، مصعداً باتجاه شارع نينوى، فله قصة أخرى...

تجتاز شارع النجفي من بدئه حتى منتهاه... يهيمن عليك كالكابوس، مزيج من الدهشة والمقت والاشمئزاز.. يضعك على حافات الرعب... وأنت تتلفّت ذات اليمين وذات الشمال فلا تجد إلا أكداس الأطعمة والحلويات التي تخترق المحلات والأرصفة، وتنزل إلى الشارع لكي لا تترك مجالاً لحرية الحركة...

ثمة صرخة محتبسة أرادت أن تنطلق مدوّية في الفضاء القريب: أين الكتب؟ أين المكتبات؟ أين العشّاق الذين يجتازون الشارع مؤملين أن يعثروا على إصدار جديد يجيء مسافراً من القاهرة أو بيروت، لكي يشتروه عائدين به على أجنحة البهجة والفرح إلى دورهم لكي يلتهمونه التهاماً؟

لكنَّ صوتك يختنق... يحتبس في الأعماق... تطغى عليه صرخات البائعين، وزُحام المارة الذي لا يكاد يدع لك مجالاً تتحرك فيه...

وتتساءل مرةً أخرى: أين المكتبة العصرية؟ أين المكتبة الوطنية؟ أين مكتبةُ الكركجي؟ وأين مكتبةُ الوفاء؟ وأين مكتبةُ عبد الرحمن نصّار؟ أين ذنون شهاب، مدرّس اللغة العربية في الثانوية الشرقية الذي لا يصلها يومياً إلا بعد

أن يجتاز شارعَ النجفي، وقد اشترى من إحدى مكتباته أحدث إصدار... لكي يرينا إياه قبل بدء الدرس، مقلباً صفحاتِه بشغف، وأنت وسائر الطلبة يكاد لعابُكم يسيل وأنتم تتفرسون فيما يعرضه عليكم الأستاذ... تتمنون لو يطير بكم طائر إلى شارع النجفي لكي تقلّدوا أستاذكم وتشتروا هذا الإصدارَ الجديد.

أين عبد الجبار حسن؟ الذي كان، بعد أن يشتري الكتاب، يجتازُ الشوارعَ والحارات لا يكاد يلتفت إلى المارة، أو حتى إلى السيارات التي تمرق عبر الشوارع، محدّقاً في صفحات الكتاب، منتشياً بقوة الكلمة التي ينطوي عليها.

أين الدكتور عبد الجبار الجومرد؟ الذي كنتَ تجلس إلى جواره في مكتبة الوفاء متحدثاً وإياه عن دنيا الكتابة والكتاب؟! وأين عبد الباسط يونس؟ الذي كان يلاحق الكتبَ وهي تصدر في مظانّها، فيلقي عليها القبض قبل رحيلها إلى الموصل، وكنتَ تتلقى منه آخر الأنباء عن صدور روايةٍ جديدة لنجيب محفوظ...

أين ذهب سعيد الديوه جي وصديق الجليلي؟ اللذان طالما التقيتهما وهما يقلّبان صفحاتِ الكتب في هذه المكتبة أو تلك.

وتتذكر، محاولاً الفكاك من أسر الكابوس الثقيل، كيف كانت السلاسلُ المصريةُ تأسرك، فتُقبل على مطالعتِها بنهم عجيب: الكتاب الذهبي، الكتاب الفضي، اقرأ، الهلال، مطبوعات كتابي، كنوز القصص الإنساني العالمي... شهراً بشهر تصل في موعدها المحدّد تماماً لكي تغذي عقولنا وأرواحنا بالشهد المصفى...

وتتذكر وأنت لا تزال تعاني من وطأة الكابوس، ولُزوجته، وروائحِ البقلاوة المكدّسة على الأرصِفة إلى درجة الإحساس القاسي بالغثيان... اعتصام الشرقية رفضاً لسياسة العراق إزاء العدوان الثلاثي على مصر... وشهريْ العطلة اللذين توقف فيهما الدوام... وكيف كان انكبابك على القراءة صباح مساء... وكيف كانت المكتبةُ العامة أشبه بخليةِ نحلٍ تعجّ بالمطالعين الذين لا يكفيهم ما يقرؤونه فيها، وإنما يخرجون وقد تأبطوا ما استعاروه منها لكي يواصلوا القراءة في بيوتهم...

يا لتلك الأيام السعيدة!... ويا للحظات التي تشفّ رومانسيةً وعذوبة وأنت تقرأ بشغف قصائدَ فدوى طوقان في ديوانها (وحدي مع الأيام) الذي أعارك إياه عبد الجبار حسن فقرأته مرتين!...

وماذا تقول عن ساعات المطالعة العذبة ـ عبر أمسيات الشتاء الماطرة ـ في أعمال جبران خليل جبران والرافعي والمازني والمنفلوطي وطه حسين والعقاد وسيد قطب ونجيب محفوظ وعلي الجارم وتوفيق الحكيم... وويلز وهيمنغواي وهوغو وتولستوي؟

وتتذكر محاولاتِك الأولى لشراء أوّل كتابين سيشكلان نواة مكتبتِك المتواضعة التي سيقدّر لها فيما بعد أن تتجاوز الستة آلاف كتاب... نظرات المنفلوطي وبؤساء فيكتور هوغو...

ويوم أن أتيح لك أن تعمل في كلية الآداب منذ سنة تأسيسها في خريف عام (١٩٦٦م)؛ كنتَ تلتقي عبر محاضراتك بثلة من الطلبةِ، الذين كان الكتابُ والمطالعةُ الخارجية خبزَهم اليومي... وكانوا يسهمون معك في بناء المحاضرة... فما من سؤال يوجه إليهم حولَ هذا الكتاب أو المفكر أو ذاك إلّا ووجدتَ نفسكَ قبالةَ عددٍ كبير من الأيدي المرتفعة تريد جواباً...

وقد أتيح للعديد من طلبة الستينيات والسبعينيات أن يواصلوا دراستهم للدكتوراه، وأن يعودوا لكي يعملوا في كليتي الآداب والتربية... أحصيتَ يوماً عدد طلبتِك الذين يعملون معك في كلية التربية مدرّسين وأساتذة، فإذا بهم يتجاوزون العشرين.

ثم ما لبثت اللعنةُ أن حلّت... وكفّ الطلبةُ الجامعيون عن القراءة... وأصبحت كليتا الآداب والتربية تخرّجان أفواجاً من الأميين... أو أنصافَ المتعلمين... يرتدون زيفاً شهاداتِ البكالوريوس والماجستير والدكتوراه وعقولهم خَواء...

ثلاثون سنة... كاد ريقُك يجف وأنت تحاول جاهداً أن تعيدهم إلى جادة

القراءة لكي يكونوا أكفاء ما حصلوا عليه من شهادات... فلا يلتفت إليك أحد...

كنتَ تقول لهم إن عشرين سنة من الدراسةِ الجامعية التي تعتمد المقرّر، وعشرين سنة أخرى من الجلوس وراء الشاشة التلفازية الصغيرة لن تخرّج كاتباً ولا مفكراً ولا مثقفاً ولا أديباً ولا مبدعاً، وإن الذي يخرّج هؤلاء هو الكتاب... فلم يلتفت إليك أحد... وتسأل اثني عشر طالبَ دكتوراه عما قرؤوه في عام (٢٠١١م) فإذا بتسعة منهم لم يقرؤوا عبر السنة كلها كتاباً واحداً...

يا حسرتا على القراءةِ المتواصلةِ التي تمزج الليل بالنهار!...

ها هي أمّتنا العربية كلّها تدخل النفق المظلم... وأنت قد مارستَ التدريس في العديد من جامعاتها، داخلَ العراق وخارجَه، فلم تكد تجد في طلبتها، بل حتى في بعض أساتذتها من يقرأ كتاباً واحداً في العام!!

وها هي ذي آخرُ الإحصائيات التي تملأ فمكَ بالمرارة، والتي صدرت عن منظمة اليونسكو قبل سنوات قلائل: إن متوسطَ القراءة الحرّة للطفل العربي لا يتجاوز الدقائق الست في السنة مقابل(١٢,٠٠٠) دقيقة للطفل في العالم الغربي. وفي دراسةٍ دوليةٍ أخيرة حول معدلات القراءة في العالم أوضحتْ أن معدّل قراءةِ المواطنِ العربي سنوياً رُبعُ صفحة، بينما معدل قراءةِ الأمريكي (١١) كتاباً. وتصدر الدول العربية سنوياً ما يعادل كتاباً واحداً لكل (٣٠٠) ألف شخص، بينما تصدر دول الغرب، وخاصةً أمريكا حوالي ٨٥ ألف كتاب سنوياً. وتنتج إسرائيل وحدها ٢٥ ـ ٣٠ ألف كتاب سنوياً، وهو ما يعادل إنتاج الدول العربية مجتمعة. وتكشف أحدث الإحصائيات أن الأوربي يقرأ بمعدل ٣٥ كتاباً في السنة، والإسرائيلي ٤٠ كتاباً في السنة، أما العرب فإن ٨٠ شخصاً يقرؤون كتاباً واحداً في السنة. ولكي تتم قراءة ٣٥ كتاباً باللغة العربية فإننا نحتاج ٢٨٠٠ عربياً... والحصيلة أن ثقافة أوربي واحد = ثقافة ٢٨٠٠ عربي، وثقافة إسرائيلي واحد = ٣٢٠٠ عربي.

أفتستغربُ ـ إذن ـ إذا فقد شارعُ النجفي وجهه الثقافيَّ الأصيل، الذي

كان يمدّ الروحَ والعقلَ والوجدانَ بالغذاء الشهي... وتحوّل إلى بسطةٍ كبيرة، ولكنها ضيّقة لبيع ما يملأ البطون؟

إن شارع النجفي يعكس بمأساتِه هذه وضع الأمة كلّها التي سحبها عن القراءة شيء يسمى الشاشةُ الصغيرة، ومعها رغبةٌ متأصلةٌ في الكسل الروحي والاسترخاء... والميل إلى قتل الوقت باللعب، والأحاديثِ المكرورة... وتُردّد مع نفسِك وأنت تلقي نظرة أخيرة على شارع النجفي، محاولاً أن تفكها من أسرِ الكابوس الذي لا يرحم: أهكذا تؤول الأمة التي نزلت أولى آياتها البيّنات مؤكدةً على القراءة... والعلم... والقلم: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ ـ ٥]... والتي ارتبطت لحظات خليقتها الأولى بالعلم كما يحدثنا كتاب الله: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣١ ـ ٣٣].

والحديث عن الجغرافيا يقود بالضرورة إلى صنوها: الحديث عن التاريخ... عن الهمّ العام بقدر انعكاسه على تكويني وخبراتي... بقدر رؤيتي الانطباعية لشرايينه وخلاياه...

وتقودني البداية ها هنا أيضاً إلى زمن الميلاد البعيد: عام (١٩٤١م)، حيث ولدت وأنا لا أكاد أعلم شيئاً عما يدور حولي من وقائع وأحداث، ولكن وبمرور الوقت، ومن خلال ضباب الزمن الكثيف، والذاكرة الهشة التي لم تكن قد استوت بعد على سوقها... تتراقص إزائي ظلال بعض الوقائع، بشكل متميع، غير واضح المعالم، لكن تأثيراتها في نفسي كانت بالغة، حتى إذا مضت الأيام، وزال الغبش والضباب واستفزت الذاكرة... ودخلت مرحلة الوعي بالأشياء، بدأت ملامحها تزداد اتضاحاً، وتأثيرها يزداد ضغطاً على جملتي العصبية لكي ما تلبث أن تحتفظ بشبكة من الذكريات عما شهده ذلك العصر

من وقائع وأحداث كنت أتعامل معها بجملتي العصبية... بحواسي كافة... بقلبي وروحي... بسمعي وبصري... ومن أجل ذلك تركت في نفسي كهوفاً وأغواراً لا زلت أحملها معي حتى اللحظات الراهنة.

كانت البداية فيما كان يتناقله الناس، ويدور في المجالس والبيوت والأسواق، من أحاديث هامسة حيناً، صاخبة أحياناً، حول وقائع ثلاث تشكل نسيجها في أواخر الثلاثينيات وبداية الأربعينيات، وكلها انتهت إلى ما يشبه الحزن العام الذي خيّم على نفوس أبناء بلدي: الموصل التي كان لها قصب السبق في العديد من وقائعها وأحداثها: مقتل الملك الشاب غازي بن فيصل الأول (رحمهما الله)، وإخفاق ثورة رشيد عالي الكيلاني، وبدء تراجع الانسياح الألماني في أوربا.

لا زلت أذكر الأحاديث اليومية المكرورة التي كانت ألسنة الآباء والأمهات والمعارف تلوكها بحزن وأسى حول واقعة مقتل الملك غازي، الذي كان يملك روحاً وطنية وعروبية طالما عبّر عنها في سياساته، وفي نظام الفتوة الذي جند فيه الشباب، وعبر إذاعته الخاصة... يبدو أيضاً أنه لم يكن يودّ الإنكليز الذين كانوا يومذاك يهيمنون على مقدرات العراق الاقتصادية والسياسية والثقافية والتعليمية... وأنه ـ ربما لهذا السبب ـ كان يميل إلى دول المحور ويتمنى لألمانيا النجاح الذي ـ لا أدري مدى مصداقيته ـ بخصوص مجابهة الاستعمار البريطاني، والتوسع الشيوعي السوفياتي، ومحاولات الصهيونية الدائبة لالتهام فلسطين!!

مهما يكن من أمر، فقد دخلت محبة هذا الملك الشاب ـ على ما كان فيه من طيش وربما إدمانه على شراب الكحول ـ قلوب الموصليين، وعرّشت هناك، ربما كرد فعل تجاه كراهيتهم للمثلث المذكور الذي أخذ برقبة الأمة الإسلامية أو كاد.

ولقد فوجئ الموصليون صبيحة أحد أيام الربيع من عام (١٩٣٩م) بمقتل ملكهم المحبوب في حادث اصطدام سيارته بعمود كهربائي في جوار قصر

الزهور الذي كان يقطن فيه، والذي أعلن يومها أنه وقع بسبب التهور المعروف عن الملك في السياقة السريعة، وربما لكونه كان مخموراً... لكن الموصليين، وربما العراقيين جميعاً، اقتنعوا حتى النخاع بأن الحادثة لم تكن إلا بتصميم من الإنكليز وبمعونة شقيق زوجة الملك: الأمير عبد الإله... فمنذ اللحظات الأولى لانتشار النبأ احتشد الموصليون في تظاهرة هادرة راحت تجتاز شوارع الموصل في طريقها إلى بناية القنصلية البريطانية القريبة من محطة القطار، وفرضوا عليها الحصار وهم يرفعون أصواتهم الغاضبة ضد الإنكليز، ممتزجة ببكائهم الجماعي المؤثر، ثم ما لبث شاب من آل الصبحة أن هاجم القنصل نفسه وذبحه بالسكين... الأمر الذي غرس في نفوس ساسة الإنكليز كراهية خاصة لمدينة الموصل، ربما هي التي دفعتهم بعد سنوات قلائل إلى شن عدة هجمات جوية على المدينة، أصابت إحداها مقهى يقع في رأس الجادة، وأسفرت عن استشهاد وجرح العديد من الموصليين... وكنت وأنا بعد طفل أسمع هذا كله يدور على الألسنة وتتحرك به الشفاه صباح مساء...

وحتى الآن، لم يستطع أي من المؤرخين الذين تناولوا واقعة مقتل الملك غازي، أن يثبت بشكل قاطع الدوافع الحقيقية لحدوثها، ولكن المهم هو ما أسقطته في نفوس الموصليين من الأحزان، ثم ما لبثت أن وجدت نفسها تعبر عن همومها، وكراهيتها للإنكليز، بميل معظم أبناء المدينة إلى ألمانيا ومحبتهم لزعيمها النازي هتلر، وفرحهم الطاغي بالانتصارات المدهشة التي حققها ضد خصومه من الإنكليز والفرنسيين في بدايات الحرب العالمية الثانية، بحيث أن أحد أبنائهم الصحفيين، وهو (يونس بحري) استقر به المطاف في برلين، والتقى بهتلر، وأقنعه بفتح إذاعة خاصة تحمل اسم (حي العرب) لرفع الخطاب الإعلامي العربي المؤيد للألمان، والتي كان لها مستمعوها الكثيرون من أبناء الموصل، لا بل أن الأمر تجاوز ذلك، من خلال حركة أو انقلاب عسكري شامل في بغداد أطاح بنظام الوصاية على الملك الصغير فيصل الثاني من خلال خاله عبد الإله، حيث قاده السياسي العراقي

المعروف (رشيد عالي الكيلاني)، والذي كان يؤيده ويدعمه فيه عدد من خيرة شباب الموصل وضباطها وعلى رأسهم العقيد صلاح الدين الصباغ، والمحامي الشاب يونس السبعاوي (رحمهما الله).

ولكن يبدو أن الموصليين كتب عليهم أن يتلقوا غيوم الأحزان وهي تطبق على سماوات الفرح، وأن يشربوا كأسها حتى الثمالة... إذا ما لبث الإنكليز أن قضوا بغير ما رحمة على محاولة الكيلاني، والتي أعقبت بعد سنوات قلائل إلقاء القبض على العديد من قادة الانقلاب، وإعدامهم قبالة بوابة وزارة الدفاع في باب المعظم على ملأ من الناس.

أما التقدم الألماني، فقد أُجهض هو الآخر، وتلقى الموصليون يوماً بعد يوم، وهم يلتصقون براديواتهم الكبيرة أنباء التراجع الألماني أمام الزحف الساحق للحلفاء، الذين أطبقوا على ألمانيا من الغرب والشرق وقادوا هتلر إلى الانتحار، بسبب من خطئه القاتل بفتح جبهة الصراع ضد الاتحاد السوفياتي، والقتال ـ بالتالي ـ على جبهتين...

هذا ما كان يطرق سمعي من أحاديث وشائعات وأقوال وتعليقات أيام طفولتي المبكرة، الأمر الذي شكل في نفسي كراهية متأصلة للإنكليز ولعملائهم في ديارنا... ودفعني بعد سنوات قلائل إلى المساهمة في أي حدث يعبر فيه العراقيون عن كراهيتهم هذه... وزادني في حقدي أننا عندما كنا، نحن مجموعة من الصبيان، نتجه إلى ساحة الطيران للعب كرة القدم هناك، أن أرى أروع مناطقها وروابيها الخضراء قد سيجت بالأسلاك الشائكة وخصصت للعب الإنكليز كرة الهوكي والقدم، وكان ممنوع علينا الاقتراب منها، وإلا تعرضنا لأشد أنواع العقاب.

في عام (١٩٤٨م) حيث لم أكن قد تجاوزت من العمر الثمان، كنت أنا وأخي وخالي نتجول كعادتنا في شوارع الموصل... وما لبثنا، وعلى حين غرّة، أن سمعنا أصواتاً كقصف الرعد، تنطلق من مكان قريب من مركز الشرطة العام في بداية شارع العدالة، ومع هزيم الأصوات زخات متعاقبة من الرصاص،

وركض وصراخ، اختلط بمحاولات عدد من الأشقياء اقتحام بعض المحلات لسرقتها، وكان على رأسها مخازن (حسّو أخوان) المترعة بالبضائع الأجنبية، والتي كانت تقع أسفل سينما الملك غازي بجوار مركز الشرطة.

انتابنا خوف شديدٌ ورحنا نركض مبتعدين قدر الإمكان عن مصدر الأصوات، وموغلين في شرايين سوق باب السراي بحثاً عن مأوى نلتجئ إليه... وما لبثت خطانا أن قادتنا إلى خان لأحد الفحامين، فاستقبلنا بحفاوة، وطمأننا، وأدخلنا إحدى غرف الخان، حيث بقينا هناك بعض الوقت، ثم ما لبثنا أن غادرنا المكان عائدين إلى دارنا في محلة جامع خزام، ونحن نتصبّب لهاثاً وعرقاً!!

كانت تلك امتداداً للتظاهرات الحاشدة في بغداد، والتي ذهب ضحيتها عدد من الشهداء والشباب، ضد معاهدة (بورتسموث) التي عقدها وزير الخارجية العراقي (صالح جبر) مع الحكومة البريطانية، والتي قيل يومها ـ ولم يدر أحد صحة ما قيل ـ أنها قدمت للإنكليز الكثير من التنازلات بخصوص هيمنتهم على مقدرات الحكم في العراق، وأن لها ذيولاً تتعلق بمطامح الصهيونية لإنشاء دولتهم المغتصبة في فلسطين.

في معطيات علم النفس أن الخبرات المؤثرة من الطفولة تنطبع في الجملة العصبية للإنسان، وتساهم في تشكيل تركيبه النفسي فيما بعد... وكان يجب بخبرتي هذه مع وقائع تظاهرات ١٩٤٨م) أن تجعلني في حالة توجس دائم من الاقتراب من أية تظاهرة أو حشد جماهيري... ولكن الذي حدث عبر السنوات التالية هو عكس ما يتنبأ به علماء النفس... رغبة جارفة في المشاركة في أية تظاهرة تشهدها مدينتي أو أي من مدن العراق... بل بحث عنها خشية أن تفوتني الفرصة!! وهكذا وجدتني أشارك في كل التظاهرات التي شهدها العصر الملكي، والعصر الجمهوري الذي أعقبه، وما أفرزه من تحديات الشيوعيين وفردانية عبد الكريم قاسم.

ما لبث عام (١٩٤٨م) نفسه أن جرّعنا المرارة الكبرى: اغتصاب فلسطين

وفق مؤامرة دولية شاركت في حبكها الصهيونية وبريطانيا وأمريكا والاتحاد السوفياتي... وحكامنا العرب... كنت يومها قد شببت عن الطوق وبدأت أدرك الأمور جيداً، وترسّبت في نفسي يومها حفنة من المرارات، ظلت تتزايد بمرور الأيام عبر مسلسل طويل من الهزائم والانكسارات، التي كانت في كل مرة تترك في فمي طعم العلقم...

ثم ما لبثت واقعة اغتيال الإمام الشهيد حسن البنا، الذي كنا نتسامع بجهده الهائل لبناء جيل من الشباب يعرف كيف يجتاز محنة الأمة، ويقودها إلى الخروج من المأزق الذي وضعها فيه ساستها وقادتها في كل مكان، وكيف أن هذا الجيل دخل متطوعاً حرب فلسطين، وألحق العديد من الخسائر في قوات الصهاينة، وحمى العديد من المواقع من السقوط في أيديها، وحقق من الانتصارات ما لم تحققه الجيوش الرسمية في الكثير من الوقائع... وها هو الآن يكافأ بتعرضه للاغتيال، ويتركه ملك مصر فاروق ينزف حتى الموت... ثم وبموازاة هذا يصدر الأمر بحلّ جماعة الإخوان المسلمين التي سهر على تكوينها، وتصفية مقراتها والاستيلاء على موجوداتها، واستقبال أبطالها العائدين من الجبهة لوضعهم في السجون والمعتقلات!!

كانت الأنباء تصلنا عن طريق الراديو، والصحف والمجلات، والعديد من المسافرين إلى مصر أو العائدين منها، فكانت تطبق على نفوسنا بالهمّ الثقيل والحزن العميق، وتزيدنا كراهية للاستعمار وكل عملائه من الحكام والملوك العرب...

ثم ما لبث انقلاب عام (١٩٥٢م) أن وقع في مصر، فاستبشرنا به خيراً لأنه أطاح بطاغية مصر وعاهرها وقاتل شهيدها الإمام حسن البنا، ولم نكن ندرك يومها ما الذي يعنيه الانقلاب العسكري... فبعد عشرين عاماً من الواقعة أتيح لي أن أطلع وأجمع جملة كبيرة من الوثائق والتصريحات والشهادات التي تؤكد جميعاً أن إسرائيل والصهيونية كانت تسعى من وراء الانقلابات العسكرية إلى الإتيان بزعماء أكثر طواعية لمشاريعها، ولحمايتها من العدوان...

ومهما يكن من أمر؛ فإن الحملة الدموية الشرسة التي قام بها قائد الانقلاب (جمال عبد الناصر) ضد جماعة الإخوان المسلمين، بل ضد عدد من زملائه ورفاق انقلابه وعلى رأسهم اللواء محمد نجيب، لا يفسره ـ فقط ـ عشقه للتفرد بالسلطة وإعدام أي توجه ديمقراطي ممّا كان الشعب المصري قد بدأ يتذوق حلاوته في السنتين اللتين سبقتا الانقلاب على يد حزب الوفد، وإنما تنفيذاً لمؤامرة خطيرة حبكتها معه إسرائيل والدول الاستعمارية وعلى رأسها أمريكا، فيما هو مكشوف من تلك القناة التي ظلت مفتوحة بين مصر والمخابرات الأمريكية... بين عرّاب الانقلاب: محمد حسنين هيكل وبين كبار القادة الأمريكيين... ومن خلال الصداقة الحميمة والزيارات شبه اليومية التي كانت تشهد لقاءات عبد الناصر بالسفير الأمريكي في القاهرة... ومن خلال وقوف أمريكا إلى جانب مصر زمن العدوان الثلاثي وإرغام إسرائيل وإنكلترا وفرنسا على الانسحاب، بعد تقديم مصر جملة من التنازلات الاستراتيجية الخطيرة لإسرائيل، والتي أوصلتها إلى البحر الأحمر والعمق الإفريقي.

شهادة قد لا يقبل بها الكثيرون ممن يتعاملون مع الظواهر من أحد أطرافها الختامية، وليس من بداياتها الأولى. وبداياتها الأولى تشهد بغير ما انتهت إليه الأمور من المزيد من الخسائر والمآسي فيما بعد.

في ربيع ذلك العام انشغل العراق والموصل، بالاحتفالات الرسمية والشعبية المتواصلة ترحيباً بتتويج الملك فيصل الثاني... كان رد فعل الموصليين يتمثل بفرحتهم الغامرة بانفكاك قبضة الوصي (عبد الإله) عن مقدرات الحكم في العراق، وترك اتخاذ القرار لابن أخته (فيصل الثاني)، الذي لم يكن قد تجاوز الثامنة عشرة من عمره، وكان محبوباً لدى معظم جماهير الموصل... ولذا فما أن أعلن عن بدء احتفاليات تتويجه في مايس من عام (١٩٥٣م)؛ حتى أقيمت أقواس النصر في شوارع المدينة، وعلقت الفوانيس الملونة الكبيرة على الواجهات والجدران... وأطلقت الألعاب النارية، وخرج الناس زرافات ووحداناً يتجولون عبر الليل في شوارع المدينة لمشاهدة هذا الذي يجري فيها،

وللمشاركة في الاحتفاليات... وكنت أنا وابن عمي شمس الدين الحاج محمد نخرج يومياً، لكي نتجول نحن الآخرون إلى ساعة متأخرة من الليل... كنا حتى ذلك الوقت نحمل الكثير من الودّ والمحبة للملك، ونحاول أن نفصل في عاطفتنا تجاهه، بينه وبين كل من الوصي ونوري السعيد... حتى أننا عندما سمعنا يوماً أنه تعرض لكسر بسيط في كتفه خلال استحمامه، انتابنا الحزن، ورحنا نتابع الموضوع حتى اطمأننا على سلامته!!

إن عاطفة الإنسان، وما يخفق في جنباته وبين ضلوعه، ليست ملكه في كثير من الأحيان... وهي طالما تشكلت خارج دائرة إرادته وتحليله العقلي... وبخاصة في أيام الطفولة والصبا، ولعلّ هذا ما يفسّر انقلابي عليه، وفرحي الغامر بالإطاحة به، بعد سنوات قلائل من تاريخ تتويجه ملكاً على العراق.

في بداية صيف عام (١٩٥٣م)، وكنت قد تخرجت من السادس الابتدائي، جاءني ابن عمي هشام الطالب، لكي يحكي لي ويغريني بالانتماء إلى جماعة الإخوان المسلمين... وقال لي بأن الأمر لا يحتاج لأكثر من الذهاب إلى حافة نهر دجلة أسفل قلعة باشطابيا، لكي يقلنا زورق من هناك إلى الجانب الأيسر من النهر، حيث أقام الإخوان (جردغاً صيفياً) يمارس فيه الاستحمام، والألعاب الرياضية، وتلقى الدروس والمحاضرات، وتدور الأحاديث، ويستقبل الزوار... يا لها من فرصة طيبة، قالها هشام بحرارة، فما لبثت أن وجدتها ـ بالفعل ـ الفرصة المناسبة للالتحام بمجموعة أكبر من الأصدقاء، والتعبير عن الذات بالانتماء إلى جماعة تعمل لهذا الدين وتسعى إلى نشره بين الناس...

وتوجهت بمعيته عصر اليوم نفسه، ودونما أي قدر من التردّد، إلى المكان المشار إليه، حيث كان الزورق يتمايل على شاطئ دجلة، يقوده الأخ (غازي حمودات) شقيق رئيس التنظيم الأستاذ غانم حمودات ﷺ، فقفزنا فرحين إلى الزورق، وسلمنا على الأخ غازي، الذي ما لبث أن انطلق بنا مجتازاً النهر صوب الجردغ، حيث تعرّفنا على الشباب المتواجدين هناك، ثم انطلقنا بعد ذلك نمارس الرياضة، والنزول إلى النهر، ثم خرج لكي نؤدي صلاة المغرب

ونستمع للمحاضرة اليومية التي كان يتكفل بإلقائها الأستاذ غانم حمودات، ثم ننساح بعدها في الأحاديث حتى صلاة العشاء، لكي ما نلبث أن نقفل بعدها عائدين إلى دورنا.

كانت التجربة مغرية حقاً، لكني لم ألحظ فيها النية الواضحة لفكرة التنظيم ومطالبه الأساسية، أن تسجل أسماء المنتسبين ودرجة كل واحد منهم، والمبالغ المالية المترتبة على انتمائه، والأسرة التي سينتمي إليها، والمسؤول عن كل أسرة... إنما تركت المسألة سائبة هكذا لكل من يريد أن يأتي إلى الجردغ فيقضي فيه الساعات الطوال. ومع ذلك ظللت أداوم فيه بشكل شبه يومي، على مدى الصيف كلّه، وقد تكفل بإعادتي على دراجته البخارية يومياً أحد أصدقاء الجردغ.

وكنا نذهب أحياناً خلال الصباح إلى مقر الجماعة الكائن في بيت كبير استؤجر في محلة حوش الخان المجاورة للسرجخانة، حيث نقضي بعض الأوقات في المطالعة في مكتبة المقرّ، أو لتبادل الأحاديث، ويوماً كُلفت أنا وابن عمي هشام، وأخ ثالث هو (لقمان الحاج داود) شقيق الدكتور إدريس الحاج داود ﷺ رئيس فرع الحزب الإسلامي في الموصل بعد احتلال العراق على يد الأمريكان، بأن نذهب إلى محطة القطار لاستقبال الحاج رفيق، أحد الإخوان السوريين القادمين من دمشق في زيارة لمقر الجماعة، وأن نبدأ قبل ذلك، بتنظيف البيت الذي استؤجر لسكناه وعائلته... فشمرنا عن ساعد الجد وقمنا نحن الثلاثة بحملة شاملة للتنظيف، بحيث أن الغبار أحاط بنا من كل جانب، ثم ما لبثنا أن استأجرنا عربة من تلك التي يجرها حصان واحد، ويممنا وجوهنا صوب المحطة، حيث إذا ما وصل ما يسمى بقطار الشرق السريع القادم من الحدود السورية، استقبلنا الحاج رفيق وأسرته وأوصلناهم إلى البيت الذي استؤجر لهم. ومن المفارقات العجيبة أن لقمان هذا سرعان ما انجرف مع التيار الشيوعي الذي نشط في الموصل بعد انقلاب عام (١٩٥٨م)، ثم غادر العراق إلى رومانيا حيث توفي هناك.

وفي يوم من الأيام، وأنا جالس في مكتبة المقر أطالع في كتاب، إذا بالأخ

الحاج عبد الحافظ سليمان، الرجل الثاني في التنظيم المحلي للإخوان، يربت على كتفي، التفت إليه، فإذا به يحمل كتاباً صغيراً عن حياة أحد الصحابة (ﷺ)، ويقول لي: إن عليّ أن آخذ هذا الكتاب معي وأقوم بتلخيصه خلال بضعة أيام ثم أعود لتسليمه والملخص إياه... أحسست لحظتها بأن جبلاً هائلاً من الهم والغم والحيرة تستقر على كتفي، ولم أشأ أن أعترض، وإنما أخذت الكتاب وغادرت المكتبة لا ألوي على شيء... ولعدة ساعات بعدها، وأنا أتقلب ـ كما يقول المثل ـ على جمر الغضا، إذ كيف سيتاح لي تنفيذ المطلوب؟! ولكني ما لبثت أن وجدت الحلّ: أن أعيد الكتاب وحده إلى المكتبة مع أحد الأخوة، وأن أغادر الارتباط بالجماعة إلى غير رجعة، وحينذاك فقط تنفست الصعداء... رحمك الله يا عبد الحافظ (يا صديقي الحميم فيما بعد) بقدر ما كنت رجلاً محبوباً، وأريحياً، وسمحاً... بحيث أنك تناسيت الواجب الذي كلفتني به دون أن تسأل عنه فتضعني في دائرة الإحراج...

في السنة التالية شاركت وأحد أبناء عمومتي في حضور كل التجمعات الجماهيرية الحاشدة التي أقيمت في أماكن شتى من الموصل استعداداً للحملة الانتخابية لمجلس النواب... ولا زلت أذكر بعض أسماء المرشحين: عبد الجبار الجومرد... غربي الحاج أحمد... محمد حديد... صديق شنشل... عبد الله ليون... وآخرين، حيث ما لبثوا أن اكتسحوا مقاعد البرلمان باعتبارهم جبهة المعارضة لأحزاب الحكومة، وعلى رأسها حزب نوري السعيد، لكن هذا ما لبث بعد أن رأى النتيجة أن أعلن عن حلّ المجلس الأمر الذي زاد من الاحتقان السياسي في البلد، حتى إذا جاء عام (١٩٥٦م)، ووقع العدوان الثلاثي على مصر تكهربت الأجواء وأصبحت تنذر بالويل، واعتقدت الجماهير ـ وربما تكون قد أخطأت التقدير ـ أن الحكومة العراقية وعلى رأسها نوري السعيد، تقف مع صف المعتدين، فانفجرت التظاهرات في مدن العراق كافة وعلى رأسها الموصل.

وخرجت وثلة من الأصدقاء نتجول في شوارع الموصل باحثين عن تظاهرة

تعلن استنكارها للموقف العراقي لفرض المشاركة فيها، والتنفيس عما كان يعتمل في نفوسنا من غليان... وفي اليوم التالي، وأنا في طريقي إلى الإعدادية الشرقية، سمعت من وراء أسوارها صرخات جماعية تشق عنان السماء، ورأيت باب المدرسة مقفلاً، فخشيت أن أحرم فرصة المشاركة، لكنني التصقت بالباب ورحت أقرع عليه بعنف، ولحسن الحظ فإن أحد الفراشين كان يقف خلفه ففتحه لي قائلاً: ادخل بسرعة... وما لبث أن أقفل الباب.

كان الطلاب قد احتشدوا في حديقة المدرسة الخلفية، ثم انطلقوا إلى داخل فناء المدرسة وهم يرفعون أصواتهم وصرخاتهم بالتنديد بالعدوان وبكل من يسانده، ويطالبون بإسقاط نوري السعيد، وراح الخطباء يصعدون بين الحين والحين على أكتاف المتظاهرين لكي يرفعوا عقيرتهم بكلمة أو قصيدة أو هتاف، ووقفت أنا مع الواقفين أهتف وأصفق وأشارك في الصراخ... حتى إذا ما مضت ساعة على ذلك؛ خرج مدير المدرسة (محمود الجومرد) لكي يعلن عن وقف الدوام ويطلب منا الانصراف... فما كان من الجمع إلا أن انفض بانتظار فرص أكثر مواتاة للتعبير عن غضبه في شوارع الموصل وساحاتها.

عدت إلى البيت لتناول الغداء والانطلاق سريعاً إلى شارع غازي للمشاركة في مسيرة جماهيرية كبيرة يقودها شيوخ المعارضة في الموصل وعلى رأسهم (محمد علي الخشاب)، ثم ما لبثت الأحكام العرفية أن أعلنت في عموم العراق، ونشر اللواء الخامس المتمركز في الموصل قواته في شوارع المدينة ومفاصلها الحساسة تحسباً لكل طارئ.

في مساء ذلك اليوم، وكنت أقف على سياج السطح العلوي لدار عمي الحاج محمد، أصخت السمع للأصوات القادمة من الجهة الغربية للموصل... تبيّن لي أن تظاهرة ليلية كبرى تجمعت في ساحة رأس الجادة وانطلقت مجتازة شارع نينوى، فشارع غازي، باتجاه مركز الشرطة العام، حيث جوبهت مقدمتها بوابل من الرصاص سقط على أثره عدد من الجرحى، واستشهد أحد أفراد عائلة البارودي.

في اليوم التالي أعيد المشهد، وخرجت في الموصل جملة من التظاهرات، رداً على ما جرى يوم أمس... وقد أتيح لي وعدد من الأصدقاء المشاركة في بعضها. ولحسن الحظ فإن آمر اللواء الخامس كان اللواء الركن الحاج محمود شيت خطاب (الصديق الحميم فيما بعد، رحمه الله)، وكان بميوله الوطنية وتكوينه الديني الأصيل يسعى إلى كسب الجماهير وعدم استفزازها، الأمر الذي ساعد على إطفاء النار بأقل قدر من الخسائر.

ثم ما لبث أن أعلن عن تعطيل الدوام في المدارس كافة لمدة شهر بكامله، فكان فرصة رائعة للانكباب على القراءة النهمة للكتب... في البيت والمكتبة العامة والحدائق والمتنزهات والكازينوات، حتى إذا انتهى موعد تعطيل الدوام اتجهنا إلى مدارسنا، لكننا ما أن دخلناها حتى علا صراخ الطلبة مرةً أخرى بأشد من ذي قبل، وقرروا هذه المرة إعلان الاعتصام في الثانوية الشرقية، والإضراب عن الطعام حتى يستجاب لمطاليبهم وكان من بينها إقالة نوري السعيد والخروج من حلف بغداد وتأميم النفط!!

ومضت ساعات النهار والخطباء يعقب بعضهم بعضاً، حتى حانت ساعة الغروب وحل الظلام (وكان من بينهم مؤيد معمر وحسن علي وعبد الإله رحاوي والشاعر محسن عقراوي وآخرون)... وما لبث بعض الطلبة أن لجؤوا إلى المناضد الدراسية يكسرون خشبها ويلقونه في النار بحثاً عن التدفئة!! وفئة أخرى جمعت ما تقدر عليه من الرحلات ووضعتها خلف بوابة المدرسة الرئيسية تحسباً منهم لاقتحام رجال الجيش، الذي جاء أحد قادتهم وأخذ يخاطب جموع المتظاهرين من وراء الباب بأن يكفوا عن الصراخ، وأن يغادروا المدرسة عائدين إلى دورهم، وهو يعدهم بشرفه العسكري بالسعي لتنفيذ مطالبهم!! لكن أحداً من الطلبة لم يستجب لنداءاته وتوسلاته.

لكن الفتق ما لبث أن ألقى بظلاله على وحدة الطلبة... فكان أول من خرق مبدأ الإضراب عن الطعام هم معظم قادة التظاهرة من القوميين والشيوعيين، أما نحن المحسوبين على الخط الإسلامي، فقد أعلنّا تمسُّكنا بالإضراب حتى

اللحظة الأخيرة... فلما حلت صبيحة اليوم التالي بدأت صواني الأطعمة والشاي والفاكهة تنهال على المعتصمين من وراء أسوار المدرسة، فما كان من الفئة التي أصرّت على موقفها إلا أن تجد عبث الإصرار وتتلقى هي الأخرى وجباتها من الطعام... ولا زلت أذكر أبي ﷺ وهو متسلق جدار المدرسة، وبيده طبق القيمر والخبز، وهو يجيل بصره بين الطلبة بحثاً عني، حتى إذا رآني أشار علي بأن أتقدم إليه وأتسلم حصتي من الطعام... كان منظره مؤثراً إلى حد كبير، ولقد أرغمني على تلبية طلبه أسوةً بالطلبة الآخرين...

ثم ما لبث الفتق الثاني أن أخذ يتسع متمثلاً بتلك الثغرة الجانبية غير المكشوفة من أحد جدران المدرسة، والتي أخذ الطلبة يتسللون منها واحداً بعد الآخر، وعلى رأسهم قادة الاعتصام، وبمرور الوقت شعرنا بأننا بقينا وحدنا نحن قلة من الطلبة بحيث لم يبق لاستمرارنا على الاعتصام أي معنى، فغادرنا المكان عائدين مع حلول المغرب إلى دورنا، لكي ما نلبث أن نتلقى أمراً آخر بتعطيل الدراسة في المدارس حتى إشعار آخر.

ولا زلت أذكر أني وصلت البيت وأنا جائع متعب، وأني جلست عند حافة النافذة متخذاً منها منضدة لتناول طعامي، ورحت ألتهمه لأكثر من ساعة، ثم ما لبثت أن وضعت رأسي على الوسادة ورحت في نوم عميق...

والحق أن الجماهير، وكما يؤكد علماء الاجتماع، طالما حركها ما يسمى بالعقل الجمعي الذي سرعان ما يستجيب للمؤثرات الخارجية دون أن يزنها بعقله، وقبل أن يمحصها ويتأكد من أبعادها الحقيقية، إذا به يندفع بردود أفعال قد تكون طائشة في كثير من الأحيان... وأنى للإنسان في مرحلة صباه وشبابه أن يمارس تمحيص المؤثرات وأن يزنها بميزان العقل الراجح، بينما هو أسير عواطفه وانفعالاته؟!

ولا زلت أذكر إحدى المفارقات الطريفة، يومذاك... حيث كنت أسجل يومياتي على دفتر صغير بسطر أو بضعة أسطر في اليوم الواحد، وكنت قد تعرّفت على صديق حميم هو الأخ (حكمت سليمان)، الذي كان طالباً بعد في

المتوسطة، والذي كان قد اعتقل بسبب نشاطه الملحوظ في متوسطته، ولكنه ما لبث أن تلقى أمراً بالإفراج عنه بعد أيام قلائل، إلا أنه فوجئ في اليوم نفسه بإعادة اعتقاله مرةً أخرى... فماذا كتبت عن الحادثة التي آلمتني كثيراً... عبارة واحدة تحسباً للجانب الأمني: (خرج ثم دخل!!) دونما أية إشارة إلى اسمه!! وعلى مدى عشرات السنين، وكلما أتيح لي اللقاء به تكون كلمة السرّ بيني وبينه (خرج ثم دخل) مع الضحك العميق الخارج من القلب... يا لتلك الأيام السعيدة!!

في منتصف عام (١٩٥٧م) أتيح لي أن أنتمي لجماعة الإخوان المسلمين للمرة الثانية، هذه المرة بمعية صديقي الحميم في الإعدادية الشرقية (عماد قاصد الحرباوي) ذي المزاج الانفعالي، والذي آلمه يوماً أن يسلّم على مجموعة من الإخوان في الجردغ الصيفي، ويبدو أنهم كانوا منهمكين في الحديث فلم يردوا عليه، فما كان منه إلا أن يعلن تركه للإخوان، ثم ما يلبث أن ينتمي لحين من الوقت إلى صفوف الحزب الديمقراطي ويتحول عنه إلى حزب البعث ثم يبقى فيه متقدّماً بخطوات واسعة في المناصب الحزبية، حتى دهي باستشهاد ابنه الوحيد في (الحرب العراقية ـ الإيرانية) ثم بإصابته بجلطة كادت تأتي عليه (عافاه الله)...

والمهم أن سبب انتمائي هذه المرة هو الجردغ نفسه الذي سبق وأن أغراني عام (١٩٥٣م)، ومع الجردغ جملة من الرحلات الربيعية، بمعية قائد الجماعة الأستاذ غانم حمودات، إلى منطقة السفينة المطلة على نهر دجلة جنوبي الموصل، أو إلى تلعفر حيث الأجواء الماطرة جعلتنا نظل جالسين في اللوري الذي غطي بجادر سميك، فكانت تلك من أعذب الساعات التي شهدتها تلك الرحلات. ولا زلت أذكر أننا قبل بدء انهمار المطر جلسنا في العراء على شكل حلقة كبيرة، وطلب من كل واحد منا أن يقرأ آية من القرآن ثم يعرّف بنفسه... وإذا بالأستاذ غانم حمودات بعد أن أجال بصره في الموجودين يقع نظره عليّ، ويطلب مني إلقاء كلمة في الموجودين... فأرتج عليّ، وتملّكني خجل

يصعب وصفه، أنا الذي لم يسبق لي على الإطلاق حتى ذلك الوقت، أن ألقيت كلمة في جمع من الناس... وكلما مضى الوقت والأستاذ يركز نظره عليّ منتظراً أن أبدأ الحديث كنت أحسّ بالاختناق والحرج أكثر فأكثر، وظللت حتى النهاية صامتاً لا أحير بكلمة واحدة... ولو بكلمة اعتذار... فما كان منه إلا أن يوجه الطلب لغيري...

ويا سبحان الله على هاتين المفارقتين: العجز عن تلخيص كتاب صغير، فيما سبب خروجي عن الإخوان، والخجل من إلقاء كلمة فيما وضعني في دائرة الحرج... أنا الذي كتبت فيما بعد آلاف الصفحات. وألقيت عشرات الكلمات والمحاضرات ومئاتها.. لعله الخزين المكبوت الذي يظل يبحث عن فرصته المناسبة للتعبير عن نفسه، ولعله رد الفعل الذي يجيء بالقوة نفسها، ولكن بالاتجاه المعاكس لما تشكل به الفعل الخاطئ أول مرة.

في العام التالي (١٩٥٨م) أعلن في العراق عن إجراء انتخابات جديدة للمجلس النيابي، وكان أحد المرشحين هو زعيم حركة الإخوان المسلمين في العراق: الشيخ محمد محمود الصواف رَحِمَهُ ٱللَّهُ... رشح نفسه عن مدينته التي ولد فيها: الموصل... ولا زلت أذكر ذلك الاجتماع الحاشد الذي عقد في دار أحد أقربائه في محلة الإمام عون الدين، حيث حضرنا جميعاً واستمعنا للتوجيهات الخاصة بالعملية الانتخابية، وكنا واثقين من فوزه... لكن الذي حدث هو واحدة من أكثر أعمال التزوير الانتخابية بشاعة ومكشوفية... بحيث أن باصات النقل العام أممت لنقل مؤيدي نوري السعيد ومرشحي أحزاب الحكومة، وانتهى الأمر بسقوط معظم مرشحي المعارضة وعلى رأسهم (الصواف)، الذي ما لبث أن أصدر كراساً صريحاً بعنوان (هذا بيان للناس) يكشف فيه المساحة الكبيرة للتزوير الذي شهدته تلك الحملة الانتخابية، ويندّد بمصير الظالمين بشكل صريح دونما أي قدر من التوجس أو الخوف... وخرجنا إلى محطة القطار لتوديعه وهو عائد إلى العاصمة بغداد، حيث وقف على درج القطار وألقى خطبة نارية ضد الحكومة لم تكن لتقلّ ضراوة وعنفاً عما قاله في كراس (هذا

بيان للناس)... ولعل ما شهدته هذه الحملة الانتخابية في عموم العراق، هو مما عجّل بانقلاب (١٤ تموز) الذي أطاح بالملكية وقضى على نوري السعيد.

استمرت صلتي بحركة الإخوان طيلة عام (١٩٥٧م) وحتى منتصف عام (١٩٥٨م)، حيث كان ارتباطي بالأخ (يحيى علي علاوي) ﷺ، الذي كنت أخرج معه إلى براري الموصل بشكل شبه يومي نتناقش في شؤون الجماعة ونتبادل الأحاديث عما يشهده العراق... ولا زلت أذكر يوم زارنا الأخ (نعمان عبد الرزاق السامرائي) أحد كبار المسؤولين في الإخوان، وذهبنا في رحلة غداء إلى منطقة غابات الموصل حيث تلقينا منه محاضرة قيمة، قفل بعدها عائداً إلى بغداد.

لا أدري ما الذي دفعني إلى الانفكاك الثاني عن الإخوان... لعله طبعي الذي لا يرتاح للارتباط... لعلها بعض النقدات التي راحت تتجمع في نفسي وفي نفوس عدد آخر من المنتمين ضد بعض تصرفات الإخوان... لعله غياب الانضباط الحزبي الذي يدوّن قوائم ثابتة بأسماء المنتمين واشتراكاتهم... ولعلها غيرها من الأسباب التي لا أستطيع أن أضع يدي عليها بالتحديد... وأقول: هذه هي!!

بعد أيام قلائل من تحوّلنا من بيتنا القديم في محلة جامع خزام إلى الدار الجديدة التي بناها والدي في محلة الغزلاني قريباً من الجدار الذي يحيط ببناية سجن الموصل المركزي، حيث الفضاء المكشوف أمامه والبنايات المتفرقة التي تفصل بينها الأراضي الخضراء... وحيث السكينة والهدوء.. وقع انقلاب (١٤ تموز) عام (١٩٥٨م) الذي أطاح بالنظام الملكي وأعلن الجمهورية...

كنت صبيحة ذلك اليوم نائماً كعادتي في سطح الدار، فإذا بي أستيقظ على صرخات زوج خالتي (سالم محضر باشي) ذي الميول القومية، وهو يصعد إلى السطح صائحاً والفرحة تملأ جوانحه: لقد وقع الانقلاب، وعُيِّن صديق شنشل وعبد الجبار الجومرد وزيرين في الحكومة الجديدة... ثم ما لبث أن غادر المكان... فما كان مني إلا أن انهض قائماً والفرحة الطاغية تجتاح

مشاعري، وأسرع بالنزول إلى أسفل الدار لاستبدال ملابسي، والخروج بمعية أخي الأكبر (مظفر) للمشاركة في التظاهرات الحاشدة، التي انفجرت في الموصل لحظة سماع البيان الأول من راديو بغداد.

التحقنا بالتظاهرة الرئيسية عند نقطة اتصال شارع غازي بشارع العدالة حيث يقوم مركز الشرطة العام واندمجنا فيها ورحنا نهتف مع الهاتفين... ولا زلت أذكر، وربما كان هذا أوّل انشقاق مبكر بين جبهتي الشعب العراقي: الجبهة القومية الإسلامية والجبهة الديمقراطية الشيوعية، حيث كانت كل جبهة تنادي بشعارها الخاص... فالجبهة الأولى كانت تهتف بالوحدة الفورية مع الجمهورية العربية المتحدة، والجبهة الأخرى كانت تهتف بالاتحاد الفيدرالي والصداقة السوفياتية... ووقفت متحدياً أمام أحد الشيوعيين ورحت أرفع ندائي بأقصى ما أستطيع: (وحدة... وحدة عربية لا شرقية ولا غربية) وراح هو يهتف (اتحاد فيدرالي... صداقة سوفياتية) حتى كدنا أن نتضارب بالأيدي، لولا الزخم الكبير للتظاهرة الذي فرّق بيننا، واندفع كل منا يهتف مع جماعته بما هو مقتنع به.

وبعد أن وصلنا (دار الضباط)، حيث أُسقطت صورة الملك الكبيرة المعلقة على واجهته.. انفضّت التظاهرة، وعدنا نحن إلى دورنا لمتابعة تفاصيل الأحداث من راديو بغداد، الذي ما لبث أن أعلن عن النجاح التام للانقلاب، ووصول الزعيم عبد الكريم قاسم على رأس اللواء التاسع عشر، واستقراره في وزارة الدفاع رئيساً للوزراء وقائداً للقوات المسلحة، وتعيين القائد الفعلي للانقلاب: العقيد عبد السلام عارف نائباً لرئيس الوزراء ووزيراً للداخلية... ثم أعلنت أسماء التشكيلة الوزارية الجديدة...

كان الفرح والابتهاج يتملكنا ونحن ننصت لإذاعة بغداد، التي أصبحت تسمي نفسها (إذاعة الجمهورية العراقية) فيما كان أشبه بالحلم الذي راودنا السنين الطوال... ثم ما لبثت أنباء مقتل الوصي والملك ونوري السعيد أن بدأت تترى،

ونحن نتابعها بشغف، رغم ما اختلط فيها من تصرفات في غاية السوء بخصوص التعامل مع جثتي الوصي ونوري السعيد، كان الشيوعيون والغوغاء يقفون وراءها.

ومنذ ذلك اليوم، وعلى مدى الأيام التالية، كانت شرفة بيتنا الجديد المطلة على الفضاء المترامي أمامها، تشهد مجلساً يومياً كان أبي يعقده عصر كل يوم لثلة من أصدقائه المؤيدين للانقلاب، حيث تدور الأحاديث والتعقيبات وتنطلق التحليلات بخصوص ما تشهده الساحة.

وبعد يومين أو ثلاثة من الانقلاب تنامى إلى مسامع أبناء الموصل نبأ زيارة سيقوم بها عبد السلام عارف نائب رئيس الوزراء ووزير الداخلية لمدينة الموصل، وأنه سيلقي خطاباً جامعاً في ساحة الطيران، فما كان منا إلا أن غادرنا مبكرين، واتخذنا أماكننا في الساحة الكبيرة قبالة شرفتها التي كان يطل منها العقيد عبد السلام بملابسه الكاكي العسكرية، حيث بدأ بإلقاء خطابه.

ما لبث معظم الموجودين أن فوجئوا بضحالة الخطاب، وتفككه، ولهجته العامية، وانفعاليته... بحيث أنهم عادوا إلى دورهم وقد أصيبوا بخيبة أمل قاسية، وهم يجدون رمز ثورتهم، وقائدها الفعلي، يتحدث إليهم بهذا الأسلوب الغوغائي، الذي لا يربط بين فقراته أي رباط... حتى أننا رحنا نتابع خطاباته في المحافظات الأخرى عبر الراديو في الأيام التالية، فإذا بها تنبض بالشيء نفسه من الاضطراب والفوضى، والجهل والتفكك، وحتى أننا رحنا نقول في أنفسنا لعل الزعيم عبد الكريم قاسم سيرتاح لهذه الخطب التي ستضعف مركز عبد السلام عارف، الذي بدا منذ اللحظات الأولى كما لو كان قطباً في مواجهة عبد الكريم الذي آثر الصمت، وراح يعمل بهدوء ملحوظ.

لقد كان انقلاب (١٤ تموز)، بإيجابياته وسلبياته معاً... بصفحاته البيضاء والسوداء... بدء مرحلة جديدة، ليس على مستوى العراق فحسب، بل على المستوى الفردي لجيلنا الذي كان قد أنهى المراحل المبكرة من دراسته ووضع أولى خطواته باتجاه الدراسة الجامعية.



الفصل الثالث

١٩٥٨ ـ ١٩٦٢م

عالم جديد، بكل ما تعنيه الكلمة من معنى... موقع الكلية الجميل الذي تخترقه سكة الحديد الذاهبة شرقاً، والعائدة إلى بغداد... الأبنية التدريسية والأقسام الداخلية... المكتبة المتخمة بالكتب والمطعم الأنيق... الحدائق والساحات والأشجار التي تظلل ممرات الكلية... النادي وساحة الألعاب الرياضية... الأضواء وعروض الزينة الملوّنة... والاحتفاليات شبه اليومية... والأغاني والأناشيد... والمحاضرات ذات النكهة الخاصة بأساتذتها الكبار الذين لم يقدّم لنا معظمهم شيئاً مما كنا نطمح إليه... وجبات الطعام الأنيقة حيث خصص لكل ستة طلبة منضدة خاصة وحصتهم من الغداء أو العشاء... الأجواء الخريفية بنسماتها العذبة التي تنعش الروح... الأحاسيس الرومانسية التي تجد نفسك منساقاً إليها وسط هذه الظروف جميعاً... القسم الداخلي الملاصق للكلّية، والذي اخترنا فيه نحن ستة من الطلبة الموصليين إحدى غرفه لكي نمضي ساعات الليل فيها...

كانت الأيام الأولى للدوام أشبه بالحلم... نوع من الإعجاب والدهشة والاندماج بجوار الكثير من أحاسيس الرفض والانفصال والرغبة في الفرار... ولقد لعب المناخ السياسي الذي خيّم على تلك الأيام دوره الرئيسي في تشكيل هذا الحلم المزدوج، حيث كانت كليتنا بالذات مأوى مناسباً للمنتمين للحزب الشيوعي، والديمقراطيين والانتهازيين ومحبي الزعيم عبد الكريم قاسم... ربما بسبب ما تتميز به عن غيرها من أقسام داخلية ووجبات طعام تعين الفقراء

على مواصلة دراستهم... وربما بسبب الحنين والإحساس القاسي بالغربة، وربما لأسباب أخرى.

وعلى أية حال فقد كانت كليتنا تسمى مجازاً بالصين الشيوعية، وكان (مهدي الحافظ) (السياسي الذي برز ثانية في الساحات العراقية بعد الاحتلال بآرائه ومواقفه الموزونة) يقود اتحاد طلبتها، وهو جيش جرار من العقائديين والانتهازيين... وكنا نحن الإسلاميين والقوميين والبعثيين والمستقلين نحتل بقعاً صغيرة في النسيج العام لطلبة كليتنا... لكن قوة إيماننا، ومجابهتنا الصريحة، ورغبتنا في التحدّي، جعلت كفة الصراع تميل بمرور الأيام لصالحنا.. ولكن ليس قبل مضي العام الأول الذي مثل قمة الصعود الشيوعي في أجهزة الدولة ومؤسساتها.

بمجرد صدور قوائم الطلبة المقبولين في كلية التربية، قمت برحلتي الدراسية الأولى إلى بغداد لاستكمال الأمور الإجرائية، بما فيها المقابلة التي سئلت فيها عن آخر ما قرأته فكان جوابي: (السلام العالمي في الإسلام) لسيّد قطب، و(نيتشه) لكاتب ألماني، ورحت أشرح لأعضاء اللجنة ماذا أضاف هذان الكتابان لي من حصيلة معرفية، فأعجبت اللجنة بإجابتي وأذنت لي بالانصراف، حيث غادرت الكلية وأنا أحس بسعادة بالغة وكأني حصلت على المطلوب وهو إشارة القبول لدخولي الكلية بأقسامها الداخلية...

يومذاك كانت بغداد، بشوارعها وساحاتها، تعج بالتظاهرات الجماهيرية الحاشدة التي يقودها الشيوعيون ويغذيها الانتهازيون والديمقراطيون، تأييداً للزعيم عبد الكريم قاسم، فيما كانت القوى المضادة المؤيدة لعبد السلام عارف، نائب رئيس الوزراء ووزير الداخلية، تلتزم السكوت يومها... وانتابني، وأنا أقف دقائق معدودات على حافة رصيف في شارع الرشيد إحساس هائل بالقرف والاشمئزاز، ليس لتوجهات هذه التظاهرات فحسب، بل للأجواء الغوغائية التي تسيّرها... نوع من التخمة والإشباع الزائد من كل حشد جماهيري... نوع من الإحساس بالاستفزاز للصرخات المجنونة التي كانت تدوّم

في سماء بغداد، رغم أنني كنت إلى عهد قريب، وقريب جداً، من عشاق التظاهرات والمساهمين في حشود الشوارع والساحات.

عدت إلى الموصل ليوم أو يومين، ثم ما لبثت أن حملت متاعي وقفلت ثانيةً في القطار الصاعد إلى بغداد لكي أبدأ الدوام... كان اختياري لقسم التاريخ قد حسم دون تردد، بعد أن لمست في قسم اللغة العربية وطرائق التدريس فيه، ما لا يحفز على التفوق والإبداع... أو هكذا خيل لي أنا على الأقل، وبخاصة بعد أن لاحقت أحد أساتذته بجملة من الأسئلة التي كنت أبحث فيها عن جواب، فأعطاني أذناً من طين وأخرى من عجين... ولكني ما لبثت في القسم الذي آثرت الانتماء إليه، أن تبين لي أنه هو الآخر يعاني من الموات... وعلى مدى السنوات الجامعية الأربع ازدادت قناعتي بهذا الذي ذهبت إليه...

ورغم أن معظم أساتذتنا كانوا من عمالقة الفكر والتأليف، وممن يشار إليهم بالبنان، إلّا أنهم ـ على ما يبدو ـ كانوا يؤثرون في عملهم التدريسي، الراحة والسلامة، ولا يبذلون أي جهد يذكر في إعطائنا شيئاً مما يملكون... ولعلهم استغلوا فرصة دخول العراق في دوّامة الانقلاب والصراعات السياسية التي رافقته، فانتهزوها لكي لا يقوموا ـ كما هو شأن العمل الأكاديمي ـ بأي جهد ملحوظ في إعداد محاضراتهم... فكان معظمهم ممن يكتفون بالإملاء علينا صفحات محدودة لا تتجاوز العشرين أو الثلاثين لكي نمارس فيها الامتحان، وهي صفحات لا تنطوي على أي قدر من الإضافة المعرفية، أو الإبداع اللذين يتحتم أن تتميز بهما المحاضرات الجامعية، ورغم أن الإملاء عليه خط أحمر في التدريس الجامعي، إلّا أنهم بسبب غياب الرقابة الأكاديمية تساهلوا في الأمر، ربما لادخار قدراتهم في أعمالهم التأليفية وليذهب طلبتهم إلى الجحيم!

ومن بين ما يقرب من عشرين أستاذاً جامعياً تناولوا تدريسنا عبر السنوات الأربع؛ لم نحس بالجهد الحقيقي إلا لدى قلة منهم (رحمهم الله)... ولا زلت أذكر هؤلاء الأساتذة، رغم هذا، بكل محبة واعتزاز، وأترحم عليهم

كلما خطر أحدهم في بالي... الأستاذ الدكتور جواد علي... الأستاذ الدكتور علي الوردي... الأستاذ الدكتور محمد الهاشمي... الأستاذ الدكتور خالد الهاشمي... الأستاذ حسين أمين (الذي لم يكن قد حصل بعد على الدكتوراه)... الأستاذ الدكتور محمود غناوي الزهيري... الأستاذ الدكتور محمد حامد الطائي... الأستاذ الدكتور علي المياح... الأستاذ الدكتور وفيق الخشاب... الأستاذ طه باقر... الأستاذ فرج بصمه جي، الأستاذ عبدالوهاب الدباغ، الأستاذ الدكتور محمد محمد صالح... الأستاذ الدكتور فاضل حسين... الدكتور مسارع الراوي... الأستاذ الدكتور عبد الجليل الزوبعي... الدكتور حمد دلّي الكربولي... الدكتور حمودي عبد المجيد... والأستاذ الدكتور إبراهيم العدوي (المصري الجنسية).

وكان بعض الأساتذة، لأسباب علمانية، وربما طائفية، يدسّون السمّ بالعسل، فاستنفرت قدراتي المحدودة يومذاك، للردّ عليهم والتصدّي لهم، وكنت رغم ذلك أخرج في معظم معاركي معهم منتصراً... وسرعان ما انضاف إلي عدد من الطلبة الذين رأوا سكوتهم أمراً غير مقبول، فأصبحنا جبهة قبالة هؤلاء الأساتذة الذين راحوا يترددون عشرين مرة قبل أن يطرحوا رؤاهم المخالفة لثوابت هذا الدين ومعطيات تاريخه وحضارته... ولكنهم ـ والحق يقال ـ لم يتخذوا من العقاب بالدرجات أسلوباً لكفّنا عن الجدل والنقاش، بل إنهم كانوا يعطون كلَّ ذي حق حقه... (رحمهم الله)...

وكنت مع اقتراب مواعيد الامتحانات الشهرية، أو الفصلية، والسنوية، أبذل جهداً استثنائياً للحصول على أعلى الدرجات، وأحصر نفسي الساعات الطوال في مراجعة المواد الامتحانية في مكتبة الكلية أو ساحاتها العامة... وبسبب من حرصي الزائد حوّلت حياتي الجامعية عبر سنواتها الأربع إلى جحيم من الهمّ والقلق والمتابعة المتواصلة والدراسة التي لم تدعني أرتاح إلا قليلاً... لعلّ ذلك ليس فقط لرغبتي في التفوّق، وإنما للحصول على ما يؤهلني مستقبلاً لإكمال دراستي العليا... فلما تبين لي فيما بعد أن أكثر الطلبة كسلاً وتدنياً في

معدلاتهم، واصلوا هم الآخرون، دراساتهم العليا، أحسست بندم عميق على ما ضيعت من جهد، أفقد حلقة من أعذب سنوات العمر طعمها، وحوّلها إلى قلق وهمّ وتوفّز وجهد مكافح لا يعرف للراحة والاسترخاء نصيباً... ولكن ماذا ينفع الندم بعد فوات الأوان؟!

ومع ذلك كلّه فقد تركت لي الحياة الجامعية مساحات كبيرة من المتعة والسعادة والفرح... وقضاء أوقات مترعة بالتوافق والانسجام... بدءاً من لحظات الحصول على النتائج الامتحانية بمعدلاتها العليا... مروراً باختيار ثلة من الأصدقاء الذين كنت أمارس معهم جولات التخطي اليومي في ممرات الكلية ونحن نتبادل الأحاديث، أو نغادر بغداد ـ بمعية أحد أساتذتنا أحياناً ـ في رحلات خريفية وربيعية إلى سامراء أو الحبانية أو بابل أو المحافظات الجنوبية... أو نقوم في أمسية كل خميس باجتياز شارع الرشيد من بدئه حتى منتهاه لتناول الطعام والجلوس في هذا المقهى أو ذاك... وللاطلاع على العروض الرائعة للكتب والمبيعات في محلات هذا الشارع الذي كان يخفق بالأضواء... وكان ـ بحق ـ قلب بغداد النابض.

إلّا أن المساحة الأوسع لمتعتي تمثلت بعشقي لمتابعة الأنشطة الرياضية في نوادي بغداد وساحاتها وملاعبها، فما من استعراض كبير للكلية أو الجامعة أو النوادي أو الجيش إلا وكنت أهرع إليه مبكراً وأحجز مكاناً لي يمكنني من بلّ شوقي لكل التفاصيل.

وكان (نادي الهواة) في باب المعظم مكاني المفضل لمتابعة سباقات الدوري الممتاز في كرة السلة لنوادي بغداد ومؤسساتها الرياضية، حتى أني لكثرة زياراتي رحت أحفظ أسماء وملامح اللاعبين الكبار، واحداً واحداً... ومع هذا النادي لم تفتني مناسبة رياضية شهدتها ساحة الكشافة، وهي الساحة الوحيدة في بغداد يومذاك إلّا وكنت حاضراً فيها، عبر السباقات الدولية في كرة القدم بين منتخب العراق والمنتخبات الزائرة من تركيا ومصر ويوغسلافيا وغيرها من البلدان... وكذلك الحال مع لقاءات الدوري الممتاز لكرة القدم بين فرق الجوية

والشرطة وآليات الجيش والفرقة الثالثة وأمانة العاصمة، حيث كنت أحفظ عن ظهر قلب أسماء وملامح معظم لاعبيها (من مثل عمو بابا، قاسم زوية، هشام عطا، جبار رشك، صاحب علوان، جمولي، ثامر، شامل فليح، شامل طبرة، عبد كاظم، قيس، كوركيس إسماعيل...) وغيرهم كثيرون...

ولا زلت أذكر ذلك اللقاء الرائع في ألعاب الساحة والميدان بين الفريقين العراقي والإيراني، حيث بلغ التشجيع للفريق العراقي أوجه، وصراخنا، وقفزاتنا من مقاعدنا تصك الأسماع... وحيث استطاع هذا الفريق التفوق في مجموع النقاط على الفريق الإيراني، وحيث استطاع لاعبون كبار كخضير زلاطة، ومحمد العربي، وغيرهما أن يكسروا أرقاماً قياسية في الأركاض القصيرة والقفز بالعصا... لقد كانت تلك المناسبات تمثل بالنسبة لي قمة السعادة والفرح والانسجام.

ولكن هذا كلّه لم يكن ليعدل أمسياتنا الرائعة في الأقسام الداخلية حتى ساعة متأخرة من كل ليلة من ليالي الموسم الدراسي الطويل، حيث كنا نختار في بدء كل موسم المجموعة الموصلية المنسجمة والمتآلفة، لكي نقضي العام بتوافق ومحبة، ونحن نعيش في غرفة واحدة... نلعب ونتحاور، ونتبادل المقالب والنكات، وننكب على القراءة أو الدراسة، أو كتابة البحوث والتقارير، أو نشرب الشاي ونتناول الطعام...

وكانت أمسياتنا تلك مما لا يمكن أن ينسى، وكانت ـ بحق ـ الحلقة الأكثر سعادة وجمالاً، عبر حياتنا الجامعية على تنوّعها... ولقد أتيح لي أن أسجل العديد من صفحاتها في دفاتر مذكراتي الموجزة التي يجد القارئ جانباً منها في ملاحق هذه السيرة.

وكانت عوداتنا الدورية إلى الموصل الغالية، لدى كل مناسبة، وبخاصة النصف الثاني من رمضان، وعطلتَي نصف السنة والعطلة الصيفية، تمثل حلقة رائعة أخرى من حياتنا الجامعية... كنا نستيقظ يغمرنا فرح عميق، ونخرج حقائبنا الصغيرة ونتجه إلى محطة القطار، أو كراج باصات (الانكرلي)

الرائعة، لكي ما نلبث بعد ساعات طوال أن نجد أنفسنا قبالة أضواء الموصل المتلألئة عبر روابي البو سيف، وندخل الدار بعد غياب الشهرين أو الثلاثة لكي نبلّ الشوق من رؤية الأهل وتناول وجبات الطعام الموصلي الرائع، الذي حرمناه في بغداد والذي كانت والدتي (رحمها الله) تتفنن في صنعه.

في إحدى عوداتنا إلى الموصل، وكان الموسم ربيعاً، والأمطار غزيرة، انطلق بنا الباص شمالاً، حتى إذا قطع شوطاً من الطريق، إذا به ينزلق باتجاه يسار الشارع على أرض طينية قد حفرت فيها السيول وادياً عميقاً... فتشهدنا ودعونا الله ﷻ أن ينجينا مما لا تحمد عقباه، فما لبث الباص أن توقف وهو يميل بشكل مخيف على أحد جانبيه، حتى قيض له مجموعة من الأشخاص أعادوه إلى وضعه الطبيعي، حيث انطلق عائداً بنا إلى الموصل ونحن نحمد الله ﷻ على أن أنقذنا من هلاك محتوم.

ثمة لقطات من حياتنا الجامعية تلك تفرض نفسها على الذاكرة... ولن يتسع المجال لاستعراضها جميعاً ولذا سألجأ إلى الاختيار...

يوماً ونحن نتلقى نتائج امتحاننا في تاريخ العرب قبل الإسلام من لدن أستاذنا الدكتور جواد علي رحمه الله حتى إذا ما وصل إلى ورقتي راح يحدّق فيَّ طويلاً وأطال التحديق... الأمر الذي آثار مخاوفي من نتيجة سيئة، وقلت في نفسي: لا بدّ وأن إجابتي لم تكن بالمستوى المطلوب، وأنها ربما أثارت انزعاج الأستاذ... ولكنه ما لبث أن قرأ اسمي بصوت عالٍ وأردف: مائة!!

دهشت لوقع المفاجأة، إذ كيف يتأتى لطالب مهما كانت إجابته متقنة أن يأخذ درجة كاملة في مادة التاريخ الذي ينتمي إلى حقل الإنسانيات والذي يصعب فيه أمرٌ كهذا، خاصة وأن أسئلة الأستاذ كانت تتضمن جوانب فكرية خارجة عن المقرر... إن الحصول على الدرجة الكاملة قد تحدث في المواد العلمية الصرفة، أما في التاريخ فإنها من قبيل المستحيلات... ولكني ما لبثت أن شكرت الأستاذ وتقبلت هديته القيمة بامتنان عميق، كيف لا وأنا الذي كنت أبحث دائماً عن الدرجات الأعلى؟!

يوماً أثار الأستاذ الدكتور محمد الهاشمي قضية الشك في العلاقة بين العلم والقرآن الكريم، فما لبثت أن رفعت يدي للرد عليه، فلم يكترث بي، فألححت عليه، فلما أعطاني الفرصة إذا بي أسرد عليه جملة من الآيات التي جاء العلم الحديث لتأكيد مصداقيتها المطلقة... فما كان منه إلا أن يغير موقفه ثم يستشهد بالآية الكريمة: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ كَذَٰلِكَ﴾ [الأنعام: ١٢٥]... إذن فقد غير الرجل موقفه في لحظات!!

في إحدى محاضرات رمضان عام (١٩٥٩م) جاءنا الأستاذ الدكتور علي الوردي لكي يلقي علينا محاضرته في علم الاجتماع... كان الرجل علمانياً، وربما ميالاً للشيوعيين، يوم كان الشارع البغدادي لا ينطق إلا باسمهم، وبالتالي فهو والصيام على طرفي نقيض... ولكن كيف يبرر إفطاره أمام طلبته، فيما هو من الأمور المستهجنة وغير المقبولة؟ لقد تعمد أن يؤشر على طرف أصبعه قائلاً أنه تعرض لجرح وأنه ينزف، ولن يوقف النزيف سوى قليل من دخان السيكاير المحترق، ثم ما لبث أن أشعل سيكارته وأخذ نفساً عميقاً، ثم راح ينكث شيئاً من رمادها على رأس أصبعه، ونحن ننظر إليه ما بين رافض لتصرّفه هذا وما بين مقتنع به!!

أما محاضرات الدكتور عبد المجيد حمودي في أصول التربية، فكانت فصولاً من الضحك المتواصل، من بدء المحاضرة حتى ختامها، إن شخصيته عجيبة بقصر قامتها، وسمنتها المفرطة، وحركاتها البهلوانية ما بين المنصة وأرضية الصف... وانفصالها الكامل عن المادة المطبوعة التي يوزعها علينا، والتي لم نكد نفهم منها شيئاً، وكأنها قدمت إلينا من العالم الآخر، وما بين عرضه التدريسي الذي لا علاقة له مطلقاً بهذه المكتوبات الغامضة، والذي كان يلقيه بلهجته البغدادية الصرفة، محملاً بالشتائم والسباب وبكل مفردات القاموس الشعبي لما تحت السرّة كما يقولون، ونحن إزاء ذلك كله لا نملك التوقف عن الضحك المتواصل أمام هذا (البلياتشو) النادر رحمه الله.

في محاضرة في التاريخ الأوربي للأستاذ الدكتور محمد محمد صالح حدث نقاش حاد بينه وبين مراقب الصف (جمال البياتي)، فما كان من الأستاذ إلا أن يطلب من المراقب أن يترك الصف، فرفض هذا طلبه، وكان يستند إلى انتمائه للتيار القاسمي ـ الشيوعي... ولكن الأستاذ ما لبث أن أصرّ على موقفه، والطالب متسمّر في مكانه لا يكترث لطلب الأستاذ، فما كان من هذا الأخير إلا أن يحزم حقيبته ويغادر هو الصف بدلاً من المراقب!!

وكان الأستاذ الدكتور محمد الهاشمي يأتينا أحياناً بقطع من الورق المقوى، وقد دوّن عليها شيئاً مما سيمليه علينا، وكان وهو يمارس الإملاء يتغنى في أدائه بصوته العذب، حتى إذا ما انتهى من إحدى قطعه من الورق المقوى مزقها بعصبية ورمى بها في سلة المهملات!! ثم جاء إلى الثانية لكي يغنّيها علينا، ولا تنقضي المحاضرة إلا بثلاث أو أربع قطع من المقوى!!

وطالما جلس على الكرسي، ورفع قدميه واضعاً إياهما على المنضدة قبالة الطلبة، وهو يتحدث عن إبداع العرب الحضاري في الأندلس...

أما الدكتور غناوي الزهيري فكان يقضي محاضرته في اللغة العربية بتمامها في قراءات متواصلة في كتاب (الكامل) للمبرد، يكلف الطلاب بتنفيذها، ويتصدر هو كرسيه موزعاً نظراته على الجميع، حتى إذا ما أنهى الدرس غادر المكان.

وكان أكثر الأساتذة أريحية، والتحاماً بالطلاب، ومحبة لهم، هم الأستاذ الدكتور فاضل حسين، والأستاذ حسين أمين، والدكتور مسارع الراوي... كان أولهم يحب الطلبة الموصليين ويمنحهم عطفه وتشجيعه، وكان حسين أمين يعشق السفر والرحلات، وطالما خرج بطلبته إلى شتى المحافظات... وأما الراوي فكان يزورنا في الأقسام الداخلية وكنا نتعاطف معه بسبب موقفه ضد الشيوعية... ولم يكن ثمة يومها أي حسّ طائفي لدى أساتذتنا من الشيعة بدليل المواقف العديدة لفاضل حسين وحسين أمين من الموصليين... وعبر

طروحاتهم الفكرية في المحاضرات... إنما حلّت هذه اللعنة السوداء بعد الاحتلال الأمريكي للعراق عام (٢٠٠٣م) وبسببه!!

في حياتنا اليومية في القسم الداخلي كنا نشهد نمطاً آخر من المفارقات، حيث كنا نلعب الداما والشطرنج، ونتقاذف بالفرش والوسائد... ويلحق بعضنا بعضاً لكي يضع على رقبته شيئاً من المسحوق الذي يجعله يهرش دونما جدوى... ونشكل فريقين ينتمي إليهما لاعبون من الغرف والأقسام المجاورة للعب (المحيبس) في ليالي رمضان... وكنا نغادر القسم بعد منتصف الليل في طريقنا إلى مطعم الكلية لتناول السحور، ونحن نرفع عقيرتنا بالغناء أو الصراخ المرتفع عبر الطريق... وهذا كله إنما يعبر عن رغبتنا في التنفيس عما يسببه الجهد الدراسي من ضغط نفسي على جملتنا العصبية!!

كان كل واحد من سكنة غرفتنا يأتي في السنة بأكلة طيبة يتناولها الجميع عبر إحدى الأمسيات الصاخبة... فكنت أنا آتيهم بعلبة خشبية ملأى بحلاوة منّ السما التي سرعان ما تصبح في خبر كان، وكان الآخرون يأتون بالكبة الموصلية أو الباسطرمة... ويوماً ونحن نقف قبالة المقلاة لكي يتناول كل واحد منا حصته من الباسطرمة ويضعها في قطعة صمون ويلتهمها التهاماً... إذا بالباسطرمة تنفد ونحن بعد جوعى ولم نشبع، فما كان من الداعي الأخ (فاضل عبد الرزاق) ﵀ إلّا أن ابتكر حلّا طريفاً لإشباعنا، نهض من على المقلاة ونادى بأعلى صوته: أيها القوم! ليحتفظ كل واحد منكم بما يستخرجه من عجين صمونته... فما كان منا ونحن مندهشون إلا أن نفذنا طلبه، فراح فاضل يتسلم العجين من واحد واحد منا، ويقطعه على شكل كرات صغيرة يرمي بها في زيت الباسطرمة المتبقي في المقلاة ثم يحمص هذه الكرات ويسلمها إلى صاحبها... حقاً لقد كانت وجبة رائعة لا يمكن أن تنسى... وكما يقول المثل: فإن الحاجة هي أمّ الاختراع...

كان صديقنا المهندس المعماري يحيى البجدلي يسكن معنا في غرفة واحدة في دار الطلبة، وهو بناء حديث من ثلاثة أدوار خصص للسكن وإطعام

طلبة الصفوف المنتهية من جامعة بغداد... وكان البجدلي يسهر يومياً إلى ساعة متأخرة من الليل، منهمكاً برسوماته الهندسية... ثم ما يلبث أن يغادر الغرفة إلى التواليت، وعندما يقفل عائداً يرفع صوته عبر الممر الطويل بأصوات رعاة الغنم من البدو: (قرت ـ قرت...) ثم ما يلبث بعد أن يكون قد أزعج كل النائمين في الغرف المجاورة... أن يدخل غرفتنا ويقفل الباب جيداً... فيخرج أولئك الذين استفزتهم صرخاته ويصبون سيلاً من شتائمهم الرخيصة على هذا الذي يزعجهم كل يوم دون أن يتعرفوا عليه... فما كان منا نحن الخمسة الآخرون في الغرفة إلا أن دبرنا له مقلباً كي يكف عن تقليده السيئ هذا، واتفقنا أن نقفل الباب عندما يغادر الغرفة إلى التواليت، وأن نسنده بكل أسرّتنا الحديدية بحيث لا تستطيع قوة في الأرض أن تفتحه... وعاد البجدلي من التواليت وهو يرفع عقيرته بأنغام رعاة الغنم، مطمئناً كالعادة إلى دخول الغرفة وإقفال الباب قبل سماع الشتائم المنصبة عليه، ولكنه ما لبث أن فوجئ بإقفال الباب، فراح يضرب بكلتا يديه صائحاً: افتحوا لي أيها الأوباش، ويصب علينا سيلاً من الشتائم والسباب... وما لبث النائمون في الغرف المجاورة أن استيقظوا وغادروا غرفهم لكي يجدوا أنفسهم وجهاً لوجه أمام هذا الذي مارس تعذيبهم الليالي الطوال... ولكم أن تتصوروا ما لقيه منهم من أفحش أنواع الشتائم والسباب، وربما الضرب بكل ما وصلت إليه أيديهم، ونحن قابعون خلف الباب نضحك حتى نكاد نستلقي على قفانا من شدة الضحك!!

في اليوم الأول لمبيتنا في دار الطلبة، لم نستطع أن نغفو لحظة واحدة...بسبب إطلالة غرفتنا على شارع الكفاح قريباً من الموقف المركزي لباصات نقل الركاب لمدينة بغداد كلها... ولكم أن تتصوروا الصخب المتواصل الذي كان يخترق مسامعنا من أصوات الباصات حتى ساعة متأخرة من الليل... فما نكاد أن نلتقط أنفاسنا ونتهيأ للنوم حتى يكون الفجر قد آذن بالشروق، وبدأت عشرات الباصات ومئاتها تزحف عند أسفل الغرفة بأصواتها التي لا تطاق...

في اليوم التالي، وأنا أعاني من الأرق والإعياء، رحت أبحث عن مكان بديل، فقادتني خطاي إلى قسم داخلي متواضع قبالة دار الطلبة، فما كان مني إلّا أن تحوّلت إليه واخترت سريراً مجاوراً لسرير الصديق (خالد يحيى التمر) طالب الهندسة ﵀، ولكني فوجئت بعد لحظات من وضع رأسي على الوسادة، بشخير عال يصدر عن أنف خالد الذي يعاني كما يبدو من شيء من التقوّس يجعل الهواء الداخل والخارج، يخرج نغمات قاسية في حدّتها... فرحت لكي أستعيد قدرتي على النوم أهمس في أذنه: (خالد... خالد... حاول أن تدير ظهرك لكي ينقطع الشخير) فلم يلتفت لتوسلاتي، ولم يكترث بطلبي، فرفعت صوتي دونما جدوى ثم رفعته إلى مداه الأقصى، وخالد مستغرق في نومه وشخيره، فما كان مني إلا أن أمسك بالمنضدة التي تفصل بين السريرين وأضرب بها بعنف حافة سريره دون جدوى... فما كان مني في فجر اليوم التالي إلا أن أحزم أمتعتي وأعود ثانيةً إلى غرفتي الأنيقة وأصدقائي الأعزاء في دار الطلبة، وكفى الله المؤمنين القتال!!

وفي صبيحة أحد الأيام قام ثلّة من الطلبة الأشقياء الذين سموا أنفسهم (حزب الديك) بدخول غرفة تشغيل أجهزة التدفئة والتبريد، والتي تتوزع منها الأنابيب التي توصل الهواء إلى غرف دار الطلبة تدفئة أو تبريداً، وأعلنوا عن قيامهم بانقلاب من خلال إصدار بيانهم الأول المليء بالفحش والسباب لكل الموجودين في الدار... والذي كانت تتخلله المارشات العسكرية التي يعزفونها بأفواههم... والطلبة في الغرف الأخرى كافة يكادون يستلقون على ظهورهم من الضحك العميق، ثم ما لبث العزف أن توقف، وإذاعة البيانات أن كفت عن الزعيق... وأعلن عن فشل المحاولة الانقلابية...

ويوماً وقع اشتباك عنيف بين غرفتنا في القسم الداخلي وغرفة أخرى تقع في الطابق العلوي، استخدمت فيه جراول الماء الذي راح ينصب على رؤوس الفريقين بغير حساب. وإذ شعر طلبة الغرفة العليا أنهم انتصروا علينا دخلوا غرفتهم وأقفلوا عليهم الأبواب... فما كان مني ومن الأخ هاشم الجماس ﵀

إلا أن نصعد إليهم بجرول من الماء القذر، ونتجه إلى النافذة الخلفية، حيث لم يكونوا يتوقعون أن يؤتوا من خلالها، فأضرب زجاجها بقبضة يدي، ومن خلال الفتحة التي أحدثتها فيه قام هاشم الجماس بإلقاء جرول الماء على الخصوم فأصابهم جميعاً الرشاش المترع بالأقذار، وغادرنا إلى غرفتنا ونحن نهزج بأناشيد الانتصار!!

بدأنا حياتنا الدراسية في كلية التربية مع بداية العصر الجمهوري... والهيمنة التدريجية للحزبين الشيوعي والديمقراطي على مقدرات الأمور في الشارع والمؤسسة، وفي كل مفاصل الدولة... كان اندفاعهم باتجاه الانفراد بالساحة رهيباً، وكنا نلحظ ذلك بوضوح فيما تشهده كليتنا التي سميت مجازاً بالصين الشعبية... وكان مفتاح انسياحهم الساحق وجرّهم في قطارهم كل القوى الانتهازية، أنهم ربطوا مصيرهم بزعامة عبد الكريم قاسم، معتقدين أنه شيوعي الفكر، والعقيدة، ومن أجل احتوائه أطلقوا عليه لقب (الزعيم الأوحد)، في محاولة منهم لإقصاء القطب الآخر الذي رمينا بثقلنا نحوه نحن الإسلاميين والقوميين والبعثيين: عبد السلام عارف، الذي بدأ الخناق يطبق عليه بسبب من سلامة نيته، وتهوره، وخطاباته المفككة الهشة التي لا يكاد أحد يعرف رأسها من قدميها.

في البدء كانت نقطة الصراع الأساسية بين الجبهتين هي قضية الوحدة الفورية مع الجمهورية العربية المتحدة، أو الاتحاد الفيدرالي والصداقة السوفياتية، ولكنه ما لبث أن تشعب وامتد إلى نوع من الصراع على مراكز القوى والمفاصل الحساسة في الدولة، والانفراد بالسلطة...

وكانت تظاهرات الطرفين في الأشهر الأولى للثورة تعكس هذا الصراع الذي ما لبث أن تعرّض للجنوح الخطير لصالح قاسم والشيوعيين، بسبب ما ادُّعي من مؤامرة كان يعمل لها في الخفاء السياسي العراقي القديم (رشيد عالي الكيلاني) بالتنسيق مع عبد السلام عارف والكتلة المؤيدة له... ولقد ضخمت أجهزة الإعلام حجم المؤامرة المزعومة، بحيث تعطي المبرر لقاسم

إصدار قراره الذي أعلن فيه عن إقصاء عارف عن مناصبه كافة، وإبعاده سفيراً للعراق في ألمانيا الاتحادية، وإرغامه على مغادرة بغداد.

ولكن عارف ما لبث أن عاد سرّاً، وجابه قاسم في وزارة الدفاع، فيما قيل بأنه رفع مسدسه في وجهه وسعى لاغتياله، الأمر الذي انتهى به إلى الاعتقال وتقديمه وثلة من أصحابه لمحكمة المهداوي، التي كانت في حقيقتها لسان حال الحزب الشيوعي الذي وجدها فرصة مواتية، فاندفع في كل اتجاه لكي يهيمن على مقدرات العراق ويضع أنصاره ومؤيديه في المفاصل الحساسة للوزارات كافة.

ولا زلت أذكر كيف أصبحت ساحات كليتنا، وقاعاتها، ميداناً فسيحاً للدعاية الشيوعية، ولإقامة الندوات والمحاضرات التي كان يدعى إليها كبار رجالات الفكر الماركسي، فضلاً عن الاحتفالات المتواصلة التي كانت تشهد جملة من الأناشيد التي تمجّد الزعيم الأوحد، وتصب جام غضبها على ما تسميه: (القوى الرجعية) حتى أنهم سرقوا النشيد المصري الذي يمجد عبد الناصر وحولوه إلى عبد الكريم والذي يقول في مطلعه:

يا كريم يا حبيب الملايين ... للخير ماشيين للنور صاعدين
وياك يا حبيب الملايين ... إحنا الملايين... إحنا الملايين
صخّيت الشرق كالو ... وديانو... ويا جبالو...
قام بشعوبو وأبطالو ... مع بطل الثورة العراقية

كان ذلك يستفزنا ويدفعنا للردّ... لكن التيار المضاد كان يومها عنيفاً صاخباً أرغمنا على الصمت والانتظار، حتى تحين اللحظة المناسبة للرد، وإن كانت الاستفزازات اليومية قائمة على قدم وساق بين الطرفين...

ثم ما لبث أن وقعت الطامة الكبرى، ثورة الموصل التي لم يخطط لها بما فيه الكفاية، ولم يصبر قائدها عبد الوهاب الشواف لحين ترتيب الأمور مع القادة الآخرين في بغداد والمحافظات الأخرى... ولم تمارس الجمهورية

العربية المتحدة في إسنادها دوراً يذكر اللهم إلا بتسليمها إذاعة مختنقة وقليلاً من السلاح الذي لا يسمن ولا يغني من جوع.

ولا زلت أذكر ذلك المساء المتوتر من يوم الأحد (٨ آذار ١٩٥٩م) حيث كنت أقف في ساحة ألعاب الكلية أتابع سباقاً في كرة السلة، فإذا بأحد الأصدقاء يقترب مني ويهمس في أذني: لقد أعلنت الموصل ثورتها ضد طاغية العراق. وها هي إذاعتها تعلن بياناتها المتعاقبة... وللوهلة الأولى غمرتني فرحة طاغية يصعب على الكلمات التعبير عنها، واعتقدت اعتقاداً جازماً بأن الثورة ستنتصر ولسوف يطاح بالزعيم عبد الكريم قاسم بمجرد أن تتصادى القيادات العسكرية في بغداد مع الثورة...

وعُدت وأصحابي إلى القسم الداخلي مخترقين حشوداً هائلة من المتظاهرين تأييداً للزعيم وتنديداً بالمتآمرين والرجعيين، بحيث أننا لو تباطأنا قليلاً واكتشفوا أمرنا لداسونا بأقدامهم ومزقونا إرباً... دخلنا غرفتنا وأقفلنا عليها الباب وأسندناه بسرير حديدي خشية دخولهم علينا، حيث كانت كل الغرف الأخرى في ذلك القسم الداخلي ممن يسكنها الشيوعيون والانتهازيون الذين راحوا يسلطون علينا سيلاً من الشتائم والاتهامات... وقررنا أن نمسك خفارة جماعية وألا نسمح لأنفسنا بالنوم حتى مطلع الصباح... وكنا ننصت بهدوء إلى إذاعة الموصل المختنقة، ونمني أنفسنا بالانتصار رغم فشل كل المحاولات التي قامت بها طائراتها لقصف المواقع الحساسة في بغداد.

وفي اليوم التالي كانت الضربة الموجعة حيث تبيّن لنا تعرض مقر الشواف لضربة جوية سريعة أصابت القائد جراح خطيرة، ثم ما لبث أن نقل إلى مستشفى الميدان حيث ما لبث أن لفظ أنفاسه وبدا لكبار ضباطه من الانقلابيين عبث استمرارهم في الثورة، فألقي القبض على العديد منهم بينما لاذ الآخرون بالفرار... وانطلق الشيوعيون في الموصل كوحش كاسر، يقتلون ويسحلون ويعلقون الجثث على أعمدة الكهرباء ويعيثون في الموصل دماراً وتخريباً.

انفرط عقدنا في القسم الداخلي، وغادرناه قبل أن يمارس شيوعيوه الانتقام ضدنا، وتسللنا الواحد إثر الآخر كل إلى الجهة التي يجد فيها مأواه... اتجهت أنا إلى الأعظمية وجلست قليلاً في ساحة عنتر أتابع الأحداث، حيث كان طلبة كلية العلوم القريبة من الساحة يغادرون كليتهم القريبة من الساحة للمساهمة في التظاهرات الكبرى المؤيدة للزعيم عبد الكريم والمنددة بمؤامرة الرجعيين، ثم ما لبثت أن يممت وجهي صوب شقة أخي وخالي في رأس الحواش في مدخل الأعظمية، حيث اعترض علي أحد شباب المقاومة الشعبية، التي كان الحزب الشيوعي قد شكلها كأحد الأجنحة المساندة لمساعيه في الهيمنة على مقدرات العراق، وطلب تفتيشي... كنت أحمل معي دفتر مذكراتي الذي كنت أدوّن فيه خبراتي ومشاهدتي يوماً بيوم، فخشيت أن يمعن النظر فيها وحينذاك قد يقع المحذور... ورحت أدعو الله ﷻ أن يضلله، إذ سرعان ما أعاد إليّ الدفتر وسمح لي بالمرور...

قضينا في شقة أخي ليلة ليلاء، كانت أصوات الجماهير الغاضبة تخترق أبوابها وزجاجها المغلق بعنف وضراوة، وكنا نتوقع دخولهم علينا في أية لحظة... ولكن الله سلّم... ثم ما لبثت أنا وخالي وعبد الكريم اليوزبكي، وهو رفيق بعثي متقدم كان يسكن معهم في الشقة نفسها، أن استأجرنا سيارة تاكسي أقلتنا عن طريق كركوك إلى الموصل، حيث بتنا ليلة في كركوك، وفي صبيحة اليوم التالي انطلقنا إلى الموصل، والأفكار السوداء حول مصير أهلينا ومدينتنا تحاصرنا في كل لحظة... حتى إذا ما بلغنا الموصل حمدنا الله على سلامتهم جميعاً... وكان شهر رمضان قد حلّ، فتناولنا سحورنا في أجواء نفسية يصعب وصفها، ثم سلّمنا أنفسنا لنوم عميق.

في اليوم التالي جاءني ابن عمي (إنعام الطالب) فخرجنا نتجول في أنحاء الطيران، ونمرّ ببيت الشيخ نوري الفيصل الذي قتله الشيوعيون واقتحموا داره وتركوها خراباً... وكانت أصوات الرصاص تطرق أسماعنا بين الحين والحين، ولعلّها كانت تصدر عن مقرّ المحكمة الشيوعية التي تزعمها (عبد

الرحمن القصاب)، والتي نفذت فيها جملة من أحكام الإعدام بحق العديد من المؤيدين للثورة والمساهمين فيها، بينما سيق الآخرون إلى السجون والمعتقلات، لكي يلاقوا هناك الأمرّين على يد جلاوزة شباب المقاومة الشعبية... ثم ما لبثت أن عدت بالقطار إلى بغداد ثانية للالتحاق بالدوام...

غادرت المحطة والاحساس بالضياع يحاصرني، والاكتئاب يسد عليّ الطريق، ورحت أضرب في شارع الرشيد والشوارع الفرعية المحيطة به على غير هدى، بحثاً عن نقطة ارتكاز ذهني أستند عليها في تعاملي مع المرئيات ولكن دون جدوى... فما كان مني إلا أن أتجه إلى القسم الداخلي، وأضع رأسي على الوسادة وأغط في نوم عميق، لكي أستيقظ قبيل موعد الإفطار، حيث اتجهت إلى الكلية، فوجدت الأخوة بحمد الله قد فرشوا سجادات الصلاة وراحوا يصلون وراء الإمام معلنين تحدّيهم المبكر للشيوعيين، الذين أحاطوا بهم بنظراتهم المترعة بالحقد، ولكنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً...

في اليوم الأوّل من مايس عام (١٩٥٩م)، وهو ذكرى اليوم العالمي لعيد العمال، بلغ الشيوعيون قمة مجدهم، وحركوا في ذلك اليوم تظاهرتهم المليونية التي استمرت تنساب في شارع الرشيد، وتمرّ قريباً من منصة الزعيم عبد الكريم قاسم، منذ الصباح المبكر وحتى ساعة متأخرة من الليل... ولقد دفعهم إعجابهم بهذا الحشد الساحق إلى المطالبة بالمشاركة في الوزارة، وكان هتافهم الذي ظل يتردّد ذلك اليوم بطوله، وباللهجة ذات التأثير الفارسي عليها:

عـــــاش زعـــــيـــــمـــــي عـــبـــد الـــكـــريـــمـــي
حـــزب الـــشـــيـــوعـــي بـــالـــحـــكـــم مـــطـــلـــب عـــظـــيـــمـــي!!

وما لبث عبد الكريم أن استجاب لطبهم وعين (نزيهة الدليمي) العضوة البارزة في الحزب الشيوعي العراقي وزيرة للبلديات... فأصبح نداؤهم في التظاهرات التالية:

نـــزيـــهـــة صـــارت بـــالـــحـــكـــم مـــوتـــوا يـــا بـــعـــثـــيـــة!!

وكان هذا أحد أخطائهم القاتلة، كما أشار إلى ذلك البيان الذي أصدره

الحزب الشيوعي في أعقاب قيام ثورة الرابع عشر من رمضان التي سحقت الشيوعيين بغير ما رحمة... أنهم ضخموا في إعلامهم الحجم الحقيقي لحزب البعث، وأصبحوا يطلقون على كل خصومهم من الإسلاميين والقوميين والمستقلين اسم (البعثيين).

ثم ما لبثت الذكرى الأولى لثورة الرابع عشر من تموز أن حلّت عام (١٩٥٩م)، حيث أقيمت الاحتفالات ونصبت أقواس النصر، ونظمت المسيرات الحاشدة في مدن العراق كافة. فما كان من الشيوعيين في بعض المحافظات، وبخاصة في كركوك، إلا أن انتهزوها فرصة لتصفية خصومهم، فأجروا تلك المذبحة الدامية التي ذهب ضحيتها العديد من شباب التركمان الذين رفضوا الانضواء وراء الإغواء الشيوعي... ويبدو أن عبد الكريم قاسم الذي سار بموازاة الحزب الشيوعي حتى آخر لحظة... كان يبيت لهم ضربة موجعة، توقفهم عند حدهم وتكف تطلعاتهم للانفراد بالسلطة، فما كان منه إلا أن يقف في إحدى كنائس بغداد ويعلن إدانته للشيوعيين، ويتهمهم بأنهم لا يقلون قسوةً وهمجية عن المغول الذين ذبحوا بغداد!!

وكان ذلك بمثابة إشارة واضحة للقوى القومية والإسلامية والبعثية والمستقلة، أن تتحرك بسرعة لتوظيف الخطاب وتضييق الخناق على الشيوعيين... فما لبثنا في اليوم التالي أن وجدنا أنفسنا قبالة سيل من الإعلانات والملصقات وبرقيات التأييد لعبد الكريم قاسم، حتى أن جماهير الأعظمية رفعوا سيارته بأذرعهم وهم يصفقون ويهتفون!!

ثم ما لبثت حملة واسعة من الاعتقالات والتحقيق مع كبار الزعماء الشيوعيين الذين ساهموا في مجزرة الموصل... وكنا نجلس مساء كل يوم في مقهى الخيام في الدواسة بالموصل نتبادل الأخبار والأحاديث، وبين الحين والآخر، نتلقى خبراً بالقبض على أحد الزعماء الشيوعيين وسوقه للتحقيق والاعتقال... فكانت قلوبنا تمتلئ فرحاً وغبطة بهذا الانقلاب الفجائي للسلطة،

التي كانت إلى وقت قريب تمد الحبل على غاربه لأنشطة الحزب الشيوعي وإعلامهم وتنظيماتهم...

لكن الفرح لن يدوم... تماماً كما أن الأحزان لن تدوم... ويظل الطرفان يتعاقبان على مسرح الحياة... ويظل المبدأ الثابت الذي يدير الأمور بإرادة الله ﷻ، هو الآية القرآنية الكريمة: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥ ـ ٦]!!

إذ ما لبث المهداوي، الذي كبت بالتطورات الأخيرة، أن انتهز فرصة إعدام وجبتين من كبار الضباط المشاركين في ثورة الموصل، فراح يرفع عقيرته بالاستفزاز والصراخ، وكانت الوجبة الأخرى التي تتجاوز العشرين ضابطاً تضم خيرة القادة العسكريين من المشاركين في ثورة ١٤ تموز، والمؤسسين لتنظيمات الضباط الأحرار من مثل رفعت الحاج سري وناظم الطبقجلي ورفاقهم...

في ليلة محزنة من ليالي آب وصلت الموصل أنباء الإعدام الجماعي لتلك الزمرة المباركة من الضباط، فجر ذلك اليوم في ساحة أم الطبول، فما لبثت الموصل أن تداعت في اليوم التالي لتظاهرات حاشدة شاركت فيها كل القوى المناهضة لقاسم والشيوعيين، وكانت تسير في مقدمة التظاهرة التي انطلقت من رأس الجادة، مجتازة شوارع الموصل، خطيبة المرحوم حازم خطاب وقد نكثت شعرها وراحت تلطم خدودها في منظر يبكي حتى الحجارة الصماء ويدفعها لأن تنبجس دموعاً حارة... وكنا نحن من ورائها نردد:

الله أكـــبـــر يـــا عـــرب شـــبـــابـــنـــاً جـــتـــلـــوهـــا!!

وتصاعدت في الموصل عبر الأيام والشهور التالية حملة التصفية الجسدية لكبار الشيوعيين، وكنا نتابع أنشطة القوى التي تمارس المحاولة وهي قوى قومية وإسلامية وبعثية، ونستمع يومياً خبر مقتل الشيوعي الفلاني... والذي لم ينله القتل فرّ هارباً إلى بغداد لا يلوي على شيء... ويبدو أن أجهزة الأمن والشرطة التي كان ولاؤها للتوجه القومي، كانت بسبب كراهيتها للشيوعيين، تمارس التغطية على القتلة، فضلاً عن لعبة عبد الكريم قاسم التي مضت إلى

نهايتها المرسومة في تصفية الحزب الشيوعي العراقي وشلّه عن العمل، عبر السنوات التالية، رغم أنه يعد أحد أكبر الأحزاب الشيوعية في العالم. وقد استدعى عبد الكريم في لعبته هذه مؤيديه من الحزب الوطني الديمقراطي بأجنحته الفلاحية الحاشدة، التي كانت تجتاز بغداد في مسيراتها الكبرى وهي تهتف: بس اضرب حزب الشيطان يا كريم!!

ثم ما لبثت واقعة محاولة اغتيال عبد الكريم قاسم التي نفذها حزب البعث في تشرين الأول من عام (١٩٥٩م) أن أخفقت، وسرعان ما كُشفت الجهة التي تقف خلفها حيث تم اعتقال معظم المشاركين فيها وتقديمهم لمحكمة المهداوي، الذي سعى جهده لنفخ النار المنطفئة في شرايين الحزب الشيوعي والتأليب على القوى المضادة... ولكنه لم يفلح... وكانت الرياح قد غيرت وجهتها، ولم يعد بمقدور الحزب الشيوعي نفسه أن يسترجع موقعه المتقدم... فقد خرج عبد الكريم قاسم سالماً من المحاولة... وبعد أقل من عام، وبمناسبة مغادرته مستشفى السلام الذي عولج فيه، وربما لتكوينه الأخلاقي الذي يميل إلى تغليب السماحة أحياناً، أصدر إلغاءه أحكام الإعدام على قادة البعث، والعفو على العديد منهم... بل إننا سمعنا أن ذلك تم بسبب الضغوط الدولية التي تعرّض لها عبد الكريم بأن أحزاب البعث في سوريا ولبنان قد تلجأ إلى تدمير أنابيب النفط العراقي المصدّر إلى البحر المتوسط، إذا ما قام بتنفيذ أحكام الإعدام...

ومن أجل المزيد من النكاية بالحزب الشيوعي، أوقف عبد الكريم جريدته اليومية (اتحاد الشعب)، وطلب من أحد الشيوعيين المتقاعدين وهو (داود الصايغ) تشكيل حزب شيوعي بديل، لا حول له ولا قوة، سرعان ما منح إجازة العمل، بينما منع الحزب الشيوعي العراقي من الحصول عليها.

في عام (١٩٦٠م) وأنا بعد طالب في الصف الثالث في كلية التربية، أعود ثالثة للانضمام إلى العمل مع الإخوان المسلمين، وبعد قليل مع الحزب الإسلامي الذي تشكل في ذلك العام، بعد أن اعترض قاسم على تشكيله، إلا

أنه ما لبث أن خضع لقرار محكمة التمييز ووافق على إنشائه... فاتحني أكثر من أخ في ضرورة الانتماء، وأن الذئب لا يأكل من الغنم إلا الشياه القاصية، ومن بين من فاتحني (يحيى علي علاوي) رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وعبد الحافظ سليمان رَحِمَهُ ٱللَّهُ، و(ذنون يونس الأطرقجي) (الدكتور فيما بعد)، و(نشأة عبد الغفور) وغيرهم... كنت أجتاز في تلك المرحلة حالة غريبة من الرغبة الجارفة في الاعتقال... من الثورة العاتية في مواجهة السلطة... حتى أن رجال السلطة عندما جاؤوا يوماً إلى القسم الداخلي المجاور، تمنيت أن يجيئوا إلى قسمنا وأن يأخذوني معهم... بل إنني كتبت خطبة ملتهبة ورحت أنتظر الفرصة المواتية لإلقائها على منبر أحد الجوامع عبر صلاة الجمعة... وكنت وأنا أتجول في الشوارع عائداً من زيارة لهذا الصديق أو ذاك، كنت أجد جملتي العصبية مشدودة إلى مداها، وكأنها بانتظار اللحظة المواتية للانفجار... ولقد زادت التظاهرات الجماهيرية الحاشدة التي شهدتها بغداد ردّاً على إجراء قاسم برفع سعر البنزين وإضراب سواق السيارات، من هذا الإحساس المستعر بضرورة المشاركة في التضحية من أجل عقيدتي، وجماهير شعبي المغبون...

ولقد أتيح لي عبر تلك السنة التعبير عن شيء مما كان يعتلج في أعماقي من ثورة وجيشان، في المشاركة الفاعلة عبر كل الصراعات التي شهدتها كليتنا بين المجموعتين الشيوعية والقومية الإسلامية... أذكر منها تلك المعركة الطاحنة في نادي الكلية حيث التضارب بالكراسي، والحجارة، والأيدي والأقدام... ولقد بذلنا جهداً أسطورياً في التفوّق على خصومنا وإخراجهم هاربين من النادي إلى الساحة المجاورة فلاحقناهم بالحجارة هناك، فانسحبوا إلى سطوح بنايات الكلية وأقفلوا على أنفسهم الأبواب وراحوا يمطروننا بسيل من الحجارة كادت أن تصيبنا في مقتل ولكن الله سلّم...

وأذكر أيضاً ذلك اليوم الذي دخلت فيه إلى حدائق الكلّية، فإذا بي أجدني قبالة الشيوعيين وهم يتراكضون ذات اليمين وذات الشمال والقوى المضادة تلاحقهم، فما كان مني إلا أن أسدّد كلمة قاسية إلى أحد زعمائهم

ثم أمضي للبحث عن ضحية أخرى، حتى تمكنا من هزيمتهم شرّ هزيمة.. وأذكر أيضاً أنني في صبيحة أحد الأيام، أدخل إلى فناء الكلّية، فإذا بالأخ (عدنان الدليمي) (الدكتور وزعيم الكتلة العراقية فيما بعد) يناديني ويقول بأن علينا اليوم أن نقوم بمحاولة لتأديب الشيوعيين الذين دخلوا المطعم لتناول الفطور، فاصطففنا على شكل خط طويل، بانتظار خروجهم لكي نلقنهم الدرس الذي لن ينسوه... لكنهم لم يخرجوا، وظلوا مختبئين في المطعم، ثم تبين لنا أن بعض عناصر الانضباط العسكري أعانتهم على التسلل من بوابة المطعم الخلفية... وأذكر أننا لاحقناهم يوماً في ساحات الكلية وأرغمناهم على الانسحاب إلى صفوف الدراسة حيث أقفلوا على أنفسهم الأبواب!!

وكنت أجد في التظاهرات التي تشهدها الكلية بين الحين والحين، فرصة مناسبة للتعبير عن ثورتي الجامحة، حتى أنني وقفت يوماً وسط تظاهرة من الإسلاميين ورفعت صوتي بأقصى ما أستطيع، الله أكبر والموت للطاغية... الله أكبر والموت للجزار... وهم يرددون ندائي... وانفضت التظاهرة وأنا أتوقع بأن أحد رجال الأمن سيلقي القبض علي ويقودني إلى التحقيق والاعتقال... إذ كان قاسم هو المقصود بالطاغية، والجزار... ولكن الله سلّم...

مهما يكن من أمر فقد وافقت أخيراً على الانتماء إلى الجماعة، والحزب، كان يتولى مسؤولية الارتباط بي الأخ نشأة عبد الغفور في بغداد، وعندما بدأت العطلة الصيفية ورجعنا إلى الموصل أصبح المسؤول هو (أكرم ضياء العمري) (الدكتور فيما بعد)، وكانت أسرتنا تتكون مني ومن محمد شاكر الغنام (رئيس الحزب الإسلامي في الموصل وعضو مجلس المحافظة فيما بعد) فضلاً عن مسؤولها أكرم العمري...

ولقد أتيح لي أن أحضر في بغداد جملة من الاجتماعات الجماهيرية الحاشدة للحزب الإسلامي في مقره في باب المعظم، وفي عدد من الكليات التي كانت قاعاتها تغص بالحضور، وأن أتابع موقفه الجريء من سياسات الزعيم، والذي نشره في جريدة الفيحاء التي لقيت يومذاك رواجاً كبيراً

وأصبحت النسخة الواحدة منها تباع بربع دينار وهو مبلغ كبير يومذاك... لأنها عبرت عما كان يعتلج في نفوس جماهير الشعب العراقي كافة، الأمر الذي دفع قاسم بإصدار أوامره بمصادرة الجريدة وحلّ الحزب الإسلامي واعتقال قادته.

كانت تتشكل في قناعاتي ـ وأغلب الظن أني كنت مخطئاً في ذلك ـ جملة من المآخذ والاعتراضات على سياسات الإخوان المسلمين، وتصرفات قادتهم، ثم ما لبث بعد أن ازداد زخمها على جملتي العصبية أن كتبت تقريراً مفصلاً، كان الغرض منه محاولة جادة لتعديل الوقفة، وتصحيح الأخطاء ـ وسلمته إلى مسؤول الأسرة، ورحت أنتظر الجواب بفارغ الصبر، وبعد مرور الأسابيع الطوال تبين لي أن التقرير لم يرفع أساساً إلى القيادة في بغداد، فما كان مني إلا أن أغادر الجماعة للمرة الثالثة...

بعد سنة واحدة، وفي أعقاب جملة من الاتصالات والمناقشات بيني وبين عدد من الإخوة المسلمين؛ اقتنعت بالانضمام إلى (الجبهة الإسلامية) التي تشكلت لتدارك أخطاء الإخوان المسلمين، وللمضي قدماً بقطار العمل الدعوي إلى الأمام، وكان من بين الذين تحاوروا معي في الموضوع الأخوة: يحيى علي علاوي، وهشام الطالب، وداعية نشط يدعى (مؤيد البدري) (وهو غير ذاك المعروف في الوسط الرياضي)، وتم ارتباطي به في بغداد حيث كنت أحضر للماجستير، وعندما انتقلت للموصل أصبح ارتباطي بالأخ أحمد الدباغ، حيث تم عقد جملة من الاجتماعات التثقيفية في بغداد والموصل...

لكن هذا التشكيل ما لبث بعد سنوات قلائل أن تعرض لجملة من المشاكل والاختراقات الأمنية، فما كان منه إلا أن يحل نفسه، حيث كنت يومذاك أواصل دراستي للدكتوراه في القاهرة، فلما عدت إلى العراق فوجئت بتلك المتغيرات، وأصبحت للمرة الرابعة حرّاً من أي ارتباط حزبي أو تنظيمي، إذ سحبتني مشاريعي التأليفية إلى ساحتها فكدت أن أتفرغ لها تماماً.

ودائماً أقول في نفسي، رغم المبررات الكثيرة لتصرفاتي، إنني ربما أكون على خطأ وأسأل الله ﷻ المغفرة. لقد كنت أحسب نفسي دائماً، بما ينطوي

عليه عقلي من أفكار آمنت بها حتى النخاع، في أقصى يسار الحركات الإسلامية، إذا صح التعبير، وكنت أطمع أن ينطلق قطار الدعوة بأقصى سرعة، وبأشد الوتائر فاعلية للوصول إلى الأهداف... فلما كنت أجد ـ في بعض الأحيان ـ عكس ما كنت أطمح إليه، يصيبني الإحباط ويقودني إلى اتخاذ مواقف قد لا تكون مبررة على الإطلاق، بإحالة الوضع كله على شبكة معقدة من المعطيات أكثر تعقيداً بكثير مما كنت أتصور!!

ثمة جملة من الأحداث العامة في عامي (١٩٦١ ـ ١٩٦٢م) كان لها وقع عميق في نفسي، وعلى رأسها إعلان استقلال الجزائر، بعد أن قدمت مليون شهيد في سبيل هذا اليوم المشهود... ولقد عقدنا في نادي الكلية احتفالاً شاملاً إعراباً عن البهجة بهذا النصر الكبير الذي حققه ثوار الجزائر، ورحت أتابع بشغف وتخوّف ما شهدته الساحة الجزائرية بعد فترة قصيرة من الاستقلال، من ذلك الصراع بين الحكام المدنيين السابقين بقيادة يوسف بن خدة، الذي أصرّ على الاستئثار بالحكم وبين الثوار والقادة العسكريين، حتى أتيح لهؤلاء تحقيق الانتصار وتسلم قيادة الجزائر بزعامة (أحمد بن بلّا) رَحِمَهُ اللَّهُ.

وكان الحدث الثاني، على العكس تماماً، مترعاً بالحزن والقهر... إنه واقعة الانفصال الذي شهدته الجمهورية العربية المتحدة بين سوريا ومصر، والذي أعاد عقارب الساعة والتاريخ إلى الوراء... وأذكر في أحد الأيام حيث دخل علينا الغرفة (قاسم يحيى رجب: وهو رفيق بعثي أصبح محافظاً للأنبار فيما بعد) وهو يسب ويشتم الإخوان المسلمين الذين كانوا السبب وراء هذا الانفصال، دون أن يدري هذا الرفيق أن حزب البعث السوري كان رأس الحربة في مأساة الانفصال، وأنه أعلن تأييده المطلق له منذ لحظاته الأولى، وأن الإخوان المسلمين كانوا من أشد المتشبثين بالوحدة، والحريصين على ديمومتها، والمضحين من أجلها بالمال والرجال...

ثم ما لبثت سوريا التي شهدت بعد الانفصال انفراجاً ديمقراطياً لم يدم طويلاً، أن تآمر عليها أفاعي حزب البعث الطائفيين، الذين اندسّوا في الجيش،

ثم ما لبثوا أن انقلبوا على ناظم القدسي، ودخلوا بسوريا، ذلك البلد العريق بعروبته، ومواقفه البيضاء، سلسلة الأنفاق المظلمة والانقلابات الطائفية، حتى سلموا الجولان للعدو الصهيوني، وذبحوا الشعب السوري في ثورته التي لا تزال تتلقى من هذا النظام الضربات المتواصلة، بعيداً عن القيم والضوابط الإنسانية والدينية والأخلاقية، فقتلته وشردته في الآفاق...

وجاءت ثورة اليمن، والحرب في كردستان، ومحاولة قاسم غزو الكويت، ما جعلني ألتصق يومياً بالراديو الساعات الطوال في متابعة متواصلة لتفاصيل الأحداث... وكان انتشار جهاز الراديو الترانزستر، المنفك عن الارتباط في مكان واحد، فرصة ذهبية لعشاق الاستماع إلى الأخبار والبرامج الثقافية، فكنت أحتضن المذياع وأنا مستلقٍ على فراشي الساعات الطوال، أتابع معطياته بحرص وشغف، حتى تأخذني سنة من النوم العميق.

في ربيع سنة التخرج (١٩٦٢م) جاء موعد (التطبيق) لتمرين خريجي كلية التربية على الأداء التدريسي واختبار كفاءتهم في هذا الحقل... وكنت أنتظر هذه التجربة بشغف بالغ، حتى إذا جاء موعدها وجدتني أذهب عصر كل يوم إلى إحدى متوسطات الأعظمية، حيث أبناء الطبقة الغنية الحريصون على تحقيق التفوق الدراسي، فكنت أجد متعة بالغة في تدريسهم، والحوار معهم، فيما يمكن اعتباره نوعاً من التحقق الذاتي الذي أغراني أكثر فأكثر بالعمل التدريسي بعد التخرج... وانقضى الشهران بسرعة بالغة، وعدنا إلى الكلية لكي نتهيأ لاجتياز المحاضرات الأخيرة وإعداد أنفسنا للامتحان النهائي. ثم ما لبثنا بعد جحيم الامتحان أن انطلقنا عائدين إلى مدننا بانتظار إعلان النتائج وتحديد موعد حفلة التخرج.

ركبنا قطار الظهيرة العائد إلى الموصل، ورحنا أنا وعدد من الأصدقاء نعد الدقائق واللحظات التي تفصلنا عن مدينتنا الغالية... وقبل الوصول بحوالي الساعة من الزمن فوجئ الركاب بمجموعة من رجال الأمن تجتاز الممرات وتطالب المسافرين فتح حقائبهم لتفتيشها... حتى إذا جاء الدور عليّ كنت مطمئناً أشد

الاطمئنان إلى ما يتمخض عنه التفتيش، وإذا بأحد رجال الأمن يسحب ورقة يجابهني بها بعنف ويقول لي بعصبية: ما هذا؟ كانت الورقة عبارة عن منشور عما تصدره جماعة الإخوان المسلمين تعقيباً على ما يشهده العراق... وهو ينطوي على نقد مرير لسياسات عبد الكريم قاسم... وكنت بعد أن قرأته في بغداد نسيت أن أمزقه، وحشرته عرضاً بين كتبي وأوراقي دون أن أنتبه إليه...

حاولت أن أبرر له سبب وجوده في حقيبتي فلم يقتنع، وكان بمعيتي اثنان آخران ممن عثروا لديهما على بعض المنشورات، أحدهما كردي من الخط الإسلامي، والآخر شيعي من مدينة (طويريج) والتي خرجت فيما بعد طاغية العراق نوري المالكي، وكان الطالب ذا توجه بعثي... وما لبث القطار أن توقف عند المحطة فاقتادونا إلى مركز للشرطة هناك، ومنها وضعنا في سيارة صالون أقلتنا ورجال الأمن إلى المديرية العامة للأمن في شارع الدواسة، حيث واصلوا تفتيشنا وأخذوا العديد من أوراقنا ومدوناتنا، وبعضها كان من بين تقاليدي في الكتابة: مجموعة من الموضوعات التي تلح علي فأدون عناوينها، مضيفاً إياه إلى موضوعات أخرى بانتظار اليوم الذي سأتفرغ فيه لتحويلها إلى بحوث ومقالات... ولقد ندمت أشد الندم على ضياعها، إذ هي حصيلة عام دراسي بأكمله من الموضوعات التي تستحق الكتابة.

طلبت المديرية من أحد رجالها أخذي بسيارة خاصة إلى البيت الذي أقطنه وتفتيش أوراقي وموجوداتي هناك... ولحسن الحظ فقد كان هذا الرجل من أصدقاء الوالد، فما أن وصلنا وجوبهنا بالوالد يقف عند الباب، مستفسراً عن هذا الذي يحدث، حتى أشار إليه رجل الأمن أن يطمئن، فإنما هي جولة تفتيش اعتيادية، بعد أن كبسوا عندي منشوراً ضد السلطة... ثم ما كان منه إلا أن يدخل إحدى الغرف ويلقي نظرة سريعة، ثم يشير لوالدي مطمئناً إياه: ليس ثمة ما يقلق، ولسوف نأخذه للتحقيق وقد يفرج عنه في أقرب وقت.

من جهتي كنت أحس بسعادة غامرة... سعادة من يعثر على شيء عزيز كان

ينتظره منذ زمن بعيد، وكنت أردد مع نفسي: هل صحيح بأنني سأدخل السجن الذي طالما تاقت نفسي إليه أسوةً بإخوتي وأصدقائي الذين سبقوني إليه؟

وفي الجانب الأيسر توقفنا عند بناية أخرى للأمن حيث أجروا معي عدداً من التحقيقات، ثم ما لبثوا أن طلبوا منا نحن الثلاثة أن نصطحب أحد رجالهم إلى المركز العام، حيث بتنا ليلتنا هناك، وفي صبيحة اليوم التالي نقلنا بسيارة أخرى إلى سجن الموصل المركزي... دخلته وسط إحساس عميق بالسعادة والتحقق، وما لبثت أن وجدت نفسي محشوراً بين زمرة من الشباب المعتقلين في أحد العنابر... كانت نظراتهم إليّ مترعة بالحقد والكراهية، وبعد أن وجهوا إلي جملة من الأسئلة طلبوا مني مغادرة العنبر إلى مكان آخر... تبيّن لي أنهم من البعثيين وأنهم تخوفوا من أن أكون مدسوساً عليهم من السلطة، فما لبثت أن تحولت إلى العنبر المجاور الذي كان يضم عدداً من المعتقلين القوميين الذين رحبوا بي أشد الترحيب، ودعاني أحدهم وهو ابن محلتي في جامع خزام (ويدعى نيازي) إلى تناول (الدولمة) بمعيته، ولكني ما أن أنهيت الغداء حتى سمعت صوتاً ينادي: عماد الدين خليل، فالتفت إلى مصدره، فإذا بصاحبه يبتسم في وجهي ويقول: إفراج!!

لم يكن البتة إحساس بالفرح والبهجة في أعقاب سماعي صوته، ولكنه كان إحساساً موغلاً بالقهر والهزيمة... كنت كمن أفلت من يديه صيد ثمين سهر الأيام والليالي لاصطياده، حتى إذا ما أمسكه بين يديه، أفلت منه، وغاب ـ بعيداً ـ ولقد عبرت عن أحاسيسي المريرة تلك في مذكراتي الجامعية التي يجدها القارئ في ملاحق سيرتي هذه.

بعد أيام قلائل أعلنت النتائج، وسافرت إلى بغداد لتسلمها، فإذا بي أحصل على المركز الثاني لقسم التاريخ في تسلسل الناجحين، إذ كان المركز الأوّل من نصيب الزميل (عبد الجبار ناجي: الدكتور فيما بعد)... كانت الدرجات بحق سخية ومعظمها في التسعينات حيث أحسست بأن جهودي المتواصلة في الدراسة لم تذهب عبثاً... وسرعان ما تلقيت التهاني من الزملاء

والأصدقاء، والتقطنا مجموعة من الصور التذكارية، وجلسنا قليلاً في النادي نسترجع ذكريات أربع سنوات من السعادة والعذاب، ثم اتفقنا على اللقاء ثانية يوم التخرج في الخامس عشر من حزيران... وقفلت عائداً إلى مدينتي.

قبل موعد حفل التخرج بعدة أيام عدت إلى بغداد ضيفاً على بيت خالتي (زوجة المقدم حسين الزرقي)، ثم ما لبث يوم التخرج أن حلّ، سبقه يوم آخر أجرينا فيه جملة من (البروفات) وغرقنا لساعات في أجواء النكات والتعليقات والضحك العميق.

وفي اليوم التالي اتجهنا إلى ساحة المنصور، حيث رفعت الأعلام، وراحت موسيقى الجيش تصدح وحيث لبسنا عباءة التخرج وقبعته، واصطففنا، كل كلية في الموضع المخصص لها، حتى إذا أعطيت إشارة التحرك، بدأت المسيرة إلى وسط الساحة حيث خصص لكل كلية المكان المناسب.

كانت هذه أول حفلة تخرج يشهدها العراق في العصر الجمهوري، ولذا فقد حسب لها أكثر من حساب ودعيت لحضورها شخصيات علمية وثقافية كبيرة من شتى أنحاء الوطن العربي، وظن عبد الكريم قاسم أنه سيُلقى من حشود الطلبة المتجمهرين وسط الساحة بعاصفة من التصفيق، وأنه سيقاطع في أعقاب كل عبارة يتفوه بها في خطبته بالحماس والتأييد، ولكن المفاجأة المدهشة هي أن الذي حدث كان عكس هذا تماماً، إذ لم يصفق له أحد على الإطلاق، وراح الطلبة يتحدثون فيما بينهم تحدياً، غير مبالين بأصول البروتوكول الخاص بمناسبات كهذه... وحتى عندما أعلن في ختام كلمته عن منحنا نيشان الجمهورية من الدرجة الأولى؛ فإن أحداً لم يصفق له... لقد كانت كل القوى والأحزاب تقف في الطرف الآخر المناوئ له، وحتى مجموعة الطلبة الانتهازيين وجدوا أنفسهم محاصرين وسط جيش جرار من المعارضة فلم يستطيعوا أن يعبروا عن تضامنهم مع الزعيم ولو بهتاف أو إشارة واحدة!!

السؤال الذي طالما أردده مع نفسي، بعد أن دخل العراق في أعقاب الإطاحة به، جملة من الأنفاق المظلمة: هل كنا محقين في ذلك؟! أم أنها فورة

الشباب التي تكتسح في جيشانها كل حسابات العقل ومعادلات المنطق، وموازناته؟ ذلك أن قاسم طيلة السنتين الأخيرتين من حكمه كان قد تجاوز أي ميل لأية جهة كانت، ومارس حكم العراق وكأنه أب للجميع... ليس هذا فحسب بل إنه نفذ جملة من المشاريع السكنية للفقراء والكادحين، وأصدر قانون رقم ٨٠ بخصوص ملكية النفط العراقي وحقوق استخراجه، بحيث أنه ضيق الخناق على الشركات الأجنبية التي كانت تستثمره لحسابها الخاص ولا تعطي العراق من مردوده سوى الفتات... ومن أجل ذلك ـ ربما ـ قام الانقلاب عليه في الرابع عشر من رمضان عام (١٩٦٣م) بقيادة حزب البعث الذي صرح زعيمه (علي صالح السعدي) بأنهم جاؤوا على قطار أمريكي... ولقد ساعد على نجاح الانقلاب انضمام كل القوى القومية والإسلامية في الجهد المبذول للإطاحة بعبد الكريم قاسم، الذي قتل وهو لم يمدّ يده إلى فلس واحد من المال العام... ويكفيه فخراً أنه بطرائقه الخاصة تمكن من إخراج أقوى الأحزاب الشيوعية في الشرق الأوسط والعالم الثالث... من التاريخ!!

الأمر نفسه حدث في موقفنا المندفع بفورته الشبابية ضد العصر الملكي، الذي لو قدّر له الاستمرار، لكان حال العراق غير حاله وهو يعاني من الانتكاسات المتعاقبة والتمزق والقتل والخوف والجوع والتشريد والمهانة والابتزاز عقداً بعد عقد، ومرحلة بعد أخرى، ولكن ـ وكما يقول المثل ـ فإن للشباب أحكامه التي لا تقبل نقضاً ولا جدلاً.

ثم ما لبثت أن جاءت مرحلة الحيرة والتردّد... وطالما كنت أردد مع نفسي والمحيطين بي، ولا أزال، أن دقيقة واحدة من الحيرة تعدل في أذاها الساعات والأيام الطوال من المرض، وكنت أسميها (المغص النفسي) وأفضل عليها الآلام الجسدية والمغص الكلوي، لأن طعمها لا يمكن احتماله...

الحيرة القاسية بين مواصلة الدراسة للحصول على الماجستير، وبين الانتماء للعمل التدريسي في المتوسطات والثانويات... كنت أقف ـ كما يقول المثل ـ في نقطة (الففتي ففتي) دون أي دافع يجعلني ولو أن أميل قليلاً إلى

اختيار أحد الطريقين... فمن جهة كانت إغراءات مواصلة الدراسة، استناداً إلى احتمال قبولي القوي بسبب درجاتي المتفوقة وانتمائي لفرع (الشرف)، والرغبة في التحقق الذاتي في أن أصبح أستاذاً جامعياً يتعامل مع بيئة طلابية غير تلك التي يتعامل معها مدرسو المتوسطات والثانويات، فضلاً عن ضرورة قضاء عدة سنوات في القرى والأرياف، قبل أن تتاح لي فرصة العمل في الموصل... تسحبني إلى الاختيار الأول... ولكن إرهاقي الذي بلغ بي حداً صعباً من التوتر والإعياء وعدم الرغبة في إعادة حلقات القلق والهم الدراسي لعامين أو ثلاثة أعوام أخرى، تشدني إلى الفرار، واختيار العمل التدريسي بعيداً عن الدروس والامتحانات وشدّ الأعصاب...

ظللت على هذه الحال الأسابيع الطوال، قمت خلالها بأكثر من رحلة إلى بغداد لاستكمال الأمور الإجرائية المعقدة بخصوص التعيين في العمل التدريسي، والتجوال ـ من جهة أخرى ـ في أكثر من موقع، بما فيها معهد الدراسات العليا، سائلاً مستفسراً عن موانع وإغراءات التقديم للماجستير، وكنت أتلقى إجابات متناقضة بعضها يدفعني إلى الفرار، وبعضها الآخر يحضّني على الإقدام... ثم ما لبث أن وصلتني رسالة من (خالد العسلي: الدكتور فيما بعد) الذي كان يدرس في المعهد ضمن الوجبة الأولى التي قبلت فيها، يحضّني فيها على عدم تضييع الفرصة، ويذكرني بمقولة (بسمارك) المعروفة (لم يهلك أحد من الشغل)، فوجدت في رسالته تلك إشارة الإنقاذ من بحر الحيرة المريرة التي كنت أتخبط فيها، فلما عرضت الأمر على أخي الأكبر (مظفر) أعطاني هو الآخر دفعة قوية مشجعة باتجاه الاستمرار على الدراسة... وحينذاك فقط أحسست بأني قد أزحت عن كاهلي جبلاً من الهموم... وتملكتني فرحة غامرة يصعب وصفها، رحت من أجل احتوائها والإمساك بتلابيبها أذرع شوارع الموصل الساعات الطوال!!



الفصل الرابع

١٩٦٢ ـ ١٩٦٨م

في العاشرة صباحاً من اليوم التاسع عشر من تشرين الأول عام (١٩٦٣م) انطلقت بنا السيارة، عابرة الجسر الجديد باتجاه أربيل، ودارت بين الركاب أحاديث متقطعة والسيارة تنعطف بنا صوب كركوك، وهنالك جلسنا في إحدى كازينواتها لتناول الغداء وشرب الشاي وإصلاح إطار السيارة المعطوب، ثم انطلقنا عبر طريق الفتحة، حيث لم يمض وقت قصير إلا وشعرنا بأن السيارة تتأرجح بنا ذات اليمين وذات الشمال، بشكل مخيف، ولم يبق سوى لحظات لتصطدم بالسيارة المقبلة باتجاهها، وراح أحد الركاب يصيح بأعلى صوته: لا تضغط على البريك... لا تضغط على البريك، وفجأة انحرفت السيارة إلى حافة الشارع، ثم وقفت... كان وجه السائق شاحباً بلون الموت، بينما راح الباقون يحمدون الله على إنقاذهم من هذا الموقف الرهيب الذي كاد أن يودي بنا جميعاً...

وصلنا الفتحة، وبعد دقائق صليت خلالها وشربنا الشاي، دخلنا المعبر الذي أقلنا إلى الضفة الأخرى لنهر دجلة، ومن هناك انطلقت بنا السيارة باتجاه بغداد.

ألقيت رحالي في بيت خالتي (زوجة المقدم حسين الزرقي) ريثما أعثر على مكان مناسب للسكن، وانطلقت في صبيحة اليوم التالي إلى معهد الدراسات العليا، حيث التقيت بالطلاب الذين قُبلوا في هذه الدورة، وهم كل من قحطان الحديثي، وعبد الجبار ناجي، وناجي حسن هادي، وعلي حميدة

(من تونس)، وعبد السلام ياسين الذي سرعان ما انسحب مختاراً التدريس في إعداديات الموصل...

أما أساتذتنا فكانوا كلاً من الأستاذ الدكتور عبد العزيز الدوري، رئيس المعهد، الذي تولى تدريسنا مادة (علم التاريخ)، والأستاذ الدكتور صالح أحمد العلي الذي تولى تدريسينا خطط بغداد، والأستاذ الدكتور جعفر خصباك الذي تولى تدريسينا مادة العصور العباسية المتأخرة، ثم ما لبثت أن لحقت بهم الآنسة أمل الخضيري لإعطائنا كورس باللغة الفرنسية.

وسرعان ما تراكمت علينا مطالب الأساتذة، من الإعداد للمحاضرات وكتابة البحوث والتقارير... فكنا نسابق الزمن، ونذهب إلى مكتبات كليتي الآداب والتربية، بحثاً عن المصادر والمراجع، ونقضي هناك الساعات الطوال... فضلاً عن جلستنا اليومية المتطاولة في قاعة مكتبة المعهد...

كنا جميعاً قلقين، لا ندري ما نفعل، نركض هناك وهناك، ونبذل من الجهد أضعاف ما نخرج به من إنجاز... ولكننا ما لبثنا بمرور الوقت أن اعتدنا على هذه الحالة، وقدرنا على الإمساك بخيوط بحوثنا وتقاريرنا والاستجابة لمطالب أساتذتنا التي كانت تنهمر علينا كالمطر.

كانت مدة المحاضرة الواحدة خمسين دقيقة، حيث يبدأ الأستاذ بالكلام ثم تبدأ المناقشة الحرة في الموضوع مجال المحاضرة، وفي منتصف الوقت ينادي الأستاذ على الشاي أو القهوة لتجديد النشاط، حتى تمضي المحاضرة إلى نهايتها، بعد أن يكون الأستاذ قد حمّلنا المزيد من الأعباء للقاء القادم...

ما لبث التوافق والانسجام أن أخذ يسود بين طلبة الدورتين الأولى (حسام السامرائي وبدري محمد فهد وعبد اللطيف العاني وخالد العسلي) والثانية حيث نحن الطلاب الخمسة... فكنا نجلس سوية الساعات الطوال في مكتبة المعهد... نواصل العمل في بحوثنا وتقاريرنا... ونتبادل الأحاديث والنكات.. ونشرب الشاي، ونتناول الغداء... وفي المساء كان الأخ عبد اللطيف يقلنا بسيارته للتجوال عبر شوارع بغداد وتناول عشائنا في أحد مطاعمها...

ويوماً انطلقت بنا سيارة زميل الماجستير الأخ عبد اللطيف العاني ضمن أصدقاء الدراسة في رحلة ممتعة منسجمة إلى الحلة، وهناك قضينا وقتاً طيباً مع أحد أصدقاء كلية التربية، وبعد الغداء استرحنا قليلاً في كازينو أنيقة مطلة على الفرات، ثم قفلنا عائدين.

ومضت الأيام ونحن نتأرجح كالغصون في أيام الشتاء بين القلق والعمل والضحك والتجوال والتنقل بين المكتبات، والانغماس في بطون المصادر القديمة وكتابة البحوث والتقارير المتلاحقة التي كان أساتذتنا يكلفوننا بإنجازها، وكان الذي يخفف عنا مشاكلنا وهمومنا الدراسية، الانسجام والتوافق الذي كان سائداً بين مجموعة الطلاب في الدراسات العليا... كنا نكتب هناك في مكتبة المعهد ونتلقى المحاضرات، ونتناول غداءنا في كلية الآداب القريبة ونشرب الشاي... وكنا نضحك وندبر المقالب هناك أيضاً، ومن ورائنا وأمامنا تلال من الكتب والمراجع، وركام من الأوراق والقصاصات...

وفي أمسيات الخريف البغدادية الرائعة كنا نغادر القسم منشرحي الصدور لكي نقضي الساعات الطيبة في شوارع بغداد ومقاهيها... وكانت أحاديثنا تتأرجح هي الأخرى بين هموم الدراسة ومتطلباتها، وبين المباهج البريئة والمسرات.

وعندما كنت أعود إلى الشقة المطلة على ساحة الأعظمية، والتي انتقلت إليها بعد أسبوعين قضيتهما في بيت خالتي... كنت أتمّ وبعض الأصدقاء أمسيتي هناك، بين الضحك والأحاديث الممتعة حيناً، وبين المشاكل والحساسيات حيناً آخر... وأحياناً ثالثة كنت أنهمك هناك في تحضير الواجبات الملقاة على عاتقنا، خوفاً من غضب (الدوري) وعقابه الذي لا تحتمله الأعصاب... وبرزت أمامي دونما داع مشكلة إتقان اللغة الإنكليزية تحسباً للمستقبل، واستغرقت مني الكثير من الجهد والهمّ، وانهمكت بعض الوقت في دراسة بعض النصوص التي لها ما يقابلها من ترجماتها العربية، واستخرجت

منها مئات الكلمات والمصطلحات التاريخية، ورحت أحفظها كلما خلوت إلى نفسي وأستعيد حفظها خلال الأسفار.

كان (عبد الجبار ناجي) صديق الدراسة الذي اخترته من بين الجميع... شعر كلٌّ منا بأن هناك انسجاماً فيما بيننا وتقارباً في الجدّ والهزل على السواء، فرحنا نخرج سويةً ونعمل سويةً ونقضي أوقات فراغنا معاً ونتناول طعامنا معاً... ثم ما لبث أن انضم إلينا فيما بعد (حسام السامرائي: الدكتور فيما بعد) بروحه الاجتماعية وعلاقاته الواسعة ومرحه وانطلاقه، ورحنا نقضي معاً أجمل الأوقات... أما في ساعات العمل فكان (عبد الجبار) هو العزاء الوحيد... وكنا نخرج بعد مغادرتنا المعهد إلى إحدى الكازينوات لمواصلة العمل في كتابة التقارير والبحوث، ومضينا فترة طويلة ونحن نعمل في كازينو تقع في الكاظمية، ونغادرها في ساعة متأخرة من الليل لكي نغرق متاعبنا في الضحك والنكات، وكان يأتي لي أحياناً بالعشاء من القسم الداخلي القريب الذي ينتمي إليه فتجد في ذلك متعة كبيرة.

لم يتح لي السفر إلى الموصل لكثرة العمل، ولكن أخبار الفيضان الذي اكتسح الجانب الأيسر من المدينة أغرتني بالذهاب، وركبت القطار إلى هناك وقضيت أياماً ممتعة مع الأهل ثم قفلت عائداً إلى بغداد. وعن طريق (حسام السامرائي) تعرفت على محرري جريدة (الجهاد) الإسلامية وأساليب تحرير الصحف، ثم ما لبثت أن عرضت علي الجريدة نشر بحثي (العلمانية انحراف) على عدة حلقات، وأحسست بنوع من الانتصار النفسي لأن بحثي هذا يمثل حرباً من نوع ما ضد الوضع العلماني الجديد الذي أعقب ثورة رمضان... ولقد ترددت الجريدة في نشره خوفاً من المشاكل ولكنها اقتنعت أخيراً... كان ذلك أول عمل ينشر لي وكان والحق يقال بمثابة فرحة كبيرة غمرتني أياماً طوالاً، وراح البحث يخرج تباعاً حتى استغرق ستة أعداد، وكانت كلمات الإطراء والتقييم تملؤني ثقة وسعادة واعتزازاً...

وأستطيع أن أقول الآن أن تلك البداية الطيبة لعبت أعمق الأثر في نشاطي الفكري فيما تلا ذلك من أعوام.

جاءت إضرابات الطلبة في مطلع عام (١٩٦٣م) بمثابة فرصة طيبة نستجم فيها من عناء العمل المتواصل، وأغلقت كلية الآداب أبوابها بعد محاولات عنيفة لجعل الدوام يستأنف فيها، وتبعها المعهد، سيما بعد أن ألقي القبض على عميده (الدوري) وسيق إلى أحد المعتقلات... ولما تأكدنا أن الدوام في معهدنا لن يُستأنف قبل مرور أسابيع، غادرنا بغداد كل إلى بلده، وعدت أنا إلى الموصل لكي أمضي الوقت في مطالعات شتى بين كتب التاريخ وقوائم مصادره وبين روايات (نجيب محفوظ)، ثم ما لبثت أن اقتنيت جهاز تسجيل قضينا معه أطيب الأوقات...

وكانت ليالي رمضان متعة لولا ما أصابني من متاعب في الالتهابات التي أصابت أذني اضطررت معها إلى عملية غسيل متعبة لجيوبي الأنفية، وكان إزاءها متعة ذلك الانسجام الذي جعلني أقضي مع أبناء عمي أطيب الأوقات وأمتع الجولات... كنا نخرج بالسيارة لكي نذرع أطراف المدينة في أمسيات رمضان الخضراء الجميلة، وكنا أحياناً نذهب إلى (مشروع الماء) لنلعب هناك الساعات الطوال... وكنت أقرأ في تلك الأيام رائعة (كوستلر) (ظلام في النهار)، وقد تركت أعظم الأثر في نفسي.

وما لبثت ثورة رمضان أن انفجرت وسط فرحة غامرة وإحساس عميق بالانتصار على أخطر وضع، وخرجنا صبيحة الثورة إلى شوارع المدينة لكي نشارك الجماهير بهجتها وسعادتها الغامرة... والتصقت آذاننا بأجهزة الراديو أياماً طوالاً، كنا نستمع خلالها إلى الأخبار والبيانات والأناشيد الوطنية بشغف لا يوصف، سيما في الليلة الخالدة التي انتهت بمقتل قاسم والمهداوي ورفاقهما المعروفين.

وبعد يومين أو ثلاثة قفلت عائداً إلى بغداد، وكانت الملامح السيئة تلوح في أفق الثورة الجديدة، ووصلت بغداد وأصوات الرصاص تملأ الأجواء، وكانت

الكاظمية التي اخترقتها سيارتنا تشهد الزخات الأخيرة اليائسة من رصاص المقاومة والتشبث بالعهد الذي آل إلى الزوال... وفي الشقة ألقيت متاعي وفطرت مع أحد الأصدقاء... ومرّت الأيام إثر ذلك والأحوال تزداد تعاسة وضيقاً، وبدأ الناس يدركون أنهم دخلوا غمار عهد لا يقل تعاسة وضيقاً عن العهد السابق.

وما لبث معهد الدراسات العليا أن شهد عودة نشاطه، ورحنا نواصل عملنا بجدّ لكي نعوّض ما فاتنا من أسابيع. وفي الليل كنت أقضي وقتي في الشقة بين الكآبة والانفراد والملل حيناً، وبين بعض الأصدقاء، وجهاز التسجيل الممتع، والضحك.. حيناً آخر... وبدأت ـ بسبب ذلك ـ بعض المشاكل والحساسيات مع الأخ (مؤيد عبد الله) مؤجر الشقة، وسعيت قدر الإمكان إلى أن أكون مرناً لتلافيها ولكن دون جدوى، وانتهى الأمر إلى قطيعة كاملة وسعي لترك الشقة إلى مكان جديد. وخلال ذلك كنت قد قُبلت كمراقب في قسم داخلي يقع في أقصى (الصليخ)، وكان علي من أجل إثبات وجودي أن أذهب لأنام هناك حيناً بعد حين في ظروف كئيبة شاقة لا تطاق، وسط القذارة والوحدة والبق الشرس، الأمر الذي جعل القسم بالنسبة لي أشبه بالمعتقل... ولما تكرّر تغيّبي عنه صدر أمر بفصلي، حيث رحت أفكر في مكان آوي إليه فيما تبقى من هذا الموسم الدراسي، ولم يكن هذا المكان سوى غرفة زميلي (عبد الجبار ناجي) في القسم الداخلي في الوزيرية...

ولم أكن أدري أن الحساسيات التي ولدتها صراحتي معه ومع بعض الأصدقاء المرائين، قبل ذلك، بصدد جبنهم ونفاقهم، قد حفرت في نفسه جرحاً عميقاً لا يغفر ولا يرحم... وما أن مضت أيام على نزولي عنده حتى بدأت المشاكل والأزمات النفسية تنفجر حيناً بعد حين، كلما أراد عقابي بغضب يكسو وجهه، وقطيعة تتلو ذلك وتأتي على أعصاب كلينا... وعبثاً حاول الأخ (حسام السامرائي) أن يقضي على الحساسيات ويرد علاقتنا إلى وضعها الطبيعي...

وكنا خلال ليالي الربيع ومطلع الصيف قد اعتدنا أن نجتمع سوية أنا وعبد الجبار وحسام ونصرت الدوري رحمه الله وفاروق النوري، سواء في أوقات العمل، أم اللهو والغداء، ونقضي معاً أطيب الأوقات، ونقوم بجولات ليلية ممتعة في أطراف بغداد، لولا المشاكل التي أثارها عبد الجبار، ولولا البخل والاستغلال اللذان بدأتُ وحسام نحسهما من بعض الآخرين... وكنا أحياناً نبقى إلى ساعة متأخرة من الليل في البناية الجديدة التي انتقل إليها معهدنا في منطقة الوزيرية... وما لبث قلق الامتحانات وازدحام التقارير والبحوث أن اكتسحنا، ثم زاد حرُّ بغداد وبعوضُها الأمرَ سوءاً وتعاسةً، فإذا ما أضفنا إلى ذلك ليالي الغضب والتوتر النفسي في القسم الداخلي، كان لي أن أتصوّر المصاعب التي كنت أعانيها آنذاك...

وبالانتهاء من الامتحانات الشاقة التي ذكرتني بآلام الامتحانات القاسية في كلية التربية، وبالتخفّف من بعض البحوث والتقارير، بدأنا نشعر بنوع من الارتياح، ثم ما لبثنا أن انتقلنا إلى غرفة حسام السامرائي في القسم الداخلي الذي يتولى الإشراف عليه... كانت الحساسيات مع عبد الجبار قد خفت إلى حدّ كبير وغطت عليها فعالياتنا الممتعة في جهاز التسجيل، ولياليـنا الطيبة في بغداد ومقاهيها... فضلاً عن مشاريعنا في تنظيم سفرة طويلة إلى بعض البلاد العربية، رغم أنني كنت أحسّ بأن مجرد خروجي في رحلة مع عبد الجبار سيجرعني الغصص ويدمر علي أول رحلة أقوم بها خارج العراق... وزاد الأمر تعاسة وساوسي التي لا مبرر لها إزاء عبد الجبار، الأمر الذي دفعني كالعادة إلى مصارحته، مما زاد الأمور تعقيداً وانعكس ذلك فيما بعد على سفرتنا إلى الخارج تلك التي استحالت إلى جحيم لا يطاق.

ما أن عدت من الرحلة حتى بدأ قلق البحث عن موضوع مناسب لرسالة الماجستير يتناوشني، وبعد جهود حثيثة وبعض السفرات الاستطلاعية إلى بغداد، وجلسات عديدة مع أعضاء القسم لمناقشة مسألة الإشراف على رسائلنا، وما رافق ذلك من مخاوف، انتهى الأمر بموافقة الأستاذ الدكتور

صالح أحمد العلي على موضوع (عماد الدين زنكي: مؤسس أتابكية الموصل) بعد أن رفض عدداً كبيراً من المواضيع التي عرضتها عليه... والحق أن مجرد موافقته على الموضوع الذي كان له في نفسي وقع خاص، جاء بعد ذلك القلق والخوف والانتظار، بمثابة فرحة غامرة بالنسبة لي، حتى أنني بعد أن غادرت مكتبه سجدت ركعتين شكراً لله على توفيقه... وغادرت المعهد إلى شارع أبي نواس مع أحد الأصدقاء وأنا أفيض رضاً وسعادة.

ما أن انتهت أزمة السكن وتمكنت من إقناع حسام السامرائي بضرورة مغادرة الشقة التي قررنا سكناها مع عبد الجبار، وقدرنا على الحصول على غرفة مناسبة كمراقبين في أحد الأقسام الداخلية في الصليخ، حتى بدأت العمل الجاد في المصادر من أجل تجميع النصوص عن موضوع زنكي، وكنت أقضي الساعات الطوال يومياً منذ الصباح وحتى حلول المساء في غرفة المعهد المطلة على الشارع العام... وكنت أتناول غدائي هناك كي لا يضيع الوقت عليّ وكي أعتصر الزمن اعتصاراً.

ما لبثت ثورة الثامن عشر من تشرين (١٩٦٣م) أن انفجرت في أعقاب أزمة الثالث عشر منه، وسط فرحة شاملة ملكت علينا مشاعرنا، واستيقظنا صباح الثامن عشر على صوت عبد السلام عارف يعلن البيان الأول وأزيز عدد من الطائرات تحلق في سماء بغداد، وخرجنا لنتجول في شوارع الأعظمية في ظروف خطيرة لم نأبه لها لما كان يغمرنا من شعور عميق بالانتصار، ورحنا نقرع الأبواب على الأصدقاء مصافحين ومهنئين... وفي بيت خالد العسلي تناولنا غداءنا، ثم قفلنا عائدين بعد جملة أخرى من تبادل التهاني في بيوت المعارف والأصدقاء، وذهبت بعد ليلة ممتعة في الداخلي إلى بيت أحد الأقرباء لأقضي هناك عدة أيام ممتعة وسط أمسيات عائلية وبرامج تلفزيونية مشوقة، عدت بعدها إلى القسم الداخلي الذي ما كان أروع لياليه وأحلاها!!

وخلال ذلك كنت أواصل العمل الجاد المستمر في استخراج النصوص لرسالتي، ثم ما لبثت أن سافرت إلى الموصل لأقضي هناك أسابيع طوالاً في

كتابة بعض فصول الرسالة، بعد إذ لم يبق ثمة ضرورة لاستمرار بقائي في بغداد. وهناك في برد الموصل وزمهريرها كتبت الفصول الأولى وسط ظروف نفسية ومناخية قاسية... ولا زلت أذكر كيف كنت أنزل إلى السرداب لأكتب هناك، وأعود بعد الغداء لأواصل العمل، وكيف بدأ الملل والإرهاق يتسربان إلى نفسي دون أن أستطيع لهما دفعاً... لكن كانت تتخلل ذلك فعاليات ممتعة في جهاز التسجيل وأوقات طيبة مع الأهل والأقرباء.

عدت إلى بغداد في منتصف رمضان عام (١٩٦٤م) للاشتراك في مراقبة الامتحان في ثانوية الأماني المسائية... وواصلت العمل في رسالتي في البناية الجديدة التي انتقل المعهد إليها في الشارع نفسه، وسط ظروف من الملل والكآبة والرغبة في الفرار من العمل... وقبيل العيد رجعت إلى الموصل لآخذ قسطاً من الراحة، وأطالع بعض الكتب والروايات وأقفل عائداً إلى بغداد.

وخلال ذلك كنت قد وثّقت علاقتي بجريدة الفكر العربي نصف الشهرية وبدأت أنشر فيها بعض الخواطر والمقالات، ثم ما لبثت أن دخلت مع صاحبها (أحمد الحسّو) (الدكتور فيما بعد) في مناقشات طويلة وممتعة من أجل أن أتولى رئاسة تحريرها، وبدأنا نرسم الخطط والبرامج وكأننا مقبلون على إنشاء دولة من العدم!! ثم ما لبثت أن قبلت المهمة وسط غمرة من الكآبة والشعور الثقيل بمسؤولية لم أكن بقادر على تحمل أعبائها النفسية دون مقابل من مكافأة مالية محددة سلفاً.. ولكن عشق الفكرة، والرغبة الطاغية في العمل المخلص في حقلها الصحفي سرعان ما أحال مهمتي إلى متعة لا توصف، خاصة وأني كنت قد أنجزت معظم فصول رسالتي للماجستير، فكنت أقضي معظم نهاري في المطبعة أتلقى الرسائل، وأكتب المقالات وأقتطع الشواهد وأشرف على إخراج الجريدة، وعندما أعود ليلاً إلى الداخلي أواصل العمل حتى ساعة متأخرة من الليل في كتابة المقالات والافتتاحيات بمتعة بالغة واندفاع مثابر.

كان أقربائي الذين كنت أقضي عندهم أمسيات الخميس قد غادروا بغداد

إلى كركوك، حيث عُيِّن زوج خالتي المقدم حسين الزرقي حاكماً عسكرياً في محكمتها، وكان (حسام السامرائي) قد ترك القسم الداخلي في غمرة من الجفاء بيني وبينه دونما سبب مني... وترك ذلك فراغاً في نفسي... لكنني تمكنت من ملئه بالانهماك في النشاط الصحفي وفي الاندماج في عالم الرياضة الرائع في ساحات بغداد ومنتدياتها، كما رحت أتابع بنهم العروض المسرحية في معهد الفنون الجميلة، وأطالع بشغف بعض الكتب في شتى المجالات... أما العمل في الرسالة فقد كاد أن يتوقف بسبب انتهائي من معظم فصولها، وبسبب تسويف الأستاذ المشرف وتأخيره المتعمد الذي كان له أسوأ الأثر في نفوس طلبة القسم، الذين كانوا يقاسون التجربة نفسها من التسويف والانتظار. ثم ما لبث أن تبيّن لنا أن التعليمات الخاصة بالمدة الزمنية لمناقشة رسائل الماجستير ـ يومذاك ـ كانت ثلاث سنوات وليس سنتين كما توهمنا، فكان ذلك بمثابة ضربة موجعة للطلبة جميعاً...

مع مطلع الصيف قفلت عائداً إلى الموصل، ورحت أواصل العمل صبيحة كل يوم في إضافة الفصول الحضارية المهمة للرسالة، والتي لم أكن قد حسبت حسابها... وخلال ذلك كنت أنتهز الفرص لكتابة بعض القضايا لجريدة الفكر العربي، التي راحت تتأرجح بين اتجاهين... أولهما إسلامي وأمثله أنا والآخر قومي ويمثله (أحمد الحسو)، ودارت بيننا مناقشات حامية سادها التوتر والانفعال، وانتابني قلق عميق حول مصير الجريدة ومسؤوليتي عنها وهي تعاني الازدواج الخطير، وأخيراً انتهزت فرصة نشر صورة لعبد الناصر دون إذن مني، فقدّمت استقالتي من رئاسة التحرير سعيداً مطمئناً، متخففاً من الأعباء النفسية التي أرهقتني الأسابيع الطوال...

واستمر عملي في الرسالة، حتى أعادني ثانية إلى دائرة الملل القديم، وراحت الكآبة تعتصر وجودي في مطلع صباح كل يوم وأنا مقبل على العمل الثقيل.

في مطلع الخريف عدت إلى بغداد، ونزلت في دار الطلبة حيث حسام

السامرائي وعبد الجبار، وقضينا هناك أياماً وليالي حلوة مع أمسيات بغداد، وأماكن لهوها البريء، ومع المطالعات الطيبة، ثم ما لبثت أن حصلت على غرفة أنيقة هناك كمراقب في دار الطلبة، وشعرت بالوحدة أول الأمر ثم ما لبثت أن اعتدتها... وعدت إلى عملي المتواصل وتنقيحاتي غير المجدية، ومشاكلي مع أستاذي المشرف، حتى أنني في أعقاب إحدى المقابلات خرجت من مكتبه وأنا أكاد أبكي من جراء أسلوبه في إرهاق الطالب والتسويف القاتل معه... وخلال ذلك كنت قد حصلت على عدد من المحاضرات في إعدادية (الأماني) المسائية... وكنت أخرج في أوقات الفراغ لأتجول في شارع الرشيد والباب الشرقي، تلك الجولات التي تغمرها المتعة والانسجام حيناً، والتمزق والتشتت والضياع أحياناً... وكانت علاقتي مع عبد الجبار قد تحسنت كثيراً وبدأ يجمعنا الشعور المشترك بالظلم الواقع علينا من معهد الدراسات والأستاذ المشرف... وسافرت إلى الموصل مرتين أو ثلاثاً لأقضي هناك أوقاتاً طيبة ولأطلع على الإصلاحات والتوسعة الشاملة التي شهدتها دارنا هناك.

ما لبث العلي بعد صبر طويل أن أذن لي ولعبد الجبار بطبع رسالتينا، وبسرعة اتفقنا مع أحد الطباعين لطبع النسخة الأولى وشعرنا بارتياح كبير... ثم ما لبث العلي أن طلب مني كتابة فصل جديد عن (زنكي والصليبيين) وهو محق في ذلك، فانعصر قلبي وأسرعت للاتصال بسرعة مع الموصل كي يرسلوا لي النصوص الخاصة بالموضوع، ورحت أكتب الفصل داعياً الله ﷻ أن يساعدني على إنجازه قبل نفاد الصبر!!

وجاء رمضان عام (١٩٦٥م)، وقضيت ليالي طيبة مع التلفزيون في صالة دار الطلبة، وخلال النهار كنت أنهمك في إجراء التنقيحات وإتمام النواقص المتعبة في الرسالة، عبر أيام اجتاحني فيها الاكتئاب والقلق ونفاد الصبر، وأنا أتردد بين مكتبة الجامعة المركزية ومكتبة المعهد، حيث القلق يعرف كيف ينشب مخالبه في الأمعاء!!

وبين الحين والحين كانت تجيء بعض المناسبات لكي تعيد إليّ الصفاء

والاستقرار وتمنحني بعض المتعة... وقد تبدى ذلك في اندماجي في عالم الرياضة الذي بلغ قمته في سباقات العراق وإيران في ألعاب الساحة والميدان... وفي برامج وحفلات مؤتمر الأدباء الخامس الذي دعوت نفسي إليه دونما دعوة من أحد!!

وأخيراً وقعت الواقعة المنتظرة، وأذن الأستاذ المشرف في البدء بالطبعة الأخيرة من الرسالة، ورحنا نعمل أنا وعبد الجبار بهمة عجيبة، ونسابق الزمن بشكل غريب، وتمكنا في ظرف قياسيّ قصير من الانتهاء من كل مشاكل الطبع والتجليد وملاحقة النواقص والأخطاء، وكنت أسهر في بعض الليالي إلى ساعة متأخرة، وما لبثنا أن أنجزنا المهمة وقدمنا النسخ المطلوبة للمعهد وقفلنا عائدين كل إلى بلده بانتظار وصول تقرير الممتحن الخارجي، وتحديد موعد النقاش.

قضيت أكثر من شهرين في الموصل بانتظار الموعد المرتقب... قضيتها هناك بين مطالعة وكتابة ولعب وجولات في الشوارع وجلسات في المقاهي والكازينوات وسفرات قصيرة... وما لبثت أن تلقيت رسالة مشجعة من الممتحن الخارجي يعد فيها بإنهاء كتابة التقرير بأسرع وقت... ثم لم يمض وقت طويل حتى جاءتني رسالة أخرى من عبد الجبار، يخبرني فيها عن وصول التقرير وتحديد الثاني من حزيران موعداً لمناقشتي.

سافرت إلى بغداد، ورحت أستعد للمقابلة التي ستقرر مستقبلي العلمي، وأتهيأ لإلقاء الكلمة المرتجلة التي سألقيها أمام الأساتذة الممتحنين... وجاء يوم الامتحان، واتجهت وعدد من الأصدقاء إلى القاعة التي سأناقش فيها... كان المناقشون، فضلاً عن الأستاذ المشرف الدكتور صالح أحمد العلي، كلاً من الأستاذ الدكتور عبد العزيز الدوري، والأستاذ الدكتور (المصري) حسن إبراهيم حسن، وألقيت كلمتي ارتجالاً وأنا متمالك الأعصاب تماماً، ثم جرت المناقشة طريفة، ممتعة، مستغرقة أكثر من ساعتين منحت بعدها بأيام قلائل شهادة الماجستير بدرجة (جيد جداً)، لكي ما ألبث أن أبدأ معاملة التعيين

الصعبة التي استغرقت شهراً بتمامه، أعود بعدها إلى الموصل لكي أبدأ في جامعتها حياتي العملية!! بفضل من الله وعونه...

انتهى بي المطاف للعمل في مكتبة الجامعة المركزية، في (١٠/٧/١٩٦٥م)، حيث لم تكن كلية الآداب قد افتتحت فيها. وكانت المكتبة في بدء أمرها تشغل أحد الطوابق العليا في البلوك الأمامي لكلية العلوم عند مدخل الجامعة القديم. ولحسن الحظ فقد كان المسؤول عنها هو الأخ الأستاذ يونس عزيز، مدرّس الإنكليزي الذي كان قد حصل حديثاً على شهادة الماجستير في علوم المكتبات... وكانت تربطني به علاقة فكرية وشخصية وثيقة، وما لبث أن انضاف إلينا الأستاذ عبد الله السامرائي، وهو يحمل ماجستير في اللغة الإنكليزية، وبمعيتنا ثلاث موظفات أخريات.

كانت الأجواء العائلية، والانسجام، تحكم علاقاتنا في العمل الذي انصب على فهرسة الكتب الموجودة، وترتيب بطاقة لكل كتاب، الأمر الذي تقبلته في الأسابيع والأشهر الأولى على مضض، خاصةً وأن كل الكتب التي كنا نتعامل معها تنتمي إلى العلوم الصرفة من كيمياء وفيزياء ورياضيات وجيولوجيا وعلوم حياة وهندسة... الخ، ولم يكن في المكتبة ـ يومها ـ ثمة كتاب واحد بالعربية وفي علوم الإنسانيات... فما لبثت أن بدأت أشعر بالملل وبأني لست في موقعي. ولهذا انتهزت أول فرصة سنحت لي للعمل في التدريس الجامعي خارج العراق، في إحدى الجامعات السعودية، وسافرت إلى بغداد لإكمال الإجراءات الروتينية في السفارة السعودية هناك، حتى إذا اكتملت الصفقة، وتمت الموافقة على تعييني، وجهزت حقائبي للسفر، إذا بمكالمة من بغداد، من الأخ الصديق فيصل الأرحيم ﷺ يعلمني فيها أنه قد تم استبدالي بمدرس آخر يحمل درجة الدكتوراه... ولشد ما كانت فرحتي طاغية لهذا النبأ المفاجئ، إذ كان تشبثي في مدينتي الغالية الموصل، قريباً من أهلي وأصدقائي، يعدل عندي الدنيا وما فيها، وكانت الهموم تتناوشني لفراق هذا كله... فما لبثت البشرى أن جاءت فحمدت الله على السلامة.

كنت رغم كثرة مشاغلي وهمومي وأعمالي، قد رتبت حياتي فيما يسمح لي عبرها بالكثير من المتع والمسرّات... من مثل طلعات الفجر الأسبوعية، وحدي أو مع ابن عمي، والتي كنا نقطع فيها، ولما تشرق الشمس بعد، المسافات الطوال... حتى إذا وصلنا مطاعم السوق، كان الجوع قد أحكم قبضته علينا، فتناولنا فطورنا اللذيذ من الكباب أو المشويات أو القلية أو الباجة أو اللحم بعجين، ثم جلسنا في كازينو البلدية التراثية الرائعة المطلة على نهر دجلة نتحدث، أو نلعب الداما، ولا نرجع إلى دورنا إلا قبيل الظهر.

ومن مثل الولع الشديد بلعبة كرة المنضدة، حيث اشتريت معداتها التي وضعت في كراج البيت، وكنت أنا وأخي الأصغر نبيل ﷺ نمارس اللعب يومياً، حتى تكيفت أيدينا عليه، ورحنا نتفنن في أدائه، ونسجل شهراً بشهر حصيلة اللقاءات الدورية، وكنا خلال اللعب نتطارد في الشعر الشعبي المرتجل من أجل التأثير في معنويات الخصم، والتعبير عن قدراتنا الأدبية، وكان الكثير مما قيل يبعث على الضحك حقاً... كان أبناء العم يشاركوننا اللعب أحياناً... وسرعان ما نقلت قدراتي إلى كلية الآداب حيث دخلت في منافسات على الكأس مع العديد من لاعبيها المتمرسين الذين كنت أجتازهم الواحد تلو الآخر، ولكن الحلقة الأصعب كانت في لقاءاتي على الكأس مع الأخ أنس الشيخ علي (الدكتور فيما بعد، والمستشار الأكاديمي للمعهد العالمي للفكر الإسلامي في لندن)... ومع ذلك فقد حصدت الكثير من الكؤوس، حتى أنني، في رحلتنا العائلية الرائعة في العطلة الربيعية لعام (١٩٦٦م) إلى بيت خالتي في كركوك، دخلت في جملة لقاءات مع ضباط النادي العسكري، حيث كان زوج خالتي حاكماً عسكرياً هناك واكتسحتهم جميعاً.

وكان تحلّق العائلة حول جهاز التلفزيون الذي دخل الموصل في منتصف الستينيات لمشاهدة المسلسلات المصرية، أو المسرحيات الكوميدية، مما لم نتركه يفلت من بين أيدينا؛ يمثل أجمل الأوقات، ونحن نتابع بشغف أحداث هذا المسلسل أو ذاك... أو نتابع هذه المسرحية الكوميدية أو تلك مما كان يضحكنا

حتى الأعماق... هذا إلى جلسات الجردغ اليومية الذي كان يديره الأخ والصديق الرياضي المعروف خالد فصوله ﷺ والمطل على نهر دجلة، مع عدد من الأصدقاء، حيث كنا نتبادل الأحاديث، أو نتابع السباقات الدورية في الكرة الطائرة... وإلى أمسيات الخميس الرائعة مع (الجمعية) التي شكلناها نحن مجموعة من المعارف والأصدقاء من الأساتذة الجامعيين والفنانين، والمخرجين المسرحيين والخطاطين والمدراء والمحاسبين والمهندسين، حتى بلغ عدد المنتمين إليها بشكل دائم ما يقرب من العشرين...

وكانت البداية اجتماعات يومية حيث يكلف كل داع بتقديم وجبة عشاء سخية، وحيث لم يكن معظم الأعضاء قد اعتقلوا في خانة الزواج بعد... ولكنها ما لبثت أن تحوّلت إلى جلسات أسبوعية مساء كل خميس بعد أن تزوج معظم الأعضاء، فكنا نسهر حتى ساعة متأخرة من الليل، ونتبادل الأحاديث الجادة، والنكات الهازلة، والمقالب المضحكة، والوجبات اللذيذة... وقد أضفنا إلى أمسياتنا تلك جملة من الرحلات الخريفية والربيعية إلى براري الموصل والمحافظات المجاورة.. ولا زلت أذكر كيف استأثرت «حمام العليل» بالعديد من أمسياتنا الشتوية في بيت أحد أعمامي هناك، حيث كنا نقضي الساعات الطوال، حتى يؤذن الفجر بالحلول، لكي ما نلبث أن نقفل عائدين.

كانت المكتبة المركزية قد انتقلت إلى بنايتها الجديدة في الجهة اليمنى لمدخل الجامعة... بقاعاتها الكبيرة، وغرفها العديدة... وكنا نحن لا نزال نكدح في فهرسة الكتب التي كلما كدنا أن نأتي عليها، إذا بمسؤول المكتبة يونس عزيز يبتكر صيغة مغايرة للفهرسة، وفق مستجدات علوم المكتبات، فنعود ثانيةً إلى نقطة الصفر لكي نفهرس من جديد... ونتلقى يومياً رشقات من كتب ومراجع العلوم الصرفة، التي كان علينا أن نلاحقها هي الأخرى...

ما لبث هاجس إكمال دراستي العليا للدكتوراه أن هيمن عليّ، خاصةً وأن لديّ في القاهرة التي كنت أعشق الدراسة في جامعاتها اثنان من أعز الأصدقاء: أحمد الحسو (الدكتور فيما بعد)، وفيصل الأرحيم ﷺ الذي حصل

على الماجستير في التاريخ المعاصر من معهد الدراسات القومية في القاهرة... وقد أغراني الصديقان بضرورة التقديم وأنهما سيتوليان متابعة الموضوع... فأسرعت بتجهيز الأوراق المطلوبة، ووقع اختياري لإنجاز أطروحة الدكتوراه في موضوع لم يسبق إليه أحد: (الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام)، ودفعت بطلبي إلى القاهرة، ورحت أنتظر...

ولكني ما لبثت بعد أسابيع طويلة من الانتظار أن تلقيت رسالة من الحسو يشير فيها إلى ضياع أوراقي، وأن علي أن أعيد الكرة، فأعدتها خلال أيام قلائل، وأرسلت بها إلى القاهرة... فما لبثت الموافقة على قبولي أن وصلتني بعد حين من الزمن، حيث شمرت عن ساعد الجدّ وصممت خطة البحث وقائمة المصادر والمراجع، وبدأت بتجميع المادة المطلوبة من عشرات المصادر القديمة ومئاتها، حيث كنت أمزج الليل بالنهار وأنا منهمك في التقاط لكل ما يمسّ موضوعي من بطون تلك المصادر ذات المجلدات الكثيرة...

وكنت أنتهز فرصة عدم وجود ما يتطلب فهرسة من الكتب المنهالة على المكتبة، فأنصرف إلى مواصلة جمع المادة. كما أني، استناداً للراتب الهزيل الذي كنا نتقاضاه؛ ارتبطت بجملة محاضرات في ثانوية الأماني المسائية، أسوةً بما فعلته زمن دراستي للماجستير... والحق أن التدريس في ثانويات كهذه، حيث يلتم جملة من الطلبة اللامبالين، والمشاغبين، والمشاكسين، هو الذي يدرّب المدرّس الجاد، ويمنحه القدرة الفائقة على ضبط الصف والأداء التدريسي المتميز الذي يحيل هؤلاء الطلبة إلى النقيض، وهذا ما تعلمته من تدريسي في هاتين الثانويتين في بغداد والموصل، رغم أن ذلك كان يتطلب جهداً استثنائياً في التعامل مع الطلاب.

ما لبثنا أن فوجئنا بقبول يونس عزيز للدكتوراه في إحدى الجامعات الأميركية، وأنه على وشك الرحيل، وما أن غادر الموصل حتى صدر الأمر الجامعي بتعييني في محله مسؤولاً عن المكتبة المركزية، حيث التحق بها كل

من: عبد الرزاق كامل الذي يحمل الدبلوم في علوم المكتبات من إحدى الجامعات الألمانية، وقاسم العارف ﷺ حامل الماجستير في اللغة الإنكليزية... فضلاً عن جملة من الموظفين والموظفات.

كان علي أن أنسق العمل، وأن ألاحق كل صغيرة وكبيرة، فها هي ذي التجربة الإدارية الأولى في حياتي الوظيفية، وعلي أن أحسن التعامل معها... فكنت ألاحق مطالب قاعة المطالعة لغرض تدفئتها في ذلك الموسم البارد، وما يتطلبه ذلك من تجهيز مخازن كافية وتغذيتها المتواصلة بالنفط... وأن الاحق انتظام عملية الفهرسة، والإعارة، وفضلاً عن ذلك فقد ارتأيت أن أضيف إلى خزائن الكتب العلمية الصرفة، خزائن أخرى بكتب المعرفة الإنسانية باللغة العربية... حيث كانت الصفقة الأولى التي عقدتها مع الدار القومية في الموصل هي النواة، ثم ما لبثت أن قدمت طلباً بالذهاب الدوري إلى بغداد لاختيار الكتب والمراجع الضرورية لكلية الآداب المزمع افتتاحها بعد أشهر معدودات... فلما تأخرت الموافقات الروتينية ضربت بها عرض الحائط وذهبت إلى بغداد حيث قضيت عدة أيام وأنا أجمع المصادر والمراجع من مكتبات شارع المتنبي وبخاصة من مكتبة الأم: (المثنى)، والتي سرعان ما تم شحنها إلى الموصل، فما كان مني إلا أن أتقدم بقوائم حسابها لمساعد رئيس الجامعة الدكتور نجيب خروفة وأضعه أمام الأمر الواقع، حيث ما لبث بعد تردد قصير أن أعلن موافقته.

وهكذا أصبحت مكتبة الجامعة المركزية تنطوي على جملة خزائن للكتب العربية في سائر المعارف الإنسانية. وقد أتيح لي بعد عقود طويلة من الزمن أن أؤسس للمكتبة تقليداً آخر، هو تلقي المكتبات الشخصية لمثقفي المدينة شراءً أو وقفاً، مع إبقائها في خزائن خاصة تحمل اسم صاحب الكتب. وقد بدأت المحاولة عندما اتصل بي ورثة اللواء الركن الحاج محمود شيت خطاب ﷺ، يطلبون مني مفاتحة رئيس الجامعة الأستاذ الدكتور أبي الديوه جي بفكرة شراء مكتبته العامرة قبل أن تعبث بها الأيدي وتتعرض للتبعثر والضياع، فما

كان من رئيس الجامعة إلا أن يعرب عن موافقته على شرائها وبشرط أن تظل في خزائن خاصة تحمل اسم المرحوم... وما لبث الآخرون أن حذوا حذو آل الخطاب فتقدموا بمكتباتهم الخصبة وقفاً على المكتبة المركزية، مبتغين الثواب عند الله ﷻ وخدمة الطلبة والباحثين تنفيذاً لحديث رسول الله (ﷺ): «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، وعلم ينتفع به، وولد صالح يدعو له».

كما أتيح لي بعد سنة واحدة، حيث انتقلت إلى كلية الآداب، أن أحقق نواة مشروع مفتوح لتشكيل مكتبة موصلية صرفة تضم بجناحيها مؤلفات الموصليين في الزمن القديم والحديث، وأولئك الذين كتبوا عن الموصل في شتى مناحي المعرفة، واخترت خزانة خاصة لكي نبدأ بها المشروع، وجمعت ما استطعت جمعه من مؤلفات بهذا الخصوص، وقد أعانني على ذلك الدكتور عمر الطالب بما يمتلكه في مكتبته الخاصة من أعمال أدبية لمؤلفين موصليين، وعهدت بالخزانة إلى إحدى الموظفات من حملة شهادة الماجستير، لكي تتولى الإشراف عليها وحمايتها من السرقة. ولكنها للأسف الشديد ما لبثت أن أغفلت الموضوع، فضاعت الخزانة وما فيها من مؤلفات، بينما كنت أنا منهمكاً في ترتيب قوائم بأسماء كل أولئك الذين كتبوا عن الموصل من أبنائها أنفسهم، أو من الآخرين.

ويوماً جاءني عدد من الطلبة يشكون جانباً مما تشهده قاعة المطالعة، مما ينافي التقاليد الخلقية والجامعية، بين بعض الطلبة والطالبات، فما كان مني إلا أن أصدر أمراً ـ دون الرجوع إلى مساعد رئيس الجامعة الذي كان ارتباطي المباشر به شخصياً، وكان هذا تصرفاً خاطئاً مني ندمت عليه فيما بعد أشد الندم ـ بالفصل في قاعة المطالعة بين الطلاب والطالبات. فما كان من معظم الطلاب إلا أن يعلنوا ثورتهم ضد هذا الإجراء، الأمر الذي أرغمني على التراجع عنه، بعد أن تلقيت كتاباً من مساعد الرئيس يرفض هو الآخر ما قمت به...

ولست أدري ما الذي جعلني أبقى في المكتبة بعد ذلك، إذ كان علي أن أقدم طلباً بإقالتي من الإشراف على المكتبة... وقد ظللت بعد ذلك أعاني من الندم على تصرّفي هذا، رغم أن (خروفة) كان يعاملني دائماً معاملة مترعة بالمحبة والمودة والاستجابة لطلباتي. بل إنه حرصاً منه على مستقبلي العلمي وضرورة حصولي على الدكتوراه رشحني لبعثة كولبنكيان إلى إحدى الجامعات الإنكليزية، وهي فرصة ذهبية يتقاتل من أجلها الكثيرون، ولكنني اعتذرت عن قبولها بسبب ارتباطي المسبق بجامعة عين شمس في القاهرة. ولكن يبدو أن تخوفه من أن يأخذ الأمر بعداً سياسياً، قد يقود الطلبة، وبخاصة البعثيين منهم، إلى الإضراب العام، جعله يسارع بحسم الموضوع.

زارنا يوما في المكتبة رئيس الوزراء العراقي (عبد الرحمن البزاز) ﵀، فجلنا معه في قاعات المكتبة، وأماكن خزائنها، وأبدى الرجل ارتياحه لما شهده... وبعدها بفترة قصيرة، وفي خريف عام (١٩٦٦م)، قيل أن رئيس الجمهورية (عبد الرحمن عارف) سيزور الموصل لوضع الحجر الأساس لجامعتها الناشئة، التي اختيرت لها منطقة الصيرمون المطلة على نهر دجلة في جانبه الأيمن، وهي واحدة من أجمل بقاع الموصل في تكوينها الطبيعي، وخضرتها الزاهية، وارتفاعها، وإشرافها على النهر.

وبعد أن تمت مراسيم الاستقبال، حيث طلب مني أن أضع على صدري شارة المستقبلين الخضراء ولكني اعتذرت، إذ لم يخطر على بالي يوماً ولن يخطر، أن أكون أحد المستقبلين للشخصيات الرسمية... وأُلقيت عدة كلمات لرئيس الجمهورية، ورئيس جامعة بغداد الأستاذ الدكتور عبد العزيز الدوري، حيث أعلن عن إنشاء جامعة مستقلة في الموصل لا ارتباط لها بجامعة بغداد، يرأسها الأستاذ الدكتور محمود الجليلي ﵀... ثم التوجه إلى حدائق نادي الضباط وسط الموصل لتناول العشاء وقضاء الأمسية بمعية حشود من التدريسيين والموظفين...

وفي اليوم التالي قام الأستاذ الدكتور محمود الجليلي يصحبه الأستاذ

الدكتور عبد العزيز الدوري بزيارة لبناية كلية الآداب التي آثر الدكتور الجليلي تسميتها بكلية الإنسانيات، والتي سرعان ما فتحت أبوابها للقبول عبر ثلاثة أقسام هي: اللغة العربية، والتاريخ، واللغة الإنكليزية... وسألني الدكتور الدوري عما إذا كنت أرغب في التفرغ للتدريس في هذه الكلية، والانفكاك من إشرافي على المكتبة المركزية، فكان ذلك بمثابة فرحة غامرة بسبب تحرّري من العمل في المكتبة والتفرغ لما كنت أعشقه دائماً وهو التدريس... وتمّ الانفكاك بسهولة بالغة، وانصرفت للعمل في هذه الكلية التي لم يكن كادرها التدريسي يتجاوز الأشخاص الثلاثة: العميد الدكتور عبد المنعم رشاد، ومعاونه الدكتور عامر سليمان، وأنا... حيث كنا أشبه بالمؤسسين لهذا الصرح العلمي الذي سرعان ما راح يتسع في أساتذته وأقسامه وطلبته ويسمى بعد سنة واحدة باسم (كلية الآداب).

كانت واقعة مقتل رئيس الجمهورية (عبد السلام عارف) ﷺ في حادثة طائرة الهليوكوبتر التي كانت تقلّه، وثلة من كبار القادة في رحلة إلى جنوب العراق، في نيسان عام (١٩٦٦م) بمثابة ضربة موجعة لكل العراقيين الذين طالما تلقوا الضربات الموجعة... كنت قبل هذه الكارثة بيوم واحد، أجلس على مدرجات ساحة الكشافة لمشاهدة اللعبة النهائية على كأس العرب في لعبة القدم بين فريقي العراق وسوريا... وإلى يساري تماماً، حيث تقوم المنصّة الرئيسية، كان عبد السلام عارف يجلس هو الآخر منفعلاً بمجريات السباق الذي كان يعكس ـ بشكل من الأشكال ـ بعداً سياسياً في صراع بين دولتين إحداهما ثارت على استبداد البعث، والأخرى خضعت له، بل ركبته لتحقيق أهدافها الطائفية... وعندما انتهى اللقاء بفوز العراق عمت الفرحة جميع الموجودين، وارتفعت الأكف بالتصفيق والحناجر بالهتاف...

ولكن هذه الفرحة سرعان ما انطفأت في اليوم التالي بالإعلان عن استشهاد عبد السلام عارف الذي كانت مرحلة حكمه الممتدة حوالي السنوات الثلاث (١٩٦٣ ـ ١٩٦٦م) من أكثر المراحل التي مرت بالعراق استقراراً

وتعاطفاً بين القائد والجماهير. ولا زلت أذكر كيف كان عبد السلام يكره الإتيكيت، والحماية الأمنية المشددة، التي برع فيها أولئك الذين جاؤوا بعده وبعد أخيه عبد الرحمن عارف، وكيف كنا نراه وهو يتخطى وحيداً في شارع أبي نوّاس، وليس ثمة وراءه، وعلى بعد مسافة متطاولة إلا مرافقه الشخصي... وأذكر ـ كذلك ـ يوم زيارته لنا في دار الطلبة، حيث تحلّق الطلاب حوله يعرضون عليه مطالبهم وهمومهم، وهو يجيبهم بابتسامته المعهودة، وقد التصقوا به دون أية حماية على الإطلاق.

كان يوماً حزيناً ذلك اليوم الذي شيع فيه عبد السلام عارف، الذي ذهب ـ في أغلب الظن ـ غدراً، نتيجة مؤامرة شارك في إحكامها قادة حزب البعث، تمهيداً لاستعادتهم السلطة ممن اعتقدوا بأنه سلبهم إياها، وقد كانت جهودهم المؤقتة في تولية أخيه الضعيف، تستهدف الغرض نفسه، ومن أجل ذلك حاولوا حماية وجوده الهش على رأس السلطة من أية محاولة انقلابية، من أجل الاحتفاظ بالغنيمة لأنفسهم عندما يحين موعد الحصاد، ولذلك شاركوا في إحباط محاولتي القائد الطيار ذي التوجه الناصري عارف عبد الرزاق، التي استهدفت أولاهما الإطاحة بعبد السلام نفسه، وسعت الأخرى للقضاء على حكم أخيه، فيما يكاد يكون معروفاً للقاصي والداني، وما كشفته منشوراتهم ذاتها.

ثم ما لبث بعد عام واحد أن حلّت أم الكوارث: الهزيمة الساحقة لمصر في الخامس من حزيران عام (١٩٦٧م)... كنت أجلس في مكتبة المتحف في الموصل عندما جاء من يخبرنا بأن الحرب قد اشتعلت بين مصر وسوريا من جهة، وإسرائيل من جهة أخرى... فلجأنا إلى الراديو لمتابعة الأنباء... كان رد فعلي المبكر، فرحة طاغية تملكتني وكل الموجودين معي في المكتبة، على وقوع ما كنا ننتظره منذ زمن بعيد: إعلان الحرب على إسرائيل واجتياز سيناء وصولاً إلى غزة، ثم اكتساح الدولة اللقيطة... وكانت أخبار وبيانات إذاعتي القاهرة وصوت العرب المبكرة في ذلك الصباح توحي بهذا الأمل، حيث راحت طائرات

العدو تتساقط الواحدة تلو الأخرى والجيش المصري يتقدم سريعاً مجتازاً صحراء سيناء في طريقه لاختراق العمق الإسرائيلي... ولكنها لم تكن سوى نشوة عابرة لم تستمر سوى دقائق معدودات، حيث ما لبث أن تبين لنا الهزيمة الساحقة التي منيت بها القوات المصرية، بدءاً من تدمير غطائها الجوي الذي كان جاثماً على الأرض، وقادته يسهرون ويعربدون مع راقصات مصر... ومروراً بالزحف الإسرائيلي السريع الذي دمرّ في طريقه ما اعترضه من جند مصريين يحاولون الهرب من الجحيم، وصولاً إلى حافة السويس حيث تمركز هناك، وحيث لم تعد أكاذيب ومبالغات إذاعتَي القاهرة وصوت العرب تنطلي على أحد، ولم يعد يجدي توسّل المغني عبد الحليم حافظ بالمقاتل المصري أن يأتيه بنصر ولو ضئيل... أي نصر على الإطلاق:

بابا يقولك يا بطل هات لي انتصار!!

انقلب الفرح السريع حزناً دائماً، وراحت الهزائم تتوالى على الجبهات الأخرى، حيث تم اكتساح الضفة الغربية والقدس، وسيطرت القوات الإسرائيلية ـ تحت غطاء مؤامرة سورية طائفية خبيثة ـ على هضبة الجولان، التي كانت تتحكم بالعمق الإسرائيلي، وحيث أعلن راديو دمشق عن سقوطها قبل وقوعه بساعات طوال... لقد مورست بحق مصر واحدة من أقذر الأساليب السياسية في التاريخ المعاصر، عندما أصرّ الاتحاد السوفياتي على مصر ألّا تبدأ الضربة فتكون البادئة بالعدوان، وبذلك فوتت عليها فرصة الضربة الأولى التي تحسم الموقف، وسلمتها ليد إسرائيل... أما دور العراب الأمريكي والصليبية الأوربية فلا يكاد يخفى على أحد.

ما لبثت مصر وسوريا أن وافقتا على عرض مجلس الأمن بوقف القتال، عبر اللحظة النموذجية للانتصار الكامل للخصم، فيما يمكن اعتباره ـ إذا استخدمنا منطق القانون ـ الجريمة الكاملة... وكنا نحن الذين لا خبرة لنا بالحرب والقضايا الاستراتيجية والتعبوية والسوقية... نقول ونتساءل: لماذا يحدث هذا الذي تريده إسرائيل بالضبط؟ وماذا لو لم توافق الدولتان

العربيتان على وقف إطلاق النار؟ أكان بمقدور القوات الإسرائيلية المحدودة العدد، والمنهكة عبر قتال الأيام الستة، أن تنساح في أراضي مصر وسوريا... إلى كل شبر فيها؟ ألا يعرضها هذا للهزيمة الشنعاء بسبب ما يمكن أن تقوم به الشعوب نفسها، وبؤر المقاومة فيها من إلحاق الدمار بالجيوش الإسرائيلية؟ ولكن الجواب سرعان ما يجيئنا واضحاً، بيناً لا ريب فيه: إن حكامنا لا تهمهم الهزيمة بقدر ما يهمهم الاحتفاظ بمناصبهم العليا، ولن يتحقق ذلك إلا بمنح إسرائيل فرصتها الذهبية للقطاف: بوقف إطلاق النار في اللحظة المناسبة تماماً!!

بعد حوالي الشهر من الهزيمة، أتيح لي أن أسافر إلى مصر لإكمال دراستي للدكتوراه.. دخلت القاهرة لكي أراها وقد اعتصرها الهم والحزن، ووضعت أكياس الرمل على مداخلها كافة، وألصقت بواجهاتها الزجاجية أشرطة الورق المصمغ خشية من أي هجوم محتمل من إسرائيل... حيث كانت ما سمي بحرب الاستنزاف قد بدأت، وضرب بعرض الحائط اتفاق وقف إطلاق النار... وكانت إسرائيل هي البادئة دوماً، كما هو شأنها حتى ذلك الوقت.

اخترت فندق (كراند أوتيل) الأنيق للإقامة فيه... بسبب وجوده في قلب العاصمة عند ناصية الالتقاء بين شارعي سليمان و(٢٦) يوليو، حيث الحركة والناس والمقاهي والمطاعم والأسواق التي تحيط به من كل جانب... في مساء اليوم الأول لوصولي اعتصرني الحنين إلى أهلي وبلدي وأصدقائي، وكنت وأنا أتجول في شوارع القاهرة وأحيائها وأنظر إلى نوافذ بيوتها وشققها المضاءة؛ أشعر بالحسد إزاء كل أولئك الذين يأوون إلى كنف أهليهم وأطفالهم وعوائلهم... ولكن هذا الاحساس المرير بالحنين، ما لبث أن أخذ يتلاشى عبر الأيام التالية، حيث انغمرت بالعمل، وشكّلت جملة من العلاقات الودّية مع عدد من الأصدقاء العراقيين والمصريين والفلسطينيين.

كانت خطوتي الأولى يوم وصولي هي أن ألتقي بالزميل الأخ (محمد صالح القزاز: الدكتور فيما بعد)، والذي ذهب وعائلته في حادث سيارة أودت بهم

جميعاً بعد عودته إلى العراق، (رحمهم الله جميعاً) لأنه كان بحق مختار العراقيين والموصليين خاصة، بصدره الرحب، وروحه التعاونية، وسخائه العجيب، واحتضانه لكل من يطرق بابه من الغرباء... فما لبث أن استقبلني ببشاشته المعهودة، ومدّ لي سفرة العشاء، ثم شرح لي الطريق الذي أسلكه في ذهابي إلى بيت أستاذي المشرف (الدكتور حسن حبشي) ﷺ، حيث تم اللقاء في أجواء غاية في المودة والأريحية، وعرضت عليه جانباً من الفصول التي أنجزتها في بلدي، وتلقيت منه جملة من التوجيهات، وضربت معه موعداً للقاء قادم. ثم غادرت الدار عائداً إلى الفندق فرحاً سعيداً بما حققته من إنجاز.

لكن ما أغاظني أن ألتقي عنده بطالب ماجستير موغل في العمر يدعى (عبد القادر طليمات)، الذي كان ينجز رسالته في دراسة وتحقيق كتاب (الباهر في تاريخ الدولة الأتابكية في الموصل) للمؤرخ ابن الأثير، واستفزني للدخول معه في نقاش حول موقف ابن الأثير المتحامل ضد الناصر صلاح الدين، وتأييده لهذا الموقف. فلما بينت له خطأ موقفه هذا، وأفحمته بجملة من الوقائع التاريخية والبراهين، إذا به ينفعل فجأة ويتهمني بالتعالي والغرور، وهما صفتان مما كنت أرفضهما بل أحتقرهما عبر حياتي كافة... فرددت عليه بعنف وأسكته منهياً جدلي معه بأنه رجل موغل في العمر ينظر إلى غيره من الشباب نظرة ملؤها الغيرة والحسد... ثم ما لبثت الأمور بيني وبينه أن عادت بعد أسابيع فحسب إلى الوئام والانسجام...

مضت الأيام بعدها وفق برنامج يكاد يكون ثابتاً، التوجه صباحاً إلى دار الكتب المصرية لمتابعة عملي في أطروحتي، والاطلاع على جملة كبيرة من المخطوطات، والتحدث إلى المحقق الكبير (فؤاد السيد رحمه الله) ثم العودة ظهراً لتناول الغداء، وأخذ قيلولة سريعة، ومغادرة الفندق مساء للقيام بجولات يومية، بمفردي، أو مع هذا الصديق أو ذاك، للاطلاع على كل زاوية من زوايا القاهرة التي تعج بالمتاحف والمتنزهات والآثار...

استيقظت في أحد أيام تشرين الأول، وألقيت كعادتي، وأنا في طريقي إلى

دار الكتب، نظرة على مانشيتات الصحف المصرية، فإذا بها تجمع وبالبنط العريض على هذا الخبر (انتحر المشير). فما كان مني إلا أن اشتري صحيفة منها لمتابعة هذا النبأ المثير، فإذا بها تجمع على أنه كان يشد على بطنه قرصاً من تلك التي إذا ابتلعها الإنسان أودت بحياته... وأن تقرير اللجنة الطبية التي كشفت عن الجثة أكدت على هذا!!

قبل أيام قلائل كانت أجهزة المخابرات المصرية قد اكتشفت محاولة انقلابية بقيادة المشير وكبار زبانية الأمن والمخابرات والمباحث المصرية: شمس بدران، وصلاح نصر، وحمزة البسيوني، والروبي، وعدد من كبار الضباط، فتم القبض عليهم جميعاً وأودعوا المعتقلات نفسها التي أذاقوا فيها خصومهم الإسلاميين الويل والثبور الذي تعجز القواميس عن وصفه... أما المشير فقد فرضت عليه الإقامة الإجبارية في منزله، ووضع تحت رقابة صارمة، الأمر الذي انتهى به إلى هذا المصير المعتم في الدنيا والآخرة، بما كسبت يداه، ولدوره الخطير في إلحاق الدمار بجماعة الإخوان المسلمين وكل القوى والأحزاب الديمقراطية في مصر، ولكونه أحد أعمدة الانفصال، وهزيمة الخامس من حزيران.

أعلن عبد الناصر استقالته، ثم عاد فسحبها، فيما سُمّي بمسرحية (تقديم الاستقالة وسحب الاستقالة)، وكان رفيقه المشير يأمل الشيء نفسه... أن يعود ثانية لتسنّم منصبه الخطير في قيادة القوات المسلحة، وإدارة الأمن والمخابرات ووزارة الدفاع... ولكن عبد الناصر، كان يخشى دوماً التحرّش به في الماضي تحسباً من ردود أفعال الأجهزة العسكرية والمخابراتية والأمنية التي تأتمر بأمره... أما الآن فإنه وجدها فرصة مناسبة لإخراجه من السلطة، فلما تحرك هذا فيما قيل أنه محاولة انقلابية، ما كان من رفيق نضاله إلا أن يدس إليه من يقتله للتخلص من أذاه، ثم اتهامه بمحاولة الانتحار!!

ولكن العبرة لا تكمن هنا فقط، وإنما في إنشاء محكمة خاصة لمحاكمة كل أولئك المشاركين معه، والذي تولوا كبر قتل وإبادة وتعذيب الإخوان المسلمين، من

أمثال صلاح نصر، وشمس بدران، وحمزة البسيوني، والروبي، وغيرهم، فكنت أشتري الصحف يومياً لمتابعة ما تشهده تلك المحكمة من مرافعات، وللدور الواسع الذي أعطي للإخوان الذين غدر بهم لكي يدلوا بشهاداتهم... وأردد مع نفسي: جلّت قدرتك يا رب، يا من تعرف كيف تمكر بخصوم دعوتك، وتكيد لهم، حتى توردهم موارد الهلاك... فها هو صلاح نصر يعاني من عذاب السنين الطوال، وهو ذلك السمسار القذر الذي كان يوظف العديد من الفنانات والممثلات والراقصات في مهماته الاستخبارية، وكأن رئيسه عبد الناصر لا يعرف عن قوادته شيئاً!!

عدت إلى الموصل في أواخر تشرين الأول لكي ألتحق بعملي معيداً في كلية الآداب... ثم العودة ثانية إلى القاهرة لإكمال عملي في الأطروحة والاستعداد للمناقشة... فما لبثت أن فوجئت بالعميد وهو يدعوني إلى مكتبي ويعلمني باختياري مدرّساً في كلية البنات التي افتتحها رئيس الجامعة الدكتور محمود الجليلي، في محاولة جادة منه لاحترام التقاليد الدينية الأصيلة لمدينة الموصل... حاولت في البدء الاعتذار عن قبول المهمة، إلا أنه أصر على موقفه قائلاً: ليس ثمة غيرك من يتولى أمراً كهذا، فصرت محاضراً في الكلية المذكورة في يومين فحسب، أدرّس في قسم اللغة العربية مادة السيرة النبوية، وأتفرغ في الأيام الأخرى لكلية الآداب، ولإنهاء عملي في الأطروحة. حتى إذا حان موعد العطلة الربيعية شددت الرحال وعدت ثانيةً إلى القاهرة لوضع اللمسات الأخيرة على الأطروحة تحت إشراف أستاذي الدكتور حسن حبشي، والتهيؤ للمناقشة، حيث كنت أتردد صباح كل يوم في ذلك الشتاء الرائع في القاهرة ما بين كليتي آداب جامعة القاهرة وآداب جامعة عين شمس... أما في المساء فكنت أمارس حياتي المعتادة للتخطي، وتناول الطعام، ومشاهدة المسرحيات وزيارة الأصدقاء.

حتى إذا ما أنجزت المطلوب اجتمعت بالمشرف لتحديد موعد المناقشة في أواخر شباط عام (١٩٦٨م)، أو بدايات آذار... إذا بعاصفة الغضب

المصري تنفجر على حين غفلة في الجامعات كافة: عين شمس والقاهرة والإسكندرية... معربةً ـ ربما لأول مرة ـ عن رفضها لمنطق القيادة المصرية في تبرير الهزيمة... ولسياسات الدكتاتورية والتدجين والقهر التي عومل بها الشعب المصري السنين الطوال... بل إن بعض الهتافات كانت موجهة مباشرةً إلى عبد الناصر وضد وزير داخليته الطاغية شعراوي جمعة الذي تلقى من المتظاهرين أقبح الأوصاف.

كنت يومها في كلية آداب عين شمس، وتعمدت أن أشارك الجماهير غضبها واحتجاجها، حيث كانت الأبواب الخارجية لحدائق الجامعة قد أقفلت، وطوقت بالدبابات، وبحزام من رجال الشرطة الذين راحوا يطلقون القنابل المسيلة للدموع لإرغام المتظاهرين على الانفضاض، فكنا نقوم بين دقيقة وأخرى بالتقدم نحو الشرطة ونحن نرفع احتجاجاتنا ثم ما نلبث أن نتراجع قليلاً إلى الوراء. حتى حان المساء وانفض السامر كما يقولون، وغادرت الكلية فإذا بي أجدني قبالة الشوارع المهجورة، وآثار التظاهرات الجماهيرية وحواجز منع المرور منتشرة فيها، وكنت مع إحساسي بالفرح العميق على أن المصريين تمكنوا أخيراً من أن يقولوا: لا لحكامهم...

إلا أن إحساساً آخر كان يوازي هذا الإحساس... إنه الشعور بالحزن والإحباط على ضياع فرصة المناقشة وربما لفترات قد تطول كثيراً... ورغم أن عبد الناصر أراد امتصاص زخم الغضب الشعبي، بأن أعلن عن استعادة محاكمة الضباط الجويين وزيادة عقوباتهم، في محاولة منه للإيهام بأنهم هم وراء سبب الهزيمة، إلا أن ذلك لم يعبر على المصريين الذين كانت ثورتهم تستهدف القيادة العليا نفسها...

ومرت الأيام ثقيلة متباطئة، وأنا ممن يقتلهم الفراغ يشدّد عليهم النكير، ويضعهم في معظم الأحيان في دائرة الملل والاكتئاب، فكنت أنتقل من مقهى إلى مقهى، ومن مكان إلى آخر دونما أي قدر من الإحساس بطعم الأشياء...

ولقد كتبت بذلك إلى أحد أصدقائي الفنانين في الموصل رسالة مطولة آثرت نشرها في مجلة (الأقلام) العراقية بعنوان (رسائل إلى فنان).

وكنت أتردد على أستاذي المشرف لكي أعرف منه ما الذي سيتم اتخاذه بخصوص المناقشة، فإذا به بعد أسبوع أو عشرة أيام، يعلمني والبشر يطفح في وجهه، بأن عمادة الكلية قد وافقت على إجراء مناقشتي صبيحة السادس من آذار في إحدى قاعات الكلية نفسها، والسماح فقط بدعوة عدد من الأصدقاء... أما الطلبة والحضور فلم يكن مسموحاً لهم بدخول الجامعة لأسباب أمنية.

وجاء اليوم الموعود، وجرت المناقشة التي أشرف عليها الأستاذ الدكتور عبد الهادي أبو شعيرة، وشارك فيها الأستاذ الدكتور إبراهيم العدوي، الذي سبق له أن مارس التدريس بكلية التربية في جامعة بغداد عندما كنت طالباً هناك... فضلاً عن الأستاذ الدكتور حسن حبشي (المشرف على الأطروحة)، وسارت الأمور وسط أجواء من المودة والانسجام والنقاش الهادئ... ثم ما لبثت الجلسة أن رفعت لكي تعلن النتيجة بعد دقائق معدودات: الحصول على الدكتوراه بدرجة الشرف، وهي أعلى الدرجات التي تمنحها الجامعات المصرية.

غادرنا القاعة لكي نلتقط عدداً من التصاوير التذكارية، ولكي أضرب موعداً مساء اليوم نفسه للذهاب إلى بيت أستاذي الدكتور حسن حبشي شاكراً وموِدّعاً... حيث مدّ لي ولعدد من الأصدقاء مائدة عشاء عامرة... وجلس هو يحدثنا ولا يكاد يتناول شيئاً، بسبب من متاعبه الصحية ونصائح الأطباء له بألا يأكل سوى الخبز المحمص واللبن... والحقّ أنني إذ تألمت كثيراً لذلك كنت أخمن أن حياته، وقد أوغل في العمر لن تستمر بعد ذلك طويلاً... ولكني بعد ذلك بأكثر من ثلاثين سنة أفاجأ بسلام يصلني منه عن طريق الأخ الدكتور أحمد الحسّو... فسألته دهشاً: أو لا يزال الرجل حياً؟ قال: نعم، ولكن وضعه لا ينبئ بخير... ثم ما لبث بعد فترة قصيرة... أن توفي رحمه الله...

استكملت الأمور الإجرائية بخصوص الموافقات الرسمية على الدكتوراه

خلال يومين فحسب، وفي اليوم الثالث الموافق (٨ آذار عام ١٩٦٨م) قفلت عائداً إلى بلدي لكي أتلقى تهاني الأهل والأقرباء، ولكي ما ألبث أن أجدني فجأة أمام إحساس هائل بالفراغ... ورحت أتساءل مع نفسي وأنا غارق في دوّامات الملل والاكتئاب: ما الذي جرى؟ ففي يوم فرحك الكبير، حيث تُوِّجت جهود أكثر من عشرين سنة من الكدح الدراسي بحصولك على الدكتوراه بأعلى الدرجات ينكسر هذا الفرح ويتحول إلى حزن عميق... وإحساس قاس بالفراغ؟

ولكني سرعان ما عثرت على الجواب: لقد كانت حياتي عبر عشرين عاماً ملأى بالرغبة في التفوق الدراسي، واجتياز مراحله واحدة بعد الأخرى، فلما أنجزت المطلوب ولم يبق ثمة أمامي ما يدفعني إلى هدف جديد أحسست بذلك الفراغ القاسي الذي أفقدني تذوّق طعم الأشياء، واستمر يحاصرني لأسابيع طوال... ويوحي لي بأنني لست في مكاني... لماذا؟ لا أدري... فرحت أخرج مساء كل يوم من البيت للتجوال وحدي في الشوارع المحيطة بالدار بحثاً عن نقطة ما أرتكز عليها في تعاملي مع الظواهر والأشياء... وعبر علاقاتي مع الناس... ولكن دون جدوى... وتذكرت المقولة المعروفة: (ماذا لو ملك الإنسان الدنيا وخسر نفسه؟) فقلت في نفسي: ها أنا ذا أحقق المطلوب، ولكني أفقد السكينة والفرح والاطمئنان.

وسرعان ما تبين لي أن إرادة الله ﷻ، شاءت لي ذلك، لكي تدفعني إلى الردّ المتواصل الذي سيقدّر له أن يملأ حياتي كلها، ويمنحها طعماً... وأن يعيد إليّ فرحي الضائع، وأن يجعلني مشروعاً مفتوحاً ليس ثمة محطة نهائية يقف عندها إلى آخر مرحلة من حياته: إنها الكتابة والتأليف والإنجاز... ولا زلت أذكر كيف عبّرت عن ذلك في قصة قصيرة كتبتها في تسعينيات القرن الماضي بعنوان (رحلة الصعود التي لا نهاية لها)، وهي تتحدث عن موظف طموح بذل جهداً مستميتاً لكي يبلغ درجة المدير العام للدائرة التي يعمل فيها، فلما تحقق له هذا، إذا به يحسّ فجأة بفراغ هائل يحيط به، وبكآبة ثقيلة موحشة تملأ عليه أقطار نفسه... فما كان منه إلا أن أخذ يعمل فكره في عبث الكدح البشري الذي

يستهدف الوصول، حتى على حساب القيم الخلقية والإنسانية التي يؤمن بها، ثم لما يصل يجد نفسه قبالة اللا شيء، بكل قسوته وبشاعته وعبثيته... وحينذاك قرر أن يغيّر مجرى طموحه باتجاه الآفاق المفتوحة التي لا نهاية لها... آفاق الإيمان الذي يفتح الأبواب الموصدة أمام الإنسان إلى الحركة الدائمة، والعطاء الموصول، من أجل رضا الله ﷻ... إنها بحق، وكما أسميت بها القصة (والمجموعة القصصية كلها): (رحلة الصعود التي لا نهاية لها)!!

وطالما تساءلت بيني وبين نفسي: ما الذي أنقذني مراراً من الموت المحقق غير إرادة الله ﷻ؟ ما الذي أخرجني سالماً من خمس عمليات جراحية كبرى أوشكت في كل منها على مفارقة الحياة، غير إرادة الله؟ ما الذي مكنني من كتابة وتبييض آلاف الصفحات، رغم ما كنت أعانيه عبر كتابة كل سطر من ضيق قاس في النفس، وثقل في الكتف الأيسر، ومتاعب جمة في القلب، وانسداد في الصمام، غير إرادة الله ﷻ؟

إنها إرادة الله ﷻ هي التي ترسم خرائط حياتنا بتفاصيلها الكاملة... وهي التي تقرر مصائرنا... وهي التي تقودنا عبر الطريق... وترعانا، وتحرسنا من الأذى... والمخاطر... والموت!! لحكمة يريدها الله ﷻ... أفلا نكون أوفياء معه جلّ في علاه... ونمحض حياتنا... نؤمم كل دقيقة للجهد المثابر الموصول من أجل إعلاء كلمته في الأرض؟

وهكذا وبهذه الرؤية الواضحة النقية كالبلّور... جابهت دوّامة الفراغ التي كادت أن تفترس حياتي... أخرجتها من حساباتي... وبدأت رحلة الصعود التي لا نهاية لها...



الفصل الخامس

١٩٦٨ ـ ١٩٧٧م

في السابع عشر من تموز عام (١٩٦٨م) شهد العراق انقلاباً عسكرياً ضد حكم عبد الرحمن عارف، قاده البعثيون بمعاونة عدد من كبار ضباط المخابرات والقصر الجمهوري الذين أغرتهم السلطة، واطمأنوا لوعود البعثيين، فخانوا الأمانة، وانقلبوا على رئيسهم وشاركوا في الانقلاب... بعضهم من ذوي التوجه الوطني، وبعضهم من ذوي التوجه الإسلامي، ومعظمهم من المستقلين.

لم يدم هذا الائتلاف المصطنع سوى أسبوعين فحسب، إذ ما لبث المكر البعثي أن أحاق بكل المتعاونين معه، من خارج دائرته، قتلاً ونفياً وإبعاداً وتشتيتاً في الآفاق... ففي الثلاثين من تموز أعلن عن انقلاب ثان تفرّد فيه قادة البعث، وعلى رأسهم أحمد حسن البكر وصدام حسين بالسلطة.

كنت أتابع أنباء الانقلابين يوماً بيوم وساعة بساعة، في الإذاعات والصحف، وأنا أتذكر إحدى جلساتنا في مقاهي الموصل بعد انقلاب تشرين عام (١٩٦٣م)، الذي أطاح بالانقلاب الأول لحزب البعث بقيادة عبد السلام عارف... كنت وصديق آخر نتحدث عن مجريات الأحداث معلنين عن غبطتنا بزوال حكم البعث الذي أذاق العراق الأمرين على مدى بضعة أشهر من تسلمه السلطة، على يد جلاوزته من قادة الحرس القومي، وكنا نحاول أن نغيظ بكلامنا هذا الشاعر البعثي عبد المحسن العقراوي، الذي ما لبث أن تملكه الانفعال، وضرب المائدة بكلتا قبضتيه وقال مؤكداً: ولكننا سنعود مرةً أخرى... أقسم لكما أننا سنعود!!

لم يكن العقراوي، ذو المزاج الشاعري المتقلب، والذي ذهب هو نفسه

ضحية البعث بعد سنوات قلائل، يعرف شيئاً عن المكر الدولي وألاعيبه ومؤامراته... فإذا كان البعث باعتراف قائده الأعلى (علي صالح السعدي) قد جاء في المرة الأولى (على قطار أمريكي)، فما الذي يمنع من أن يستقل قطاراً آخر أمريكياً، أو إنكليزياً لكي يوصله ثانية إلى السلطة التي يتعشقها، وهو مستعد أن يقدم أي تنازل، معلن أو خفي في سبيل الإمساك بها؟

وبالفعل ما أن مضت أيام قلائل حتى سمعنا باغتيال الدكتور ناصر الحاني أحد وزراء انقلاب (١٧) تموز في بيروت، وقيل يومها، فيما يكاد يشبه الإجماع، أنه كان حلقة الاتصال بين تنظيمات قيادة الانقلاب وبين السفارة الأمريكية في بيروت... قضوا عليه، وفق طرائقهم المعروفة، قبل أن ينكشف الستر.

ثم ما لبثت الأسابيع التالية للانقلاب أن شهدت محاكمات رجالات العهد السابق، واعتقالهم، وتعذيبهم، وتصفيتهم الواحد تلو الآخر... وكان قصر النهاية، وهو في الأصل قصر الرحاب الملكي، الذي حوّله البعثيون إلى سجن رهيب؛ قد تولى أمر الإشراف على ما يشهده من شناعات: مدير الأمن العام، الرجل الدموي ناظم كزار، خريج معهد الهندسة الصناعية، والذي سبق وأن شارك معنا في عام (١٩٦١م) في ملحمة الصراع ضد الشيوعيين، بمعية حشد من طلبة المعهد المذكور، بحكم قرب المعهد من كلية التربية.

كان تلفزيون بغداد يعرض التحقيقات التي كان يجريها مع المتهمين محمد سعيد الصحاف، المدير العام للإذاعة والتلفزيون (وهو أحد خريجي كليتنا، قسم اللغات، وكان معروفاً عنه يومذاك أنه من البعثيين الوجوديين الملاحدة، حتى أنه في إحدى التظاهرات المشتركة ضد عبد الكريم قاسم، راح يصرخ في المتظاهرين طالباً منهم أن يكفوا عن رفع أصواتهم بنداء الله أكبر، لأن نداء كهذا (يزعجهم)!! ثم ما لبث بعد أن تولى أمر الإذاعة والتلفزيون أن انجرف وراء شهواته مغطياً إياها بحرصه المصطنع على سلامة الثورة، واستفزازه المتواصل لأولئك الذين وضعتهم الأقدار بين يديه... فيما بعد تولى وزارة الإعلام، حيث من بين كل رجالات البعث السابق الذين

اعتقلتهم السلطات الأمريكية المحتلة عام (٢٠٠٣م) فما بعد، غادر العراق معززاً مكرماً، في طريقه إلى الإمارات العربية المتحدة بصحبة أحد إعلامييها، ولا يزال هناك.

ووفق التكتيك البعثي المعروف أعلن في شتاء عام (١٩٧٠م) عن مؤامرة مزعومة ألقي القبض فيها على حوالي الخمسين من الضباط والقيادات الإسلامية والمستقلة، وأعلن عن تنفيذ أحكام الإعدام بهم، بما فيهم الشهداء عبد الغني شندالة، والشيخ عبد العزيز البدري الذي سبق وأن تعرّفت عليه والتقيت به أكثر من مرة وتابعت خطبه الرائعة في جامع الصرافية، فضلاً عن العقيد محمد فرج وآخرين...

بعدها بأسابيع قليلة تم تشكيل تنظيم إسلامي بقيادة الشهيد صالح سرية ﷺ أعلن لمجابهة النظام، وجاء إلى الموصل واتصل بنا في أحد جرادغها، ولمّح بأهداف التنظيم، الذي ما لبث أن انكشف، حيث تمكن سرية من الهروب إلى مصر لكي يقود هناك محاولته الفاشلة في الكلية العسكرية ضد نظام السادات، والتي انتهت بإعدامه.

ما لبث الأمر أن استقر بشكل محكم لصالح حزب البعث الذي راح يطمح، وقد بدأ انقلابه بثلة معدودة من الضباط وبحزب لم يتجاوز أفراده في العراق كافة التسعمائة عدداً... أن يوسع قواعده في المؤسسات والمدارس والجامعات فضلاً عن الجيش والشرطة والأمن، حيث عهد بتصفيتها للرفيق طه ياسين الجزراوي، الذي لم يكد يبقي على ضابط مستقل واحد في عموم التشكيلات العسكرية في العراق.

الأمر نفسه شهدته الجامعات العراقية، في محاولة مستميتة لتدجين أساتذتها كافة وجعلهم ينتمون لحزب البعث ويسجلون عضويتهم فيه، بالترغيب والترهيب.

وبدأت مرحلة الصراع القاسي الذي لا يرحم، وعلى مدى عشر سنوات (١٩٦٩ ـ ١٩٧٧م) ضد محاولات اتحاد الطلبة، وانتهازيي الأقسام العلمية من الأساتذة أنفسهم، وبدأت مرحلة كتابة التقارير اليومية التي كان مدبجوها

يتهمون فيها خصومهم من الإسلاميين والمستقلين والقوميين بسيل من التهم الملفقة والأكاذيب المبالغ فيها... وللأسف فإن هؤلاء الخصوم لم يحاولوا أن يتجمعوا في تنظيم يلمّ طاقاتهم جميعاً وينسق بينها، والتي راح كل واحد منهم يدافع عن نفسه ويقاوم الإغراء والتهديد بما يقدر عليه... الأمر الذي دفع العديد منهم في نهاية الأمر إلى الاستجابة للضغوط التي لا تطاق، والتوقيع على استمارة الانتماء...

ومنذ اللحظة الأولى اتخذت من جهتي موقفاً لا مهادنة فيه على الإطلاق: ليس فقط في رفض التدجين، وعدم الاشتراك في أية تظاهرة أو استقبال لمسؤول حزبي أو مناسبة سياسية على الإطلاق، وإنما أيضاً بالهجوم المدروس على مرتكزات الفكر القومي العلماني في محاضراتي وكتاباتي داخل العراق وخارجه... فلما أعلن عن قيام الجبهة القومية والوطنية الديمقراطية في العراق، في بداية السبعينيات، وكان من بين المنتمين إليها الحزب الشيوعي العراقي، انتهزت الفرصة بهجوم شبه يومي في محاضراتي على ما يعانيه الفكر الشيوعي من تناقضات ستقوده يوماً إلى السقوط، الأمر الذي جعل العديد من الشيوعيين من طلبتي يتذمرون ويحاولون مناقشتي، ولكني كنت أفحمهم فيضطرون للسكوت على مضض، مما دفعهم إلى رفع شكوى ضدي محتمين بغطاء الجبهة، إلى قيادة تنظيمهم المحلي في الموصل، الذي ما لبث أن أصدر حكمه السرّي بإعدامي حيثما أتيحت له الفرصة... ولقد بلغني هذا الإجراء، فلم يثنني عن الاستمرار في الهجوم على الشيوعية وأفكارها وتوجيه النقد المرير إليها.

ليس هذا فحسب، بل إن القيادات العليا لحزب البعث في بغداد، لا أدري جهلاً أم تقرّباً للفكر الشيوعي، أم تعبيراً عما تكنه أنفسهم وقناعاتهم الخاصة... سلّمت مهمة التخطيط لمناهج العلوم الإنسانية في الجامعات العراقية، للأستاذ محمد توفيق حسين ذي الميول الشيوعية، فأصدر بياناً عاماً أطّر فيه لطرائق التعامل مع هذه العلوم واستئصال الفكر الغيبي من شرايينها... وهو موقف يعكس

بوضوح الرؤية الماركسية التي ترفض الغيب ابتداء وتتناقض حتى مع أطروحات حزب البعث التي طالما أكدت على تشبثها بالإيمان!!

كنت يومها قد اتفقت مع إحدى دور النشر في بغداد على جملة من الدراسات والبحوث الموجزة على شكل كراريس صغيرة سريعة التداول... فما كان مني إلا أن أضيف إليها رداً على أطروحات (محمد توفيق حسين) الإلحادية رسالة تحمل عنوان (ما الذي يعنيه رفض الغيب؟) بأسلوب علمي يضع النقاط على الحروف ويكشف عن ازدواجية الفكر البعثي بين الإيمان والإلحاد... وأن الغيب هو مرتكز العقيدة الإسلامية، والذي يرد كتأسيس لها في مطلع سورة البقرة: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ١ ـ ٣]...

ولقد لقي هذا الكراس والكراريس الأخرى التي صدرت تحت عنوان (خطوات في عالم الإسلام الرحيب) رواجاً كبيراً بفضل الله ﷻ، الأمر الذي جلب انتباه أحد تدريسيي القسم من اللاعبين على الحبال، والذي بدأ حياته شيوعياً يوم كانت الشيوعية تغزو الموصل، ثم تحوّل إلى الفكر القومي يوم أن أصبحت لعبد الناصر الكلمة الأولى في توجيه الشارع العربي... ثم ها هو ذا يتحول إلى البعث يوم أن تسلّم هذا الحزب مقاليد السلطان... فما كان منه إلا أن يرفع تقريراً إلى الجهات المعنية يبين فيه خطورة هذا الكراس، والكراريس الأخرى، الأمر الذي دفع رجال الأمن إلى لمّها من الأسواق ووقف صدور السلسلة.

لكن ولحسن الحظ، لم يقدّر للجبهة القومية والوطنية الاستمرار، بسبب إدراك الحزب الشيوعي أنها مجرد واجهة لتبرير تفرّد حزب البعث بالسلطة، وكشف الشيوعيين، ووضعهم تحت المجهر... ومع ذلك فإن لعبة الإلحاد وتضييق الخناق على الطرح الإسلامي الأصيل في الجامعات العراقية استمرت... وبقدر تجربتي المرة في قسم التاريخ؛ فإنني عايشت أربعة أو خمسة من تدريسييه كانت أفكارهم التي يطرحونها في محاضراتهم أمام الطلبة، أو عبر السيمنارات التي يعقدها الأساتذة، تنبض بالرؤية الشيوعية، والصراع

الطبقي، وتتنفس الإلحاد والتفسير المادي ورفض الفكر الغيبي، ولكنهم بسبب من انتهازيتهم سرعان ما انتموا لحزب البعث، ومن أجل تأكيد ولائهم له راحوا يكتبون التقارير ويمارسون الاضطهاد الفكري ضد كل من يرفض الانتماء للحزب... أصبحوا كما يقول المثل (ملكيين أكثر من الملك) بل إن أحدهم وهو (الدكتور خضر الدوري) الذي اغتيل في بغداد في ثمانينيات القرن الماضي، في حادث سطو على سيارته الفاخرة، كان يجاهر بأفكاره الماركسية، ويهاجم حركة الفتوحات الإسلامية بأنها استعمار للشعوب الفارسية المضطهدة، ويندفع في الوقت نفسه في سلّم الترقيات الحزبية، حتى أنه استدعي إلى وزارة التعليم العالي في بغداد ليكون بمنصب مدير عام التفتيش في الوزارة...

ولقد استمر صراعي المباشر معه سنوات طويلة فكنت أتصدى له في كل ما يقول... ويوماً، وهو يطرح فكرة أن الرسول ﷺ نفسه كان يمارس الغزو أسوةً بالحملات الاستعمارية، في محاضرة عامة للأستاذ المصري الدكتور عبد المنعم ماجد، فرفعت يدي وقلت له: لقد أسأت بكلامك هذا إلى شخصية الرسول ﷺ، وقلت له ما يستحق من تحقير، الأمر الذي جعله يلملم أوراقه ويترك القاعة.

وطالما طلب مني تحويل مكتبي في الكلية من مكان إلى آخر، وكانوا حريصين في كل مرة ألا يتركوني وحدي في المكتب، وأن يلحقوا معي أحد التدريسيين، ذلك أن كثرة زواري ومُراجعيّ من الأساتذة والأصدقاء والطلبة والطالبات كان يزعجهم، فكان أعضاء الاتحاد الوطني يدسّون أنوفهم بين الحين والحين، ويفتحون الباب عنوة للتأكد من أني لا أمارس شيئاً ضدهم مع المراجعين والزائرين، حيث كنت أعلق فوق رأسي لوحة خطية جميلة تتضمن الآية الكريمة ذات الدلالة: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ﴾ [آل عمران: ١٤٠] فيما كان يستفزهم لأنهم أدركوا مراميها. وكانوا وهم يلقون نظراتهم تجاهي تنضح وجوههم بالكراهية والمقت... ولا زلت أذكرهم واحداً... واحداً... بعضهم ممن أدرك فيما بعد خطأ موقفه، فحاول تصحيحه من خلال التقرّب إليّ ومجاملتي ودعوتي للمشاركة في مناقشة رسائلهم وأطروحاتهم فكنت أعتذر

عنها، وبعضهم الآخر ممن أدرك سخف اللعبة التي كانوا يمارسونها بحقي، ففاء إلى حظيرة الإيمان وأصبح ممن لا تفوتهم صلاة!!

ولا زلت أذكر أحد أصدقائي ممن تربطه بالمسؤول الأمني لجامعة الموصل رابطة مصاهرة... جاءني يوماً لكي يقول أن صهره، قد ملّ أكداس التقارير التي رفعت ضدك من قبل (فلان) و(علان) من أعضاء الاتحاد، حتى أن أحدهم جاءه يوماً بما يقرب من حقيبة يد مترعة بالتقارير المسمومة، فكان يمزقها ولا يرفعها إلى الجهات المعنية... ولم يكن الهدف من وراء ذلك كله الحرص على مطالب الحزب، وإنما هي المصالح الذاتية التي تؤمّل في الصعود الرخيص من خلال التضحية بالآخرين.

ولا زلت أذكر، أنني بعد عودتي من الأردن، بُعيد الاحتلال الأمريكي القذر للعراق، تلقيت نسخاً من التقارير الأمنية التي كتبت عن سلوكي الجامعي المضاد... بالحق والباطل... وهذه بعض نماذجها... وفق تسلسلها الزمني:

مديرية أمن لواء الموصل — سرّي

الجنائية — <u>٤٦٠٨</u>

الرقم ٨٢١ — ٩٦٢/٦/٤

التاريخ ١٩٦٢/٦/٣

إلى متصرف لواء الوصل

الموضوع/القبض على طلاب وبحوزتهم نشرات الإخوان المسلمين

أمس ظهراً وبين محطة سامراء وتكريت، وأثناء تفتيش ركاب القطار الصاعد رقم (١٠١) القادم من بغداد للموصل من قبل مرتباتنا، عثر على ثلاثة نشرات لإخوان مسلمين ونشرة اتحاد الطلبة في العراق بحوزة كل من الطلاب عماد الدين خليل الحاج عمر طالب في الصف الرابع كلية التربية، ومن أهالي الموصل محلة السجن، وطاهر محمد سعيد البريفكاني طالب في كلية الآداب الصف الثالث ومن مدينة الموصل محلة المنصور، والأخير منذر مدب الزبيدي من أهالي الحلة طالب في ثانوية الصناعة بالمجموعة الثقافية.

ولدى التحقيق معهم اعترفوا بعائديتها لهم ونتيجة تقديم الأوراق التحقيقية إلى حاكم تحقيق الخفر قرر توقيفهم وفق المادة ١٤/١٥ من مرسوم الإدارة العرفية لغاية ١٩٦٢/٦/٦ وإجراء التحري الأصولي بدورهم هذا ولا تزال التحقيقات مستمرة. أرجو التفضل بالمعلومات.

مجيد عزت

و. مدير أمن لواء الموصل

صورة منه إلى:

- مدير الأمن العام ـ أرجو التفضل بالمعلومات وطياً صحائف أعمالهم.
- مدير شرطة لواء الموصل للعلم رجاءً.
- آمر مركز استخبارات الموصل.
- المعاون عبدالمجيد عزت ـ لإنجاز التحقيق.

اطلعت

و. المتصرف

٦/٣

بسم الله الرحمن الرحيم

مديرية أمن لواء الموصل

العدد ١٢١٥٨

التاريخ ١٩٦٦/٦/٢٦ م/تبليغ

إلى معاون شرطة الغزلاني

يرجى الأمر بتبليغ المدعو عماد الدين خليل عمر والساكن محلة السجن شغله مدرس بالحضور لمقر هذه المديرية شعبة السفر وإعلامنا.

عن ـ مدير أمن لواء الموصل

وزارة الداخلية
مديرية الأمن العامة
مديرية القيود السرية
العدد ١٧٧٢٧
التاريخ ١٩٦٦/٨/٢١

إلى ـ مدير أمن الموصل
م/سفر
كتابكم ٤٧٦٠ في ١٩٦٦/٧/٢٤

يرجى إجراء التحقيق السري الدقيق عن ميول ونزعات عماد الدين خليل عمر في الوقت الحاضر وإعلامنا للنظر في الطلب.

زياد جمال
مدير القيود السرية

صورة منه إلى:

ـ مدير المكتب السياسي ش٤	لبيان ما لديكم عنه حيث أنه مدرس معيد
ـ مدير المكتب السياسي ش٦	في دائرة نائب رئيس جامعة الموصل

ورأيكم حول سفره رجاءً.

بسم الله الرحمن الرحيم

معاونية أمن الساحل الأيسر

إلى مديرية أمن محافظة نينوى سري ومستعجل

الرقم ٣٨٩٩

التاريخ ٢٣ ك١ ١٩٧١

الموضوع ـ طلب معلومات

كتابكم / ق. س / ١١٠٥٨ في ٢٢ ك١ ١٩٧١

معلوماتنا عن المذكور أنه من الإخوان المسلمين وكان أمين للمكتبة المركزية في الموصل ثم كان في إنكلترا لإكمال دراسته بعدها عاد إلى الموصل، الآن في كلية الآداب ومن أشد الحاقدين على الثورة والحزب للتفضل بالعلم رجاء.

نقيب الأمن

ضابط أمن الساحل الأيسر

السيد المدير

أعلاه معلومات الأيسر حول الدكتور عماد الدين خليل عمر

للتفضل بالاطلاع وإبداء رأيكم

مديرية أمن محافظة نينوى

القلم العام

العدد ٧٥٨١١

التاريخ ١٩٧١/١٢/٢٥

الجمهورية العراقية

رئاسة لجنة التنسيق لمحافظة نينوى

العدد/س٧/٥١٧٤ **سرّي وشخصي**

التاريخ ١٩٧٢/١١/٣٠

إلى/مديرية أمن محافظة نينوى

م/معلومات

تفيد المعلومات الواردة إلينا من مصدر موثوق به.

أن جمعية رابطة العلماء فرع الموصل هي جمعية تضم حركات سياسية منها الإخوان المسلمين وحركة التحرير، وهي تتحرك بشكل واضح، وذلك من خلال توجيه الدعوات وإلقاء المحاضرات، وأن العناصر التي تحاضرهم هم الدكتور عماد الدين خليل والدكتور حازم عبد الله وهم من الإخوان المسلمين.

يرجى متابعة تحرك الرابطة المذكورة أعلاه وإعلامنا.

فليح حسن الجاسم

رئيس لجنة التنسيق لمحافظة نينوى

مديرية أمن محافظة نينوى

القلم العام

العدد ١٠٤٢٧٥

التاريخ ١٩٧٤/١١/٣٠

بسم الله الرحمن الرحيم

معاونية أمن الساحل الأيسر

العدد /ق س /٣٩٤٨ سري وشخصي

التاريخ ١٩٧٤/١٢/٢١

إلى مديرية أمن محافظة نينوى م/معلومات

كتابكم ق. س ٢١٢٨٥ في ١٩٧٤/١٢/١٥

وكتابكم ق. س / ٢٠٤٧٧ في ١٩٧٤/١٢/١

لدى جمع المعلومات عن رابطة العلماء فرع الموصل، تبين لنا أنها جمعية تضم الحركات الدينية السياسية، ومنها حركة الإخوان المسلمين، وترتبط مع هذه الجمعية جمعية شبان المسلمين، علماً أن مركزهم يقع في بناية في شارع الصديق قرب الفرع المؤدي إلى منطقة وادي حجر، وأن مسؤول الرابطة سابقاً هو المدعو عبد الرزاق الصفار، والذي يعمل بصفة مدير رعاية الأيتام قرب المستشفى الجمهوري. وتتحرك هذه الرابطة عن طريق فتح دورات القرآن الكريم في العطل الصيفية... أو عن طريق مدرسي اللغة العربية والدين الإسلامي. ومن أبرز العناصر النشطة هم الدكتور حازم عبد الله خضر الأستاذ في قسم اللغة العربية، وهو من أصل عربي يسكن في حي الأندلس حالياً علماً بأنه من أنشط العناصر في الجامعة. وكذلك الدكتور عماد الدين خليل الذي يعمل بصفة أستاذ مساعد في قسم التاريخ، وهو من أصل عربي يسكن محلة الفزلاني شارع رفعت الحاج سري. وأن المذكورين أعلاه يقومان بنشر أفكارهم على الطلبة بواسطة سلطتهم التدريسية، وقد تم وضعهم تحت المراقبة السرية للتفضل بالعلم رجاء.

م. أول الأمن

ضابط أمن الساحل الأيسر

مقدم الأمن

مدير أمن محافظة نينوى

مديرية أمن محافظة نينوى

القلم العام

العدد ١١٠٧٨٦

التاريخ ١٩٧٤/١٢/٢١

نسخة منه إلى:

ـ مديرية أمن المحافظات الشمالية/وطياً صورة كتاب رئاسة لجنة التنسيق للتفضل بالعلم رجاء.

ـ ضباط أمن الداخل/لاحقاً لكتابنا ق.س / ٢٠٤٧٧ في ١٩٧٤/١٢/١ ونرجو الاستمرار بمراقبة المذكورين وإعلامنا بكل ما يستجد لديكم من معلومات حول الموضوع.

بسم الله الرحمن الرحيم

الجمهورية العراقية

وزارة الداخلية سري للغاية

مديرية الأمن العامة

الشؤون السياسية

العدد / ش٥ / م٥/ ٣٥٣٤٦

التاريخ ١٩٧٧/٨/٢٧

إلى: مديرية أمن محافظة نينوى

الموضوع/طلب معلومات

وردت بالبريد العادي جريدة النور الصادرة في ١٩٧٦/٦/٣ بالمغرب عن جمعية البعث الإسلامي ومرسلة إلى الدكتور عماد الدين خليل الأستاذ المحاضر في جامعة الموصل ـ كلية الآداب، وقد لوحظ أن تلك الجريدة ذات اتجاه ديني متطرف معادي للاشتراكية. نرجو التحقيق السرّي لمعرفة ماهية علاقة المذكور بالموضوع أعلاه والتحقيق السري عن سيرته وميوله وعلاقاته وبيان ما مسجل لديكم ضده وإعلامنا رجاء.

عن/مدير الأمن العام

نسخة منه إلى:

ـ مديرية القيود السرية، نرجو بيان ما مسجل لديكم ضد المذكور.

ـ مديرية الشعبة الرابعة، وأعلامنا

مديرية الأمن العامة

القلم العام

العدد ٧٦٦٨٤

التاريخ ١٩٧٧/٨/٣٠

بسم الله الرحمن الرحيم

وزارة الداخلية

مديرية الأمن العامة

الشؤون السياسية

العدد/ ش٥ / م٢. ق٢ / سرّي ومستعجل

التاريخ ١٩٧٧/١٠/١٦

إلى مديرية أمن محافظة نينوى

الموضوع: تبليغ

كتابكم ١٤٤٦٧ في ١٢/أيلول/١٩٧٧

يرجى تبليغ موضوع البحث بالحضور إلى هذه الدائرة أثناء الدوام الرسمي بالسرعة الممكنة وإعلامنا.

عن/مدير الأمن العام

نسخة منه إلى:

- مديرية أمن الدائرة - الاستعلامات / للعلم رجاءً.

مديرية أمن محافظة نينوى

القلم العام

العدد ٩١١٣٢

التاريخ ١٩٧٧/١٠/١٨

من أمن نينوى ـ ١٢ التاريخ ١٠/٩/١٩٧٨

إلى / أمن الساحل الأيسر

رقم المنشئ / ٢٤٢٥٨ / لإجراء التحقيق السرّي الدقيق عن المدعو عماد الدين خليل عمر/ باحث علمي في كلية الآداب / جامعة الموصل / المؤسسة العامة للآثار وفق الفقرات المطلوبة والمعمول بها في التحقيق على أن يردنا جوابكم خلال (٤٨ ساعة) حتماً، أنبؤونا

ضابط الخفر

مديرية أمن محافظة نينوى ع ن/مدير أمن محافظة نينوى

المدقق المسؤول التاريخ ١١/٩/١٩٧٨

____

____

____

____

____

____

____

____

____

____

____

____

____

____

____

بسم الله الرحمن الرحيم

مديرية أمن محافظة نينوى

العدد س١٢/٢٤٦٣١

التاريخ ١٤/٩/١٩٨٣

إلى مديرية أمن الحدباء م/طلب معلومات

يرجى تزويدنا بالمعلومات المتوفرة لديكم عن الأساتذة العاملين في كلية الآداب جامعة الموصل والمدرجة أسمائهم أدناه والذين يسكنون المتحف الحضاري الواقع قرب تعبئة ابن الأثير وإعلامنا خلال ٤٨ ساعة لطفاً.

عن: مدير أمن محافظة نينوى

<u>الأسماء:</u>

١ ـ عماد الدين خليل / يعمل موظف في المتحف الحضاري

٢ ـ دريد عبد القادر نوري

إلى/أمن نينوى/١٢ ١٨/١٠/١٩٨٣

من الراصد أبي تمام

المنشئ / ٥٢٦١ / برقيتكم ٢٥٩٤٥ في ٣/١٠/١٩٨٣

لدى إجراء التحقيق السرّي الدقيق وجمع المعلومات عن السادة المدرجة أسماؤهم أدناه تبين لنا ما يلي للتفضل بالعلم رجاء.

رائد الأمن

مدير أمن أبي تمام

مديرية أمن محافظة نينوى

العدد ١٣٤٤٠

التاريخ ١٨/١٠/١٩٨٣

١ ـ دريد عبد القادر نوري / والساكن الشقق التابعة لجامعة الموصل المركز الثقافي، تبين أنه من ذوي الأخلاق الحسنة والسمعة الطيبة، ومن أصل عربي مستقل من المنطقة وله اتجاه ديني.

٢ ـ الدكتور عماد الدين خليل / كان سابقاً مدرس أستاذ في كلية الآداب قسم التاريخ ونقل قبل أربعة سنوات، وذلك لعدم صلاحيته للتدريس فكرياً، وحالياً يعمل باحث في مكتبة المتحف الحضاري بالموصل التابع لوزارة الإعلام ولا توجد لديه أية علاقة في جامعة الموصل، ولم تتوفر لدينا أية معلومات أخرى عنه.

ورقة تبليغ

مديرية أمن نينوى

معاونية أمن باب الجديد

١٩٩٤/٨/١٧

إلى السيد (عماد الدين خليل عمر)

تهديك هذه الدائرة أجمل تحياتها وتدعوك للحضور في مديرية الأمن العامة م.ش٥ الاستعلامات صباح يوم الخميس المصادف ١٩٩٤/٨/١٨ وبدون تأخير رجاءً.

المبلغ عن. نقيب الأمن

ضابط أمن باب الجديد

❁ ❁ ❁

كما تم العثور على قائمة بخصوص الأساتذة والتدريسيين الجامعيين تحمل عنوان (قائمة بأسماء الرافضين بالانتماء للحزب القائد) وقد رتبت بالشكل التالي:

الاسم الثلاثي	المواليد	القومية	الكلية والقسم	المهنة	رأي قيادة الفرقة	الملاحظات

وقد تضمنت القائمة ٦٤ اسماً كلهم رفضوا الانتماء للحزب بعد مفاتحتهم بالموضوع. ولذا كان رأي قيادة الفرقة التوصية بإخراجهم من سلك التعليم.

وبالنسبة للدكتور دريد عبد القادر نوري (تسلسل ٥٠ في القائمة) تشير قيادة الفرقة إلى أنه فوتح بالحزب مرات، ولم يتعاون مع الحزب القائد. يعاد التحقيق الأمني معه لمعرفة اتجاهه الديني. ويدقق في حقيقة صلته بالدكتور عماد الدين خليل المشار إليهما في كتاب هـ/٧٦١٥ في ١٩٩٣/٨/٣.

❁ ❁ ❁

وهكذا جرجرت مراراً وتكراراً إلى دوائر الأمن المحلية في الموصل، والمركزية في بغداد، للتحقيق فيما نسب إلي. وعبر ذلك كانت رئاسات قسم التاريخ، وقد لمست صمودي، تستدعيني للتحقيق معي حتى في طرائق التدريس التي كان بعض الطلبة يرفعون بخصوصها التقارير المسمومة إلى رئاسة القسم يجعلون فيها الأبيض أسوداً. ولا زلت أذكر ذلك الحوار الذي دار بيني وبين رئيس القسم الجديد (توفيق اليوزبكي)، والذي نقل لي فيه الكثير من (السلبيات) التدريسية التي رفعت ضدي بالحق والباطل. قال إن تدريسي يغلب عليه الطابع الكلاسيكي القديم، وإني أعتمد في التدريس كتباً ذات طابع معين، وأني أركز اهتماماتي على الجوانب الدينية السياسية فحسب، وأساعد الطلبة الذين يؤيدون فكرتي واعتقاداتي، وأرفض إجراء المناقشات والحوار المفتوح داخل الصف، وأمارس تمييزاً غير مقبول بين الذكور والإناث...

أما تدريسي لمناهج البحث وفلسفة التاريخ فهو غاية في الروعة والدقة والتزام الأسلوب العلمي، الأمر الذي دفع الطلاب إلى التشبث بي وعدم استبدالي بمدرس آخر...

ولقد رددت عليه بأن القول بكلاسيكية تدريسي يتناقض مع التزامي بأحدث المناهج التربوية والنفسية التي تعلمناها في كلية التربية، ومن خلال الممارسة التدريسية الطويلة في كلية الآداب، وبأن قوائم المراجع الأساسية التي أقدمها للطلاب في مطلع كل عام تتناقض مع القول بأني أعتمد مراجع ذات طابع معين، وبأن مجال تدريسي أساساً هو التاريخ السياسي والديني لا الحضاري، لأن هذا له محاضراته الخاصة. وأما التمييز بين الطلبة بسبب موقفهم الفكري أو انتمائهم الديني أو الجنسي فتدحضه قوائم الدرجات الفصلية، وأما عدم إتاحة المجال للمناقشة فهو مخالف أساساً لما يجري في الصف فعلاً من تحويل المحاضرات إلى ندوات مفتوحة يتم فيها تبادل الآراء ويسودها مبدأ الأخذ والعطاء بين المدرس والتلميذ، ويحدوها التركيز على تخريج طالب جامعي (مثقف) وليس موظف متعلم نصف أمي... وهذا التناقض بين الواقع وبين ما يقال دائماً هو نتيجة النقل الكاذب الذي يقوم به بعض الطلبة الحاقدين بسبب درجاتهم السيئة، وبدون حماية (المدرّس) من هذا الأسلوب؛ فإن الحقائق ستضيع، وسيلتبس الحق بالباطل، ولن يتبين طريق!!

المقابلات الاستفزازية نفسها تمت مع رؤوساء القسم الآخرين: د. مفيد محمد نوري، المدرّس الهزؤة أمام طلبته، والدكتور خضر الدوري القادم من أمريكا برداء ماركسي، غطي برداء بعثي ثان لتضييع الآخرين... ولكني عرفت كيف أرد عليهما اتهاماتهما الباطلة فأخرسهم.

لاحظ الدكتور عبد الرحمن برج، أستاذ التاريخ المعاصر الذي استعيرت خدماته من مصر، ما أبذله من معاناة في صراعي المنفرد مع هذه الحفنة الانتهازية من أساتذة القسم، فحرصاً منه على وضعي في الكلية وما قد يجره الصراع من متاعب نفسية وصحية... قال لي: يا دكتور عماد إنك تبذل جهداً متواصلاً لا يحتمله إنسان... فأرجوك أن تخفف من مجابهتك المعلنة هذه قبل أن يقع المحذور... لكنني ما لبثت أن طمأنته بأن ذلك كله لن يثنيني عن المضي في الطريق بمعونة الله وحده...

ويوماً وأنا أقف كعادتي على المنصة لكي ألقي محاضرتي على طلبة قسم التاريخ، يدق الباب، فلما أذنت بالدخول إذا بغانم عبد الجليل، وزير التعليم العالي والبحث العلمي، والرفيق الحزبي الكبير... يدخل مبتسماً، ومن ورائه محافظ نينوى خالد الكبيسي، ورئيس الجامعة، ورئيس قسم التاريخ... ورددت على تحية الزائر واستمريت على إلقاء محاضرتي متيحاً الفرصة للطلبة لكي يسألوا ويناقشوا... فلما سألني عن ورقة الغيابات أجبته بأني أفضل دائماً قراءتها في ختام المحاضرة، كسباً للوقت، فأعرب عن تأييده لذلك وغادر القاعة لكي ما يلبث أن يبعث على أحد الطلبة المناقشين، الذي هرع إليه وهو يرتجف خشية أن يتلقى ما لا تحمد عقباه... ولكنه تلقاه بصدر رحب، وشدّ على يديه وقال له: لشدّ ما أريد من الأساتذة الجامعيين أن يمارسوا دورهم بهذا القدر من الحرية للطلبة كما فعل أستاذكم... وتبرع له بهدية قيمة، فعاد الطالب وهو لا يملك نفسه من الفرح...

فيما بعد، في عام (١٩٧٩م)، حيث تسلّم صدام حسين السلطة في العراق في أعقاب ما قيل عن مؤامرة من داخل الحزب للإطاحة به، ساق غانم عبد الجليل والكبيسي، محافظ نينوى، وجملة من كبار القادة الحزبيين إلى الموت!! وقد تبين لي ـ وربما أكون مخطئاً ـ أن موقفه لدى زيارته تلك جاء في سياق تحرير سياسات الحزب من عقيدته الشمولية التي تكره النقاش والحوار المفتوح، وأنه وزملاؤه بتوجههم هذا لمنح الحزب شرعيته الحقيقية في العمل ذهبوا ضحية رغبتهم تلك في كسر التفرّد والانفتاح المطلوب.

وكانت السيمنارات التي يعقدها القسم بين الحين والحين، هي إحدى نقاط الصراع القاسي مع أصناف من التدريسيين، أولهم الصنف المزدوج بين قناعاته الماركسية الإلحادية وقشرته البعثية... والصنف الآخر من المستقلين والإسلاميين الذين لم يكونوا ينبسون ببنت شفة إسناداً للحقّ، لأنهم كانوا يهيئون أنفسهم ليوم سيعلنون فيه انتماءهم للحزب القائد، وليجنوا من وراء ذلك المكاسب والمناصب الزائلة للأسف الشديد... وثمة فئة ثالثة من

الطائفيين الذين كانت تؤذيهم مناقشاتي في تفنيد مقولاتهم الخاطئة، فكانوا يكظمون غيظهم ولا يقدرون على مواصلة النقاش. أذكر منهم الدكتور يحيى الدجيلي، القادم من أمريكا أسوةً بالدكتور خضر الدوري، والذي أزعجه أن أفند عبر إحدى السيمنارات كل مقولاته الطائفية دون أن ينبس ببنت شفة... فلما غادر الموصل إلى بلد آخر بعث برسالة إلى رئيس القسم الدكتور اليوزبكي يبلغ فيها تحياته إلى كل أعضاء القسم دون أن يذكر اسمي حقداً وغيظاً.

ويوماً جاء الدور عليّ لإلقاء بحثي في سيمنار القسم عن السياسات المالية في خلافة عمر بن عبد العزيز، لكني في اللحظة الأخيرة أردتها فرصة لمجابهة الشيوعيين المبطنين ببحث بديل يحمل عنوان (الاستشراق بين الصليبية والماركسية) كنت قد أعددت قبل يوم واحد، رؤوس نقاطه، ورحت أشرح الموضوع بتمكن وانسياب، معززاً وجهة نظري بين الحين والحين بنصوص من كبار الكتاب، وكنت أحس بسعادة نفسية طاغية وأنا أشن هجومي على مقلدي الفكر الغربي وتلاميذه السذج... وكنت أرى أعين القوم تدور في محاجرها وتتميز تجهماً وغيظاً، بينما رحت أنا أشدّد هجومي بأسلوب علمي هادئ رصين بعيد عن اللغو والإنشائيات، وعندما حان دور النقاش عرفت كيف أردّ على هجومهم واحداً بعد الآخر، فلم يقدر أحد منهم على أن ينفذ إلى شيء مما أشرت إليه في المحاضرة، وغادرت القسم وأنا أحمد الله على أن وفقني لما كنت أطمح إليه...

وفي يوم آخر، أتلقى تقريراً من أحد طلاب الصف الثالث يبين فيه موقفاً ماركسياً لا دينياً هداماً لأستاذ آخر في قسم التاريخ، فيتملكني حقد مرير، ورغبة في الصراخ والتدمير... يا لها من محنة... وينتابني شعور قاس بأن كل جهودنا في الكلية تضيع عبثاً... ومن نحن؟ قطرات في بحر متلاطم من الفكر المعادي الهدام الذي لن نستطيع مهما فعلنا أن نكفّه عن الهدير، أو نعطيه ـ على الأقل ـ لوناً وطعماً... وتنتابني الرغبة في الانتقام ولكن كيف... كيف؟ وكل الهدامين في كليتنا محسوبون على الوضع... والحوار معهم قد يؤدي إلى

مصير غير معلوم... كيف؟ لكن العزاء ما يلبث أن يتنزل من فوق من الله ﷻ... إذ علينا أن نعمل ونجهد، ولا يهم بعد ذلك نتائج العمل والجهد، ما دامت مسطرة عند الله الذي لا يعزب عنه سبحانه مثقال ذرة في السماوات والأرض.

ولا زلت أذكر أنني على مدى عشر سنين، وأنا أبذل جهداً استثنائياً خلال مهمتي التدريسية لجعل أعناق الطلبة الضالين تفيء إلى الحقّ... دون أن أحظى إلا بالقليل... القليل... ولكن ما ألبث أن أفاجأ بعد ذلك بسنوات قد تطول وقد تقصر، وإذا بعدد كبير منهم انتمى طواعية إلى خط الإيمان... فأحمد الله ﷻ...

وخلال دعوة وجهت لي لحضور مهرجانات الربيع قررت الاعتذار عنها، خشية أن يكون فيها نوع من الملق السياسي، انتابني نفس الشعور القديم بالعزلة المؤلمة، وبأني طالما ضيعت على نفسي فرصاً اجتماعية ممتازة، ما كان لها أن تضيع لولا هذه الحساسية الفائقة تجاه ما يمس قناعاتي ويدفعني دفعاً إلى اختيار هذا الأسلوب... وفي شرفة نادي جامعة الموصل قلت لأحد الأصدقاء الأساتذة: لقد كدحنا في عالم الدراسة الشاقة ما يقارب ربع القرن، وكان لنا أخيراً أن نقطف ثمار هذا الجهد المرير حياة اجتماعية هنيئة وفرصاً جامعية مفتوحة، إلّا أننا لم نحظ بشيء ووجدنا أنفسنا نرتطم بجدار العزلة التي لم نخترها ولكنها فرضت علينا فرضاً، لأن أية محاولة لتخطيها سوف تقودنا إلى الانتهازية والاندماج... والضياع!! فلم يحر الرجل جواباً، لأنه هو نفسه كان يومذاك يتحفز لاجتياز الحصار واللحاق بالآخرين!!

وأفاجأ ذات يوم بورقة موضوعة على مكتبي، يطلب مني فيها رئيس القسم (توفيق اليوزبكي) أن أبيّن مبررات عدم حضوري للكلية في عيد الطالب، ويطلب مقابلتي... فأحسست أنه يستفزني بطلبه هذا، إذ ما أكثر المرات التي تغيّب فيها التدريسيون عن مناسبات كهذه، ورغم أنه كان قبل فترة قصيرة قد استدان مني مبلغاً من المال، وكان يتحتم أن يكون على شيء من الوفاء معي إزاء ذلك... إلا أنه بسكرته البعثية مضى في الاتجاه المعاكس، فبعث إلي بتلك

الورقة، وكرر طلبه بضرورة مقابلتي... فما كان مني إلا أن أرفض الذهاب إليه وأن أتعامل معه على مستوى الكتب الرسمية... حيث بينت له أنني تغيّبت دونما أي عذر، وأن له أن يتخذ من الإجراءات ما يشاء ضمن الضوابط القانونية... لقد تصوّرت أن ذهابي إليه يعني تنازلاً عن شيء من كرامتي وتراجعاً عن موقفي الذي قررت اختياره لمجابهة تصرفه... ولذا قررت عدم الذهاب وليكن ما يكون.

وبعد يومين فحسب تلقيت العقوبة الرسمية التي أحسست معها بخيبة أمل قاسية، وبأن العلاقات الأخلاقية أخذت تنهار في كليتنا بشكل مريع، سيما وأن العميد الذي كان بيني وبينه في يوم ما علاقات عميقة في سياق العمل الإسلامي، قد اشترك هو الآخر في صياغة العقوبة وتنفيذها... وطيلة الليالي التالية كنت أصاب بأرق مركّز كانت تجتاحني خلاله أحقاد مريرة ضد هذين الرجلين، لم تكن العقوبة التافهة بحد ذاتها لتهمني، ولم تكن حتى العبارات القاسية التي صيغت بها لتزعجني كذلك، لكن ما آلمني هو الموقف الإنساني نفسه... فلم يعد هناك على ما يبدو موقف من هذا النوع على الإطلاق... إن العمل التدريسي في الجامعة أصبح ملعوناً!!

لم تكن مسألة العقوبة لتسبب أكثر من إحساس بالحقد ورغبة بالانتقام، لكن ما حدثني به أحد مسؤولي الجامعة الأصدقاء من أن هنالك محاولة أكبر بكثير لإخراجي من الجامعة، أو حجب قانون الخدمة الجامعية الجديد عني، أو على الأقل إلحاق الأذى بي كمحاولة تأديبية لموقفي السلبي المضاد... هذا الحديث الذي غمرني بالفرح أول الأمر، سرعان ما استحال طيلة الأيام التالية إلى ندم لم أعرف له في حياتي مثيلاً... إن ما كنت أريده هو أن أتلقى الأذى (السعيد) بسبب موقفي الفكري، لا بسبب خطأ أو تصرّف شخصي انفعالي... وأن أشد ما يؤلمني أن أتلقى أي أذى أو خسارة بسبب خطأ من هذا النوع... إن الإحساس بأنني أنا الذي قدت نفسي ومستقبلي إلى الدمار بسبب تصرّف شخصي خاطئ كاد يسحقني سحقاً... وعلى خلاف ذلك فإنني على استعداد لأن أتلقى الدمار الكامل

إذا كان ذلك بسبب موقف عقائدي... إن الدمار سيتحول إلى رحلة سعادة بالغة في عالم البذل العطاء... إنه الأذى الذي كنت أنتظره بصبر فارغ منذ عهد دراستي الجامعية... إنه الامتحان في الله... فهنالك يتبين الذهب من التراب، وأنا لحدّ الآن لم أتفحص معدني، ولم أكو بنار التمحيص التي لا بدّ منها لكي أعرف هويتي أمن ذهب هي أم من زبد وتراب؟

ويكتسحني الندم العميق... الندم الذي لا يطاق... لماذا؟ لأن العقاب المنتظر سيجيء هذه المرة بشكل أو بآخر، بتصرف شخصي انفعالي محض، كان بمقدوري بشيء من التنازل المقبول، والمرونة المطلوبة أن أتجاوزه، ومن ثم يجيء العقاب الكبير خالصاً نقياً مصدره واضح بين: الموقف وليس غير الموقف!!

ويزيدني ألماً أن هذا الإحساس بالندم يجيء لكي يدمر عليّ سعادة التوقع التي انتظرتها منذ سنين طوال... توقع الأذى والصبر عليه... ها هو خطأ ثانوي يوهمني بأنه السبب وراء ما سيأتي... وعبثاً أحاول تعزية نفسي بأن هذا الخطأ الشخصي نفسه وليد رفضي حضور اجتماعي القسم اللذين توقعت أن ستثبت في محضرهما العبارات اللا أكاديمية إياها، وبأن العقاب المتوقع، كما أكد لي أحد الأصدقاء، مسألة أقدم بكثير وأعمق جذوراً بكثير، وأن هذا التصرّف لا علاقة له البتة بالموضوع من قريب أو بعيد.

ومن ثم بدأت فكرة الاستجابة لإلحاح الأصدقاء وتقديم قدر من التنازل الشخصي لرئيس القسم بالذهاب إليه في مكتبه تراودني بين الحين والحين... وبعد تردد ممض طويل أصابني بإرهاق عصبي يصل إلى حد الغثيان، قررت الذهاب... وفي اليوم التالي توجهت إليه بحجة تقديم تمهيد للبحث الذي سأناقشه قريباً في مناظرات القسم، ولقد لمست في ملامحه قدراً كبيراً من الاستجابة والارتياح... وغادرت المكتب وأنا أتساءل: هل سأمنح فرصة جديدة؟ ويقيناً لو تم هذا فإنني سأعرف كيف أفرّق بين ما هو شخصي وما هو عقائدي، فأكون مرناً في الأولى صلباً في الثانية، ولن تشتبه عليّ الأمور بعدها أبداً... ترى ـ مرةً أخرى ـ هل سيتاح لي ذلك؟

ويوماً وأنا ألتقي الدكتور أحمد الحسو، مساعد رئيس الجامعة للشؤون العلمية، فإذا به يحدثني ذلك الحديث الممتع والمقلق عن وضعي المتأزم في الكلية، وأغادر بيته وأنا أتأرجح بين مشاعر المتعة والقلق... المتعة التي تنبثق كالنبع الثر من شعوري بأنني أصبحت ذا جدوى، وأنني أضع خطواتي على طريق التطهر والتوحد، ومن ثم تندفع مشاعري باتجاه مزيد من الرفض، ومزيد من التطهر والتوحد حتى لو أودى ذلك بمستقبلي... والقلق بسبب الخوف، وفقدان الضمان، والرغبة في حماية منجزاتي المادية والاجتماعية التي تعبت كثيراً من أجل الوصول إليها، ويساورني خوف عميق من تضييعها ببساطة من جراء موقف يتخذ أو عبارة تقال أو كلمة تنشر في مجلة أو كتاب... ولكني سأظل أقاوم...

أسرعت بتقديم نسخة غير كاملة من كتاب (دراسة في السيرة) لغرض التعضيد، وسرعان ما أعادها رئيس القسم طالباً أن أتقدم بنسختين مطبوعتين على الآلة الكاتبة وفق الأصول المتبعة... ومن ثم كانت الأيام التالية سلسلة طويلة مرهقة من القلق والهم والتعب لإيجاد مخرج لهذا العبء الجديد، وأخيراً وبعد اتصالات عديدة مع أكثر من طبّاع، وبعد تردد بشأن مفاتحة العمادة تمكنت من إنجاز المهمة بعد جلسات مملة قاسية في أحد المكاتب.. ورغم ذلك ـ قلت في نفسي ـ إن المسألة ليست مؤكدة النتائج على الإطلاق.

وتمرّ الأيام والأسابيع، وينتابني إحساس مؤكد بأن عضوَي اللجنة اللذين أحيل إليهما طلب التعضيد يتعمدان الإهمال لسبب أو آخر... وأخيراً قررت أن أكتب عريضة أطلب فيها سحب الطلب إشارة إلى عريضتي السابقة التي قدمتها قبل أكثر من شهر، وبينت فيها أني سأضطر إلى سحب الطلب خلال شهر واحد إذا لم أحظ بجواب... وها قد مضى أكثر من شهر دونما جواب... وأتجه إلى الكلية وأنا أتميز غيظاً، وأحاول أن أضبط أعصابي قدر الإمكان كيلا تفلت مني كلمة أو عبارة في العريضة المقدمة، ربما تؤدي إلى نتائج غير طيبة، ولكنني وبعد لحظات من تسليمي العريضة للطبع أعلم بأن اللجنة قد

أبدت رأيها في الموضوع، وبعثت بمطالعتها إلى لجنة التعضيد المركزية في رئاسة الجامعة، فأشعر بنوع من الارتياح العميق، وبأني قد تخلصت بذلك من أثقال حقد مرير، ربما كان سيستنفد مني جهداً نفسياً وعصبياً كبيراً.

ولكن سرعان ما عكّر عليّ هذا الإحساس السعيد، إحساس آخر أقرب إلى الوهم، وهو أنني قد تنازلت بشكل أو آخر من أجل ضمان المال. وأعزي نفسي ـ عبثاً ـ بأن المبلغ الذي سأحصل عليه سوف يذهب إلى ما وراء دائرة مصلحتي الشخصية. إلا أنني ما لبثت أن فاتحت مساعد رئيس الجامعة، الصديق أحمد الحسو، ذا العلاقة المباشرة بموضوع التعضيد، فأكد لي بأنه تسلّم التقرير قبل انقضاء مدة الشهر، لكنه قال: يا حبذا لو سحبت الطلب من أول الأمر...

لم آبه للعبارة لحظتها، إلا أنني ما لبثت أن وجدت نفسي وجهاً لوجه أمام الاحتمالات القاسية: وهي أن اللجنة قد استغلت طلبي لقليل من المال، فراحت تعمل في البحث تشريحاً ونقداً، كمحاولة للتنفيس عن الحقد والحسد، وكتعبير عن الخلاف الفكري والمنهجي بيني وبينهم، ورغم أن رئيس القسم عبر عن سلامة التقرير وإيجابيته، إلا أنني لم أرتح للموضوع، وسارعت ثانية لمقابلة مساعد الرئيس، كعادتي دائماً في الإلحاح على تحديد المواقف، وسألته أن ينصحني بخصوص الإجراء الأسلم في الموضوع. فبيّن لي ـ بعد تردد ـ أن من المستحسن سحب الطلب لأن مروره في ظروف فكرية كهذه عبر ممر الجامعة كمؤسسة رسمية، أمر غير مقبول، ويمثل تناقضاً واضحاً مع معطياتي الفكرية نفسها... ولقد اقتنعت بالفكرة، وأنا ألعن الأرضية الفكرية التي تقود المفكر الجاد إلى مواقع السلب والاضطهاد... وعدت إلى البيت وأنا أحسّ بفرح عميق... فرح من ألقى عن وزره حملاً ثقيلاً...

وبدأت الغيوم تتجمع... وعبر حديث مع (الحسّو) مساعد رئيس الجامعة، أعلمني عن احتمال إلغاء شمولي بقانون الخدمة الجامعية الجديد، وضرورة مقابلة رئيس الجامعة لتدارك الموقف قبل فوات الأوان. ولكني ترددت في

الموضوع... وعبر مقابلة أخرى مع مساعد الرئيس يتم تأكيده على الموقف نفسه، وينصحني بأن أتساهل قليلاً في قضية نشر بحوث ومقالاتي في المجلات المعادية!! وأن أخصص بعضها لصحف الدولة والحزب تعبيراً عن الولاء قبل أن يصدر عنهم ما لا تحمد عقباه... فأجبته إجابة قاطعة لا مساومة فيها: إلا هذا!! ولن يجدوا مني كلمة واحدة مما يريدون!!

في اليوم الثالث من شهر تشرين الأول عام (١٩٧٧م) تصدر قوائم المتفرغين الذين سيحظون بمكاسب قانون الخدمة الجامعية الجديد، فأطلع عليها، فإذا بي لست منهم... وكانت بحق فرحة غامرة كنت أنتظرها منذ زمن طويل... فرحة أترعت وجودي بإحساس من السعادة لا يوصف... فثمة الخلاص من الدوام المرهق الذي أضاف ساعات أخرى يتوجب فيها البقاء في الأقسام العلمية، وثمة الاقتناع النهائي بضرورة إعارة خدماتي لإحدى الجامعات خارج العراق... وثمة ما هو أهم من هذا كله انني أدفع بقدر من التضحية المادية ضريبة موقفي الفكري وما يقتضيه من بذل عطاء...

ومن غرائب المفارقات، أن يرشحني رئيس القسم عضواً في لجنة قانون ضبط التفرغ، وإبداء الرأي فيه، مع أستاذين آخرين، رغم أنني من غير المشمولين بالتفرغ، ومع ذلك فقد اجتمعنا حسب الموعد المحدد وقدمنا عدداً من الاقتراحات، السخيفة، ثم تبين أن رئيس القسم فهم الأمر خطأً!!

في صبيحة الخميس، حيث كنت عائداً من رحلة إلى بغداد بخصوص متابعة قضية الإعارة ومحاولة إنقاذها من الفشل المحتوم، نقل لي بعض المدرسين ما جرى في ندوة يوم أمس، والحملة العنيفة التي شنّها عميد الكلية على الخرافة والمخرّفين، المتشبثين بالفكر الغيبي، وأنهم سوف لا يسمح لهم في البقاء بالكلية بعد اليوم... وكم كان لذلك الموقف من وقع سيئ في نفسي، لا سيما وأنني كنت قد اتصلت في الليلة السابقة تلفونياً بالعميد أعلمه بأنني قد عثرت له في بغداد على دار للإيجار، لكن لم يكن موجوداً، فطلبت من أهله أن يتصل بي بعد عودته، إلا أنه لم يتصل نهائياً، الأمر الذي أكد لي

أنني أحد المستهدفين من حملته العنيفة تلك... وقلت في نفسي: كم كان جميلاً لو سمى الأشياء بمسمياتها، وقال إن الفكر الديني لا مكان له في الجامعة... أما أن يلجأ إلى أسلوب خبيث، وطريقة قذرة في الحرب النفسية فيسمي حملة الفكر الديني بالمخرفين، فذلك أمر مغيظ حقاً...

بعد يومين تلقيت كتاباً من مديرية الأمن العامة في بغداد يطلب حضوري بالسرعة الممكنة، ولقد أطلعت على الكتاب كما لو كان أمراً اعتيادياً، ورجحت أن له علاقة ما بمسألة إعارة خدماتي أو أنه على أبعد احتمال مجرد استفسارات عن بعض كتاباتي ومواقفي في الكلية التي بولغ في تصويرها... ولكن سرعان ما تبين أنه بسبب وصول جملة أعداد من صحيفة مغربية تتضمن هجمات قاسية ضد القيادة العراقية، حيث سارعت بإرسال برقية إلى المغرب، أطلب إيقاف إرسال الصحيفة.

في عصر اليوم نفسه التقيت بأحد الأصدقاء فأعلمني أن وضعي في الكلية مهتز إلى حد كبير، وأنهم كانوا قد قرروا بشكل نهائي نقلي إلى وظيفة إدارية، ولكن القرار جمد مؤقتاً، فتلقيت النبأ بسرور باطني عميق، فلعل الإدارة تنقذني من مشاكل التدريس... كما أن هذا الإحساس استمد من معين الرغبة بالتضحية... كما حدثني الصديق نفسه عن ندوة الأربعاء، وأن العميد لم يقصدني شخصياً، وإنما كان يتكلم في نطاق عام، وأكد لي المعنى نفسه الدكتور عمر الطالب الذي زرته قبل سفري متوجهاً إلى بغداد.

في اليوم التالي كلفني القسم بتدريس محاضرتين أسبوعياً لطلبة قسم الماجستير الذي افتتح حديثاً، فتلقيت الأمر بعدم ارتياح إذ أن ذلك يتطلب مني مزيداً من الجهد في التحضير والتدريس، في وقت كانت فيه حالات ضيق النفس المركزة خلال التدريس تزداد عنفاً وشراسةً... وبعد يومين ألقيت المحاضرة الأولى على طلبة الماجستير، وكان لقاء ممتعاً تبودلت فيه الآراء واشترك الطرفان في بناء المحاضرة... وغادرت الغرفة وأنا أحسّ بارتياح عميق، إذ أن تدريس مادة السيرة النبوية سوف لا يقتضي تحضيراً بسبب

تمكني من المادة، وبسبب الجدول الموضوعي الذي نظمته لعرض المادة ومناقشتها.

في مساء ذلك اليوم تلقيت مكالمة هاتفية من أحد الأصدقاء يخبرني فيها ـ بعد تردد ـ بنبأ نقلي من جامعة الموصل إلى مديرية الآثار العامة في بغداد... ولولا أنني كنت مرهقاً ذلك اليوم لتلقيت النبأ بارتياح عميق ولأنني كنت أتوقعه، بل أنتظره... فضلاً عن أن هذا الإجراء سيقتضي مني جهداً جديداً وسفراً متواصلاً لمتابعته في بغداد، ومحاولة الحصول على مكان في الموصل... كما أن الدور القذر الذي لعبه بعض الزملاء في الكلية أشعل في قلبي حقداً مرهقاً!!

في اليوم التالي اتصلت برئيس القسم أطلب الانفكاك. فأعلمني أن علي أن أواصل التدريس لحين صدور الأمر بالانفكاك، فألقيت محاضرة أو اثنتين بشكل طبيعي تماماً، وفي المساء اتصلت بعدد من الأصدقاء لتهيئة الوساطات بصدد تعييني في الموصل، بدلاً من بغداد، وفي لقاء مع أحدهم شعرت بارتياح عميق وإحساس بالغ بالثقة، وهو يحدثني كيف أن مقالي الأخير في مجلة (العربي) الكويتية ذات الانتشار الواسع، والذي يحمل عنوان (الإسلام ليس تراثاً) كان أحد الأسباب في نقلي. ولقد كانت تعليقات بعض الأصدقاء بصدد مؤلفاتي وكتاباتي ودورها في متاعبي الوظيفية، تجد في نفسي تقبلاً عظيماً، هذا فضلاً عن أنها تطرد من نفسي الأحقاد الشخصية ضد عدد من الزملاء في القسم، تلك الأحقاد التي أخذت تسدد إلي سهاماً قاسية لا تطاق.

والحقّ أن كلّ ما بذله هؤلاء (الزملاء) وأتباعهم في اتحاد (الطلبة) من جهود لزحزحتي عن الكلية وعلى مدى سنوات طوال، لم تأت بنتيجة. بسبب رصانتي العلمية، والتزامي الدقيق بمطالب عملي الأكاديمي، والفائدة الكبيرة التي كان الطلبة يحصلون عليها من تدريسي إياهم ومحبتهم لي، والتفافهم حولي... فضلاً عن إنتاجي العلمي المتواصل، وتحويل المحاضرات الصفية إلى ساحة للحوار المفتوح... ولذا كان صدور الأمر بنقلي من الجهات العليا في

بغداد، جاء على غير توقع منهم... ففوجئ به عميد الكلية، ورئيس قسم التاريخ فيها..

وأغلب الظن، كما أكد لي عدد من الأساتذة المقربين من مواقع السلطة في بغداد، فإن الأمر قد طبخ في مكاتب القيادة القومية لحزب البعث بعد اطلاعهم على جملة من مؤلفاتي خارج العراق، وعلى رأسها (تهافت العلمانية) و(التفسير الإسلامي للتاريخ) و(مقال في العدل الاجتماعي) وكلها تبحر في اتجاه مضاد تماماً لمعطيات الفكر القومي العلماني، الذي تتبناه القيادة القومية، حتى أن قائدها المعروف (شبلي العيسمي) في كتابه عن (القومية والدولة الدينية) شن هجوماً قاسياً على ما ورد في كتابي (تهافت العلمانية) تجاوز فيه منطق الحوار العلمي وكأنه يستعدي على السلطات... ثم جاء مقالي الذي نشرته مجلة العربي واسعة الانتشار والذي يحمل عنوان (الإسلام ليس تراثاً) بمثابة الرّد العلمي المفصل على أطروحات (ميشيل عفلق) وأدبيات الحزب، وكتابات (إلياس فرح) التي طالما حاولوا فيها اعتقال الإسلام في دائرة التراث... جاء هذا المقال بمثابة الإشعار الأخير في ضرورة وقفي عن العمل الأكاديمي كيلا يكون لي التأثير المضاد في عقول الطلبة الجامعيين.

وبعد تردد بصدد تحديد موعد سفري إلى بغداد، قررت أن أسافر في اليوم التالي وأنا أحس بقدر من الارتياح، دفعني لحضور جملة من الفعاليات الرياضية التي شهدتها ساحات الجامعة... وفي اليوم التالي جاءت فرحة موافقة المدير العام للمؤسسة العامة للآثار والتراث على تعييني في الموصل... وعدت ثانية إلى بلدي لكي ألقي محاضرتي هناك ذلك اليوم بإبداع ومتعة... وأزف إلى زوجتي نبأ تعييني في مديرية آثار ومتاحف المنطقة الشمالية بالموصل.

في المساء زرت أحد الإداريين الأصدقاء في داره، وجلست هناك الساعات الطوال، ودار حديث متشعب وطويل غسل الكثير من الأحقاد الشخصية في نفسي، لأن محوره كان ينصب على أن السبب الأساس في متاعبي الجامعية ونقلي بالتالي، هو كتاباتي وأفكاري المضادة للتوجه القومي لحزب البعث، وأنني

لو قدمت شيئاً من التنازل، وأبديت قدراً من (المرونة!!) فإن هذا ما كان ليحدث... وذلك هو ما كنت أسعى للتأكد منه... أن متاعبي هي نتيجة طبيعية لمواقفي الفكرية، وليست نتيجة أخطاء شخصية أو خلافات خاصة... وفي البيت أعلمني الأهل باستعدادهم للسكنى معهم إذا ما أخرجوني من الدار الجامعية، فكانت فرحة أخرى.

في اليوم التالي ألقيت محاضرة الوداع الأخيرة... أفرغت فيها جهدي... وبعد تثبيت موعد الانفكاك غادرت الكلية غير مأسوف عليها... وأستيقظ يوم الخميس وأنا أعاني قلقاً بصدد دوامي الجديد وأين سيكون؟... وفي مديرية آثار نينوى اتصل المسؤول هاتفياً بالمدير العام في بغداد فأعلمه هذا أن بمقدوري أن أسجل مباشرتي في الموصل... وأن أداوم هناك لشهر أو شهرين، ريثما يعاد تنظيم مؤسسة الآثار، وحينذاك سيتم تثبيت مكاني بشكل نهائي.

وكان هذا الموقف بمثابة بشارة كبيرة ملأتني فرحاً وحبوراً... ها أنا ذا إذن قد تخلصت من الذهاب المزعج إلى بغداد لتسجيل المباشرة، وضمنت إلى حد كبير بقائي في الموصل... وغادرت الدائرة إلى الكلية لتسلّم أمر الانفكاك وأنا أكاد أطير فرحاً، وعدت ثانية لتسليمه إلى دائرتي الجديدة، وتسجيل مباشرتي، واتجهت إلى رئاسة الجامعة لمتابعة المسألة، ثم عدت إلى البيت لكي أخبر الأهل بهذه البشرى السارة، فما كان من زوجتي إلا أن تطبع على خدي قبلة الفرح!!

أما قضية إعارة خدماتي للعمل في إحدى جامعات الخليج، فتلك مطحنة أخرى استهلكت من أعصابي ووقتي وراحتي الشيء الكثير، ولا زلت أعض أصابع الندم على أنني سمحت لنفسي بالدخول في دوامتها القاسية التي لم تتمخض عن نتيجة على الإطلاق، وأنه كان يتحتم عليّ قبل ذلك أن أتخذ قراراً حاسماً باستقالتي من جامعة الموصل والسعي من ثم للإعارة أو أن أظل على ما أنا عليه وأكفّ عن ملاحقاتها القاسية، والمعقدة، والتي لم تسفر عن شيء.

ذلك أن مثقفي البلد، وعلماءه، كانوا يعيشون في ظل حكم شمولي لن

يسمح لأحد منهم كائناً من كان أن يتجاوز خطوطه الحمراء، وأن يغادر العراق على هواه للعمل في جامعة أخرى، إلا أن يكون حزبياً، يتلقى تعليماته من قيادة الحزب وينفذ دورهم المرسوم... وإلا فإن ألف محاولة خارج دائرة الحزب لن تتلقى سوى كلمة: (لم تحصل الموافقة)!!

بدأت أولى محاولاتي البائسة للإعارة، يوم قمنا برحلة عائلية إلى الكويت في شتاء عام (١٩٧٦م) حيث انتهزت فرصة علاقتي الوثيقة بالأستاذ الدكتور (رشيد الفيل) ﷺ الذي كان يملك موقعاً مؤثراً في جامعة الكويت لتقديم طلب بإعارة خدماتي لكلية الآداب فيها... وفي نفس الوقت، وبعد مضي شهر على تقديم الطلب، وقبل أن يأتيني الجواب اتصلت ببعض أصدقائي من الأساتذة العراقيين الذين يعملون في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة أطلب منهم متابعة موضوع طلبي للعمل هناك.

ما لبث الدكتور الفيل أن بعث إليّ برسالة يخبرني فيها حول موافقة جامعة الكويت المبدئية على العمل فيها... تملكني فرح غامر لم أحظ بمثله إلا نادراً... فكأن أبواب السعادة والخلاص قد فتحت لي، وعدت إلى البيت وأنا أكاد أطير فرحاً لكي أبشر زوجتي بالخبر غير المتوقع.

بعدها بأسابيع معدودة تصلني رسالة جوابية من الأخ والصديق الأستاذ الدكتور أكرم العمري حول امكانية العمل في جامعة المدينة المنورة، قسم الدراسات العليا، وترحيبهم بي هناك... حيث انتابني فرح عميق مشوب بحيرة بالغة حول الاختيار بين الكويت والسعودية، واتخاذ قرار نهائي بأن تكون السعودية خط رجعة لي في حالة عرقلة العمل في الكويت... فما دمت قد قررت العمل في الخارج هذه السنة، وربما التي تليها، فإن هذه الرسالة تفتح لي باباً آخر لتحقيق هذا الهدف بإذن الله.

وتصلني برقية محيرة من جامعة الكويت حول ترشيحي عضواً احتياطياً، فأفاتح رئيس قسم التاريخ، حول احتمال عملي في الخارج، وإعلامه إياي بأن مواضيع كهذه هي من اختصاص وزارة التعليم العالي، وكنت خائفاً من أن

يقطع علي الطريق... ومن ثم أسارع بإرسال برقية جوابية لجامعة الكويت، أطلب فيها تحديد موقفهم النهائي من ترشيحي لكي أكون على بينة من أمري، ورحت أنتظر الجواب وسط دوامات القلق والحيرة بين جامعتي الكويت والمدينة، فيجيئني جواب جامعة الكويت مؤكداً استمرار ترشيحي كعضو احتياط، وأنه سوف لا يبت في الأمر على ما يبدو قبل مضي أسابيع أخرى... وتزداد الحيرة عنفاً بصدد الاختيار بين جامعتي الكويت والمدينة المنورة... حيرة مشوبة بخوف من ضياع فرصة ذهابي إلى المدينة، حيث يتواجد عدد غير قليل من أخلص الأصدقاء... لكن جامعة الكويت لها إغراءاتها هي الأخرى: فهنالك الأجواء الممتعة، والدار المؤثثة، والحياة العائلية السعيدة، بعيداً عن التغرّب والوحدة، إلا أن تعليقهم الجواب النهائي إلى شهر أيلول، ربما يؤدي إلى ضياع فرصتي مع المدينة، بل ربما يؤدي إلى ضياع الفرصتين معاً... فمن يدري؟!. وأحس أحياناً بأني بالموافقة على العمل في إحدى جامعات السعودية، قد تنازلت عن أحد مبادئي التي أعتز بها... ألّا أعمل في أي بلد رجعي، وألا أحضر مؤتمراً يخدم أية سلطة حاكمة.

بعد أيام قلائل تصلنا أنباء عن انتشار الكوليرا في السعودية، فأجدني أعود ثانية إلى دوامة القلق والحيرة، وأنساق وراء الموازنة بين سلبيات ذهابي للسعودية وإيجابياته... وأحس بين الحين والآخر بقدر غير قليل من الندم على إقدامي على هذه الخطوة، خاصةً وأن معظم خصومي في القسم قد غادروا الكلية إلى حيث لا رجعة!!

وما لبث أن طالعتنا في الكلية صيغة قانون التفرغ (المعدّل) منشورة في الصحف... وكم كانت فرحتي غامرة جارفة عندما حسبت مقادير الراتب الجديد فوجدتها هزيلة تافهة لا تقارن البتة بما سأحصل عليه هناك في المدينة المنورة.. وامتلأت قناعة بصواب إقدامي على إعارة خدماتي لهذا العام.

عصر يوم السبت الخامس عشر من تشرين الأول عام (١٩٧٧م)، يتصل بي أحد الأصدقاء ويعلمني أنه تلقى معلومات تشير إلى أن معاملة إعارة

خدماتي سترفض، إن لم أتداركها بوساطات قوية وبالسرعة الممكنة، لأن ثمة من آثار المتاعب في طريق المعاملة... وكان للنبأ وقع مرّ في نفسي، وإن كان قد اقترن بقدر غير قليل من الارتياح شأني كلما أُمنَى بخسارة في هذه المسألة أو تلك!! ومهما يكن من أمر فقد عزمت في اليوم التالي على أن أشمر عن ساعد الجدّ، وأحرّك من أستطيع تحريكه لإنقاذ المعاملة... فاتصلت تلفونياً ببغداد، فأكد لي المسؤول عن الإعارة في الوزارة، بأن عدداً من الطلبات قد بدأت ترفض فعلاً... كما هرعت إلى أحد الأصدقاء علّه يعينني في الأمر عن طريق أحد أقربائه، وما لبثت في اليوم التالي أن ركبت القطار في طريقي إلى بغداد.

كان أوّل اتصال بأحد أساتذة قسم أصول الدين في كلية الآداب، حيث بين لي استحالة الموافقة على سائر طلبات الإعارة المتبقية، لأن تعليمات عامة قد صدرت بشأن عدم الموافقة، وأن الذين خرجوا جاوزوا الحدّ المطلوب... اتجهت إلى المستنصرية والتقيت بصديقين هناك من أساتذة قسم اللغة العربية فأعلماني بأنهما لا يستطيعان أن يفعلا شيئاً... اتجهت إلى الوزارة لكي أتأكد أن معظم الأجوبة الأخيرة جاءت بالرفض.

في صباح اليوم التالي اتجهت ثانيةً إلى كلية الآداب حيث التقيت بعميدها ورئيس قسم التاريخ فيها فأعلماني أنهما لا يستطيعان أن يفعلا شيئاً... ثم ما لبثت أن غادرت بغداد عائداً إلى الموصل، وتذكرت أن ثمة وساطة فعالة يمكن أن أعتمدها في إنقاذ معاملتي من الفشل المحتوم... وانتابني ندم شديد: لماذا لم أعتمد هذه الوساطة قبل ضياع الأمل، لماذا لم أفد من هذه الفرصة الذهبية في الوقت المناسب... فلو أني قد تذكرت وقتها إذن لكنت قد ضمنت الموافقة... ومع ذلك فإن الأمر بيد الله ﷻ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شرٌّ لكم... وبعد أن طرحت الأمر على أحد الأصدقاء أعرب عن الاستعداد للاتصال بأخيه لبذل جهوده... وكان عليّ أن أسافر ثانية إلى بغداد من أجل كسب يوم في سباقي مع الزمن، والتقيت مساء الجمعة بالدكتور محمود الجليلي

ﷺ، لكي يعمل من جهته على المساعدة من خلال علاقته الشخصية بأحد الوزراء.

عدت ثانية إلى بغداد، وقمت بزيارة عدد من الأصدقاء للوساطة في مسألة الإعارة: كلية القانون، المستنصرية، وزارة المالية، الإمام الأعظم حيث لم أعثر على الشخص المطلوب، فتوجهت إلى وزارة التعليم العالي فإذا بي أفاجأ بكتاب رفض طلب إعارة خدماتي... وكان رد الفعل اعتيادياً، إذ أنني كنت أتوقع النتيجة مسبقاً، ومما زاد من ارتياحي أن تاريخ الرفض يسبق محاولات الوساطة جميعاً.

ثمة شبكة من المتاعب التي لاحقتني بخصوص مقدمات قانون الكفاءات التي صدرت عام ١٩٧٥م) والمتمثلة بمنح قطعة أرض لمن لا يملك قطعة للأساتذة كافة، والسماح لهم باستيراد سيارة بسعر الشركة المصدرة دون أن يترتب عليها أية رسوم.

أما قطعة الأرض فقد حسمت موقفي منها بعد لأي وتردد، بأن اعتذرت عن تسلّمها لأني سبق وأن اشتريت أرضاً في منطقة الطيران، وإن كان إفراغها لا يزال معلقاً بسبب تعقيدات المعاملة... والتي مارست تعذيبي الشهور الطوال بسبب مطالبها المتشابكة... رغم أن العديد ممن كانوا يملكون أرضاً حصلوا على قطعتهم الثانية... إلا أن حساسيتي الفائقة وتخوفي من أن يفتح عليّ ذلك بوابة واسعة للنقد، والاتهام بالتزوير... خاصةً وأن وضعي المهتز في الكلية مما يسمح بذلك... دفعتني إلى الاعتذار، رغم خسارة مبلغ مالي كبير...

وأما السيارة فقد استنزفت مني وعدد من الأصدقاء الكثير من الجهد والقلق، حيث تم الاتفاق مع الدكتور (عمر الطالب) وزميله (بكر عاصي فرحان) على السفر إلى ألمانيا والعودة بسيارات المرسيدس من هناك... يسبق ذلك السفر إلى بغداد للحصول على التأشيرات الضرورية لعدد من البلدان التي سنجتازها.

سبقتهما في السفر إلى بغداد، وانطلقت عبر ظهيرة بغداد الحارة إلى

السفارة التركية لتسليم جواز سفري فأرجؤوا تسلّمه حتى صبيحة اليوم التالي... وفي العودة عبر شوارع الوزيرية الهادئة المشجرة، تذكرت سنوات الدراسة الجامعية، التي عشناها هنا في هذه المنطقة... ورحت أحدث نفسي: هنا عملت كذا... وهناك التقيت بفلان... وهنا تحدثنا عن المسألة الفلانية، وهكذا عدت إلى الفندق لأرتاح قليلاً، ثم لأخرج مساء في جولة تخط طويلة المدى عبر شارع الرشيد والسعدون وأبي نواس، تلك الشوارع التي تعبت أقدامي من ذرعها في السنين الخوالي، والتي كنت أبدؤها دوماً وأنا في حالة من التوازن النفسي والانتشاء والانسجام ثم أنهيها وأنا أعاني من الاضطراب والكآبة والتشتت...

في صباح اليوم التالي سلمت وصديقيَّ الآخرين جوازات سفرنا إلى السفارة التركية، ثم انطلقنا إلى الشركة العامة للسيارات لنستفسر عن بعض المشاكل المتعلقة باستيراد السيارات... ورحنا عبر الأيام التالية نتابع المعاملات، ونحن نتأرجح بصدد السفر إلى الخارج لشراء السيارات بين الاستقرار والقلق... فحيثما تبدى لنا أن الطريق الوحيد هو السفر شعرنا بسعادة بالغة وبأن أتعابنا لن تذهب سدى... وحيثما التقينا بمن يقول بأن هناك محاولة بشكل أو آخر لاستيراد جماعي للسيارات، أصابنا الهم وشعرنا بأننا نضيع وقتنا عبثاً، وأن الآخرين الذين بقوا مرتاحين في الموصل يجنون الثمار دونما تعب أو عناء.

وبعد سبعة أيام استخرجنا خلالها، وبشق الأنفس، تأشيرات الدخول إلى تركيا والنمسا وألمانيا وقفلنا عائدين إلى الموصل لكي نجابه طيلة الأيام التالية بمزيد من القلق والمتاعب نظراً لكثرة الحلول المطروحة وتناقضاتها في الوقت نفسه. وقد تأكد لي أول الأمر أن أية محاولة جماعية لاستيراد السيارات لم تقم أساساً، لكنني فوجئت بعد يومين بأن محاولة كهذه قائمة فعلاً، فانتابني القلق القديم، ولكنني ـ رغم ذلك ـ قررت والصديقان الآخران مواصلة معاملة السفر حتى النهاية... إلا أننا فوجئنا بأن ثمة صعوبات شتى تكتنف السفر عبر

الطرق البرية في تركيا، وخلال ذلك قرر أحد الأقرباء الذي اتفقت معه على العودة بالسيارة من ألمانيا، إلغاء السفر، فأضاف متاعب جديدة إلى متاعبنا لكننا ما لبثنا أن سمعنا، في اليوم نفسه، بأن مندوب الشركة زار كلية الآداب واتفق مع أحد القمسيونجية على تولي المهمة بشكل جماعي، وبأن قوائم المدرسين الراغبين باستيراد سياراتهم عن هذا الطريق قد نظمت فعلاً... فكان ذلك برداً وسلاماً على قلوبنا، وكأنه الماء البارد ينصب على جوف يلتهب بنار القلق والإرهاق... ومهما يكن من أمر فإن شعوراً بالندم سرعان ما انتابني بسبب ضياع السفرة الموعودة إلى ديار الغرب.

وخلال ذلك كنت أمارس التعلّم على قيادة السيارة، بواسطة أحد المكاتب، فأخرج للتدريب مرتين في اليوم، صباحاً ومساء، وأحسّ بمتعة بالغة وأنا أشعر بتحسّن قدراتي في مجال السياقة يوماً بعد يوم.

بعد أيام قلائل هرعت إلى الرجل القومسيونجي حيث التقيت هناك بأحد الأصدقاء، وسجلنا معاً المواصفات التي نطلبها لسياراتنا، وشعرت بسعادة بالغة وأنا أقارن بين الميزات التي أتمتع بها هنا وبين انعدامها في الشركة العامة التي اختار البعض الاستيراد عن طريقها. وزاد شعوري بالسعادة تلك الخطوة المالية الناجحة التي أقدمت عليها بإشارة من الرجل، حيث جمدت تحويلي القديم، وقمت من جديد بتحويل المبلغ وفق السعر الجديد المنخفض للمارك الألماني، وغادرت المصرف وأنا أحسب المبلغ الكبير الذي حققته في هذه الصفقة والذي يتجاوز المائتي دينارا! وعدت إلى البيت وأنا أحس بأني قد ألقيت عن كاهلي عبئاً ثقيلاً، كان قد ركبني عفريته ما يزيد على الشهر بأكمله..

عندما تسلمت السيارة المرسيدس في بغداد، وعدت بها وأحد أقربائي إلى الموصل، وعبر قيامنا بجملة من الجولات العائلية فيها، كان يدور في ذهني أكثر من هاجس، ويجتاح نفسي أكثر من إحساس سالب... فهنالك إحساس تناقضي حاد بين الحفاظ على السيارة من أي أذى، ولو كان تافهاً صغيراً،

وبين الرغبة العاتية في التخلص منها... إنني في الحقيقة أحمل من جهة رفضاً للاكتمال الخارجي، لكنني من جهة أخرى يدفعني إحساسي الجمالي إلى الحفاظ قدر الامكان على أي شيء أقتنيه، تافهاً كان أم كبيراً، بأكبر قدر من النظافة والجمال... إن المتعة التي أتحقق بها ـ مثلاً ـ عندما أقرأ في كتاب جميل نظيف، أكبر بكثير من تلك التي أحظى بها وأنا أطالع في كتاب ممزق... فليس ثمة غرابة في الأمر... فأنا لا أريد الاستكثار من المقتنيات لئلا أقع في إسار التكاثر بالأشياء؛ الذي أعلنت عن رفضي له على مستوى الفكر والتمليك، ولكن (الأشياء) إذا ما حدث وأن جاءت، أو أرغمت على قبولها، فإنني أجدني، بإحساسي الفني، ورغبتي القديمة بالتنسيق ملزماً بحمايتها والحفاظ عليها نظيفة، سالمة، جميلة... إن جولاتي في السيارة، وتعلّمي فيها على السياقة التي بدأتها في أخريات الشهر، تثير في نفسي هذه المعاني فأعود في أعقاب كل جولة متعباً مرهقاً.. وما أن أغادرها حتى أشعر بالحرية حقاً!!

في أواخر أيلول من عام (١٩٧٠م)، وأنا أقلّب عقرب المذياع إذا بي أستمع إلى صوت أنور السادات يعلن وفاة عبد الناصر... كان الخبر مفاجئاً، رغم أن المؤشرات الصحية للرئيس المصري كانت تتحرك منذرة بقرب المصير... تلقيت النبأ بحزن عميق، رغم موقفي الواضح من عبد الناصر الذي بذل جهداً مستميتاً من أجل التفرّد بالسلطة... ومن أجل ذلك وجه طعناته القاسية لكل قوى المعارضة والمطالبين بالديمقراطية في مصر وعلى رأسهم جماعة الإخوان المسلمين التي تعامل معها بوحشية أسطورية... ومع الإخوان كان موقفه من الرئيس المصري محمد نجيب والعديد من أعضاء مجلس قيادة الثورة لا يتسم بأي قدر من الوفاء... وكان مع شهيته الأسطورية للسلطة يعشق حب الظهور وتلقي التصفيق والهتافات من آلاف العبيد الذين كانوا يتجمهرون عند الشرفات التي يطل عليهم منها عبد الناصر... وكانت سياساته جملة من الأخطاء الاستراتيجية التي دفع ثمنها من صحته وعافيته ومن مصير الأمة التي عبدته من دون الله... التفريط بالوحدة التي كانت حلمنا جميعاً... والتي

ما كان يخطر على بال أحد منا أن تنتهي، نتيجة جملة من الأخطاء، إلى الفشل الذريع، وتقود بعدها كل محاولات الوحدة والاتحاد في البلاد العربية إلى الفشل الذريع... مجازفته بالتأميم... اندفاعه الأعمى للدخول في معمعة الثورة اليمنية التي كلفته خمسين ألف جندي واستنزفت ماليته... خطيئة حرب حزيران التي أتت على الأخضر واليابس... ومع ذلك ظل الناس يصفقون له، وظلت الأحزاب القومية ترفع شعاراته وتبرر كل أخطائه تلك...

ومع ذلك كله... فعندما تلقيت نبأ وفاته، كان الأمر بالنسبة لي صدمة قاسية... وفي اليوم التالي، حيث شيع إلى مثواه الأخير، ونقل التشييع الذي كان واحداً من أكبر محاولات التشييع في التاريخ، عبر شاشات التلفزيون... وخرج الشعب المصري يسير وراء جثمانه باكياً حزيناً... لم أمسك نفسي عن الدموع... ورحت أتابع المشهد بتأثر بالغ... ولم تخطر ببالي يومذاك، أية خاطرة من شماتة على الإطلاق... فيما ذكرني بالموقف الحزين نفسه، زمن هزيمة الخامس من حزيران، وإعلانه الاستقالة.

لقد نسيت يومها كل إخواني الذين ذبحتهم سكين عبد الناصر... كل عذاباتهم التي يصعب وصفها... وسجونه ومعتقلاته... كل الهزائم التي ألحقها بنفسه وبالآخرين... وركزت مشاعري عند بؤرة الحزن المرادفة للموت الذي لن يفلت من قبضته أحد من الناس حاكماً كان أم محكوماً... وحيث يتجاوز الإنسان كل صفحات الأذى والغدر التي صدرت عن هذا الرجل أو ذاك... لحظة الوداع الأخير.

وتشتعل حرب العبور في العاشر من رمضان عام (١٩٧٣م)... الأمل الذي كنا نحرق الشموع من أجله... ويعبر الجيش المصري قناة السويس ببطولة نادرة، وتخطيط مدهش، ويكتسح خط بارليف الذي طالما ادعى الإسرائيليون باستحالة اختراقه... وفي الجبهة الشمالية يتقدم الجيش السوري لتحرير الجولان...

كنت أستقل سيارة أحد الأصدقاء للذهاب معاً إلى المركز الجامعي

للاستماع إلى إحدى محاضراته الثقافية، وعند جسر السويس توقف قليلاً حيث أقل الدكتور محيي الدين توفيق، ذلك الرفيق الحزبي الذي كان يكن لي كراهية سوداء، بسبب مواقفي المعروفة، ويقف في طريقي ويترصّد بي، حتى أنه عندما أصبح عميداً لكلية التربية الناشئة ورشحني قسم التاريخ للتدريس فيها، رفض قبولي في كليته، دون أن يدري أن ذلك كان بمثابة فرحة غامرة بالنسبة لي... ولطالما تساءلت بيني وبين نفسي: لماذا هذا السعير الملتهب من الكراهية التي يعاملني بها هذا الأستاذ البعثي أو ذاك، وهذا الطالب الاتحادي أو ذاك؟ وكنت أتلقى الجواب واضحاً بيناً لا لبس فيه ولا غموض: إنه ليس الحرص على مبادئ الحزب من اختراق خصومه... ولكنها المصلحة... ومحاولة التقرّب إلى الجهات الأعلى... والرغبة العاتية في صعود السلّم الحزبي إلى أدواره العليا.. والحصول على المزيد من المكاسب المالية، حيث كان هذا الرفيق البعثي، رغم عماه، يتجه إلى بغداد، بين الحين والحين، ويلتقي بصدام حسين متوسلاً إليه أن يمنحه أرضاً جديدة أو مبلغاً من المال، حتى أن العديد من زعماء السلطة، بما فيهم صدام نفسه، كانوا لا يرتاحون لكديته هذه!!

مهما يكن من أمر فقد استفزه موقفي يومذاك، ونحن ننصت لسماع البلاغات العسكرية من إذاعة القاهرة، فكنت أرفع صوتي وأصفق لدى سماعي أي بيان... وكان هو يكظم غيظه ويلتزم الصمت، حيث لم يكن موقف القيادة السياسية في العراق قد اتضح بعد.

ووصلنا المركز الجامعي وفوجئنا بأن المناسبة هي قراءات شعرية لعدد من شعراء اليسار العربي وتعليق عليها... وإذا بهم جميعاً يتغزلون بجيفارا، وآيندي، الزعيم التشيلي الشيوعي، دون أن يشيروا بكلمة واحدة إلى ما كانت الساحة العربية تشهده من صراع مصيري مع إسرائيل... فما كان منا إلا أن نسكتهم، عن طريق السخرية من هذه المفارقة التي أوقعوا أنفسهم فيها، ونمضي في حديثنا، وبأعلى الأصوات عن الانتصار العربي الكبير.

وتمضي أيام ثلاثة ونحن وسط إحساس غامر بالانتصار الذي حرمناه

طويلاً... وكان يعكر هذا الإحساس حيناً بعد حين، نبأ تبثه هذه الإذاعة أو تلك، إلا أننا سرعان ما نقف أمام الحقائق الأثقل حجماً: أننا منتصرون!! إلا أن الأيام تمضي متباطئة بعد ذلك، والانتصارات على الجبهتين تقل عدداً وتتحول الحرب إلى ملل ثقيل وانتظار باهظ، وترمي القيادة العراقية بجيشها لإسناد الجبهة الشمالية التي انفتحت أمام التقدم الإسرائيلي صوب دمشق، لولا تصدي القوات العراقية لها وإيقافها عند حدّها...

ثم ما نلبث أن نسمع باختراق الجبهة المصرية في سيناء، ووصول القوات الإسرائيلية إلى الدفرسوار، وعبورها القناة إلى الإسماعيلية التي هي على بعد حجر من القاهرة... وإذا بنا نفاجأ بقبول الطرفين لوقف إطلاق النار، ونتساءل، والمرارة تملأ حلوقنا، لماذا نعطي دائماً الفرصة الكاملة للانتصار لبني إسرائيل، في اللحظة التي يريدونها هم، كما حدث عام (١٩٦٧م)؟ ولماذا لا نستمر على المقاومة، ونجعل القوات الإسرائيلية تنتشر على مساحات واسعة، وواسعة جداً، من الأرض العربية، حيث ستتعرض للتآكل وفقدان السيطرة بسبب ما ستلاقيه من مقاومة شعبية وعسكرية معاً؟ لماذا؟

ويجيء الجواب أن حكامنا يحرصون بالدرجة الأولى على حماية مناصبهم، حتى لو خسروا من أراضيهم الكثير.. أن ينجوا بجلدهم... وهم يعرفون أن شعوبهم المدجنة سوف تصفق لهم، وأن إعلامهم المضلل سوف يحول الهزيمة إلى نصر، ومهما يكن من أمر، فهنالك من رأى بأن ما شهدته حرب رمضان، لم يكن سوى لعبة ذكية خطط لها عراب السياسة الخارجية الأمريكية (هنري كيسنجر) بأن يعطي الطرفين فرصة انتصار جزئي لأحدهما على الآخر، من أجل كسر جدار الرفض بين الطرفين، وسوقهما ـ من ثم ـ إلى موائد المفاوضات... مجرد وجهة نظر، لكنها مهما امتلكت من أسباب القوة والإقناع، لن تعتم على الجهود الأسطورية الهائلة، والمدعمة بقوة الايمان المصري، والتي مكنت من تحقيق الانجاز الكبير للعبور في العاشر من رمضان.

في عام العبور ذاك، شهد العراق واقعتين خطيرتين، تمثلت أولاهما فيما

سماه البغداديون بمذابح (أبو طبر) التي ملأت نفوسهم خوفاً ورعباً، حيث كان يتسلل على حين غفلة إلى دور الناس في أعماق الليالي ويعمل فيهم تقصيباً (بساطوره) الحادّ الذي لا يرحم أحداً، صغيراً كان أم كبيراً، رجلاً كان أم امرأة، حتى أن العديد منهم، وخوفاً من أن يستغل أبو طبر كثافة الأشجار في حدائقهم البيتية فيكمن فيها، قاموا باقتلاعها جملة واحدة... بل إن جاري في الموصل، الدكتور صلاح أمين، البعثي المعروف، مارس الشيء نفسه في حديقته، بعد أن أشيع بنقل أبو طبر خدماته المرعبة إلى المحافظات.. والحق أن هذه الشائعة ملأتنا خوفاً ورعباً، فأشعلنا المصابيح الكهربائية في السطوح، حيث كنا ننام، كي لا يتسلل إلينا أبو طبر بساطوره الرهيب...وزادنا قلقاً ورعباً أن أحد ضحاياه في بغداد كان ابن جارنا الأستاذ جميل الحاج أحمد، والذي ذهب ضحية أبو طبر هو وعمته وزوج عمته... حيث خرجنا في مساء يوم حزين لاستقبال الجثث ودفنها في مقابر الموصل... بينما مضى أبو طبر يقطع أوصال جثث ضحاياه ويفصل رؤوسها... وكنا نتساءل: كيف تتم كل هذه الجرائم اليومية، دون أن يقدر الأمن البعثي، بكل عنفه وسطوته، على الكشف عن القائمين بها؟!

لعلها إحدى (لعب) القيادة البعثية في بغداد... قال كثير من الناس... أن يتركوا أبو طبر يمارس جرائمه المنكرة، وهم ساكتون، حتى جاء ذلك اليوم الذي أعلن فيه عن منع التجوّل في بغداد، لملاحقة أبو طبر والذي أتاح لقوات الأمن كبس العديد من البيوت ولم السلاح المخزن فيها، ثم الكشف عن هوية القاتل وتقديمه للقصاص!

مجرد تخمين قد يصدق وقد لا يصدق... ولكن المهم أن (كاظم هضم) وهذا هو الاسم الحقيقي لأبو طبر، طلع على الناس يوماً بوجهه المظلم، لكي يتحدث عن أولئك الذين قضى عليهم، ومن كان يعاونه من أقربائه رجالاً ونساءً قبل أن يساق، حسبما قيل، لينال جزاءه العادل، حيث تنفسنا جميعاً الصعداء.

أما الواقعة الأخرى فكانت المحاولة الانقلابية التي قادها صنيعة صدام: ناظم كزار، مدير الأمن العام والرجل الحديدي صاحب الصولات المرعبة في قصر النهاية، عبر تصفيته لخصوم الثورة طيلة ما يقرب من الأعوام الخمسة، بخنقهم بإصبعيه الفولاذيتين أو تذويبهم في مغطس التيزاب.

ها هو ذا السحر ينقلب على الساحر، كما يقول المثل المعروف، والمصيدة الإلهية تنصب له الفخ الذي صنعه بيديه، بعد أن رأى هيمنة العناصر التكريتية على مقدرات السلطة في العراق، وقرر أن يستغل مركزه الخطير في قيادة الأمن، وطاعة جيوش جرارة من العناصر الأمنية، فضلاً عن مركزه الحزبي المتفوق الذي يستطيع من خلاله استدعاء أي وزير يشاء لاجتماع عاجل، فيأتيه مذعناً...

كان رئيس الجمهورية (أحمد حسن البكر) في طريق عودته من زيارة له لأوربا الشرقية، إلى بغداد، وهناك وعبر اللحظات التي سيتم فيها نزوله من الطائرة واحتضانه لنائبه صدام حسين، تقع الواقعة، ويتعرضان وكل من يحيط بهما من القادة والوزراء، لإطلاق نار كثيف، يعلن كزار بعده عن اكتشاف مؤامرة خطيرة والقضاء عليها، يسانده في ذلك عدد من القادة الحزبيين الذين ما كانوا هم الآخرون مرتاحين لهيمنة التكارتة على مقدرات الأمور.

ومن أجل إحكام الخطة، استدعى كزار كلّاً من حمادي شهاب وزير الدفاع، وسعدون غيدان وزير الداخلية، بحجة اجتماع حزبي عاجل لكي يضعهما في ثلاجة ويقفل عليهما... ريثما تتم مؤامرته بنجاح... لكن الذي حدث أن طائرة البكر تأخرت عن موعد وصولها أكثر من ساعتين، بسبب من إلحاح زعيم بلغاريا على استضافة البكر، الأمر الذي أدخل التوجس والخوف في نفوس الانقلابيين، وأحسوا بأن في الأمر شيئاً ما، فما كان منهم إلا أن ينفضوا... أما زعيمهم كزار فقد بدأ بقتل حمادي شهاب وأخذ غيدان رهينة في سيارته الخاصة وانطلق مسرعاً باتجاه الحدود الإيرانية، لكنه سرعان

ما اكتشف أمره، وألقي القبض عليه، وأعيد إلى بغداد لكي يلقى مصيره العادل!!

كنت يومذاك أجتاز الجسر الحديدي، مساءً، في طريقي إلى إحدى الكازينوات، فرأيته خالياً من المارة... وثمة أجواء من الهدوء غير الطبيعي تسيطر على شوارع المدينة، فإذا بإذاعة بغداد تعلن عن اكتشاف مؤامرة للإطاحة بالقيادة المركزية يتزعمها ناظم كزار، وأنه قد ألقي القبض عليه قبل وصوله الحدود الإيرانية، فعدت إلى البيت لمتابعة الأخبار عبر الإذاعات والتلفاز حيث تم الكشف عن تفاصيل المحاولة.

في العام التالي أخذت العلاقات بين بغداد والقيادة الكردية في الشمال تتوتر، والحملات الإعلامية بين الطرفين تزداد شراسة، وتعرض الصلح الهش الذي عقد بين الطرفين عام (١٩٧١م) للتأرجح، عندما قامت السلطات العراقية بمحاولة لاغتيال زعيم الحركة الكردية الملا مصطفى البارزاني، من خلال جملة من العبوات الناسفة وضعت في عباءات الوفد الحكومي من علماء الدين، دون معرفتهم... فلما وقع التفجير لم يصب الملا مصطفى سوى بجرح بسيط... ثم ما لبثت الحرب، بعد أن ازدادت المواقف تأزماً أن أعلنت بين الطرفين، حيث تكبد الجيش العراقي خسائر كبيرة في الأرواح والعتاد، بسبب من الدعم الكبير الذي كان الكرد يتلقونه من شاه إيران.

فما كان من صدّام إلا أن غادر إلى الجزائر على جناح السرعة لكي يعقد عام (١٩٧٥م) اتفاقية الجزائر مع شاه إيران، تنازل فيها عن حقوق العراق البرية والنهرية، على الحدود مع إيران، التي ما لبثت أن أوقفت دعمها للحركة الكردية فوجدت هذه نفسها بدون ظهير فأعلنت استسلامها... لكن ذلك الاتفاق لم يكن سوى الإسفين الذي دقته اتفاقية الجزائر بين البلدين، ولسوف يقود بعد سنوات قلائل إلى جملة من المصائب والويلات والحروب الدموية التي تواصلت حتى وضعت مقدرات العراق أخيراً بيد كل من إيران الطائفية والولايات المتحدة الأمريكية.

وكنا نتابع ذلك كله بجملتنا العصبية، ونتحمل تبعاته ومراراته الواحدة تلو الأخرى والتي افترست من أعمارنا ما يقرب من الأربعين عاماً... وما كان ذلك كله ليحدث لولا اثنتين كأنهما اتفقتا على ميعاد أسود، هدفه أن يقود العراق والعراقيين إلى الدمار... فأما أولاهما فهو جملة من الأخطاء الاستراتيجية في التعامل مع التاريخ، وأما ثانيتهما فهي إرادة أمريكية مسبقة في أن تبني على هذه الأخطاء، وأن تنشئها إنشاء من أجل تحقيق المطلوب.

في تلك المرحلة المبكرة من حكم البعث، أفلتُّ بإرادة من الله وجهود الأخ والصديق سالم عبد الرزاق ﷺ رجل الأوقاف المعروف من مأزقين كان يمكن أن يقوداني إلى التهلكة.

فأما أولهما فهو ذلك التحقيق الذي أجري مع صاحب جريدة (الفكر العربي) الأسبوعية، سالم عبد الرزاق، واستمر لعدة أيام بخصوص موقفها المعادي والحادّ ضد البعث في أعقاب سقوطه على يد عبد السلام عارف عام (١٩٦٣م)، وكنت يومها رئيساً لتحرير الجريدة وأردت أن أجعل منها منبراً إسلامياً أواصل من خلاله الهجوم على المرتكزات العلمانية للفكر القومي، حتى أني قمت بنشر فتوى الشيخ أمجد الزهاوي ﷺ بتكفير البعثيين، وحتى أن القوى الناصرية انزعجت من هذا الإلحاح في الهجوم على الفكر العلماني، فبعثت إلى أحمد الحسّو تعاتبه وتطلب منه أن يوقف هذا الهجوم، ولكن أسلوب الحوار الذي تعامل الأخ سالم عبد الرزاق من خلاله مع السلطات الأمنية، وتغطيته الذكية على اسمي، أنقذنا كلينا من الحساب العسير.

وأما المأزق الثاني فهو تبرعّي وابن عم لي بالذهاب بمعية سالم عبد الرزاق إلى كردستان لمقابلة أحد كبار أعضاء الحزب الوطني الديمقراطي، المسؤول عن الجانب الديني، بالسعي من أجل الإفراج عن عالم الموصل الشيخ الجليل بشير الصقال (الذي اعتقلته السلطات العراقية بسبب مواقفه المضادة للهيمنة البعثية)... وقد استدعي الأخ سالم من قبل السلطات الأمنية للتحقيق معه حول هذا الموضوع الذي يمثل بالنسبة للبعث حساسية بالغة، ولكنه استطاع بتغطيته

على اسمي واسم ابن عمي وبأسلوبه المعروف في الحوار، أن يجعلنا نخرج من هذا المأزق بسلام.

ويوماً عرضت علي اللجنة التأسيسية لجمعية التراث المزمع إنشاؤها في الموصل، الانتماء إلى عضويتها فوجدت نفسي أدخل في دوّامة من حيرة قاسية بين القبول وعدمه، وأخيراً، وبعد ليلة مزعجة من القلق والتأرجح قررت الثانية وشعرت بارتياح كبير... ذلك أن العمل في مؤسسة من مؤسسات المجتمع المدني في ظلال حكم شمولي كالذي كنا نعانيه في العراق، كان لا بدّ له من تقديم جملة من التنازلات، وربما الملق والمداهنة من أجل الاستمرار... ومن هذا المنطلق كنت أسارع بالاعتذار عن أية دعوة للانتماء إلى هذه الجمعية أو تلك، تجنباً للشبهات، من مثل اعتذاري عن الانتماء لعضوية اتحاد المؤرخين العرب الذي كانت قيادته في العراق، أو حضور مناسبات تكريم المؤرخين العراقيين من قبل القيادة السياسية، وغيرها كثير.

وخلال تلك السنوات لم آل جهداً في المشاركة الفاعلة في جملة من الأنشطة العلمية والفكرية: حضور مؤتمر التعليم الجامعي الذي عقدته في بغداد وزارة التعليم العالي عام (١٩٧١م)... إلقاء محاضرة في المركز الثقافي عن البعد الاجتماعي في مواقف الرسول ﷺ، والتي حظيت بجمهور كبير ولقيت قبولاً حسناً، ومحاضرة أخرى في رابطة علماء المسلمين عن (التفسير الإسلامي للتاريخ) لقيت هي الأخرى ترحيباً من الجمهور الكبير الذي حضرها في قاعة الربيع بالموصل، رغم أنها سببت لي بعض المشاكل مع الأمن واتحاد الطلبة...

كما أنني دعيت لحضور الندوة التي أقامها قسم اللغة العربية، بدعوة من الدكتور عمر الطالب الذي قال بأنه سيتحدث فيها عن مسرحيتي الأولى (المأسورون) ويحفزني على استئناف نشاطي في حقل الكتابة المسرحية... ثم ما لبثت أن وقفت على المنصة أمام حشود الطلبة كي أبين وجهة نظري في بعض المسائل، والتي أكدت فيها على أن النشاط الأكاديمي، ما لم يتم منحه المساحة الضرورية من حرية الرأي، وموضوعية الكلمة، فلن يخرج سوى

مجموعات من الطلبة الذين لا يملكون من أمرهم شيئاً... وكان الدكتور محيي الدين توفيق حاضراً، وأنصت جيداً إلى تأكيدي على مسألة الحرية الجامعية، فازداد كراهية ومقتاً... وراح ينتظر الفرصة للرد، وكانت إحداها رفضه نشر أي مقال لي في مجلة الجامعة التي يرأس تحريرها... فضلاً عن أنه في رحلة إلى الحضر مع عدد من الأساتذة الزائرين، نكث موعده معي بأن جعل السيارة تنطلق قبل حضوري.

وبخصوص معارض الكتب المقامة في الكلية، عبر كل عيد للجامعة، ترددت كثيراً بين الإقدام والإحجام، سيما وأن الموافقة على عرض مؤلفاتي للناس، كانت تعني عندي الرغبة في الظهور الذي لا بدّ وأن يجيء على حساب الأجر الذي لا أبتغيه في قضية التأليف وجهده المكافح؛ إلا من الله وحده... ولكني عدت فرأيت في المناسبة فرصة ممتازة لإعلام أكبر عدد من الناس بنماذج من الكتب الإسلامية... وأخيراً اخترت حلاً وسطاً، وذلك بعرض عدد محدد من كتبي وليس كلها... ورغم ذلك فقد كلفني الأمر في الأيام التالية جهداً نفسياً مرهقاً، وشعوراً بأنني قد أقدمت على نوع من المساومة أنزلتني درجات عن القمة التي طالما تمنيت، في هذا المجال على الأقل، أن أظل فوقها... ولسوف تتكرر هذه التجربة في المستقبل القريب والبعيد.

ويوماً ألحّ علي دافع لا يقاوم في إجراء لقاء مع المستشرق الجيكي (الدكتور نيسلي)، الذي دعي للقسم كأستاذ زائر لأيام معدودات... فدعوته وزميل آخر في القسم وهو الدكتور جزيل الجومرد، على جلسة غداء في صالة فندق المحطة الهادئة والمدفأة... ولكنني ما أن بدأت الحوار معه والذي دعوته من أجله، وأوغلت معه قليلاً في توجيه بعض النقدات والتساؤلات عن الماركسية والتفسير المادي للتاريخ، حتى شعرت بأنني فقدت حالة التوتر الذهني والنفسي التي ساقتني إلى الحوار معه، بسبب أجوبته الموضوعية، وعدم تشبثه بالباطل، بل بسبب أنه هو الآخر راح يوجه بعض النقدات للفكرة المذكورة.

في الكلية كلفت بأن أكون أحد الأعضاء في لجنة الترقية العلمية لرئيس القسم... لم يكن في الأمر مشكلة ما لولا أن كان كتابه عن الوطن العربي ضمن الأبحاث التي يجب أن أدلي برأيي فيها، على ما في الكتاب من رؤى قومية حادة، وتناقض مع العديد من الثوابت الإسلامية... ورغم مناورات العميد، فقد استطعت أن أخرج من المشكلة بسلام دون أن اضطر إلى إبداء رأيي فيه باعتباره خارجاً عن اختصاصي، وشعرت من جراء ذلك بارتياح عميق.

والمقدمة التي كلفني بكتابتها (حكمت نجيب) (أحد زملاء القسم رحمه الله) حول كتابه عن تاريخ العلوم عند العرب، أورثتني بعض المتاعب بسبب ما كان يتضمنه الكتاب من عبارات واتجاهات، أقف منها في الطرف النقيض، رغم إلحاحه المتواصل علي، وإعطائه الفرصة لأن أقول ما أشاء... فقد اخترت الاعتذار... وكفى الله المؤمنين القتال.

كلفني رئيس القسم بقراءة إحدى مسودات كتاب من تأليفه عن النظم الإسلامية، وكعادتي أعلنت ـ في البدء ـ عن موافقتي، لكنني ما لبثت أن شعرت بإحساس عميق بالندم، وبأنني قد أقرّه على معطيات، ربما تقف على طرف آخر من قناعاتي، ومعنى ذلك أني أشجعه على الخطأ، فما لبثت بعد يومين أن أعلمته باعتذاري عن المهمة بسبب كثرة مشاغلي، وغادرت مكتبه وأنا أحسّ بارتياح عميق.

ما لبث صديقي (حكمت نجيب)، التدريسي في قسمنا، وصاحب الروح المرحة، والنكات المتلاحقة، وتحويل الجدّ عبر المناقشات والسيمينارات إلى جلسات في منتهى المتعة والانسجام... أن توفي بالسكتة القلبية... كان قبل أيام قلائل قد خرج من المعتقل بسبب تهمة مالية كاذبة، لكنه حمل معه من هناك همّاً ومرضاً ما لبثا أن ساقاه إلى الموت... تلقيت نبأ موته، لدى وصولي إلى الكلية ـ أوّل الأمر ـ وكعادتي بنوع من التجريد العاطفي، ثم ما لبث الحزن أن انقض علي بشجاه المر وحسرته العميقة...

في الطريق إلى المقبرة جرى حديث مع عدد من الأساتذة، بما فيهم

رجل دين مسيحي، عن الموت والحياة، وموقف الشرقي والغربي من واقعة الموت... وتذكرت حديث (البيركامو) ـ الأديب الوجودي ـ عن الموت ومقولاته الحادة... وأننا ما دمنا سنموت فليس لأي شيء معنى... وأن الحياة البشرية هي في المحصلة النهائية «رياضيات دامية»... وتذكرت الموقف القرآني النقيض... الموقف المتفرد العظيم الذي يحوّل اللغز إلى وضوح مشرق، والموت إلى حياة، والانقطاع إلى ديمومة واستمرار، والرياضيات الدامية إلى معادلات مقنعة.

في عصر ذلك اليوم الذي شيّعنا فيه (حكمت نجيب) أظلمت السماء وأرعدت، ثم سحّت مطراً غزيراً... لقد تركناه وحيداً في العراء... وانفضّ عنه المشيعون... فهل يتعلم الإنسان؟!

وتصلني رسالة من الأخ (محفوظ عزام) في مصر يعرض عليّ فيها التفرغ للعمل في إحدى المنظمات الإسلامية في أوربا، والإشراف على تنظيم إحدى الدورات الثقافية هناك، والإسهام بمؤلف لمناسبة مرور أربعة عشر قرناً على ظهور الإسلام... وأقول في نفسي: إنها فرصة كبيرة واسعة لم تخطر لي على بال، لكن التزاماتي الوظيفية وشبكة العوائق السياسية، مع الارتباط العائلي، تقف ولا شك في الطريق... فيما سيتكرر مستقبلاً عبر عشرات الدعوات ومئاتها!!

سبّب سفر أخي الأصغر (نبيل) إلى إنكلترا، لإكمال دراسته للماجستير في تخصص الهندسة الكهربائية (الآلة الحاسبة) الكثير من الوحشة والاكتئاب، وكان ذلك يتجسد أكثر وأكثر في أعقاب قيلولة العصر، وخلال لحظات الاستيقاظ في أعماق الليالي... وبمرور الوقت رحنا نتبادل الرسائل المطولة والمترعة بالمفارقات المضحكة، تنفيساً عما نعانيه من هموم... ولا زلت أحتفظ برسائله كافة تلك التي كنت أنتظرها بصبر فارغ.

وتدور الأيام... ويمضي الزمن مكتسحاً في طريقه كل المنغصات والمسرّات والآلام.. وإذا بموعد عودة أخي من إنكلترا يحين، بعد سنتين من

التغرّب القاسي، ونستقبله في أجواء عائلية من الفرح الغامر والإحساس باستعادة شيء عزيز مفقود... ونقيم لمناسبة قدومه جملة من دعوات المشويات اللذيذة التي رحنا نلتهمها ونحن ننصت إليه وهو يقص علينا تفاصيل رحلته إلى إنكلترا...

ويوماً انطلقنا عصراً في سفرة ربيعية عائلية ممتعة إلى (بادوش) غربي الموصل، حيث مارسنا اللعب هناك في فضاء واسع من الأرض، وقضينا وقتاً طيباً، لولا أن عكر علينا صفونا النبأ المؤلم الذي بثته إذاعات العالم باغتيال ملك السعودية (فيصل) رحمه الله...

وخلال العودة، حدث وأن تأخرت سيارة أحدنا طويلاً عن اللحاق بنا، فانتابنا القلق وقفلنا عائدين للبحث عنه، فلما وجدناه، وخلال المداورة، وعبر لحظة من زمن كدنا نغدو خبراً من الأخبار حيث تعرضنا لمحاولة اصطدام مريعة، لولا أن إرادة الله ﷻ وحده أحاطتنا بالحماية من المصير المفجع بفضل منه ومنّة، جلّ في علاه... ولقد تكررت مقابلة الموت في حياتي مراراً تكراراً، وفي كل مرة كانت إرادة الله هي المنقذ من المصير الأسود.

وثمة جملة من المتاعب الصحية التي عذبتني عبر هذه المرحلة من العمر: الجيوب الأنفية، الفقرات، الزائدة الدودية، الأسنان، القلق المعدي، ضيق النفس وآلام الذراع الأيسر وارتباطها بالكتابة والتبييض، هذا فضلاً عن تزايد متاعب القلب، وظهور حالات مخيفة من اختراق نقطة ما لقلبي من بدئه حتى منتهاه، مع انسداد يكاد يكون تاماً في النفس...

وأستيقظ في الليل خائفاً مرتعباً، وأنا، أقفز من منامي بحثاً عن شيء من الهواء فيما خيّل إليّ أن الموت يترصد بي... ويقف على بعد خطوات... ولم أكن أعلم أن السبب في هذا كله هو انسداد الصمام الأهليلي... كما أن أحداً من الأطباء لم يكتشف ذلك إلا بعد أكثر من عشر سنين!!

لكن المتاعب الصحية الكبرى هي تلك التي سبقت وأعقبت عملية استئصال الزائدة الدودية التي كانت تخزني بين الحين والحين فلا أكترث

لها... حتى إذا قيّض لي أن أرتب رحلة مشتركة مع زميلي الدكتور عمر الطالب في صيف عام (١٩٧١م) إلى سوريا ولبنان، ونقضي هناك أوقاتاً طيبة، ثم ما نلبث بعد مضي أكثر من شهر أن نقفل عائدين إلى حلب لكي نتهيأ للعودة بالقطار السريع (الأوتومتريس) إلى الموصل... فإذا بي في أعقاب إلحاحي في تناول جملة من الأطعمة والحلويات أحسّ بتمزق هائل في أمعائي لم يدعني أرتاح لحظة واحدة عبر طريق العودة إلى حلب... فلما وصلناها هرعت إلى أحد الأطباء، فلم يكتشف السبب، وأعطاني جرعات من الدواء الذي زاد من وضعي سوءاً...

ورحت في مساء ذلك اليوم، ونحن نتخطى عبر شوارع حلب أترنّح من شدة الألم... وعلى حين غفلة خطر ببال الدكتور عمر أن يأخذني إلى أحد المستشفيات الأهلية، فيكشف الطبيب حدوث التهاب حاد في الزائدة الدودية، وأنها توشك على الانفجار إذا لم يتم تداركها بعملية جراحية صباح الغد، وأعطاني جملة من المسكنات حيث قضيت في الفندق ليلة لا أحسد عليها.

وفي صباح اليوم التالي هرعنا إلى المستشفى لكي يأخذ الطبيب توقيعي بالموافقة على المداخلة الجراحية، فوقّعت وأنا أبكي بصمت، خشية ألا أستيقظ بعدها أبداً، وأنا أتذكر أهلي وخطيبتي في الموصل أولئك الذين لا يعلمون شيئاً... ثم ما لبث بعد أن حقنني بالمخدر أن غبت عن الوجود عبر نومة عميقة مشبعة استيقظت بعدها على تهاني الطبيب والدكتور عمر على سلامتي... وبقيت بعدها في المستشفى ثلاثة أيام، كانت من أقسى الأيام في حياتي بسبب ما أثارته المداخلة الجراحية، والمخدر، من كتم لأنفاسي... دون أن أدرك أن السبب فيما لقيته عبر تلك الأيام كان الانسداد في الصمام الإهليلي، ولولا عناية الله ﷻ، وأخذه بيدي إلى شاطئ السلامة، لكنت قد فارقت الحياة...

عاد الدكتور عمر إلى الموصل، وبعثت معه إلى الأهل رسالة أقول فيها أن الذي أخرني عن العودة معه هو أن عدداً من الأصدقاء أغروني بالبقاء لعدة

أيام أخرى، لكي أقضي في متنزهات حلب، وشمال الشام أطيب الأوقات، ثم ما لبث الأخ الأديب الشاعر محمد الحسناوي رحمه الله أن جاء وعرض علي التحوّل إلى شقته في حلب، ولحسن الحظ فإن زوجته كانت ممرضة (رحمها الله)، فوجدت في هذه الفرصة مخرجاً من المأزق الذي كنت أعاني منه في المستشفى، وهنالك في بيت أخي الحسناوي، وعبر أمسيات طيبة مع حشود الأدباء والشعراء، بما فيهم الأخ عبد الله الطنطاوي، قضينا أسعد الأوقات... وبدأت أتماثل للشفاء، الأمر الذي شجعني على التهيؤ لمغادرة حلب والعودة إلى الموصل، في رحلة مريحة في الأوتومتريس.

في شتاء عام (١٩٦٩م) توفيت جدتي لأمي بعد صراع طويل مع المرض... فقدت بغيابها ركناً متيناً من أركان حياتي... كانت تحبني حباً جماً... وكنت في أعقاب كل مرة آخذ فيها نتيجتي الامتحانية بالنجاح، وأشتري السكاكر وأوزعها على الأهل والأقرباء... أبدأ بها... وكنت ألمح في نظرتها المترعة بالمحبة، مدى فرحها بنجاحي... كانت عندما تأتي إلى بيتنا لكي تبيت عندنا عدداً من الأيام، نتلقاها بفرح يصعب وصفه، ونتحلق حولها عبر ليالي الصيف والشتاء، وهي تقص علينا جملة رائعة من القصص الشعبي الذي عرفته الموصل (والذي قيض له فيما بعد الأستاذ أحمد الصوفي رحمه الله لكي يجمعه في كتاب)... وكنا في طفولتنا المبكرة نأوي إلى أحضانها كلما تهددنا الأب أو الأم بالعقاب العسير... فتحمينا من غضبتهم... ونحس أننا نلجأ إلى حصن حصين.

لن أكون مبالغاً إذا قلت أنها ببشاشتها الدائمة... بسخائها العجيب... بتقواها العميقة... برعايتها للأيتام والفقراء وإيوائهم في دارها السنوات الطوال... بقيامها بتوزيع المواد الغذائية عليهم، حيث كانت تجول في أزقة الموصل وحواريّها بحثاً عنهم... في سماحتها... في صدرها الرحب الذي يعرف كيف يتعامل مع المصائب والآلام دون أن يتأفف أو يشكو... وفي لحظات مرضها الذي استسلمت له، وراحت تتابع أورادها اليومية، كأن شيئاً لم

يمسها... وعبر ساعة الفراق، حيث كنا قد جئنا بها إلى دارنا لكي نتابعها تحت أنظارنا... وجلست أنا عند رأسها أتلو ما تيسر من كتاب الله، وأدعوه ﷻ الرفق بها في لحظات الوداع الأخير... وهي تردد وكأنها ترى المصير رأي العين: من الظلمات إلى النور... من الظلمات إلى النور...

كانت في هذا كله امرأة فريدة نادرة، قادمة من عصر غير عصرنا... من جيل الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان... عليك رحمة الله يا جدتي العزيزة... ويا حصني الغالي الذي انكسر في شبابي فترك ظهري مكشوفاً!!

كانت، فيما حدثتنا به، تنتمي إلى عشيرة العباسيين، الذين هربوا من بطش المغول في أعقاب مذبحة بغداد، إلى شمال العراق، واستقروا في مدينة العمادية في إقليم كردستان... (أولئك الذين قيض لهم فيما بعد الشيخ الصديق محفوظ العباسي رحمه الله لكي يؤلف عنهم كتاباً كبيراً)... ودائما كنا نردد أن أصل الإنسان هو الذي يساهم إلى حد كبير في تشكيل شخصيته، وسلوكه، وقيمه الأخلاقية...

ولسخائها العجيب، كنا نحن الأطفال نطمع فيها... ولا زلت أذكر كيف أنها كلما تلقت هدية من الشمال مكونة من (حبة السعرت الخضراء) ذات الحجم الكبير والطعم المتميز... تضع كميات منها في جيوبها ثم تقوم بتوزيعها علينا بكلتا يديها حتى لا تبقي منها لنفسها شيئاً... وكانت تمارس الكدح اليومي من الفجر حتى العشاء، لكي تقدم للأهل والزائرين أطيب الأكلات الموصلية: القلية، الباسطرمة، الباجة، الكبب، عروق التنور... وهي الأكلات التي لا أعتقد أن أحداً في العالم كله يجيد صنعها كما كانت تفعل... يا لتلك الأيام السعيدة...

ولا زلت أذكر يوم عضني دبور أسود من أسفل قدمي، وأنا أمارس اللعب في حديقة دارهم الواسعة، وكيف أنني غادرت المكان وأنا أصرخ وأتلوى من الألم، وأطالب بالإسراع في رش شيء من الملح على مكان اللدغة، وأمطرها بالشتائم والسباب... كيف أنها هرعت إلى المطبخ، وأخذت بيدها حفنة من

الملح، وراحت تتفرس بي وهي تضحك، حتى تغرورق عيناها بالدموع، وأنا أصرخ فيها أن تسارع في رش الملح... وكيف أنها، تعويضاً عما اعتقدته أغاظني، وبعد أن نفذت المطلوب قفزت إلى أحد المجرات وجاءتني بكمّ كبير من الفستق الحلبي الذي أنساني متاعبي وآلامي...

يرحمك الله أيتها الجدة الغالية، والأم الرؤوم، والمربية النادرة... وأنا لا زلت حتى اليوم، وفي أعقاب كل صلاة أتوجه إلى الله ﷻ بأن يتقبلها في الصالحين... وأتذكر رؤيتها المبشرة التي طالما قصّتها أمي عليّ وعلى إخوتي، كيف أنها أيام ولادتها، رأت جدتي في المنام رجلاً صالحاً يتلو: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦] فكانت هذه الرؤية المؤثرة حصننا الحصين، طيلة ما تبقى لنا من حياة... فالحمد لله...

ورغم كل المتاعب والمنغصات التي شهدتها مرحلة السنوات العشر (١٩٦٨ ـ ١٩٧٧م) والتي تحدثت عن جوانب منها في هذا الفصل، فقد انطوت على العديد من المتع والأفراح والمناسبات السعيدة... وتلك هي دراما الحياة البشرية التي عجنت بالأفراح والأحزان... بالمسرات والمتاعب... وبالضوء والظلمة... ولولا ذلك لما أحسسنا بطعم الأشياء وتذوقنا نعيم الخروج من النقر والممرات الضيقة إلى الفضاء الفسيح والسماء الكبيرة...

ومن بين تلك الأشياء والخبرات السعيدة، لا زلت أذكر: تحوّلنا في مايس عام (١٩٦٩م) إلى الدار الجديدة التي بناها والدي في منتصف شارع رفعت الحاج سرّي بمنطقة الطيران... وهي دار واسعة محاطة بالحدائق والأشجار، وتطلّ مباشرة على الشارع العام حيث خصصت لكل واحد منا غرفة مستقلة... زواج أخي مظفر بعد ذلك بأشهر معدودات من زوجة صالحة من آل الحافظ وخروجه إلى بيت مستقل، حيث ترك في نفوسنا فراغاً كبيراً... طلعات الفجر الصباحية، بمفردي، أو مع ابن عمي (شمس الدين)، حيث كنا نجتاز الشوارع الطويلة، والبراري الشاسعة، ولما تشرق الشمس بعد، في طريقنا إلى السوق، حتى إذا بلغنا هناك كان الجوع والتعب قد فرضا علينا الحصار، فنبدأ بالتهام

الفطور اللذيذ في مطاعم السوق المتميز: الباجة، أو القلية، أو اللحم بعجين، أو الكباب، أو الكص أو اللحم أو المعلاق... ثم نتحول للجلوس في مقهى البلدية الرائع المطل على نهر دجلة، باتجاه الجانب الأيمن من الجسر الحديدي، حيث كانت تهب علينا في ضحى الصيف الحار نسمات رقيقة مترعة بالعذوبة لكي نتحدث أو نمارس لعبة الداما التي عشقناها.

أما في الشتاء، وعبر الأجواء الماطرة فكنت أتجه بمفردي ومعي إحدى الروايات العالمية: زوربا، أو الأخوة الأعداء... أو... أو... لكي أجلس في الصالة الزجاجية المقفلة والمدفأة بالموقد الذي تشتعل فيه الأخشاب وتتحول إلى جمر يزيدنا متعة ودفئاً... بينما المطر خارج اللوحات الزجاجية للصالة يرتطم، وهو ينزل بعنف، على صفحة دجلة، في منظر لا أروع ولا أجمل... وأنا غارق في مطالعة هذه الرواية أو تلك، حتى يؤذن الليل بالحلول.

وكنا أحياناً نصطحب معنا زميلنا عبد الجبار أحمد المحامي لكي نتوجه إلى أحد أفران اللحم بعجين، عبر الموسم الشتوي، ونقف عند حافته لكي نتلقى منه الدفء وننتظر إنجاز طلبنا اللذيذ من ذلك الطعام الموصلي المحمص... ثم ما نلبث أن نأوي إلى أحد المقاهي الشعبية لشرب الشاي، ومنها نغادر بالسيارة، وقد توقف المطر، وأشرقت شمس الربيع، إلى إحدى براري محافظة الموصل أو دهوك، البادوش، أو الخضر بساطلية، أو أسكي كلك، أو أتروش، أو زاويته، أو سوارا توكا أو مندان، ولا نرجع إلا وقد حلّ الظلام.

ولقد تكررت الرحلات الربيعية عبر تلك المرحلة وازدادت كثافة، بمعية العائلة والأقرباء حيناً، ومع الأصدقاء حيناً آخر، وبصحبة الجمعية التي سبقت الإشارة إليها حيناً ثالثاً، ومع طلبة كلية الآداب وأساتذتها حيناً رابعاً... لم ندع مكاناً ربيعياً مما يؤمه الناس إلا وعسكرنا فيه، سواء في براري المحافظة، أم في المدن والمواقع البعيدة في الشمال، وصولاً إلى دهوك وزاخو وأربيل وكركوك والسليمانية... وكنا في كل رحلة نمارس اللعب، والأحاديث الجادة،

والهزل والضحك وترتيب المقالب... وتناول وجبات الطعام التي كان يتولى بعضها الأخ المهندس المعماري عبد المالك الأعرجي ﷺ كالقوزي، والأمعاء المحشية، والطاوة... وغيرها.

ومع تلك الرحلات الربيعية المكثفة، استمر عشقي للعب كرة المنضدة، في البيت مع أخي نبيل ﷺ أو في الكلية مع الطلبة والتدريسيين، حتى أنني دخلت في تصفيات اللعبة مع أساتذة الجامعة وانتهى بي الأمر إلى اللعبة النهائية على كأس الجامعة مع الزميل العزيز الدكتور أنس الشيخ علي (المستشار الأكاديمي للمعهد العالي للفكر الإسلامي في لندن، فيما بعد)، وهو الوحيد الذي كان بفنه المتميز في اللعب يقف حجر عثرة في طريقي إلى القمة، ومع ذلك فقد حصدت عبر رحلتي مع اللعبة العديد من الكؤوس.

وكانت جلساتنا اليومية مساء كل يوم، في المقاهي والكازينوات والجرادغ والصالات، تمثل إحدى تقاليدنا الموصلية الأصيلة، التي لم يكن بمقدور أحدنا أن يتجاوزها... فكنت أذهب أحياناً بمفردي أحمل معي صديقي الحميم: الكتاب، لكي أطالع هناك حتى ساعة متأخرة من الليل، أو بمعية عدد من الأصدقاء، حيث تدور الأحاديث والحوارات ويتم تناول العشاء اللذيذ، لكي ما نلبث بعدها أن نغادر المكان للقيام بجولات متطاولة في سيارة أحدهم حتى ساعة متأخرة من الليل.

ثم جاءت الجلسات العائلية المتحلقة حول التلفاز مساء كل يوم، لمتابعة إحدى حلقات المسلسلات التلفازية التي بلغت يومذاك القمة في إخراجها وأدائها، والتي أصبحت تقليداً يومياً لمعظم العوائل، حيث يتابعون بشغف السهرات الدرامية الرائعة من أمثال: رأفت الهجان، وقال البحر، وهارب من الأيام، والضحية، والرحيل، والشهد والدموع، ودعوني أعيش... الخ...

وثمة أمسيات الخميس مع أعضاء جمعيتنا حيث كنا نسهر إلى ما بعد منتصف الليل وسط أجواء الأحاديث الساخنة، والنكات المتواصلة، والحوار الجاد، ووجبات الطعام المتميزة... وحيث كان تنوع المنتمين لهذه الجمعية، من

فنانين تشكيليين إلى مخرجين، إلى مؤرخين وأساتذة جامعيين، إلى مهندسين معماريين، إلى محاسبين ورجال أعمال، إلى مدراء عامّين؛ يضفي على جلساتنا المزيد من البهجة، والتغاير في وجهات النظر.

هذا فضلاً عن الأمسيات العائلية في الدار الجامعي الذي استقرينا فيه على مدى خمسة أعوام (١٩٧٣ ـ ١٩٧٧م)، والذي كان رغم صغره يتميز بالأناقة، وبغرفته الرائعة المطلة على الشارع العام حيث أصوات ارتطام المطر بالسطوح المعدنية يضفي المزيد من المتعة على تلك الأمسيات، وحيث كان ابني البكر محمد وقد بلغ السنتين من العمر، يطل عليّ بوجهه الجميل، وشعره الأصفر المتموج، وخدوده المكتنزة، من نافذة الغرفة لكي يودعني صباح كل يوم وأنا في طريقي إلى كلية الآداب، وقد لصق وجهه بزجاج النافذة فازدادت خدوده سمنة وانفراجاً... وأما في دار الأهل المطل على شارع رفعت الحاج سرّي، ودار عمي (حسين الزرقي) القريب من المنطقة، فقد شهد العديد العديد من الأمسيات الرائعة، ووجبات الطعام الشهية، والمشاهدة التلفازية التي لا تملّ.

وثمة مهرجانات الربيع التي كانت تقام في بدايات نيسان من كل سنة، حيث كنت أغادر الدار في وقت مبكر، لتناول الفطور في السوق، ومن ثم التوجه إلى أحد الشوارع التي ستجتازها مواكب المهرجان الرائعة، حيث نقضي هناك وسط الناس، والعروض الجميلة، أسعد الأوقات.

ولقد شهدت هذه المرحلة أيضاً جملة من الرحلات إلى خارج العراق، بدأتها برحلاتي الثلاث إلى لبنان وسوريا في الأعوام (١٩٧٠، ١٩٧١، ١٩٧٤)، ثم ما لبثت أن أعقبتها برحلة عائلية إلى الكويت عام (١٩٧٦م) (ويمكن للقارئ أن يجد يوميات هذه الرحلات بتفاصيلها في الملحق الخاص بالأسفار الخارجية).

في صيف عام (١٩٧١م) اجتزت مرحلة التردد في اختيار شريكة حياتي، حيث كانت طالبات الجامعة يتمنين أن يقع اختياري على إحداهن... ولكني، ربما لأسباب دينية وأخرى عائلية، أعلنت عن ترحيبي بالزواج من ابنة خالتي

(رواء)، التي لم تكن يومذاك قد جاوزت في دراستها السادس الإعدادي، وكانت تنتمي إلى أسرة آل الزرقي المعروفة في الموصل، حيث كان أبوها هو اللواء المتقاعد حسين الزرقي، أما أمها فهي بطبيعة الحال من آل البزّاز...

وبعد شهرين من متابعة الأمور الإجرائية تمّ عقدي عليها في العشرين من أيلول من ذلك العام، حيث قضيت معها أشهر الخطبة الأربعة التي سبقت الزواج وسط أجواء من الشوق والمتعة والانسجام، حتى إذا حان موعد الزواج في بدء العطلة الربيعية للجامعة (١٩٧٢م) ركبنا الطائرة في طريقنا إلى بغداد لكي نقضي في فندق (الامباسادور) ثلاثة أيام أو أربعة ثم نقفل عائدين إلى الموصل، حيث كنت قد استأجرت في محلة الطيران داراً قريبة من بيت أهلي، وأتممت تأثيثها، لكي نقضي فيها سنة واحدة، ثم نتحول إلى الدار الجامعية القريبة من جامع الملاح، في منطقة الطيران ذاتها، والتي بقينا فيها على مدى خمس سنوات (١٩٧٣ ـ ١٩٧٧م).

في خريف عام (١٩٧٣م) رزقنا الله ﷻ بابننا البكر محمد، في أعقاب مداخلة جراحية صعبة رافقها نزف خطير لأمه... وقد كان بطبعه المشاكس، وعدم رغبته في النوم إلا بعد إعطائه جرعة من الدواء المنوم (الببتال) يومياً؛ قد أحال حياتنا إلى قلق متواصل، لكنه ما لبث أن شب محمد عن الطوق بعد سنة أو سنتين، حتى أصبح جماله يغطي على متاعبه، وغدا متعتنا اليومية، حيث كنت أحياناً أنفذ طلباته بالاصطراع معي، فكنت أجيد دوري في الاشتباك معه ثم ما ألبث أن أسقط بين يديه مغلوباً على أمري لكي أشعره بسعادة الانتصار... وإلا فإن صرخاته ستتجاوز البيت إلى المديات البعيدة، فيما كنت لا أرجوه ولا أطيقه!!

ويوماً، وأنا مستلق في صالة الدار أمارس قيلولتي اليومية، وكان هو في الطرف الآخر من الصالة يعبث كما يشتهي ولا يدعني أنام... فما لبثت أن صرخت به... فإذا به يزحف على بطنه، ولم يكن قد تعلّم المشي بعد، ويأتي

إلي ويصعد على صدري ويفرك أذني مؤدباً إياي كي لا أعود لمثلها مرة أخرى، فأجرح مشاعره بصراخي... ثم ما يلبث أن ينزل لمواصلة لعبه مع عبثه...

وفي يوم آخر، وكان قد بدأ الوقوف والمشي منفرداً، استمعنا إلى صوت هائل... جسم ثقيل ينقض على الأرض، فهرعنا إلى الصالة، فإذا بنا أمام مشهد لا ينسى، لقد تمكن الطفل من سحب جهاز التلفاز ـ على ثقله ـ إلى حافة المنضدة، ثم طرحه أرضاً... كان وجهه مصفراً من الخوف... فلم نحاول أن نزيد من خوفه بصراخنا عليه... وكان الذي يهمنا أن يكون قد خرج من الضربة دون أن يصاب بكسر... فلو أن الجهاز سقط على قدميه الطريتين لسحقهما سحقاً... ولكن الله ﷻ سلّم!!

في عام الزواج هذا صدر الأمر الجامعي بترفيعي، وترقيتي إلى درجة أستاذ مساعد، وبعدها بأربع سنوات حيث يحق لي الترقية إلى درجة الأستاذية في عام (١٩٧٦م)، وحيث كنت قد أنجزت العديد من البحوث التي تؤهلني للمطلوب وتفيض عن الحاجة، ملأت الاستمارات الخاصة بالموضوع وأرفقتها بالبحوث المطلوبة، ثم توجهت إلى رئيس القسم لتسليمه إياها، فما كان منه وهو يتلقاها مني إلّا أن نظر إليّ نظرة مترعة بالكراهية والحقد والغيرة، وكأن ملامح وجهه كانت تعرب عن رغبته المريضة في وقف المعاملة... ولقد أوقفت فعلاً، حتى إذا تم نقلي من الجامعة لم يعد لها أية قيمة... ولقد حاولت أيام وجودي في المتحف أن أحرّك المعاملة ثانية أسوة بالأساتذة الآخرين المبعدين عن الجامعة، إلا أنني وجدتني قبالة آذان صم، وجدار صلب يصعب اختراقه. حتى ذلك الرجل (محمد سعيد التكريتي) الذي تولى رئاسة الجامعة، وكان الصديق الحميم لي أيام دراستي في القاهرة، حيث كنا نلتقي مساء كل يوم لكي نقوم بجولاتنا المشتركة في أماكن القاهرة ومتنزهاتها، وحيث كنا نتناول العشاء معاً، ونتبادل الرسائل المترعة بالود... هذا الرجل سرعان ما نسي هذا كلّه، وخلع رداء الوفاء الذي يميز الإنسان عن الكائنات الأخرى، ورفض أن يسعى في الموضوع خشية على مركزه في سلّم السلطة.

ومن عجب أن معظم أولئك الذين سعوا في محاربتي أيام صراعي معهم، انتهى بهم الأمر إلى نهايات لا يتمناها إنسان: أحدهم عانى من الأمراض التي لا تحتمل ثم ما لبث أن توفي شاباً... الآخر اغتيل في بغداد من قبل عصابة طمعت في سيارته الفاخرة... والثالث أحاق به مرض ثقيل حوّله في أخريات حياته إلى ما يشبه القرود ثم ما لبث أن توفي... والرابع تم اغتياله في الجزائر، ربما لأسباب سياسية... حيث كان يتمتع بإعارة خدماته هناك... والخامس أصيب بأمراض قاسية تركته قشوراً ودفعته إلى اللجوء إلى الله... ثم ما لبث أن توفي... والسادس أصيب بسرطان في رأسه وهو الآن لا يدري متى سيموت؟... والسابع أصابه العمى ثم ما لبث أن توفي... دون أن يكلف هؤلاء أنفسهم سجدة واحدة لله ﷻ: اللهم لا شماتة... ولكنها العبرة التي يجب أن نتعلم منها جميعاً...

وأخيراً وبعد ثلاثة عشر عاماً من موعد استحقاقي لدرجة الأستاذية، أحصل عليها من جامعة صلاح الدين في أربيل يوم كنت أعمل فيها، وذلك في ربيع عام (١٩٨٩م)، بعد أن تأخر النظر في بحوثي من قبل أحد الممتحنين الخارجيين، ثم ما لبث أن جاء جوابه بالاعتذار عن إبداء رأيه... رغم أن بيني وبينه صداقة حميمة، وأكل عيش، ورحلات عديدة، ومبيت مشترك في الأقسام الداخلية... ولكن هل تستطيع قوة الأرض أن تعدّل الأخلاق الملتوية التي جبلت على عدم الوفاء؟!

مهما يكن من أمر، فقد حوّل الطلب إلى ممتحن شريف آخر، وجاء الجواب سريعاً، لكي أحظى بالأستاذية، وأنا أردد مع نفسي: كل شيء بميعاده ولا رادّ لكلمة الله!!



الفصل السادس

١٩٧٧ ـ ١٩٨٧م

سارت الأمور في السنوات الأولى من دوامي في المديرية العامة لآثار ومتاحف المنطقة الشمالية، والمرتبطة بالمؤسسة العامة للآثار والتراث في بغداد... على خير ما أشتهي وأريد... فكأنهم بنقلي هذا أرادوا لي التفرّغ للقراءة والكتابة، حيث اتخذت لي منضدة واسعة في مكتبة المتحف كنت أخلو إليها يومياً الساعات الطوال لإنجاز مشاريعي التأليفية، وتنقيحاتي لمؤلفاتي الصادرة، وشبكة مراسلاتي مع الناشرين والطلبة والقراء... حتى أنني عددت يوماً ما أجبت عليه من الرسائل التي كانت تتدفق عليّ من بلدان شتى؛ فإذا بها تتجاوز الثلاثمائة عدداً...

ولكن ـ وكما يقول المثل ـ فإن دوام الحال من المحال... فسرعان ما كلفت بمتابعة بعض المسائل المتعلقة بالتراث وكتابة التقارير بخصوصها... فاخترت أن أبدأ رحلتي مع التراث بكتابة بحث عما أسميته (مثلث الخدمات)، وهو قطاع من أكثر قطاعات الموصل غنى تراثياً، وبسبب من خصوبة البحث واستقصائه الميداني، سرعان ما قبل للنشر في مجلة (سومر) المعروفة التي تصدرها المؤسسة العامة للآثار والتراث في بغداد... ثم مضيت للكتابة عن قطاع آخر لا يقل أهمية، هو ذلك الذي يمتد على الساحل الأيمن لمدينة الموصل، بدءاً من الجسر الحديدي وانتهاء بقلعة باشطابيا في شمال المدينة.

وقد أغراني هذا الإنجاز بتنفيذ خطة عمل تستهدف مسح قطاعات الموصل كافة بمعية جملة من الموظفين والموظفات، وكتابة البحوث والتقارير عنها، فضلاً عن تسقيط مواقعها التراثية من دور للسكنى، إلى قناطر ومقاه

وحمامات عامة، إلى أبنية تعبدية إسلامية ومسيحية ويهودية على خرائط الكادسترو، وبألوان متميزة، فضلاً عن توثيقها بالسلايد والصور الملونة، ووضعها في ألبومات خاصة.

وقد تحقق المطلوب بعد سنتين من ذلك، عندما تحوّلت الدائرة إلى مديرية عامة، وجاءنا من بغداد، الدكتور بهنام أبو الصوف ليكون مديراً عاماً، فما لبث أن أصدر أمره بتعييني رئيساً لقسم التراث في المديرية الناشئة.

وبقدر عدم ارتياحي للتعامل مع الآثار، ربما لارتباطها بالعمق الوثني، كان عشقي للتعامل مع التراث الذي يملك علي عواطفي وأحاسيسي... إنه متابعة معطيات القرون الأخيرة من الزمن، ومسحها وتوثيقها، بالتقرير والبحث والخارطة والسلايد والصور الملونة.

مهما يكن من أمر؛ فإن هذا الواجب الذي ألقي على كاهلي، رغم تعاطفي معه، افترس من وقتي في المتحف الشيء الكثير، لكنه لم يغط كل ساعات الدوام اليومي الست التي كنت أعرف كيف أوزعها بين مطالب العمل الوظيفي وبين إنجاز مشاريعي التأليفية... فضلاً عن حصولي على إجازة اعتيادية في صيف عام (١٩٧٨م) للقيام برحلة عائلية مع زوجتي إلى الأردن ولبنان استغرقت ما يقرب من العشرين يوماً (انظر تفاصيل الرحلة في الملحق الخاص).

ولكن الذي حدث قبل هذه المتغيرات جميعاً، وبعد مرور سنتين على التحاقي بالمتحف، أن يصدر أمرٌ ثان، من المؤسسة العامة، بنقلي مع ستة آثاريين، إلى عانة في خريف عام (١٩٧٩م)، حيث كان سدّ حديثة الذي أنشئ على نهر الفرات سيغمر عانة بالمياه، فكان يتوجب مسح آثارها، وإيجاد الصيغة المناسبة لنقل فنارتها الرومانية إلى مكان أمين.

وشيء طبيعي أن يتجه ستة من الآثاريين إلى ذلك الموقع لأداء عملهم في سياق تخصصهم وخبراتهم في العمل الآثاري... أما إلحاقي بهم، أنا الذي لا خبرة لي بالتنقيب، فقد أحاطته علامة استفهام كبيرة، بحيث أنني قضيت

هناك حوالي الأشهر الأربعة دون أن أفعل شيئاً يذكر، وعندما عاتبني رئيس الموقع، ولا زلت أذكر اسمه (راتب) على ذلك... صرخت في وجهه: وهل أنا الذي طلبت المجيء إلى هنا؟ إن العروض المغرية تتدفق علي من خارج بلدي، للعمل الأكاديمي، أو الصحفي، أو الإداري، وأنا أعتذر عنها الواحدة تلو الأخرى مفضلاً البقاء في بلدي، وإذا بي أجدني قبالتك لكي توجه لي هذا العتاب الذي لا مبرّر له.

ورحت أقلب الأمر على وجوهه، وقلت في نفسي: إما أن يكون الأمر غير مقصود بإرسالي مع ستة من الزملاء إلى هذا الموقع... وإما أن تكون التقارير المسمومة من عقارب الجامعة، والدائرة نفسها، مما أوغر قلب رئيس المؤسسة (الدكتور مؤيد سعيد)، فحشر اسمي بين الآثاريين كاستمرار للعقاب الذي سيقربه أكثر فأكثر من رضا الجهات العليا... أسوة بالأساتذة الجامعيين إياهم. إذ نقل لي أحد الزملاء المخلصين (الدكتور أحمد قاسم جمعة) أن (مؤيد سعيد) هذا، عندما وصله نبأ نقلي إلى دائرته، راح يتهدد ويتوعد، وأنه سوف يكسر عظمي إذا تطلب الأمر... مزايدات رخيصة لغرض الصعود وإثبات الولاء للحزب والسلطة... ولكن الدكتور (أحمد) عرض عليه الصورة الحقيقية، والأسباب الكامنة وراء نقلي... وحينذاك كف الدكتور مؤيد عن توعّده بالأذى... وغيّر موقفه مني...

ولا زلت لحد الآن، لم أعثر على جواب حول سؤالي ذاك... هل كان نقلي إلى عانة عفوياً، أم مقصوداً؟ المهم أنني قضيت هناك في عانة أربعة أشهر تخللتها جملة من العودات إلى الموصل، وقد كانت رحلة عانة ـ بحق ـ إحدى الحلقات الرائعة في حياتي الوظيفية، حيث كانت جزيرة عانة، التي سيقدّر لها أن تغمر بمياه السدّ، التي تركز عليها العمل من قبل اللجنة إياها، آية من آيات الله في جمال تكوينها الطبيعي، حيث الخضرة الممتدة على بساطها من بدء الجزيرة حتى منتهاها، وحيث تظللها أشجار النخيل الباسقة المحملة

بأطيب أنواع التمور. وكان موسم الخريف الذي حللنا فيه على الجزيرة مما يعد بالكثير من الثمار.

فكنا نخرج صباح كل يوم، حيث يقلنا زروق خاص إلى الجزيرة، لكي نقضي هناك ساعات الدوام بأكمله، وبينما كان الزملاء منهمكين في التنقيب الآثاري، كنت أحمل معي كتاباً أطالع فيه الساعات الطوال، وأقطع المطالعة يومياً بجولة تخط عبر الجزيرة من أقصاها إلى أقصاها متناولاً بعض خضارها كلي أغسله بماء السواقي العذبة، أو ملتقطاً حفنات من تمر (البربن) الذي أعشقه لكي ألتهمه، ثم ما ألبث أن أعود إلى موقع العمل بانتظار الزورق الذي سيقلنا ثانية إلى الضفة الأخرى.

أما في المساء، فكنا نركب السيارة ونتجه إلى راوة لشراء ما نحتاجه لطعامنا اليومي، أو إلى الدائرة المشرفة على العمل الآثاري في سدّ حديثة، حيث كنا نلتقي ببعض الأساتذة الآثاريين، ومن بينهم الدكتور باقر الحسيني وهم يلقون محاضراتهم وتوجيهاتهم، ثم نعود إلى الدار التي استأجرناها في عانة، لكي ما يلبث الزملاء الستة، أن ينصرفوا إلى تناول الخمور، ومن ثم يفقدون توازنهم النفسي والسلوكي ويتحولون إلى شيء آخر لا يمت بصلة إلى إنسانية الإنسان، وسيقدر لثلاثة منهم أن يفيئوا إلى حظيرة الإيمان والالتزام، ويتوفى اثنان، ويلجأ السادس إلى بلده في إقليم كردستان. فكنت أنا أجلس بعيداً عنهم، أمارس القراءة أو مشاهدة التلفزيون، أو أتناول العشاء بمفردي، أو أغادر الدار متجهاً إلى نادي موظفي عانة، أو إحدى مقاهيها لكي أقضي أمسيتي هناك.

وأنا في عانة، تأتيني جملة من الدعوات الخارجية لحضور المؤتمرات، أو للتدريس على مدى أسبوعين أو ثلاثة في بعض الجامعات... فأبذل جهوداً مترعة بالقسوة والمتابعة المريرة للحصول على الموافقات الرسمية، وأحظى بتلبية عدد من تلك الدعوات: إحداها لحضور المؤتمر العالمي للسيرة والسنة النبوية المنعقدة في الدوحة في خريف عام (١٩٧٩م)، وثانيتها للمشاركة بإلقاء

بحث في المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام وفلسطين المنعقد في عمان (الأردن) (١٩٨٠م)، وثالثتها ورابعتها رحلتان إلى الرياض في السعودية تلبية لدعوة من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية لإلقاء جملة من المحاضرات على طلبة الدراسات العليا في شتاء عام (١٩٨٠م) وخريفه (انظر التفاصيل في الملحق الخاص بالرحلات الخارجية).

بعد أربعة أشهر من المكوث في عانة، صدر أمر إعادتي إلى دائرتي في الموصل، فكان يوماً من الأيام السعيدة في حياتي الوظيفية... وعدت لكي ما ألبث أن أتولى رئاسة قسم التراث في المديرية، وأن أؤسس لأنشطته وأعماله... حيث تم التحرك على مستويين: مستوى الاستمرار في كتابة البحوث والتقارير التراثية (التي قدّر لبعضها أن تصدر في كتابي: خطوات في تراث الموصل، الذي صدر عن دار ابن الأثير التابعة لجامعة الموصل عام ٢٠٠٨م)، ومستوى الجولات الميدانية شبه اليومية مع ثلة من الموظفين والموظفات، لكي نمسح المدينة القديمة شبراً شبراً وبيتاً بيتاً... ونسجّل مواقعها ذات الغنى التراثي ونتابع خصائصها المعمارية المتميزة... وبمعيتنا المصوّر المتألق (نور الدين حسين) يلتقط الصور ذات الحجم الكبير وبالألوان الطبيعية لكل وحدة أو عنصر تراثي... ثم بعد العودة أنصرف لكتابة تقرير شامل عن القطاع الذي تم مسحه...

وكنت قد قسّمت مدينة الموصل القديمة إلى سبعة قطاعات أساسية تفصل بينها الشوارع الرئيسية لمدينة الموصل، وذلك من أجل السيطرة على كل التفاصيل التراثية للمدينة من أقصاها إلى أقصاها... ورغم أن أقدامنا كلّت من كثرة المسير والتجوال عبر الأزقة والطرقات، وأيدينا كلّت من الطرق على الأبواب... وألسنتنا تعبت من محاولات إقناع البعض بفتح أبواب دورهم للجنة المسح، إلا أن ما كان يعوّضنا عن هذا كله هي متعة الاكتشاف... دهشة الوقوف أمام الفن المعماري الأصيل لبنّائي الموصل القدماء... روعة القناطر، والأزقة الملتوية، والحمامات الشعبية، والمقاهي، والقيصريات، والمطاعم

الشعبية والخانات... متعة العثور على المزيد من المواقع التراثية من الجوامع والمساجد والكنائس والبيع والمدارس و... و... الظلال الباردة، والرطبة، والنسمات الرقيقة ونحن نتجول عبر هذا الزقاق الضيق أو ذاك، ونجتاز هذا الحي العتيق أو ذاك... فكنا ننسى تعبنا وإرهاقنا ونواصل المسير عبر الساعات الطوال، لكي ما نلبث أن نعود إلى المتحف لتسقيط ما اكتشفناه وعثرنا عليه من مواقع تراثية، على خرائط الكادسترو وفق القطاعات السبعة إياها...

وكان الزوار العرب والأجانب عندما يزورون المتحف، ويجيئون إلى مكتبي، كنت أطلعهم على الألبومات الرائعة للصور التراثية التي التقطها الفنان نور الدين حسين، خليفة المصور العالمي مراد الداغستاني ﷺ بكاميرته الحساسة التي يعرف بها كيف يلتقط الجزئيات والتفاصيل... فكانت تثير إعجابهم. لكن مما يؤسف له أنني عرفت بعد سنوات طويلة من مغادرتي المتحف أن هذه الألبومات تعرّضت للسرقة، عبر المصائب المتعاقبة التي شهدها العراق، وأن السلايدات الملونة وخرائط الكادسترو ضاعت هي الأخرى فلم يعثر لها على أثر... أما التقارير والبحوث فقد أتيح لي أن أحتفظ بنسخ منها وأن أنشرها في كتابي المذكور: (خطوات في تراث الموصل).

في خريف عام (١٩٨١م) طلب مني المشاركة في المؤتمر العالمي للآثار والتراث الذي ستعقده المؤسسة العامة في بغداد، ويحضره خبراء الآثار والتراث في العالم، ببحث يتناول ما تم إنجازه في قسم التراث في الموصل، وراح المشاركون كل يدلي بموجز لمحاضرته بلهجة عامية في أغلبها، وباتكاء على عروض سينمائية على الشاشة، الأمر الذي دفع رئيس المؤسسة إلى شن حملته القاسية ضد المحاضرين وطرائقهم... حتى جاء الدور عليّ عصر اليوم الثاني للمؤتمر... فإذا بوزير الثقافة والإعلام (لطيف نصيف جاسم) يكون من بين الحاضرين... سميت باسم الله، حيث لم يتفوه أحد من المحاضرين بها على الإطلاق، وانطلقت مرتجلاً محاضرتي بلغة عربية محكمة، وبتسلسل يمسك بعضه برقاب بعض، حول صيغة العمل التي اعتمدت... وما تم إنجازه...

والمشاريع المستقبلية... واعتماد التوثيق التراثي على جملة من الآليات: كالمسح، وكتابة البيانات الوصفية للمعطى التراثي... وإنجاز الدراسات والبحوث... والتصوير الفوتوغرافي... والتصوير بالسلايد... والتسقيط على خرائط الكادسترو، والتصوير السينمائي... واعتزام تكليف كبار الفنانين التشكيليين في الموصل بتقديم لوحات تتضمن حرفيات الموصل... الخ... الخ...

وإذ كنت أتكلم بطلاقة، وبأداء عربي سليم، وفق عرض منهجي محكم وتحليل دقيق، إذا بالوزير الذي كان يتابعني بشغف يلتفت إلى رئيس المؤسسة الذي يجلس بجواره يسأل عني... وإذا بهذا يهمس في أذنه ببضع كلمات أغلب الظن أنها محاولة خبيثة منه لتشويه وضعي في الدائرة، وأنني من المنقولين من جامعة الموصل بسبب مواقفي المضادة للحزب والثورة... ومع ذلك فربما دخل في روعه أن ما أبداه الوزير من إعجاب بطرحي، قد يقوده إلى طلب تعييني في موقع أعلى، ربما يؤثر على مواقع الآخرين.. حيث أنني ما أن عدت إلى مكاني حتى التمّ حولي وكيل الوزارة والمدراء العامون وراحوا يبدون لي الكثير من المجاملة والودّ... تحسباً منهم لما يمكن أن يشهده المستقبل.

ثمة إحساس عميق بالفرح والانتصار ملأني في تلك اللحظات سعادة، فها أنا ذا قد رميت عدة عصافير بحجر واحد: تعزيز مكانتي في المؤسسة والمديرية... وحتى في الوزارة... إثبات قدراتي الكلامية والعلمية والوظيفية... طرد شبح العمل في الهيئات الخارجية حتى النهاية... إثبات أن نقلي من الجامعة لم يكن عملاً صائباً... احتمال الحصول على تقدير معنوي أو مادي في الوقت المناسب، هذا إلى أني طرحت كلمتي بصيغ إيمانية لم يعتدها المشاركون من الآثاريين، فأثبت بذلك قدرة الإيمان على الاستجابة الممتعة للتحدي...

وعندما انفضت الجلسة وأخذنا طريقنا إلى نادي العلوية لتناول العشاء؛ إذا برئيس المؤسسة يقترب مني قائلاً: إنك تلمّ جيداً بأساليب العربية... كان وجهه محتقناً، وكانت الكلمات تخرج من لسانه بتكلف ملحوظ. فلما قفلت

عائداً إلى الموصل، إذا بالمدير العام ومعاونه يدعواني إلى رحلة مشتركة معهما للاطلاع على مجريات العمل في صيانة قلعة أربيل، دون أن يشيرا إلى ما حدث في بغداد، وكأنهما يريدان أن يرشياني بهذه الرحلة عما يمكن أن أطمح إليه في تصوّرهما... دون أن يدري هؤلاء، وأولئك الذين تحلقوا حولي في بغداد، أنني من أشد الناس كراهية للمناصب الإدارية ونفوراً منها، وأن اعتذاري عن قبولها معلق دائماً على طرف لساني... مساكين هم أولئك الذين أغوتهم الحياة الدنيا بزينتها الكاذبة، ومتاعها الزائل، ومناصبها الذاهبة، فحرصوا عليها، وعضوا عليها بالنواجذ والأنياب، ثم ما لبثوا أن تركوها ورحلوا...

ولقد تأكد حدسي عندما وصلتني دعوة الحضور للمؤتمر التالي للآثار والتراث في بغداد واطلعت على جدول محاضراته، فإذا بي لا أجد اسمي بين المتحدثين... لقد تعمد رئيس المؤسسة أن يغيبني عن الساحة كي لا ألفت نظر السيد الوزير، فما كان مني إلا أن أطوي الدعوة وأنا أحس بسعادة غامرة، حيث تحررت من الارتباط ببحث قد يتطلب مني الكثير.

وخلال ذلك العام وصلتني دعوة من جامعة العين في الإمارات العربية المتحدة لإلقاء جملة من المحاضرات في جامعتها ومدارسها ومنتدياتها الثقافية. أعقبتها في السنة التالية (١٩٨٢م) دعوة أخرى من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية لمدى عدة أسابيع لإلقاء المحاضرات على طلبة دراساتها العليا (انظر تفاصيل الرحلتين في الملحق الخاص).

وثمة رسالة مفصلة من الداعية والمفكر المصري المعروف (محفوظ عزام) تتضمن دعوتي لمؤتمر سيعقد في لندن حول الأقليات المسلمة، واعتزام المجلس الدولي هناك ترجمة كتابي (التفسير الإسلامي للتاريخ) إلى الإنكليزية.

وصلتني أنباء حول قيام أحد حزبيي الموصل الشرفاء (ربما يكون صائل العبدلي) بالسعي لإعادتي إلى كلية الآداب، بعد أن تبينت له خطيئة نقلي من

الجامعة، وأنه اتصل بالأخ سالم عبد الرزاق، مدير الأوقاف، أكثر من مرة لكي يبلغني الأمر ولكني قررت الاعتذار عن قبول عرضه هذا.

وخلال ذلك كان مكتبي في المتحف قد تحوّل إلى منتدى يومي لاستقبال مثقفي الموصل من سائر الأعمار والاتجاهات، وإجراء حوار خصب في العديد من الأمور، ومن بين الذين كانوا يترددون على زيارتي: سعيد الديوه جي، والدكتور صديق الجليلي، والدكتور فيصل دبدوب، وصديق الشيخ علي، والعميد نكتل كشمولة، والحاج محمود الجومرد، والدكتور وجيه زين العابدين، والمحامي حسن العمري، وسعد الجميل، والشاعر أمجد محمد سعيد، والشاعر عبد الوهاب إسماعيل، وحازم حميد، والدكتور بهنام أبو الصوف، والدكتور العزاوي، والدكتور سيار كوكب الجميل، والدكتور جزيل الجومرد، والعميد سالم الجومرد، ورعد البرهاوي، والدكتور أحمد الحسو، والدكتور عمر الطالب، والشيخ عمر محفوظ العباسي، والخطاط يوسف ذنون، والمهندس حسن رزو، والفنان التشكيلي نجيب يونس، والفنان التشكيلي ضرار القدو، والأخ هشام البدراني، والأخ الوزير أرشد الزيباري... وحشود لا تعدّ ولا تحصى من أساتذة الجامعة وطلبة الدراسات العليا... حتى أن ذلك الأمر أثار مسؤولي المديرية فراحوا يلمحون لي بأن عليّ أن أكفّ عن استقبال الزوّار... خاصة بعد أن تدفق عليّ يوماً حشد كبير من شباب العلوم الإسلامية المعممين، فنصحتهم ألا يعودوا لمثلها مرة أخرى، لأن ذلك مما يغيظ المسؤولين في الدائرة.

ولكني كنت ـ في مقابل ذلك ـ أقدّم الكثير من الجهد الملحوظ والمتميز لدائرتي سواء في سياق التقاليد التراثية أم الثقافية العامة، حيث كنت أشارك في كل أمسية أو ندوة ثقافية ببحث أو إضافة، أو نقاش... بل كنت أضع تأسيسات عدد من الندوات والمناسبات التي شهدتها قاعة المتحف وأوجه الدعوات إلى المعنيين للمشاركة فيها.

ولا زلت أذكر تلك المحاضرة المتميزة التي ألقيتها في إحدى ندوات

المديرية، والتي أثارت إعجاب كل الحاضرين، وراحوا يهنئوني عليها، ويبدون تقييمهم لما تضمنته من معطيات، وللغة التي تم عرضها بها.

ولا زلت أذكر ـ كذلك ـ تلك الندوة التي أقيمت في قاعة المتحف لقراءات في ملحمة جلجامش أدارها الشاعر أمجد محمد سعيد، وتكلم فيها القس يوسف حبي، حيث راح يجدف، ويعلن عن رفضه للفكر الغيبي، وللآخرة... والحساب... والجنة والنار، وفق منطق مادي صرف ينكر كل ما هو ليس بمنظور أو ملموس... فيما لا يليق برجل دين كبير مثله يحتل مركزاً قيادياً في التسلسل الكهنوتي... ولكنه حسب قناعتي أراد بذلك أن يهاجم مرتكزات الدين الإسلامي، فعمّم حملته على الأديان كافة تحت شعار (عليّ وعلى أعدائي يا رب)... فرفعت يدي في محاولة للرد، فتغاضى عنها أمجد محمد سعيد وأراد أن ينهي الجلسة، ولكنه أذعن لإصراري، وهناك تدفقت في الردّ على مقولات (حبي) وأفحمته بالأدلة القاطعة، بحيث أنه ما كان منه إلا أن يلملم أوراقه وينسحب من القاعة... إلا أن ردود الأفعال كانت تشير إلى أن معظم الحضور امتلؤوا غبطة، وراحوا يهنئوني، أو يبعثون لي بقصاصات من الورق يعربون عن سعادتهم بردي.

وكان المدراء العامون الذين تعاقبوا على المديرية، بل إن رئيس المؤسسة نفسه، يعرفون جميعاً الجهد الذي أبذله في عملي ونشاطي، فأتلقى منهم في كل مناسبة أو اجتماع التقييم والتكريم... وكان الدكتور بهنام أبو الصوف، المدير العام على رأس هؤلاء، وطالما كلفني أو استشارني في أمور عديدة لثقته بي، رغم أنني كنت أعتذر عن العديد من التكاليف التي كنت أشم فيها رائحة حزبية أو طائفية، من مثل دعوتي للمشاركة في ندوة الحضر التي ستطابق يوم السابع من شهر نيسان، حيث أعياد حزب البعث العربي الاشتراكي، وأنها ستعتمد ـ يقيناً ـ لممارسة طقوس الاحتفال، حيث حسمت الموضوع بالحصول على إجازة مرضية وتجاوزت الحضور.

وحدث يوماً وأن أعلن عن اكتشاف ثور مجنح آشوري كبير في الحفريات

الجارية في باحة النبي يونس (عليه السلام)، في وقت كان العمل فيه جارياً على قدم وساق لتوسيع الجامع وإعادة صيانته... فدعينا لاجتماع مشترك بيننا وبين مديرية الأوقاف في الموصل... كان عليّ بحكم انتمائي لدائرة الآثار أن أدافع عن هذا الاكتشاف المهم، وأن أؤيد وجهة نظر المدير العام وزملائه بضرورة وقف أعمال التوسعة، حماية لهذا الكشف المهم... وقد وجدتني للحظات في دائرة الحيرة بين أن أمضي مخلصاً لثوابت الدائرة التي أعمل فيها، وبين أن أبحر باتجاه معارض التزاماً بقناعاتي الدينية، وما لبثت أن اخترت الثانية، ووقفت بصرامة مع مدير الأوقاف ومهندس دائرتها، أدافع عن ضرورة إكمال توسعة الجامع وأؤيد أطروحات الأوقاف... الأمر الذي أثار حفيظة وتساؤل موظفي الدائرة... لكنني ومدير الأوقاف خرجنا منتصرين في صراعنا ذاك... ثم ما لبث الأمر أن صدر بإعادة ردم الثور المجنح، وفسح الطريق لتوسعة الجامع... وغادرت الاجتماع وأنا سعيد بإرضاء ضميري الديني والحمد لله.

ويوماً طلب مني المدير العام أن أكتب تقريراً عن كتاب لأحد المؤلفين من آباء الكنيسة في الموصل، فاعتذرت عن الطلب بحجة أنه يمسّ قناعاتي الدينية، وكذلك الحال عن حضور افتتاح كنيسة مسيحية في أحد الأقضية... فكان يتقبل ذلك مني برحابة صدر... بل إنه يوماً، ونحن نقوم بإحدى الجولات التراثية في أحد أحياء الموصل القديمة، صارحني بشكّه، وهو المسيحي الذي ينتمي إلى عائلة آل الصوف الأصيلة في الموصل، في قضية التثليث النصراني، وأنها مما لا يمكن أن يقبله العقل، فأعربت له عن ارتياحي البالغ لصراحته في هذه المسألة العقدية الشائكة في الفكر الديني المسيحي.

وحتى المديران العامان اللذان جاءا بعده، وهما كل من الدكتور منير يوسف والدكتور العزاوي، أعربا عن ثقتهما بعملي وسعى ثانيهما إلى توسيع نطاق مسؤولياتي في محاولة تعييني معاوناً للمدير العام أو رئيساً للجان صيانة المنطقة الشمالية، وجعلي نائباً له في الكثير من الأمور، ولكني أصررت على الاعتذار مكتفياً بإدارة قسم التراث، والذي أُلحقت به فيما بعد إدارة مكتبة

المتحف بعد نقل مديرتها الأخت الفاضلة (ناثرة الصراف)، التي قضينا معها ومع موظفات المكتبة الأخريات أجمل الأوقات وأكثرها عطاء، ونحن نحيا أجواء عائلية تسودها المحبة والانسجام... ولذا فلشد ما آلمني خبر تفييضها ونقلها، واعتذرت عن قبول إدارة المكتبة بدلاً عنها، ولكن إصرار المدير العام، وإعلامه إياي بأنها مرحلة قصيرة، وسأغادرها، جعلني أقبلها على مضض.

ولا زلت أذكر يوم جاءتني لكي أجد لها وساطة في مديرية التربية التي نقلت إليها، أن يضعوها في الإشراف على إحدى المكتبات المدرسية، فما كان مني إلا أن تذكرت أخي العزيز الدكتور حازم عبد الله ﷺ الذي كان قد نقل هو الآخر من كلية الآداب بسبب مواقفه الصارمة ضد التدجين الحزبي، وقلت لها: يا سبحان الله، ها هو مثلث النقل قد اكتملت حلقاته... سألتني: كيف؟ قلت لها: تصوّري أن منقولاً يتوسط لمنقول لدى منقول آخر... فهل سيأتي بنتيجة؟

وفعلاً فقد سارعت بالذهاب إلى الشعبة التي يعمل فيها الدكتور حازم عبد الله، فلم أكد أرى رأسه الغارق في كدس هائل من الأضابير التي كان الخبثاء يكلفونه بها لتحديد مستويات الطلبة الخريجين من المدارس المتوسطة... وتذكرت، وأنا أحاول أن أعثر على وجهه لكي أحدثه بالمطلوب، مقولات كتاب المسرح العبثي (مسرح اللا معقول) التي طالما أكدوا فيها أننا نحيا عالم التكاثر بالأشياء التي تحيط بنا وتحاصرنا من كل جانب، فتعزلنا عن بعضنا، ولا تسمح لأحدنا بالتواصل مع الآخرين...

وعدت إلى الأخت ناثرة لكي أعلمها بأن الرجل لا يستطيع وسط حصاره ذاك أن يفعل شيئاً على الإطلاق... ومع ذلك فإن الأفاعي السامة في الجامعة والمؤسسة والمديرية على السواء كانت تتحين الفرص لإلحاق الأذى بي، وقد تأكد لي ذلك من خلال اثنتين سأقف عندهما بعض الوقت: إعارة الخدمات، وقوائم الفائضين!!

فأما قضية الإعارة فهي رواية تطول فصولها، ويشتد عناؤها، وتتتابع

ويلاتها... ثم ما تلبث أن تؤول إلى لا شيء، حيث في النظم الشمولية لا يسمح إلا للمنتمين إلى فكر الدولة، والمرتبطين بماكينتها، من الحصول على ما يطلبون، فلنبدأ القصة من أوّلها، وكأن تجربتي المريرة الأولى يوم كنت في الجامعة لم تعلمني... فها أنا ذا، معتقداً بأن وضعي الجديد، وبعدي عن لدغات الأفاعي سيسمح لي بأن أغادر العراق متحققاً بالاستجابة للعمل في هذه الجامعة أو تلك...

في شباط من عام (١٩٧٨م) أتلقى رسالة من صديق حول ضرورة التقديم لإعارة خدماتي لإحدى الجامعات بعد أن انخفض راتبي الشهري إلى ما دون المائة دينار، وهو أقل مما يأخذه بعض الفراشين!! فيتناوشني القلق والحيرة بين جامعتي العين في الإمارات العربية المتحدة، والجامعة الإسلامية في المدينة المنورة.

في الشهر التالي أتلقى مكالمة هاتفية من صديق حول برقية وصلتني من الخارج، فينتابني القلق المركز بانتظار الصباح للاطلاع على مضمونها، تحسباً من أن تكون من جامعة المدينة، ومعنى هذا العودة إلى الحيرة القاسية بين جامعتي المدينة والكويت التي لا زلت أحلم بالعمل فيها... ثم تبين أنها من الأمين العام لجامعة الكويت، حول ترشيحي عضواً احتياطياً، واستبعاد الاحتمال الأول باعتباري عضواً أصيلاً... فينتابني الفرح الغامر بتجاوز الحيرة والعودة للتركيز على المدينة، يصاحب ذلك قلق متزايد على مضي الزمن دون وصول جواب من جامعة العين بالسلب أو الإيجاب، لكي أتحرك على ضوئه تجاه إعارة خدماتي المعلقة إلى جامعة المدينة... وثمة رغبة عميقة في توقف سير الأيام أو تباطؤها لحين اتضاح النتيجة!! ثم ما ألبث أن أتلقى اتصالاً هاتفياً من صديق في جامعة العين حول ضرورة السفر إلى بغداد، ومقابلة أمينها العام، وإقناعه بترشيحي... فما ألبث أن أسافر إلى بغداد وألتقي الأمين العام، وعدد من الأصدقاء وأقفل عائداً إلى الموصل وأنا في أقصى حالات الارتياح، لكي أتلقى رسالة من الصديق إياه حول ترشيحي شبه المؤكد للجامعة المذكورة،

تعقبها رسالة أخرى تؤكد سابقتها... وثمة عرض للإعارة من جامعة سودانية سرعان ما أعتذر عنه.

السفر إلى بغداد واللقاء مع أحد الأساتذة للاستفسار عن قضايا الإعارة وتلقي حديث صريح... تعقبه زيارة صباحية في اليوم التالي لكلية الآداب واستفسار غير مجدٍ من ملحقية الإمارات...

مخابرة من صديق حول عرض جديد للإعارة من قبل لجنة قدمت من جامعة مكة، وسعت للمطالبة بإعارتي شخصياً، ثم قرار بعدم التقدم، بعد قليل من القلق، بانتظار نتيجة معاملتي في جامعة العين، حيث أخذ القلق يتزايد بسبب تأخر جوابها.

في حزيران عام (١٩٧٨م) يحين موعد رحلتنا العائلية للأردن ولبنان، ينتابني القلق حول مصير الإعارة والتخوف من أن يأتي الطلب وأنا هناك، وتنتابني الحيرة بين تنفيذ الرحلة في موعدها المتفق عليه، وبين طلب تأجيل الحجز والإجازة الاعتيادية وما قد يسببه من متاعب ويقتضيه من متابعات... ولكني أقرر السفر في موعده رغم احتمال قدوم أحد الأساتذة من جامعة العين أو وصول الجواب نفسه، واحتمال عودتي إلى الموصل ثانية إذا اقتضت معاملة الإعارة ذلك... وثمة حيرة أخرى بصدد البدء بمعاملة الإعارة إلى المدينة المنورة. والتخوف من أن تتحول الرحلة إلى قلق متواصل، إذا تم الحصول على الجواب النهائي بشأن الإعارة... ثم قرار بالاتصال الهاتفي بملحقية الإمارات وفرحة الجواب بعدم الموافقة، إذ أنني لم أكن أريد أكثر من جواب نهائي، ثم التأكد السار بوصول رسالة من أستاذ صديق بعدم الموافقة.

قلق جديد بصدد استحصال الترشيح ثانية من الملحقية السعودية، وضيق الوقت قبيل الرحلة العائلية الموعودة، ثم قرار بالاتصال الهاتفي بالملحقية وتلقي الجواب المفرح من وكيل الملحق، والانطلاق فجراً إلى بغداد، والصراع مع الزمن رغبة في الوصول بأقرب وقت لاستكمال معاملة الإعارة الجديدة... الوصول والاتصال بوكيل الملحق، وتردده المزعج بمنحي ترشيحاً جديداً خوفاً

من أن يكون الترشيح القديم قد أخذ طريقه إلى الجهات العليا في وزارة التعليم العالي، وإقناع الوكيل بتسليمي الترشيح، والانطلاق إلى المؤسسة العامة للآثار والحيرة القاسية بصدد طريقة البدء بالمعاملة في دائرة ليست لديها سوابق في هذا المجال، فضلاً عن غياب المسؤولين في المؤسسة، والحيرة ـ كذلك ـ بصدد الاتصال بالمسؤول عن الإعارة في وزارة التعليم العالي. ثم ما تلبث التعقيدات أن تنحلّ واحدة إثر أخرى... فأتمكن من الاتصال بالوزارة، وأعرف أن ترشيحي الأول قد جمّد هناك بسبب نقلي إلى وزارة أخرى... ثم يتبين لي طريق البدء بالمعاملة الجديدة فأستكمل خطواتها الأولى، وسط إحساس غامر بالفرح والانشراح بعد ما كنت أعانيه من حيرة واختناق... أتجه ثانية إلى الملحقية لإعلام الوكيل بنتائج اتصالاتي وملء استمارة الإعارة، وأقفل عائداً إلى المؤسسة لمقابلة مديرها العام دون جدوى... والاكتفاء بأن أكتب له ورقة أبين فيها سبب قدومي إلى بغداد وأقفل عائداً إلى الموصل.

نعود من رحلتنا المرهقة إلى الأردن ولبنان (تنظر التفاصيل في الملحق الخاص)، وأقابل مسؤول الدائرة فيعلمني بأنه لم يستطع معرفة أي شيء عن مصير معاملتي في المؤسسة العامة... في اليوم التالي يحدثني أحد الأصدقاء عن خطئي بتفويت فرصة إعارة خدماتي لمكة المكرمة رغم ضمانها شبه المؤكد... وشيء من الندم يجتاحني... وصديق آخر يحدثني عن الموافقة النهائية على قبولي من إدارة جامعة المدينة المنورة.

اتصال هاتفي ببغداد وإعلامي عن خروج المعاملة من المؤسسة... وحديث لطالب من مكة عن تأخير الدوام الجامعي للموسم القادم إلى ما بعد العيد الكبير... ومعنى ذلك إتاحة مزيد من الوقت أمامي لإنجاز معاملتي بصدد الإعارة...

مكالمة من بغداد حول ضرورة كتابة صيغة جديدة لصحيفة الأعمال، وتأخر معاملة الإعارة بسبب ذلك... ثم قرار بالسفر إلى بغداد لتسليم صحيفة

الأعمال، واختزال الوقت، والاطمئنان على سير المعاملة، ولكنهم يرفضون تسلّم المعاملة بيدي لتحويلها إلى الوزارة.

قلق متزايد بصدد إعلامي من قبل أحد الأصدقاء عن رقم معاملة الإعارة في وزارة الثقافة، والعودة إلى تجربة الصراع المرير مع الزمن، كما كان يحدث أيام محاولتي مع جامعة العين... وإخباري برفض معاملته وصديق آخر، واحتمال رفض معاملتي أنا الآخر... وإحساس غامر بالفرح بسبب قرب اتضاح الموقف النهائي عن المسألة التي عذبتني الأشهر الطوال. واستمرار القلق بصدد تعليق معاملتي في الوزارة وضرورة الاتصال بالوساطات المطلوبة مع شيء من التردّد... وأخي يعود من بغداد ويؤكد لي خروج معاملتي من الوزارة خلال اتصاله بأحد الأصدقاء... وإحساس غامر بالفرح... وحديث آخر لصديق قادم من أبو ظبي حول احتمالات الإعارة الإيجابية هناك، وفتح باب وساطة جديدة تسبب لي قلقاً...

اتصال بالوساطة الجديدة والتأكد من عدم تواجدها في العراق، الأمر الذي يجمد قلق الوساطات وإشكاليات الإعارة إلى ما بعد العيد... وينتابني إحساس عميق بقيمة الاستقرار، يمازجه إحساس مترع بالمرارة في أعقاب سلسلة المتاعب المرهقة بسبب الإعارة، وبأنه لم يكن ثمة راعٍ أساساً لهذا الأتون الذي تتبدى نتائجه غير مجدية على الأغلب، والذي بذلت فيه من الجهد النفسي والذهني والجسدي أكثر بكثير مما سيتمخض عنه من نتائج... متاعب بدأت مع منتصف الربيع ولا تزال... فلو أنني اكتفيت بمحاولتي مع أبو ظبي لما كلفني ذلك عشر معشار ما عانيته عبر هذه الأشهر الطوال... ولكن ويا للأسف يبدو أن تصرفاتي التي عهدتها مدروسة بدقة، قد أخذت في السنين الأخيرة تفقد توازنها وعقلانيتها على حساب أعصابي المرهقة!

وأُطلب إلى بغداد من قبل رئيس المؤسسة، فأتجه إليه وسط توقعات شتى... فيشير عليّ بأن أتجه إلى مقر المخابرات العام في كرادة مريم، وأن المقابلة هي بخصوص محاولة الإعارة... فآخذ تاكسياً إلى مدخل الكرادة،

حيث الحراسات المشددة، ثم أغادرها إلى الداخل مشياً على الأقدام، وأنا أجتاز بين الحين والحين كابينة حراسة، يسألني الواقف فيها عن قصدي فأجيبه... حتى أن أحدهم انزعج لطريقتي المستقيمة في المشي ورأسي مرفوعاً واعترض على هذا الأسلوب... فكأنهم يريدون من المواطنين ألا يرفعوا رؤوسهم عالياً وهم يجتازون ممرات المناطق الحرام.

حتى إذا بلغت استعلامات المديرية، وقدّمت لهم أوراقي، أشاروا عليّ بمقابلة الضابط (هيثم)... دخلت عليه فرحب الرجل بي وراح يسألني عن سبب طلب إعارة خدماتي للجامعة الإسلامية في المدينة المنورة... فبينت له الأسباب ولكنه ما لبث أن قاطعني قائلاً: هل ترغب في التعاون معنا أسوة بالكثيرين من زملائك، من أجل قضية الوطن؟ وكنت أعرف مسبقاً أن سؤالاً كهذا سيوجه إلي... نبهني إلى ذلك الأخ والصديق الدكتور محسن عبد الحميد، فأعددت له الجواب المناسب وقلت للضابط: ليس ثمة من يملك ذرة من شرف ولا تهمه مسألة الدفاع عن وطنه... ونحن نمارس العمل الجامعي منذ أكثر من عشر سنوات، فنغرس في نفوس طلبتنا عشق الوطن وضرورة حمايته، أما أن أرتبط بأية صيغة من الصيغ فهو أمرٌ مرفوض جملة وتفصيلاً...

تغيرت ملامح وجهه، ونهض قائماً وقال: يمكنك الانصراف... فغادرت المكان وأنا واثق من رفض طلبي، يغمرني إحساس عميق بالفرح والانشراح لتجاوزي هذه الحلقة المزعجة من متابعات الإعارة.

مخابرة من أحد الأصدقاء حول إحياء الأمل بإعارة الخدمات إلى جامعة العين، وتسليمي رسالة، وإعلامه حول التفاصيل، والتهيؤ للسفر إلى بغداد لاستلام الاستمارة وملئها وإرسالها بالبريد بالسرعة الممكنة، وقبل انتهاء موعد التقديم في نهاية العام، قائلاً في نفسي: لعل حساسيات الجهات المعنية في العراق من التعامل مع الجامعات السعودية هي التي قضت على محاولاتي معها... ربما تكون الإمارات أكثر تقبلاً... وأسافر إلى بغداد وأقابل أحد الأساتذة الأصدقاء فيعلمني عن رفض طلب إعارتي للمدينة المنورة، فيما كنت

أتوقعه... وأتوجه إلى ملحقية الإمارات وأحصل على الاستمارة المطلوبة ثم أقفل عائداً إلى الموصل لكي ما ألبث أن أرسل الأوراق والوثائق إلى جامعة العين بالبريد المسجل، وشيء من القلق بصدد عدم تصديق الشهادات المرسلة.

وصول كتاب عدم الموافقة على إعارة خدماتي للسعودية بعد ستة أشهر من القلق والانتظار... ورسالة من أبو ظبي بوصول الاستمارات... وأخرى من الحاج محمود شيت خطاب ﷺ تعد بالمساعدة الجادة بصدد الإعارة، وإحساس بالندم لعدم الإفادة من معونته في الإعارات السابقة... ورسالة ثالثة من صديق في الإمارات حول ترشيحي المؤكد ـ بإذن الله ـ للعمل في جامعة الإمارات، وردود الفعل المتأرجحة بين الفرح الغامر بتحقق الفرصة المنتظرة، وبين القلق والهمّ بسبب تعقيدات الظروف العائلية، وبخاصة مسألة دخول ابني محمد إلى المدرسة في بدء الموسم القادم.

برقية من الإمارات حول ترشيحي بصفة أساسية للتدريس هناك، وجواب مستعجل بالإيجاب...

برقية من جامعة الكويت تعلمني عن ترشيحي بصفة مبدئية وتدعوني للذهاب إلى الكويت بعد أيام قلائل على حساب الجامعة للاتفاق النهائي... وأقول في نفسي: أنها ضربة غير متوقعة... وحيرة مدمرة بين الالتزام الذي قيدت به نفسي قبل يومين فقط مع جامعة العين في الإمارات وبين إغراءات جامعة الكويت ومجالاتها الواسعة... ساعات من القسوة مترعة بالحيرة والندم والبحث اللا مجدي عن منفذ للخروج...

إحساس مرّ بأني لو رفضت عرض الكويت فإنني سوف أفرّط بأثمن فرصة في حياتي... وسوف أترك المكان الذي حلمت به طويلاً... المكان المليء بفرص التعبير عن الذات والنشاط الفكري والتأليفي والاجتماعي، فضلاً عن فرص الإبداع الأكاديمي في أجواء جامعية على درجة كبيرة من النضج والتنوع... وأختار المنفى البعيد في الإمارات... ولكن ماذا أعمل للتعهد الأدبي

الذي قطعته مع الجامعة الثانية؟! وماذا بصدد الميزة الوحيدة لهذه الجامعة، وهي احتمال ضمان إسهام لجنتها الموفدة إلى بغداد، بالمعاونة على تسيير معاملتي؟ ماذا لو رفضت الذهاب إلى الإمارات وعلقت مصير الإعارة على الكويت، ثم جاءني الرفض من العراق؟ حاولت أن أمتص المحنة النفسية بكتابة مسودة رسالة إلى جامعة الكويت دون جدوى...

وعدت إلى البيت متوتراً مرهقاً بعد ساعات قاسية من القلق والحيرة... وهناك عرضت محنتي على الأهل فخففوا عني بتأكيدهم على ضرورة اختيار الإمارات وعدم الدخول في متاهة الحيرة التي لا مبرر لها... ولكني بعد قليل عدت إلى الدوّامة إياها، ومضت الظهيرة والمساء والليل والنوم، ثقيلة قاسية مترعة بالقلق والحيرة والتوتر، خاصة بعد عدة محاولات فاشلة للاتصال الهاتفي بأستاذ جامعي في بغداد لاستطلاع رأيه حول الموضوع...

وفي صباح اليوم التالي بدأت أميل إلى الإمارات وخففت في نفسي شدة الحيرة وحرقة الندم على تضييع الفرصة الجديدة... ولست أدري ما الذي أنا صانع خلال الساعات القادمة؟!

الاستقرار بعد عناء مرير، ومشاورات، وموازنات مرهقة على توجيه اعتذار لجامعة الكويت... وتلتمع بين الحين والحين فرص التحقق الضائعة في الكويت فيغمرني ندم عميق، ولكن ليس ثمة مفر من اختيار كهذا...

حوار مع أستاذين من جامعة بغداد، لقيتهما في دعوة افتتاح مكتبة الأوقاف في السليمانية، يؤكدان فيه ضرورة تفضيل الإمارات باعتبارها أكثر ضماناً... وإحساس غامر بالسعادة...

تزايد الحيرة والقلق بصدد السفر إلى بغداد لتقديم طلب الإعارة إلى الإمارات حسبما نصح به أحد الأساتذة، أو تأجيله لحين قدوم لجنة التعاقد إلى بغداد حسبما طلب مني الأمين العام لجامعة العين... القلق مرة أخرى... وبعد مكالمة هاتفية مع الملحق الثقافي أقرر السفر إلى بغداد... وأبدأ بالمؤسسة حيث يتم إنجاز معاملة الإعارة هناك كخطوة أولى... ثم التوجه إلى

كلية الآداب ومقابلة أحد أساتذتها... واتصال هاتفي بآخر، ونصيحة مخلصة يقدمها أحدهما بصدد تجميد معاملة الإعارة وعدم البدء بها إلا بعد قدوم اللجنة من الإمارات لكي لا تتعرض للرفض منفردة وتضيع الجهود... وثمة الحيرة القاسية بين تسيير المعاملة وكسب الوقت وبين تجميدها بانتظار قدوم اللجنة، والاستقرار بعد لأي على الرأي الثاني... والعودة إلى الموصل...

رواية عن أحد الأساتذة الأصدقاء في جامعة الإمارات تعكرني قليلاً... مفادها أن علي ألّا أتشبث بالإعارة إلى الإمارات في حالة عدم ترشيحي، لأن بقائي في العراق أكثر جدوى... ووخزات من الندم على تضييع فرصة الكويت.

تصاعد القلق، وعودة الإحساس بالصراع ضد الزمن بسبب تجميدي لمعاملة الإعارة في المؤسسة بانتظار قدوم اللجنة التي يبدو أنها تأخرت بأكثر مما يجب...

قلق بصدد الاتصال الهاتفي بأستاذ من بغداد للاستفسار عن قضية الإعارة... فشل الاتصال وتزايد القلق والعناء ـ بعد لحظات يتصل بي الأستاذ نفسه لكي يعلمني بوصول اللجنة وبأنها ستتولى بنفسها استحصال الموافقة على كافة الأسماء المدرجة بقائمة المرشحين، بمعونة وزير من مجلس قيادة الثورة... فرح عميق بالنبأ... وليلة مترعة بالسعادة، واستيقاظ سعيد لم أذق طعمه منذ زمن بعيد.

عودة القلق والصراع ضد الزمن في أعقاب تأخر صدور أية نتيجة عن مساعي أمين عام جامعة العين مع الجهات الرسمية للحصول على موافقة جماعية على الإعارة... وخبر من صديق حول صدور تعليمات من وزارة التعليم العالي برفض أي ترشيح شخصي للعمل في الجامعات العربية... وشيء من القلق بصدد مخابرة فاشلة لأستاذ في بغداد حول مصير الإعارة، وتخوّف من ضياع فرصة تواجد الحاج محمود شيت خطاب في بغداد...

مخابرة مثبطة من أستاذ في بغداد: لجنة الإعارة لم تأت إلى بغداد وعليه فيتوجب المزيد من القلق والانتظار...

مكالمة من بغداد حول قدوم لجنة الإعارة من جامعة العين، تعقبها مكالمة من صديق آخر يبين فيها أنه لم يستطع التأكد من وجود اسمي مع قائمة المرشحين... وقلق بصدد السفر إلى بغداد، والاتصال بالوساطات... أو تأجيلهما.

اتصال هاتفي بالحاج شيت خطاب لكي يتوسط بصدد الإعارة... ورسالتان من صديقين في الإمارات عن التسهيلات السكنية والمدرسية، وحديث للدكتور عمر الطالب عن ميزات أخرى... وتخوّف من أن تبوء المحاولة بالفشل...

اتصال هاتفي بشيت خطاب لمتابعة الوساطة، وآخر بالعميد عبد الرحمن التكريتي للغرض نفسه...

توجيه ثلاث رسائل، بصدد الإعارة، إلى أمين عام جامعة العين، ورئيسها وإلى وزارة الثقافة والفنون...

مكالمة من أستاذ في بغداد حول ضرورة السفر للتوقيع على العقد في ملحقية الإمارات المتحدة... والذهاب إلى الملحقية والتوقيع على العقد... وحديث مقلق لأحد الحاضرين عن احتمال رفض ما يقرب من نصف المرشحين... وحديث آخر عن ضرورة التصديق على الأوراق والوثائق من عدد كبير من الجهات المختصة... ودقائق قاسية من القلق والحيرة والاكتئاب تضعني فيما يشبه المطحنة الشرسة... اتصال بالحاج محمود شيت خطاب، بعد عناء طويل مع الهواتف والتاكسيات للعثور على بيته، حيث يجري اتصالات عديدة بالجهات العليا، هاتفياً، دون جواب... ولحظات أخرى من الإحباط والقلق والحيرة... مغادرة الدار بعد الحصول على وعد منه باتصال آخر يوم غد... العودة إلى الموصل واتصال هاتفي بخطاب والحصول على وعد غير مؤكد بالسعي من أجل نجاحها...

السفر إلى بغداد، وزيارة كلية الآداب، وأحاديث عن قرب صدور الرفض بصدد الإعارة، وتعليقان من أحد الأصدقاء الأساتذة يضعاني في قلب الإحباط: احتمال رفض الموافقة على حضوري المؤتمر الدولي للسيرة والسنة النبوية في

قطر.. واحتمال شبه مؤكد بعدم الموافقة على تجديد جواز سفري بسبب المنع، جواباً على رفض طلب إعارتي السابق للسعودية!!

ردود فعل مختلفة تميل إلى الارتياح لدى تسلمي رسالة من جامعة العين في الإمارات يعتذر فيها أمينها العام عن ترشيحي، ويعتبره لاغياً بسبب عدم مقابلتي اللجنة في الموعد المحدد... وشيء من الندم مرةً أخرى على عدم الإفادة من فرصة وساطة الحاج محمود شيت خطاب مع شخصية كبيرة...

والآن، وأنا أسترجع ذكرياتي المريرة مع محاولة الإعارة الثانية هذه، والتي تعمدت أن أسردها بتفاصيلها المملة لكي يشاركني القارئ مذاق الرحلة الجبلية الصعبة... ما الذي دفعني إلى بذل هذه الجهود (الأسطورية) من أجل قضية شبه خاسرة؟ وخاصة بعد مقابلة ضابط المخابرات في المحاولة الأولى ورفضي القاطع في الاستجابة لطلباته، وهو الأمر الذي انتهى بإخفاقها؟ أما كان يتحتم علي أن أكف عن ملاحقة إعارة جديدة سوف تستنزف مني الكثير... الكثير... دون جدوى؟ أهو التشبث بالمستحيل؟ وأنا أرى العديد من أصدقائي الأساتذة، يحصلون على الموافقة ويخرجون؟ أهو نوع من الإصرار الذي يخرج عن حدود مملكة العقل إلى حالة من الوسواس التسلطي الذي يدفع الإنسان رغماً عنه إلى المضي في الطريق حتى نهايته، رغم أنه طريق مقفل مسدود؟ أهي نوع من الإدمان على اللعب بعد جملة من الخسائر، في محاولة يائسة للتعويض، قد تخطئ وقد تصيب؟

إن اثنين من كبار قيادات الدولة ممن حاول كل من اللواء الركن الحاج محمود شيت خطاب، والعميد عبد الرحمن التكريتي، التوسط لديهما... قد لقيا حتفهما أحدهما إعداماً والآخر اغتيالاً على يد السلطات... فماذا لو لم يتعرضا للتصفية... إنها أسئلة كثيرة ومحيرة تدور في الذهن... ولا من جواب... سوى أن نظام الحكم الشمولي الذي كان ـ في سبعينيات القرن الماضي ـ يمسك برقبة العراق... لا يسمح إلا بالمتمسحين به والمتعلقين بأذياله... أن يمروا إلى أهدافهم... أما الآخرون... فلا!!

ها أنا ذا، لدى استرجاعي لتلك المحاولات البائسة والمريرة ينتابني الندم العميق... الندم الذي يكوي الجملة العصبية كالنار اللاذعة... وأظل أتساءل مرة ومرتين وثلاثاً وعشرين مرة... لماذا؟!

أما عن قوائم الفائضين، فقد كانت الشائعات تنبثق بين الحين والحين عن صدور الأمر بنقل عدد من موظفي المديرية، أو ربما إحالتهم على التقاعد بحجة أنهم من الفائضين... حيث أصدر رئيس الجمهورية قراره المعروف بترشيق الدوائر، وإخراج الفائضين عن الحاجة منها، وتحويلهم إلى دوائر أخرى...

كانت هذه الشائعات تتردد على الألسنة، ومعها أسماء الفائضين... ولم أكن أنا من بينهم، لكنهم بين الحين والحين يحشرون اسمي فيها، فما يزيدني ذلك إلا ارتياحاً للسبب نفسه الذي ملأني غبطة يوم صدور أمر نقلي من الجامعة: إنها الرغبة بالتضحية في سبيل المبدأ، واستقلالية الرأي، وعدم الانخراط في صفوف الخاضعين لإغراءات الحياة الدنيا.

ويوماً جاؤوني باستمارة تتضمن السؤال التالي: هل ترغب في الاستمرار أم في التقاعد؟ فما كان مني إلّا ان أوقّع بالقلم العريض تحت عبارة التقاعد: نعم أوافق... وانتظرت الأيام والأسابيع والأشهر ولم أتلقَّ جواباً، وصدرت قوائم الفائضين ولم أكن أنا من بينهم... ويبدو أن أمراً قد صدر بالتريث بخصوص مصير الأساتذة الجامعيين المنقولين إلى الآثار... لأن النية قد عقدت على إعادتهم إلى وزارة التعليم العالي لأداء مهماتهم التدريسية فيها، بعد ذلك الانفجار الذي شهده العراق في النصف الثاني من الثمانينيات بخصوص إنشاء العديد من الجامعات الجديدة في محافظات العراق كافة... ومهما يكن من أمر فإنني لم أمدّ يدي بطلب للنقل... وإنما سيجيئني من الجهات العليا دون بذل أي مجهود... ولله في خلقه شؤون!!

وسواء كانت هذه الأنباء، بأفعالها وردودها، صحيحة أم لغرض الاستنزاف... فإن ما يؤكد مصداقيتها، ذلك الاجتماع الذي عقده مدير

المؤسسة العامة للآثار والتراث... الدكتور مؤيد سعيد... في إحدى قاعات المديرية العامة لآثار ومتاحف المنطقة الشمالية، لغرض تقييم أعمال مدراء الأقسام والشعب... حيث جاء الدور عليّ فقدمت عرضاً بسيل من المعطيات التي تم إنجازها بخصوص التراث... ولكنه أشاح بوجهه قائلاً: إنها لم تلبّ المطلوب... وأن عليّ أن أمارس الطريقة نفسها التي سلكها العاملون في شعبة التراث في بغداد... وراح يوجه نقداته إلى شعبة الموصل...

فما كان مني إلا أن أردّ عليه بعنف وأناقشه في كل طروحاته الخاطئة، وأصرّ على موقفي، ثم ما ألبث أن أترك الجلسة قائلاً: إذا لم يعجبه عملي، فإن له أن يفعل ما يشاء، ثم غادرت المكان وأنا أتقلب بين الغيظ من موقفه اللئيم وبين الارتياح البالغ لردّي المناسب عليه...

ثم ما لبثت، بعد أشهر معدودات، أن تلقيت طلباً من وزارة الإعلام بضرورة السفر إلى بغداد لمقابلة الوزير. ولم أكن أعلم يومها القصد الحقيقي من ذلك الطلب... ولقد قلبت الأمر على وجوهه فلم أصل إلى نتيجة...

فلما دخلت الوزارة فوجئت بوجود عدد من الأساتذة الجامعيين المنقولين يجلسون في الصالة بانتظار الموعد مع الوزير، فعرفت أن الأمر يتعلق بقضية إعادتنا إلى وزارة التعليم العالي... ودخلنا على الوزير (لطيف نصيف جاسم) فاستقبلنا بحفاوة وأشار علينا بالجلوس... ثم راح يسأل كل واحد منا عن سبب نقله من الجامعة، وفيما إذا كان يرغب في العودة إليها... وراح الأساتذة الجامعيون يمتحون كلامهم من بئر الانتهازية العميق... ويعلنون ولاءهم المطلق لقيادة الحزب والثورة، وأنهم في أي موقع كانوا سيظلون أولئك الجنود الأوفياء للسيد الرئيس القائد صدام حسين...

كنت أتابع تعابير وجوههم، وحركات أيديهم وأصابعهم، وكأنهم يعانون من حالة نشوة كتلك التي يقال أن الخمر تحدثها في نفوس الشاربين... وكنت أتابع أيضاً التعابير المرسومة على وجه الوزير والتي تعكس نوعاً من الامتعاض وعدم الارتياح، لهذا التملّق الرخيص والاستماتة من أجل العودة إلى العمل الجامعي...

فلما جاء الدور علي لم أزد في كلمتي على أن قلت: إنني ابن مدينتي الموصل، ولكنني أعرف أنها من أكثر المدن العراقية حسداً وغيرة من العناصر المتفوقة... ولقد كان هذا سبب، من بين أسباب أخرى، هو الذي وقف وراء نقلي من الجامعة...

أحسست وأنا أتابع ردود فعل الوزير بارتياحه لكلامي... بتعاطفه مع المنقول الوحيد الذي لم يفه بكلمة واحدة تزلفاً وتملقاً... ثم ما لبث أن أذن لنا بالانصراف... فغادرت الوزارة وأنا أحس بأقصى درجات السعادة، والارتياح بسبب موقفي ذاك، الذي هو حلقة واحدة من عشرات الحلقات التي كافحت خلالها من أجل أن أظل ثابتاً على موقعي الفكري... وعدم الانجراف قيد أنملة باتجاه الانحناء للسلطة وممثليها.

ثم ما لبثت أن تلقيت نبأ عن أن كتاباً وجّه إلى كليات الآداب في الجامعات العراقية، حيث رحبت بي جامعتا البصرة وأربيل، وأعربت آداب الموصل عن عدم حاجتها إليّ... وثمة صديق من بغداد يؤكد حقيقة إعادتي إلى الجامعة، وإلحاح قسم التاريخ في آداب الموصل على عدم الحاجة إلي، بينما رحبت كل من جامعتَي البصرة وأربيل، وأن رئيس المؤسسة تنصل من وضع اسمي في قائمة الفائضين، مع سبعة آخرين، ربما بانتظار نقلنا إلى وزارة التعليم العالي مرة أخرى... وثمة اثنان من الأساتذة يحكيان عن مكانتي في قسم التاريخ مقارنة بهزال أساتذته الآخرين... وخبر عن أن أساتذة ومعيدي كلية التربية في جامعة الموصل أعربوا عن ترحيبهم بعودتي، لكن العميد خضر الدوري فقد وعيه وأصر بعنف، على عدم قبولي!!

الانطلاق فجراً إلى بغداد،مع مطلع شهر أيلول لاستكمال معاملة الانفكاك من المؤسسة، وقطع شوط طيب في وزارة التعليم العالي، وارتياح للموافقة على مذكرتي بتحويل تنسيبي من الجامعة المستنصرية في بغداد إلى جامعة صلاح الدين في أربيل... أعقبتها برحلة أخرى إلى بغداد لإكمال المعاملة... حيث تم

اللقاء برئيس لجنة المقابلة الدكتور سعدون خليفة الذي استقبلني بود وبشاشة، وسلمني استمارة إلقاء محاضرة (تجريبية) في جامعة بغداد...

فذهبت إلى كلية الآداب حيث أعرب أساتذتها عن استعدادهم لإنجاز المهمة في اليوم نفسه... ومن ثم ألقيت كلمة موجزة بعنوان (منهج جديد لتدريس التاريخ الإسلامي في الجامعات) أعقبتها مناقشة ودية وتسلّم كتاب بخصوصها إلى الوزارة... حيث أعرب الدكتور خليفة عن موافقته عليها... وأدخل في صراع مع الزمن لإنجاز المعاملة قبل نهاية الدوام، وأحس بالفرح الغامر وأنا أتلقى آخر لمسة في المعاملة قبيل نهاية الدوام، وأقفل عائداً إلى الموصل...

وفي اليوم التالي أستقل تاكسياً إلى أربيل لتسجيل المباشرة حيث الاستقبال الودي من قبل أساتذة قسم التاريخ في كلية آداب جامعة صلاح الدين، واستكمال الأمر الجامعي بالمباشرة والعودة السعيدة إلى الموصل... والحمد لله...

تلقيت عبر هذه المرحلة من حياتي (١٩٧٧ ـ ١٩٨٧م) جملة كبيرة من الدعوات والفرص لحضور الندوات، والمشاركة في المؤتمرات العالمية، أو لتولي بعض المناصب المهمة في تحرير عدد من المجلات الكبرى، والكتابة في عدد منها... ولقد اعتذرت عن معظمها، وأخفقت في الحصول على الموافقات الرسمية لتلبية بعضها الآخر، بعد أن بذلت في ذلك الكثير من الجهد ولكن دون جدوى...

دعوة من المعهد العالمي للفكر الإسلامي لحضور مخيم في قبرص، اعتذرت منه... دعوتان للمشاركة في الملتقيات الجزائرية لم أفلح بالحصول على الموافقة فاكتفيت بإرسال بحوثي إليهما... دعوة الحوار في قضايا التراث من القاهرة لم أفلح في تنفيذه لعدم حصول الموافقة... دعوة من الندوة العالمية للأدب الإسلامي في الهند وأخرى من ندوة العلماء في الهند حول

معطيات المستشرقين، اكتفيت بإرسال بحوثي إليها متجنباً عناء المتابعات اللا مجدية في الحصول على الموافقات الرسمية...

دعوات عديدة من جامعتَي العين في الإمارات العربية والجامعة الإسلامية في المدينة المنورة اعتذرت عنها جميعاً خشية أن أدخل في مطحنة العذاب الساحقة التي تحدثت عنها في صفحات سابقة من هذه السيرة... دعوة من كلية العلوم الاجتماعية التابعة لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية اعتذرت عنها... دعوة من اتحاد الطلبة في جمهورية السودان اعتذرت عنها... دعوة من وزارة الأوقاف الأردنية وأخرى لحضور مؤتمر ترعاه دولة الكويت اعتذرت عنهما...

الاعتذار عن وضع منهج لدراسة التاريخ الإسلامي كلفت به من قبل جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية... الاعتذار عن إلقاء سلسلة من الكلمات في الإذاعة السعودية، الاعتذار عن المشاركة في مؤتمر حطين في بغداد... التوجّس من جائزة محافظة نينوى للمتميزين، الاعتذار عن قبول عرض مجلة (الأمة) القطرية الواسعة الانتشار، برئاسة تحريرها، بسبب ظروفي العائلية... وأخرى من مجلة (المسلم المعاصر) المصرية بقبول رئاسة تحريرها للسبب نفسه.

ولما كنت قد أخفقت في الحصول على الموافقات بخصوص العمل في الجامعات العربية لموسم دراسي كامل، حيث تبين استحالة ذلك بالنسبة لغير المنتمين لأجهزة الدولة والحزب، والمتعاونين معهما... فقد لجأت عبر النصف الأوّل من الثمانينيات إلى محاولة الإعارة لفصل دراسي واحد من بضعة أشهر، وبذلت في محاولتين أو ثلاثاً جهوداً يصعب وصفها باءت جميعها هي الأخرى بالفشل وعدم الموافقة، فقد أقفلت الباب نهائياً على أية دعوة من هذا القبيل أسوة بما فعلته مع الدعوات السابقة.

ولسوف نرى عبر أربعين أو خمسين سنة من حياتي كيف أنني تلقيت مئات الدعوات فلم أنفذ منها سوى العدد المحدود للأسباب آنفة الذكر...

وطالما حدثت نفسي: لو أنني كنت أعمل خارج بلدي، حراً من الارتباط بجملة من العوائق والقيود، أما كان بمقدوري ـ كما يفعل الآخرون الذين لم يفوّتوا فرصة واحدة، أن ألبي معظم تلك الدعوات؟ ولكن!!

في تموز من عام (١٩٧٩م)، بينما كنت منهمكاً في سقي أسس بيتي الجديد بالماء، إذا بأخي نبيل يأتيني ويقول: هل سمعت النبأ؟ فأجبته: أي نبأ هذا الذي تتحدث عنه؟ فقال: بيان من إذاعة بغداد حول محاولة انقلابية من داخل الحزب للإطاحة بصدام حسين، واكتشافها في اللحظات الأخيرة حيث تبين أن المشاركين فيها من كبار أعضاء مجلس قيادة الثورة والقيادتين القومية والقطرية، والوزراء والمدراء العامين... الخ...

ومعنى ذلك أن انشقاقاً حزبياً كبيراً مزق تنظيمات البعث المركزية وشطرها شطرين... ثم ما لبثت أن غادرت المكان وهرعت إلى البيت لمتابعة الأنباء الساخنة... حيث قيل بأن محاولة انقلابية أحكمت خيوطها بالتعاون مع قيادة البعث في سوريا، لمنع صدام حسين من التفرّد بالسلطة، والتشبث ـ بدلاً من ذلك ـ بالشرعية في انتخاب رئيس الجمهورية، بعد أن أعلن البكر ـ مرغماً ـ عن تخليه عن منصبه، وتسليم الراية إلى نائبه صدام حسين...

لكن هذا الرجل الذي جعل من حياته النموذج الكامل لعشاق السلطة في التاريخ البشري، ما كان مستعداً بعد رحلته الطويلة لقطاف الثمرة، من سحب البساط من تحت قدميه، ولهذا كان ردّه عنيفاً قاسياً مزلزلاً... ومن أجل تشويه محاولة خصومه للتشبث بالشرعية الحزبية، ادّعى أنهم دبروا محاولة انقلابية، ولهذا سيكون حسابهم عسيراً...

وما لبث أن عقد اجتماعاً في قاعة الخلد في بغداد دعي إليها الأنصار والمعارضون، ووقف صدام حسين يوزع نظراته القاسية كالفولاذ على الموجودين، وهو يحكي تفاصيل المؤامرة... ويطلب من كل واحد من المشاركين فيها أن ينهض قائماً، ويغادر القاعة، حيث تتسلمه أيدي رجال الأمن فتذيقه سوء العذاب، لكي ما يلبث بعد أيام قلائل وعبر محاكمة شكلية أن يساق إلى

مصيره رمياً برصاص رفاقه أنفسهم الذين تعمد صدام حسين أن يكلفهم مهمة تنفيذ الحكم برفاقهم القدامى!!

ومن كان هؤلاء؟ مجموعة من أبرز العناصر البعثية وأكثرها عطاءً: غانم عبد الجليل... محمد محجوب... عدنان الحمداني... محيي عبد الحسين... محمد عايش... واللواء الطيار وليد سيرت... وليد الأعظمي... الكبيسي... الحديثي... وعبد الخالق السامرائي الذي كان معتقلاً منذ عام (١٩٧٣م) بسبب من الغيرة والكراهية الشخصية التي يكنها صدام له... فأدرج اسمه ضمن المتآمرين... ثم منيف الرزاز أمين عام القيادة القومية في العراق...

وقد يكون هؤلاء الرفاق الكبار ـ فعلاً ـ قد اتصلوا بقيادة البعث في سوريا، وزعيمها حافظ الأسد، في محاولة منهم للحفاظ على الوحدة التي كان مزمعاً إعلانها بين العراق وسوريا، حيث يتبادل الرئيسان البكر والأسد قيادة الاتحاد الجديد بالتناوب.. ومعنى ذلك وضع صدام حسين في الظل، أو في الخط الثاني من السلطة، فيما يرفضه الرجل أشد الرفض... وقد يكون ـ حسب رأي بعض المحللين ـ في هذه النقطة محقاً، إذ كيف سيتم التوحد مع قيادة علوية نصيرية صرفة، كان قد سبق لها أن افترست شرعية الحزب على مرحلتين: انقلاب عام (١٩٦٦م) بقيادة العلوي صلاح جديد، ثم ما سمي بالحركة التصحيحية، عام (١٩٧٠م) بقيادة العلوي حافظ أسد؟! حيث تركزت السلطة نهائياً بأيدي القلة الطائفية في سوريا؟!

مهما يكن من أمر فقد خسر حزب البعث في العراق، في هذه المحاولة، خيرة عناصره، وأتيح المجال المفتوح، ليس فقط لتفرّد صدام حسين بالسلطة، ولكن لتحوّله، على طريقة عبد الكريم قاسم: إلى الزعيم الأوحد والقائد الضرورة.

إذا أخذنا بنظرية المؤامرة، ولا بدّ... حسب رأيي المتواضع أن نأخذ بها بمقدار، وليس في حدودها البعيدة، ذلك أن الله ﷻ يقول في محكم كتابه

العزيز: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ وَإِذَا﴾ [الأنفال: ٣٠] ويقول ﷻ: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥ ـ ١٧].

فقد يكون استعجال صدام بإزاحة البكر، وتعامله الرهيب مع المعارضين له، تمهيداً لإعلان الحرب على إيران التي أصبحت بعد نجاح ثورتها الإسلامية الشيعية، وقضائها على حكم الشاه، واندفاعها باتجاه مبدأ تصدير الثورة للأقاليم المجاورة، وبخاصة العراق بالتنسيق مع أحزابه الطائفية (الدعوة... والمجلس الأعلى... الخ) قد يكون هذا كله من وجهة نظر صدام، والقوى الغربية وبخاصة أمريكا التي آذتها قضية الهجوم على سفارتها في طهران واعتقال أكثر من خمسين من عناصرها، واتخاذهم رهائن لدى قيادة الحرس الثوري الإيراني... مبرراً للإسراع بتوجيه ضربة حاسمة للقوة الإيرانية، قبل أن تصلب ويشتد عودها، خاصة وأن المعارضة العلمانية، ولاسيما جماعة مجاهدي خلق، كانت لا تزال على قوتها، وقدراتها على تسلّم السلطة إذا ما اعتمدت الدعم الخارجي.

فالذي حدث، بعد محاولة عام (١٩٧٩م) الانقلابية في بغداد، هو تصعيد الحرب الإعلامية بين البلدين، وتشديد الخناق على حزب الدعوة، وتعريض كل من ينتسب إليه إلى الإعدام... واستفزاز الخميني للقيادة العراقية بدعوته أبناء الطائفة الشيعية في العراق، إلى الخروج إلى سطوح منازلهم وإعلان المفاصلة ضد السلطة... ثم محاولة أحد الإيرانيين اغتيال طارق عزيز عضو مجلس قيادة الثورة ووزير الثقافة والإعلام... والتراشق المدفعي بين البلدين على طول الحدود العراقية الإيرانية، ومحاولة السيطرة على العديد من المواقع هناك... وخطاب صدام الذي توعد فيه بالثأر لمحاولة اغتيال نائبه طارق عزيز، وقيامه باغتيال الرمز الشيعي الكبير محمد باقر الصدر الذي كان أنصاره يعدّونه خميني العراق، وإعلانه إلغاء اتفاقية الجزائر الجائرة التي سبق وأن عقدها مرغماً مع الشاه عام (١٩٧٥م).

في الثاني والعشرين من شهر أيلول عام (١٩٨٠م)، حيث كنت أشارك في

مجلس العزاء الذي أقيم بمناسبة وفاة الدكتور صديق الجليلي، في داره في محلة الإمام عون الدين... طرق أسماعنا صوت المذيع وهو يعلن قيام سلاح الجو العراقي بغارة شاملة على معظم مطارات إيران، وتدمير العديد من طائراتها الجاثمة على الأرض...

إذن فقد أعلنت الحرب... قائلين في أنفسنا: إن هو إلا أسبوع أو أسبوعين، وتعود الأمور إلى حالتها الطبيعية، فما كان أحد منا يتصور أن الأمر سيمتد ليس لأسابيع، وأشهر أو سنوات قليلة، وإنما سيفترس من عمر البلدين وطاقاتهما البشرية والاقتصادية ثماني سنوات بتمامها!!

في اليوم التالي، حيث كان بيت أهلي قريباً من ساحة المطار، استيقظنا صباحاً على حشود من الطائرات الإيرانية، وهي تغير على الطائرات الجاثمة فيه، وتسقط حمولتها، ثم ما تلبث أن تنسحب بعد أن جوبهت بنار كثيفة مخلفةً وراءها عدداً من الطائرات الإيرانية المحترقة...

في الأسابيع الأولى للحرب، اندفعت القوات العراقية على طول الجبهة لكي توغل في قرى ومواقع ومدن الجانب الغربي من إيران، وأخذ الإيرانيون يتراجعون أمام هذا الزحف السريع مخلفين وراءهم آلاف القتلى، ولكن ما أن مضت الأيام واستفاق الإيرانيون مما سببته لهم الضربة العراقية المفاجئة، حتى غدت الحرب أشبه بالكر والفرّ بين الطرفين... العراق يعتمد على قوته العسكرية، وتنظيمه التعبوي المحكم، وإيران تعتمد على الحشود البشرية الهائلة التي كانت تندفع ـ دونما خطة عسكرية دقيقة ـ إلى قلب المعركة، فتتلقى الهزائم المروّعة... وكان الخميني قد وعد المشاركين فيها بدخولهم الجنة، وسلمهم مفاتيحها، ما داموا يقاتلون عدواً كافراً!!

وقال صدام حسين في إحدى خطاباته على التلفاز: لقد جاءنا الفرس المجوس بعقيدة السماء وجئناهم بعقيدة الأرض، ولسوف نرى من ستكون له الغلبة في نهاية الأمر!!

في السنة الثانية للحرب، انقلبت موازين القوى، وبخاصة بعد تمكن

الإيرانيين من استعادة مدينة المحمرة (خرم شهر) ذات الموقع الاستراتيجي الحساس، وقضائهم على ما يزيد على الخمسين ألفاً من المدافعين عنها، واندفاعهم عبر الأسابيع التالية باتجاه المواقع العراقية الأخرى... الأمر الذي جعل صدام حسين يتخوف عاقبة الأمور، ويسارع بالطلب إلى الأمم المتحدة لقبول وقف إطلاق النار، بعد أن يكون قد انسحب بكل قواته إلى داخل الحدود العراقية.

ولقد كان هذا العرض فرصة مواتية للطرفين للكف عن هذا الصراع الذي وصفه المحللون العسكريون بأنه (لا معنى له)... والحق أنه ينطوي على معنى كبير... وكبير جداً... عندما أخذ يتبين للقريب والبعيد، هدفه الحقيقي الذي استغرق ثماني سنوات في مسألة كان يمكن أن تحسم بثماني أسابيع... إنها اللعبة الأمريكية القذرة في إدارة الصراع، ومدّه إلى أقصى مدى زمني ممكن، من أجل تدمير الطاقات البشرية والمالية والنفطية للبلدين المتحاربين، بحيث أنها على مدى هذه السنوات كانت تمد الطرفين بالسلاح وبالمعلومات الاستخباراتية التي تمنع أحدهما من سحق الآخر...

وأخيراً، وبعد ثماني سنوات من الصراع القاسي، وإصرار الخميني على احتلال العراق، وضمّه إلى جمهوريته الإسلامية... رأت أمريكا، بعد أن ولغت في دماء الطرفين، ودمرت طاقاتهما العسكرية والاقتصادية، وأحرقت نفطهما... أن ترمي بثقلها لوقف الحرب وذلك بأن تمدّ أحد الطرفين وهو العراق بأحدث الأسلحة، وبالتقنيات الجوية المتقدمة... الأمر الذي مكن العراقيين من الاندفاع ثانيةً في العمق الإيراني وحصد عشرات الآلاف من الجنود المنهزمين... فيما دفع الخميني... خوفاً على مركزه من الضياع، وأسوةً بما فعله القادة العرب في حروبهم مع إسرائيل، إلى القبول بوقف إطلاق النار والاستجابة لمطالب الأمم المتحدة، قائلاً أنه يشرب بقراره هذا كأساً من السمّ... ولكن لا بدّ مما ليس منه بدّ.

ورغم ذلك فإن القيادة العراقية نجحت طيلة فترة الحرب بجعل ويلاتها

تتمركز على الحدود، أما في الداخل فقد سارت الأمور على خير ما يرام... بل إن صدام حسين الذي حرم شعبه من الطيبات عبر السنوات الماضية، فتح أبواب الاستيراد من الخارج، وأغرق الأسواق بألوان البضائع التي لم يكن العراقيون يحلمون برؤيتها... ومضى إلى أبعد من ذلك فقام بتنفيذ خطة كبيرة لمد شوارع (الهاي واي) السريعة وجسورها، في مناطق بغداد، وبناء الفنادق الضخمة ذات النجوم الخمس... وما لبثت بغداد أن حوّلت خلال تلك الأيام المعتمة إلى واحدة من أروع المدن التي يعشقها الزائرون ويتمنون البقاء فيها الأسابيع والأشهر الطوال!! وكنا نحن نقوم برحلات عائلية لأسبوع أو أسبوعين عبر موسم العطل الربيعية حيث تتألق بغداد في شتائها الدافئ المشمس الجميل... وفي كثرة متنزهاتها ومتاحفها وأسواقها ومطاعمها...

لكن هذا كله لم يكن سوى أحد أوجه الصورة زمن الحرب... بينما تشكلت خلالها صور أخرى من المنغصات والملاحقة والعذاب الذي طال المواطنين جميعاً على مدى سنوات الحرب... فكانت هناك حشود السيارات المشؤومة التي تحمل جثث المقاتلين لكي توصلها إلى أهليهم في المحافظات العراقية... وكانت هناك الخفارات الليلية في الدوائر، حيث كنا نتناوب عليها كل أسبوع أو أسبوعين، أنا وأحد الموظفين معي في المتحف، وسط تلك الليالي المرعبة التي ينطفئ فيها الكهرباء، ونتخبط في ممرات المتحف المظلمة حتى ساعة متأخرة من الليل حيث نسلم أنفسنا للنوم، وأزيز صافرات الإنذار والطائرات المغيرة يملأ الأجواء... وكانت هناك الملاحقات السياسية القاسية للانخراط القسري في الجيش الشعبي الذي قيل بأنه الظهير الأمين للجيش الرسمي المقاتل في الجبهة... وكانت هذه الملاحقات تنبجس بين الحين والحين على شكل موجات عاتية من الملاحقة التي ينفذها الرفاق مع كل مواطن يلتقون به أو يصطادونه، موظفاً كان أم مستخدماً أم مهنياً أم مدرساً أم أستاذاً جامعياً أم عاطلاً... فكانوا يسوقونهم رغماً عنهم إلى معسكرات خاصة أقيمت لتدريبهم على القتال، وإرسال بعضهم إلى الجبهة... وما أكثر الذين ذهبوا ولم يرجعوا إلا وهم محمولين على الأكتاف...

وكانت أجهزة الإعلام تعلن عن ضرورات التطوع في الجيش الشعبي لحماية الوطن من العدوان في أعقاب كل مرة يتعرض فيها الجيش العراقي لهجوم إيراني خطير... ولا زلت أذكر ثلاثاً من تلك الحملات الشاملة للمّ المواطنين، كالأنعام، وسوقهم إلى معسكرات الجيش الشعبي، أحدها عام (١٩٨٢م)، وثانيها عام (١٩٨٦م)، وثالثها عام (١٩٨٧م)، وكنت في كل مرة أبذل المستحيل وأنفق من جهدي النفسي والجسدي الشيء الكثير كي لا أقع في قبضتهم، رغم ما كانوا يشيعونه من أنهم سيكيلون الصاع صاعين لكل من يتأبى على الاستجابة لطلباتهم، بما في ذلك منعهم من السفر خارج العراق ورفض كل طلباتهم، وإنزال الأذى بهم بشتى صنوفه...

وكنت في كل مرة من هذه المرات الثلاث، أسمع من أقربائي وأصدقائي، ورجال البعث أنفسهم، أحاديث مثبطة حول ضرورة الاستجابة وإلا فإنه الويل... فلم أكن آبه لذلك، ولكني كنت قبل اتخاذ قراري النهائي، برفض التطوع، أو تنزيل اسمي في الأقل على قوائم المتطوعين في الدوائر، أتصل بعدد من الأصدقاء من ذوي الماضي المعروف بنشاطهم الدعوي، فما كنت أسمع منهم سوى كلمة: إن عليك أن تستجيب، وأن تدوّن اسمك في قائمة المتطوعين، دون أن يكلفك هذا الذهاب إلى معسكرات التدريب...

وكنت أرى مجرد التوقيع هذا نوعاً من التنازل عن الموقف المبدئي الذي اتخذته مع نفسي وقناعاتي، وإسهاماً غير مباشر في حرب غير مبررة... ومراراً كنت أتصل بعدد من شيوخ الدعوة، مطمئناً إلى أنهم سيعطونني دفعة قوية باتجاه الرفض، فإذا بهم ـ على العكس ـ يؤكدون ـ حرصاً منهم على سلامتي ـ على ضرورة التوقيع والانخراط!! وأذكر أنني في إحدى المرات تلقيت شيئاً مما كنت أريده من أحد الأساتذة، حيث التقيت معه في أحد جوامع الموصل، وعرضت عليه الحال في أعقاب صلاة العصر، وغادرته سعيداً بحصولي على ما كنت أبتغيه، الأمر الذي زادني إصراراً على رفض التطوع... ولكني ما أن وصلت البيت حتى تلقيت منه مكالمة هاتفية، يعلن فيها تراجعه

عن موقفه بسبب تعرضه لضغوط قاسية، وينصحني بأن أتراجع أنا الآخر، لكنني لم آبه لنصيحته وأصريت على الرفض...

كانت أياماً من العذاب اليومي لن أنساها ما حييت، ولقد ظللت في المرات الثلاث، رغم كل عوامل التثبيط والتخويف والتهديد، على موقفي الرافض، حتى أنني مرة فوجئت بقائمة متطوعين مكتوبة في مديريتنا، وحرصاً من موظفات المتحف على مصلحتي أدخلوا اسمي فيها ووقعوا نيابة عني على كوني ضمن المتطوعين، فما كان مني في لحظة غضب إلا أن آخذ القلم وأسوّد به اسمي مستأصلاً إياه من القائمة.

طبعاً ان هذا كان من بين أسباب عديدة أخرى لرفض كل طلباتي لإعارة خدماتي للجامعات العربية، وكنت أعرف هذا، وتصلني عن طريق علاقاتي الشخصية، أخبار عن مواقف العديد من بعثيي الدائرة في عرقلة جهودي تلك...

وتجيء قضية انتخابات أعضاء المجلس التشريعي الأول عام (١٩٨٢م)، والثاني عام (١٩٨٦م)، ومبايعة صدام حسين (فيما بعد عام ١٩٩٤م)؛ لكي تضعني هي الأخرى على محك الاختبار... ولقد أشاع البعثيون وفق طرائقهم (الغوبلزية) الخاصة في التعامل مع أهدافهم السياسية والحزبية، بأن المشاركة في الانتخابات أمر حتمي، وعلى كل رب عائلة أن يصطحب معه يوم الانتخاب أو الاستفتاء أفراد عائلته ممن تجاوزوا الثامنة عشرة من العمر إلى المراكز الانتخابية لكي يدلوا بأصواتهم... لمن؟... لمرشحي الحزب، ولقلة من المستقلين الذين اختاروا أن يكونوا أدوات تمرير لمشيئة الحزب، وبأنه ستحصى أسماء الذين يرفضون المشاركة، ويسامون سوء العذاب، ويحرمون من السفر خارج العراق، وتعطل مصالحهم الشخصية والوظيفية وقد يساقون إلى السجون... و... و... وكنت ألحظ معظم معارفي وأصدقائي يسوقون عوائلهم كالأنعام لكي يدلوا بأصواتهم... ومع ذلك فقد رفضت في المرات الثلاث، ومعي عائلتي أن أشارك في تلك التمثيلية، التي كانت نتائجها المتوقعة سلفاً

تعلن على لسان عزة الدوري، نائب الرئيس، مساءً بأن نسبة المشاركين جاوزت التسعين بالمائة، وأن الذين بايعوا صدام حسين بلغت نسبتهم (٩٩,٠٩٪) بالمائة من الأصوات!!

وكان يقف على كل صندوق انتخابي عدد من زبانية البعث لإرغام الناس على اختيار من يريدون، وعدم ترك استماراتهم بيضاء من غير سوء... ولا زلت أذكر كيف خرجت إحدى خالاتي (رحمها الله) متحدية، وذهبت إلى مركز الاقتراع وأرادت أن ترمي استمارتها بيضاء فإذا بأيدي الزبانية تمسك بيديها، وتتهددها، وترغمها على أن تمارس الترشيح، ثم ما تلبث ثلة منهم أن تأتي إلى دارها لكي يحاسبوها الحساب العسير، لولا أن زوجها القومي الناصري، سالم محضر باشي ﷺ الذي سبق أن تولى رئاسة نقابة المعلمين في الموصل، تصدى لهم وأقنعهم بالكف عنها...

ليس هذا فحسب، بل إن المنغصات امتدت إلى مساحات أخرى من حياتي خلال الحرب... جملة رسائل من أصدقائي المغفلين في الخارج، تصلني وفيها حملة صريحة ضد نظام البعث وقائده صدام حسين، وقصائد ملتهبة في الهجوم عليهما... ولكن الله ﷻ سلّم...

ورسائل أخرى وزيارات دورية من رجالات حزب الدعوة العاملين في الخلايا الموصلية، بعد أن رأوا كتاباتي الحادة في نقد الفكر البعثي، يطلبون مني فيها المشاركة معهم في الهجوم على الطاغية صدام حسين... ولقد وقعت إحدى هذه الرسائل التي كانت تصلني في البريد الاعتيادي بيد رجال الأمن... واستدعيت للتحقيق، وانتهى الأمر بأن قلت للمحقق: إن عنواني البريدي معروف للقاصي والداني، وبمقدور أي شخص أو جهة أن تبعث إليّ بما تشاء... فأين هي مسؤوليتي الشخصية في ذلك؟ ويبدو أنه اقتنع أخيراً بحجتي تلك فأطلق سراحي...

بل إن الأمر بلغ حد التهديد المحتمل بقتلي، ولقد نقل لي ذلك الأخ سالم عبد الرزاق، مدير أوقاف الموصل وذو العلاقات الواسعة برموز القطر في

العراق، قائلاً: إن مواقفك وكتاباتك هي السبب وراء كل متاعبك، وإن شعبيتك الطاغية في البلدان العربية، وبخاصة المغرب، بسبب هذه الكتابات، نبهت هناك العناصر الاستخباراتية العاملة في السفارات والقنصليات العراقية، فراحوا يسألون عنك، وعن طبيعة علاقتك بالسلطة... وإن قيامك بنشر مؤلفاتك، خارج العراق، وبعيداً عن رقابة السلطة، يمثل استفزازاً لها... فضلاً عن أنك تمارس قطيعة صارمة لنشر مقالاتك وبحوثك في المجلات العراقية ذات الارتباط المباشر بالسلطة... هذا إلى قيام الأمين العام للقيادة القومية لحزب البعث الرفيق شبلي العيسمي بالتعرض في كتابه عن (القومية والدولة الدينية) بهجوم قاسٍ على كتابك (تهافت العلمانية)...

وفي لقاء مع الدكتور عمر الطالب، بعد عودته من المغرب، حيث أعيرت خدماته الجامعية هناك لخمس سنوات، حدثني عن حضوري الواسع في تلك الديار، وعن أن فكري المتميز بالأصالة هو سبب انتشاري في المغرب من دون سائر الكتاب والمفكرين العراقيين، وعن تحقيق حولي أجراه معه سفيرنا هناك، وعن ثلاث أطروحات ورسائل جامعية ستكتب عن أدبي، إحداها عن مسرحي والأخريتان عن منظوري النقدي...

وثمة حديث خطير لسالم عبد الرزاق بعد عودته من المغرب في أعقاب حضوره ندوة هناك، يؤكد فيه أن كتاباتي فضلاً عن انتشاري خارج العراق يقتضي ثمناً، ويؤكد نقلاً عن وزير الأوقاف (فاضل السامرائي) أنني ما لم أسارع فأقدم شيئاً من مقالاتي وبحوثي للنشر في المجلات الرسمية، فسيكون موقفي من السلطة صعباً... ويلمح عبد الرزاق بأن الأمر قد يصل حدّ تصفيتي الجسدية... ولكني أصر على عدم الاستجابة، وسط إحساس معذب يصعب وصفه للمصير المتوقع... ويزداد العذاب بإزاء الطفلة والزوجة والعلاقات العائلية... إحساس يمتص فرحتي بالعودة إلى العمل الجامعي... إحساس مرير بأنني أمشي على قشرة خارجية من الجليد، قد تنكسر في أية لحظة فأهوي إلى الأعماق...

ولقد اعتذرت في تلك المرحلة عن الاستجابة لدعوة بزيارة وزير الأوقاف في فندق (أوبروي) لدى زيارته الموصل، وقد كان عائداً من المغرب وتلقى من سفارتنا هناك الكثير من المعلومات عني، كما رفضت الاستجابة لطلبه بالكتابة لمجلة (الرسالة الإسلامية) التي تصدرها وزارة الأوقاف، بعد أن تحوّلت المجلة التي كنت أكتب فيها سابقاً، إلى إعلام سلطوي صرف...

وثمة صديقان آخران يحذراني من السفر اليومي إلى جامعة صلاح الدين في أربيل، بسيارتي الخاصة، وشيء من التوجس الذي يحكم قبضته علي... ولكن إرادة الله ﷻ، لحكمة يريدها جلّ في علاه، تدخل عل الخط، كما سبق لها مراراً أن دخلت على الخط فانتشلتني من مصير كاد يودي بحياتي... فحمداً لله وحده...

رسالة تصلني من مثقف تونسي تتضمن إشارة إلى أن نبأ وفاتي (الكاذب) الذي لا أدري أسبابه، وكيف أشيع، أصاب بالحزن قسماً داخلياً بكامله للطلبة الجامعيين، وأن كتاباتي تحرك الهمم الخامدة وتنفخ فيها النار... فحمداً لله...

والمتاعب تلاحقني من أقطاري الأربعة، ولا تدعني أرتاح بين الحين والحين إلا قليلاً... لكي ما ألبث أن أتلقى واحدة أخرى...

لقد كان شرائي لقطعة أرض في الطيران، ورطة كبيرة، بسبب اشتراك العديد من الأطراف فيها... ووفاة بعضهم، الأمر الذي كلفني جهداً قاسياً من المتابعة شبه اليومية على مدى أكثر من سنتين بين دوائر الدولة: البلدية، والمحاكم، والتسجيل العقاري، والدخل... الخ... الخ. وكلما أوشكت أن أقطف الثمرة، وأن أفرغ الأرض باسمي، لكي أبدأ البناء، يعترضني عائق جديد يعيد المعاملة ثانية إلى نقطة الصفر... فأبدأ المعاملة القاسية من جديد، وهي تتأرجح في الذهاب والإياب ما بين الموصل وبغداد، حتى أذن الله ﷻ بالفرج، وتمت تصفية كل المتعلقات، وأفرغت الأرض باسمي وحصلت على سند خاص بها والحمد لله، فيما كان بمثابة فرحة غامرة لي ولزوجتي، بعد أن كدنا

نيأس من الحصول على النتيجة، ونتحول للبحث عن قطعة أرض بديلة... ومع ذلك فقد حجبت عني هذه القطعة المعقدة، الحق في حصولي على قطعة ذهبية في حي المثنى، في سياق قانون الكفاءات، وكدت أحصل عليها لولا تلك الاستمارة التي تطلب إحدى فقراتها الإعلان عن ملكية الأستاذ الجامعي لأية قطعة سابقة... ورغم أن العديد من الزملاء داسوا على ضمائرهم، وأجابوا بكلمة (لا نملك)، رغم أنهم يملكون، حصلوا على الأرض... فإني اخترت ألا أكذب وأدخل في دائرة تعذيب الضمير، وربما أفتح على نفسي بوابة يصعب سدّها إزاء الأفاعي التي تنتظر مني موقفاً كهذا كي تمارس لدغاتها المؤذية وتفرغ سمَّها الزعاف...

ثم ما لبث أن جاء بعد سنتين من تلك المعاناة القاسية لتخليص الأرض، ما هو أشد لعنة وأصعب فتكاً... ففيما بين الأعوام (١٩٧٩ ـ ١٩٨١م) دخلت معمعة البناء التي استنزفتني تماماً وتركتني ركاماً... ففي تلك المرحلة التي قررت فيها البناء لم يكن ثمة متعهدون يتولون الإشراف اليومي على البناء، ومتابعة مطالبه كافة، كما حدث فيما بعد، حيث يظل صاحب البناء بعيداً عن الميدان، ومن ثم يتسلم المفاتيح جاهزة... أما المهندسون فكانوا يومها يكتفون برسم التصاميم ومتابعة تنفيذها فحسب، دون أن يكلفوا أنفسهم عناء متابعة ما يتطلبه البناء من مستلزمات يومية تتدفق مطالبها القاسية كالسيل... ناهيكم عن صعوبة الحصول يومها على مواد البناء ومطالبه، وبخاصة السمنت، والخشب والحديد والكاشي... الخ... حيث كانت الدولة التي رفعت شعار (الاشتراكية) قد حصرت ذلك كله في دوائرها الرسمية.

خطوة خطوة... ومفردة مفردة... كان عليّ أن أتابع شراءها وتجهيزها في اللحظة المناسبة، وإلا تعطل البناء أو لحق به ضرر كبير يصعب تداركه... فعلى مدى سنتين كنت أركب السيارات، والدراجات النارية، وشاحنات الرمل والحصى، والبلدوسرات، لتلبية مطالب البناء اليومية المتجددة... كما كنت أقوم بجولات طويلة مرهقة في أحياء الموصل القريبة والبعيدة، لشراء المواد، مادة

مادة، ولملاحقة العمال والفنيين الذين طالما أخلفوا مواعيدهم معي متوسلاً إليهم أن يعودوا للعمل... وكم من مرة سعيت للمصالحة بين هذا العامل أو ذاك، وهذه المجموعة أو تلك، ممن كانوا يتشاحنون فيما بينهم، ويتركون العمل معلقاً...

أما سقي أعمال البناء، بدءاً من الأسس وانتهاء باللبخ، فقد استنزفت مني الكثير الكثير من الجهد النفسي والجسدي، حيث كان الماء شحيحاً، ولم تجد لجلبه الماتورات التي كنت أشتريها بسخاء من أجل تجاوز المحنة...

كما كان عليّ الذهاب شبه اليومي إلى باب الجديد، أو المقاهي الخاصة بعمال البناء لجلب مجموعة منهم لمواصلة الحفر والردم والتسوية والنقل، ليس هذا فحسب بل كان علي أن أقف لمراقبتهم دقيقة بدقيقة وساعة بساعة، وأشتغل معهم من أجل تحفيزهم على العمل، وعدم تركهم يسترخون، بل ويخونون الأمانة... ويوم كنت أتابع الحصول على وجبات السمنت من معملها في طريق حمام العليل، كنت أسبق هذا بجملة من الوساطات كي أحظى بالمطلوب... وكثيراً ما عدت من هناك بخفي حنين...

أما الأخطاء التي كانت تحدث في أعمال البناء، فحدّث عنها ولا حرج... وقد استنزفت مني لإصلاحها الشيء الكثير... سواء في إقامة الجدران المائلة... أو في شبكة التأسيسات المائية أو الكهربائية... أو في أعمال الخشب والحديد، أو في مجابهة المشاكل التي تحدثها الأمطار الغزيرة المفاجئة... وأعمال السرقة التي طالت حتى مخازن الماء...

ولحسن الحظ فقد كان عملي في المتحف عبر تلك السنوات، يتيح لي في كثير من الأحيان، أن أتغيب الساعات الطوال، لمتابعة أعمال البناء، دون حساب... لأني كنت في عملي الوظيفي أنجز المطلوب وأزيد عليه... فيما كان يضعني في دائرة الرضا من قبل مسؤولي المتحف... إلا في حالات استثنائية نادرة...

أيام العذاب والمعاناة كانت تلك السنوات القاسية، الصعبة، حيث كنت

أيام الصيام، وأنا أقف الساعات الطوال لمراقبة العمال، أرجع إلى البيت وقد نشف جسدي من أية قطرة من الماء، وجعلني العطش ألوذ بأرضية السرداب الباردة لكي ألصق بطني بها، لعلها تنسيني ويلاته، التي لا تطاق... ولكن دون جدوى... أيام العذاب والمعاناة، حتى أنني ـ عبر بعض الحلقات القاسية التي تعترض العمل ـ كنت أقول لأهلي ـ أنني لن أظل حياً حتى أشهد اكتمال البناء... ولسوف يقضى عليّ قبل أن أتم إنجازه...

ولكن لكل شيء نهاية... وها هي سنتا البناء قد انقضتا واكتمل البناء رغم ما انطوى عليه من نواقص وثغرات عديدة، كان عليّ متابعة تنفيذها لعدة سنوات بعد تحوّلنا للبيت الجديد، الأمر الذي استنزف مني الكثير من الجهد والهمّ والغمّ والحيرة والقلق...

وكنت خلال أعمال البناء أتابع مسألة بيع سيارتي المرسيدس بسعر مناسب يعينني على مصاريف البناء التي تتدفق كالسيل، وأخيراً وقع الاختيار على أحد المشترين وبالسعر الأعلى يومذاك، أربعة عشر ألف دينار، فيما شكل نصف مصاريف البناء، وأنقذني من المزيد من الديون... ولكن لا يسأل أحدكم عن حالي وأنا أسلم السيارة لمالكها الجديد... كنت كمن يفقد شيئاً عزيزاً على نفسه، ربطتني به علاقة حميمة يصعب التفريط بها في صفقة عابرة...

ولكن لا بدّ مما ليس منه بدّ، وإلا لم أكن قد حظيت ببيت للسكنى... ولحسن الحظ، فبعد أشهر قليلة من بيع المرسيدس أعلنت الشركة العامة للسيارات عن فتح باب التسجيل للموظفين الذين لا يملكون سيارة، وبسعر المنشأ (أربعة آلاف دينار فقط)، فسارعت إلى التسجيل مقتطعاً المبلغ من ذلك الذي حصلت عليه من بيع سيارتي الأولى... حيث أتيح لي بعد أقل من سنتين الحصول على سيارة تويوتا كورونا اليابانية الأصيلة عام (١٩٨١م).

وذهبت وأحد أقربائي إلى البصرة لتسلّمها، وخلال العودة تعرضنا لثلاث محاولات كادت أن تودي بنا وبسيارتنا، إحداها محاولة اصطدام من قبل سيارة المنشأة الثقيلة، والأخرى بسبب فقدان السيطرة على المقود... والثالثة بسبب

مرور سيارة في الجهة المخالفة كادت أن تأتي علينا... ولكن إرادة الله وحده، هي التي أنقذتنا من الهلاك في المرات الثلاث... ولا تزال التويوتا بسبب أصالتها، موجودة بين يدي ابني محمد لحدّ الآن ـ حيث كنت قد تركت السياقة منذ عام (٢٠٠٥م) ـ رغم مرور خمس وثلاثين سنة على امتلاكها.

ولكن ويا للمفارقة... فما أغرب وضعي النفسي وأنا أستيقظ عصراً على شيء من الإحساس المبهظ بثقل العبء، لدى التفكير بأنني أصبحت أملك داراً وسيارة... فما أجمل التجرّد والتخفّف من الملكية... إنها مسؤولية وحمل ثقيل... فماذا لو بقيت أعيش في دار غيري، وأعتمد التنقل في سيارات لا أملكها، وأنصرف إلى العمل والإنجاز؟ إنه تحدٍّ غريب... ولكن!!

قبيل البدء بأعمال البناء في ربيع عام (١٩٧٩م) بحوالي الشهرين، رزقنا الله ﷻ بمولودنا الثاني: ابنتي (مها) بعد أشهر من التوجس والوساوس بخصوص ولادتها وسلامة الأم... فيما أعادنا إلى ذكريات ولادة محمد، الذي لم يطلّ على الدنيا إلا بعد إجراء عملية جراحية لأمه، وبعد ساعات قاسية من النزف الذي تطلب مني الإسراع إلى المستشفى العام للحصول على قنينة الدم... وكيف كان نسيبي يقود السيارة عبر شوارع الموصل المزدحمة بشكل جنوني للوصول إلى المستشفى والعودة ثانية بالقنينة إلى حيث ترقد زوجتي في مستشفى الحكمة... ولكن الله ﷻ سلّم، وانتهى الأمر على خير.

هرعت بزوجتي إلى مستشفى الولادة، وظللت هناك خارج الردهة حوالي الساعة وأنا أدعو الله ﷻ أن ينقضي الأمر على خير... وما لبثت الطبيبة أن خرجت لكي تبشرني بولادة ابنتي (مها)، التي كانت منذ يومها الأول تشع بياضاً، وتلتمع عيناها الخضراوان في وجهها الدائري فتزيدها روعة وجمالاً... فحمدت الله ﷻ على عطائه السخيّ، وكرمه، ومنّه.

ويوماً وأنا منكبّ على عملي في المتحف يدق جرس الهاتف، فإذا بي أسمع صوتاً طفولياً هشاً يصيح: بابا... بابا... ففوجئت بسماع صوت طفلتي الصغيرة لأوّل مرة، حيث كانت متعلقة بي بسبب من محبتي لها ومداعبتي إياها... لقد

كانت بمرور الوقت تزداد تفتحاً وروعةً وجمالاً، وتأسر كل الذين عرفوها بحسنها وحركاتها الطفولية الآسرة... ويوماً ونحن نقضي الأمسية في بيت أحد الأقرباء، انقضت (مها) على طبق من البرتقال، قبل أن يتم توزيعه علينا... واختارت أكبر الحبات حجماً، فلما صاح بها الموجودون، هرعت إلي لكي تسلمني البرتقالة وهي تجيبهم بصراخها: بابا... بابا... أي إنني اخترت هذه البرتقالة الكبيرة لأبي...

واستقرينا في منتصف حزيران عام (١٩٨١م) في بيتنا الجديد، في منطقة الطيران، قريباً من دور الأهل والأخوة والأعمام... ورغم الارتياح النفسي العميق، والفرحة الغامرة بهذه المناسبة السعيدة، فإن ما كان يقلقنا هو كثرة النواقص التي ظلت معلقة وظللت أتابعها السنين الطوال... ومع النواقص، موقع البيت من مطار الموصل، حيث كانت الطائرات في زمن السلم والحرب تجوب أطراف السماء وتسبب بصراخها وصخبها المتواصل صباح مساء، الكثير الكثير من المتاعب والمنغصات، النفسية والعصبية، ولا تدعنا نلتقط أنفاسنا ونتمتع بالهدوء إلّا لماماً... هذا إلى ما في القرب من المطار من مخاطر جمة والتي ستجيء فيما بعد، بصيغة موجات ثلاث أشبعت المطار بقصف القنابل والصواريخ، ونحن في المرّات الثلاث مصرون على البقاء في بيتنا ومنطقتنا، رغم مغادرة معظم عوائلها إلى جهات أخرى... هذا إلى ما كانت تعانيه المنطقة بسبب انخفاضها من مياه الفيضان التي تتدفق عليها من كل مكان، فتحيل الشوارع إلى أنهار... وتهدد البيوت وسراديبها الأشهر الطوال...

في ربيع عام (١٩٨٢م) ونحن نستقل الباص الذي يقل موظفي وموظفات المتحف إلى رحلة ربيعية عبر طريق القوش، وكنت أنا جالساً في مقعد أمامي بالقرب من السائق، فإذا بصوت جماعي هائل يصدر دفعة واحدة، كصرخة موجعة، من الموظفات اللواتي جلسن في الخلف، ويعقبه بعد لحظة واحدة ارتطام مريع بسيارة أخرى دفعت الباص بعنف باتجاه أرض منخفضة، راح يتدحرج عليها قبل أن يستقر في أسفلها...

كنت أنا لحظة سماعي الصرخة التي أعقبها صوت الارتطام، أمسك بقوة مسند الكرسي الأمامي، وأنا اتقلب مع الباص، أدعو الله ﷻ أن يخرجنا من هذه المحنة سالمين، وألا تصيب الباص ضربة قاسية تسد علينا منافذ الخروج... وما أن استقر بنا الباص على الأرض منقلباً على نفسه، حتى أرخيت يدي من المسند الأمامي، وفتحت النافذة التي في جواري، وسحبت نفسي منها سحباً، لكي ما ألبث أن أجدني في العراء، وأنا أعاني من كدمات عديدة جعلتني أتأوه من الألم...

أما الآخرون فقد تعرض بعضهم لكسور عنيفة، وبخاصة إحدى الموظفات التي أصيبت بكسر في عظم حوضها... وما لبثت سيارات المرافقين أن وصلت منطقة الحادث، فتوزعنا فيها عائدين إلى المستشفى العام في الموصل، لأخذ الأشعة اللازمة من أجل تبين طبيعة الأضرار التي لحقت بكل واحد منا.

وكنت أنا عبر الطريق أدعو الله ﷻ ألا أكون قد أصبت بكسر يعطلني عن رحلتي إلى السعودية لإلقاء محاضرات في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية... وإذا بالأشعة تكشف عن سلامتي من أي كسر... فكان ذلك بمثابة فرحة كبرى، إذ أنجانا الله ﷻ من احتمال موت محقق، أو جملة من الكسور التي تتطلب صبراً وعلاجاً ربما لأسابيع وأشهر طوال... هذه هي المرة السابعة أو الثامنة التي تدخل الإرادة الإلهية على الخط فتنتشلني من الهلاك... فكيف لا يكون الإنسان وفياً مع الله؟! كيف؟!

في السنوات التي أعقبت تسلمي سيارة التويوتا، تعرضت هذه السيارة لثلاث ضربات موجعة كادت إحداها أن تأتي عليها... وكان السبب في المرات الثلاث أخطاء الآخرين، وتهوّرهم اللعين في السياقة، وقد كلفني ذلك الكثير من المال لإصلاحها... ولكن ـ والحمد لله ـ فإن ما نخسره من مال أفضل بكثير من خسارة صحتنا وعافيتنا... فحمداً لله مرةً أخرى.

ما لبث أن صدر أمر إداري قاسٍ بتمديد الدوام في الدائرة لتسع ساعات بدلاً من ست... كان ذلك بمثابة ضربة موجعة بالنسبة لي... ولكني عرفت

كيف أمتصها، بأن أغادر الدائرة في الساعة الواحدة يومياً لتناول الغداء في البيت أو في أحد مطاعم السوق وأعود ثانية إلى الدائرة لإكمال الدوام... فكان ذلك بمثابة تغيير طيب لروتين الدوام الذي ما اعتدته في عملي التدريسي المرتبط بساعات المحاضرات فحسب.

في عام (١٩٨٦م) رزقنا الله ﷻ بابنتنا الثانية (علا)... زهرة أخرى حبانا الله ﷻ بها لتزين حياتنا عبر مرحلة طفولتها المتألقة، رغم ما ألحقتنا به من متاعب بسبب بكائها المتواصل الذي لم يكن يسكته شيء، كوضعها قبيل النوم إلى جانبي حيث كنت أداعبها وأحكي لها القصص المسلية، فما تلبث أن تكفّ ثم تأخذها سنة من نوم عميق... يا الله... ما أجمل الطفولة وعذابها، رغم منغصاتها التي لا تعدّ ولا تحصى...

في الجوانب الصحية عانيت عبر هذه المرحلة من حياتي الكثير الكثير... حيث استمرت الحالات القلبية المخيفة تجتاحني بين الحين والحين... نقطة مشؤومة أكاد ألمسها بيدي، تجتاح قلبي من بدئه حتى منتهاه، وأنا في كل مرة أتشهد وأقول في نفسي: ها قد جاء أجلك يا عماد... ومع هذه الحالة المتكررة ضيق شديد في النفس، يأتي هو الآخر على شكل موجات مخيفة تبدأ من أسفل الرئة وتمضي باتجاه أعلاها محملة بآلام قاسية في الصدر... ولم أكن أعلم يومها أن ذلك كله ربما يكون بسبب انسداد الصمام الإهليلي في قلبي وضرورة المسارعة في إجراء المداخلة الجراحية لاستبداله قبل أن يقع المحذور... ولم يشر علي الأطباء أنفسهم، رغم كثرة مراجعاتي لهم إلى السبب الحقيقي لهذه الحالة الذي لم ينكشف إلا بعد مرور سنوات وسنوات...

ولكن الذي كان يؤلمني أكثر هو ما يسببه لي ضيق النفس شبه المزمن والذي لازمني منذ عهد صباي... من متاعب خلال أعمال الكتابة والتبييض، حيث كانت ترافقه دائماً متاعب في ذراعي الأيسر، وحيث كنت بين دقيقة وأخرى، أتوقف عن الكتابة لكي أقوم بمحاولة يائسة لإدخال شيء من الأوكسجين إلى رئتيّ اللتين تنتظران الإنقاذ... فلكم أن تتصوروا كيف أن الله

ﷻ أنزل معونته عليّ وسط هذه الظروف الصحية القاسية، لكي أواصل الكتابة والتبييض لآلاف الصفحات على مدى عشرات السنين من المعاناة المبهظة مع متاعب القلب، وضيق النفس، وآلام الذراع؟!

وثمة المغص الكلوي الذي دهمني مرتين، فكنت أتلوى تحت قبضته الرهيبة الساعات الطوال، ولكن لحسن الحظ ما يلبث أن يزول بأخذ حقنة في الوريد.

أما متاعبي مع الأضراس التي بدأت منذ مطلع السبعينيات، واستمرت بعد ذلك عشرات السنين فقد ألحقت بي الكثير الكثير من المتاعب، ودفعتني إلى معالجتها داخل العراق وخارجه، مع ما يقرب من الثلاثين طبيباً متخصصاً والعديد من العيادات والمراكز الخاصة بالأسنان... وكان يرافقها في الكثير من الأحيان، تلك الفقاعات البيضاء اللعينة التي تغزو فمي ولثتي ولساني بشكل متواصل، وتجعل من تناولي للطعام عذاباً متواصلاً... ومع هذا وذاك عانيت الأمرين من الحساسية الجلدية في ظاهر كفي وساعدي، والتي لم تجدِ معها مراجعتي للعديد من أطباء الجلدية الذين كانوا يسخون علي بالمراهم والدهون... دون جدوى...

وثمة آلام الساقين التي اصطحبتني منذ أيام طفولتي... بحيث أنني عبر الأمسيات كنت لا أرتاح إلّا بأن أنادي على أحد يمارس عليهما الضرب الشديد لكي تكفّها عن الألم... ثم لحقتهما بمرور الوقت متاعب مفاصل الركبة التي كانت تزورني على فترات متقطعة، وتقعدني عن ممارسة رياضة المشي اليومية أو الذهاب إلى الجامع لأداء الصلاة... يرافقها بين الحين والحين موجات من آلام الفقرات القطنية السفلى التي كانت لحسن الحظ ما تلبث أن تزول وتتركني مرتاحاً الفترات الطوال.

وبمرور الوقت، ومنذ منتصف عقد الثمانينيات بدأت أحس بشيء من الاختناق لدى النوم، راح يتزايد بمضي الأيام، ولدى مراجعة الأطباء تبين أن هناك تضخم كبير في غدتي الدرقية، وأن عليّ أن أسارع لاستئصالها، بمداخلة

جراحية. غادرت عيادة الطبيب وأنا ألعق آلامي، إذ تذكرت متاعبي مع المداخلة الجراحية الأولى لاستئصال الزائدة الدودية، وكيف أنني عانيت الأمرين من انسداد أنفاسي في الأيام التي أعقبت ذلك...

ولكني قلت لا بدّ مما ليس منه بد، وأكملت الأمور الإجرائية، وتوجهت إلى المستشفى العام في الموصل، حيث كان العديد من أطبائه من أصدقائي، فأحاطوني بعنايتهم الكاملة، وعلى رأسهم الجراح الشهير الدكتور قيس الوتار...

لكن القاصمة لم تكن ها هنا، وإنما في مجازفتي، بسبب من عدم تشخيص الأطباء للصمام المسدود، في قبول المداخلة الجراحية التي كادت أن تودي بحياتي لولا أن الله سلّم... ولا زلت أذكر تلك الدقائق المريرة التي يصعب وصفها، وأنا أستيقظ من تأثير المخدر قبل موعد انتهاء مفعوله، لحظة حملي إلى الغرفة، بعد إجراء العملية، فأجدني في حالة انقطاع تام عن تلقي ذرة واحدة من الأوكسجين...

وحيث رحت أصرخ بهم طالباً منحي شيئاً منه، وإلّا قضيت اختناقاً... ولشدة عذابي عبر تلك الدقائق تمنيت أن أتحول إلى كلب يعرف كيف يتمتع بالهواء على أن أظل أعاني من حالة الانسداد... ولكنهم ما لبثوا بعد وضعي في المنام أن زرقوني بحقنة منومة أنستني كل شيء... ثم ما لبثت أن استيقظت وأنا في وضع طيب أستطيع معه أن ألتقط حصتي من الهواء.

ولا زلت أذكر ـ للمفارقة ـ كيف كان يبيت معي في غرفتي شاب من إحدى القرى القريبة من الموصل، وكيف كان يشبّ من نومه بين الحين والحين مذعوراً وصارخاً: إنه سيذبحني بالسكين!! ولعل الشاب كان قد تشاجر مع أحد خصومه، وضربه بطعنة نقل على أثرها إلى المستشفى... فلزمه الخوف من تكرار الحادث... فما كان مني، أنا الذي لم أكن أستطيع لحظتها أن أقتل بعوضة، بسبب إعيائي ووضعي الصحي، إلّا أن أقول له بأقصى ما أستطيع من صوتي المختنق: لا تخف، ما دمت موجوداً إلى جوارك، فلا تخف، ولسوف ألقن من يحاول الاعتداء عليك درساً قاسياً لن ينساه أبداً!!

بمرور الوقت، وعبر السنوات الأخيرة من عقد الثمانينيات هذا، أخذت حالات الاختناق المفاجئ تغزوني بين الحين والحين، فأشبّ قائماً وأنا أكافح لالتقاط الأنفاس... ومع هذه الحالة حالة أخرى موازية من الترنح والسقوط خلال المشي... وأنا والأطباء الذين كنت أراجعهم، لم نكتشف لحين ذلك الوقت السبب الرئيسي في هذه المتاعب كلها: إنه انسداد الصمام وضرورة استبداله بمداخلة جراحية، حيث لم يتأتَّ ذلك إلا في أواخر عام (١٩٩٠م).

ولكن ورغم كل هذه المتاعب والمنغصات، فقد ترك لي هامش واسع للمسرات والأفراح والمناسبات السعيدة، والعلاقات الاجتماعية الحميمة، والرحلات العديدة إلى براري الموصل الرائعة، أو المحافظات الشمالية، أو بغداد العاصمة بمعية العائلة والأقرباء حيناً، وبصحبة ثلة من المعارف والأصدقاء حيناً أخر، أو مع موظفي المتحف حيناً ثالثاً... حيث حملتنا هذه الرحلات إلى الشلالات، والشيخ متي، وبعشيقة، والكلك، والبقاق، والحضر، وحمام العليل، وتل عفر، ومجمع الغابات السياحي حيث استأجرنا هناك عدة دور وقضينا أياماً طيبة، ثم ما لبثنا أن عدنا بعد أسبوع واحد لاستئجارها مرةً أخرى...

أحياناً كانت تلك الرحلات تنطلق بنا بعيداً باتجاه الشمال: إلى أتروش، ودهوك، وصندور، وسواراتوكا، وأربيل، وصلاح الدين، والسليمانية، حيث كنا نحجز في فنادقها ومنتجعاتها السياحية غرفاً ودوراً، ونأخذ معنا ما لذّ وطاب من ألوان الطعام، ونقضي هناك أجمل الأوقات، قبل أن نقفل عائدين إلى الموصل. هذا إلى جانب الرحلات الخارجية إلى الأردن ولبنان والسعودية وقطر والإمارات العربية (تلك التي سترد يومياتها في الفصل الخاص).

وثمة جملة من الأفراح والمسرات والمناسبات الأخرى: الطلعات الصباحية مع الفجر لاجتياز الشوارع الموصلية حيث يخيم الهدوء على الكائنات والأشياء... ثم الوصول إلى مطاعم السوق لتناول وجبة الفطور الشهية من الأكلات الموصلية التي لا تضاهيها أية أكلة أخرى في العالم... وثمة جلساتي

الانفرادية المتطاولة، صباحاً ومساء في المقاهي والكازينوات الأنيقة التي كانت تطل على شارع الدواسة من مثل كازينو صحارى وكازينو أطلس، حيث أغرق في قراءة رواية أو كتاب، أو كتابة بحث أو مقال...أو أجلس قريباً من الحاجز الزجاجي المطل على الشارع للاسترخاء وإلقاء نظرة على المارة، وشرب القهوة والشاي، وفي أحيان أخرى كانت جلسات المقاهي والكازينوات بمعية عدد من الأصدقاء، حيث اللعب والأحاديث والتعليقات لمدى ساعات متطاولة من الزمن...

وثمة الجلسات العائلية اليومية حول التلفاز لمتابعة هذا المسلسل المصري أو ذاك، من روائع ما كانت مصر يومها تطلع به على الناس، من أمثال (رأفت الهجان) و(الشهد والدموع) و(قال البحر) و(أولاد آدم) و(دعوني أعيش)... و... و... هنالك أيضاً الساعات الطوال التي كنا نقضيها في متابعة لقاءات كرة القدم العراقية والعربية والأجنبية بشغف بالغ... وثمة مهرجانات الربيع التي كانت تقام في نيسان من كل سنة، وكنت أعتبرها ـ بحقّ ـ فرصة للتمتع بمشاهدة المواكب والعروض الراكبة والسائرة، والتي كان فنانو الموصل يعرفون كيف يشتغلونها بعناية وإبداع... هنالك أيضاً الأمسيات التي كنت أقضيها مساء كل خميس مع جمعيتنا التي سبق وأن أشرت إليها. أو عبر اللقاءات الأسبوعية في بيت الدكتور صديق الجليلي ﵀ والتي يحضرها عدد من مثقفي المدينة، وتدور فيها جملة من الأحاديث والحواريات في شتى الشؤون الثقافية، ونستمع فيها إلى شيء من التساجيل القديمة التي كان الجليلي حريصاً على جمعها من مظانّها...

ولكن هذا كله لم يكن يفوق جلساتي الثنائية في بيت الدكتور عمر الطالب ﵀ حيث كنا نتبادل الأحاديث، ونشاهد العروض التلفازية بالفيديوكاسيت، ولا زلت أذكر يوم كنا نتابع بشغف وتأثر فيلم (عمر المختار) الذي أخرجه مصطفى العقاد ﵀ كيف تورّم وجه عمر الطالب من البكاء، وهو يرى المصير المحزن الذي آل إليه المختار على يد جلاديه...

وكنت قد طرحت عليه يوماً أن يبدأ كل منا الحديث عن تفاصيل رحلته مع المطالعة والكتابة... ومع الحياة الدراسية... و... و... ويبدأ كل واحد منا يسرد ذكرياته بتفاصيلها عن هذه الحلقات على مدى عمره كله... ولكن ـ للأسف ـ لم نكن قد جهزنا جهاز تسجيل لحفظ تلك الرحلات المفصلة من سيرنا الذاتية... وقد ندمنا على ذلك ندماً شديداً... ثم ما لبث الرجل أن أعيرت خدماته الجامعية للمغرب... فانفضت اللقاءات وتوقفت تلك الحواريات الخصبة...

ثمة أخيراً تلك الفرحة الكبرى التي منحني إياها الأخ والصديق الشيخ الدكتور مصطفى البنجويني، لدى عودته من دراسته في القاهرة، بعد حصوله على الماجستير في الفقه الشافعي... كيف أنه رأى رؤيا في المنام حيث وجد نفسه، فجأة، بإزاء قصر رائع في الجنة... فلما سأل عن هذا القصر... كان الجواب: انه لعماد الدين خليل جزاء جهده في إنجاز كتابه (ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز)... لقد كانت بحق واحدة من أثمن الهدايا التي تلقيتها في حياتي كلها، بل أثمنها على الإطلاق... وعسى أن أكون ممن يستحقونها!!



الفصل السابع

١٩٨٧ ـ ٢٠٠٠م

سارت الأمور في عملي الجديد بكلية آداب جامعة صلاح الدين في أربيل على خير ما يرام، حيث أن رئيس قسم التاريخ الدكتور حسام علي غالب النقشبندي من زملاء دورتي أيام دراستنا للبكالوريوس في كلية التربية بجامعة بغداد، ولقد تلقاني وسائر أعضاء القسم بصدر رحب، حيث سادت أجواء المحبة والانسجام، وكان هؤلاء من بيئات وجامعات عراقية شتى: من الموصل وبغداد والأنبار والمحافظات الجنوبية، فضلاً عن عدد من الكرد... وتلقيت جدول المحاضرات الذي تطلب مني التدريس في مرحلتي البكالوريوس والماجستير... الذي افتتح في ذلك الموسم الدراسي، ورغم أنني تقبلت ذلك بارتياح، إلّا أن تنوّع مواد التدريس في المرحلتين، وضرورة التحضير اليومي المجهد لهما، مضافاً إلى ذلك ما كنت أعانيه من تزايد ملحوظ في ضيق النفس، بسبب الجهد الكلامي المتواصل عبر التدريس الذي يبلغ أحياناً حداً من المعاناة المبهظة لالتقاط الأنفاس، مصحوباً بالتشنج في عضلة القلب والذراع الأيسر بسبب انسداد الصمام الذي لم أكن قد اكتشفته بعد... هذا إلى التعليمات الجديدة في رفع نصاب التدريسيين إلى نصاب ونصف، وما يتطلبه ذلك كله من الانكباب على تصحيح الكمّ الكبير من الدفاتر الامتحانية، وما ينضاف إلى ذلك من مطالب القسم وضرورة إنجاز الأبحاث العلمية، وعدم السماح بالحصول على أكثر من يوم واحد في الأسبوع كعطلة، فيما يلزمني بالسفر اليومي إلى أربيل خمسة أيام في الأسبوع... هذا كله ضيّع علي الفرح بعودتي إلى العمل الجامعي، وجعلني أعيد النظر من جديد في إحالة نفسي إلى

التقاعد... أو في الأقل التخلي عن مخصصات التفرغ لقاء تخفيف شيء من الأعباء عني، حيث فاتحت رئاسة القسم والعمادة في الموضوع، وألححت في ذلك دون جدوى.

ورغم ذلك فقد كنت أقدّم لطلبة الدراسات العليا محاضرات متألقة، مترعة بالخصب والحوار العلمي والفضاء المعرفي الواسع... ثم ما لبثت الأمور أن بدأت تنحلّ شيئاً فشيئاً، حيث لحق بالقسم عدد من التدريسيين الجدد، الأمر الذي خفف عني الكثير من أعباء تدريس البكالوريوس... كما أنني استطعت ـ أخيراً ـ أن أنتزع ثغرات عديدة في الدوام الأسبوعي وأتمتع بعطل أكثر...

ولقد طلب مني إلقاء جملة من المحاضرات العامة، خارج الجهد الأكاديمي، فألقيتها بالصيغة التي تشد أنظار الحضور، وتنال إعجابهم، الأمر الذي جعل رئيس الجامعة، الذي حضر إحداها، يهنئني على أدائي ويتمنى علي إلقاء المزيد... فضلاً عن العميد الذي عبر عن إعجابه بهذا الأسلوب في الطرح... وكذلك الحال بالنسبة لكل التدريسيين في القسم والكلية، الذين كانوا حريصين على إبداء تقييمهم... وما لبث تعييني في عضوية اللجان أن انهال عليَّ: عضوية لجنة الترقيات العلمية في الكلية، ورئاستها، عضوية لجنة الترقيات المركزية في رئاسة الجامعة، ترشيحي أستاذاً أول لجامعة صلاح الدين، اختياري في عضوية مجلس الجامعة ممثلاً عن التدريسيين، ولقد جاء هذا الأخير بمثابة هم كبير أطبق عليَّ، بسبب من حساسية قراراته التي قد يختلط فيها الأكاديمي بالسياسي الذي طالما وقفت منه موقفاً صارماً... ولذا كانت السنة التي عملت فيها عضواً في مجلس الجامعة، حيث كنا نجتمع كل أسبوعين بمعية رئيس الجامعة، الأستاذ الدكتور خسرو غني شالي، لمناقشة الأمور والمعضلات الجامعية؛ كانت من السنوات الصعبة في حياتي، ولذا رحت أنتهز الفرص لتقديم استقالتي منها، وقد جاءت إحدى تلك الفرص في أعقاب

المداخلة الجراحية في قلبي، وما تطلبته من إجازات مرضية متطاولة، حيث سارعت بتقديم الطلب وأحسست لدى قبوله بسعادة غامرة يصعب وصفها.

هذا إلى أني كنت أتلقى بين الحين والحين جملة من التقييمات من عمادة الكلية ورئاسة الجامعة ومن المؤسسات العلمية في الخارج، كما انهالت عليَّ الترشيحات للدعوات الخارجية التي كان رئيس القسم يقترحها عليَّ: إلى اليونان واليمن وجامعة اليرموك في الأردن، ولكن كان يقف في طريقها جميعاً الحاجز السياسي المعروف، وثمة التحسن الملحوظ في الراتب الذي وازنت به الزيادة الكبيرة في المصاريف العائلية... فضلاً عن الحصول على قطعة أرض ممتازة في حي زانكو الجامعي، فيما كان يشكل رصيداً احتياطياً للمستقبل، هذا إلى تمكني من الحصول على الموافقات الروتينية بخصوص العديد من الدعوات التي وجهت إليَّ من خارج العراق: دعوة مؤتمر كتابة تاريخ الأمة الإسلامية من جامعة الزقازيق في مصر... دعوة لإلقاء محاضرة في مركز فيصل للدراسات الإسلامية في الرياض، وأخرى من المنتدى الأدبي في المدينة المنورة... ودعوة من مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية في إنكلترا للمشاركة في أسبوعه الثقافي حول المنهجية، واثنتان من مكتب الأردن للمعهد العالمي للفكر الإسلامي للحوار في قضية إعادة كتابة التاريخ، والمشاركة في الأسبوع الثقافي للمعهد في عمان...

هذا إلى جملة مشاركات متألقة في مناقشة رسائل الماجستير ورئاسة لجانها... ولكن ذاك كله لم يكن يعدل عندي حصولي على مرتبة (الأستاذية) التي كنت أستحقها منذ عام (١٩٧٦م)، ولكن الظروف السياسية، ومواقف انتهازيي قسم التاريخ في كلية آداب جامعة الموصل حجبتها عني، الأمر الذي ضيّع عليَّ مبالغ كبيرة وكبيرة جداً لدى إعارة خدماتي القصيرة لعدد من الجامعات بين سنتي (١٩٨٠ ـ ١٩٨٤م)، والتي تعاملت معي بصفتي أستاذاً مساعداً وها أنا ذا الآن (١٩٨٧م): أتقدم بجملة كبيرة من البحوث للحصول عليها، ورحت أنتظر أجوبة المقوّمين الأسابيع والأشهر والسنوات الطوال دون

جدوى، ثم ما لبث أن تبين لي أن أحدهم ـ وهو صديق لي جمعتني به وجبات الطعام والنوم في قسم داخلي واحد، والرحلات المشتركة ـ يعتذر بعد أن جمّد البحوث هذه المدة الطويلة بحجة أنها ليست من اختصاصه... فكيف يكون اللؤم إن لم يكن هذا بعينه؟

سارعت بتقديم طلبي لاعتماد مقوّم آخر... وسرعان ما جاء الردّ بالإيجاب، وصدر أمر ترقيتي إلى الأستاذية في (١٠/٥/١٩٨٩م)... فالحمد لله وحده...

ورغم ذلك كله فقد استمريت على اتخاذ موقفي الصارم الذي لا مهادنة فيه من رفض المشاركة في أية مناسبة أو تظاهرة تحمل بعداً سياسياً يستهدف توظيف الأساتذة الجامعيين لخدمة مطالب الحزب والدولة، والتزلّف لقائدها صدام حسين... وسواء كانت تلك المشاركات بصيغة التظاهرات، التي كانت تخرج من الكليات بأساتذتها وطلابها جميعاً، وتجوب الشوارع حاملة لافتات التأييد أو الاستنكار... حيث كنت أجد حشود التدريسيين والطلاب جميعاً يخرجون مرغمين تلبية لأوامر القيادات الحزبية في الكلية... وكنت أنا الوحيد الذي يغادر الكلية في طريق آخر عائداً إلى الموصل... أو كانت بصيغة التطوع الإجباري في صفوف الجيش الشعبي، وبخاصة بعد مذبحة حلبجة، التي شاركت فيها القيادات العراقية والإيرانية، وذهب ضحيتها الآلاف من أبناء حلبجة التي كانت تعد المعقل الأساسي للحركة الإسلامية في إقليم كردستان...

وأذكر قيام العمداء باستدعاء الأساتذة والتدريسيين واحداً واحداً، وإقناعهم أو إرغامهم على وضع أسمائهم في قوائم المتطوعين والانخراط في صفوف الجيش الشعبي، وكيف استدعاني العميد لإقناعي بالأمر، فلما رآني أعتذر عن القبول لوّح بالعقاب الرهيب ـ على طريقة البعثيين في الحرب النفسية ـ بأن المشانق ستنصب عند أبواب الكليات لإنزال العقاب بكل من يرفض الانصياع، وأنهم سوف يحرمون من رواتبهم، فما كان مني إلا أن أقول

له أن الأرزاق بيد الله وحده، وتلوت عليه الآية الكريمة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨] وغادرت مكتبه.

وحتى تعليق شارات الشهداء الخضراء على الصدور، في أيام الشهيد، زمن الحرب العراقية ـ الإيرانية، كنت أنا الوحيد الذي يرفض وضعها على صدره، بينما كان الآخرون جميعاً، أساتذة وطلاباً، يسارعون في تعليقها، خوفاً من العقاب... ويوماً أعلن عن وقف الدوام في الكلية، وأخذت صالاتها تموج وتضطرب بالرائحين، والغادين، وبالأصوات وهي تعلو وتضطرب... فلما سألت عن الموضوع قال أحدهم: إنها محاولة لجمع تواقيع الأساتذة على برقية موجهة للسيد الرئيس، تطلب الرفق بابنه عدي، الذي سبق قبل يوم واحد أن قتل أحد المرافقين المقربين لصدام حسين، وهو رجل مسيحي... فما كان مني إلا أن أعتبر ذلك خرقاً لا أخلاقياً صريحاً للحقّ، وأغادر الكلّية دون تلطيخ يدي بهذا العمل المرفوض...

كانت متاعب الطريق شبه اليومي إلى أربيل، عبر شارع منفرد واحد، في النصف الثاني منه، حيث الاجتياز السريع يعرض حياة الركاب لخطر كبير... يشكل مشكلة لي، حيث أن خطأ التقدير في جزء من لحظة، قد يجعل السيارة أو الباص، بمن فيهما، مفرمة لحم ويقضي عليهم... ولطالما شهدت عبر هذا الطريق الحوادث الكثيرة، والمآسي العديدة، بسبب محاولات الاجتياز المجنون، فكنت أدعو الله ﷻ أن يوصلني ويعيدني بسلام. ولقد تعرضت ـ بالفعل ـ لحادثتي تصادم عبر تلك السنوات، كانت إحداها بسبب محاولة السائق التخلص من شخصٍ برز قبالته فجأة عبر الشارع، فما كان منه تجاوزاً لدهسه إلا أن ينحرف بالسيارة انحرافاً خطيراً كاد يخرجها إلى الرصيف، ويقودها إلى الانقلاب، ولكن الله سبحانه سلّم... والأخرى عبر عملية اجتياز مخيفة وحقيرة لسائق سيارة باسات برازيلية لدى رجوعنا من أربيل، وضعنا فيها وجهاً لوجه مع سيارته، ولكن عبر جزء من لحظة انحرف سائقنا قليلاً باتجاه الجزرة الوسطية، فتفادى اصطداماً مؤكداً ومريعاً فحمداً لله وحده...

وثمة إزعاج آخر: أمر مباشر من الجهات العليا بألا يتجاوز وزن موظفي الدولة حداً معيناً، وإلا أخرجوا من مناصبهم، أو عوقبوا بتقليص رواتبهم، وإنزالهم إلى الدرجة الأدنى في السلم الوظيفي... فانتهزت الفرصة، حيث كان وزني قد جاوز التسعين كيلو، زائداً عن الوزن المطلوب اثنا عشر كيلو... فالتزمت بالريجيم الصارم لأكثر من شهر، توازيه تمارين رياضية يومية... وبقدر معاناتي في الأيام الأولى مع الجوع والشهية والفراغ النفسي، مع ضيق في النفس وتشنج في القلب والذراع الأيسر خلال المحاضرات... إلا أنني ما لبثت أن اعتدت عليه في الأيام التالية... أما التمارين الرياضية فقد أصبحت متعتي اليومية، ومنحت جسمي وفقراتي سلاسة ومرونة ملحوظة... وكانت نتيجة المحاولتين أن تم تنزيل وزني أربعة كيلوات... إلا أنني ما لبثت ـ بعد أن تبين عدم جدية الذين كلفوا بمراقبة الأوزان ـ أن تجاوزت هذا كله، وعدت إلى تناول الوجبات الشهية بنهم... إذ طالما قلت لأصدقائي: ما الذي تبقى لنا في هذه الحياة سوى اللقمة الطيبة؟ فكانوا جميعاً يثنون على مقولتي تلك!!

في أعقاب حرب الخليج الثانية، في بدء عام (١٩٩٠م)، والهزيمة المنكرة للعراق، وقيام ما سمي بالانتفاضة الشعبانية في الجنوب والشمال... والقضاء عليها... مرّ إقليم كردستان في مرحلة من القلق في تحديد موقفه من السلطة المركزية في بغداد، ثم ما لبث أن بدأ بتشكيل سلطته ذات الحكم الذاتي شيئاً فشيئاً... منتهزاً فرصة انسحاب الجيش العراقي من مواقعه ومعسكراته في الإقليم... وأخذ العديد من التدريسيين العرب في الجامعات الكردية ينسحبون إلى مدنهم، بينما كان الحوار السياسي لا يزال مفتوحاً بين الإقليم والمركز. أما أنا فقد اعتزمت البقاء في كليتي إلى نهاية خدمتي الجامعية، وليكن ما يكون... رغم أن الوصول اليومي إلى أربيل ازداد تعقيداً، وأصبحنا نغادر السيارة القادمة بنا من الموصل، ونجتاز جسر الخازر مشياً، ثم نستقل سيارة أخرى لإيصالنا إلى أربيل... ومع ذلك أصريت على موقفي... وأذكر أن أحد

الأخوة من الكرد، وكان يجلس إلى جواري في السيارة، وعرف بالموضوع، فما كان منه إلا أن ينحني ويقبلني من رأسي، قائلاً: بارك الله فيك... فيما أنا أتذكر بعض الأساتذة الكرد أنفسهم، الذين كانوا يزايدون الآخرين في ادعاءاتهم القومية، سرعان ما باعوا إقليمهم، وغادروا العراق لكي يلتحقوا بجامعات أوربا.

ورغم صدور الأمر الوزاري بضرورة عودة التدريسيين العرب إلى جامعاتهم السابقة، وإلا حرموا من مناصبهم، فقد ظللت الأسابيع الطوال أمارس عملي في كلية آداب جامعة صلاح الدين، في تلك الظروف الصعبة، حتى في مناخها الشتوي القاسي الذي كان يتطلب منا المسير مسافة من الطريق بحثاً عن سيارة تقلنا إلى أربيل... حتى أنني لشدة حيرتي، واعتباري الانسحاب من العمل في كليتي تلك، أمراً غير مقبول أخلاقياً ودينياً، لجأت إلى الاتصال بأحد مشايخ الفقه في الموصل، من إخواننا الكرد أنفسهم، أسأله عن جواز طلب انتقالي إلى الموصل، فأفتاني الرجل بالجواز، وحضني عليه، دونما أي تحفظ على الإطلاق... وحينذاك فقط قررت ـ على مضض ـ العودة إلى بلدي: الموصل...

كنت في أواخر شهر تموز من عام (١٩٩١م) في إنكلترا، مشاركاً في الندوة المنهاجية التي أقامها مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية، ومتابعاً لمطالب المداخلة الجراحية في القلب... فإذا بي أسمع عبر نشرات الأخبار أنباء تفيد بازدياد التوتر بين العراق والكويت بسبب القضايا المالية والنفطية، وعدم وفاء الأخيرة للعراق، رغم كل ما قدمه من تضحيات دفاعاً عن أمن الخليج... وبلغ الأمر بحشد القوات العراقية باتجاه الحدود مع الكويت... وباحتمال الغزو خلال أيام قلائل... فلما عدت إلى العراق، ولم يمض على عودتي سوى أقل من أسبوع، إذا بنا نفاجأ، في الثاني من آب بالاجتياح العراقي للكويت، والسيطرة عليها، وهروب العائلة الحاكمة من آل الصباح باتجاه السعودية... ثم ما لبثت القيادة العراقية أن أعلنت عن ضم الكويت

باعتبارها المحافظة الثامنة عشرة للعراق، وتعيين مجلس للحكم من رجالات العشائر العراقية الذين ألبسوا ملابس الكويتيين، يساعدهم ثلة من أبناء الكويت الناقمين أنفسهم.

حدثت بطبيعة الحال مقاومة شرسة من الكويتيين للغزاة العراقيين، وجوبهت بتعيين علي حسن المجيد، المعروف بشراسته، حاكماً عسكرياً عاماً لتصفية الحساب... وجرت خلال الأشهر التي أعقبت الغزو، عمليات نهب رسمي وشعبي واسعة للممتلكات الكويتية، التي نقلت بإشراف كبار المسؤولين إلى العراق.

جرت محاولات جادة على المستوى العربي لحل الأزمة، وإقناع صدام حسين بالانسحاب، لكن الأفعال الخاطئة والمتشنجة، وردودها التي رافقت تلك المحاولات، وانتشار الشائعات المغرضة التي تقول بأن الدبابات العراقية تتجه غرباً لاكتساح السعودية نفسها، قلب الأمور رأساً على عقب.

وسرعان ما استدعيت الأمم المتحدة ومجلس الأمن، كالعادة، لإضفاء الشرعية على تحشيد قوات ثلاثين دولة أجنبية وعربية بحجة تحرير الكويت من القبضة العراقية.

ولقد جرت على مدى الأشهر الفاصلة بين الغزو العراقي، والغزو الأمريكي المضاد، عدة محاولات من زعماء العالم والدول العربية لإقناع صدام بالانسحاب، لكنه في كل مرة كان يصرّ على البقاء، ويرفض وبشكل قاطع العروض كافة، رغم أنها كانت تمنحه غطاء كافياً لحماية ماء الوجه، ولإنقاذ جيشه وماكينته الحربية من الدمار.

ولا زلت أذكر أنني لدى كل جلسات الحوار مع أصدقائي كنت أؤكد لهم بأن الضربة قادمة ولا ريب، استناداً على تحرك القوات الأمريكية وقطعها المسافات الطوال، وعلى نيّة مسبقة بغزو العراق تعود إلى أيام الرئيس رونالد ريغان، ولكنهم كانوا يصرون على أن الأزمة ستنتهي بالانسحاب، ودونما إعلان

للحرب على العراق، ربما في محاولة منهم لطمأنة نفوسهم بخصوص احتمالات المستقبل القريب!!

ثم ما لبث الهجوم الدولي بقيادة الجيوش الأمريكية أن بدأ، بصيغة ضربات قاسية من الجو بالصواريخ العابرة والقنابل الثقيلة، لتدمير البنية التحتية للعراق بكل مفرداتها، بحيث أنهم لم يبقوا منها شيئاً صالحاً للعمل: شبكة الاتصالات... الطائرات... الطرق والجسور... الماء والكهرباء... المراكز الإدارية والقصور... أبنية الأمن والمخابرات... المقار الحزبية... الخ... الخ... واستمرت الحملة الجوية هذه من ليلة السابع عشر من كانون الثاني عام (١٩٩١م) حتى أواخر شباط.

ولقد طالت إحدى الضربات أحد ملاجئ بغداد فقتلت وجرحت مئات المتجمعين من الرجال والنساء والأطفال... لكي ما يلبث الهجوم البري القاهر أن يبدأ مكتسحاً خطوط الدفاع العراقية، ومدمراً كل آليات الجيش العراقي الذي كان أفراده يئنون من الجوع وتقطع وغياب الخدمات الإدارية وإيصال الماء والطعام... فكانت الهزيمة المحققة عبر واحدة من أكثر عمليات الانسحاب في التاريخ البشري فشلاً وسوء تقدير، كما أعلن ذلك العديد من قيادات الجيش العراقي فيما بعد.

والسؤال الذي طالما أداره المتابعون مع أنفسهم، وأدرته مع نفسي: لماذا يتم الانسحاب في هذا الظرف الأكثر سوءاً، حيث الانعدام الكلي للغطاء الجوي، وحيث أصبحت القوات العراقية بآلياتها الهائلة مكشوفة تماماً لضربات أمريكا، التي لا يهمها مطلقاً البعد الانساني أو الأخلاقي عندما تشارك في الحروب ضد خصومها؟ ولماذا، وقد أصبح قائد القوات الأمريكية شوارتسكوف على بعد خطوات من اقتحام بغداد والقضاء على نظامها، يطلب منه الرئيس الأمريكي أن يوقف زحفه؟ ولماذا سمح للعراق باستخدام أقصى درجات العنف لسحق ما سمي بالانتفاضة الشعبانية في الجنوب والشمال، بما في ذلك

استخدام المروحيات... ولماذا عادت أمريكا فمدّت في عمر النظام العراقي ثلاثة عشر عاماً أخرى، قبل أن تجهز عليه في عام (٢٠٠٣م)؟

وكان الجواب فيما ذكره الكاتب العراقي حسن العلوي في كتابه عن المحاولات العراقية المتتابعة لغزو الكويت، والتي ذهب ضحيتها كل من الملك غازي ونوري السعيد وعبد الكريم قاسم وصولاً إلى صدام حسين... والذي يحمل عنوان (أسوار الطين)، فلقد أشار (العلوي) في كتابه هذا إلى أن المسألة في أساسها لم تكن استدراجاً لصدام حسين، فهو على درجة كبيرة من الذكاء بحيث لا يمكن أن تجرّ قدمه بهذا القدر من اليسر والسهولة إلى المصيدة... وأنه (أي العلوي) عاش قريباً منه كبعثي متقدم، السنوات الطوال وخبره جيداً...

فإذن... يبدو أن مجازفة دخول الكويت ـ يقول الرجل ـ تنطوي على تنفيذ دقيق لنظرية إفراغ القوة... وأن أمريكا بعد أن ساعدت العراق في حربه ضد إيران وانتهى الأمر بانتصار العراق، رأت أن هذا الجيش الهائل (٧٣ فرقة عسكرية) بآلياته ودباباته ومدافعه العملاقة، وصواريخه بعيدة المدى، وخبرته الميدانية التي ازدادت عبر ثماني سنوات من الحرب مع الجيش الإيراني، مضافاً إلى ذلك ما أشيع من أن صدام يقوم بمحاولة أخرى لتخصيب اليورانيوم سعياً لامتلاكه القنبلة الذرية، التي وئدت محاولتها الأولى عام (١٩٨١م) من قبل إسرائيل...

هذه القوة المتنامية أصبحت تشكل خطراً على الأمن الإسرائيلي، وأمن المنطقة الموالية للأمريكان، كان لا بدّ من إرغام صدّام على تفريغها في الكويت، مقابل الموافقة على استمراره في الحكم... وهي على أية حال نظرية لها العديد من المبررات التي تؤيدها، والتي قادت القوة العراقية إلى الدمار، والقيادة البعثية ـ في الوقت نفسه ـ إلى الاستمرار كجدار عازل ضد التغوّل الإيراني في العراق والمناطق المجاورة.

على أية حال وبقدر تعلّق الأمر بنا كمواطنين، فلقد مررنا عبر أيام الهجمات الجوية على العراق، وما أعقبها، بأيام ثقيلة سوداء. حيث لا ماء

ولا كهرباء... حيث التخويف الدائم من ردود الفعل الإسرائيلية على ضرب إسرائيل بالصواريخ العراقية، واحتمالات ضربنا بالأسلحة الكيماوية، الأمر الذي دفعنا إلى تحصين نوافذنا بالورق اللاصق، والنزول ليلاً إلى السراديب، حيث لا زلت أذكر، ونحن في دارنا في منطقة الطيران التي تعرّضت أكثر من غيرها للقصف الجوي، تلك الضربة القاسية من طائرة (B 52) الأمريكية الضخمة لجانب من المطار، جعلت السرداب والدار بأجمعه يتمايل ذات اليمين وذات الشمال قبل أن يعود إلى الاستقرار...

ولا زلت أذكر كذلك، كيف حشرت قيادة الطيران، الطيارات العراقية المقاتلة، بين دورنا، وعبر الشوارع المحيطة بنا، الأمر الذي عرضنا لخطر مؤكد كاد أن يأتي علينا لولا أن تداركت القيادة الأمر وسحبت الطائرات بعد يومين من توزيعها الخاطئ ذاك... وأذكر ـ كذلك ـ فجر اليوم التالي للهجوم الأمريكي كيف انطلقت ثلاث طائرات عراقية من المطار القريب، في محاولة منها لملاحقة الطائرات الأمريكية المغيرة، وبعد دقائق معدودات أسقط الأمريكيون اثنتين منها وأصابوا الثالثة التي عادت إلى المطار لكي ما تلبث أن تحترق فيه. على هؤلاء الطيارين الفدائيين الشجعان رحمة الله ورضوانه...

وأذكر كذلك ذلك اليوم الأسود، الذي أحال النهار إلى ليل مدلهم عميق، بسبب الغيوم السوداء القادمة من الكويت، حيث فجِّرت آبار النفط فأحدثت اضطراباً جوياً غطى سماء المنطقة بليل عميق...

لكننا، مع ذلك كله، اعتدنا هذه الوقائع والضربات وأصرينا على البقاء في منطقة الطيران رغم رحيل معظم سكانها إلى جهات أخرى... وكنا نقضي أمسياتنا في الحوار، والاستماع إلى نشرات الأخبار، ونمارس نومنا على طبيعته... لقد أخذ المواطن العراقي تمريناً صعباً في التعايش مع هذه الحالات عبر سني الحرب العراقية الإيرانية التي استمرت ثماني سنوات، تحوّلت سنتها الأخيرة (١٩٨٨م) إلى حرب ضروس بالصواريخ والصواريخ المضادة، التي

طالت المدن، ولم تفرّق بين المواقع العسكرية والمدنية وألقت الرعب في قلوب الناس...

ولقد سقط أحد هذه الصواريخ الإيرانية في الشارع القريب من دارنا، وإذا بنا نسمع انفجاراً هائلاً أعقبه تحطم زجاج النوافذ والتواء حديدها، وانتشار عاصفة من الغبار الكثيف الذي أحال النهار إلى ليل عميق... ثم ما لبثنا أن رحنا نتلقى المزيد من الضربات التي كانت تستهدف، فيما تستهدف، منشآت المطار ردّاً على الصواريخ العراقية التي طالت العاصمة الإيرانية طهران، وألحقت بها المزيد من الدمار.

مهما يكن من أمر، وسواء أخذنا بمبدأ الاستدراج الذي تؤكده جملة من المعطيات، أو مبدأ إفراغ القوة الذي تؤكده معطيات عديدة أخرى... فإن اجتياح القيادة العراقية للكويت، كان بمثابة السكين الحادة التي ذبحت العراق والعراقيين من الوريد إلى الوريد، بحيث أنهم راحوا يلعقون ويلاتها ومراراتها، يوما بيوم، ودقيقة بدقيقة، على مدى ثلاثة عشر عاماً ما لبث أن انتهت بكارثة الاحتلال الأمريكي للعراق، الذي قام على واحدة من أكثر الأكاذيب في التاريخ البشري لا أخلاقية ولا إنسانية، والذي ساق العراق بقيادة اللص العسكري الفاشل (بريمر) إلى المزيد من التفكك والانهيار، وقاد العراقيين وقد انكشفت ظهورهم، بإجرائه المترع باللؤم والقذارة والذي أصدر فيه أمره بحل الجيش العراقي ومؤسساته الأمنية والاستخبارية، حيث ما لبثت الميليشيات الطائفية أن حلّت محلّه، وقادت البلد إلى سلسلة متطاولة من الحروب الأهلية، والمذابح الطائفية، والتهجير الجماعي، واغتصاب الدور، والقتل اليومي الذي طال زهرة علمائه ومفكريه وأساتذته الجامعيين...

وعلى مدى المرحلة الزمنية بين حربي الخليج الثانية عام (١٩٩١م) والثالثة عام (٢٠٠٣م)، حيث فرض الحصار الاقتصادي القاسي على العراقيين، وحيث اضطر الناس إلى أكل النخالة المخلوطة بنشارة الخشب، والملأى بجثث الفئران الميتة وبرازها المقزز... وحيث تعرضت العملة العراقية

إلى انهيار أسطوري حوّل الدينار الذي كان يساوي ثلاثة دولارات، إلى أقل من الفلس الواحد، حيث أصبح الدولار يباع بثلاثة آلاف دينار... بينما ظلت رواتب الموظفين والتدريسيين والأطباء والمهندسين على حالها... الأمر الذي دفع العديد من أساتذة الجامعات إلى البحث عن موارد أخرى للرزق، بما فيها بيع الخضار، أو قيادة سيارات التاكسي... دون أن تلتفت القيادة العراقية إلى هذه المأساة وتسعى للتخفيف من وطأتها... لا ندري لماذا؟!

ولقد تعرضنا جميعاً إلى جملة من الانكسارات المالية الأسطورية بسبب من هذا التأرجح اللا معقول في أسعار العملات صعوداً وهبوطاً... وحيث فرضت على العراق ما سمي بلجان التفتيش عن الأسلحة الكيمياوية والبيولوجية، وأسلحة الدمار الشامل، وهي الأكذوبة الكبرى التي بنت عليها أمريكا وحلفاؤها حربها الغاشمة لاحتلال العراق...

ولطالما كانت لجان التفتيش هذه تضم بين أعضائها خبراء من المخابرات الأمريكية والإسرائيلية، الأمر الذي كان يدفع القيادة العراقية وقد نفد صبرها إلى طرد لجان التفتيش واحدة تلو الأخرى... لكي ما تلبث أن تتلقى العقاب على تصرفها هذا بصيغة هجمات بالصواريخ العابرة، كما حدث في عام (١٩٩٢م و١٩٩٨م) حيث تم تدمير العديد من المنشآت العسكرية والمدنية في بغداد وبعض المحافظات، لكي ما يلبث العراق أن يوافق مرغماً، ثانية وثالثة، على استقبال لجان التفتيش التي كان بعضها يتعمد الاستفزاز بدخوله قصور الرئيس العراقي صدام حسين بحجة أن فيها مخزونات أسلحة الدمار الفاشل!!

لقد كانت سنوات الحصار بحق، حرباً ضروساً، رغم أنها كانت تشتغل بصمت، هرست العراق والعراقيين بغير ما رحمة، كما لم تهرسه الحروب المعلنة نفسها... وكنا نردد مع أنفسنا أننا شعب كتب عليه الشقاء الدائم بسبب من امتلاك أراضيه ثاني أضخم احتياطي نفطي في العالم، وهو السبب نفسه الذي كان يمكن أن يجعلنا نعيش في واحدة من أكثر بلدان الأرض

رفاهيةً وتقدماً... وكنا نقارن هذا بأوضاع دول الخليج التي نعمت بدخلها الهائل من النفط، رغم أنها لا تملك عشر معشار ما يملكه العراقيون من طاقات عقلية مبدعة، وثقافة شاملة، لا يكاد يملك الغربي نفسه منها إلّا الشيء القليل...

وأذكر على سبيل المفارقة أن أحد الخليجيين سئل في برنامج (اربح المليون): أين يقع جبل أحد؟ ورغم تقديم الخيارات الثلاثة أمامه، إلا أنه ظل يتلكأ في جوابه ثم ما لبث أن قال: في مكة المكرمة!! وأذكر أن العديد من المواطنين الأمريكان لم يكونوا يعرفون أين يقع العراق وجارته إيران، رغم مرور السنوات الطوال على الحرب بين البلدين، والتي كانت أجهزة إعلامهم تزودهم بتفاصيلها صباح مساء... وثمة المقولة المعروفة عن العراقيين والتي تقول: إن مصر تفكر ولبنان تطبع والعراق يقرأ... بحيث أصبح العراقي يعرف من أمور الدنيا، وقضايا الجغرافيا والتاريخ والسياسة و... و... الشيء الكثير... ولكن ماذا يفعل الإنسان تجاه الحظوظ السيئة؟!

عدت إذن إلى جامعتي ثانية، وكانت خطوتي الأولى، السعي لئلا أرجع إلى كلّية الآداب التي يصعب التجانس مع أساتذتها والعاملين معها، وأن أكون في كلّية التربية... ولقد أعانني في تحقيق بغيتي هذه عدد من مسؤولي رئاسة الجامعة، وعلى رأسهم رئيس الجامعة نفسه الأستاذ الدكتور عبد الإله الخشاب، الذي كان هو ووالده ـ رَحَمَهُ اللَّهُ ـ على علاقة وثيقة بوالدي رَحَمَهُ اللَّهُ، حيث ما لبث الأمر الجامعي أن صدر بإعادتي إلى كلّية التربية، التي كان أكثر من نصف تدريسييها من تلامذتي.

ومن ثم فقد أحسست منذ اللحظات الأولى بالانسجام والمحبة والتقدير الذي أحاطوني به، وكان رئيس القسم الأستاذ الدكتور إبراهيم العلاف على علاقات طيبة بي، فأعطاني عدداً من المواد التدريسية لطلبة البكالوريوس ومواد أخرى، لطلبة الدراسات العليا، التي ـ شأنها شأن كلية آداب جامعة صلاح الدين ـ افتتحت لحظة انتمائي إلى الكلّيتين، إذ أنهم كانوا بأمسّ

الحاجة إلى من يحمل لقب الأستاذية لكي يسمح لهم بفتح القسم... فرتبت مع أعضائه الآخرين مفرداته المنهجية، ومضت الأمور على خير ما يرجوه المرء من الوئام والعطاء والإبداع...

ولطالما انهالت علي تقييمات رئيس القسم، حيث منحت ـ على سبيل المثال ـ الأولوية في المحاضرات التي كلِّفنا بإلقائها على الكادر التدريسي للإعداديات... وحيث ألقيت جملة من المحاضرات اللاصفية في مختلف أقسام الكلية لقيت قبولاً حسناً... وأذكر كيف أنني تنازلت عن اختياري أستاذاً أول في الكلية لصالح رئيس القسم، الذي أعطيته صوتي ففاز بفارق نقطة واحدة، بينما كان الآخرون يتمنون أن أكون أنا الفائز، دون أن يعلم رئيس القسم عن موقفي شيئاً...

ثم ما لبث أن استبدل برئيس قسم جديد هو الأستاذ الدكتور عوني السبعاوي، وهو أحد تلامذتي في مرحلة البكالوريوس في كلية الآداب... فكان وفياً معي بمعنى الكلمة، لم أتلق منه على الإطلاق كلمة أو موقفاً واحداً مما قد يسبب لي المتاعب... وكنت أقول في نفسي، وأحدث أصدقائي بأن البعثيين ليسوا سواء، ففيهم العديد ممن يتميزون بالوفاء والمودة، وحتى الالتزام الديني، وكان السبعاوي هو أحد هؤلاء، والذي طالما حدثني عن ابن عم له (وهو يونس السبعاوي) الذي كان له الدور القيادي المعروف في حركة رشيد عالي الكيلاني ضد الهيمنة البريطانية على العراق... والذي انتهى به الأمر إلى الإعدام شنقاً رَحِمَهُ ٱللَّهُ... ولطالما نقل جهودي المتواصلة في كلية التربية إلى العميد نفسه (الأستاذ الدكتور زهير الشاروك)، فكان هذا يعرب عن تقييمه ويعلن في الاجتماعات العامة بأني واحد من علماء العراق، ويوافق على كل طلب أتقدم به استجابةً لدعوة من هذا المؤتمر أو ذاك خارج العراق.

أشرفت عبر عملي في كلية التربية على العديد من طلبة الدراسات العليا، وشاركت في مناقشة العديد من رسائل الماجستير وأطروحات الدكتوراه، ورئاسة

لجانها، في كليتي التربية والآداب والإدارة والاقتصاد، وكنت دائماً أتلقى التقييم على أدائي عبر المناقشات التي أشبع فيها الرسائل والأطاريح بحثاً وتنقيباً.

كما دعيت وقلة من التدريسيين للمشاركة في مؤتمر علمي حول مناهج البحث في التاريخ وطرق تدريسه، أقامته كلية الآداب في جامعة بغداد عام (١٩٩٣م)، وحضره عدد من أساتذتنا الكبار في جامعة بغداد كالأستاذ الدكتور صالح أحمد العلي والأستاذ الدكتور حسين أمين (رحمهما الله) وآخرين، كما حضر المناقشات التي شهدها المؤتمر الأستاذ الدكتور عبد الإله الخشاب رئيس جامعة بغداد، وعدد كبير من التدريسيين.

ولقد انتهزت الفرصة عبر المناقشات لتأكيد رؤيتي التي طالما دعوت إليها في الاجتماعات العامة والمؤتمرات، وهي ضرورة فتح منافذ الحرية للأداء الجامعي الأكاديمي، إذا أردنا له أن يتطور ويزداد إبداعاً، وقد أيّدني في ذلك الدكتور عبد الله سلّوم السامرائي، الذي كان قد أقصي عن مهامه الحزبية والإدارية المتقدمة في الدولة، رغم حساسية الموضوع الذي تناولناه... رَحِمَهُ اللهُ...

في مقابل هذا كله، استمريت على حذري من الانزلاق باتجاه التنازل عن موقفي الصارم إزاء كل ما يمس قناعتي، ويجعلني أخضع، بدرجة أو أخرى، لضغوط الحزب والسلطة، أو إغراءاتهما التي سحبت العديد من الأساتذة باتجاه مواقع الانتهازية، والتقرب من مطالب الحزب والسلطة... فكنت أسارع بالاعتذار عن المشاركة في الفعاليات الثقافية للمؤسسات العلمية في بغداد بسبب ارتباطها بالجانب السياسي أو الإعلامي... وكانت إحداها دعوة من اتحاد المؤرخين العرب ووزارة الإعلام للمشاركة في مناقشات مشروع إعادة كتابة التاريخ، والأخرى، تعييني عضواً استشارياً في مؤسسة دار الحكمة المرتبطة بديوان رئاسة الجمهورية، ممثلاً عن جامعة الموصل، وثالثتها عن المشاركة في فعاليات المؤتمر الشعبي الإسلامي في بغداد.

كما أنني اعتذرت عن تسلّم وملء الاستمارات الخاصة بالأساتذة العلماء، رغم ميزاتها المالية والأدبية السخية، وكذلك الحال بالنسبة لمكافآت الأساتذة

المتميزين، أو الترشيح لموقع الأستاذ الأول في جامعة الموصل، أسوة باعتذاري عن الترشيح لجائزة الدولة التقديرية في بغداد والتي سبق وأن عرضها علي رئيس قسم التاريخ في كلية آداب جامعة صلاح الدين.

هذا إلى أنني اعتذرت وبشكل قطعي عن ممارسة التدريب العسكري الذي فرض على تدريسيي الكليات، وعن تسجيل اسمي كصديق للرئيس في طلب التقاعد، رغم ما يسببه ذلك من انخفاض في هذا الراتب...

هذا إلى أنني تلقيت يوماً مكالمة من عميد كلية الآداب يخبرني فيها عن دعوة السيد رئيس الجمهورية لحضور لقاء خاص مع ثلة من المختصين في التاريخ، فما لبثت أن اعتذرت فوراً عن الحضور، رغم ما قد يسبب ذلك من المتاعب التي لا يعلم مداها إلا الله ﷻ، ولكنه سبحانه، أنقذني منها... بينما تهافت المدعوون على الذهاب طمعاً في الجلوس إلى السيد الرئيس، وتلقي توجيهاته ومكافآته المالية التي بلغت مليون دينار لكل واحد منهم...

وقد ذكرني هذا بما حدث عام (١٩٩٥م) عندما كنت في زيارة للدوحة في قطر لإلقاء عدد من المحاضرات... كيف اتصل بي ثلة من الأساتذة الجامعيين وعرضوا علي أن يرشحوا اسمي لنيل جائزة الملك فيصل لذلك العام، والتي كانت مخصصة للباحثين في السيرة النبوية، قائلين لي: إن حصولك عليها، بعد جملة بحوثك ودراساتك في الموضوع، أمر شبه مؤكد، فقط نريد منك الموافقة المبدئية على الترشيح، وسنتكفل نحن بالباقي.

فاعتذرت عن العرض، رغم إغراءاته المالية والأدبية التي تتجاوز الثلاثمائة ألف دولار يومذاك، والتي تشكل في حالة تحويلها إلى الدينار العراقي مبلغاً فلكياً...

استمريت في التدريس في كلية التربية حتى عام (١٩٩٩م)، عندما اقتنعت على تردد، بأنه قد آن الأوان لتقديم طلب بإحالتي على التقاعد لأسباب صحية، لكي أتحرر من الارتباط الوظيفي، وأسعى للعمل خارج العراق في إحدى الجامعات... وبدأت المحاولة التي لم أكن قد حسمت أمرها مع نفسي وعائلتي

بشكل نهائي... ولذا فسرعان ما قررت سحبها وتأجيلها لسنة أخرى، ربما بسبب ما كان يسود علاقتي بالقسم ورئاسته من مودة وانسجام...

ثم ما لبثت في العام التالي أن عزمت على الأمر، وتقدمت بالطلب الذي يتطلب العديد من المراجعات للجان الطبية، والمستشفيات، والفحوصات السريرية في الموصل وبغداد... وقد اقتضى ذلك مني رحلات عديدة إلى بغداد، وكانت نقطة القوة في طلبي أنني كنت قد أجريت قبل عشر سنوات عملية استبدال للصمام الإهليلي في القلب، وأنني لا زلت أعاني من رجفة دائمة في الأذين، وضيق دائم في التنفس... وأخيراً حصلت على المطلوب، بعد جملة طويلة من المداخلات والوساطات... وعدت إلى الموصل، بانتظار وصول الموافقة التي استغرقت أكثر من شهر...

يومها كنت أشرف على طالب سوداني في أطروحته الموسومة: (دولة الإسلام في المدينة: بحث في معطياتها الحضارية)، ووافق أن رشح لرئاسة لجنة المناقشة في ربيع عام (٢٠٠٠م)، أستاذ عاني من جامعة بغداد، بدأ حياته الجامعية إسلامياً من طراز أول، وكانت تربطني به زمن دراستي الجامعية في كلية التربية علاقة طيبة... ثم ما لبثت إغراءات الدنيا وزينتها أن سحبته بعيداً عن موقعه، فاندفع مع البعث بعد تسلمه السلطة عام (١٩٦٨م)، وأصبح كما يقول المثل: ملكياً أكثر من الملك، وتولى بناء على ذلك مهمة التفتيش في وزارة التعليم العالي والبحث العلمي...

ولهذا عندما بدأت المناقشة انصبت اعتراضاته على التوجه الإسلامي للأطروحة، وإغفال البعد القومي في سيرة الرسول ﷺ، فما كان مني إلا أن أناقشه بالأدلة القاطعة على صواب موقف الطالب، وخطأ موقفه في لوي عنق الوقائع التاريخية، وأنهيت كلامي بنصيحة وجهتها إليه وإلى كل الموجودين في القاعة: إن التفرقة بين الإسلامي والعربي أمرٌ مرفوض، وهو من إفرازات العقل العلماني الغربي، وعلينا ألا ننساق إليه...

ظل الرجل صامتاً، وقد علت وجهه موجة صفراء توحي بالويل، ولم يستطع

أن يردّ علي، ولكنه انتهز فرصة الاختلاء بلجنة المناقشة لمنح درجة للطالب، فإذا به يقنع الموجودين الذين كأن بعضهم أشبه بالظلال الصامتة لكل ما يريد... بتأجيل منحه الدرجة لمدة شهرين، وأن عليه أن يعدّل في أطروحته جملة من المسائل... فما كان مني وأنا أستمع إلى قرار اللجنة، إلا أن أترك المنصة قائلاً: لقد كنت متردداً في تقديم استقالتي من الجامعة، أما الآن فقد أصبحت أملك القناعة الكاملة للخروج من هذه البيئة غير مأسوف عليها... ثم غادرت المكان وسط تأييد ومباركة العديد من أساتذة الجامعة وتدريسييها وطلبتها...

ولكني بعد يوم أو يومين تلقيت أنباء من مصادر مقربة من رئاسة الجامعة، أنهم بصدد نقلي ثانية بسبب من اتهامي (بالسلفية)!! حيث يبدو أن العاني المذكور استطاع أن ينفّس عن هزيمته وحقده، بإيصال هذه المعلومة الخاطئة إلى رئاسة الجامعة مستغلاً موقعه الحزبي والإداري المتقدم في وزارة التعليم العالي... ولكنه وكما يقول المثل: فقد سبق السيف العذل، وجاءت الموافقة من لجان بغداد على قبول استقالتي لأسباب صحية... ثم ما لبثت أن بدأت معاملة الانفكاك...

وأنا أملأ إحدى الاستمارات رأيت بنداً يدرجني في عداد أصدقاء الرئيس فما كان مني إلا أن أشطب عليه، رغم أنه يضيف إلى تقاعدي مبلغاً طيباً من المال... إذ لم أشأ التهافت كما يتهافت الكثيرون على التشبث بالمال على حساب كرامتهم. ولا زلت أذكر ذلك الجهد الكبير الذي بذلته قبل أشهر معدودات، وعرضت فيه نفسي للخطر، عندما اتصلت باللجنة المسؤولة عن إرسال أسماء الأساتذة الذين اختيروا كأصدقاء للرئيس، إلى بغداد، أطلب من مسؤولها إلغاء اسمي من القائمة، ولكنه أعلمني بأن القائمة قد أرسلت ويستحيل إذن تنفيذ طلبك!!

تلقيت كتابَيّ تقييم وتكريم من رئيس الجامعة وعميد الكلية، على جملة

خدماتي المتميزة التي شهدتها أروقة الجامعة، وكلياتها... ويتمنيان لي كل خير..

كانت مرحلة التسعينيات توحي بانفراج كبير للنشاط الثقافي والدعوي في العراق عامة وفي الموصل على وجه الخصوص، ربما بسبب من إعلان صدام حسين عن حملته الإيمانية التي ألزم بها الرفاق البعثيين بدراسة المواد العلمية الإسلامية: القرآن والحديث والفقه... الخ. وكلف عدد من الأساتذة المتخصصين في إلقاء المحاضرات الدورية عليهم... وربما كرد فعل على التحديات الغربية ذات البطانة الصليبية... وربما كنوع من يقظة الضمير الديني لدى صدام نفسه ورغبةً منه في التكفير عما اقترفت يداه... وربما لامتصاص الزخم الإيماني للشعب العراقي وتحجيمه في إطار إشراف الدولة والأجهزة الحزبية... ومهما يكن من أمر فلم يقدّر لأحد، مهما أعمل ذهنه في البحث عن الأسباب أن يصل إلى جواب محدّد...

ولكن المهم أن فضاءً واسعاً أتيح للمنتمين إلى التيار الإسلامي أفراداً ومؤسسات وجماعات، أن يعبروا عن أنفسهم بقدر كبير من الحرية، وأن يرسموا، مستغلين الأمسيات الرمضانية والتجمعات الحاشدة لصلاة التراويح في المساجد، البرامج اليومية لجملة من المحاضرات الدعوية والفكرية التي يكلف بإلقائها عدد من الأساتذة الجامعيين والدعاة والمفكرين الإسلاميين... بل إن الأمر تجاوز نطاق الجوامع إلى أروقة الكلّيات في الجامعة نفسها، حيث رتبت المواسم الثقافية في كل كلّية، وأحسن توظيفها لأهداف إسلامية صرفة كانت تُتلقى من قبل حشود الطلبة الذين كانوا يتزايدون يوماً بعد يوم، بقبول حسن...

هذا إلى ما كانت الجمعيات الإسلامية (كجمعية الشبان المسلمين) و(جمعية الآداب) و(رابطة علماء العراق) وغيرها، تعقده من محاضرات أسبوعية للغرض نفسه... بما في ذلك مؤتمر عن الأدب الإسلامي أقيم في جامعة الموصل عام (٢٠٠٠م) حسبما أذكر دعيت لإلقاء محاضرة مستفيضة

فيه، استعرضت فيها التأسيسات الضرورية لحركة هذا الأدب، والخطوات التي قطعتها على الطريق، وشاركت في مناقشة جملة من المحاضرات التي تحركت في الاتجاه المضاد لهذا الأدب، وأقنعت بعض أصحابها بخطأ موقفهم من الأدب الإسلامي، وبأن عليهم أن يقرؤوا معطياته الخصبة ويستوعبوها جيداً، قبل أن يقولوا كلمتهم فيه...

وعلى مدى ما يقرب من السنوات العشر، انهالت عليّ الطلبات في إلقاء المحاضرات في الجوامع حيناً، وفي الكليات حيناً آخر، وفي الجمعيات حيناً ثالثاً... فلم أكن أعتذر عن أي منها، معتقداً أنها الفرصة المناسبة لإيصال فكرنا وخطابنا إلى أسماع الناس وعقولهم ووجدانهم...

وكان يعلن عن ذلك بصيغة جداول دورية بأسماء المحاضرين، وأماكن محاضراتهم، ومواعيدها، لكي يكون المتابعون على بينة من الأمر... وكان الجمهور الذي يتابع محاضراتي كبيراً والحمد لله... حتى أنه لم يبق مكان في جامع، أو قاعة أو جمعية، للمزيد من الحضور... وكنت في أعقاب كل محاضرة أفتح باباً للأسئلة والحوار، الأمر الذي كان يزيد المحاضرات خصباً وعطاءً...

والحمد لله على أن وفقني لطرح العديد من القضايا التي تشغل العقل المسلم... حتى أنني خصصت محاضرتي يوماً للحديث عن الفن الإسلامي ودور الإخراج السينمائي في تقديم المطلوب والتأثير في المشاهدين... وفي مرات أخرى كانت اللقاءات تخصص لقراءات شعرية، أو للدخول في حوار مباشر بين المحاضر والجمهور...

ولقد تم الحديث في تلك المحاضرات عن قيام الدول والحضارات من منظور قرآني، وعن تدهورها وسقوطها من ذات المنظور... وعن أخطاء في حياتنا التعبدية، والسلوكية، والثقافية، والدعوية، والاجتماعية... عن القرآن الكريم ومعطيات العلم الحديث وفلسفة العلم... عن معجزة الفتح الإسلامي وأسبابها الحقيقية... عن شروط إعادة كتابة التاريخ... عن كيفية إعادة اشتغال العقل المسلم... عن الإيمان والتوحيد... عن اللحظات المؤثرة في حياة

الرسول ﷺ... وعن مجابهته الفريدة للإغراء... عن نماذج بشرية للشهداء، والقديسين في تاريخنا... عن منهج جديد في دراسة وتدريس (حضارة الإسلام) في جامعاتنا ومعاهدنا... عن منهج دراسة السيرة النبوية... الخ... الخ...

بل إنني توليت تخريج عدد من الدورات الدعوية للنخب الإسلامية، حيث كنت ألتقي بكل مجموعة منهم في يوم محدد من كل أسبوع لكي ألقي عليهم سلسلة من المحاضرات في الفقه الحضاري، يدور في أعقاب كل منها حوار خصب... ثم يتم الاتفاق في نهاية الأمر على موعد للامتحان، حيث كنت أجد المشاركين يبذلون جهداً مكافحاً من أجل التفوق والحصول على أعلى الدرجات...

وكنت أنا أعرب عن استعدادي للتعاون مع الجميع دونما تردد أو اعتذار... وألقي محاضراتي وأعقد الدورات التدريبية حيثما طلب مني ذلك، سواء من قبل طلبة الجامعات، أو النخب الدعوية، أو المعاهد والجمعيات... أو حتى التنظيمات السرّية للأحزاب الإسلامية التي كنت أتعاون معها... أشاركها المناقشات ووجهات النظر... وأحضر لقاءاتها دون أن أرتبط بها تنظيمياً بأي شكل من الأشكال.

والحمد لله، فلقد كان الجمهور الذي يتابعني، ويلاحق محاضراتي وندواتي، واسعاً عريضاً، الأمر الذي كان يدفعني دائماً إلى بذل المزيد من الجهد، وتقديم المزيد من الإبداع... وتجاوز الصيغ التقليدية المملة في الطرح... والبحث عن الموضوعات البكر التي لم يستهلكها الآخرون.

ورغم ذلك كله، فلم تنج السفينة من الغرق، كما يقول المثل، فقد كانت أعين الأمن والمخابرات مسلطة علينا، متابعة لما نلقيه من محاضرات ونعقده من دورات تدريسية، حتى أنهم بسبب إلحاحهم المكشوف في الملاحقة، دفعونا لإغلاق إحدى تلك الدورات التي كنت أتولى فيها تدريس السيرة النبوية وفق

منهج جديد لنخبة من علماء الموصل ومثقفيها في جامع الحامدين في محلة خزرج...

ومرة أخرى أغراني الحديث في جامع رشان في حي المثنى بتوجيه نقد مكشوف للسلطات الجائرة، فما كان من بعض الحضور بعد انتهاء المحاضرة إلا بأن راحوا يدعون لي بأن يحميني الله من غضبة السلطة التي كانت المحاضرة تمسها من قريب... وأن عليَّ أن أتهيأ لاستقبال رجال الأمن والمخابرات الذين قد يطرقون عليَّ الباب لأخذي واستجوابي.

وأذكر أنني دعيت في أواخر التسعينيات لإلقاء جملة من المحاضرات في مساجد بغداد، حيث كانت تكتظ بالحضور وتُتلقى بقبول حسن... وفي إحدى تلك المحاضرات تعمدت الجهات الأمنية، وقد هالها الجمهور الكبير، قطع الكهرباء عن الجامع، ووقفت لأكثر من ربع الساعة أنتظر وصله... دون جدوى... فقلت للجمهور إنني سأعتمد على صوتي المباشر وأرفعه بأقصى ما أستطيع لكي أوصله إليكم... وتم إلقاء المحاضرة بتلك الصيغة التي وصلت مسامع الحضور جميعاً والحمد لله.

بل لقد حدث ما هو أمرّ من ذلك كله، تلك الحملة المسعورة التي شنت ضد القيادات الإسلامية في الموصل في منتصف التسعينيات، وكلهم من إخوتي وأصدقائي، وساقتهم إلى الاعتقال والتعذيب في أقبية مديرية الأمن لأكثر من شهر، ربما بسبب الشكوك التي ساورت السلطة بخصوص وجود تنظيم سري للإخوان المسلمين، والذي قد تكون بعض خيوطه الرئيسية قد انكشفت في بغداد... وربما كان الأمر بمثابة حركة إعلامية موجهة إلى مراكز الغرب، أن الحملة الإيمانية في العراق لن تمضي إلى هدفها هكذا، وعلى غير هدى، وتترك حرية العمل للإسلاميين... وربما... ولكن المهم أن حملة الاعتقالات تلك كادت تطالنا نحن الإسلاميين من أساتذة جامعة الموصل، لولا أن تصدى لهم مسؤول الأمن الجامعي، وأقنعهم بأن لا علاقة لنا بأولئك الذين ألقي

القبض عليهم... ومهما يكن من أمر فما لبثت السلطات أن أفرجت عنهم وعادت الأمور سيرتها الأولى...

في هذه المرحلة من حياتي، أواخر الثمانينيات وعقد التسعينيات، كانت أوضاعي الصحية لا تسرّ أحداً من المحبين... بدأت عام (١٩٨٨م) بمتاعب في الجانب الأيمن من خاصرتي، وبعد مراجعات شتى عرض علي الدكتور الصديق دحام عبد الهادي ﷺ المختص بالتصوير في جهاز السونار، أن يلتقط لي عدداً من الصور، فإذا بها تكشف عن وجود ثلاث حصيات متوسطة الحجم في المرارة إحداها قريبة من قناة الصفراء، فيما يشكل خطورة بالغة لحظة تحركها عن موقعها ذاك.. عدت إلى البيت بائساً حزيناً، خشية أن ترغمني الحالة على مداخلة جراحية... ولم أنم ليلتي تلك وأنا أتذكر المداخلة الجراحية لاستئصال الغدة قبل ثلاث سنوات، وكيف أشرفت بي على الموت اختناقاً لولا عناية الله ﷻ، وأتذكر معاناتي القاسية مع انسداد النفس في أعقاب عملية استئصال الزائدة الدودية في حلب في صيف عام (١٩٧١م)، حيث لم أكن ولا الأطباء قد اكتشفوا الانسداد الكامل في صمام القلب...

ثم ما لبثت الأيام التالية أن عرضتني لتزايد ملحوظ في حالات الانسداد الكامل في النفس، حيث كنت أشب قائماً كالملدوغ بحثاً عن نقطة هواء واحدة أسد بها رمقي... وتزامن ذلك مع عدة حالات من الترنح والسقوط في الأماكن العامة... ولا زلت أذكر عدداً من تلك الحالات، حيث نقلني في إحداها الدكتور عمر الطالب إلى دار طبيب العائلة وأحد أقربائها، الأستاذ الدكتور طاهر الدباغ الذي أشار علي بأخذ أشعة في جهاز الإيكو لتبيّن الأسباب...

ومرةً أخرى وأنا أغادر جامع الأورفلي في شارع السعدون في بغداد، حيث ما لبثت أن وجدتني أتهاوى على الأرض، فإذا بشخص ينكب علي ويعينني على القيام، ويطمئنني بأنه طبيب وأنه بمقدوري أن أطلب منه ما أشاء، ولكني ما لبثت أن استعدت توازني وشكرت له صنيعه... ومرةً ثالثة وأنا أتحدث في

الهاتف، فإذا بي أتركه يسقط على الأرض وأسقط معه فيما أصاب العائلة بالرعب مما قد يتمخض عنه السقوط.

والمهم أني توجهت في اليوم التالي، وبناء على توصية من الدكتور طاهر الدباغ، إلى المستشفى العام والتقطت أكثر من صورة في جهاز الايكو حيث ما لبث أن تبين وجود انسداد تام في الصمام الإهليلي الأمر الذي يتطلب مداخلة جراحية عاجلة، وإلا ساءت العاقبة... ولكني تحسباً من النتائج المنذرة بالويل، ترددت طويلاً في اتخاذ قراري وأنا أتذكر مأساتي مع عمليتي الزائدة والغدة، ثم ما لبثت أن أحلت حسم الموضوع لحين عرض الأمر على أطباء لندن، حيث كنت مدعواً بعد أسابيع للمشاركة في ندوة المنهاجية التي سيقيمها مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية. وهناك وبمعاونة الأخ والصديق الدكتور أنس صديق الشيخ علي، المستشار الأكاديمي لمكتب لندن للمعهد العالمي للفكر الإسلامي... راجعت طبيباً مختصاً شخص الحالة، وأشار بضرورة إجراء القسطرة للتأكد من الأمر.

كنت متخوفاً من (القسطرة) وتصورتها مداخلة جراحية قد تسبب لي الويل... واحترقت علي ـ بسبب ذلك ـ أيام وجودي في إنكلترا، ورحلتي منها إلى باريس لحضور تصميم مناهج كلية الدراسات الإسلامية في شاتوشينون... ورغم أنني قدمت في الاثنتين جهداً مبدعاً أثار إعجاب الحضور... إلا أن ما كان يعتمل في داخلي من قلق وخوف، كان يؤرقني... حتى جاء ذلك اليوم الذي اتجهت فيه بمعية أخ من الجزائر إلى مستشفى كروموبل في لندن، حيث تبين لي أن القسطرة مسألة في غاية السهولة، انتهت بمخدر موضعي في أقل من نصف الساعة، حيث حملت إلى إحدى الغرف لمتابعتي هناك، ثم ما لبثت بمساعدة أخ من مصر، وبتوجيه من دكتور أنس، أن غادرت المستشفى مساء، سعيداً بخلاصي من هذا الهم الكبير الذي ركب على أكتافي الأسابيع الطوال...

ثم ما لبثت بعد عودتي إلى العراق في أواخر تموز عام (١٩٩٠م) أن دخلت مرحلة الحيرة بصدد المستشفى التي سأجري فيها مداخلتي الجراحية،

هل في داخل العراق أم في إحدى المستشفيات في الخارج... وأخيراً وبعد لأي قررت إجراءها في مستشفى ابن البيطار في بغداد، والمعروف بكوادره الإيرلندية من الأطباء والممرضين، وبعنايته الفائقة بالمرضى، فكأنه والحالة هذه مستشفى إنكليزي يعمل في لندن...

إلا أن المشكلة تمثلت في مسألة الحصول على الموافقات الصعبة لقبول إجراء مداخلتي فيه، حيث إنه كان مخصصاً بالدرجة الأولى لذوي الشأن من أرباب السلطة والمحيطين بهم، ولكنني بعد جملة من الوساطات المؤثرة، والمتابعات المتواصلة، قدرت على حجز موعد لي في العشرين من تشرين الأول عام (١٩٩٠م)، حيث كان العراقيون في صراع مع الزمن بسبب مجازفة اجتياح الجيش العراقي للكويت والتلويح بالحرب المؤكدة ضده.

وأجريت العملية على يد دكتور إيرلندي شاب يدعى (أريس) يتقد خبرة وكفاءة، واستغرقت الساعات الطوال، حيث استبدل صمامي المسدود بآخر معدني... ويبدو أنني ـ كالعادة ـ أفقت من تأثير المخدر، والمداخلة لا تزال قائمة... والأجهزة والأسلاك... وقلبي الذي أخرج عن موضعه... فما كان مني في لحظة نزف وضيق في النفس إلا أن ضربت بيدي هذه الأجهزة والأسلاك، فصرخ بي أحد الأطباء صرخة هائلة جفلت لها، ثم ما لبث أن حقنني بالمخدر مرةً أخرى.

فما لبثت أن أخذتني سنة من نوم عميق لم أستفق منه إلا بعد إنجاز العملية ونقلي إلى الغرفة المخصصة لي ولزوجتي... ولكن بعد ماذا؟ لقد أصبت خلال المداخلة بنزف حاد كاد يستنزف دمي كله... وراح الأطباء يتراكضون بحثاً عمن يعينهم على التبرع بالدم الذي يتوافق مع فصيلتي... ولحسن الحظ فقد تركت في جيب سترتي ورقة دونت فيها هواتف العديد من أصدقائي في بغداد، فجاؤوا يهرعون لكي يتبرعوا بدمائهم، وينقذوني بإرادة الله وحده من موت كاد أن يكون محققاً... فها هي المرة التاسعة أو العاشرة التي أتعرض فيها للموت، ولكن مشيئة الله وحده هي التي تنقذني من الهلاك.

قضيت أسبوعاً في مستشفى ابن البيطار عانيت فيه من المتاعب في المعدة والقفص الصدري الأمرّين، بسبب طبيعة الأدوية التي كنت أتجرعها ساعة بعد ساعة ويوماً بعد يوم، وبسبب من القص الذي تعرض له القفص الصدري خلال المداخلة الجراحية... وأذكر يوماً شكوت فيه حالي لزوجتي، بينما راحت الدموع تنساب من عيني... لماذا؟.. لأني سمعت أحد الممرضين، خلال إجراء المداخلة وضربي بيدي الأجهزة والأسلاك، يصرخ: إنهم عراقيون!! لقد آلمتني هذه الوخزة النفسية القاسية، وجعلت الدموع تطفر من عيني... دون أن أدري أن العراقيين سيتحولون بعد الاحتلال الأمريكي القذر لديارهم إلى وحوش كاسرة، يقتل بعضهم بعضاً ويذبح بعضهم بعضاً... فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم...

عدنا بالطائرة إلى الموصل، حيث خرجت العشيرة كلها لاستقبالي في المطار، وأنا أصافحهم واحداً واحداً ولا أكاد أتبين أحداً منهم لشدة آلامي... واستقر بي الأمر في البيت حيث كنت أقضي ليالي الخريف المتطاولة ساهراً حتى الصباح... ولكني بفضل الله وحده ما لبثت أن بدأت أتماثل للشفاء... إلا أن متاعبي مع القلب وآلام القفص الصدري استمرت لأكثر من شهرين ثم راحت تزول شيئاً فشيئاً... والحمد لله...

ولا زلت أذكر جانباً من خبرتي أيام المداخلة الجراحية، والتي أكدت لي بأن القلب هو مركز الثقل في حياة الإنسان، بل حتى في تفكيره، وأنه بما ينطوي عليه من الكهربائية التي ركبها الله ﷻ في تكوينه المعجز، يملك الكثير من التأثير المباشر في سلوك الإنسان وتصاميمه الفكرية... حيث إنني في الأيام الأولى التي أعقبت المداخلة، كنت أجدني بين الحين والحين، أركب مقطورة صغيرة تنطلق بي بسرعة مدهشة إلى مديات بعيدة، وأنا مستسلم لها، لا أملك القدرة على إيقافها...

ولسوف يتأكد ذلك عبر مداخلة أخرى في القلب أجريتها في اسطنبول في خريف عام (٢٠١٠م) لوضع بطارية في صدري تعين القلب على العمل، بعد

الإعياء الشديد الذي أصابني... وذلك عندما كنت أرى رؤى يومية ما ألبث أن أقصها على زوجتي في اليوم التالي وكأنها أمر واقع مائة بالمائة... وأطلب منها أن تتابع المسائل التي أثارتها... وهي تحدّق في وجهي محدثة نفسها: ماذا يقول هذا الرجل؟ إنه واثق كل الثقة أنه اجتاز الرؤية وكأنها أمر واقع...

ثم ما لبثت أن سألت الطبيب المناوب، فأجابها: إنه القلب البشري الذي ينطوي على جملة هائلة من الأسرار والقدرات، التي تعتمد في انساقها على كهربائيته، فإذا تعرضت هذه الكهربائية لأي متغير فلسوف يتبعها الكثير من الأمور التي تخرج عن حدود المعقول!! إنه القلب حقاً، وكما يقول كتاب الله ﷻ: ﴿. . . فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]... وصدق الله العظيم...

في خريف عام (١٩٩٣م) وأنا أستقل الباص الذاهب بنا إلى عمان، لحضور المؤتمر الدولي الذي أقامته منظمة اليونسكو الإسلامية (الإيسسكو) حول مستقبل العالم الإسلامي، والذي دعيت للمشاركة فيه ببحث... أحسست بعد مغادرة مدينتي الموصل بساعة أو ساعتين بشيء من الدفء في جانب مثانتي، فمددت يدي لأتبين السبب فإذا بي أضعها على ما يشبه البيضة الصغيرة التي شقت الجلد وبرزت ظاهرة للعيان... فعرفت أنها الفتقة، وانتابتني الحيرة... هل أواصل رحلتي إلى المغرب وأنا أحمل هذا الهم الذي برز على حين غفلة؟ أم أقفل عائداً إلى الموصل لمعالجته قبل أن يستفحل الأمر، وقد يقودني إلى ما لا تحمد عقباه...

وكان إلى جواري زميل لي من تدريسيي كلية التربية التي أعمل فيها، وهو الأستاذ الدكتور عبد الواحد ذنون صاحب التآليف المعروفة في التاريخ المغربي والأندلسي... فسألته وتداولت معه الأمر، ثم استقر الأمر على عرض نفسي على أقرب مستشفى سيمرّ بها الباص...

وكان أن توقف قليلاً في مدينة الرمادي قاعدة محافظة الأنبار، فيممت وجهي صوب طبيب الخفر وعرضت عليه حالتي، فطمأنني أن بمقدوري أن

أذهب إلى المغرب بل أن أؤجل المداخلة الجراحية لزمن قد يطول بسبب صغر حجم الفتقة، لحين أن يبلغ الحدّ الذي يمكن الأطباء من استئصاله... فشكرته وأنا أحس بسعادة غامرة على اجتيازي حالة الحيرة المريرة...

ولما عدت من المغرب لم أشأ أن أزعج الأهل بإعلامهم بالموضوع، وظللت على مدى سنتين أعاني من آلام الفتق المتمثلة باندفاعه المفاجئ إلى الخارج، وضرورة أن أتمدّد على السرير وأعالج إعادته إلى موضعه بعد أن أكون قد تجرعت آلام يصعب وصفها... ورغم أنني اشتريت حزاماً طبياً لضبط الفتق، إلا أنه كان يندلق بين الحين والحين فأضطر لمعالجته بيدي...

ثم ما لبثت في خريف عام (١٩٩٥م)، وبعد مراجعة جملة من الأطباء، أن كشفت الأمر لزوجتي واتفقت مع الجراح الأشهر في الموصل، الدكتور قيس الوتار، الذي سبق وأن تولى أمر إجراء المداخلة الجراحية للغدة قبل عشر سنوات، على موعد إجراء المداخلة الجديدة... في مستشفى الزهراوي الأهلي في الموصل، حيث كنت قد جئت معي من الأردن بخيوط العملية الأصلية التي لم تكن متوفرة في العراق بسبب الحصار... وحيث أجريت العملية بيسر بالغ، إذ ما لبثت أن أفقت من تأثير المخدر دون أي إحساس من ضيق في النفس أو الاختناق كذلك الذي أحسست به لدى عمليتي الزائدة والغدة.. ذلك إنني كنت قد أزلت السبب الرئيسي: انسداد الصمام، فاستقامت أنفاسي... ولقد تملكني الفرح وأنا آخذ الهواء الطلق، وأشعر أنني قد اجتزت مداخلة حملت همها لمدة عامين، وأنني أكاد أحلّق في السماء السابعة بحمد الله... حتى أن زوجتي حذرتني من إبداء فرحي الزائد أمام الزائرين خوفاً عليّ من الحسد الذي لا تحمد عقباه... فيا سبحان الله!...

لكن هل كفّت الآلام الجسدية والأوجاع عني؟ أبداً... فها أنا ذا طيلة التسعينيات وبشكل يكاد يكون مزمناً أعاني من آلام الساقين والأفخاذ تلك التي لا تهدأ إلا بأن أنادي على من يتولى ضربها بقوة بقبضة يديه، أو الوقوف عليها وهرسها من أجل أن تكفّ أوجاعها... وأرتاح... ومن متاعب مفاصل

الركبتين التي كانت تعطلني عن ممارسة رياضتي اليومية الملزمة من المشي لمدة نصف ساعة وفق نصائح الدكتور الإيرلندي (أريس) في مستشفى ابن البيطار، وكذلك عن أداء صلواتي في المسجد... ومن متاعب جلدية دائمة في ظاهر القدمين والكفين والرسغين... بحيث إنني راجعت أكثر من طبيب مختص، وتناولت العديد من المراهم دون جدوى... هذا إلى متاعبي الدورية مع الكلية والمجاري البولية... والانزلاق الغضروفي الذي كان يزورني ـ لحسن الحظ ـ على تباعد في الزمن...

هذا إلى متاعبي المتواصلة مع الأسنان، ومراجعاتي شبه اليومية، للعديد من أطبائها، حيث انضاف إليها ـ ربما بسبب ما آخذه يومياً من الوارفارين المميّع للدم ـ متاعب متواصلة في اللثة وظهور انتفاخات فيها، حتى أنها جذبت اهتمام طبيب الأسنان المتألق الدكتور عبد الخالق عبدال، فقرر أن يكتب عنها بحثاً للترقية العلمية (!!) وكنت أراجعه بين الحين والحين لكي يضغط عليها ويعيد اللثة إلى وضعها الطبيعي. هذا إلى ما كنت أعانيه من انتشار البقع البيضاء في فمي ولثتي ولساني والتي كانت تحيل عملية تناول الطعام إلى عذاب دائم...

وثمة تلك التجربة المريرة مع نزيف المثانة... حيث كانت الطائرة قد حطت بي في آخر عام (١٩٩٥م) في مطار صنعاء، لكي يستقبلني هناك أحد موظفي العلاقات العامة لكلية آداب جامعة صنعاء، حيث دعيت لإلقاء جملة محاضرات فيها، ويوصلني بسيارته إلى فندق (حدّة) الأنيق الواقع عند مشارف المدينة... وكنت في الليلة السابقة تماماً قد دعيت بواسطة الأخ الدكتور فتحي الملكاوي، المستشار الأكاديمي للمعهد العالمي للفكر الإسلامي في عمان، إلى وجبة عشاء من الدجاج المشوي المليء بالتوابل الحادة... وحيث تناولت كمية كبيرة منه دون أن أحسب حساباً لما قد يتمخض عن ذلك من متاعب...

فإذا بي وأنا أصل فندق حدة في اليوم التالي، وأستيقظ ليلاً للذهاب إلى التواليت أجدني قبالة حوض الإدرار وقد أغرق بالدم القاني، فتملكني الرعب

من استمرار النزيف الذي طالما عذبني في الموصل لدى تدفقه من الأنف بغزارة بين الحين والحين... وقلت في نفسي: إلى أين أذهب في هذا الليل العميق... إنه الإشراف على الموت نزفاً... لا محالة... وما لبثت أن دعوت الله ﷻ أن ينزل علي رحمته، فيوقف هذا النزيف... ثم وضعت رأسي على الوسادة وأخذتني سنة من نوم عميق، فلما استيقظت صباحاً وذهبت إلى التواليت إذا بالإدرار يعود إلى وضعه الطبيعي، فحمدت الله ﷻ... لقد كانت فرحة بالنجاة يصعب وصفها...

ولكن الذي حدث بعد هذا، ولم أكتشف سببه إلا بعد أيام طويلة، أنني كنت أتقلب على السرير طيلة الليل في محاولة لاستدعاء النوم ولا من جدوى... كان ضيق النفس يطبق الخناق عليّ ولا يدعني أنام حتى مطلع الفجر... ثم ما لبث أن تبيّن لي أن سبب هذه الحالة هو الارتفاع الكبير لمدينة صنعاء عن مستوى سطح البحر، حيث يقل الأوكسجين وتلتقط الأنفاس بصعوبة بالغة... والأنكى من هذا أنني كنت أكافح مستميتاً لجلب الهواء إلى رئتي من أجل تمكيني من مواصلة إلقاء محاضراتي في العديد من المعاهد اليمنية والكليات... فكنت أنهي المحاضرة وقد تحوّلت إلى ركام!! حتى أنه عندما تلقيت دعوة من جامعة الإيمان التي يشرف عليها الأخ الداعية الشيخ الزنداني، بعد سنتين من عودتي، اعتذرت بسبب ما قد يسببه لي وجودي في صنعاء من مخاطر ومنغصات...

وثمة أخيراً وفي عام (٢٠٠٠م) يكتشف طبيب القلب المعالج في المستشفى الإسلامي في عمان، وأنا في طريقي إلى الإمارات التي تعاقدت للعمل التدريسي في إحدى كلّياتها... تعرّضي قبل أيام لجلطة في ساقي الأيسر ربما بسبب الضغوط النفسية والجسدية التي قاسيت أهوالها في أواخر التسعينيات... ولكن الله سلّم...

ولقد دفعني هذا عبر بدايات العقد الجديد إلى تنغيص حياتي الجديدة في الإمارات من خلال مراجعاتي شبه اليومية لجملة من الأطباء والمستشفيات

الحكومية والأهلية... وهدر ساعات متطاولة من الزمن، وإنفاق مبالغ أسطورية من المال... ثم متابعة الأمر في مستشفيات باريس وأطبائها... ولما تبين لي أن ليس ثمة ما يقلق توقفت عن الملاحقات التي كادت أن تأتي على أعصابي.

وثمة النجاة، بإرادة الله وحده، من عدة حوادث تصادم لسيارتنا، كادت تأتي عليّ وعلى أسرتي وتستأصلنا من الوجود... لولا أن الله ﷻ كان يحيطنا في كل مرة بكرمه وعنايته التي لا حدود لها... جلّ في علاه... فنحن مدينون له بكل دقيقة مضافة إلى حياتنا... وإلا فهو الهلاك المحتوم!!

والحديث عن مجابهة الموت يقودني إلى تذكر تلك الأعوام السوداء من الكوارث المتلاحقة التي حلّت بنا، حيث أنه، عبر ثلاث سنوات فحسب (١٩٩٥ ـ ١٩٩٧م) اختطف الموت أبي، وأخي، وأمي، واحداً بعد الآخر...

ولم يكن أبي قد تجاوز من العمر الثمانين عاماً إلا قليلاً... وكان قبل إلحاح المتاعب المرضية عليه... يملك من الصحة والعافية ما يجعله وهو يجتاز الدروب والأسواق مشياً، يُتعب من يسير معه... بسبب من سرعته وحيويته... وظلت البشاشة تغمر وجهه... ومداعبات المعارف والأصدقاء معلقة على لسانه... كان ـ بإيجاز شديد ـ يملك حتى لحظات وفاته حضوراً اجتماعياً مدهشاً.. وكان يسعدني أن أذهب ظهيرة كل يوم لكي آخذه من محلّه في باب السراي، بسيارتي إلى البيت، وأن ألبي طلباته في اختيار الكتب المناسبة من مؤلفاتي لكي يطالعها في السوق... كان، رغم أنه لم يتجاوز في دراسته الصف الثاني الابتدائي، قارئاً من طراز أوّل... وكان يعلق على الكثير مما كان يقرؤه... فما يزيدني ذلك إلا سعادة وامتناناً...

ولكن ما ظل يؤلمني، ويوخز ضميري، ويعذبني، حتى اللحظات التي أكتب فيها هذه الكلمات... أنني لم أعبّر عن محبتي له واعتزازي به وفق السقف الأعلى، حيث تقبيل اليدين في كل لقاء... بل إذا اقتضى الأمر الانكباب لتقبيل قدميه!! فببركته وحده، وبتربيته المرنة والمتوازنة، قدر على أن يربي أبناءه فيما جعلهم يكسبون محبة الناس جميعاً، وهي أقصى ما يطمح إليه الإنسان...

ذلك أن محبة الناس، هي من محبة الله جلّ في علاه... فهل يطمح الإنسان إلى أكثر من هذا؟!

في لحظات وفاته الأخيرة، في تشرين الأول من عام (١٩٩٥م)، ركبت سيارتي أنا وأخي الأصغر نبيل ﷺ للإتيان بالطبيب الدكتور محمد جميل الحبال الذي ما لبث بعد أن ألقى نظرة عليه أن قال: لقد قضي الأمر... وإنا لله وإنا إليه راجعون... وفي صبيحة اليوم التالي شيعناه إلى مثواه الأخير، وأقمنا له مجلس عزاء في إحدى قاعات المناسبات التي اكتظت بالمعزّين... فمن من أبناء هذه المدينة الوفية لا يعرف من هو (خليل الحاج عمر) عليه رحمة الله؟!

في شباط من العام التالي، وفي اليوم الثالث من عيد الفطر المبارك، ظهراً، غادرت مسجد الحي في الطيران المسمى بجامع الملاح، فإذا بي ألتقي بأخي نبيل يقف على عتبته، وهو يعطي وعداً لأحد الأصدقاء أو الطلبة، ببذل مساعيه في مساعدته... وما كنت أعرف أن هذا اللقاء هو الأخير في حياة أخي نبيل، إذ غادرته متجهاً إلى بيت عمي لتناول الغداء، بينما قفل هو عائداً إلى بيت الأهل... كان قد خرج للتو من شهر من المتاعب الصحية مع ما سمي يومها الأنفلونزا الروسية التي غزت الموصل، وكانت آثار الضعف العام والإعياء بادية على وجهه... لكن الحمى كانت قد فارقته إلى غير رجعة، وبدأ يستعيد شيئاً من عافيته... بعد أن أنجزت تناول غدائي، تقدمت مني زوجتي وهي تحبس دمعتين معلقتين على أهدابها وقالت لي بصوت متقطع: أنت مؤمن يا عماد... وأقدار الله إذا نزلت فلا رادّ لها وتلك هي مشيئته... فانتفضت قائماً وقلت لها: ماذا؟ ومن الذي مات؟ فقالت: أخوك... نبيل!!

غامت الدنيا في عيني، ورحت أدور مع نفسي وأنا أردد لا حول ولا قوة إلا بالله... وأخذت الدموع الهادئة تنساب من عيني... ثم ما لبثت أن تركت الدار وهرعت إلى بيت أهلي لإلقاء نظرة الوداع الأخير على أخي، وصديقي، وذراعي الأيمن، وسمعي، وبصري... وكنت وأنا أجتاز المسافة القصيرة بين البيتين

أضغط على قلبي خشية أن يقفز من صدري فلا يرجع إليه... كنت كمن يدوس عليه بنعليه كي يسكت صرخاته المكتومة، وأنا أدور مع نفسي بصوت مذبوح: من لي بعدك يا أخي، ويا صنو عمري، من ألجأ إليه في اللحظات التي يشتد فيها الكرب، فتخفف عني ببشاشتك التي أخذتها عن والدي، وبكلماتك التي كانت تخرج عن قلب صادق الإيمان لم يعرف يوماً خروجاً عن جادة الحق أو انحرافاً عن الصراط؟!

رفعت الغطاء عن وجهه وقبّلته في جبينه، وأنا أردد: عليك رحمة الله... عليك رحمة الله... عليك رحمة الله... أيها الأخ والصديق... وإنا لله وإنا إليه راجعون...

ولم تشهد مجالس العزاء في الموصل، حتى ذلك اليوم، ما شهده مجلس عزاء أخي نبيل الذي أقيم في قاعة جامع العراقي في الجانب الأيسر، من زحمة واكتظاظ... جاؤوه من كل مكان: من الموصل، وكركوك، وأربيل، وبغداد، حتى أن الكثيرين من المعزين كانوا يدورون بحثاً عن مكان يجلسون فيه فلا يجدوه... فما يلبثون أن يقفوا في الصف الطويل، وينتظرون لكي يجيئهم الدور فيؤدون مراسم العزاء وينصرفون...

ولا تسألوا عن وضعية أمي وزوجته... أما أولاهما، فقد أصابتها صدمة الموت المفاجئ بنوع من الذهول فلم تعد تتكلم إلا قليلاً... إذ كان نبيل بعد وفاة أبي يعني كل شيء... وأما ثانيتهما فكنا نسمعها وهي تبكي وتقول: إنه قد أوحشها... والله إنه قد أوحشها... فيا للأحزان عندما تنصبّ انصباباً على الإنسان... فلولا نعمة الإيمان بالله ﷻ والتسليم لأقداره... لذهب الناس في أعقاب كل ضربة مؤلمة شتاتاً وبدداً...

ولد أخي نبيل في الموصل عام (١٩٤٨م) وحصل على البكالوريوس في الهندسة الكهربائية من جامعة الموصل، والماجستير في علوم الحاسبات عام (١٩٧٦م) من جامعة برادفورد في إنكلترا. ألّف وترجم عدداً من الكتب في مجال تخصصه، وحصل على جائزة مؤسسة الكويت للتقدم العلمي عام

(١٩٨٣م). وتولى تأسيس مركز الحاسبة الالكترونية في جامعة الموصل بمعية الدكتور محمد زكي محمد خضر... كما عهد إليه برئاسة قسم علوم الحاسبات في كلية علوم جامعة الموصل حتى وفاته...

تخرّج على يديه جيل من المختصين بعلوم الحاسبات الذين ظلوا يذكرون أسلوبه العالي في التعامل معهم، وإدارته المتميزة للقسم... وكان يملك قدرة أدبية متميزة بسبب كثرة مطالعاته التي تعلمها مني وراح يسابقني في التهام الكتب، ولقد انعكست تلك القدرة في لغته التي تتميز بالأناقة والجمال، والتي كان يكتب بها ويترجم البحوث والمؤلفات العلمية، فضلاً عن كتابة القصص القصيرة والمقالات التي نشرت في الصحف والمجلات العربية والإسلامية...

في عام (١٩٩٢م)، وفي ذكرى اليوبيل الفضي لتأسيس جامعة الموصل، ألقى محاضرة رائعة عن فيروس الحاسبات، شدت بأسلوبها المؤثر الجميل أنظار الحاضرين... ثم ما لبث أن ختم محاضرته مخاطباً جمهور الحضور من الأساتذة والطلاب بعبارة (عقبال اليوبيل الماسي...) فكأنه يذكرهم أنهم جميعاً يكونون قد غادروا هذه الدنيا الفانية يومذاك... فعليهم أن يكفوا عن اللهاث وراء إغراءاتها الكاذبة ووعودها المخادعة... وما لبث هو بعد أربع سنوات من كلمته تلك أن فارق الدنيا بالسكتة الدماغية... يرحمه الله...

وبسبب من ذلك الخزين والمفجع من الأحزان... انهالت الآلام والأوجاع على أمي... فلم تعد تستطيع تحمّلها، وأصابتها بمقتل في قلبها، فنقلت إلى جناح العناية المركزة في المستشفى العام... ورحنا نتابع جهاز القياس الذي علق قريباً منها لمتابعة حركة القلب، فكان يرتفع على حين غفلة وبشكل فجائي، ثم ما يلبث أن ينزل إلى قريب من نقطة الصفر... ولم ترحم هي نفسها وتلتزم الصمت والهدوء... رغم إلحاحنا عليها وتوسّلنا بها... إنها كانت ـ كأبي تماماً ـ تهش وتبش لكل زائر وتملك حضوراً اجتماعياً ملحوظاً، فلا تكفّ عن المجاملات وتبادل الأحاديث والنكات رغم ما كانت تعانيه من مخاطر وآلام.

وكان لا بدّ مما ليس منه بدّ... ففي أحد أيام نيسان (١٩٩٧م)، بعد عام واحد من وفاة ابنها الغالي نبيل أطلقت كلماتها الأخيرة معربة فيها عن رضاها عنا نحن أولادها... ثم ما لبثت أن أسلمت الروح... عليك رحمة الله أيتها الأم الغالية التي بغيابها تنطفئ الشمس، ويفقد القمر قدرته على إضاءة الليالي المعتمة السوداء... ويظل من تبقى من ذريتها يعيشون... نعم... يمارسون طقوس الحياة اليومية... بكل تأكيد... ولكن أين هو اللون.. والطعم... والرائحة؟!

في ذلك العقد الرمادي من حياتي ابتُليت بجملة من المتاعب التي كان عليّ أن أنفذها وأستجيب لمطالبها، المبهظة والقاسية... كانت أولاها عرض من المنظمة العالمية لليونسكو عام (١٩٩٣م) بكتابة بحث عن سيرة رسول الله ﷺ، لغرض نشره في الموسوعة التي اعتزمت المنظمة إصدارها... وافقت على العرض بعد تردد، وبعد استشارة العديد من الأصدقاء وزملاء القسم الذين أشاروا عليّ بالموافقة... ثم إنني أردت بموافقتي هذه أن أختبر مصداقية ما يقال عن التوجه المشبوه لهذه المنظمة المرتبطة بالأمم المتحدة التي يسوسها ويهيمن عليها اليهود بنسبة غالبة...

وبدأت العمل والكتابة والطبع والمراسلات المتواصلة عبر جهاز (التلكس) حيث لم تكن أجهزة التواصل الالكتروني السريع قد دخلت حيز العمل في العراق... ولقيت بسبب ذلك الكثير من المتاعب، ولكني وقد أنجزت المطلوب، ما لبثت أن تلقيت رسالة من القائمين على المشروع، وأحدهم أستاذ باكستاني، يطلبون مني إلغاء كل ما يتعلق بالهجوم على موقف اليهود من رسول الله ﷺ ودعوته ودولته... فقلت في نفسي: ها هو ذا المطلوب الذي كنت أنتظره وما لبثت أن بعثت إليهم برسالة جوابية قلت فيها: إن هذا الموقف في تزييف التاريخ، وإلغاء حلقاته الأساسية تزلفاً للصهيونية؛ عمل لا علمي ولا أخلاقي، وإنني أرفضه أشد الرفض، ولذا أرجو سحب بحثي وعدم نشر أية مساحة منه على الإطلاق...

ويبدو أن القائمين على المشروع تلقوا من خلال جوابي هذا صفعة قاسية، فلم يردوا عليه... بينما استمروا ـ على الأغلب ـ في البحث عن المؤرخين الطيعين الذين لا تهمهم الحقائق الدينية والتاريخية، بل الكسب المادي والمعنوي الذي يتهافتون عليه كالذباب...

وأما ثانية هذه المتاعب، فكانت العرض الذي تقدم به الأخ والزميل الأستاذ الدكتور عبد الحليم عويس ﷺ، من مصر، بالمشاركة في كتابة جملة مواد تاريخية لموسوعة التاريخ الإسلامي التي ينوي إصدارها جماعة من المعنيين بالهمّ التاريخي. وقد ترك لي الباب مفتوحاً في أن أختار المواد التي أشاء لكي أكتب فيها... فما كان مني إلا أن أشمّر عن ساعد الجد، وأقضي الأسابيع والأشهر الطوال، في إنجاز أكثر من عشرين مادة تاريخية للموسوعة المذكورة التي يبدو أنه لم يقدّر لها الصدور بسبب العوائق المالية... وكان حصيلة جهدي هذا كله لا تتجاوز الألف دولار إلا قليلاً...

وأما ثالثة المتاعب وأشدها قسوة، فهي عرض من أخ مهندس يشرف على مكتب للطباعة في أواخر التسعينيات بتنزيل مؤلفاتي كافة على الأقراص الليزرية (الدسكات) من أجل عرضها على الناس، وتيسير أمر نشرها لدى مكاتب النشر منقحة، تخلو من الأخطاء...

ولقد أغراني العرض، ورأيته ضرورياً في زمن الانتقال إلى التقنيات الإلكترونية الحديثة... فشمرت عن ساعد الجد، وبدأت بتقديم كتبي المطبوعة، بعد قراءتها وتنقيحها، لغرض إعادة طباعتها من أجل تنزيلها على الأقراص... وكان علي أن أتابع أعمال الطباعين الثلاثة الذين بدؤوا العمل... كلمة كلمة وحرفاً حرفاً... من أجل تقديم النص المكتوب خالياً من الأخطاء.

ولكم أن تتصوروا حجم الجهد الهائل الذي بذلته وأنا أتعامل مع ما يزيد على السبعين كتاباً مطبوعاً، أو لا يزال بخط اليد، بقراءتها مرتين قبل تنزيلها على الأقراص والاحتفاظ بها في جهاز الآلات الحاسبة... لقد كنت أعمل ليل نهار من أجل إنجاز المهمة قبل أن يحلّ موعد سفري إلى الإمارات عام

(٢٠٠٠م)، حيث وقّعت عقداً على التدريس في كلية الدراسات الإسلامية والعربية في دبي.

وأخيراً، وبعد كفاح متواصل أنجزت المهمة، ولكن بعد أن تركتني ركاماً... إلا أنها والحق يقال كانت من ضرورات العمل التأليفي، حيث لم يعد الناشرون يقبلون بالكتب المقدمة إليهم بخط اليد، أو حتى بالآلة الطابعة، ولا بدّ من تقديمها في أقراص جاهزة تيسر عليهم سبل الإخراج الخالي ـ قدر الإمكان ـ من الأخطاء.

وثمة طلب وصلني من الأخ الدكتور عميد الكلية الأوربية في شاتون شينون بفرنسا، يطلب فيه منظومة تساجيلي الصوتية عن الفقه الحضاري والتاريخ الإسلامي... فقمت بعد جهد يصعب وصفه، بإيجاد السبيل وإيصال المجموعة إليه.

وكانت المهمة الرابعة، ملابسة في ضريبة الدخل، حيث اكتشف الموظف بأن ابني يعمل في محل لبيع المواد الكهربائية... فضرب يده على المنضدة قائلاً: لا بدّ من تسجيل المحل في قوائم المديرية لحساب ضريبة الدخل المترتبة عليه، وإلزامه بدفعها سنة بعد أخرى، وكأنه كان يلمح من وراء عصبيته المصطنعة بضرورة رشوته بدفع مبلغ نقدي إليه لكي يغطي على الموضوع...

ولقد نصحني العديد من المعنيين بأن أستجيب لطلبه خشية أن ينفتح الباب على ابني محمد، وقال أحدهم مبرراً قولته تلك: (إنها القاعدة الفقهية بالدفع بأهون الضررين) لكنني لم أرتح لهذا العرض، وقررت أن أتولى بنفسي تغطية الضريبة السنوية المترتبة على تسجيل محل ابني في مديرية الطابو... بدلاً من الدخول في التواءات التعامل الذي لا يرى للمطالب الشرعية إلّاً ولا التزاماً...

أما المهمة الخامسة، فكانت بناء مخزن في السطح المكشوف لدارنا في محلة الطيران... بعد أن اشتدت علينا زحمة الأغراض التي راحت تتزايد يوماً

بعد يوم بصيغة متواليات هندسية وليست حسابية، حتى لم يعد ثمة مكان في البيت لاستيعابها... ورغم أنني كنت قد حذرت من هذه الحالة في كتابي (فوضى العالم في المسرح الغربي المعاصر)، حيث الإعلان الذي يغري بشراء الأشياء، وحيث المقاومة في البداية، ثم الانهيار أخيراً أمام إغراءات الإعلان وتكديس الأشياء المشتراة بحيث إنها أصبحت تمثل ـ كما يقول يوجين يونسكو أحد روّاد المسرح الطليعي ـ جداراً يمنع التواصل بين الناس، بل بين الأخ وأخيه والزوج وزوجته.

ومع ذلك فقد انسقت أنا كذلك، ورحت أشتري وأشتري، حتى ضج البيت من كثرة المشتريات... وها أنا ذا ملزم ببناء مخزن لوضع الأثاث المتكدس فيه... ولقد أخطأت باستجابتي لعرض المقاول الذي اخترته للإشراف على المهمة، بتسقيفه بطبقات الاسبست بدلاً من الصبة الكونكريتية التي تستغرق جهداً ووقتاً ومالاً... فلما تم العمل أحسست بأنني أخطأت باستجابتي تلك بسبب تسريب السقف لمياه الأمطار، فضلاً عن عدم حجبه المؤثرات المناخية حيث يتحول المخزن في الصيف إلى جحيم لا يطاق، وفي الشتاء إلى ثلاجة قاسية في برودتها... هذا إلى تسببه للحالات السرطانية بمرور الوقت، عندما تضعف مقاومته ويبدأ بنث شعيراته في الأجواء... ولقد عانينا لأكثر من عشر سنوات من متاعب هذا المخزن الكسيح، ثم شمرنا عن ساعد الجد، وأعدنا بناءه بالطريقة السليمة حيث تحوّل إلى غرفتين رائعتين للنوم والجلوس!!

وأخيراً كان عليّ أن أتابع متاعبي مع زوجتي، والتي تطلبت إجراء مداخلتين جراحيتين لها في عامي (١٩٩٥ و١٩٩٩م)، في الموصل وبغداد بعد قلق وتردد، وقد نجحت كلتا العمليتين اثر متابعات وجهود مضنية... بحمد الله...

والآن، هل تركت لي هذه المرحلة القاسية من حياتي في أواخر الثمانينيات وطيلة عقد التسعينيات هامشاً للمتع، والملذات المباحة... والاسترخاء... بعيداً عن مساحات القلق، والجهد المتواصل، والأحزان؟!

نعم وبكل تأكيد، فتلك هي دراما الحياة، وسنة الله في خلقه، وهو القائل جلّ في علاه: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥ ـ ٦]. فها هو ذا اليسر الذي يحيط بالعسر من طرفيه، ويمنح الإنسان الفرص المفتوحة لالتقاط الأنفاس! فيما يذكرني بمقولة أحد الشعراء الذي شبه الحياة الدنيا بالعرس الذي أقيم على جوانب مأتم!!

فلقد سعدنا بتخرج ابني محمد، وحصوله على البكالوريوس في علوم الكيمياء من جامعة الموصل، رغم أنه لم يشأ أن يرتبط بالعمل الوظيفي تدريساً أو إدارة... واختار العمل الحرّ ببيع المواد الكهربائية... ثم ما لبث بعد سنتين من تخرجه أن عثر على ابنة الحلال حيث تم زواجه بها في (ربيع عام ١٩٩٨م)...

ولحسن الحظ فلقد كانت زوجته هذه نموذجاً نادراً في الدين والخلق وحسن التعامل، بحيث أنها كسبت محبة جميع من تعرّف عليها، هذا فضلاً عن عشقها للعمل في البيت، بكل تفاصيله، حتى أننا كنا ننصحها بأن تعطي لنفسها دقائق من الاسترخاء والراحة دون أن تستجيب لطلبنا...

فالزواج كما هو معروف، حظوظ وأقدار، ولا يستطيع المرء أن يدخل في نفسية المرأة، وأخلاقيتها، وذوقها، وعاداتها، مسبقاً... ذلك كله مما سينكشف عنه مستقبل الزواج، فإما التوافق، والسعادة والانسجام... وإما البلاء الأسود وأعوذ بالله... ولقد كانت الأولى... بفضل الله... وكنت سعيداً وأنا آخذ لهم بسيارتي وجبات الغداء الشهية من المشويات إلى الفندق الذي نزلا فيه لقضاء بضعة أيام قبل عودتهما للاستقرار في الدار.

وبعد ذلك بأسبوع أو أسبوعين، حان موعد مغادرتي الموصل لأداء مراسم الحج مع ثلة من الأساتذة الجامعيين، وبعد سنوات من المحاولات اليائسة للحصول على الموافقة... وها هي قد جاءت، فأسرعنا باستكمال الأمور الإجرائية المعقدة والصعبة... ثم أعلن عن موعد انطلاق الحافلات عبر

الطريق البري إلى الحرمين الشريفين، حيث لم يكن السفر جواً قد استؤنف في العراق...

ورغم ما قاسيناه من متاعب عبر ستة أيام، ونحن نبيت في العراء، ورغم سوء المبيت والخدمات والإشكاليات التي صادفتنا عبر الطريق، وخلال الحج، بسبب التصرفات المعوجة لبعض الراكبين معنا، إلا أننا كنا نقول في أنفسنا إن الأجر على قدر المشقة والحمد لله... (ولقد تحدثت بالتفصيل عن رحلتنا تلك إلى الحج في كتابي: من أدب الرحلات، فيمكن الرجوع إليه).

وثمة مفارقات عديدة شهدتها تلك الأيام الرائعة على ما انطوت عليه من متاعب، لا زلت أذكر إحداها وهي أنني والأخ الأستاذ الدكتور موفق شندالة رحمه الله قررنا بعد الانتهاء من موسم الحج إطلاق لحانا التزاماً بسنة رسول الله ﷺ... ولكن كيف أطلقناها؟

في اليوم التالي مرّ بنا مرشد قافلتنا الديني الشيخ الصديق الدكتور فيضي الفيض رحمه الله، الذي سيقدر له أن يكون أول الشهداء الذين ستقدمهم مدينة الموصل، برصاص الموساد الإسرائيلي، بعد الاحتلال البغيض... نظر الرجل إليّ وإلى زميلي، وكان يحيط بنا مجموعة من الحجاج، وكتم ضحكة كادت تخرج من فيه صارخة مدوية... ثم ما لبث أن أعاد النظر في وجهينا مرةً أخرى وهو ـ على جلالة قدره ـ يحاول أن يكتم ضحكه...

ولقد أثار موقفه هذا دهشتي، فتجرأت عليه قائلاً: ما الذي يضحكك يا شيخ؟ فما كان منه وهو يهتز لكتمان ضحكه إلا أن أشار إلى لحيتي ولحية زميلي... فقلت له مرة أخرى: يا شيخ... يا طويل العمر... ما الذي يضحكك؟ أهكذا نحن ـ على جلالة قدرنا ـ أصبحنا مضحكة للرائح والغادي؟

فما كان منه إلا أن يعيد إشارته السابقة إلى لحيتي ولحية زميلي... فهرعنا إلى المرآة وإذا بنا نفاجأ بما لم يكن في الحسبان... إننا قد أطلنا لحانا... هذا صحيح... وبكل تأكيد، ولا يشكك في مصداقيته أحد كائناً من كان. ولكن كيف... لقد جعلنا موسى الحلاقة تقشط كل الشعر الذي يتجاوز

الحنك إلى الأسفل وأبقينا اللحية معلقة على القسم العلوي كافة كالسكين، بحيث أنك إذا مررت بأصابعك عليها، عرضت الأصابع للقطع...

وحينذاك عرفنا سرّ ضحكة الشيخ... وتعلمنا أيضاً كيف نجعل لحانا تنسبل في أماكنها المعروفة لدى كل الناس قاصيهم ودانيهم... ولكني عدت إلى الشيخ مداعباً وقلت له: يا شيخ... يا طويل العمر... أما كان أجدر بك وبجلالة قدرك، أن تسحبنا جانباً وتنبهنا إلى هذا الشيء الذي فعلناه، بدلاً من أن تجعلنا مضحكة للناس...

فما كان منه إلا أن ينكب علي ويقبلني بمودة واعتزاز... لقد دخل الرجل قلبي منذ أن تعرفت عليه قبل سنوات... وها هو ذا بجده المعروف، والممتزج ببشاشة وجهه يضيف إلى حلقات حجنا تلك إحدى طرفه الفريدة!! عليه رحمة الله...

كانت لديّ في أربيل قطعة أرض منحتها الدولة للتدريسيين الجامعيين في حي زانكو الجامعي، وتاقت نفسي للتبرع بها لبناء مسجد عليها في ذلك الحي، واتصلت بصديق لي في أربيل هو الأخ محمد رشدي عبيد، رئيس تحرير مجلة (الإيمان) الإسلامية، أعرض عليه أن يسعى في الموضوع، وأن يجد من يتولى بناء المسجد عليها... لكنه بعد متابعة الأمر أعلمني بأن هناك مسجد قريب من الأرض، وأن علي أن أصرف النظر عن الموضوع، فتركته على مضض.

ثم ما لبث أن اتصل بي يعرض علي بيع الأرض لاثنين من أعضاء الاتحاد الإسلامي في أربيل، فارتحت للفكرة، وتم البيع بعد جملة طويلة من المتابعات والرحلات المتواصلة إلى أربيل، وقمت بالتبرع بنصف المردود لإسناد المجلة المذكورة، طالباً من الأخ محمد رشدي أن يؤمم المبلغ لترجمة بعض الكتب الإسلامية إلى الكردية من أجل إيصال الخطاب الإسلامي إلى العقل الكردي، ولكنه أصرّ على الإفادة منه في دعم مجلة (الإيمان) التي تصدر باللغة العربية.

وثمة الدعوات العديدة التي انهالت علي من خارج العراق، فاستجبت

لبعضها، واعتذرت عن معظمها بسبب المتاعب الإجرائية التي يصعب وصفها، والتي ترافق كل رحلة إلى الخارج...

كانت أولى تلك الرحلات ـ عبر المرحلة الزمنية التي أتحدث عنها ـ استجابة من دعوة لجامعة الزقازيق في مصر حول إعادة كتابة تاريخ الأمة الإسلامية في خريف عام (١٩٨٩م)...

أعقبتها رحلة أخرى عام (١٩٩٠م) لإلقاء محاضرة في مركز فيصل للدراسات الإسلامية في الرياض، وأخرى للمنتدى الأدبي في المدينة المنورة... وكانت تلك آخر رحلة أقوم بها للسعودية بدعوة من المسؤولين فيها.

ثم أعقبتها رحلة مزدوجة إلى إنكلترا وفرنسا استجابة لدعوتين، إحداهما تقديم عدة محاضرات لندوة المنهاجية التي أعلن عنها مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية، والأخرى للمشاركة في تصميم مناهج الكلية الأوربية للدراسات الإسلامية في شاتو شينون في فرنسا.

تلتها رحلة إلى عمان في الأردن عام (١٩٩١م) تلبية لدعوة من المكتب الإقليمي للمعهد العالمي للفكر الإسلامي الذي يشرف عليه المستشار الأكاديمي للمنطقة العربية الدكتور فتحي الملكاوي للمشاركة في تصميم مناهج التاريخ الإسلامي بمعية عدد من المختصين، أعقبتها في العام التالي دعوة من المكتب نفسه، ولمدة أسبوعين للمشاركة في موسمه الثقافي بمعية الأخ الدكتور محسن عبد الحميد... أعقبتها في خريف العام نفسه رحلة أخرى إلى اسطنبول بمعية الأخ أديب الدباغ للمشاركة ببحث للمؤتمر الدولي الثاني عن فكر بديع الزمان سعيد النورسي...

وفي شتاء العام التالي (١٩٩٣م) قمت برحلة طويلة إلى السودان الشقيق استغرقت أكثر من عشرين يوماً بدعوة من جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية، التي يرأسها الأخ والصديق الأستاذ الدكتور أحمد علي الإمام ﷺ، لإلقاء جملة محاضرات في الجامعات السودانية، والمشاركة في تصميم مناهج جامعة القرآن الكريم... أعقبتها في خريف العام نفسه دعوة منظمة التربية

والثقافة والعلوم الإسلامية (الإيسسكو) في المغرب للمشاركة في بحث لمؤتمر مستقبل العالم الإسلامي.

وفي عام (١٩٩٥م) أتيح لي أن أغادر العراق ثلاث مرات، كانت أولاها في الربيع استجابة لدعوة من وزارة الأوقاف القطرية في الدوحة لإلقاء جملة محاضرات في الفقه الحضاري، وكانت الثانية في الخريف للمشاركة في المؤتمر الدولي الثالث لفكر بديع الزمان سعيد النورسي... وأما الثالثة، الطويلة نسبياً، في آخر العام فكانت استجابة لدعوة من رئاسة قسم التاريخ في كلية آداب جامعة صنعاء لإلقاء جملة من المحاضرات في الكليات والمنتديات هناك.

في عام (١٩٩٦م) ـ على ما أذكر ـ استدعيت من قبل دائرة الشؤون الثقافية في الموصل، حيث أعلمت بوصول برقية من السفارة التونسية في بغداد، تدعوني للمشاركة في مؤتمر علمي تقيمه جامعة الزيتونة في العاصمة التونسية، وتطلب من رئاسة الجامعة تسهيل مهمتي... فلما أُطلعت على صيغة الدعوة ووجدتها تحت ظلال طاغية تونس ـ يومها ـ زين العابدين بن علي، وأعلمت الموظف المسؤول باعتذاري عن الحضور لمناسبة يتقاتل عليها معظم الأساتذة الجامعيين من أولئك الذين لم يضعوا في عقولهم البوصلة التي تهديهم سواء السبيل.

وثمة رحلة قصيرة في خريف عام (١٩٩٧م) إلى عمان في الأردن، استجابة لدعوة من رئاسة جامعة الزرقاء الأهلية لإلقاء جملة من المحاضرات والمشاركة في تصميم مناهج التاريخ والحضارة فيها... أعقبتها رحلة طويلة نسبياً استجابة لدعوة من الجامعة الإسلامية العالمية في ماليزيا، لإلقاء جملة محاضرات والمشاركة في تصميم مناهج كلية معارف الوحي والعلوم الإسلامية فيها.

وفي عام (١٩٩٨م) تلقيت دعوة من رابطة الأدب الإسلامي العالمية لحضور مؤتمرها الدوري في المغرب، حيث تقرّر تكريمي هناك، كأحد روّاد

الأدب الإسلامي المعاصر، لكنني اعتذرت عن الحضور بسبب ارتباطي برحلة الحج في ذلك الموسم.

وبعد ذلك، وفي خريف عام (١٩٩٩م)، شاركت ببحث في مؤتمر أقامته جامعة الزرقاء الأهلية في الأردن حول (الأدب الإسلامي بين الواقع والطموح)، (ويجد القارئ التفاصيل اليومية لهذه الرحلات كافة في الفصل الخاص بالرحلات الخارجية من هذه السيرة).

ولعل سائل يسأل: كيف يتم التوفيق بين رفض كل طلباتك على الإطلاق لإعارة خدماتك للسعودية، والكويت، والإمارات العربية؛ وبين موافقة السلطات على رحلاتك المتنوعة هذه؟

والجواب سبق وأن تلقيته من أحد موظفي المؤسسة العامة للآثار والتراث... أن الإعارة مقصورة على العناصر المنتمية للحزب والمتعاونة مع أجهزة الدولة ومخابراتها... كما تلقيته على لسان ضابط المخابرات الذي قابلني لمعرفة مدى استجابتي للتعاون معهم، ورفضي القاطع لذلك...

أما الدعوات القصيرة للمؤتمرات والندوات والجامعات، للمشاركة في إلقاء البحوث والمحاضرات، فهو أمر مفتوح لجميع الأساتذة، رغم مروره بشبكة من التعقيدات الإدارية المرهقة والطويلة، بحيث أن الطلب يمر بالقسم، ثم بالعمادة ثم برئاسة الجامعة، ثم بوزارة التعليم العالي ومجلس الوزراء... وبدوائر الأمن والمخابرات... وصولاً إلى (مختار) المحلة التي يقطن فيها مقدم الطلب...

ولطالما رفضت السلطات طلبات عناصر بعثية واستجابت لطلبات غير البعثيين، إذا شكت بأن البعثي سيبيع بلده، وسوف يغادر القطر، ولن يرجع إليه أبداً، بينما الآخرون أكثر وفاء لبلدهم وحرصاً على البقاء فيه، ولهذا فإن عودتهم مضمونة... وهم ـ أي السلطات ـ تعرف هذا جيداً...

وأذكر يوماً قدّمت فيه طلباً لحضور مؤتمر في اسطنبول عام (١٩٩٥م) كيف اتصل بي هاتفياً اثنان من تلامذتي المتفوقين في كلية الآداب، ممن أغراهم العمل في جهاز المخابرات لما فيه من ميزات مالية وأسفار عديدة،

وطلبوا مني أن يقوموا بزيارتي في البيت... فرحبت بهما... وإذا بهما يقولان: بأننا نعرفك جيداً... رجل صادق مع نفسه ومع بلده، وهو على أسفاره ما يلبث أن يعود في كل مرة... ولهذا جئنا لكي نطمئنك على مصير معاملتك...

بل إنني حتى عندما كنت أعمل أستاذاً في جامعة الزرقاء الأهلية عام (٢٠٠٣م)، ما لبثت بعيد الاحتلال الأمريكي القذر للعراق، أن قطعت تعاقدي معهم وأسرعت في العودة إلى بلدي، أنا والأستاذ الدكتور عدنان الدليمي، رغم إلحاح رئاسة جامعة الزرقاء على ضرورة تمديد عقودنا... بل إن أصدقائي كافة كانوا يعرفون تماماً مدى (موصليتي)... وعشقي لمدينتي، وقراري للاستقرار فيها على تقلب الظروف والأحداث.

في عام (١٩٨٨م)، انتهت مجزرة الحرب العراقية الإيرانية، وتنفس العراقيون الصعداء، واجتازوا في الأعوام (١٩٨٨ ـ ١٩٩٠م)، قبل اشتعال مشكلة الكويت... أعواماً من الرفاهية والاستقرار، وأصبحت بغداد، رغم اجتياز العراق لحرب السنوات الثمانية التي استنزفته حتى النخاع، قبلة الزائرين والسواح... بشبكة شوارعها (الهاي واي) السريعة، ومتنزهاتها الرائعة، ومتاحفها البديعة، ومطاعمها الأنيقة، وفنادقها الفخمة، وأجوائها الشتوية المشمسة والرائعة، وأسواقها المركزية الملأى بالبضائع الأصيلة المستوردة من اليابان ودول الغرب...

فما كان من عائلتنا وعائلة أخي نبيل وابن عمي إلا أن ننتهز الفرصة، ونوظف عطل نصف السنة للرحيل بسياراتنا إلى بغداد والنزول في أحد فنادقها الممتازة، وقضاء أسبوع رائع من التجوال في شوارعها وفنادقها ومطاعمها ومتنزهاتها وأسواقها المركزية قبل أن نقفل عائدين وكآبة العودة تمسك بخناقنا، إلى الموصل، متمنين أن نظل هناك في العاصمة الرائعة الأسابيع الطوال... ولا زلنا لحد الآن نتذكر بشوق عميق تفاصيل تلك الرحلات الثلاث أو الأربع التي أمضيناها في بغداد... لقد كانت فعلاً فرصة رائعة للتحقق بالسعادة والانسجام.

وفي مدينة الموصل، وبراريها، والمحافظات الشمالية، استمرت رحلاتنا عبر هذه المرحلة من العمر... حيناً إلى المدينة السياحية في سد الموصل، حيث استأجرنا وبعض أقربائنا دوراً هناك، تطل على البحيرة الممتدة على مساحات كبيرة... ولشدة استمتاعنا برحلتنا تلك، عدنا ثانيةً لكي نستأجر الدور في السد ولمدى زمني أطول، حث كنا نقضي الوقت في اللعب، وتبادل الأحاديث والنكات، أو في التخطي في شوارع المدينة، والجلوس في حدائقها... وتناول وجبات الطعام بشهية مضاعفة، ومشاهدة البرامج التلفازية... والنوم العميق... والمطالعة الممتعة... إنها فرصة أخرى للاستجمام والبعد عن هموم العمل التي تتدفق كسيل لا ينقطع...

وحيناً آخر كنا نتجه إلى دهوك، حيث نقضي اليوم كله في أسواقها المركزية ذات البضائع الرائعة، ثم نقفل عائدين... هذا إلى الرحلات الربيعية والخريفية إلى براري الموصل التي كانت تكتظ بالأهالي، رغم ما كان العراقيون عموماً يعانونه من حصار قاس وضيق فظيع في ذات اليد... إنه ردّ الفعل المحتوم على المعاناة التي كانت تمسك بخناق الجميع... وفي قسم التاريخ بكلية التربية، كنا نقوم برحلاتنا الدورية إلى منطقة الشلالات، حيث اللعب، والأكل، والأحاديث، والنكات... والانسجام والتوافق بين أعضاء القسم كافة.

واستمرت ـ عبر هذه المرحلة كذلك ـ طلعات الفجر الرائعة، وحدي أو مع العائلة، حيث كنا نختار موقعاً رائعاً مطلاً على نهر دجلة في منطقة الغابات، ونفرش متاعنا هناك، ونتناول الطعام الشهي من المشويات، ونتبادل الأحاديث، والذكريات والنكات... هذا إلى جولات التخطي في الربيع المشمس والخريف الهادئ، وجلسات المقاهي اليومية لوحدي، أو مع ثلة من الأصدقاء...

ولا زلت أذكر جلساتنا الأسبوعية الرائعة في صالة مقهى (الكان كان) التي صممها صديقنا المهندس المعماري (عبد المالك الأعرجي) رحمه الله، حيث لعب الداما والشطرنج، ثم مغادرة المقهى لأداء الصلاة الجماعية في جامع

الدندان القريب والمطل على نهر دجلة... ثم التوجه إلى مطعم (الرغيف) الرائع بحدائقه البديعة وطعامه اللذيذ.

وبمرور الوقت يزداد شغفي بمتابعة اللقاءات الدورية لكرة القدم، حيث لم تكد واحدة مهمة منها تفلت من مشاهدتي، وحيث صرت أعرف لاعبي معظم الفرق الإنكليزية والإسبانية والألمانية، وأمارس التشجيع بكل مشاعري وجملتي العصبية لفريق دون فريق... وبخاصة تلك الفرق التي يكثر فيها لاعبون من ديار العالم الإسلامي، أولئك الذين يدخلون الساحة وهم يرددون مع أنفسهم سورة الفاتحة... وإذا ما أحرزوا هدفاً ضد الخصم سجدوا شكراً لله... أمام ملايين المشاهدين... يا له من منظر جميل مؤثر... فكيف لا يزداد الإنسان تعلقاً بمشاهدة المباريات؟!



الفصل الثامن

٢٠٠٠ ـ ٢٠٠٢م

في صيف عام (٢٠٠٠م) حيث كنت قد تحررت من الارتباط بالعمل الجامعي في العراق، تلقيت عدة دعوات للتعاقد مع جامعات الإمارات العربية المتحدة، وبخاصة جامعة العين في أبو ظبي وكلية الدراسات الإسلامية والعربية في دبي، واستقر رأيي على العمل في أولاهما، لما فيها من ميزات أدبية ومادية، ولكوني قد تعرّفت عليها عن كثب في عام (١٩٨١م) عندما دعيت لإلقاء جملة محاضرات فيها... هذا إلى أن لي فيها عدداً من الزملاء وعلى رأسهم الأستاذ الدكتور علاء نورس، الذي سبق وأن عمل معي في كلية آداب جامعة الموصل لعدة سنوات... وهو نموذج نادر للوفاء والغيرة على الدين، وقد تولى شخصياً كافة الإجراءات الروتينية، وأرسل إليَّ يخبرني بترحيب الجامعة بي وأنهم بانتظار وصولي...

ولست أدري ما الذي غير رأيي في اللحظة الأخيرة، وجعلني أختار العمل في كلية الدراسات الإسلامية والعربية، التابعة لمركز جمعة الماجد في دبي... لعله كثرة زملائي ومعارفي في الكلية المذكورة... لعله جهازها الإداري... الذي يشرف عليه كل من الدكتور نجيب عبد الوهاب، الأمين العام لمركز جمعة الماجد، والدكتور سلطان العلماء، وهما صديقان حميمان... لعلها رغبتي في ألا أبعد كثيراً عن المدن التي يزدحم فيها الناس، وتكثر الحركة... حيث أن (العين) بعيدة وهي أشبه بالمنفى الذي سيزيد إحساسي بالغربة والحنين إلى بلدي... لعله إلحاح الأخ الأستاذ الدكتور حاتم الضامن علي بالعمل في الكلية المذكورة، وترحيبهم بي... لست أدري...

والمهم أنني بعد أن اجتزت أياماً من الحيرة القاسية، اخترت حلاً وسطاً هو أن استجيب لدعوة كلية الدراسات الإسلامية لفصل دراسي واحد، أتحوّل بعده للعمل في جامعة العين، وأبرقت للأخ الدكتور علاء نورس بذلك... ثم ما لبث أن تلقيت صيغة العقد من كلية الدراسات، وهيأت نفسي للسفر إلى هناك في آخر شهر آب من ذلك العام... حيث انطلقت بمعية الأخ (لقمان عثمان) (الدكتور فيما بعد) وهو صديق عزيز ذو خلق ودين ووفاء وروح تعاونية قلّت نظائرها لدى الآخرين... وكان يومذاك يتردد على الإمارات في أعمال والده التجارية، ويواصل في الوقت نفسه إعداد رسالته في الماجستير في القانون الدولي بكلية قانون جامعة الموصل... وقد رحبت به بأن ينزل ضيفاً معي في الشقة التي ستعطيني إياها كلية الدراسات لمدى بقائي فيها.

اتجهنا إلى عمّان أولاً... حيث لم يكن ثمة خط جوي بين العراق والإمارات... وكنت أحمل معي يومها متاعبي الصحية متمثلة هذه المرة بآلام قاسية في ساقي الأيسر، حيث تبين بعد معاينة الطبيب في عمان أنها من آثار جلطة خفيفة أصابت الساق، الأمر الذي أدخل في قلبي الوسواس اللعين، وجعلني بعد الوصول إلى الإمارات أقضي الأيام والأسابيع والأشهر الطوال في جملة من المراجعات الطبية عبر المستشفيات الحكومية والخاصة، والعيادات والمراكز المختلفة للتأكد من سلامة القلب، فيما حوّل أيامي هناك إلى قلق متواصل، وامتص الكثير من السعادة التي كنت أمني نفسي بها بعد حصولي أخيراً على ما أريد!!

حطت بنا الطائرة في مطار دبي الدولي الفاره، حيث كان في استقبالنا ثلة من المعارف والأصدقاء، وممثل عن الكلية الذي ما لبث أن اصطحبني إلى أحد فنادق الدرجة الأولى في دبي لقضاء عدة أيام ريثما تتم الأمور الإجرائية بخصوص العمل في الكلية، وتخصيص شقة السكن، وسائر المسائل الأخرى التي لم تستغرق وقتاً طويلاً، حيث ما لبث أن تسلمت شقتي في الدور السادس من بناية كبيرة في الشارقة تابعة لكلية الدراسات، والتي لا يشغل شققها إلّا

الأساتذة العاملون في الكلية نفسها ومعظمهم من معارفي وأصدقائي... وكانت ميزة هذه البناية أنها على بعد خطوات من مسجد كبير يتيح لنا أداء صلوات الجماعة فيه، وحيث كان يقوم في أسفلها سوبر ماركت كبير يدعى (الجاينت) ينطوي على كل ما يخطر وما لا يخطر على بال الإنسان.

وانطلقت بمعية الأخ لقمان وسيارته التي خففت الكثير من الأعباء عني، لشراء الأشياء الضرورية للسكن في الشقة من مثل (الثلاجة والطباخ والتلفزيون والمكتب والدواليب وطاقم النوم والجلوس وأدوات المطبخ... الخ).

وثمة جملة من المفارقات التي اجتزتها مع الأخ لقمان في الأيام الأولى من مكوثنا في الشارقة، لا زلت أذكر جانباً منها... وسوف أختار بعضها ترويحاً لنفسي ونفوس قرّائي معي، من عناء الجد، وذلك تحت شعار (روّحوا عن أنفسكم ساعة بعد ساعة فإن القلوب إذا كلت عميت).

في أحد الأيام كنت أتجول في سوبر ماركت الجاينت تحت العمارة السكنية، فلمحت فتاة هندية (الله يستر عليها) وبيدها طبق مليء بقطع النستلة، فأشارت إلي قائلة بالإنكليزية (تفضّل)، فأجفلت خشية أن يكلفني ذلك كثيراً، ولكن تبين لي أن هذا يقدم مجاناً كدعاية للسوبر ماركت، فتناولت واحدة ووضعتها في فمي دفعة واحدة وأنا أقول للفتاة (ثانك يو)... ثم قمت بجولة سريعة وعدت ثانية وتناولت أخرى قائلاً (ثانك يو فري مج)، فابتسمت الفتاة وشكرت لطفي وتفضلي بالاستجابة لدعوتها... ثم قمت بجولة أخرى وعدت إليها وقد نزعت النظارة لكي أضلّلها وتناولت قطعة ثالثة (ثانك يو فري مج)... وبعد دقائق برزتُ لها من مكان آخر وتناولت قطعة رابعة ولا أدري إن كانت عرفت اللعبة أم لا... والمهم أنني تناولت وجبة دسمة من النستلة مجاناً، وقلت في نفسي أنني سأنزل كلما اقتضى الأمر لتناول وجبات أخرى وطز في الهنود!

يقابل هذا ورطة وقعت فيها لدى مكوثي في الفندق قبل التحوّل إلى الشقة... إذ دخلت الغرفة فوجدت في استقبالي طبقاً من الفاكهة المنوعة وثلاجة مليئة بالنساتل والجرزات والبارد.. وجاءني عدد من الضيوف فأخرجت

لهم كل ما في الثلاجة فضلاً عن طبق الفاكهة فاعتذروا، ولكني (مثل أخي ظافر) ألححت عليهم (مشان خاطري) قلت لهم، فانقضوا على الموجودات فمحقوها عن بكرة أبيها... وما لبثت في اليوم التالي أن التقيت بأستاذ جامعي ينزل في الفندق نفسه، فابتدرني قائلاً: أخشى أن تكون قد مددت يدك إلى موجودات الثلاجة؟ فقلت له: وماذا في ذلك؟ قال: لا يا أخي انها محسوبة عليك وبأسعار خيالية... ثم أردف قائلاً: إن الكلّية لا تدفع إلّا قيمة الغرفة ووجبات الطعام الثلاث داخل المطعم، أما موجودات الغرفة والهاتف فإنه يسجل عليك...

والمهم أنني دفعت بسبب إلحاحي السخيف أكثر من عشرين ألف دينار! ذهبت يوماً بصحبة لقمان إلى مكان مدهش في دبي يدعى (مركز التسوّق) يتضمن بارك للسيارات وعدة طوابق لبيع كل ما يخطر وما لا يخطر على البال... في كل طابق عدد من المطاعم والبوفيهات وألعاب الفلبرز المدهشة، وفيه كذلك مدينة ألعاب فيها من الألعاب الجديدة ما يفوق الخيال... فلما عضّنا الجوع بنابه كما يقول المثل قال لي لقمان: أين تحب أن نأكل؟ أجبته: لنلقي نظرة على المطاعم جميعاً ثم نختار...

وما لبث اختيارنا أن وقع على بوفيه فرنسي تقف فيه فتيات شرق أقصويات وزن الواحدة منهن لا يتجاوز الثلاثين وقية... فسمّرت قدمي وقلت للقمان: هذا هو الذي كنت أبحث عنه... ولمّا سألتنا العاملة عن الشيء المفضل أشرتُ إلى صمونة كبيرة جداً وقلت لها: هذه! فراحت تملؤها بما لذّ وطاب ثم سلمت كل واحد منا صمونة وأخذت على كل واحدة عشرين درهماً أي ما يزيد على عشرة آلاف دينار...

وجلسنا في مكان ما نتناول الوجبة وإذا بنا نفاجأ بأن ما وضع في الصمونة لا يتجاوز الطماطة والخسّ والزيتون المسحوب من النواة وشريحة رقيقة جداً من الدجاج... وثارت ثائرتي وقلت للقمان: لن أغادر المكان قبل أن تأخذني إلى العاملة لكي أبصق في وجهها! ولكنه استطاع أن يهدئ ثائرتي بأن

سحبني إلى السوبر ماركت حيث وجدنا أنفسنا أمام صنوف من المعروضات لا يراها الإنسان إلّا في الأحلام...

عندما اشتريت الثلاجة والتلفزيون أستأجرنا سيارة لنقلهما إلى الشقة واتفقت مع لقمان أن يمضي أمامنا بسيارته وأن أركب أنا إلى جانب سائق السيارة الهندي... بعد أن وضح له لقمان مكان العمارة التي أسكن فيها... وما لبثت سيارة لقمان أن اختفت وأصبح على السائق أن يوصلني إلى الشقة، ولكنه ما لبث أن ضيّع الطريق، فثارت أعصابي وقلت له: ألم يكن أولى بك منذ البداية أن تقول لنا لا أعرف المكان لكي نبحث عن غيرك؟! ولم يفهم السائق كلامي لأنه لا يعرف العربية... فقلت له إنك غبيّ... قال: وات؟ قلت له موضحاً ونحن نلفّ وندور على غير هدىً في شوارع الشارقة: دونكي ابن دونكي... فتقبلها الرجل مني بامتنان... ثم ما لبث أن تبين لنا أننا كنا على بعد خطوات من المكان... والعجيب أنني جئت إلى المكان قبل ذلك أكثر من عشرين مرة... ومع ذلك لم أستطع أن أعرف موقعه إلّا بالصدفة!

لدى مغادرتنا الطائرة في مطار دبي راحت الأشرطة الكهربائية تنقلنا من صالة إلى أخرى دون أن نكلف أنفسنا عناء المسير... وفجأة مددت يدي إلى جيبي الخلفي وصرخت: الجواز! فردّ لقمان بدهشة: ماذا؟ صرخت مرة أخرى: لقد ضاع الجواز! ومعنى ذلك أنني لم أعد أستطيع الدخول إلى دبي ولا العودة إلى العراق...

لقد كانت دقائق من أصعب ما مرّ بي في حياتي... وفجأة تذكرت: لقد وضعت الجواز في جيب مقعد الطائرة أمامي كي لا يفلت من جيبي ونسيته هناك... ولكن كيف الوصول إليه؟ ومغادرة القاعة والعودة للطائرة مسألة مستحيلة؟! ثم ألا يمكن أن تكون الطائرة قد غادرت المطار إلى مدن أخرى في الإمارات؟! ورأيت لقمان يقول لي: قف أنت ها هنا مع الحقائب اليدوية وسوف أتصل بطاقم الطائرة.. وراح يركض باتجاه معاكس للشريط والدقائق تمرّ كالساعات ثم ما لبث أن عاد لكي يقول: اطمئن لقد اتصلت بأحد مضيفي

الطائرة وسوف يأتي بالجواز! انقضضت على لقمان أقبّله وأنا أقول سوف أدعوك إلى وليمة تتحدث بها الركبان...

ورحنا ننتظر ومرّت الدقائق ولا من جواب ثم ما لبث الهاتف أن دق بعد نصف ساعة ورفع لقمان السماعة فإذا بالمضيف يقول له: لقد بحثت عن الجواز في جيب المقعد المحدّد فلم أجده... وصرخت فيه: قل له أن يفتش عليه جيّداً فلا يوجد إلّا في هذا الجيب... وأحسست بمرارة ويأس ارتسمت ملامحهما على وجهي وقلت في نفسي: ها أنا ذا أغوص في بئر عميق... وفجأة تذكر لقمان الذي أسميه (بالمنقذ): لقد كنا نجلس لدى دخولنا الطائرة في المقاعد التي تلي المقعد المذكور وصرخ في المضيف بالهاتف النقال: فتش في جيب المقعد الذي يليه... وبعد دقيقة صاح المضيف: ها قد وجدته وسوف يصلكم خلال دقائق... وقلت للقمان وأنا أكاد أطير من الفرح: لك عندي وليمة ثانية تتحدث بها الركبان...

كان المستقبلون ينتظروننا في الشرفة الداخلية لصالة الاستقبال وكان فيهم ممثل عن المركز ومعاذ ووائل ابني عبد الجبار وشيرزاد وآخرون... ولوّحت لهم من وراء الزجاج معرباً عن أسفي... ثم عدت إلى كاونتر الاستعلامات الذي كانت تقف وراءه موظفة إماراتية ربما تكون من أصل إيراني... كانت خفيفة الدم (لعبوطة) وقد امتلكت مهارة فائقة في طمأنة القلقين من أمثالي، وكلما مرت الدقائق ولم يصل الجواز أركض إليها صارخاً: أرجوك اتصلي بهم فإنني أخشى أن يتعرض للضياع مرةً أخرى... وكانت تبتسم وهي تقول لي: أراك قلقاً أكثر مما يجب فاطمئن فإن الجواز سيصل... ويبدو أن شيئاً من الألفة حدث بيني وبينها... بدليل أن لقمان عندما قال لها أنني جئت أستاذاً للتاريخ في كلية الدراسات الإسلامية، قالت: ما دمت ستتولى التدريس هناك فانأ على استعداد لأن أسجل في الكلية لكي أدرس على يديك!! لعلّها عشقتني... من يدري؟ إذن كيف لو رأتني قبل شيخوختي؟

ومضت ساعة... وأعقبتها ساعة أخرى ولم يصل الجواز... ورحت أذرع

الصالة بعصبية وأنا أقول لها وللقمان ها قد ضاع الجواز مرةً أخرى... إن موظفي المطار كثيرون جداً وغرفه ودوائره كثيرة جداً ألا يجوز أن ينسلت هنا أو هناك ولن يكون بمقدور أحد العثور عليه... فتبتسم الموظفة وتقول ببرود: اطمئن فإنه سيأتيك...

ومضت ساعة ثالثة... وازدادت أعصابي توتراً ليس من أجل الجواز فقط، وإنما قلقاً على انتظار المستقبلين، وركضت إليهم ورحت أؤشر لهم أن يرجعوا وأتوسّل إليهم حيث جاوز الانتظار كل توقع، ولكنهم كانوا يبتسمون ويؤشرون لي بأنهم سيظلون حتى لو اقتضى الأمر ساعات أخرى...

وفجأة دخل الصالة مهندس طيران أردني ينتمي لشركة عاليه التي جئنا على طائرتها... وقلت له بعصبية: أرأيت؟ فانتابته العصبية هو الآخر وقال: إن الموظفين الهنود قذرون والساعة عندهم كدقيقة، وضرب جهاز الهاتف وراح يصرخ فيهم منزلاً بهم أقسى الكلمات... فشكرته على معاونته وما هي إلّا دقائق حتى جاء موظف هندي قميء (تفس) وبيده الجواز، فتسلّمه المهندس الأردني وسلّمه إياي وراح يبتسم... ولقمان يبتسم... والموظفة تضحك... وأنا أصعد على كتفي المهندس وأشبعه تقبيلاً... ولو كان الشرع يبيح لي لأشبعت الموظفة تقبيلاً هي الأخرى!

طلبت من لقمان يوماً أن يأخذني إلى مطعم جيد... فقادني بسيارته إلى مطعم (الملّاح) اللبناني في أحد شوارع الشارقة... نظرت إلى قائمة المأكولات فوجدتها كلها مغرية واحترت في الاختيار، ثم ما لبثت أن طلبت قطعة لحم بعجين وأخرى رغيف بالزعتر الشامي... وقلت للعامل أن يسويهما جيداً فقال: تقصد نحمصهما كثيراً؟ فقلت نعم... فقال لقمان: دع شيئاً من معدتك لكي تستمتع بعصير الملّاح المشهور... فقلت له: لا تخشَ على أخيك... وكلّ شيء في أوانه... وكما يقول أبو ضرار: «كل شيء وله شيء»...

وتناولنا اللحم بعجين... وقد لا تصدّقون إذا قلت بأن سمك الخلطة فوقه تبلغ السنتمتر... وهو لذيذ جداً... وتذكرت (عجايا) الموصل الذين يلطّخون

قطع العجين بأناملهم القذرة... ثم انكببت على رغيف الزعتر فرأيته لذيذاً هو الآخر... وقلت للقمان: قل لهم فليأتوا بعصيرهم المتميّز... قال: أي حجم تريد؟! قلت له: الكبير طبعاً... وجاءنا بعد دقائق... وأستطيع أن أقول أنه معمول في الجنة... وهو يتضمن عصير فواكه طبيعية مشكّلة... وقطعاً من الموز والأناناس والتفاح... فضلاً عن الكريم وكمية كبيرة من اللوز والبندق... التهمته بشهية... وغادرنا المكان. وكانت قيمة الوجبة لكل واحد منا (١٥) درهماً، أي ما يعادل ثمانية آلاف دينار...

وقلت للقمان ونحن نركب السيارة: ابحث لنا عن مكان جيد لتناول الآيس كريم بالفاكهة... وبما أن الرجل لا يرّد لي طلباً، لم يستطع أن يقول لي: إن الذي أكلناه يكفي، وأنه لم يبق أي مجال في معدتنا لتناول لقمة واحدة... إذ ما لبث أن أخذني إلى بوفيه ماليزي ذي صالة أنيقة ومقاعد مريحة... وقد علقت على أحد الجدران صور الأطباق الشهية من البوظة والدوندرمة وإلى أسفل كل منها سعر الطبق... وكان بمقدوري أن أطلب أصغرها (٥ دراهم)، ولكن دناءة نفسي التي تعرفونها جيداً جعلتني أطلب أبو العشرة، دراهم وهو على شكل مركب من بلّور فيه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر...

واضطر لقمان مجاملة لي أن يطلب أبو العشرة هو الآخر... فما أن أكل لقمتين حتى تغيّرت ملامحه وجحظت عيناه وراح يكافح كفاحاً مستميتاً لمواصلة الأكل... خاصةً وأنني كنت قد أشعرته بأن ترك شيء من الطعام ليس أمراً مقبولاً، وأن رسول الله ﷺ كان يمسح الماعون بيده الشريفة... وأعتقد أن لقمان كان مستعداً بعد أن بلغ حدّ الإشباع الكامل أن يخالف السنّة وإلّا لقي ما لا تحمد عقباه...

أما أنا فقد رحت ألتهم الخلطة المدهشة بشهية بالغة، ولكن ما أن بلغت نصف الماعون حتى وجدتني في حالة لا أحسد عليها... ولكني قلت في نفسي: إن الانتحار من التخمة أهون عليّ من مخالفة سنة رسول الله ﷺ، ومضيت

أكافح لإنهاء الماعون حتى أتيت عليه... وغادرنا المكان ونحن نترنح ونكافح لالتقاط الأنفاس!

دعانا يوماً أحد شيوخ البلد من مسؤولي المركز وجلسنا في صالة فاخرة المنظر فاخرة الأثاث... ورحنا نتحدث في أمور شتى، وما لبث الخادم أن دار علينا بالقهوة العربية ثم أعقبها فناجين الشاي بالعسل (بدلاً من السكر)... وبعدها وُضع أمام كل واحد منا طبق مليء بالكازو واللوز والفستق... ورحت أقلّب نظري في الموجودين منتظراً أن يمدّ أحدهم يده لكي أبدأ المهمة أنا الآخر...

ومرت الدقائق ثقيلة متباطئة... وأخيراً تحرّك أحدهم فمدّ يده... كان ذلك بمثابة إشارة الإنقاذ... رحت ألتهم المكسرات متناولاً إياها بحفنة يدي وليس برؤوس أصابعي، وكنت أجيب على أسئلة الموجودين بإيجاز شديد لكي لا يلهيني الكلام عن مواصلة المهمة الأساسية... ولكن فجأة توقف الجميع عن الأكل... وقلت في نفسي: إذا كان هذا تقليداً متبعاً في المجالس (فبيس تقليد) كما يقول إخواننا الكرد... ووجدتني أتوقف أنا الآخر عن التهام المكسّرات وكما يقول المثل: عين على الشيخ وعين على الفستق والكازو!

أعددت عدة الشاي والفطور في الشقة، السكر والشاي والأواني (والكتلي) الكهربائي... الخ على نيّة أن نتناول الفطور يومياً في الشقة قبل أن نغادرها إلى أعمالنا... فلما استيقظت في اليوم التالي تكاسلت عن عمل الفطور واكتفيت بتناول قطعة كيك كانت موجودة منذ عدة أيام... وقلت في نفسي: سأشرب الشاي في الكلية... أما لقمان فقال: سأتناول فطوري فيما بعد في أحد البوفيهات...

وفي اليوم التالي استيقظت مبكراً لعمل الفطور... فتكاسلت وتناولت عدة حبات من فستق العبيد كنت قد اشتريتها يوم أمس... وقلت في نفسي سأشرب الشاي في الكلّية... أما لقمان فقال: سأتناول فطوري فيما بعد في أحد البوفيهات...

وفي اليوم الثالث عزمت على عمل الفطور ولكني تكاسلت وأيقظت لقمان قائلاً له: لماذا لا نتناول فطورنا في أحد المطاعم القريبة؟! فرحّب بالفكرة واتجهنا إلى مطعم قريب... طلبت أنا الفول المدمّس وطلب هو البيض المقلي باللحمة والصنوبر...

وقبل أن يجيء الطعام جاءنا العامل بصينية مليئة بالخضار: الطماطة والخيار والفجل والجزر والزيتون والطرشي والجرجير ثم جاء الطعام بعد أن كنا قد ملأنا بطوننا بالخضار... فرحنا نكافح لكي نمسح المواعين عملاً بسنة رسول الله ﷺ... أما لقمان فقد جحظت عيناه وتغيّرت ملامحه ولم يستطع أن يأتي على طعامه...

وأما أنا فقد تركت الخبز جانباً وتناولت ملعقة كبيرة رحت (أكرف) بها الفول لكي آتي عليه قبل أن تتغير ملامحي وتجحظ عيناي أنا الآخر... وفجأة خطرت على بالي فكرة!! فقلت للقمان: الآن الساعة العاشرة تقريباً... وقد تناولنا فطوراً دسماً... ما رأيك لو اعتبرناه غداء وتخلّينا اليوم عن تناول الغداء، وبذلك نكون قد وفرنا على أنفسنا وجبة كاملة ومبالغ ليست هينة من المال؟ فرحّب بذلك واتفقنا على أن تكون وجبتنا الثانية بعد العاشرة مساءً... وودّعته وأنا أقول في نفسي (ما أضرط من سعيد إلّا مبارك)!!

تعلمون جيداً كيف كنت في كلّية التربية في الموصل معشوق الطالبات، وأن موضوعات البحث الخاص والدروس الاختيارية ما كان يأتيني فيها إلّا الطالبات (وبخاصة تركمانيات كركوك) لا أدري لماذا؟ لعلّها منحة ربّانية... وكان ذلك يغيظ الأساتذة الآخرين وبخاصة جاري في القسم الدكتور عبد الواحد ذنون، الذي لم يجد في قوائمه سوى اسمين فقط للطالبات والبقية كلهم من الطلاب، ثم تبيّن له بعد المقابلة أن إحداهن واسمها صباح ذكراً وليست أنثى (لأن اسم صباح مؤنث مجازي)، أما الأخرى المتبقية فكانت تلبس بنطالاً وتتشبه بالرجال... إذن لم يبق معه أنثى واحدة بخلاف الوضع معي...

والمهم أنني عندما ذهبت إلى كليتي في دبي في أحد الأيام لحضور

اجتماع القسم وتوزيع المواد والصفوف على الأساتذة؛ إذا بي أفاجأ بأن كل الشعب التي سأتولى تدريسها ـ ما عدا اثنتين ـ هي من الطالبات، فقلت في نفسي: ذلك الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، فله الحمد والمنة...

ولكني وجدتني مضطراً للتساؤل بيني وبين نفسي: هل هي مصادفة هذا التهافت عليّ من قبل البنات؟ أم أن هناك شيئاً ما في خلقتي... شيئاً لا أدركه هو الذي يسوقهن إليّ؟ ورجّحت الثانية!! ومع ذلك ظللت أتساءل: لماذا؟ وأنا لست دون جوان ولا فالنتينو ولا قيس بن الملوّح ولا حتى سيئ الذكر رشدي أباظة!

ترك لقمان يوماً كيساً من الفستق في صالة الشقة وذهب إلى عمله على أن يرجع ظهراً لتناول الغداء سوياً... فلما مضت ساعة وساعتان قرصني الجوع، فرأيت أن أسكته بفستق لقمان شرط ألّا يعرف أنني أكلت منه... كيف؟... المسألة بسيطة جداً... أترك الكلبسات التي أقفل بها الكيس على وضعها... وأدخل أصبعي من الزاوية القصوى للكيس ثم أبدأ بإخراج الفستق واحدة واحدة... وأتحدّى لقمان إذا تمكن من اكتشاف المحاولة... ولكني ما أن وضعت اللبّ الأول من الفستق في فمي حتى أدركت أن ملحه على قدر كبير من الكثافة، فعدت إلى غرفتي وأنا أقول في نفسي: لقد نجوت يا لقمان فهنيئاً لك انفرادك بأكل الفستق، وألف مبروك للحاج عثمان الذي تبرّع بشرائه لك لكي تتسلّى به في الطريق...

ذهبت بصحبة لقمان إلى المطار لاستقبال أبو طارك (دكتور زياد حماد) الفلسطيني، ودخلنا صالة القادمين وبدأت الأشرطة الكهربائية تنقلنا من مكان إلى مكان... وكنت منهمكاً في حديث ساخن مع لقمان، وعلى حين غفلة صرخ: انتبه! كان الشريط قد انتهى إلى الحافة، وكان عليّ أن أسرع بوضع قدمي على بدء الممر الثابت وإلّا انقلبت على وجهي...

وجاءت صرخته في الوقت المناسب تماماً... ثم تسلّمنا شريط آخر وما لبثت أن دخلت معه في حديث آخر وفجأة صرخ: انتبه!... كان الشريط قد

انتهى إلى الحافة... وكدت أن أقع لكن صرخة لقمان أنقذتني للمرة الثانية.. وتسلمنا شريط آخر وما لبثت أن دخلت مع لقمان في حديث ساخن وفجأة سمعته يصرخ: انتبه! كان الشريط قد انتهى إلى الحافة وكدت أن أقع ولكن صرخة عثمان أنقذتني... وتسلّمنا شريط آخر!! وأنا أقول في نفسي: إنني ضعيف في التكنولوجيا أكثر مما يجب وتلك هي مشكلتي...

دعانا دكتور علاء نورس لزيارته في جامعة العين، فانطلقنا بسيارة لقمان ومعنا أبو طارك، وعندما وصلنا العين رحنا نسأل المارة عن موقع كلية البنات التي يعمل فيها نورس، فقالوا: إنها تقع في مكان يدعى (المقام). واندفعنا بأكثر مما يجب بعيداً عن المكان بسبب جهالة هندي كنا قد سألناه عن الموقع... ومضى أكثر من ساعة على الموعد المضروب واتصلنا هاتفياً بنورس لكي يدركنا وقد جاوز الوقت الساعة الثانية، وأخذ الجوع يفتك بنا فلم يسعفنا هاتف الكلية... فاتصلنا بزوجته فأعطتنا رقم هاتفه الجوال، وتمكنا من سماع صوته وتحديد مكان وجودنا وما لبث الرجل أن جاء لكي يصطحبنا إلى بيته...

إلى هنا والمسألة لا غبار عليها... وتناولنا في بيته الأنيق الباميا والرز والدجاج المحمّر بشهية بالغة... ولشدّة أدبه لم يفتح على الغداء مسألة الاتصال به على هاتفه النقال... ولكن ما أن انتهينا من الغداء حتى راح يعاتبنا بأسلوبه الرقيق... قائلاً: لقد فضحتموني!! نظر بعضنا إلى بعض بدهشة... وما لبث أن أردف قائلاً: أصبحت كذاباً في نظر سكرتير الكلية؟

وقبل أن نسأله ما الذي حدث قال: لقد كنت أؤكد دائماً على كل ذوي العلاقة في الكلية أني لا أحمل معي هاتفاً نقالاً، وأني رفضت أساساً شراءه لأن اتصالات الآخرين بي عن طريقه تخترق علي أوقات راحتي بما في ذلك أوقات النوم والطعام وقضاء الحاجة... الخ، وفجأة وأنا جالس عند السكرتير، أنتظر قدومكم أخذت أصوات غريبة ومتشابكة تخرج من تحت ملابسي فلفت ذلك نظر السكرتير فنظر إليّ بدهشة... والأصوات المتشابكة تزعق تحت

ملابسي... ومرّت دقيقة صعبة وأنا أقول في نفسي كيف ستنقذ نفسك يا علاء من الورطة التي أوقعك فيها الضيوف!!

وفجأة تذكرت أن الإنسان في هذه الحالة يجب أن يكشف أوراقه كاملة وإلّا أصبح مسخرة أمام الآخرين، فما كان مني إلّا أن أخرجت النقال ونهضت قائماً ووقفت قبالة السكرتير وأنا ألوّح بالجهاز لكي يراه جيداً (عيني عينك) وليكن ما يكون... فتصوّروا كم كانت دهشته كبيرة وهو يرى اضطرابي وأنا أرفع صوتي عبر الجهاز: أما كان أجدر بكم يا إخوان أن تتصلوا بي منذ اللحظة الأولى على هاتفي النقّال؟!

تسلمت جدول محاضراتي في الكلية، وكنت سعيداً باستقراري في الشارقة الملأى بالحركة والناس والمطاعم والمتنزهات والسوبر ماركتات، وشقق المعارف والأصدقاء، فيما يغطي على أي إحساس بالغربة والحنين إلى البلد... فضلاً عن تعرّفي على أساتذة الكلية القادمين من بلدان شتى: ففيهم الجزائريون والتونسيون والمصريون والسودانيون واللبنانيون والسوريون والأردنيون واليمنيون والإماراتيون والباكستانيون، إلى جانب عدد طيب من العراقيين كالأستاذ الدكتور حاتم الضامن ﷺ، والأستاذ الدكتور حارث الضاري ﷺ، والأستاذ الدكتور هاشم جميل والأستاذ الدكتور حمد الكبيسي ﷺ، والدكتور خالد الحمداني، والدكتور مثنى حارث الضاري...، هذا إلى أن السقف الإداري للكلية متمثلاً بالدكتور نجيب عبد الوهاب والدكتور سلطان العلماء ممن تربطني بهما أواصر التقدير والمحبة...

ولم أدرِ يومها أني مقبل على موسم دراسي مترع بالويل والثبور، وأن انقلاباً إدارياً حدث في الكلية بعد أيام قلائل من بدء العمل فيها، تمثل بالإطاحة بالدكتور نجيب عبد الوهاب والدكتور سلطان العلماء والإتيان بمدير جديد يحمل درجة الماجستير في العلوم التربوية.

ليس هذا فحسب، بل إن الرجل لكونه لم يحظ بالدكتوراه، كان يحكمه نوع من مركب النقص تجاه الأساتذة الذين يتعامل معهم، فأراد أن ينفّس عن

عقدته هذه بالتسلّط عليهم، وملاحقتهم على ما يتصور أنها أخطاء، وربما إنزال العقوبة بهم، وفصلهم من الكلية إذا اقتضى الأمر... وكان وهو يتجول في أروقة الكلية يسير منتفخاً ومعتزاً بالمنصب الذي أسند إليه. وكثيراً ما كان بعض الزملاء من الأساتذة يجيئون إلى مكتبهم فيجدون عليه ورقة تطالبهم بتبيان أسباب تأخرهم عن الحضور لخمس دقائق أوست... وإلا تلقوا العقاب، رغم أنه يعرف جيداً زحمة المواصلات بين الشارقة ودبي... فكنت أرى الأساتذة يتدافعون بالأيدي والمناكب لكي يدخلوا قاعات المحاضرات في الدقيقة المحددة، قبل أن يقع الفأس بالرأس... وكثيراً ما كنت ألحظ بعض الأساتذة وهم يجتازون فناء الكلية، لا يتجهون إلى أماكنهم إلا بعد الانحراف قليلاً عن مسارهم للتسليم على المدير، والسؤال عن صحته... ومحاولة كسب رضاه!!

وكان مما يؤرقه ويزعجه أن يتخذ بعض الأساتذة من الكلية محطة وقتية، ما يلبثون أن يغادروها إلى الجامعات الإماراتية الأخرى، ويرى في ذلك موقفاً انتهازياً... ولهذا عندما رأى الأساتذة العراقيين يصرّون على البقاء في الكلية، لا يتحولون عنها إلى غيرها، أسقط ذلك في نفسه حزمة الاحترام والتقدير لهم، والإصرار على تمديد عقودهم لسنوات أخرى...

وما لبث يوماً أن دعا كافة أعضاء الهيئة التدريسية لحضور ما أسماه هو بـ (ورشة عمل) مع الدكتور الداعية عبد الله المصلح الذي كان يومها يقوم بزيارة للإمارات، وكنت أنا يوم الورشة مرتبطاً مع أحد الإعلاميين لتسجيل عدة حلقات حوارية في إذاعة أبو ظبي، فلم يتح لي حضور الورشة، وإذا بي في اليوم التالي أفاجأ بورقة موضوعة على مكتبي يطالبني فيها المدير بتبيان أسباب تغيبي عن الورشة، فانتفضت أعصابي، وعددت ذلك نوعاً من الحكم (البوليسي) الخارج عن حدود اللياقة الأكاديمية، ورفضت الإجابة على الورقة...

وكان يؤازرني في الموقف كل من الدكتور حاتم الضامن والدكتور حارث الضاري (رحمهما الله) ويشجعاني على عدم الرّد... وبين يوم وآخر أتلقى

استفزازاً من العميد السوداني وموظف آخر اللذين أصبحا، أسوةً بالعديد من الأساتذة للأسف الشديد، أشبه بالخاتم في يد المدير يديره حيثما يشاء... يطلبان فيه الرّد على الورقة، وأنا مصر على موقفي، واستمر الوضع طيلة الفصل الدراسي الأول من ذلك العام، ثم ما لبث الموضوع أن تم تجاهله...

وانتهز المدير فرصة زيارة ممثل اتحاد الجامعات الإسلامية، فدعاني وعدد من الأساتذة إلى حفل غداء في أحد مطاعم دبي السياحية، أعقبه رحلة في مركب بحري استغرق أكثر من ساعة... وقلت في نفسي: الحمد لله... ها إن محنتي مع الرجل قد انتهت بسلام، إذ كنت ـ والحق يقال ـ قلقاً من أن يقف المدير حجر عثرة في طريق ذهابي وزوجتي للحج في ذلك العام، ويعرقل المحاولة... بعد جهود مضنية لاستدعائها إلى الإمارات استنزفت مني الكثير...

خلال تلك الأشهر السيئة من وجودي في كلّية الدراسات الإسلامية، كان يتصل بي بين الحين والحين الدكتور نجيب عبد الوهاب مساعد الأمين العام لمركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، عارضاً علي العمل في المركز والتحرر من الارتباط بالكلية، ولكن عدداً من أصدقائي العاملين في المركز كانوا دائمي الشكوى من طبيعة الدوام هناك، وطالما حذروني من ترك الكلية والارتباط بالمركز...

فكنت أجدني في دائرة الحيرة القاسية لأيام وأسابيع... لكنني ما لبثت أن حسمتها بأن قررت البقاء في الكلية، وفاتحت بذلك الشيخ جمعة الماجد نفسه، الذي يبدو أنه استمع لجانب من ممارسات المدير الجديد وجاء شخصياً إلى الكلية لكي ينبهه إلى ما في سلوكه هذا من عدم تقدير للأساتذة ذوي المكانة المعروفة في مدى عالم الإسلام...

ثم ما لبثت أن قررت القيام بزيارة لمكتبه، وإهدائه عدداً من مؤلفاتي وعرض جملة من المقترحات لتنشيط العمل الثقافي في الكلية، بما في ذلك تسجيل جملة من المحاضرات المنزلة على الدسكات لكي تكون بمثابة نواة لمكتبة صورية.. فرحب الرجل أشد الترحيب وخصص أحد الموظفين للقيام

بالمطلوب، حيث تم تسجيل جملة كبيرة من المحاضرات في سياق الفقه الحضاري والتاريخ والفكر الإسلامي.

والمتاعب تنبجس كعيون الماء بين الحين والحين... أذكر منها استجابتي لطلب أحد أساتذة الكلية إلقاء محاضرات مسائية في كلية تمثل فرعاً لإحدى الجامعات السودانية في الإمارات... وذهبت معه بصحبة عدد من التدريسيين الراغبين بالعمل في تلك الكلية، تعزيزاً لرواتبنا المتواضعة التي تقرّر أن نتسلمها من كلية الدراسات الإسلامية... وبعد أن تبادلنا الرأي ووزعنا الموضوعات التي سيتولاها كل واحد منا... تبين لنا، عبر كتاب أصدره مدير كليتنا أن عملاً كهذا ممنوع رسمياً، ولا بدّ من الاقتصار على التدريس في كلية واحدة.

وثمة الجهد المتواصل الذي بذلته لإقناع رئاسة القسم، وأعضائه، وإدارة الكلية، باعتماد كتابي (دراسة في السيرة) وكتابي الآخر (مدخل إلى التاريخ الإسلامي) ككتابين منهجيين للتدريس في الكلية... وأخيراً تمت الموافقة على الكتابين، وانتظرت أن أحصل على المردود المالي الدسم الذي سبق وأن أعطي للعديد ممن اختيرت كتبهم للتدريس، ولكن دون جدوى... فيما ذكرني بفشل محاولاتي المتواصلة للحصول على حقوقي المالية المتفق عليها من الجامعة الإسلامية العالمية في ماليزيا عن كتابي الذي تولت طبعه وهو كتابي (مدخل إلى التاريخ والحضارة الإسلامية)... ورغم ذلك فقد كنت سعيداً بالموافقة على تدريس الكتابين، رغم اعتراض أحد الأساتذة على صعوبة تدريس كتابي (دراسة في السيرة)، وأن فيه ما يخالف المتفق عليه من السنة، ولكن رئيس القسم عرف كيف يرد عليه ويلجمه.

وكنت قد تقدمت ببحثي الموسع (الإسلام والتعامل مع الآخر) إلى المجلة التي تصدرها دائرة الأوقاف في دبي لقاء مبلغ سخي، لكني بمجرد أن علمت بأن بحثي سيكون ضمن عدد خاص سيصدر حول (حوار الأديان)، سحبته

واعتذرت عن نشره في المجلة قناعة مني بعدم جدوى حوار كهذا قد يجيء على حساب الثوابت الإسلامية.

هنالك أيضاً القلق الذي يثيره الإعلان عن الجوائز النقدية الكبرى لهذه المؤسسة أو تلك، مما يغري الإنسان بالمشاركة، وبخاصة إذا توفرت بن يديه المؤلفات الجاهزة للمشاركة... ولا زلت أذكر كيف أعلن عن جائزة سلطان العويس الثقافية، وجائزة سلطان بروناي في حقل دراسات السيرة النبوية، وكيف أنني ترددت طويلاً بين الإقدام والإحجام ثم ما لبثت إراحة لجملتي العصبية أن صرفت النظر عن الموضوع...

وفضلاً عن هذا كله فقد كان ما يقلقني أشد القلق، ذلك التردد القاسي الذي أرهقني كثيراً بين نداء البقاء في الإمارات، والاستجابة لعروض جامعاتها بإغرائها المالي الذي يسيل له لعاب الكثيرين، وبين الرجوع إلى بلدي وعائلتي والتحرّر من صنوف العذاب التي حاصرتني خلال عملي في الإمارات... بما في ذلك الجهد الكلامي عبر المحاضرات بما يسببه من ضيق في النفس، ومتاعب في القلب والذراع... وأعمال التصحيح المرهقة لثلاثمائة دفتر في كل امتحان فصلي، وضرورة إنجاز ذلك في فترة محددة، على حساب ساعات نومي... وضرورة ضبط الدرجات وجمعها فيما كان يضعني لعدة أيام في قلب الجحيم...

إلا أن متاعبي لم تقف عند هذا الحدّ، فقد رافقتني منذ اللحظات الأولى لوصولي إلى الإمارات واستمرت لأكثر، من عام... إنها متاعبي الصحية مع القلب، وضيق النفس، والغثيان، ووسواس التجلط في ساقي الأيسر، حيث كنت أتجه إلى الكلّية صبيحة كل يوم، في سيارة أحد الأساتذة، في طريقنا من الشارقة إلى دبي وسط الزحمة في المرور، فيما يستغرق أكثر من نصف الساعة رغم ضيق المسافة بين البلدين... فكنت عبر الطريق أعاني من الغثيان المزعج حتى إذا ما بلغنا الكلية وبدأت المحاضرات... أخذ ضيق النفس يحاصرني بعنف، ولا أدري كيف كنت أنجز المحاضرة وأهيمن على الطلاب

والطالبات وأنا أسحب أنفاسي بصعوبة، لكي ما يلبث المشهد أن يتكرر عبر المحاضرات التالية...

ويوماً عبر إحدى اللحظات المعتمة في حياتي، حدثت زميلي العزيز الدكتور خالد الحمداني عن تخوفي من الموت في الغربة بعيداً عن الأهل والديار، وإذا بي أجده يبكي بصمت... ومرة، ونحن نراقب امتحانات الطلبة في إحدى القاعات، أصابني الدوار، ووقعت على الأرض للحظات، فإذا بالأخ الحمداني يهرع إلي لكي يعينني على النهوض، ثم غادر القاعة للإتيان بجملة من العصائر، وآثار القلق بادية على وجهه.. إنه واحد من النماذج البشرية التي تتدفق محبة ووفاء... وطالما دعاني وزوجتي إلى شقته في البناية التي كنا نقطن فيها، لتناول الغداء العراقي الشهي... إلّا أن هذه الحالة المرضية ما لبثت أن زالت بمرور الوقت بفضل الله وحده...

لكن الذي استمر الأشهر الطوال هو وسواسي بصدد متاعبي مع القلب، وجلطة الساق، ومراجعاتي اليومية المتواصلة للمراكز والعيادات الطبية والمستشفيات، وإنفاق ملايين الدنانير بحثاً عن الاطمئنان، ثم ما لبثت بعد إجراء جملة كبيرة جداً من الفحوص والأشعة بمختلف الأجهزة الطبية الحديثة، بما فيها الدوبلر، والمفراس، والإيكو... والسونر... الخ... أن تبيّن ألّا علاقة لمتاعب الساق بالقلب الذي بدا أنه يعمل بشكل سليم والحمد لله...

ومع متاعب القلب والساق، تدفقت علي جملة من المتاعب الصحية متمثلة حيناً بآلام مفصل الركبة اليمنى الذي استمر لأكثر من شهر، وحيناً آخر مع السعال المتواصل والتهاب الجيوب الأنفية، وحيناً ثالثاً مع أوجاع في عظام الصدر وتنميل الذراع الأيسر... كما تمثل بمتابعاتي المتواصلة لعلاج الأسنان... وتشقق الجلد في ظاهر كفي، وآلام الفقرات القطنية السفلى، وبتلك الضربة القاسية التي تلقتها فقراتي وأنا أنهض قائماً، فإذا بي أصطدم بالمنضدة الحديدية، وثقلها الكبير الذي تمركز عند أسفل الظهر... هذا إلى حالة

الاختناق القاسية التي كنت أعانيها وأنا أسجل عدداً من الحلقات لإذاعة الشارقة، الأمر الذي دفعني إلى التوقف النهائي عنها.

وثمة جبهة الصراع والمتاعب مع العروض الإعلامية في الفضائيات والإذاعات، التي كانت تتدفق عليَّ كالسيل، فكنت أوافق على بعضها وأعتذر عن بعضها الآخر لأسباب شتى... ولا زلت أذكر عرض الدكتور نجيب عبد الوهاب لتسجيل برنامج من ثلاثين حلقة في فضائية دبي حول الفقه الحضاري، واصطحابي معه إلى مدير الفضائية الذي رحب بنا أشد الترحيب، وتم الاتفاق على تسجيل البرنامج، لكن المشكلة كانت تكمن في البحث عن الشخص المحاور الذي تبدت عدم قدرته على إدارة الحوار منذ الحلقة التجريبية الأولى... فصرفت النظر عن الموضوع مؤقتاً... ثم ما لبث الدكتور نجيب عبد الوهاب أن اصطحبني مرة أخرى لمقابلة مدير فضائية دبي، حيث تم الاتفاق على تسجيل عدة حلقات في سياق مهرجانات قرية دبي العالمية للتسوّق والتي تقام في كل سنة...

ولكني ما أن فارقت المكان حتى تذكرت أن هذه المهرجانات كانت ترفع شعارها المعروف: قرية عالمية واحدة... وطن واحد، فيما يرتبط بشكل مباشر أو غير مباشر بالشعار الماسوني المعروف، فما لبثت أن اعتذرت عن تسجيل الحلقات، مطالباً بحلقات مستقلة بعيدة عن الارتباط بالمهرجان... وأخيراً تمكن الدكتور نجيب أن يسجل معي ثلاث حلقات مستقلة في تلك القناة عن جانب من الفقه الحضاري، وحلقة أخرى دعيت للمشاركة فيها عن مفهوم الاقتصاد والإعمار الإسلامي.

وثمة عروض عديدة أخرى تدفقت علي من قناة الشارقة الفضائية لتسجيل عدة حلقات أسبوعية في برنامج كان يديره أحد الشيوخ السوريين العاملين في القناة ويدعى (فائز قيمة)، وقد ترددت في تسجيل الحلقة الأولى خشية من الوقوع في المطبات السياسية التي يثيرها السائلون عبر الحوار، فيما يقتضي التنازل، بشكل أو آخر، عن موقفي المبدئي الثابت: ألّا أجامل أحداً، أميراً كان

أم شيخاً أم سلطاناً، ولكني ما لبثت أن وافقت على الثانية بمعية الأخ الدكتور خالد الحمداني حول موضوع إعادة كتابة التاريخ الإسلامي، حيث ما لبث أحد السائلين أن راح يكيل المديح لحاكم الشارقة سلطان القاسمي، ويرد عليه مقدم البرنامج بمديح مثله، الأمر الذي جعلني أنكمش قليلاً وتتغير نبرة صوتي إلى شيء من الجفاف الملحوظ، وأعود إلى الشقة في وضع لا أحسد عليه، حتى أنني في الحلقة التالية صارحت المحاور الشيخ القيمة، دون أي قدر من التردد في ألا يعود لمثلها مرةً أخرى، وألا يسمح بمداخلات كهذه يمكن أن تمرّر عبر التسجيل، فوافق على مضض...

وعندما أثيرت قضية الثروة النفطية، وطرائق التعامل معها في البلدان العربية، أعربت عبر الحوار عن رأيي الواضح في ضرورة توظيف هذه الطاقة الهائلة التي حبانا الله بها توظيفاً سياسياً لإرغام الغرب على الاعتراف بشيء من حقوقنا، أسوةً بما فعلناه في حرب تشرين عام (١٩٧٣م)...

ويبدو أنني بحديثي هذا تجاوزت الخطوط الحمراء للإعلام الإماراتي، فما كان مني إلا أن أتلقى في الأسبوع التالي اعتذاراً من أحد موظفي القناة عن الاستمرار على تسجيل الحلقات، وأتلقى معه خبراً عن إحالة الشيخ المحاور على التقاعد وكفه عن العمل في القناة... ثم ما لبث، ربما بسبب من تأثره لهذا الموقف، أن توفي بعد أيام قلائل رحمه الله.

وثمة جملة من الحلقات الإذاعية سجلتها في إذاعة الشارقة عن التاريخ الإسلامي، وحلقات أخرى سجلتها في إذاعة القرآن الكريم في أبو ظبي عن الفكر الإسلامي... وعدد من المشاركات الحوارية التي كنت أدعى إليها بين الحين والحين... هذا إلى الاتفاق مع الأخ الداعية الدكتور جاسم المطوع لتسجيل أربع حلقات لبرنامجه المشفّر عن سيرتي الذاتية وجوانب من الفكر الإسلامي، وأربع حلقات أخرى عن مفهوم تراكم الجهد في المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي... وحلقة واحدة عن قضية الإسلام والمرأة.

ويوماً عرض علي بعض الأخوة المصريين في إحدى القنوات الإذاعية

العربية تسجيل جملة من الحلقات الصوتية لغرض تنزيلها على أشرطة الكاسيت وتسويقها بعد ذلك... فكنت أذهب عصر كل يوم بمعية أحدهم لتسجيل الحلقات في أحد جوامع الشارقة، وكنت أعاني الأمرين وأنا أمارس التسجيل مع ضيق النفس القاسي الذي كاد يسقطني أرضاً أكثر من مرة، فيما ذكرني بمعاناتي أيام تسجيل ثلاثين حلقة لإذاعة أبو ظبي للقرآن الكريم عام (١٩٨١م)...

حتى إذا أتممنا ما يزيد عن العشر حلقات، وأرسلت إلى الجهات المعنية لتنقيتها وتنزيلها، إذا بي أفاجأ بإخراج حلقة واحدة منها، أما الحلقات الأخرى فلم أعرف عن مصيرها شيئاً، وأما المردود المالي فلم يصلني منه درهم واحد رغم متابعاتي المتواصلة حول الموضوع... لماذا؟ لست أدري؟!

يضاف إلى ذلك كله الدعوات التي كانت تأتيني من فضائية قناة الجزيرة للمشاركة في الحلقات التي كان يديرها الأخ الأستاذ (ماهر عبد الله) ﵀ في برنامج الشريعة والحياة حيث سجلت بمعيته حلقتين تم التركيز فيهما على فضائح السياسة الأمريكية والفلسفات الأكثر حداثة في (نهاية التاريخ) و(صراع الحضارات)، فيما نال استحسان كل الذين تابعوا الحلقتين بشغف وعبروا عن إعجابهم بالطرح وبالمادة التي تمت مناقشتها... بدءاً من مدير القناة نفسه وانتهاء بكل المعارف والأصدقاء الذين انهالت عليّ مكالماتهم الهاتفية للتعبير عن تقييمهم للحلقتين، مروراً بمكالمة من الأخ خالد مشعل رئيس المكتب السياسي لمنظمة حماس المجاهدة، والشيخ الدكتور يوسف القرضاوي فقيه الأمة... الأمر الذي دفع الأخ ماهر عبد الله إلى الاتصال بي ثالثة لتسجيل حلقة أخرى، تمّ تحديد موعدها، وحزمت أمري على السفر إلى الدوحة لتسجيلها، لكن تبين في المطار أن إقامتي في الإمارات قد انتهت وأنني إذا غادرتها فلن يكون بمقدوري العودة إليها مرةً أخرى، فتلفنت للأخ ماهر معتذراً وقفلت عائداً...

هذا إلى جبهات عمل وقلق وكدح متواصل أخرى، كادت تأتي على سكينتي

وعافيتي... فهنالك مطالب المعارف والأقرباء من الموصليين للبحث عن فرصة عمل لهم، أو لإتمام دراستهم في الإمارات... وجبهة الخلافات بين الأصدقاء العاملين في الإمارات وبذل الجهود المتواصلة لحلّها... وجبهة العمل التأليفي المتواصل في الشقة الذي كان يستغرق مني الساعات الطوال، بما في ذلك تهيئة المقالات الأسبوعية لجريدة الشرق القطرية... وجبهة الاتصال بالناشرين، عبر المعارض الدولية للكتاب وتسليمهم بعض أعمالي لغرض نشرها... وجبهة المتاعب العائلية في استدعاء الزوجة لأداء مراسم الحج وما اقتضته من جهود متواصلة، وضرورة اتخاذ موقف بخصوص المتقدمين لخطبة ابنتي مها...

وجبهة عروض العمل المغرية في جامعات الإمارات، وبخاصة جامعتي العين والشارقة... والانقسام إلى شطرين يرنو أحدهما للبقاء في الإمارات والعمل في هذه الجامعات ذات الميزات المالية والأدبية العالية، ويرنو الآخر إلى تلبية مطالب العائلة في إنهاء التعاقد والعودة للاستقرار في الموصل... إنها الحيرة القاسية وموقف (الففتي ففتي) الذي طالما تحاشيته وهربت منه، لكنه ظل يلاحقني ويهصرني بين فكيه القاسيين وأنيابه الحادة...

وجبهة الجوائز المالية والأدبية المغرية للمتقدمين إليها من مثل جائزة (سلطان العويس) وجائزة (سلطان بروناي)، ثم القرار الحاسم بعدم التقدم إليها بسبب من علمانية القائمين عليها أو ارتباطاتهم السياسية المشبوهة... جبهة تقويم البحوث العديدة التي كانت ترسلها إلى الجامعات المختلفة ومراكز البحث في الإمارات وخارجها... فضلاً عن مطالبتها بالكتابة إليها وتزويدها بالبحوث المختلفة.

وثمة بعد هذا وذاك، وقبلهما، الدعوات المتواصلة لإلقاء المحاضرات الأكاديمية والفكرية والأدبية، في هذه الجامعة أو تلك، وفي هذا المركز الثقافي أو ذاك...

فلقد أتيح لي أن ألقي جملة من المحاضرات في كل من جامعة العين، وجامعة الشيخ زايد، وجامعة عجمان، فضلاً عن كلية الدراسات الإسلامية

والعربية، ومركز حماية اللغة العربية في دبي... حيث تلقيت بقبول حسن، الأمر الذي دعا القائمين على الأنشطة الثقافية لتلك الجامعات إلى دعوتي أكثر من مرة لإلقاء محاضراتي، التي كنت أوجهها توجيهاً إسلامياً، ينقد ويرفض ويختار في ضوء الثوابت والهموم الإسلامية في مجالات الفكر والتاريخ والحضارة والنقد والأدب... ولله الحمد على توفيقه...

هنالك أيضاً الدعوات العديدة التي انهالت عليّ لحضور الندوات والمؤتمرات العلمية والفكرية والأدبية من بلدان شتى... المغرب (٢٠٠١م)، الولايات المتحدة (٢٠٠١م)، وفرنسا (٢٠٠١م)، ولبنان (٢٠٠٢م). هذا إلى جملة كبيرة من الدعوات التي اعتذرت عن حضورها لأسباب شتى (الجزائر، النيجر، السويد، اليمن، سلطنة عمان، إيرلندة، السعودية، الكويت، مصر، الهند، باكستان، ماليزيا، إنكلترا... الخ)... الخ...

فأما الرحلات التي نفذتها فكانت للمشاركة في مؤتمر حول الأدب الإسلامي في مدينة أغادير الرائعة المطلة على المحيط الأطلسي، حيث قضينا هناك أربعة أيام مترعة بالعطاء في سياق الأدب الإسلامي تخللتها جملة من الدعوات على الغداء والعشاء، حيث الأكلات المغربية المتميزة من البصطيلة والكسكس والطواجن والمشويات التي كانت تقدم لنا بسخاء، ثم ما لبثنا بعد انتهاء المؤتمر، وبعد حضور أمسية رائعة من الأناشيد الإسلامية بالأصوات المغربية الرائعة، أن يممنا وجوهنا صوب الرباط العاصمة حيث بقينا هنالك ليلتين أتيح لي خلالهما التجوال منفرداً في شوارع الرباط ومتنزهاتها ومقاهيها...

وكان المشاركون في المؤتمر مجموعة متجانسة من رموز الأدب الإسلامي من الأصدقاء والمعارف بمن فيهم الأستاذ الدكتور عبد القدوس أبو صالح رئيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية، وذراعه الأيمن الأستاذ الدكتور عبد الباسط بدر، والأستاذ الدكتور الشاعر الناقد وليد القصاب، والأخ الشاعر المبدع مصطفى عكرمة، والدكتور الشاعر حسن الأمراني، والدكتور الناقد علي

لغزيوي رَحِمَهُ اللهُ، والدكتور الناقد محمد حلمي القاعود... والأخ الناقد الشاعر الدكتور بسام ساعي، الذي اتحفنا بقصيدة عن الأم كانت من أروع ما قيل في الأم من قصائد على الإطلاق... وغيرهم ممن كانت المحبة تغمر قلوبهم، وعلاقات الود والانسجام تسود بينهم جميعاً...

وأما الثانية، فكانت من المعهد العالمي للفكر الإسلامي في فيرجينيا في الولايات المتحدة.. وقد وضعتني هذه الدعوة في حالة قاسية من التردد، بعد أن أطلعت على شروط التقديم لطلب التأشيرة، حيث يتحتم على مقدم الطلب أن يعلن عن عدم انتمائه أو تعاونه مع أية منظمة إرهابية... ولما كانت حماس مرشحة لأن تكون إحدى هذه المنظمات، فقد أدخلني ذلك في حلقة قاسية من عذاب الضمير، ودفعني للاعتذار عن تلبية الدعوة، لكني عندما عرضت الأمر على عدد من الشيوخ والأساتذة، أشاروا علي بالذهاب وعدم التردد... ومن ثم بدأت مطحنة الحصول على التأشيرة... فبعد شهر من تقديم الطلب، جاء موعد الذهاب إلى القنصلية الأمريكية والوقوف في طابور طويل لعدة ساعات... حتى إذا ما وصل الواحد منا إلى الموظف المسؤول وتلقى بعض الأسئلة... كان جوابه بالرفض أو القبول... أما بالنسبة لي فقد كان الرفض، وغادرت القنصلية سعيداً فرحاً بتجاوزي محنة السفر إلى الولايات المتحدة، وإن كنت أريدها لشيء واحد، فضلاً عن إلقاء جملة من المحاضرات في جامعة العلوم الاجتماعية... ألا وهي مراجعة الأطباء المتخصصين هناك حول أوضاعي الصحية... فالحمد لله...

وأما الثالثة، فكانت إلى فرنسا بدعوة من الكلية الأوربية للدراسات الإسلامية (يمكن للقارئ أن يتابع يومياتها في الفصل الخاص بالرحلات الخارجية).

وأما الرابعة، فكانت دعوة من هيئة المدارس الإسلامية في طرابلس التي يرأسها الأخ الداعية غسان حلبص، الذي سبق وأن تعرفت عليه في بداية

سبعينيات القرن الماضي، يوم كان يكتب المقالات الدسمة في جريدة (المجتمع) اللبنانية، يعرّف فيها بكتبي الصادرة حديثاً...

والحقّ يقال، فقد كانت رحلة رائعة، حيث كان في استقبالي في المطار الأخ والصديق توفيق العوجي، وحططت الرحال في أحد فنادق بيروت المطل على البحر المتوسط، وقمت بجولة ليلية ممتعة على طول الكورنيش... وفي اليوم التالي زرت والأخ العوجي جناح الشركة المتحدة، وقدمت إليهم كتابي الجديد عن القضية الفلسطينية بعنوان (أولى ملاحم القرن)، ثم دعيت إلى الغداء بمعية الأخ الداعية الأستاذ إبراهيم المصري والأخ الداعية الشيخ فيصل المولوي رحمه الله... ثم ما لبثت السيارة أن أقلتنا عبر رحلة بديعة إلى مدينة صور جنوب لبنان، حيث زرنا معالمها التراثية، وألقيت محاضرتي الأولى فيها، ثم تناولنا العشاء وقفلنا عائدين شمالاً إلى طرابلس حيث حططنا في أحد فنادقها المتميزة.

في اليوم التالي وبعد وجبة دسمة من الغداء اللبناني الشهير بتنوع مقبلاته وأشكاله، والتي حضرها كبار المسؤولين والدعاة في طرابلس... ثم ما لبثت أن ألقيت بعدها محاضرتي الثانية... وفي اليوم التالي، وبعد جولة في أنحاء طرابلس وزيارة لجامعة الإيمان الإسلامية، حيث استقبلتنا الدكتورة منى زوجة الداعية فتحي يكن رحمه الله، وطافت بنا في قاعات الجامعة وأروقتها... انطلقنا إلى بيروت حيث زرنا الأخ الأستاذ زهير الشاويش رحمه الله، الذي تكرم علينا بتأجيزنا في العلوم الإسلامية.

ثم انطلقنا إلى سهل البقاع حيث وصلنا ظهراً إلى مقر الداعية الكبير الأستاذ خليل... ودارت بيننا أحاديث شتى، ثم تناولنا الغداء وانطلقنا بعدها جنوباً إلى إحدى مدن السهل، حيث حضرنا حفلة زفاف أقيمت هناك لأحد الدعاة، ومنها إلى بيروت حيث بت ليلتي في الفندق، وفي اليوم التالي جاءني الأخ توفيق العوجي، لكي نتناول الغداء في أحد المطاعم الفارهة، ولكي أقيم في مكتب بيروت للمعهد العالمي للفكر الإسلامي ورشة عمل استغرقت أكثر من

أربع ساعات، تحدثت فيها عن جملة من الأمور الفكرية الملحة، جرى حولها حوار خصب... ثم ما لبث الأخ العوجي أن أوصلني إلى مطار بيروت، عائداً إلى الإمارات.

بعد تلك الرحلة جاءتني والأخ الدكتور خالد الحمداني دعوة من صديق عماني لزيارة عمان وعاصمتها مسقط... وعبر يوم واحد انطلقنا فجراً بسيارة الصديق، حيث اجتزنا مزارع وبساتين تنتشر في شرايينها العيون المائية العذبة، والحصون التراثية... في طريقنا إلى مسقط التي تجولنا في أنحائها، وصلينا في مسجد السلطان قابوس، الذي تعجز الكلمات عن وصف فخامته، وتصميمه ولوحاته الرائعة، وثرياته العملاقة، وسجاجيده الإيرانية الرائعة...

ثم غادرناه تلبية لدعوة على الغداء من الأخ الفاضل الدكتور عبد العليم السعدي، خرجنا بعدها للقيام بجولة بحرية في خليج عمان، وزيارة لأحد شيوخها المعروفين، ثم قفلنا عائدين ونحن نتبارى في المسابقات الشعرية ونتبادل الأحاديث والنكات... وقد عدنا ومعنا صيد ثمين من الحلوى العمانية المعروفة، والتي زرنا أحد معاملها واطلعنا على طريقة صنعها...

أما رحلة الحج في ربيع عام (٢٠٠١م) بمعية زوجتي... فلها قصة أخرى... لقد جاءت زوجتي، بعد جملة من المتابعات المرهقة، إلى الإمارات قبل حوالي الشهر من موعد الحج، واضطر الأخ لقمان إلى ترك شقتي حيث استقرت الزوجة، ومضت الأيام ونحن نتابع إجراءات الحج، ونتناول غداءنا في الشقة، وأما العشاء فكنا نخرج لكي نتخطى، ونستقر في أحد المطاعم الرائعة... ثم نتجه إلى شارع الكورنيش لكي نقضي الساعات الممتعة هناك... هذا إلى تجوالنا في الأسواق والسوبر ماركتات، وتلبية الدعوات العديدة التي انهالت علينا...

حتى إذا ما اقترب موعد الحج، ولم يتبق على مغادرتنا الشارقة للديار المقدسة سوى يومين، أو ثلاثة... جاءتني حالة الغيبوبة والإغماء ونحن نتناول عشاءنا في مطعم الطازج... وهرع عمال المطعم لإعانة زوجتي على اللحظات

الصعبة التي اجتازتها وأنا في حالة الإغماء... ثم ما لبثت أن أفقت ونقلت إلى الشقة لكي أتمدّد هناك بانتظار الطبيب الدكتور محمد جميل الحبال الذي طمأنني على وضعي الصحي...

ولكنني، مع ذلك... كنت خائفاً من أن يحبط جهدي مع الحج، بسبب مضاعفات الحالة، ودعوت الله ﷻ من أعماقي أن يقيني كل سوء وأن يشفيني... وما لبثت الاستجابة أن جاءت، واستعدت عافيتي الكاملة التي أعانتني وزوجتي على تأدية مراسم الحج دون أية مصاعب... والحمد لله...

هل تركت لي تلك الهموم والمتابعات اليومية والمعاناة الصعبة، على مدى موسمين دراسيين، هامشاً للأفراح والمسرات؟ فرصاً للراحة والاسترخاء؟ بكل تأكيد... وتلك هي سنة الحياة، ونواميس الله تعالى في الخلق، وهو القائل في محكم كتابه العزيز: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥ ـ ٦]...

وهكذا وجدتني منذ الأيام الأولى، وحتى نهاية العامين الدراسيين في الإمارات، أرتب لنفسي منهجاً يومياً للترفيه والاسترخاء... ولحسن حظي، أنا الذي عشقت منذ صغري الجلوس اليومي في المقاهي والكازينوات، أن أجدني في الشارقة، وعلى بعد مسافة قريبة من شقتي، أمام المقهى الشعبي المطل على البحيرة والذي وجدت فيه ضالتي مساء كل يوم، حيث كنت أجلس هناك الفترات الطوال حتى ساعة متأخرة من الليل، أطالع، أو استرخي، أو أرتب المواعيد مع الأصدقاء، وما أكثرهم، أو أجلس قبالة التلفاز لمتابعة مباريات الدوري لكرة القدم... أشرب الشاي... وآكل الباقلاء المسلوقة... وأحاور الأصدقاء والقادمين من الموصل. يا لها من ساعات رائعة كنت أحرص عليها يوماً بيوم...

وكان العديد من الأساتذة والأدباء والمفكرين والمخرجين والفنانين، يضربون معي مواعيدهم في هذا المقهى الشعبي، حيث كنا نتبادل وجهات النظر في العديد من الأمور ونتفق على جملة من المشاريع الفكرية والفنية والأدبية...

وكنت صباح كل يوم أتجه إلى الكلية برفقة أحد أساتذتها من أصحاب السيارات، من الذين يقطنون في شقق كلية الدراسات الإسلامية المجاورة... وألقي محاضرتي الأولى في دبي... ثم أتجه إلى المطعم اللبناني القريب من الكلية لتناول الفطور من الأرغفة الرائعة بالجبنة والزعتر واللحمة... ثم ما ألبث أن أعود إلى الكلية لاستئناف محاضراتي... ولم يكن غدائي بعد عودتي ظهراً إلى الشقة سوى لقيمات معدودات، وأتناول بعدها عدة حبات لذيذة من المانكو، ثم استلقي على السرير للمطالعة بعض الوقت، قبل أن تأخذني سنة من نوم القيلولة العميق، حيث أستيقظ بعدها لأداء صلاة العصر في الجامع المقابل للشقة، ثم الجلوس إلى المكتب، الساعات الطوال، لإنجاز العديد من البحوث والمقالات والتنقيحات، ولتقويم ما كان يتدفق علي من هذه المجلة أو تلك ومن هذه المؤسسة أو تلك...

وأستمر في العمل حتى صلاة العشاء التي أصليها في الجامع، ثم أنطلق بعدها، وقد عصرني الجوع، للقيام بجولة مشي سريع يستغرق أكثر من نصف الساعة، عبر شوارع الشارقة، لكي ما ألبث أن أدخل أحد المطاعم لتناول وجبتي الدسمة من العشاء الذي أحاول أن أحسن اختياره من الدجاج المشوي والمتبل أو الشاورما، أو السمك المقلي أو المزكوف على الطريقة العراقية، أو البتزا الرائعة، أو الفول والفلافل والفتة التي يتقن صنعها مطعم الكلحة القريب من الكورنيش، أو الدجاج المسحب، أو الكبة الموصلية، أو الرز والمرق... أو اللحم بعجين، أو الأكلة الشامية الرائعة المسماة بالمعجوقة وهي خليط من العجين المحمص المترع باللحم والمشوي بالفرن الحجري...

ثم أغادر المطعم باتجاه المقهى الشعبي لقضاء الساعات الطوال هناك قبل أن أقفل عائداً إلى الشقة لاستكمال الأمسية مع التلفاز أو المطالعة حتى ساعة متأخرة من الليل، لكي ما تلبث سنة النوم العميق أن تأخذني بعيداً...

ولم يكن ذلك كله ليتمّ بمفردي دائماً... وإنما كان في كثير من الأحيان بصحبة زميل الشقة الأخ لقمان عثمان، الذي أمّم سيارته التي كان يستأجرها

من أحد المكاتب الأسابيع الطوال... فكنا نتناول عشاءنا سوية، ونستقبل الزائرين من الموصل الذين كانوا يتدفقون على الإمارات، أسبوعاً بعد أسبوع، وندعوهم لتناول العشاء، ومن بعده لجلسة طيبة في المقهى الشعبي الذي أصبح لشدة ارتباطنا به مقترناً بي في ذاكرة الموصليين العاملين في الإمارات، وهم يسترجعون الأمسيات الجميلة التي كانوا يقضونها معنا هناك في ذلك المقهى...

وكنت والأخ لقمان نتجه في أعقاب كل أمسية، وفي ساعة متأخرة من الليل، لتناول الآيس كريم (أو الدوندرمة) في محل الطرابلسي الرائع في الشارقة، حتى أننا لعشق ما كان يقدمه لنا من مرطبات أصبحنا من المدمنين عليها... وكنا نلحظ على جدران محله مجموعة من الصور التي يبدو فيها المغني الطرابلسي المعروف وليد توفيق واضحاً، فكنا نسأله عن هذه الخصوصية فكان يقول مفتخراً: إنه صديقي الحميم... وأنه عرف بمحبته العميقة لأمه... رغم أنني شخصياً كنت لا أرتاح لصوته وصورته معاً عندما كان يندلق بأغانيه عبر التلفزيون، تلك التي لا لون لها ولا طعم ولا رائحة.

وكان العديد من الأصدقاء والأساتذة العاملين في الإمارات من العراقيين والسوريين واللبنانيين والفلسطينيين... بل من الإماراتيين والخليجيين أنفسهم... يدعوننا على الغداء أو العشاء، حيث تمدّ الأطعمة والقوازي المشوية ومختلف صنوف الأطعمة، وأذكر ممن تولوا دعوتي والأخ لقمان كلا من الدكتور حسام النعيمي، والدكتور فاضل السامرائي، والدكتور حسام السامرائي، والدكتور السعدي، والدكتور البلوي، والدكتور جاسم المطاوع، والدكتور حارث الضاري، والدكتور عدنان الدليمي، والدكتور محمد الهاشمي، والأخوين معاذ ووائل عبد الجبار، والأخ محمد الحمراوي، والدكتور حازم سعيد، والدكتور عمر الساريسي رحمه الله، والدكتور خالد الحمداني، والدكتور المعشوق، والدكتور سلطان العلماء، والدكتور حمد الكبيسي رحمه الله، والمهندس خالد حمو النيش رحمه الله، وعدد

كبير آخر ممن لم تحضرني أسماءهم بعد مرور السنوات الطوال على وجودي هناك...

كما تم ترتيب لقاءات أسبوعية مع الأخوة الأساتذة فاضل السامرائي وبهجت الحديثي وحسام النعيمي لتناول العشاء في أحد مطاعم الشارقة، حيث كنا بعد مغادرة المطعم يستقر بنا المطاف في المقهى الشعبي لتبادل المطاردات في الأبيات المرتجلة من الشعر، حيث كان أحدنا يرتجل عجزاً ويتحدى الآخرين بأن يأتوا بشطره، أو بالعكس، فكانت تحدث مفارقات تثير الضحك العميق...

وكانت هنالك دعوات الغداء أيام الجمع في قصر الشيخ سيف الغرير، التي كان يحضرها الدكتور أحمد الكبيسي ولفيف من المدعوين، حيث تقدم أنواع رائعة من السمك المقلي وغيره من ألوان الطعام... وكان هذا الرجل الذي بدأ حياته كادحاً في صيد اللؤلؤ يعشق الفكر والثقافة... وكنا نجتمع في أحد الأيام من كل أسبوع في مكتبه بدبي أنا والدكتور حارث الضاري والأخ لقمان والدكتور حازم سعيد وحشد من المعنيين بالهمّ الثقافي، حيث يلقي كل واحد منا عبر اليوم الذي يتم الاتفاق عليه محاضرة في الموضوع الذي يختاره، وقد أتيح لي أن ألقي محاضرة عن سقوط الدول والحضارات من المنظور القرآني، التي نالت إعجاب الحضور فطالبوا بالمزيد.

وبين الحين والحين، كان الأخوة الموصليون العاملون في الإمارات يتفقون على القيام برحلات مشتركة إلى هذا المتنزه أو ذاك، حيث نقضي هناك يوماً جميلاً، نلتقط خلاله الصور التذكارية، ونتبادل الأحاديث والنكات، ونتناول صنوف الأطعمة، ونمارس شتى أنواع اللعب، ثم نقفل عائدين.

وكانت دعوات العشاء تقام أحياناً في الحدائق والمتنزهات الداخلية للشارقة، حيث يتدفق المدعوون، ويقضون هناك ساعات طيبة حتى ساعة متأخرة، مع تناول الشواء والأحاديث والنكات.

وثمة تلك الأمسيات الرائعة، التي كنا نرتبها مع بعضنا وندعو لها مشاهير

المنشدين الإسلاميين السوريين والإماراتيين والعراقيين من مثل: أبي الجود العزاوي وأسامة الصافي وغيرهم، ويتولى أحدنا شراء مفردات العشاء، ثم تبدأ بعده أمسية الاستماع للأصوات العذبة التي كانت تسحرنا، فنستمر في أمسيتنا تلك حتى مطلع الفجر...

وعندما اقترب الموسم الدراسي الأول (٢٠٠٠ ـ ٢٠٠١م) من نهايته، وجهت إليّ إدارة الكلية كتاب شكر وتقدير على جهودي المتميزة، ورغم ذلك أعربت للإدارة عن رغبتي في إنهاء عقدي، ولكن المدير أصر على تمديده لسنة أو لسنوات أخرى، ربما بعد أن اطلع على أجوبة الطالبات بخصوص الاستمارات التي توزع عليهن لإبداء تقويمهن للتدريسيين، والتي لا يسمح لأحد بالاطلاع عليها.

ويبدو أن معظم الطالبات قد قيّمن أدائي التدريسي بما دفع إدارة الكلية إلى التشبث بي وبعدد آخر من التدريسيين، وإلى إنهاء عقود العديد الآخر منهم لهذا السبب أو ذاك... هذا إلى اطلاع إدارة الكلية على مجمل نشاطي داخل الكلية وخارجها، فيما سبق وأن ألمحت إلى جانب منه.

وبعد أن اتصلت بأسرتي في الموصل، حيث كانت زوجتي قد غادرت الإمارات في أعقاب إتمام مراسم الحج، تم الاتفاق على التمديد لسنة واحدة أخرى.

ثم ما لبثت أن غادرت الإمارات، بعد عودتي من فرنسا، في تموز عام (٢٠٠١م)، في طريقي إلى الموصل، حيث لم يتبق من العطلة الصيفية المعطاة لنا سوى أقل من شهر، وحيث لم يترك لي الأصدقاء الذين انهالت عليّ دعواتهم، فرصة كافية للجلوس مع أسرتي... إذ ما لبثت الأسابيع القليلة أن انقضت... وفي أواخر آب يممت وجهي ثانية صوب الإمارات عن طريق الأردن... بعد أن رتبت أمر قدوم زوجتي بعد شهر واحد لقضاء الفصل الدراسي الأول، والعودة بمعيتي إلى الموصل في العطلة الربيعية.

لا راحة لمؤمن في دار البلاء... هكذا رحت أردد مع نفسي لحظة دخولي

الكلية ومفاجأتي باثنتين سيقدر لإحداهما أن تضعني ثانية في دائرة العذاب لأكثر من شهر... فأما أولاهما فهي صدور أمر مدير الكلية بإلغاء عضوية كل من الدكتور حاتم الضامن والدكتور حارث الضاري من هيئة تحرير مجلة (كلية الدراسات الإسلامية) وكنت وإياهما، في الموسم الماضي، نعمل سوية في هيئة التحرير حيث أصبحتُ مقرراً للمجلة...

وكنا ثلاثتنا من أشد الرافضين لرغبة مدير الكلية بحصر قبول البحوث أو رفضها، بعد مطالعتنا وإبداء رأينا بخصوصها، به شخصياً، بمعنى تجريدنا من أهم ما يتميز به أعضاء هيئة التحرير في كل مجلات الدنيا...

ثم جاءت العطلة الصيفية لكي يجمد الموضوع. ولكن ما أن بدأ الموسم التالي حتى صدر القرار المذكور بإلغاء عضويتهما والإبقاء عليّ، فكأنه كان يريد توظيف سمعتي العلمية بإبقائي في هيئة التحرير، لكن مع تجريدي وبقية الأعضاء من صلاحيتنا الأساسية وهي قبول البحوث أو رفضها.

أغاظني هذا الموقف كثيراً، على ما في ظاهره من مجاملة، كما أغاظ كلًّا من الدكتور الضامن والدكتور الضاري، وراحا يلحان عليّ بأن أرفض عضويتي في المجلة حفاظاً على كرامتي... ولكني إزاء تقدير المدير لي قررت أن أتريث قليلاً وأن أبدأ أولى خطواتي بالتأكيد على رئيس هيئة التحرير الجديد، وهو أستاذ ليبي عيّنه المدير عميداً للكلّية، وكان أشبه بالظل التابع للمدير، لا حول له ولا قوة، أسوةً بالعميد السوداني السابق، للأسف الشديد، وذلك بتقديم طلب تحريري من هيئة التحرير بإعادة صلاحيتها بخصوص قبول البحوث أو رفضها، وسحب هذه الصلاحية من يد المدير ورحت ألح عليه في ذلك، وهو يماطل ولا يكاد يفعل شيئاً...

وحينذاك فقط قررت تقديم استقالتي من الهيئة، وكفى الله المؤمنين القتال، فيما لقي لدى الضامن والضاري والعديد من أعضاء هيئة التحرير قبولاً حسناً.

وأما الثانية فهي صدور الأمر بتعييني رئيساً لهيئة التحكيم في الخلافات الإدارية التي تنشب بين التدريسيين والإداريين. وقد عرضت عليّ إحدى

الإشكاليات، وكان المدير يرغب في إنزال العقوبة القاسية بأحد الأطراف وفصله من عمله، قبل أن يتم التأكد من تفاصيل الموضوع، ولكني رفضت هذا الموقف، واجتمعت بأعضاء الهيئة وبالمتخاصمين لسماع وجهات النظر في الخلاف القائم... فلما تبين لي الموقف بأبعاده كافة قررت أن أقوم بالتنبيه الشفهي للمتخاصمين، وحذرتهم من أن يعودوا لمثلها مرةً أخرى... دون أن ألحق بأي منهم العقوبة التي تقطع رزقه وتورثني الندم الشديد.

قضيت رمضان هذا العام بمعية زوجتي التي لحقت بي قبيل حلوله بأيام... كانت أجواء الخريف في الإمارات رائعة والصيام مريحاً، وكنت بعد عودتي عصراً من الكلية، أيمّم وجهي لكي أتخطى عبر شوارع الشارقة لمدة نصف ساعة، وهي التي نصحني الأطباء بممارستها يومياً... وأعود قبيل دقائق الإفطار لكي نتناول فطورنا الموصلي اللذيذ، ثم ما نلبث بعد أداء صلاة التراويح في الجامع القريب، أن نغادر المكان في طريقنا إلى الكورنيش حيث يتجمهر الناس هنا وهناك... ونجلس في القسم العائلي للمقهى الشعبي... أو نقضي أمسيتنا في دار أحد الأصدقاء، ثم ما نلبث في ساعة متأخرة أن نقفل عائدين لتناول السحور.

ولقد انهالت علينا الدعوات في رمضان، وعبر الأسابيع التي أعقبته حيث قضينا مع المعارف والأصدقاء أوقاتاً ممتعة في الدور أو في المتنزهات المنتشرة داخل الشارقة وفي الجهات البعيدة عنها، ولا زلت أذكر من بينها: رحلتنا إلى العين بدعوة من الصديق الدكتور علاء نورس، ورحلتينا إلى أبو ظبي حيث تجولنا في شوارعها الفارهة وفي مركز التسوق الكبير المدهش، وحيث انتهى بنا المطاف في أحد المطاعم الرائعة حيث تناولنا، اثنتين من أروع وجبات المشويات... ورحلتنا إلى عجمان لتناول الغداء في شقة الأخ معاذ عبد الجبار... وثمة رحلة أخرى بمعية عائلة محمد الحمراوي إلى خورفكان السياحية المطلة على البحر حيث قضينا اليوم كله هناك...

وكنا أحياناً أخرى نخرج للتجوال في القرية السياحية، وفي مراكز التسوق الكبرى في الشارقة أو دبي، ولتلبية طلبات الشراء العديدة التي كلفنا بها من

الموصل... وكانت متعتنا عندما كنا نقوم باختيار وجبة رائعة من النساتل وإرسالها إلى أولادنا مع أحد المسافرين العائدين إلى الموصل...

وكانت زيارة معارض الكتب التي تقام في كل عام في الشارقة وأبو ظبي، وتجوالنا فيها، واتصالي بعدد من الناشرين وتسليمهم أعمالي الجديدة لغرض نشرها، واللقاء هناك بالعديد من الأصدقاء والمثقفين، وحضور بعض الأمسيات الأدبية والفنية التي تقام في سياق المعرض... متعة بالغة أشبه بالواحة الخصبة عبر مسيرة طويلة في الصحراء القاحلة، وحيث كنا نلتقي بالدكتور حارث الضاري يلمّ حوله عدداً من العراقيين ويلغ عليهم بدعوته إياهم لتناول العشاء في بيته، مهما كان عددهم... إن الرجل هو ابن العشائر الدليمية المعروفة بسخائها العجيب، رغم أن إلحاحه ذاك كان يؤذي زوجته (أم مثنى) رحمها الله... ولكنها كانت تستسلم وتطيع... وما أروع القوزي على تمن مع مرق الفاصوليا اليابسة (أو الحب كما يسمونها في الإمارات) التي كان يتحفنا بها بين الحين والحين.

وما أن حلت العطلة الربيعية لعام (٢٠٠٢م) حتى شددنا الرحال للعودة إلى الموصل حيث كان ينتظرنا في مطار عمان سائق التاكسي الذي تم الاتفاق معه لكي يقلنا إلى الموصل... وقد انتهزنا هذه العطلة للقيام برحلة عائلية إلى بغداد، حيث نزلنا في فندق بغداد الرائع المطل على دجلة، وقضينا هناك أياماً ممتعة في التجوال في متنزهات بغداد ومطاعمها وفنادقها وشوارعها... في محاولة منا لاستعادة ذكريات رحلاتنا العائلية الرائعة في ثمانينيات القرن الماضي، وكأن إحساسنا أعلمنا بأن هذ الرحلة ستكون آخر الرحلات إلى بغداد الغالية، قبل أن يحل بها الطاعون الأمريكي الأسود، والطائفية المقيتة، فيغيران معالمها بعد سنة واحدة ويحولانها إلى مقبرة كئيبة... فوا أسفاه...

ما لبث شهر حزيران من عام (٢٠٠٢م) أن حلّ فأسرعت بتقديم طلبي لإنهاء عقدي مع الكلية، رغم ممانعة المدير، وعدد كبير من أساتذة الكلية، وطلبتها وطالباتها الذين كانوا يكنون لي كل محبة وتقدير... ولقد عبروا عن

ذلك في جملة كبيرة لا زلت أحتفظ بها معتزاً من الهدايا العينية والرسائل التي نقلت بصدق وأمانة ما كان يعتلج في صدورهم تجاهي.

ويوماً وأنا أتوجه مساء إلى ندوة الشيخ سيف الغرير إذا بي فجأة أتلوى من آلام البطن والغثيان والرغبة العاتية بإفراغ ما في جوفي من طعام، ثم ما لبثت أن أغمي علي، ووجدتني أُنقل بسيارة إسعاف من باحة كراج سيارات مركز جمعة الماجد إلى مستشفى دبيّ، حيث رقدت هناك في غرفة مستقلة، وأجريت لي الفحوصات والتحاليل المطلوبة، وتبين ــ لحسن الحظ ــ ألا علاقة للحالة بالقلب، وإنما هو التسمّم بسبب تناولي لوجبة عتيقة من الفلافل في المطعم اللبناني بدبي ذلك الصباح... وقد نام معي في المستشفى الأخ والصديق الوفي الدكتور حازم سعيد، حيث ما لبثنا بعد تلقي باقات الزهور وبطاقة التهنئة من الشيخ الغرير على السلامة، أن غادرنا المستشفى عائدين إلى الشقة...

ولقد أتاح لي ذلك موافقة إدارة الكلية على تقليص مدة بقائي في الإمارات لأكثر من أسبوعين، ووجدتني حراً في الانفكاك والعودة إلى بلدي، بعد أن أعلمتني الإدارة أن الشيخ الماجد المسؤول عن المؤسسة التي تدير المركز والكلّية يرغب في مقابلتي، وأنه سيرسل سيارة خاصة لكي تقلّني إلى المركز، حيث التقيت به فرحب بي وأشاد بجهودي العلمية والثقافية والتدريسية عبر السنتين الدراسيتين، وقدم لي مبلغ ألف درهم إماراتي فيما يسمى مكافأة نهاية الخدمة...

وما لبث أن فاتحني بإمكان قيامي بإرسال وجبات من المخطوطات المتواجدة في مدينة الموصل وبالسعر الذي ترتئيه الجهات المعنية... فوعدته خيراً، وإن لم أجزم بالأمر... ذلك أن إخراج المخطوطات من العراق، وهي جزء من ثروته القومية، وبخاصة في زمن الحصار الأمريكي القاسي الذي سيقدّر له أن يلحق الدمار بثقافة العراق وخزينه الفكري والحضاري؛ يعدّ أمراً غير مقبول على الإطلاق... ولذا صرفت النظر عن الموضوع بمجرد أن غادرت مكتب الشيخ جمعة الماجد.

وحان موعد المغادرة، فقمت بزيارة لأساتذة الكلية وإدارتها وموظفيها واحداً واحداً، حيث أبدَوْا أسفهم على مغادرتي، ثم يممت وجهي صوب المطار بصحبة ثلة من الأصدقاء المودّعين... وما أن دخلت صالة المطار لإجراء الأمور الروتينية في تسليم الحقائب، وتجييك جواز السفر، حتى فاجأني الموظف المسؤول عن تسلم الحقائب، بسحب حقائبي من شريط الإرسال وهو يقول لي: إن الطائرة قد اكتظت بالراكبين، وقد زاد الوزن المتاح لها عن حدّه المقرر بكثير، ولذا أطلب منك أن تؤجل رحلتك إلى يوم غد، ولسوف ننزلك في فندق المطار المريح حتى يحين موعد المغادرة...

فرفضت عرضه قائلاً له بشيء من العصبية: كيف أؤجل رحلتي وهناك في مطار عمان السائق الذي اتفقت معه على المجيء من الموصل، حيث تفصله عن عمان آلاف الكيلومترات، لكي يقلني إلى بلدي... فراح الموظف المسؤول يتوسل بي ويقول لي: اعتبرها مساعدة منك تسديها لنا... فقلت له: لن أغير موعد عودتي، وسوف ألجأ إلى مسؤولي المطار إذا اقتضى الأمر...

فما كان منه إلا أن يذعن لطلبي، لكنه راح يتعمد إهمال حقائبي وعدم إرسالها بالشريط... والوقت يمرّ... ولم يتبق على موعد مغادرة الطائرة سوى دقائق معدودات... وما لبث أن قال لي: إن عليك أن تدفع ضريبة من المال للمحاسب، ورحت أركض هنا وهناك بحثاً عنه، وأتوسل إليه أن يسارع في تسليمي الوصل، حتى إذا ما أعطيته الموظف المسؤول وضع حقائبي على الشريط، بينما انطلقت أنا بأسرع ما أستطيع، وقد شدّت أعصابي إلى درجة الانفجار، ورحت أدحرج حقيبتي الدبلوماسية ومتاعي على سلم النزول إلى صالة المغادرة، كسباً للوقت، ولكي يتيح لي ذلك القفز على درجات السلّم ثلاثاً ثلاثاً... ووصلت في اللحظة المناسبة والحمد لله...

وحينذاك فقط استرددت روعي، وعادت أعصابي إلى استرخائها المعهود... وتنفست الصعداء...



الفصل التاسع

٢٠٠٢ ـ ٢٠٠٥م

حططت رحالي في مدينة الموصل الغالية في صيف عام (٢٠٠٢م)... وبعد أيام قلائل عقد مهرجان البردة الثاني للأدب الإسلامي على أروقة جامعة الموصل، وكان المهرجان الذي سبقه قد عقد في العام الماضي حيث كنت غائباً في الإمارات، ودعي إليه من الأردن الأخ الأستاذ محمد الحسناوي ﷺ...

وقد ألقيت في المهرجان الثاني جملة من البحوث والقصائد، وجرت مناقشات خصبة، وتمّ تكريمي ناقداً أدبياً، فارتجلت أمام الجمهور المحتشد كلمة انتزعتها من قلبي، جاء فيها... (... إن الإنسان الذي يبدأ رحلة الصعود إلى السبعين من عمره، يحس كما لو أن الدنيا تتضاءل أمام عينيه... تفقد الأشياء بريقها... تتراجع الإغراءات، ويكفّ اللهاث المحموم وراء نداءات الحياة الدنيا... ويتركز البصر في نقطة واحدة تتلامع في الأفق البعيد... أن يجتاز المرء امتحان يوم الهول بنجاح... وإلا فهو الخسران المبين... لنا الويل إن قيل للواحد منا يومها: لقد أردت أن يقال لك عالم أو أديب... فها قد قيل...

ولكن ما يعزّيني أن أرفع يوم الهول هذه البردة قبالة النبي المعلم، وأصرخ متوسلاً ملتاعاً: شفاعة يا رسول الله... خمسون عاماً والأشياء الجميلة... القيم النبيلة تغريني وتعذبني... وينغرز نصلها الذهبي في روحي وفي أعصابي... خمسون عاماً والكلمة تسكنني وأسكنها... لم تدعني لحظة واحدة ألتقط أنفاسي وأرتاح... أصبحت في نهاية الأمر نضواً متعباً... مكدوداً... والهدف بعيد بعيد...

فهل سيقدر لي أن أواصل المسير؟... أشكركم أيها الأخوة الأحبة...

أشكركم... أشكركم... ولسوف يظل وفاؤكم الجميل يعرّش في قلبي قنديلاً أخضر حتى نلتقي هناك(١).

ولقد دفعت تلك الكلمات العديد من الحضور إلى البكاء...

ثم ما لبثنا في أعقاب انتهاء المهرجان الذي دار ليومين، أن دعينا لحفل عشاء توديعي على حدائق فندق الموصل الرائعة، المطلة على نهر دجلة، حيث ألقيت القصائد والكلمات، واقترح اثنان من الأساتذة المدعوين هما الدكتور إبراهيم العلاف والدكتور ادهام حنش، أن تُنشأ جائزة سنوية باسم (جائزة الدكتور عماد الدين خليل للأدب الإسلامي) فاعتذرت عن قبول الاقتراح خشية ربط الجائزة بمؤسسات الدولة الرسمية التي كنت أحاذرها بشكل صارم.

وسيخطر في بالي بعد ذلك بأكثر من عشر سنوات، أن أرتب هذه الجائزة باسمي، وأن أربط الإشراف عليها بإحدى مؤسسات المجتمع المدني، وهي (مركز الموصل للثقافة والعلوم) الذي كنت عضواً فيه، وأن يكلف بالأمور الإجرائية للجائزة التي تقدم كل سنتين، مجموعة من الأساتذة الجامعيين المعنيين بالهمّ الأدبي الإسلامي... وأن أخصص مبلغاً نقدياً يسلّم للفائزين عبر احتفال خاص يقام خريف كل سنتين لهذا الغرض... إن شاء الله...

وما لبثت في صيف ذلك العام أن فوجئت بجملة من المتاعب كان من بينها مرض ابنتي الكبرى (مها) الذي استغرق أكثر من شهر من المتابعات الطبية والمعاناة تماثلت بعدها للشفاء... وسوف يقدر لها بعد عدة سنوات أن تجد نفسها مضطرة لمداخلة جراحية باستئصال مرارتها الذي أزاح عنها الكثير من المتاعب التي لاحقتها السنين الطوال.

ثم ما لبثنا أن فوجئنا بالطرقات اليومية على باب دارنا... إنهن الخطّابات اللواتي تهافتن على طلب يد ابنتنا، ونحن نتردد في القبول، ربما حرصاً منا على بقاء ابنتنا بمعيتنا أطول وقت ممكن... فنحن عائلة صغيرة لا تتجاوز الستة أشخاص عدداً، وانتزاع أي واحد منا يمثل خسارة كبرى... فكانت كل طرقة على الباب بمثابة همّ جديد يعتصر قلوبنا... فما نلبث أن

ندفع أصحابها بالتي هي أحسن، ولكني كنت رغم ذلك كله أصرّ على ضرورة الموافقة على أحد المتقدمين، تنفيذاً لوصية رسول الله (ﷺ): «إذا جاءكم من ترضون دينه وأمانته فزوجوه»...

وأخيراً كان لا بدّ مما ليس منه بد، حيث تمت الموافقة على اقترانها بابن صديق حميم لي هو المهندس أحمد بن الحاج ناطق الأرحيم، تاجر المواد الكهربائية المعروف في الموصل وكفى الله المؤمنين القتال... ولكن بعد أن تركت (مها) فراغاً موحشاً في البيت لا يمكن أن يسدَّه أحد...

ثم ما لبثت ثالثة المتاعب أن جاءت لكي تفرض عليّ حصاراً نفسياً قاسياً... إنها التلويح بالضربة الأمريكية شبه المحققة للعراق... وكنت قبل ذلك بعدة أسابيع قد ارتبطت بعقد عمل مع جامعة الزرقاء الأهلية في الأردن، عبر الفصل الدراسي الثاني الذي يبدأ في شهر شباط من عام (٢٠٠٣م)، وجاءت الموافقة بتوقيع رئيس الجامعة الأخ الأستاذ الدكتور إسحاق فرحان... فلما تأكدت الضربة الأمريكية للعراق، أمسكت بخناقي دوامة قاسية من الندم الشديد، إذ كيف سأترك بلدي وأهلي وأكون بعيداً عما سيشهده عبر الحرب القادمة؟ ألا يمثل هذا نوعاً من الفرار من خطر محدق...

ثم ما لبثت أن أرسلت برقية مستعجلة إلى رئيس قسم التاريخ في كلية آداب جامعة الزرقاء، الأخ الدكتور زيد أبو الحاج، أستشيره في تأجيل فرصة عملي في الجامعة إلى وقت آخر، ريثما ينجلي الموقف وأطلب منه بذل مساعيه في إقناعهم بتأجيل تعاقدي معهم... لكنه ما لبث أن أعاد عليَّ الجواب بأن الأمور الإجرائية قد استكملت، بما فيها تخصيص المكتب، وترتيب الجدول، حيث لا يمكن التراجع بحال من الأحوال، فما كان مني وسط موجة من القلق والهمّ والاكتئاب، إلا أن أستجيب مرغماً، وأتجه إلى عمّان للبدء بعملي الجديد.

اصطحبت معي في رحلتي البرية إلى عمّان، حيث لم تكن الخطوط الجوية قد استؤنفت بعد، الأخ لقمان عثمان، الذي توجه إلى عمان للحاق بجانب من أسرته، التي استقرت هناك لمتابعة معضلة أخيه الأصغر (أحمد)، الذي أصيب

بحالة سرطانية تطلبت إبقاءه الأشهر الطوال في مستشفى الأمراض السرطانية في عمان.

بتنا ليلتنا الأولى في أحد فنادق عمان، وما لبث الأخ لقمان أن عثر لي على شقة مناسبة في منطقة المدينة الرياضية وسط عمان، قبالة شقة أهله... فتحولت إليها، ورغم إحساسي بالوحشة لمبيتي بمفردي لأول مرة ـ ربما في حياتي ـ فإن ما كان يخفف عني وجود أسرة لقمان، وعدد من الأخوة الموصليين في العمارة نفسها... هذا إلى كون الشقة في منطقة مزدحمة قريباً من ستاد عمان الرياضي، حيث تكثر الأسواق والمطاعم والمارة من الرائحين والغادين، وهو ما كنت أطمح إليه دائماً... وثمة قربها نسبياً من (السيف واي) وهو مركز كبير للتسوق يتضمن كل ما يخطر على البال من البضائع والمشتريات.

في اليوم التالي لوصولي دعيت لحفل تكريم أقامته إحدى الجمعيات الأردنية لأستاذي الدكتور عبد العزيز الدوري ﷺ، وما أن غادرت المكان حتى كان الثلج المتساقط قد ازداد كثافة وأخذ يرتفع شيئاً فشيئاً عن مستوى الشوارع، ويهدّد بشلّ حركة السيارات، فاتجهت إلى شقتي وقبعت فيها لأكثر من يومين تعطلت خلالهما، بسبب تراكم الثلوج، الدوائر والمؤسسات... وكانت أسرة لقمان تأتيني بالطعام ظهراً ومساءً، وأنا منغمر في إكمال وتنقيح مسرحيتي الأخيرة (التحقيق) الساعات الطوال... حيث أن التلفاز نفسه أصابه العطل بسبب تراكم الثلوج.

ولكن ما أن حل اليوم الثالث، وكان يوم الجمعة، حتى وجدتني مضطراً لمغادرة الشقة إلى أقرب جامع لأداء صلاة الجمعة، ولتسوّق ما يمكن حمله إلى الشقة... وكنت أسير على مهل خوفاً من الانزلاق على الثلج الذي تحوّل إلى جليد في بعض المناطق... ثم ما لبثت أن فوجئت بتحول أسرة لقمان إلى شقة أخرى في منطقة الجبيهة لكي يكونوا قريبين من مستشفى السرطان حيث يعالج ابنهم، وحيث يتطلب الأمر منهم زيارات يومية ومتابعة للموضوع.

فرشقتني حفنة من الكآبة، لكنني ما أن انغمرت في الكتابة والعمل حتى استعدت انشراحي، وخاصةً بعد بدء الدوام في جامعة الزرقاء، وترتيب أمر إيصالي وعودتي من الجامعة مع الأخ الدكتور زيد أبو الحاج رئيس قسم التاريخ في كلية الآداب، الذي كان يقطن في منطقة قريبة من المدينة الرياضية.

وما أن دخلت جامعة الزرقاء، حتى يمّمتُ وجهي صوب مكتب رئيس جامعتها الأستاذ الدكتور إسحاق فرحان الذي تربطني به أكثر من رابطة، فرحب الرجل بي وأعلمني بأنهم سعداء بقدومي، وأنهم قد رتبوا لي مكتباً خاصاً... وغادرته للسلام على عميد الكلّية التي سأعمل فيها: الأخ الدكتور عبد الله الخباص، الذي سبق وأن تعرفت عليه عبر زياراتي السابقة لعمّان، وهو شخصية رائعة بانفتاحه، وروحه المرحة، ونكاته المتواصلة، وسخائه العجيب، جنباً إلى جنب مع جديته في العمل، وقدراته العلمية في مجال تخصصه...

ثم ما لبث أن استقر بي المطاف في مكتبي الأنيق، حيث وجدت لافتة معلقة عند بابه تحمل اسمي، ألحق بها جدولي الأسبوعي، وبدأ العمل بتدريس جملة من المواد في التاريخ والحضارة الإسلامية لمختلف المراحل في قسم التاريخ الذي سرعان ما تعرّفت على أساتذته وتدريسييه من تلك النماذج التي يشعر المرء إزاءها بالتوافق والانسجام، وكأنه يعرفها منذ زمن بعيد... هذا إلى وجود عدد من الأساتذة والتدريسيين العراقيين وعلى رأسهم الأستاذ الدكتور عدنان الدليمي، الذي تولى عمادة كلية الآداب قبل الخباص لعدة سنوات، والأستاذ الدكتور خليل الحديثي، أستاذ القانون الدولي رحمه الله، وسرعان ما أحسست بأني أعيش بين أهلي وأقربائي.

وعلى مدى بضعة أيام قدرت على استكمال الأمور الإجرائية الروتينية لقبولي في الجامعة أستاذاً زائراً للفصل الدراسي الثاني (شباط ـ حزيران ٢٠٠٣م) مع إمكان تجديد العقد حيثما شئت.

كانت جامعة الزرقاء الأهلية تقوم في مكان فسيح، خارج مدينة الزرقاء، بأبنيتها وساحاتها وصالاتها الكبرى، ومطاعمها، وحدائقها الغناء، وممراتها

المتشعبة... وكانت أبنيتها تستقبل ضوء الشمس فيما يجعل المرء يحس إحساساً غامراً بالارتياح.

وسرعان ما انهالت علي مطالب إلقاء المحاضرات العامة بحضور رئيس الجامعة وأعضاء مجلسها، والعديد من الأساتذة، والجم الغفير من الطلبة والطالبات... ولقد لقيت تلك المحاضرات التي كنت ألقيها بمفردي حيناً وبمعية أساتذة آخرين حيناً آخر، قبولاً حسناً فطولبت بالمزيد...

هذا إلى المحاضرات التي كان يطالبني بإلقائها مكتب الأردن للمعهد العالمي للفكر الإسلامي، وجمعية البحوث والدراسات الإسلامية التي يترأسها الأستاذ الدكتور إسحاق فرحان، والتي كانت تعقبها مناقشات خصبة من قبل نخبة من المعنيين بالهمّ الإسلامي.

دعيت في اليوم الأول لدوامي لتناول طعام الغداء بمعية رئيس الجامعة وأعضاء مجلسها، والعمداء والأساتذة، في مطعم الجامعة، حيث تم الترحيب بي من قبل السيد الرئيس أمام المدعوين قبل البدء بتناول الطعام.

وكنت أرجع يومياً، بعد انتهاء محاضراتي بحافلات الجامعة، أو بمعية الأستاذ الدكتور عودة أبو عودة رئيس قسم اللغة العربية في كلية الآداب، الذي يدهشك بأخلاقه العالية، وعلميته المتميزة، وعطائه البحثي الموصول... ولا زلت أذكر أنني كنت أحياناً أستسلم تحت دفء الشمس في سيارته لإغفاءة سريعة... (تعسيلة كما يقول المصريون)... قبل مغادرتي إلى الشقة...

فكان الرجل يطفئ ماكنة السيارة، ويقف بها على جانب من الشارع، بانتظار أن أستيقظ من إغفاءتي تلك، في محاولة كريمة منه لأخذ أكبر قسط من الراحة... ثم ما يلبث أن يودعني ويمضي... فكنت أقفز إلى مطعم أنيق بجوار العمارة التي تقبع فيها شقتي، لشراء غدائي، وصعود الشقة لتناوله، وأخذ قيلولة مشبعة، ثم مغادرة الشقة صعوداً إلى مسجد كبير يقع فيما وراء المدينة الرياضية لأداء صلاة العصر، وممارسة جولة التخطي اليومي، ومن ثم العودة

إلى الشقة، أو الذهاب إلى السيف واي، حيث أقضي هناك الساعات الطوال قبل أن يعتصرني الجوع فأتجه إلى أحد المطاعم القريبة لتناول عشائي...

لكني كنت في معظم الأحيان أرتبط بمواعيد على العشاء وقضاء الأمسيات، مع لقمان وأخيه خالد رحمه الله الذي لحق بالأسرة، والأخ الدكتور محمد سليمان، المختص بالقانون والمتعاقد مع جامعة البتراء الأهلية... حيث كان هؤلاء الثلاثة بمثابة هدية السماء لي، لأنهم أخرجوني من دائرة الوحدة والغربة والإحساس القاسي بالحنين إلى الأهل والبلد، وكان كل واحد منا يتولى دعوة الآخرين، فيشتري المطالب الكاملة للعشاء ثم يتم التوجه إلى شقة الأخ الدكتور محمد سليمان الواقعة على الطريق إلى المطار لتناولها هناك والجلوس لتبادل الأحاديث والنكات حتى ساعة متأخرة من الليل.

وإلى جانب ذلك انهالت عليّ جملة من الدعوات المتواصلة، وكان أبرزها تلك اللقاءات الأسبوعية في دور الأساتذة والإداريين العاملين في جامعة الزرقاء، حيث خصص يوم الثلاثاء من كل أسبوع للقاء في إحدى الدور وتناول وجبة دسمة من العشاء، ثم الحوار في الشؤون العامة، حيث يدلي كل مدعو بدلوه متحدثاً عن رؤيته لما يجري في بلده، وأذكر من تلك الدعوات الدورية، دعوة كل من الأستاذ الدكتور إسحاق فرحان رئيس الجامعة، والأستاذ الدكتور عبد اللطيف عربيات، والأستاذ فاروق بدران، والدكتور طارق التل، وآخرين ممن أعتذر عن ذكر أسمائهم بسبب آفة النسيان!!

وثمة دعوات عديدة أخرى من الدكتور عبد الله الخباص عميد كلية الآداب، والدكتور عودة أبو عودة رئيس قسم اللغة العربية، والدكتور فتحي ملكاوي المستشار الأكاديمي للمعهد العالمي للفكر الإسلامي، والدكتور محمود الرشدان، والأستاذ الدكتور محمد زكي محمد خضر، والدكتور عبد المنعم الليلة... والأستاذ عبد الله الطنطاوي، والأستاذ محمد الحسناوي رحمه الله، والأستاذ حيدر قفة... الخ...

هنالك أيضاً الرحلات الربيعية إلى متنزهات عمان وبراريها، وإلى عجلون

وجرش، وإلى البحر الميت والعقبة... وإلى المرتفعات المطلة على بحيرة طبرية حيث المثلث الأردني السوري الإسرائيلي... وحيث تناول المشويات، والقوزي المدفون والمحمر بالرمل الحار، وغيرها من الأكلات... وكانت هذه الرحلات تتم حيناً بالتنسيق مع أساتذة وتدريسيي كلية الآداب، وحيناً آخر مع العاملين في المعهد العالمي للفكر الإسلامي، وعلى رأسهم الشاب الطموح (ماجد أبو غزالة)، وحيناً ثالثاً بيننا نحن الأصدقاء أو من يدعونا من المعارف والمحبين.

ولا زلت أذكر تلك الرحلة الربيعية بمعية آل عثمان والدكتور محمد سليمان، إلى العقبة حيث وصلناها ليلاً، وبعد تناول عشائنا اخترنا أن نجلس في إحدى الكازينوات المطلة على خليج العقبة، حيث كان رذاذ الماء البارد يلفح وجوهنا، وحيث كان مرتادو تلك الكازينوات يتحدثون ويأكلون (ويقزقزون اللب) حتى مطلع الفجر... وفي اليوم التالي رحنا نبحث عن وجبة سمك مقلي لغدائنا وكانت بحق وجبة رائعة، إلا أن المنغص الذي يزعج السواح في العقبة كان كثرة الذباب بشكل ملحوظ... ولولاه لكانت تلك الرحلة من أعذب الرحلات عبر وجودي في عمّان...

إلا أن ذلك كله لم يكن ليغطي على همومي المتزايدة بخصوص احتمالات الحرب الأمريكية على العراق، والتي كان قد خطط لها من ثمانينيات القرن الماضي... وكان هدفها الرئيسي، ليس القضاء على صدام حسين، أو أسلحته الكيماوية والجرثومية المحرمة دولياً، أو صواريخه ذات المديات البعيدة، التي تبيّن، بشهادات الأمريكيين أنفسهم زيفها وكذبها... وإنما السيطرة على الخزين النفطي الهائل للعراق، وهو أكبر خزين احتياطي في العالم، وبمقدوره الاستمرار على التدفق لثلاثمائة عام قادم، بينما الاحتياطي السعودي لا يتجاوز المائة عام... أما احتياطيات الدول الأخرى في العالم فتتراوح ما بين العشر سنوات إلى الخمسين عاماً... هذا فضلاً عن كسر عظم العراق وشعبه وتراثه الحضاري وقواته المسلحة التي طالما سببت قلقاً لإسرائيل...

إنها باعتراف العالم كله، واحدة من أبشع الأكاذيب في تاريخ البشرية على الإطلاق، تلك التي صنعها وروّج لها الحزب الجمهوري اليميني الحاكم، وزعيمه المهووس بوش الابن، بخلفياتهما الإنجيلية الجديدة، حيث تلتحم مصالح أمريكا البروتستانتية باستمرار اغتصاب إسرائيل لفلسطين، وحيث صيغت نبوءتها الكاذبة بشكل يجعل معه نزول السيد المسيح (عليه السلام) إلى الأرض، دون وجود دولة يهودية في فلسطين تدعى إسرائيل مستحيلاً، ومن أجل ذلك ضربت بعرض الحائط مسألة موافقة الأمم المتحدة ومجلس الأمن، أو عدم موافقتهما، وتم تجاوزها، حيث كان سقوط الاتحاد السوفياتي قد أتاح الفرصة للولايات المتحدة بأن تكون سيد العالم دونما منازع.

ها هي ذي ورقة التوت تسقط عن الجسد الأمريكي المتقرّح فيتعرى أمام العالم... الويسترن الأمريكي يظهر مرةً أخرى ليعتقل الكلمة في الصدور وليجعل الرصاص وحده هو الذي يتكلم... والحبال التي كان رعاة البقر يلوّحون بها للقطعان، هي نفسها التي يريدون بها اللحظة أن يسوقوا الأمم والشعوب إلى ما يريدونه هم لا ما تريده تلك الأمم والشعوب.

تمثال الحرية المنتصب عند حافات نيويورك يسقط هو الآخر: ويدس أنفه ووجهه في بحيرات النفط الأسود، لكي يرتشف منها حتى الثمالة فتتفحم ملامحه وتصير بلون القار...

القرصان الأمريكي الأحمر يجوب البحار متسلطاً في بوارجه العملاقة وأظافره الملوثة باليورانيوم، وأنيابه الذرية التي تنذر بالويل...

ها هم أحفاد المكتشفين الأوائل... الغزاة الأوائل... الذين ذبحوا مائة وعشرين مليوناً من الهنود الحمر سكان أمريكا الأصلاء، يمضون إلى أهدافهم بالمنطق نفسه: أنت تقتل الآخر فأنت موجود!!

من أجل ذلك لم يصيخوا سمعهم مطلقاً لكل الأصوات التي أحاطت بهم من كل مكان، متوسلة إليهم ألا يندفعوا وراء إغراء القوة فيمارسوا الذبح المنفلت عن كل الضوابط الدينية والخلقية والإنسانية... فلم يلتفتوا إليها...

الدول والحكومات والمؤسسات والجماعات والشعوب، بل حتى الشعب الأمريكي نفسه، رمت بثقلها جميعاً صوب (الكلمة) التي كانت في البدء، والتي يظل بمقدورها أن تصنع المصائر والمقدرات... ولكن القرصان الأحمر أبى إلا اعتماد السيف حكماً بينه وبين المستضعفين في الأرض...

الأمريكي الذي قدر حتى بداية الستينيات من القرن الماضي على الاحتفاظ بإعجاب من يسمونهم بأحرار العالم، ما لبث أن كشف عن وجهه القبيح بعد سنتين أو ثلاث... إذ ما لبثت حرب فيتنام أن شهدت واحدة من أبشع المذابح البشرية في التاريخ.

وما بين حرب فيتنام والهجوم الضاري على العراق، ازدادت الدمامل والتقرحات في الوجه الأمريكي، وازداد دمامة وقبحاً، ولم يعد أحد من الشرفاء يحبه أو يميل إليه، أو يقول: ها هو ذا حامي الحرية في قارات الدنيا الست!!

حتى الأمريكيون أنفسهم كرهوا أنفسهم عندما رأوا كيف أن أولئك الذين منحوهم أصواتهم، خانوا الأمانة، ولم تعد تهمهم المصالح العليا لأمريكا، بقدر توظيف فرصتهم في الحكم لحماية مصالحهم المادية، والانحناء لأقدام اللوبي اليهودي الذي يعرف كيف يمتص الدم الأمريكي، ويمارس مع الحكام الكبار لعبة: أعطني لكي أعطيك...

يقيناً سيجيء اليوم الذي تتكشف فيه أمام المواطن الأمريكي أبعاد اللعبة، وسينتفض يومها محاولاً أن يمنع الانحدار نحو الهاوية، وأن يوقف مافيات الرئاسة القابعة في البيت الأبيض من أن تجر أمريكا ومصالحها العليا إلى الدمار من أجل حفنة من الدولارات...

يقيناً سيجيء اليوم الذي ستتكشف فيه الخدعة اليهودية في اختراق المسيحية البروتستانتية، بالخرافات والأساطير التي قامت عليها الحركة الصهيونية وسياسات (إسرائيل)... وها هي ذي توظف سياسات أمريكا نفسها في السياق ذاته... لخدمة المصير اليهودي في العالم تحت شعار: هرمجدون... المعركة الفاصلة واليوم الموعود...

ولكن بعد كم سينكشف هذا كله، وينهض الأمريكي الذي خدع طويلاً وابتز كثيراً، لكي يقف في مواجهة السرطان الذي يحاصر دينه ودنياه؟ وكم سيذبح الطاغوت الأمريكي من الأمم والشعوب، ويبتز من ثرواتها ومقدراتها، قبل أن يوقفه المواطن الأمريكي نفسه عن المضي باللعبة الخطرة إلى نهايتها المفجعة؟

وفي ليلة التاسع عشر من آذار من ذلك العام، جاءت الضربة الموجعة للعراق، الذي أُمطر على مدى عشرين يوماً بعشرات الأطنان من الصواريخ، واليورانيوم المخضب، وكل ما يخطر وما لا يخطر على البال من الأسلحة الفتاكة لدولة كبرى تنفرد بقيادة العالم، بحيث أنهم أتوا عبر تلك الأيام على بنيته التحتية كاملة، وسحقوا قواته العسكرية، التي سلّمت قيادتها للأسف الشديد لأبناء وأقرباء صدام حسين الذين لا خبرة لهم في الحرب، الأمر الذي قاد إلى اتخاذ جملة من الأخطاء التعبوية، والتكتيكية، والاستراتيجية، وغيّر مسار المقاومة العراقية التي كان يمكن أن تذيق الأمريكان وحلفاءهم الأمرَّين عبر الأسابيع والأشهر الطوال لو أحسنت قيادتها... ولكن!!

مهما يكن من أمر؛ فقد غادرتُ إحدى محاضراتي في جامعة الزرقاء صبيحة العشرين من آذار للحاق بأحد المكاتب التي تعرض شاشتها التلفازية ما يشهده العراق من ضربات أسطورية موجعة... وما أن ألقيت نظرة سريعة حتى لم أعد أتمالك أعصابي، فتركت المكتب عائداً إلى غرفتي وسط إحساس قاهر بأن العراق مهزوم لا محالة وسط هذا الفارق الهائل في معايير القوى المتصارعة... ورحت ـ يومياً ـ أجتاز الشوارع الخلفية للعمارة التي أقطن فيها في محاولة مني لامتصاص الهمّ والقلق اللذين كانا يعتصراني... وكنت كلما سمعت نبأ جديداً عن تقدم القوات الأمريكية والبريطانية في ميادين القتال، أزداد تعاسة وألماً...

ومن جهة أخرى فقد كان قلقي يزداد على مصير الموصل، وأهلي، والذي قيل بأن جحافل الأمريكيين ستتقدم لاكتساحها من الشمال... لكن سرعان

ما تبين أن الجيش العراقي وظهيره الجيش الشعبي استسلما للأمر الواقع، وتركا الميدان دون أية مقاومة تذكر... اللهم إلا في مطار بغداد الدولي حيث لقيت القوة الأمريكية المهاجمة دفاعاً بطولياً ألحق بها هزيمة نكراء وأباد معظم قواتها... ومن ثم، وعلى الطريقة الميكيافيلية الأمريكية، عادت قواتهم لكي تستخدم القنابل الذرية التكتيكية، فتدمر القوة المدافعة وتكتسح المطار.

وفي التاسع من نيسان فوجئنا ونحن نتابع أنباء القتال على شاشات التلفاز، بسقوط بغداد، ووصول الدبابات الأمريكية إلى ساحاتها الرئيسية، حيث تجمع الناس في ساحات الفردوس، من خصوم البعث يرقصون ويهتفون، ويعينون الجنود الأمريكان على إسقاط تمثال صدام بعد ربط عنقه بالحبال... وكان مما آلمني وآلم كل إنسان شريف في بلدي العراق... أن يندفع جندي أمريكي لكي يرفع العلم الأمريكي، ويطوق عنق تمثال صدام بالحبال، ويعين رفاقه على إسقاطه وتحطيمه...

وكم كنا نتمنى أن يتم ذلك كله على أيدي الثوار العراقيين أنفسهم، عبر واحدة من محاولاتهم الانقلابية العديدة، التي طالما كشفتها المخابرات الأمريكية وقدمت قوائم القائمين عليها إلى صدام حسين، لكي يسوقهم إلى المذبح من أجل أن تخلو الساحة للأمريكيين أنفسهم للأسف الشديد.

وإلى جانب همومي مع الحرب، فتحت على نفسي، أو فتحت عليّ بعبارة أخرى، جبهة قلق ومتاعب استغرقت معظم الفصل الدراسي: إنها الأسنان التي اضطرتني لمراجعة شبه يومية لأكثر من ثمانية عيادات ومراكز طبية متخصصة في زراعة الأسنان، واستئصالها، وعلاجها، فيما أحال حياتي في عمان إلى سعار قاسٍ من الآلام والمتابعات المتواصلة، والمصاريف الباهظة... وتحوّل وجبات الطعام إلى شيء لا يطاق... لقد كانت ـ بحق ـ مرحلة من أبشع المراحل الصحية في حياتي، ولكنني ـ أخيراً ـ وبرحمة من الله ﷻ ـ تجاوزتها، واستعدت سلامة أسناني التي بدأت متاعبي معها منذ مطلع سبعينيات القرن الماضي.

هذا إلى القلق الذي سببته لي دعوة الأخ ماهر عبد الله، محاور برنامج الشريعة والحياة، في فضائية الجزيرة، بأن أتجه إلى الدوحة لتسجيل حلقة أخرى بعد نجاح الحلقتين السابقتين قبل سنتين... لكنني ما لبثت أن اعتذرت عن دعوته بحجة ارتباطي بالعمل في جامعة الزرقاء.

في نيسان، أعلنت جامعة الزرقاء عن بدء مسابقاتها السنوية بخصوص أفضل كتاب في العلوم الإنسانية لذلك العام (٢٠٠٣م)، فلما اطلعت على شروط المسابقة، ولم أجد فيها أية لمسة مما يخدش قناعاتي التي دفعتني وستدفعني إلى رفض المشاركة في الجوائز الكبرى... قررت أن أشارك، وقدمت كتابي (مدخل إلى التاريخ والحضارة الإسلامية)، الذي سبق وأن طبع في ماليزيا من قبل الجامعة الإسلامية العالمية هناك ككتاب مقرر على كلية علوم الوحي والمعارف الإنسانية... وحيث ستعلن نتائج المسابقة في الخريف القادم.

كان الاتصال الهاتفي بالأهل يومذاك من الصعوبة بمكان... إذ لا بدّ من توفر النقال المسمى (الثريا) والمرتبط بالأقمار الصناعية للطرفين المتحدثين، فكنا نجد العنت الشديد لحين إتمام المكالمة التي كانت تنزل على قلبي برداً وسلاماً، حيث تطمئنني على أوضاع الأهل والمدينة وسط ظروف تلك الحرب القاسية التي أرهقت أعصابنا وجرّعتنا العلقم.

وقبيل نهاية الفصل الدراسي الثاني من ذلك العام، حزمت أمري والأستاذ عدنان الدليمي، على إنهاء تعاقدنا مع جامعة الزرقاء، والعودة إلى بلدنا، رغم إلحاح الجامعة على التمديد... لكن قناعتنا كانت أن نكون في ديارنا قبالة المحنة التي ألمّت بالجميع... ولقد أقامت لنا رئاسة الجامعة حفل توديع حضره رئيس الجامعة وأعضاء مجلسها ورؤساء الأقسام، وتحدث فيه الأستاذ الدكتور إسحاق فرحان رئيس الجامعة مقيّماً جهود الدكتور الدليمي وجهودي في خدمة الحركة العلمية للجامعة، وتقديم العطاء المعرفي الخصب، وأعرب عن أسفه لاختيارنا إنهاء العقود ودعا الله ﷻ أن تتاح الفرصة ثانية للعودة إلى العمل في الجامعة...

وأعقبه الدكتور عبد الله الخباص، عميد كلية الآداب، مؤكداً المعاني نفسها، ثم سُلمت إلينا جملة من الهدايا التكريمية، فرددنا على كلماتهم الوفية بالمزيد من الشكر والامتنان على الحفاوة التي لقيناها في هذه الجامعة المباركة من لدن رئيسها وعمدائها وتدريسييها وإدارييها وطلبتها، فكان بحق حفل يعكس المحبة التي كانت ولا تزال شعار الأستاذ الدكتور إسحاق فرحان وكل العاملين معه... فبارك الله فيهم جميعاً...

عدت إلى بلدي الموصل... فإذا بي أفاجأ بأنها غير تلك التي عشت فيها ما يزيد على الستين عاماً... الدبابات والمصفحات الأمريكية تجوب شوارعها... والجنود الأمريكان يسرحون ويمرحون في ساحاتها... والموساد الإسرائيلي الذي تغطيه الحماية الأمريكية، يجتاز الشوارع بسياراته المظللة السوداء، ويرسم الخطط اللئيمة القذرة في تصفية الرؤوس المؤثرة في البلد من العلماء والأساتذة الجامعيين والخبراء..

لقد أصبحت ظهور الشعب العراقي مكشوفة لهؤلاء الغزاة، وبخاصة بعد القرار الخبيث لحاكم العراق العسكري، اللص الكبير، برايمر، بحلٍّ الجيش العراقي والمؤسسات الأمنية كافة، وهي واحدة من أقذر الخطوات التي شهدها التاريخ البشري وأكثرها شناعة... وكأنه بالتوجيه الصهيوني الذي ورثه عن الحاكم اليهودي السابق كارنر، قد أراد ذبح العراقيين من الوريد إلى الوريد... بعد ما كانت دباباته قد أعانت الغوغاء، والعصابات التي جلبوها معهم من رومانيا، قد ذبحت التراث العراقي من الوريد إلى الوريد، عبر الهجمات اليومية على المتاحف، ودور الوثائق، والمخطوطات، والمكتبات العامة وصالات الفنون التشكيلية، حيث كانت مدافع الدبابات الأمريكية تكسر الأبواب وتسمح للمهاجمين الذين يدخلون، ليس للسرقة، ولكن للتخريب والحرق والتدمير...

إنها واحدة من أبشع عمليات التصفية الثقافية في التاريخ، بحيث أن مجزرة هولاكو تتضاءل أمامها بكل تأكيد... ولقد أتيح للشباب المؤمن في الموصل أن يتصدى للمحاولة نفسها، متخذاً من الجوامع والمساجد نقاط

انطلاق لملاحقة المجرمين، فأنقذوا ـ بذلك ـ تراث الموصل وموجوداتها المالية والثقافية من الدمار...

إلا أن العراقيين لم ينتظروا طويلاً... إذ سرعان ما تشكلت خلايا المقاومة منذ اليوم الأول لدخول الأمريكان والبريطانيين العراق، وراحت تلاحقهم في كل مكان، وتلحق بهم من الخسائر البشرية والمادية الشيء الكثير، الذي أخذ يتصاعد بمرور الوقت، وتزداد بقع المقاومة فاعلية ومساحة حتى أرغمتهم أخيراً على الاستسلام والانسحاب مرغمين من العراق، بعد ثمانية سنوات من احتلاله...

بعد فترة قصيرة من رجوعي إلى الموصل فاتحني بعض الأخوة في هيئة علماء العراق، وعلى رأسهم الأخوان الشيخ الدكتور بشار الفيضي والشيخ الدكتور فيضي الفيضي بالانضواء إلى عضوية الهيئة، وكانت علاقتي برئيسها الأستاذ الدكتور حارث الضاري رَحِمَهُ اللهُ قد توثقت عبر أيام عملنا المشترك لمدة سنتين في كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبيّ، فلم أتردد لحظة في إعلان موافقتي...

حيث كنا نجتمع صباح السبت من كل أسبوع في مكتب خاص في مقر رابطة علماء الموصل لتبادل الرأي في جملة من الأمور... واستمر الحال لمدة سنتين مع ثلة خيرة من علماء الموصل ودعاتها ومثقفيها وأساتذتها الجامعيين، ولم تتعد اجتماعاتنا تلك دائرة المناقشة في الأمور السياسية التي يتعرض لها العراق، ولم تحاول أن تنزل إلى الشارع وتلمّ حولها الجماهير، أو تقيم المؤسسات الدعوية الفاعلة، وبعد سنتين من هذه المراوحة في مكاننا، اخترت ـ كعادتي في التحرّر من أي ارتباط تنظيمي ـ أن أقدّم استقالتي من عضوية الهيئة، بعد تقديم مذكرة تفصيلية إلى رئاستها أبيّن فيها جملة من قناعاتي ومرئياتي.

جاءني بعدها عدد من الأخوة من زعماء الحزب الإسلامي في الموصل، يعرضون عليّ الانتماء إلى الحزب وأن أكون في عضوية هيئته المحلية، ولكني أصريت على الاعتذار.

بعد عودتي إلى الموصل بأسابيع قليلة عرض عليّ الأخ والصديق الأستاذ الدكتور دريد عبد القادر نوري، معاون عميد كلية الآداب للشؤون العلمية أن أرجع للعمل في الكلية... كنت والحق يقال متردداً في الأمر، لكنه ألحّ عليّ وأغراني بالموافقة بقوله بأنه سيتولى شخصياً متابعة موضوع الإعارة وأن عليّ فقط أن أتقدم في الطلب... ثم ما لبث بعد فترة وجيزة أن جاءني بالموافقة كاملة...

ليس هذا فحسب بل إنه هيأ لي مكتباً محترماً في كلية الآداب حيث بدأت عملي فيها بإلقاء المحاضرات على طلبة المراحل الأولية، والدراسات العليا، فضلاً عن الإشراف على الرسائل والأطروحات، والمشاركات الفاعلة في مناقشتها... ولقد مارست والدكتور دريد دوراً فاعلاً في إعادة تصميم المناهج الدراسية لقسم التاريخ، عبر جملة من الاجتماعات أكدنا فيها على الثوابت الإسلامية، وأزحنا العديد من المفردات التي ترتطم بها.

ثم ما لبث الأمر الجامعي أن صدر بتعييني والأخ الصديق الأستاذ الدكتور طارق العباوي عضوين في مجلس الجامعة، ممثلين عن التدريسيين... فكنا نجتمع وسائر الأعضاء بمعية رئيس الجامعة الأستاذ الدكتور سعد الله توفيق، في يوم من كل أسبوع لمناقشة القضايا والمستجدات الجامعية وتقرير سياساتها العامة... وكان مما يزعجني وعدد من أعضاء المجلس دخول بعض الضباط الأمريكان على الاجتماع، حيث كانوا مكلفين بدعم الجامعة، وإعادة بناء مرافقها وكلياتها... وقد يكون ذلك مبرراً عبر تلك الظروف الصعبة والمعقدة التي يجتازها العراق.

لكن ما هو ليس بمبرر أن ينبري أحدهم في القول بضرورة منح الحرية الكاملة للطالبات وعدم إلزامهن بلبس الحجاب. فما كان مني إلا أن أقول له بالحرف: انه ليس من حقكم مطلقاً أن تدسّوا أنوفكم في الأمور الأخلاقية والسلوكية لمدينة ملتزمة كالموصل، فنحن أحرار فيما نقرره في مسائل حساسة

ذات بعد ديني كهذه... فما كان منه إلا أن يلتزم الصمت ولم يرد عليّ بكلمة واحدة...

وباعتباري ممثلاً عن التدريسيين في مجلس الجامعة، لم آل جهداً، بين الحين والحين، في دعوة رئاسة الجامعة للتحرك مع وزارة التعليم العالي، من أجل تعديل رواتبهم بما يتناسب مع الدور الذي يؤدونه، وبما يقرّب مستويات الرواتب من تلك التي تعطى في الدول العربية المجاورة التي لا تملك ما يملكه العراق من ثروة نفطية هائلة، وكنت أضرب المثل بما يعطى للأستاذ الجامعي، في الأردن وسوريا على سبيل المثال، وهو أضعاف ما يعطى للأستاذ العراقي.

وثمة أمر جامعي آخر أصدره الدكتور سعد الله توفيق رئيس الجامعة، بتعييني رئيساً للجنة المشرفة على تأسيس كلية العلوم الإسلامية، حيث اقتضى ذلك مني جهداً متواصلاً مع سائر الأعضاء في تصميم مناهج الكلية على مدى سنواتها الأربع... وفي مقابلة التدريسيين المتقدمين للعمل فيها، والموافقة على بعضهم ورفض بعضهم الآخر... وفي تحديد المواصفات المعمارية للكلية المزمع إنشاؤها... ومن ثم في مقابلة الطلبة والطالبات المتقدمين للقبول في الكلية، وفق معايير تجاوزنا بها الصيغ التقليدية، إلى الاعتماد على المعدلات العالية، حتى يكون الخريجون كفاء لحمل مسؤوليتهم في هذا الفرع المعرفي المتميز.

وما لبثت الكلّية، بعد أن أجرينا امتحاناً شاملاً للطلبة المتقدمين، أن افتتحت، حيث عرض عليّ رئيس الجامعة أن أتولى عمادتها فاعتذرت، فأصرّ على طلبه، لكنني أقنعته بعد لأي باختيار غيري... فانا ممن يرفض أشد الرفض قبول المناصب الإدارية والانحناء لإغراءاتها الأدبية والمالية... وأرفض أن يسحبني أي شيء عن مهمتي الأساسية في البحث والتدريس.

وإلى جانب ذلك كُلفت أن أكون عضواً في الهيئة التأسيسية لكلّية البنات، حيث تم الاجتماع مع رئيسها، عميد كلّية التربية، لمناقشة الأقسام الأساسية

للكلّية، والصيغ الإجرائية للقبول فيها... وما لبثت هذه الكلّية الناشئة أن افتتحت بعد أشهر معدودات.

أما موضوع الثقافة القومية الذي كان يعطى لطلاب الكلّيات كافة زمن البعث، فقد كُلفت برئاسة اللجنة التي ستعيد النظر فيه، فاستبدل بـ (الثقافة الإسلامية) التي تعطي للطالب الجامعي التأسيسات الحضارية للفكر الإسلامي في سائر شؤون الحياة الفردية والاجتماعية، وتقدم الثوابت المتفق عليها بخصوص هذا الفكر الوسطي الشامل الذي تتضاءل إزاءه كل معطيات الوضعيين وظنونهم وأهوائهم...

وعرضت الأمر على مجلس الجامعة بصيغة ورقة مكتوبة، فقبله عدد من العمداء، وتردد عدد آخر، محاولين، حماية لوجودهم في مناصبهم، التأكيد على موضوع (حقوق الإنسان) في محاولة منهم لعدم إزعاج السلطة الأمريكية الحاكمة التي ذبحت حقوق الإنسان وادعت زيفاً وكذباً أنها جاءت لكي تحميه، ولكي نضع الأقسام العلمية أمام الأمر الواقع، أسرعت بالاتفاق مع الأخ الأستاذ الدكتور موفق الجوادي بتأليف كتاب يحمل عنوان (مدخل إلى الثقافة الإسلامية) تضمّن المفردات التالية: في معنى الثقافة، الإسلام مشروعاً حضارياً، العقيدة الإسلامية، الشريعة الإسلامية، العبادات، النظام السياسي، النظام الاجتماعي، النظام الاقتصادي، مقومات تفعيل الثقافة الإسلامية، نحو وحدة ثقافية لعالم الإسلام.

وسرعان ما صدر الكتاب عن جامعة الموصل، وتم الاتفاق بيني وبين رئيس الجامعة على ترك الخيار مفتوحاً للقسم الذي يرغب في إعطائه للطلاب... وقد اختارته العديد من الأقسام والحمد لله... وإن كانت أمنيتي أن يعمم على الأقسام كافة، كما هو الحال بالنسبة للعديد من الجامعات العربية والإسلامية، ولكن ماذا تفعل إزاء العمداء ورؤساء الأقسام إياهم، ممن لا يريدون المساس بما ترتئيه سلطة الاحتلال التي سعت منذ اللحظات الأولى، إلى تغيير

المناهج الدراسية، وليّ عنقها بما يتلاءم والرؤية الأمريكية الذرائعية للحياة؟ رؤية المصنع والكباريه والسوبر ماركت، والتي ترفض الاعتراف بعالم الغيب، وباليوم الآخر... لا بل بالله ذاته ﷻ... وتسعى للهيمنة الفكرية على العالم بادّعاء الحرية، والديمقراطية، وحقوق الإنسان، ومطاردة الإرهاب، رغم أنها باعتراف العشرات من الباحثين الأمريكيين أنفسهم، سيدة الإرهاب في هذا العالم؟! ويكفي أن نتذكر ما فعلته بهيروشيما وناغازاكي، وبأفغانستان والعراق...

وفي السياق ذاته كُلفت وأستاذاً آخر في الذهاب إلى كلية العلوم السياسية لاختيار كتاب منهجي ضمن مقررات الكلية عن حقوق الإنسان، فأقنعناهم باعتماد كتاب الأستاذ الدكتور محمد فتحي عثمان عن حقوق الإنسان، ذلك أنه يقدم في الرؤية العلمية الدقيقة للموضوع، ويكشف عن عوار الموقف الغربي من حقوق الإنسان قبالة الموقف الإسلامي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه!!

وكنت، منذ عملي في عمّان، في جامعة الزرقاء الأهلية، قد تلقيت من الأخ الدكتور أنس صديق الشيخ علي، المستشار الأكاديمي في لندن للمعهد العالمي للفكر الإسلامي، طلباً في أن أكون مسؤولاً عن القسم العربي في المشروع الذي اقترحه المعهد باسم (مشروع الدعم الأكاديمي للجامعات العراقية) وذلك بتوجيه الدعوات إلى الأشخاص والجهات العلمية، بتقديم ما يقدرون عليه من كتب ومؤلفات للجامعات العراقية، بعدما تعرضت له مكتباته كافة من نهب وحرق وتخريب، فقمت بمساعدة الأخ ماجد أبو غزالة، الموظف في مكتب الأردن للمعهد العالمي، بتوجيه شبكة طويلة من الرسائل إلى عدد كبير من الهيئات العلمية والأشخاص الأكاديميين والعلماء، نطلب منهم فيها تزويدنا بما يقدرون عليه من الكتب والدوريات.

فلما عدت إلى الموصل، ومضت عدة أسابيع على عودتي، إذا بالأخ ماجد يبشرني بأنه سيرسل شاحنة كبيرة معبأة بالكتب المهداة إلى جامعة الموصل، بما فيها جانب كبير من مكتبة الأستاذ الدكتور عبد العزيز الدوري رحمه الله.

فاستقبلنا الشاحنة ووضعنا محتوياتها في مخازن والد الأخ لقمان عثمان لبيع الأخشاب والأطقم الجاهزة، ريثما جاءت سيارات الجامعة لنقل تلك الكمية إلى مكتبتها المركزية... والحمد لله...

في ذلك العام (٢٠٠٣ ـ ٢٠٠٤م) انفتحت عليّ جملة من طلبات إلقاء المحاضرات الأكاديمية لفصل دراسي أو فصلين، في كلية التربية، وكلية العلوم الإسلامية، وكلية البنات وكلية الإمام الأعظم... فكنت ألبي هذه الطلبات رغبة مني في إيصال الفكر الإسلامي الحضاري إلى عقول الطلبة الجامعيين الذين تلقوا المحاضرات بقبول حسن... هذا إلى جملة أخرى من الدعوات لإلقاء جملة من المحاضرات العامة في العديد من كليات الجامعة، بدءاً من كلية الطب فالصيدلة فالهندسة فعلوم الحاسبات فالعلوم الإسلامية فالمعهد الفني فكلية العلوم والتربية، لتحقيق الهدف نفسه حيث كانت القاعات تغص بالطلبة والطالبات فضلاً عن الأساتذة الجامعيين...

وإلى جانب ذلك تلقيت طلبات الجهات الإسلامية العاملة في الموصل، بالذهاب مع وفدها إلى بغداد، للمشاركة في مؤتمر يعقده السنة والشيعة، لغرض تحديد أهداف الطرفين، وتوحيد عملهما المشترك ضد تحديات الاحتلال الأمريكي، ولصبّ الماء البارد على أية نزعة طائفية قد تخرج بالجماعتين عن المطلوب.

ذهبنا إلى بغداد، ووضعت وأحد الأخوة لدى وصولنا ورقة عمل لغرض طرحها في اللقاء تعبيراً عن وجهات نظرنا، وأكدنا فيها على ضرورة التزام الرفض التام للوجود الأمريكي في العراق، وجملة من الثوابت الأخرى، وكلف الشيخ إبراهيم النعمة بقراءتها على المنصة... وتوجهنا في صبيحة اليوم التالي إلى قاعة الاجتماع الذي حضرته قيادات عديدة من السنة والشيعة...

لكن الذي حدث هو استئثار بعض المتحدثين الشيعة بالكلام، بحيث أنهم لم يعطوا أية فرصة للشيخ النعمة لقراءة الورقة وطرح وجهة النظر السنية، وأنهم كانوا يتجاوزون كل ما من شأنه أن يستفز الطرف الأمريكي، وانتهى

الاجتماع دون التوصل إلى قرارات عملية ملزمة، رغم الشعارات العديدة التي علقت في أطراف القاعة تدعو إلى توحيد المواقف... وحينذاك أدركنا ألّا جدوى من اجتماعات كهذه لا تأتي بطائل على الإطلاق...

وثمة دعوة لحضور مؤتمر في أربيل دعت لعقده رابطة المؤرخين الإسلاميين في العراق، فرأيتها فرصة جيدة لتأكيد العلاقة الحميمة عبر التاريخ الإسلامي بين الكرد وبين هموم الأمة الإسلامية، وقدمّت في المؤتمر بحثاً بعنوان (الكرد في ظلال العصر الإسلامي) حشدت فيه عشرات الشواهد على دور الكرد في بناء الحضارة الإسلامية، وفي تقبل الفتح الإسلامي لإقليمهم برحابة صدر... وفي انتمائهم المخلص لهذا الدين، وفدائيتهم في الدفاع ـ على مدى التاريخ الطويل ـ عن ثوابته ومؤسساته.

وعرضت لجملة من علماء الكرد ومفكريهم ممن تألقوا في الدراسات اللغوية والفقهية... فضلاً عن منظومة كبيرة من الدويلات الإسلامية التي أنشأوها والتي جاوزت العشرين عدداً... هذا إلى تضحياتهم المعروفة في دعم الخلافة العباسية ضد خصومها، وللتصدي للحركة الكمالية في تركيا، حيث قادوا حركة ثورية انتهت بزعمائهم جميعاً إلى الإعدام...

في خريف عام (٢٠٠٣م) أعلن عن فوزي والأخ الأستاذ الدكتور أنور الزغبي بجائزة أفضل كتاب في العلوم الإنسانية لذلك العام، مناصفة مع الأستاذ المذكور... ودعيت من قبل رئاسة جامعة الزرقاء لحضور حفل التكريم، وتسلّم الجائزة... فما كان مني إلا أن أتجه إلى عمّان وأبدأ بزيارة رئيس جامعة الزرقاء الأستاذ الدكتور إسحاق فرحان، الذي رحب بقدومي وهنأني على فوزي بالجائزة.

ثم ما لبثنا أن غادرنا مكتب الرئيس إلى الصالة الرئيسية التي اكتظت بالحضور حيث جرى الحفل التكريمي الذي بدأ بكلمة للأستاذ الدكتور عبد العزيز الدوري ﷺ رئيس الهيئة التحضيرية للجائزة، أعقبتها كلمة الدكتور عبد الله الخباص، عميد كلية الآداب، ثم عرض للسيرة العلمية للفائزين دعي

بعدها كل واحد منا لإلقاء كلمته، وتسلّم درع الجامعة والجائزة المالية (ومقدارها ألفا دينار أردني)... ولقد قلت في كلمتي تلك:

(أيها الأساتذة والأخوة الأحبة... الأخوات الكريمات... السلام عليكم جميعاً ورحمة الله وبركاته... وبعد: فلقد خشيت أن تنزلق بي الكلمات، وتنزاح، في هذه اللحظة المؤثرة، فآثرت القراءة... كنت أعتبر نفسي ولا أزال تلميذاً لمؤسسي الفكر الإسلامي الكبار... جندياً في الخطوط الخلفية مخّض قدراته المتواضعة لهذا الهدف العزيز. الأحبة في ديار شتى، كما أنتم، وضعوني في غير موضعي... وأخشى ما يخشاه الإنسان، وبخاصة أولئك الذين تجاوزوا الستين من العمر، هو أن تُذهب مناسبات التكريم أجرهم الباقي عند الله... إنها صفقة خاسرة طالما أورثتني حزناً وندماً... فمعذرة...

هذا هو التكريم الثاني الذي أناله بعد رحلة أوشكت أن تبلغ نصف القرن مع «الكلمة»... ألتفت ورائي... فإذا بالطريق طويل طويل... مترع بالمسرة والمعاناة... بالأفراح والأحزان بتحقيق المطلوب والرضا به حيناً، وبالعجز عن تلبية نداء الطموح وإغرائه في معظم الأحيان...

لقد منحتموني محبتكم... فبم أجازيكم؟ سأرجع إلى أهلي وبلدي، كما كنت أرجع دائماً في رحلة الأسفار أو الكلمات وقد أضناني عشق الجمال... التعبير الذي يرسم بقوة الكلمة ونبضها المؤثر الجميل، حلم كل مسلم في هذا العالم باليوم السعيد الذي تتناغم فيه الأشياء والخلائق والموجودات، مع الايقاع الكوني للسماوات والأرض، كما أراد لها الله ﷻ أن تكون...

خمسون عاماً والكلمة تسكنني وأسكنها... لم تدعْني لحظة واحدة ألتقط أنفاسي وأرتاح... أصبحت في نهاية الأمر نضواً... متعباً... مكدوداً... والهدف بعيد بعيد... فهل سيقدّر لي أن أواصل المسير؟...

هذه مناسبة أخرى أرجو أن أنال فيها رضا الله ومحبتكم... وإلا فهي الصفقة الخاسرة... أشكركم أيها الأخوة الأحبة... اشكركم... أشكركم... ولسوف يظل وفاؤكم الجميل يعرّش في قلبي قنديلاً أخضر حتى نلتقي هناك).

ما لبثت أن تلقيت دعوة من المغرب لحضور إحدى مؤتمرات رابطة الأدب الإسلامي العالمية، وندوة للأدب في فاس، ترافقها دعوة من عدد من الأدباء الأصدقاء المغاربة في وجدة لاستضافتي في أعقاب المؤتمر، لغرض إلقاء جملة محاضرات في كليات آداب جامعات المغرب، ونواديها، ومؤسساتها...

كان يرافقني في رحلتي تلك الأخ الشاعر الدكتور مأمون فريز جرار، حيث حطت بنا الطائرة في مطار الدار البيضاء، ومنها في طائرة أخرى إلى فاس، لكي نلتقي بجملة من المعنيين بالهمّ الأدبي الإسلامي بمن فيهم الأستاذ الدكتور عبد القدوس أبو صالح رئيس الرابطة، الدكتور عبد الباسط بدر، الدكتور عبد الحليم عويس ﷺ، الدكتور وليد القصاب، الدكتور حسن الأمراني، والدكتور منجد مصطفى بهجت، الذي رافقني مشكوراً في معظم رحلاتي ومحاضراتي عبر مدن المغرب، فضلاً عن عدد كبير من أساتذة الأدب العربي في الجامعات المغربية.

وقد جرت الأمور عبر المؤتمر على خير ما يرام، وألقيت فيه جملة قيمة من المحاضرات، أما محاضرتي فكانت بعنوان: (مفهوم الأدب الإسلامي: إشكالية العمق التراثي).

وكان يرافق أعمال المؤتمر مساء كل يوم جملة من الاجتماعات الخاصة بأمناء الرابطة، التي أتيح لي أن أحضرها وأشارك في مناقشاتها... ثم ما لبثنا أنا والأخ الدكتور منجد أن يممنا وجهنا في سيارة أحد الأخوة إلى الرباط، حيث نزلنا في أحد فنادقها، وانطلقنا في اليوم التالي إلى كلية الآداب في الدار البيضاء لإلقاء محاضرتي فيها، فما أن وصلنا باحة الكلّية حتى رأينا الطلاب يتظاهرون رافعين أصواتهم ولافتاتهم في استنكار اغتيال الشيخ المجاهد أحمد ياسين علي أيدي الصهاينة...

فكان النبأ أشبه بمطرقة نزلت على رؤوسنا بفقدان هذا الرمز الكبير، وبالأسلوب اللاأخلاقي واللاإنساني المعروف عن بني إسرائيل، وهو الرجل المريض المصاب بالشلل شبه الكامل... فلا حول ولا قوة إلا بالله... ولقد

عرفت كيف أخاطب الطلبة عبر محاضرتي تلك بما يشد انتباههم من خلال الربط بين موضوعها وبين واقعة اغتيال هذا المجاهد الكبير.

وُجهت إلينا عدة دعوات على الغداء والعشاء... وقضيت أمسية ذلك اليوم في منتدى المرأة المغربية المسلمة، في الرباط، حيث تم الترحيب بي، وقدمت جملة من مرئياتي بخصوص المرأة المسلمة، دار بعدها حوار خصب أجيب فيه على العديد من الأسئلة والمداخلات... ثم ما لبثنا في اليوم التالي أن يممنا وجوهنا صوب كلية أخرى في أطراف الدار البيضاء حيث عقدت ندوة أدبية حول النصّ القرآني والنقد، أتيح لي أن أحضر جانباً منها، وأن أشارك في مناقشاتها...

وبعد الغداء قفلنا عائدين بالسيارة إلى فاس، لكي نقضي فيها ليلة واحدة ونودّع المشاركين في المؤتمر، ثم نيمم وجوهنا عبر رحلة ليلية رائعة بسيارة أحد الأخوة المغاربة، وبمعية الأخ الدكتور حسن الأمراني إلى وجدة، وهناك أتيح لي أن ألقي في اليومين التاليين جملة من المحاضرات والندوات الشعرية في كلية الآداب ومنتديات المدينة...

قمنا بعدها برحلة طيبة إلى مدينة أمر كان على الحدود الجزائرية، حيث تم إلقاء محاضرتين إحداهما في الصباح والأخرى في المساء لقيتا قبولاً طيباً... عدنا بعدها إلى وجدة لكي أتهيأ لمغادرتها في اليوم التالي.

لاحظت وأنا أضع قدمي في غرفتي في الفندق وجود ما يؤذن بهبوب عاصفة قوية، فخشيت أن تستمر عبر الليل كله وصباح اليوم التالي، فتعطل رحلتي بالطائرة إلى الدار البيضاء، حيث كنت قد رتبت موعد عودتي إلى الأردن صبيحة اليوم نفسه... ولقد وقع هذا الذي توجست منه خيفة، فلما وصلت المطار انتظرت الساعات الطوال دون أن تجيء الطائرة التي ستقلنا إلى هناك، فانتابني القلق.

وما لبث أن اتصلت بمدير المطار أعلمه بحرج موقفي، وكان بمعيتي الأخ الدكتور حسن الأمراني، فأعلمنا بأن الطائرة ستغادر وجدة عما قريب بعد أن

استقرت العاصفة، وكان عليّ أن أدبر تغيير موعد عودتي إلى عمّان، فما كان من المدير إلا أن يربطني على طائرة تونسية ستغادر يوم غدٍ صباحاً، ومنها إلى طائرة الخطوط الأردنية بطريقة الترانزيت...

كما تم الاتصال بالأخ الأستاذ فريد الأنصاري ﷺ لكي يستقبلني في المطار ويأخذني إلى أحد فنادق الدار البيضاء... وما لبثت بعد أن ودعت الأمراني أن ركبت الطائرة ووصلت مطار الدار البيضاء، حيث وجدت الأنصاري بانتظاري لكي يقلني إلى الفندق على حساب الخطوط المغربية...

خرجت عصراً لكي أتجول في إحدى شوارع الرباط، وأقضي ساعات طيبة وأنا أتابع حركة الناس، وأجتاز المتنزهات وأعبر الشوارع، وأجلس في إحدى المقاهي الرائعة، ثم أعود إلى الفندق لتناول العشاء ولأقضي ليلتي تلك، حيث جاءني الأنصاري صبيحة اليوم التالي لكي يقلني إلى المطار.

كنت على موعد لدى وصولي عمان مع ندوة أخرى عن (العولمة ومستقبل الإسلام) دعاني إليها الأخ فرات ابن صديقنا الراحل (الأستاذ حسن التل) رئيس تحرير جريدة لواء الإسلام الأردنية، فنزلت فندق الريجنسي بالاس حيث تعقد الندوة في إحدى صالاته... ودارت مناقشات خصبة عبر المحاضرات التي ألقيناها واحداً بعد الآخر... وقد كلفت بإدارة إحدى الجلسات...

ولكن ما حزّ في نفسي، رغم حضور معظم الرموز الإسلامية فيها، أنها رمت بثقلها باتجاه رجالات سلطة الحكم الذاتي الفلسطينية، حيث تحدث أحد وزرائهم عن حركة الشعر الفلسطيني وضرب الأمثلة بالعديد من الشعراء اليساريين والقوميين دون أن يشير إلى أي شاعر إسلامي على الإطلاق... فانتهزت الفرصة وصارحته بخطأ موقفه هذا، وأحادية رؤيته... فما كان منه إلّا أن يعترف بتقصيره، وأنه كان يتحتم عليه أن يدير المنظور كاملاً على كل شعراء فلسطين المتألقين بما فيهم الإسلاميون.

وثمة عرض مغرٍ تلقيته من مدير مؤسسة آل البيت في عمّان لاختياري أستاذاً مراسلاً للمؤسسة في العراق، سلمني إياه الأخ الأستاذ الدكتور بشار

عواد معروف، المحقق الكبير، والذي يعمل مستشاراً في المؤسسة المذكورة... لكنني وبسبب قناعاتي الخاصة، سرعان ما كتبت لمدير المؤسسة رسالة اعتذار عن قبول المهمة.

عدت إلى بلدي لكي ما ألبث أن أرتب أمر رحلة عائلية أنا وزوجتي إلى تركيا، بعيداً عن الارتباط بالندوات والمؤتمرات، ومطالبها التي لا تسمح بالتقاط الأنفاس... رحلة حرة من أي قيد على الإطلاق!!

غادرنا الموصل على الطريق البّري إلى زاخو بمعية الأخ أديب الدباغ وزوجته، ومنها في سيارة أخرى إلى مدينة ديار بكر التركية، حيث ما لبثنا أن غادرناها بالطائرة صوب إسطنبول... وبعد أن بتنا لدى العائلة ليلة واحدة في الجانب الآسيوي من إسطنبول، بجوار المسجد الذي يقوم على مرتفع شاهق يطل على البسفور وإسطنبول الأوربية في منظر غاية في الجمال... تحوّلنا إلى الجانب الأوربي ونزلنا في فندق (فلمنكو) الرائع في قلب إسطنبول قريباً من آق سراي، حيث تكثر المطاعم والأسواق ووسائط النقل وحركة الناس الذاهبين والرائحين...

ورحنا في اليوم الأول نتجول في الشوارع المحيطة بالفندق ونتجه إلى سوق (قبغلي) الشهير، وهو سوق مغطى أشبه بقيصرية هائلة في اتساعها، تتفرع من طريقها الوسطي المزدحم بالمحلات، جملة من الفروع الجانبية، فلا يخطر شيء على بال إنسان الّا ويجده قبالته في محلات ودكاكين ومقاهي ومطاعم هذا السوق الكبير...

ثم ما نلبث بعد التجول الطويل فيه أن نتجه إلى أحد المطاعم لتناول وجباتنا الشهية (من مثل الدولمة والشاورمة واليالنجي والمشويات والاسكندر كبابي الذي قيل لنا بأن الذي لا يتناوله فكأنه لم يزر إسطنبول... ولكني لم أجده كذلك لأنه ينطوي على خبيصة من اللبن والدهن المقلي، فيما لا نرتاح نحن العراقيين لمنظره).

وفي اليوم التالي يممنا وجهنا صوب ساحل البسفور لكي يقلنا مركب

سياحي إلى إحدى جزر بيوك أده الرائعة بجمالها حيث تجولنا في شوارعها الأنيقة، وركبنا عربة تجرها الخيول جالت بنا في أطراف الجزيرة الخضراء الرائعة، بقصورها المدهشة المطلة على البحر، وحدائقها الغناء... ثم غادرناها لكي نتمم جولتنا مشياً على الأقدام، حتى حان موعد الغداء، فرحنا نبحث عن مطعم مطل على ساحل البسفور، ولكنا وجدنا لدهشتنا أن المطاعم جميعاً تشترك في تقديم البيرة والخمور لزبائنها...

فما كان منا إلّا أن نتناول غداءنا على مضض، ثم نقفل عائدين في المركب نفسه الذي جاء بنا إلى الجزيرة، حيث رحنا نلتقط الصور الرائعة للبسفور والمراكب التي تجري فيه، ولمنظر الشمس وهي تنساح شيئاً فشيئاً وراء الأفق لكي تنشر ألوانها البرتقالية والحمراء والصفراء والأرجوانية على صفحته!!

غادرنا المركب، ورحنا نتخطى باتجاه جامع السلطان أحمد القريب من الساحل، للاطلاع على المعرض السنوي الكبير المقام قريباً منه، حيث جلسنا في إحدى المقاهي وشربنا الكاباجينو اللذيذة... ثم تحولنا للتجوال عبر الحدائق الأنيقة التي تفصل جامع السلطان أحمد عن أيا صوفيا، فنلتقط الصور التذكارية، ونجلس قريباً من حفل مولوي ننصت للأصوات التركية الرائعة وهي تصدح بأعذب النغمات، بإيقاعها المتناسق، مع الرقصات المولوية يمارسها شباب متخصصون أتقنوا أداءها الصعب والجميل.

في اليوم التالي قمنا برحلة بحرية أخرى إلى ترمال، حيث الحمامات المعدنية الحارة، وما أن وصلناها وتقدمت من شباك التذاكر لكي أحجز لي ولزوجتي حتى فوجئت بأن قيمة التذكرة لا تسمح للداخلين بأكثر من ساعة، وكنت أتمنى أن تعطى فرصة أطول مدى... ولم أكن أدري أنه بمرور ما لا يزيد عن نصف الساعة، سأتعرض للإعياء الشديد، وسيحاصرني ضيق النفس، وشيء من الدوار بسبب كثافة البخار وحرّ المياه المعدنية، فما لبثت أن غادرت غرفة استحمامي وطلبت من زوجتي أن تلحقني إلى مقصورة الاستراحة حيث

استرددت أنفاسي. وللمفارقة فقد التقطنا صورة تذكارية بعد مغادرة الحمام مباشرة، أرسلناها لأولادنا في الموصل، كتبت في ظهرها: إليكم صورة أبيكم وهو ينجو من موت محقق في اللحظة الأخيرة!!

جلسنا لبعض الوقت في إحدى مقاهي ترمال لشرب البارد، ثم غادرناها لنقوم بجولة عبر المدينة حيث المتنزهات المنتشرة في ساحاتها كافة، بما فيها الزهور الرائعة، بألوانها الشفافة وتنسيقها المدهش، ثم ما لبثنا أن ركبنا قطاراً صغيراً جال بنا حول المدينة وسط جماهير المصطافين والسواح، وقفلنا بعد تناول الغداء إلى إسطنبول عبر طريق طويل بالسيارة أولاً ثم بالمركب الذي سيخترق البسفور وسط تعليق الراكبين، ونكاتهم ومرحهم، وقبالة منظر الغروب الجميل الذي يأسر الألباب...

في اليوم التالي زارنا في الفندق تلميذي الوفي الدكتور تحسين، الذي سبق وأن مارست تدريسه في كلية الآداب في بداية سبعينيات القرن الماضي، يوم كان طالباً في قسم الآثار، وبعد أن تخرج من الكلية آثر أن يكمل دراسته في إحدى جامعات إسطنبول، وهو تركماني من مدينة كركوك، يعرف اللغة التركية جيداً... ولقد رافقنا فيما تبقى لنا من أيام، واصطحبنا إلى متحف طوب قابي، متجاوزاً بنا الطابور الطويل من الزائرين الذين ينتظرون دورهم لقطع التذاكر... ذلك أن الدكتور تحسين باعتباره رجل آثار، كان يملك الحق في أن يدخل المتحف متى شاء، وبعيداً عن الوقوف طويلاً في الطابور...

وعلى مدى ساعات تجولنا في قصور السلاطين العثمانيين، وموجوداتهم المدهشة التي خصصت لكل فئة منها قاعة مستقلة يتمنى المرء لو يقف قبالتها الساعات الطوال فاحصاً متأملاً... ولكن للزمن حكمه، فما لبثنا أن غادرنا المتحف بعد جلسة قصيرة في حدائقه مع المؤرخ التركي المعروف البروفيسور (رمضان ششن)، لكي ما نلبث بعد تناول الغداء أن نتجه إلى جامع السلطان أحمد، قبالة مسجد أياصوفيا الكبير، فنتجول في أرجائهما المدهشة في زيارتها ونقوشها وخطوطها وزجاجها الملوّن، ونؤدي صلاتنا هناك، في

جامع السلطان أحمد، تحت قبته الرئيسية الكبرى، التي تتحلق حولها جملة من القباب الأصغر، فتشكل منظوراً معمارياً رائعاً، مضى لكي يغطي معظم مساجد إسطنبول فيمنحها مذاقاً متميزاً، فيما أبدعته عبقرية المهندس المعماري سنان.

قمنا بعد ذلك بزيارة لحمام تركي رائع، ذكرني بحماماتنا الشرقية في الموصل التي أتى عليها الخراب والهدم للأسف الشديد، كما ذكرني ـ والشيء بالشيء يذكر ـ بزمن طفولتي عندما اصطحبتني أمي والخدامة التي تنقل الدواشم والملابس، إلى إحدى الحمامات، حيث لا زلت أذكر كيف صدمتني وأنا أدخل الحمام تلك الكتل اللحمية الهائلة التي كانت تتدحرج قبالتي فيما أثار دهشتي وقرفي... وكنت لم أتجاوز بعد السنوات الثلاث أو الأربع من عمري!!

فيما نقلني بسبب تدافع سيال الذكريات إلى صيف عام (١٩٦٣م) عندما وصلنا الإسكندرية أنا وصديق لي من طلبة الماجستير، ورحنا نتجول على كورنيشها، وحيثما التفتنا شمالاً باتجاه ساحل البحر المتوسط صدمتنا مناظر الجثث والأكداس اللحمية الهائلة للمتنزهات المصريات اللواتي يبدو أن إدمانهن على أكل الفول والطعمية والفلافل قد مارس نفخهن بهذا الشكل المقرف... مع الاعتذار... وكنت أقول دائماً أن المرأة المغطاة أشد إثارة للرجل من تلك التي تكشف بضاعتها كاملة أمامه... وهكذا تجيء الحكمة من فرض الحجاب الإسلامي، من بين جملة أخرى من ضرورات العلاقة بين الرجل والمرأة...

في اليوم التالي أخذنا الدكتور تحسين إلى مكتب الخطوط الجوية السورية لكي نحجز على طائراتها إلى دمشق، ثم ما لبثنا أن يممنا وجوهنا صوب شارع الاستقلال الرائع بمطاعمه وعروضه التي لا تعد ولا تحصى من المشتريات، وبكونه الشارع الذي يجتازه يومياً آلاف الأتراك والسائحين، والذي ينتهي عند البسفور، ويبدأ بالدوّار الكبير الذي تعرض فيه الزهور المدهشة بألوانها النادرة للبيع...

فلما عضنا الجوع بنابه دخلنا أحد المطاعم التي تكشف بضاعتها للزبائن، فيختارون منها ما يشاؤون، ويدفعون ثمنه، ثم يجلسون لتناوله... وقد أغرتنا هناك الدولمة المحشية والمقبلات، حيث التهمناها بنهم، ثم غادرنا المطعم في طريق طويل إلى واحد من أكبر المحلات التي تعرض التحف القديمة، والأثاث التراثي النادر والبورتريه القادم من زمن بعيد بأيدي الرسامين الكبار... والأواني والمزهريات الزجاجية والمعدنية بألوانها المدهشة... والبناء يتكون من عدة طوابق، خصص كل طابق لعرض محتويات غير تلك التي يجدها الزائرون في الطوابق الأخرى...

وقد أتيح لنا أن نقف قليلاً مع إحدى المشرفات على البيع لكي تحدثنا عن الكثير الكثير مما تختزنه ذاكرتها عن هذا المكان البديع. وقد تبادلنا معها العناوين لغرض التراسل والتواصل، ثم ما لبثنا أن غادرنا المكان مودعين الأخ الدكتور تحسين، ومنطلقين مشياً على الأقدام، في الشوارع المحيطة بالفندق، حيث العشاء وتناول الأيس كريم التركي اللذيذ وإكمال السهرة في صالة الفندق، ثم ما لبثنا في اليوم التالي أن غادرناه إلى المطار في طريقنا إلى دمشق...

لم نمكث في دمشق سوى ثلاثة أيام، حيث نزلنا في فندق أنيق قريب من ساحة المرجة وسط البلد، فكنا نغادره ونرجع إليه مشياً على الأقدام... حيث قمنا بأكثر من زيارة لسوق الحميدية الشهير والجامع الأموي الكبير، وقبر الناصر صلاح الدين... واشترينا جملة من البضائع، وتناولنا بوظتها اللذيذة... وبعد القيلولة يممنا وجوهنا صوب مصايف مضايا وبقين والزبداني، حيث أغرانا الأخير بالاتفاق على ترتيب رحلة في الصيف القادم مع أفراد العائلة للنزول في أحد دوره... والانطلاق للتجوال في دمشق وضواحيها...

كان غداؤنا اليومي في مطعم أبو كمال الذي يقدم وجباته الشهية... وقد انتهزت فرصة وجودي في دمشق، فقمت بزيارة خاطفة لدار الفكر للنشر في البرامكة، والتي سبق وأن نشرت اثنين من مؤلفاتي، حيث سوّيت معهم جملة

من الأمور، وزرت مديرها العام الأستاذ عدنان سالم الذي وجه إليَّ دعوة لحضور إحدى مناسبات الدار في ذكرى تأسيسها.

ذهبت صباحاً للاتفاق مع سائق السيارة التي سترجع بنا إلى الموصل، حيث كراجات السيارات العراقية تمتد قريباً من مرقد السيدة زينب... وانتهزت الفرصة لزيارة معرض للكتاب الإيراني الذي أقيم تحت خيمة واسعة بجوار المرقد فاطلعت على معروضاته، ووقفت عند كتاب يتناول السيرة النبوية... فقلت في نفسي لماذا لا أتصفح الكتاب وأبحث عن هجرة الرسول ﷺ وصاحبه أبي بكر الصديق رضي الله عنه لكي أرى ما يقوله المؤلف، فإذا به يشكك في مصاحبة الصديق لرسول الله... فيتجرأ بذلك على النص القرآني الذي يشير إلى المسألة بحسم ووضوح... ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

فرحت بعد أن أعدت الكتاب إلى موضعه أردد مع نفسي، هكذا تكون الأمانة التاريخية التي تقوم على نفي ما هو مؤكد في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ... فكيف إذن سيتم التعامل مع المفردات الأخرى التي لم ترد في القرآن؟ ألا يذكرنا هذا بموقف العديد من المستشرقين الذين أبحروا بذات الاتجاه؟!

في اليوم التالي جاءنا سائق الحافلة الذي تم الاتفاق معه... فما أن قطع بنا خطوات في الطريق وأصبحنا على بعد ما يقرب من الخمسين كيلومتراً من دمشق، حتى توقفت الحافلة، وعبثاً حاول السائق إصلاحها والانطلاق بنا ثانية... ولما نفد صبري من الانتظار قلت له أن عليه أن يتصل بالشركة التي أرسلته لكي يرسلوا حافلة أخرى وإلا فسوف يكون حسابه عسيراً... فما لبث أن اتصل، وجاءتنا حافلة أخرى جديدة بعد حوالي الساعة من الانتظار لكي تقلنا في رحلة عبر أواسط سوريا، مروراً بتدمر، ودير الزور، حيث تناولنا غداءنا من كبابها اللذيذ، ثم انطلقنا إلى الموصل لكي ما نلبث أن نصلها قبيل الغروب بحمد الله...

وسرعان ما تلقيت مكالمة من رابطة الأدب الإسلامي العالمية بالدعوة التي تلقتها من رئاسة جمهورية السودان، في ترشيحي، وعدد من العلماء، لنيل جائزة رئيس الجمهورية التقديرية، المقدمة على شرف الخرطوم عاصمة

للثقافة العربية عام (٢٠٠٥م)، وذلك تقديراً للإسهامات العلمية والجهود المقدرة والمعروفة على نطاق الوطن العربي... ويطلبون مني ارسال عدد من مؤلفاتي إلى الخرطوم...

فترددت في الموافقة أول الأمر، في سياق رفضي السابق واللاحق للجوائز التي تشرف عليها السلطات الحاكمة (جائزة الملك فيصل وجائزة دبي الدولية... الخ) خشية من توظيف الأسماء، ومن ضرورة إلقاء كلمة تتطلب توجيه الشكر والامتنان وكيل المديح، للملوك والأمراء، فيما يصعب بل يستحيل على النفوس الحساسة التي تعرف ما الذي فعله هؤلاء بمقدرات الأمة المنكودة... لكني عدت فعدلت عن رأيي بخصوص جائزة مقدمة من بلد إسلامي التوجّه، لم يمسس قادته بأي قدر من السوء هموم الأمة ومصائبها... فأرسلت إلى ناشري كتبي بإرسال عدد من مؤلفاتي على عنوان الهيئة التحضيرية للجائزة... وما لبث موعد الحضور أن حلّ في الأيام الأخيرة من عام (٢٠٠٤م).

فيممت وزوجتي وجهينا صوب الخرطوم، حيث تم استقبالنا في المطار من قبل أعضاء اللجنة التحضيرية، وأخذونا إلى فندق الكونتينتال، حيث هيؤوا لنا جناحاً كبيراً للمبيت... وفي اليوم التالي جاءنا من يأخذني إلى اجتماع صباحي حضره جملة من كبار المسؤولين والعلماء السودانيين، وجاءت اثنتان أو ثلاث من النساء لكي يصطحبوا زوجات المشاركين عبر رحلة في الخرطوم... وكان المشاركون، فضلاً عني، هم كل من الأستاذ الدكتور زغلول راغب النجار من مصر، والأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي من سوريا، والأستاذ الدكتور عبد الله التركي من السعودية، وزميل آخر من الكويت يشرف على جائزة البابطين الشعرية المعروفة...

وبعد الاجتماع نقلنا إلى مركز طباعة المصحف الشريف، حيث اطلعنا على إنجازاتهم الكبيرة هناك... عدنا بعد أن أدينا صلاة الظهر في أحد المساجد إلى الفندق لتناول الغداء وأخذ قسط من الراحة... حيث اجتمعنا بعدها بالأخ الأستاذ الدكتور أحمد علي الإمام رحمه الله مستشار رئيس الجمهورية...

وعدد آخر من الرموز السودانية لتبادل الأحاديث والانتقال من ثم إلى إحدى القاعات الكبرى بدعوة من المكتب الإقليمي في السودان لرابطة الأدب الإسلامي العالمية، حيث تم إلقاء جملة من القصائد، بما في ذلك إلقاء قصيدتين لي نالتا استحسان الجمهور...

ثم ما لبثنا أن توجهنا إلى القصر الجمهوري، حيث تمت مقابلة اللواء عمر البشير رئيس الجمهورية، الذي رحب بالمشاركين وصافحهم واحداً واحداً، وحيث أعلن عن تسليمهم الجائزة النقدية (عشرون ألف دولار) (التي قررتُ وضعها في التشغيل وإضافة مردودات أرباحها السنوي إلى صندوق الصدقات) هذا فضلاً عن وسام العلم والآداب والفنون الذهبية...

وخرجنا بعدها إلى حدائق القصر، حيث أقيمت الاحتفالات بذكرى ثورة الإنقاذ، وألقى رئيس الجمهورية كلمة مفصلة شرح فيها سياسات الجمهورية والتحديات التي تجابهها وسبل التفوق عليها... ثم ما لبثنا أن غادرنا المكان عائدين إلى الفندق لتناول العشاء.

كنا قد حجزنا على اليوم التالي، فإذا بنا نفاجأ بضرورة المغادرة في اليوم نفسه... إذ لا طائرة هناك في اليوم التالي، فسارعنا إلى الجناح نهيئ الحقائب وننطلق بصحبة عدد من الأخوة السودانيين إلى المطار، حيث تولوا هم الأمور الإجرائية وإرسال الحقائب، بينما نحن ننتظر في صالة الضيوف، حتى إذا حان موعد الإقلاع ودعناهم بالقبل والأحضان وانطلقنا إلى الطائرة التي أوصلتنا إلى عمان، ومنها، بعد قضاء يوم أو يومين، ركبنا طائرة أخرى في طريقنا إلى العراق.

أخذت الغيوم تتلبد في أجواء العراق في خريف ذلك العام، والأعوام التي تلته، وأصبحنا على بعد خطوات من حرب أهلية لا تبقي ولا تذر... وبدأت عمليات القتل والاغتيال والتصفية الجسدية تتصاعد يوماً بعد يوم، تخطط لها وتنفذها جهات شتى من بينها الموساد الإسرائيلي، وقوات الاحتلال الأمريكي، والفئات الطائفية الحاقدة...

ويوماً، ونحن ثلة من أعضاء الهيئة الإدارية لهيئة علماء المسلمين في الموصل، في طريقنا إلى دار الشيخ الدكتور فيضي الفيضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ لعقد إحدى اجتماعاتنا الأسبوعية، فما لبثنا أن رأينا عند باب داره حركة غير طبيعية، فلما استفسرنا عن السبب قيل بأن الشيخ قد تعرض لمحاولة اغتيال بمسدس كاتم للصوت، وأن الإطلاقات اخترقت معدته، وهو الآن ينزف في المستشفى العام.

فما لبثنا وقد صدمنا النبأ، إذ كانت تربطني بالشيخ وشائج عميقة من التقدير والمحبة، أن اتصلنا هاتفياً بالمستشفى فأعلمنا بأن الأمر قد انتهى وأن الشيخ فيضي قد قضى شهيداً!!

كان وقع النبأ عميقاً عميقاً، اخترق وجداننا بسكينه الحادة التي تعرف كيف تغوص في العظم واللحم... ولكن لا حول ولا قوة إلا بالله... توجهت عصراً للمشاركة في تشييع الشهيد الذي كان جثمانه ممدداً في باحة المسجد الذي شهد خطب الشيخ فيضي أسبوعاً بعد أسبوع... وأُلقيت جملة من الكلمات التي بدأها أخوه الدكتور بشار الفيضي، مؤكداً فيها بأن الذي قتله هو الموساد الإسرائيلي، الذي لا يملك غيره ذلك النوع من الإطلاقات التي تنفجر داخل الأجساد فلا تبقي لها أي أمل في النجاة... وأعقبه آخرون، حتى جاء الدور عليّ فألقيت كلمتي التي انتزعتها من قلبي ما بين مرثية للشهيد ودعوة صادقة بأن يرفعه الله ﷻ إلى مصافّ الشهداء والقديسين... كانت السماء تبكي معنا هي الأخرى... تسحّ دموعاً غزيرة... وكان الجو معتماً... حزيناً... كأنه يشاركنا مأساتنا بفقد واحد من أعز إخوتنا وأصدقائنا... فإنا لله وإنا إليه راجعون...

ما لبثنا بعد أيام قلائل أن تلقينا مطرقة أخرى لا تقل هولاً... إنها اغتيال الأخ والصديق عمر الصيدلي... ذلك النموذج الرائع للداعية الذي نذر حياته وأمواله وقلمه في سبيل دعوة الحيارى والجائعين والضائعين إلى الصراط... ولطالما زارني في بيتي وزرته في داره في أمسيات الجمع حيث يجتمع عنده ثلة من حملة هموم الدعوة... وكان بوجهه المترع بالبشاشة... بأريحيته... بسماحته... يكسب كل من يتعرف عليه... إذا بهذا القنديل المشع

ينطفئ على حين غرة بقتلة غادرة... جعلت ابني محمد وهو يتلقى النبأ على الهاتف، يسقط أرضاً وهو يذرف الدموع الغزيرة، ويقول لي: لا بدّ يا أبتاه أن تغادر العراق... أقسم عليك بالله أن تغادر العراق... قبل أن تطالك السكين!!

وحتى تلك اللحظة لم يكن في نيتي مطلقاً أن أغادر بلدي... ولكن الذي حدث بعد ذلك بأسابيع أن اتصل بي الأخ والصديق الحميم أحمد سامي الجلبي ﷺ عميد صحفيي الموصل، ورئيس تحرير جريدة فتى العراق، التي طالما تولت نشر مقالاتي وحواراتي... وقال لي بالحرف الواحد: لقد ترددت كثيراً في إخبارك بهذا الذي أريد أن أقوله لك خوفاً عليك من القلق... ولكن لا بدّ مما ليس منه بد... فلقد اتصل بي جاري عقيد الشرطة (داود...) وقال لي: هل تعرف رجلاً يدعى الدكتور عماد الدين خليل؟ فأجبته: نعم، وها هو ذا داره على بعد خطوات... فقال: أرجو إبلاغه بأنه قد تمّ العثور في مديرية الشرطة على قرص يتضمن قائمة بالأشخاص الذين ستتم تصفيتهم... ومن بينهم عماد الدين خليل...

شكرته على موقفه، والعقيد داود، الذي عرف بخلقه العالي وعلاقاته الوثيقة الناس، واحتفظت بالنبأ لنفسي... لم أخبر به عائلتي لئلا أضعهم في مطحنة القلق والتوجس... ومضيت في سبيلي ألقي محاضراتي في الكلية وأعود... وأضرب المواعيد مع الأصدقاء... وكأن شيئاً لم يكن، قائلاً في نفسي: لقد أنقذتني إرادة الله وحده جلّ في علاه، من عدة حالات من الموت المحقق، ولعل هذه ستنضاف إليها...

لكن الذي حدث بعد أسابيع من ذلك أن يبعث في طلبي عميد كليتي الدكتور محمد باسل العزاوي، وهو رجل يتقد غيرةً وإخلاصاً ووفاءً وإيماناً، فلما دخلت عليه رأيته يبكي بصمت، فلما سألته عن الذي يبكيه، أجابني بصوت متقطع: لقد تلقيت خبراً من شخص يرتبط بالمقاومة، بأنهم عثروا في معارك الفلوجة على قرص يتضمن قائمة بأسماء العلماء والأكاديميين والمفكرين الذين تقررت تصفيتهم جسدياً، وأنت أحد هذه الأسماء... فأرجوك أن تتدبر الأمر

وأن تغادر العراق على وجه السرعة قبل أن يقع المحذور... أرجوك ألا تعطي الأفاعي السامة الفرصة التي يتمنونها... شكرته وقمت لكي أودعه... ثم غادرت المكتب.

هذه المرة أيضاً لم أخبر أسرتي عن هذا الذي سمعته... لكنني أعلمتهم بأن أوضاع الأكاديميين والمفكرين في البلد لا تسرّ أحداً... وأنني سأفكر في المغادرة والعمل في إحدى الجامعات، ولو لفصل واحد، ريثما تنجلي الأمور... وبدأت الاتصال بمعارفي وأصدقائي في عمان، وكلفت الأخ الدكتور فتحي الملكاوي، المستشار الأكاديمي للمعهد العالمي للفكر الإسلامي بمفاتحة الجامعات الأردنية علّه يجد موطئ قدم لي في إحدى كلياتها...

وما لبث الرجل بعد فترة من الزمن أن أجابني بأنه قد رتب الأمر مع زميله الأستاذ الدكتور عبد الناصر أبو البصل عميد كلية الشريعة والدراسات الإسلامية في جامعة اليرموك بمدينة إربد الأردنية... فشكرته وأرسلت له الأوراق المطلوبة لتقديمها للجامعة المذكورة...

ومضى الشهر الأول من عام (٢٠٠٥م)، وقد وضعت أعصابي في ثلاجة، كما يقول المثل المعروف... لم أكترث للأمر، فكنت أذهب إلى الكلية لإلقاء محاضراتي، وأضرب المواعيد مع أصدقائي... لكن ما كان يخز جملتي العصبية بين الحين والحين الأنباء المتلاحقة عن تصفية العديد من الأكاديميين والمفكرين، كنا نتابع مقتلهم بحزن عميق يوماً بعد يوم وأسبوعاً بعد أسبوع...

وكأن سكين الموساد الإسرائيلي وحارسته الأمينة: القوات الأمريكية المحتلة... قد قررت تصفية العقل العراقي المبدع وإلغاءه من الوجود... حيث كانت سياراتهم المظللة السوداء تجوب الشوارع تحت الحماية الأمريكية، وتتصل بسفلة الخلق ممن باعوا ضمائرهم بالمبلغ التافه الذي سيقبضونه لدى قتل كل واحد من العلماء بمسدس مكتوم: خمسين دولاراً فقط!!



الفصل العاشر

٢٠٠٥ ـ ٢٠١٠م

في يوم وصولي إلى عمان، ونزولي في فندق الأوركيدا في الشميساني، وأنا أتابع نشرة الأخبار على شاشة التلفاز، إذا بي أفاجأ بواقعة تفجير سيارة رفيق الحريري، وتمزيق جسده ﷺ، فقلت في نفسي: ها هو ذا لبنان يستقبل مرحلة أخرى من الاصطراع الأهلي، قد لا يقلّ ضراوةً عن الحرب الأهلية التي سحقت لبنان عبر الأعوام (١٩٧٤ ـ ١٩٩٠م)... يبدو أنه مكتوب على هذا البلد أن يكون مسرحاً مفتوحاً لصراع القوى الإقليمية والدولية التي وجدت في مجاله المفتوح فرصتها لتحقيق أهدافها ومصالحها...

كان موسم الشتاء في أوجه... الثلوج تتساقط على مدن الأردن فتمنع التنقل والحركة، ولكنها ما لبثت أن توقفت قليلاً، حيث انتهزت الفرصة بعد يومين أو ثلاثة أيام من وصولي، للذهاب إلى إربد في الشمال وتسجيل مباشرتي في كلية الشريعة والعلوم الإسلامية بجامعة اليرموك... وأنا أضع قدمي على الدرج إذا بي أفاجأ بعميد الكلية الأستاذ الدكتور عبد الناصر أبو البصل، مع ثلة من الأساتذة يغادرون الكلية في طريقهم إلى مطعم الجامعة لتناول الغداء، فرحب الرجل بي وعرّفني على الأساتذة المصريين والسودانيين والأردنيين والعراقيين، ومعظمهم ممن كانت لي بهم معرفة سابقة... وبعد تناول الغداء، أتممت مطالب الإجراءات الروتينية لتسجيل المباشرة ورتبت جدول محاضراتي، ووُعدت بشقة للسكن داخل الحرم الجامعي، ستفرغ لي بعد يومين أو ثلاثة، ثم قفلت عائداً إلى عمان.

وبدأ المشوار الذي استمر لمدى خمسة أشهر، ما بين شباط وحزيران من

ذلك العام (٢٠٠٥م)... تسلمت شقتي الصغيرة والأنيقة في إحدى العمارات السكنية لجامعة اليرموك، على بعد خطوات قليلة من الكلية... وما لبثت في الأمسية الأولى أن أجدني إزاء انقطاع الماء... تلك المعضلة التي عذبتنا في العراق طويلاً... وها هي تلاحقني في سفري... فاتصلت بإدارة الجامعة لتدارك الموقف، وإذا بعميد الكلية الأستاذ الدكتور عبد الناصر يتولى بنفسه إرسال سيارة تحمل عدة قناني كبيرة من ماء الشرب، ريثما يتم ضخ الماء في اليوم التالي...

لقد كان الرجل بشهادة كل من عرفه إدارياً من طراز أول، لا تفلت من بين يديه صغيرة ولا كبيرة إلا وأسرع بإيجاد الحلول المناسبة لها... وكان يتابع مطاليب الأساتذة وينفذها بسرعة مدهشة... وفضلاً عن هذا فقد كان يضرب بسخائه المثل، ولطالما وجّه إليّ وإلى بعض الأساتذة الدعوات على الغداء والعشاء... في بيته وفي مطاعم المدينة، حتى لقد قيل لي بأنه طالما استدان من الآخرين دون أن يوقفه هذا عن سخائه العجيب... وفوق ذلك كله فقد كان أستاذاً فذاً في تخصصه... ولذا أجمع الناس من الطلبة والأساتذة على محبته وتقديره...

رتبت جدولي التدريسي على مدى أربعة أيام فقط من كل أسبوع... أتجه صباحاً إلى الكلية لإلقاء محاضراتي على طلبة الدراسات الأولية في السيرة النبوية والفقه الحضاري، ثم أرجع إلى الشقة لتناول وجبة خفيفة من الغداء، وآخذ قيلولة صغيرة، ثم أتجه إلى الكلية لإلقاء محاضراتي على طلبة الدراسات العليا، حتى إذا أوشك المغرب أن يحين، وانتهت ساعات المحاضرات، غادرت الكلية إلى مسجد الجامعة الكبير لأداء الصلاة، ثم لكي أتجه بعدها للقيام بجولة من التخطي الممتع في شارع الجامعة الملاصق، والذي يعج بالمطاعم والمقاهي وحركة الطلبة، فيما كنت أتمناه دائماً كي أنغمر في الزحمة، فلا أحسّ الوحشة أو الفراغ، أسوةً بما خبرته في الشارقة قبل عدة سنوات.

حتى إذا ما حان موعد صلاة العشاء عدت ثانية إلى مسجد الجامعة

لأدائها والانطلاق بعدها، وقد عضني الجوع بنابه، لتناول وجبتي الرئيسية من الطعام: الدجاج المشوي بصنوفه المختلفة، والشاورما، والبيتزا الإيطالية، والفول والفلافل التي يتقنها مطعم الكلحة الشهير... هذا إلى المشويات وأصناف أخرى من الطعام... أغادر بعدها للجلوس في بوفية للحلويات، حيث أتناول شطيرة من الوجبة الأردنية الرائعة: الكنافة النابلسية، ثم أغادر المحل لجولة تخطي أخرى عائداً إلى شقتي لإعداد المحاضرات لليوم التالي، ومشاهدة البرامج التلفازية، أو المطالعة، أو استقبال الأساتذة والأصدقاء... ومن ثم أسلم نفسي لنوم عميق...

تلك كانت يوميات وجودي في جامعة اليرموك على مدى الأشهر الخمسة... وكان يخترقها أحياناً جملة من المتغيرات، كأن أتلقى دعوة على الغداء أو العشاء من هذا الأستاذ أو ذاك... أو أن أستقبل عدداً من الزوار الموصليين الذين كانوا يتجشمون عناء السفر إلى إربد من عمان للقائي... فأدعوهم على العشاء، وبعدها إلى جلسة طويلة في إحدى المقاهي لتبادل أطراف الحديث...

أما خلال أيام الفراغ، فكنت أتجه بالحافلة إلى عمان، حيث المكتب الإقليمي للمعهد العالمي للفكر الإسلامي، والذي توفّرت لي فيه سبل الاتصالات بالفاكس والإنترنيت، لمتابعة أعمالي المزدحمة لدى الناشرين، والإجابة على ما يردني من رسائل ومطالب لا تكاد تنقضي... وكان يساعدني في ذلك كل من الأخ ماجد أبو غزالة... الموظف في المكتب (والدكتور فيما بعد) وأحد أقربائي المدعو صفوان الطالب... ولم يقصّرا يوماً عن أي طلب أريده منهما... فبارك الله فيهما...

وكنت خلال وجودي في عمان أتلقى دعوات أخرى على الغداء أو العشاء في بيت ابنة عمي الحاج يحيى الطالب ﷫ بمعية صفوان، أو من الأخ الدكتور فتحي الملكاوي، المدير الإقليمي للمكتب، أو من الأخ الدكتور عبد الله الخباص المعروف بسخائه العجيب ودعواته المفتوحة على الغداء والعشاء في أرقى

مطاعم المشويات في عمان وأطرافها... وغير هؤلاء كثيرون من الأخوة والأصدقاء والأساتذة... وكنت بدوري أدعو بعض الأساتذة والأصدقاء لتناول وجبة من الغداء أو العشاء في هذا المطعم أو ذاك.

وثمة جملة من الرحلات الربيعية التي كان يدعونا إليها الأخ الأستاذ الدكتور عودة أبو عودة، بما عرف عنه هو الآخر، من السخاء العجيب... فكنا نخرج إلى البراري، نحن أربعة أو خمسة من الأصدقاء، للاسترخاء، والتمتع بجمال الطبيعة، وتناول المشويات... هذا فضلاً عن رحلات أخرى كان القائمون عليها من أساتذة كلية الشريعة والعلوم الإسلامية، أو من المعارف والأصدقاء.

ويوماً عرض الأخ والصديق المحقق الكبير الأستاذ الدكتور بشار عواد معروف، الذي كانت تربطني به علاقة وثيقة منذ زمن دراستنا للماجستير في بغداد في بداية ستينيات القرن الماضي، أن نقوم برحلة ليوم أو يومين، إلى دمشق فرحبت بالعرض، خاصة وأنه سيتيح لي اللقاء بناشر كتبي، الذي سبق وأن عرفني عليه الدكتور بشار، الأستاذ علي ديب مستو، المدير العام لدار ابن كثير، والذي سيقدّر له أن يقوم بنشر وإعادة نشر ما يزيد على الخمسين كتاباً من مؤلفاتي...

انطلقنا بسيارة الدكتور بشار، وبمعية ابنه محمد، ولم يطل بنا الطريق، إذ ما لبثنا أن وجدنا أنفسنا، بعد ساعتين من السفر، في دمشق، حيث كانت آخر رحلاتي إليها قبل أكثر من ثلاثين عاماً... وقد دعينا من قبل الأستاذ علي ديب مستو لتناول العشاء في مطعم تراثي رائع بجوار سوق الحميدية، حيث الوجبات والمقبلات الشامية الشهيرة... وتبادلت الحديث مع مستو بخصوص أعمالي التي سيتولى نشرها، وعرض عليّ تصاميم الأغلفة الأنيقة... واتفقنا على تسليمه جملة أخرى من مؤلفاتي، حيث سأحاول أن أجعل من دار ابن كثير مركزاً لنشر أو إعادة نشر معظمها... ثم ما لبثنا في ظهيرة اليوم التالي، بعد جولة مكثفة لدى الناشرين في حلبوني، وزيارة لدار ابن كثير هناك وإجراء مكالمة هاتفية مع الأخ الدكتور محمد علي الصلابي، أن دعينا من قبل الأستاذ

علي ديب على الغداء في أحد المطاعم الأنيقة المطلة على واد أخضر، تتوسطه بحيرة زرقاء، في أطراف دمشق الجنوبية، حيث تفنّن المطعم في تقديم مقبلاته الرائعة التي لم أجد لها مثيلاً في أي مطعم آخر... ثم ما لبثنا بعد حوار طويل أن قفلنا عائدين إلى الأردن.

وكنت خلال الفرص بين المحاضرات أجلس في غرفة الاستراحة، قبالة مكتبي تماماً، لتناول الشاي والبيبون، والحلبة والدارسين... وكل ما يخطر على البال من المشروبات الساخنة التي كنا نغذيها باشتراكاتنا الشهرية... وهناك يتم اللقاء بأساتذة الكلية، وتدور الأحاديث ذوات الشجون.

وكنت أدعى بين الحين والحين إلى مكتب رئيس قسم الثقافة الإسلامية الأخ الدكتور علاء الرحال، الذي أسرني بلطفه ومحبته، لمناقشة خطط بحوث الماجستير التي يتقدم بها الطلبة والطالبات، فكنا نقبل بعضها، ونجري التنقيحات على بعضها الآخر، ونرفض قبول بعضها الثالث... هذا إلى الاجتماعات الدورية للقسم حيث يحضر أساتذته كافة لحلّ المشاكل والقضايا التي يشهدها القسم... فضلاً عن ترتيب جدول للمحاضرات التي كلف بها كل أستاذ ليلقيها على زملائه في اجتماع خاص، حيث تدور بعدها المناقشات...

وكانت الكلية تقيم مواسم ثقافية، بين الحين والآخر، يحضرها الجمّ الغفير من الأساتذة والموظفين والطلبة والطالبات، حيث كنت أكلف بإلقاء محاضرة موسّعة لوحدي، أو بالمشاركة مع متحدثين آخرين، يدور بعدها نقاش خصب بين الحضور والحاضرين... هذا إلى دعوتي للمشاركة في مناقشة رسائل الماجستير، حيث أتيح لي أن أناقش رسالتين في الكلية، وأخرى في جامعة مؤتة، في أقصى جنوب الأردن، بدعوة من المشرف عليها الأخ الأستاذ الدكتور أحمد الحسّو، وهو ابن بلدي الموصل وعلاقتي به تمتد لأكثر من نصف القرن، حيث جاء إلى عمان واصطحبني إلى مؤتة، وجرت مناقشة الرسالة مساءً، ثم ما لبثت أن قفلت عائداً إلى إربد، بسيارة خصصها لعودتي الدكتور الحسّو، بعد أن دعاني إلى الغداء في بيته...

ولقد عرض عليّ كل من الزميلين الدكتور علاء الرحال، والدكتور عائش لبابنة، الذي كان يحضر الكثير من محاضراتي اليومية، أن ألقي كل يوم أربعاء محاضرة على طلبة القسم، فكنت أختار موضوعاتها من القرآن الكريم، وكان يحضرها عدد كبير من الأساتذة بما فيهم الرحال ولبابنة، وجم غفير من الطلبة والطالبات... وتتلقى بقبول حسن والحمد لله...

هذا إلى أنني دُعيت لندوة لتكريمي أقامها مكتب الأردن لرابطة الأدب الإسلامي العالمية، حول جهودي في خدمة الأدب الإسلامي، على مدى يقرب من نصف القرن، وذلك في نيسان من ذلك العام (٢٠٠٥م)، حيث تلقيت من الأخوة في المكتب جملة سخية من التقويمات، وقدمني أخي الأستاذ الأديب عبد الله الطنطاوي لألقي محاضرتي في المناسبة، والتي حملت عنوان (حفريات في جذور رحلتي مع الأدب) قام الأخ صالح البوريني، أحد العاملين في المكتب، بعرضها على موقع الرابطة... ولقد توجهت ـ في ختام محاضرتي تلك ـ بالشكر والامتنان للإخوة القائمين على المكتب ورئيسه الأخ الدكتور مأمون فريز جرار...

اشتقت للعودة إلى بلدي وأسرتي وجامعتي، واعتذرت عن عرض كلية الشريعة الارتباط بالدوام الصيفي، واتفقت مع إدارتها ـ بدلاً من ذلك ـ أن أرجع ـ بعد قضاء العطلة الصيفية في بلدي ـ لاستئناف التدريس في الكلية، للفصل الأول الذي يبدأ من شهر أيلول عام (٢٠٠٥م)، ويستمر حتى شهر كانون الثاني عام (٢٠٠٦م)... ثم ما لبثت أن فوجئت بمتاعب في قلبي، وبعد مراجعة عدد من الأطباء الاختصاصيين، طلب مني إجراء قسطرة للقلب لتبيّن سبب المتاعب، الأمر الذي أرغمني على إجرائها ـ بعد تردد ـ في المستشفى الإسلامي لدى أحد اختصاصييه المتميزين، وهو الدكتور عاصم النماس، حيث تبينت سلامة القلب وعمل الصمام بشكل طبيعي والحمد لله... ولقد كانت إدارة المستشفى كريمة معي إذ خصصت لي غرفة مستقلة للمبيت فيها، ثم ما لبثت في صباح اليوم التالي أن غادرت المستشفى عائداً إلى إربد. لكي

أتهيأ عبر الأيام التالية لتصفية متعلقاتي في الكلية، وترك الكثير من حاجياتي فيها ثم السفر إلى الموصل.

حيث ما لبثت أن فوجئت بعودة الرعاف، وهو النزف المتواصل من الأنف بسبب تناولي لحبوب الوارفارين المميعة يومياً لغرض سيولة الدم ومنع التجلط، والذي لا يكفّ عن التدفق، إلّا بعد مراجعة طبيب مختص بالأنف والأذن والحنجرة لكي يمارس كوي شرايين الأنف ووقف التدفق، ولقد تكررت هذه الحالة عدة مرات، وأعقبتها ـ عبر إحدى الليالي ـ حالة دوار عنيف اضطرتني لمراجعة الطبيب الذي نصحني بعرض نفسي على جهاز المفراس، حيث تبين حدوث جلطة خفيفة جداً في الدماغ... والحمد لله... حيث ما لبثت أن استعدت وضعي الصحي، ولكني تجاوزاً لما لا تحمد عقباه، اتصلت بعمادة كلية الشريعة والعلوم الإسلامية أطلب منهم تحويل تعاقدي معهم للفصل الثاني الذي يبدأ في شهر شباط، بدلاً من الفصل الأول.. فأجابتني الكلية مشكورة على طلبي.

رتبت مع أسرتي في صيف ذلك العام (٢٠٠٥م) رحلة ترفيهية إلى سوريا والأردن، دون أن أعرف ما الذي سيخبئه لي القدر هناك... ثم ما لبثنا أن انطلقنا في حافلة مريحة عبر الطريق البري إلى سوريا، حيث وصلنا حلب في مساء اليوم نفسه، ونزلنا في أحد فنادقها الرائعة، حيث بدأنا التجوال في شوارعها ومتنزهاتها ومحلاتها التجارية ومطاعمها... وفي اليوم التالي اتفقنا مع أحد السواق لكي يأخذنا في رحلة طويلة إلى مصيف كسب...

ولدى العودة اختار لنا طريقاً صعباً لكي نشاهد أحد المصايف الجميلة... ولكن الصعود المتواصل أرهق زوجتي ودفعها إلى الإحساس المتزايد بالغثيان... وخشية من العواقب طلبنا من السائق العودة بنا إلى الطريق العام، حيث وصلنا حلب مساء ووضع زوجتي لا يسرّ أحداً... لكنها ما لبثت أن تماثلت للشفاء حيث قمنا في اليوم التالي بتجوال طويل في سوق حلب التراثي، وقلعتها التاريخية، ومقاهيها الجميلة، ثم ما لبثنا أن قفلنا عائدين لكي نتفق مع أحد

السواق ليقلّنا إلى مصيف الزبداني الشهير، حيث قررنا أن نبقى هناك لأكثر من أسبوع.

وصلنا المصيف بعد اجتيازنا لدمشق، مساء ذلك اليوم، ورحنا نبحث عن سكن مناسب وما لبثنا أن وضعنا يدنا عليه، وخرجنا للتجوال في الزبداني... وفي اليوم التالي قمنا بجولة أخرى طويلة مشياً على الأقدام، ويبدو أن الارهاق والحرّ أغريا أنفي بالنزف... ولكن متى؟ في منتصف الليل حيث فوجئت بسيال الدم يتدفق من أنفي، فما كان من ابني محمد وزوجتي إلا أن يأخذاني إلى مستوصف الزبداني، الذي ما لبثت أن تهاويت عند بوابته وغبت عن الوجود، ثم وجدت نفسي ممدداً على أحد أسرة المستوصف، وقد أوقف الطبيب النزيف المتدفق من أنفي، فحمدت الله على السلامة، وغادرت وابني محمد المستوصف صبيحة ذلك اليوم سعيدين فرحين بتجاوز الأزمة.

لكن الحالة ما لبثت أن تكررت عصر اليوم نفسه، فأخذني إلى طبيب متخصص بالأنف والأذن والحنجرة حيث أجرى المطلوب وعدت سعيداً إلى الشقة لكي أبشر عائلتي بالسلامة... لكن ما أن مضت ساعة أو بعض ساعة حتى عاد النزف الغزير مرةً أخرى، فهرعنا ثانيةً إلى للطبيب المذكور الذي أعلن بعد محاولات عديدة لوقف النزيف عن عجزه، وطلب منا التحوّل سريعاً إلى إحدى مستشفيات دمشق...

والحق يقال لقد كانت تلك من أكثر اللحظات في حياتي تعاسةً وخوفاً... حيث كان علينا أن نقطع ما يقرب من الساعة في طريقنا إلى مستشفى المواساة في دمشق، وسيال الدم يتدفق بغزارة من أنفي حتى كدت أن أفقد الشيء الكثير منه، وأنا أضغط بقوة على قصبة الأنف كي أخفف من عنف النزف، وما لبثنا أن وصلنا المستشفى ودخلنا عيادتها الخارجية، حيث يسر الله ﷻ لي أحد الأطباء المقيمين الذي ما لبث أن وضع كتلة كبيرة من القطن والشاش داخل أنفي وضغط عليه بقوة، وفحص فمي وأعلمني، والبشر

يطفح من وجهه أن النزف قد توقف تماماً... لقد كانت تلك واحدة من أسعد اللحظات في حياتي.

بتنا ليلتنا تلك في إحدى ردهات المستشفى، ثم ما لبثنا في صباح اليوم التالي أن غادرناها عائدين إلى الزبداني، لكي نصطحب بقية أفراد العائلة ونستأجر سيارة تقلنا إلى عمان.

وصلنا نقطة الحدود ظهراً، وكنا خائفين من ألا يسمح لنا بدخول الأردن... فما أكثر المسافرين الذين أعيدوا من حيث أتوا عبر هذا الطريق، أو طريق طريبيل القادم من العراق مباشرة... ولكن بمجرد أن أريت شرطة التفتيش كتاب إعارة خدماتي لجامعة اليرموك حتى رحبوا بنا وسمحوا لنا بالدخول.

وصلنا عمان مساء، ونزلنا في فندق الأوركيدا في منطقة الشميساني، حيث حجزنا غرفتين، ثم ما لبثنا أن انطلقنا إلى مطعم الطازج القريب في شارع الكاردن لتناول العشاء، وأنا في وضع لا يحسدني عليه أحد، حيث كتلة القطن الكبيرة تتدلى من أنفي، بحيث أن كل عملاء المطعم، ما كانوا يجلسون على مناضدهم لتناول الطعام إلا بعد أن يتوقفوا هنيهة قبالتي لكي يتمعنوا في وجهي ذي المنقار الأبيض العجيب، وأنا صابر محتسب... فلا حول ولا قوة إلا بالله!!

أسرعنا في اليوم التالي إلى مستشفى الجامعة الأردنية حيث يعمل صديقنا العزيز الدكتور عبد المنعم الليلة، الاختصاصي بالأنف والأذن والحنجرة... ولكنه ما أن بدأ العمل لسحب كمية القطن حتى أصابه التوجس من عودة النزف فطلب التأجيل إلى مساء اليوم نفسه لاستكمال استعداداته، وحينذاك قدر على نزع لفافات القطن وكوي شريان الأنف دون أية مضاعفات... فحمدنا الله... وقلت لأسرتي خلال العودة أن هذه الأخرى لهي واحدة من أسعد اللحظات من حياتي.

لكني عبر الأيام التالية، ونحن نتجول في شوارع عمان ومتنزهاتها

ومحلاتها التجارية وأسواقها المركزية ومطاعمها الرائعة، كنت أعاني من الإعياء الشديد، والهزال، بسبب الكم الكبير من الدماء التي نزفتها... هذا إلى جملة من المتاعب الأخرى في الرأس والبلعوم، الأمر الذي اقتضاني استشارة الدكتور عبد المنعم، فنصح بالمبيت ليلة أو ليلتين في مستشفى الجامعة الأردنية لإجراء الفحوصات الكاملة... حيث ما لبثت أن غادرت المستشفى بعد يومين وأنا في وضع نفسي أفضل بكثير.

بعد قضاء أسبوع في عمان قفلنا عائدين بالسيارة إلى الموصل عبر سوريا، حيث تعرضت سيارتنا في إحدى اللحظات لاصطدام مريع مع إحدى الشاحنات، ربما بسبب إغفاءة سريعة جداً للسائق عبر ذلك الليل الطويل... ولكن الله ﷻ سلّم، ووصلنا الموصل في ضحى اليوم التالي سالمين غانمين بحمد الله سبحانه وفضله.

بدأت دوامي في كليتي عبر الفصل الدراسي الأول بين عامي (٢٠٠٥ ـ ٢٠٠٦م)، حيث رحت ألقي المحاضرات على طلبة صفوف المراحل الأولى، والماجستير والدكتوراه، وأساهم في مناقشة الرسائل والأطروحات، وأتولى الإشراف على بعض الطلبة الذي كثيراً ما قطع بسبب أسفاري المتواصلة، واضطر الطلبة للتحول إلى مشرفين بدلاء.

ثم ما لبث الفصل الثاني أن حان موعده، فرتبت أمر رحلتي هذه المرة بمعية زوجتي، لمتابعة أوضاعي الصحية، فركبنا الطائرة من مطار أربيل الدولي إلى عمان حيث بلغناها ظهراً، وأخذنا تاكسي إلى إربد مباشرةً، وبعد يومين أو ثلاثة من مبيتنا في شقة غير ملائمة، أعدّت لنا الكلية شقة رائعة من الشقق السكنية داخل الحرم الجامعي على بعد خطوات من الكلية.

والتاريخ يعيد نفسه كما يقولون... فالذي سردته من تفاصيل حول عملي في جامعة اليرموك في الفصل الدراسي الثاني من العام الماضي، سيتكرر عبر هذا الفصل، مع فارق بسيط هو وجود زوجتي معي هذه المرة حيث الغداء المشترك للوجبات الموصلية، والأمسيات الطيبة في الشقة مع الأحاديث

والتلفزيون، وحيث الخروج عصر كل يوم، بعد قيلولة خفيفة، للتجول عبر شارع الجامعة، والجلوس في إحدى المقاهي العائلية لتناول العصائر والشاي والآيس كريم... ثم أداء الصلاة في الجامع الكبير، والتوجه من ثم إلى أحد المطاعم لتناول وجبة العشاء...

وكنت، أسوةً بالفصل السابق، أتجه إلى الكلية صبيحة كل يوم من الأيام الأربعة المخصصة لمحاضراتي، لإلقاء محاضرتين على طلبة الدراسات الأولية، ومحاضرة طويلة مساء على طلبة الماجستير... أما في الأيام التي لم أكن ملزماً للدوام فيها، فكنا نأخذ طريقنا إلى عمان لقضاء جملة من المشاغل والمشتريات والأعمال ولتلبية دعوات الغداء والعشاء في بيوت الأقارب والأصدقاء، ثم ما نلبث أن نقفل عائدين لاستكمال الأمسية في شقتنا في إربد.

الشيء الذي أقلقنا، وامتص الكثير من سعادتنا، هو كثافة مراجعاتي وزوجتي للأطباء والمستشفيات في قضايا الأسنان، والعيون، والفقرات، والمفاصل، والحساسية... الخ من المنغصات المرضية التي لا تعدّ ولا تحصى، والتي استنزفت منا الشيء الكثير من الجهد والوقت والمال.

كان عميد الكلية الأستاذ الدكتور عبد الناصر أبو البصل، قد تغيّر، وحل محله أستاذ جامعي لا يقل عنه سماحة ونبلاً وخبرة إدارية وعلماً هو الأستاذ الدكتور محمد العمري، الذي تلقاني وبقية الأساتذة والإداريين بصدر رحب، حيث كانت أجواء المحبة والانسجام تسود الكلية بأقسامها المختلفة...

وكنت أدعى بين الحين والآخر للمشاركة في مواسمها الثقافية حيث تغص القاعة بالحضور وتدور مناقشات خصبة بين المحاضرين والطلبة والأساتذة الحضور... هذا فضلاً عن مشاركتي في مناقشة رسائل الماجستير، وفي تقييم خطط البحوث المقدمة إلى قسم الدراسات العليا، وتداول الرأي بخصوص كل ما يهم القسم من قضايا ومعضلات...

ومنذ وصولي الأردن في عامي (٢٠٠٥ ـ ٢٠٠٦م) وحتى مغادرتها في

بداية صيف عام (٢٠٠٦م) كان عليّ معالجة جملة من المنغصات التالية بعد قلق وتردد، ووقوع في دائرة (الففتي ففتي) في العديد منها:

دعوة لحضور مهرجان الفن الإسلامي في الجزائر (وقد اعتذرت عنها)، دعوتان من المغرب نفذت إحداهما واعتذرت عن الأخرى، دعوة من دار الفكر في دمشق اعتذرت عنها، دعوة للمشاركة في مؤتمر إسلامي من مؤسسة آل البيت اعتذرت عنها، دعوة لحواريات فضائية في قناة (اقرأ) في جدة اعتذرت عنها، المشاركة في جائزة المبدعين في جامعة اليرموك، اعتذرت عنها.

المشاركة في تأليف كتاب عن المرحلية في القضية الفلسطينية مع ثلة من كبار علماء الأمة ومفكريها، أنجزت فيه صفحات ثم توقف المشروع، دعوة للمشاركة في حقيبة وزارية في الحكومة العراقية اعتذرت عنها، دعوة للكتابة في جريدة (الغد) الأردنية انجزت فيها عدة حلقات ثم توقفت عن الاستمرار، توجيه نصيحة جماعية لزعماء السنة في العراق أرسلتها مع أحد الأخوة المعنيين، دعوة للمشاركة في ندوة عن القدس تقيمها جريدة (السبيل) اعتذرت عنها.

دعوة لإلقاء محاضرة جماهيرية عامة في مدينة الزرقاء اعتذرت عنها، دعوة من الدكتور محسن محمد صالح مدير مركز الدراسات الفلسطينية لأكون عضواً في هيئته الاستشارية تمت الموافقة عليها، دعوة من مدير عام مؤسسة للتجارة لإلقاء عدة محاضرات في الحضارة والتاريخ في سياق سيمنار لعدة أسابيع مع مجموعة عراقية اعتذرت عنها، الخ...

إبراهيم غرايبة يطلب إجراء حوار لموقع (الإسلام اليوم) حول العنف اعتذرت عنه، محاضرة شبابية في الرمثا اعتذرت عنها، دعوة لتسجيل ثلاثين حلقة عن السيرة لتسويقها لإحدى الفضائيات لم يتم تنفيذها لأسباب فنية، دعوة من الإعلامية الأخت نداء زقزوق لتسجيل حلقة فكرية لتسويقها لإحدى الفضائيات تم تنفيذها، دعوة لإلقاء محاضرة في قصر وجيه سعودي اعتذرت

عنها، دعوة أخرى من الإعلامية إياها لتسجيل لقاء إذاعي في قناتها الأردنية الخاصة تم الاعتذار عنها...

مشكلة الإقامة وحساسياتها السياسية تّم تجاوزها والحمد لله، مشكلة غموض المستقبل وضرورة تحديد الموقف من العودة إلى العراق، وقد تم حسمها بقرار العودة، مشكلة اتخاذ قرار نهائي بخصوص أعمالي المنشورة لدى الأخ رضوان دعبول والتي تزيد على الثلاثين عدداً، تم حسمها بتحويلها إلى ناشر آخر والتنازل عن بقايا حقوقي المالية التي تتجاوز الستة آلاف دولار.

الأخ الدكتور عبد المنعم الليلة يلح عليّ ألا أرجع إلى العراق في العطلة الصيفية حيث الأوضاع تنذر بالويل... دعوة من السودان اعتذرت عنها، دعوة من الإمارات العربية المتحدة اعتذرت عنها، دعوة متميزة لأداء مناسك الحج اعتذرت عنها، دعوة من قطر موجهة من قبل الأستاذ الدكتور القره داغي اعتذرت عنها.

دعوة للحوار في إسطنبول موجهة من (أبو زغلول) اعتذرت عنها، دعوة لتسجيل حلقة في قناة الجزيرة الفضائية عبر برنامج (زيارة خاصة) تمّ تنفيذها... الخ... الخ... من الدعوات والمناسبات والمشاكل التي أفلتت من ذاكرتي...

كانت رحلة عام (٢٠٠٦م) إلى جامعة اليرموك في الأردن آخر رحلة عمل أكاديمي لي خارج بلدي... ورغم مخاطر بقائي في الموصل، حيث لا تزال سكين التهديد بالتصفية الجسدية قائمة... إلا أني تركت أمر حمايتي لله ﷻ الذي طالما أنقذتني إرادته الحاسمة من الموت... وكان الكثير من الأصدقاء ينصحونني بألا أغادر البيت إلا في الضرورات، وألا أمارس رياضة التخطي اليومي في شوارع المدينة خشية من سوء العاقبة، فلم أكن أستجيب لطلباتهم، حيث وجدتني أدخل خيمة الله ﷻ، وحمايته التي تردّ عني كيد الكائدين.

استقر بي المطاف في كليتي العزيزة، حيث الانسجام والمحبة بين أساتذة قسم التاريخ الذي كنت أعمل فيه، وحيث أحاطني عميد الكلية وأساتذتها وطلبتها

بأجواء المودة والتقدير، فما لبثت أن بدأت عملي مقتصراً على تدريس طلبة الدراسات العليا في مرحلتي الماجستير والدكتوراه، والمشاركة في مناقشة العديد من الرسائل والأطروحات. أما الإشراف فقد توخيت الاعتذار عن العديد من الطلبات، والاقتصار على أطروحة واحدة أو اثنتين من الطلبة المتميزين، بخلاف التدريسيين الذين كانوا يتهافتون على الإشراف، ويتقاتلون عليه بسبب ما يدره عليهم من مبالغ مالية...

وعلى أية حال فإن مستويات الطلبة الذين كانوا يقبلون في الدراسات العليا، تعرّضت للانهيار، بصورة عامة، أسوةً بحركة التعليم كله بمراحله المختلفة في العراق، وفي معظم البلدان العربية... فلم نعد نتلقى إلا نادراً، تلك النماذج من الباحثين المبدعين الذين ينجزون رسائل وأطروحات متميزة تعكس قدراتهم المتألقة في مجال البحث...

وفي اعتقادي أن نقطة الانطلاق للحل المطلوب، والبداية العملية الممكنة، تستدعي إحياء تقاليد المطالعة الخارجية، (القراءة الجادة في الكتاب) لتنمية ثقافة الباحث، فبدون الفضاء المعرفي الواسع لا يمكن للباحثين أن يكونوا شيئاً، أو أن يضيفوا حلقة ذات غناء إلى حياتنا الاجتماعية، وهذا لن يتشكل إلا بالعودة إلى تقاليد المطالعة الجادة في الكتب.

قبل أربعين أو خمسين سنة كان الجميع يقرؤون... الطالب والمعلم والمدرس والأستاذ، وكانت القراءة الخارجية خبزهم اليومي، يتابعونها صباح مساء، لا يكلون ولا يملون، فيشكلون بذلك فضاءهم المعرفي ويبنون شخصياتهم المؤثرة... وعلى مدى سنوات وعقود طويلة من عملي التعليمي كنت أقول لطلبتي أن عشرين سنة من الاعتماد على المقررات التدريسية في المدارس والجامعات، وعشرين سنة أخرى من الجلوس أمام الشاشة التلفازية أو الكومبيوتر أو الإنترنيت... لن تخرج مفكراً ولا باحثاً ولا مؤلفاً ولا أديباً ولا مبدعاً... وأن الذي يخرج هؤلاء هو (الكتاب)، فهو المدرسة الأم التي

تعرف كيف تعين العملية التربوية ـ التعليمية على المضي إلى أهدافها المتوخاة.

ومنذ ثلاثين سنة أو أربعين سنة كانت المكتبات العامة أشبه بخلايا النحل التي تعج بالقراءة والمطالعين، وكانت الأجيال تداوم فيها عبر مرحلتين: صباحية ومسائية... ثم تعود ليلاً إلى الدار لكي تواصل القراءة حتى ساعة متأخرة من الليل... وأية قراءة كانت تلك التي يتم الحديث عنها؟ انها القراءة المنتجة وليست الاستهلاكية... القراءة التي تتشرب مفاهيم الكتاب وتدخل في جدل معه، والتي تنوّع في مطالعاتها في شتى مناحي المعرفة... ذلك أن التنوع يعد ضرورة من ضرورات تكوين الشخصية الفاعلة المؤثرة... فالاقتصار على القراءة في حقل التخصص سيجمد الفكر، ولا يعينه على الحركة المطلوبة في سنن الكتابة والإبداع.

ونحن أمة (اقرأ) التي تنزل كتابها العظيم في كلماته الأولى بمفردات القراءة والعلم: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ ـ ٥] ولكننا للأسف الشديد لم نعد نقرأ... وهنالك إحصائية معروفة تقول أن المواطن الغربي يقرأ في السنة الواحدة مائتي ساعة، والمواطن العربي خمس دقائق فقط!! ولطالما سألت طلبتي في الدراسات العليا عن عدد الكتب التي يقرؤونها في العام الواحد، فإذا بمعظمهم لم يقرؤوا كتاباً واحداً، وهم بصدد الحصول على الدكتوراه... وكنت أقول لهم مستفزاً: إنكم ستحصلون عليها، ولكنكم ستتخرجون أميين، وسيكشف عواركم أمام طلبتكم، وعبر الندوات والمؤتمرات التي ستدعون إليها...

فأي مأساة هذه وأنت تجد حتى أولئك الذين يحملون درجة الأستاذية لا يقرؤون كتاباً واحداً في السنة، فماذا سيقدمون لطلبتهم من علم ومعرفة؟ وبم ستكون قدرتهم على تخريج أجيال من المبدعين؟ وإذا كان هذا حال الأستاذ الجامعي، فكيف سيكون حال المدرّس والمعلم والطالب؟!

لهذا كله كان على الأساتذة المشرفين أن يبذلوا جهوداً استثنائية في

معاونة طلبتهم على إنجاز رسائلهم وأطروحاتهم، ولو في حدودها الدنيا من سلامة اللغة، والمنهج، وقوة التركيب، ودقة التوثيق، واختيار الموضوع المناسب... بل إن بعضهم لم يعتد على ما يبدو أن يكتب صفحة واحدة تخلو من الأخطاء اللغوية والنحوية والإملائية... ومن ركاكة التعبير واضطراب الأداء اللغوي... وكان هذا يسبب، خصوصاً للأساتذة الذين يعانون من متاعب في القلب، الكثير الكثير من الأذى والإزعاج...

في صيف ذلك العام (٢٠٠٦م) تلقيت وعدد من أساتذة جامعة الموصل ورئيسها، دعوة من مكتب لندن للمعهد العالمي للفكر الإسلامي، موجهة من مستشاره الأكاديمي الأخ الدكتور أنس الشيخ علي لحضور إحدى مؤتمرات المعهد في إسطنبول...

غادرنا الموصل صبيحة أحد الأيام من حزيران، في عدة حافلات، حيث سلكنا الطريق البري إلى حلب، التي وصلناها مساءً، وفي اليوم التالي غادرناها ميممين وجوهنا صوب غازي عينتاب حيث بتنا ليلتنا هناك، ومنها إلى مطار ديار بكر، حيث توجهنا بالطائرة إلى إسطنبول، ونزلنا في فندق راقٍ قضينا فيه أيام المؤتمر الثلاثة، ونحن ننتهز الفرصة بين الحين والحين للقيام بجولات تخطٌ عبر الشوارع المحيطة به، فضلاً عن رحلة بحرية في مركب كبير عبر البسفور حيث تناولنا فيه طعام العشاء ودارت الأحاديث ذوات الشجون...

كما قمنا بزيارة جملة من المراكز العلمية بما فيها ذلك الذي يصدر موسوعة الوقف التركي المشهورة، والتي سبق وأن شاركت فيها ببحث موسع عن تاريخ العراق بعد تلقي دعوة من مسؤولها البروفيسور آق جشمة للكتابة في الموضوع.

وثمة لقاء آخر تحدث فيه الأستاذ (داود أوغلو)، الذي سيصبح فيما بعد وزيراً للخارجية، ثم رئيساً للوزراء، والذي طرح فيه جملة من تنظيراته العميقة بخصوص السياسة التركية.

وما لبثنا في فجر اليوم الرابع أن قفلنا عائدين بالطائرة إلى مطار ديار

بكر ومنه ركبنا عدداً من سيارات الأجرة، التي أوصلتنا، بعد رحلة مضنية إلى زاخو في شمال العراق، ومنها إلى الموصل التي وصلناها مع الغروب وسط ظروف أمنية غاية في السوء، حيث كانت الحرب الطائفية قد اشتعلت منذ شباط الماضي، بسبب مؤامرة تفجير مرقدي الهادي والعسكري في سامراء، والتي أعقبت، كما أريد لها، حملة طائفية عاتية ضد أهل السنة والجماعة في بغداد، ومدن الجنوب، وامتدت آثارها إلى الشمال، حيث قتل الآلاف من الأبرياء، وذبح المئات من أئمة المساجد، ودمّر وأحرق ما يزيد على المائة والثلاثين مسجداً سنياً... ولكن الله ﷻ سلّم، وما لبثت هذه الحملة أن انطفأت نارها وإن كانت ذيولها قد استمرت في الاشتعال.

في عام (٢٠٠٨م) تلقيت مكالمة هاتفية من أحد الأصدقاء في الإمارات يطلب مني الترشيح لنيل الجائزة بتشجيع من أحد أعضاء هيئتها العليا: الأخ الصديق الأستاذ الدكتور سلطان العلماء... ويقول لي: إنّ فوزك بالجائزة قاب قوسين أو أدنى... لكنني ما لبثت أن اعتذرت عن الترشيح.

في عام (٢٠٠٧م)، كانت أولى رحلاتي التي قمت بتنفيذها هي تلك الدعوة التي تلقيتها من المكتب الإقليمي للمعهد العالمي للفكر الإسلامي في عمان، بالمشاركة مع عدد من الجامعات الأردنية لتقديم بحث لمؤتمرها عن ابن خلدون... أعقبتها رحلة أخرى في خريف ذلك العام إلى إسطنبول تلبية لدعوة مشاركة في المؤتمر الدولي حول فكر بديع الزمان سعيد النورسي، حيث اصطحبني فيها كل من الأستاذ الدكتور عبد الواحد ذنون، عميد كلية التربية، والدكتور محمد وجيه زين العابدين، حيث نوقشت جملة من البحوث كان من بينها بحث لأستاذ إيراني يحمل عنوان (العدالة في فكر علي بن أبي طالب رضي الله عنه)، فلما انتهى من إلقائه قلت له:

وأنت تتحدث عن العدالة... ألا يتحتم عليك أن تشير، فضلاً عن موقف علي رضي الله عنه منها، إلى من سبقه من الخلفاء الراشدين وعلى رأسهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، الذي ارتبط اسمه بالعدل في أوسع معانيه وأعمقها على

الإطلاق... لماذا هذا التقوقع عند شخصية عليٍّ فحسب وإغفال إخوانه الذين سبقوه على الطريق...

فلم ينبس الرجل ببنت شفة... وكنت أتمنى أن ترتفع أيادي المناقشين لتأييد موقفي والردّ على هذا الفكر المتزمّت... ولكن يبدو أن العديد من الحضور لم ينصتوا جيداً لما قاله الباحث الإيراني المذكور... أو أنهم آثروا السلامة...

وثمة رحلة أخرى إلى إسطنبول في صيف عام (٢٠٠٨م)، حيث دعيت إلى ندوة خاصة حول فكر النورسي، أشبه بسيمينار محدود... فاصطحبت زوجتي معي، وما دام السفر بالطائرة فلا بأس... ساعتان فحسب في الفضاء تحط بنا الطائرة بعدها في مطار إسطنبول حيث يستقبلنا أحد الأخوة النورسيين بسيارته، ويجتاز بنا المسافات الطوال عبر شوارع المدينة التي يمتد قطرها عشرات الكيلومترات، لكي ننزل في أحد مقرات النورسيين في ضاحية بعيدة، يسودها الهدوء، وتحيط بها الأشجار والساحات الخضراء... وهناك بتنا ثلاث ليال حيث كان يقدم لنا طعام الإفطار والعشاء التركي اللذيذ... وحيث كانت الحافلة تأتي صباح كل يوم لكي تقلنا إلى بناء آخر خصص لإقامة الندوات...

كان المدعوون قد قدموا للمشاركة في الندوة من شتى البلدان: من المغرب، والسنغال، وسوريا، والأردن، ودول الخليج، واليمن، والعراق... وألقيت البحوث ودارت حولها المناقشات بإشراف الأخ الأستاذ إحسان قاسم الصالحي الذي كان يعجبني أن أطلق عليه لقب (دينامو النشاط النورسي في العالم كله) حيث كان بمثابة المهندس القدير لجملة من المؤتمرات النورسية من ماليزيا في أقصى الشرق وحتى المغرب، مروراً بالعراق والأردن والشام ومصر والسودان والعمق الإفريقي.

بعد انتهاء الندوة آثرنا اختيار فندق رائع في الجانب الشرقي من إسطنبول، قريب من الكورنيش المطل على البسفور في منطقة مزدحمة بالمطاعم والمقاهي والأسواق والمتنزهات... قضيت وزوجتي هناك ثلاثة أيام

لا يزال طعمها في أفواهنا، حيث كنا نتناول الإفطار في سطح الفندق، وفي هوائه الطلق والمناظر البديعة التي يشرف عليها، ثم ما نلبث أن نغادر الفندق بجولة طويلة في أسواق المنطقة، حتى إذا حان موعد الغداء اخترنا أحد المطاعم البديعة لتناول وجبة من الغداء الشهي، نعود بعده إلى الفندق لأخذ قيلولة مشبعة، نتجه بعدها في جولة تخط طويل على الكورنيش، حيث منظر البسفور بسفنه ومراكبه، وحيث الأرض التي تزينها الزهور الرائعة ذات الألوان، وحيث حركة الناس المزدحمة، حتى إذا انتهى بنا المطاف عند كازينو عائلي رائع يطل على البسفور، جلسنا هناك الساعات الطوال، نتناول العشاء ونمتع أبصارنا بحركة الغادين والرائحين...

كما أننا عبرنا صبيحة أحد الأيام إلى الجانب الأوربي من إسطنبول، وحجزنا في أحد المراكب التي اجتازت بنا البسفور حتى حافات البحر الأسود، في رحلة عذبة، حيث تناول الشاي وتعليقات الراكبين ومقالبهم... ثم النزول إلى قرية جميلة لتناول غداءنا من السمك الطازج... ومن ثم العودة وسط منظر الغروب الساحر والشواخص التراثية التي تنقل الإنسان إلى قلب العصر العثماني زمن تألقه وامتلاكه زمام الأمور في العالم.

وفي ليلة مغادرتنا إسطنبول دعانا الأخ الأستاذ إحسان قاسم الصالحي إلى أمسية رائعة في أحد المتنزهات المرتفعة في إسطنبول الشرقية، حيث تناولنا عشاءً دسماً من المشويات، وتبادلنا النكات والأحاديث مع جميع المدعوين، وما لبثنا صبيحة اليوم التالي أن جاءتنا سيارة ابنه الأخ سعد لكي تقلنا إلى المطار.

في ربيع العام التالي عام (٢٠٠٩م) أتيح لي السفر إلى عمان، بعد أن اتصل بي هاتفياً مندوب قناة الحوار الفضائية الأخ عزام التميمي، يطلب تسجيل جملة حلقات عن الفقه الحضاري... حيث سجلنا خمس حلقات في استديو استؤجر خصيصاً لهذا الغرض، وعرضت على فضائية الحوار أكثر من مرة بعد أن لقيت من جماهير المشاهدين قبولاً حسناً.

كنت في ذلك العام (٢٠٠٩م) قد تلقيت عرضاً من القائمين على مشروع (إحياء نظام تربوي أصيل) في الدوحة للمشاركة في بناء أحد بحوثه... اطلعت على مبررات المشروع ومحاوره الأساسية، فأغراني العرض سيما وأنه يأتي في سياق التأسيس الإسلامي للتربية في زمن الضياع... ولديّ الكثير مما يمكن أن أطرحه أو أقوله بخصوص البعد الحضاري للرؤية الإسلامية، للنشاط التربوي، والتفاصيل المنهجية لتحقيق المطلوب...

كما أغرتني أسماء المشاركين في المشروع ومعظمهم من النخبة الإسلامية ذات العطاء الثر في مجال التربية والتأصيل الإسلامي للمعرفة من أمثال: عبد الرحمن علي الحجي، ومصطفى المرابط، وعبد السلام الأحمر، وطه عبد الرحمن، والخليل النحوي، وعبد المجيد النجار، ومحمد عياش الكبيسي، وعبد المجيد بن مسعود، وأبو بكر محمد أحمد إبراهيم، وعمر فاروق كوكاز، ومصدق الجليدي، وخالد محمد الخطيب، ومحمود رشدان... وغيرهم...

أما القائمون عليه فهم كل من الأستاذ الدكتور محمد المصلح وأخيه الأستاذ الدكتور إسماعيل المصلح، وهما من أساتذة التربية في قطر... وافقت على العرض دون أن أدري أنني فتحت على نفسي ـ بذلك ـ بوابة الجحيم!!

كانت الفكرة تقوم على وضع جملة من التأسيسات التنظيرية والمرئيات التطبيقية لمشروع يراد له أن يتحول إلى مؤسسة تربوية قائمة على الأرض، لتخريج أجيال من الطلبة المبدعين الذين يملكون الوعي العميق بالدين الذي ينتمون إليه، وبمشروعه الحضاري الأصيل، ويتجاوزون حالة القلق الذهني، والازدواجية، والضياع، الذي ساقتهم إليه مناهج التربية المستقدمة من الغرب، والتي جعلتهم ينظرون بشيء من الازدراء حتى وهم يتعاملون مع الحضارة الإسلامية، وييمّمون وجوههم، برؤية علمانية فكّت ارتباطها بالدين وعالم الغيب، إلى كل ما يطلع عليهم الغرب من رؤية ومواقف وفلسفات.

ثم ما لبثنا أن دعينا نحن المشاركين إلى اللقاء التحضيري الأول في الدوحة، في شهر مايس من عام (٢٠٠٩م)، ولكننا فوجئنا جميعاً بعدم وجود

خطة وأفق لعملنا المشترك هذا، فطاشت المناقشات ذات اليمين وذات الشمال... رفضت بحوث على غير بينة محددة سلفاً من أهداف العمل، وطلب تعديل أخرى، وقبلت بحوث ثالثة بشكل أولي...

ومما زاد الأمر سوءاً أن حشر بين المشاركين عدد من أنصاف العلمانيين، جرت معهم مناقشات حادة وصلت حدّ العنف، واستنزفت الكثير الكثير من الجهد والوقت...

ولولا كياسة الأخ القائم على المشروع الدكتور محمد المصلح ومرونته وانفتاحه، لتبعثر المشروع منذ لقائنا الأول ذاك... وبالفعل فقد أقصي أو اختار الإقصاء عدد من المشاركين في اللقاءات التالية، حيث عقد اثنان منها في خريف العام نفسه في إسطنبول، دارت فيهما مناقشات شتى، وسط قدر كبير من الضباب وغياب وضوح الرؤية لما هو مطلوب...

ولذا كان كل واحد منا يتلقى على الإنترنيت، في الفترات التي تسبق كل لقاء، حشداً من الرسائل والتوجيهات التي يضرب بعضها بعضاً، وينفي بعضها ما سبق وأن تمت الموافقة عليه، وكنا نحن نستنزف جهداً شاقاً وزمناً طويلاً في ملاحقة هذه المتغيرات الكارثية على غير هدىً...

ثم كان اللقاء الأخير في إسطنبول، في شباط من العام التالي (٢٠١٠م) حيث طال بنا المكوث في الفندق الرائع المطل على البسفور... فندق الفصول الأربعة... ولكن الثلوج المتواصلة حبستنا في الفندق طيلة أيام اللقاء التي أريد لها أن تتجاوز العشرين يوماً، ضرب فيها المؤتمرون أخماساً في أسداس دون التوصل إلى رؤية مشتركة واضحة بخصوص التأسيس للمشروع، وجرى خلالها اشتباك حاد بيني وبين أحد العلمانيين، وأعلنت كما كنت قد أعلنت عبر اللقاءات السابقة كلها أنني سوف أنسحب من المشروع لحظة يتأكد لي أن القائمين عليه يستهدفون توظيف نتائجه ضد سياق التأصيل الإسلامي للمعرفة... ولكن كياسة الأخ الأستاذ الدكتور محمد المصلح كانت تطمئنني

دائماً إلى ما كنت وزملائي الآخرين، وعلى رأسهم الأستاذ الدكتور عبد الرحمن الحجي نرجوه من أصالة المشروع.

ثم ما لبث القائمون على المؤتمر أن أعلنوا عن انتهائه قبل الموعد المتفق عليه بأكثر من أسبوع... يبدو أنهم أدركوا عبث الاستمرار في التبديل والتحوير... والضرب على غير هدى، فعقد اجتماع ختامي قرئت فيه على عجل النتائج التي توصل إليها المؤتمرون الذين فوجئوا بالأمر، ثم ما كان منهم إلا أن ينفضوا عائدين إلى بلدانهم.

ومع ذلك، ولدى سماعي خبراً عن أن أحد القائمين على المشروع وجّه نقداً لفكرة التأصيل الإسلامي للمعرفة، اتخذت قراراً مع نفسي بتقديم استقالتي، إذ لا يمكن أن أعمل في مشروع يتحرك على النقيض من قناعاتي الخاصة، فما أن عدت إلى الموصل حتى بعثت بها على الإنترنيت إلى الأخ محمد المصلح الذي سرعان ما اتصل بي هاتفياً وأقنعني بالعدول، وأن المشروع في نبضه ومعطياته وما يتوخاه لن يكون إلا إسلامياً محضاً. كما كان لموقف العالم الجليل الأخ الموريتاني الأستاذ خليل النحوي، وإلحاحه عليّ عبر جملة من الرسائل بأن أعدل عن الاستقالة، دور كبير في سحب استقالتي على مضض.

وكنت من جهتي قد أنجزت بحثي وفق قناعاتي الخاصة، وقدمت فيه طبقتين من المعطيات إحداهما تنظيرية، والأخرى تطبيقية تمس المشروع مساساً مباشراً... ومن أجل ذلك وبعد إعلان نتيجة التحكيم التي قام بها جملة من خبراء التربية، نال بحثي المرتبة الأولى، بينما رفضت معظم البحوث الأخرى، ومع ذلك قد أرسلت للدكتور المصلح رسالة مفصلة أدين فيها إغماط المشاركين في بحوثهم، حقهم المشروع، بعد جهود الأشهر الطوال، وأرفض تسلّم مكافأتي المالية بناء على ذلك، وأوجه نقدي إلى من سُموا بالخبراء التربويين وهم ليسوا كذلك، وصدق الله العظيم القائل في محكم كتابه على لسان رسوله الكريم: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ

إنَّ﴾ [الأعراف: ١٨٨]... وأنا دائماً لا أقدم على قبول دعوة ما، أو رفضها، إلّا بعد تقليب الأمر على وجوهه جميعاً خشية من الوقوع فيما لا تحمد عقباه... ولكن!!

وكنت عبر اللقاء الأول للمؤتمر في الدوحة، قد توافق وجودي مع موعد سبق وأن رتبته مع الأخ معتز الخطيب المشرف على برنامج (الشريعة والحياة) في قناة الجزيرة الفضائية، حيث تم تسجيل حلقة عن مستويات الخطاب القرآني مع الأخ المحاور (والمتألّق عثمان) لقيت عند عرضها قبولاً حسناً... ثم ما لبث أن جاءني الأخ معتز الخطيب (الدكتور فيما بعد) إلى الفندق مع كادره الإعلامي وآلياته لتسجيل حلقة في برنامجه (كتاب قرأته)، فتم تسجيل الحلقة بخصوص كتابي (المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي)، لقيت هي الأخرى القبول الحسن لدى المشاهدين بحمد الله...

ومن ثم دعيت والأخ معتز إلى تناول العشاء مع الأخ والصديق الأستاذ (وضاح خنفر) مدير عام قناة الجزيرة الفضائية، تناولنا فيه وجبة سمك رائعة، وتبادلنا الأحاديث والمرئيات...

كان عام (٢٠١٠م) عام الكفاح المتواصل على أكثر من جبهة، بذلت خلاله جهداً استثنائياً تنوء به العصبة أولو القوة، ولكن الله وحده هو الذي أعانني عليه، وأنقذني في الوقت نفسه من نتائج زخمه الكبير، حيث انتهى الأمر بي في خريف ذلك العام إلى أن أسقط في مطار إسطنبول وأنقل في سيارة إسعاف إلى إحدى مستشفيات إسطنبول قبل أن يقع المحذور، ولكن الحديث عن هذه الوقعة لن يكون، قبل أن أستعرض ما شهده ذلك العام من الأسفار السبعة إلى بيروت وإسطنبول والبحرين، وعمان، وأنقرة، وعمان مرةً أخرى، ثم إسطنبول أخيراً...

كنت قد دُعيت في مطلع ذلك العام للمشاركة في مؤتمر المنهاجية، الذي دعا إلى عقده المعهد العالمي للفكر الإسلامي تمهيداً لإنشاء جامعتهم في طرابلس اللبنانية... وصلت بيروت مساء، حيث استقبلني في المطار أحد الأخوة، وتوجه بي إلى الفندق الذي سينزل فيه المشاركون... التقيت هناك

بمعظم القائمين على المعهد: الأستاذ الدكتور عبد الحميد أبو سليمان، الدكتور جمال البرزنجي، الدكتور هشام الطالب (ابن عمي وصديق طفولتي وشبابي)، والدكتور فتحي ملكاوي... وغيرهم... وجرت الأحاديث ذوات الشجون... وفي اليومين التاليين ألقيت البحوث ودارت المناقشات، حيث أتيح لي أن ألقي ملخصات باثنين من بحوثي، وأقدم للدكتور أبو سليمان، رئيس المعهد، مرئياتي المنهجية بخصوص تدريس مادة فلسفة التاريخ والفقه الحضاري.

في اليوم الثاني للمؤتمر ونحن متحلقون في قاعة الاجتماعات نستمع إلى التوصيات التي خلص إليها المؤتمر، إذا بي أحس فجأة بغثيان عنيف يجتاح معدتي، ودوار مخيف في رأسي، ثم ما لبثت أن انكببت على المائدة التي وضعت أمامي وغبت عن الوجود... فتداعى الأخوة عليّ وحملوني إلى مكان فسيح، وراحوا يمارسون التدليك ويرشون الماء على وجهي، وما أن استفقت حتى كانت سيارة الاسعاف تنقلني بمعية عدد من شباب المؤتمر على رأسهم ابن عمي (مروان عز الدين الطالب) إلى إحدى المستشفيات التخصصية في بيروت، حيث طمأنتني نتائج الفحوص ألّا شيء هناك يرتبط بعمل القلب والحمد لله... وما لبثوا أن جاؤوا لكي تقلنا السيارة لحضور دعوة عشاء في أحد مطاعم بيروت الرائعة...

ولكن وفي صبيحة اليوم التالي، وبعد أن حزمت حقائبي للعودة في الطائرة اللبنانية إلى مطار أربيل في بلدي العراق، اتصلت هاتفياً بالشركة للتأكد ـ كعادتي ـ من موعد السفر، فأعلموني أن موعدها قد تغير وأنها انطلقت قبل ساعات عائدة إلى العراق، دون أن يتصلوا بي لإعلامي بموعد التغيير، فأسقط في يدي، لكنني ما لبثت أن وجدت من يعينني على تجاوز إشكاليتي تلك، ألا وهو الأخ الأستاذ الدكتور صباح البرزنجي الذي أعلمني بأن هناك طائرة عراقية ستغادر بيروت عصر اليوم نفسه، فأسرعنا بتحويل الحجز، وعدت إلى الفندق وأنا أحس بسعادة غامرة، حيث قمت بجولة في الشوارع المحيطة بالفندق، وجلست أحتسي الشاي وآكل الجاتوه في مقهى قريب ثم ما لبثنا أن يممنا وجوهنا صوب المطار.

بعد أيام قلائل حان موعدي مع مؤتمر (التربية الأصيلة) في إسطنبول، والذي اعتقلنا لمدى أسبوعين، وبذلت فيه جهداً فكرياً ونفسياً قاسياً، فيما سبق الحديث عنه قبل صفحات...

حينما عدت إلى أربيل من رحلتي تلك إلى إسطنبول في شباط، وأخذت سيارة لكي تقلني إلى الموصل، فوجئت بأن الطرق المفضية إلى مدينتي قد أقفلت من قبل قوات الجيش العراقي، حماية لمسيرة شيعية بمناسبة يوم عاشوراء، وكدت أن أرجع ثانيةً إلى أربيل بعد أن أوشكت على الوصول إلى مدينتي... ولكن إرادة الله ﷻ شاءت أن تجد لي الفرصة للخروج من المأزق، فإذا بسيارة اثنين من الأصدقاء تقف إلى جواري، وهما يقولان: اصعد فلسوف نعثر على طريق للرجوع... فما لبثت أن ركبت السيارة التي راحت تداور وتناور عبر الطرق الجانبية غير المطروقة، حتى أخرجتنا من منطقة المنع ودخلت بنا المدينة...

لكي ما ألبث في اليوم التالي لوصولي أن أتلقى نبأ وفاة عمتي (والدة زوجتي) التي كانت تعزّني، وتلبي كل طلباتي، والتي طالما كانت تأتي للمبيت مع ابنتها عبر أسفاري العديدة، فتزيد عائلتي أمناً واطمئناناً... كانت عمتي ببشاشة وجهها، وسماحتها، وسخائها النادر، وعطفها وحنانها، وتمييزها لي بمحبتها، تذكرني دائماً بجدتي الغالية (رحمها الله) التي توفيت عام (١٩٦٩م)... لكن ما آلمني وجعلني وأنا أتلقى النبأ، أدور على نفسي وأنا أذرف الدموع، مردداً: يرحمك الله... يرحمك الله... أيتها العمة الغالية... أكان عليّ ألّا أكون إلى جوارك لحظة وفاتك؟ ولكن ذلك أمر الله ﷻ وكان أمره قدراً مقدوراً.

بعد أقل من شهر تلقيت دعوة من الأستاذ الدكتور سمير فخرو، رئيس جامعة البحرين المفتوحة، لترتيب أمر إلقاء جملة من المحاضرات في الفقه الحضاري والتاريخ الإسلامي، حيث كنت قد أهديته لدى لقائي إياه في بيروت

قبل ثلاثة أشهر، كتابي (مدخل إلى التاريخ الإسلامي) و(مدخل إلى الحضارة الإسلامية)، فأعجب بطروحاتهما وقرر تعميمهما على طلبة الجامعة...

بقيت هناك أسبوعاً وكنت أتجه يومياً في سيارة أحد موظفي العلاقات الخارجية للجامعة، وأقضي فيها الساعات الطوال في التواصل والحوار مع طلبة الجامعة عبر جهاز الإنترنيت... وكان هذا يقتضي مني التركيز الذهني والحرص على كل دقيقة تمضي، وتوظيفها لإيصال أكبر قدر ممكن من المعلومات إلى الطلبة والطالبات... وكان يزيدني جهداً على جهد، أن أجهزة التواصل لم تكن محكمة بشكل جيد بسبب خطأ الموظفة المسؤولة، فأعود لإلقاء المحاضرة بتفاصيلها من جديد...

هذا إلى أنهم طلبوا مني أن أضع جملة من الأسئلة التحليلية والشبحية، وأن أضع إلى جانب كل سؤال جوابه المطلوب، وقد تطلّب ذلك مني أن أحبس نفسي في الفندق الساعات الطوال بعد عودتي كل يوم من الجامعة، لوضع منظومة من الأسئلة، وأجوبتها، تتجاوز الثلاثمائة سؤال عدداً لكل من مادتي التاريخ والحضارة... وكان أشد ما يزعجني أن يخترق جلسات عملي في الجامعة عدد من المعارف والأساتذة لإثارة موضوعات خارج المطلوب وتزجية أوقات فراغهم، فكنت أقفل عليّ الباب وأنصرف للعمل.

وما لبثت في اليوم الرابع أو الخامس من وجودي في البحرين أن أحسست بألم لا يطاق في إبهام قدمي اليمنى، بحيث أن أي مساس به كان يصيبني بما يشبه المسّ الكهربائي، فاتصلت بالجامعة التي أرسلت لي موظف العلاقات الخارجية لكي يقلني بسيارته إلى إحدى المستشفيات التخصصية، حيث شخص الطبيب الحالة بأنها داء النقرس، وكتب لي جملة من الحقن والأدوية ومنعني من تناول اللحوم الحمراء والنشويات... و... و... وما لبثت بعد ساعات قلائل من تناول الأدوية، أن استعدت صحتي وعافيتي والحمد لله... وبعد أن سلمت منظومة الأسئلة والأجوبة لرئيس الجامعة، غادرت البحرين عائداً بالطائرة إلى بلدي.

بعد أسبوعين من عودتي تلقيت مكالمة هاتفية من الأخ عزام التميمي يطلب مني لقاءه في عمان، لتسجيل بضع وعشرين حلقة عن التاريخ الإسلامي في برنامج (وقفات)، الذي تبثه قناة الحوار الفضائية... استجبت للدعوة، وقررت السفر لتلبية المطلوب، وربما كان أحد أسباب ارتياحي للعرض، أن قناة الحوار هي من أكثر القنوات العربية استقلالية، وبعدها عن التعامل مع السلطات العربية، فضلاً عن إيصال خطابي بخصوص الملامح الأساسية لحركة التاريخ الإسلامي لآلاف المشاهدين، بعد الغبش الذي تعرض له عبر مناهج التعليم المختلفة.

التقينا في عمان، حيث نزلت في فندق بل فيو الأنيق في جبل عمان، ورتبنا أمر اللقاءات في استديو قريب من الفندق حجز لهذا الغرض، ورحنا نسجل الحوار الثنائي بيني وبينه بخصوص معطيات التاريخ الإسلامي بدءاً من عصر الرسالة وحتى العصر الحديث... وكنا نعمل يومياً من ساعات الصباح الأولى حتى العصر، وتمكنا ـ بذلك ـ من تسجيل بضع وعشرين حلقة في مدى أربعة أيام فحسب... حيث كنا نسجل في كل لقاء خمس حلقات سرعان ما بثتها فضائية الحوار، فلقيت إقبالاً رائعاً جعلها تعيد بثها أكثر من مرة...

لكن هذا الجهد الاستثنائي المبذول عبر ذلك المدى الزمني المحدود... مضافاً إليه ما بذلته من جهد هائل في جامعة البحرين، ومن قبلها عبر مؤتمر مشروع (إحياء تربية أصيلة)، ومن قبلها عبر لقاء المعهد العالمي للفكر الإسلامي في بيروت... ذلك كله من حيث لم أكن أشعر، كان يشكل ضغطاً متزايداً على قلبي... ولقد ازداد هذا الضغط عبر الأشهر والرحلات القادمة، حتى انتهى بي إلى تلك السقطة التي أوشكت بي على الموت في إسطنبول لولا أن الله ﷻ سلّم؟؟

بعد أسابيع قلائل من عودتي من عمان كان عليّ تلبية دعوة من الأخ والصديق الأستاذ الدكتور دريد عبد القادر نوري، الملحق الثقافي في أنقرة بتركيا للمشاركة ببحث في ندوة العلاقات العراقية ـ التركية بمعية ثلاثة من

أساتذة جامعة الموصل... كان علينا بعد أن وصلنا مطار إسطنبول مساءً أن نجد طائرة أخرى تقلنا إلى أنقرة، وإذ أعلمنا أن ذلك يتطلب المبيت في المطار بانتظار اليوم التالي؟ آثرنا الاتصال بإحدى شركات النقل بالحافلات إلى أنقرة، وهرعنا إليها لكي ترحل بنا لمدى عدة ساعات، حيث وصلنا أنقرة فجراً، وكان الأخ الدكتور دريد عبد القادر في استقبالنا، حيث أخذنا إلى فندق أنيق ارتحنا فيه ذلك اليوم، وقمنا عصراً بالتجوال في الشوارع المحاذية، وفي اليوم التالي افتتحت الندوة، حيث طلب مني أن ألقي محاضرتي فيها ارتجالاً، في موضوع (الترك في ظلال التاريخ الإسلامي) والتي لقيت قبولاً حسناً...

وعلى مدى يومين، وعبر جلسات صباحية وأخرى مسائية ألقيت محاضرات المدعوين... ثم ما لبثت الندوة أن انفضّت، وترك لنا المجال عبر اليومين التاليين للتجوال في أسواق مدينة أنقرة ومتنزهاتها الفارهة ومطاعمها الأنيقة... وانتهزناها فرصة لرحلة إلى إحدى المواقع التي تتفجر فيها المياه المعدنية الحارة على بعد ساعتين من أنقرة عبر طريق جميل مزدحم بالغابات... وهنالك دخلنا إحدى الحمامات الساخنة ورحنا نذرع حوضها الكبير ذهاباً وإياباً علها تخفف عنا شيئاً مما نعانيه من متاعب في الساقين، وما لبثنا أن عدنا لتناول الغداء في إحدى المدارس الإسلامية ونقفل عائدين إلى أنقرة... ومنها، وفي فجر اليوم التالي أقلتنا الطائرة إلى إسطنبول فوصلناها قبل ساعات قلائل من انطلاق طائرة الخطوط التركية العائدة إلى أربيل.

أمضيت شهرَيْ تموز وآب في الموصل، ثم ما لبثت وزوجتي أن أعددنا العدة لرحلة طويلة نسبياً إلى الأردن استجابة لدعوة من مركز تحفيظ القرآن الكريم للمشاركة في مؤتمره... وقبل ذلك كان علينا تلبية دعوة من صديقنا العزيز الدكتور المتألّق (زكريا الملكاوي) لعلاج فقراتنا بجهاز كهربائي صغير، يوضع في موضع الألم لمدى نصف ساعة، ويتكرر ذلك لعدة أيام، حيث تبين من معالجة العديد من المراجعين جدواه المؤكدة.

كان بيت الدكتور زكريا وعيادته الملحقة به، قريباً من قرية أم قيس في

أقصى شمال الأردن وعلى بعد أكثر من ساعة من مدينة إربد... فكان علينا أن ننزل في أحد فنادق إربد، لكي نتوجه منها عصر كل يوم مع سائق تم الاتفاق معه، إلى عيادة الدكتور الملكاوي، حيث كان يباشر علاجنا بمجرد الوصول... ثم يستضيفنا في داره الساعات الطوال لتبادل الأحاديث وتناول العشاء، حيث تم الاتفاق معه على فتح موقع لي على صفحة الإنترنيت المسماة بموقع الفكر الحرّ، بعنوان (مجلة الأستاذ الدكتور عماد الدين خليل).

حيث قمت بتزويده بين الحين والحين، بعد عودتي إلى الموصل، بجملة كبيرة من بحوثي ومقالاتي، فضلاً عن سيرتي الذاتية، وعناوين ناشري مؤلفاتي، وصور أغلفتها، وفهارسها، ومقدماتها، ونُبذ بالتعريف بكل واحد منها... وبدأ المتابعون يتدفقون بأعدادهم الكبيرة على هذا الموقع ويطلبون المزيد... لقد كان الدكتور الملكاوي بحق رجلاً مثقفاً بمعنى الكلمة، فضلاً عن تألقه في مجال تخصصه، وخبرته المتفوقة في مجال الحاسوب...

فأما عن نتائج علاجنا الطبي في عيادته فقد أحسست أنا شخصياً بقدر من الراحة في فقراتي القطنية السفلى التي طالما عانيت منها بين الحين والحين... وأما زوجتي فلم يجدِ معها العلاج، حيث كان السوفان قد أتى على معظم فقراتها العليا والسفلى... والمهم أننا نفذنا عرض الرجل كي لا يبقى في أنفسنا شيء من الندم على تضييع هذه الفرصة المتاحة... ولله الحمد والمنة أولاً وأخيراً...

بمجرد أن انتهى أسبوع العلاج، أخذنا السيارة إلى عمان للحاق بالمؤتمر الثالث لجمعية المحافظة على القرآن الكريم التي يترأسها الأخ والصديق الأستاذ الدكتور إبراهيم زيد الكيلاني ﷺ، حيث استقبلنا هناك في الفندق الرائع الذي خصّص للمشاركين، ولإلقاء المحاضرات بحفاوة بالغة، من قبل الأخوة الأحبة القائمين عليه، حيث سبق لي أيام عملي في الأردن أن تعرّفت على العديد منهم، وعلى رأسهم الدكتور إبراهيم زيد الكيلاني، وحضرت إحدى جلساتهم في مقرهم العام، وشاركت في مجلتهم بجملة من المقالات والبحوث.

كانت محاضرتي التي تحمل عنوان (مفهوم الإعمار وعلاقته بالنهضة في ضوء القرآن الكريم) في اليوم الافتتاحي الأول للمؤتمر، حيث ألقيت ارتجالاً ولقيت قبولاً حسناً من الحضور والقائمين على المؤتمر... ثم استمرت الجلسات الصباحية والمسائية ليومين متعاقبين، دعينا في ختامهما لدعوة عشاء من قبل الأخ الدكتور فتحي ملكاوي، المدير الإقليمي للمعهد العالمي للفكر الإسلامي، في بوفيه مطعم جبري، ثم ما لبثنا في اليوم التالي أن قفلنا عائدين بالطائرة إلى الموصل لكي نقضي يومين أو ثلاثة، ثم ما نلبث أن نستقل طائرة أخرى إلى إسطنبول تلبية لدعوة من القائمين على الفكر النورسي للمشاركة في مؤتمرهم هناك...

سارت الأمور في ذلك المؤتمر على خير ما يرام، ووفق التقاليد نفسها لسائر المؤتمرات السابقة: الجلسة الافتتاحية الكبرى التي يحضرها ألوف المتابعين، ثم البدء بإلقاء المحاضرات في قاعات ثلاث على مدى يومين متعاقبين من قبل الباحثين المعنيين بالفكر النورسي من شتى البلدان: من المغرب والجزائر وتونس ومصر والسودان وسوريا والأردن والعراق واليمن والسعودية والكويت... ومن بلدان غربية شتى، تعقب ذلك كله جلسة ختامية لقراءة التوصيات، ثم اجتماع خاص لتقييم المؤتمر في إيجابياته وسلبياته يديره الأخ الفاضل الأستاذ إحسان قاسم الصالحي...

رفعت يدي في بدء الاجتماع وأعربت عن رفضي وعدم ارتياحي لتعليق علم إسرائيل المغتصبة مع سائر أعلام الدول الأخرى في القاعة الكبرى التي شهدت حفلة الافتتاح... وقلت بأن هذا يمثل خرقاً للفكر النورسي، ولسياسات الدولة التركية التي عبّر عنها زعيمها (رجب طيب أردوغان) في أكثر من مناسبة أثارت تقدير جميع الشرفاء في العالم...

وإذ كنت أتكلم راح المجتمعون يصفقون بحرارة لموقفي هذا، حيث لم أكن أريد تصفيقاً، وإنما مشاركة في رفض هذه الظاهرة الدخيلة، ولكن أحداً منهم لم ينبس ببنت شفة للأسف الشديد، رغم أن بعضهم أرعد وأزبد وهم

يرون العلم الإسرائيلي معلقاً بين الأعلام... وقال أحدهم: لقد كدت أن أتقدم إلى العلم وأحرقه أمام الجماهير... ودائماً هنالك الانفصال المقيت بين الأقوال والأفعال، تلك التي حذر منها كتاب الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الصف: ٢ ـ ٣]!!

والمهم أنني التقيت صبيحة اليوم التالي بالأخ إحسان الصالحي فأراني وجهاً عبوساً قمطريراً... فأسررتها في نفسي، وقلت لا بأس، ما دمت قد أخرجت هذا الذي كان يعتمل في داخلي... ولكني حدثت الأخ الأستاذ أديب الدباغ بالأمر فأيدني على موقفي، وصب اللوم على الصالحي، وقال: لسوف أعرف كيف أعاتبه على ذلك...

لقد كانت تربطني بالأخ الصالحي علاقة أخوة وثيقة منذ ثمانينيات القرن الماضي، حيث كان يأتيني بين الحين والحين بالأجزاء التي كان يسهر على ترجمتها من رسائل النور، ويطلب مني التعريف بها في مجلة الأمة القطرية ذات الانتشار الواسع، فأستجيب لطلبه وأكتب مقالاً موسعاً بعنوان: (دعوة للتعارف) أنبه فيه القرّاء العرب على ضرورة التعرف على فكر النورسي الخصب وعلى دعوته التي غطت السهل والجبل في تركيا، من خلال الترجمة الدقيقة لأعماله...

ولقد لقي مقالي ذاك قبولاً واسعاً لدى القراء، ومارس ـ فعلاً ـ التعريف بهذا الداعية الكبير، وبفكره لدى العرب، ربما لأول مرة... ولطالما ذكر الأخ الصالحي هذه الواقعة في معظم أحاديثه أمام طلبة النور في جلساتهم الدورية الخاصة... هذا إلى العديد من البحوث والدراسات عن فكر النورسي التي صدر بعضها في كتابي (من أدب الرحلات: الرحيل إلى إسطنبول)، وصدر بعضها الآخر في كتابي التالي (الكلمات: رؤية جمالية في فكر النورسي)، والذي نشر عام (٢٠١٢م) عن دارسوزلر في القاهرة...

ولذا سرعان ما غسل كل ما اعتمل في نفسه تجاهي، وجاءني زائراً في المستشفى، وفي مدرسة النور التي أنزلنا فيها بعد إجراء عملية وضع البطارية

في صدري، وعادت العلاقات بيننا كأقوى مما كانت عليه قبلاً، بحيث إنني سرعان ما رتبت الأمر معه بقيامي بتنفيذ وعدي لما سبق وأن طرحته عبر أمسية نقاش في إحدى أمسيات الندوة الخاصة لعام (٢٠٠٨م)، وهي تجزئة رسائل النور إلى موضوعاتها الأساسية، وقيام كل باحث أو مجموعة باحثين بتنسيقها ودراستها وتقديمها للقارئ بعيدة عن مداخلتها بالموضوعات الأخرى... وعرضت عبر مداخلتي تلك استعدادي لتناول موضوع التاريخ والسنن التاريخية في فكر النورسي... وقد تفرغت فعلاً عبر السنتين التاليتين لتأليف هذا الكتاب الذي ينتظر النشر بإذن الله...

اتفقنا مع الأخ سعد ابن الأستاذ إحسان قاسم أن يأتينا بسيارة لكي يذهب بنا إلى إحدى المستشفيات التخصصية لعلاج الفقرات، فاختار لنا الرجل إحدى المستشفيات الراقية في إسطنبول، حيث تم إجراء كافة الفحوصات لفقرات زوجتي، والتي أكدت عدم جدوى إجراء أية مداخلة جراحية، واستبدالها بجملة من الأدوية والعلاج الطبيعي، بسبب السوفان الذي لحق معظمها... وما لبثنا أن غادرنا المكان ملبين لدعوة من الأخ سعد لتناول وجبة من السمك في أحد المطاعم الشهيرة...

وهناك لحقني كادر قناة تركية العربية الفضائية طالبين مني تسجيل حلقة عن انطباعاتي عن مدينة إسطنبول... وبعد جهد كبير بذلته في المسير لمسافات متطاولة لغرض التصوير... تّم تسجيل الحلقة... ثم قفلنا عائدين إلى السكن النورسي الذي بتنا ليلتنا فيه...

وكنت في اليوم الأول للمؤتمر قد دعيت لحلقة نقاشية حول الفكر الإسلامي في قناة (TRT) العربية في مساء ذلك اليوم، فاعتذرت بسبب وعكة صحية حادة المّت بزوجتي وجعلتها طريحة الفراش لساعات طويلة... ولكن إصرار الأخ المنسّق (محمد غل)، وأن مشاركتي ملزمة بسبب الإعلان عن أسماء المشاركين، أرغمني على تلبية الدعوة، حيث اضطررت إلى ترك زوجتي تعاني لمفردها في الفندق، ومع ذلك فقد تمكنت من المشاركة في تلك

الحلقة، وقدمت ما عندي في مجابهة بعض المقولات العلمانية التي طرحها أحد المشاركين... وقفلت عائداً إلى الفندق لأجد زوجتي قد استعادت الكثير من صحتها وعافيتها بفضل الله ﷻ...

جاءنا فجراً الأخ الفاضل الأستاذ كنعان دمير طاش، المنسّق العام للمؤتمر، لكي يقلنا بسيارته إلى المطار... وهناك، وقبل إكمال إجراءات السفر المعهودة، حيث كنا قد وصلنا قبل الموعد المطلوب بفترة طويلة، جلست وزوجتي في بوفيه المطار لتناول فطورنا... وما أن وضعت اللقمة الأولى في فمي حتى شعرت بغثيان عنيف يجتاح معدتي، ودوار قاس في رأسي، فأسرعت قائلاً لها: لا تقلقي فلسوف يغمى علي... كما كان يحدث في بلدي بين الحين والحين، وقبل أن أتم كلامي غبت عن الوجود...

وما شعرت بعد برهة من الزمن إلا وأنا محمول على النقالة وممدّد في سيارة إسعاف، راحت تنهب شوارع إسطنبول بسرعة فائقة لكي ما تلبث أن تصل بي إلى مستشفى باكر كوي الحكومي، حيث نقلت إلى صالة العناية المركزة وأنا لا زلت في حالة غيبوبة... لم أفق بعدها إلا عند نقلي إلى صالة المرضى، وأجهزة اختبار حركة القلب والتنفس تحيط بي من كل مكان...

وعند ذاك حدثتني زوجتي، التي كان اصطحابها معي في رحلتي تلك من نعم الله علي، وإلا كنت قد تعرّضت لموت محقق... بأني بت نهاري ذاك والليلة التي أعقبته في صالة العناية المركزة، تحت رقابة الأطباء، حيث طلبوا منها أن تغادر المستشفى... وأنها عبر إغماءتي في المطار فتشت جيوبي فوجدت ورقة استعلاماتي الخاصة التي أدوّن فيها أرقام الهواتف الضرورية لحسن الحظ، فما كان منها إلا أن تتصل بالأخ والصديق الأستاذ كنعان دمير طاش، وهي لا تدري ما تفعل...

فأسرع هذا الرجل الفاضل يقطع المسافات الطوال في سيارته، حتى إذا ما وصل المطار قام على وجه السرعة بإلغاء الحجز، وتحويل الحقائب إلى سيارته الخاصة، وإكمال إجراءات إدخالي إلى المستشفى، وطلب سيارة إسعاف

لكي تقلنا إلى هناك... فعندما طلبت إدارة المستشفى مغادرة زوجتي، رتب الأخ كنعان أمر نقلها والحقائب إلى دار ابنته المتزوجة في أحد الأحياء القريبة من المستشفى، حيث سهرت هذه الابنة الفاضلة على راحتها...

لكنها ما أن تهيأت للنوم حتى جاءتها عن طريق الأخ كنعان مكالمة هاتفية تقول بأن عليها أن تهرع إلى المستشفى، فإنهم بعد إجراء القسطرة تبين لهم أن نبضات قلبي قد انخفضت إلى درجة الصفر وأنني قد أفارق الحياة في أية لحظة، فهرعت مع الأخ كنعان إلى المستشفى حيث أعلموها بأنني كنت أعيش عبر أيامي الأخيرة بثلث قلب، وأنهم سيتابعون الحالة لعلي أجتاز الأزمة القاسية بإرادة الله جلّ في علاه... وحينذاك سيضطرون إلى إجراء مداخلة جراحية بوضع بطارية في صدري تعين القلب على العودة إلى النشاط...

كانت تلك من أشد اللحظات عتمة في حياة زوجتي... سلّمت أمرها لله ﷻ... وعادت ثانيةً إلى بيت مضيفتها وسط إحساس مرير بالضياع... ولم يغمض لها جفن حتى صبيحة اليوم التالي عندما جاءت لكي تراني على سرير الصالة الكبيرة، وأنا في وضع مقبول إلى حد ما... أستطيع أن أفكر، وأن أتبادل الأحاديث بشيء من الصعوبة، ومؤشر القياس ينزل حيناً إلى ما دون العشرين، ويصعد ثانيةً إلى وضعه الطبيعي.

بقيت هناك، وأنا مربوط الساق، كي لا أقوم بحركة عنيفة قد يكون مردودها سيئاً... لخمسة أيام أو ستة، لحقني خلالها ابني محمد قادماً من الموصل ومعه ما نحتاجه من المال... وزارني عدد من الأخوة القائمين على الفكر النورسي، وكنت أنا أتقلب بين النوم واليقظة، حتى وصلت حالة الملل والقرف... وكنت خلال نومي أرى أحلاماً أتصوّرها وقائع مؤكدة، فأحكيها لزوجتي، التي كانت تزورني بصحبة ابني محمد مرتين في اليوم صباحاً وعصراً... كما لو كانت أمراً واقعاً وأطلب منها أن تتابع بعض المطالب التي كانت تعرض عليّ في تلك الأحلام...

ومن بين تلك الأحلام، توسلي بالدكتور المشرف على الصالة، وبالممرضين والممرضات أن ينادوا على زوجتي التي لمحتها تجلس قريباً من بوابة الصالة لكي تجيء إلى جواري، فلم يكترث أحد منهم بتوسلاتي، فما كان مني إلا أن أنفعل وأصرخ فيهم: إنكم صهاينة، وإلا ما تركتم زوجتي تغادر المكان دون أن تصل إلي...

ورحت أواصل صراخي في المضمد المعني بالمرضى، أن يفك رباط ساقي، وأن يفتح النافذة لكي أستطيع أن أتنفس... ولكنه لم يأبه لطلبي...

ثم ما لبثنا في مساء اليوم نفسه أن دعينا لحفل تكريم أقيم في صالة خاصة، ووجدتني أنهض قائماً وأنطلق مع المدعوين إلى هناك، وأرتب أمري لإلقاء كلمة أقيّم فيها دور الدكتور المشرف، وخدمات المستشفى الممتازة، ولكني رأيت الدكتور والممرضين والممرضات لا يكترثون بي... بل إن إحداهن نكاية بي، قررت أن يكون نومي في الصالة، جنباً إلى جنب مع أحد المرضى على سرير واحد... مما أشعرني بالضيق والاختناق، ورحت أتوسل إليها أن تخصص لي سريراً مستقلاً... وأخيراً وبعد لأي استجابت لطلبي وهي تنظر إلي بشزر... لعلها كانت منزعجة من وصفي إياهم بالصهاينة!!

ثم ما لبثت أن وجدت نفسي في مكان قريب من المستشفى، مكتظ بالزائرين الذين قدموا من الموصل، بما فيهم الدكتور محمد جميل الحبال... ودارت أحاديث ومناقشات، انقطعت بحديث أحدهم عن السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، فيما لم أرتح لكلامه... فرحت ألقي محاضرة استغرقت أكثر من نصف ساعة، مترابطة الحلقات، محكمة المنطق، في تبرئة السيدة عائشة رضي الله عنها من هذا الذي يقال...

ثم ما لبثت أن ودعتهم وقفزت إلى محل لبيع البقلاوة داخل الصالة، فاشتريت عدة كيلوات... ولما وضعت يدي في جيبي تبين لي أني لا أحمل معي النقود الكافية، فطلبت من البائع أن يبقيها عنده، ريثما تمرّ عليه زوجتي صباح الغد، فتسلمه المبلغ المطلوب وتتسلم علب البقلاوة...

وفعلاً في اليوم التالي حكيت لزوجتي كل تلك التفاصيل كما لو كانت أمراً واقعاً، وطلبت منها أن تذهب إلى محل الحلويات المجاور لكي تدفع له المبلغ المطلوب وتستلم علب البقلاوة... وهي تنظر إلي مستغربة من حديثي هذا... بل إنني يوماً قلت لها: ها أن السماء تمطر ثلجاً وبرداً... انظري إليها... إنني أعشق منظر الثلج وهو يتساقط... فلم تكترث لطلبي، واستدعت إحدى الممرضات وسألتها عن هذا الذي أراه وأتصوره أمراً واقعاً، فأعلمتها أن كهربائية القلب عندما تتعرض للأذى أو المداخلات الجراحية، تقود المرء إلى حالة كهذه... كثيراً ما تتكرر... وحينذاك اطمأنت زوجتي على سلامة عقلي، وإلا كانت الظنون قد ذهبت بها كل مذهب...

ولقد أكدت لي هذه الظاهرة مصداقية إعجاز الآية القرآنية التي تؤكد على دور القلب في النشاط الذهني للإنسان: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾ [الحج: ٤٦]... وها هي ذي النظريات والكشوفات الأكثر حداثة، تؤكد يوماً بعد يوم ما سبق وأن أعلن عنه كتاب الله جلّ في علاه...

في اليوم السادس من بقائي في المستشفى، أُخذت محمولاً على عربة خاصة، إلى قاعة العمليات حيث أجريت لي مداخلة جراحية، بمخدر موضعي، وضعت خلالها في الجانب الأيمن من صدري بطارية ترتبط بسلك كهربائي يعين القلب على استعادة الكثير من نشاطه المفقود، وغادرت القاعة سعيداً بتجاوز المحنة، حيث كانت زوجتي وابني في انتظار النتيجة فرفعت يدي أمامهما بعلامة النصر (Victory)!!

ثم نقلت إلى غرفة خاصة بقيت فيها تحت العلاج ثلاثة أيام، كنت أتخطى خلالها في ممرات المستشفى متماثلاً للشفاء... حيث سمح لنا بالمغادرة بعد تلقي جملة من التعليمات بخصوص الأدوية، والمراجعات الدورية لفحص البطارية لدى طبيب اختصاصي في العراق... وإذ كانت البطارية من النوع الأمريكي، كان لا بدّ من جهاز أمريكي لتنفيذ الفحص الدوري... ولم

يكن هذا الجهاز موجوداً في مستشفيات الموصل، الأمر الذي أوجب عليّ السفر الشاق إلى السليمانية كل ستة أشهر لإجراء الفحص المطلوب لدى طبيب اختصاصي متألق هناك... علماً بأن عمر البطارية لا يتجاوز السنوات العشر، فيما يتطلب بعدها إجراء مداخلة جراحية أخرى لوضع بطارية جديدة... والأمر كله بيد الله ﷻ...

وبعد قضاء يومين في مدرسة نورسية في منطقة يني بوسنه، للراحة والاستجمام، حيث رحنا نتجول في شوارعها المزدحمة بالبضائع والمطاعم... ونأكل الوجبات اللذيذة... بعد أيام الحرمان التي عانيتها في المستشفى... عدنا إلى الموصل... وأنا أردد مع نفسي: ترى كم من مرة عبر حياتي هذه، أوشكت فيها على الموت، وأصبح بيني وبينه فاصل ضيق بأكثر مما يجب، ثم تجيء إرادة الله ﷻ لكي تنتشلني من كماشته في اللحظات الأخيرة... ألّا يتحتم أن أجعل حياتي كلها... أؤممها بعبارة أخرى... لتعزيز كلمته في الأرض؟ أليس هذا العرفان بالكرم الإلهي السابغ هو من قبيل البديهيات التي يتحتم أن نلزم أنفسنا بها في مشارق الأرض ومغاربها؟ ثم هل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟ فعسى أن يتقبل منا سعينا المتواضع هذا قبالة نعم الله الكبرى التي لا تعدّ ولا تحصى... جلّ في علاه...

وعلى مدى الفترة بين عامي (٢٠٠٦ و٢٠١٠م) كان يطلب مني في كل مؤتمر علمي سنوي تقيمه كليتنا أن أكون المتحدث الأول في الموضوع الذي يعرض عليّ، من مثل (خبرتي مع الاستشراق) و(الموقف من الفلسفة) و(تصميم مناهج قسم التاريخ) وغيرها من الموضوعات التي كانت تتلقى بقبول حسن، حيث كان يحضرها رئيس الجامعة وعمداؤها، فضلاً عن تدريسيي الكلية وطلبتها وطالباتها...

ولقد تلقيت من عمادات الكليات الإنسانية، عبر تلك السنوات عدة دعوات لتكريمي، حيث ألقيت كلمات التقييم والمحاضرات عن هذا الجانب أو ذاك من إنجازاتي العلمية والثقافية، ولا زلت أذكر من بينها دعوة كلية التربية الأساسية،

ودعوة كلية التربية، فضلاً عن ترشيحي وأستاذ آخر كعالمين عن جامعة الموصل في عيد المعلم الذي أقامته وزارة التعليم العالي والبحث العلمي في بغداد في ربيع عام (٢٠٠٩م)، حيث اعتذرت عن الحضور.

ولقد تلقيت عبر تلك المرحلة (٢٠٠٦ ـ ٢٠١٠م) جملة مكثفة من الدعوات للمشاركة في حضور المؤتمرات والندوات، ولإلقاء المحاضرات، أو لتسجيل جملة كبيرة من الحلقات الحوارية للفضائيات... ولقد نفذت عدداً محدوداً من تلك الدعوات، واعتذرت عن معظمها لأسباب شتى... وفيما يلي عرض موجز بأهم تلك الدعوات... والوقائع والأحداث التي شهدتها تلك الفترة.

دعوة من الأردن حول هموم الدراسات العليا (٢٠٠٧م) اعتذرت عنها، دعوة لزيارة إحدى المؤسسات الثقافية في فرنسا عام (٢٠٠٧م) اعتذرت عنها، دعوة من الكويت لزيارة مؤسسة إسلامية عام (٢٠٠٧م) اعتذرت عنها، دعوة من المغرب عام (٢٠٠٧م) اعتذرت عنها، دعوة من تركيا للمشاركة في ندوة الأراتقة في مدينة ماردين عام (٢٠٠٧م) اعتذرت عنها، دعوة من المغرب من رابطة الأدب حول الرواية الإسلامية عام (٢٠٠٧م) اعتذرت عنها.

دعوة من الجزائر لمؤتمر عن مالك بن نبي عام (٢٠٠٧م) اعتذرت عنها، رسالة من الأخ ماجد أبو غزالة حول رغبة جامعة البحرين في إعارة خدماتي من خلال الدكتور عدنان زرزور عام (٢٠٠٧م) اعتذرت عنها، رئيس جامعتي يتصل بي ويعرض عليّ ترشيحي لمؤتمر في تركيا عام (٢٠٠٧م) اعتذرت عنه، الدكتور أحمد التوتنجي يتصل بي هاتفياً ويعلمني أنني مدعو لاجتماع مستشاري المعهد العالمي للفكر الإسلامي في كيب تاون في جنوب إفريقيا عام (٢٠٠٧م) فأعتذر عنه.

مكالمة من قناة الجزيرة الفضائية للمشاركة في ندوة عن مستقبل العراق عام (٢٠٠٧م) أعتذر عنها، مؤسسة البوصلة الإعلامية تطلب مني المشاركة في حلقة تلفازية عن الهجرة، مع مجموعة من الأساتذة والشيوخ وأنهم

سيستضيفونني في دمشق وستسوّق الحلقة للفضائيات عام (٢٠٠٧م) أعتذر عنها.

مدير فضائية القرآن الكريم في المغرب يدعوني لاستضافتي أنا وزوجتي لشهر أو شهرين لغرض تسجيل عدة حلقات عن التاريخ الإسلامي عام (٢٠٠٧م) أعتذر عنها، عرض من الدكتور جرجيس الأمين العام السابق لمركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، لاعتمادي مستشاراً لمؤسسة الشيخ زايد وضرورة القيام برحلات دورية إلى الإمارات عام (٢٠٠٧م) أعتذر عنها، مؤسسة في سويسرا تعرض التنسيق معها لمهمات أكاديمية عراقية عام (٢٠٠٧م) أعتذر عنها.

محرر جريدة (الوقت) البحرينية يطلب حواراً معها عام (٢٠٠٧م)، وأنا غير متأكد من هوية الصحيفة وطبيعة ارتباطها بالسلطة، فأعتذر عنها، مكالمة هاتفية من الأخ الدكتور محمد إقبال عروي المسؤول الثقافي في وزارة الأوقاف الكويتية يعرض فيها استعداد الوزارة لطبع كل ما أريد من مؤلفاتي عام (٢٠٠٨م) فأعتذر عنها، اعتذار عن دعوة من رئيس تحرير مجلة (الوعي الإسلامي) للكتابة فيها عام (٢٠٠٨م).

جارنا الحاج صلاح المختار الذي ينوي الذهاب للإمارات، يعرض عليّ فكرة تقديم اسمي وجهدي كداعية لأمير دبي (٢٠٠٨م) فأطلب منه ألا يمسّ هذا الموضوع نهائياً، دعوة من المكتب الإقليمي للمعهد العالمي في عمان لحضور مؤتمر حول (الفلسفة الإسلامية) (٢٠٠٨م) أعتذر عنها، دعوة لندوة أدبية حول الأدب الإسلامي تقيمها كلية التربية الأساسية في جامعة الموصل عام (٢٠٠٨م) أشارك فيها.

دعوة من الجزائر حول مهرجان الفن الإسلامي عام (٢٠٠٨م) أعتذر عنها، دعوة من المغرب حول (النورسي والنصّ القرآني) عام (٢٠٠٨م) أعتذر عنها، دعوة من وزارة الأوقاف الكويتية عام (٢٠٠٨م) أعتذر عنها، دعوة للمشاركة في مؤتمر قازان في جمهورية تتاريا ذات الحكم الذاتي في روسيا،

موجهة من الإيسسكو وجامعة البحرين، وهي دعوة شرفية لا تتطلب بحثاً باعتباري (ضمن قائمة كبار شخصيات العالم الإسلامي المدعوة إلى المؤتمر) عام (٢٠٠٨م) أعتذر عنها.

دعوة لحضور معرض الشارقة الدولي للكتاب ولأكثر من أسبوع عام (٢٠٠٨م) أعتذر عنها، دعوة لمؤتمر الجزائر حول التكامل المعرفي يعقده المعهد العالمي للفكر الإسلامي عام (٢٠٠٩م) أساهم فيه ببحث موسع، وأعتذر عن المشاركة الفعلية، دعوة لمؤتمر في جامعة سيواس التركية عن كربلاء عام (٢٠٠٩م) أعتذر عنها، دعوة من (مركز الدراسات الحضارية) في الشارقة بالإمارات العربية، حيث حدّد اسمي من بين العراقيين كافة عام (٢٠٠٩م) أعتذر عنها.

عرض من إذاعة الاتحاد الإسلامي في أربيل لمداخلة حوارية بمناسبة المولد النبوي الشريف عام (٢٠٠٩م) أعتذر عنه، عروض من قناة الجزيرة الفضائية لإجراء جملة لقاءات أعتذر عنها، عرض من رئيس الجامعة الإسلامية العالمية الأستاذ الدكتور عبد الناصر أبو البصل للعمل فيها أستاذاً معاراً أو زائراً عام (٢٠٠٩م) أعتذر عنه، المدير العام لدار ابن كثير للنشر يدعوني لمعرض الكتاب الدولي في دمشق، والمشاركة بمحاضرة، واستضافتي لعدة أيام عام (٢٠١٠م) فأعتذر عن دعوته.

دعوة من جامعة الجنان في طرابلس اللبنانية للمشاركة في تأبينية الراحل فتحي يكن ممثلاً وحيداً عن العراق عام (٢٠١٠م) أعتذر عنها، دعوة من الأردن للمشاركة في مؤتمر الإيسسكو عام (٢٠١٠م) أعتذر عنها، دعوة من الأستاذ الدكتور دريد عبد القادر نوري، المستشار الثقافي في أنقرة للعمل أستاذاً زائراً للفكر الإسلامي في جامعة طرابزون التركية، لعام أو عامين، وهي من أجمل المدن المطلة على البحر الأسود عام (٢٠١٠م) أعتذر عنها...

حادثة تصادم عنيفة مع سيارة أخرى في جو عاصف والعائلة كلها محشورة فيها، ولكن الله سلّم، والخطأ من الطرف الآخر.

محاسب الكلية يطلب مني صورة الجواز للتأكد من دخولي الأردن عبر إحدى الإيفادات، فأرفض طلبه مضحياً بمبلغ الإيفاد، حفاظاً على كرامة الأساتذة الجامعيين... إذ معنى ذلك التشكيك بمدى مصداقيتهم.

مناقشات رسائل الماجستير وأطروحات الدكتوراه تسبب لي قلقاً وتوجساً أمنياً لأن المناقشين سيكونون عرضة سهلة للاغتيال...

تفجير هائل في المنطقة يحطم زجاج النوافذ ويصيب بالهبطة القاسية نساء العائلة ويؤدي إلى انقطاع التيار الكهربائي... هذا إلى التخوّف من تسرّب الجرذان إلى البيت عبر النوافذ المهشمة...

تفجير عنيف آخر يسبب الهبطة نفسها، ويقود إلى تحطيم زجاج النوافذ وتطاير لأيديها، وانقطاع الأسلاك الكهربائية وانطفاء القوة الكهربائية...

شيء من القلق في أعقاب خبر عن احتمالات انهيار سد الموصل وغرق المدينة، فيما ذكرني بقلق حرب عام (١٩٩١م) وضرورة اتخاذ موقف بخصوص البقاء أو مغادرة البيت.

انقطاعي عن الفضائيات يسبب لي إحساساً مريراً بالتقصير، وبالتفريط بفرصة ذهبية لتبليغ آلاف المشاهدين، بخلاف الكتاب والمجلة...

انفجار ندم شديد على الاعتذار عن حضوري لندوة قسم الاجتماع في كليتنا عن المساجد في الموصل، رغم ارتباطي الأدبي الوثيق بموضوع الندوة، ودعوة موجهة من عميد الكلية، ورئيس قسم الاجتماع فاتحني في أن أكون مشرفاً على الندوة بأسرها... ولكن ماذا بخصوص التعرض للقتل لمعظم أولئك الذين برزوا في المنتديات؟ تزايد الاغتيالات في الموصل، وبخاصة الأكاديميين، يضعني في دائرة التوجس مرةً أخرى... والكثيرون من أصدقائي، من داخل العراق وخارجه، ينبهونني أن آخذ حذري ويلومونني على عدم مغادرة العراق، ولكني أطمئن نفسي دائماً بأن هنالك يداً هي فوق المكر والغدر، وحماية إلهية ستبعد عني السوء بإذن الله...

لقاء عابر مع مدير المتحف الحضاري، أسأله فيه عن مصير جهودي

التراثية هناك على مدى عشر سنوات، فيقول بأنها جميعاً قد تعرضت للسرقة أو الضياع...

رشقة قلق وتوجس جديدة وأنا أنصت لحديث صديق حول قوائم أمريكية جديدة بتصفية عدد من الأساتذة الجامعيين المتميزين في العراق... ورسالة على الإنترنيت بخصوص استهداف الموساد للعلماء والجامعيين في العراق، وأن هناك قائمة بألف منهم صُفّي بعضهم، وينتظر التصفية بعضهم الآخر...

أستاذ تركماني صديق يعرض عليّ إهداء بعض كتبي عن القادة التركمان عبر التاريخ الإسلامي إلى القنصلية التركية، واحتمال ترجمتها إلى التركية، كما يعرض فكرة لقاء مع باحث تركي عن الأتابكة في باحة القنصلية هذا إلى دعوة غداء أسرعت فاعتذرت عنها، أما الأخريتان فقد وافقت عليهما، وتم اللقاء، رغبة مني في إيصال مؤلفاتي إلى الأتراك...

الندم الممض يصفعني بين الحين والحين على تضييعي للعديد من الفرص الذهبية، لكن هناك ما يوازنها: الموقف المبدئي الثابت، وراحة الضمير، والرغبة العارمة في أن أتلقى ثوابي هناك في عالم الخلود وليس في دنيا الفناء التي تعد بالأسابيع والشهور.

إحساس مرير بسبب عدم القدرة على اللحاق بدعاة الفضائيات لإيصال خطابي الإسلامي إلى ملايين الناس، كما يفعلون، وبالتالي الحصول على الأجر الذي أتحرّق إليه شوقاً... ولكني أعود فأقول بأن مؤلفاتي التسعين التي ربت أجيالاً من الناس في بلدان شتى، قد تشفع لي عند الله، ولأن يهدي بك الله رجلاً واحداً خير لك من الدنيا وما فيها... كما يعلمنا الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام...

مجزرة غزة على أيدي أولاد الأفاعي هي الضربة الأولى في مطلع العام الجديد (٢٠٠٩م) لقد سحقنا الحزن... لم تعد لنا قلوب تستوعبه... طفّ الكيل والإحساس بالقهر يخنقنا... والرغبة العاتية والمعذبة في الانتقام تحاصرنا صباح مساء... والمشتكى إلى الله وحده...

كثافة في طلب إلقاء المحاضرات العامة في العديد من الكليات، وشيء من التردد تحسباً للوضع العام، وموقعي الشخصي، ومع ذلك أجدني أوافق على العديد منها.

إحساس بالألم بسبب إعلام أحد الناشرين في أربيل بأن أعمالي التأليفية في دار ابن كثير لم تعرض في معرض أربيل الدولي، رغم وجود ممثل عنهم هناك... ويزيدني ألماً أن دار ابن كثير لم تستطع لحد الآن توفير مؤلفاتي لدى مكتبات الموصل رغم الطلب المتزايد عليها.

الأستاذ الدكتور هاشم الملاح يفتح عليّ باباً للقلق بدعوتي، وبتأكيد من رئيس الجامعة، للمشاركة في الهيئة الاستشارية لموسوعة العراق الحضارية، التي قدم اقتراحاً بإحيائها بعد توقفها في أعقاب الاحتلال، فأتخذ قراري بالاعتذار حيث سأتحمل مسؤولية أي بحث أو فكرة مضادة لقناعاتي الإسلامية، وحيث يتوجب عليّ بسبب ذلك قراءة مئات البحوث لغرض التأكد من تحققها بالسلامة الفكرية، ومن يقول بأن أصحابها سيوافقون؟

صدور كتابي (أمريكا مرةً أخرى) الذي يتضمن نقداً مراً لفضائح وسياسات الولايات المتحدة والصهيونية يضعني في دائرة التوجس من احتمالات الاغتيال بواسطة عملاء الطرفين، الذين يسرحون ويمرحون في مدن العراق المحتل، وحيث أنشئت في البنتاغون دائرة خاصة لمتابعة وتصفية كل من يتجاوز الخطوط الحمراء في هجومه على أمريكا وإسرائيل...

حالة من القلق المتواصل صباحاً ومساء بسبب المطالب المكتبية التي تنهال عليّ كالمطر... أنجز الثلاثة والأربعة فأتلقى الثلاثين والأربعين، وأنا أركض الساعات الطوال ركض الوحوش في البراري فلا أكاد أصل إلى محطات الراحة والاسترخاء... لقد أصبحت بعيدة بعيدة والوصول إليها مستحيل!!

كنا نجتمع بين الحين والحين في أمسيات طيبة تحت مظلة جمعية (مصابيح الهدى)، التي عرف مؤسسها الأخ موفق السبعاوي كيف يلمّ عناصرها من خيرة مثقفي البلد، أساتذة جامعيين وعلماء وقرّاء وصحافيين

ورياضيين وأطباء وصيادلة ومهندسين وكتاب وأدباء وباحثين وعسكريين، بما يمتلكه من خبرة اجتماعية وروح مترعة بالإخلاص والمحبة، كان يأسر بها كل من تعرّف عليه.

وكنا في تلك الأمسيات نلقي الكلمات الموجزة، ونترنم بالقصائد، ونتبادل الأحاديث الجادة والنكات البريئة، ونتناول عشاءنا المشترك، فيما كان يذكرنا جميعاً بالأمسيات التي كانت تقام في الموصل أيام زمان، في هذا البيت أو ذاك، وفي هذا المنتدى الثقافي أو ذاك، حيث تدور المناقشات، وتلقى الكلمات والقصائد، وتسود أجواء الالفة والمحبة.

وكان الخط العام الذي يجمع أعضاء جمعيتنا تلك هو الالتزام الفكري والديني والخلقي، رغم تباين وجهات النظر والقناعات ـ أحياناً ـ بين أفرادها. وكانت حفلات التكريم لهذا العضو أو ذاك تعقد بين الحين والآخر، حيث يتم الحديث عن إنجازاته المتألقة في ميادين الفكر والبحث والأدب والصحافة والطب والرياضة، وحيث توزّع الهدايا والكؤوس.

ولقد استمرت هذه اللقاءات، لما يقرب من العقدين من الزمن ولا تزال... لقد كانت حقاً مصابيح هدى تتلقى وهجها من زيت الإيمان الوضيء والأخوة الصادقة... وكان من بين أعضاء هذه الجمعية المباركة كل من الدكتور أحمد دلال باشي، والأستاذ الدكتور فارس عبد الموجود، والأستاذ الدكتور طاهر الدباغ، والدكتور عاصم الجلبي، والدكتور يونس حسين، والدكتور نبيل نجيب، والأستاذ الدكتور إبراهيم خليل، والأستاذ عبد الحليم دبدوب رحمه الله، واللواء الركن قيدار محمد صالح، واللواء الركن حازم البرهاوي، والعميد أبو غزوان، والأخوة: عليّ النومة، وعاصم الجوادي، وخالد أبو محمود، ومظفر خليل، وأحمد عبد القادر، وناطق الأرحيم، والخطاط يوسف ذنون، وعميد الصحافة الموصلية الأستاذ أحمد سامي الجلبي رحمه الله، وآل الحمراوي، والشيوخ: إبراهيم النعمة، ونافع أبو معاذ، ووضاح ثابت، والأستاذ الشاعر حسن السنجري، والدكتور رعد البرهاوي، والقرّاء: هشام البزاز، وأبو ياسر رحمه الله، والدكتور عادل البكري،

والدكتور حاجي، والشاعر وليد الصرّاف، والشاعر مظفر الصوفي، وأخوه الأستاذ ميّسر الصوفي، وحشد من أعلام الرياضة في الموصل وعلى رأسهم العقيد طه حمو ﷺ... وغيرهم كثيرون ممن أفلتت أسماؤهم من ذاكرتي فمعذرةً.

وكان الأخ الأستاذ أحمد سامي الجلبي، رئيس تحرير جريدة فتى العراق ﷺ يعقد في كل سنة لقاءً تقييمياً لمعطيات صحيفته شكلاً ومضموناً، يتولاه كتابها الدائميون يبدون فيه وجهات نظرهم ونقداتهم ويطرحون مرئياتهم بصدد النهوض بمستوى الصحيفة نحو الأفضل، فيتقبلها الأخ أحمد سامي بما عرف عنه من رحابة صدر ووجدان يفيض بالمحبة والبشاشة... وكان من بين المتحدثين الأخوة: سعد الدين خضر، والأستاذ الدكتور جزيل الجومرد، وعاصم الجوادي، وموفق السبعاوي، ويسار الدرزي، والأستاذ الدكتور إبراهيم خليل، والكاتب المسرحي طلال حسن... وغيرهم...

بعد عودتنا إلى الموصل في خريف عام (٢٠١٠م)، بفترة وجيزة، جاءنا من يخطب ابنتي الثانية (علا) خريجة كلية العلوم الإسلامية والموظفة فيها... كان شاباً من عائلة كريمة يدعى (ربيع)، وكان أبوه (عادل حمدي شريف) ﷺ من أصدقائي المقربين زمن دراستنا في المتوسطة... والخطيب رغم كونه ممن أنجز دراسته في كلية الحقوق، رغب في الحصول على شهادة أخرى في العلوم الإسلامية، وهناك تعرّف على ابنتي وسأل عنها ممن يعرفونها... ثم ما لبث أن تقدم لخطبتها، وجاء أهله يطلبون منا الموافقة، فلم أر وزوجتي بأساً من القبول بعد ما لمسنا أصول العائلة ودين الخطيب وأخلاقه الراقية، ثم ما لبثت إجراءات عقد النكاح والأمور الأخرى أن تمت عبر الأشهر القادمة.

كنت في العام السابق قد أُحلت على التقاعد بسبب بلوغي السن القانونية، ولكن رئاسة الجامعة أرسلت إلى وزارة التعليم العالي في بغداد تطلب الموافقة على اعتباري (أستاذاً متمرساً) ألقي المحاضرات على طلبة الدراسات العليا، وأشرف على الرسائل والأطاريح، وأشارك في مناقشتها، وسرعان ما جاءت

الموافقة وصدر الأمر الجامعي بقبولي أستاذاً متمرساً. وقامت عمادة كلية الآداب ورئاسة قسم التاريخ فيها، وفاءً منهما، بتخصيص إحدى قاعات التدريس الكبرى، ووضع لافتة تحمل اسمي على بوابتها.

ثم ما لبثت ابنتي الكبرى (مها) التي سبق لها الزواج عام (٢٠٠٣م) أن أهدتنا ـ بإرادة الله ﷻ ـ ما كنا ننتظره بفارغ الصبر: جملة من الأحفاد: ولد وثلاث بنات: طارق وعائشة وسما ونور... أصبح يوم مجيئهم عندنا من كل أسبوع يوماً حافلاً بالسعادة والبهجة والفرح، رغم كونهم يقلبون حياتنا وحياة الدار ذلك اليوم رأساً على عقب... وكان الأحفاد الأربعة، لدى وصولهم، يصعدون كالفراشات الجميلة إلى مكتبي في الطابق العلوي، لكي يطبعوا على خدي قبلاتهم العذبة، ويطلبوا ورقاً وأقلاماً ملونة ويمارسوا الرسم الذي برع بعضهم فيه إلى حدّ مدهش... لعلهم كانوا بذلك يسعون للتعويض عن فشلي الذريع في التعامل مع الرسم!!

قد تسألونني عن الإحساس بالفراغ... والملل... الذي يلازم معظم المتقاعدين، فأقول لكم ليس ثمة فراغ في حياتي على الإطلاق، فها أنا ذا، كما كنت أيام دراستي الجامعية الأولى، أوظف الزمن بالعدل والقسطاس... صباحاً للكتابة والتأليف... عصراً للمطالعة... مساء للمذياع والتلفاز والجلسات العائلية التي تخترق أحياناً بزيارات لهذا الصديق أو ذاك، ولهذه العائلة أو تلك... ثم ما يلبث أن ينضاف إلى هذا كله عشقي المتزايد لمتابعة سباقات كرة القدم الأوربية، وبخاصة الدوريات الإسبانية والإنكليزية والألمانية، فضلاً عن كأس العالم، والتي أصبحت لتكرار مشاهدتها أحفظ أسماء معظم لاعبيها، وأشجع بحماس بعض النوادي وبخاصة تلك التي يكثر فيها اللاعبون المسلمون! هذا إلى تزايد عشقي للمطالعة، وانكبابي على التهام الكتب، حتى أنني أنجزت في إحدى السنوات مطالعة سبعين كتاباً والحمد لله... فهل ثمة بعد هذا كله من إحساس بالملل والفراغ؟!

حياتي العائلية لم تكن على ما يرام... لم أعشها كاملة كما يقول المثل...

سحبتني عنها همومي المتواصلة مع الكتابة والقراءة... لم تترك لي هامشاً كافياً لتذوق معنى السعادة العائلية، أسوةً بالكثيرين... كنت أعيش حالة انفصال شبه كامل عن زوجتي وأطفالي... معظم ساعات نهاري وليلي كنت معلقاً في مكتبي في الطابق العلوي، أو في السرداب في مواسم الحرّ... أكتب وأقرأ... وحتى الساعات التي أخلو فيها إليهم كانت الأفكار تتجاذبني وتذهب بي بعيداً... بعيداً...

ومع ذلك كله، حرصت على أن أعوضهم عن هذه القطيعة ما استطعت إلى ذلك سبيلاً... بطلعات التجوال عبر المدينة... بالأمسيات المتطاولة في الكازينوات العائلية... بالرحلات الربيعية إلى الضواحي الجميلة وبالأسفار المتواصلة إلى المدن العراقية... ثم باصطحاب زوجتي معي عبر العديد من أسفاري إلى خارج العراق...

أعتقد أنني قد أرضيت ضميري المترع بالقلق، بتصرفي هذا... لكن يبقى السؤال معلقاً يدوّم في فضاء حياتي... هل عشت حياتك بتمامها... في الطول والعرض والعمق...؟ هل عشتها حقاً؟

أبداً... وها هي سيرة حياتي التي أضعها بين أيديكم... تمنحكم الجواب...

عدم التحقق بالإشباع الكامل باللحظة الراهنة، أو الإمساك بها والاستمتاع بمعطياتها لأسباب عديدة: القلق... المنغصات... التفكير في المستقبل... انعكاسات الماضي... الحاجة الملحة لأسباب الاستمتاع الكامل بالفرص المتاحة: كالوقت، أو المال، أو الحالة الاجتماعية، أو العلاقات مع الآخرين، أو الوضع السياسي أو الوظيفي...

بمرور الوقت يتذكر الإنسان تلك اللحظات السعيدة، رحلة ما، مناسبة من المناسبات، لعبة أو مشاهدة أو مشاركة في فعالية ما... الخ... فإذا به يراها على مداها... لحظة سعيدة بمعنى الكلمة، لا يكاد يتناوشها نقص، أو يهددها

منغّص... وحينذاك يأخذ الندم بخناقه ويتساءل: لماذا لم أحاول أن أعتصر اللحظة حتى الثمالة، وأن أتحقق بمردودها كاملاً؟!

تلك هي إحدى مآسي الإنسان في الحياة الدنيا... وهي تختلف في درجتها ومساحتها بين إنسان وآخر... ويبدو أن الإنسان كلما كان أكثر حساسية وخيالاً وخبرة وثقافة... كان أشد تعرضاً للانفصام عن اللحظة وعدم التمتع بها... وكان أيضاً أكثر ندماً على تفلتها من بين يديه... لأن خياله الحادّ يعيد وضعها بين يديه بالصيغة الأكثر اكتمالاً... يملأ فجواتها... ويغطي على مناقصها، ويقدمها كشيء مترع بهجة وجمالاً!!

وهذا يذكرني بحالة أخرى موازية، قد تجد تعبيرها الدرامي في مسرحية (بلدتنا) للكاتب الأمريكي (ثورنتون وايلدر)... إننا في علاقاتنا بمن نحبهم من الأهل والولد والمعارف والأصدقاء، لا نبلغ الحد الأقصى من التحقق في الاستمتاع بهذه العلاقة الحميمية... وارتشاف مفرداتها كافة... ولا نحسّ بهذا التفريط إلّا بعد رحيل الأحبة، وحينذاك يتملكنا شوق مدمّر وحنين مرير لعودتهم إلى الحياة... ونقول في أنفسنا لو أنهم عادوا لعرفنا إذن كيف نجعل كل لحظة من علاقتنا بهم مترعة بالمحبة والتشبث... ولرشفناها حتى الثمالة... ولكن!!

وكنت بين الحين والحين، وبخاصة في قيظ الصيف وجفافه، وسط زحمة العمل الذي لا ينتهي، أتذكر مقاطع من ذكرياتي، وأتمنى لو تعود ولو لفترة عابرة، لكي أعرف كيف أتعامل مع آخر خلية فيها وفق أقصى حالات السعادة والبهجة والامتلاء وأعلاها وتيرة... وإذ أتذكر أنني كنت يومها أحرق اللحظة أو أساعد على تضييعها بالوساوس والهموم والقلق... إذ أتذكر أنني كنت أنتقصها من هنا وهناك، بحيث لا أتعامل في معظم الأحيان سوى مع حدودها الدنيا... أحسّ بتعاسة فائقة وبندم قاس على ما فرطت في حق نفسي.

ربما طفولتي وحدها تخرج عن هذه الحالة... حيث كنت أرتشف اللحظة إلى المدى... لكن هذا لا يغطي سوى جزء محدود جداً من حياتي... وطالما

تذكرت، وأنا في غمرة العمل، هذه الرحلة أو تلك... وهذه اللحظة السعيدة أو تلك... وهذه المفردة الواعدة أو تلك... فأحترق شوقاً لاستعادتها... ولكن هيهات... وحينذاك ألجأ إلى الرحيل في أكداس مذكراتي المكتوبة، أو ذاكرتي الحادة التي لا تكاد تغفل أية صغيرة، أو شاردة في مجرى الحياة... فأجدها نوعاً من التعويض... وهو قد يشبع في النفس حاجة ما... فلا بأس!!

لكن ما كان يعزّيني دائماً... يمنحني السلوى... وينقلني إلى شطآن الفرح والسعادة... أنني أمّمت حياتي منذ الكلمة الأولى التي خطها يراعي، وحتى آخر حرف قدّر أو سيقدر لي أن أخطه، وعبر تسعين كتاباً أتيح لها النشر، لتأكيد تفرّد هذا الدين، ومصداقيته المطلقة، ونبضه الذي يخفق بالتوحيد الذي هو أثمن جوهرة نملكها في هذا العالم... والذي تتداح دائرته باستمرار لكي تغطي كل مفردة في حياة المسلمين المعرفية والسلوكية على السواء... إنه نقطة الجذب والإشعاع معاً... القلب الذي يعطي ويأخذ، يضخ ويتلقى.

بما أن التوحيد الذي ينبثق عن الشهادة التأسيسية الكبرى (لا إله إلا الله) هو المرتكز والهدف... فإنه سيدخل منذ اللحظة الأولى في الزمن، وسيمتد في المكان، إلى كل جزئية من جزئيات النشاط الحضاري، لكي يطبعه بهذا التقابل المؤثر الفعال مع الله الواحد جلّ في علاه، ويصبغه بكلمة الله التي يأخذ عنها المسلم منهاج العمل ويتوجه إليها في الصيرورة والمصير.

ولسوف تتأكد هذه الخصيصة المحورية لدى مقارنة الحضارة الإسلامية بأية حضارة أخرى، دينية محرفة، أو وضعية، إننا هنا بإزاء عودة إلى الجذور... إلى الحقيقة الكبرى في أقصى درجات وضوحها وفاعليتها وتألقها... إن الحضارة الإسلامية سيقدر لها أن تمنح الفعل البشري، وهو يعمل، فرصته في أن يستعيد وظيفته الأصيلة: خليفة في هذا العالم، مستعمراً لله وحده فيه...

في التاريخ، في الجغرافيا، في النفس، في المجتمع، في الفلك، في الطب، في الهندسة، يعبر التوحيد الإسلامي عن نفسه... في المعادلات الكيمياوية

والجيوب واللوغارتيمات... في المنائر الواثقة المتفردة الصاعدة إلى السماء، وفي القباب المتكورة على الخشوع والتسليم... في كلمات الشعراء ولمسات المعماريين، يتجلى التوحيد كما لم يتجلّ في أية معرفة أخرى.

لقد منح التوحيد نشاطنا الحضاري عبر التاريخ وحدته المتماثلة، وشخصيته المتفردة... شد جزئياته وتفاريقه في أنساق واحدة تتجه خيوطها جميعاً صوب الهدف الواحد، وتنبثق عنه، لكي ما يلبث النسيج في نهاية الأمر، أن يجيء معبراً بلسان الحال عن صنع يدي نسّاج واحد.

على مستوى الدافع، يضع التوحيد العالم والمفكر المسلم قبالة الله ﷻ مسؤولاً عن قدراته التي أودعه الله إياها، ساعياً لأن يستثمرها حتى حدودها القصوى...

على مستوى الهدف، تصاغ معطيات هذا السعي المعرفي لكي تكن متوافقة مع كلمة الله، متجاوزة، ما وسعها الجهد، أي قدر من الثنائية أو الازدواج...

وفي كل الأحوال، فإن التوحيد يصير دافعاً لمزيد من العطاء، ومعاملاً لوحدة هذا العطاء ومنحه سماته الأصيلة المتفردة.

في التوحيد، يغدو الكون والعالم والطبيعة، من صنع الله القادر المهيمن المبدئ المعيد، ويتحرر المسلم من سائر الخرافات والصنميات التي تلبستها الطبيعة والعالم في المذاهب والأديان الأخرى، فعرقلت انطلاقه الحرّ للكشف عن السنن والطاقات والنواميس...

إن التوحيد يضع المسلم حراً في مواجهة الكتلة الكونية، فاعلاً مريداً... يضعه فوق هذه الكتلة سيداً على الخلائق، ومن ثم يصير التوحيد فرصة كبرى للتحقق بالمعرفة، للاستزادة منها، من أجل الإمساك بتلابيب العالم والطبيعة والحياة... والتقرّب أكثر إلى الله...

ودائماً كان التوحيد هو صمام الأمان عبر تعامل الحضارة الإسلامية مع الحضارات الأخرى، فلا تأخذ، في الأعم الأغلب إلّا ما ينسجم وإياه، ولا تمرر إلا ما يسمح هو بتمريره إلى شبكة الحضارة الإسلامية. وها هنا أيضاً أعطى

التوحيد الفرصة لهذه الحضارة بأن تتحقق أكثر بوحدتها وخصوصيتها، سيما إذا تذكرنا أن الحضارات الأخرى، كانت تنبض في إيقاعها، في كثير من الأحيان، أصوات الآلهة والصنميات والثنائيات والأضداد...

بإيجاز، حيث لا تسمح صفحات كهذه بالاستفاضة في موضوع يحتمل المزيد؛ فإن التوحيد، كما يقول الدكتور إسماعيل الفاروقي رَحِمَهُ اللَّهُ، مؤسس حركة إسلامية المعرفة في بحث له بعنوان (جوهر الحضارة الإسلامية): (هو الذي يعطي الحضارة الإسلامية هويتها، هو الذي يربط ين أجزائها، هو الذي يطبع كل ما يدخل إليها من عناصر فيؤسلمها، ويطهرها، فتخرج من عبورها في التوحيد، متجانسة مع كل ما حولها. قديماً وحديثاً كتب مفكرونا آراءهم في جميع الميادين تحت عنوان التوحيد، وذلك لأنهم رأوا فيه المبدأ الأكبر الذي يشمل جميع المبادئ الأخرى، ورأوا فيه القوة الكبرى التي تفجرت عنها جميع المظاهر المكونة للحضارة الإسلامية. التوحيد هو الشهادة عن إيمان بأن (لا إله إلا الله) هذه الشهادة السلبية في مظهرها، والمختصرة اختصاراً لا اختصار بعده، تحمل أسمى المعاني وأجلّها. فإذا أمكن التعبير عن حضارة برمتها بكلمة واحدة، إذا أمكن صب كل الثراء والتنوع والتاريخ في أبلغ كلام ـ وهو أقصره طولاً وأكثره دلالة ـ كان هذا في (لا إله إلا الله) عنواناً للتوحيد وبالتالي للحضارة الإسلامية).

وكما يقول غارودي، القادم من نسيج حضارة الغرب التعددية، في كتابه (وعود الإسلام): (لا إله إلا الله هذا الإثبات الأساسي للإيمان الإسلامي)، وهو يعرف جيداً ما الذي يعنيه هذا الإثبات على مستوى المستقبل، وما الذي يعنيه ـ بالمقابل ـ على مستوى التاريخ.

ومن أجل هذا ترددت طويلاً في اختيار العنوان المناسب لسيرتي الذاتية المتواضعة هذه... ثم ما لبثت أن وقعت على المطلوب، فتملكتني فرحة غامرة، لأن العنوان سيكون كفاء كل ما خطه يراعي منذ أول كلمة كتبتها قبل أكثر من

ستين عاماً، وحتى آخر كلمة سيقدّر لها أن تخطها يداي: (أشهد أن لا إله إلا أنت: سيرة ذاتية)...

وأنا أكتب... كنت أجدك ـ سبحانك ـ في كل حرف، وفي كل كلمة... حضورك الجليل يغطي بانوراما الكون والعالم... البدء والمنتهى... متأبداً فيما لا بداية له... ماضٍ فيما وراء المصائر والمقدرات.

كنت أجدك ـ سبحانك ـ في كل زهرة تتفتح... في كل غصن يعد بالثمر.. في العيون العذبة وهي تتدفق... في الجداول والأنهار وهي تنساب... في البحار والمحيطات وهي تهدأ وتثور... في زخات المطر... في ضوء الشمس... في شلال القمر... في الكواكب والنجوم والمجرات والسدم وهي تسبح في الكون مسبحة بحمدك... ملبية أمرك... شاهدةً على ربوبيتك... منادية في كل لحظة: لا إله إلا أنت!!

ما من حرف سطرته.. أو كلمة كتبتها... إلّا وتشكلت بالنبض نفسِه... بالشهادة ذاتها... بالاعتراف الكبير عينه: لا إله إلا أنت...

كل الحقائق تصغر وتتضاءل أمام حقيقة لا إله إلا الله... كل الشموس والأقمار تنكسف وتنخسف قبالة شمس الشهادة الكبرى والنور الذي تتلاشى إزاءه الأنوار: لا إله إلا أنت!!

يدي ما كانت تطاوعني أن أخط حرفاً واحداً يخرج عن حقيقة لا إله إلا الله... فكري ما كان يتدفق على مدى ستين عاماً إلّا بما يقرّ، ويؤكد، ويتوافق مع إيقاع لا إله إلا الله...

إنها كلمة نحن قائلوها... ولكننا لو تجاوزنا الإلف والاعتياد، وأوغلنا في عمقها البعيد؛ فإننا سنجد أنفسنا أمام حقيقة ليست كالحقائق، وحالة ليست كالحالات.. حقيقة هي أشد الحقائق في هذا العالم ثقلاً وامتداداً وحضوراً وقدرة على التحريك والتأثير.

إنني لأتذكر عبارة روجيه غارودي... (لا إله إلا الله... هذه الشهادة

الكبرى التي لو أُحسن التعامل معها لزحزحت الجبال عن مواضعها)... فما الذي كان أو يكون أو سيكون قبالة (لا إله إلا الله)؟! لا شيء!!

وبمرور الوقت أخذ يتبين لي، وأنا أنسج كلماتي وأعمالي في ظلال (لا إله إلا الله)... أننا إذا أردنا أن نكون شيئاً في هذا العالم... أن نكون كفاء إنسانيتنا ودورنا في الأرض... كفاء وجودنا ومصيرنا في رحلة الحياة الدنيا، وفي الآخرة... فإن علينا أن نتحقق حتى آخر حجيرة في تكويننا الآدمي... بـ (لا إله إلا الله)... وإلا فهو الوهم والزوال، الذي لا يؤول إلى شيء على الإطلاق... ظلال لا عمق لها تتحرك على سطح الزمن والمكان وتغيب دون أن تخلف أثراً...

إننا إذا أردنا أن نكون حاضرين في هذا العالم؛ فإن علينا أن نتحقق بـ (لا إله إلا الله)... بكل ما تنطوي عليه الشهادة من معنى... تلك هي الحقيقة الكبرى... الحقيقة الأولى والأخيرة التي علمتني إياها رحلتي مع الكلمة...






القسم الثاني

رحلتي مع الكلمة




الفصل الحادي عشر

حفريات في جذور الرحلة

نحن في حاجة بين حين وآخر في ندواتنا وأمسياتنا إلى أن نغادر زنزاناتنا الأكاديمية... هذا التخصص الدقيق الذي ابتلينا به منذ بداية هذا القرن باسم الأكاديمية، والذي جعلنا أشبه بجزر منعزلة ينفصل بعضها عن بعض... نحن في حاجة إلى أن نكسر طوق العزلة، وأن نخرج منها للحديث عن خبراتنا وعن تجاربنا وعما عشناه ونعيشه في فضائه العام، في نبضه الإنساني، في خلجاته ووجدانياته. دعونا نخرج عن الموضوعات الأكاديمية البحتة مثل: البعد الاجتماعي في شعر عنترة، أو مفاهيم البطولة في العصر الجاهلي تطبيقاً على عنترة بن شداد... الخ، ولنتكلم فيما يهمنا جميعاً...

البدايات الأولى منذ لحظة تفتح الوعي على الحياة وحتى بلوغ الخامسة والعشرين من العمر؛ (ربع القرن الأول) الذي هو في الحقيقة بداية الرحلة الصعبة مع الهمّ الأدبي، تلك الرحلة التي تنطوي على جملة من الانكسارات والإحباطات، والبحث عن منفذ للخروج إلى الآخر، وتلقي الضوء في هذا العالم الواسع... والامتلاء بالشعور بأن قدراتنا أقل بكثير من طموحنا... والحقيقة التي تسجلها هذه المقدمة الصغيرة هي أن هذه الرحلة هي رحلة كل واحد منا؛ بعجزها وانكساراتها وإحباطها وطرقها المسدودة، وبحث كل واحد منا عن فتحة في الجدار الأصم يدخل منها شعاع الشمس لكي يراه الآخرون، نداء كل واحد منا وهو يجد نفسه منفياً في جزر منعزلة لا يكاد يحس به أحد، سعي كل واحد منا وهو يحفر الصخور بأظافره بحثاً عن منفذ للخروج... محاولات

مستحيلة لتحقيق الوفاق بين الحلم الكبير والقدرة العاجزة المحدودة... ودائماً من قصورنا وأخطائنا وعثراتنا يمكن أن نتعلم الكثير... هذه واحدة...

والمسألة الأخرى التي أحببت أن أشير إليها كمدخل إلى الموضوع الذي بين يدي هو أن هذه الرحلة المبكرة تنطوي على جملة من المفارقات وربما الطرائف، والتي يمكن أن تدرج فيما قد يعتبر من براءة الطفولة وسذاجتها.

ونحن على أي حال في أمسّ الحاجة أن نروّح عن أنفسنا ساعة بعد ساعة، لأن القلوب إذا كلّت عميت... فلنخرج مرة عن دائرة الجد الكامل، وهمومنا الكثيرة، ولم لا؟! ونحن في أمسّ الحاجة إلى البحث عن منافذ أيضاً للخروج من هذا الضغط الذي نعانيه على كل المستويات... والدخول في هذه التجارب التي قد لا تخلو من بعض الترويح عن النفس.

أتمنى قبل الدخول في هذا الموضوع أن تتولى رابطة الأدب الإسلامي مهمة إخراج موسم ثقافي، يستدعى فيه كل الأدباء الإسلاميين للحديث عن تجاربهم وعن رحلتهم الشخصية وخبرتهم الخاصة، عن سيرهم الذاتية، عن تجربتهم مع الكلمة بالذات، وخاصةً في بدايتهم الأولى... نتعلم منها ونعلمها للآخرين ولأنفسنا... وربما ينظم لذلك موسم نمطي، قد يستغرق ثلاثة أشهر أو أربعة، يأخذ فيه كل أدبائنا فرصتهم ليتحدثوا عن بداياتهم الأولى، وعن التحديات التي جابهتهم، وكيف تفوقوا على بعضها وانكسروا أمام البعض الآخر.

واعذروني إذ أتحدث عن نفسي، فالسيرة الذاتية جنس أدبي يتحدث فيه الإنسان عن نفسه، وهذه ليست سيرة ذاتية، وإنما هي جذور هذه السيرة الذاتية مع الكلمة على وجه التحديد، مع الهمّ الأدبي على وجه التحديد.

في السادسة من العمر إذا لم تخني الذاكرة حين كنت يومذاك في الصف الأول الابتدائي... لم أكن أعرف الكتابة ولا القراءة، لا أدري كيف وجدتني مندفعاً ـ ربما بدافع الخيال ـ إلى أن أؤلف مسلسلاً كوميدياً بعنوان (الشيخ مراح). ولا أدري إذا كانت كلمة (مراح) هذه مستمدة عفوياً من أن

البطل هو شخصية مرحة كوميدية أو غير ذلك، المهم أن الشيخ مراح كان عنوان ذلك المسلسل الذي بلغ حوالي عشر حلقات أو اثنتي عشرة حلقة اختزنتها شفاهاً في ذاكرتي ولم أكتبها؛ لأني لم أكن أعرف أساساً كيف أكتب وكيف أقرأ.

ومضت السنوات بعد هذا لكي أجد نفسي بعد سنتين أكتب مسلسلاً آخر... هذه المرة كان مسلسلاً ميلودرامياً مترعاً بالخوف والرعب... وربما يكون هذا بتأثير حكايات الجدة التي كانت في أماسي العشاء تجتمع بأحفادها لكي تقص عليهم جملة من القصص الشعبي المعروف في مدينة الموصل. ولحسن الحظ أتيح لهذا القصص الشعبي أن يحظى برعاية مؤرخ معروف في الموصل يدعى أحمد الصوفي ﵀، وهو من المربين الأجلاء، وأن يدوّنه في كتاب سماه (حكايات الموصل الشعبية)، وكان من خطأ التقاليد التربوية في ذلك الزمن أن تنطوي قصص الجدات على قدر كبير من الرعب... كنا نرتجف خوفاً وهلعاً عندما نجد أنفسنا أمام شخصيات وهمية مخيفة وأسطورية تملأ جملتنا العصبية بالخوف والرعب... على خلاف ما انتشر الآن من أدبيات القصص المحكمة في توجيهها التربوي البعيدة عن تعقيد الطفل بالإرهاب أو الإخافة.

وانعكاساً لذلك التأثير اليومي ألّفت مسلسلاً ميلودرامياً لم يبق في ذاكرتي منه شيء.

ومضت سنة أخرى لكي ما ألبث أن أجد نفسي أمام رغبة في قول الشعر، ولكن أي شعر هذا!! إنه مجموعة من الأبيات المكسرة عروضياً التي لا تنطوي على معنى جاد، ولكنها تنطلق من توق ملحّ، وتصدر عن رغبة دفينة في أن أكتب شعراً؛ أما كيف يكون هذا الشعر!! فهذا ما لم يكن يدركه تلميذ مثلي في ذلك السن في الرابع الابتدائي، لعله نوع ـ إذا صح التعبير ـ من (الكثرسيز) كما يقول (أرسطو)، أو نوع من التطهر، أو (إخراج هذا الذي في الداخل) ولكن بصيغة ضعيفة جداً وهزيلة جداً لا تغطي المطلوب...

في هذه السنة أيضاً أتيح لي أن ألتقي عرضاً بواحدة من علب الكارتون التي تستعمل لتغليف السلع في الأسواق، وكان مرسوماً عليها صورة فتاة قروية جميلة تحمل جرة وتنحدر باتجاه النهر لكي تستقي ماء، فقلت في نفسي: ها هي ذي فرصة للغزل... الغزل البريء بلا شك... لأن طفلاً عمره عشر سنوات ـ في ذلك الزمان ـ لا يمكن أن يتغزل إلّا غزلاً بريئاً... فكتبت جملة من الأبيات من النثر الشعري وليس من الشعر الذي يقوم على البنية العروضية... بطبيعة الحال.

ولكن هذه المرحلة (مرحلة الابتدائية) كانت مرحلة خصبة جداً فيما يتعلق بالتهام كل ما يقع بين يدي الإنسان... كان جيلنا جيلاً قارئاً، جيلاً نهماً إلى القراءة... ونحن الآن في أمسّ الحاجة إلى أن نعيد عشق القراءة إلى أطفالنا وصبياننا وشبابنا، بل إلى كثير من أساتذتنا الجامعيين الذي لا يقرؤون في السنة كلها كتاباً واحداً ـ للأسف الشديد ـ، ولعل هذا هو الذي سحق العملية التعليمية والتربوية وسحبها إلى الوراء، وقادها إلى هذا البوار الذي نعاني منه بشكل حلقة مفرغة يؤول بعضها إلى بعض.

كنا نقرأ بنهم كل ما يقع بين أيدينا من مجلات وقصص، وبخاصة قصص المرحوم كامل الكيلاني القاص المصري الذي كان له دور كبير في التأثير في نفوسنا، نعم، كامل الكيلاني يستحق فعلاً أن يشار إليه بين حين وآخر، لأنه كان من أوائل الذين قدموا سلاسل عديدة من قصص الأطفال التي كانت تدهشنا... وأنا أتذكر الآن كيف كان معلم الابتدائية في وقتها يأتي كل خميس لكي يضع على المنصة جملة من هذه القصص وينادي: قطر الندى... السندباد البحري... الأقزام السبعة... فكنا نرفع أيدينا كل واحد منا نحن طلاب الابتدائي لكي يستعير واحدة من هذه القصص بأربعة فلوس... يوم كان الفلس فلساً... له قدرة شرائية... والأربعة فلوس مما ندخره من يومياتنا بصعوبة بالغة لكي نستعير به هذه القصص التي نعود بها إلى دورنا.

وفي أمسيات الخميس المطلة على يوم الجمعة، وهو يوم عطلة، تجلس الأم

لكي تقرأ علينا نحن الأبناء هذه القصص، فننغمر فيه ونندمج ونحس بمتعة بالغة وكأننا نتحرك مع شخوص هذه الروايات... مجلات عديدة أذكر منها على سبيل المثال: (مجلة الطالب) و(مجلة السندباد) التي أدهشتنا وقتها في بداية الخمسينيات بألوانها حيث لم تكن المجلات يومذاك سخية بالإخراج الفني، كذلك (المصور) و(آخر ساعة) حتى (الكواكب) و(الأخوة الإسلامية).

انظروا إلى المفارقات ما بين (الكواكب) التي كانت تنشر أخبار الفن والفنانين، ومجلة (الأخوة الإسلامية) التي بدأت تطل برأسها في الموصل وفي بغداد في بداية الخمسينيات لكي تعبر عن وجهة نظر إسلامية. كنا نقرأ كل ما يقع تحت أيدينا، نقرؤه بشغف بالغ، من الغلاف إلى الغلاف، فكانت فرصة لتعديل الذوق وتعديل التوجه في القراءة. انظروا إلى هذا التأثير المهم جداً والضروري بالنسبة للأطفال، وهو أن نزيح العملة الرديئة بعملة جيدة... هنا تنعكس الآية... العملة الجيدة يجب أن تطرد العملة الرديئة... وأذكر على سبيل المثال الأخ عبد الله الطنطاوي وهو أحد الذين يعملون ويبذلون جهدهم في إصدار القصص والمجلات المعنية بالأطفال... ومؤسسة الرسالة كانت قد أخرجت في يوم ما مجلتين (أروى) و(أسماء) لمخاطبة الأطفال وملء فراغهم بما هو مجدٍ حتى تطرد السوء. وكذلك فعل الأديب المعروف محمد جمال عمرو ولا يزال.

في هذه المرحلة كاد اللون أن يسحبني عن الكلمة... كان شوقي شديداً لأن أرسم باللون بدلاً من الكلمات، وكانت الألوان عندما أتعامل معها وهي موجودة أمام السمع والبصر والعين في صورة زهور أو لوحات فنية تدهشني... أشعر أن إيقاعها في نفسي يفعل فعل السحر... حاولت أن أجرب حظي بأن أخرج معاناتي الداخلية التي تحتبس في الصدر باللون فعجزت عجزاً ذريعاً.

ومن المفارقات العجيبة أنني كنت عندما أمتحن في كل المواد أخرج وأنا مطمئن إلى أنني سأنجح فيها إلا الرسم؛ فإنني كنت على كونه درساً ثانوياً قد لا يُرسب الطالب، أغادر هذا الامتحان وأنا خائف من الرسوب، لأني كنت في

الرسم صاحب يد ضعيفة لا تقدر على التعبير عمّا في صدر صاحبها، فعدت مرةً أخرى إلى الكلمة لكي أرسم بها ما يعتمل في الصدر...

مضت السنوات، ثم جاءت السنة الثالثة متوسطة؛ يعني تسع سنوات من بدء الدراسة الأولى، هذه سنة التحول في الحقيقة، التحول الجاد مع الكلمة. كنا ندرس يومذاك كتاباً في تاريخ الأدب الحديث يسمى (الأساس في الأدب الحديث) ألفه عدد من الأساتذة المتخصصين في جامعة بغداد، يوزع على المدارس المتوسطة في السنة الثالثة... وإذا كان مدرس اللغة العربية قديراً على الأداء فإنه سيجد فرصته في هذا الكتاب لجعل طلبته يملكون حساً أدبياً... هذا الكتاب ميزته أنه يتعامل مع القصائد الحديثة والمعاصرة... مع أدباء المهجر الذين كنت في الحقيقة أدهش وأكاد أذوب رومانسية وأنا أقرأ لإيليا أبي ماضي أو المعلوف أو لجبران خليل جبران... فكان هذا التوجه الحداثي في الأداء الشعري والأدبي عموماً فرصة جيدة لإشعال فتيلة الرغبة في الكتابة وفي التعبير عما يجيش في النفس، كتاب الأساس هذا نقطة الارتكاز في الحقيقة...

وجدتني يوماً وأنا أغادر المتوسطة عائداً إلى البيت أحمل هّماً كبيراً كمن يريد أن يخرج شيئاً يكاد يضغط عليه من الداخل، فكتبت قصيدتين؛ إذا جاز أن تسمى هاتان قصيدتين، مجرد تسمية قد لا تكون صحيحة... كانت إحداهما كعادة كل الشعراء الذي بدؤوا، أو كل الذين حاولوا الشعر ولا أقول الشعراء، أو كل الذين بدؤوا رحلتهم الأدبية، عن القضية الفلسطينية... هذه نقطة ارتكاز... همّنا كان وهمّ الأمة وظلّ وسيظلّ هو الهمّ الفلسطيني، وكلّ الذين حملوا همّ الشعر أو أرادوا أن يكتبوا شعراً ـ بشكل يكاد يكون مطلقاً ـ بدؤوا بالقضية الفلسطينية. يومذاك كانت تتوازى مع هم آخر هو هم مقاومة (جبهة التحرير الجزائرية للاستعمار الفرنسي). فكانت القصيدة الأولى عمودية تحكي عن القضية الفلسطينية، والقصيدة الثانية عن الهمّ الجزائري، وكانت قصيدة من شعر التفعيلة أو الشعر الحر كما يسمى.

مضت الأيام أيضاً، ووجدت نفسي يركبني عفريت، كذلك الذي ركب السندباد البحري وعقد ساقيه على رقبته وطلب من السندباد في إحدى الجزر أن يمضي به على ثقل هذا العفريت إلى حيث يشاء العفريت لا إلى حيث يشاء السندباد البحري... ما هو ذا العفريت الذي ركبني؟؟ أن أكون مثل جدّي لأمّي شاعراً يشار إليه بالبنان؛ فجدي لأمي كان الملا حسن أفندي البزاز صاحب ديوان شعري معروف يتلى على المنائر في المناسبات... شاركه في كتابة قصائده الحاج محمود شيت الجومرد، وقد كان شاعراً شارك في نسج ربع هذا الديوان وثلاثة الأرباع الأخرى كتبها جدّي الذي كان مدنفاً بعشق الرسول ﷺ...

وكانت قصائده تذوب وجداً في محبّته... ولرومانسيتها وغنائيتها وعروقها المترعة بالحزن والشجن؛ كانت تغنى وتنشد على المنائر في أماسي رمضان، والناس تتناقلها على الألسن. ولكونه كان يعيش التجربة بجملته العصبية استهلك صحياً، وتوفي ولم يتجاوز من العمر بداية الأربعينيات...

ركبني هذا العفريت رغم عجزي وقصوري وقلة حيلتي أن أكتب ديواناً لا يقل تأثيراً وأهمية عن الديوان الذي كتبه جدّي لأمي الملا حسن أفندي البزاز، فجمعت ما كتبته مما يمكن أن يسمى مجازاً بالقصائد، وهي ليست كذلك بكل تأكيد، وصارت حوالي ست عشرة أو سبع عشرة قصيدة. وما كان مني إلا أن آخذ دفتراً من الدفاتر ذات الست عشرة ورقة وكنا نعتمده في كتابة الإنشاء وغير الإنشاء، وأنقل هذا الذي يسمى بالقصائد والشعر إليه وأهيئه لليوم الموعود...

كانت الصدمة عنيفة بعد أيام قليلة... عندما عدت من المدرسة ووجدت أخي الأكبر وخالي يمسكان بهذا الدفتر يقرآن فيه ويضحكان حتى يكاد أحدهما يستلقي على قفاه... أنا كنت في حالة رومانسية... ومراهقاً وذا طموح كبير، وإذا بي أصدم بهذا الضحك والسخرية من هذا المسمى قصائد منزلة على هذا الدفتر...

كانت صدمة قاسية جداً... ما كان مني إلا أن أمسك بالدفتر وأمزقه شر

ممزق... وندمت بعد ذلك على هذا لأنه كان فرصة كي أقرأ منه عليكم بعض الشيء لكي تستلقوا أنتم أيضاً على أقفيتكم من الضحك كما فعل أخي وخالي.

ولكنها لحظة انفعال، ونزوة غضب، رد فعل خاطئ لفعل خاطئ بالتأكيد؛ لكونهما لم يكونا يملكان حسّاً أدبياً. كانا طالبين في الفرع العلمي لا يلتفتان لشيء كهذا. كان ينبغي أن يأخذا بيدي، وأن يربتا على كتفي وأن يشجعاني لكي أكون الملّا البزاز الثاني، فكانت هذه صدمة كبيرة، لكن آثارها ما لبثت أن زالت في السنة التالية عندما دخلت في المرحلة الإعدادية واخترت الفرع الأدبي؛ وهو يغذي الطموح باتجاه التعامل مع الكلمة.

ويومذاك حاولت أن أجرب حظي ليس فقط مع بعض القصائد التي أتيح لقسم منها أن يلحق بديواني الأول (جداول الحب واليقين)، وإنما كتبت إذا لم تخن الذاكرة قصة قصيرة ذات طابع كوميدي، وترجمت عن الإنجليزية فيما كان مقرراً علينا قطعة تحكي عن وصول أول سفينة شراعية إلى الساحل الأميركي، ورد الفعل الانطباعي للهندي الأحمر، وهو يجد نفسه فجأة قبالة هذه الماكنة الرهيبة التي ينزل منها أناس مدججون بالسلاح، رؤية انطباعية عن هذا الغربي الذي لا يخرج عن دائرة الأنا ولا عن مركزيته الغربية تجاه الآخر؛ والذي يحمل السلاح استعداداً لذبح أمم بكاملها إن وقفت في طريقه، أو عرقلت مسيرته نحو امتلاك الأرض؛ نفس الغربي المعاصر، هو ذاك الذي تتحدث عنه هذه المقطوعة التي كنا نقرؤها بالإنكليزية في كتاب مقرر علينا... ترجمتها لأنها كانت مؤثرة وتعكس حالة إنسانية.

كان الأمر الأكثر أهمية في هذه المرحلة الإعدادية هو ازدياد النهم للقراءة... لحسن الحظ حدث وأن أضربت إعداديتنا واعتصمت عام (١٩٥٦م) في أعقاب العدوان الثلاثي على مصر... أقفلنا الأبواب وأعلنا البقاء في المدرسة إلى أن تتحقق مطالبنا يومذاك. سذاجة المتظاهرين أحياناً تثير الشفقة عليهم، ويومذاك كانت طموحاتهم أكبر من الواقع بكثير... ما هي مطالبنا يومذاك ونحن نعتصم بالمدرسة ونبيت فيها حتى اليوم التالي؟؟ أن

يستقيل نوري السعيد!! هذا ممكن؛ لكن أن يخرج الإنجليز من العراق وأن يؤمم النفط... فماذا يعني هذا؟؟

هذه مسألة كانت يومذاك في حكم المستحيلات، وكان يأتينا قائد الفرقة من وراء الباب ينادي ويضحك منّا: (يا أبنائي والله أنتو بس افتحوا الباب عودوا واخرجوا إلى دوركم وإن شاء الله بعد يومين سنؤمم النفط وسنقيل نوري السعيد وسنخرج الإنجليز)... يضحك منّا... ونحن مصرّون على البقاء...

وأما بعض الطلبة فكانوا مندفعين بأكثر مما يجب؛ فأحرقوا بعض أثاث المدرسة متأثرين برؤية حادة جداً في التعامل مع الأمور... المهم أن الذي حدث هو إعلان الإضراب عن الطعام حتى تتحقق المطالب... وإعلان الإضراب عن الطعام كانت خبرة رأيتها بعيني. أولئك الخطباء المزايدون الذين كانوا يحشدوننا للصمود في هذه المدرسة؛ كانوا أول من يتلقى وجبات الطعام من بوابات خلفية: الكباب والقيمر والقشطة ويأكلون، ونحن بمثاليتنا وسذاجتنا كنا مصرين على أن نظل مضربين عن الطعام حتى النهاية.

ولكن في اليوم التالي تبين أن هناك ثغرة في الجدار الخلفي للمدرسة تسلل منها الزعماء الكبار المحسوبون على اليسار... وبقي الذين يحملون همّاً صادقاً في الداخل، ورأوا أنه لا جدوى من البقاء فخرجوا... المهم... هو أن السلطة قررت تعطيل الدراسة لمدة شهر في المدرسة حتى لا تتكرر هذه الحادثة ولا تتكرر المحاولات المؤذية للسلطة... ثم جدد لشهر آخر... عقوبة التعطيل هذه كانت الفرصة الذهبية لمن يريد أن يقرأ حينذاك.

وأعتبر هذين الشهرين أجمل الأشهر في تاريخ حياتي على الإطلاق... انكببت صباحاً ومساءً، ومن التاسعة صباحاً حتى الواحدة ظهراً لتناول الغداء والعودة ثانية لمتابعة القراءة.

ودائماً بوابة الدخول المعروفة لكم جميعاً: المنفلوطي وجبران والمازني والرافعي والزيات... ثم توفيق الحكيم وطه حسين وسيد قطب والعقاد ونجيب محفوظ وعلي أحمد باكثير ومحمد عبد الحليم عبد الله... كانت قصصهم

ورواياتهم ومسرحياتهم وأعمالهم الأدبية تصيبنا بالدهشة، وتضعنا، كما يقول بعض النقاد في دائرة السحر من شدة التأثر والإعجاب... وعلى مدى هذين الشهرين تمت مطالعة عشرات، ولا أبالغ إن قلت مئات الكتب الأدبية على وجه التحديد، الأمر الذي جعل مخزوني التعبيري ينمو قليلاً، بعد أن كان ينسج خيوطه في دائرة العجز والشلل في المرحلة السابقة.

إحدى المفارقات حيث يتمنى كل واحد منا ـ في تلك المرحلة المبكرة ـ أن يسمعه الآخرون... وتلك مشكلة... نعم... أن نصل إلى الطرف الآخر، وقلت في نفسي: لماذا لا أنشر إحدى قصائدي، إذا جاز أن تسمى كذلك، وأرسلها إلى جريدة محلية تدعى (فتى العراق) خصصت صفحة للأدب؟!

بعثت بهذه القصيدة التي أرحب فيها بقدوم رمضان... موضوع تقليدي أليس كذلك؟ لكن هذا هو الموجود تحت اليد يومها... أرسلتها وكنت متحرقاً شوقاً لنشر أول محاولة أختبر فيها مدى تقبل الصحف والمجلات لنشر أعمالي إذا جاز التعبير!

والذي حدث أن العدد التالي صدر ولم تنشر القصيدة إياها، والتي لم أجرؤ على تصديرها باسمي الصريح، واكتفيت بحرفيه الأولين: (ع. خ)، حتى أبقي الأمر سراً بيني وبين نفسي ولا أتعرض لفضيحة ـ كما يقول الأخوة المصريون ـ إذا حدث وأن عرف اسمي يتصدر قصيدة مهشّمة بمعنى الكلمة... وقلت: هي محاولة، وإذا انكشفت فأنا مغطى برمز مستعار لا يعرفه أحد...

وبقيت أنتظر نشر القصيدة إلى أن بلغت دائرة اليأس، وإذا بي يوماً أتلقى من المحرّر، على عمود خاص بالرّد على الرسائل والأعمال المرسلة للجريدة: «إلى عين خاء»... قلت الحمد لله قد جاء الفرج، وبلغت المطلوب... (قصيدتك غير صالحة للنشر)...

لا تدرون ـ أيها الأخوة ـ كم كنت سعيداً وأنا أرجع بالجريدة إلى البيت،

لا لشيء إلّا لأن المحرر سمى قطعتي هذه «قصيدة»، وهذا كرم منه بكل تأكيد، رغم أنها غير صالحة للنشر... كان هذا الإنجاز يومذاك كسباً كبيراً.

درس الإنشاء... وكلكم مررتم بالتجربة... يمثل فرصة جيدة لتقوية اليد على الأداء الأدبي، ليس فقط للحصول على درجة أعلى، ونيل الإعجاب من مدرّسي اللغة العربية، وإنما للتعبير عما يعتلج في النفس... كانت فرصة لتقديم رؤى جديدة، وكانت الدرجات المتفوقة يومها في دروس الإنشاء هذه تمنح دفعة قوية إلى الأمام باتجاه الثقة بالذات.

ثم جاءت مرحلة الدراسة الجامعية في بغداد... ولا أدري لم اخترت قسم التاريخ رغم ميلي إلى الأدب، وإلى أن أذهب إلى قسم اللغة العربية لتعميق قدراتي، ورغبة مني في أن ازداد اطلاعاً على شبكة المعطيات الأدبية... لكن الذي حدث أن معظم أقسام اللغة العربية في جامعاتنا كانت تعاني يومذاك من الموات والتضخّل والمناهج التقليدية التي تقتل القدرات وتطفئ كل طموح... صيغ تقليدية لا تعطي هامشاً لأن يبدع الطالب ويقدم ما عنده، وبالتالي رأيت أن هذه أشبه بمقبرة قد يدفن الإنسان نفسه فيها، فلأتّجه إلى قسم التاريخ لضمان الحصول على البكالوريوس والوظيفة بالتالي، وتبقى علاقتي مع الأدب غير معتقلة في الدائرة الأكاديمية يومذاك.

أما اليوم فقد أخذت الدائرة الأكاديمية في أقسام اللغة العربية بالذات، بعداً آخر، وازدادت انفتاحاً واتساعاً وحيوية، وفتحت آفاقاً جديدة لتخريج المبدعين... كانت المسألة يومذاك تختلف، ولذلك اخترت التاريخ، ورغبت أن أنمّي ما أمتلكه من قدرات متواضعة على حسابي الشخصي بعيداً عن الضغوط الأكاديمية.

كانت البداية في المرحلة الجامعية مع الأجندات (المفكرات)، وهي دفاتر تقويم صغيرة بحجم الكف، تصدر سنوياً لتسجيل المواعيد التجارية والعملية. أما أنا فاعتبرتها فرصة لكتابة المذكرات اليومية، حيث ألزمت نفسي بأن أدون على مدى العام مذكراتي اليومية، أغطي بها هذه الصفحة التي هي بحجم

اليد، إما بخبرة شخصية أو تعليق على حدث سياسي، أو نقد لكتاب أنجزت قراءته، أو خبرة ذاتية أو عائلية، أو همّ أو حزن أو مسرّة أو... إلخ... ولا زلت أحتفظ ـ ولحسن الحظ ـ بهذه المذكرات المتواضعة البسيطة، التي تكاد تغطي يوميات أربع سنوات جامعية، وقد اخترت نماذج منها في كتاب سيصدر لاحقاً بإذن الله يحمل عنوان (مذكرات طالب جامعي).

تجربتي مع الأجندة علمتني شيئين: فأما أولهما فهو الصبر على الكتابة... وسوف آتي في ختام هذا الفصل إلى ما يجب أن نتشبث به إذا أردنا أن نكون أدباء بحق... سبعة مطالب أساسية سأنهي بها كلمتي هذه... غياب أي واحد منها يعني أننا لن نكون أدباء بالمستوى الذي يجعلنا فعلاً قادرين على حمل هموم الأدب الإسلامي، وإيصال خطابنا الإبداعي إلى الآخر بالقوة المطلوبة التي ترغمه على احترامنا وقبولنا في دائرة الأدب العالمي.

أحد هذه المطالب أن الكتابة التزام، ليس بالمعنى الاصطلاحي المعروف لدى النقاد، ولكن بدلالته اللغوية... إلزام المرء نفسه بالكتابة اليومية لأربع ساعات أو خمس...

الروائي المعروف (نجيب محفوظ) كان يقول في جلّ حوارياته التي نشرت في مجلات أو صحف، وجمعت في كتب أحياناً، كذلك الذي أنجزه رجاء النقاش، أنه على مدى خمسين سنة أو ستين كان يلزم نفسه يومياً بالكتابة لأربع ساعات أو خمس (ما بين التاسعة صباحاً والواحدة ظهراً)، يعود بعدها لكي يطالع ما بين الخامسة والتاسعة مساءً، ثم ينصرف لعائلته أو لسماع الأخبار والبرامج... الخ.

هذا الالتزام الزمني ضروري جداً، رغم أنني كنت أجد صعوبة وأنا أُقبل على كتابة هذه الصفحة الصغيرة بهمّ وقلق واكتئاب، مهما كانت على درجة من التفاهة والتعقيبات المسطحة على الظواهر والخبرات والأشياء...

هذا الالتزام يثقل على النفس، لكن علينا أن نمرّن أنفسنا عليه فعلاً، ولقد ذهبت إلى غير رجعة فكرة أن الأديب هو ذلك الشاعر الذي ينتظر من

شهر لشهر أو من سنة لأخرى لحظة الإلهام تتنزل عليه من فوق... لحظة (التسلطن) كما يقول عشاق الغناء... كلا... ليس ثمة انتظار للحظة (التسلطن) أو ومضة الإلهام الشعري...

في الكتابة لا بدّ من الجهد المتواصل والالتزام بالعمل اليومي، ربما يخرج عن هذا الإبداع الشعري فحسب، أما القصة القصيرة والرواية والمسرحية والسيرة الذاتية... وبطبيعة الحال المقال والتنظير والنقد والدراسة الأدبية... الخ فهي جهد يجب أن نلزم أنفسنا بالتعامل معه يوماً بيوم، إذا أردنا أن نواصل الطريق.

هذه التجربة البسيطة المتواضعة علمتني ـ إذن ـ شيئاً مهماً وهو أن أكتب يومياً... هذه الصفحة التي قد تسرق مني نصف الساعة أو الساعة، وكأن هناك عفريت آخر ركبني وأرغمني على ملء جلّ صفحات هذه المفكرة ذات الثلاثمائة وخمسة وستين يوماً...

وتركيز الفكرة المكتوبة ضمن المساحة المطلوبة: هذه هي الخبرة الأخرى التي علمتني إياها تجربتي مع (الأجندة)... إننا في محاوراتنا قد نوجز الفكرة الواحدة في دقيقتين ونريح الموجودين، وقد نفيض فيها الساعات الطوال... كذلك الحال في الكتابة... إن أية فكرة من الأفكار يمكن أن تضغط في صفحة واحدة، ويمكن أيضاً أن تتمدّد على صفحات طوال...

إن لغتنا العربية لغة سخية جداً، وذات عمق إنشائي، وهذه ميزة قد تكون لنا وقد تكون علينا إذا لم نحسن التعامل مع هذه اللغة الخصبة الحساسة التي سماها العقاد «اللغة الشاعرة»... في لغتنا هذه كل معنى قد تكون له عدة كلمات، بينما الكلمة الواحدة في الإنكليزية قد تنطوي على عدة معانٍ... فعلينا أن نحسن الاختيار، وأن نسعى إلى التركيز وتجاوز الإنشائيات ما وسعنا الجهد.

المسرح ـ الذي أنجزت فيه ثمانية أعمال فيما بعد ـ ينطوي على تركيز درامي يقوم على اختيار أقل الكلمات وشحنها من أجل إيصال المشهد بقوة الحوار وجعله بالمستوى الدرامي المطلوب.

لقد علمتني (الأجندة) مسألة تركيز الفكرة ـ التي يمكن أن تكتب في عشر صفحات ـ في صفحة صغيرة واحدة... لقد جهدت أن أمرّن نفسي على ذلك... وحين أرجع الآن ـ بعد مرور خمسة وخمسين عاماً على كتابة هذه المذكرات ـ أجدها تنطوي على قدر كبير من البساطة وقلة الحيلة، ولكنها ـ في الوقت نفسه ـ أعطتني خبرة خدمتني كثيراً فيما بعد.

هذا إلى أنها كانت فرصة لمحاولاتي الأولى في النقد، حيث ألزمت نفسي بنقد كل كتاب أنجز قراءته، والتأشير على مظان القوة والضعف فيه، بغضّ النظر عن مدى سلامة الحكم أو تضحّله أو عمقه... كان هذا أيضاً نوعاً من التمرين على الممارسة النقدية لمدى أربع سنوات.

في تلك المرحلة من بداية ستينيات القرن الماضي، طفت على السوق موجة الأدب الوجودي على مستويي التنظير والإبداع، عبر كتابات سارتر وكامو وسيمون دوبوفوار ومارسيل وهيدغار وكيركفارد وآخرين، كنا نقرأ بنهم أعمالهم المسرحية والروائية والقصصية، فضلاً عن تنظيراتهم، واخترقتني لبعض الوقت رغبة ملحة في الميل إلى الوجودية بشكل من الأشكال... الوجودية المؤمنة بطبيعة الحال، كما هي في كتابات ياسبرز وكيركفارد وآخرين... ورحت أدوّن جملة من الأفكار والرؤى والاستنتاجات، ارتأيت أن أسميها «مذكرات وجودي»...

وهنا أتذكر مسألة لا بدّ من الإشارة إليها... إنها وخزة الضمير الديني... إذ كيف أكتب مذكرات تحمل العنوان المذكور بينما المعروف لدى الناس عموماً في ديارنا الشرقية أن الوجودية انزياح نحو الأنا المتورّمة ورفض الآخر، فضلاً عن ميلها للحرية المنفلتة من جل الضوابط المتعارف عليها؟

وفي يوم ما توصلت إلى معادلة رأيت فيها حلاً مناسباً لأزمتي... الصفحات مكتوبة وهي تنبض بفكرة تحقيق الذات، ولكن الأمر يحتاج لعنوان أكثر دقةً وقبولاً... مذكرات وجودي ترتطم بقناعاتي الإيمانية فلأجعلها «مذكرات وجودي مسلم»!

طبعاً... هذا لا يجوز في منطوق المذاهب الأدبية، وهو تلفيق غير

مقبول... فالوجودية شيء والإسلامية شيء آخر بكل تأكيد... ولكن رغبة آسرة تملكتني يومها، ووجدت في التلفيق خروجاً من المأزق.

مهما يكن من أمر، فإننا نلحظ كيف أن مجمل المعطيات القرآنية تقود إلى (تحقيق الذات)... ولو قرأنا كتاب الفيلسوف والشاعر المعروف «محمد إقبال»: تجديد الفكر الديني في الإسلام؛ لوجدنا أنفسنا قبالة الفكرة نفسها... والآية التي تقول: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٤] تنطوي على بعد وجودي إذا اعتبرنا (الشاكلة) هي مجمل التكوين الذاتي للإنسان... هنالك إذن نوع من التحقق الوجودي... نوع من الإيمان الحركي العميق الذي يدفع الإنسان المسلم عبر رحلة الصعود أو التسامي إلى تحقيق الذات، ما بين الإسلام فالإيمان فالتقوى فالإحسان... المرتبة القمة التي ينبض فيها الوجود البشري برعشة الحضور الإلهي القريب، الذي يدفع الإنسان المسلم دفعاً إلى المزيد من الإحسان، وبالتالي التحقق الذاتي...

في هذه المرحلة عادت رغبتي المكبوتة في النشر تضيق عليّ الخناق... وصدق الله العظيم القائل في محكم كتابه: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ يَسْـَٔلُونَكَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

فالكبت قد يكون سلاحاً ذا حدين... قد يكون مدمّراً، وقد يكون فرصة لتخزين الطاقة ليوم قد يكون فيه الإنسان أكثر قدرة على إخراج هذا الذي يعتمل في داخله للناس... كنت أرى بعض أصدقائي في الإعدادية تنشر قصائدهم وقصصهم ومقالاتهم في الصحف والمجلات... ثم ما لبث هؤلاء أن انطفؤوا، لأنهم أخرجوا هذا الذي يعتمل في داخلهم... هذا الشيء الذي كان محبوساً هناك فما عاد لديهم ما يقدمونه... ما بقي في داخلهم تحدٍّ أو قوة ضاغطة تدفعهم لتحسين أدائهم؛ حتى إذا ما أتيح له النشر كان قديراً على إقناع الآخرين...

ولكن السؤال الملح يظل قائماً... هل أتيح لي أن أخرج للآخرين ولو شيئاً ضئيلاً من النار التي كانت تشتعل في أعماقي؟... أبداً... حتى التقيت الأقلام.

و(الأقلام) هذه كانت سيدة المجلات التي تصدر في بغداد في منتصف الستينيات، وكانت تصدرها وزارة الإرشاد العراقية...

يومها (ربما في عام ١٩٦٤ أو ١٩٦٥م) أنجزت مقالاً نقدياً بعنوان (مآسي الإنسان المعاصر في السمان والخريف) لنجيب محفوظ، لا ينطوي على أية لمسة أو رؤية إسلامية، وإنما هي معالجة حيادية فنية صرفة لا لون لها ولا طعم ولا رائحة...

وذهبت بالمقال إلى وزارة الإرشاد لكي أسلمه إلى رئيس تحرير مجلة (الأقلام)... قال لي: عد بعد ثلاثة أيام... رجعت إليه في الموعد المحدد؛ فإذا به يقول لي: لقد تمت الموافقة على نشر مقالك! امتلأت عروقي بالفرح... هذا الذي كنت أتمناه منذ سنوات قد تحقق... وفي مجلة ذات انتشار واسع ومكانة معروفة في دوائر الثقافة في العراق والعالم العربي...

ثمة في الجانب الآخر إحساس مترع بالذنب والتأثم... إذ كيف أبيح لنفسي أن أنشر مقالاً لا ينطوي على أية لمسة إيمانية؟... هذا خروج عن دائرة الالتزام... نوع من العبث والتضييع... نوع من وضع الإنسان نفسه مع الآخرين في السياق العام الذي لا ينطوي على بعدٍ التزامي. قضيت ليلة ليلاء... وأصارحكم القول أن هذا التمزق ما كان له أن يحدث على هذا القدر من الحدّة؛ لولا أن هناك مكافأة مالية سخية تعطى لكل من تنشر له المجلة مقالاً... وكانت قيمة هذه المكافأة: خمسة دنانير، يوم كان الدينار ديناراً، وكانت المكافأة ـ على ذلك ـ تعني شيئاً كثيراً...

استيقظت صبيحة اليوم التالي وقد قررت أن أضع المكافأة تحت قدمي، ولكن بصعوبة بالغة... يمكنكم أن تسموا ذلك تضحية، ولكنها كانت ـ والحق يقال ـ تضحية صعبة، ليس فقط بالدنانير الخمسة، بل بالفرصة الذهبية التي انتظرتها السنوات الطوال... وها هي ذي بين يدي!

ذهبت ضحى اليوم نفسه إلى رئيس التحرير وقلت له: أعطني المقال لكي أجري عليه بعض التعديلات... فأعطانيه... ولم أعده إليه!

الفرصة جاءت في مجلة (حضارة الإسلام) التي أصدرها في دمشق الداعية الكبير الدكتور مصطفى السباعي ﷺ. في بداية الستينيات أطلت علينا اعدادها الأولى ونحن طلاب في كلية التربية ببغداد... كنا نتلقاها بشغف وإعجاب ونقرأها بنهم ونتبادلها فيما بيننا. ثم أتيح لي في صيف عام (١٩٦٣م) أن أغادر العراق لأول مرة في حياتي مع مجموعة من طلبة الدراسات العليا، حيث كنت قد تخرجت من كلية التربية ودخلت مباشرة معهد الدراسات العليا في بغداد للحصول على الماجستير في التاريخ الإسلامي... كانت الرحلة علمية وسياحية معاً وقد أغرانا بها مبلغ العشرة دنانير التي وعدتنا الجامعة بها لتعيننا على تغطية نفقات الرحلة إلى القاهرة للاطلاع على مخطوطاتها...

مررت بدمشق، واستأذنت أصدقائي ثم مرقت إلى بناية متواضعة بجوار فندق أمية قريباً من ساحة المرجة... التقيت محرراً هناك يعمل في مجلة (حضارة الإسلام)، عرفت فيما بعد أنه الأخ بسام الأسطواني... قدمت إليه على استحياء مقالاً نقدياً بعنوان: (همنغواي، كوستلر، والإنسان المسلم) يعالج أزمة الإنسان في البيئة الرأسمالية كما تعكسها رواية همنغواي المعروفة (الشيخ والبحر)... وأزمة الإنسان في البيئة الشيوعية كما تعكسها رواية كوستلر الذي ارتد عن الشيوعية، والتي تحمل عنوان: (ظلام في الظهيرة)... ثم وضع الإنسان المسلم كما تعكسها كتابات الأستاذ محمد قطب... وإجراء مقارنة بين الحالات الثلاث.

كانت (حضارة الإسلام) قد بدأت تلحق بكل عدد بعض الصفحات تطلق عليها (مجلة الأدباء الشباب)، حيث طالعتني لأول مرة أسماء عدد منهم: الحسناوي والطنطاوي وبريفش ﷺ... وآخرون... كانت هذه الصفحات ملتقى أدباء الشباب الإسلاميين في منتصف الستينيات...

عدت من رحلتي تلك إلى الموصل، وأنا أنتظر اللحظة التي أطفئ فيها ظمئي للنشر... ويوماً يحمل إليّ البريد عدداً من (حضارة الإسلام)... قلّبت صفحاته على عجل بحثاً عن مجلة أدباء الشباب... وكانت المفاجأة أن أجد مقالي منشوراً فيها... حمدت الله من أعماقي... وقلت في نفسي: ها قد بلّ الشوق وأنطفأ عطش السنين الطوال على صفحات مجلة كنت أحبها وأقدّرها أشد التقدير... ومنذ ذلك اليوم وحتى توقّفها عن الصدور في بدء الثمانينيات وأنا أنشر فيها مقالاتي المتواصلة التي تعالج موضوعات شتى...

قبل أن أؤشر على بعض المسائل الأخرى أحب أن أشير إلى التزام آخر فرضته على نفسي... أجل... هناك عفريت ثالث ركبني وشدّ ساقيه على رقبتي وأمرني أن أمضي حيث يريد هو لا ما أريد أنا...

العطل الصيفية الجامعية التي تأتي في أعقاب كل سنة دراسية ما بين بداية حزيران وأواخر أيلول... أربعة أشهر كان أصدقائي ومعارفي يستجمون فيها... يسرحون ويمرحون... ويذهبون إلى النوادي والمقاهي يقضون فيها أطيب الأوقات لكي يهيئوا أنفسهم لموسم دراسي جديد.

أما أنا فقد كان يشغلني همّ وضعته على عنقي... أن أجلس صباح كل يوم الساعات الطوال ملزماً نفسي بالكتابة... أية كانت هذه الكتابة... وفي أي سياق تاريخي أو فكري أو أدبي... المهم أن أنجز خمس صفحات أو عشر... ولا أتجه إلى الغداء أو أشعر ـ حتى ـ بلذة الطعام ما لم يتحقق المطلوب وتؤدى الضريبة اليومية...

وكان الهمّ يزداد ثقلاً في اليوم التالي، إذ كان عليّ أن أنجز شيئاً أفضل مما أنجزته في اليوم السابق، وإلا أصبت طيلة ذلك اليوم وحتى صبيحة اليوم التالي بالتشتت والقلق والإحساس الممضّ بأنني فرطت بشيء ما، لأنني لم أنجز ما كنت أتمناه... هذا الالتزام على بساطته... ما كنت أكتبه ملزماً به نفسي صبيحة كل يوم، علمني فيما بعد ـ والحمد لله ـ شيئاً كثيراً...

قد تكون هذه فرصة للتأكيد مرةً أخرى على مسألة الالتزام... ينبغي أن

نلزم أنفسنا بالكتابة تحت أي ظرف، حتى ولو كنا تحت جبال من الهموم والضغوط النفسية أو الاجتماعية أو الذهنية أو حتى الوظيفية... هذا هو التقليد الضروري الذي يؤدي في نهاية الأمر إلى إدارة ماكنة الكتابة واستمراريتها على العمل...

ثمة طريفة لي مع أولى أعمالي الأدبية التي تصدر في كتاب... إنها مسرحية (المأسورون) التي صدرت فيما بعد عن دار الإرشاد في بيروت عام (١٩٧٠م).

في يوم من أيام عام (١٩٦٦م) جاءني صديق فنان عائد من ألمانيا، وقد تخصص بالإنارة المسرحية فضلاً عن ممارسته الإخراج المسرحي... كان يملك شهية عجيبة للفن المسرحي ورغبة جارفة لتنشيطه في مدينة الموصل، حيث كانت الأجواء يومها تحفز على العمل...

ذهب إلى أحد أصدقائه الفنّانين... رسام تجريدي من طراز أول... قال له: أريد منك أن تكتب لي مسرحية... أية مسرحية... المهم أن تعينني على أن أخرج شيئاً لأبناء هذه المدينة التي تعاني من الشح في نشاطها المسرحي... وعده الرجل خيراً... لكن اهتمامه بالرسم جعله يعزف عن الكتابة بعد أن مضى خطوات أولية في المشروع...

وما لبث الفنان المسرحي أن جاءني يتوسل بي أن أنجز المطلوب...كنت يومذاك منغمراً في الهمّ المسرحي قراءة ودراسة ومشاهدة، وأخذت تتشكل لدي نويات صغيرة لخبرة مسرحية تريد أن تطل على الوجود... فرأيت في عرض الرجل الفرصة التي كنت أنتظرها، وبدأت العمل الذي استغرق مني ـ على تقطع ـ عدة أشهر... وكانت المهمة شاقة جداً حقاً، لأنها تجربتي الأولى مع هذا الجنس الأدبي الذي يتطلب تركيزاً بالغاً في اللغة، وشحنات مكثفة في الحوار...

أنجزت العمل وأطلقت عليه اسم (المأسورون) متجاوزاً المحاولة الأولية للرسام المذكور... وكنت أحلم بأن أراه متجسداً على خشبة المسرح، إلا أن

مشاغل الحياة ما لبثت أن جرّت الفنان المسرحي بعيداً عن همومه فظل المشروع طيّ الورق، ثم ما لبث أن أتيح له النشر بعد سنوات قلائل، وكان أول عمل يصدر لي في سياق نشر مؤلفاتي... ورغم أنني لم أكن مقتنعاً به إلّا أنه بالمقدمة التي صدر بها وبما ينطوي عليه من رؤية إسلامية تعكس رغبة متأصلة في نفسي لإغناء المسرح الإسلامي بالمزيد... جعل المسرحية تلقى قبولاً حسناً لدى القراء...

والآن، فإنني أجد فارقاً كبيراً بينها وبين الأعمال المسرحية التالية التي أنجزت في الثمانينيات والتسعينيات وبخاصة (الشمس والدنس) و(المغول) و(العبور) (الهم الكبير) و(التحقيق)... لقد كانت (المأسورون) محاولة تجريبية إذا صح التعبير تنطوي على كل ما تتميز به المحاولات التجريبية من عجز وقصور... حيث الخندق الذي يصعب اجتيازه في تلك البدايات المبكرة ما بين الواقع والطموح...

ثمة عناصر سبعة يتحتم أن تستكمل إذا أراد الإنسان فعلاً أن يكون أديباً... قادراً على إقناع الطرف الآخر، وإيصال صوته إليه... وغياب أي عنصر من هذه العناصر يصيب العمل الأدبي الإبداعي ـ أياً كان جنسه ـ بالانكسار أو النقص في جانب من جوانبه، وبالتالي تراجع المعطى الأدبي إلى الخط الثاني أو الثالث فيما لا نرجوه لأدبائنا الإسلاميين الذين يجابهون تحدي الآخر واتهامهم بضعف أدواتهم الفنية، وبأن (المضمون) هو شغلهم الشاغل... والأدب لا يكون أدباً إلّا بالتحام المضمون بالتقنيات الفنية العالية، وإلّا فهو المعاني المطروحة على قارعة الطريق كما يقول الجاحظ...

لا بدّ ـ إذن ـ من توفر هذه العناصر السبعة إذا أردنا لأدبنا أن يحقق حضوره المؤكد في ساحة الآداب العالمية:

١ ـ قوة الخيال.

٢ ـ قوة اللغة كأداة للتعبير.

٣ ـ التوتر الذاتي.

٤ ـ الخبرة الذاتية.

٥ ـ الخبرة المعرفية.

٦ ـ الخبرة الحِرَفية.

٧ ـ الالتزام في التعامل مع الزمن.

سأختم هذه الصفحات بالوقوف قليلاً عند الخبرة الحِرَفية لارتباطها الصميم بالموضوع الذي بين أيدينا، ولأنها أكثر الخبرات صميمية التحاماً بعملية الإبداع الأدبي...

ولطالما دهشت من أناس يريدون أن يصبحوا روائيين إسلاميين ولم يقرؤوا روايتي غابريل ماركيز (مائة عام من العزلة) و(خريف البطريق) اللتين هزتا العالم الأدبي بتقنياتهما المدهشة وتفردهما على مستوى اللغة والبنية الروائية... أو يطلعوا على أعمال همنغواي وديكنز وتولستوي ودستويفسكي وغيرهم من عمالقة الرواية العالمية، أو يلتهموا أعمال نجيب محفوظ التهاماً، بغض النظر عن اتفاقنا أو اختلافنا مع فكره... فهو ـ على أية حال ـ مهندس الرواية العربية المعاصرة دون منازع.

كيف أبيح لنفسي أن أكتب القصة القصيرة إن لم أكن قد قرأت أعمال جيكوف الروسي وغاي دي موياسان الفرنسي وهيسه الألماني وإدغار ألان بو الأمريكي وغيرهم من مهندسي القصة القصيرة في العالم؟! أو أوغلت في قراءة أعمال يوسف إدريس مهندس القصة القصيرة في العالم العربي، بغضّ النظر ـ مرةً أخرى ـ عن الاتفاق أو الاختلاف معه؟

وكيف أكتب سيرة ذاتية ولم أقرأ ـ على سبيل المثال ـ مذكرات بابلو نيرودا، والطريق إلى الكريكو لكازانتزاكي، وهما اثنتان من أروع ما كتب من سير ذاتية؟ وللأسف الشديد فإن العديد من السير الذاتية التي كتبها الإسلاميون لم تكن بأكثر من (عرض حال)، عملٍ تسجيلي لا ينطوي على أية رؤية انطباعية تتجاوز المنظور التاريخي إلى ما وراءه... وتعكس تأثير الحدث على نبض الكاتب وفكره ووجدانه... والسبب أنهم لقلة قراءاتهم في الجنس

الأدبي الذي يكتبون فيه، لم يمتلكوا زمام القدرة الحرفية على الأداء المؤثر والمدهش.

ولطالما تحدثت إلى طلبتي في العديد من الجامعات التي عملت فيها عن هذا الموضوع وقلت لهم: إياكم أن يفكر أحدكم في كتابة رواية دون أن يهضم جيداً حرفيات الجنس الروائي، أو أن يكتب مسرحية دون أن يكون قد قرأ لكبار الكتاب المسرحيين في العالم... وكثيرون ـ للأسف ـ وهم أولئك الذين أنجزوا أعمالاً مسرحية من الأدباء الإسلاميين وهم لا يعرفون شيئاً، بل لم يسمعوا ـ حتى ـ بأسماء آرثرميلر وتنيسي وليامز وألبيركامو وجان جينيه وسالاكرو ويونسكو وآداموف وبرشت وديرنمات وتشيكوف وسويدنبرغ...

بل إن بعض أدبائنا يتأثم من قراءة الأعمال الغربية... وعندما تعترض عليهم يكون الجواب المعلّق على ألسنتهم، كيف نقرأ أعمالاً مترعة بالفحش والتفكك والمجون، ألّا يقود هذا إلى الإحساس بالإثم والخطيئة؟

ويكون جوابي هو نفسه دائماً: نحن نقرأ للضرورة... ونحن نتعلم. نأخذ ما يفيدنا وندع ما لا يفيدنا... وبعد أن نتقن حرفياتهم جيداً ندخل عليهم من بوابتهم نفسها لكي نقنعهم بقدرتنا على الأداء، نرغمهم على منح مساحة مناسبة لنا في خارطة الأدب العالمي... نحن محصنون ـ والحمد لله ـ بقوة إيماننا وفكرنا ولن يخشى علينا من الضياع لأننا لسنا مراهقين أو أطفالاً...

تلك هي المطالب السبعة... إن غابت أو ضعفت إحدى حلقاتها فلكم أن تتوقعوا كم سيكون العمل ضعيفاً... ربما استطعنا أن نقنع جماهير القراء في دائرتنا الإسلامية، ولكن يبقى الأهم مفقوداً... أن نتفاعل مع الآخر وأن نصل إليه ونؤثر فيه ونقنعه بالقيمة الفنية لأدائنا...

هنالك أدب وجودي وأدب رومانسي وأدب طليعي وأدب سريالي وأدب واقعي وأدب اشتراكي... الخ... فلا يعقل ألّا يكون هناك أدب إسلامي يحمل القدرة على إيصال الرؤية الإسلامية للحياة والوجود والمصير بالإمكانات الفنية

والجمالية المتفوّقة... إلى الطرف الآخر... إلى العالم كلّه تماماً كما تفعل الآداب العالمية في كل زمن ومكان...

حينذاك نكون قد أدينا مهمتنا، وإلّا فإننا سنمضي إلى مائة عام آخر من العزلة والدوران في الحلقة المفرغة دون الوصول إلى المطلوب.

هنالك ـ بالتأكيد ـ أعمال إبداعية متفوقة... أعمال كبيرة في ساحة أدبنا الإسلامي... ولكنها لا تزال بحاجة إلى المزيد من أجل أن تحقق الهدف المنشود للجهد الأدبي الإسلامي... ولن يكون ذلك مستحيلاً بأية حال من الأحوال...



الفصل الثاني عشر

رحلتي مع الكلمة

في شتاء عام (١٩٦٩م)، حيث كنت أذرع صالة كلية البنات في الموصل لمراقبة الطالبات عبر الامتحان الفصلي، لا أدري ما الذي دفعني إلى تذكر حصاد جهودي التأليفية عبر ذلك العقد المبكر من الزمن... ثم إذا بي أفاجأ بأنني كنت قد أنجزت عشرة مؤلفات لا تحتاج سوى إلى اللمسات النهائية من التنقيح لكي تكون جاهزة للنشر... والمؤلفات هي:

١ ـ المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي.

٢ ـ عماد الدين زنكي.

٣ ـ ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز.

٤ ـ الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام، فصول في المنهج والتحليل

٥ ـ لعبة اليمين واليسار

٦ ـ مقالات إسلامية، في النقد الإسلامي المعاصر.

٧ ـ ديوان جداول الحب واليقين.

٨ ـ مسرحية المأسورون.

ولحسن الحظ فقد كنت قد تعرّفت عبر ذلك العام على دار نشر إسلامية هي دار الإرشاد، فما لبثت أن راسلت مديرها الأخ عادل عاقل في بيروت، أستفسر منه عن مدى استعداد داره لنشر بعض أعمالي تلك... وكنت عبر ستينيات القرن الماضي قد بدأت أحقق حضوري في مجال الكتابة الإسلامية في عدد من الصحف والمجلات اللبنانية والسورية، والخليجية، وعلى رأسها:

(حضارة الإسلام)، و(المجتمع) اللبنانية، و(الوعي الإسلامي) الكويتية، بجملة متواصلة من البحوث والمقالات...

فرحب الرجل بالعرض، وأعرب عن استعداده لنشر بعض أعمالي، فما كان مني إلّا أن أسافر إلى بيروت منتهزاً فرصة العطلة الربيعية لعام (١٩٧٠م)، حاملاً معي عدداً من مؤلفاتي التي سهرت قبل سفري وخلاله على تنقيحها ووضع اللمسات الأخيرة عليها، فيما استنزف مني جهداً متواصلاً أوصلني حافات الإعياء... وهنالك في بيروت تلقاني الأخ عادل بالترحاب، وعرفني على ناشر آخر بجوار داره هو الأخ توفيق الطيب الذي كان يدير (الدار العلمية)، فما كان مني إلّا أن أسلّم أولهما أصول مسرحيتي الأولى ذات الفصول الأربعة: (المأسورون)، وأسلم: (عماد الدين زنكي) و(ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز) لتوفيق الطيب، واللذين وعداني بنشر أعمالي الثلاثة تلك، في مدى لا يتجاوز الأشهر المعدودات.

عدت إلى بلدي سعيداً بالإنجاز الذي حققته... لكي ما ألبث أن أتفرغ لتنقيح المؤلفات السبعة المتبقية استعداداً لنشرها، وعكفت عبر الأيام والأسابيع والأشهر التالية على أداء هذه المهمة الثقيلة، لكن ما كان يعزّيني ويدفعني إلى المثابرة ومواصلة العمل، وتجاوز إغراءات الخروج مع الأصدقاء عبر جولاتهم الترفيهية؛ أنني ضمنت إلى حد كبير قبول أعمالي للنشر، خاصةً وأنها في معظمها كانت تتجاوز الموضوعات المستهلكة، وترتاد الآفاق الجديدة البكر، والقضايا الأكثر إغراء للقراء والمثقفين.

فعلى سبيل المثال، كانت مسرحية (المأسورون) ذات الفصول الأربعة، عملاً إسلامياً خالصاً، بعد انقطاع القارئ المسلم عن النتاج المسرحي لأكثر من عقدين من الزمن بعد وفاة الأديب الكبير علي أحمد باكثير وتوقف أعماله المسرحية... وكانت (المأسورون) في مضامينها، وتقنياتها المحكمة، تقدم نموذجاً صالحاً للمسرح الإسلامي المعاصر، بما في ذلك أنها بنيت منهجياً على فكرة نقيضة تماماً لما قامت عليه التراجيديا اليونانية، وما تلاها من

أعمال حتى العصر الحديث، وهي تجاوز اعتبار (القدر) الخصم اللدود للإنسان، وأن على هذا أن يدخل معه صراعاً غير متكافئ على الإطلاق يخرج منه منهزماً في نهاية المطاف... ولكن عليه أن يقاوم...

أما في (المأسورون) فيتحول القدر، عبر رؤية إسلامية أصيلة، إلى رفيق للإنسان، يأخذ بيده في ساعات تيهه وتمزقه وضياعه، ويقوده إلى اليقين... ولهذا تعمدت أن أنهي الفصل الأخير من المسرحية بصرخة البطل: (أيها القدر... إني أحبك... إني أحبك)!!

أما المؤلَّفان الآخران: (عماد الدين زنكي) و(ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز)؛ فقد اعتمدا المنهج الإسلامي في البحث التاريخي، وفي كتابة التراجم، حيث التأكيد على البعد الروحي ـ الوجداني، والعمق الغيبي الذي يبني سلوك الشخصية الإنسانية، ويوجهها، ويدفعها صوب المزيد من المعطيات المختزلة للزمن، ومحققة ما يشبه المستحيل...

لقد كان (زنكي) رسالتي للماجستير، وهي أول معالجة تاريخية شاملة لهذا القائد المجاهد الكبير الذي لم يول حقه من البحوث والدراسات حتى ذلك الوقت.

وأما (ملامح الانقلاب...) فقد أوغلت فيه في تحليل البعد الروحي للانقلاب والمنجزات المدهشة التي حققها الرجل على مدى لا يزيد عن السنتين والأشهر المعدودات، وأسقطت بالدليل العلمي القاطع مقولات المستشرقين من أمثال فان فلوتن ودوزي ومولر وكريمر بخصوص الجانب الاقتصادي من برنامج عمر بن عبد العزيز... ولقد لقي الكتاب رواجاً كبيراً لدى القراء، وطبع أكثر من سبع مرات خلال سنوات قلائل من صدوره.

أما (فصول في المنهج والتحليل)، فهو يقدم جملة من المقترحات والمرئيات المنهجية بخصوص التعامل مع التاريخ الإسلامي، ويطبق ذلك في العديد من الفصول...

وأما (المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي) فقد تناولت فيها، ربما لأول

مرة، الجهود الإسلامية المبكرة لحركة المقاومة الإسلامية، تلك التي قادتها مدينة الموصل زمن حكم ولاة السلاجقة لها في الفترة بين عامي (٤٨٩هـ) حيث بدء الغزو الصليبي، وعام (٥٢١هـ) حيث انتهى عصر الولاة وتولى عماد الدين زنكي مهام الحكم في الموصل والجزيرة الفراتية...

وتجيء أطروحتي للدكتوراه: (الإمارات الأرتقية في الجزيرة الفراتية والشام) لكي تسلط الضوء على المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي والرعب المغولي، ولكن تتابع العلاقات المعقدة المتشابكة لتلك الإمارات مع القوى الإسلامية، وتسقط العديد من النظريات والتحليلات الغربية بخصوص الصراع الإسلامي ـ الصليبي، وتسلط الضوء على المعطيات الحضارية الخصبة التي شهدتها تلك الأقاليم في ظلال الحكم الأرتقي. وقد حظيت تلك الأطروحة بدرجة الشرف الأولى من جامعة عين شمس في القاهرة عام (١٩٦٨م).

ويجيء كتاب (في النقد الإسلامي المعاصر) لكي يضع ويؤسس لجملة خصبة من المرئيات التنظيرية والتطبيقية في مجال النقد من المنظور الإسلامي، بحيث إن العديد من الدارسين عدّوا هذا الكتاب لبنة تأسيسية مبكرة في (النقد الإسلامي) المعاصر جنباً إلى جنب مع جهود كل من محمد قطب ونجيب الكيلاني (رحمهما الله).

وأما (كتابات إسلامية) و(لعبة اليمين واليسار) فهما عملان صحفيان يتابعان عبر شبكة من المقالات عدداً من القضايا الملحّة في واقعنا المعاصر، ويلاحقان بالنقد والتفنيد الكثير مما كانت الأقلام المضادة تطرحه في الساحة يومذاك... ولقد لقي ثاني الكتابين رواجاً كبيراً وطبع أكثر من سبع طبعات، بسبب من كشفه بالأدلة القاطعة قواعد لعبة اليمين واليسار، وبعدها الصهيوني المؤكد.

وأما ديوان (جداول الحب واليقين) فقد تضمن أعمالي الشعرية المبكرة في سياقَيِ القصيدة العمودية والحرّة، وانضافت إليها مجموعة من مقطوعات النثر الشعري، التي كنت أتابع نشرها في مجلة (حضارة الإسلام)... ووضعت

للديوان مقدمة خصبة طرحت العديد من التنظيرات النقدية الإسلامية في ميدان الشعر.

تلك هي ـ بإيجاز شديد ـ قصة مؤلفاتي العشر الأولى في حقبة الستينيات، ولقد بينت في مقدمة كل واحد منها ظروف تأليفها، وما انطوت عليه من فصول وبحوث ومقالات، فلا مبرّر للتكرار... لكن بعد كم من الجهد والمتابعة والمعاناة... تم إنجازها؟ معاناة في اختيار الموضوع، ولمّ مصادره ومراجعه، ورسم خطة بحثه، والمتابعة المضنية في جمع مادته، وتحليلها، عبر أجواء الحرّ، والبرد، والغربة، والمتاعب الصحية التي كان يقف على رأسها دوماً ضيق النفس، وثقل الذراع الأيسر، وأنا أواصل العمل، منتزعاً أنفاسي بصعوبة بالغة لكي أدخل قليلاً من الهواء إلى رئتي يمكّنني من مواصلة العمل؟!

في العام التالي (١٩٧١م)، رحلت صيفاً إلى بيروت، أحمل معي مجموعة أخرى من مؤلفاتي، حيث كنت قد تعرّفت على دار النشر الإسلامية الأم في بيروت، مؤسسة الرسالة التي يديرها الأخ الناشر رضوان دعبول، حيث سلمته كلاً من (في النقد الإسلامي المعاصر) و(لعبة اليمين واليسار). فرحب الرجل بهما ووعدني بإخراجهما في مدى أشهر معدودات. وفي مرحلة تالية نشرت مؤسسة الرسالة كلًّا من ديواني الشعري الأول (جداول الحب واليقين) وأطروحتي للدكتوراه (الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام: أضواء جديدة على المقاومة الإسلامية للصليبيين والمغول).

وأما كتاب (فصول في المنهج والتحليل) فقد آثرت به المكتب الإسلامي الذي يديره الأخ والصديق الأستاذ زهير الشاويش رَحِمَهُ اللهُ.

وجاء عقد السبعينيات، وأنا مندفع في الكتابة والتأليف... أسير حتى النخاع لجملة من الموضوعات التي كانت تلحّ عليّ لإنجازها في السياقات الثلاثة التي بذلت جهدي فيها: التاريخ والحضارة، الفكر، ثم الأدب الإسلامي تنظيراً ودراسة ونقداً وإبداعاً... كنت أفتح لكل موضوع يمارس ضغطه علي، إضبارة خاصة، أضع فيها كل ما يعنّ على ذاكرتي من مرئيات منهجية

وموضوعية وتوثيقية، ثم أنصرف بكلّيتي للعمل في أحد الموضوعات، دون أن أسمح لنفسي بالتشتت في عملين أو أكثر، الأمر الذي يضعف الأداء ويقوده إلى فقدان التركيز المطلوب.

ولقد أعانني الله ﷻ، عبر ذلك العقد، على إنجاز أكثر من عشرين كتاباً، حيث كنت ما أن أبدأ العمل في أحدها، حتى أجدني وقد تجمعت لدي خيوطه وفقراته... وتسلسله في أنساق منهجية محكمة، لا أدري كيف تم ذلك؟... لا بل إن بعض الأعمال التي أبدؤها، كانت هي تناديني من داخل نسيجها الخاص بأن أمضي في هذا الطريق أو ذاك... ثم ما ألبث أن أجدني قبالة عمارة منهجية محكمة الأداء، وما ذلك إلا من فضل الله ﷻ...

ولا زلت أذكر كيف أنني عندما بدأت العمل في كتابي (التفسير الإسلامي للتاريخ)، وهو المحاولة الأولى التي تشهدها المكتبة الإسلامية في العصر الحديث، لم تكن لدي الفكرة المتكاملة، أو خطة البحث بتفاصيلها الدقيقة... ومع ذلك فما أن بدأت حتى تدخلت المعونة الإلهية وساقتني كما لو كنت مجرد منفذ لإرادتها العليا، صوب إتمام الموضوع بفصوله الأربعة، عبر أشهر معدودات...

فيا سبحان الله! كنت أردد مع نفسي... كيف أتيح لي إنجاز هذا الكتاب الذي ستستقبله بترحاب (دار العلم للملايين) على نزعتها العلمانية، وتعيد طبعه المرة تلو المرة، دون أن أبذل في تأليفه جهداً كبيراً... إنها مرةً أخرى إرادة الله التي تسوق الإنسان، حيثما خلصت النيات إلى حيث تريده هي لا ما يريده الإنسان!!

وأتذكر كذلك كتابي (ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز)، الذي أعادت نشره مؤسسة الرسالة، واشتد عليه الطلب بحيث أعيد طبعه أكثر من ثماني مرات عبر فترة قصيرة... كيف أنني بدأت العمل فيه وكان في نيتي أن أنجز بحثاً محدوداً، وليس كتاباً، يتضمن ما أسميته (المنحنى النفسي في خلافة عمر بن عبد العزيز) ولكن إرادة الله ﷻ

دفعتني، وبسهولة بالغة، لتحويله إلى كتاب ينطوي على متابعة إنجازات عمر في سياقات الحرب والسياسة، والاقتصاد والمال، والإدارة والتخطيط، والعلم والتربية، ولقد تم ذلك كله عبر أشهر معدودات فحسب!!

الأمر نفسه تم لدى تأليف كتابي الآخر (ابن خلدون إسلامياً)، الذي أفند فيه بالأدلة القاطعة مقولات عدد من المستشرقين والباحثين من أمثال فسندنك وشمت وبوير والباحث الماركسي مهدي العامل، الذين أرادوا إخراج هذا العقل الكبير من (دائرته الإسلامية)، وأعيده إلى بيئته التي تشكل فيها، إذ ما لبث عبر أقل من شهرين أن أنجزت فصول هذا الكتاب!!

كذلك الحال مع كتابي (مقال في العدل الاجتماعي)، الذي انبثقت فكرته في ذهني لدى تأليفي كتاب (دراسة في السيرة)، ولقد أردت فيه أن ألمّ معظم الشواهد والنصوص القرآنية والنبوية، وتطبيقات عصر الرسالة، والتي تؤكد بما لا يقبل مجالاً للشك في أن هذا الدين هو دين الكادحين، وأنه جاء لإنصافهم من كل صنوف القهر والاستلاب، ورفعهم إلى مستوى الكفاية، وتشكيل مجتمع إسلامي خال من الجروح الطبقية العميقة... مجتمع متكافل لا ظالم فيه ولا مظلوم، وأجريت قبل ذلك جملة من المقارنات بين مفاهيم العدل الاجتماعي المحدودة في الماركسية وبينها في الإسلام، بفضائها الواسع، وقدرتها على التحقق في الحياة اليومية... وقد لقي هذا الكتاب رواجاً كبيراً، وطبع أكثر من مرة عبر فترة زمنية محدودة.

أما كتابي (دراسة في السيرة)، الذي أنجزته عبر عامي (١٩٧٢ ـ ١٩٧٣م)، فقد كان بمثابة رحلة خصبة مع رسول الله ﷺ وصحابته الكرام ﵃، رحلة استغرقت مني أكثر من سنتين، لأني أردته أن يكون كتاباً منهجياً يعتمد الصيغ الأكاديمية في الدراسة والتحليل، ويكون صالحاً لتقديم واحدة من أكثر الصور موضوعية وإشراقاً عن حياة الرسول المعلم (عليه أفضل الصلاة والسلام) إلى عقل الطالب الجامعي.

وقد بينت في مقدمة الكتاب الخصائص المتميزة التي انطوى عليها،

ولا سيّما خاصية تجاوز الالتصاق بالبعد الزمني حيث تتقطع الوقائع والأحداث، وتخترق بما هو ليس من بنيتها الأساسية، ولجأت ـ ربما لأول مرة في سياق مكتبة السيرة النبوية ـ إلى متابعة وقائعها وفق تقسيماتها الموضوعية التي تلمّ في كل فصل وقائع ذلك الموضوع دون أن تشذ عنه إلى موضوعات أخرى بحكم عامل الزمن...

وهكذا وجدتني أنجز الكتاب وفق عشرة فصول هي: محمد بين الميلاد والنبوة، الدعوة في عصرها المكي، مسائل من العصر المكي، تحليل للهجرة، دولة الإسلام في المدينة، الصراع ضد الوثنية (المرحلة الأولى والثانية)، العلاقات بين الإسلام والجبهة البيزنطية، الصراع ضد اليهود، حركة النفاق في العصر المدني. وقد لقي الكتاب رواجاً كبيراً، واعتُمد لتدريس مادة السيرة النبوية في عدد كبير من الجامعات العربية والإسلامية، وطبع ما يقرب من العشرين طبعة متعاقبة.

(نور الدين محمود: الرجل وتجربته الإسلامية) مارس ضغطه عليّ عبر منتصف السبعينيات، حيث أن معظم ما كتب عنه من بحوث ودراسات لم يتعد دوره ضد الصليبيين... أما عن تكوين شخصيته الفذة، والتزامه المدهش بإعادة بناء الدولة الإسلامية، كما أراد لها الله ورسوله... وإنجازاته الخصبة في هذا المجال على مستويات الإدارة والقضاء، والمال والمجتمع، والتربية والثقافة... فلم تنل حظها الوافي من تلك البحوث... هذا الرجل الصدّيق الذي أجمعت الأمة على اعتباره الخليفة الراشد السادس بعد عمر بن عبد العزيز... كان يشكّل بالنسبة لي إغراء تصعب مقاومته... فما لبثت أن وضعت أعمالي ومشاريعي الأخرى جانباً، بعبارة أخرى اعتقلتها موقتا في أضابيرها الخاصة، ثم تفرغت عبر ما يقرب من السنتين لإنجاز بحثي هذا عن نور الدين، والذي يذكرنا فصله الأول (رحلة في تكوين الرجل) برحلة عمر بن عبد العزيز عبر منحناه النفسي... كما تذكرنا إنجازاته المدهشة، التي أريد منها تنزيل شريعة الله إلى أرض الوقائع، بما فعله عمر بن عبد العزيز في السياق نفسه.

أما (تهافت العلمانية) فيعود اهتمامي للكتابة فيه إلى بداية الستينيات، تلك التي بدأت بكتابة صفحات محدودة أريد لها أن تكون محاضرة في موسم ثقافي للأسرة المسلمة، التي كانت تعقد مساء كل أسبوع في المسبح الصيفي لزميلنا (خالد فصوله) ﷺ... كنت يومذاك طالباً في الصف الثالث بكلية التربية في جامعة بغداد... وتفرغت عبر عدة أيام من العطلة الصيفية لكتابة المحاضرة، التي لقيت بجدة طرحها، ومقارناتها الخصبة بين عالمي الغرب والإسلام، وبلغتها المتميزة، تشجيعاً كبيراً... أغراني ذلك عبر السنوات التالية في متابعة بناء فصول كتابي (تهافت العلمانية)، التي كنت أبعث بها إلى مجلتَيْ (حضارة الإسلام) الدمشقية و(الوعي الإسلامي) الكويتية، حال إنجاز كل واحد منها...

ولقد تسلسلت تلك الفصول وفق العناوين التالية: مواقع العلم والدين، العلمانية والإنسان، العلمانية والمصير، العلمانية والحركة، الشهود (١)، الشهود (٢)، الطريق... وعندما أنجزت الكتاب الذي لقي رواجاً كبيراً، وطبع أكثر من ثماني طبعات، لم يكن عمري قد تجاوز الثلاثين، ولكنها إرادة الله ﷻ هي التي تمسك بالقلم وتوجهه حيث تريد هي إلى وجهته المطلوبة، فحمداً لله...

في بداية السبعينيات أغرتني كثرة مطالعاتي ومتابعاتي للصحف ونشرات الأخبار مما تشهده الساحة الإفريقية من هجمات قاسية ضد الإسلام والمسلمين، كان يشارك فيها كل من الاستعمار والصليبية والصهيونية والشيوعية، حيث ما لبثت أن تجمعت لدى جملة كبيرة من البحوث والوثائق والدراسات والتحليلات عن الموضوع، فوجدتني مسوقاً لدراستها، وتبويبها، وإخراجها في كتاب يحمل عنوان: (الحصار القاسي: ملامح مأساتنا في إفريقيا) أردته أن يكون صوتاً إسلامياً ينبه الأمة إلى ما يراد بها، ويقدم جملة من المرئيات والمقترحات بخصوص مجابهة المحنة.

بعدها بعام أو عامين، انغمرت في إنجاز كتابي الثاني عن لعبة اليمين واليسار، والذي حمل عنوان: (أضواء جديدة في لعبة اليمين واليسار). وتضمن

الموضوعات التكميلية التالية: (لعبة اليمين واليسار في ساحة السياسة) (لعبة اليمين واليسار في ساحة الآداب والفنون) (مع جائزة نوبل) (مع الحركة السريالية)، وملحقين يؤكدان بالأسماء والوقائع ارتباط اللعبة بالحركة الصهيونية. ولقد لقي الكتاب أسوة بصنوه السابق رواجاً كبيراً وطبع أكثر من مرة في عدد كبير من دور النشر. ولقد تنبأت فيه، ومن خلال المعطيات الميدانية، بتفكك وسقوط الاتحاد السوفياتي (بعد عشرين سنة أو ثلاثين) وهو ما تحقق فعلاً...

ومنذ تفتح وعيي على الحياة، واشتد ساعدي في مجال الكتابة، كنت أتابع ما يجري في الساحة من معطيات في مجالات الفكر والسياسة والاجتماع والنفس والتاريخ والحضارة.. الخ... من منظور إسلامي بصيغة مقالات لا تتجاوز إحداها الصفحتين أو الثلاث... أركز فيها المعالجة المطلوبة، لغرض إيصالها بأكبر قدر من الإيجاز إلى عقل القارئ المسلم...

وكنت بمجرد أن أعثر على موضوع المقال المطلوب، أسجله في قائمة أضعها في إضبارة خاصة، ثم ما ألبث بعد أن تبلغ الخمسين موضوعاً أو تزيد أن أتفرغ لكتابتها... ولقد تجمعت لدي عبر هذا الأسلوب في العمل جملة كبيرة من العناوين، وجدتني مسوقاً للاستجابة لإغرائها... فرحت أنجزها الواحدة تلو الأخرى، وأبعث بها إلى الصحف والمجلات، حتى إذا أوشكت أن تبلغ الخمسين معالجة، أصدرتها في كتاب (آفاق قرآنية)، نشرته لي دار العلم للملايين، ثم أعقبته بكتاب (مؤشرات إسلامية في زمن السرعة)، الذي أصدرته مؤسسة الرسالة...

ولقد استمر هذا التقليد بسبب من زخم الوقائع والمياومات والأحداث، فجعلني أخرج في كل عقد كتاباً يلمّ معالجاته، فيما سأتحدث عنه عبر منجزاتي في العقود التالية، التي جاوزت الثلاثة عشر كتاباً، كان آخرها (أحاديث نبوية تطل على العصر) لم ينشر بعد.

في سياق كتب المقالات، كنت أنجز مؤلفات أخرى تنطوي على جملة من

البحوث الكبيرة نسبياً، كذلك الذي أنجزته في بداية السبعينيات ونشرته لي (دار العلم للملايين) بعنوان: (مع القرآن في عالمه الرحيب)، متضمناً جملة من البحوث التي تتجاوز الموضوعات المستهلكة، وتبحث دائماً عن الجديد والمبتكر من مثل (ما الذي يعنيه رفض الغيب؟) (ملاحظة في التقليد الحضاري) (القرآن والبعد الزمني) (مواقف لخريجي مدرسة القرآن) (نحو آفاق تربوية في عرض التاريخ الإسلامي على الشاشة الصغيرة) والذي سبق وأن نال الجائزة الأولى لمجلة (المسلم المعاصر) حول الموضوع، و(رأي في الروحية) و(خطوط عريضة في العبادة الإسلامية) و(مؤشرات حول مشروع كتابة تاريخ العرب والإسلام) و(إن يتبعون إلا الظن) و(رحلة مع الحيوان في كتاب الله) و(رحلة في دنيا النبات في كتاب الله)...

وكنت في تلك الفترة أتعامل مع العديد من المجلات ذات الانتشار الواسع، فضلاً عن مجلة (حضارة الإسلام)، ومجلة (الوعي الإسلامي)، فقد أخذت مقالاتي وبحوثي تنزل وبشكل متواصل على مجلات (كالمسلم المعاصر) و(الأمة) و(الدوحة) و(العربي) و(الرسالة الإسلامية) و(المؤرخ العربي) وغيرها... تلك التي كانت تنشر لي على صفحاتها الأولى ما أبعث به إليها من مقالات وبحوث.

في أخريات عقد السبعينيات، حيث كان المطاف الوظيفي قد استقر بي في مكتبة المتحف الحضاري، وأتاح لي ساعات من التفرغ اليومي، تمكّنت من إنجاز قراءة تحليلية في كتاب (حدود العلم) لسوليفان بعنوان: (العلم في مواجهة المادية)، والذي يفند الكثير من الدعاوى العلمية التي طلع بها العقل الغربي، ويخلص إلى أنها ضعيفة ومتلجلجة. ولا يمكن أن تصل حافات اليقين.

ولقد كان كتاب (حدود العلم) بفصوله الأربعة، بحق، بمثابة نقض علمي رصين للعديد من المقولات الإلحادية، التي لا زالت تدرّس في معاهدنا وجامعاتنا كما لو كانت أمراً مقدساً... للأسف الشديد.

ولقد أعقبت ذلك الكتاب في الفترة نفسها، بآخر، كان إنجازه يغريني

بالتفرغ له، وهو (مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم)، وهو موقف يتميز بالدقة والترابط والتغطية الدقيقة في التعامل مع (العلم) فيما يؤكد، من بين العديد من الشواهد الأخرى، إعجاز هذا الكتاب الإلهي الذي لا تنقضي عجائبه... فها هو كتاب الله يغطي معالجته للمسألة العلمية في اتجاهاتها الأربعة، الفلسفة أو الأهداف، المنهج، الحقائق، والتطبيقات... ولقد تابع الكتاب هذه السياقات مؤكداً إياها بعشرات الشواهد القرآنية المدهشة.

وثمة كتاب صحافي مشترك مع الأخ الأستاذ الدكتور عبد الحليم عويس ﷺ، اتفقنا على إنجازه عبر لقائنا في مؤتمر الدوحة للسيرة النبوية عام (١٩٧٩م) بمناسبة قرب دخول القرن الخامس عشر الهجري، وتوزعنا أمر موضوعاته واخترنا له عنوان: (كتابات على بوابة المستقبل)... وما لبث أن صدر في أكثر من طبعة عن عدد من دور النشر.

تلك هي منجزات العقد السبعيني من القرن الفائت في مجالَي التاريخ والفكر...

أما في مجال الأدب دراسةً ونقداً وتنظيراً وإبداعاً، فقد تم إنجاز سبعة مؤلفات، كان أولها كتاب (فوضى العالم في المسرح الغربي المعاصر)، الذي يتابع ويكشف عوار الحياة الغربية في تعاملها مع الإنسان، والمجتمع، والعالم، وفي رؤيتها الكونية، وموقعها من مشكلة القدر والحرية، كما يعكسها بصدق وأمانة المسرح الغربي المعاصر... وينتهي الكتاب بفصل يحمل عنوان (المسرح المعاصر بين أزمة العصر وأزمة الفكر).

ولقد رجعت في تأليف هذا الكتاب إلى جملة كبيرة من النصوص المسرحية الغربية، وما كتب عنها من مقدمات ودراسات، وإلى حشد كبير من البحوث والمقالات التي كانت تنشرها مجلة (المسرح) المصرية المعروفة وغيرها من المجلات... ووضعت يدي فيه على الجرح الغائر الذي يعانيه الإنسان الغربي في عقله وضميره ووجدانه وروحه، وعبر علاقاته الاجتماعية،

وممارساته السياسية، ونظرته للكون والحياة والمصير، وللقدر والحرية... الأمر الذي جعل الكتاب يلقى رواجاً كبيراً لدى القراء، ويطبع أكثر من مرة.

ولقد تزامن تأليف هذا الكتاب مع صنوه الذي يحمل عنوان (الطبيعة في الفن الغربي والإسلامي) وهو مقارنة استطيقية في مجال الفن التشكيلي بين الرؤيتين الغربية والإسلامية، ومتابعة لمقولات الفنانين والفلاسفة، والنقاد الغربيين بخصوص هذا الفن، والتي سعيت إلى تبويبها وفق طبقات يتميز بعضها عن البعض الآخر، ثم انتقلت لتحليل الذائقة الإسلامية للفن التشكيلي، والتي ترفض التشخيص، وتقوم على التجريد الذي يعدّ باعتراف النقاد الغربيين أنفسهم؛ خطوة تقدمية في عالم الفنون.

في أخريات ذلك العقد أتاح لي تفرغي في مكتبة المتحف إنجاز جملة من البحوث في النقد التطبيقي، نشرت في العديد من المجلات، ثم أخرجت جميعاً في كتاب يحمل عنوان (محاولات جديدة في النقد الإسلامي) عطفاً على كتابي السابق الموسوم: (في النقد الإسلامي المعاصر).

ولقد تضمن كتاب المحاولات هذا دراسة مستفيضة عن (الشعر العربي والرؤية الإسلامية الجديدة) حاولت أن أبين فيها كيف أن الشعر العربي في صدر الإسلام لم يرقَ إلى مستوى الرؤية الإسلامية الجديدة، ودعمت رأيي بمناقشة وتفنيد العديد من الاستنتاجات الخاطئة بهذا الخصوص. أما البحوث الأخرى في الكتاب فقد تضمنت (شيء عن الالتزام في شعر جلال الدين الرومي)، و(قراءة في شعر الحسناوي)، و(الإسلامية في رواية عمالقة الشمال) للكيلاني رحمه الله، وتقديم (لحدث في شارع الحرية) للقاص الأديب إبراهيم عاصي رحمه الله، و(قاص آخر على الطريق) تتضمن نقد اثنتين من مجموعات الأخ الشاعر محمود مفلح القصصية. وقد تنبأت فيهما بأن مفلح سيكون شاعراً متألقاً وسوف يكفّ عن كتابة القصة القصيرة.

أما في مجال الأعمال الإبداعية، فقد شهد عقد السبعينيات إنجاز مجموعتين من المسرحيات ذوات الفصل الواحد، وهما: (معجزة في الضفة

الغربية) و(خمس مسرحيات إسلامية ذات فصل واحد)، ومسرحية (الشمس والدنس ذات الفصول الأربعة)، وكتاب (الطريق إلى فلسطين) وهو من أدب الحوار.

في كتابة الأعمال المسرحية، لا أدري، مرةً أخرى، كيف تتشكل بنيتها، ويتدفق حوارها، وتخلص في آخر الأمر إلى نهاياتها الطبيعية.. لا ريب أن معظم الكتاب المسرحيين قد مروا بالتجربة نفسها، ولا أدري إن كان النقد، والتنظير، قد بذلا جهداً ملحوظاً في تحليل الظاهرة، ولكن الذي أعلمه علم اليقين، وأكاد ألمسه بيدي، أنني ما أن اختار موضوع مسرحية من مسرحياتي وأخط حروفها الأولى؛ حتى يبدأ ما أسميه بالتشكل الذاتي داخل النص، حيث يجد القلم نفسه مسوقاً للتعبير عما تريده البنية المسرحية، وعلى خلاف أحياناً مع ما كان يريده المؤلف... ثم ما يلبث هذا التدفق أن يؤول إلى النهاية التي تقنع القارئ والمشاهد بمصداقية هذا العمل المسرحي.

على أية حال فإن تجربتي الأولى في كتابة المسرحية ذات الفصل الواحد كانت قد بدأت في أواخر الستينيات بمسرحية (صرخة عند المسجد الأقصى)، التي لم تكن، كما هو الحال في معظم المحاولات الأولى لكل الكتاب والأدباء، بالمستوى الفني المطلوب، لكني ما لبثت في السبعينيات أن أعقبتها ـ وقد شعرت بأن يدي قد تمرستا على هذا النوع من الأداء ـ بالمسرحيات التالية: معجزة في الضفة الغربية، البلاغ رقم ٧، أكاديميون، شيء عن الموت... ولقد دفعتني قناعتي بالمستوى الفني لهذه المسرحيات إلى أن أنجز مجموعة أخرى أكثر نضجاً واكتمالاً وهي: القطيع، رفض في ليل الطغيان، الزلزال، الجوع والكلمة، الديدان.

وهذه المسرحيات العشر من ذوات الفصل الواحد تنطلق من رؤية التزامية تحركت باتجاهين، أولهما تأكيد القيم الأصيلة في الحياة الإسلامية، وثانيهما النقد المرير، والسخرية، والرفض، للقيم الدخيلة على هذه الحياة بلغة شفافة ترفض المباشرة والتعاليم الصارمة، وتنزاح بعيداً باتجاه الآفاق غير المباشرة

في التعامل مع الخبرات والأشياء... ولسوف يتاح لي في عقد الثمانينيات التالي أن أمضي قدماً، متسلحاً بخبرات أكثر إحكاماً فنياً، فأنجز خمس مسرحيات أخرى من ذوات الفصل الواحد، صدرت بعنوان (العبور) ولسوف يجيء دور الحديث عنها.

أما كتاب (الطريق إلى فلسطين)، الذي ينتمي إلى (أدب الحوار)، فقد أردت فيه توظيف المادة التاريخية التي تجمعت لديّ عبر كتابتي للمؤلفات الخاصة بالحروب الصليبية، من مثل (المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي: عصر ولاة السلاجقة في الموصل) و(عماد الدين زنكي) و(الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام) و(نور الدين محمود: الرجل وتجربته الإسلامية)... في سياق لقاءات حوارية بين أستاذ للتاريخ الإسلامي وطلبته الجامعيين، حول الخطوات المتتابعة التي انبنى بعضها على بعض في سياق تكاملي قاده ولاة الموصل السلاجقة، وأمراء الأراتقة وعماد الدين زنكي، ونور الدين محمود؛ والذي أفضى إلى تسليم هذا النتاج الخصب في أعمال المقاومة، إلى (الناصر صلاح الدين)، الذي قدّر له أن يصل إلى القدس ويحرّر فلسطين من قبضة الصليبيين...

ولقد جاء هذا الكتاب لكي يطرح مقولة لم يسبق لكل الباحثين في مجال الحروب الصليبية، أن تناولوها وهي مقولة تكامل الجهد في المقاومة الإسلامية للحروب الصليبية، والتي قدّر لها أن تتحول في كتابي (الوحدة والتنوع في تاريخ المسلمين) إلى بحث علمي يؤكد بالوقائع المنظورة ذلك الارتباط الوثيق في أعمال المقاومة بين قادتها وجماهيرها الإسلامية.

وفي سياق المسرحيات ذات الفصل الواحد، ألحّ عليّ موضوع سيقدّر له أن يتحول إلى مسرحية ذات فصول أربعة، تحمل عنوان (الشمس والدنس)... لا أدري كيف اندفعت لإنجاز تلك الفصول بذلك القدر من الإثارة والتنويع والتوتر الدرامي... يمكن إدراج المسرحية في سياق (مسرح الغضب) والإدانة لما تقترفه دول الغرب الكبرى، بزعامة أمريكا، بحق الإنسان المعاصر،

والشعوب المستضعفة، ودول العالم الثالث، بامتلاكها القوة، ومضيها قدماً في الكشف عن الطاقات المدمرة للذرة... وعدم موازنة منطوق القوة بالحكمة التي تشكمها عن الانفلات لتدمير العالم إذا اقتضى الأمر...

ويمكن أن تكون في سياق النقد السياسي والاجتماعي لما يشهده العالم من صراع قاسٍ يبرّر استخدام أخس الأساليب في سبيل تحقيق أهدافه، سلطة وتملكاً وتكاثراً وانفلاتاً جنسياً... وأسلوباً ميكيافيلياً في السعي لامتلاك هذا كله... ويمكن أن تكون من مسرحيات الخيال العلمي، حيث ينطوي أحد فصولها على اعتماد التقنيات الحديثة لاكتشاف السبب الذي كاد يحرق العالم، ويأتي على الأخضر واليابس... وهو تفجير الولايات المتحدة لقنبلة هيدروجينية مدمرة، ظن الناس وقياداتهم في مشارق الأرض ومغاربها، أنها خلل كوني دفع الشمس إلى الاقتراب من الأرض التي أوشكت أن تحترق...

الفصل الأول للمسرحية يتابع محاولات الناس للهروب من الحرّ اللافح بسبب ما اعتقدوه من اقتراب الشمس أكثر من الكرة الأرضية... ويمضي الفصل الثاني لمتابعة الألاعيب السياسية للدول الكبرى في توظيف الحالة لتحقيق مصالحها الخاصة من خلال المناقشات التي دارت حول الموضوع في أروقة الأمم المتحدة...

أما الفصل الثالث، فهو يتابع نشاط كبار علماء الفلك والرياضيات، عبر مختبرهم وآلياتهم، لاكتشاف مصدر هذا الطفح القاسي الذي أحاط بالكرة الأرضية، بينما يجيء الفصل الرابع لكي يكشف عوار الحياة الاجتماعية المعاصرة المترعة بالانتهازية والفجور والدنس، وأشخاصها يتعاملون مع الظاهرة الحرارية، قبل وبعد انكشاف سببها الحقيقي...

وينتهي الفصل ويسدل الستار على المسرحية وبطلها المحوري يردد: (أما نظام الكون فلا... لقد توهموا قبل أيام أن شيئاً ما قد أصابه وأنه بحاجة إلى تغيير... إلا أنه سرعان ما تبين لهم أنهم مخطئون... لو ترك الكون لعبثهم

لانهار منذ زمن بعيد... ولكن ثمة ما يحتاج حقاً إلى أن يتغير... لقد تسرّب إليه الدنس حتى النخاع... نظام العالم... أنه بأمس الحاجة إلى التغيير)!

في عقد الثمانينيات، حيث سحبني صباحاً عملي الوظيفي في مديرية آثار المنطقة الشمالية، ومن بعدها عملي الأكاديمي في كلية آداب جامعة صلاح الدين في أربيل... ما لبثت أن حوّلت ساعات الإنجاز التأليفي إلى المساء، حيث أتفرغ كل يوم لأربع ساعات أو خمس، ما بين الثالثة عصراً والثامنة مساء، لتنفيذ المشاريع التأليفية التي تدفقت عليّ مطالبها وإغراءاتها كالسيل.

ولقد شهد ذلك العقد من الزمن تلك العروض العديدة التي تدفقت عليّ من المؤسسات العلمية والثقافية، ومن دور النشر والجامعات العربية، وألزمتني في كثير من الأحيان بتلبية طلباتها وإنجاز ما اقترحته عليّ من مؤلفات.

كانت أولى تلك العروض رسالة وصلتني من المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (مكتب التربية العربي لدول الخليج) التابعين لجامعة الدول العربية، تطلب مني المساهمة في بحث موسع عن (مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية)، الذي تنوي إصداره في مجلدين يتناول (أولهما نقد تلك المناهج في السيرة النبوية، ويتناول ثانيهما السياقات الإسلامية الأخرى: قرآنا وتشريعاً وتاريخاً... الخ...).

فاستجبت للعرض، واخترت موضوع (دراسة في منهج المستشرق البريطاني المعاصر مونتكمري وات في السيرة النبوية) تطبيقاً على كتابه (محمد في مكة) فتمت الموافقة عليه. وما لبثت أن تفرغت لإنجازه، حيث صدر ضمن المجلد الثاني لكتاب (مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية).

ولقد كان اختياري لـ (وات) بسبب من كونه واحداً من أكثر المستشرقين موضوعية وحيادية، كما يدعي هو، وبعض من زملائه من أمثال (مكسيم رودنسون) (وسير هاملتون كب)... لكنني ـ مع ذلك ـ وجدت في كتابه هذا من الثغرات، والأخطاء الموضوعية، والخلل المنهجي الشيء الكثير مما عرضته

للمناقشة والتفنيد في بحثي ذاك، الذي قدر له فيما بعد أن يصدر في كتاب مستقل يحمل عنوان (المستشرقون والسيرة النبوية)، طبع مرتين.

هذا وقد تسلّمت بعد سنوات قلائل، تكليفاً من مكتب التربية العربي لدول الخليج، لكتابة بحثين مطولين عن اثنين من أعلام التربية في تراثنا الإسلامي لكي ينشرا في المجلدات التي سيصدرها المكتب بعنوان (من أعلام التربية العربية الإسلامية) في أربعة مجلدات. وقد تناولت في ذينك البحثين كلاً من (ابن خلدون) و(حاجي خليفة) في رؤيتهما التربوية، وألحقت البحثين فيما بعد بكتابي (الوحدة والتنوع في تاريخ المسلمين).

أما العرض الآخر فكان موجهاً من مركز البحوث التابع لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، يطلب إنجاز كتاب حول (إعادة كتابة التاريخ الإسلامي)، فرحبت بالطلب، وتفرغت لإنجاز الكتاب، وبعثت بأصوله إلى ذلك المركز، فإذا بخبيره الذي عرض عليه الكتاب للتحكيم، يطرح في تقريره منظومة من الاعتراضات والنقد الفجّ، الذي يدل على عدم تخصصه بالموضوع...

فما كان مني إلا أن أردّ على الخبير برسالة قاسية ألقنه فيها أصول التحكيم، وضرورة أن يكون المحكمون من ذوي الاختصاص... ورغم رسالة مدير المركز التي سعت لتسوية الموضوع، إلا أنني رفضت نشر الكتاب لديهم، وقدمته لدار الثقافة في الدوحة حيث صدر بعنوان (حول إعادة كتابة التاريخ الإسلامي)، الذي لقي رواجاً كبيراً ثم ما لبثت أن طبعته ثانيةً لدى دار ابن كثير في بيروت.

وأما رابع تلك العروض فقد جاءني من الأخ الأستاذ عمر عبيد حسنة، المشرف على إصدار كتاب (الأمة) في الدوحة بقطر، حيث سبق وأن فاتحني في الكتابة في موضوع (العقل المسلم) وشروط تشغيله بعد أن انطفأت شعلته عبر قرون تخلفنا الحضاري... ثم ما لبثت أن اخترت له عنوان (حول إعادة تشكيل العقل المسلم) فأرسل إلي يطلب البدء في إنجازه...

فلما صدر الكتاب لقي بسبب من موضوعه البكر، ولغته الشفافة، ومنهجه المحكم، رواجاً كبيراً. حيث إنني عالجت في فصله الأول: التحوّلات الكبيرة التي نفذها هذا الدين في مجالات التصوّر والاعتقاد، والمعرفة، والمنهج بشعبه الثلاثة: السببية، والقانونية التاريخية، ومنهج البحث الحسي التجريبي... وتابعت في فصله الثاني أبعاد التحق التاريخي في الانتقاء الحضاري، والإبداع بعد الانتقاء، والنقل الجغرافي والانتشار...

أما في الفصل الثالث فقد عرضت للهيكل الحضاري للرؤية الإسلامية... وفي الفصل الرابع تحدثت عن الملامح الأساسية للفعل الحضاري الإسلامي، واختتمت الكتاب بدعوة مؤكدة لعصر التكنولوجيا الإسلامية... فبدونها لن يكون لنا مكان في هذا العالم... ذلك هو التحدي الحقيقي الذي يقف قبالتنا صباح مساء... وهذا هو طريق الاستجابة المرسوم في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

طبع الكتاب خمس طبعات، كانت إحداها من قبل اتحاد الطلبة الإسلامي في الولايات المتحدة الأمريكية، وكانت آخرها في دار ابن كثير في بيروت، حيث ارتأيت تغيير العنوان للضرورات المنهجية وجعله (أصول تشكيل العقل المسلم).

فأما خامس الطلبات، وأصعبها، فقد كانت عرضاً من الندوة العالمية للشباب الإسلامي في الرياض بإنجاز بحث موسع شامل يحمل عنوان (قالوا عن الإسلام) يتضمن المقولات الإيجابية للمستشرقين والمؤرخين والباحثين الغربيين، والمسيحيين العرب، بحق الإسلام: قرآناً، ونبياً، وإسلاماً، وانتشاراً، ومعاملة لغير المسلمين، وحضارة، وامرأة وأسرة مسلمة، وحاضراً ومستقبلاً.

ولقد ترددت في قبول العرض طويلاً، وأنا أعاني من الاختناق بسبب من كثرة مشاريعي التأليفية التي تلحّ عليّ في الإنجاز... لكنني ما لبثت بعد أن قلبت الأمر على وجوهه؛ أن أغرتني الفكرة، خاصةً وأنها تتضمن وعداً بترجمة الكتاب إلى عدد من اللغات العالمية... كما أن كتاباً كهذا سيحمل بعداً دعوياً واضحاً لمصداقية هذا الدين ويغري الآخرين بمحاولة الاقتراب منه، وإزاحة

جدران الكراهية والبغضاء، التي زرعتها في نفوس غير المسلمين وعقولهم الأضاليل الصليبية والصهيونية... فرأيت في ذلك كله الأجر الكبير، الذي يصعب على المرء أن يتخلى عنه... وسارعت في الإجابة على العرض بالموافقة...

ثم ما لبثت بعد أن تلقيت الجواب الذي انطوى على الترحيب البالغ بالموافقة؛ أن أزحت كل أعمالي الأخرى جانباً، وتفرغت لإنجاز الكتاب، بعد أن وضعت تأسيساته المنهجية، ورحت أجمع الشهادات والنصوص الإيجابية، من عشرات المراجع ومئاتها، وعلى مدى سنتين وأنا أواصل عملية الجمع، حتى إذا أطمأنيت لهذا الحصاد الكبير، رحت أرتبه وفق سبعة فصول هي: القرآن الكريم، ومحمد رسول الله ﷺ، والإسلام، وانتشار الإسلام ومعاملة غير المسلمين، والحضارة الإسلامية، والمرأة والأسرة، والحاضر والمستقبل.

ثم قدمت للكتاب بصفحات مستفيضة تناولت المنهج الذي اعتمد في تأليفه، ومدخلاً يتضمن الموضوعات التالية: شهادة العقل الغربي: الحواجز والقيمة، والإسلام هو الرسالة السماوية الأخيرة للبشرية: دعوة للاختبار، والخصائص الأساسية لهذا الدين، وأزمة الإنسان والحضارة الغربية، والأخطاء المنهجية للفكر الوضعي.

أرسلت بأصول الكتاب إلى الندوة العالمية، وجاءني الجواب على لسان عدد من قادة الفكر بالإشادة والتقييم للجهد الكبير الذي بذلته فيه... لكنهم ارتأوا اختصار الكتاب كي يكون تداوله عملياً ميسوراً، وذلك بإلغاء العديد من شهاداته والاكتفاء بأربع شهادات أو خمس لكل باحث... فما كان مني إلا أن أرجع إلى أصول البحث، مثقلاً بالهمّ، وأنفذ المطلوب، حيث أصبح حجم الكتاب بحدود الخمسمائة صفحة... وأرسلته إلى الندوة، التي أصدرته بعد سنتين من تسلّم أصوله... والحمد لله...

ولم أكن أدري أن الكمّ الكبير من الشهادات التي أزحتها للتخفيف عن ثقل الكتاب، ستقودني إلى جملة من المشاريع التأليفية، التي عكفت على

إنجازها في أخريات ذلك العقد واحداً بعد الآخر، فإذا بها تبلغ الستة كتب عدداً... وهي:

(المرأة والأسرة المسلمة من منظور غربي) والذي يعالج المنظور الغربي الذي يؤكد مصداقية هذا الدين في المسائل التالية: المرأة كائناً متفرداً، حقوق المرأة، الحجاب، الأسرة، تعدد الزوجات، الطلاق، ثم شهادة التاريخ... مع مقدمة مستفيضة بعنوان (قراءة في ملف المرأة)...

وكتاب (القرآن الكريم من منظور غربي) والذي يعالج المسائل التالية: (التوثيق) (الأسلوب) (المضمون) (الإعجاز العلمي) (القرآن والكتب الدينية المحرفة) (التأثير) الروحي والاجتماعي والسياسي والثقافي والحضاري لكتاب الله... ثم خاتمة تجمل الأمر كله بهذه الكلمات: ذلك بعض ما قيل في كتاب الله المعجز، وكلماته التامات، وهو غيض من فيض، ولكنه على أية حال يكاد يلخص المؤشرات الأساسية لمعطيات غير المسلمين (الإيجابية) في هذا المجال.

ويكفي أن نجد عدداً غير قليل من هؤلاء الذين تحدثوا عن القرآن، يندفعون في نهاية الأمر، وربما في بدئه للانتماء لدين هذا كتابه. من ثم فإن لنا أن نتلمس مدى الصدق والاخلاص للحق والعلم معاً، ذلك الذي دفع هؤلاء جميعاً، وبموازاة إساءات العديد منهم، متعمدين وغير متعمدين، لأن يقولوا كلماتهم ويصوغوا استنتاجاتهم الإيجابية عن كتاب الله. وصدق الله العظيم القائل في محكم الكتاب: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣]. وقد تولت دار الفرقان في عمان نشر الكتابين المذكورين.

وكتاب (نظرة الغرب إلى حاضر المسلمين ومستقبلهم)، الذي نشرته دار النفائس في بيروت، تناولت في فصوله الأربعة المسائل التالية: (الصدمة الغربية وإسلامية الرد) (والعمق الحضاري)، الذي ينطوي عليه الصراع بين الغالب والمغلوب، (الاختبار الشيوعي)، ثم (الانبعاث وصياغة المستقبل).

ذلك أن الظاهرة الدينية متلازمة مع الإنسان، وربما كانت أكثر عمقاً لدى المسلمين الذين يشكلون خمس سكان الكرة الأرضية. ولئن كان التفوّق التقني الغربي يكاد يطمس على قلوب بعض المسلمين؛ فهو يعطي الغرب شعوراً بالاستعلاء لا يشمل علماء ومفكرين يدركون أهمية الإسلام وتأثيره، حتى ليراه بعضهم «بوسطيته وتوازنه» الحل الأوحد لما يواجه مستقبل البشرية... ولقد اعتمد الكتاب على شهادات وأقوال علماء الغرب وفلاسفته مقتبسة من مؤلفاتهم التي أُدرجت أسماؤها في قائمة مراجع الكتاب.

وكتاب (الإسلام والوجه الآخر للفكر الغربي)، الذي تناول بالتحليل معطيات سبعة عشر مستشرقاً ومؤرخاً ومفكراً وأديباً غربياً، وثلاثة من المسيحيين واليهود من الديار العربية، وتمحور كل بحث عند نقطة الارتكاز الأساسية في كتابات هؤلاء المفكرين...

فكان الوقوف عند كارودي في رؤية الإسلام لإعادة صياغة العالم، وعند سانتيلانا حول خصائص الشريعة، وعند روم لاندو حول آفاق التوحيد، وعند كب حول العقيدة والشريعة والأخلاق، وعند مونتكمري وات حول الدين والحياة والأمة، وعند كوستاف لوبون حول انتشار الإسلام ومعاملة المغلوبين، وعند نصري سلهب حول دعوته المخلصة للفهم، وعند موريس بوكاي حول إعجاز القرآن الكريم والتحدي بالعلم، وعند ديورانت حول التعامل مع الآخر، وعند نظمي لوقا حول أخلاق النبوة، وعند ستودارد حول التحرير والتوحيد، وعند درمنغهم حول صورة الرسول ﷺ، وعند سوسة حول الإسلام من منظور مقارن، وعند دينيه حول اكتمال المعمار، وعند تريتون حول شواهد عن غير المسلمين، وعند بلاشير حول الوجه الآخر لإعجاز القرآن، وعند كارلايل حول البطولة في مستوياتها العليا.

ولقد بينت في مقدمة الكتاب أن علينا أن نلاحظ كيف أن عدداً من الشهادات الإيجابية بحق الإسلام، أو جانب من جوانبه، من قبل هذا المفكر غير المسلم أو ذاك، يقابله في الوقت نفسه ركام من شهادات أخرى سلبية

تقف موقفاً مضاداً من الإسلام، لكن هذا لا يمنع من اعتبار الشهادات الأولى، بمثابة اعتراف «حرّ» بهذه القيمة أو تلك من قيم الإسلام التي تدفع الغربيين إلى إعلان رأيهم ذاك دونما أي نوع من أنواع الاضطرار أو القسر...

فليس ثمة خشية إذن من أن يأتي الحديث عن الشهادات الإيجابية لمفكرين كهؤلاء، بمردود معاكس، كما قد يتوهم البعض، ما دامت الأضواء الحمراء قد أشعلت مسبقاً على طريق الفكر الاستشراقي بفضل تقاليد وتأثيرات نصف قرن أو يزيد، بحثاً عما هو أخضر جميل قد يحمل كالزمرّد، قيمته البالغة بسبب ندرته... وقد طبع الكتاب مرتين في مؤسسة الرسالة ودار ابن كثير.

ويمضي الكتاب الآخر الذي يحمل عنوان (غربيون يتحدثون عن الإسلام)، الذي أصدرته أخيراً دار السلام في القاهرة، عام (٢٠١٣م)، في الاتجاه نفسه فيحلل معطيات أربعة من المستشرقين والمفكرين الغربيين، هم كل من: المستشرقة الإيطالية (لورافيشيا فاكليري) في كتابها (دفاع عن الإسلام) والمفكر النمساوي (ليوبولد فايس: محمد أسد) في مؤلفاته الثلاثة: (منهاج الإسلام في الحكم) (الإسلام على مفترق الطرق) و(الطريق إلى مكة)، والمستشرق البريطاني (سير توماس أرنولد) في كتابه (الدعوة إلى الإسلام)، ورجل القانون الدولي الفرنسي (مارسيل بوازار) في كتابه (إنسانية الإسلام). ولكن وبسبب من زخم المادة المتراكمة بين يديّ عن كل واحد من هؤلاء، انساح التحليل إلى مساحة أوسع، فرض عليّ أن أخصص لشهاداتهم القيمة كتاباً مستقلاً.

وقد جاء في مقدمة الكتاب أنه (ليس كل ما يقوله الغربيون عن الإسلام شراً، كما قد يخيّل للبعض، ربما بسبب من السيل المنهمر على هذا الدين في الكتابات الاستشراقية، والغربية عموماً، والمترعة كيداً وسخائم وجهالة وأحقاداً، فيما هو معروف للجميع. إلا أن هذا يجب ألّا يغطي على الجانب الآخر من

الصورة، إذا أردنا أن نكون موضوعيين، وأن نعمل بروح الآية الكريمة: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟﴾ [المائدة: ٨].

فهنالك ـ في المقابل ـ سيل من المعطيات والتقييمات المنصفة والعادلة لدين الإسلام: قرآناً وسنة ونبياً ودعوة وعقيدة وشريعة وحضارة ورجالاً وتعاملاً مع الآخر... بل إن بعضها يتجاوز العدل والإنصاف إلى نوع من الدهشة والإعجاب، الذي يصل حدّ الانبهار بهذا الدين، فيما قاد عدداً منهم إلى الانتماء إليه. وسنكون مخطئين بحق أنفسنا ظالمين لغيرنا، إن تعاملنا بالمسطرة مع كل هذا الذي يطرحه العقل الغربي، وإن لم نحسن توظيف هذه المعطيات الخصبة، التي يتفوق بعضها على ما يقوله المسلمون أنفسهم، لتأكيد أحقية هذا الدين في الديمومة والانتشار، وفي المشاركة الفاعلة في المصير).

أما كتاب (الفن والعقيدة) الذي ألحقته دار ابن كثير في طبعته الجديدة بكتابي السابق (الطبيعة في الفن الغربي والإسلامي) وأصدرتهما معاً بعنوان (في الفن التشكيلي والمعماري) عام (٢٠٠٧م)، فقد سعى للتعامل مع المعطيات الغربية بخصوص فنون المعمار الإسلامي، وأفاد من المادة التي تجمعت لديّ خلال عملي في كتاب (قالوا عن الإسلام)...

ولقد كانت هذه المادة مغرية حقاً في قدرتها على الإضاءة الرؤيوية للفن المعماري الإسلامي، تلك التي أطلق عليها (أوليغ غرابار) عبارة (نقل بصري لرؤية العقيدة الإسلامية الكونية)!! والتي وصفها غارودي بأنها (النور الذي ينقلك إلى عالم آخر، فيما وراء هذا العالم، مشع في هذا العالم)، والتي قال عنها روم لاندو: (وهكذا يصبح هذا الفن رمزاً حقيقياً لموقف صاحبه من الله ومن العالم الذي يحيا فيه).

والكتاب في الأصل بني من مقالات ثلاثة، كانت بمثابة محاولة غير مباشرة، وبالمفردات الغربية نفسها، لتفنيد مقولة خاطئة طالما تشبثت بأذيال العقل الغربي المعاصر، نصرانياً كان أم علمانياً أم مادياً ماركسياً، تلك النظرة التي كانت تتعمد أن تفصل بين عقيدة الإسلام وبين الفن الذي أبدعته، بل

إنها تمضي ـ أحياناً ـ إلى ما هو أبعد بكثير: إن العقيدة الإسلامية، وقد حاولت أن تقف بصلابة في مواجهة التعبير الفني وتصدّه عن التحقق، إنما دفعته دفعاً لأن يتمرّد عليها ويشق له طريقاً مستقلاً لا يقوم على أي ارتباط بالجذور العقدية، بقدر ما هو ـ ربما ـ في حالة عداء أو اصطراع معها!

وقد تكون المقالات الثلاثة التي يتضمنها هذا الكتاب، استجابة مقارنة، بشكل أو آخر، بين الملامح الأساسية للفن الإسلامي، المتجذر في العقيدة، وبين ما حاول أن يقوله مهندس القرن الذي يعتبر أعظم مصمم في مجال فنون العمارة وتخطيط المدن أنجبه القرن العشرون: لوكور بوزييه، المهندس المعماري والرسام الفرنسي الذي توفي عام (١٩٦٥م)، والذي طالما كان يردد: (علينا باستبدال العادي والتافه والفاسد بما أدعوه بالمباهج الأساسية)...

ذلك أن الرجل عرف كيف يجرد الأشياء ويحيلها إلى أبعادها الثلاثة. وفي كافة أعماله الفنية جسد هذا المهندس الفذ مقدرة استثنائية في استيعاب القديم في العمارة العالمية، وترجمها إلى رؤية تجريدية خارقة... إذن كان الرجل يتفوق في النقطة نفسها، التي تحتل مركز الثقل في فنون الإسلام: تحويل المنظور والمباشر إلى (رؤى تجريدية خارقة). حقاً لقد قدر الفن الإسلامي على أن (يستبدل العادي والتافه والفاسد) بما دعاه لوكور بوزييه (المباهج الأساسية)...

وبنظرة سريعة على معطيات الإسلام المعمارية، في مشارق الأرض ومغاربها، بتذكر المهرجانات الفنية المبدعة لجوامع بخارى وسمرقند ودلهي وأصفهان وبغداد وإسطنبول ودمشق والقاهرة وفاس وقرطبة وإشبيلية وغرناطة... بخطوطها المدهشة وزخارفها الأنيقة، وبريازتها المنفتحة على الضوء والسماء الواسعة... للمدن الإسلامية نفسها التي وضعت حجارتها باسم الله... بدءاً من أعماق تركستان وانتهاء بالحمراء في الأندلس، مروراً بحافات الصحراء حيث أقيمت المدن الأولى لمواجهة تحديات الامتداد والفناء: البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان...

بهذا وذاك يمكن أن يتبين للمرء ما صنعه الإسلام هنا في ساحة الفن، كما هو في ساحات الحياة كلها... إعادة البهجة التي طردتها الأديان المحرفة... تأكيد الارتباط الصميم بالأرض، بالعالم الذي أريد له أن يكون إسلامياً، حيث تتعاشق بألفة ومحبة قيم الآخرة والدنيا، وتنسجم وتتناغم كافة الثنائيات... حيث تصير الحياة الفانية فرصة متألقة للخلود... لا بالنفي والحزن والقطيعة والألم، لكن بالفرح والاختيار والاقتراب أكثر من أرضية العالم... جعلها أكثر بهجة وأشد توحداً وائتماناً...

يمضي البحث لكي يتعامل في موضوع (البحث عن آفاق جديدة) مع الناقد البريطاني (روم لاندو) في كتابه (الإسلام والعرب) حيث يتحدث عن عبقرية الفنان المسلم الذي استجاب لتحدي عقيدته بتحريم التشخيص، وصنع فناً تجريدياً مدهشاً يثير الإعجاب: (المنطق والجمال اللذان ينبثقان عادةً كلّما حاول أمرؤ مخلص أن يترجم روح دينه وحضارته الأشد عمقاً وإيغالاً وينقلها إلى صورتها المنظورة)...

وفي موضوع (الجامع منطلقاً ومصباً) تستدعى شهادة المفكر الفرنسي (روجيه غارودي) في مؤلفيه: (وعود الإسلام) و(في سبيل حوار الحضارات)، والذي ينطلق من حقيقة (أن الجامع الذي تكاد حجارته نفسها تصلي، إنما هو مركز إشعاع لجميع فعاليات الأمة الإسلامية، هو نقطة الالتقاء لجميع فنونها)، كما تستدعى شهادة الفنان الفرنسي (جورج مارسيه) في كتابه (الفن الإسلامي) والذي جذبته تلك العلاقة الحميمة بين المعمار الإسلامي وبين العقيدة التي صاغته. وشهادة المستشرق الفرنسي (جاك ريسلر) في كتابه (الحضارة العربية) الذي يقول: (مندوحة لي من أن أشهد بتجربتي الشخصية، ذلك أنني انطلاقاً من تأمل فنون الإسلام ومساجده؛ إنما شرعت في فهم العقيدة الإسلامية بتأكيدها الجذري على التعالي).

وشهادة المؤرخ اللبناني (فيليب حتي) في كتابه (الإسلام منهج حياة) حيث يقول: (يكاد المرء يدخل الصحن الذي ينكشف للسماء والذي تحيط به

الأروقة، حتى يجد في نفسه ميلاً شديداً إلى الانعتاق من البيئة المادية التي حوله، ثم نزوعاً في الوقت نفسه إلى السمو نحو الملأ الأعلى... وهذه المئذنة الطويلة الرشيقة أشبه بالإصبع التي تنتصب مشيرة إلى السماء. وأما في جوف المسجد فإن القبة المتلالئة بالمصابيح تبدو وكأنها صورة منقولة عن قبة السماء. وكذلك المحراب المزخرف بالأشكال والأغصان والمزين بالآيات الكريمة؛ فإنه يوجه القلب إلى مصدر الهدى والإيمان. والأعمدة التي تتوالى في صفوف لا تكاد العين أن ترى آخرها توحي بأنها لا تتناهى. وهؤلاء المصلون حولك معاً أو فرادى في كل مكان من المسجد، يولدون في النفس شعوراً بمشاركة أخوة تسع العالم كلّه)!!

هذا إلى شهادات (بروفنسال) و(زيغريد هونكه) و(مونتغمري وات) و(غوستاف لوبون) و(كلود كاهن).

أما موضوع (الانبثاق العقيدي) الذي ينطوي على المعنى المقصود بالارتباط الصميم بين الفن والعقيدة، في المنظور الإسلامي، فينطلق من مقولة (مارسيه) ذات الدلالة الحاسمة: (لقد تغلغل الإسلام في الحياة البيتية كما دخل حياة المجتمع، وصاغت الطبائع التي نشرها شكل البيوت والنفوس)... ويمضي مع (غارودي) في (وعود الإسلام) لتأكيد ذلك الالتحام العقيدي بين الفن الإسلامي والفنان...

بإيجاز شديد، فإن العقل الغربي يملك قدرة مدهشة على الاكتشاف، ومن ثم فهو يرى في تجواله المدقق في حنايا الفن الإسلامي، بعده الرؤيوي، موقفه من الله والعالم والمصير... بخلاف أكاديميينا ـ للأسف الشديد ـ الذين يتعاملون مع هذا الفن بالمسطرة والبرجال، ويعنّون تلامذتهم بقياس الطول والعرض والارتفاع فلا يكادون يصلون إلى شيء!!

شهد ذلك العقد الثمانيني إنجاز ثلاثة مؤلفات أخرى في مجال الفكر التاريخي، كان أوّلها كتاب (دراسات تاريخية)، الذي صدر عن (المكتب الإسلامي) في بيروت عام (١٩٨٣م)، تضمن جملة بحوث حاولت فيها أن

أعالج موضوعات تتميز بالجدة، من مثل (مقاومة المدن الإسلامية للغزاة) و(محاولات انقلابية في تاريخنا)، و(شيء عن جاهلية العرب) و(عين جالوت: الواقعة والمغزى) و(فلسطين في الأدب الجغرافي العربي). وقد طبع الكتاب ثانيةً من قبل دار ابن كثير في بيروت.

وأما ثانيها فكان (كتابات معاصرة في السيرة النبوية) الذي صدر عن دار وائل في عمان عام (٢٠٠٨م)، وتضمن أربعة بحوث، ومقدمة بينت فيها ضرورة تجاوز المناهج التقليدية في دراسة السيرة، واعتماد منهج جديد يستدعى فيه المؤرخ والمفسّر والمحدث والفقيه والجغرافي وفيلسوف التاريخ والأديب، لتوسيع نطاق الفضاء المعرفي عن ذلك العصر المتميز، ولوضع اليد على مشروعه الحضاري الذي كان بمثابة تأسيس لحضارة الإسلام، التي يلتقي في بنيانها الوحي بالوجود، من أجل مجابهة حضارات الكفر والضلال، وإزاحتها والتحقق بالبديل الحضاري الملائم للإنسان ووظيفته التعبدية العمرانية.

فأما البحث الأول، فكان يحمل عنوان (السيرة النبوية للشيخ أبي الحسن الندوي)، وقد كتب بناء على طلب منه رحمه الله ليكون مقدمة للطبعة الثامنة لكتابه، ولكن ظروفاً فنية حالت دون ذلك. وقد نشر ـ أولاً ـ ضمن المجلد الذي أصدرته رابطة الأدب الإسلامي العالمية عام (٢٠٠٢م) بمناسبة تكريمه في المؤتمر الرابع للهيئة العامة للرابطة، والمنعقد في إسطنبول عام (١٩٩٦م) بعنوان (الشيخ أبو الحسن الندوي: بحوث ودراسات).

وأما البحث الثاني، فكان بعنوان (الرسول ﷺ في رسائل النورسي)، وقد قدم إلى المؤتمر العالمي الثالث حول فكر سعيد النورسي، الذي أقامته مؤسسة الثقافة والعلوم في إسطنبول في الفترة (٢٤ ـ ١٩٩٥/٩/٢٦م).

وأما البحث الثالث، فكان بعنوان (الغزالي والسيرة النبوية)، وقد كتب بناء على طلب من الأستاذ الدكتور (عبد الحليم عويس) رحمه الله مدير دار الصحوة بالقاهرة ليكون ضمن بحوث الكتاب التذكاري لمناسبة بلوغ الشيخ محمد

الغزالي السبعين من عمره (عليه رحمة الله)، وقد صدر ضمن الكتاب المذكور.

وأما البحث الرابع والأخير، فكان بعنوان (الشهيد سيد قطب وعصر الرسالة)، والذي يتابع ويحلل معطيات هذا الرجل عن ذلك العصر في كتابيه (في ظلال القرآن)، و(معالم في الطريق). فمن خلال تفسير سيد قطب لثلاث من سور القرآن التي تناولت عدداً من المعارك التي شهدها عصر الرسالة، وهي (الأنفال) التي تحدثت عن معركة بدر، و(الأحزاب) التي عرضت للمعركة التي تحمل الاسم نفسه، و(التوبة) التي أفاضت في الحديث عن معركة تبوك... تلك السور التي خصصت مساحات واسعة من سياقها للواقعة التاريخية التي تشكلت في عصر الرسول ﷺ: يمكن أن نضع أيدينا على الملامح الأساسية التي تميز معطيات سيد في هذا المجال. وقد زادها تحليلاً وإيضاحاً في كتابه التالي (معالم في الطريق) من خلال فصوله: (طبيعة المنهج القرآني) و(الجهاد في سبيل الله) و(نشأة المجتمع المسلم وخصائصه).

وأما ثالث تلك الكتب، فهو (المنظور التاريخي في فكر سيد قطب)، الذي صدر عن دار القلم والدار الشامية في بيروت عام (١٩٩٤م).

إن معطيات سيد قطب التاريخية تفرض نفسها على الباحث المعاصر، ليس لغناها وتنوعها وكثافتها فحسب وليس لانطلاقها من زاوية رؤية إسلامية خالصة وتصور أصيل، وإنما لكونها ـ فوق هذا وذاك ـ تمتد إلى شعب الفكر التاريخي الثلاث، وتقول كلمتها في جوانب منها: منهجاً وتفسيراً وعرضاً... إن الرجل يطرح منهجاً في كتابة التاريخ الإسلامي، ويمنح قارئه رؤية واضحة لتفسير إسلامي للتاريخ، فضلاً عن أنه يعرض لفترات من التاريخ الإسلامي، ويحلل جانباً من معطياتها... ولو أتيح لكتاباته أن تواصل الطريق... لو امتدت به الحياة سنوات أخرى... لو لم تقف يد الظلام على أصول بعض كتاباته التي لم تر النور (من مثل في ظلال السيرة) لكانت معطياته التاريخية في الاتجاهات الثلاثة أكثر غنى وغزارة وشمولاً... ما في هذا شك... ولكنها مشيئة

الله... وما وصلنا مما أتيح له النشر في هذه المجلة أو تلك، وفي هذا الكتاب أو ذاك، يكفي لتكوين فكرة واضحة المعالم والقسمات عن سيد قطب (المؤرخ)، لا تقل وضوحاً وتميزاً عن كافة الأوجه الأخرى لمعطيات هذا الرجل الشهيد: أدباً وتفسيراً وفكراً.

وأنه ليتحتم بذل الاهتمام الجاد لدراسة هذا الجانب التاريخي من فكر (سيد قطب أو معطياته من أجل أن تستكمل الدراسات عن الرجل أسبابها، سيما وأن معظم البحوث التي كتبت عنه، أطروحات علمية أو دراسات مستقلة، لم تف هذا الجانب من فكر سيد حقه من البحث والتحليل، من مثل مؤلفات الأساتذة: العظم والخالدي وقطب وبركات وفضل الله، وغيرهم ممن كانت كتابتهم بمثابة محاولات رائدة تستحق التقدير والاحترام، وهي تخترق أستار الليل البهيم وصولاً إلى نقطة الضوء التي أشعلها سيد في عصرنا العربي الراهن، وأُعدم دونها...

وكنت أنتظر الفرصة، عبر ذلك العقد، لإنجاز واحد من مؤلفاتي التي أعتز بها أشد الاعتزاز، لأنه يملأ فراغاً مهماً في مكتبة الأدب الإسلامي، ويعد أحد كتابين رائدين في معالجة الموضوع، أحدهما هو هذا الكتاب الذي يحمل عنوان (مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامي)، والآخر للأخ الدكتور عبد الباسط بدر، أحد القائمين على رابطة الأدب الإسلامي العالمية.

كانت أفكار الكتاب ومفاهيمه الأساسية، قد بدأت تتجمع لديّ منذ منتصف ستينيات القرن الماضي، ثم ما لبث أن انضاف إليها الكثير عبر عقدي السبعينيات والثمانينيات، وآن الأوان لكي تهندس وتخرج في كتاب مستقل يتضمن التأسيسات المتعارف عليها لدى منظري الأدب، وذلك من خلال الفصول الأربعة التالية: الأسس الجمالية، العناصر الأساسية، الإسلامية والمذاهب الأدبية، ثم المنظور النقدي. وقد طبع الكتاب في مؤسسة الرسالة ببيروت مرتين، ثم أعيد طبعه في دار ابن كثير ببيروت عام (٢٠٠٧م).

لقد كان الكتاب (محاولة) في رسم الخطوط العريضة فحسب لنظرية

الأدب الإسلامي، فعلى كثرة ما كتب عن هذا الأدب، وعلى تزايد المعطيات النقدية الإسلامية، في العقود الأخيرة بخاصة؛ فإن المكتبة الأدبية الإسلامية تكاد تخلو من دراسات ذات طابع شمولي تستهدف تقديم صورة متكاملة لنظرية الأدب من زاوية الرؤية الإسلامية، وإذا كان أدباء ونقاد المدرسة المادية، وغير المادية، قد طرحوا نظرياتهم بهذا الخصوص، أفلا يتحتم على الأدباء الإسلاميين أن يدلوا بدلوهم فيه، لاسيما وأن رؤيتهم تمتد وتتسع لكي تضم العالم كله، وتنفتح لكي تظلل بجناحيها آفاق السماوات وساحات الكون والحياة؟

وإذا كانت معطياتنا الأدبية ليست لحد الآن كفاء لهذه الرؤية الواسعة؛ فإن هذا ليس عذراً في النكوص عن اقتحام الميدان وإثبات الوجود... على العكس، إن أية محاولة في هذا الاتجاه سوف تكون بمثابة المشجع، والدليل في الوقت نفسه، لمعطيات الأدب الإسلامي في شتى آفاقها وأنواعها، ولن يكون بمقدور أحد الادعاء بقدرته على رسم صورة نهائية لنظرية الأدب الإسلامي، ما دام أننا لا زلنا في مرحلة التمخض والصيرورة والعطاء.

ولذا جاءت المحاولة تحت عنوان (مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامي) وهي ـ بحق ـ لا تعدو أن تكون مدخلاً، قد تتسع أبوابه فيما بعد، وقد يتم تدارك ما يتضمنه من نقص هنا وخلل هناك... المهم أن نحاول... أن نطرح مشاريع (مفتوحة) قد تتكامل فيما بعد.

وليمنحني القارئ عذره إن وجد في هذا الكتاب الذي بين يديه، قطعات واسعة مما ورد في أعمالي الأدبية التي سبق نشرها، فما هي هناك إلا أشتات مما يمس النظرية الأدبية، وردت في سياق آخر غير هذا السياق. أما ها هنا فقد أردت أن أجمعها وأنسقها وأقابل بينها، لكي ترفد المجرى العام لمعطيات الكتاب على مستوى المنهج والموضوع. وإذا كان هذا الكتاب لا يعدو أن يكون بمثابة محفز لأعمال أخرى أكثر تكاملاً ونضجاً؛ فإنني أعتبره قد أدى مهمته المرتجاة... ولقد أتيح لهذا الكتاب، وغيره من أعمالي التنظيرية والنقدية

والدراسية أن يتعرض للدراسة والتحليل عبر جملة من أطاريح الدكتوراه في الجامعات العربية بفضل الله ﷻ.

والآن، فقد حان دور الحديث عن أعمالي الإبداعية الثلاثة التي تم إنجازها في عقد الثمانينيات...

كانت أولاها رواية (الإعصار والمئذنة)، الذي كان إغراء كتابتها يلحّ عليّ منذ ستينيات القرن الماضي، لكنني كنت أؤجل العمل فيها لحين اختمار معمارها في فكري، وبعد أن أكون قد قرأت الكثير من الأعمال الروائية العربية والغربية، والكثير من البحوث النقدية التي تدور حولها...

وها قد آن أوان العمل فيها... فبمجرد أن وضعت التصميم التاريخي للرواية، وحددت عدداً من شخوصها المحوريين... راح القلم يتدفق في كتابة فصولها، تدفقاً ذاتياً، كأنه هو الذي يريد أن ينجز العمل دون تدخل مسبق مني على مستوى السرد والحبكة والحوار... وحتى اللمسات الخاصة بالفضاء الروائي... كنت وأنا أكتب الفصل والفصلين في اليوم الواحد، أحس بنشوة غامرة، ذاقها كل من تعامل مع الإبداع الروائي...

ولقد كانت أيام كتابتها ـ بحق ـ من أسعد الأيام في حياتي... فيما ذكرني ببطل رواية (الدكتور زيفاغو) للأديب الروسي بوريس باسترناك، الذي وجد ضالته أخيراً، بعد رحلة تغرّب وصراع مرير، في نشوة الإبداع التي لا تعدلها نشوة، والتي ينسى المرء وهو يعانيها كل ما حواليه من متاعب ومنغصات ومخاوف وآلام...

لكن خطئي في روايتي تلك كان دخولي بين الحين والحين على أبطالها، واختراق عالمهم الخاص بمداخلاتي، وعدم ترك الشخوص تتحرك دائماً من داخل قناعاتها الخاصة... لكن هذا في حقيقة الأمر لم يمثل سوى مساحات ضيقة جداً من الرواية، وسوف يقدّر لي أن أتدارك خطئي هذا في عملي القادم عبر التسعينيات رواية (السيف والكلمة).

أردت من (الإعصار والمئذنة) أن أنقل للقارئ برؤية انطباعية، ومن خلال

عمل روائي محكم قدر الإمكان، ما شهدته الموصل على مدى أربعة أيام من ثورتها في آذار عام (١٩٥٩م) ضد تفرّد الزعيم عبد الكريم قاسم بالسلطة وطغيان الحزب الشيوعي. ولقد كانت الواقعة بما آلت إليه من انهيار، وما أعقبها من مجازر، حالة مترعة بالتوتر، والصراع، وبالتحديات المتضادة بين الشيوعيين وخصومهم من القوميين والإسلاميين، فيما يغري ـ فعلاً ـ بتحولها إلى عمل روائي مؤثر... لقي قبولاً واسعاً لدى القراء، وطبع عدة مرات، وكتب عنه العديد من بحوث الليسانس ورسائل الماجستير وأطروحات الدكتوراه، ولا زلت وأنا أعيد قراءتها بين الحين والحين، أحس بما أحسّ به بطل (باسترناك): نشوة الإبداع.

أما عملي الإبداعي الثاني، فكان مسرحية (المغول) ذات المشاهد السبعة... ولقد بدأت الفكرة لدي بالعمل على إنجاز مسرحية ذات فصل واحد تتابع دراما التناقض الحاد بين موقف حاكم الموصل الملك الصالح الذي رفض الانحناء للسكين المغولية، وموقف أبيه المداهن، والمتملق، الذي سعى لاسترضائهم بأي ثمن... لكنني ما لبثت أن وجدتني مندفعاً، دونما إرادة مني أو قصدية مسبقة لكتابة سبعة مشاهد بدلاً من مشهد واحد، بسبب ما انطوى عليه تلاحق الأحداث من بعدٌ درامي قاد الموصل إلى إعلان المقاومة، وآل بها في نهاية الأمر إلى الانهيار ومقتل قائدها الملك الصالح وذبح ابنه الصغير واستباحة المدينة وتركها خراباً...

ها هنا أيضاً وجدتني أغرق في نشوة الإبداع، والقلم يقودني إلى تشكيل الحوار المركز، ورسم مصائر الشخصيات، المطابقة تماماً للواقعة التاريخية، ولكن من خلال تشكلها الذاتي الخاص الذي لا يأسره التاريخ.

لقد كنت في العمليتين صادقاً مع الوقائع التاريخية، لكن توظيفها في سياق عمل روائي أو مسرحي، يخرج بها من حدودها الضيقة إلى الفضاء الواسع الذي لا يهيمن عليه الفعل التاريخي، بقدر ما يسوقه إلى خيارات الشخوص ومصائرهم المؤلمة.

يتساءل المرء وهو ينفض يديه من المسرحية: ماذا؟ لقد انكسرت الموصل، وهزم قائدها (الصالح)... لقد انطوى البطل وهو يجابه تحدياً أكبر منه بكثير... فأين المغزى؟ والمغزى يكمن ها هنا بالذات، ففي تاريخ البشرية، وفي تاريخنا نحن بالذات، لحظات من التوهج، قد تمتد إضاءتها وقد تقصر، وهي على كل الأحوال ستنتهي كفعل تاريخي إلى الانطفاء...

ليس ثمة دوام في حركة التاريخ... إنها (المداولة) التي تحدث عنها كتاب الله... التحوّل الدائم من صيغة لأخرى، حكاية المسلسل الذي لا ينتهي من التوهج والانطفاء... وما دام الأمر كذلك، فيكفي أن تشتعل الإرادة البشرية... أن يُرد على التحدي، وأن يُستجاب لأمر الله: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [غافر: ٧٧].

إن ما حدث للموصل، والمصير المفجع الذي انتهى إليه ملكها (الصالح)، يحدث اليوم ولسوف يحدث غداً... وإن مغول القرن العشرين يحاصرون اليوم مدننا... يشددون قبضتهم على مواقعنا وحصوننا... يكفي أن نتذكر بيروت والمخيمات... يكفي أن نمد أبصارنا إلى أفغانستان وأرتيريا وأوغادين وأوغندا وكشمير والفيليبين... لكي نعرف أن (المسرحية) لا تأسر نفسها في بيئة محددة في الزمان والمكان...

إنها دراما كل زمن مسلم وكل مكان... قد تنتهي المقاومة بالانتصار، وكثيراً ما تحقق الوعد، وقد تؤول إلى الاندحار. ولكن شرف الإنسان المسلم يظلّ ـ مع استكمال الأسباب وليس قبلها بحال ـ فوق احتمالات الربح والخسارة، إن مداه أوسع بكثير، وأبعد بكثير... لأنه مستمد من كلمة الله الباقية!

لقد انطوت صفحة الرعب المغولي، وخرج الإسلام نفسه منتصراً، بعد أن طوت إرادته المغول... ولم يكن بمقدور الضمانات الجزئية والتفريط بالشرف أن تصنع الانتصار... لقد صنعه ـ والحق يقال ـ كل الذين ضحّوْا من أجل ألا ينحني هذا الدين لأية وثنية في العالم... وكانت الموصل وملكها (الصالح) من

بين من صنعوا الانتصار... تلك هي (الحكمة) التي يمكن أن يعثر عليها المرء وهو يتساءل عن مغزى المسرحية، وعن ارتباطها (الفني) (بالمعايشة التاريخية) و(التعصير).

ترى كم من اللحظات المؤثرة في تاريخنا الطويل، تحمل دراميتها ومغزاها، وتنتظر الأقلام التي تصنع منها المزيد من الأعمال؟!

وفي منتصف الثمانينيات جاء عملي الثالث: خمس مسرحيات من ذوات الفصل الواحد تحمل عنوان (العبور)... كانت يدي قد تمرّست على الكتابة المسرحية، ولذا جاءت هذه الأعمال الخمسة أشد إحكاماً من مسرحياتي العشر ذوات الفصل الواحد، والتي سبق وأن أنجزتها في العقدين الماضيين (معجزة في الضفة الغربية) و(خمس مسرحيات إسلامية ذات فصل واحد).

لقد مارست في بنائي لهذه المسرحيات الخمس عملاً تجريبياً في (العبور) وآخر من تصميم (المسرح داخل المسرح) في (التمثيل) والرمزية في (التحدي)... والمسرحيات جميعاً تحمل بعداً التزامياً بطبيعة الحال، وقد يتساءل القارئ أو المشاهد، وهو يتابع هذه المسرحيات، عن هذا البعد الالتزامي، بعبارة أخرى: عن القيم الإيمانية التي تدعو إليها وتبشر بها وتمسّها من قريب أو بعيد... وهو تساؤل في محله تماماً: (فالتحدي) و(الظن) و(التمثيل) و(الاضطهاد) تتحرك باتجاه آخر، هو ما سبق أن أسميناه في (مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامي) «الهدم الجمالي المؤثر»، فإن معالجة القيم الإيجابية ليس هو ـ بالضرورة ـ الصيغة الوحيدة التي يمارس من خلالها الالتزام ـ بشروطه الفنّية بطبيعة الحال ـ فهنالك بالمقابل ما يتحتم أن يكون: تدمير القيم والمواقف والممارسات والتصورات السلبية، وإعلان الحرب عليها.

وطبيعي أن تكون البدائل غير المعلنة، مستمدة بالضرورة من عالم الإيمان الوضيء، الرحيب... طبيعي أن يتشبث المرء، بعد قراءة أو مشاهدة أية مسرحية تتخذ هذا المسار، بعالم مطمئن آمن متفائل سعيد، لا تحاصره

المخاوف، ولا تسوده الأهواء والظنون، عالم لا يمارس القتل فيه بالنزوة، أو الخطأ، ولا ينسحق فيه الإنسان ويساق إلى عيادات الأمراض النفسية، لأنه يجد جملته العصبية مطحونة كل يوم، بين مطرقة الظلم وسندان الابتزاز.

في (التحدي) يتمنى البطل أن يحيا بلا خوف أو قلق، أو وسوسة، يمارس اللعب وهو مطمئن تماماً إلى أنه ليس ثمة ما يتهدده، أو يخدعه ويفاجئه من الخلف مما لم يكن في الحسبان، حتى لو كان رجلاً ميتاً لا يسمع ولا يرى!!

و(الظن) تحمل مغزاها الواضح الذي حذرنا منه كتاب الله ﷻ، وجعل بعضه إثماً: لأنه يسوق النيات والأفعال فيما لا يجب أن يكون.

و(التمثيل) تحقير لتعاطي الخمرة، التي تقود هي الأخرى إلى إثم أكبر، بل إلى القتل أحياناً.

و(الاضطهاد) تعرض نموذجاً من مئات ممن تعجّ بهم الشوارع، والمقاهي، والدور والأسواق... والعيادات والمستشفيات في عالمنا هذا، ممن سحقهم عصر لم يعد يأبه للإيمان وللقيم التي يغرسها ويحميها.

أما (العبور) التي سميت بها المجموعة، فتأخذ سياقاً آخر... إنها أشبه بديالوج بين الماضي والحاضر والمستقبل، تحكي مفردات الفعل الدرامي عما كان، وعما هو كائن، وعما يجب أن يكون... إذا كنا قد عبرنا يوماً إلى العالم... إذا كنا قد اجتزنا بحار الدنيا إلى أطراف الأرض، فما الذي يجعل عدونا يعبر إلينا اليوم فيضيق علينا الخناق؟... لقد جرّبنا أخيراً أن نتجاوز المعادلة الباهظة، في معركة الاجتياز المصري... أن نعبر، ولقد نجحت التجربة، ولو جزئياً... فهل سيتاح لهذا الجيل، أو الأجيال التالية أن تواصل العبور إلى الآخر، ليس بقوة السلاح، حيث الفارق الكبير بيننا وبينهم، وإنما بقوة الكلمة... بقوة العقيدة... بقوة مشروعنا الحضاري، بعد إذ تساقطت كل المشاريع الوضعية الأخرى في العالم؟!

تجمعت لدي، عبر هذا العقد، كالعادة، مجموعة من المقالات القصيرة التي تلاحق الوقائع والخبرات والأحداث وتقدّم مرئياتها من خلال المنظور

الإسلامي للكون والحياة والإنسان والمجتمع... أسوةً بتلك المجموعات التي سبق نشرها في العقود الماضية، من مثل: (كتابات إسلامية) و(آفاق قرآنية) و(مؤشرات إسلامية في زمن السرعة) فها هي ذي المجموعة الرابعة، التي بلغت هي الأخرى حوالي الخمسين مقالاً قصيراً، تصدر عن دار الثقافة في الدوحة بعنوان: (في الرؤية الإسلامية)، ثم يعاد نشرها في دار ابن كثير ببيروت، وكانت قد نشرت متفرقة في عدد من الصحف والمجلات.

كما تجمعت لدي ـ في ذلك العقد ـ جملة من البحوث التي تتابع هي الأخرى الوقائع والخبرات والأحداث، وكلها تعرض عبر مساحة واسعة، بخلاف المقالات القصيرة... ولقد صدرت تلك البحوث عن دار الثقافة في الدوحة بعنوان (حوار في المعمار الكوني)، وأعيد نشرها في دار ابن كثير ببيروت...

ولقد تضمن الكتاب المذكور الموضوعات التالية (البعثات التعليمية بين السلب والإيجاب) (حوار في المعمار الكوني) (خرافة الأسرة أم خرافة الفكرة) (سخف الفلسفة الوضعية) (العقدة السوداء) (غياب البديل) (رأيت الإسلام ولم أر مسلمين) (لعبة نقل المتاعب) (شيء من الفكر الوضعي) (دعوة إلى مدّ الحياة) (موقف إزاء الإنسان: مقارنة في السلوك الحضاري) (حين يتساقط الوضعيون) (حول الاجتهاد: الضرورات والحوافز ووسائل التحقيق)...

والبحوث في معظمها مما يندرج في سياق الفكر المقارن بين الخبرتين الغربية والإسلامية، وهي تعبّر عن محاولة جادة لتجاوز صيغ الدفاع عن النفس، قبالة هجمات الفكر الغربي، والتحول بدلاً من ذلك إلى مبدأ (الهجوم خير وسيلة للدفاع)، حيث تكشف تلك البحوث عوار الفكر الغربي، وتناقضاته، ونسبيته وتعرّضه في نهاية الأمر للسقوط.

أما كتاب (الله أو الطاغوت)، والذي قدّر له أن يطبع في دار السلام بالقاهرة عام (٢٠١٣م) فقد تضمن جملة من المسائل الأساسية في التصوّر الإسلامي، عبر جملة من البحوث المترابطة التي حملت العناوين التالية: (الله

أو الطاغوت)، (الظلم العظيم)، (أبجديات حول خرافة فصل الدين عن الدولة)، (دعوة إلى الصعود) (الكاريكاتير القرآني)، (عن العالم في تاريخنا) (بين سيد والمودودي)، (كلمات في الدين)، (علم الهوى وعلم النبوة)، (ما يريده هذا الدين).

ولقد صدّر الكتاب بالفقرات التالية التي تعكس توجهه الأساس: (عندما كنت طالباً في قسم التاريخ، في مطلع الستينيات، كان أستاذ علم الاجتماع، لسبب ما، يسعى في كل محاضرة، إلى تأكيد مسألة أن القرآن جاء لكي يطلب من الناس أن يضعوا السلاح إزاء السلطات التي تحكمهم، وإلى ضرورة طاعة أولي الأمر منهم وإلا خرجوا من حظيرة الإيمان... وكان يقتطع بعض الشواهد القرآنية لكي يؤكد وجهة نظره، وفي كل مرة كان يتلو الآيات مضيفاً إليها أو منتقصاً منها... وكان هدفه من وراء هذا أن يصوّر الإسلام كما لو كان ديناً سلبياً يخلق جماعات ممن اعتادوا لوي رؤوسهم لكل سلطة، وانعدمت في نفوسهم أية قدرة على الرفض والمجابهة.

وكم تمنيت، وأنا أتابع أطروحات القرآن الحاسمة بصدد العلاقة بين الجمهور والسلطة، وهي أطروحات ممتدة، متشابكة، مفروشة على مساحات واسعة، كما سنتابع في فصول هذا الكتاب...

تمنيت أن يرجع بي الزمن القهقرى إلى أيام الدراسة الجامعية، وأن ألتقي بالأستاذ الذي كان يتشنج معتمداً على جانب ضيق محدود من الصورة، لا يفسر شيئاً... أن أرجع إليه لكي أقول له هذا، أو أقنعه على الأقل بقراءة كتاب الله، بالتجرد العلمي المطلوب، مرةً واحدة فقط)... والأمر نفسه ينسحب على كل أولئك المتشككين، من العلمانيين، وأنصافهم، والقائلين بضرورة فصل الدين عن الدولة!!

وجاء عقد التسعينيات لكي يشهد هو الآخر تأليف عشرين كتاباً آخر... ولقد بدأت رحلتي معه منذ بدايات عام (١٩٩١م)، حيث تنزل عليّ ـ لا أدري لماذا ـ إلهام الشعر، بعد أن كنت قد جفوته، أو جفاني، بعبارة أخرى السنين

الطوال... فإذا بي أتفرغ له على مدى شهرين أو ثلاثة، وأنجز مجموعة من القصائد الغنائية المؤثرة، بصيغتيها العمودية والحرّة، أتيح لها أن تنشر بعد سنوات قلائل في دار الوفاء المصرية، ثم يعاد نشرها في دار ابن كثير في بيروت، بعنوان: (ابتهالات في زمن الغربة).

ولهذا الديوان قصة أجدني مضطراً إلى إيجازها، لأنها تلقي ضوءاً على الموضوع: لم أكن مقتنعاً بالمستوى الفني لـ (جداول الحب واليقين)... قصائد قادمة من الستينيات، بعضها من عمق زمني أكثر بعداً... كنت يومها مبتدئاً، وكان طموحي أكبر بكثير من قدراتي... والخندق ظل قائماً غير معقود فوقه بجسر.

أحياناً كنت أعبر... حالات استثنائية ـ كانت ـ لا يقاس عليها... بينما ـ في معظم الأحيان ـ كانت الهوة العميقة تضيع صوتي، فأشعر بحزن عميق...

هذه واحدة من أقدار الأدباء والمفكرين... وهم يظلون ـ حتى آخر لحظة من أعمارهم المنصرمة ـ غير قادرين على التحقق بالوفاق المرتجى بين القدرة والطموح... على أن يجعلوا الحلم حقيقة واقعة... توفيق الحكيم ـ الذي قال هذا أكثر من مرة ـ لم يكن أوّلهم ولا آخرهم... يقيناً...

يوماً... قال لي صديق أديب: أن عليَّ أن أكفَّ عن قول الشعر، وأن أنصرف ـ إذا أردت أن أكون أكثر جدية ـ للكتابة في الفكر والمنهج والنقد والتاريخ... كان يمكن أن تكون نصيحته فرصة للخروج من دائرة العذاب، وأنا لا زلت أذكر ساعات الاحتراق الصعبة التي كنت أجتازها عندما كنت أكتب هذه القصيدة أو تلك... بينما في المجالات الأخرى لم أكن أعاني عشر معشار هذا الذي كنت أعانيه في دائرة الشعر... لكنه الهاجس الذي يضغط على الجملة العصبية للإنسان، ويرغمه إرغاماً على محاولة الدخول إلى المملكة التي لا تفتح أبوابها بيسر للطارقين.

نصيحة صديقي الأديب كان يمكن ـ أيضاً ـ أن تكون تحدياً واستفزازاً... وقد اخترت الثانية، وقررت أن أحاول كرةً أخرى... غير متكلف قول الشعر هذه

المرة... فلم أكن أنا الذي أستدعيه، ولكنني أتركه لكي يستدعيني... وحينذاك يمكن أن يصير الإبداع الشعري دفقاً عذباً، أو عذاباً متدفقاً لا يتعسر فيه المخاض، وتتولد في معاناته الأبيات أكثر يسراً وأقدر على حمل الخطاب والتحقق بمطالبه الفنية.

استهوتني الحالة الجديدة هذه، وهي بالتأكيد أكثر انسجاماً وتوافقاً مع طبيعة العمل الشعري، فكنت أنتظر السنة والسنتين لأكتب قصيدة أو اثنتين... لكنني في شتاء عام (١٩٩١م) وجدت النداء يزداد إلحاحاً، وخفقان الشعر ينبض بعنف في القلب والدم والوجدان... فاستجبت للنداء، متذكراً صديقي ذاك، وكتبت العديد من القصائد... واستطعت ـ أيضاً ـ أن أنفذ ما كنت أحلم به: الرباعيات التي تتدفق بعفوية لكي تجعل الشعر قبالة كل شيء مؤثر أو جميل في هذا الوجود... حالة من التوافق الكوني العذب الذي أراد هذا الدين أن يضع الإنسان فيه...

معظم القصائد الأخرى كانت إبحاراً في الاتجاه نفسه... تداعيات روحية، وخطاب وجداني للمؤمن المتغرب في هذا العالم، والذي يكافح من أجل الخلاص... مؤمِّلاً اليوم الذي يتناظر فيه كل شيء ويلتقي تحت خيمة المحبة في الله... حيث يصير كل موجود في هذا العالم متوجهاً إليه، متفيئاً ظله الظليل.

قصائد قليلة تعاملت مع هذه المفردة أو تلك، من مفردات الحدث العام أو الخبرة الذاتية، لكنها هي الأخرى آلت في نهاية الأمر إلى الساحة نفسها التي أريد للديوان كله أن يتشكل بكلماتها...

ليس ثمة في المنظور الإسلامي للإبداع تجزؤ أو انفصال... هنا حيث تزول الفواصل وتنهار الجدران، وتصير كل خيمة أو تجربة رافداً يصب في النهر الواحد الآيل إلى الله!!

ربما تكون هذه واحدة من أكثر الملامح أصالة في الشعر الإسلامي... فإذا كان ديواني المتواضع هذا قد عبر عنها بقدراته المحدودة، ونفذ قدراً من

المقاربة لمطالبها؛ فإنه يكون قد حقق مهمته التي تشكل من أجلها... وهذا حسبي.

في العام التالي بدأت رحلتي الطويلة مع الرواية التي كنت أحلم بإنجازها منذ زمن بعيد: (السيف والكلمة)... فبمجرد أن وضعت في ذهني تأسيساتها الأولى... الشخوص والوقائع والفضاء الروائي، وبدأت الكتابة، راحت هي التي تقود خطواتي، وتتشكل ذاتياً، ربما خارج إرادتي المنظورة... كنت أخرج صباح كل يوم، ومساءه، إلى إحدى الكازينوات الهادئة في مدينتي (الموصل)، أو إلى حديقة الشهداء، حيث أخلو لكتابة فصل أو فصلين من الرواية التي سيقدّر لها أن تصير أربعين فصلاً... وكنت أندمج في العمل... وأنسى نفسي... أستغرق فيه حتى النخاع... وأنا أعاني في حالة من السكر الحلال الذي يتدفق فيه الحوار، وتتشكل الحبكة الفنية وينساب السرد، بلغة شاعرية شفافة، تحركت هي الأخرى فاختارت ثلاثة ضمائر متغايرة للتعبير عن مأساة الغزو المغولي لبغداد، عبر أسابيع قلائل، وإرادة المقاومة المدهشة التي تصدت له، وقدمت الكثير من التضحيات...

لقد كانت (الإعصار والمئذنة) خطوة على الطريق... أما هذه فإنني حاولت فيها، ما وسعني الجهد، أن أنجز عملاً يضيف قيماً فنية جديدة... وأركز على العبارة الأخيرة، لأن الأدباء الإسلاميين بحاجة إلى هذه... إلى الإضافة الفنية التي لا يولونها ـ للأسف ـ الاهتمام الكافي.

تحاول الرواية توظيف الغزو المغولي لبغداد من خلال تنامي الحدث عبر أربعة أصوات، وبضمائر متغايرة يغيب فيها الراوي تماماً (والذي تختبئ خلفه في معظم الأحيان، اقتحامات فجة للروائي نفسه)، وذلك في محاولة لتنفيذ معمار أكثر حداثة في العمل الروائي.

لقد تم كسر حاجز الزمن وتسلسله الرتيب، ولكنه لم يغيّب، كما يحدث في بعض الأعمال الروائية في الغرب، إنه حاضر في نسيج الحبكة، وليس من

الضروري أن يكون هذا الحضور كعقرب الساعة الذي يدور على نفسه ويظل يدور...

الرمز... وظف هو الآخر في (السيف والكلمة)... ليس رمزاً تجريدياً على أية حال، ولكنه مكسو لحماً ودماً... إن الأبطال المحوريين الأربعة في الرواية هم في حقيقتهم رموز مجسدة لقوى الإنسان في مجابهة المصير... شخوص تعيش الحياة، وتنبض بالهمّ والوجع، وتأكل وتتنفس، وتصارع وتحلم، وتتعثر وتقوم: العقل، والروح، والوجدان... كلها تؤول إلى الضياع في نهاية الأمر، لأن الموقف الأحادي قبالة المصير محكوم عليه بالهزيمة... ليس بصيغة مجابهة يتحكم فيها القدر بخناق الإنسان ويسحقه، كما هو الحال في التراجيديا اليونانية (الكلاسيكية)، لكن بصيغة اختيار قد يكون خاطئاً، وعلى صاحبه ـ من ثم ـ أن يتحمل نتائج عمله.

هذا المنظور الفني الصرف يعكس معادلاً موضوعياً إسلامياً: حرية الإنسان، والعدل الإلهي المطلق الذي يرتب الأسباب على المسببات... مهما يكن من أمر فإن الذي ينتصر في (السيف والكلمة) هو واحد فقط من بين أربعة شخوص طوتهم المجابهة الصعبة، لماذا؟ لأنه استطاع أن يتجاوز أسر الأحادية، وأن يتحقق إنسانياً وفق مطالب الشخصانية الإسلامية التي نادى بها هذا الدين.

مرةً أخرى... يحدث هذا من خلال نبض البطل ومعاناته وتعامله مع الموجودات والخبرات والأشياء والمرئيات والتحديات، وليس من خلال تجريد ذهني صرف. حاولت أيضاً أن أوظف الجغرافيا والتاريخ قدر ما أطيق... لقد درست بإمعان جغرافية بغداد بأحيائها ودروبها وجسورها وأسواقها ومدارسها وملاعبها وحوانيتها... الخ... درست أيضاً تاريخ بغداد لحظة الغزو المغولي... عادات الناس وتقاليدهم وطبائعهم وأزياءهم وطعامهم وشرابهم... جدّهم وهزلهم... خفقانهم الاجتماعي هنا وهناك...

لم أرد طبعاً أن أكتب عن تاريخ بغداد وجغرافيتها، ولكن جعل الفضاء

الروائي أكثر صدقاً فنياً... وكان عليّ أن أعرف حتى مقالات المتصوفة يومها، وتقاليد العلماء والطلبة والدارسين.

استعرت من (الآخر) بعض الخبرات الفنية... ولم لا؟ ما دام الهدف هو توظيف التقنيات لانضاج عمل فني يطمح أن يكون إسلامياً، ويمكن أن أشير هنا إلى واحدة من تلك الخبرات: ضمير الشخص الثاني الذي اعتمده الأديب الفرنسي المعاصر (ميشيل بوتور)، والذي يقول عنه أنه يؤدي دوراً سحرياً، وأنه يدعو القارئ إلى المشاركة بنشاط في حركة القصة... والحق أنني وجدت في هذا الضمير ليس تنويعاً فحسب لضمائر الشخوص في (السيف والكلمة) ولكنه ـ فضلاً عن ذلك ـ فرصة مناسبة تماماً للمناخ الدرامي، والمتوتر، والسريع، الذي كانت الشخصيات الأساسية تعيشه.

استمر العمل في الرواية ـ على تقطع ـ عدة سنوات، وعندما أتممت إنجازها فوجئت بتضاهي الكثير من مفرداتها مع ما شهدته بغداد نفسها على أيدي الغزو الأمريكي عام (٢٠٠٣م)... كل ما قلته في الرواية تحقق بعد واقعة الاحتلال... أصابتني الدهشة... صحيح أن الشاعر والروائي والرواية هي نقل شعري للعالم كما يؤكد (غابرييل ماركيز) يملكان القدرة على التنبؤ بدرجة أو أخرى... ولكن ليس إلى حد التطابق في النبض والمعطيات... على أية حال فتلك مسألة أخرى لا بدّ من تركها للنقاد والقراء لكي يقولوا كلمتهم فيها.

صدرت الرواية عام (٢٠٠٧م) عن المركز الثقافي العربي في الدار البيضاء والدار العربية للعلوم في بيروت، مصدرة بعبارة فيلسوف التاريخ الايطالي المعروف (بنيديتو كروتشه)، (التاريخ كله تاريخ معاصر)، ومذيّلة على صفحة غلافها الخلفي بالعبارات التالية: (عن عراق الورّاقين ومدارس العلم، عن عراق المستنصرية وشيوخ العلم والطلاب الشغوفين في سبر العالم وما خلفه، عن عراق مولانا عبد القادر الجيلاني وشيوخ التصوّف، من خلال العراق الذي يغزوه هولاكو قاتلاً مدمراً صرح الحضارة والعلم، نرى ملامح عراق اليوم الذي يتعرض للمحنة مرةً أخرى. بهذه الروح يكتب عماد الدين

خليل هذه الرواية، التي في كل أجوائها تستمد من التاريخ ما يعين على قراءة حال العراق اليوم، الذي يتعرض مرةً أخرى للغزو، ولحرب فتنة تهدد بأبشع الخراب).

استمر عملي في مجال الإبداع الأدبي، فوجدتني مندفعاً لإنجاز مجموعتين من القصص تحمل أولاهما عنوان (كلمة الله) والأخرى (رحلة الصعود التي لا نهاية لها)... كنت سكراناً بخمرة الإبداع الحلال، ووجدتني أضع يدي بسهولة بالغة على عدد من الموضوعات (الواقعية) لكي أمضي قدماً، عبر جلسات متطاولة في المقاهي والحدائق العامة، في تحويلها إلى أعمال قصصية، أتيح للمجموعة الأولى (كلمة الله) أن تنشر في دار ابن كثير في بيروت عام (٢٠٠٦م)، وأرسلت المجموعة الثانية (رحلة الصعود التي لا نهاية لها) إلى الدار نفسها، بعد سنوات، وستصدر قريباً بإذن الله.

تضمنت (كلمة الله) القصص التالية: (الاستقبال) (كلمة الله) (اللغز المغربي) (التحدي) (الوهم) (الساطور) (مهمة صعبة) (حارس ليلي). وللأسف فإن القرص الذي أرسل للناشر كانت قد سقطت منه قصتا (كلمة الله) و(حارس ليلي) ولعل ذلك يتم تداركه في الطبعة القادمة بإذن الله.

وتضمنت (رحلة الصعود التي لا نهاية لها) القصص التالية: (الطبيب والأم) (رحلة الصعود التي لا نهاية لها) (الفرصة الأخيرة) (الموت شبعاً) (جماد) (الأشباح) (الخدعة) (مذكرات مدرس مضطهد).

لقد ترددت طويلاً في الإقدام على كتابة القصة القصيرة، رغم أن موضوعاتها تجمعت لدي، ورغم أن إغراءاتها كانت أشد من أن تقاوم. والسبب يكمن في أن (القصة القصيرة) هي واحدة من أشد الأنواع الأدبية صعوبة وتعقيداً، بسبب ضيق مساحتها، ومطالبها المتشابكة، بدءاً من العقدة وتنامي الحدث، مروراً باللغة المناسبة وضرورات الاقتصاد والتركيز.

لقد انحرف الكثيرون عن هذه المطالب ذات اليمين وذات الشمال... بعضهم استغنى عن العقدة، بسبب عجزه عن اكتشافها أو التعامل معها،

فانزلقت أعمالهم باتجاه نمط من المقالة الأدبية لا يحمل من القصة القصيرة سوى اسمها، وربما مساحتها فحسب. بعضهم الآخر ألحّ في الإغماض من أجل تغطية عجزه هذا... بينما راحت فئة ثالثة تبحث عن العقد التي لا رصيد لها في عالم الحسّ أو التجربة أو الحياة.

لم أشأ أن أقع في منزلقات كهذه، لهذا آثرت الانسحاب، أو في الأقل، التعليق الزمني بانتظار اليوم الذي أتفرغ فيه للمحاولة بعد أن تكون قد نضجت فعلاً على نار هادئة... وفي رأيي أن احترام مطالب القصة القصيرة، كما صممها المهندسون الكبار في الغرب والشرق، وعلى رأسها العقدة، يعدّ ضرورة من الضرورات، ليس فقط لتجاوز النزعة الهدمية التي تنطوي عليها بعض تيارات الحداثة الإبداعية، في سعيها المحموم لتدمير الثوابت الموضوعية والجمالية معاً، حيث يصير التعبير هدفاً بحدّ ذاته. وإنما لاحترام وتقدير حاجة القارئ الذهنية والنفسية إلى المتعة، والمشاركة، والتوق إلى الاكتشاف، والتوقع، والعثور في نهاية الأمر على الجواب.

لا بدّ من إعادة القصة إلى وضعها الطبيعي... إلى رحمها الذي تخلقت فيه... وبالتالي لا بدّ من ردّ ما سلبه منها بعض الحداثيين وبخاصة مبدأ (المتعة) في زمن الميكانيك الصارم والتكاثر بالأشياء، حيث تصير المتعة الفنية ضرورة ملحة للإنسان المعاصر، وإلا ازداد تعاسة ونكداً وشقاء.

المجموعتان القصصيتان (واقعيتان) بالمفهومين النقدي الاصطلاحي، واللغوي... فعلى المستوى الأول تنتميان إلى (الواقعية الإسلامية) بما أنها لا تكتفي بالتعامل مع الخبرات الواقعية فحسب، بل تحاول أن تنظر إليها، وقد توظفها لحساب الرؤية الإسلامية، دون مباشرة أو تكلف أو افتعال، وإنما بنوع من الالتزام المرن ـ إذا صح التعبير ـ حيث تومض الرؤية من بعيد، ومن خلال خفقان الشخوص أنفسهم، ونبض الوقائع والأحداث.

وهما على المستوى الثاني واقعيتان أيضاً... بمعنى أن كل قصة استمدت في معظم حلقاتها وشخوصها، من وقائع تشكلت، بالفعل، وشهدت بعضها

بنفسي أو شاركت في جانب منها، أو سمعت بها من آخرين إلى حدٍّ التواتر. وهذا لا يعني بطبيعة الحال تجريد هذه القصص بالكلية من حلقات متخيلة، ولمسات مضافة هنا وهناك، بما هو ضروري على المستوى الفني الصرف للتحقق بمطالب هذا النوع الأدبي الصعب.

تحوّلت بعد ذلك لإنجاز عملين مسرحيين كانا ـ هما الآخران ـ يلحّان عليّ منذ زمن بعيد...

فأما أولهما، فكان بعنوان (الهمّ الكبير) وهي تنفذ من خلال أربعين مشهداً عرضاً دراميأ للهمّ الكبير، الذي حمله الناصر صلاح الدين على كتفيه من أجل تحقيق الهدف الذي استشهد دونه عشرات الآلاف من المسلمين: تحرير القدس من قبضة الغزاة الصليبيين، واسترجاع المسجد الأقصى... ومشاهد المسرحية مستمدة من أدق المصادر العربية والغربية لوقائع الجهد المتواصل الذي قاد المسلمين إلى فلسطين... محاولة لكسر القشرة الخارجية للواقع التاريخي وصولاً إلى عمقها الإنساني ونبضها الوجداني، عبر حشد كبير من الشخوص التي كانت تحب وتكره... ترضى وتسخط... تهدأ وتثور... تخلص وتخون... ترضى بالقليل وتطمح للكثير... تقف في مواجهة اللحظة التاريخية، وتمضي بقوة مستجيبة لنداء السنن والنواميس... محاولة لتسليط الضوء من الداخل ـ إذا صح التعبير ـ والذي، بما يدور في منحنياته، تتشكل المصائر والمقدرات... لا بدّ من قراءة المسرحية، إذا أريد لنا أن نتعرف على البعد الحقيقي والعمق الإنساني للهمّ الكبير الذي حمله الناصر على كتفيه.

وقد نشرت المسرحية في دار ابن كثير ببيروت عام (٢٠٠٨م)، مصدّرةً بأهم مواردها التاريخية العربية والأجنبية، وبلوحة بشخوص المسرحية وفق تسلسل الظهور... وقد مارست عبر مشاهدها الأخيرة قدراً من التجريب، واعتمدت لغة شاعرية شفافة لكي تعكس ـ بصدق ـ نبضها الإنساني.

أما ثانية المسرحيتين، فكانت بعنوان (التحقيق) وهي عرض درامي لمأساة الإفناء العقدي والجسدي والثقافي، الذي تعرض له المسلمون في

الأندلس على يد محاكم التحقيق، ومن ورائها الكنيسة والدولة الإسبانيتين، والبابوية في إيطاليا، وذلك بعد سقوط آخر المعاقل الإسلامية غرناطة، والتي أتت على ما يزيد على المليوني مسلم حرقاً وتهجيراً وتنصيراً... هذا فضلاً عن إعدام ثقافة مترعة بالخصب والعطاء يمتد عمرها لثمانية قرون، وتنتشر على مساحة آلاف المخطوطات في شتى مناحي الفكر والعلم والمعرفة... واحدة من أبشع عمليات التصفية في التاريخ البشري، تولى كبرها مثلث الملك فرديناند وإيزابيلا والكاردينال خمنيث ورجال الدين الذين اتهمهم مؤرخو إسبانيا المعاصرون بانعدام الدين والأخلاق والشرف.

متابعة محزنة لمصير الثورة التي شهدتها غرناطة في مجابهة السكين الصليبية، والمقاومة الإسلامية التي تحصنت في جبال البشرات، جنوبي غرناطة، والتي انتهى بها الأمر إلى الذبح بطريقة الإبادة الجماعية التي تمرس عليها الغربيون، والتي سلطها عليهم قادة الثالوث المذكور وجندهم المتوحش المنسلخ عن خصائصه الآدمية...

إن ما شهدته وتشهده ديار الإسلام في العصر الحديث، على يد القوى الغربية المتسلطة وعلى رأسها أمريكا... يؤكد المقولة المعروفة من أن التاريخ يعيد نفسه... ولاختبار ذلك لا بدّ من قراءة هذه المسرحية التي أهديت إلى أحفاد فرديناند وإيزابيلا في أوربا وأمريكا، وصُدِّرت بهذه الفقرات ذات الدلالة: (في الزمن السيئ الذي يُرمى فيه المسلمون كذباً وزوراً بداء الغرب المزمن: الإرهاب، واغتيال الحرية، وذبح حقوق الآخر، وسحق المغلوب...

ليس ثمة أفضل من إعادة فتح ملفات التاريخ لكي يرى الغربيون بأم أعينهم من هو الإرهابي في هذا العالم؟ ولكي يستعيد المسلمون المنهزمون الثقة بالقيم الإنسانية النبيلة، التي جاء دينهم العظيم لكي يحميها من الاغتيال). وقد صدرت هذه المسرحية ذات الفصول الأربعة، هي الأخرى، عن دار ابن كثير في بيروت عام (٢٠٠٨م).

يومذاك أغراني موضوع مبتكر في التعامل الروائي مع سيرة رسول الله

ﷺ يتمثل بمتابعة وقائع الحروب التي خاضها مع خصوم هذا الدين، والنزول إلى عمقها الإنساني، ونبضها الوجداني، من خلال مذكرات يدوّنها شاهد عيان لما كان يجري يومها... دقيقة بدقيقة وساعة بساعة... تحمل عنوان (مذكرات جندي في جيش الرسول ﷺ)، وتمضي عبر ثلاثين حلقة لتغطية معظم الخبرات الحربية التي عاينها، وشارك فيها، جندي من جند الرسول ﷺ يدعى سهيل بن حذيفة الأنصاري...

تبدأ المذكرات بكيفية انتمائه لهذا الدين، وهو ينصت مع جموع المحتشدين، قبالة الداعية الشاب مصعب بن عمير رضي الله عنه وهو يقف على جذع نخلة مقطوعة، يطفح وجهه بفرح يصعب وصفه، ويقين تعجز أن تمسه الكلمات، وكان يمسك بيمينه غصن شجرة يشير به إلى الأفق البعيد وهو يقرأ: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل: ٨ ـ ١٦].

وتنتهي المذكرات، بعد عرض مؤثر لمعظم الوقائع التي شارك فيها سهيل بن حذيفة، وبلغة شاعرية عذبة، بهذا المنولوج الداخلي الذي يخاطب فيه البطل نفسه وهو يعاني المرض والشيخوخة: (كان ﷺ، ونحن نجهد في حفر الخندق يؤملنا يأن خيولنا ستطأ في يوم قريب ديار العالم القديم، وتتهاوى تحت وقع سنابكها عروش كسرى وقيصر، وستُمرغ بأسيافنا أنوف كانت تستعلي على الناس زيفاً وخديعة وكذباً، ها هم جندك وأصحابك يمضون قدماً صوب المدائن... إلى إيوان كسرى المتعالي في الفضاء، لتحقيق الوعد النبوي الصادق. وأنا أتقلب بين همومي الصغيرة وهم الأمة الكبير، أتذكر لحظات الصدام الأول مع الشرك في معركة بدر... الجيش الصغير الذي لم يكن

يتجاوز الثلاثمائة مقاتل، وهو يجابه طواغيت قريش الذين يفوقونه عدة وعدداً، فينتصر عليهم في معركة الفرقان).

الجدول الصغير صار نهراً... دفقاً متواصلاً من الخير والعطاء، ينطلق شمالاً لكي يطهر الأرض من رجس الشرك، ويحرر العباد من قهر الطواغيت والأرباب. ولأول مرة رحت أدعو الله ﷻ أن يمدّ في عمري... أن يمنحني مزيداً من الأعوام، فقط لكي تكتحل عيني بزوال دولتي الفرس والروم، وسقوط عروش كسرى وقيصر، وارتفاع راية التوحيد في مشارق الأرض ومغاربها، لكي تخرج الناس من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ورحت أردد مع نفسي، وأنا أغادر مسجد رسول الله ﷺ. مستقبلاً مطالع الفجر القادم في الأفق الشرقي: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

صدرت الرواية عن دار وائل في عمان عام (٢٠٠٨م).

مضيت في أعمالي الإبداعية قدماً فأنجزت عبر ذلك العقد كتابي الموسوم: (من أدب الرحلات)... وأدب الرحلات كالسيرة الذاتية شحيح هو الآخر في مكتبتنا الإسلامية، رغم أن أجدادنا قدموا فيه الكثير... ونحن اليوم نختزل الزمن فتنقلنا وسائط النقل السريع من مكان إلى مكان في يوم أو بعض يوم، وهي تطوي المسافات وتضع بين أيدينا (بانوراما) البلدان والشعوب... وما هي إلا أن نحفز ذاكرتنا قليلاً، ونستجيش مخزونها لكي نحيل (التجربة) إلى قوة من الإبداع الأدبي تتوق إليه جماهير القراء. ربما أكثر مما تتوق إلى الألوان الأخرى من الآداب والفنون.

ها هنا يجد المرء نفسه قبالة المؤرخ والفنان معاً... القدرة الدقيقة على

الالتقاط والتسجيل، والرؤية الانطباعية التي تعرف كيف تتلقى المرئيات وتتعامل معها بأقصى درجات الحساسية والصفاء.

فأدب الرحلات ليس بحثاً في التاريخ ولا وصفاً جغرافياً... كما أنه ليس قصة قصيرة، أو رواية، أو قصيدة شعر... وإنما هو هذا وذاك، ومن ثم يكتسب خصائصه المتميزة، وطعمه العذب، وقدرته في الوقت نفسه على تلبية مطالب المؤرخين والجغرافيين والأدباء الذين يطمحون لمعاينة الوقائع، وسبر غورها العميق.

إنها حركة في الطول والعرض والعمق... تجوال في جغرافية الأماكن والظواهر والأشياء... وإيغال في النبض الذي يكاد يغيب عن العيان، لكنه ما يلبث أن يمنح سخاءه لأولئك الذين ينصتون جيداً للأصوات البعيدة، وهي تتشكل تحت جلد الظواهر والخبرات... وأدب الرحلة في بدء الأمر ومنتهاه، هو محاولة لاكتشاف الأشياء... والتعرف على تكوينها الذي يبدو أحياناً ككتل الجليد العائمة في المحيطات والبحار، لا يظهر منها سوى العشر، وتبقى الأعشار الأخرى مغيبة تحت الماء...

لقد أتيح لي بفضل من الله ونعمه أن أرحل إلى بلدان عديدة وديار شتى، وأن أدوّن مشاهداتي وأرسم انطباعات الأشياء على صفحات العقل والحسّ والوجدان. ولأن إسطنبول والخرطوم بالذات، من بين العديد من البلدان الأخرى تقدمان (الوعد) في زمننا الراهن هذا... وتمنحان ألواناً من زاد الفكر والروح... كانت هذه الوقفة السريعة تحت ظلالهما السخية... ولأن مكة والمدينة، تقدمان وعداً باتجاه آخر ينوء القلم بحمله... كانت محاولة الحديث عن فضائهما اللامتناهي.

رحلة إلى إسطنبول في خريف عام (١٩٩٢م) للمشاركة في المؤتمر العالمي الثاني حول فكر بديع الزمان النورسي... وأخرى إلى الخرطوم في شتاء عام (١٩٩٣م) بدعوة من جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية... وثالثة إلى

إسطنبول في خريف عام (١٩٩٥م) لحضور المؤتمر العالمي الثالث حول النورسي... ورابعة لأداء فريضة الحج في ربيع عام (١٩٩٨م).

وما هي إلا محاولة متواضعة للمساهمة في هذا اللون من الأدب الذي ينتظر المزيد في زمن تشهد فيه حركة الأدب الإسلامي المعاصر تدفقاً في تياراتها الخصبة يقول للإنسان الضائع: ها هو ذا صوت الإيمان العف، والكلمة المتوضئة بالطهر والنور... يجيئان في موعدهما تماماً لكي يلاحقا أدب الكفر والضلال والدجنة والفجور الذي ظهر فساده في البّر والبحر، بما كسبت أيدي الأدباء الذين مرقوا عن مطالب الفطرة والدين فضلّوا وأضلّوا... وآنَ الأوان لكي تثوب (الكلمة) إلى الحق، وتقود التائهين والحيارى مرة أخرى إلى الصراط.

صدر الكتاب في طبعتين إحداهما في اليمن عام (٢٠٠٢م) عن دار حضرموت، والثانية في بيروت عام (٢٠٠٦م) عن دار ابن كثير.

ثم ما لبثت أن ألحقته بكتاب (قراءة في كتابات النورسي: رؤية جمالية "الكلمات")، الذي صدر عن دار سوزلر في القاهرة عام (٢٠١١م) ضمن سلسلة (دراسات في رسائل النور).

فلقد أتيح لي في خريف عام (١٩٩٢م) أن (أجد) إسطنبول لأول مرة!! كنت مدعواً للمشاركة في مؤتمر عن (النورسي) عقدته مؤسسة الثقافة والعلوم، حيث ارتجلت بحثي (الكلمات: رؤية جمالية) وقد لقي ـ بفضل الله وحده ومنّته ـ قبولاً حسناً.

كان البحث ينطوي على قسمين تناولت في أولهما التقنيات الجمالية في كتابات النورسي، وعالجت في ثانيهما رؤيته الجمالية للطبيعة والعالم والكون.

عندما عدت إلى بلدي كتبت انطباعاتي عن رحلتي تلك وبعثت بها إلى أخي الأستاذ إحسان قاسم الصالحي بعنوان (الرحيل إلى إسطنبول).

بعد أسابيع، لدى مروري بعمّان، اتصل بي هاتفياً وفاجأني بقوله: (ماذا فعلت؟). تملكتني الدهشة، وقبل أن أجيبه قال: (لقد أبكيت كل من قرأ

المقال، واستمع إليه)... أجبته وأنا أحمد الله في سرّي: أتدري لماذا؟ إنني وأنا أكتب انطباعاتي بكيت أكثر من مرة... لقد كانت الكلمات تخرج من قلبي... وما لبث المقال أن نشر في مجلة (النور) بنصه العربي وترجمته التركية.

عاد (إحسان) لكي يؤكد طلبه القديم: أن أواصل البحث في الرؤية الجمالية للنورسي، أن استكمل فصوله المتبقية، لكي يتولى إخراجها في كتاب.

أغراني العرض، رغم زحمة المشاغل التي تحاصرني بقسوة، ووعدته بالتنفيذ، ثم ما لبثت أن أزحت عني المطالب الملحّة كافة، وتفرغت لإنجاز الفصول التي تتعامل مع المجلد الأول من الأعمال الكاملة للنورسي: (الكلمات)...

إن النورسي يملك حضوراً عجيباً في عقل ووجدان كل الذين تعاملوا معه بالجد المطلوب، والإخلاص، اللذين تنبض بهما رسائله وتتشكل أفكاره... وتلامذته ومحبوه الذين التقيتهم في إسطنبول يملكون ـ هم الآخرون ـ في قلبي حضوراً يصعب الفكاك من أسره... لقد غمروني بالمحبة بسخاء يفوق الوصف... ولا أجدني على كل ما قدمته من جهود متواضعة قد وفيت دينهم في عنقي... ترى... هل سيكون هذا الكتاب المتواضع كفاء لهذا الدين؟ أم أن (إحسان) سيطالبني بالمزيد؟

ذيل الكتاب على صفحة الغلاف الخلفي بالفقرات التالية: (بدءاً من صيغ الخطاب التي تعتمد (الكلمة) وتفجر قدراتها البلاغية، وانتهاء بأبعد آفاق المعطى الجمالي، متمثلاً بالتناسق الكوني في بنية الكون نفسه وفي كتاب الله المعجز، الذي يعكس بتكوينه اللغوي المدهش حالة جمالية متفردة، بحثت وقرئت آلاف المرات فلم تخلق على كثرة الرد... وها هو ذا النورسي يجيء في الموعد المضروب من عصر المادية الطاغي، لكي يضيف ما يهز الوجدان بصدد الإعجاز الجمالي للقرآن، والرسالة، وكلمات الله التي ما لها من نفاد،

وإبداعيته الباهرة في الكون والعالم والوجود والطبيعة والحياة والإنسان والأشياء والذرات والجزيئات...).

وقد تضمن الكتاب ستة فصول، عالج أولها الأسلوب والتقنيات، وتعامل ثانيها مع الطبيعة والعالم والكون، وتابع ثالثها دنيا الأحياء، أما الفصل الرابع فقد تفرغ لدراسة الإنسان، حيث تلاه الفصل الخامس حول عالم الغيب، ثم مسك الختام: كتاب الله...

ثم ما لبث الدور أن حان لتجميع وانتقاء جملة كبيرة من المقابلات الصحفية التي تمتد عبر الفترة بين (١٩٩١ و٢٠٠٠م) لإخراجها في كتاب يحمل عنوان (حوار في الهموم الإسلامية: ريبورتاج)، صدر عن دار الحكمة في لندن عام (٢٠٠٢م).

إن أدب (المقابلات الصحفية) نادر في حياتنا الثقافية الإسلامية كندرة (السير الذاتية) التي تتعامل هي الأخرى مع الرؤية الشخصانية للوقائع والأفكار.. إنه نمط من أنماط (أدب الحوار) الذي مارسه أجدادنا بصيغ أخرى يوم لم تكن هناك صحف ولا مجلات... تُسأل فتجيب... وتناقش فترد... وتجادل فتجادل بالتي هي أحسن... وخلال ذلك تضاء مسألة هنا، ويوضح معلم هناك، أو يكشف النقاب عن جانب من حياة المرء وفكره لا يكاد يعرفه الكثيرون... وفي كل الأحوال تتشكل جداول وتيارات في هذا السياق الفكري أو الدعوي أو الثقافي أو السيري... أو ذاك... قد يكون من المجدي أن يطلع عليها القارئ في دائرة الإسلامية أو خارجها على السواء.

وعبر تنقلي في البلدان العربية والإسلامية في العقدين الأخيرين، جرى معي أكثر من لقاء، وتلقيت في البريد طلبات أخرى للإجابة على أسئلة أثارها العاملون في حقل الصحافة الإسلامية، وقد آثرت أن أختار من هذا وذاك اللقاءات الأكثر حداثة، تلك التي تمتد عبر الفترة بين (١٩٩١ و٢٠٠٠م)، لاسيما وأن الكثير من الأسئلة المثارة تمس العديد من المتغيرات الدولية

والمستجدات الفكرية والثقافية، ولذا يدخل البعد الزمني للحوار طرفاً مهماً في الموضوعات المطروحة على البساط.

حرصت أيضاً أن أحقق قدراً مناسباً من التغطية الجغرافية للمقابلات التي امتدت على مساحة مكانية تبدأ في لندن وتجتاز إسطنبول، ثم تعبر البحر المتوسط إلى المغرب والجزائر، وتيمم وجهها شرقاً صوب القاهرة وعمان والموصل، أو الدوحة وصنعاء.

بعض الإخوة الصحفيين كانوا في تقديمهم للمقابلات أسخياء أكثر مما يجب، فألغيت المقدمات دون أن أرجع إليهم... فمعذرة... ألغيت أيضاً الكثير من التكرار، ولكن بعضه الآخر كان يفرض نفسه عليّ بسبب تباعد المحررين الذين أجروا الحوار، والعوائق الجغرافية في ديارنا... فضلاً عن ضغط بعض القضايا الملحّة في الفكر والحياة، بما يجعل السؤال يعيد نفسه بين الحين والحين.

وأواصل العمل في السياق الأدبي، فأنجز كتابين أحدهما في النقد التنظيري، والآخر في النقد التطبيقي. يحمل أولهما عنوان (حول استراتيجية الأدب الإسلامي: محاولات في التنظير والدراسة الأدبية)، وقد نشر للمرة الأولى بالعنوان الذي اختاره الأخ الناشر أحمد الجدع، مدير دار الضياء في عمان وهو (الغايات المستهدفة للأدب الإسلامي) تحفظاً منه على مصطلح (الاستراتيجية) الأجنبي، فلما أعيد نشره في دار ابن كثير في بيروت عام (٢٠٠٢م) رجع العنوان إلى سيرته الأولى... والمهم أن حركة الأدب الإسلامي لا تزال بحاجة ملحّة إلى المزيد من التخطيط والتنظير كيلا تمضي على غير هدى، فتتكدس وتتضخم معطياتها هنا، وتتضحّل وتشحّ هناك.

إن التخطيط ورسم الأهداف البعيدة يمنح هذه الحركة توازنها المطلوب بين الدراسة والإبداع ـ وكذلك ـ بين الحلقات الأساسية لكل من هاتين الفعاليتين، كما أنه يرشد مسيرتها التي تزداد وبمرور الوقت تجذراً وانتشاراً.

والتنظير يضع التأسيسات الضرورية (للإسلامية) ويعمق ملامحها من أجل أن تزداد تميزاً عن المذاهب الأخرى، وتتحقق أكثر فأكثر بشخصيتها

المستقلة.. والكتاب يمثل ـ كما هو واضح من عنوانه المستمد من بحث بالاسم نفسه ـ محاولة أخرى لإغناء السياقين المذكورين بالضوابط والموجهات والمعايير. فهو ينطوي على جملة دراسات ومقالات في التخطيط والتنظير، فضلاً عن تعريفه بعدد من الإصدارات التي تغذي (الإسلامية) في مجال الدراسة والجمالية والنقد وتاريخ الأدب والفهرسة... هذا إلى عدد من الدراسات تتابع... إحداها قضية (اللون) في كتاب الله، وتحلل اثنتان منها الظاهرة الأدبية في مواجهتها للنظم الشمولية متمثلة بالتجربة الشيوعية البائدة... وتمضي دراسة رابعة لكي تنفذ قراءة نقدية لمعطيات (القرضاوي) الأديب الشاعر بمناسبة بلوغه السبعين.

وأما ثاني الكتابين فيحمل عنوان (في النقد التطبيقي)، وقد صدر في طبعته الأولى، ضمن منشورات (رابطة الأدب الإسلامي العالمية) (مكتب البلاد العربية) عن دار البشير في عمان عام (١٩٩٨م)، وأعيد طبعه في دار ابن كثير ببيروت عام (٢٠١٢م).

يتضمن الكتاب عدداً من محاولات النقد التطبيقي، الذي يتابع بعض الإصدارات الأدبية في دائرة الإبداع: شعراً وقصصاً... وهي كثيرة غزيرة والحمد لله، ومحاولة إحصائها وتغطيتها النقدية تكاد تكون مستحيلة، ما لم ينهض نقادنا كافة، ويفعلوا ما فعله الآخرون... أن نمسك بأيدي بعضنا... أن نشد عليها... أن نشير بضوابط النقد وإضاءاته الكاشفة إلى مظان التألق والخمود، وأن نبيّن عناصر القوة والضعف في هذا العمل أو ذاك... أن نصغي جيداً إلى الأصوات المبدعة، وأن ندخل معها في حوار يكسر جدران القطيعة، ويضع يده على النبض الذي يعد بالكثير...

ويجيء هذا الكتاب خطوة على الطريق فيتابع بالنقد عدداً من الدواوين الشعرية الإسلامية لحسن الأمراني في المغرب، ولكمال عبد الرحيم رشيد ﷺ ومحمود مفلح من فلسطين، ولمحمد فؤاد محمد من مصر، ولحكمة صالح من

العراق، ويمضي إلى العمق التراثي فيتابع (ابن جبير الأندلسي شاعراً)، والذي تولى تحقيقه ودراسته الدكتور منجد مصطفى...

ثم يمضي الكتاب لمتابعة مجموعتين قصصيتين لحيدر فقه، ولحلقة من سلسلة أطفال الحجارة، التي تولى عبد الله الطنطاوي إخراجها في عشرة أعمال قصصية... وينتهي الكتاب بنقد مقارن لرواية (البحث عن إله مجهول) للروائي الأمريكي المعاصر جون شتاينبك.

في سياق الفكر الإسلامي، أنجزت عبر ذلك العقد ثلاثة مؤلفات، كان أولها (مدخل إلى إسلامية المعرفة) بتكليف من مكتب القاهرة للمعهد العالمي للفكر الإسلامي في بداية التسعينيات، وقد طبع عدة طبعات في مصر وأمريكا، ثم أعيد طبعه في دار ابن كثير ببيروت عام (٢٠٠٦م).

والكتاب يتحدث عن عملية إسلامية المعرفة التي تدور على محورين: أحدهما تنظيري يتولى التعريف بالمصطلح، ويوضح ضروراته الملحة، ويؤشّر على موقف القرآن والأصول الإسلامية عموماً... والمحور الثاني تطبيقي تتمّ فيه معالجة كل فرع من فروع المعرفة البشرية الإنسانية، لكي تصاغ توجهاتها الأساسية ومفرداتها وفق المنظور الإسلامي.

وقد تضمن الكتاب، بعد التمهيد، المفردات التالية: المصطلح، والضرورات العقدية والإنسانية والحضارية والعلمية، الحلقات الأساسية للمعرفة وعلاقتها بالإسلامية، القرآن والعلم الحديث في سياقات: فلسفة العلم، والمنهج، والحقائق، والتطبيق، التراث المعرفي الإسلامي، المعطيات الإسلامية الحديثة والمعاصرة، المحاولات المنظمة، ثم خاتمة تبين أن الأمر جدّ وأنه يتحتم علينا أن ننفر جميعاً لكي نقول فيه كلمة، أو نسطر في سفره حرفاً، فالجزاء ـ كما هو واضح بيّن ـ كبير عزيز، ولا بدّ أن يكون الثمن بالمستوى نفسه كبيراً عزيزاً.

أما الكتاب الثاني، فكان يحمل عنوان (رؤية إسلامية في قضايا معاصرة)، وقد صدر في طبعته الأولى ضمن سلسلة كتاب الأمة في الدوحة

عام (١٩٩٥م)، مع طبعة رديفة في المغرب، ثم أعيد طبعه في دار ابن كثير ببيروت عام (٢٠٠٥م).

بعض موضوعات الكتاب مضى للتعامل مع الأفكار والتصوّرات، من مثل: (المستقبل لهذا الدين) و(العقيدة والشريعة والمجتمع)، و(المعادلة بطرفيها) و(من الأنا إلى الآخر إلى العالم)، و(محاولة لتصوّر المجتمع الإسلامي). موضوعات أخرى تعاملت مع الوقائع والخبرات والأحداث، من مثل: (مغزى سقوط الماركسية)، و(عصر الاختزال)، و(الأفقي والعمقي في هندسة الحياة)، و(القرآن الكريم وفلسفة التاريخ)، و(وقفة للنقد).

إن التماسّ الجادّ مع الحياة، على مستوى الفكر أو الواقع، يدفع المفكر المسلم ـ بين الحين والآخر ـ إلى أن يقول ما عنده، استناداً إلى رؤيته الإسلامية، وقدرته على معالجة المفردات، من المنظور العقدي، الذي ينفتح على العالم، فلا يكاد يدع صغيرة ولا كبيرة، إلا وشكّل إزاءها الموقف الفكري، الذي يضعها في مكانها الصحيح من مسلسل الصراع الأبدي بين الحق والباطل، والوجود والضياع... من أجل أن يتبين المسلم، والإنسان عموماً، موطئ قدميه في دنيا مكتظة، لا تكفّ عن التمخض، وفي عالم لاهث لا تدعه المتغيرات المتلاحقة يجد (نفسه) أو يستقر على حال.

وإزاء كل خبرة، أو فكرة، أو واقعة، هنالك "الصراط" الذي يشكله هذا الدين، وليس وراءه سوى الضلال... ومهمة المفكر المسلم، أن يكشف عن الصراط، وأن يحذر من الذهاب إلى الطرق المعوجة التي ضيعت الإنسان، ولا تزال هذه المهمة التي هي بالتأكيد، ليست ترفاً، ولا اختياراً، ولكنها فرض عين على كل قادر، من أجل تأكيد مصداقية هذا الدين في دائرة الأفكار، أو ساحات التجارب والوقائع والخبرات... وهي مهمة متجددة لا تنتهي أبداً: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وأما ثالث تلك المؤلفات، فكان بعنوان (متابعات إسلامية في الفكر

والدعوة والتحديات المعاصرة): والذي تولت نشره دار الحكمة في لندن عام (٢٠٠٢م). وقد تضمن جملة من الموضوعات الساخنة ذات العلاقة بما تشهده الساحة الإسلامية والعالمية عبر العقد الأخير من القرن العشرين، من مثل:

(حول النظام العالمي الجديد ونهاية التاريخ) و(ملاحظات في وضع الأمة المسلمة: الجذور والاحتمالات الممكنة) و(الجدار الأخير) و(عبرة التاريخ الإسلامي في فلسطين) و(عن الجهد الحركي الإسلامي في القرن الأخير: وقفة للنقد) و(ملاحظات حول المشروع الحضاري) و(الهوية الثقافية لعالم الإسلام ودور أجهزة التعليم والإعلام في صياغة وحدتها) و(علوم الشريعة في الجامعات الواقع والآفاق) و(عقد المؤسسات ملاحظات واقتراحات) و(عن الشيخ بديع الزمان النورسي: دعوة إلى كسر الحواجز) و(إلى كل فتاة تؤمن بالله) و(المعرفة الإنسانية وضياع الهوية)... هذا إلى جملة من المقدمات التي كتبت لعدد من المؤلفات الإسلامية التي شهدها ذلك العقد من الزمن.

أما في سياق التاريخ الإسلامي والحضارة والتاريخ المعاصر، فقد تم إنجاز خمسة مؤلفات، كان أوّلها كتابي الذي يحمل عنوان (الرؤية الآن: في هموم فلسطين والعالم الإسلامي)، والذي صدر ضمن منشورات (فلسطين المسلمة) في لندن عام (٢٠٠١م)، وأعيد طبعه في دار ابن كثير ببيروت.

لعلي اقتبست العنوان من الفيلم الأمريكي المعروف باسم (الرؤية الآن)، والذي يكشف الويل الأمريكي الذي انصبّ على رؤوس الفيتناميين في الشرق الأقصى، وقام ببطولته الممثل المعروف (مارلون براندو)، والذي أتيح لي أن أشهده على شاشة التلفاز... والمهم أن ما تلقته فلسطين والأمة الإسلامية من ويلات أمريكا، وإسرائيل، والصليبية العالمية؛ لم يكن ليقلّ هولاً عما شهدته فيتنام.

الكتاب ينطوي على جملة من المقالات التي تمس القضايا الساخنة في الجغرافيا الإسلامية، توخيت فيها الإيجاز والتركيز الذي قد يغني عن التفصيل، ونشر أكثرها في العديد من المجلات العربية والإسلامية، وبخاصة

مجلة (قضايا دولية)، ثم ارتأيت أن أجمعها في كتاب وأن يكون الكتاب ضمن إصدارات (فلسطين المسلمة) لأن جلّ مقالاته تبدأ من القضية الأم في حياتنا المعاصرة وتؤول إليها.

لا يكفي القول بأنها تصدر عن رؤية إسلامية، إذ قد يكون هذا بمثابة استفزاز للطرف الآخر، أيا كان انتماؤه أو هواه، وقد يمنحه المبرر لاتهام التحليل بالانحياز المسبق، لكننا رغم إيماننا اليقيني العميق بأن المنظور الإسلامي ينطوي بالضرورة على (الحقيقة) في أكثر صيغها واقعية وحياداً؛ فإننا سنتجاوز التنظير الصرف إلى الواقعة نفسها من أجل جعلها تتحدث بعيداً عن أي إقحام فكري مسبق، ومنح النتائج ـ بالتالي ـ المصداقية المطلوبة.

ها هنا أيضاً فإننا لا نتوقع من الطرف الآخر أن يسلّم بمعطيات كهذه، بل إنه لأسباب معقدة متشابكة سيرفضها، وسيزداد ـ ربما ـ جنوحاً باتجاه الرفض والاتهام... إنما المهم أن يجد القراء المسلمون أنفسهم في الإعلام الإسلامي بمعطياته كافة، الفرصة الجادة لمتابعة الحدث الذي يتشكل قبالتهم صباح مساء، والذي يمارس دوراً خطيراً في تشكيل حاضرهم وصياغة مصيرهم على السواء.

ومع القراء المسلمين، هنالك ولا ريب قاعدة واسعة، أكثر حيادية، من مثقفي العالم، قد تكون بحاجة لا تقلّ إلحاحاً، إلى إضاءات كهذه، تخرجها ـ على الأقل ـ من دائرة العتمة وتشويه الحقائق، التي ترسمها وتشغل مساحاتها مفردات الإسلام المضاد في اتجاهاته كافة. هذا التعتيم والتشويه الإعلامي الذي أخذ يتأكد أكثر فأكثر بمرور الوقت، مع، وبموازاة، مراكز اتخاذ القرار في دوائر الخصم الذي يسعى في الحالين إلى استنزاف قوى المسلم في العالم، وبعثرة طاقاته، وتدمير ثقته بنفسه، ودفعه في نهاية الأمر إلى مواقع التبعية وفقدان الخصائص الذاتية.

هذه الواقعة المضادة للإنسان بكل المعايير، تتشكل في زمن الادعاء

بالتقدم الحضاري وحرية الإنسان، والنظام العالمي الجديد، الذي يعود إلى تأكيد التقدم والحرية وتصعيد وتائرهما إلى أقصى مدى ممكن.

وكان ثاني تلك المؤلفات كتاب (الوحدة والتنوع في تاريخ المسلمين: بحوث في التاريخ والحضارة الإسلامية)، والذي صدر عن دار الفكر بدمشق عام (٢٠٠٢م)، وتضمن الموضوعات التالية: (الوحدة والتنوع في تاريخ المسلمين)، (العلوم التطبيقية في تاريخ المسلمين: دراسة في المعطيات وعوامل الازدهار والتوقف) و(الطريق إلى حطين ٥٨٣هـ/١١٨٧م): دراسة في مفهوم تكامل الجهد عبر المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي، و(مقارنة لأبعاد التخريب المغولي في بغداد ٦٥٦هـ/١٢٥٨م)، و(الرؤية التربوية في مقدمة ابن خلدون) و(حاجي خليفة ورؤيته التربوية)، كما تضمن الكتاب جملة من المقدمات لعدد من المؤلفات في التاريخ والحضارة الإسلامية، وجملة من التعقيبات في متابعة عدد من وجهات النظر التي تحتاج إلى التعقيب من مثل (نحو تاريخ جديد) للدكتور فيصل السامر، و(التاريخ والمنهج التاريخي في الكتابة الإسلامية المعاصرة) لعبد القادر الغازي، و(هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس) للدكتور ماجد عرسان الكيلاني، و(قس ونبي: بحث في نشأة الإسلام) للمدعو أبي موسى الحريري!!

وجاء المؤلف الثالث بتكليف من مكتب الأردن الإقليمي للمعهد العالمي للفكر الإسلامي، يحمل عنوان (دليل التاريخ والحضارة في الأحاديث النبوية)، بالمشاركة مع الأخ المهندس حسن الرزو، وصدر عن دار الرازي في عمان عام (٢٠٠٤م).

بشكل عام يمكن أن تندرج الأحاديث المعنية بالتاريخ والحضارة في السياقات الأساسية التالية:

أولاً: الأمم والجماعات والنبوات والأديان السابقة.

ثانياً: عصر الرسالة.

ثالثاً: النبوءات التاريخية: الملاحم والفتن، المهدية، وأشراط الساعة.

رابعاً: قيم السلوك التي تعين على نهوض الجماعات والدول والحضارات.

خامساً: قيم السلوك التي تعجل بانهيار الجماعات والدول والحضارات وزوالها.

وبمضاهاة المعطى النبوي بالقرآن الكريم بخصوص التاريخ والحضارة؛ نجد أنفسنا قبالة الحالات الأربع التالية:

أولاً: معالجة مفصلة لموضوعات يوجز فيها القرآن الكريم.

ثانياً: معالجة مفصلة أو موجزة لموضوعات لا يتحدث عنها القرآن الكريم.

ثالثاً: السكوت عن موضوعات أطال القرآن الوقوف عندها.

رابعاً: معالجة مقاربة في المساحة لعدد من الموضوعات التي تحدث عنها القرآن الكريم.

تسدي الأحاديث النبوية المعنية بالتاريخ والحضارة، جنباً إلى جنب مع المعطيات القرآنية، خدمة بالغة للمعرفة التاريخية، خاصة إذا تذكرنا أن علم التاريخ (الوضعي) إنما هو علم إنساني احتمالي ليس منضبطاً كالعلوم الصرفة، بسبب عدم قدرته على وضع يده على الوقائع كافة، فضلاً عما يعتوره من تحيّز وهوى لهذا السبب أو ذاك. ومن ثم تجيء الأحاديث الشريفة لكي تملأ الفجوات الناقصة حيناً، وتؤكد أو تنفي نتائج البحث التاريخي الوضعي حيناً آخر، ولكي تعدل من جهة ثالثة تحريفات الكتب الدينية السابقة لحشود الوقائع التاريخية، فيما انعكس بشكل ملحوظ في الإسرائيليات التي غذت الأنشطة التاريخية ردحاً من الزمن، ولا تزال في دوائر الدراسات الدينية والوضعية المقارنة في الغرب.

اعتمد الدليل في مادته الأحاديث الصحيحة فقط في مظانها من المصادر المعروفة والمشار إليها في القائمة التي يجدها القارئ بين يديه. ولقد ذللت خبرة الأخ المهندس الرزو في (علوم الحديث) وتقنيات (علوم الحاسبات) و(مبادئ الفهرسة الحديثة)، الكثير من الصعاب وأعانت على

إنجاز الدليل بهذه الصيغة... ويبقى العمل مشروعاً مفتوحاً قابلاً للإضافة والتقويم في ضوء ملاحظات الدارسين والقرّاء.

في أخريات العقد التسعيني هذا أتيح لي أن أتفرغ لإنجاز اثنين من مؤلفاتي، أعتز بهما، وأراهما كفاءً لجهودي الدراسية والتدريسية والتأليفية في سياق التاريخ والحضارة، لاسيما وأني أردتهما أن يكونا كتابين منهجيين يخاطبان عقل الطالب الجامعي، ويغسلان من ذهنه ووجدانه كل ما ألحقته بهما مناهج تدريس هاتين المادتين من ضلالات وأوهام على مدى قرن ونصف القرن.

كان أول هذين الكتابين يحمل عنوان (مدخل إلى التاريخ الإسلامي)، وثانيهما يحمل عنوان (مدخل إلى الحضارة الإسلامية)، والذي قيّم من قبل مؤسسة أرميكس ميديا في الأردن واحداً من أهم عشرة كتب في العالم صدرت عام (٢٠٠٥م). وقد تُلقي الكتابان للتدريس في عدد من الجامعات العربية والإسلامية، وكانت طبعتهما الأولى قد صدرت عن الجامعة الإسلامية العالمية في ماليزيا عام (٢٠٠٠م) بغلاف واحد. ثم توالت الطبعات لتغذية حاجة الطلاب في أكثر من جامعة، وكانت آخر الطبعات تلك التي صدرت في كتابين منفصلين عن المركز الثقافي العربي في الرباط والدار العربية للعلوم في بيروت عام (٢٠٠٥م).

ينطوي (مدخل إلى التاريخ الإسلامي) على مقدمة في (أهمية دراسة التاريخ والحضارة الإسلامية)، وتمهيد في (ضوابط ومعايير أساسية في منهج كتابة التاريخ الإسلامي) و(مدخل) يحلل الأخطاء السائدة في تدريس مادة التاريخ الإسلامي في المعاهد والجامعات، منذ تأسيسها، قبل قرن ونصف، وحتى اللحظات الراهنة، ويطرح بدائلها المناسبة من أجل تعديل الوقفة الجانحة.

يستقصي (المدخل) الأخطاء التي وقع فيها المنهج التقليدي في دراسة هذا التاريخ وهي:

أولاً: اعتماد التبدل الفوقي في الأسر والحكام أساساً للتقسيم الزمني.

ثانياً: الرؤية التجزيئية التي تدرس هذ التاريخ أشتاتاً مبعثرة وتفاريق، وتعجز عن لم الوقائع والتجارب لكي تعاين وتحلل من خلال تشكلها الأكثر شمولية وارتباطاً، وعبر نسقها النوعي الذي تضم معطياته حشوداً زاخرة من الوقائع ترفد هذا المجرى أو ذاك.

ثالثاً: التأكيد المتضخم على الجوانب السياسية والعسكرية لهذا التاريخ وتقليص مساحات الجوانب العقدية والاجتماعية والحضارية.

رابعاً: ممارسة نوع من فك الارتباط المفتعل بين مجريات هذا التاريخ وبين التأثيرات الإسلامية العميقة في نسيجه وشرايينه وخلاياه.

خامساً: تقطيع الظواهر التاريخية الكبيرة وبعثرتها من خلال المعالجة الأفقية المتزامنة، التي تسعى لدراسة كل عصر على حدة، بكل ما تخلق فيه من وقائع وأحداث، بدلاً من المتابعة العمقية أو العمودية لكل ظاهرة عبر مجرى التاريخ الإسلامي من منابعه الأولى حتى اللحظات الراهنة.

وبدلاً من هذا، فإن المدخل يسعى لاعتماد منهج يستهدف المؤشرات والضوابط التالية:

أولاً: فهم التاريخ الإسلامي من خلال وحدة الحركة، وكسر القشرة الخارجية للأحداث والتبدلات.

ثانياً: التحقق برؤية شمولية تلمّ التفاصيل والجزئيات، لكي تستمد منها المؤشرات الأكثر امتداداً لمعطيات التاريخ الإسلامي.

ثالثاً: تحقيق التوازن المطلوب بين الجوانب السياسية ـ العسكرية والجوانب العقدية والاجتماعية والحضارية.

رابعاً: تسليط الضوء على العلاقة الأصيلة المتبادلة بين الإسلام وبين وقائع التاريخ الإسلامي في آفاقها كافة.

خامساً: متابعة الظواهر التاريخية الكبرى عمودياً لكي لا تتعرض للتشتت

والتقطيع، ولكي تتاح فرصة السيطرة على أبعادها وصيرورتها، وصولاً إلى ملامحها الأساسية وسماتها المتفردة.

من أجل ذلك، حاولت فصول الكتاب أن تعالج التاريخ الإسلامي من خلال رؤية جديدة لمجراه الزاخر، تتجاوز خلالها التقسيم التقليدي للعصور الإسلامية، إلى طرح هندسة جديدة لوقائعه، ربما تكون أكثر قدرة على لم شتاته وإضاءتها والكشف عن مغزاها، من خلال إحالة وقائعه وأحداثه وتفاصيله على نسقها النوعي في مجرى الحركة التاريخية، لتبين طبيعة النسيج الذي صارت إليه بعد طول ذهاب وإياب لنول الزمن على الخيوط التي كانت تغذيه.

تقوم هذه الهندسة المنهجية على معالجة أركان أو مساحات أساسية أربع في التاريخ الإسلامي هي:

أولاً: الدولة والسلطة والقيادة.

ثانياً: الدعوة والانتشار والتعامل مع الآخر.

ثالثاً: التحديات والهجمات المضادة والعلاقات الدولية.

رابعاً: الحياة الاجتماعية.

وهذا العمل ـ في نهاية الأمر ـ لا يعدو أن يكون مدخلاً ـ وأؤكد على هذه الكلمة ـ إلى منهج جديد لفهم التاريخ الإسلامي وإدراك مقوماته الأساسية، وهو أشبه بمشروع عمل ناقص ومفتوح قد يحتمل الكثير من الإضافات والتعديلات. وأعمال الإغناء في المستقبل، ولكن هذه الإضافات لا تتعدى كونها مادة إضافية تندرج ضمن سياق هذا الجانب أو ذاك من بنيان المنهج المعتمد هنا، والذي يقوم على الخطوط أو التيارات الأساسية الأربعة التي تحرك عبرها تاريخ الإسلام.

وهو منهج مصمم للتدريس الجامعي عبر سنواته الأربع وفق الطريقة الإنكليزية، أو المساقات الأربعة وفق الطريقة الأمريكية... بحيث يتم التركيز

في كل سنة أو مساق على واحد من الفصول الأربعة التي يتضمنها، مع إعطاء مدرسي المادة وأساتذتها فضاء مفتوحاً للإضافة والإغناء.

وأما كتاب (مدخل إلى الحضارة الإسلامية) فقد تضمن هو الآخر فصولاً أربعة تغطي سنوات الدراسة الجامعية الأربع، أو مساقاتها... وهي أصول الحضارة الإسلامية، نمو الحضارة الإسلامية، تدهور وانحلال الحضارة الإسلامية، واقع الحضارة الإسلامية ومستقبلها. وقد تضمن المدخل مقدمة تحلّل مبررات تأليف هذا الكتاب، والدعوة لاعتماده في المعاهد والجامعات.

ذلك أن مناهج دراسة الحضارة الإسلامية في مدارسنا ومعاهدنا وجامعاتنا، تعاني من عيوب شتى، أبرزها ـ ولا ريب ـ تقطيع جسد هذه الحضارة وتقديمها للطالب مزقاً وتفاريق. وهي بهذا ستفقد شخصيتها المتميزة، وملامحها المتفردة التي تمنحها الخصوصية بين الحضارات، وتصير مجرد أنشطة ثقافية أو معرفية أو مدنية، في هذا المجال أو ذاك، قد تتميز ببعض الخصائص لكنها لا تعكس التصوّر النهائي لرؤية المنتمين إليها للحياة والعالم والوجود.

إن معاهدنا وجامعاتنا تقطع سياق هذه الحضارة ووحدتها، فيما تسميه (الضرورات الزمنية) حيناً و(المنهجية) حيناً آخر، و(التخصصية) حيناً ثالثاً. فتدرّس النشاط الاقتصادي في سنة أو مساق، والحياة الاجتماعية في مساق آخر، والحركة العلمية في مساق ثالث، والنظم الإدارية في مساق رابع. لا بل أنها حتى وهي تدرّس كل واحد من هذه المساقات تتعامل معه مقطعاً مجزءً لا يكاد يملك خصوصياته وتميزه على مستوى التصورات التي تصوغه، والممارسات التي تنزل به إلى واقع الحياة.

ويتخرج تلميذ الثانوية والطالب الجامعي وهو لا يكاد يملك معرفة معمقة بخصائص حضارته الإسلامية، وبالمكونات التي تميزها عن الحضارات الأخرى، فضلاً عن أنه يتخرج وهو لا يملك الاعتزاز بحضارته والفخر بها، بما أن النشاط التدريسي في التاريخ والحضارة ينطوي ـ بالضرورة ـ على بعد تربوي،

لكن هذا البعد يتفكك ويغيب من خلال الخطيئة المنهجية التي لا تكاد تمنح الطالب أي ملمح يجعله يتشبث بتراثه الحضاري باعتباره أقرب إلى مطامح الإنسان ومهماته الأساسية في هذا العالم. بل إننا قد نصل ـ في نهاية الأمر ـ إلى نتائج معاكسة تتمثل في رفض حشود الخريجين لتراثهم الحضاري، وإنكاره، وإعلان التمرد عليه، والاندفاع بالمقابل في اتجاه إغراءات الحضارات الأخرى، وإغواء بريقها الظاهري الخادع، وبخاصة الحضارة الغربية. وبهذا يصير تدريس الحضارة الإسلامية سلاحاً نشهره ضد أنفسنا لتدمير الثقة بمقومات حضارتنا، وقدرتها على الاستعادة والفاعلية في صميم العصر، وفي مشاركاتها المحتملة في صياغة المصير البشري، كما يؤكد العديد من المفكرين والباحثين والمستشرقين الغربيين أنفسهم.

وما من شك في أن العقل الغربي تفوق علينا في منهج الدراسة الحضارية، كواحدة من حلقات تفوقه الراهن، وليست محاولة المؤرخ البريطاني المعاصر (أرنولد توينبي) في مؤلفه المعروف (دراسة للتاريخ) بعيدة عن الأذهان، إنه يتعامل مع الحضارات البضع والعشرين التي درسها عبر استقرائه للتاريخ البشري، برؤية شمولية وليست تفكيكية... كما لو كانت كل واحدة منها تحمل شخصية متميزة وملامح تفرقها عن سائر الحضارات، ونسغاً يجري في عروقها هو غيره في الحضارات الأخرى.

في ضوء ما تقدم، ومن أجل تجاوز المنهج التفكيكي في دراسة الحضارة الإسلامية، والمعمول به في معظم الجامعات العربية والإسلامية، يمكن اعتماد السياقات التي تناولها هذا الكتاب، موزعة على سنوات الدراسة الجامعية الأربع (وفق النظام الإنكليزي) أو (المساقات) (وفق النظام الأمريكي):

السنة الأولى (أو المساق الأول): أصول الحضارة الإسلامية (التأسيسات الإسلامية للفعل الحضاري في القرآن والسنة والتطبيقات التاريخية لعصري الرسالة والراشدين).

السنة الثانية (أو المساق الثاني): نمو الحضارة الإسلامية (المعطيات والوظائف والخصائص).

السنة الثالثة (أو المساق الثالث): تدهور وانحلال الحضارة الإسلامية (العوامل الداخلية والخارجية).

السنة الرابعة (أو المساق الرابع): واقع الحضارة الإسلامية ومستقبلها (قبالة تحديات التكنولوجيا والتفوق الغربي، والنظام العالمي الجديد، والنظريات الأكثر حداثة بخصوص التاريخ والحضارة، ومقومات المشروع الحضاري البديل، واحتمالات المشاركة العالمية في المصير).

ثمة ـ أخيراً ـ ما يجب التنبيه عليه، وهو أن هذا المدخل لا يعدو أن يكون خطوطاً عريضة ـ أسوةً بصنوه في التاريخ الإسلامي ـ تتضمن الحدّ الأدنى من مفردات كل موضوع، بما يناسب مرحلة الدراسة الجامعية الأولية، (البكالوريوس)، والمساحة الزمنية المعطاة لكل سياق. ومن ثم فإن المحاولة تظل مشروعاً مفتوحاً قابلاً للإضافة والإغناء على أيدي الأساتذة الذين سيتولون تدريس المادة، وفي ضوء الزمن المخصص لكل سياق.

وجاء العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، وشهد هو الآخر جملة من المؤلفات، كانت الثلاثة الأولى منها أعمالاً صحفية، تلاحق يوماً بيوم ما تشهده الساحة العربية والإسلامية من وقائع وأحداث... وتنشر أسبوعياً في الصحف والمجلات العربية.

كان أول تلك الأعمال كتاب (أولى ملاحم القرن) الذي نشرته مؤسسة الرسالة في بيروت عام (٢٠٠٢م)، وهو ينطوي على جملة من المقالات التي تلاحق، وتعقّب، وتضيء، الجدل الحامي الذي أشعلته الانتفاضة الفلسطينية الثانية عام (٢٠٠٠ ـ ٢٠٠١م) في وجه الاحتلال الصهيوني، وظهيره الولايات المتحدة الأمريكية والمنظومة الغربية عموماً، عبر سياقات الصراع كافة.

إن ما شهدته الساحة الفلسطينية يومها كان حالة نادرة، لم يكد التاريخ

البشري يشهد لها مثيلاً من قبل... إنها ـ بحق ـ أولى ملاحم القرن الحادي والعشرين... بل ملحمة التاريخ كله...

ليست العمليات الاستشهادية فحسب لشباب في عمر الزهور... ليس فحسب تهافت المئات والألوف منهم على مراكز التطوع، يطلبون ويلحّون في الطلب أن تدرج أسماؤهم في قوائم الذاهبين إلى الشهادة... ليست فحسب التظاهرات اليومية التي تطوف شوارع المدن والقرى الفلسطينية صباح مساء، تجابه الموت، والفناء، وتفتح صدرها لقذائف الدبابات وصواريخ الطائرات وزخات الرصاص... ليست فحسب في استبشار الآباء والأمهات، وسعادتهم المدهشة لاستشهاد أبنائهم، أو تعرضهم لجروح خطيرة... ليست فحسب في مشاركة الصبية والأطفال في أعمال المقاومة والتحدي والصمود، وقيام الفتيات في تعريض أنفسهن للموت...

إنما هي في هذا كله.. ومعه إرادة شعب بكامله... شعب أعزل تماماً في مواجهة واحدة من أشد السلطات العسكرية في التاريخ بغياً وإرهاباً...

وأما ثاني تلك الأعمال فهو كتاب (مذكرات حول واقعة الحادي عشر من أيلول سبتمبر)، الذي نشرته دار الفكر في دمشق عام (٢٠٠٣م)، وهو يتابع في جملة من المقالات المتعاقبة ما أفرزته واقعة أيلول من ردود أفعال في الساحة الأمريكية بقيادة رئيسها الأرعن والإنجيلي ـ الصهيوني (بوش الابن) وعلى رأسها غزوه الساحق لأفغانستان...

وجاء في مقدمة الكتاب: الآن... وبعد أن فقد معظم ساسة العالم قدرتهم على الإبصار في وهج الحادي عشر من سبتمبر، وارتموا متخاذلين تحت قدمَيْ أمريكا... رغباً أو رهباً... الآن بعد أن تميّعت المواقف، واستؤصلت كلمة (لا) من قواميس العالم، وأصبح الكبار والصغار يهرعون لتلبية نداء (البابا الجديد في أمريكا) لمقاومة الإسلام، الذي يسمونه في لعبتهم المضللة الماكرة، إرهاباً... الآن... وبعد أن أصبحت المصلحة، والبحث عن ضمانات الحماية والاستمرار، هي إنجيل الساسة والزعماء، ومعبودهم من دون الله... الآن يتحتم أن ينزل

(المفكر) إلى ساحة الميدان للدفاع عن شرف الكلمة وكرامة الفكر، وحماية قيم الحق والعدل من الضياع... بل إنقاذ إنسانية الإنسان من السكين التي تحدّ لاغتيالها.

(إن الهجمة الصليبية شرسة، ما في ذلك شك على الإطلاق... والسكين الأمريكية حادة... وقد رآها العالم كله وهي تجول في رقاب الأفغان المستضعفين، في واحدة من أكثر الهجمات هولاً في تاريخ الإنسان... والساسة في معظم الأحيان لا يملكون بطانة فكرية، أو تجذراً عقدياً يمنحهم القدرة على الإبصار، والمقاومة، والدفاع عن الذات، ويمدهم في الوقت نفسه بالقدرة على التضحية في سبيل هدف هو أعز بكثير وأغلى بكثير من كل المصالح والمغريات، بل أعز وأغلى من أرواحهم ذاتها.

لكن الذين يملكون هذا كله هم المفكرون والأدباء وحملة شرف الكلمة المتجذرة في الفكر والعقيدة... أولئك الذين يتميزون بالرؤية الصائبة، والقدرة على العطاء، والاستعداد للبذل والتضحية في أكثر الظروف عتمة وأشد الأوضاع حلكةً وإظلاماً. ولقد كان هذا دائماً هو الذي يشعل القناديل الخضر في ليل التاريخ، فيسير على هديها المستضعفون والضائعون... بل لقد كان هذا هو الذي يمنح الحياة الدنيا قيمتها وشرفها، ويحمي إنسانية الإنسان من الغدر والاغتيال. الآن على المفكر أن ينهض... أن يتخذ موقفاً... أن يقول (لا) للإرهاب الدولي المخيف... أن يشعل قناديل الكلمة في ليل العالم البهيم... أن يدلّ الحيارى والمستعبدين والمستلبين والمستضعفين على الطريق...).

وجاء الكتاب الثالث يحمل عنوان (أمريكا مرةً أخرى)... ويتضمن جملة مقالات أديرت فيها الكاميرا على واقعة أمريكية أخرى في مطالع القرن الحادي والعشرين، تلك هي غزوها للعراق في الربيع الدامي لعام (٢٠٠٣م)... ما جرى... وما يجري... وما سيجري... تلك هي اللقطات التي تحدثت عنها مقالات الكتاب، الذي صدر عن دار ابن كثير في بيروت عام (٢٠١٠م)، وكان بمثابة مجازفة قبالة ما أعلنته الولايات المتحدة من إنشاء مركز استخبارات

خاص بملاحقة كل من يوجه نقده الحادّ لسياسات البيت الأبيض وتصفيته جسدياً...

ومقالات الكتاب توشك أن تبلغ الخمسين، ومن بينها: (أمريكا والعراق) (الأمن القومي واختلاط الأوراق) (الدستور الأمريكي وبيت الداء) (المبتعثون إلى أمريكا: ماذا يراد لهم؟) (المزاد الكبير) (المسيحية ـ اليهودية: هذا الدين الجديد) (النموذج الأمريكي) (سباق الثعالب) (شيء عن العولمة) (مناهج التربية والتعليم: محاولات للاختراق) (اتحاد أوربي، فأين العرب؟) (إصلاح التعليم: البعد لحقيقي) (النفط: هو الهدف) (رجالات الإدارة الأمريكية: الوجه الحقيقي) (شيء عن أمريكا من الداخل) (صدق أو لا تصدق) (ظلال رمادية حول مشروع الشرق الأوسط الكبير)(كوميديا الحمائم والصقور) (مزايدات) (مكيالان) (عودة الاستعمار القديم) (الخزين الكبير) (الصراع على الماء) (الصرخة المختنقة) (انهم يدّسون أنوفهم) (مافيتان) (مجزرة الثقافة) (الرئيس والقسيس) (القفزة المستحيلة) (القلعة المعزولة) (الهوّة) (تصدير الفجور) (حكاية علم) (حول علمنة التعليم في العالم العربي) (شيء عن المبادئ الأمريكية) (ليس بوش وحده) (يا بلاش)!!

وثمة ثلاثة مؤلفات أخرى شهدها هذا العقد، يمكن أن تحسب على أدب المقالات، حيث انطوى كل واحد منها على ما يقرب من الخمسين مقالاً، تتابع وترصد ما تشهده الساحة من قضايا وتجارب وخبرات وتحديات تتطلب جواباً. فلقد أغنانا هذا الدين بالمعايير المنهجية والموضوعية التي نستطيع بواسطتها الدخول على أية مسألة أو خبرة أو قضية، مما يتجدد في الحياة، فنحيلها إليها، ونقيسها بها، ونخلص التالي إلى القول الفصل أو الحكم العادل الذي يتجاوز الظنون والتخمينات والأهواء: ﴿فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ وَبِعَهۡدِ﴾ [الأنعام: ١٥٢]. ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٣].

فبالهدي الرباني المستقيم كالسهم، الماضي كالصراط، يستطيع المسلم

التعاطي مع كل ما يعترضه في الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية: من تجارب وخبرات، جنحت بالسائرين بعيداً عن (كلمات الله) ذات اليمين وذات الشمال فضيعتهم، ويجيء هذا الدين لكي يحكم عليها، فيفضح وقفتها الخاطئة، ويقدم البدائل الصحيحة المنضبطة، من أجل جعل الحياة البشرية بالمستوى الذي أراده الله ﷻ، والذي يليق بكرامة الإنسان: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

إننا كإسلاميين في حالة جدل متواصل مع خصوم هذا الدين، أو في الأقل مع أولئك الذين لا يكادون يعرفون شيئاً من ضوابطه ومعطياته، وهذا يحتم علينا أن نتداعى جميعاً للاستجابة لهذا الجدل، وتقديم الموقف السليم الذي يفحم الخصوم ويرد الضائعين إلى الطريق.

فأما تلك المؤلفات الثلاثة فهي: (في دائرة الضوء) و(من النافذة الإسلامية)، اللذان تولت نشرهما (دار السلام) في القاهرة عام (٢٠١٤م)، وكتاب (العالم ينتظر البديل) الذي يؤمل أن ينشر قريباً بإذن الله.

وثمة محاولة لتجميع لقاءاتي الصحفية التي امتدت بين عامي (١٩٨٢ و٢٠١١م) بعد أن صدرت الوجبة الأولى عن دار الحكمة في لندن عام (٢٠٠٢م) بعنوان (حوار في الهموم الإسلامية: ريبورتاج). ولقد غطت لقاءات الفترة بين (١٩٩١ ـ ٢٠٠٠م). فلقد استجدت بعدها جملة كبيرة من الحواريات التي امتدت إلى عام (٢٠١١م). كما أنني عدت إلى أضابيري المكدسة فاخترت منها مقابلات أجريت في الفترة بين (١٩٨٢ ـ ٢٠٠٢م) مما لم ينشر في الكتاب الأول، لكي تشكل بمجموعها هذا الكتاب الذي يجده القارئ بين يديه، لملء الفراغ الذي تعاني منه مكتبة الأدب الإسلامي بخصوص أدب الحوار، الذي يعكس جوانب مهمة من (السير الذاتية) للمتحدثين...

وقد حرصت في مجموعتي الثانية، هي الأخرى على تحقيق قدر من التوازن في التغطية الجغرافية للمحاورين ما بين إنكلترا وفرنسا وماليزيا

وباكستان والمغرب والجزائر ومصر ولبنان والأردن وقطر والعراق... الخ.. وعلى إلغاء التقديمات السخية لهم والتي قد لا أستحق عشر معشارها، فمعذرةً.

صدر الكتاب بعنوان (لقاءات صحفية: في قضايا الفكر والحياة الإسلامية) عن (دار السلام) في مصر عام (٢٠١٤م).

ومحاولة أخرى لتجميع جل ما احتفظت به من مقدمات سبق وأن أنجزتها لعدد كبير من المؤلفات الإسلامية، جاوز المائة مقدمة، في سياق التاريخ والحضارة والفكر الإسلامي... إنها (رحلة في عالم الكتاب الإسلامي)... ما صدر منه وما ينتظر الصدور... رحلة تطلع القراء على معطيات الأقلام الإسلامية وهي تجوس بحثاً وتنقيباً وتحليلاً في حقول التاريخ والحضارة والفكر... بعض هذه الأقلام يتقدم بكتابه لأول مرة، وبعضها الآخر يضيف إلى ما سبق وأن قدمه... وفي كل الأحوال فإن رحلة القراءة الجادة في هذه الكتب سيعرّف بها، ويبين ما أضافته إلى المكتبة الإسلامية، سواء على مستوى المنهج أو الموضوع.

ومنذ ما يزيد على السنوات العشرين وأنا أتابع هذا الذي يعرضه عليّ المؤلفون، يطلبون مني أن أقدّم لكتبهم... فكنت أستجيب لدوافع شتى... قد يكون من بينها عشقي للاطلاع على الجديد، وقد تكون رغبتي في إضافة لبنة جديدة إلى المكتبة الإسلامية التي تزداد دفقاً وعطاء يوماً بعد يوم...

وبعد أن تجمع لدي حشد كبير من هذه (المقدمات) ارتأيت أن أنشرها في كتاب، وأن أوزّعها على مجموعتين تعرض أولاهما للمقدمات التاريخية، وتمضي ثانيتهما لعرض المقدمات الفكرية. وقد وجدتني مضطراً إلى أن أضيف إلى هذا كله، تلك المقدمات التي سبق وأن أنجزتها قبل دخول الألفية الثالثة، ونشرتها في ثنايا كتابين صدر أحدهما عن دار الحكمة في لندن بعنوان (متابعات إسلامية في هموم الفكر والدعوة والتحديات المعاصرة)، وصدر الآخر عن دار الفكر في دمشق بعنوان (الوحدة والتنوع في تاريخ المسلمين)...

وذلك من أجل أن ألمّ كل المقدمات التي كتبتها في حياتي، وأضعها بين أيدي القراء في كتاب واحد... فمعذرةً.

ولسوف يجد القارئ نفسه إزاء مؤلفات تستحق القراءة فعلاً، لأنها في معظمها تتناول مسائل تتميز بالجدة في الموضوع والحيوية في الطرح... فهي في الأغلب ليست من تلك التي تعالج موضوعات مستهلكة قيل فيها الكثير وكتب الكثير، وإلا ما كلفت قرائي الأعزاء بالرحلة معي عبر هذه الحديقة ذات الطعوم والألوان.

آمل ألا أكلف بعد اليوم بكتابة مقدمة لكتاب... فلقد طفح الكيل، وبلغ السيل الزبى... وما تبقى من هامش ضيق بين الحياة والموت... أرجو أن أوفق فيه لاستكمال مشروعاتي المتبقية، التي تلحّ عليّ صباح مساء... تناديني وتلحّ في النداء... ترى هل سأتمكن من تلبية المطلوب؟!

وثمة كتاب ثالث جمعت فيه جل البحوث والدراسات والتقارير الميدانية التي أنجزتها في عقد الثمانينيات، يوم كنت مسؤولاً عن قسم التراث في المديرية العامة لآثار ومتاحف المنطقة الشمالية. وهي جميعاً تصب في سياق تراث الموصل العمراني والاجتماعي والثقافي، وتؤشر على مظان القوة والضعف في هذا التراث، وتقدم طرائق وصيغ ومقترحات لحماية ما تبقى من التآكل والزوال.

لقد أتيح لي أن أعمل رئيساً للجنة المسح والتوثيق التراثي، ثم مديراً لقسم التراث في المديرية العامة لآثار ومتاحف المنطقة الشمالية، التابعة للمؤسسة العامة للآثار والتراث في بغداد، لمدى عشر سنوات (١٩٧٧ ـ ١٩٨٧)، عاينت خلالها النسيج التراثي للموصل معاينة ميدانية، شبراً شبراً وذراعاً ذراعاً، وشاركت في ندوات ومؤتمرات شتى، وفي لجان عمل مشتركة مع دوائر أخرى في المدينة، وقدمت العديد من الدراسات والتقارير التي تضمنت جملة من المرئيات والمقترحات لحماية التراث الموصلي من الضياع.

ولن أنسى جهود الأخوة والأخوات من موظفي وموظفات المديرية العامة

للآثار الذين انضووا إلى قسم التراث، فكلّت أقدامهم وهم يتجولون معي في أزقة وأحياء الموصل، زقاقاً زقاقاً وحياً حياً، فلم يكد بيت من بيوت الموصل القديمة، من أقصاها إلى أقصاها، لم تطأه أقدامنا، وتجوس عيوننا في منحنياته وزواياه بحثاً عن خصائصه التراثية، لغرض توثيقها بالتقرير والبيان والصورة الفوتوغرافية والسلايد الملوّن، والمرتسم الهندسي، ومن ثم تسقيطه على خرائط الكادسترو.

وغير الدور سائر المفردات الأخرى لتراث الموصل المعماري: الأسوار والأبواب والأبراج، الأسواق والخانات والقيصريات، المقاهي والمطاعم والحرفيات والحمامات، القناطر والحارات، المساجد والجوامع والبيع والكنائس... الخ... كلها وجدت طريقها إلى خرائط الكادسترو والتقرير والبيان والدراسة والصورة.

ثمة ما تتحتم الإشارة إليه وهو أن العديد من المعطيات التراثية التي ورد ذكرها في بحوث وتقارير هذا الكتاب، قد تعرّض عبر ربع القرن الأخير، للإزالة أو التشويه. وقد ارتأيت أن أبقيها على حالها كما كانت عليه أيام عمل قسم التراث في ثمانينيات القرن الماضي، لأنها ـ من جهة ـ تمثل جزءاً مهماً من التاريخ التراثي لهذا البلد، ولأن خسارتها تعطي المبرر ـ من جهة أخرى ـ لما تردد في صفحات هذا الكتاب من صيحات تحذير، ودعوة للتشبث، ولبذل جهد متواصل لحماية ما تبقى من (شخصية) الموصل التراثية.

صدر الكتاب في طبعته الأولى عن (مركز دراسات الموصل) التابع لجامعة الموصل عام (٢٠٠٠م) وستصدر طبعته الثانية عن دار ابن كثير في بيروت بإذن الله.

هذا وقد قمت عبر هذا العقد بإنجاز كتابين يحمل أولهما عنوان (محاضرات إسلامية)، ويحمل ثانيهما عنوان (محاضرات في التاريخ والحضارة الإسلامية). انتقيت في كل منهما جملة من محاضراتي التي ارتجلتها في مدن شتى من عالم الإسلام على ما يقرب من عشرين عاماً (١٩٩٠ ـ ٢٠١٠م).

في المساجد والجامعات والندوات والمؤتمرات والجمعيات والمعاهد والأحزاب والمجالس العلمية، وأعدت كتابتها من جديد اعتماداً على الذاكرة وعلى رؤوس موضوعاتها المدونة عندي على قصاصات من الورق.

تعالج (المحاضرات الإسلامية) عدداً من الموضوعات ذات التأثير المؤكد في ديننا وعقيدتنا وفكرنا وسلوكنا ونشاطنا الفردي والاجتماعي... تؤشر على مكامن الداء وتسعى لأن تقدم الدواء، وسبل الخروج من الأزمات التي نعانيها صباح مساء... تستعرض التحديات وتحاول أن ترسم الخطط والاستجابات الناجحة لها، من أجل أن تستعيد هذه الأمة دورها القيادي الضائع، وتمارس بالجد المطلوب مشروعها الحضاري الأصيل.

تأملات في الإيمان والتوحيد، حول التصوّر الإسلامي للعمل، قراءة في الكتابين المسطور والمنظور، ماذا يراد لنا: قراءة في كتاب التنصير، نماذج من العمل القيادي الإسلامي، تأشيرات حول التعامل مع الشاشة الصغيرة، المرأة المسلمة والعمل السياسي، هوامش على ملف العمل الخيري، عدالة المشروع الحضاري الإسلامي، مرئيات حول العولمة والنظام العالمي الجديد، ازدواجية التعليم الجامعي، مرئيات للخروج من الأزمة، مفهوم الإعمار وعلاقته بالنهضة في ضوء القرآن الكريم، مفارقة الإنسان والتقدم: رؤية مقارنة.

فعسى أن أكون قد وفقت في اختيار الموضوعات التي تهم المثقف المعاصر، وتمس ما يكتوي بناره، وينتظر من يشير بكلتا يديه إلى معالم الطريق.

أما كتاب (محاضرات في التاريخ والحضارة الإسلامية) فيدير كاميرته على جوانب مؤثرة من حياة الرسول (عليه أفضل الصلاة والسلام)، ثم يمضي مع فلسفة التاريخ والحضارة، أو تفسيرهما، لكي يحلل نشوء الحضارات ونموّها من المنظور القرآني، أو تدهورها وسقوطها من ذات المنظور، ولكي يتحدث عن قيمة التاريخ، وعن علاقة الأدب بالتاريخ، وعن منهجي في البحث فيه،

وخبرتي مع الاستشراق، وعن الفكر الخلدوني في التصوّر الإسلامي، وابن خلدون وإشكالية الفلسفة.

وثمة محاضرات أخرى تسعى لتحليل ظاهرة الفتوحات الإسلامية، أو تقف لحظات مع الصديقين والشهداء، أو تسلّط الضوء على دور الكرد والأتراك في تاريخنا الإسلامي... أو تطرح منهجاً في التعامل مع التراث، أو تناقش المفردات المنهجية لأقسام التاريخ في الجامعات العراقية...

ودائماً نقول بأن المقاربة والتسديد هي بفضل الله وحده... أما القصور والأخطاء فمما صنعت أيدينا... والكتابان بصدد النشر بإذن الله.

أما في سياق الأدب، فقد أتيح لي أن أنجز ثلاثة مؤلفات حمل أولها عنوان (متابعات في دائرة الأدب الإسلامي: بحوث ومرئيات في التنظير...) والذي ينتظر النشر في دار ابن كثير في بيروت ـ بإذن الله ـ ويتضمن البحوث التالية:

- (قضايا الأدب الإسلامي: الثنائيات الأساسية: توافق أم تضاد؟)
- (مفهوم الأدب الإسلامي: إشكالية العمق التراثي)
- (مرئيات في الرواية الإسلامية تطبيقاً على السيف والكلمة)
- (حول مذهبية الأدب الإسلامي)
- (تأشيرات على البنيوية)
- (مرئيات في الجمالية الإسلامية)
- (أبجديات حول أدب الغموض)
- (الأسلوب الملتوي إلى أين؟)
- (النورسي والالتزام في الأدب)
- (تعبير الرؤيا: محاولة جادة لاستكناه النص)
- (حول السريالية واللغة)
- (نحو آفاق تربوية في عرض التاريخ الإسلامي على الشاشة الصغيرة)

وقد قدّم الكتاب بكلمة موجزة تبين ضرورات (التنظير) في حركة الأدب

الإسلامي المعاصر، تلك التي تضع الموازين القسط لمعطيات هذا الأدب، وتأخذ بأيدي أصحابه والمعنيين به، إلى ما يطمح إليه كل أديب مسلم من أن يكون لهذا الأدب المكان الذي يستحقه على خارطة الآداب العالمية.

وهذا الكتاب هو الرابع من الكتب التي أنجزتها في سياق التنظير للأدب الإسلامي المعاصر، إذ سبقه في الصدور كل من:

في النقد الإسلامي المعاصر.

مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامي.

حول استراتيجية الأدب الإسلامي.

وسيعقبه بإذن الله الكتاب الخامس، الذي يحمل عنوان: (من يوميات الأدب الإسلامي).

وأما ثاني تلك المؤلفات فيحمل عنوان (في النقد التطبيقي الإسلامي) والذي يتابع بالنقد جملة من معطيات الأدب الإسلامي المعاصر في الساحة العربية، من مثل: (مع شعراء المغرب الشقيق)، و(مع إصدارات الأدب الإسلامي: قراءة نقدية) و(مع الشاعر حكمت صالح في دواوينه الثلاثة)، و(قراءة نقدية في مجموعتي حميدة قطب الروائيتين: رحلة في أحراش الليل، ونداء إلى الضفة الأخرى)، و(أدب المرأة في الرواية الإسلامية: عمالقة الشمال وعذراء جاكرتا للكيلاني: نموذجاً). ويضيف الكتاب إلى هذه الموضوعات عرضاً بالعديد من الإصدارات الأدبية في الدائرة نفسها.

والكتاب هو الآخر ينتظر النشر في دار ابن كثير ببيروت.

وأما ثالث تلك المؤلفات، فقد اقترحت له عنوان (من يوميات الأدب الإسلامي)، لأني أردت منه أن أتابع يومياتي المتواصلة مع معطيات هذا الأدب، سواء كانت بصيغة محاضرات عامة ألقيت في مناسبات شتى وعبر بلدان مختلفة، أم جملة من المقالات المركزة التي أردت بها وضع معالم على طريق الأدب الإسلامي... أم حشود كبيرة منتقاة من كمّ هائل من الرسائل التي كنت أجيب بها على عدد من الأصدقاء والمتابعين في قضايا الأدب أو الفن

الإسلامي، أم رؤى انطباعية عن أولئك الذين رحلوا عن الدنيا وتركوا بصماتهم على صفحاتها... أم عدد من التعقيبات والمرئيات الضرورية في سياق حركة هذا الأدب الذي أخذ يتدفق كالسيل، ولم تعد قوة في الأرض قادرة على أن توقف تدفقه...

وهذا الكتاب ينتظر دوره في النشر بإذن الله...

ومن أجل استكمال مشروعي التسعيني، الذي استهدفت منه على مدى عمري كله إنجاز تسعين مؤلفاً، سهرت على إتمام مسيرتي المجهدة تلك بإنجاز ستة مؤلفات أخرى، سيقدّر لها أن تكون خاتمة المطاف بعون الله وحده جلّ في علاه.

والحق أن موضوعات هذه المؤلفات الستة كانت تغريني بإنجازها منذ زمن بعيد، لكن زحمة مشاغلي مع الأعمال الأخرى اضطرتني إلى تأجيل التفرغ لها فيما بعد عام (٢٠١٠م)، حيث تتوقف عند سيرتي الذاتية، التي أريد لها أن تحكي قصتي مع سبعين عاماً من عمري (١٩٤١ ـ ٢٠١٠م).

أما أوّل تلك المؤلفات، فقد بدأ بصيغة جملة من المحاضرات التي ألقيت في مدينتي (الموصل) عبر مناسبات شتى، وطالما ألحّ عليّ عدد من الأصدقاء وحملة الهمّ الإسلامي أن أخرجها في كتاب يساهم في تعديل الوقفة الجانحة في حياتنا الإسلامية الراهنة، فما لبثت بعد تسويف طويل أن تفرغت لتبويبها وتنقيحها والإضافة عليها وإخراجها في كتاب يحمل عنوان (أخطاء في حياتنا الإسلامية)... وهو بمثابة رحلة مع أخطائنا نحن المسلمين، مستمد من خبرة مؤلفه المحدودة، ومعايشته ومشاهداته... بل من أخطائه الكثيرة هو أيضاً... محاولة للنقد الذاتي من أجل تعديل الوقفة، والتوحد بين القول والعمل... الفكر والممارسة... ومجابهة سلطة الزمن...

إنها وقفة عند إشكالية الفصام النكد بين العقيدة والسلوك، والذي راح يشتكي منه الجميع، ويتخذه الخصوم بوابة للطعن في الإسلام نفسه... فيما يذكرني بأمسية جدال طويل أقف فيه وحيداً لتأكيد أن أكثرية المصلين

متوحدون في سلوكهم، وأضرب لذلك مثلاً جامع الحيّ كعينة صالحة للاختبار... فإذا بأكثرية الحضور يأتون بشواهد مضادة على أن معظم المصلين ممن لا يطمئن إليهم بسبب ازدواجية سلوكهم، وعدم تأثير العبادة في تكوينهم الأخلاقي بل وحتى النفسي.

لا بل أن أحد الجيران يذهب في رد فعله بعيداً فيقول: إن هذا الدين أكبر بكثير من العرب الذين ينتمون إليه... وأنهم ما كانوا أهلاً لأن يسمون مسلمين... وأن أمة حية كاليابانيين أو الألمان، أقرب بكثير إلى ما أراده هذا الدين بهندسته المدهشة والمحكمة، وبتعاليمه التي تفجر القدرات الإبداعية في المنتمين إليه، كما فعلت مع الأجيال الأولى...

قُسّم الكتاب إلى ثلاثة سياقات أساسية: السياق التعبدي، والسياق الاجتماعي، والسياق الفكري الثقافي الدعوي... ومحاولة وضع اليد على الأخطاء كافة في هذه السياقات الثلاثة، أمرٌ يكاد يكون مستحيلاً... ولهذا تم الاكتفاء بنماذج فحسب من تلك الأخطاء في كل سياق، وترك الباب مفتوحاً لكي يشارك القراء أنفسهم بعملية الكشف عن المزيد من الأخطاء.

والغرض ـ وحاشا لله ـ ليس الرغبة في نشر غسيلنا أمام القاصي والداني، ولا التلذذ بجلد أنفسنا فيما يعكس حالة قد تكون مَرَضية لا تستقيم والبحث الجاد... وإنما هي محاولة لوضع اليد على مكامن الخطأ من أجل تداركه، والتأشير على مظان الانحراف من أجل العودة إلى الصراط... فنحن لا نستطيع أن نخاطب الآخر، أو نعبر إليه، أو نحاوره، أو ندعوه، أو نهاجمه دفاعاً عن أنفسنا، ما لم ننظف بيتنا الإسلامي جيداً، ونسدّ ثغراته، ونحصّنه ضد أية محاولة للاختراق، تحت شعار (من كان بيته من زجاج فلا يرمي الناس بالحجارة)!!

فلما أنجزت تأليف الكتاب أحسست بأني وضعت عن كاهلي عبئاً ثقيلاً، وتخففت من الإحساس بذنبي وذنب الآخرين... ذلك أننا جميعاً صنعنا هذه الأخطاء بعقولنا وأيدينا للأسف الشديد.

ولا يزال الكتاب بانتظار النشر.

أما ثاني تلك المؤلفات فقد حمل عنوان (التاريخ والسنن التاريخية في كتابات النورسي)... ولهذا الكتاب قصة أوجزها بما يلي: في أعقاب ندوة فكرية (سيمنار) حول رسائل النورسي أقامتها في إسطنبول مؤسسة الثقافة والعلوم في خريف عام (٢٠٠٨م)، طرح الأخ الدكتور عبد الكريم العكيوي (من المغرب) وثنّيت أنا على فكرته: في أن تتم من قبل مجموعة من الباحثين عملية تفكيك لرسائل النورسي المائة والثلاثين، وفق موضوعات محددة، لكي تقدم رؤية النورسي لكل موضوع بأكبر قدر من اللمّ والاستقصاء، فيجد المعنيون بفكره المادة المطلوبة لكل موضوع، جاهزة بين أيديهم، بنصوصها، وبما تتطلبه هذه النصوص من الربط والتنسيق والإضاءة والإيضاح.

عدت إلى بلدي مقتنعاً أشد الاقتناع بتنفيذ المشروع، وما لبثت أن بعثت الرسالة التالية إلى الأخ الأستاذ إحسان قاسم الصالحي: (سوف أعمل عبر الأشهر القادمة إن شاء الله في المشروع الذي اتفقنا عليه، وهو جمع وتنسيق كل ما أورده النورسي في رسائله عن (التاريخ والسنن التاريخية). ويا حبذا لو تتفقون مع باحثين آخرين لجمع وتنسيق ما أورده النورسي في السياقات الأخرى من مثل: (الحضارة الغربية) (العلم والإيمان) (عالم الغيب) (العقيدة) (الشريعة) (العبادات) (آداب السلوك) (التعامل مع الآخر) (السنن الكونية) (الخطاب الدعوي) (التصوف)... الخ...).

الموصل في ٢٠٠٨/٩/٢م.

فكان جوابه: (حقاً لقد أنجز الحرّ ما وعد، فبارك الله في جهودكم وأعانكم على القيام بما وعدتم).

إسطنبول في (٢٠٠٨/٩/٣م).

أما الدكتور عبد الكريم العكيوي فقد بعث إليه برسالة هذا جانب منها: (تلقيت رسالتكم بخصوص ما تفضل به الدكتور عماد الدين خليل، ولا يزال الأمر حاضراً في ذهني كما حدثكم، وكما اقترحت في نهاية ورقتي، فيمكن أن

آخذ عنواناً من العناوين واشتغل عليه. كما يمكن ان أكلف بعض الباحثين. لكن أظن أنا بحاجة إلى توحيد رؤية ومنهجية في العمل. هل نريد أن نكتب عن النورسي، أم نريد أن نترك النورسي نفسه يتكلم... أعتقد أننا بحاجة أولاً إلى لقاء يتاح في أول فرصة ولو في البيضاء، مثلاً معكم والدكتور عماد ومن ترونه مناسباً لهذا العمل، بحيث تشكل لجنة مصغرة من خمسة أفراد مثلاً تضع أرضية العمل ـ رؤية ومنهجية ـ وتشرف عليه، وتحدد لذلك برنامجاً أو مخططاً زمنياً للإنجاز...).

وتعقيباً عليها، توجهت بالأسئلة التالية إلى الأخ الأستاذ إحسان:

أولاً: هل أبدأ بالعمل، بقدر تعلق الأمر بالتاريخ والسنن التاريخية في كتابات النورسي؟ على أن تتولوا أنتم توزيع الموضوعات الأخرى على باحثين أخر، كل في حقل اختصاصه؟

ثانياً: أم أؤجل العمل لحين إجراء اللقاء الذي اقترحه الدكتور العكيوي، والذي قد تنبثق عنه لجنة تضع الشروط المنهجية الموحدة التي سيعمل الباحثون جميعاً وفق مطالبها؟

ثالثاً: جواباً على رسالة الدكتور العكيوي يفضل أن نجعل النورسي نفسه يتكلم، وذلك بتجميع وتنسيق كل ما قاله في كل موضوع من الموضوعات التي عالجها متفرقة في رسائله، مع قيام كل باحث بكتابة مقدمة مستفيضة، تضع مفاتيح الفكر النورسي في كل موضوع بين أيدي القراء...

الموصل في ٩/٩/٢٠٠٨م.

فكان جوابه: (أفضل أن تباشر الآن بالعمل كما تفضلتم، وهو أن يتكلم النورسي مع مقدمة مستفيضة للباحث. أما الاجتماع حول الموضوع ففكرة جيدة، ولكن قد يستغرق وقتاً طويلاً جداً).

إسطنبول في ٩/٩/٢٠٠٨ م

ثم ما لبثت مشاغل التأليف ومنغصات الحياة أن صرفتني عن متابعة الموضوع، وإن ظل ينبض في ذاكرتي ووجداني طالباً التنفيذ... وبعد سنتين

أتيح لي أن أتفرغ لإنجازه وبعثت بالرسالة التالية إلى الخ الأستاذ إحسان: (... في ضوء ما اتفقنا عليه من تفكيك رسائل النورسي وإحالتها إلى موضوعات متخصصة يتناول كل واحد منها أحد الأخوة الباحثين، فإنني ـ وبقدر تعلق الأمر بي ـ سأتناول ـ بإذن الله ﷻ ـ (التاريخ والسنن التاريخية في كتابات النورسي) وأرفق لكم بالإيجاز الشديد مرئياتي حول الموضوع وأسلوب العمل، لكي أرى فيهما رأيكم كي أبدأ بعد أن أتماثل للشفاء بمعونة الله...).

الموصل في ٢/١١/٢٠١٠ م

وجاءني الجواب بأن أتوكل على الله وأبدأ العمل... وها هو ذا الكتاب يتم إنجازه، بمعونة الله ﷻ، بعد سنتين من ذلك التاريخ... فعسى أن أكون قد سددت شيئاً من الدَّين الذي في رقبتي إزاء هذا المفكر الكبير. وفق الفصول التالية بعد المقدمة:

الفصل الأول: في فلسفة التاريخ والمشروع الحضاري.

الفصل الثاني: عصور ما قبل الإسلام.

الفصل الثالث: عصر الرسالة.

الفصل الرابع: عصر الراشدين والأمويين والعباسيين.

الفصل الخامس: المستقبليات.

وأما المؤلفان الثالث والرابع، مما أعتز بهما اشد الاعتزاز بسبب من ارتباطهما بالنّص القرآني فهما (آيات قرآنية تطل على العصر) و(دراسات قرآنية).

(آيات قرآنية تطل على العصر) هو الكتاب الثاني عشر مما أنجزته عبر خمسين عاماً في فن المقال... ولكنه هذه المرة يختلف عن كتب المقالات التي سبقته... أنه من بدئه حتى منتهاه يتمركز في كتاب الله، ويتعامل مع آياته البينات، تلك التي تؤكد قيماً ومواقف وملامح أصيلة في بنية هذا الدين، وتعكس رؤية معاصرة للمفاهيم القرآنية، التي أريد لها أن تكسر حواجز التاريخ وتطل على كل عصر. ولهذا اخترت له عنوان (آيات قرآنية تطل على

العصر)... ليس ـ أبداً ـ بمعنى أن هناك بالمقابل آيات أخرى لا تلامس هموم العصر وتحدياته... وإنما لأنني عبر قراءاتي المتواصلة في كتاب الله اخترت هذه الآيات من بين العشرات والمئات والألوف... وإلا فإن كتاب الله كله، من بدئه حتى منتهاه، يطل على العصر، وعلى كل عصر، متجاوزاً مقولات الجغرافيا والتاريخ.

وهو ليس تفسيراً لكتاب الله... وحاشاه... فأنا لا أدّعي القدرة على هذا العمل، حتى في حدوده الدنيا، وهو ليس من اختصاصي... وإنما هو تعبير عن طريقة تعامل ملايين الناس مع كتاب الله... فمن حق كل مسلم في هذا العالم أن يقرأ في كتاب الله، وأن يفهم منه ما ينطبع في عقله ووجدانه، وأن ينقل هذا للآخرين، لكي يعينهم على التدبر في آيات الله المعجزة التي لا تنقضي عجائبها ولا تخلق على كثرة الردّ... إنها في حقيقة الأمر مقاربة وليست تفسيراً.

ففي هذا الدين ليست ثمة اكليروسية تقصر حق فهم النصّ الديني والتعامل معه على عدد محدود من رجال الدين... وإنما هو دين مفتوح... ينطوي كتابه على طبقات من المعاني التي ينبني بعضها على بعض ويقوم بعضها على بعض... ومن حق المسلمين جميعاً، وقد أمروا بقراءته يوماً بيوم، أن يفهموا منه ما يقدرون على فهمه، فإن لهم بذلك أجراً... لكن فهمهم هذا ليس ملزماً للآخرين بأي شكل من الأشكال.

وأما ثاني الكتابين وهو (دراسات قرآنية) فيبدأ باستعراض مفصل لرحلتي مع كتاب الله، ثم يثني بجملة من الدراسات القرآنية التي تحمل العناوين التالية: (يا حسرة على العباد)، (الغيب يخترق المنظور)، (حول معجزة الأمطار)، (مستويات الخطاب الإلهي لرسول الله ﷺ)، (الطاغوت وتوقيت العقاب الإلهي)، (حول النبوءات المستقبلية)، (شيء عن اليهود في كتاب الله)، (الحياة التي يريدها كتاب الله)، (رحلة مع الصوت في كتاب الله)،

(من هم العلميون؟)، (حول ثنائية الخطاب القرآني)، (دين التحرير)، (دين الكادحين)، (حول النشاط العمراني في كتاب الله)، (الفرح الكوني)...

لقد تضمن كتابي هذا مقالاً بعنوان (الفرح الكوني) حاولت أن أرصد فيه جل القيم والمعايير التي تمسك بيد الإنسان المسلم وتأخذه إلى فوق... إلى سماوات البهجة، والاطمئنان، واليقين، والتوحد، والفرح... تعلو به... تحرره... من كل صنوف اليأس، والتعاسة، والمرارة، والشقاء، والألم، والندم، والحيرة، والتخبط، والإحساس بالاختناق... وبأنه وضع في حفرة ضيقة لم يتح له الخروج منها إلّا إلى حفرة أخرى أشد ضيقاً هي القبر!!

أردت أن أفتح الفضاء الواسع... السماء الكبيرة... الإضاءة الكونية... أمام الإنسان المسلم الذي يضيق عليه الحصار يوماً بعد يوم... أمام عقله، وضميره، ووجدانه، وروحه، وجسده... أن أقول له بأن عليه أن يكون من أكثر خلق الله فرحاً في هذا العالم... من أكثرهم تحرراً من المخاوف والآلام... وأن فرحه يتجاوز حدود الأنا، الجماعة، الإقليم، الأمة، والعالم... إلى الكون، الذي جاء هذا الدين لكي يقيم بينه وبين الإنسان أعمق الوشائج والصلات، وأن يعقد بين الطرفين ألفة ميتافيزيقية، لم ولن يستشعرها أي إنسان إلّا هذا المسلم الذي فتح وعيه على هذه المسألة الهائلة التي أعطيت له... مساحة كونية تتجاوز الراهن إلى الأبدي، والمحدود إلى المطلق، والزائل إلى الباقي، والجزئي إلى الكلي، والعابر إلى الدائم الذي لا يتقطع ولا يزول.

إننا كمسلمين، لسنا أبناء قرن دون قرن، أو بيئة دون أخرى، ومكان دون مكان... إنما نحن أبناء كل زمن وكل مكان... وأن كتاب الله يعلمنا هذا... يسلمنا المفتاح المدهش، الذي نفتح به بوابات العالم والكون على مداهما... فنصبح بحق أناساً كونيين تغمرنا سعادة لا نكاد نجد لها مفردة في قواميس الدنيا... ولا قريناً في أفكارها ومبادئها وخبراتها، التي إن استطاعت أن تبلغ شأواً بعيداً في التقنية والخدمات وتغطية الملاذ الحسية... لكنها ظلت ولا تزال تعاني من الضمور الروحي، والإحساس بالاختناق في البيئات الضيقة، وبالتالي

هيمنة حالات الاكتئاب على العديد من أبنائها، وهو اكتئاب يتزايد نوعياً بما يقود المأزومين إلى غسل أيديهم من الخلاص... فيلجؤون إلى الانتحار.

إن هذا ما تقوله آخر الإحصائيات التي نشرتها وكالات الأنباء على شاشات الفضائيات: عشرة بالمائة من الأمريكيين يعانون من الاكتئاب، ويهربون إلى المغيبات التي هي أشد لعنة وفتكاً من الخمر... والحشيش والأفيون... وقد يلجؤون إلى الانتحار... اليابان في عام (٢٠١٠م) تخصص ثلاثين مليار دولار لملاحقة حالات الاكتئاب والانتحار التي تضيق الخناق على اليابانيين. أما في السويد والنرويج، باعتبارهما من أكثر الدول تقدماً خدمياً وتقنياً؛ فإن ما يحدث فيهما من حالات الانتحار يضرب به المثل... وصدق الله العظيم القائل في محكم كتابه: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٣ ـ ١٢٦].

لقد كانت رحلتي مع كتاب الله بمستوياتها الثلاثة: السماع، القراءة، الدراسة والبحث، واحدة من أكثر الرحلات عبر حياتي كلها، متعة وفائدة... ولقد مارست التخفيف عني فيما كنت أعانيه من التعاسة والضيق، ونفاد الصبر، والعتمة، والقلق، والندم... ونقلتني إلى آفاق التحرر والتوحد والاطمئنان والفرح واليقين... وهذا يكفي... وأنا أقول في نفسي: ما أكثر أخطائي التي تتزايد يوماً بعد يوم، ربما وفق متواليات هندسية، لكن ما يعزّيني ويدخل الاطمئنان إلى يوم الحساب في وجداني وعقلي... أنني عشت بالطول والعرض والعمق مع كتاب الله، مستمعاً وقارئاً ودارساً، الأمر الذي تمخض عن عشرين من مؤلفاتي... كان هذا الكتاب آخرها... فلعل ذلك يشفع لي عند الله، جلّ في علاه... يوم الحساب!!

وهذا الكتاب ليس تفسيراً بالمعنى العلمي الدقيق للتفسير، ولكنه تأملات مشروعة لكل مسلم، قد تخطئ وقد تصيب... إن كتاب الله يتم التعامل معه

بصيغ عديدة، منها التفسير الذي ينطوي على شروط محددة ملزمة... والتأمل الذي قد لا يلتزم ببعض هذه الشروط، ولكنه ـ بالمقابل ـ لن يكون ملزماً لأحد من الناس غير صاحبه... وتبقى النية هي البوصلة الحقة لكل المسافرين عبر كتاب الله!!

وثمة كتاب آخر يوازي كتاب (آيات قرآنية تطل على العصر) يحمل عنوان (أحاديث نبوية تطل على العصر) اخترت فيه جملة من الأحاديث الموثقة كما أخرجها المحدّث الكبير (البخاري) في (صحيحه)، انتقيت من بين العشرات والمئات والألوف، وهي تحمل خطابها المؤثر الموجه للإنسان في كل زمن ومكان، أن يفيء إلى خيمة الله، ويحيا الحياة المتوازنة السعيدة التي أرادها له هذا الدين، والتي ـ بدونها ـ لن يكون سوى التعاسة والتمزق والقلق والشقاء...

وأخيراً... يجيء الدور على حصاد العمر كله... سيرتي الذاتية التي تجدونها بين أيديكم والتي تتضمن: (رحلتي مع الحياة)، و(رحلتي مع الكلمة)، و(رحلتي مع الأسفار).

أما (مذكرات طالب جامعي) فقد ارتأيت أن أفصله عن سيرتي الذاتية، وأنشره في كتاب مستقل تجاوزاً لتضخّم صفحاتها التي أوشكت أن تصير ألفاً، فيما يجعل من تداولها بين القرّاء أمراً صعباً...

ولسنوات عديدة وأنا أهم بالبدء في هذا العمل، الذي اعتبره حصيلة كفاحي المتطاول مع الحياة... والكلمة... وأنا أعاني الحيرة في اختيار عنوانه الذي أرتاح له... وإذا بي أعثر يوماً على المطلوب الذي يوجز السيرة كلها بكلمات قلائل، لكنها تعني الكثير الكثير، وتنطلق من البؤرة الأساس التي تمركزت حولها حياتي وكتاباتي بفضل الله: (لا إله إلا أنت: سيرة ذاتية)، وهو عنوان، فضلاً عن كونه يعكس بأمانة كاملة هموم سيرتي الذاتية؛ فإنه يتميز بالجدة، والأصالة، التي تسعى لأن تحيل كل شيء في حياة الإنسان إلى خالقها، ومُنشئها، ومقدّر مصائرها... جلّ في علاه...

فعسى أن يكون جهدي هذا، جواز سفري إلى الله ﷻ... وعساه أن يضع

ستاراً حاجزاً بيني وبين لفحات جهنم... يوم الحساب... داعياً الله ﷻ أن يجعله خالصاً لوجهه... لا أريد به جزاء دنيوياً ولا شكوراً... فلقد شبعت عبر هذه الحياة من الجزاء والشكور، وأصبحت وأنا أقف على حافات العمر، أخشى أن تكون وبالاً عليّ يوم الحساب... أنا الذي حُمّلتْ حياته بشبكة من الأخطاء والضلالات لا حصر لها... ولن يغفرها لي إلّا رحمة الله: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة: ٢٧].

وصدق الله العظيم



الفصل الثالث عشر

تأملات في الكتابة والإبداع

أتوق ـ أحياناً ـ وأنا أحترق بنار التجربة، أن أجد اللغة التي تحمل صوتي إلى الآخرين... أن أعثر على صيغة ملائمة للخطاب... لإخراج النار التي تئزّ في جملتي العصبية لكي أشعل بها وجدان الآخرين.

هذا هو جوهر المأساة التي عاشها جلّ الشعراء والفنانين، أنهم لم يجدوا القدرة على صياغة لغة معادلة تماماً للخبرة بكل خلفياتها، ومكوناتها، وألقها، وهديرها، وتوقها للمجهول.

أن يستحيل المجهول لديهم إلى معلوم، وأن يصير الحلم واقعاً... وأن يتشكل الهيولي بقوة الحرف، قبالة الحسّ البشري واضحاً، نقياً، متألقاً، كالبلّور...

فضاع بعضهم ضاع في الغموض، دخل ـ أراد أم لم يرد ـ دنيا الضباب والألغاز.

بعضهم الآخر، وبصعوبة بالغة، أو بالأحرى بنوع صعب من التضحية، فك ارتباطه بالأعماق، وغادر إلى السطح، أو قريب منه، لكي يجد اللغة السهلة التي تعبر عن الطبقات الأقرب إلى السطح، فتضحّل... وضاع...

مشكلتي كانت البحث عن اللغة التي تخرج بي بعيداً عن هذا المصير أو ذاك... لغة الوضوح العميق أو العمق الواضح... خمسون سنة وأنا أبحث وأنقب عن اللغة الحلم... اللغة المستحيلة... ولقد أوقعني هذا في حشود من الأخطاء ـ أحياناً ـ وأنا أمارس المحاولة، حتى في ساحة الأكاديمية التي تستعصي على الشعر والخيال... لم يفهمني أصحابي فازددت تعاسة وضياعاً...

أحياناً أخرى كنت، وللحظات، أعثر على المطلوب (كما في المغول، والعبور، والفن والعقيدة، والسيف والكلمة...) فيقر قراري، وأحس طعم القناعة العذبة وأنا أجد الكلمة التي تحمل الحريق الذي يدمرني من الداخل، لكي تضيء به العالم!

أحياناً أخرى أرجع من حيث أتيت وتستعصي عليّ الكلمات، فأعرف كيف يكون العذاب... في الشعر... في النقد... في الفكر... في التاريخ... في المسرحية... في الرواية... في المقال... في البحث والدراسة والسيرة، في الفلسفة والمنهج... وأخيراً في السيرة الذاتية...

كان الهاجس نفسه يلح عليّ، ويتقلب بي ـ كالموج الصاخب ـ هابطاً مصعّداً... أحياناً تصير التجربة نوعاً من الرحيل في الملكوت... تجاوز المنظور إلى ما وراء المألوف... إلى دنيا لم تطأها ـ بعد ـ قدم إنسان، ولا تعاملت معها كلماته، فأنى باللغة التي تصف وتشرح وتيسّر وتنقل الخطاب إلى الناس متحدثة عما يحدث هناك، مشكلة، بقوة الحرف وقدرته على التعبير، معالم الأرض البكر التي تغيب عند التخوم البعيدة، فيصير ذهبها وماسها شيئاً آخر غير الذهب والماس؟

هناك وجه آخر في إشكالية تعاملي مع اللغة، يتمثل في المستوى اللغوي للأداء وأنا أكتب مؤلفاتي...

والخيط رفيع... والسير ها هنا كالسير على حدّ السيف... فإما أن تكتب لجماهير القراء، فتتسطح وتضيع، وتدان من دوائر المثقفين والمتخصصين... وإما أن تكتب لهؤلاء فتخسر الجماهير، وربما الناشرين معهم، أولئك الذين يعطون لمؤلفاتك إشارة المرور للوصول إلى القراء... وطالما حدثني بعضهم عن ضرورة إجراء تبسيط أكثر في أعمالي، لأن القراء يشتكون من صعوبتها.

ولم تكن الاستجابة لهذا الطلب بالأمر اليسير، لأنها ستجرفني باتجاه السهولة الزائدة، فتفقد أعمالي احترامها من قبل الدوائر الأخرى.

على أية حال، كانت محاولتي صعبة وأنا أسعى إلى الإمساك بالعصا من

أوسطها، فأحتفظ بالجماعتين معاً... ولكن هذا لم يخل من خسارة، فإن هناك على الطرفين من لم يرتح لهذا، فظلت مساحات من القراء تشكو من صعوبة لغتي، وظلت مساحات أخرى تدين جنوحها صوب البلاغيات، والإنشائيات، وربما التكرار الذي يستهدف إيصال الخطاب إلى القواعد العريضة من القراء.

مهما يكن من أمر فإنني مقتنع بفضل الله، بهذا الذي استطعت أن أفعله تجاه إشكالية اللغة، وظلت مؤلفاتي ترفع خطابها لأكثر الشرائح ثقافة وتخصصاً، وتخترق جدران الأكاديمية لكي تعتمد في العديد من الجامعات العربية والإسلامية والعالمية، في مستويات الدراسات الأولية والعليا على السواء، فضلاً عن اعتمادها في إنجاز العديد من رسائل الماجستير والدكتوراه في مختلف بلدان العالم، دون أن يؤثر هذا، إلّا في نطاق محدود، على قاعدتي العريضة من القراء... قاعدتي التي أعتز بها وأعتبرها ـ بعد الله ﷻ ـ سندي وظهري ومحفزي لمواصلة العطاء...

عندما كنت أشرع في تنفيذ مشروع كتاب ما، كانت اللغة، أحياناً، تفرض نفسها علي: بإيقاعها، بجملها، بمناخها، بشروطها الجمالية، بل حتى بمفرداتها... فيجيء التعبير متوحداً في (طعمه) إذا صغ التعبير، من بدء العمل حتى منتهاه...

يبدو أن اللغة تمارس نوعاً من الجبرية على المفكر، فلا تدع له مجالاً للانتقاء والتنقل بين الفقرات والفصول، ولا تعطيه هامشاً لالتقاط الأنفاس، وإعادة ترتيب أوراقه التعبيرية... بمعنى أنها ـ كالعمل الإبداعي ـ تتخلق ذاتياً، وفق شروطها وقوانينها الخاصة، بعيداً عن التدخل المباشر من قبل المفكر... فكما أن القصيدة أو القصة أو المسرحية، بعد هندسة مرتكزاتها الأساسية، تخرج عن خيار الأديب، وتبني نفسها، وفق نوع من التنامي المحكم في معظم الأحيان، والذي يؤول بخيوط العمل الفني، بقصدية لا ارتباك فيها، ويقوده إلى النهايات المنطقية، فإن لغة الكتابة، حتى في مجالات بعيدة عن دائرة الأدب

والفن ـ أحياناً ـ تخرج في صيرورتها، ونبضها، وإيقاعها، وترتيب مفرداتها، عن مملكة المفكر، أو إرادته، لكي تشكل نفسها بنفسها...

وهذا هو الذي حدث في بعض أعمالي، وليس فيها جميعاً بطبيعة الحال...

(ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز) ـ مثلاً ـ أو (حول إعادة تشكيل العقل المسلم) أو حتى (التفسير الإسلامي للتاريخ) إلى حد ما... فكل واحد من هذه الأعمال ينطوي على مناخه اللغوي، أو التعبيري الخاص، بكلمة أدق، ويحمل مذاقه المختلف عن الأعمال الأخرى...

وكنت، في البدايات الأولى، أتعمد أن أضع نفسي في دائرة بعض المؤثرات الخارجية، كتشغيل جهاز التسجيل على سيمفونية ما، كالذي حدث في (ملامح الانقلاب) من أجل منح التعبير بطانته الوجدانية، ونبضه الشعري، ولكني ـ بمرور الوقت ـ استغنيت عن هذا بعد أن وجدت (العمل) نفسه يختار لغته دونما أي مؤثر خارجي.

نمو الخبرة، والرغبة الدائمة في التحسين، وعدم الرضا عن الأشياء التي تم إنجازها، أو جوانب منها على الأقل، وعندما يرجع الإنسان إلى قراءة ما سبق وأن كتبه قبل عشر سنوات أو عشرين، يقول في ذات نفسه: (يا ليتني ما قلت هذا) أو (لو أنني قلته بشكل آخر غير ما هو عليه)... ودائماً تبدو الأعمال الأكثر حداثةً، لاسيما في ميادين الإبداع، أكثر نضجاً واكتمالاً من الأعمال الأولى... إنها مأساة الرغبة في التحسين في ضوء الخبرة المتنامية، التي يبدو أنها تتحرك نحو الأوج عبر الخمسينيات والستينيات، ربما لتزداد قدرةً على العطاء قبل أن تبدأ رحلة الذبول والانطفاء...

إن ما قاله العماد الأصفهاني يبدو أنه قدر كل الذين كتبوا كثيراً... كل الذين امتلكوا طموحاً كبيراً في أن يقولوا كل شيء... في ألّا يتركوا صغيرة ولا كبيرة، مما يمكن أن يكتب، إلّا وتعاملوا معه...

قدر ألّا يقتنع الإنسان بكمال أعماله، وأن تحكمه عقدة النقص في نسجها، فيما عدا حالات استثنائية لا يقاس عليها... لكن الجانب المضيء لهذه المأساة

أنها تدفع للرغبة في المزيد من الإتقان، على الأقل بالنسبة للأعمال التالية، وبالتالي تنقذها من المزيد من المطبات والمناقص والأخطاء، ولكن هذه نفسها، في منظور زمني تالٍ، ستبدو ناقصة، ليس فقط بحكم تنامي القدرة العقلية والإبداعية، وإنما ـ أيضاً ـ بحكم تراكم الخبرة وقوانينها الضاغطة... ودائماً تجيء عبارة مالك بن أنس رحمه الله قانوناً حاسماً وعدلاً ومطمئناً لكل الذين يحاولون... (كل ابن آدم يؤخذ منه ويرد عليه إلّا صاحب هذا القبر) ويقصد محمداً ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى.

كان الكتاب الواحد... الكتاب الممتاز بطبيعة الحال... يقدم لي أكثر بكثير مما يقدمه للآخرين... كنت أعتصره حتى الثمالة... وكنت أعرف كيف أوظفه على أكثر من مستوى... أتذكر مقولة العقاد رحمه الله: (أن تقرأ كتاباً واحداً خمس مرات، أفضل من أن تقرأ خمسة كتب)!

وكنت، بسبب الوسواس التسلّطي، الذي طالما حكمني وعذّبني، أعيد قراءة العبارة الواحدة خمس مرات وربما عشر، حتى أقتنع تماماً بأنني بلغت غورها العميق وأدركت سرّها المخبوء...

كنت ـ أحياناً ـ أمضي قبل المؤلف نفسه بخطوات قد تسبقه، بحثاً عن معنى ربما لم يكن يريد أن يقوله أو يقصد إليه... ولكنه بالنسبة لي على الأقل كان يمنحني الكثير...

كانت الإضافات الجادة المؤثرة التي يمنحها الكتاب الممتاز بالنسبة لي تتمثل حيناً باللغة، وحيناً بالنبض الشعري، وحيناً بقوة الخيال، وحيناً بالقدرة على الابتكار، وحيناً بجبروت الأفكار... حيناً بالهمس، وحيناً بالصراخ... حيناً بالرضا والتوافق والانسجام، وحيناً بالثورة والتمرد والتشتت والارتطام... حيناً بالقدرة على ترتيب المعطيات وفق نظام هندسي صارم كالفولاذ، ومنطق جدلي حادّ كالسكين، وحيناً آخر بتدمير الأنساق، وجعل الفوضى وتلاشي الحدود الفاصلة بين الأشياء هي الحكم الأخير، حالة سريالية ـ ربما ـ أو لا معقولة بشكل من الأشكال...

هذا كله طبعاً، فضلاً عن الطبقة الأولى... الطبقة الاعتيادية: وهي ركام المفردات المعرفية، والخبرات الفنية، التي كانت دائماً تضيف إلى رصيدي ثروة غنية مترعة بالسخاء...

وكنت، بفضل الله ﷻ ورحمة منه، أوظف هذا كله في سياق واحد... معمار يحاول أن يكون متناظراً قدر الإمكان... مقنعاً في نسبه وأبعاده ومساحاته... أن تكون الكتابة، أية كانت الأطر التي تتشكل فيها، والأنواع الأدبية التي تنسج خيوطها، مرآة لكلمة الله في العالم... لوحدانيته جلّ في علاه، ولحاكميته التي كانت الأديان كلها، وخاتمها الإسلام، تعبيراً عن بعدها الأول والأخير: أن يكون منهاج العمل في هذا العالم قادماً من فوق... من عند الله... إذ أن أية محاولة أخرى خارج هذا التحليل المؤكد، ليست سوى ضياعاً وضرباً في التيه...

الأصوات الحرفية التي كان يرفعها أصدقاء محدودو الفضاء الرؤيوي ما أدركوا هذا، ولا حاولوا ـ بإخلاص ـ أن يقتربوا منه، ولذا قال أحدهم أنني في بعض أعمالي الأدبية، وربما الفكرية، كنت أعبّر عن نفسي، ثم ما ألبث أن أضع لافتات إسلامية عليها!

بدأت أدرك أكثر فأكثر أن (المحاضرة العامة) يجب أن تكون معماراً مركباً من عدة مستويات... لحناً هارمونياً ذا أصوات عديدة... وأن المحاضرة ذات الطبقة الواحدة أو الصوت الواحد، إنما هي عرض لأمور مكشوفة على سطح ذي طول وعرض، يكاد معظم المستمعين يعرفون أبعاده مقدماً، فضلاً عن أنه جهد استهلاكي يكرر، ولا يملك القدرة على الإبداع، والإضافة، والابتكار...

إن المحاضرة المركبة هي هذه القدرة على الابتكار، ليس في المنهج فقط، وإنما في الموضوع أيضاً...

إن هندسة الموضوع المراد تقديمه في محاضرة عامة يجب أن يضع هذه البداهات في حسابه، وإلّا تحرك على سطح الأشياء ولم يمارس إيغالاً في

أعماق الظواهر. ولقد ساعدني هذا على أن تتحول محاضراتي إلى مشاريع تأليفية... كنت أرجع إلى النواة المتشكلة في نسيج المحاضرة، فأمدّ آفاقها، وأغنيها بالمفردات، وأحيلها إلى كتاب... لكن الأساس هو نفسه... الخارطة هي نفسها، تلك التي طرحت على الجمهور في محاضرة عامة.

كانت المطالعة حتى منتصف الستينيات تنطوي على المتعة والعذوبة، وكانت الكتب المؤلفة والمترجمة تعتمد لغة عذبة واضحة وعميقة في الوقت نفسه، وكان الكمّ المعروض في السوق محدوداً يمكن متابعته، وتذوّقه، والسيطرة عليه... ثم ما لبثت أن حلّت اللعنة:

انفجار رهيب في الكمّ ضاعت معه السيطرة والتذوّق على مكث... غياب الأجيال الأولى من الكتّاب ذوي الأسلوب العذب، واللغة المحكمة، والرغبة الأصيلة في البيان... ظهور جيل من المترجمين السيئين لا يتعاملون مع النصّ بتمكّن وإلمام... ظهور أجيال من الكتّاب المتأثرين بتيارات الحداثة الغربية، والنزوع إلى الإغماض دون إدراك دوافع ومنطوق الإغماض الغربي... المتغيرات السريعة في ميادين المعرفة وحمى التخصص الدقيق... انفجار المعطيات الأكاديمية الممسوخة، والاعتقال في زنزانة التخصص، وغياب الاستشراف الثقافي...

تحوّلات عنيفة للنقد الحداثي وضعت بين النصّ والمتلقي سداً من الكراهية والاشمئزاز... انفجار الدوريات والحنين الرومانسي إلى أيام القلة العذبة: (الرسالة) و(الهلال)... الخ... تضاؤل انتشار السلاسل المعروفة، وغياب بعضها: (اقرأ)، (الهلال)، (الكتاب الذهبي)، (الكتاب الفضي)، سلسلة (كنوز القصص الإنساني العالمي)، (مطبوعات كتابي)... الخ... انفجار مطالب الحياة والهموم المعيشية والتكاثر الشيئي على حساب ساعات المطالعة... الحصار المنفعي لأماكن الجلوس الهادئة للمطالعة في المقاهي والكازينوات، وتناقصها يوماً بيوم لحساب التوسع التجاري الصرف...

تزايد النظم الدكتاتورية التي وضعت الحواجز والعقابيل أمام تناقل الكتاب

عبر البلدان العربية، وتداوله الحرّ داخل البلد نفسه... انكسارات العملة في العديد من البلدان فيما جعل توصيل الكتاب إلى تلك البلدان يكاد يكون مستحيلاً... ثم انفجار وسائل الترفيه، وملء الفراغ، والنشاط الإعلامي، بدءاً بعصر الراديو الترانزستور فالتلفاز الملون فالفيديو كاسيت... وأخيراً وليس آخراً الحاسوب والإنترنيت والفضائيات، فيما قاد إلى تضييق الخناق على تقاليد المطالعة وإغراءاتها وطقوسها الجميلة...

ولقد رفعت صوتي منذ الستينيات للتحذير من هذا المصير... فكتبت في العديد من الصحف والمجلات: أزمة التعبير في العراق... نقد للأكاديمية... بحث في الأسلوب المقارن... الجسور المقطوعة... السريالية واللغة... حول أدب الغموض وعشرات غيرها من البحوث والمقالات... ولكن؟!

في التعامل مع القرآن الكريم، تلاوةً، اكتشفت في وقت متأخر نسبياً، أنه يمنح متعة ذهنية وروحية أكبر بكثير، عندما يحاول المرء أن يتابع الارتباط الصميم داخل بنية كل سورة، على مستوى الشكل والمضمون معاً... إنه حينذاك سيكتشف أشياء جديدة، وقيماً ومعطيات مدهشة، وستصير القراءة محاولة يومية للاكتشاف.

صحيح أنه أمر مجهد، ولكنه يحقق متعةً يصعب وصفها... إنها ـ مع فارق التشبيه ـ كمحاولة حل المعادلات الرياضية الصعبة.

إن هذا القرآن كتاب معجز، وهو لا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، كما قال الرسول ﷺ يوماً... وهذه هي إحدى عجائبه: ذلك الارتباط الوثيق بين مقاطع وآيات السورة الواحدة، ذلك الانتقال المرسوم بين الأزمان الثلاثة، ذلك التنقل المهندس بين الأماكن والبيئات، وذلك التسلسل المذهل بين الموضوعات.

إن البيئي، والطبيعي، والعالمي، والكوني، والروحي والمادي، والمنظور والغيبي، والظاهر والباطن، واليومي والدائم... تلتقي وتتواءم، وتؤثر وتتأثر

بحسابات دقيقة يمكن للمرء أن يلحظها بمجرد أن يبذل جهداً أكبر. ولنتذكر الآية القرآنية: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

إن متابعة وحدة السورة، والبحث عن طبيعة المفاصل بين مقاطعها... عن دلالات التنقل بين الموضوعات، لهو التدبّر المطلوب، لقد مارسه المفسرون، وبخاصة (سيد قطب) في (الظلال)، وليس هذا هو المقصود هنا، فالقارئ المتدبر، وأنا واحد منهم، ليس مفسراً لأنه لا يملك الأدوات الكافية، وإنما هي محاولة للمقاربة، للفهم، للإيغال أكثر في نسيج هذا الكتاب الإلهي، وهي مسألة مفتوحة لكل ذي عقل، فليس ثمة حجر في الإسلام على محاولة فهم كتاب الله، ولا توجد هناك سلطة كهنوتية أو تأويلية تحتكر حق الفهم والشرح والتعليل.

منذ تفتح الوعي على الحياة تملكتني رغبة متأججة في التعرف على الأشياء واكتشاف سرّها... كنت أقرأ قصص الأطفال بشغف عميق... كنت أرتشفها ارتشافاً، وإنني لأتذكر جيداً ليالي الشتاء العميق والبرد والمطر... بيوتنا العتيقة الضيقة، والأحياء القديمة، والجمر المشتعل الممتزج بالدخان، وساعات القراءات الجذلى في القصص وكتب المطالعة المدرسية والمجلات... ولم أكن أطالع السطور، ولكني كنت أخترقها بتوق عارم، لكي أعيش الحدث من الداخل... أصير شخصاً من شخوصه... وحينذاك كنت أضحك معهم وأبكي معهم... اهتز وأنبض وأرتجف، كما يهتزون وينبضون ويرتجفون.

بعدها، ومع ازدياد قدرة العقل على المداخلة، والإمساك بتلابيب الخبرات والأشياء... صار الأدب يقدم لي أطباقاً من حلوى الفكر، بعيداً عن مماحكات التجريد والجدل الذهني الخالص، إنما من خلال الوقائع والشخوص والمرئيات، وهي تكتسي لحماً ودماً فتغدو أكثر دهشةً وأشد تأثيراً...

أذكر أيضاً شيئاً ما يذكره كل الشعراء والأدباء والفنانين، الذين يجيئون إلى الحياة بحساسية مفرطة تجاه العالم والوجود... قبالة الكلمة وهي تئن وتتوجع... إزاء الأشياء والخبرات التي تنث روعةً وجمالاً... حساسية تكاد تصل

بهم حافات السقم والمرض، لأن فاصل الألم بينهم وبين العالم يكاد يغيب... يتلاشى... وتصبح جملتهم العصبية، وجدانهم، أجهزة استقبالهم الحسي، روحهم المتحفزة... مكشوفةً تماماً... مكشوفةً حتى لرفة عصفور... أو صوت خفي لا يكاد يسمع... ولكنه يصلهم... يخفق في ضلوعهم ويقول لهم شيئاً كثيراً...

في حالة كهذه تصير الكلمة... التعبير... المعالجة الجمالية... المنفذ الوحيد للتخفيف من العذاب، أو ما سماه أحمد شوقي: (الألم العبقري) وكان يعني ما يقول... نوعاً من التطهر (الكاثرسيس) إذا استخدمنا عبارة أرسطو وهو يتعامل مع التراجيديات اليونانية.

أن تصير أديباً ليس خيارك، ولكنه قدرك... مرغم أنت على أن تكون أديباً، وإلّا أكلك الهم وغدوت حطاماً...

بالكلمة يقوم أولئك الذين منحهم الله ﷻ (وصفة) خاصة لا أستطيع التعبير عنها... مزيجاً من الدهشة والحزن والفرح والعشق والبهجة والتوق لاكتشاف المجاهيل... والرغبة القاهرة في تحويل هذا كله... إخراج هذا كله من تحت الضلوع وتشكيل لوحة أو نشيد أو قصيدة أو سيّال من النثر مترع بالعفوية والنداوة والصدق.

تلك هي البدايات الأولى التي ينبني عليها المصير... إن شبكة معقدة من التأثيرات... منظومة من العناصر الفاعلة، ترغم الإنسان على أن يكون أديباً، فلا يسأل أحد كيف كان هذا الذي كان... فهي المملكة التي لا يسأل الداخلون إليها لماذا دخلوا؟!

لقد ذهبت، وغيري كثيرون، ضحية شبكة من الظروف والحالات المنحرفة والخاطئة... منها على سبيل المثال:

أنني وجدت نفسي في عصر لا يقرأ مثقفوه كثيراً، على خلاف ما كان عليه الحال ـ مثلاً ـ في عصر العقاد، وبالتالي فإنهم لن يعرفوا سوى النزر اليسير عن معطياتي في سياقاتها كافة...

وأنني وجدت نفسي في عصر الاعتقال في زنازين التخصص، وتحول المفكر إلى منظف أتربة أكاديمي لا يملك فضاءً ثقافياً وإبداعياً وتركيبياً واسعاً، ولا يهتم سوى بتقاليد البحث عن الجزئيات المحدودة بحجة الضرورات الأكاديمية، ومطالب الدرس المعمق!

ويرتبط بهذا عدم قدرة عقليات كهذه، أصبحت بمثابة بروليتاريا ثقافية ذات سلطة مؤثرة، على استيعاب حقيقة أن هناك حالات عقلية ذات قدرة استيعابية (موسوعية) تمكّنها من التعامل مع المفردات المعرفية كافة، والانتشار المبدع في سياقات شتى كالبحث التاريخي، وفلسفة التاريخ، والفكر الإسلامي، والإنجاز الأدبي: تنظيراً ونقداً إبداعاً... ترى هل انتهت إلى الأبد عصور عمالقة كابن خلدون وابن حزم وابن الجوزي وأبي حامد الغزالي وصولاً إلى العقاد وطه حسين وسيد قطب، يكتبون في كل مجال، وهم في كل ساحة يبدون الأكثر تفوقاً وإبداعاً وقدرة على الاكتشاف والتنظير حتى من أولئك المتخصصين في تلك الحقول؟

وأنني وجدت نفسي في دائرة إعلام يسعى، سواء على مستوى السلطة أو المجتمع، إلى (تلميع) عناصر محدّدة تملك مواصفات التلاؤم مع فكر السلطة، ويتجاهل، أو يحاصر، وربما يضيّق الخناق على العناصر الأخرى...

وأنني وجدت نفسي في عصر الانفجار المعرفي، أو المعلوماتي، الذي يضيع المتميزون في صخبه، ولا يعثرون على حقهم في الإضاءات والمتابعة المستمرة والمكثفة، كالذي كان يحدث في عصر العقاد... عصر القلة في المعطيات المعرفية، بما فيها النقل عن اللغات الأخرى، الأمر الذي جعل كتّابه يتلقون متابعات وإضاءات متواصلة بحيث أن أي كتاب كانوا يؤلفونه، أو بحث ينشرونه، أو حتى مقال يبعثون به إلى هذه الصحيفة أو تلك، أو حوار، وربما أمسية خاصة، تجد صداها الواسع في دائرة الحركة الثقافية على امتدادها...

وأخيراً، وبما أن أخلاقية ديننا، ومطالبه، تفرض على المؤلف ألا يتحول إلى مهرّج يتحدث عن نفسه، ويقدم عروضاً دعائية لإنجازاته، لأن هذا يذهب

بالأجر، ويضع المفكر أو الأديب في دائرة الرياء الذي طالما حذّر منه رسول الله ﷺ... فقد كان يتحتم ممارسة قدر صعب من ضبط النفس، بل من شكمها، ومجابهة ضغوط الرغبة في التحقق الذاتي على مستوى الجماعة، أو البيئة، ولقد أرهقني هذا كثيراً، لكنني أحسست بأنني حققت قدراً طيباً من النجاح، لم يقدر عليه معظم أولئك الذين اجتازوا (المحنة) نفسها، رغم أن هذا قادني إلى حالة من الازدواج بين ما أنا عليه فعلاً وبين الصورة التي أبدو، أو أحاول أن أبدو عليها أمام الآخرين... فالحمد لله!!

يتوزع المفكر في بلدي بين ألف نداء ونداء، ورغم ذلك يتشبث بمواصلة المسير في ظروف تكاد تكون مستحيلة...

في الغرب، المفكر يفكر فقط، والفنان يبدع، فإذا بالفكر والإبداع يتجسدان في مؤلفات وأعمال فنية يتولاها حشد من المعاونين... أما في بلدي فإن على المفكر أو المبدع، فضلاً عن مهمته الأساسية، أن يكتب ويبيّض ويذهب إلى المكتبات، ويسأل هذا وذاك، ويراسل، وينتظر في البريد، ويتصل بالناشرين، ويتابع التفاصيل الفنية والمالية، ويسافر... و... و... الخ.

ثم هو، فضلاً عن هذا كله، ملاحق بألف حصار... بضغوط من شتى الأنواع، الحقد، والغيرة، والحسد، والتجاهل، والصمت... ثم خط أشد مرارة: التآمر لتدميره... اللجوء حتى إلى السلطات لإيقافه عند حده...

وهنا يجيء دور السلطة، فإنها قد تحاصره لكي يتخذ أحد موقفين: إما التنازل عن الذات، وتسخير نفسه في خدمة السلطة، وإما الرفض والتعرّض لشتى صنوف الأذى والعقاب الذي قد يصل حد التصفية الجسدية.

أضع قائمة مؤلفاتي أمامي: ما الذي جعلني أندفع لإنجاز هذه الموضوعات المتباينة في سياقاتها الثلاثة: التاريخية والفكرية والأدبية، والمتنوعة داخل كل سياق؟

أهو إلحاح الموضوع نفسه بسبب جدّته، وعدم معالجته من الآخرين بما فيه الكفاية؟ وربما بسبب أهميته أو أولويته؟

أم هو الدافع الذاتي للتعبير عن رغبات وقدرات كامنة تريد أن تخرج بصيغة إنجاز في هذا الاتجاه أو ذاك؟

أم هما الدافعان معاً: الذاتي والموضوعي، وقد يضاف إليهما بعض الضرورات والفرص الخارجية، كأن تتقدم مؤسسة ما بطلب إنجاز مؤلف في هذا الموضوع أو ذاك؟

والحق أن هذه الدوافع الثلاثة، وقد تكون هناك دوافع أخرى، تكمن جميعاً وراء كتابات المؤلفين... ولعله يكون أمراً ممتعاً ومجدياً في الوقت نفسه، أن نتوجه بالسؤال لحشد من الكتاب: لماذا كتبوا هذا الذي كتبوه؟

ولكن، بالنسبة للمسلم الجاد، تظل الكتابة واجباً إيمانياً لا خيار فيه... فرض عين يلزمه بمواصلة العمل حتى آخر لحظة من حياته... إنها ليست خياراً ولكنها إلزام... وليست ترفاً فكرياً، ولكن مهمة جادة تستهدف الإجابة على العديد من الأسئلة المعلقة في فضاء الفكر والروح!

إنها عبادة يتقرّب بها المفكر أو الأديب المسلم من الله ﷻ... كما أنها محاولة للاقتراب من جماهير المسلمين، بقوة الكلمة، لدعوتهم إلى الطريق.

إنه، إذا أردنا الحق، عمل دعوي، وجهد حركي، يستهدف إخراج الناس من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام، ومن التخبط والضلال إلى الهدى واليقين، ومن السبل المعوّجة إلى الصراط.

وهكذا يصير البحث في التاريخ، أو الفكر، أو الأدب، خطوةً على الطريق... تصير كتابة السيرة أو الترجمة أو الدراسة أو المقال أو البحث المنهجي أو الموضوع التاريخي أو القصة أو القصيدة أو المسرحية، خطاباً إيمانياً يحمل أقصى وتائر العقلانية والمنطق قبالة كل ضلالات الدنيا، وأوهام الوضاعين.

إنها، مرةً أخرى، ليست خياراً، ولكنها قدر هذا الإنسان أو ذاك، من آتاهم الله ﷻ القدرة على التعامل مع الكلمة والفكرة، وإخراجهما إلى الوجود بهذه الصيغة أو تلك...

أما أن يكتب الإنسان في التاريخ والفكر والأدب... ويمضي مع هذا الأخير

فينجز أعمالاً في التنظير والدراسة والنقد والإبداع، ويندفع مع الأخير فيكتب مسرحاً وقصة ورواية وسيرة ذاتية وشعراً... فتلك منة يمن بها الله ﷻ على بعض الناس... وحرام عليهم، والحالة هذه، أن يتنكروا للنعمة، ويسلموا أنفسهم للكسل، بحجة أن عليهم أن يكتبوا في سياق معرفي واحد، وأن هذا يكفي.

أبداً... إذا كان بمقدورهم أن يقدموا شيئاً ما... شيئاً ذا جدوى، في أي موضوع يتعاملون معه... فلماذا يترددون؟... ضرورات التخصص؟... كلا... فإن ما سيقولونه في كل حقل، على تغاير فروعه؛ قد يضيف، بقوة ما أوتوه من علم وثقافة ومقدرة، شيئاً جديداً، لا يقدر على تقديمه الكثيرون ممن اعتقلوا أنفسهم في زنزانات التخصص، وأصبحوا ـ بمرور الوقت ـ مجرد منظفي أتربة كما يسميهم الفيلسوف الألماني (أزوالد شبنغلر).

ولو لم يكن الأمر كذلك، لما قدر كاتب كالعقاد أو سيد قطب على أن يرفد المكتبة العربية بأدبياته القيّمة، وتنظيراته النقدية، وأعماله الإبداعية، جنباً إلى جنب مع ما قدمه في سياق الفكر والسيرة والتاريخ.

إن بؤرة الاستقطاب في كتاباتي التاريخية والفكرية والأدبية، هي «الأسلمة»... هي تمرير كل مفردة معرفية من خلال الرؤية الإسلامية (لعل هذا ما جعلني بعد عقود عديدة أندفع في التعامل مع حركة إسلامية المعرفة التي يقودها المعهد العالمي للفكر الإسلامي، وأستجيب للعديد من المشاريع الفردية والجماعية التي عرضها عليّ وعلى الآخرين، والحالة نفسها تنطبق على تعاملي مع رابطة الأدب الإسلامي العالمية).

مهما يكن من أمر؛ فإنه منذ البدايات المبكرة وصولاً إلى الأعمال المحدّدة والرسمية لأنشطة المعهد العالمي ورابطة الأدب، كان هدف كل حرف انضاف إلى بعضه لكي يصوغ الكلمة، فالعبارة، فالفقرة، فالفكرة، فالفصل، فالمبحث، فالكتاب... كان الهدف واحداً... النبض والإيقاع والمؤشر... أن تصاغ كل المفردات المعرفية، أو يتم التعامل معها، من خلال الإسلامية... ألّا يمرّ، ويتشكل، ويأخذ جواز السفر، ويحمل الشرعية، إلّا ما تسمح به الإسلامية...

وما لا تسمح به يتحتم أن ينتقد، أو يرفض، أو يفكك للبحث عن عناصر التلاؤم، أو يستبعد كلية في نهاية الأمر.

في القصيدة والمسرحية والقصة والرواية، في الخاطرة والمقال والبحث، في الدراسة والتنظير والنقد، في التاريخ والمنهج والفلسفة... وفي الفكر عبر تدفقاته كافة... كانت المحاولة واحدة، والهدف واحداً، وبؤرة الاستقطاب هي نفسها: أن يكون هناك قصيدة إسلامية، ومسرحية إسلامية، وقصة إسلامية، ورواية إسلامية، وسيرة ذاتية إسلامية، وأدب رحلات إسلامي، وأدب حوار إسلامي، ونقداً ودراسة وتنظيراً أدبياً إسلامياً... أن يكون هناك منهج إسلامي في البحث التاريخي، وتفسير إسلامي للتاريخ، وطريقة في الطرح الفكري تتشكل في نسيج إسلامي!!

طبعاً، فإن هذه الكتابات كافة، والتي مضت لكي تبلغ التسعين مؤلفاً عدداً، على مدى ستين عاماً من العمل شبه المتواصل، ليست وحدها في الميدان... ليست حالة فريدة... وإنما هي حلقة متواضعة، سبقتها وزامنتها، وستعقبها حلقات لعشرات بل لمئات من المفكرين والمؤلفين والباحثين الإسلاميين... والذي أريد أن أقوله ليس هذا، وإلّا كنت مدّعياً، الأمر الذي أرفضه وأمقته، إنما أردت أن أقول أنني كنت أتحرك، حتى وأنا أتعامل مع الموسيقى، في ضوء قناعة متأصلة حتى النخاع: أنه ما من مفردة معرفية أو خبرة في هذا العالم لا يمكن التعامل معها إسلامياً... ما من صغيرة أو كبيرة تخرج عن دائرة «الحكم» الإسلامي الذي يملك القدرة دائماً على أن يقول فيها كلمته.

قد أكون مبالغاً في تصوّري أو قناعتي هذه، ولكن هذا سيظل على مستوى التعامل مع مفردات محددة أريد لها أن تمر أو لا تمر من قناة الإسلامية، إلّا أن المبدأ الأساس... القاعدة التي انبنت عليها معطياتي كافة... الأسس التي أقيم عليها المعمار، ستظل منطقية وسليمة، ليس في دائرة قناعتي الشخصية فحسب، وإنما على المستوى الموضوعي، حيث كان الإسلام، ويكون، وسيكون قدرة (ابستمولوجية) فائقة في التعامل مع حشود المفردات والخبرات المعرفية...

فهو في شموليته... في احتوائه سائر الثنائيات المتواجدة في قلب العالم والطبيعة والكون والوجود... في رؤيته المنفتحة على العالم... في صيرورته الحركية المتصلة كحلقات يمسك بعضها بعضاً... في مسؤوليته كشاهد على كل ما يتمخض في دائرة المعرفة أو الخبرة البشرية... في توقه الأبدي للأخذ بيد الإنسان والجماعة... وبالتالي في شهوده الحضاري على واقع البشرية ومستقبلها... في التزامه بالمصير الإنساني... في احتفاظه بشكل معجز بأصوله العقدية كتاباً وسنة نبوية... في هذا كله، كان ولا يزال يملك كل المعايير المرنة، والملائمة، للتعامل مع مفردات الخبرة البشرية في كل زمن ومكان...

ولقد حدث وأن أغرتني محاولات في دائرة الأدب، أو الفكر، أو التاريخ، بدت للوهلة الأولى خارج نطاق اهتماماتي كمسلم، ولكنني بعد أن نفّذتها، فيما يمكن تسميته بنوع من التساهل: رؤية حيادية للأشياء... سرعان ما تبين لي أن رؤية كهذه هي نوع من البذر... نوع من تجاوز الالتزام بالمطلب الأساسي، وأنه ليس ثمة حيادية ـ أو حتى موضوعية ـ في نهاية الأمر، خارج نطاق العقيدة الحقّ التي تحمل قدرتها على أن تقول كلمتها في كل شيء... ليس من قبيل التغنّي برؤى مثالية، ولكن من خلال تراث متواضع سهرت على نسيجه لمدى نصف قرن، وقدّم، في سياق جهود آخرين كثيرين قبلي ومعي، قناعة بشكل من الأشكال في أن "الموضوعية" هي ها هنا بالذات: أن يتعامل المرء مع كل مفردة، أو خبرة، بالمعيار الذي منحتنا إياه السماء، حيث لا يعزب عن الله ﷻ مثقال ذرة في السماوات والأرض.

إنها ـ باختصار ـ قضية التعامل مع العلم الإلهي... مع المعايير القادمة من فوق، والتي بدونها لن تصل الخبرة البشرية النسبية إلى هدفها، مهما كان البريق الذي يشع منها آخذاً بالعقول والأبصار: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٣ ـ ١٢٦].

❁ ❁ ❁

قناعات خاصة

● أحد المآخذ الفنية على الواقعية، أنها تتجاوز، من خلال تشبثها بالمنظور الواقعي: الرؤية والشعر!

● لا بدّ من احترام الثوابت الفنية للأجناس الأدبية كافة، والتي هي وليدة خبرات ذات عمق تاريخي ونوع من الإجماع يميل إلى إقرار ما هو أكثر قيمة عبر التطور الفني للأجناس... وعدم الاندفاع مع محاولات القفز في الفضاء، وتدمير الثوابت الفنية باسم الحداثة والتغيير.

● عدم التشنّج إزاء محاولات التجديد، وقبول ما يمكن أن يضيف للجنس الأدبي رصيداً ذا قيمة فنية.

● يحدث، بالنسبة للمناطق المتخلفة من العالم، إلحاح في قبول النزعات الحداثية في أقصى حدّتها... ويحدث أيضاً أنهم يستمرون على التشبّث بالتقليد الحداثي، رغم أن صنّاعه أنفسهم تركوه بفعل متغيرات شتى (مثلاً: البرشتية الملحمية على المستوى المسرحي، والأليوتية على المستوى الشعري، والبنيوية على المستوى النقدي... الخ)...

● يمكن إيجاز لغة التعبير بكلمات قلائل: الوضوح العميق الذي يرفض المجانية والتضحّل، ويتجاوز في الوقت نفسه الإغماض الذي يضيع فيه المبدعون، ويجد أنصاف الأدباء فيه فرصتهم لتمرير اللعبة... والذي يتعثر في الوصول إلى المتلقي...

● يقدم النقد الحداثي كشوفاً تقنية ذات قيمة بالغة، لكن نزوعه المتزايد باتجاه العلمنة، والانفصال عن الذات في شتى أبعادها، يقود إلى إحداث أبشع قطيعة بين النشاط النقدي من جهة، وبين المبدع والمتلقي من جهة أخرى...

إنه يمارس نوعاً من التغريب الذي يضع النص خارج حدود جماليته الخاصة، ويطرد المتلقي، يجرده من المفاتيح التي تقود إلى حضرة العمل الإبداعي. ثم إن الإغماض المتزايد في النقد الحداثي، يساعد هو الآخر على تدمير الجسور المتبقية بين الأطراف الثلاثة...

● مقولة "النسبة الذهبية" في العمل الإبداعي، وبخاصة في القصة القصيرة والرواية، لن تجد فرصتها إلّا بالتحقق بقدر من التوازن بين الواقعية والتجاوز... بين التصوير والإيغال... بين اللغة العادية واللغة الشاعرة... بين المنظور الحسّي والمنظور الرؤيوي... بين التكشّف والترميز... الخ... باختصار فإن العمل الأدبي ـ ولاسيما القصصي ـ إن لم يتحقق بخلفياته الرؤيوية ولغته الشاعرة؛ خرج عن كونه إبداعاً إلى نوع من النشاط الصحفي، أو البحث التقريري: الريبورتاج... أو التاريخ... أو السياسة... الخ...

● النشاط النقدي سلاح ذو حدين، أحدهما إيجابي يتمثل في إضاءة النص، وتقويمه، وإعانة المتلقي على تواصل أشد تركيزاً مع المبدع... النقد في هذه الحالة يكون جسراً، أو قناة مشروعة تماماً للتواصل بين المبدع والمتلقي... أما الحدّ السلبي فيتمثل بالصيغ التالية:

١ ـ إقحام رؤية أو قناعة الناقد على النص وحجب مغزاه الحقيقي عن المتلقي.

٢ ـ إقحام أهواء ومصالح الناقد.

٣ ـ إقحام جهل وقصور وتضحّل الناقد.

٤ ـ إقحام تأثيرات السلطة، وضغوط التقاليد الاجتماعية والثقافية... الخ.

٥ ـ وفي حالة النقد الحداثي؛ فإن الحدّ السلبي قد يتمثل في تدمير جمالية النصّ بحجة علمنة الجهد النقدي، الذي يبلغ أقصى درجات حدّته في تحويله كلية إلى سيميائيات اللغة الصرفة، ورياضياتها الصارمة، ومختبراتها... مروراً بكل محاولات الإغماض والإلغاز والتعتيم على المتلقي، بحيث يصبح بينه وبين النص سداً يصعب اجتيازه... إنها تمارس:

أ ـ مصادرة حرية المتلقي في التعامل المباشر مع النص.

ب ـ تمرير جماليات النص من قنوات الحداثة الصارمة وتحويلها، بالتالي، إلى أشياء جامدة صلبة، أقرب إلى معطيات العلم منها إلى ومضات الإبداع.

ج ـ تشكيك المتلقي في استقلاليته وقدرته على التعامل مع النص، وبالتالي (تنفيره) من مواصلة قراءاته في الآداب والفنون.

هذا مع التأكيد القاطع في أن النقد الحداثي يقدم كشوفاً قيّمة، تمنح الجهد النقدي المزيد من الضوابط والمعيارية والموضوعية، وتبعد به عن أن يكون انعكاساً ذاتياً، وأحكاماً نسبية قد تختلف بين ناقد وآخر، وقد يمتد الاختلاف لكي يشطر الرؤية أو الحكم من الطول إلى الطول.

● الشاعر المتمرّس عندما يكتب نثراً يقدم لوحات غاية في الروعة، والصحفي المتمرّس عندما يبحث في التاريخ يقدم أعمالاً تكنس في طريقها الكثير الكثير من الأعمال الأكاديمية، وبخاصة رسائل الماجستير والدكتوراه.

● المحاضرة المتألقة ليست تلك التي يقرؤها صاحبها أمام الجمهور، وليست ـ كذلك ـ تلك التي ترتجل فتنجرف باتجاه الخطابية والإنشائيات، وإنما التي ترتكز على تصاميم هندسية ثم تنطلق للإيغال في الموضوع... وإن عناصر الجدة والاكتشاف والتناظر الهندسي ضرورية جداً لإنجاح المحاضرة... فضلاً عن اللغة المنتقاة والمصوغة بعناية، والتي تعرف كيف تخفق بنبض الشعر حتى وهي تتعامل مع المعادلات والأرقام...

● التعامل مع معطيات الآخر (وبخاصة الغربيين) يجب ألّا يشكل أية عقدة بالنسبة للأديب أو الناقد المسلم، لأنه لا يعدو أن يكون محاولة لتوظيف خبرات الآخر المناسبة، والتي ثبتت مصداقيتها وقدرتها على العمل في سياق الأنشطة الإبداعية والنقدية الإسلامية... وليس من المحتم على الأديب المسلم أن يتقبل كل ما يقوله الغير أو يكتشفه، وإنما يجب أن يتحقق بحاسّة انتقائية تعرف ـ في ضوء المنظور الرؤيوي ـ ما تأخذ وما تدع.

● لا مبرر للصراع بين القديم والجديد، فالحياة في جوهرها مزيج من الثوابت والمتغيرات... منظومة من القيم القديمة والقيم المكتشفة والمضافة... تلك هي واحدة من سنن الله ﷻ في العالم والوجود... وعلى الأديب أن يملك دائماً حساً انتقائياً يعرف كيف يجمع ويوفق من جهة، وكيف يرفض ويطرح من جهة أخرى... دونما ضرورة للاصطراع أو الانحياز صوب ما يسمى دعاة التجديد أو الحداثة، أو صوب مواقع التشبث بالقديم.

● مع وايتهيد وكولن ولسون وكبار الفلاسفة والمتصوّفة والأدباء وفلاسفة العلم في أن يدخل الإنسان طرفاً في التعامل العلمي أو الأدبي مع الكون... إنهم يدعون إلى مشاركته حتى وهو يبحث في فيزياء الكون... فكيف نسمح لأنفسنا بأن نطرده من حضرة المعطيات الإبداعية والجمالية؟

إن انهيار الجدران بين المنظور الحسّي والغيب، قد يدفع بهذه الدعوة خطوات إلى الأمام، ويمنحها مبررات أكبر لتأكيد مصداقيتها.

● الالتزام الإسلامي لا يعني جعل النسيج الإبداعي كله، بمفرداته كافة، إسلامياً مباشراً، يقول ما يريد بأقصى درجات التقريرية والوضوح، دونما أي قدر من الانزياح الذي بدونه لا يكون الإبداع إبداعاً... وهو لا يعني ـ كذلك ـ عدم التعامل مع أية مفردة لا ترتبط ارتباطاً صميماً بمنظومة القيم أو الرؤية الإسلامية...

بالمقابل؛ فإن التعامل مع الالتزام بحرية وانفتاح، يجب ألّا يقودنا، كما قاد عدداً من الأدباء الإسلاميين أنفسهم إلى نوع من التباعد، وربما التبرؤ، من كل مفردة أو دلالة إسلامية بحجة الخوف من الوقوع في دائرة المباشرة... وإذا بنا نجد أنفسنا قبالة أعمال إبداعية لا تكاد تفصح عن شخصيتها وهويتها... فأي التزام هذا؟ إنه لا يعدو أن يكون إحدى اثنتين: هروب من المسؤولية أو ضعف في القدرة على التمثل...

● لغة الترجمة اليوم تمارس دوراً مزدوجاً أحدهما يبني والآخر يهدم، فهي ـ إذا تمّ التمكن من تقنياتها ـ تضع بين أيدينا خبرات الآخرين

الخصبة، الغنية، أو على الأقل تكشفها لنا بما قد تتضمنه من سوء وشر يمكن أن نتعلم منه، كما أنها يمكن أن تمنحنا خبرات جيدة في مجال اللغويات والبلاغيات ووسائط التوصيل... لكن إذا أسيء التعامل معها، وكان المترجم غير متمكن من أداته، أو متشنجاً ـ بسبب من خوفه وعجزه ـ على التشبث بالنقل الحرفي؛ فإننا سنجد أنفسنا قبالة خطيئتين: تشويه النص المترجم وتدمير قدرته على الخطاب، من جهة، وإلحاق الأذى والشروخ في لغتنا نفسها من خلال عدوى التقليد لمنظومة الأخطاء والانحرافات في التقنيات اللغوية التي أساء المترجم التعامل معها من جهة أخرى...

وإننا لنلحظ عبر العقود الأخيرة، كيف أسهمت الترجمة المنقوصة هذه، في تكوين جيل من الأدباء، وقفوا عند منتصف الطريق، فلا هم تمكنوا من (عربيتهم) الشاعرة، المحكمة، ولا هم أوغلوا في شعاب الأدبيات واللسانيات الغربية... وضاعوا وهم يرطنون بما هو ليس بعربي على الإطلاق!

● العديد من الأدباء الإسلاميين يعانون من عزلة مزدوجة بعضهم عن البعض الآخر لأسباب شتى، لعل أبرزها غياب النقد الذي يضيء أعمالهم، ويؤشر على مظان التألق والانطفاء لكي يتعلموا منها... هذه العزلة التي تنذر بغياب صوتهم نهائياً، أو بحضور إبداعي كسيح بسبب من عدم وجود من يأخذ بأيديهم ويضيء أمامهم معالم الطريق.

● مرةً أخرى... مرفوضة فكرة الاعتقال في زنزانة التخصص وإلغاء عصور التنوّع الثقافي في القراءة أو الكتابة والتأليف... إن عصر العقاد وطه حسين وسيد قطب يجب أن يتواصل بخط لا ينقطع من المؤلفين، الذين يكتبون في سائر حقول المعرفة الإنسانية: الأدب، النقد، التاريخ، الفكر، التراجم والسير... إلى آخره...

إذا كان الله ﷻ قد منح بعض الناس القدرة على العطاء المتنوع، ذي المستوى المتألق في كل حقل، فلماذا نصطرع مع سنن الله، ونمنع الأنهار من أن تتدفق، والعيون من أن تتفجر؟!

أيهم قدّم ثقافة أكثر قيمة وخصباً وإمتاعاً، طه حسين والعقاد وسيد قطب، أم حشود الأكاديميين أصحاب البحوث المتخصصة الذين لا يكاد أحد يقرأ صفحات في أعمالهم حتى يصيبه القرف، والذين لا يرجع إليهم إلّا في سياق الضرورات البحثية؟

المهم ألّا يكون التنوع والانتشار على حساب العمق واحترام القواعد العلمية... وأستطيع أن أقول أننا إذا قارنا بعض أعمال هؤلاء الشموليين بنظيراتها لدى المتخصصين، تفوقت عليها بكل المقاييس، حتى ما يعرف بالمعايير الأكاديمية الصرفة... وفيما عدا ذلك فهم يتفوقون في كل شيء آخر، بحيث يبدو الفارق بين الصنفين أشبه بالفارق بين العمالقة والأقزام!

● حركة الأدب الإسلامي بأمسّ الحاجة إلى المزيد من الجهد النقدي لإضاءة النصوص... لقد أخذ يبدو أكثر فأكثر أن المعطيات الإبداعية أكبر بكثير من المتابعات النقدية؛ فإن لم يتحقق قدر من التوازن المطلوب، وتتم التغطية النقدية بنسبة معقولة؛ فإننا سنخسر مرتين... سنخسر الطاقات الواعدة التي تنتظر من يعكس صوتها أو يسمعه في الأقل، فتكف عن الخفقان. وسنخسر الفرصة الضرورية لتحسين معطياتنا الإبداعية وجعلها أكثر قدرة في وتائرها الفنية، ولتجاوز أخطائنا وقصورنا وعثراتنا وضعفنا من جهة أخرى. لقد عرف الآخرون كيف يوظفون أداة النقد لكي يمسك بعضهم بعضاً وينتشله من الصمت والعزلة...

إنهم يعملون بروح الفريق فلماذا لا نتعلم منهم؟ لماذا لا نزال مصرين على مبدأ (اقتله بالصمت)... رسائل عديدة كانت تصلني من الأدباء الجدد... بعضهم كان يعد بقدرة متألقة على العطاء... وإذ لم يستجب أحد لندائهم انطفؤوا...

إننا جميعاً لن نقدر على مواصلة الطريق بالصيغ المرتجاة دونما إضاءة النقد. إنه ضرورة من الضرورات، فهو الدافع والمعلم. وللأسف الشديد؛ فإن الكثير من النقاد الإسلاميين لا يدركون هذه الحقيقة التي هي أخص

ما يخصهم، أو هم قد يدركونها ولكن أسباباً شتى، ربما يكون الكسل، أو زحمة المشاغل، أو العوامل الشخصية، ما يجعلهم يقعدون عن ملاحقة ما تطرحه الساحة من أعمال إبداعية.

إن مخاطر سلبية كهذه قد لا تشلّ أولئك الذين قطعوا شوطاً من الطريق، لكنها قد تقضي على العناصر الشابة الجديدة التي تضع خطواتها الأولى على الدرب، وهي تملك رصيداً مذخوراً وطموحاً كبيراً، لكن ليس ثمة من يسمع صوتها أو يأخذ بيدها... لقد تلقيت رسائل شتى من هؤلاء كانوا يستغيثون فيها، وكنت تحسّ إزاءهم كما لو أنهم يجدفون لوحدهم في بئر عميق... وأنهم سيختنقون... سيضيعون إلى الأبد.

● إننا لا زلنا بحاجة ـ بعد ـ إلى مزيد من التنظير، والتنظير يعني التأسيس. وحركتنا الأدبية ما لم تتحقق بتأسيسات غنية، متبلورة، واضحة، ومقنعة؛ فإن معمارها سيعلو متأرجحاً، قلقاً مهزوزاً... قد ينفذ التنظير بعيداً عن التعامل المباشر مع النص الإبداعي، وقد يجيء موازياً أو تالياً له... وهو في الحالتين يقدم إضاءة لا بدّ منها للأدباء الإسلاميين.

● نحن بأمسّ الحاجة إلى منهج إسلامي في الدراسة الأدبية... والمسألة ليست تقحماً لوضع العناوين الإسلامية على النشاط الأدبي، ولكن لأن الإسلام بتكوينه الخاص ينطوي على قدرة فعالة لتقديم منهج للعمل في دراسة الأدب، يستمد مقوماته من الرؤية الإيمانية لهذا الدين.. ومنهج كهذا لا يصاغ في سنة أو سنتين، ذلك أنه يعكس معطيات تتراكم مع مرّ الزمن لتمنحه القدرة على التشكل، ويمكن أن نؤشر هنا على الشمولية كواحدة من خصائص هذا المنهج، والتي ترفض الرؤية الأحادية في التعامل مع النص، أو الظاهرة الجمالية عموماً. وهذه الشمولية ليست تقحماً وادعاءً إنما هي من أساسيات بنية الفكر الإسلامي، الذي يتعامل مع ظواهر الأشياء والحياة من منظور شمولي يضع في اعتباره كل مكونات الظاهرة الروحية والبيئية والنفسية والاجتماعية والزمنية... و... و...

وبالتالي فإن هذا التكوين الشمولي للفكر الإسلامي سينعكس بالتأكيد على المنهج المعتمد في الدراسة الأدبية، والذي سيتميز عن غيره من المناهج التي حصرت نفسها في زوايا ضيقة وانزلقت باتجاه المنظور التأحيدي، فاعتمدت الجانب النفسي الصرف حيناً، والاجتماعي، أو البيئي، أو الزمني حيناً آخر... إن لحظة التوهج تبدأ في أعماق الفرد وتتمركز في وجدانه وروحه، وتمضي قدماً لكي تتلقى من خزينه العقلي حيناً، ولكي تتأثر بالبيئة المحيطة حيناً آخر، متجاوزة كل هذا باتجاه الأفق الكوني، الذي يحسب له المنظور الإسلامي ألف حساب.

إن المناهج التي تعاملت مع الأدب اليوناني ـ على سبيل المثال ـ لم تحاول أن تدينه من حيث بنيته الميثولوجية. أما المنهج الإسلامي؛ فإنه يضع يديه ابتداء على الشرخ الذي يعاني منه هذا الأدب، فيضعه موضعه الحق باعتباره نقيضاً لرؤية الإسلام التوحيدية... وهكذا تتشكل المجالات التي يمكن أن تعكس الفاعلية المتميزة للمنهج الإسلامي.

إننا نتذكر هنا ما قدّمه يوماً الباحث الإنكليزي (ريتشاردز) في (مبادئ النقد الأدبي)، وهو أنه ليس بالضرورة أن يعتمد الناقد أو الدارس منهجاً محدداً للتعامل مع الظاهرة الأدبية، وأن بمقدوره أن يتلقى جوانب إيجابية من هذا المنهج أو ذاك لصياغة أداة عمل أكثر قدرةً على التعامل مع الأدب، من حيث كونه معطى إنسانياً يتجاوز البؤر الضيقة... المنهج الشمولي... نعم... ولكن ليس بصيغة تجميع ميكانيكي، وإنما انبثاق عن طبيعة المنظور الإسلامي للكون والحياة والوجود.

● ما من شك في أن التوجه الإيماني للناقد المسلم ينعكس إيجاباً على جهده النقدي، متمثلاً بقدر كبير من التجرد والموضوعية، التي يأخذ بهما نفسه وهو يمارس عمله، وهذا يعني ـ دون حسم أو جزم ـ تجاوزاً طيباً للميول والظنون والتحزب والأهواء، تلك التي جرفت الكثير من الأعمال النقدية غير الإسلامية، وبخاصة في العقود المبكرة الماضية.

إن النقد الإسلامي، كأية فعالية تنسج خيوطها في دائرة الإيمان الوضيء، يجد نفسه ملزماً ـ ما وسعه الجهد ـ بتجاوز المصالح الصغيرة، والأنانيات الشخصية، من أجل إصدار تقويمات وأحكام أقرب إلى الصواب.

وثمة الالتزامات التي يفرضها النقد على الناقد الإسلامي، بما أن الأدب الإسلامي عموماً هو أدب ملتزم، بمعنى أن هنالك سلماً من القيم والمعايير الفنية على مستويي الشكل والمضمون، تلزم الناقد المسلم بالعمل من خلالها وهو يعاين النص الإبداعي، ليس على سبيل القسر الرياضي الصارم، ولكن من خلال قناعات كافية تتسرب بعفوية خلال عقل الناقد المسلم وحسّه الجمالي ووجدانه. وإذا كان سارتر قد أكد في أدبياته الوجودية مسألة الالتزام هذه (فيما عدا دائرة الإبداع الشعري كما هو معروف)؛ فإن هذا لا يعني أن الالتزام معطى سارتري أو وجودي صرف، ومن ثم فهو لا يعني أن المناداة بالتزامية الأدب الإسلامي تسوقه إلى الانحياز، لأن أحداً لم يخطر على باله بأن التزامية الماركسية تمثل انحيازاً للوجودية، وهي التي سبقتها بكثير.

ثم إن الالتزام الأدبي والفني عموماً ليس أمراً جديداً في عالمنا الحديث لكي يكون حكراً على هذا المذهب أو ذاك... إنه موغل في القرون البعيدة، ويكفي أن نتذكر فيلسوفين نصرانيين كـ (توماس الأكويني) و(القديس أوغسطين)، بل يكفي أن نتذكر شاعرين مسلمين كـ (حسان بن ثابت) و(قطري بن الفجاءة)، لكي نعرف كيف أن توظيف الإبداع الفني لتصوّر أو قناعة ما، عمل ينِدّ عن مقولات التاريخ والجغرافيا... يتحرك بعيداً عن نسبياتهما المحددة ومتغيراتهما المنظورة.

● جابه أدباء الإسلامية عبر العقود الأخيرة تحدياً كبيراً، ولكنهم قدروا على أن يجتازوه بقدر طيب من النجاح، فهناك سيل من الأعمال الدراسية والنقدية والإبداعية تخرج على الناس بكثافة تلفت النظر، بحيث أن محاولة كتلك التي يقوم بها الأخ الدكتور عبد الباسط بدر في (فهرسة مكتبة الأدب الإسلامي) تضع بين أيدينا مئات من المؤلفات والبحوث، وستضع في أجزائها

القادمة مئات أخرى من الأعمال الإبداعية. فماذا يمكن أن يقال عن المستقبل؟ ولأول مرة في تاريخ الأكاديمية يفرض هذا الأدب حضوره في أروقة المعاهد والجامعات، فتكتب عنه البحوث والدراسات، وتقدم الرسائل والأطروحات لمراحل الليسانس والماجستير والدكتوراه. ويجب أن نتذكر بأن الدوائر الأكاديمية التي تقبل هذه الممارسة المتزايدة، دوائر لم تكن تعترف إلى عهد قريب بشيء اسمه الأدب الإسلامي، والأساتذة الذين يشرفون ويناقشون ويقرون درجة ما لهذا البحث أو ذاك عن الأدب الإسلامي، قد لا يكونون أساساً من الإسلاميين، بل إن معظمهم من أولئك (المتأثرين) بتيارات النقد الغربي.

وإلى جانب هذه الدوائر فإن أقسام اللغة والأدب العربي في العديد من الجامعات العربية والإسلامية، ذات التوجه الإسلامي، قد أقرت هذا الأدب الوليد في سياقاتها المنهجية وأعطته المساحة الواسعة التي يستحقها، ولسوف يزيد هذا التوجه عرضاً وعمقاً الجهود القيمة التي ينفذها (المعهد العالمي للفكر الإسلامي) في عملية (أسلمة المعرفة) التي يحظى الأدب الإسلامي بنصيبه الطيب منها. ويجيء قيام (رابطة الأدب الإسلامي العالمية) في الهند، تتويجاً لهذا كلّه، بل إنه في الحق البداية الصحيحة للمّ الطاقات وبرمجتها، وجعلها تنمّي واحدة من أشد معطيات الإنسان الأدبية ارتباطاً بقضية الإنسان وهمومه، وأكثرها نقاء وطهراً... قبالة عالم يكاد يختنق بالدنس، وفساد يلف البر والبحر والسماء بما كسبت أيدي الناس.

● الأدب الإسلامي هو بمعنى من المعاني أدب عربي، ليس لكونه يكتب بالعربية، فإن هنالك حلقات خصبة من هذا الأدب كتبت وتكتب بالأردية والتركية والفارسية والكردية... إلى آخره، من شعوب الأمة الإسلامية، ولكن لكونه يحمل الهموم نفسها ويتشبث بالمصير الذي ضيعته رياح التشريق والتغريب... رغم كون مساحات واسعة من الأدب العربي اختارت أن تصير مرآة لأدب (الآخر)... مسخاً لا يملك شخصيته المستقلة وحضوره المتميز، وهذا

يلقي على عاتق الأدب الإسلامي مهمة أخرى لا تقل أهمية، هي أن يرجع بالأدب الإسلامي العربي المعاصر إلى أصالته، وأن يمنحه نسغاً يجعله ينبض بهموم العربي والمسلم، وليس بالترف الفكري أو الإبداعي للإنكليزي والروسي والفرنسي والأمريكي.

عالمياً؟! لن يكون لأدب أية أمة في الأرض ثقل أو وجود على الخارطة؟ ما لم ينطلق من خصائص هذه الأمة ورؤيتها وصيغ تعاملها مع الكون والحياة والإنسان... والعالم لا يحترم من يعيد إليه بضاعته المعروفة مزجاة... من يردها إليه ولا جديد فيها أو إضافة عليها... إنما هو يمدّ يده ويفسح المجال أمام أولئك الذين يعدون بشيء جديد... هذه مسألة معروفة في التقاليد الثقافية وسنن التاريخ والحضارات، ولكن يبدو أنها غامت على الكثيرين في ديارنا بسبب الكمّ الهائل من المعطى الأدبي في ديار العروبة والإسلام، والذي لا يعدو في معظمه أن يكون استمراراً للأداء الغربي... إن الأخذ عن الآخر ممكن، بل هو ضروري، ولكن شرط ألّا يكون على حساب الثوابت والتأسيسات.

● الخطاب الأدبي الإسلامي ليس خطاباً دينياً بالمعنى المحدود... إنه خطاب عقدي وإنساني في الوقت نفسه... ففي دائرة الإسلام ليس ثمة انفصام بأي شكل من الأشكال بين الإنسان والعقيدة، خاصةً إذا تذكرنا أنها ليست كالعقائد الأخرى، وأنها مهندسة من لدن حكيم خبير على حجم الإنسان ومطامحه ومهماته الكبرى في هذا العالم.

● معظم أدباء الإسلامية يؤكدون على المضمون، ولا يتعاملون بالجدّ المطلوب مع الشكل. والأدب العالمي لن يكون كذلك إلا بالتقاء القطبين: المعنى العميق ذي الرؤية الكبيرة الشاملة، والشكل أو الأسلوب أو التقنيات التي تحمله إلى الطرف الآخر بأقصى وتائر الإحسان في الأداء، وإلّا أصبح الأدب ـ كما يقول الجاحظ ـ مجرد معان مطروحة على قارعة الطريق..

إن الأدب الغربي استطاع أن يغزو ساحاتنا ويتمركز فيها وينال الأتباع والمعجبين، ليس بمضامينه المناقضة ابتداء لمطالب الإنسان ووجوده ومصيره،

وإنما بتقنياته العالية، وبخاصة في مجال المسرحية والقصة والرواية والسيرة الذاتية...

وما لم يكن لدينا روائيون ومسرحيون وقصاص كبار؛ فسيظل الأدب الإسلامي سجين بيئته المحلية لا يغادرها إلى العالم... وللأسف فإن معظم أدباء الإسلامية لا يكادون يعيرون أذناً صاغية لهذه الضرورة الفنية في أدائهم، ويرمون بثقلهم صوب المضامين، وهذه وحدها لا تكفي.

● الأدب الإسلامي بالذات، بما أنه تعبير جمالي مؤثر عن الرؤية الإسلامية للكون والحياة والوجود... بما أنه انعكاس للحالة الإيمانية العليا... الحالة المتألقة الفريدة، بعد انحدار الأديان وانحرافاتها... في عالم يتفكك وينحدر بسرعة صوب مستنقعات العفن، والرذيلة، والشذوذ، والجريمة، والانحراف، وفقدان طعم الأشياء... عالم يقود الإنسان المعاصر إلى الخمر والحشيش والأفيون، ويجابهه بالإيدز والقتل والانتحار... عالم ضيق... يتحول شيئاً فشيئاً إلى نقرة معتمة يضيع فيها كل شيء جميل، ويصير الوجود صراعاً حشرياً من أجل التكاثر والبقاء... عالم كهذا يغدو أشد حاجة إلى الصوت الذي يدلّه على طريق الخروج... الرؤية الجميلة المؤثرة التي تقوده إلى الضفاف البعيدة حيث يستعيد كل شيء نبيل قيمته وحضوره... إن الأدب الإسلامي لهو واحد من أكثر الإعانات قدرة على الفاعلية في عملية الخروج المنتظرة للإنسان المتآكل، من ضيق الدنيا إلى سعتها، بكل ما تنطوي عليه الكلمة من معنى.

● من منا يرفض التجريب؟ وهل كان نموّ الأنواع الأدبية كافة، وتطورها، وتزايد تألقها الفني إلّا من خلال التجريب؟ ولكن ليس مطلق تجريب، يقيناً، وإلا غدا فوضى وهدماً وتخبطاً، إنما هو التجريب الذي ينفذه مبدعون بلغوا القمة في قدراتهم الفنية في دائرة هذا النوع أو ذاك، وفي إدراك أسرار الإبداع ومطالبه وتقنياته، وفي متابعة التطور التاريخي للنوع، أي الخط البياني لتراكم الخبرة النوعية، وهذه مسألة في غاية الأهمية، من أجل تجاوز الارتجال

والمطبات، أو القفز في الفضاء... بل إن على المبدع أن يملك قبل هذا كله خلفية نقدية تمنحه خارطة عمل، إذا صح التعبير، يعرف كيف يتحرك على هديها... فإذا تذكرنا أن الأنواع الأدبية كافة، بما فيها الشعر، هي بشكل من الأشكال خبرة بشرية متراكمة، قد يزيدها الزمن أو التاريخ الإبداعي نضجاً واكتمالاً... أفنبيح لأنفسنا أن ننفي هذه الخاصة ذات الأهمية البالغة بحجة الدعوة إلى التحرر والتجديد؟ إن الجواب على هذا قد يبدو أكثر ما يبدو في تعاملنا مع عمود القصيدة.

التجريب... نعم وبكل تأكيد... ولكنه التجريب المنضبط بالقيم والمعايير الفنية المتفق عليها... التجريب الذي يحترم الخبرة الفنية ويحتضنها، ولا يفرط بأية جزئية متألقة منها بحجة هذا المطلب أو ذاك.

● ليس كل ما يجيئنا من الغرب شراً... هذه رؤية خاطئة وقع في دائرتها الكثيرون عبر القرنين الأخيرين، فقادتهم إلى المزيد من العزلة، وتضييع الفرص المناسبة للتوظيف... والحداثة ليست جهداً مبسطاً، وإنما هي معمار ذو طبقات وأدوار... من بين هذه الأدوار ما يرتبط برؤية الحداثيين وتصوّرهم للكون والحياة والإنسان... للوجود والمصير... ولمغزى الظاهرة البشرية في العالم، وهو تصوّر ينحرف في معظم الأحيان عن سويته باتجاه ما أطلق عليه (والاس فاولي) وهو يتحدث عن السرياليين في كتابه (عصر السريالية): الجنون والظلام والدجنة!!

إن الحداثيين يندفعون، كعادة العقل الغربي، إلى المدى، ثم ما يلبثون، كعادة هذا العقل أيضاً، أن يتراجعوا ويعلنوا تبرؤهم مما كانوا فيه... إنها إذا استخدمنا المفردات القرآنية: الأهواء والظنون والأسماء التي لا سلطان لها: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٣]... واللهاث وراء الحداثيين في هذه اللعبة سيجعلنا كمسلمين نخسر مرتين: مرة بتجاوز مطالب رؤيتنا السامقة المتميزة للكون والحياة والإنسان، وتصوّرنا العالي، المتفرد للوجود

والمصير ولمغزى الوضع البشري في العالم... ومرةً أخرى بقبولنا لترّهات الخصم وأباطيله وأوهامه وظنونه.

ثمة دور آخر لتيار الحداثة، أقرب إلى التقنيات المحايدة، التي يمكن توظيفها وبخاصة في مجال النقد التطبيقي. إنها والحق يقال بمثابة كشف في غاية الأهمية، يمكن إذا أحسن التعامل معه، التحقق بإضاءة أشد نفاذاً للمعطيات الإبداعية، شرط أن نكون حذرين، لأن هذا الجانب نفسه قد يتجذر في التصوّر أو الرؤية... فإذا استطعنا أن نحقق قدراً من فك الارتباط بين القطبين كان التوظيف أكثر جدوى.

● الأنواع الأدبية وليدة خبرات وثقل تاريخي ـ إذا صح التعبير ـ فليس من السهولة التخلي عن نوع ما في سبيل نوع آخر، وإنما هي ماضية مرتبطة بنزوع الإنسان الجمالي، وبقدرته على التعبير، وبالتنوع الذي هو من فطرة الإنسان، بين أديب يملك القدرة على الخطاب بالصيغة الشعرية، وآخر بالصيغة الروائية، وثالث بلغة المسرح. وحتى في السياق الشعري هناك الصيغة الملحمية والغنائية والمسرحية... الخ... وسيظل التغاير قائماً، ولكن يحدث أحياناً، لأسباب ثقافية أو بيئية، وربما أسباب أخرى يصعب تحديدها، نوع من الميل العام بين عقد وآخر... بين فترة زمنية وأخرى، إلى هذا النوع الأدبي أو ذاك، ويجيء هذا ـ ربما ـ على حساب الأنواع الأخرى.

وأذكر ـ على سبيل المثال ـ كيف كان عقد الخمسينيات عقداً شعرياً حظي فيه الشعر بالأولوية، لكن هذا لم يغيّب الأنواع الأخرى كالقصة والرواية والمسرح...

وفي الستينيات أصبح المسرح هو الغالب لاسيما وأن الحركة المسرحية في مصر بلغت أوجها يومذاك، وأخذت دور النشر المصرية تصدر سلاسل قيمة من الأعمال المسرحية المترجمة، وأصبح القارئ منجذباً إلى هذه الأعمال، مشدوداً إلى حضور بعضها مشخصاً على خشبة المسرح.

وربما كان عقد السبعينيات عقداً للقصة القصيرة، لأنها أخذت في ذلك

الحين تنضج وتهندس بشكل أكثر إحكاماً من ذي قبل. أما إذا رجعنا في الزمن فقد نجد عقد الاربعينيات ساحةً لأدب المقال الذي زادته انتعاشاً مجلة رائجة كالرسالة التي كانت تصدر في مصر، وتوزع في كل ديار العرب...

أما الرواية فأمرها يختلف، فهي بسبب من خصبها وجماهيريتها في الوقت نفسه، قديرة على الحضور في كل زمن ومكان، ويزيد في ديمومتها ظهور روائيين كبار بين الحين والآخر، ينفخون النار في حطبها فيزيدونها اشتعالاً... ومن منا لا يذكر عبر العقود الأخيرة، ريمارك وهيسه الألمانيين، وماركيز واستورياس الكولومبيين، وغيرهم ممن انتشرت أعمالهم في الآفاق؟

● العمل القصصي أو الروائي، إن لم ينطو على خلفيات رؤيوية وإيقاع شعري، يضعف ويتضحّل، ويفقد ميزاته الفنية الأساسية... والأعمال الكبيرة هي تلك التي امتلكت الخصائص المذكورة.

● ذهب عصر انتظار لحظة الإلهام لكي تتنزل فيكتب الإنسان شعراً، أو ينجز عملاً أدبياً... إن العمل الإبداعي هو كالبحث تماماً، مراس ومران، وصبر وجهد ودأب ومثابرة، واحترام للزمن، ومقاومة لعوامل الاغراء والتفلّت، وسيطرة على المشاعر والخبرات... من أجل الكتابة والإنجاز الذي لا ينتظر لحظة الإلهام والإشراق... ولا يستريح فلا يكتب إلّا وهو في أقصى حالات التوتر، أو التناغم والانسجام...

إن على الأديب أن يرغم نفسه على العمل المتواصل... يلزمها بنظام زمني يومي للعمل... وأن يمرّن خبراته وقدراته الإبداعية كافة: الخيال، والتواجد، والذكاء، والخلفيات الثقافية... وغيرها من أجل أن تكون طوع يديه وقت ما يريد...

إن (نجيب محفوظ) ـ مثلاً ـ ما كتب رواياته الخمسين إلّا من خلال التزام زمني صارم بالعمل المتواصل أربع ساعات يومياً... لم يكن ينتظر لحظة الإلهام لكي تجيئه مرةً أو مرتين في الشهر... وإلّا ما قدر على إنجاز هذا الذي أنجزه...

قد يستعين الأديب ببعض المؤثرات المشروعة: الصوتية، البصرية، المكانية... ولكن هذا شيء، والقعود طويلاً بانتظار اللحظة المواتية شيء آخر... لأن هذه اللحظة قد تتأخر... وقد لا تجيء أبداً...

● الشعر الجاهلي ليس بالضرورة قمة الشعر العربي، يبدو أن هناك مبالغة من نوع ما تتضمن قدراً من الخوف من مجابهة الإجماع، أو التيار العام الذي يرفع من قيمة هذا الشعر فوق المألوف.

والأمر كذلك بالنسبة لشعر صدر الإسلام، الذي لم يكن بالضرورة ينطوي على تكامله ونضجه الفني، إذ أنه ـ غالباً ـ كان يعاني من فجوة ظلت قائمة حيناً من الدهر بينه وبين مطالب التصوّر الإسلامي، ليس لأن الشعراء الإسلاميين المبكرين لم يتمثلوا هذه المطالب، وإنما لأن التقنيات الفنية التي تنمو بحكم قوانين تراكم الخبرة، لم تكن ـ يومها ـ مواتية، ولذا كان الشاعر الإسلامي في العصر العباسي، أو الأندلسي، أقدر على التعبير عن إسلاميته... أما في العصر الحديث، فقد ضاقت الهوّة وأصبح الشاعر الإسلامي يملك قدرات مدهشة ـ على المستويين الفني والموضوعي ـ في التعبير عن همومه وتصوراته ورؤاه...

● الشعر الحرّ، أو ما يسمى بشعر التفعيلة، يجب ألا تخترقه مقاطع من الشعر العمودي، والنثر الشعري يجب ألّا تخترقه مقاطع من شعر التفعيلة... لأن ذلك في الحالتين يؤثر سلباً على وحدة الأداء الفني، وجماليته.

● شعراء التفعيلة: إن لم يثبتوا كفاءتهم التقنية في ميدان القصيدة العمودية، يظلون أنصاف شعراء...

● كثيرون بدؤوا حياة الكتابة بالشعر... لم يسأل أحد منا نفسه: لماذا؟ ما هو الدافع الجمالي أو التعبيري الذي يجعل البداية من ها هنا دائماً: الشعر؟ ألأنه بصيغته العمودية، وقبل أن يبتذل ويسهل بشعر التفعيلة... كان يمثل تحدياً للقدرة الإبداعية بشكل من الأشكال؟ أم لأنه كان حتى عهد قريب

يمثل أكثر الأجناس الأدبية تقديراً وإعجاباً واحتراماً، فضلاً عن جمهوره الواسع العريض؟

● ضرب الشعراء المحدثون عموماً في تيه ما اصطلح عليه (شعر التفعيلة) أو الشعر الحرّ، والأنماط الفنية الأكثر حداثة منه، وصولاً إلى قصيدة النثر... فماذا كانت النتيجة؟ تأكيداً للقصيدة العمودية وليس نفياً لها، بل أستطيع أن أذهب أبعد من هذا فأقول بأنها لم تستطع حتى أن تهزها من عرشها، ولعلها زادتها تميزاً وتألقاً... لننظر إلى ما يجري في المهرجانات والاحتفالات العامة، فإن العمل الشعري الذي يحقق حضوراً أكثر كثافة، على مستويي الجمهور والتأثير الوجداني إنما هو القصيدة العمودية... إن ما تتميز به من تماسك في بنيانها الفني، ومن توحّد وتناظر في معمارها... من تأثير جمالي مؤكد لتكرار الروي والقافية بصيغة ضربات متوازنة الايقاع، محكمة الأداء الموسيقي تشد سمع الجمهور ووجدانه الشعري... تهيمن على حضوره... فتكسب الجولة.

ليست كل القصائد العمودية بكل تأكيد، فهناك من بين هذه القصائد ما يدعو إلى القرف والاشمئزاز، ويدفع للانفصال الوجداني عن الخطاب... وفي المقابل فإن شعر الحداثة، بأنماطه كافة، يعدّ ـ كذلك ـ ضرورة من الضرورات في الساحة الشعرية، ويكفي أن ننظر إلى سيل من الأعمال المتألقة في مملكته لكي نتأكد من هذه الحقيقة، يكفي أن نرى ونلمس قدرة الخيال الشعري على التحرّر عبر صيرورته الفنية، من كل ما من شأنه أن يعوق تدفقه، وإيغاله، من حواجز المطالب الفنية للقصيدة العمودية، لكي تتبين لنا صدق المقولة... فهل بعد هذا من ضرورة للاعتقاد بأن القصيدة العمودية يتحتم أن تنفي الإبداع الشعري الحرّ؟ أو أن هذا يقود بالضرورة إلى نفي العمود أو الحكم عليه بالإعدام؟

إن المسألة على العكس تماماً، فهذا التنوع والخصب في صيغ الخطاب الشعري إنما يحسب للشعر العربي وليس عليه، ونحن نعرف جميعاً تنويعات

الشعراء العباسيين والأندلسيين في دائرة هذا النمط من الإبداع، وكيف أنهم زادوا ساحته غنى وتلويناً، ولم يقل أحد أن هذا خروج عن الحضرة أو القداسة الموهومة للعمود الشعري الذي احترمه الآباء والأجداد... فليس في تقنيات الإبداع الأدبي والفني حلال أو حرام، ولن يستطيع ناقد مسلم الادعاء بقدرته على (جدولة) هذه التقنيات وقبول بعضها ونفي البعض الآخر. وتبقى القدرة الإبداعية للشاعر هي الحكم الفصل في الحكم النقدي على أعماله؛ سواء قدمها بصيغة العمود، أم التفعيلة، أم أية صيغة أخرى.

إن الشاعر العملاق قد نجده هنا وهناك... وأدعياء الشعر وعجزته قد نجدهم ـ كذلك ـ هنا وهناك... وليس الصراع بين أنماط الشعر كافة، سوى معركة موهومة لا مبرر لها، إذا تذكرنا كرةً أخرى أن القيم الجمالية قد توجد هنا، وقد تشح وتنعدم هناك، فيسقط معها العمل الشعري سواء كان حراً أم عمودياً.

الشاعر القدير هو الذي يستطيع أن يصوغ تجربته بالقالبين معاً، وعلى العكس فإن الشاعر الهزيل لن يكون بمقدور قصائده أن تلقى تقييماً أو ترحاباً سواء كانت عمودية أو حرة... ومن المتفق عليه ابتداء أن الإبداع الشعري (أسوةً بكل الأنواع الأدبية) خطاب موجه من الشاعر إلى الآخر، أي القارئ أو المستمع، والشاعر الذي يعجز عن تنفيذ هذه المهمة تحت غطاء الإلغاز والتعتيم والترميز والغموض، سيلحق أذى أو خللاً في هذه المعادلة، وهذا ليس ذنب الآخر على أية حال. ولا بدّ إذن من التحقق بالقدرة على نقل الشحنة بأكبر قدر من العمق والوضوح معاً، وهذا لن يتأتى إلا للقلة المتفوقة من الشعراء، سواء كتبوا قصائدهم وفق مطالب العمود أم حرروا تفعيلاتهم منه، فليس الأدب الإسلامي وحده خطاباً للجمهور، وإنما هي مهمة كل أدب على الإطلاق، وإلّا فقد وظيفته الأساسية.

ولن يعني وضع الجمهور قبالة الأديب أو الشاعر، إرغام الأخير على التسطّح والتضحّل والتكشّف الذي يتجاوز وظائفه الفنية، فيصير لغة عادية مما

يتداوله الناس العاديون... بل على العكس جعل الشاعر يمارس مهمة صعبة يسعى من خلالها إلى التحرك بالجمهور إلى فوق في ذوقه وإحساسه ورؤيته الجمالية، وتعامله مع الإبداع.

ويبقى أخيراً أن الشعر الحرّ أقرب إلى أن يكون خطاباً هامساً، ولذا فهو أصلح للقراءة الهادئة، أما القصيدة العمودية فهي ـ في الغالب ـ خطاب عالٍ أصلح للإلقاء في المنتديات العامة إزاء حشود المستمعين، ولذا كانت هذه القصيدة أكثر تأثيراً في المهرجانات، وأقدر على شد انتباه الجمهور وتحريكه من الشعر الحر، الذي يفقد في مناسبات كهذه قدرته على الإثارة والتأثير، وقد يقود أحياناً إلى الملل والشرود.

● الشعر الكبير هو ذلك الذي ينطوي على معان كبيرة... على خبرة حياة مصوغة في أبيات من الشعر... على الحكمة التي هي جماع التجارب والخبرات... الذي ينطوي أيضاً على ما يمكن تسميته بالشجن الكوني والإنساني... الحزن الهادئ العميق المترع بوهج العقل وخفقان الفؤاد... الحزن الذي ينسرب فيه الأسى بشكل هادئ غير مكشوف، وإلّا أصبح حزناً مجانياً... المطلوب هو الحزن الذي يطرح قيماً وتعاليم وتأملات موغلة في شرايين الحياة... ومع الحزن محاولة دائبة للبحث عن الحكمة من خلق الأشياء والظواهر والموجودات... وغاية وجودها... ومصيرها... الشعر الكبير هو شعر يلتقي فيه بنسبة مدروسة الحزن بالحكمة... إنها ـ مرةً أخرى ـ النسبة الذهبية بين قوة الكلمة والمعنى الذي تحمله، فتتجاوز به حافات اللحظة الراهنة والمكان المحدود، صوب التخوم البعيدة لكي تظل تشتعل هناك على تغاير الأماكن والأزمان.

● النثر، في معظم الحالات أكثر قدرةً من الشعر على تنفيذ مطالب الحوار المسرحي، شرط أن ينطوي على بطانته أو نبضه الشعري... إذا كانت الدراما محاكاة، أو تعبيراً عما يجري في داخل النفس البشرية، أو في نسيج الحياة الاجتماعية؛ فإنها تتطلب بالضرورة، قدراً من الواقعية، والشعر ينزاح

بها، بشكل أو آخر، عن صدقها الفني، يجرّها بعيداً عن عفويتها التعبيرية في الذات أو المجتمع.

صحيح أن عملاقاً مسرحياً كشكسبير قدّم نصوصه وفق مطالب الشعر، لكنه يبقى ابن عصره الإليزابيثي، حيث كانت آذان الجمهور مهيأة تماماً لسماع الأسلوب الخطابي الذي تتجلجل فيه موسيقى الشعر.

نحن الآن في القرن العشرين أكثر استجابة لشجن النثر الذي ينبض بروح الشعر... يومئ من وراء الأصوات المباشرة بموسيقاه العذبة، التي تنقل الشحنة الدرامية بصدق أكثر، وتأثيرية أعمق، إلى وجدان الإنسان المعاصر... إن جان آنوي أو كاسونا أو تنسي وليامز أو كامو أكثر حضوراً درامياً في هذا القرن من شكسبير.

العرض المسرحي الذي يستكمل أسبابه الفنية قد ينهض قائماً قبالة تحديات الفيديو والسينما والتلفاز... وإن جمهور المسرح لا يزال يشكل ثقلاً وحضوراً في حياتنا المعاصرة... ولا زلت أذكر ما شهدته مدينة عمان في تسعينيات القرن الماضي، حيث قدرت مجموعة من الفنانين الإسلاميين الفلسطينيين أن تقدم ثلاثة عروض أو أربعة تهيأ لها الكاتب الجيد، والمخرج المتمرس، والممثل القدير... فماذا كانت النتيجة؟ مئات، بل آلاف من الأردنيين، كانوا يتزاحمون لمشاهدة هذه المسرحيات، ولقد أغرى هذا المجموعة نفسها لتقديم المزيد، وهم يجدون كيف أن الفِرق الأخرى ـ خارج الإسلامية ـ رغم قدراتها الحرفية، وإعلامها القوي، لم تجذب سوى نفر من المشاهدين.

يجب ألا ننسى ـ أيضاً ـ أن الأديب المسلم وهو يكتب عملاً مسرحياً، مطمئناً ـ ابتداء ـ إلى أنه سينفذ على خشبة المسرح، قبالة مئات المشاهدين وألوفهم، هو غيره عندما يكتب لتكون مسرحيته سجينة الغلاف... إنه في الحالة الأولى سيزداد تفوقاً وتألقاً... وقدرة في الوقت نفسه على استكمال سائر المطالب والأدوات الفنية الضرورية لنصّه المكتوب.

● التعامل الروائي مع الواقعة التاريخية يؤثر عليها بكل تأكيد، بل يوظفها،

إذا أردنا الدقة في التعبير، لهدف جمالي إبداعي، ومن ثم فإنه يجد نفسه مرغماً على إجراء تبديل وتحويل في النسب والمساحات والأبعاد، بدرجة أو أخرى... إن الواقعة التاريخية تتحول على يدي الأديب، وبقوة قوانين العمل الفني، وصيغ التعامل بين الذات والموضوع إلى شيء آخر... وبالتالي فإننا يجب ألا نطلب من الأديب أن يخدم الحادثة التاريخية بالمنهج نفسه الذي يعتمده المؤرخ... بل أن يفككها ويعيد تركيبها من جديد... فهو في نهاية الأمر وبدئه ليس مؤرخاً، ومهمته تختلف في جوهرها عن مهمة المؤرخ. ومع ذلك فإن العمل الأدبي طالما أسدى خدمات جليلة للتاريخ... وأؤكد على الكلمة ولن أكون مبالغاً، فإن الكثير من الجزئيات والمياومات ومفردات الواقعة التاريخية التي لا يعنى بها المؤرخ، التقطتها عين الأديب وجاءت الرواية لكي توظفها وتحميها من الضياع.

إننا لا نستطيع أبداً أن ندرس عصر النهضة في إيطاليا بدون دانتي، ولا التاريخ الأندلسي زمن الطوائف بدون المعتمد بن عباد، ولا المقاومة الإسلامية للبيزنطيين بدون المتنبي وأبي فراس. كما أنا لا نستطيع أن نتابع المعطيات العمرانية في عصر المتوكل العباسي (مثلاً) بدون الرجوع إلى وصفيات البحتري... بل إن عملاً تلفيقياً كألف ليلة وليلة، يغدو ضرورياً لكل من يريد ان يكتب عن تاريخ المجتمعات الإسلامية، محاولاً تقديم تصور أكثر مقاربة لما كان يتشكل في شرايين هذا المجتمع وتفاصيل حياته اليومية.

● الرواية الإسلامية في بداياتها الأولى، كانت تحلّق في فضاء مثالي، أو ربما تجريدي، تكاد تنسلخ عن أبعاده الواقعية المتموضعة في البيئة والظرف التاريخي، أي في الزمن والمكان... وهي بهذا تفقد لحمها ودمها وجملتها العصبية، وتغدو نماذج نمطية غير قادرة وهي تخاطب الآخرين على أن تؤثر فيهم... التأثير ينبثق عن فضاء روائي يصير فيه البطل هو نفسه وليس أي كائن آخر... ونحن بأمسّ الحاجة إلى تعميق هذه المسألة وتنفيذها في النسيج

الروائي. لكن هذا لا يلغي المحاولات العديدة التي يتحقق فيها المطلوب، بغضّ النظر عن المستوى الفني الذي يتشكل فيه.

في العديد من روايات الكيلاني (ليالي تركستان، عمالقة الشمال، قاتل حمزة) على وجه الخصوص نلتقي البطل الذي لن يكون غيره على أية حال... ولقد أتيح لي أن أقرأ رواية الأديب التركي (جنكيز ضاغجي) (السنوات الرهيبة) فرأيته يعرف تماما كيف يكسو بطله لحماً ويفجر في شرايينه الدماء... كيف يعطيه ملامحه المتميزة، وخصوصياته، وكيف يضعه في مكانه المرسوم من الفضاء الروائي... و(هاشم عبد السلام) في روايتي (الإعصار والمئذنة) هو ليس مطلق (عالم) كما يقول المناطقة، ولكنه هاشم نفسه، الذي أعرفه جيداً، وأعرف كذلك ملامح وجهه، والحزن العميق الذي كان يتمركز في نظراته، وهي تطل على بلد يكاد يضيع في أيدي الغزاة... إنه هو نفسه يتحرك في فضاء محدد تماماً لم يتجاوز في الزمن الأيام الخمسة، ولكنها كانت كافية لأن تحكي لنا كيف انتهى به الأمر إلى الإعدام رمياً بالرصاص... أما المكان فهو البيئة الموصلية نفسها التي أعرفها بيتاً بيتاً وزقاقاً زقاقاً...

في روايتي (السيف والكلمة) سعيت لتوظيف الهجوم المغولي على بغداد عام (٦٥٦هـ ـ ١٢٥٨م) وسحقها على أيديهم... إنها لحظة تاريخية تنطوي على مفردات مشحونة تمنح الحدث الروائي قدرة فائقة على التأثير. لقد تعامل (المؤرخ) مع الغزو المغولي من الخارج، وهو لا يتابع الدقائق والتفاصيل، ولا يحاول النفاذ إلى العمق الإنساني للواقعة التاريخية، وإنما يكتفي برسم الهياكل الخارجية لها في حين نحن بحاجة إلى رؤية (الفنان)، لكي نسبر انعكاسات الحدث على النفس البشرية في أزقة بغداد ودورها وأحيائها ومساجدها وأسواقها وملاعبها ومكتباتها... هذه الرواية تحاول أن تقدم لنا انطباعاً مأساوياً للاجتياح المغولي لبغداد، وأن تومض من وراء الحزن والانكسار، بسبل النهوض والخلاص.

لقد حاولت أن أقيم معمار الرواية على أسس وتقنيات غير تقليدية،

رباعية الأدوار والأصوات... ينمو فيها الحدث عبر نقلات أربع لزاوية الرؤية، ومن خلال فعل وتداعيات أبطال أربعة، وهم يشاركون في صناعة الوقائع والأحداث ويغرقون في تيارات وعيهم الباطن، ويدخلون سيلاً من المنولوجات التي تعكس رؤيتهم الانطباعية لتلك الوقائع والأحداث وهم ينطلقون منذ اللحظات الأولى... كل من اختياره الحرّ، لكي ما يلبث كل واحد منهم أن يجتاز شبكة من الدروب والصدمات والخبرات، يجاهد كي يجعل خياره قديراً على اجتيازها بنجاح، ولكنه ينهزم في نهاية الأمر؛ لأنه رمى بثقله صوب نقطة ارتكاز واحدة في الكينونة البشرية... إنها دراما الصراع بين العقل والروح والوجدان والجسد، ولن يقدّر لأحد فيها الخلاص إلا من خلال بذل جهد استثنائي للتحقق بالوفاق، وذلك ما تومئ به شخصية البطل الرئيسي...

والرواية بتداخل أصواتها قابلة للتفكيك... وسماع كل صوت منفرداً... وهي في هذه الحالة ـ كذلك ـ تتابع تنامي الحدث، ولكن بصيغة ميلودية مسطحة... والمطلوب تعامل هارموني ينصت للأصوات جميعاً، لكي يكتشف من وراء التغاير وربما التنافر، توافقاً لا نشاز فيه... يقود الأشخاص والوقائع والأشياء إلى مصائرها.

لقد كان الغزو المغولي لبغداد مجزرة حقيقية على كل المستويات... كان مذبحة إنسانية قبل أن يكون تصفية جسدية... وكانت المذبحة تنطوي بالتأكيد على بعدها العقدي والحضاري معاً... وليس بمقدور الصيغ التقليدية في بناء الرواية أن تتحمل هذا كله دون أن تثقلها الوقائع، وتجنح بها صوب نوع من التقريرية أو تحوّلها ـ على أحسن الأحوال ـ إلى ريبورتاج تاريخي، يمارس فيه الراوي دور السائل أو الصحفي... وكان عليّ من أجل الانزياح بالتاريخ صوب المطالب الفنية للرواية أن أبحث عن صيغ جديدة في الأداء.

ثمة مسألة أخرى... وهي التعامل مع ضمائر الخطاب، فلقد رفضت منذ البدء اعتماد ضمير المتحدث الغائب العالم بكل شيء، لأن هذا سيفقد الرواية تركيزها وسيقودها إلى نوع من الفضفاضية التي تضعفها إلى حدّ كبير... ليس

هذا فحسب، بل إن الرواية سعت إلى توظيف ثلاثة أنماط من الضمائر لتحقيق التغاير والتوتر في الوقت نفسه... وكان على كل بطل من الأبطال الأربعة أن يتنقل وفق ثلاثة مستويات للخطاب، تبعاً للحظة الزمنية التي يتحرك فيها... إنهم جميعاً يتحدثون من الداخل، ولم يحاول الروائي أن يقتحم عليهم ضمائرهم من أجل أن يمنح حوارهم صدقاً فنياً.

وكان هذا ـ ربما ـ رد فعل لتجربتي مع (الإعصار والمئذنة). كنت أقتحم على الشخوص خبراتهم ومرئياتهم الخاصة بين الحين والحين، بما قد يجعل القارئ ينزعج لمداخلات كهذه، قد يتقبلها المسرح الملحمي ـ مثلاً ـ لهذا السبب أو ذاك، ولكنها تسيء إلى العمل الروائي بكل تأكيد. ولهذا تحاول تيارات الحداثة الروائية أن تتجاوزه، فيما نلحظه مثلاً لدى ساروت وبوتور وسيمون... إنهم يشكلون الفضاء المعرفي لشخوص الرواية من خلال خبراتهم وقدراتهم ومرئياتهم الخاصة التي تحدد مساحات الفضاء... وليس من خبرات الروائي ومرئياته بطبيعة الحال.

● القراءة والقراءة والقراءة حتى اللحظة الأخيرة... تلك هي الصيحة التي يجب أن نرفعها قبالة أنفسنا، وإزاء كل حملة الأقلام من علماء وأدباء الإسلام... إنها الكلمة الأولى... كلمة البدء التي تنزل بها كتاب الله... والفعل الذي يتحتم أن يكون الخبز اليومي للمثقف المسلم... طعامه وشرابه.

قد يبدو هذا أمراً اعتيادياً يوم كانت القراءة في العقود الماضية تقليداً سائداً في الحياة الثقافية، لكن الأمر يختلف في العقود الثلاثة الأخيرة... لقد غزتنا وسائل الترفيه السهلة، وحاصرتنا الهموم والمطالب المعيشية والوظيفية في كل مكان، وأخذ الزمن يضيق علينا الخناق... الكل يركضون وراء همومهم حتى اللهاث، وما تبقى من وقت يستلقون فيه على جنوبهم نائمين أو باحثين عن الثقافة المتضحّلة السهلة الميسورة التي تنسجم وإعياءهم المقيم ولا تكلف جهداً عقلياً... قراءة الصحف والمجلات ودوريات تزجية الفراغ... انني أعرف جيداً حشود المثقفين الإسلاميين، وغير الإسلاميين بطبيعة الحال، بل أعرف

العديد من الكتّاب أنفسهم لا يكادون عبر الزمن الأخير يقرؤون شيئاً ذا قيمة... فماذا نتوقع أن تكون النتيجة؟ وكيف تكون النصيحة بالقراءة شيئاً مستهلكاً؟ إن الأمر جدّ، إذا استعملنا عبارة الكاتب الفرنسي (يونسكو)، وقبالته يجب أن نفعل شيئاً وإلا استهلكنا الوقت وفقدنا القدرة شيئاً فشيئاً على أن نقدم للحركة الثقافية شيئاً ذا قيمة.

فإذا تذكرنا أن زمننا هذا، هو في الوقت نفسه، زمن الانفجار المعرفي، وسيول المؤلفات التي تطلع على الناس في كل يوم، وأنه ـ كذلك ـ زمن التواصل الثقافي السريع، حيث ينتقل الكتاب من بلد إلى بلد بسرعة الكهرباء، وحيث يترجم عن لغاته الأصلية أسبوعاً بأسبوع ويوماً بيوم... إذا تذكرنا هذا عرفنا أن الأمر جدّ فعلاً، وأنه التحدي الذي تنوء به العصبة أولو القوة... ولكن لا بدّ مما ليس منه بدّ...

لا بدّ أن نقرأ ونقرأ ونقرأ ما وسعنا الجهد وحتى آخر حدود الاحتمال وإلا ضعنا... القراءة... القراءة... القراءة... من أجل إعادة ترتيب ما كان... ومحاولة السيطرة على ما هو كائن... والاستعداد لما سيكون...

هذا ما يمكن أن يقال لكل أولئك الذين يطمحون لأن يقدموا شيئاً ذا قيمة لهذا الدين المتجذر في العالم، والذي ينتظر الزراع لكي يستوي نبته الواعد على سوقه ـ بإرادة الله ﷻ ـ فيغيظ به الخصوم والكفار... (اقرأ) هي التأسيس والمنطق والرؤية ومنهج العمل... وما لم تصبح خبزنا اليومي... طعامنا وشرابنا... نومنا ويقظتنا... همنا الذي يشعل فتيل القلق والتطلع في عقولنا صباح مساء... فلن نستطيع أن نكون أكفاء لما يتطلبه هذا الدين وسط دوامة التحديات وصخب التحولات الكبرى، بين قرن أطلّ على نهايته وقرن يوشك على العالم منتظراً إشارة الخلاص.

والأدب الإسلامي على وجه الخصوص ينتظر وقوده الذي يجعله أكثر اشتعالاً وأشد تألقاً... إننا لن نستطيع أن نلفت أنظار العالم إلى هذا الخطاب المتميز، الواعد بالتبديل والتغيير، ما لم نصب المزيد من الزيت على الحطب

المشتعل... ما لم نصعّد نار الإبداع حتى تصير فناراً عالياً يراه ويستضيء به القاصي والداني.

والزيت هو القراءة... هو المتابعة الموصولة لكل ما تشهده ساحات الأدب من معطيات في حلقاتها كافة... هو الحمى التي تجعل المرء لا يرتاح إلا بأن يدفن رأسه في بحر الكلمة لكي يتعلم الكثير... انها الكلمة الأولى والثانية والثالثة... وليست الأخيرة... لأن الأفق سيظل مفتوحاً للمشروع الكبير الذي نحلم به جميعاً: أن نصير أمة من القراء والأدباء والمثقفين كما أراد لنا كتاب الله ﷻ أن نكون...

بهذا وحده يمكن أن نجابه تحديات العصر ومتغيراته، وأن نجعل (كلمتنا) الجميلة المؤثرة، ورؤيتنا للحياة والوجود، حاضرتين في قلب العالم.. قديرتين على اكتساح كل ما لا ينسجم ويتواءم مع مطالب الإنسان... متجذرتين في الدنيا التي تتناوشها الأعاصير (كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء).

إن كلمة (اقرأ) التي تنزلت على رسول الله ﷺ في غار حراء... هي البداية الصحيحة... وهي فعل إيجابي، وليست أمراً بالنفي... وكما قادت المسلم أول مرة إلى تشكيل فعله الحضاري المتميز؛ فإنها قديرة على أن تقودنا كرةً أخرى إلى استئناف الدور... إنها ليست نصيحة تقليدية تزجى للقراء، ولكنها أمر إلهي إلى كل مسلم في هذا العالم، الذي يضيع فيه من لا يحاول أن يبذل جهداً استثنائياً في قراءة الأشياء والسنن والنواميس والظواهر والموجودات، والتعرّف عليها... إن كل قارئ، وكل مسلم، بشكل عام، مدعو اليوم لأن يمضي في درب المعرفة الإيمانية، وأشدّد على الكلمة... معرفة الآخر... ومعرفة العالم من أجل أن يتبيّن خرائطه جيداً، ويرى بوضوح موضع قدميه في عالم تصطرع فيه القوى... والويل لمن لا يحمل رايته المستقلة في خضم هذا الصراع.

قراءتي لم تكن سواء... فحيناً لا تتجاوز في اليوم الواحد ساعة واحدة أو نصف الساعة... وحيناً آخر تستغرق مني الساعات الطوال... وقد يمضي اليوم

واليومان دون أن أقرأ شيئاً... وبالمقابل أجدني أحياناً أتعامل مع الكتاب بنهم عجيب... فأقرأ صباحاً، وأعود مساء لكي أواصل القراءة... ثم يجيء الليل لكي يمنحني فرصة أكثر مواتاة لمواصلة القراءة... في يوم ما كنت أنا الذي أختار زمن القراءة، ومداه... وبمرور الوقت وتزايد المطالب والهموم، أصبح هو الذي يختارني إذا صح التعبير... وفي الحالتين تظل القراءة أمراً ملزماً وليست رغبة عابرة... تظل واجباً يومياً أجدني أبذل قصارى جهدي لتلبية مطالبه... واليوم الذي لا أقرأ فيه يتملكني إحساس بأنه غير محسوب من عمري... أكثر من هذا... شيء من التأثم في أنني قد فرطت في واجب ما.

ودائماً كانت القراءة، فضلاً عن إضافتها المعرفية، تمنحني المتعة والعذاب معاً... الانسجام أو التوافق مع الذات والأشياء والموجودات حيناً... والتنافر والثورة والإحساس بالمرارة حيناً آخر... ليس ـ فقط ـ لأنها توافق قناعاتي في الحالة الأولى، وترتطم بها في الحالة الثانية، وإنما لأنني ـ أحياناً ـ لا أفهم في الكتاب الذي أتعامل معه المعنى النهائي الذي يتوخاه المؤلف، أو القوة الفكرية التي تربط فقراته وفصوله وتجعلها تتسلسل بهذا الشكل أو ذاك... القصور قد يكون من جهتي، وأنا أعترف بهذا، ولكن في حالات كثيرة يجيء من المؤلف نفسه الذي لا يعرف كيف يوظف اللغة لحمل الخطاب إلى الآخرين.

ويزداد الأمر تعقيداً عندما يدخل المترجم غير المتمرس طرفاً في الموضوع... حينذاك تستحيل القراءة إلى جحيم لا يطاق... ولما كانت طبيعتي قد فرضت عليّ منظومة من التقاليد القاسية في مجال القراءة: من مثل أن الكتاب الذي أبدأ قراءته، لا بدّ أن أتمّه بأي ثمن...

ومن مثل محاولة الفهم المتكامل لكل مفرداته دون أن أسمح لمفردة معرفية واحدة أن تندّ عني... ومن مثل الرغبة ـ إلى حدّ الوسواس التسلطي ـ في أن أخضعه في ترتيبه المنطقي، لهندسة معينة تجعله أكثر توافقاً مع منظوري العقلي وطريقتي في التعامل مع الأفكار، فلكم أن تتصوروا كيف ستغدو

القراءة عذاباً متواصلاً قد أحمّل فيه نفسي ما تطيق وما لا تطيق... ولكن، من جهة أخرى، قد يستفزني كتاب ما عبر رحلة توافق عجيب لا نشاز فيه أبداً... وحينذاك تصير القراءة متعة يصعب وصفها... وأحس حتى أعمق نقطة في كياني أني دخلت دائرة الرضا والانسجام وأظل سعيداً فرحاً عبر ساعات النهار... لا يكدرني شيء... ولكن كم من الكتب التي قرأتها في حياتي منحتني هذه اللحظات؟

ثمة ما يجب أن يقال أيضاً... بالنسبة للكتّاب والمفكرين... ان الكتابة والتأليف تأخذ من وقتهم الكثير، وقد يكون هذا في معظم الأحيان على حساب القراءة... أليس كذلك؟ ومن هنا أجدني ممزقاً بين إغراء القراءة ومطالب الكتابة، التي يبدو أنها لن تكفّ حتى يغيب الإنسان في التراب... انك إذا استجبت لنداء ما... مشروع تأليفي أو بحث أو مقال أو حتى خاطرة، وجدت نفسك مرغماً على الانسحاب من دائرة القراءة، لكي تتمحض للكتابة، حتى إذا أتممت العمل، وتنفست الصعداء، وقلت بينك وبين نفسك: ها قد آن الأوان لكي أتفرغ للقراءة التي طال إليها شوقي واشتد ظمئي... برز قبالتك مشروع عمل، وربما مشاريع أخرى، أشد إلحاحاً، وأرغمتك كرةً أخرى على أن تقتطع من وقتك الساعات الطوال، وأن تدفن رغبة القراءة ونهمها الذي لا يكفّ، في طبقة بعيدة في أعماقك قائلاً: سيجيء ذلك اليوم الذي تلبى فيه الأشواق... أتراه سيجيء فعلاً؟!

إنني أتذكر على سبيل المثال ـ بحنين جارف ـ ما كان يحدث في الخمسينيات والستينيات... كان الكتاب هو خبز المثقف اليومي، وكانت المقاهي والحدائق والمكتبات والكازينوات والأماكن العامة، فضلاً عن الدور، ساحات لبلّ الشوق وإرواء الظمأ... وكان التقليد السائد يومها أن من يذهب إلى المقهى، لا بدّ وأن يحمل معه كتاباً... حتى ولو لم يقرأ فيه...

ما الذي تغير عبر العقود التالية، فقلب الأمور رأساً على عقب؟ انظر إلى واقع الحياة في مدننا العربية والإسلامية، فإنك ستجد الناس يركضون...

تتوزعهم مئات المطالب والهموم... حتى إذا ما أتيحت لهم الفرصة ووجدوا أنفسهم قبالة ساعة أو ساعتين من الزمن... سحبهم التلفاز أو الفيديو... أو في الأقل الرغبة في الاسترخاء والكسل العقلي، تعويضاً عن ساعات الشد النفسي المشحونة عبر رحلة الليل والنهار.. فعلام يقرؤون؟

هذا هو الذي جعل المواطن العربي ـ وفق آخر إحصائيات اليونسكو ـ لا يقرأ في العام الواحد سوى أربع دقائق فحسب، في الوقت الذي يقرأ فيه المواطن الغربي مائتي ساعة... وهذا الذي جعل معاهدنا وجامعاتنا عبر العقود الأخيرة تخرج مجموعات من الأميين... وهذا الذي يجعل تسعة من طلبة الدكتوراه من بين أحد عشر طالباً لا يقرؤون في العام الواحد كتاباً واحداً... فأي شهادة تلك التي سيعلقونها على جباههم الفارغة، وهذا الذي يجعل المعلمين والمدرسين بل حتى الأساتذة الجامعيين لا يكلفون أنفسهم قراءة كتاب واحد عبر السنة والسنتين؟

نحن معشر الكتّاب نحاول ما وسعنا الجهد أن نقاوم هذه الظاهرة المخيفة، وأن ننفخ النار في الجذوة الخابية لكي تشتعل مرة أخرى، وأن تمضي لكي تلتهم الكتب وتغري الآخرين بالتهامها... وأن نرفع ـ دائماً ـ شعار: القراءة هي ملح الحياة، وبدونها لن يكون لها طعم أو مذاق على الإطلاق... وحتى أنني أصبحت أقرأ في العام الواحد عبر السنوات الأخيرة ما يزيد على الخمسين كتاباً.

إننا قبالة معادلة صعبة، وعلينا أن نستجيب لتحدياتها... لأن أي توقف، ولو لالتقاط الأنفاس، ومراجعة الحساب، سيجعل القطار يفوتنا، وسيمنع عنا الزاد والوقود الذي يعيننا على مواصلة الطريق، ولن يكون بمقدورنا ـ يومها ـ أن نقدم شيئاً جديداً، أو شيئاً ذا قيمة، إذا أردنا أن نكون أكثر واقعية وصراحة... ثم إننا في عصر الانفجار المعرفي والمتواليات الهندسية في دنيا النشر، وأن هذا يفرض علينا كفاحاً متواصلاً لمتابعة المتغيرات المعرفية ومحاولة إدراكها؛ وإلا وجدنا أنفسنا يوماً خارج دائرة التاريخ.

● أحاول، ما وسعني الجهد، أن أقرأ بنظام ومنهجية، فليس كهذين ما يعين المرء على السيطرة على نشاطه ورفع وتائر إنجازه والوصول إلى المحطات التالية.. القراءة ليست رغبة عابرة، ولا هي محاولة للاسترخاء أو تزجية الفراغ... القراءة جهد صعب، ورحلة مرسومة بعناية في (كون معرفي) يضيع فيه من لا يملك خارطة أو بوصلة أو مجذافاً.

بين الحين والحين أقوم بجرد رفوف مكتبتي، محاولاً أن أنتقي مجموعة متوازنة من الكتب وأضعها قبالتي قائلاً: انها واجبي المفروض على مدى الأشهر الثلاثة أو الأربعة القادمة... حتى إذا ما أتيت عليها، قمت بمحاولة أخرى للجرد والانتقاء... وقد تخترق هذه المجموعات الدورية مؤلفات مغرية أجدها لدى هذا الصديق أو ذاك، أو في هذه المكتبة العامة، أو تلك، وعبر العروض المتجددة في معارض الكتب السنوية، وأسواقها، أو خلال رحلاتي إلى البلدان المختلفة... وفي كل الأحوال أسعى إلى تنفيذ التوازن الذي أشرت إليه قبل لحظات، في اتجاهين أساسيين: أن تحقّق هذه المختارات الفائدة والمتعة معاً... أن تضيف لديّ جديداً... وأن تمنحني الرضا والارتياح في محاولة للتخفيف من هموم الكتابة ومطالب الحياة.

ويتمثل الاتجاه الآخر في ضرورة أن تنطوي هذه المختارات على قدر معقول من التنوّع بين شتى صنوف الفكر والأدب لكي تمنحني الغذاء المطلوب، والزاد الذي يعينني على السباحة في أنهار المعرفة المتنوعة، ويمكّنني من الوصول إلى شطآنها بسلام... هذا إلى أن التنوع هو في حدّ ذاته ضرورة من ضرورات مجابهة الملل والتضحّل العقلي والجمود... وأحياناً، النفور من القراءة نفسها كما حدث بالنسبة للكثيرين... إن هذا التنوع يمنح الكاتب لغة أكثر قدرة على الأداء الملائم في حقول المعرفة التي يمارس فيها عمله... والذين يجمدون على نمط واحد من المعرفة، بحجة مطالب التخصص، وضغط الزمن، سرعان ما يجدون أنفسهم يسقطون في مستنقع اللغة العقيمة التي تعجز عن نقل الخطاب، فيفقدون قرّاءهم، وقبل ذلك يفقدون موقعهم المتميز

على خارطة الكتّاب والمؤلفين... أن يكون لك أسلوب متميز يعني أنك قد أخذت موقعك على الخارطة... ولن يتأتى هذا إلا بالقراءة المنهجية لأنواع المعارف الممكنة وفروعها المتشابكة.

● ثمة سؤال طالما فرض نفسه في سياق الكتابة والإبداع: التخصص أم الموسوعية؟ والحق أنه ليس قدرنا أن نقول هذا أو ذاك... وإنما هذا وذاك... فالظواهر في بعض الأحيان لا تتخاصم وينفي بعضها بعضاً، وإنما تلتقي، وتتصالح، ويعطي كل منها للحلقات الأخرى الفرصة الكاملة للتحقق... إن الجدل (الهيكلي) الذي يرغم الأفكار على أن تصطرع وينفي بعضها بعضاً، والديالكتيك المادي الذي تزيح فيه الشرائح الاجتماعية وصيغ الإنتاج بعضها البعض الآخر، فيطرده من الحضرة ويستأثر بالسلطان... جدل أو اصطراع كهذا ليس قدراً محتوماً كما يخيل للكثيرين. فهناك دائماً مع وجود الاصطراع والنفي، هناك الوفاق والتصالح والتوازي في هذا الجانب أو ذاك من جوانب الفكر أو الحياة.

ما أريد أن أقوله هو أن الموسوعية ـ إذا صحّت الكلمة ـ لا تتعارض مع التخصص سواء في دائرة المفكر الواحد، أو في سياق النشاط الفكري والثقافي في بيئة ما أو عصر من العصور... القطبان يكمّل أحدهما الآخر... هذا يتحرك في فضاء واسع أعطاه الله ﷻ القدرة على خوض غماره... وذاك يوغل في أعماق الظواهر والخبرات ويتمركز في حيز محدد حيث يجد نفسه مؤهلاً لأداء مهمته الفكرية في دوائر التخصص... والحياة الثقافية التي يغيب فيها الموسوعيون، ولا يتحرك سوى أصحاب التخصص في هذا الفرع المعرفي أو ذاك... حياة لا تستحق أن تعاش... أرخبيل من الجزر المنعزلة التي لا تجمعها لغة واحدة... لنتصور لو أن قرننا هذا لم يشهد مثقفين موسوعيين كالعقاد أو طه حسين أو سيد قطب أو توفيق الحكيم، بغض النظر عن توجهاتهم الفكرية... مثقفين كتبوا في الفكر والتاريخ والترجمة والسيرة الذاتية والتنظير والنقد الأدبي، وأبدعوا قصصاً ومسرحيات وروايات وشعراً... كيف

يمكن أن يكون؟ لنتصور لو أن رسائل الماجستير وأطروحات الدكتوراه التي طالما مارست خطابها بلغة سقيمة مكسرة، وبرؤية تخصصية مقفلة، هي وحدها التي تستأثر بالساحة... كيف سيكون الحال؟

إن التخصص هو بالتأكيد من ضرورات التقدم العلمي، وفي المقابل فإن الموسوعية هي ضرورة ثقافية... إذا كنت تملك أن تقدم شيئاً ذا قيمة في أكثر من ساحة فلماذا تتردد؟ وإذا كان غيرك بمجرد أن يمدّ رجله خطوة خارج نطاق تخصصه تعرض للضياع، فما ذنبك أنت؟ ومع ذلك فإن هذا لا يمنعك من أن تصير متخصصاً ناجحاً، بل ربما أكثر قدرة على العطاء والإبداع في مجال تخصصك نفسه من الكثيرين ممن اعتقلوا أنفسهم في زنزانات ما يسمى بالتخصص الدقيق، ففقدوا الرؤية الشمولية، واللغة القديرة على الأداء، بل أصيبوا بسبب جمودهم في البؤر الضيقة بعمى الألوان، وغدوا ـ بتعبير اشنبكلر ـ مجرد منظفي أتربة أكاديميين!!

في الغرب والشرق على السواء رحل مئات الأكاديميين المتخصصين، بل ألوفهم، دون أن يسمع بهم أحد، ودون أن يتركوا في الحياة الثقافية أثراً يذكر... بعضهم ـ إذا أردنا الحق ـ مضى بالخبرة العلمية صوب آفاق بعيدة وقدم كشوفاً مذهلة خدمت البشرية جمعاء... لكن أغلبهم ـ والحديث عن جماعة الإنسانيات ـ ما فعلوا سوى أن تمرسوا في مجال تخصصهم وأصبحوا أساتذة جامعيين ناجحين، وليس ثمة شيء وراء ذلك... لكن موسوعيين كهيكل واشبنكلر وتوينبي واريك فروم وكارودي وروم لاندو... وغيرهم كثيرون... هم الذين أعطوا الحياة الثقافية في الغرب، وربما في العالم كله، طعمها وملحها... وهل ننسى جيد ومالرو وكوستلر وبرناردشو وفتكنشتاين وبرتراندرسل... و...؟

لنترك هؤلاء وهؤلاء، كل يعمل في مجال قدراته التي منحه الله إياها... فكل ميسر لما خلق له، كما يقول الرسول المعلم ﷺ، وليس ثمة مبرر على الإطلاق لأن ينفي أحدهما الآخر ويستأثر بالميدان...

لقد فتح أبناء جيلي عيونهم على عصر لم يكن المفكر فيه قد اعتقل

نفسه في زنزانة التخصص... ولقد تعلمنا كثيراً ـ بغض النظر عن اختلاف القناعات ـ من العقاد وسيد قطب وطه حسين والرافعي والحكيم وبنت الشاطئ والغزالي والسباعي والطنطاوي والندوي وغيرهم... كانوا يكتبون في الفكر والأدب والتاريخ... كانوا ينظرون وينقدون ويبدعون... بل إن معظمهم قال شعراً.

ثمة مسألة أخرى... ان الساحة الإسلامية بالذات قد تغري بنوع من الملاحقة... قد تجعل الكتابة في أكثر من ميدان نوعاً من (فرض العين) على كل قادر... وتبقى مسألة الأولويات هي التي تحدّد ما الذي ينصبّ عليه الاهتمام في هذه اللحظة الزمنية أو تلك؟

على أية حال، ومن أجل تجاوز أي نوع من سوء الفهم، فإن تشعب الاهتمام لا يعني بالضرورة انتقاصاً لمطالب التخصص أو المنهج، ولا خرقاً لضرورات الأكاديمية... إن ما كتبته في حقل التاريخ ـ ولله الحمد والمنة ـ يتحقق بهذه الضوابط والضرورات، وإلا لما حصلت أساساً على الماجستير والدكتوراه بأعلى الدرجات، ولما رقيت إلى مرتبة الأستاذية في التاريخ الإسلامي...

إن منطق العجز وحده هو الذي يدين الآخرين، وهم يغادرون بين الحين والحين مواقع تخصصهم لكي يكتبوا في مجال آخر، بعيداً عن الزنزانات التي تحاول أن تقيم أسلاكاً شائكة بين حقول المعرفة الإنسانية تمنع من العبور.

إن آخر تقاليد البحث في العلوم الصرفة نفسها تدعو إلى مشاركة الإنسان في الظاهرة العلمية... نوع من اندماج الذات في الموضوع... لنقرأ ما يقوله فتكنشتاين وسوليفان وكاريل بهذا الخصوص... معنى هذا أن اتساع الفضاء المعرفي للعالم، وكسر حاجز التخصص الدقيق عاد لكي يفرض نفسه، ليس فقط في الإنسانيات، وإنما في العلوم المحضة كذلك.

● كيف يصبح الإنسان أديباً؟ ذلك هو السؤال... لعلّه التكوين النفسي والمطالعات الأولى... منذ اللحظات المبكرة كنت أتعامل بجملتي العصبية...

وكان فاصل الألم بيني وبين العالم منعدماً تقريباً.. كان تحسسي للخبرات والتجارب والأشياء مرهفاً إلى حدّ الإعياء... باختصار شديد، لقد كنت أعيش الحياة (انطباعياً)... فاللون... الصوت... النأمة... الحركة... الإيماءة... هذا الأمر الصغير أو ذاك... يثير دائماً في نفسي رداً، أو استجابة بشكل من الأشكال... وكانت هذه الاستجابات المتراكمة التي قد تتجاوز أحياناً معادلها الموضوعي المتوازن إزاء الخبرة... تضغط علي... تريدني أن أقول شيئاً أو أن أفعل شيئاً، وإلّا آذت أعصابي... ولقد حاولت أن أستجيب للنداء بمحاولات مبكرة في عالم اللون... الرسم... فلما أخفقت، تحولت إلى (الكلمة)، وكانت الكلمة بالنسبة لي، ولا تزال، ليست وسيلة أو فرصة للتعبير فحسب، وإنما لنقل إحساسي بلون العالم، الأحمر أو الأخضر أو الرمادي، للآخرين، وبسبب من الإرهاف الملحّ الذي شكّل معظم الأدباء والفنانين تحولت الكلمة عندي، إلى ريشة ترسم وتلوّن وتشكّل القيم والخبرات، لا مجرد أداة أو آلية للتوصيل.

وعندما كنت أقرأ، والحالة هذه، كنت أرتشف القصة أو الرواية أو المسرحية أو القصيدة أو الرؤية الأدبية، كما يرتشف الإنسان كوباً من الشاي أو العصير اللذيذ... قطرة قطرة... وبمحاولة للتذوق والتلذذ والاختزان حتى آخر قطرة من العصير...

لا زلت أذكر زمن الدراسة الثانوية: لامرتين، وجبران، وهوغو، وتوفيق الحكيم، وطه حسين، وسيد قطب، والعقاد، والرافعي، وأبو ماضي، وشوقي، وإبراهيم طوقان، وديكنز، وموباسان، وغوته، وعلي الجارم، ومحمد عبد الحليم عبد الله، والعريان... وغيرهم كثيرون... لا زلت أذكر كيف كانت قصائد (دروس تاريخ الأدب) التي كنا نكلف بحفظها، تفرض عليّ حضوراً يصعب وصفه... كانت قصائد المعري والمتنبي وأبي العتاهية والبحتري تسكنني...

وكنت أجتاز المسافات الطوال تحت الشمس... في ربيع الموصل الحار... وأنا أستعيدها كي أتحرر منها... (أتطهر) بتعبير أرسطو... فما أزداد إلّا احتراقاً... وكان لا بدّ أن أقول شيئاً... والكلمات الأولى تقطر رومانسية في

معظم الأحيان، وتنطوي على حشود من الأخطاء والتناقضات والمبالغات والتهاويل... ولكنها ـ على أية حال ـ تعلّم... تعلّم كثيراً... كما أنها ـ وهذا هو الأهم ـ تخفف الضغط وتسمح للتوتر بأن يجد فرصته... ولكن الذي حدث ـ بالنسبة لي على الأقل ـ أنني ما كنت أقتنع بهذا على الإطلاق، فما كنت أزداد إلا توتراً واحتراقاً... ولقد أثّر هذا على صحتي وقادني إلى حافات المرض والإعياء.

من ثم فإنني، عندما فرض عليّ أن أختار الفرع الذي سأذهب إليه في كلية التربية، وجدتني أعاني لحظات صعبة، إذ كنت أخشى أن أندفع إلى قسم اللغة العربية فيسحقني مواته وأكاديميته المتضحلة، وعدم اعترافه بخبرة الطالب (الذاتية)، أو تحسس النار التي تشتعل تحت جلده... وقلت أذهب إلى التاريخ كي لا تضيعني الصدمة كما ضيعت الكثيرين ممن ذهبوا إلى هناك... أما تنمية الخبرة الأدبية فلسوف أتعامل معها من الخارج... وبالحرية التي لا يأسرها قيد...

ثم إن التاريخ نفسه قد يكون فرصة جيدة للتعامل الإبداعي مع الخبرة... وأذكر جيداً أنني لما دلفت إلى الدراسات العليا في التاريخ الإسلامي بعد ذلك بأربع سنوات، حاولت أن أكتب رسالتي بلغة شعرية، أو قطعاً منها على الأقل، ثم خشيت أن يعترض عليّ الآخرون... وبخاصة أستاذي المشرف... فإن لغة البحث التاريخي الجاد لا تترك أيما مساحة للشعر... هكذا خيّل إليّ أيام الصراع القاسي ذاك في البحث عن صيغة أو لغة أخرج بها رؤيتي للعالم...

ولكن وفيما بعد (بعد ست سنوات أخرى) يتبين لي بعد محاولات وقراءات عديدة، أن التاريخ في أعمق طبقة منه هو بالضرورة تشكيل شعري... فعل درامي بعبارة أخرى... وأنه قد يلتقي مع النص وشاعرية التعامل مع الحقائق والخبرات... وكتبت يومها مقالات عديدة في الدعوة إلى كسر حاجز النصية التاريخية التي أسرت الكثيرين، وإلى تحقيق لقاء ما أو توازن مناسب بين الكلمة والحقيقة... بين الأكاديمية والإبداع...

وكان كتابي المبكر عن (ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز) تعبيراً بشكل من الأشكال عن هذه القناعة التي أرسيت دعائمها في كتابي المبكر الآخر (في النقد الإسلامي المعاصر)، كما أنني عثرت على ضالتي في معطيات أزوالد اشنبكلر وأرنولد توينبي وكولن ولسون.

إن المؤرخ يتحتم أن يكون أديباً، وإلا فإنه لن يتجاوز ظاهر النص إلى عمقه المطلوب، ولا يبعد عن حافات الخبرة التاريخية باتجاه الوجدان البشري الذي شكلها... أما الأديب فإنه مؤرخ بالضرورة، فليس ثمة أدب يتحرك في الفراغ... لا بدّ له من زمن ومكان يستمد منهما ويتكئ عليهما ويشكل منهما فضاءه... وهذا في نهاية الأمر هو التاريخ.

● وكيف يتاح للإنسان أن يقدّم هذا الكمّ الكبير من الإنتاج في حقول التاريخ والفكر والأدب دراسة وتنظيراً ونقداً وإبداعاً؟!

تلك ـ بحق ـ منّة يمنّ الله بها، وفضل منه ﷻ، وبركة... أن تجد الفسحة الزمنية الكافية للإنتاج وسط زحمة المشاغل الوظيفية والأكاديمية والبيتية... وما أكثرها... وقد أعانني على هذا أنني منذ بدايات مبكرة ترجع إلى أيام العطل الصيفية في مرحلة البكالوريوس، كنت آخذ نفسي بنظام صارم للعمل (على المكتب) كما يقولون، فكنت أفرض عليها فرضاً (أربع ساعات) وخمس من الجهد اليومي في الكتابة (على تغاير توجهات هذه الكتابة)، وكانت تناديني أصوات مغرية، لترك العمل والذهاب هنا أو هناك، وممارسة هذه الهواية أو تلك، وما أكثرها وكانت نفسي تتوق إلى الاستجابة، لكن هاجساً كان يشدني من الداخل إلى الالتزام بنظام الساعات الأربع أو الخمس من العمل اليومي المتواصل.

حتى المطالعة كنت أكافح ضد إغرائها كي لا تسرق شيئاً من هذه الساعات، فإن موعدها في وقت آخر من اليوم، ولن أسمح أبداً أن تجيء على حساب الكتابة... بمرور الوقت تلبست تكويني النفسي حالة لا أرجوها للآخرين... نوع من القلق الممض.. من التشتت والتبعثر... من الإحساس بالملل

أو اللاجدوى، عبر كل زمن مستقطع من وقت الكتابة... أكثر من هذا: إحساس مرير الطعم بالندم... بأنني أمارس تفريطاً بواجب ما، بمهمة هي أكثر ضرورة وإلحاحاً من أية ممارسة أخرى...

كانت الحياة خارج دائرة الكتابة قلقاً وبؤساً وتسطحاً وتشتتاً... أشياء وخبرات تفقد طعمها بالمرة... وكان الهاجس يدق في جملتي العصبية كناقوط الماء... أكتب وأكتب وأكتب... فإن ساعات الكتابة يجب ألا تذهب أو تعطى لأي شيء آخر على الإطلاق... ويوماً بعد يوم كان الإنجاز بالنسبة لي هو الداء والدواء...

وكنت أغادر المكتب بعد ساعات العمل تلك وأنا أحس بسعادة غامرة يصعب وصفها... بامتلاء نفسي عجيب... بإحساس مترع بالأمل والجدوى... وبتذوق شهي لطعم الأشياء والخبرات... عندها فقط كانت أقل متعة... أبسط هواية... أتفه ممارسة... تسعدني وتملؤني بالغبطة.

بدون الكتابة ما كنت سعيداً على الإطلاق... ولكن هذه السعادة... هذا الإحساس الغامر بالفرح... ما كان يجيء إلا بعد معاناة قد تبلغ أحياناً حدّ أن أرغب في الفرار بعيداً... اليوم الذي أتحرر فيه من الأسر وأستعيد فيه نفسي... أو بعبارة أخرى، أعيد ترتيب حياتي بصيغة أخرى تماماً... والنتيجة؟ ويجيء الجواب: إنني بمرور الأيام وجدت طريقي في الكلمة نفسها... التقيت بفكاكي من الأسر على المكتب نفسه... وبدون الإمساك بالقلم ومواصلة العمل فإن الحياة قد لا تستحق أن تعاش!!



الفصل الرابع عشر

رحلتي مع الأسفار

[١]

رحلة عام ١٩٦٣م إلى سوريا ولبنان ومصر

الخميس ١١/٧: مغادرة بغداد مساء في حافلة شركة النيرن البرية إلى دمشق.

الجمعة: الوصول ظهراً إلى دمشق... جولة مسائية في المهاجرين... جلسة كازينو ولعب الشطرنج مع زميل السفر عبد الجبار ناجي (الدكتور فيما بعد).

السبت: جولات عديدة في الباص... سوق الحميدية... الجامعة... المسجد الأموي... المهاجرين... كازينو...

الأحد: صباحاً: إلى دمّر والهامة... مساء: الشيخ ابن عربي... شارع المهاجرين... كازينو... غضب غير مبرّر من الزميل عبد الجبار...

الاثنين: صباحاً: إلى بيروت... الاستقرار في بحمدون... مساء: جولة في بحمدون... كازينو... المبيت في الفندق.

الثلاثاء: صباحاً: إلى بيروت... الحجز على باخرة الإسكندرية... والعودة... مساء: كازينو ... فندق... إحساس بالملل...

الأربعاء: إلى الباخرة... جلسة رائعة ثم إحساس بالصداع ودوار البحر ومعالجته بالنوم... الخروج مساء إلى سطح الباخرة وجلسة الغروب الرائعة، ومحاولة تدوين المذكرات... فالغثيان فالهروب إلى النوم.

الخميس: صباحاً: الوصول إلى الإسكندرية... مساء: جولة على الكورنيش... إحساس قاس بالحنين... جولة في الإسكندرية.

الجمعة: صباحاً: جولة كبيرة... أداء صلاة الجمعة في أحد الجوامع... مساء: حضور عرض مسرحي لإسماعيل ياسين...

السبت: صباحاً: إلى القاهرة... مساء: جولات في الباص... حضور عرض أوركستالي...

الأحد: صباحاً: غضب غير مبرر من عبد الجبار... مساء: زيارة حديقة الحيوانات... الأهرام... كازينو قصر النيل.

الاثنين: صباحاً: القناطر الخيرية... مساء: حضور خطاب لعبد الناصر يهاجم فيه البعث السوري.

الثلاثاء: صباحاً: مشاهدة استعراض الجيش بمناسبة أعياد الثورة المصرية... مساء: العباسية... مصر الجديدة... مشاهدة عرض مسرحي كوميدي في المسرح العائم.

الأربعاء: صباحاً: البحث عن تذاكر لحضور مهرجان الشباب... جلسة كازينو... مساء: مهرجان الشباب في ستاد القاهرة.

الخميس: صباحاً: المتحف المصري... مساء: مشروع الصوت والضوء في الأهرام... جلسة في كازينو قصر النيل.

الجمعة: صباحاً: إلى الإسكندرية... مساء: فشل في محاولة الدخول إلى الاستاد... حديقة الخالدين... مشاهدة لمسرحية كوميدية أخرى لإسماعيل ياسين.

السبت: صباحاً: جولة في شوارع الإسكندرية... مساء: قصر رأس التين... الفرقة الاستعراضية.

الأحد: صباحاً: جولة في الشوارع... قصر المنتزه الرائع... مساء: حفلة أضواء المدينة.

الاثنين: صباحاً: شراء الهدايا... مساء: إلى الباخرة والعودة إلى بيروت.

الثلاثاء: الاستقرار في الفندق... غضب غير مبرر من عبد الجبار... كازينو الشاطئ.

الأربعاء: جولة في السوق لشراء الهدايا... مساء: استكمال الجولة... ثم التخطي البائس مع عدد من الزملاء الذين اصطحبونا في السفر والذين كانت تحاصرهم مطالبهم الحسّية...

الخميس: التحرر من الزملاء والتوجه منفرداً إلى بحمدون حيث قضيت أجمل الأوقات... مساء جلسة بائسة في الكازينو مع الزملاء الذين لحقوني إلى بحمدون... ثم العودة إلى بيروت...

الجمعة: السفر إلى دمشق عبر الطريق الرائع... مساءً: جولة في دمشق المهجورة بسبب محاولة الانقلاب الفاشل ضد البعث من قبل دعاة الوحدة...

السبت: صباحاً: جولة مسواق في سوق الحميدية... مساء: العين الخضراء... السيدة زينب.

الأحد: صباحاً: جولة في دمشق... مساء: إلى المهاجرين...

الاثنين: صباحاً: جلسة كازينو... مساء: سوق الحميدية.

الثلاثاء: صباحاً: الحميدية والمهاجرين... مساء: مضايا وبقين... نقاش حاد في الفندق مع أحد أذناب البعث.

الأربعاء: صباحاً: تسليم مقال نقدي لمجة حضارة الإسلام... مساء: قصر العظم... كازينو مغبرة في المهاجرين.

الخميس: فشل العثور على حجز للعودة إلى بغداد... ليلة شاقة في الفندق مع البراغيث...

الجمعة ٨/٩: العودة إلى بغداد...

[٢]

رحلة عام ١٩٦٧ م إلى مصر

الأحد ٨/١٣: الوصول إلى القاهرة مساء... وزيارة القزاز والأستاذ الدكتور حسن حبشي حول عملي في الدكتوراه تحت إشرافه.

الاثنين: حضور مناقشة أطروحة للدكتوراه في جامعة الأزهر للخولي الممثل الشخصي لعبد الناصر.

الثلاثاء: زيارة لحي النزهة حيث منزل عمر الطالب (الدكتور فيما بعد)... والقيام بجولة ليلية.

الأربعاء: حضور مسرحية ماري منيب الكوميدية (العريس مستعجل).

الخميس: جلسة في كازينو الأمريكين القريبة من فندق كراند أوتيل الذي أقطن فيه عند تقاطع شارعي سليمان نجيب و٢٦ يوليو.. جلسة أخرى في كازينو قصر النيل مع الأصدقاء.

الجمعة: جلسة في متنزه الميريلاند بمعية عمر الطالب وتناول الغداء في شقته... تعقبها جولة مسائية.

السبت: مشاهدة مسرحية (الفرافير).

الأحد: زيارة للأهرام... جلسة في كازينو قصر النيل.

الاثنين: جولة في قلعة صلاح الدين... وأخرى في حديقة الحيوانات... ثم جلسة في الأمريكين.

الثلاثاء: جلسة صباحية في دار الكتب لمتابعة عملي في الأطروحة... مساء: الأمريكين.

الأربعاء: دار الكتب...

الخميس: دار الكتب... مساء: لقاء مع حبشي حول الأطروحة.

الجمعة: مساء: جولة في الجزيرة مع عمر الطالب وزميلين فلسطينيين... مشاهدة مسرحية (حلاق بغداد).

السبت: دار الكتب... مساء: شراء الهدايا وتوديع الزميل محمود التكريتي (الدكتور فيما بعد).

الأحد: دار الكتب... مساء: أمسية في كازينو قصر النيل مع محمد سعيد التكريتي (الدكتور فيما بعد ورئيس جامعة الموصل لعدة سنوات... ورئيس اتحاد الجامعات العربية).

الاثنين: دار الكتب... مساء: المقطم... السيرك القومي.

الثلاثاء: زيارة في بيت عبد القادر طليمات المكلف بقراءة بعض فصول أطروحتي.

الأربعاء: دار الكتب... مساء: في الأمريكين.

الخميس: دار الكتب... مساء: مسرح العرائس.

الجمعة: صباحاً: تأدية صلاة الجمعة في مسجد الشافعي... مساء زيارة لبرج القاهرة.

السبت: دار الكتب... مساء: جلسة في كازينو الجوهرة في العتبة.

الأحد: صباحاً: متنزه الميريلاند وغداء في بيت عمر الطالب.

الاثنين: دار الكتب... مساء: في الفندق...

الثلاثاء: دار الكتب... مساء: عشاء وحوار مع حبشي وطليمات.

الأربعاء: دار الكتب... مساء: تبييض في الفندق.

الخميس: صباحاً: المنيل... مساء: الفندق.

الجمعة: قراءة في الأطروحة على طليمات...

السبت: دار الكتب... مساء: جروبي...

الأحد: دار الكتب... مساء: الفندق.

الاثنين: دار الكتب... مساء: الفندق.

الثلاثاء: دار الكتب... مساء: كازينو ايفرست بمعية سالم الحمداني (الدكتور فيما بعد).

الأربعاء: دار الكتب... مساء: كتابة خواطر في الفندق.

الخميس: دار الكتب... مساء: مع طليمات...

الجمعة: مع عمر الطالب والزملاء الفلسطينيين في جولة بالزورق عبر النيل... وأمسية في كازينو قصر النيل.

السبت: دار الكتب... مساء: في الفندق.

الأحد: دار الكتب... مساء: في الفندق.

الاثنين: دار الكتب... مساء: مع عمر الطالب والشاعر البياتي في متنزه ميريلاند.

الثلاثاء: دار الكتب... مساء: في الفندق.

الأربعاء: دار الكتب... مساء: في الفندق.

الخميس: صباحاً: جامعة عين شمس... مساء: زيارة لشقة سالم الحمداني... جولة على الكورنيش.

الجمعة: صباحاً: الميريلاند وغداء مع عمر الطالب... مساء: شبرا... وحدائق جروبي.

السبت: دار الكتب... مساء: في بيت حبشي بمعية الأخ نشاط الفخري الملحق الثقافي العراقي.

الأحد: دار الكتب... مساء: في الفندق.

الاثنين: دعوة غداء في شقة جليل (الدكتور فيما بعد)... مساء: في الفندق مع مسرحية فؤاد المهندس على الشاشة الصغيرة.

الثلاثاء: دار الكتب... مساء: في الفندق.

الأربعاء: دار الكتب... مساء: مع الحمداني في كازينو قصر النيل.

الخميس: دار الكتب... مساء: مع الزميلين الفلسطينيين مصطفى وسليمان في كازينو قصر النيل.

الجمعة: مع الحمداني وعرض تلفازي لمسرحية كوميدية لفؤاد المهندس...

السبت: دار الكتب... مساء: في الفندق.

الأحد: دار الكتب... مساء: في الفندق.

الاثنين: صباحاً مع الدكتور حبشي في جامعة عين شمس... مساء: في الفندق.

الثلاثاء: دار الكتب... مساء: في الفندق، مشاهدة سباق في كرة القدم على الشاشة الصغيرة.

الأربعاء: دار الكتب... مساء: في الفندق.

الخميس: صباحاً: شراء الهدايا... مساء: مع الحمداني إلى شقة عمر الطالب.

السبت ١٠/٧ إنجاز جملة أعمال معلقة... استكمال شراء الهدايا... توديعات...

[٣]

رحلة عام ١٩٦٨ م إلى مصر

الاثنين ١/٢٢: مغادرة بغداد بالطائرة... والمبيت في دمشق بسبب عطل في الطائرة... والانطلاق صباح اليوم التالي إلى القاهرة... الوصول ظهراً... وزيارة عبد الخالق عبدال (الدكتور فيما بعد) لتسليمه أمانة نقدية في شقته بجاردن ستي.

الثلاثاء: حضور مناقشة أطروحة أحمد إبراهيم الشريف...

الأربعاء: زيارة للقزاز... وأخرى لشقّة الطلبة العرب حيث الزميلين الفلسطينيين مصطفى وسليمان.

الخميس: مشاهدة مسرحية الحرافيش...

الجمعة: غداء في بيت القزاز... لقاء مع الدكتور حبشي... جلسة في الأمريكين مع زميل مصري يدعى (أحمد).

السبت: في جروبي مع قتيبة الجادر.

الأحد: مسرحية ليالي الحصاد في المسرح القومي.

الأربعاء: ثلاث مسرحيات ذات فصل واحد في مسرح الجيب.

الخميس: جولة مع أحمد المصري في متحف الفن الإسلامي ونادي الزمالك والأزبكية والأميريكين.

الجمعة: جلسة مسائية في مقهى علي بابا المطل على ساحة التحرير.

السبت: جلسة مسائية في مقهى علي بابا... ثم حضور عرض سيمفوني في قاعة سيد درويش.

الأحد: مساء مع حشد من الأقرباء القادمين من الموصل لمشاهدة مسرحية (ابن مين بسلامته؟)

الاثنين: زيارة لجامعتي عين شمس والقاهرة.

الثلاثاء: صباحاً: مع المجموعة الموصلية في زيارة خان الخليلي... وجادون سيتي.

الأربعاء: صباحاً: مع المجموعة في زيارة حديقة الحيوانات.

الخميس: صباحاً: مع المجموعة في زيارة قصر عابدين... جلسة في الاميريكين... مساء: مع الدكتور حسن حبشي.

الجمعة: صباحاً: مع المجموعة في منتزه الميريلاند... مساء: زيارة لشقة الزميل الفلسطيني مصطفى.

السبت: صباحاً: مع المجموعة إلى حلوان ومتحف الشمع... مساء: مشاهدة مسرحية (رجال بلا ظلال).

الأحد: صباحاً: مع المجموعة إلى القناطر الخيرية... مساء: في جروبي... ثم مسرحية (البغل في الإبريق).

الاثنين: صباحاً: مع أكرم العمري (الدكتور فيما بعد)... مساء: الاميريكين ومحمد سعيد التكريتي.

الثلاثاء: صباحاً: فطور بدعوة من أحمد الدباغ... زيارة مع المجموعة لقلعة صلاح الدين... مساء: جولة في السيارة مع جمال جميل الذي يعمل في السفارة العراقية... ثم مشاهدة مسرحية الريحاني.

الأربعاء: صباحاً: مع أكرم العمري... مساء: يخت دليلة مع المجموعة ثم مشاهدة مسرحية (يا بهية).

الخميس: صباحاً: الزمالك... ميريلاند مع المجموعة... مساء: مسرحية العريس في إجازة في مسرح الريحاني.

الجمعة: صباحاً: توديع المجموعة الموصلية... مع أكرم العمري في الأزبكية... مساء: ميريلاند مع أحمد المصري.

السبت: صباحاً: جامعة عين شمس... مساء: حديقة الحيوانات... اليخت دليلة.

الأحد: صباحاً: جامعة عين شمس... مساء: مع صديق سعودي ثم محمد سعيد التكريتي في كازينو الناسيونال.

الاثنين: صباحاً: مع الأستاذ الدكتور عبد الهادي شعيرة لإبداء ملاحظاته حول الأطروحة... مساء: ميريلاند ثم الأزبكية مع أحمد المصري.

الثلاثاء: صباحاً: جامعة عين شمس... مساء: الاميريكين...

الأربعاء: صباحاً: جامعة القاهرة... مساء: ناسيونال مع الدباغ.

الخميس: صباحاً: دار الكتب... مساء: شقة مصطفى... مسرح الجيب... اليخت دليلة...

الجمعة: صباحاً: الأميريكين... أداء صلاة الجمعة... مساء: اليخت دليلة لتناول العشاء مع محمد التكريتي.

السبت: صباحاً: جامعة عين شمس وتحديد موعد المناقشة... مساء: حضور حفلة سيمفونية.

الأحد: صباحاً: جامعة عين شمس وانفجار التظاهرات الطلابية... مساء: زيارة لبيت القزاز...

الاثنين: صباحاً: زيارة لبيت شعيرة لمتابعة عملي في الأطروحة... مساء: دعوة غداء في بيت أحمد المصري... ثم جولة في الزمالك وجلسة في الاميريكين.

الثلاثاء: صباحاً: جولة في شارع قصر النيل... جلسة ملل في كازينو قبالة دار الكتب... مساء: جولة وجلسة في الناسيونال مع سليمان ومصطفى...

الأربعاء: تناول وجبة الصباح في بيت الطلبة الفلسطيني.. جلسة في الميريلاند... ونقاش حاد في الفندق...

الخميس: صباحاً: في الأميريكين... جولة سأم إلى دار الكتب... جومترب... مساء: جلسة في كازينو علي بابا... مشاهدة عرض القبة السماوية... إحساس بالملل والضياع وإرهاق الأعصاب... مشاهدة مسرحية كوميدية على الشاشة التلفازية بعنوان (زنقة الستات).

الجمعة: صباحاً: جلسة في الأميريكين وسط أجواء متربة... مساء: في بيت القزاز... ثم في الأميريكين وإحساس عميق بالانسجام...

السبت: صباحاً: بيت حبشي والبشرى السارة بالموافقة على تحديد موعد النقاش، بعد تعطيله بسبب تظاهرات الطلبة... مساء: مع أحمد والسعودي في جروبي.

الأحد: صباحاً: جامعة عين شمس وصدور الموافقة على النقاش... مساء: خطاب عبد الناصر.

الاثنين: صباحاً: الحجز للعودة إلى العراق... وإنجاز جملة مطالب في المجمع... وجلسة مراجعة للأطروحة في الميريلاند استعداداً للمناقشة بعد يومين... مساء: مشاهدة مسرحية القرابين...

الثلاثاء: صباحاً: جامعة عين شمس... السفارة العراقية لإنجاز بعض المعلقات... مساء: التفتيش عن كاميرا مع أحمد المصري وأخيه... التهيؤ للمناقشة.

الأربعاء: صباحاً: مناقشة الأطروحة بحمد الله ﷻ وحصولها على درجة الشرف... مساء: زيارة لبيت الطلبة العرب... ثم دعوة عشاء وتوديع في بيت الدكتور حسن حبشي...

الخميس ٣/٧ السفر إلى بغداد... ومنها إلى الموصل...

[٤]

رحلة عام ١٩٧٠ م إلى لبنان وسوريا

الجمعة ٢/٦: في الطائرة إلى بيروت... الوصول والاستقرار في فندق أنيق في شارع الحمراء... جولة في الحمراء...

السبت: صباحاً: دار الإرشاد... تناول الغداء في ساحة البرج... مساء: جولة على الكورنيش... جولة أخرى في الباصات... جلسة طيبة في كازينو ستراند في شارع الحمراء...

الأحد: صباحاً: جولة باصات... كازينو البرج... مساء: جولة في جنوب بيروت... جلسة في كازينو ستراند.

الاثنين: صباحاً: دار الإرشاد... غداء في بيت مدير دار الإرشاد عادل عاقل... مساء: اتفاق حول نشر مسرحيتي (المأسورون)... انشراح نفسي وجو جميل...

الثلاثاء: صباحاً: في كازينو ستراند مع توفيق الطيب مدير الدار العلمية وعويجة... جلسة في شقة الطيب لمناقشة جملة أمور بحثية... غداء في مطعم الأمين في شارع الحمراء... مساء: توصيل الحاج عويجة إلى المطار... ثم جلسة مع الطيّب في ستراند.

الأربعاء: صباحاً: زيارة لدار الإرشاد وحوار ممتع... تسليم مسرحية (المأسورون)... حوار مع توفيق الطيب في ستراند... غداء في مطعم الأمين... مساء: حيرة السفر إلى دمشق للبحث عن ابنة الحلال... ثم قرار بالسفر... شيء من الانقباض لدى الوصول... جولة وتناول العشاء.

الخميس: صباحاً: إحساس بخيبة الأمل بصدد العثور على ابنة الحلال المناسبة... زيارة للجامعة وأخرى لمجلة (حضارة الإسلام)... جلسة في الكازينو... زيارة أخرى للحضارة وجلسة ممتعة مع الدكتور أديب الصالح رئيس تحرير (حضارة الإسلام)... ولقاء مع مجموعة من الأصدقاء... الغداء... ثم جلسة طيبة مع ثلة من الأصدقاء في السطح المشمس لأحد الدور... مساء: شارع المهاجرين... كازينو... جلسة مع التلفزيون في الفندق...

الجمعة: دعوة على الفطور من الأخ الدكتور أحمد فرحات... الانطلاق إلى بيروت وصلاة الجمعة في مسجدها الكبير... جلسة تنقيح في الفندق... ثم غداء في الأمين، وعودة إلى العمل في التنقيحات المتراكمة يصيبني بالتوتر والاكتئاب... جلسة سريعة في ستراند... وعودة إلى العمل...

السبت: مكالمة من الأخ إبراهيم المصري... عمل سريع وقلق بسبب ضيق الوقت... زيارة لدار الإرشاد... غداء في كازينو البحر... انسجام لإكمال الكثير

من القضايا المعلقة... مساء: لقاء مع عادل عاقل في الفندق... جولة مشتريات في شارع الحمراء.

الأحد: صباحاً: مشتريات وجولة في الأسواق... مساء: جولة على الكورنيش مع حشد من الأصدقاء... تناول عشاء لبناني لذيذ في أحد المطاعم... أمسية شاي في بيت أحد الأصدقاء... العودة للفندق والتخلص من تنقيح آخر فصل في كتاب (عماد الدين زنكي).

الاثنين: صباحاً: تثبيت موعد الحجز للعودة... جولات في الباص... جلسة ممتعة على الكورنيش... مساء: في شقة توفيق الطيب... ثم في كازينو ستراند... وترتيب نشر (ملامح الانقلاب) مع الدار العلمية للطيب.

الثلاثاء: رحلة طيبة مع الأخ الأستاذ إبراهيم المصري إلى طرابلس... جولة في المدينة... تناول الغداء ثم جولة أخرى... الحضور في المركز الإسلامي وإلقاء كلمة عن مشروعي القادم (التفسير الإسلامي للتاريخ) أمام ثلة من المدعوين وعلى رأسهم الأخ فتحي يكن (ﷺ)... ثم العودة في أجواء ماطرة إلى بيروت... واستكمال الأمسية في ستراند.

الأربعاء ٢/١٨: صباحاً: جو عاصف... تقديم موعد السفر... تنظيم الأغراض... مساء: التوديع... عودة مريحة في الطائرة إلى بغداد... حيث الأجواء المترعة بلون الطين...

[٥]

رحلة عام ١٩٧١ م إلى سوريا ولبنان

الاثنين ٧/٢٦: تناول وجبة باجة مع زميل السفر الدكتور عمر الطالب والانطلاق إلى محطة القطار، حيث الأوتومتريس الذي يقل المسافرين إلى حلب في رحلة طيبة... الوصول إلى حلب مع الغروب وتناول العشاء اللذيذ في أحد مطاعمها الشعبية... جولة تخطي في شوارع حلب... ثم الذهاب إلى معرض سوق الإنتاج وشراء بعض المشتريات... والعودة للجلوس في إحدى الكازينوات...

الثلاثاء: صباحاً: جولة في الأسواق التراثية... جلسة ممتعة في كازينو مقابل القلعة... زيارة للقاص السوري وليد إخلاصي... مساء: كازينو الحمراء... جولة في منطقة الأرمن... حديقة الشعب والإحساس بالانسجام... كازينو السبيل وتناول العشاء.

الأربعاء: صباحاً: الحجز على القطار الذاهب إلى بيروت... زيارة أخرى لوليد إخلاصي... القلعة... مساء: جولة في الباصات... حديقة الشعب... معرض سوق الإنتاج ومشتريات أخرى... كازينو السبيل.

الخميس: أوتومتريس متعب... بيروت... بحمدون... البحث عن فندق مناسب... قلق الاستقرار... كازينو الشامات... وجولات مسائية في شوارع بحمدون.

الجمعة: صباحاً: إلى بيروت... دار الإرشاد... الدار العلمية... أداء صلاة الجمعة... تقييمات سخية عن كتابي (ملامح الانقلاب)... مساء: البقاء في بحمدون.

السبت: جولة طويلة في دور النشر بحثاً عن ناشر لبعض أعمال عمر الطالب... ثم العودة إلى بحمدون، وأمسية طيبة في كازينو الشامات لمتابعة أخبار محاولة الانقلاب الشيوعي الفاشلة في السودان... على الصحف...

الأحد: صباحاً: رحلة إلى عاليه في أجواء غائمة والجلوس في إحدى كازينواتها... ثم العودة إلى بحمدون... مساء: النزول إلى بيروت وجولة في فنادقها الراقية بحثاً عن أحدها لقضاء أسبوع العسل مع خطيبتي فيه... جلسة في كازينو ستراند... وجولة مسواق في البرج... والعودة في سيارة مسرعة إلى بحمدون... أمسية في الشامات...

الاثنين: صباحاً: زيارات لدار الإرشاد والدار العلمية ومؤسسة الرسالة... توصيل رسائل من الموصل إلى أصحابها... إحساس بالانشراح النفسي... مساء: جولة في بحمدون... جلسة ضحك في الشامات... تصفح كتابي الجديد الذي أصدرته الدار العلمية (عماد الدين زنكي) والإحساس بالانسجام.

الثلاثاء: جولة في دور النشر... غداء في الأمين... ستراند... موعد في الدار العلمية لتصفية المعلقات... بحمدون.

الأربعاء: صباحاً: الدار العلمية... زيارة لصحيفة الشهاب والاطلاع على حشود مقالاتي في أعدادها المتلاحقة... غداء في الأمين... مساء: موعد في الدار العلمية لحل المشاكل... بحمدون...

الخميس: دار عويدات... الدار العلمية... مؤسسة الرسالة والاتفاق على نشر اثنين من أعمالي فيها... بحمدون... وجلسة طيبة في مقهى الطرابلسي مع الحاج أحمد النيلة (رحمه الله) مدير المكتبة العامة في الموصل.

الجمعة: جلسة حوار مع محمد المجذوب... زيارة للناشرين... أداء صلاة الجمعة... انشراح نفسي... بحمدون... جلسات عديدة في كازينوات أرليكان والطرابلسي والشامات... وقراءة الصحف اليومية.

السبت: جولة في دور النشر... أمسية في ستراند والروشة... حوار وشعر مع توفيق الطيب...

الأحد: رحلة إلى مغارة جعيتا بمعية عمر الطالب... إحساس بالضجر في بحمدون...

الاثنين: جولة مشتريات مكثفة في بيروت... صباحاً ومساءً...

الثلاثاء: صباحاً: إنهاء أعمال الناشرين والتوديع... متاعب ترتيب الغراض والسفر إلى دمشق... النزول في فندق أمية... انشراح في المساء... زيارة لأسواق الحميدية... جولة في المهاجرين... وأمسية في إحدى كازينواتها...

الأربعاء: صباحاً: زيارة لحلبوني ومجلة الحضارة وجامعة دمشق... مساء: دعوة عشاء بمعية الصالح وهويدي في مصايف مضايا وبقين... حيث يدور نقاش محزن عن أوضاع العمل الإسلامي... وبداية الإحساس بالمتاعب الصحية.

الخميس: صباحاً: رحلة بمعية الطالب إلى الزبداني وبلودان... مساء: قلق المشتريات... عشاء دسم ومزعج... قلق تنظيم الغراض.

الجمعة: إلى حلب... آلام لا تطاق عبر الطريق... تمزق بالأمعاء في الفندق... مراجعة طبيب لا يعرف كيف يشخص الحالة فيزيدها أواراً... نثبت الحجز للعودة... ازدياد الألم وألتقيؤ عبر الطريق... عمر الطالب يكتشف الأعراض حيث نقوم بالبحث عن مستشفى أهلي يؤشر طبيبها المختص على التهاب شديد في الزائدة الدودية واحتمال انفجارها في أية لحظة... ويؤكد على ضرورة إجراء مداخلة جراحية صباح اليوم التالي... العودة المترنحة إلى الفندق... وليلة قاسية...

السبت: التوقيع على إجراء العملية وسط لحظات من الرعب... الاستيقاظ من تأثير المخدر وإحساس هائل بالفرح بسبب نجاح العملية... ثم ما تلبث حالات الاختناق شبه الكامل في النفس، وتصلب الفقرات، والعطش المحرق... والرغبة العاتية في أن أكون في بلدي... أن تتناوشني عبر الأيام التالية.

الأحد: يوم شبيه بسابقه...

الاثنين: الحقنة وشيء من الارتياح... صعوبة الحركة والقلق... تنفس اصطناعي... حالة نفسية صعبة بسبب سفر الصديق عمر الطالب.

الثلاثاء: شيء من التحسن النسبي... حالات من الألم والاختناق... زيارات متواصلة لعدد من الأصدقاء الحلبيين والعراقيين... الانتقال بفضل الله ــز إلى دار الأخ الأديب محمد الحسناوي (ﷺ)... وقضاء ليلة قاسية لولا أن تتداركني عناية الله ﷻ بكون زوجته ممرضة تعرف كيف تضمد الجراح...

الأربعاء: تحسن عام... أمسية مع عدد من الأدباء الشاميين...

الخميس: استمرار التحسن... أمسية مع الأصدقاء... النوم القاسي في الشرفة مع أصوات الدراجات البخارية التي تعرف كيف تحطم الأعصاب... والأرق... ونزيز الجرح...

الجمعة: مراجعة الطبيب والارتياح للنتائج الطيبة...

السبت: مع المضمد وآلام نزع الخيوط... والتخوف من الضماد القادم.

الأحد: ارتياح عام... وأمسية مع الأصدقاء.

الاثنين: الضماد الأخير بلا ألم... انشراح نفسي كبير... جلسة استرخاء في كازينو قبالة المستشفى والإحساس بالحرية والفرح العميق... أمسية ممتعة مع الزيبق والعاصي والطنطاوي... وقراءة الصحف.

الثلاثاء: مطالعات ممتعة في الصحف... الإحساس المتزايد بالجوع والتهام وجبة رائعة من اللحم بعجين... جلسة مسائية في كازينو الحديقة وشيء من التوتر بسبب تعليق أحد الحضور...

الأربعاء: انتظار غير مجدٍ لدى الطبيب... توتر نفسي... زيارة لمكتبتَي الرسالة والأصمعي... مساء: الضماد النهائي والفرح العميق... شراء لعبة جميلة لابنة الأخ العزيز الحسناوي... جلسة في كازينو الحديقة... أرق عبر الليل...

الخميس ٨/٢٦: الوداع والارتياح العميق... القطار والانسجام... تجاوز قلق التفتيش بسبب وضعي الصحي... الوصول والاستقبال... والنوم العميق في سطح الدار...

[٦]

رحلة عام ١٩٧٤ م إلى لبنان وسوريا

أنهيت مسألة الحجز على طائرة الجمعة ٨/٢ بعد متاعب كثيرة وغادرت الموصل في أول الشهر في القطار المتجه إلى بغداد... قضيت ساعات طيبة في الحديث مع مسافر أرمني كان يستقل العربة نفسها، وهو نسيب المصور المشهور مراد الداغستاني (رحمه الله)... وعندما صعدت إلى المقعد العلوي القريب من السقف لأنام، سيطر عليَّ وهم الاختناق، وأحسست كما لو أنني وضعت في زنزانة ضيقة موصدة النوافذ والأبواب، وأن الهواء المتبقي سوف يفسد شيئاً وشيئاً... وأنني سأختنق عما قريب، وعبثاً حاولت دفع الوهم، فكنت أشبُّ بين الحين والحين محملقاً في أرجاء العربة، مصمماً على ألا أعود إلى ركوب القطار في مستقبل الأيام أبداً... وأخيراً تمكن النوم مني ولم أستيقظ إلّا قريباً من بغداد.

وضعت حقائبي في أحد الفنادق ونزلت لكي أتجول وأتناول وجبة الصباح ريثما يحين موعد اتجاهي للمطار... وفي الطريق ألتقيت أحد أصدقاء الكلية القدامى، فجلسنا في إحدى المقاهي نتحدث عن الماضي الشقي السعيد ونجترّ ذكرياتنا الحلوة المرة...

تحركت الطائرة بعد متاعب سببها كثرة المسافرين... وأمضينا ساعة ممتعة في الأجواء... وبعد أن أنجزت معاملات مطار بيروت، ركبت ـ خطأ ـ سيارة تابعة للطيران اللبناني، وبعد جولة مرهقة أوصلني سائقها إلى ساحة البرج، حيث ركبت سيارة أخرى في طريقي مباشرة إلى مصيف بحمدون.

كنت أحمل معي همّ إيجاد مكان مناسب في أحد الفنادق، ولكنني ما أن بحثت في أربعة فنادق أو خمسة حتى عثرت على مكان متواضع في فندق غير مريح... وخرجت بعد قليل في جولة عبر شوارع بحمدون... إلا أن التعب المستمر والأرق والإجهاد أصابتني بإعياء شديد، بحيث إنني أستطعت، رغم تعاسة المكان، أن أنام بضع ساعات واستيقظت والقلق يتناوشني من كل جانب: فالفندق يخلو من دورة مياه شرقية، والماء فيه قليل، والغرفة مظلمة تقبض القلب، وهناك في نفس الغرفة ثلاثة مسافرين عراقيين لم أشعر بانسجام حقيقي معهم...

استأنفت عملية البحث عن مكان جديد، وما أن اجتزت الشارع باتجاه الفندق المقابل، حتى وجدت المكان الوحيد هناك، ولحسن الحظ فإن المسافر الذي كان يحتل أحد سريري الغرفة كان من معارفي، وهو الأخ سالم الراوي مفتش اللغة العربية في الموصل (ﷺ)... ومنذ تلك اللحظة بدأت أشعر بالاستقرار، وتبدد القلق، وأخذ الانشراح يغمر نفسي بعد يوم من المتاعب... وسرعان ما غادرت بحمدون، بعد أن نظمت متاعي، إلى بيروت حيث انتهى بي المطاف إلى مؤسسة الرسالة (الشركة المتحدة)، وحيث استطلعت أخبار الناشرين ومصائر كتبي المخطوطة والمطبوعة... وبعد الظهر عدت إلى الفندق لكي أتغدى وأنام نومة طيبة استيقظت بعدها وأنا أحسّ بانشراح تام... وقمت ـ

كعادتي ـ بجولتي العصرية الممتعة في بحمدون... وبعد العشاء خرجت والمسافر الذي يقطن معي وصديق آخر من الموصل (هو الأخ عبد المجيد الصائغ)، الذي كان يمثل يومها لسان حال الثورة الليبية في العراق، إلى كازينو أرليكان حيث قضينا أمسية ممتعة.

في اليوم التالي قررت أن أقوم برحلة إلى بعض مصايف لبنان، التي لم أكن قد شهدتها من قبل، واتجهت إلى بيروت ومن هناك ركبت الباص الذي يجتاز أربعةً من هذه المصايف... بكفيا... ظهور الشوير... بولونيا... المروج... كنت أحسّ بانشراح عميق، ورغبة لذيذة في الاندماج بالطبيعة، وفي معانقة بدائع صنع الله ﷻ... وفي التهام القرى الجميلة التي كنا نمر بها... تجولت عبر الشوارع، ودخلت الكنائس، واشتريت بعض الحاجيات، وقطعت مسافة طويلة عبر الغابات، ثم انتهى بي المطاف إلى إحدى الكازينوات، حيث ارتحت قليلاً وقرأت إحدى الصحف ثم قفلت عائداً إلى بيروت.

الاثنين: استأنفت الاتصال بالناشرين، وتمكنت من تصفية الكثير من حساباتي مع دار الإرشاد والشركة المتحدة... وفي المساء قضيت أمسية ممتعة مع الصديقين الموصليين.

الثلاثاء: جاءني إلى الفندق صباحاً أخي نبيل (رحمه الله) ورفيقيه هيثم وهمام الخفاف (اللذين سيقدر لهما ان يكونا من ألمع الأطباء الاختصاصيين)، فاتجهنا إلى بيروت حيث التقطنا بعض الصور التذكارية، ومنها إلى مغارة جعيتا التي قضينا فيها ساعات ممتعة ثم قفلنا عائدين لنتجول قليلاً في أسواق بيروت ثم نستأنف طريقنا إلى بحمدون.

جلسنا عصراً في شرفة كازينو أرليكان الرائعة... وعندما كنت أهم بمغادرة المسجد بعد صلاة المغرب إذا بي أفاجأ بأصدقاء حلب الثلاثة ينتظرونني هناك: عبد الله الطنطاوي، وإبراهيم عاصي (رحمه الله) ومحمد الحسناوي (رحمه الله)... وبعد عشاء طيب اتجهنا إلى فندق لوناهاوس حيث قضينا أمسيتنا، واتفقنا أن نلتقي غداً صباحاً في بيروت بمعية أخي وزميليه...

الأربعاء: التقينا بالأصدقاء وقمنا بجولة ممتعة في الزيتونة، والتقطنا عدداً من الصور، ثم قطعنا شوطاً متعباً ولكنه ممتع على الكورنيش البحري في طريقنا إلى كازينو الروضة الجميلة، حيث أمضينا ساعة أو ساعتين.

غادرنا بعدها إلى بيروت... حيث اضطررت للبقاء ثلاث ساعات أخرى بعد أن أخبرني أحدهم بوجود صاحب الدار العلمية في محل عمله، وقد صفيت خلال هذه الساعات معظم حساباتي ومشاكلي المعقدة معه، وشعرت بارتياح عميق وأنا أغادر المكان لكي أتناول غداء بسيطاً وأعود إلى المصيف.

في المساء كانت جلسة وعشاء ممتعين في كازينو الجندول عند أطراف بحمدون مع صاحب الشركة المتحدة (رضوان دعبول) وأخيه (الدكتور موفق دعبول)، ناقشنا فيها بعض قضايا النشر وثبتنا خلالها عدداً من النقاط.

الخميس: يكاد يكون هذا اليوم من أمتع أيام سفري وأكثرها نجاحاً أيضاً... فلقد تمكنت من تصفية بقية مشاكلي وحساباتي مع دار الإرشاد والدار العلمية بشكل نهائي... وقمت بجولة في عدد من دور النشر، في محاولة لاختراق الحصار، وإيصال كتبي إلى القراء خارج نطاق الجماعات الإسلامية... وانتهى بي المطاف في دار العلم للملايين، حيث أبدى صاحبها منير البعلبكي (ﷺ) ترحيبه بكتابي (التفسير الإسلامي للتاريخ). واتفقنا على أن أراجعه بعد أربعة أيام المعرض لمعرفة النتيجة النهائية، بصدد نشر الكتاب أو عدمه، وغادرت الدار وأنا أحسّ بانشراح غامر وبانتصار نفسي عميق، لولا أن دهمتني متاعب التفكير بمسألة تعضيد الكتاب، واحتمال ضياع الفرصة بسبب تسرعي في نشر الكتاب... إلّا أن الفرحة كانت أكبر من كل شيء...

في المساء التقينا ـ حسب موعد مسبق ـ مع الأصدقاء الحلبيين، وخرجنا في جولة ممتعة قبيل الغروب، في الطريق الهادئ الرائع المفضي إلى فندق الصخرة، حيث كان أحد الإخوة من الأدباء الحلبيين على موعد مع الشاعرة العراقية (نازك الملائكة)... وبعد عشاء ممتع انتهى بنا المطاف إلى كازينو أبي الشامات، حيث قضينا ساعة في الضحك والتعليقات والتحليلات...

غادر بعدها الأصدقاءُ المكانَ لمقابلة الشاعرة العراقية (نازك الملائكة)، واتجهنا نحن لكي نلعب (الفليرز)، ونتفرق بعدئذ إلى فنادقنا، حيث كنت أقضي ساعة أو ساعتين في أحاديث وذكريات متنوعة مع الصديق (سالم الراوي).

الجمعة: التقينا مع الأصدقاء في بيروت، وبعد جولة سريعة في أسواقها اتجهنا إلى كازينو (الروضة) على البحر، وبعد ساعتين ممتعتين... استجبنا لعرض الأصدقاء في الغداء سوياً في كازينو الحاج داود المطلة على البحر... ولقد كان غداء شهياً من السمك المقلي، عدنا بعده إلى البنسيون الذي يقطنون فيه، والذي ذكرني برواية نجيب محفوظ الشهيرة (ميرامار). وبعد نومة قصيرة متقطعة، غادرنا المكان في جولة شيقة طويلة، عبر شارع إدريس والحمراء، لكي ينتهي بنا المطاف عند صخرة الروشة على البحر... وهناك التقينا بالأصدقاء الحلبيين، واتجهنا بعد أخذ ورد إلى كازينو الروضة لكي نتناول عشاءنا... إلا أن كآبة أحدهم وانقباضه النفسي سرى بعدواه إلى نفوسنا جميعاً وأحال الأمسية إلى إزعاج بالغ... وما لبثنا بعد منتصف الليل أن عدنا إلى المصيف وأنا أحسّ بملل يغمر وجودي كلّه...

السبت: استيقظت صباحاً وأنا أحمل قلقاً وتردداً واكتئاباً بسبب المهمة التي كلفني بها الصديق السوري إبراهيم عاصي (ﷺ) بصدد كتابة مقدمة لمجموعته القصصية... وأخيراً قررت أن أبقى في بحمدون لإنجاز المهمة... وفي كازينو أبي الشامات، وبعد دقائق من البدء في الكتابة شعرت بارتياح كامل، وبتلك المتعة الغامرة التي أحسّها كلما أقدم على عمل فكري أو فني أشعر أنني أقطع خطوات ناجحة فيه... ولم تحن الساعة الثانية عشرة ظهراً حتى كنت قد أنجزت المقدمة، وغادرت المكان وأنا أحمل رضاً عميقاً عما كتبته، وإحساساً بأنني أزحت من طريقي عبئاً مرهقاً...

في المساء قمنا بجولة في مصيف عاليه، واتجهنا بعدها إلى سوق الغرب في موعد مع عدد من الأصدقاء والشيوخ، الدكتور عبد القدوس أبو صالح

والشيخ العلامة عبد الفتاح أبو غدة (رحمه الله)... وهناك عبر جلسة هادئة في كازينو تطل شرفتها على بيروت والبحر والميناء... قضينا ساعة أو ساعتين في حوار يتأرجح بين الجد والهزل... وبعد صلاة المغرب، غادرنا المكان إلى بحمدون لكي ينتهي بنا المطاف في كازينو الطرابلسي، حيث التقيت بالعاصي جانباً ورحت أقرأ له المقدمة... وسرعان ما رأيت ملامح عدم الارتياح لبعض المقاطع النقدية تكسو وجهه... ودهمني رد الفعل... وشعرت بأنني ارتكبت خطأً كبيراً بقبولي كتابة المقدمة... وأخيراً تم الاتفاق على صيغة أكثر اعتدالاً...

الأحد: التقينا صباحاً في شارع سوريا، وانطلقنا إلى دار تحرير صحيفة المجتمع اللبنانية، ورئيس تحريرها الأخ الأستاذ إبراهيم المصري لكي نقضي هناك الساعات الطوال، والممتعة، في تصفح المجلدات الأخيرة من الصحيفة، وما نشعر إلا والساعة الواحدة على الأبواب... وفي المساء قمت كعادتي بجولة في بحمدون.

الاثنين: بعد شراء عدد من الحاجيات اتجهت إلى الشركة المتحدة لقضاء بعض الوقت فيها مع عدد من المعارف والأصدقاء... وفي المساء حملت حقيبتي إلى كازينو أبي الشامات، وتمكنت خلال ساعتين أو ثلاث من تصفية عدد من المشاكل المعلقة، أعقبتها بعشاء طيب في الفندق وجولة ممتعة في بحمدون.

الثلاثاء: يذكرني هذا اليوم بالخميس الفائت... فقد أنجزت فيه عدداً من المهام، وغمرني عبر ساعاته الطويلة الفرح والانشراح... في الصباح اتجهت إلى دار العلم للملايين فتلقاني صاحبها البعلبكي بترحاب بالغ، وأعرب عن إعجابه العميق بكتابي عن (التفسير الإسلامي للتاريخ)، وعن سعادته بنشر الكتاب في داره... وبعد حوار ممتع ملأني ثقة وانتصاراً تم الاتفاق على شروط العقد، وغادرت الدار وأنا أحسّ بأنني قد كسرت الجدار فعلاً، وأن بمقدوري أن أوصل فكري إلى حلقات أوسع بكثير من ذي قبل... وبعد جلسة صغيرة في الشركة المتحدة، واتفاق على موعد مسائي لتثبيت اتفاقات النشر، وبعد أن

اشتريت عدداً من الحاجيات فقفلت عائداً إلى بحمدون على جناحي الثقة والفرح...

عدت مساء إلى الشركة المتحدة، وخلال ساعة وبعض الساعة ثبّتُّ هناك تفاصيل النشر جميعاً بالنسبة لأبحاثي الأربعة: دراسة في السيرة، تهافت العلمانية، الطبيعة في الفن الغربي والإسلامي، وفوضى العالم في المسرح الغربي... وغادرت المكان وأنا أحسّ بسعادة غامرة وانشراح عميق... اشتريت بعض الحاجيات وقفلت عائداً إلى بحمدون، وبعد العشاء خرجت والزميل (سالم الراوي) في جولة في المصيف وانتهى بنا المطاف في كازينو أرليكان، حيث راح البرد يلسعنا بسياطه، فغادرنا المكان مسرعين إلى دفء الفندق!!

الأربعاء: استيقظت وأنا أحمل قلقاً مزعجاً بسبب مطالب المشتريات الكثيفة... واتجهت وأحد الأصدقاء إلى بيروت، وبعد جولة طويلة في أسواقها وشراء عدد من الحاجيات؛ اتجهنا إلى كازينو الحاج داود، وكانت جلسة رائعة في الشرفة المطلة على البحر قبالة الزرقة الصافية والنسيم البارد المنعش... عدت بعدها لأستأنف الشراء هذه المرة في سوق الطويلة الذي يقطنه ألف شيطان وشيطان... شياطين التكاثر بالأشياء، وشياطين التبرّج السافر الوقح والمثير في الوقت نفسه... لكن الذي يصمّم على الالتزام لا يشعر بقدرته الحقيقية على المقاومة إلا في سوق صاخب كسوق الطويلة...

الخميس: التقيت مساء مع عبد الحليم محمد، سكرتير تحرير مجلة (المسلم المعاصر)، وكانت جلسة طيبة في كازينو أبي الشامات، أعقبها جولة تخط في شارع بحمدون دار خلاله حديث ذو شجون... بعد أن ودّعته بحثت عن الصديق الموصلي لكي نجلس معاً بعض الوقت في كازينو أرليكان ثم نقفل عائدين.

الجمعة: انتابني صباحاً القلق المعهود بسبب مشكلة تنظيم الأغراض، لكنني ما لبثت أن أحسست بارتياح عميق بعد ذلك بقليل... واتجهت إلى بيروت لشراء ما تبقى من كتب وحاجات، وأودع الأصدقاء في الشركة المتحدة، وأتجه

مرتاحاً منسجم النفس لتناول وجبة سمك شهية في كازينو الحاج داود... أعود بعدها لأخذ مكاني بعد عناء كبير في السيارة المتجهة إلى دمشق.

وصلنا دمشق في حوالي الساعة السادسة مساء، وبعد بحث قصير وجدت مكاناً في أحد الفنادق... إلا أن الكآبة سرعان ما اعتصرتني كما هي العادة دائماً في اللحظات التي أستقر فيها في فندق جديد... لكنني ما لبثت أن غادرت الفندق لكي أصرف شيئاً من العملة وأقوم بجولة طويلة في شوارع دمشق المظلمة، الكئيبة، المزدحمة، القذرة... وانتهى بي المطاف في معرض دمشق الدولي، لكي ما ألبث أن أشعر بانسجام عميق ومتعة بالغة مع العروض التلفازية ومع المعروضات في الأجنحة المختلفة... وبعد تناول عشاء خفيف قفلت عائداً إلى الفندق أحمل معي وحدتي وكآبتي، وأتذكر ليالي بحمدون الجميلة فأزداد عزلةً واكتئاباً...

السبت: اتجهت إلى شركة الخطوط الجوية العراقية لضمان مقعد في الطائرة العائدة إلى بغداد... وبعد الفطور اتجهت إلى مجلة الحضارة، لكي ما ألبث أن أغادرها إلى دار القلم، وبعد جلسة طويلة تخللتها الأحاديث الشيقة، مع محمد علي دولة، ومحمد حسن بريغش (ﷺ)... جاءني بعض الأصدقاء لكي أستقل معهم السيارة في طريقنا إلى دار الأستاذ أديب الصالح، الذي دعانا للغداء معه... وكان حقاً غداء شهياً وجلسة ممتعة... عدت بعدها لكي أرتاح قليلاً في الفندق وأستأنف جولتي المسائية في المهاجرين والمعرض الدولي... وأعود في ساعة متأخرة من الليل إلى الفندق.

الأحد: بعد فطور شامي ممتع في بيت أحد الأصدقاء (الدكتور أحمد فرحات)... اتجهت إلى مكتبة دار الفتح، ثم إلى دار القلم لتثبيت بعض قضايا النشر... وبعد أكلة كباب مزعجة، عدت مرةً أخرى إلى الفندق... وفي المساء تمكنت من تثبيت الحجز على الطائرة العائدة مساء الاثنين... واتجهت إلى سوق الحميدية لتناول وجبتين من الدوندرمة الطيبة وشراء بعض الحاجيات، ثم

الانطلاق إلى معرض دمشق الدولي، حيث انتابني قلق مزعج بسبب رغبتي في استكمال مشاهدة الأجنحة المختلفة...

الاثنين ١/٢٦: جلست صباحاً في كازينو مشرفة على شارع الحجاز... وبعد غداء دسم، ولقاء مع الأخ أكرم العمري (الدكتور فيما بعد) العائد من القاهرة هرعت إلى الفندق، وقد أفلت الوقت من بين يدي، لكي أسرع وسط دوامة من القلق بتنظيم حقائبي المزدحمة، وما لبثت أن شعرت بموجة من الارتياح تغمرني وأنا أركب السيارة في طريقي إلى المطار... فها أنا ذا أترك المتاعب وموجات القلق ورائي، وأنتظر ساعة أو ساعتين لكي أكون في بغداد، ومنها إلى الموصل وسط فرحة غامرة بلقاء الأهل والأصدقاء والطفل الذي سأشبعه بما اشتريت له من لعب رائعة ومقتنيات...

مع الغسق أقلعت الطائرة، وبعد ساعة ونصف ممتعة وصلنا مطار بغداد، ولم يكن التفتيش صعباً، وسرعان ما ركبت سيارة أقلتني إلى كراج النقليات، ولم يمض على وصولي هناك عشرون دقيقة حتى كانت السيارة المرسيدس تنطلق بنا بسرعة نحو الموصل... وفي الساعة الثانية والنصف بعد منتصف الليل ألقيت عصا التسيار... بعد رحلة حوت الكثير الكثير من المتناقضات: السعادة والشقاء... الوحدة والتمزق... الانسجام والقلق... الراحة والتعب... الانشراح والكآبة... الإنجاز والفراغ... وهل تسمى حياةً تلك التي تخلو من المتناقضات؟!

[٧]

رحلة عام ١٩٧٦ م إلى الكويت

الجمعة ١/٢٣: استكملت وزوجتي تنظيم الحقائب وانطلقنا بمعية ابننا محمد الذي لم يبلغ الثالثة من العمر، إلى محطة انتظار الخطوط الجوية العراقية بعد الثانية عشرة ظهراً... ولكن الانتظار طال حتى لقد انتابنا القلق من احتمال عدم إقلاع الطائرة وضياع فرصة سفرنا مساء ذلك اليوم على

الطائرة الكويتية. ولكن مخابرة من بغداد جاءت بعد ساعتين تؤكد توجه الطائرة العراقية إلى الموصل لنقل المسافرين... عدنا ثانيةً إلى البيت حيث تناولنا الغداء ثم قفلنا إلى محطة الانتظار ثانيةً... وبعد قليل اتجهنا إلى الطائرة التي ما لبثت أن هبطت بنا في مطار بغداد... وهنالك قضينا الساعات القلائل التي تسبق إقلاع الطائرة الكويتية، بين متابعة لمعاملة المطار، وانتظار ممتع في صالة المسافرين لولا المتاعب التي أخذ الطفل يسببها لنا.

انطلقت الطائرة في حدود الساعة السابعة مساء، وبعد ساعة واحدة تناولنا خلالها وجبة عشاء طيبة وصلنا مطار الكويت، بعد أن بلغ بنا الجهد أقصاه... كان عليَّ أن أجد غرفة في أحد الفنادق وسط تأكيدات تقول أن الحصول على غرفة هناك أصعب من العثور على الكبريت الأحمر... تركت زوجتي وابني والحقائب في صالة أحد الفنادق، وانطلقت بسرعة إلى الفنادق القريبة، وأنا أقرب إلى اليأس مني إلى الرجاء... ولكني وبعد جهد شديد وجدت ضالتي في أحد الفنادق المتوسطة، وعدت مسرعاً إلى حيث تركت زوجتي والحقائب، وتعاونا عليها مجتازين طرقاً مليئة بالأوحال وأسواقاً مقفلة، وأجواء شتائية ماطرة... كان محمد يرتجف خوفاً ويصرخ باكياً، وفقدت أنا أعصابي ورحت أتفوّه بكلمات نابية وأصب اللعنات على كل من يشير عليَّ مستقبلاً بسفرة أخرى... وانتهى بنا المطاف في غرفة قذرة في الفندق... وبتنا ليلتنا تلك لكي نستيقظ في اليوم التالي والمطر ينهمر بغير حساب!!

السبت: غادرنا الفندق للقيام بجولة صباحية في الأسواق، وسرعان ما شعرنا بارتياح بالغ ـ رغم متاعب الطفل والجو ـ ونحن ننتقل من محل إلى محل ملقين بنظرة هنا ونظرة هناك على صنوف البضائع المغرية التي لا يستطيع أحد الصمود إزاءها...

عدنا إلى الفندق وتناولنا غداءً باكستانياً مليئاً بالتوابل، بعد أن تحولنا إلى غرفة جديدة أحسن بكثير من سابقتها... وخرجت عصراً لشراء بعض

الحاجيات والاطلاع على الجهات المحيطة بالفندق... كانت الأمطار قد كفت عن السقوط وأخذت الغيوم تتمزق هنا وهناك... وبدأت اكتشف على مهل الشوارع والأسواق والأماكن المحيطة بالفندق وأنا استشعر ارتياحاً عميقاً... وعدت لأستصحب زوجتي وطفلي ونقوم بجولة ممتعة في سوق الفاكهة والخضار والبقالات الملأى بصنوف الأطعمة والجرزات والحلويات المغرية والنساتل والسكاكر... اشترينا بعضاً منها على سبيل التجريب، وعدنا إلى الفندق لتناول العشاء ولانتظار الأستاذ الدكتور محمد رشيد الفيل (رحمه الله) الذي كنا على موعد معه مساء ذلك اليوم... وفي صالة الفندق العائلية المريحة جلسنا بعض الوقت مع الرجل وصديق آخر... ثم ما لبث أن غادر المكان بعد أن ضرب معنا موعداً عصر اليوم التالي... ومع البرنامج التلفزيوني (منوعات) قضينا سهرتنا ثم خرجنا إلى الغرفة لنفتح علبة الشيكولاتة ونلتهم بعض ما فيها... ثم نخلد إلى النوم...

الأحد: قضينا ساعات الصباح في جولة عبر الأسواق المحيطة بالفندق... واتجهنا ظهراً لتناول الغداء في مطعم (كيلوباترا) السوري النظيف، الذي دلنا عليه أحد العاملين في الفندق... وفي المساء جاءنا الدكتور الفيل وابنه، حيث ركبنا سيارته وانطلقنا إلى إحدى الجمعيات التعاونية التي يحار المرء فيها ما الذي يأخذ وما الذي يدع... ورغم متاعب محمد وقلقه وصراخه... ورغم عدم القدرة على الاختيار المتأني بسبب انتظار الرجل وابنه... فإننا اشترينا قدراً لا بأس به من البضائع، وغادرنا المكان متجهين إلى بيت الفيل حيث قضينا أمسية طيبة، رغم ما رافقها من حرج... وتناولنا عشاء خفيفاً ثم قفلنا عائدين إلى الفندق، بعد جولة ممتعة على الكورنيش.

الاثنين: اتجهنا صباحاً إلى السالمية، حيث ضربنا موعداً مع أبي حسن مدير إحدى وكالات السياحة والسفر، وجلسنا هناك في الوكالة وقتاً طيباً دارت خلاله أحاديث شتى، ثم ما لبثنا أن غادرنا المكان بعد جولة سريعة في شارع السالمية الواسع العريض. وبعد تناول الطعام في مطعم كيلوباترا قفلنا عائدين

إلى الفندق... ثم ما لبثنا أن اتجهنا إلى حيث تقف الباصات، حيث ركبنا واحداً منها للقيام بجولة في بعض مناطق الكويت، ثم غادرناه إلى إحدى الجمعيات التعاونية لشراء لبعض الحاجيات... وبعد عشاء مزعج على الرصيف، وعبر صراخ محمد الذي كان الخوف يجتاحه... رحنا نبحث عن تاكسي لكي نعود بعدها من حيث أتينا، وبعد بحث طويل عثرنا على ضالتنا... وقمنا بجولة ليلية في الأسواق المجاورة وسهرنا في صالة الفندق مع التلفزيون ثم خرجنا لننام...

الثلاثاء: أذاقنا محمد عبر جولتنا الصباحية الأمرّين... وثمة مرض طارئ ألمّ بأمه سبب لنا بعض المتاعب... وعصراً خرجنا مع الدكتور الفيل إلى شارع فهد السالم الواسع العريض المليء بالحركة والأضواء والبضائع المغرية... وبعد أن غادرنا الرجل عدنا إلى الفندق، فقلت عائداً إلى الشارع نفسه، حيث كنت قد ضربت موعداً مع الدكتور جمال عطية رئيس تحرير مجلة المسلم المعاصر، وهنالك في مكتبه قضيت ساعة ممتعة دارت فيها أحاديث شتى، عدت بعدها إلى الفندق، حيث تركت صاحبي لأول مرة وسط مشاعر القلق وعدم الارتياح.

الأربعاء: انطلقنا صباحاً إلى ضاحية الفحاحيل على أمل أن نغادرها مباشرة إلى الأحمدي، إلا أن أسواقها شدّتنا وأتعبتنا في الوقت نفسه، ودمرت علينا متعة ذلك اليوم، وما شعرنا إلا والساعة الثانية قد حلّت... فذهبنا إلى مطعم قريب حيث تناولنا غداء شهياً من اللحم المشوي... وبعد عودتنا مساء توجهنا في جولة تخط إلى شارع فهد السالم، حيث عرجت بصحبة الطفل لتوديع الدكتور جمال عطية، وتمشينا قليلاً في الشارع المذكور ثم قفلنا عائدين.

الخميس: تعرّفت في صالة الفندق على رجل مسلم من أثيوبيا جرت بيني وبينه أحاديث طويلة تملأ النفس بالحزن والأسى عما يلاقيه المسلمون في بلدان إفريقيا السمراء...

الجمعة: اتجهت إلى أحد المساجد القريبة لأداء صلاة الجمعة، ثم قفلت عائداً لتناول طعام الغداء، والانطلاق ـ من ثم ـ إلى ضاحية الأحمدي... ورغم أن مرضاً خفيفاً ألم بأم محمد وسبب لنا بعض المتاعب، فقد قضينا

ساعات طيبة هناك، ثم قفلنا عائدين في سيارة (بك أب) يسمونها هناك (وانيت) حيث تعلمنا كيف نعتمدها في تنقلاتنا بدلاً من السيارات الاعتيادية بسبب رخصها.

السبت: قمت صباح اليوم بزيارة لدار القلم والتقيت مع صاحبها عبد الحليم محمد، حيث دارت أحاديث شتى غادرته بعدها، بعد أن سلمته بحثاً لي بعنوان (مقال في العدل الاجتماعي) لتحويله إلى أحد الناشرين في دمشق... غادرته عجلاً إلى جمعية الإصلاح للقاء أحد محرريها لكني لم أجده، فقفلت عائداً إلى الفندق... ثم أعدت الكرة وتمكنت من لقاء الشخص المذكور، وسلمته عدداً من البحوث والمقالات لنشرها في (المجتمع)، ودارت أحاديث وذكريات وتعليقات غادرت المكان بعدها فرحاً سعيداً بسبب عدم إخفاق زيارتي تلك، عائداً إلى الفندق لتناول طعام الغداء.

الأحد: أقلتنا سيارة وانيت إلى شركة مرسيدس لشراء بعض الأدوات الاحتياطية لسيارتي، وذهبنا من هناك إلى كلية الآداب، حيث ضربت موعداً مع الدكتور حسين مؤنس رئيس قسم التاريخ، وعبر جلسة قصيرة سألته خلالها عن كل ما أريد بخصوص إعارة الخدمات. قفلنا عائدين في سيارة موظف فلسطيني طيب تبرع بإيصالنا إلى المكان الذي نريد، وتبادلنا العناوين، ثم غادرناه لشراء بعض الأدوات الاحتياطية الأخرى لسيارتي وعدنا إلى الفندق...

الاثنين: انطلقت صباحاً إلى رئاسة جامعة الكويت، حيث حصلت على استمارة إعارة الخدمات وغادرت المكان فرحاً بحصولي على بغيتي، حيث قمت بزيارة لرئيس تحرير مجلة (الوعي الإسلامي) وحصلت على بعض الأعداد المهمة، وقفلت عائداً إلى الفندق وسط حالة مكثفة من الفرح والانسجام. وما لبث أن انطلقت إلى الخطوط الجوية الكويتية لتثبيت موعد للحجز، فإذا بهم يعلمونني بأنه لا مجال للحجز مطلقاً طيلة الأسبوعين القادمين... فتوجهت مساء إلى الخطوط الجوية العراقية فلم أحظ ببغيتي، وعرضوا عليَّ أن أراجعهم في اليوم التالي.

في المساء قمنا بجولة شراء ناجحة في سوق واجف، وانتهى بنا المطاف في شارع فهد السالم حيث التقيت بالفيل، وقمنا بمحاولة فاشلة لتثبيت حجز في الخطوط الجوية الكويتية... فارقت الرجل لكي ما نلبث أن نواصل رحلتنا عبر الشارع نفسه، ودخلنا محلات (الجميل) التي تحوي في طوابقها الثلاثة أجمل البضائع وأبدعها وأغلاها في الوقت نفسه، فاشترينا ما تيسّر شراؤه ثم غادرنا المكان إلى محلات (الاتحاد) التي لا تقل غنىً في بضائعها... ولولا مرض محمد حينذاك واضطرارنا للعودة السريعة إلى الفندق لكانت حقاً أمسية رائعة.

الثلاثاء: قمت بزيارة للدكتور الفيل، المسؤول عن الدائرة الجغرافية في جامعة الكويت، حيث سلمته استمارة الإعارة التي ملأتها مساء أمس، وقفلت عائداً إلى الفندق لكي تقلنا سيارة وانيت إلى جمعية (كيفان) التعاونية، وهنالك قضينا وقتاً طيباً ومجدياً، حيث اشترينا مجموعة أخرى من الحاجيات وقفلنا عائدين... لكي ما نلبث أن نتجه عصراً إلى السالمية، حيث قضينا بعض الوقت في إدارة وكالة الاتحاد مع أبي حسن وزوجته، وغادرنا المكان ونحن نحمل حقيبة كلفتنا بإيصالها إلى الموصل، وانطلقت بنا السيارة على طريق الكورنيش الطويل... وما أن وصلنا الفندق حتى انطلقت مسرعاً إلى الخطوط الجوية العراقية لكي أغادر المكان مرةً أخرى بحالة من اليأس الشديد... اتجهت إلى إدارة البحوث وودعت الرجل المسؤول عنها وقفلت عائداً...

الأربعاء: مرةً ثالثة أذهب إلى الخطوط الجوية العراقية وأغادرها بخفي حنين... انطلقنا عصراً إلى سوق الكويت الشعبية بعمارة (ستاركو) في شارع بيروت... وركبنا سيارة عبر أجواء عاصفة ممطرة إلى جمعية كيفان لاستبدال بعض ما اشتريناه قبل يومين... وخلال العودة مررنا على الخطوط الجوية العراقية في آخر محاولة للحصول على مكان في الطائرة... فإذا بالمدير يفتح لي صدره ويثبت لي مكاناً على الطائرة العراقية، التي ستغادر الكويت صباح الجمعة القادم... لم أتمالك نفسي من الفرح... إذ كنت أحمل هم الاضطرار للعودة بالسيارة ومتاعب التفتيش الكمركي المعقد في صفوان، ومرض محمد

ومتاعبه... غادرنا المكان ونحن في قمة السعادة، وبعد جولة سريعة في شارع فهد السالم، ركبنا الباص عبر أجواء شتائية ماطرة في طريقنا إلى الفندق، حيث تناولنا طعام العشاء اللذيذ ثم استكملنا أمسيتنا في صالة الفندق.

الخميس: قضينا ساعات الصباح في جولة ممتعة في حديقة الحيوانات، حيث نسينا أنفسنا فأقفلت علينا الأبواب لولا أن دلنا أحدهم على باب جانبي... في المساء كان علينا أن نستكمل شراء الحاجيات المتبقية... وبعد زيارة قمت بها لدار البيان دون أن ألتقي بصاحبها، اتجهت إلى حيث محلات بيع الأدوات الاحتياطية للسيارات، فاستكملت ما تبقى من احتياجاتي ثم قفلت عائداً إلى الفندق، حيث مضت الساعات الطوال ونحن منهمكون في تنظيم الأغراض، وإعداد الحقائب... وكان حقاً جهداً كبيراً أن نحصر هذا الحشد الكبير من المشتريات في عدد محدود من الحقائب... ولم ننته من العمل إلا في ساعة متأخرة من الليل.

الجمعة ٢/٦: استيقظنا مبكرين، ولم نكن ندري أننا أمام أزعج يوم، ليس في سفرتنا هذه، وإنما في العام كلّه... أفطرنا ثم انطلقت بنا السيارة إلى المطار، حيث فوجئنا بازدحام هائل على شباك المعاملات... وكان عليَّ أن أحوّل الحقائب السبع شيئاً فشيئاً باتجاه الشباك، حتى إذا ما وصلت إلى هناك قال قائل بأن الأماكن قد انتهت، وأن بقية المسافرين سيضطرون للعودة من حيث أتوا... وبعد دقائق شاقة نزل عليَّ مدير الخطوط من السماء، وأشار إلى أنني سأكون من بين المسافرين.

اتجهنا إلى إحدى مقاعد الصالة... وأنا أقوم بإنجاز المعاملات تملّكني إحساس بأن الطائرة قد غادرت المطار قبل لحاقنا بها... ثم تبين لي أن الطائرة التي ستقلّنا لم تصل أساساً، فاستلقيت على المقعد منهكاً، ولكن إحساساً غامراً بالسعادة كان يتملّكني آنذاك... إحساس من تجاوز أكثر من مشكلة ولم يتبق أمامه سوى الانتظار...

لم تكن الحمى التي أخذت تهاجم الطفل وتزداد ارتفاعاً شيئاً بعد شيء...

لتثير قلقنا ما دمنا سنصل بعد ساعة أو ساعتين مطار بغداد... إلا أنني فوجئت بأحد موظفي الخطوط الجوية يقف قبالتي كنذير السوء، لكي يقول لي إن العشرين مسافراً الأخيرين في قائمة اليوم سوف نضطر إلى فرزهم وعدم تسفيرهم بسبب تعطل الطائرة العراقية، وإرسال أخرى أصغر منها بدلاً عنها... فما كان مني إلا أن أشرح له وضعي، وكيف أن معي زوجة وطفلاً وأنه في حالة حمى شديدة، فوعدني مجرد وعد بأنه سينظر في الأمر... وطيلة الساعة الصعبة التي أعقبت ذلك كانت عيناي معلقتين بحركة الموظف... لم أكن أريد أن يفلت مني، وسط زحمة المطار، كي أتشبث به لحظة وصول الطائرة، وكان عليَّ في الوقت نفسه أن أحمل الطفل إلى طبيب المطار، لكنني لم أستطع ذلك خوفاً من ضياع الفرصة وإفلات الموظف المذكور.

وأخيراً جاءت الطائرة ونودي على المسافرين فهرعنا في تدافع مجنون... كان علينا أن نحمل الطفل وعدداً من الحقائب الثقيلة وأن نصل الباب الضيق في أسرع وقت... وعندما وصلنا الطائرة وغادرنا السيارة التي أقلتنا إليها لم أكن أصدق أننا قد عثرنا فعلاً على مكان، وأننا سنكون اليوم في مطار بغداد.

انطلقت الطائرة، وبعد ساعة من زمان وصلنا المطار... كنا مرهقين قلقين، وعندما تبين أن إحدى الحقائب أبقيت في الكويت مع عدد من حقائب المسافرين الآخرين تخفيفاً لحمولة الطائرة، كان علينا القيام بجولة من الاستفسارات للتأكد من موعد وصولها، والانتظار حتى الساعة السابعة حيث موعد قدوم الطائرة الكويتية... وكان عليَّ في الوقت نفسه أن أترك زوجتي والطفل المريض في قاعة المطار، وانطلق إلى محطة القطار لتثبيت حجز هناك... وانطلقت مسرعاً، ولم أحظ هناك سوى بمجرد وعد بتدبير مكان احتياطي غير مؤكد... قفلت عائداً إلى المطار...

كانت الحمى لا تزال تحاصر الطفل، وكان الجوع يعتصرنا جميعاً... فخرجت أبحث لهم عن مطعم، وأصعدتهم إليه ثم نزلت لحراسة الحقائب، وبعد دقائق قاسية وصلت الطائرة الكويتية، وسألت عن الحقيبة فقالوا أنها لن تصل قبل يوم

الاثنين القادم... ركبنا السيارة وانطلقت بنا صوب محطة القطار... كان الإعياء قد بلغ مني أقصى درجاته، وتسلطت عليَّ وساوس قاسية راحت توحي لي أن ثمة حادث سيصيب الطفل عبر الرحلة الطويلة في القطار إلى الموصل... لم نستطع الحصول على طبيب في المطار... وفي الطريق إلى المحطة أشار علينا السائق، وقد رأى وضعيتنا القاسية، أن نمر على مستشفى قريب من الطريق... فحصه طبيب المستشفى، وأعطاه نوعاً من الحبوب، ونصح بحقنه.

غادرنا السيارة، ووقفت زوجتي والطفل عند الحقائب في جو بارد شديد الإزعاج... وهرعت أنا إلى الداخل للتأكد من الحجز، فأعلمني موظف التذاكر أنهم نادوا على اسمي قبل خمس دقائق فقط وأن فرصتي قد ضاعت... وعبثاً حاولت إقناعه بأن معي طفل مريض وأنه تتوجب عودتي إلى الموصل هذه الليلة...

غادرنا المحطة في سيارة أخرى إلى فندق الكويت، ونزلنا هناك ونحن في وضع لا نحسد عليه، وبعد أن تناولت وجبة العشاء، نمنا في ساعة مبكرة... لم يكن نوماً... ولكنه قلق وإرهاق وتفزز دائم...

استيقظنا صباحاً، وهرعت بعد الفطور إلى الخطوط الجوية حيث حجزت على الطائرة المغادرة إلى الموصل وعدت إلى الفندق وأنا أحسّ بقليل من الارتياح... وفي الثانية عشرة ظهراً انطلقت بنا الطائرة... كنا نحس حقاً بسعادة غامرة... لقد انتهت المتاعب... وعندما وصلنا الموصل، واستقبلنا أحد الأقرباء، وحملنا الحقائب وانطلقت بنا السيارة إلى البيت... زادت سعادتي، ورحت أردد مع نفسي: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥ ـ ٦].

[٨]

رحلة عام ١٩٧٨ م إلى الأردن ولبنان

الاثنين ٢٦/٦: الاستيقاظ المبكر والانطلاق المفرح إلى المطار... إحساس غامر بالمتعة كما هو شأن المسافرين في المطارات الدولية... تناول الفطور في الطائرة... الوصول إلى عمان... الاستقرار في فندق بارك الجديد وبدء

المشاكل مع انقطاع الماء وحرّ الظهيرة الذي يصعب معه النوم... جلسة ممتعة في متنزه اللويبدة العائلي... العودة إلى الفندق وجولة ممتعة للاطلاع على الشوارع القريبة وشراء طعام العشاء... أمسية كئيبة في صالة الفندق المعتمة مع تلفزيون مشوه وانقطاع الماء..

الثلاثاء: رحلة ممتعة إلى جرش، ومتنزه دبين صباحاً... غداء في مطعم القدس... جولة عصرية في جبل الحسين والمسرح الروماني... ثم ساعات مع المسواق المزعج والعودة إلى الفندق.

الأربعاء: جولة مسواق صباحية ناجحة... غداء في مطعم القدس... جولة مسائية ممتعة في جبل عمان وجبل الجوفة والأشرفية... عشاء في مطعم القدس... مراجعة الخطوط الجوية الأردنية حول الحجز إلى لبنان وإعلامي بعدم وجود مقاعد طيلة اليومين التاليين.

الخميس: رحلة صباحية ممتعة إلى البحر الميت... غداء في الفندق... قلق الحجز ومتاعبه... رحلة مسائية ممتعة إلى الرصيفة والزرقاء وسط أجواء الغروب الحالمة... تناول العشاء في الفندق.

الجمعة: محاولة أخرى لتثبيت الحجز دونما جدوى... رحلة صباحية ممتعة إلى السلط... أخبار صحفية سيئة عن الوضع في بيروت تثير بعض القلق والاكتئاب والتردد... مراجعة شركة عالية للمرة الرابعة دونما جواب... مراجعة الخطوط اللبنانية وقرار بالانطلاق غداً إلى المطار اعتماداً على احتمال تغيب بعض المسافرين، لكي نحلَّ محلَّهم، وعلى وجود فرصتين في الشركتين الأردنية واللبنانية... تناول الغداء في الفندق... جولة مسائية ممتعة في جبل عمان ووادي السير... عشاء لذيذ في الفندق.

السبت: الاستيقاظ القلق بسبب عدم الاطمئنان على ضمان الحصول على مقاعد في الطائرة... المراجعة في المطار وفرحة الحصول على الموافقة... الرحلة الطيبة والوصول إلى بيروت الكئيبة بسبب الحرب الأهلية... الانطلاق إلى بحمدون والمفاجأة بكونها شبه مهجورة... فرحة الحصول على فندق

مناسب... غداء شعبي طيب... المساء الكئيب بسبب خلو بحمدون من الحركة المعهودة، أو من ظلال الحركة قبل أن نعلم الأسباب: الإضراب وبدء القتال العنيف في بيروت الشرقية بين الجيش السوري والكتائب... جلسة لشرب الشاي في مقهى أبو عبد... تجول في أسواق الشارع الرئيسي والتقاط الأخبار حول الاشتباكات العنيفة... أمسية وعشاء لذيذ في مطعم اكستاز وسط أجواء من الكآبة والوحشة... مغادرة المطعم في التاسعة، والمفاجأة بإقفال كازينوات بحمدون محلاتها في ساعة مبكرة... الرجوع إلى الفندق... والنوم الطيب بسبب برودة المناخ... لولا إصابتي بحالة قلبية جديدة مما سبق وأن اعتدت عليه عبر ليالي الموصل.

الأحد: صباح جميل مع دبيب الحركة في بحمدون... اتفاق مع فندق خير الله وشيء من الحيرة إزاء ترك الفندق المريح السابق لولا عزلته وقلة نزلائه وانعدام وجود صالة تلفازية فيه... جولة في الأسواق... غداء شعبي... جولة عصرية وعشاء خفيف في اكستاز... عودة القتال في بيروت وانتشار أجواء الكآبة ثانية في بحمدون... العودة المبكرة إلى الفندق، وقضاء ليلة مزعجة فيه مع انقطاع الكهرباء... وزخات الرصاص... والعزلة والظلمة...

الاثنين: الاستقرار في فندق خير الله الفاره... ووجبات طعامه المتميزة... والحرّ الذي لا يطاق ظهراً وليلاً، ممزوجاً بشيء من الخوف من العراء المظلم المكشوف... عودة القتال ثالثة، واليأس من استقرار الحالة الأمنية للنزول إلى بيروت، والاتصال بالناشرين، والتخلص من مسودات كتبي بتسليمهم إياها... إحساس دائم بالكآبة الممزوجة بالوحشة، بسبب الحالة الأمنية وقلة النزلاء في الفندق... أمسيات طيبة في الفندق بعد التعرف على عائلة عراقية فيه... وعلى الأستاذ الحسني مؤلف كتاب (تاريخ الوزارات العراقية) بروحه المرحة وأحاديثه الممتعة...

الثلاثاء: جولة مسواق صباحية... قيلولة مزعجة بسبب الحرّ... جلسة عصرية في اكستاز مع شيء من الكآبة بسبب تجدد القتال مرةً أخرى...

أمسية طيبة في الفندق... وليلة لا تطاق بسبب الحرّ... والارتياح إلى خطة سفر في حالة اتساع نطاق القتال، وذلك عن طريق دمشق ـ عمان.

الأربعاء: التوجه صباحاً إلى (عاليه) والقيام بجولة مسواق مرهقة... جلسة قصيرة في كازينو هناك... قيلولة مزعجة في الفندق رغم تغيير الغرفة... أمسية طيبة في صالة الفندق...

الخميس: جولة مسواق صباحية... أخبار عن تصعيد القتال في بيروت الشرقية... التحول إلى غرفة في الطابق الأسفل هروباً من جحيم الحرّ... محاولات غير مجدية للاتصال بالناشرين في بيروت... جولة مسواق مسائية أخرى ثم العودة إلى الفندق وقضاء أمسية طيبة فيه... المعاناة المستمرة المبهظة في كل ليلة مع الحرّ... والبعوض... وآلام الساق... والربو... والأرق القاتل...

الجمعة: جولة قصيرة فاشلة إلى بحمدون الضيعة... تزايد الإحساس بالملل... أداء صلاة الجمعة في المسجد الكبير... يأس من الاتصال بالناشرين... تسليم رقم هاتف الشركة المتحدة إلى أحد أصحاب المطابع لإعلامهم بوجودي في بحمدون، مع الاعتقاد بأن المحاولة غير مجدية أساساً...

السبت: في الفندق... ملل... ملل... ملل... مسواق... أرق مزعج كالعادة مع الحر والبعوض وآلام الربو والساق... جولة تخطي مسائية مع ابني محمد... على طريق فندق لا روش يتجسد فيها الإحساس المتزايد بالملل... والفراغ... والتشتت...

الأحد: رحلة صباحية ممتعة إلى حمّانا... جلسة مسائية طيبة في كازينو الشانزليزيه المطلة على الوادي... الخبر المفرح حتى الأعماق بمجيء موظف من الشركة المتحدة والانطلاق إلى الفندق لمقابلته... اللقاء والاتفاق على الذهاب للشركة في اليوم التالي... وفرح عميق بتحقق أمنية الاتصال بالناشر والتي كدت أن أيأس منها...

الاثنين: الانطلاق مبكراً إلى بيروت... ومتاعب الطريق الجانبي الحار

والبطيء... خيبة الأمل بعدم وجود صاحب الشركة المتحدة في بيروت... الانفراج المفرح بالتمكن من الاتصال بصاحب دار العلم للملايين الأستاذ بهيج عثمان (رَحِمَهُ اللهُ) والاتفاق معه على موعد... إنجاز أعمال البريد... إزعاجات الحجز المعلّق للعودة إلى عمان... الاتفاق مع موظف الشركة المتحدة وتسليمه الأبحاث وتسلم مبلغ من النقود... العودة المترعة بالسعادة إلى الفندق وإخبار زوجتي عن نجاح رحلتي القصيرة إلى بيروت... الالتقاء بمدير دار العلم للملايين في الفندق والاتفاق على زيارته في بيته يوم غد... جولة مسواق ممتعة في بحمدون... ونوم حقيقي عميق لأول مرة بسبب اعتدال المناخ...

الثلاثاء: استيقاظ مبهج بسبب النوم والإنجاز في اليوم السابق... جولة مسواق صباحية... انتظار في شرفة الفندق لموظف الشركة المتحدة في موعد على الغداء... غداء طيب من المشويات في مصيف شبانية لولا متاعب محمد التي بلغت حدّاً لا يطاق... جلسة أخرى في كازينو أبو خضر المطلة على الوادي... وثالثة عائلية في فيلا الأستاذ بهيج عثمان (رَحِمَهُ اللهُ) مدير دار العلم للملايين في بحمدون الضيعة، حيث الأحاديث الممتعة، وتسليمه الأبحاث للاطلاع عليها وإعلامي بموقفه النهائي منها بعد يومين أو ثلاثة... عودة إلى الفندق وأحاديث مخيفة ومقززة عن أحداث بحمدون تلعب كلها ـ خلال النوم ـ مع الحر والبعوض والربو وآلام الساق، دورها في عودة الأرق مرةً أخرى... إحساس متزايد بالملل، وبتثاقل حركة الزمن، بسبب تأخير الحجز إلى يوم السبت مع ضرورة النزول في عمان للمبيت فيها، ثم الانطلاق مساء إلى بغداد، الأمر الذي يقتضي مبيتاً مزعجاً آخر في بغداد قبل التوجه إلى الموصل، وهي كلها احتمالات مرهقة لم نكن نتوقع تراكمها بهذا الشكل.

الأربعاء: متاعب مع مرض زوجتي وإرهاقها المستمر... مع متاعب محمد... استيقاظ مزعج بسبب الأرق... ملل متزايد بصدد قضاء فترة الصباح... جلسة في الطرابلسي لقراءة الصحف اليومية... جلسة طويلة عصراً في الفندق ولقاء مفاجئ مع مدير دار العلم، يعلمني خلاله عن مصير

الأبحاث، حيث استلم اثنين منهما هما (آفاق قرآنية) و(مع القرآن في عالمه الرحيب) وردّ آخرَيْن... استمرار متاعب الليل مضافاً إليها تخوف من احتمال وجود أعراض للزائدة لدى زوجتي يجعلني أفكر في الاحتمالات القادمة، وأدعو الله ﷻ أن يجنبها إياها...

الخميس: جولة مسواق صباحية... جولة مسائية قصيرة واستكمال الأمسية في الفندق... حالات من الاكتئاب والملل مساء، وتخوف من متاعب الليل المحتومة...

الجمعة: استيقاظ فرح لكونه اليوم الأخير... جولة صباحية في بحمدون... اتفاق مع صاحب تاكسي للسفر إلى بيروت فجر يوم غد... جلسة قصيرة في الطرابلسي... أداء صلاة الجمعة... عدم القدرة على أخذ إغفاءة ظهراً كالعادة... تصفية حساب الفندق... وفرح عميق بإنجاز كل شيء واقتراب موعد السفر والخلاص... جولة مسائية في بحمدون... جلسة في صالة الفندق... تنظيم الحقائب... النوم المستحيل...

السبت: فجراً إلى بيروت... وسط مشاعر الفرح والارتياح... جلسة قصيرة وتناول الفطور في الشركة المتحدة... الذهاب إلى المطار والانطلاق إلى عمّان... تأمين الحقائب في الترانزيت... التوجه إلى الفندق وسط حرّ لا يطاق... متاعب الفندق وانقطاع الماء... غداء لذيذ في أحد المطاعم... محاولة مستحيلة للقيلولة في جحيم الفندق... جلسة طويلة وعشاء في منتزه جبل اللويبدة... ليلة الفندق الرهيبة بحرِّها وأرقها...

الأحد: ساعات الصباح الطويلة مع الحرّ والمسواق والتعب... غداء طيب في أحد المطاعم... ساعتا انتظار في الفندق الملتهب قبل الانطلاق البهيج إلى المطار... استكمال المعاملات في جحيم المطار... فصل مرهق مع محمد... الطائرة والإرهاق والغثيان... فرحة الخلاص من الاتصالات الهاتفية والتفتيش الكمركي... الوصول إلى الفندق الذي يلتهب حراً...

الاثنين ٧/١٧: الانطلاق المبكر إلى الموصل وسط شوارع بغداد التي بلغ

حزُّها الأوج... ولكن فرحة العودة إلى البلد والأهل تغطي على هذا... وتنسينا متاعب رحلة ذقنا فيها الأمرَّين... وأرتنا نجوم الضحى في كبد السماء!!

[٩]

رحلة عام ١٩٧٩م إلى قطر

الأربعاء ١١/٢١: ساعة الانتظار الممتعة والانطلاق بالطائرة بمعية اللواء الركن الحاج محمود شيت خطاب... وتناول الغداء اللذيذ... ترانزيت في البحرين واستكمال السفر إلى الدوحة لحضور المؤتمر الدولي حول السيرة والسنة النبوية... الاستقبال الطيب ومحنة ضياع الحقيبة... الاستقرار في فندق الخليج الفخم... إحساس بالفرح تكتنفه محنة ضياع الحقيبة الأم واليأس من الحصول عليها... زيارة صديق والقيام بسيارته بجولة في الدوحة وشراء بعض الضروريات تعويضاً عن المفقود وشيء من الارتياح... زيارة لأحد محرري مجلة الدوحة وإجراء ريبورتاج معي... عشاء لذيذ في مطعم فخم وشيء من القلق بسبب الحيرة بين صنوف الطعام وكمياته... جلسة في غرفة الفندق مع التلفزيون... وصول مطبوعات المؤتمر وهداياه القيمة... شيء من التشتت والقلق بسبب انفتاح المجالات والمتع العديدة كالعادة... زيارة صديق آخر... تنظيم المبعثرات... والنوم...

الخميس: الاستيقاظ بعد نوم عميق على شيء من الاكتئاب بسبب ضياع الحقيبة، وشيء من عذاب الضمير بسبب الإحساس بالتورط في حضور مؤتمر قد يكون إسناداً للسلطة بشكل من الأشكال... فرح غامر بوصول الحقيبة... زيارة لبعض الأصدقاء والمشايخ في المحاكم الشرعية... زيارة لصديقين أردنيين... نومة ظهر قصيرة بعد غداء دسم... زيارة لرئيس المحاكم، وأخرى لأحد النوادي... استقبال حشد من الأصدقاء في غرفة الفندق وحوار متنوع وممتع، يعقبه عشاء لذيذ يكتنفه نوع من القلق اعتدته خلال كل وجبة بسبب كثرة صنوف الطعام وحرية الاختيار... جلسة قصيرة في إحدى الصالات مع

حشد آخر من الأصدقاء، واستكمال الأمسية في الغرفة الرائعة مع التلفزيون الملون والكتب العديدة المهداة.

الجمعة: جلسة ممتعة في غرفة الدكتور أكرم العمري المطلة على البحر... صلاة الجمعة... غداء متخم وتعرف على المزيد من المدعوين يسوق إلى المزيد من الثقة، وخاصة إزاء تقييم الدكتور عبد العزيز كامل... عودة إلى الغرفة والإحساس بالقلق الخفي بسبب الفرص الواسعة العديدة المادية والأدبية... نومة متقطعة ونزول إلى الصالة استعداداً لحفل التعارف... حديث مع صديق يعمل في أبو ظبي وارتياح لفكرة استقدامي إلى هناك أستاذاً زائراً... بدء الحفل والتعرف على العديد من المدعوين، وثقة متزايدة نتيجة حوار مع أحد الدكاترة التونسيين وتعليقه على كتاباتي... أمسية مع الدكتور عبد الرحمن الحجي واستكمالها في الغرفة مع عدد من الأصدقاء.

السبت: لقاء مع أنور الجندي (ﷺ) وعدد من الأصدقاء... ساعات مع حفل افتتاح المؤتمر... الغداء... الذهاب عصراً إلى جلسة اللجان الأولى... انفعال مكبوت من جراء تعليق أحد الأعضاء على (إنشائية) كافة دراسات السيرة، وندم قاس على عدم الرد عليه... ثم انتهاز الفرصة والردّ المناسب الرصين الذي يفحمه... عشاء في قصر الريان واستمرار الإحساس السعيد والحوار مع العديد من الشخصيات... أمسية ممتعة في غرفة أحد الأصدقاء في الفندق.

الأحد: صباحاً: مع لجنة التراث والمصادر... لقاء بالدكتور جمال عطية وعرض بالتفرغ للعمل في المجلة واعتذار عن قبول العرض... لقاء بأحد المدعوين التونسيين وإحساس بالثقة من جراء تثمينه لكتبي هناك... اعتذار عن الاشتراك في ندوة تلفزيونية... غداء في فندق الرامادا الفخم...شيء من الإرهاق والإحساس بالغثيان لدى العودة إلى الفندق.

مساء: زيارة لمتحف قطر... وأخرى لمعرض الكتاب الإسلامي، وارتياح لوجود معظم كتبي فيه، وفرح غامر لاطلاعي على طبعة ثانية لكتابي (مقال

في العدل الاجتماعي)... ندوة عن السنة والحياة... عشاء في الفندق... فرح بلقائي بناشر مصري، حيث استفسرت عن الكثير من المسائل المعلقة... أمسية في الصالة مع عدد من الأساتذة والناشرين والأصدقاء... شيء من القلق والحيرة عبر اليومين الأخيرين بصدد شراء الهدايا وتثبيت موعد الحجز بين الأربعاء والجمعة.

الاثنين: نوم مريح... جلسة المؤتمر الصباحية... جولة في الأسواق وشراء بعض المواد... جلسة المؤتمر المسائية.. عودة إلى الفندق لحضور حفل العشاء... حديث عن مجلة (حضارة الإسلام)... التعرف بعدد من الشخصيات وسماع تعليقات ملأتني بالثقة... لقاء بأديب مصري شاب، ابن شقيق الروائي محمد عبد الحليم عبد الله، وتقييم لكتابي (فوضى العالم في المسرح الغربي المعاصر)... محاضرة للبروفيسور فؤاد سزكين عن العلوم العربية وأثرها... لقاء لدى الرجوع بعديد من الشخصيات والأساتذة وبسكرتير مجلة العربي الأخ فهمي هويدي تزيدني ثقة... أمسية مع العديد من المؤتمرين تنتهي بجلسة مع الدكتور جمال عطية والبروفيسور فؤاد سزكين...

الثلاثاء: الذهاب إلى السوق بدلاً من اللجنة... قلق مركز خلال البحث عن المشتريات ثم انفراج مريح بعد استكمال الكثير منها... حوار على الغداء مع سكرتير مجلة العربي الأستاذ فهمي هويدي والصحفي المصري الأستاذ أحمد بهجت... حضور حفل سباق الخيل... جلسة خلال العودة مع الأستاذ أنور الجندي... محاضرة للندوي وساعة من الملل والإرهاق بسبب الجلوس على الأرض في أحد المساجد... اللقاء في المسجد مع نجيب الكيلاني (رحمه الله) ومع أحد المؤتمرين، حيث أعرب عن إعجابه الشديد بكتابي (تهافت العلمانية)... حضور حفل عشاء في متنزه مكشوف وجلسة عربية ممتعة مع الكيلاني وآخرين في الهواء الطلق... تناول العشاء وحوار مع العديد من المؤتمرين... جلسة مع الناشر الأستاذ رضوان دعبول في الغرفة ومناقشة كافة قضايا النشر...

الأربعاء: شيء من القلق بسبب كثرة المواعيد والمشاغل وضرورة التوفيق

بينها... وبصدد التردد حول تغيير موعد الحجز... جلسة طويلة في الغرفة مع فهمي هويدي لمناقشة الكثير من المسائل المتعلقة بمجلة (العربي)، وعرض بالعمل في قطر أو الكويت حيث أعلنت عن حاجتها... لقاء مع طالب مقيم في إنكلترا وإعرابه عن إعجابه... لقاء مع عبد الحليم محمد وحوار حول إصدار سلسلة كتب جديدة ووعد بالإسهام فيها... جلسة مع عبد ربه وأخرى مع عدد من الأصدقاء، وارتياح لعرض صاحب المكتب الإسلامي الأستاذ زهير الشاويش (ﷺ) استعداده لنشر أي من كتبي... دعوة عشاء في نادي الدوحة... استكمال الأمسية في الفندق مع عدد من المؤتمرين والأصدقاء...

الخميس: لقاءات في الصالة مع نجيب الكيلاني (ﷺ) وعدد من الأصدقاء وحديث حول ضرورة إنشاء رابطة للأدب الإسلامي... حضور حفل الختام وقراءة التوصيات... أمسية التوديع المؤثر في الفندق وسماعي التقييم من عدد آخر من المدعوين... زيارة لشخصية من الكويت... استكمال تنظيم الأغراض والكتب بعد يوم من القلق بسببها... إحساس بالإعياء بسبب دوامة الزيارات والاتصالات والحفلات...

الجمعة ١١/٣٠: استيقاظ مبكر للذهاب إلى المطار بمعية اللواء الركن الحاج محمود شيت خطاب... شيء من القلق بسبب احتمال تأخر الطائرة عن الوصول قبل إقلاع طائرة الموصل... الوصول فعلاً بعد إقلاع طائرة الموصل... التوجه إلى كراج النقليات وانتظار الساعات الطوال للحصول على مقعد في المنشأة وارتياح عميق... الوصول في جو ماطر، وأمسية طيبة مع الأحاديث والهدايا...

[١٠]

رحلة عام ١٩٨٠م إلى السعودية

الأحد ٢/٢٤: استكمال الإجراءات في مطار بغداد دون أية عرقلة والدخول إلى صالة الانتظار في غمرة من الفرح العميق... اتصال هاتفي بالعائلة داخل الصالة... الإقلاع الممتع بعد شيء من التأخير... الوصول إلى الظهران

والانتظار هناك الساعات الطوال بسبب سوء الأحوال الجوية في مطار الرياض... التوجه في الثالثة صباحاً بطائرة جامبو إلى الرياض... الوصول واستلام إعلام من أحد المستقبلين حول حجز غرفة لي في فندق (زهرة الشرق) واضطرار المستقبلين للعودة قبل العاشرة مساء... فقدان إحدى الحقائب وانتظارها ساعة كاملة مترعة بالقلق ثم التوجه إلى الفندق قبل العثور عليها.

الاثنين: نوم قلق متقطع بعد السادسة صباحاً والاستيقاظ على تلفون من رضوان دعبول كان بالنسبة لي بمثابة بداية طيبة، فها هو الناشر قد قدم إلى هنا وقد يغنيني هذا عن الذهاب إلى بيروت خلال الأشهر القادمة... ومكالمة أخرى من رئيس قسم الثقافة الإسلامية في كلية الشريعة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية؛ الأستاذ عمر عودة الخطيب (ﷺ)، والذي سأحاضر فيه، واتفاق حول إرسال سيارة لإيصالي إلى الكلية... ومكالمة ثالثة من ابن عمي الدكتور هشام الطالب واتفاق على موعد للقاء عصر اليوم.

أتجه إلى الكلية وألتقي برئيس القسم والعميد ووكيله وبعدد من الأساتذة لقاء حاراً وأستلم جدول المحاضرات، لكن إرهاقي بسبب السفر والسهر جعلني في حالة نفسية غير منفتحة، وزادني إزعاجاً احتمال عدم الحصول على الحقيبة الضائعة... ولكن القسم هيأ لي أحد الأساتذة لكي يقلني بسيارته إلى المطار، وهناك أحظى بالحقيبة فأتحوّل ـ كعادتي ـ إلى لحظات مترعة بالفرح والسعادة والانسجام، وأتوجه إلى الفندق لتناول الغداء وأخذ قسط من النوم، وأستيقظ عصراً لكي أنتظر ابن العم الساعات الطوال، يزورني خلالها أحد الأساتذة ويدور حوار طيب، ثم ما يلبث هشام أن يجيء فأذهب معه إلى البيت، ومنه لزيارة عدد من الأصدقاء حيث تناولنا عشاء شهياً، ودخلنا في حوار ممتع وعميق حول كتابي (دراسة في السيرة).

الثلاثاء: زيارة لأستاذ حلبي زائر خلال الفطور، ثم التوجه إلى الكلية وأحاديث متنوعة مع عدد من الأساتذة... زيارة لرئيس الجامعة وعودة إلى

الفندق لتناول الغداء مع رضوان دعبول وحوار طويل حول قضايا النشر.. وطرحت فكرة تدور حول عقد لقاء أو ندوة للكتاب والناشرين الإسلاميين لمناقشة قضايا الفكر والنشر، وصولاً إلى نتائج أكثر إيجابية... لقيت لدى رضوان قبولاً طيباً... بعد نومة العصر اتجهت إلى الكلية للبدء بإلقاء محاضراتي... حيث بدأت مع طلبة الدراسات العليا بإلقاء محاضرتين حول قضايا السيرة ونقاطها الأساسية...

كنت متمكناً تماماً على مستوى المادة والتدريس، لكن الطلبة لم يكونوا على درجة كافية من النشاط والحيوية... وعلى أية حال فقد مضت المحاضرتان على خير ما يرام. وغادرت الكلية عائداً إلى الفندق في حالة من الفرح والصفاء والانسجام، وهناك تناولت عشاءً طيباً، وزاد في ارتياحي اللقاء بعدد من الناشرين القادمين بمناسبة معرض الكتاب الدولي، وزرت أحد الأساتذة، ثم ما لبث هشام أن اتصل بي وأعلمني أنه سيمر عليَّ لكي يأخذني إلى دار نسيبه الدكتور أحمد التوتنجي زوج أخته... كانت أمسية طيبة أعقبها توديع ابن العم في المطار.

الأربعاء: الاستيقاظ بعد نوم عميق مشبع... الالتقاء في صالة الفندق بعدد من الناشرين، والاتفاق على موعد مسائي... وفرح بوصول ناشر تربطني به بعض المواعيد المسبقة.. التوجه إلى الكلية وحديث مع عدد من الأساتذة والعودة إلى الفندق... التوجه عصراً إلى معرض الكتاب الدولي مع رضوان دعبول واستلام مبلغ نقدي منه... لقاء بصاحب المكتب الإسلامي للنشر واتفاق معه على تسليمه بعض أعمالي... لقاء ببهيج عثمان مدير دار العلم للملايين وإعلامه إياي عن التصريف الجيد لكتابيّ الأخيرين، وعن قيامه بطبعة ثانية لأحدهما... اختيار عدد من مؤلفاتي من معرض الشركة المتحدة... لقاء مع عدد من الأساتذة والأصدقاء وأحاديث شتى... عودة إلى الفندق وزيارة متأخرة للزميل الدكتور عبد الحليم عويس، والناشر المصري الحاج حسن عاشور، وحوار ممتع حتى ساعة متأخرة من الليل.

الخميس: شيء من القلق والاكتئاب الصباحيين بسبب عدم وجود وجهة لي هذا اليوم... النزول إلى صالة الفندق لمطالعة الصحف، وتهيئة محاضرتي العامة عن التفسير الإسلامي للتاريخ، وتحولي إلى حالة سعيدة من الفرح والصفاء والانسجام... نومة عميقة بعد الغداء... مكالمة من الدكتور أحمد التوتنجي لتناول العشاء وقضاء الأمسية في بيته، وانتظار في صالة الفندق عبر جلسة طيبة مع أحد الأصدقاء الأساتذة... أمسية طيبة في بيت التوتنجي مع الأحاديث والعشاء ولعب المنضدة... العودة إلى الفندق وتلقي ثلاث بطاقات من أصدقاء جاؤوا لزيارتي فلم يجدوني... السهر إلى ساعة متأخرة من الليل لتنظيم أوراقي وأبحاثي وتصفح عدد من الكتب والمجلات...

الجمعة: الاستيقاظ على دوامة طاحنة من القلق بسبب ضرورة الاتصال بعدد من الناشرين، والإسراع بتقرير مصير عدد من الأبحاث... اتصالات هاتفية غير مجدية... زيارة لصديق من الموصل تعرفت عليه في الطائرة ودعاء صامت أن ينهي زيارته بأسرع وقت لكي أتفرغ للعمل... النزول إلى صالة الفندق واللقاء بعدد من الناشرين وتحوّل القلق إلى استقرار وارتياح شاملين، بعد التشاور معهم بصدد عدد من القضايا... دعوة من عويس على الغداء بصحبة اثنين من آل عاشور والتوجه من ثم لمعرض الكتاب... حوار ممتع في صالة الفندق وتعليقات ضاحكة مع الحاج حسن عاشور في الطريق إلى صلاة الجمعة، وفرح عميق بالأطمئنان على قرب صدور مسرحيتي (الشمس والدنس) عن دار الاعتصام... التعرف على أحد الأساتذة السعوديين، وتقدير طيب منه لبعض أعمالي، ودعوة للغداء والاعتذار عنها... حوار طيب في بيت عويس قبيل الغداء... وعبر الطريق إلى المعرض الدولي... العودة إلى الفندق وحوار طويل مع عويس حول إصدار سلسلة أبحاث تاريخية وحضارية لجامعة الإمام... وعندما سألته عن مكافأة البحث الواحد أجابني بأنه لا يقل عن ألفي دينار... وقلت في نفسي: إنه مبلغ مغري لم أقبضه من الناشرين الاعتياديين عن عشرة كتب، فكيف عن كتاب واحد؟ ولكن ما الحيلة وهناك ذلك الإصرار من قبلي

على رفض أي عمل فكري يربط اسمي بمؤسسة سعودية تحسباً من أن توظف كتاباتي لخدمة السلطات!! ومن ثم رحت أبين له موقفي بصراحة وكشفت له عن أشياء حول الموضوع ندمت بعد دقائق على كشفها له...

ثم لما غادر الغرفة كنت أشعر بحالة قاسية من الإرهاق والتشتت، مع حيرة قاسية بصدد توزيع الأبحاث على الناشرين... وأقول في نفسي: ماذا لو لم يقم معرض الكتاب ويتدفق الناشرون على الرياض وتنفتح عليَّ جبهة للقلق كم كنت في غنى عنها... ناهيك عن الندم الذي سببه مجيئهم غير المتوقع دون أن تكون معي كافة أبحاثي لكي أسلمها وأرتاح فلا أعود بحاجة للسفر إلى بيروت ودمشق... ثم ما ألبث أن أنغمر بكتابة مذكراتي هذه فأشعر بشيء من الارتياح وتذوب المتاعب كما لو كان تثبيت التجربة بالقلم انتزاع لمتاعبها وإسقاطاتها وإلصاقها بالورق!!

وبعد تناول العشاء أجلس في الصالة لتنقيح كتابي (مقال في العدل الاجتماعي)، وألتقي مع عدد من الناشرين، وأسلم (خمس مسرحيات إسلامية ذات فصل واحد) لدار النفائس شاعراً بقدر من الارتياح للتخلص من أحد الأعباء، ثم ما ألبث أن أصعد إلى غرفة دعبول حيث يجري حوار طويل حول قضايا النشر تثبت معطياته تحريرياً، وتتم موافقته فيه على إسهامي مالياً في نشر بعض كتبي لكي أحقق نسبة أعلى من الربح... ويعاتبني على تسليم بعض أعمالي لدور نشر أخرى فأشعر بداخلي بارتياح عميق، فها هو ذا لا يزال يحرص على الانفراد بكتبي، كما أنه ألمح إلى احتمال قيامه بالنسبة لعدد من الكتّاب بنشر مجموعات الأعمال الكاملة لهم... وأغادر الغرفة وأنا أشعر بفرح غامر... لكن القلق ما يلبث أن يحاصرني عبر ساعات النوم حتى ساعة متأخرة من الليل.

السبت ١/٣: عند الظهر أقوم بجولة استطلاعية في السوق القريب من الكلية، ثم أعود إلى الفندق لكي ما ألبث أن أجد دعوة من الإخوة اليمنيين (من آل الوزير) بانتظاري، وأتمكن بسرعة ما حلمت بها من الحصول على

نداء تلفوني مع الموصل، حيث أتكلم مع زوجتي وابني وأطمئن على الجميع وأقفل الهاتف وأنا أشعر بفرح غامر، ثم أنزل إلى الصالة بانتظار موعد الذهاب إلى فندق قصر الرياض تلبية للدعوة... حيث نتناول غداء مرهقاً لكثرة تنوعه ولكونه يقدم على طريقة (البوفيه)، ثم دخلنا في حوار تاريخي ممتع حول المذهب الزيدي... ووجهت لي دعوة لزيارة جدة وأخرى لزيارة اليمن، وقُيِّمت كتبي تقييماً كبيراً منحني الكثير من الثقة والاعتزاز...

وعدت إلى الفندق وأنا أشعر بشيء من القلق بسبب إلقاء محاضرتين مساء اليوم دون أن أعدَّ لهما أي شيء في موضوع (قاعة البحث). ولكني ما أن وصلت الكلية حتى وجدتني أعثر على الموضوع، وأضع خطوطه الرئيسية، وأدخل لإلقاء المحاضرتين، حيث تفجرت المواضيع في ذهني، وحيث أستطعت أن أحرك الطلبة، وأن أحيل المحاضرتين إلى حوار حيوي وعطاء ذي قيمة... وأغادر الكلية وأنا أحسّ بسعادة غامرة... وبعد تناول العشاء جلست الساعات الطوال في صالة الفندق، أواصل تنقيح كتابي (مقال في العدل الاجتماعي) لتسليمه للناشر...

الأحد: اتجهت إلى كلية العلوم الاجتماعية، وقضيت هناك عدة ساعات في الجلوس مع هذا الأستاذ أو ذاك، وفي التعرف على هذا المفكر أو ذاك: فتحي عثمان... محمود شاكر... وأساتذة مصريين وسعوديين...

توجهت مساءً إلى الكلية لإلقاء محاضرتين في السيرة... وما أشد معاناتي مع مجموعة من الطلبة الذين لا يرغبون ـ إلا قلة منهم ـ في الحوار والنقاش، أو حتى بالتزام المواعيد الزمنية للحضور... وكعادتي القديمة كنت أحاضر بصوت عالٍ كي أثيرهم وأبذل جهداً مضاعفاً دون جدوى... وسرعان ما أحسست ببطء مرور الوقت، وبتشنج في العضلات المحيطة بالقلب، وقلت في نفسي ما أحسن حظي إذ أخرجت من الجامعة، وتركت مهمة التدريس... فإن صحتي لم تعد تحتمل هذه العملية المجهدة... غادرت الكلية وأنا أعاني من الإعياء... وفي صالة الفندق جلست مع اثنين من أساتذة الشريعة...

وأنهيت الأمسية بجلسة مجدية مع صاحب دار الاعتصام، حيث تم التخطيط والاتفاق على كثير من قضايا النشر...

الاثنين: التوجه صباحاً إلى الكلية، حيث جلست ساعة من الوقت في المكتبة أواصل إعدادي لمحاضرة اليوم، وأتصفح أعداداً من مجلة المجتمع لمتابعة مقال عن المؤرخين الإسلاميين... أرجع إلى الفندق لأتغدى وأنام نومة مترعة بالقلق... أجلس في الغرفة فترة طويلة أواصل الإعداد المملّ لمحاضرة اليوم العامة، التي أصبحت بمثابة إحدى منابع القلق عبر الأيام الأخيرة... وأبلغ حدَّ الملل من الموضوع والإعياء الذهني الذي لا أستطيع معه مواصلة القراءة... شيء من التخوف من عدم تمكني من المحاضرة، إذ قررت أن أرتجلها ارتجالاً...

ولكنني ما أن أبدأ المحاضرة أحسّ أني متمكن تماماً من الحديث الذي راح يتدفق بسهولة بالغة، لكن اتساع نطاق الموضوع، وكثرة رؤوس النقاط التي دوّنتها؛ جعلتني أتردد في متابعتها، واخترت أن أمضي منتقياً المسائل الأكثر أهمية... وإذ شعرت في نهاية الأمر، أو توهمت، بأن الملل بدأ يتسرب إلى الحاضرين.

أنهيت المحاضرة وأنا أحسّ أنني لم أقدمها بالشكل الأمثل الذي أحلم به، أو هكذا خيل إليّ... وما لبثت أن ندمت بعد قليل على نسياني أن أطرح عليهم فرصة المناقشة والحوار... ورجعت إلى الفندق وأنا أحسّ بدوامة القلق تتناوشني... وما لبث أن جاءني دكتور عويس وآل عاشور ودكتور سعودي يعرضون عليَّ قضاء الأمسية معهم في بيت الأستاذ المذكور... اعتذرت أول الأمر... لكن دوّامة القلق دفعتني إلى الموافقة، حيث قضينا ـ والحق يقال ـ أمسية طيبة مترعة بالضحك والتعليقات والأحاديث الشيقة مع الحاج حسن والآخرين... وأرجع لأتمم بعض الأعمال حتى ساعة متأخرة، وأستيقظ على صلاة الفجر على قدر غير قليل من الاكتئاب الخانق!!

الثلاثاء: زرت الشاويش (ﷺ) في فندق اليمامة، وسلمته مسودات

(دراسات تاريخية)، وتوجهت إلى المعهد العالي للدعوة، وجلست مع عميدها أكثر من نصف ساعة، حيث جرى حديث عن مقالاتي للمجلة وأبحاثي للمؤتمر، وحيث ذكّرني باعتذاري عن كتاب مشروع جديد لكتابة التاريخ، وألمح لي أن الفرصة لا تزال مفتوحة. فأكدت اعتذاري ثم تحولت إلى كلية أصول الدين المجاورة لزيارة الدكتور أديب الصالح فلم أجده فقفلت عائداً إلى الفندق.

مساء توجهت إلى الكلية لإلقاء محاضرتين ناجحتين، استطعت أن أحرك فيهما الطلبة وتجاوبهم الصعب، ثم اتجهت مع رئيس قسم الثقافة إلى كلية اللغة العربية حيث موعدنا مع أحد الاجتماعات التحضيرية لندوة الأدب الإسلامي، وحيث استقبلت هناك من قبل العميد وأحد أساتذة الأدب استقبالاً مترعاً بالترحيب والتقدير والتكريم فاق كل تصوّر... واستمرت الجلسة أكثر من ساعة دارت فيها مناقشات وطرحت آراء.

وألح العميد وأستاذ الأدب على الإفادة من وجودي لإلقاء محاضرات جامعية على الطلبة فضلاً عن محاضرة عامة. وتم الاتفاق على تحديد المواعيد بعد جملة أخرى من التقدير والتكريم كان لها في نفسي أثر عميق... وثمة إحساس بالندم والتشتت والضياع والتنازل وأنا أجدني مسوقاً من حيث لم أكن أريد من قبل، للإسهام في أنشطة فكرية وأدبية جماعية مع المؤسسات السعودية، ولا أدري كيف سينتهي بي المطاف، فأنا إذ أرفض ـ بصعوبة ـ عرض المعهد العالي لطرح برنامج لكتابة التاريخ عن طريق ترشيح خاص بي، أجدني مسوقاً للإسهام بالتحضير لندوة عن الأدب سيكون لها تأثيرها الذي لا يقل عن مشروع كتابة التاريخ... وأغادر الكلية مودعاً بكلمات التقدير وأنا موزع بين الارتياح والثقة وبين القلق والتشتت...

وفي الفندق أستلم رسالة من دكتور أحمد التوتنجي تطلب الاتصال به... وأهرع إلى غرفة آل عاشور، حيث أقضي أمسية طيبة تستغرق أكثر من ساعة في حديث عن قضايا الفكر والنشر... وتم التأكيد في الجلسة على السلسلة التي اتفقت معهم بصدد إصدارها على شكل كراريس متتابعة.

الأربعاء: استيقظت منشرحاً على غير عادتي، فبرنامج اليوم واضح محدد... صباحاً إلى الكلية لتدوين بعض الملاحظات حول ندوة الأدب، وللقيام بجولة في السوق القريب، حيث اشتريت عدداً من الحاجيات... عدت بعدها إلى الفندق، حيث زارني الأخ إبراهيم الوزير يحمل لي كتاباً عن القرن الخامس عشر، وحملنا الحديث إلى آفاق شتى. مساء توجهت إلى كلية الشريعة لحضور مناقشة رسالة للماجستير عن التصوير الفني لصلاح الخالدي، وكانت ساعات طيبة مع العدد الكبير من الحاضرين، ومع مناقشات الأستاذ محمد قطب الممتعة والمثيرة...

ولدى المغادرة طلب مني عدد من الطلبة من بلدان شتى بما فيهم بعض اليوغسلافيين المسلمين زيارتي في الفندق، كما طلب مني أحد إداريي الجامعية إلقاء محاضرة عامة في مخيم طلابي، وإمداد مجلتهم ببعض المقالات، فوعدته غير جاد في وعدي، وجرى حديث وتعقيبات وتعارف مع هذا الأستاذ أو ذاك، وعدت بصحبة عويس إلى الفندق، حيث أسرعنا بزيارة محمد قطب منتهزين فرصة حضوره القصيرة، وجرى خلال اللقاء حوار قصير عن آخر نتاجاته.

الخميس: أعلمني أستاذ في جامعة الرياض كيف أنهم قرروا هناك كتابي (تهافت العلمانية) في مادة الثقافة الإسلامية... إنها إشارة من عشرات تلقيتها هذه الأيام، وانها لثقة بالنفس أرجو ألا تكون وبالاً عليّ!! وكنت قبل يومين قد أُعلمت من قبل رئيس قسم الأدب في كلية الآداب، بأن كتابي (في النقد الإسلامي المعاصر) قد قرّر على الطلاب.

تلقيت دعوة على الغداء من الدكتور أحمد فرحات... وكان غداء لذيذاً حيث سمك الزبيدي وأنواع المقبلات الشامية في أحد المطاعم، وحيث الحديث الممتع مع عدد من الأساتذة والأصدقاء المدعوين، حيث سئلت عن كتاب (أصوات) وتلقيت ثناءً طيباً...

في المساء تلقيت دعوة أخرى على العشاء في دار الأخ الأستاذ نعمان

السامرائي، حيث أرسل لي السيارة التي أقلتني إلى هناك، وقبل أن يأتي بقية المدعوين جرى حوار شيق، أُعلمت خلاله بأن كتاباً تقييمياً سيصدر عن إحدى المؤسسات يتضمن عرضاً وتحليلاً لثلاثة من مؤلفاتي، وأن دراسة أخرى كتبت عن (أصوات)... وتناولنا العشاء... وجلسنا بعده نتبادل الأحاديث... عدت بعدها إلى الفندق لأجد في الصالة عويس وآل عاشور، فجلست معهم أكثر من ساعة، وما أمتع الجلوس بصحبتهم، حيث الحديث عن قضايا الفكر والنشر، وحيث النكات والقفشات. وعرض عليَّ عويس فكرة كتابة مقالات أسبوعية لمجلة (الدعوة)، التي يشرف على تحريرها لقاء مبلغ طيب... فلم أعطه وعداً، إذ لا زلت اعتقد أن النشر في أية مجلة سعودية يتضمن شيئاً من التنازل ولهاثاً وراء المادة، وأخبرني آل عاشور بأنهم سلموا بحثي عن (ابن خلدون إسلامياً) لصاحب دار القلم فسررت بذلك.

الجمعة: زيارة بصحبة الأستاذ عمر عودة الخطيب للدكتور رأفت الباشا (رحمه الله) صباحاً، وحوار ممتع عن تاريخ سوريا الحديث... أداء صلاة الجمعة... وزيارة لدعبول وفرح بالحصول على مبلغ خمسمائة دينار أخرى... أمسية ممتعة في بيت الدكتور أحمد التوتنجي مع العشاء الموصلي اللذيذ... واتصال هاتفي من المدينة المنورة حيث يطلب رئيس جامعتها مكالمتي، ويرحب بي، ويعلمني بأنه بدأ محاولات جديدة وجادة لاستحصال الموافقة على إعارة خدماتي للمدينة... بينت له جانباً من المصاعب وشكرته، ولكن عرضه كان بمثابة صدمة لي... أو بالأحرى فتح الباب مرةً أخرى على أعاصير القلق التي لم أعد أحتملها.

السبت: توجهت إلى السوق للمرة الثالثة من أجل استكمال المشتريات التي كلفت بها في الموصل... ثم توجهت إلى المطار للتأكد من تثبيت حجز العودة، ثم عدت إلى الفندق لأسجل نداء إلى الموصل ما يلبث أن يتحقق فأكلم الأهل وأطمئن عليهم... وبعد دقائق أتلقى مكالمة من عبد الحليم محمد صاحب دار القلم فأتفق معه على موعد اللقاء.

يجيئني عويس وفق الموعد ونتجه سويةً لحفل افتتاح أسبوع الشيخ محمد بن عبد الوهاب في قاعة فندق الكونتنتال، وفي الطريق أفاتحه بتألمي للورطة الجديدة، التي أوقعت فيها نفسي، حيث أنني طلبت من بعض الإخوة مفاتحة المسؤولين بالحصول على الموافقة لتأدية العمرة المشتركة مع المؤتمرين، فإذا بأحدهم يطلب من وكيل الجامعة المسؤول، إشراكي في المؤتمر ونقلي إلى فندق الكونتنتال، وكيف أن هذا اعتذر بعدم وجود أماكن إضافية!! وقلت لعويس كان يجب ألا أتورط هكذا، وأن يتصور المسؤولون بأنني أرغب في دعوة نفسي، وأن آثار ذلك ستظل تصبّ آثارها المريرة في نفسي لعدة أيام... وقلت له بأنني عاتبت اليوم صباحاً الشخص الذي طرح المسألة بهذا الشكل، ورجوته بأن يبين للوكيل حقيقة الموقف... ولكن جواب عويس كان مريحاً بصدد الصيغة التي طرح بها الموضوع مع الوكيل، والتي تشعر بألا علاقة لي بالأمر.

ورغم أننا استُقبلنا هناك استقبالاً حافلاً، وأشاروا علينا بأن نجلس كأعضاء في المؤتمر في الخطوط الأمامية، إلّا أنني كنت في دوامة من الألم والتوتر والندم لأكثر من سبب... وبدأ المؤتمر وشعرت أنني اتضاءل أمام نفسي ومبادئي أكثر فأكثر، عندما تذكرت أنني بدأت أتنازل شيئاً فشيئاً عن القيم التي كنت أعتز بها، وكيف أنني رفضت يوماً دعوة الجامعة نفسها تشبثاً مني بفكرة أن الإسهام في أي مؤتمر إسلامي تقيمه السلطات السعودية، وغيرها انما هو تنازل عن المواقف المبدئية باتجاه المكاسب العابرة مادية وأدبية...

كانت هذه المعاني تدور في ذهني، وتتضاف إلى ندمي العميق على الورطة التي أوقعت فيها نفسي دونما أي مبرر... وظللت أردد ماذا لو ذهبت للعمرة وحدي دون انتظار هذه الفرصة التي فتحت عليّ أبواب الجحيم النفسي؟

عندما انتهت جلسة الافتتاح خرجنا إلى الصالة، حيث تم التعرف على عدد كبير من الأساتذة والباحثين والمفكرين والطلبة، وحيث تلقيت حفاوة وتقييماً ما زادني إلا تعاسة وتشتتاً بسبب ما كنت أعانيه من الكسور النفسية...

إنني ـ كما قلت لعويس قبل ساعات ـ لا أحسّ بطعم الأشياء، ولا أعيش حياتي كاملة كما أتمنى ولا أستذوق طعم الفرح والامتلاء لأي شيء... وناداني أحد الأصدقاء لكي يعرّفني برئيس جامعة المدينة المنورة، الذي استقبلني بحفاوة بالغة، وأعلمني أنه سيبذل جهده لاستحصال الموافقة على إعارة خدماتي.

سلّمت على هذا وذاك، ووقفت مع هذا وذاك، وجلست أخيراً مع عدد من الأساتذة كان من بينهم أستاذ هندي حدثني عن إعجابه بكتاباتي، الأمر الذي كان له أعمق الأثر في نفسي... فها هو رجل من الهند... أستاذ في جامعة دلهي يعرب عن إعجابه... انها لهدية قيمة حقاً هذه التعليقات، ما كنت أتوقع عشر معشارها، تمسح على متاعب قلبي الذي أثخنه جهد عشرين عاماً في الكتابة... وعلى جراحاته التي أدمتها مدينتي بالغيرة والتجاهل والصمت...

بعد صلاة العشاء أقلتنا السيارات إلى صالة الاحتفالات العسكرية، حيث دعينا لتناول العشاء... وفي السيارة جرى حديث بيني وبين الأستاذ الأردني عبد الحميد بخيت عن مؤتمر فلسطين القادم... وفي الصالة تم تبادل الأحاديث مع عدد من الأصدقاء، كان من بينهم الدكتور التونسي التهامي نقرة، الذي أكد إعجابه بطريقتي في طرح الأفكار وقال: إنه سيسعى لاستقدامي لجامعة تونس أستاذاً زائراً... وكنت مرتاحاً بعد حديث مع وكيل الجامعة المسؤول عن المؤتمر، عرض عليّ فيه أن أنتقل إلى الكونتنتال، ولكنني اعتذرت بأنني مرتاح في فندقي ومرتبط بعدد من المواعيد...

تناولنا عشاء طيباً تبادلت عبره الحوار مع الأستاذ الجزائري الدكتور عمار الطالبي... وكان صحفي سعودي قد حدثني عن إعجابه بكتاباتي، والتمس نشر مقال (القرآن والبعد الزمني) في أحد أعداد المجلة التي يشرف عليها، كما أعلمني بأنه نشر لي عدداً من القصائد كذلك... وغادرنا القاعة إلى فندق الكونتنتال بسيارة أستاذ سعودي راح يكيل لكتاباتي من الثناء ما مسح عن قلبي بقايا المتاعب المتراكمة... وقال معقباً أنها تتضمن قدراً كبيراً من العمق يحتاج معها القارئ إلى إعمال عقله، وأنه لا بدّ من شيء من التبسيط إزاء

القارئ المعاصر. ودّعناه واتجهنا إلى صالة الفندق. وهنالك تبادلنا الأحاديث والنكات وانتحينا ركناً هادئاً، حيث جرى حوار مترع بالمحبة والانسجام على أصوات الموسيقى وجمال المنظر. وعبر الحديث كنت أقول بأن المسلم المعاصر الذي تسحقه الضغوط النفسية والقلق، وتملأ المرارة حلقه بسبب الهزائم المتواصلة، يجد في النوم المتعة رقم واحد في هذه الحياة!!

غادرت الفندق مع عويس واتجهت إلى فندقي، حيث استكملت بعض الأعمال ودونت المذكرات حتى ساعة متأخرة من الليل... وأنا أحسّ بإعياء شديد...

الأحد: استيقظت على شيء من القلق، فأنا لا أعرف إن كان عليَّ أن أذهب لإلقاء محاضراتي التي تم الاتفاق عليها على طلبة آداب اللغة العربية، أم أتجه لحضور جلسات المؤتمر، ولكن مكالمة من رئيس القسم وعميد الكلية أنهيا الموضوع، إذ أعلماني بضرورة تأجيل المحاضرات إلى الأسبوع القادم بسبب غياب معظم الطلبة وأعمال المؤتمر. فاتجهت مرتاحاً إلى الكونتننتال، وحضرت مناقشات إحدى لجنتي المؤتمر، حيث لم يزد عدد الحاضرين عن العشرين شخصاً معظمهم ممن تجاوز الستين من العمر... شعرت بشيء من الملل، لكنني عموماً كنت مرتاحاً إذ جلست مسترخياً وحدي على كرسي مريح أتابع المناقشات... وبعد ساعتين، ارفضّت الجلسة، وتوجهت للاطلاع على معرض الكتاب الداخلي، وكم كان فرحي عندما التقيت وجهاً لوجه مع طبعة خامسة لكتابي عن (عمر بن عبد العزيز)... عدت إلى الفندق وأنا فرح للفترة الزمنية التي ستتاح لي بعد الغداء للنوم... لكن مكالمة من عبد الحليم محمد اضطرتني بعد الغداء إلى التنازل عن ساعة كاملة، حيث أعاد إليَّ بحثي عن (ابن خلدون) قائلاً أنه أكاديمي علمي مركّز لا يصلح لسلسلة (مسلم الغد) التي ينوي إصدارها... وجرى حوار مفصل عن مطالب السلسلة، وما يتوجب الكتابة فيها منهجاً موضوعاً... وما لبث أن غادر الفندق، فصعدت إلى الغرفة وأسلمت نفسي لنوم عميق...

قبيل الغروب جاءني سائق السيارة لكي يقلني إلى الكلية، حيث ألقيت محاضرتين في السيرة حققت خلالهما، رغم تعبي، قدراً طيباً من التواصل مع الطلاب... وعدت إلى الفندق لاستقبال ضيف كان قد عبّر عن إعجابه الشديد... وما لبث أن غادر صالة الفندق لكي أفاجأ بعده بشاب ذي ملامح غربية يستأذنني بالجلوس، وبعد قليل تم التعارف، إنه طبيب نفسي قدم لجامعة الإمام لأغراض استشارية، وجرى حوار طويل عن قضايا التاريخ والسياسة، ثم ما لبثت أن ودعته وصعدت إلى غرفتي.

الاثنين: غادرت الكلية إلى سوق البطحاء، وقضيت ساعتين هناك لاستكمال مشترياتي عبر جولة رابعة.. وفي المساء اتجهت إلى المعهد العالي للدعوة لإلقاء أولى محاضراتي فيه... وقدمني عميده لطلبة الصف المنتهي قائلاً أنني لا أحتاج إلى تقديم... وكانت محاضرتي عن منهج البحث في السيرة، وانبثق عنها تحليل موسع لدور اليهود في التخريب... غادرت بعدها القاعة لكي أجلس قليلاً لدى العميد، ثم يصطحبني أحد الأساتذة إلى الكونتنتال لحضور ندوة اليوم ضمن برنامج أسبوع الشيخ... وهناك في الصالة التقيت بعدد من الأصدقاء والطلبة والمفكرين... ودعاني أحد الطلبة لإلقاء محاضرة على إحدى المجموعات فوعدته خيراً...

الثلاثاء: توجهت إلى الكونتننتال لحضور مناقشات البحوث، وخلال ذلك تمكنت من استكمال الأبيات الشعرية الساخرة، التي وجهتها إلى آل عاشور أعاتبهم فيها على تأخير نشر مسرحيتي وعلى ما يعانونه من إهمال ونسيان... وفي أعقاب المناقشات، وبعد حوار مع عدد من المفكرين الإسلاميين من الجزائر والسودان والأردن ومصر، قفلت عائد إلى الفندق، لأجلس في الصالة مع دعبول لمدة نصف ساعة، ثم لأتلقى جملة من المكالمات الهاتفية لتثبيت عدد من المواعيد، أحدها مع الدكتور فتحي عثمان، الذي دعاني للغداء وقال بأن معه عدداً من الأصدقاء يرغبون في التعرف عليَّ...

وبعد العصر زارني في الغرفة عدد من الأساتذة والطلبة والمفكرين من

الجزائر ويوغسلافيا والعراق وجرت أحاديث طيبة، وأعلمني الدكتور عمار الطالبي بأنه رشحني لحضور الملتقى الإسلامي القادم في الجزائر، وأنه ـ أكثر من هذا ـ سيسعى لاستقدامي لجامعة الجزائر، فشكرته وقلت لزميله رئيس تحرير مجلة (الأصالة) الجزائرية بأنني سأقدم له عدداً من كتبي لكي يوظفها في مجلته.

توجهت إلى كلية اللغة العربية لإلقاء محاضرتين في النقد والأدب الإسلامي المعاصرين على طلبة قسم الدراسات العليا، والتقيت بالدكتور عبد القدوس أبو صالح رئيس القسم، حيث قدمني للطلبة مشيراً إلى دوري في ميدان النقد والأدب الإسلامي المعاصر، وإلى كتابي (في النقد الإسلامي المعاصر)، الذي يعد النموذج التطبيقي الأول في ميدان النقد، وإلى أنني أقف في خط النقد مع (محمد قطب) مباشرة، كما أشار إلى معطياتي الشعرية، فشكرته وبدأت محاضرة هادئة متدفقة منسابة امتلكت فيها تماماً زمام الموضوع، وتمكنت من شد اهتمام الطلبة وإشراكهم فيه، حيث اخترت مسألة ضرورة أن يكون هناك أدب إسلامي، والأهداف التي يتوخى تحقيقها، والمصاعب التي تقف في طريقه...

الأربعاء: ليلة مع الأرق والتشنج وضيق النفس واستيقاظ على الاكتئاب الصباحي المعهود... زيارة لندوة الشباب واستلام قائمة بالكتب المعرّفة... الذهاب إلى الكونتننتال لسماع المقررات الختامية لأسبوع الشيخ، وتبادل الضحك والنكات داخل القاعة مع عدد من الأصدقاء... الذهاب لتناول الغداء في نادي الفروسية وإحساس مبهج بالانطلاق النفسي، وحوار مع عدد من الأساتذة كان من بينهم الدكتور فؤاد سزكين والشيخ بهجت الأثري...

الذهاب عصراً إلى المخيم الطلابي في ضواحي الرياض، والإحساس بالإرهاق وضيق الوقت، ثم طرح المحاضرة بصيغة حوار مباشر مفتوح مع الطلبة، حيث رحت أتدفق ببداهة حاضرة ومعطيات غزيرة منحتاني الثقة والامتلاء... التوجه إلى المعهد العالي لإلقاء محاضرتين على قسم الإعلام...

التوجه إلى مدارس الايمان حيث اللقاء بعدد من الأفارقة وتناول الكعك والشاي...

الخميس: لقاء صباحي في فندق اليمامة مع الشاويش لاستكمال الحديث في موضوع الكتاب الذي سيتولى نشره... حضور الجلسة الختامية لأسبوع الشيخ... حوار ومجاملات مع عدد من الأساتذة والمؤتمرين... جلسة مع الدكتور العجلان نائب مدير الجامعة، يدور فيها الحديث عن مؤلفاتي حيث يبدي الرجل إعجابه وتقييمه... زيارة يقوم بها عدد من الأساتذة الأصدقاء لغرفتي في الفندق... أمسية ممتعة في ندوة الرفاعي الأسبوعية...

الجمعة: يوم العمرة الحلم... والرحلة المكثفة بين الرياض وجدة ومكة المكرمة والمدينة المنورة... حيث يعجز التعبير...

السبت: شيء من الهم بسبب كثرة المطالب، وكثافة المحاضرات الخاصة والعامة... وضرورات التحضير... جلسة طويلة في قسم الثقافة الإسلامية لترتيب جدول الأسبوع وسماع أحاديث البطولات السورية الرائعة... أحد المعيدين يعرض فكرة إجراء حوار معي لغرض نشره في إحدى المجلات... والاعتذار عنه... زيارة لندوة الشباب وحوار مع عدد من الإسلاميين، وإعلامي من قبل أحد المحررين بأنه سينشر قريباً نقداً لكتابي (دراسة في السيرة) في إحدى الصحف العربية اليومية في لندن... زيارة للشيخ الندوي في فندق الخزامى... أمسية طيبة وعشاء لذيذ وحوار وذكريات في بيت ابن العم هشام الطالب بعد عودته من الخارج...

الأحد: تسليم مسودات كتابي (في التاريخ الإسلامي) لشاويش في جلسة ودية التقطت فيها بعض الصور التذكارية، وجرى الحديث عن احتمال جعل الكتاب المذكور بداية لسلسلة تتضمن دراسات تاريخية عديدة ضمن التصور الإسلامي... التوجه إلى كلية اللغة العربية لإلقاء محاضرتين في الأدب الإسلامي على طلبة الصف الرابع... وعندما غادرت القاعة نازلاً الدرج أحسست بأني أترنّح، ودارت الدنيا أمامي، وكدت أسقط أرضاً لولا أنني أسرعت

بالاتكاء على الجدار ريثما استعدت توازني... أما تقديم رئيس القسم إياي أمام طلبته بأنني مؤرخ وناقد وشاعر، وبأن كتابي (النقد الإسلامي المعاصر) هو أحد كتبهم المنهجية المقررة، فقد جاوزت كل حدّ، وما ذلك إلا بفضل الله وحده...

توجهت مساء إلى كلية الشريعة لإلقاء محاضرتين على طلبة الثقافة الإسلامية (الدراسات العليا)، وعدت إلى الفندق وأنا أحسّ بغثيان شديد وألم في رأسي... وجلست بعد العشاء أعاني من بقايا الغثيان والصداع، وأقضي ساعة من الوقت مع الناشر التونسي الحبيب اللمسي، ثم انصرفت لإعداد محاضرة ليوم غد عن (القرآن والمسألة العلمية)...

الاثنين: جلوس في صالة الفندق للإعداد لمحاضرة اليوم... زيارة مع عويس لعمادة المكتبات... الاستيقاظ عصراً مع استمرار حالة الغثيان وضيق النفس... محاضرة قاسية في المعهد العالي بسبب ضيق النفس... إلقاء محاضرتي العامة عن (القرآن والمسألة العلمية) بتمكن ممتع، وسيطرة تامة، وتدفق حيوي شد اهتمام الحاضرين... الإجابة على عدد من الأسئلة ثم اختتام المحاضرة بكلمة من رئيس القسم الأستاذ عمر عودة الخطيب، تضمنت تقييماً لي استمر أكثر من ربع الساعة، تناول فيه عمق المحاضرة، وحيوية الطرح، وأصالة الفكر وإخلاصه، وتنوع ثقافتي مع التمكن في كافة قطاعاتها... وشبهني بأجدادنا الروّاد من كبار المؤلفين، الذين كانوا يكتبون في أكثر من حقل، ورجى الطلبة أن يسيروا على المنوال نفسه، وأن يكون كلٌّ واحد منهم (عماداً) آخر... وقال بأن محاضرتي جاءت لكي تكمل الصورة التي عرفوها عني من خلال كتاباتي... وأعرب عن محبته واعتزازه.

كنت أحسّ بفرح عميق وثقة غامرة بالنفس غطت على جميع متاعبي الصحية مع الغثيان وضيق النفس... فحمداً لله وحده...

الثلاثاء: أتوجه إلى الكلية، ومنها إلى كلية اللغة العربية لأسلم لرئيس القسم اقتراحاتي بصدد الندوة الأدبية، وأقفل عائداً إلى مكتبة الكلية لإعداد

محاضرة المساء... في العودة للفندق قمت بجولة في سوبر ماركت مجاور.. ثم تناولت غدائي على طريقة الاختيار الحرّ، حيث التهمت وجبة شهية من السمك في أحد المطاعم القريبة، وندمت على تفويت الفرصة على نفسي طيلة الأسابيع الماضية، حيث وجبات بوفيه الفندق التي تثير القرف والغثيان... اتجهت مساءً إلى الكلية لإلقاء محاضرة في مناهج البحث على طلبة الثقافة... وبعد الثامنة والنصف كنت على موعد آخر لإلقاء محاضرتي العامة عن (قضايا من التاريخ الإسلامي)...

ولقد دفعني تواجد عدد كبير من الأساتذة والأصدقاء إلى إبداع في العرض والتحليل ما كنت أحلم به... وكنت وأنا أتوغل في المحاضرة أشعر أنني لست ممتلكاً لزمامها بتمكن كامل فحسب، ولكن ـ أيضاً ـ ممتلكاً لاهتمام الحاضرين وانتباههم، لِما كان عرضي يتميز به من حيوية وتدفق ولمس للقضايا الهامة ومقارنات شاملة وربط بالواقع... ثم بدأت مناقشات عدد من الأساتذة كفتحي عثمان وعويس، والإجابة على مجموعة كبيرة من الأسئلة التحريرية التي رحت أتلاعب بطريقة الإجابة عليها، وأنتقل بالحاضرين ـ بحيوية وخفة ـ في ميادين الفكر والتاريخ والسياسة وببداهة حاضرة كالشهاب.

انتهت المحاضرة، وتلقيت التهاني من الأساتذة والطلبة... كنت أشعر بفرح غامر، وثقة لا حد لها، وبأني قد أنجزت ما كنت أريده... لكنني ـ من الداخل ـ في نقطة ما من أغوار نفسي، وكعادتي دائماً... كنت أعاني من إحساس مرير بالحزن والتشتت... ومن أحقاد مبعثرة تجاه هذا الشخص أو ذاك في مدينتي، ممن يتعمدون أن يتجاهلوا معطياتي ولا يعرفون عني شيئاً... وكنت أستشعر أيضاً معاناة وهموم العودة إلى العراق، وافتقاد هذه الأجواء الحيوية المعطاءة، واحتمال عدم السماح لي بتكرار التجربة...

وتذكرت البرقية التي بعث بها الدكتور عبد الرحمن الحجي رئيس قسم التاريخ في جامعة أبو ظبي واستلمتها مساء اليوم، يطلب فيها مني الحضور السريع لأبو ظبي خلال عودتي لضرورة ما، فانكمشت قليلاً، وقلت ها هو ذا

يُفتح عليَّ باب جديد للقلق، هذا إلى أن برقيته قد تعني شيئاً، فلربما سمع بأن عودتي للعراق قد تسبب لي بعض المتاعب وأنه يريد أن يجنبني إياها في الوقت المناسب، لكنني خبأت هذا كله في داخلي، ومن عجب أنه لم يؤثر على سير محاضرتي بشيء... وقررت أن أبعث برقية جوابية أعتذر فيها... واتجهت مع عويس إلى داره لتناول العشاء معاً وقضاء الأمسية... وهناك فوجئت بعودة الحاج حسن عاشور، وكان لقاء حاراً وعشاءً طيباً وحواراً ممتعاً تخللته كالعادة النكات الحلوة... وعدت إلى الفندق بصحبة صديق جديد من آل شويعر.

الأربعاء: أيقظني جرس الهاتف، فرفعت السماعة وإذا بسكرتير مكتب رئيس الجامعة يتحدث إلي ويخبرني بأن المذيع المعروف أحمد فراج، الذي يعمل الآن في منظمة الإذاعات الإسلامية يحب أن يتصل بي ويتعرف عليَّ... وبعد دقائق اتصل فراج بنفسه، فرحب بي وأعلمني أنه يتابع أنشطتي الفكرية والفنية، وأنه يودّ لقائي ولربما أتيح له ذلك يوم السبت القادم، وأنه سيسافر من جدة خصيصاً لهذا اللقاء... توقعت أنه يرغب في أن أقدم شيئاً للإذاعة، ولكن الرفض كان معلقاً على لساني طبعاً، والسبب معروف، فأنا لن اتعامل مع أجهزة الإعلام السعودية الرسمية ولن أكون صوتاً في خدمة السلطات أياً كانت.

بعد وقت قصير وصل أحد الأصدقاء الأساتذة في كلية العلوم الاجتماعية وعرض عليَّ أمراً في السياق نفسه؛ أن أكتب للإذاعة السعودية خواطر ومقالات، وقال بأن المقال الواحد الذي لا يستغرق سوى دقائق معدودات، قد يدفع ثمناً له خمسون ديناراً!! فاعتذرت عن قبول العرض، وبينت له بعض الأسباب...

توجهنا إلى كلية آداب جامعة الرياض لزيارة الدكتور يوسف عز الدين... ثم عدت إلى الكلية لمتابعة موضوعات الأجور والتذكرة وتساجيل المحاضرات، وأبعث ببرقية اعتذار للحجي... وأتوجه إلى ندوة الشباب، ومنها إلى بيت الدكتور التوتنجي، حيث تناولنا غداءً شهياً حضره عدد من المعارف والأصدقاء... وعدت إلى الفندق بصحبة أحد المدعوين، وما لبثت أن استقبلت

بعض الطلبة حيث جرى حوار قصير، اتجهنا بعده إلى إحدى المجمعات السكنية، حيث جرى لقاء مع حشد من الطلبة من مختلف الجنسيات الأوربية والآسيوية، فتحت معهم باب الحوار المباشر، وأجبت بتمكن تام وطلاقة باللغة على أسئلتهم كافة... كان انسجامهم واضحاً، ومحبتهم المتبادلة تفصح عنها عيونهم... ودعوني لتناول العشاء، لكنني اعتذرت فودعوني وسط مظاهر المحبة العميقة والتقدير البالغ.

غادرت المكان إلى ندوة الشباب وأنا أحسّ بامتلاء عميق... فرحاً نفسياً وثقة بالذات وشعوراً بأني أمارس دوراً طيباً، وأني أملك قاعدة واسعة من القراء والمتابعين فحمداً لله... وتذكرت كيف حدثني أحد الأقرباء ظهر اليوم عن رغبة جامعة الإمام في التعاقد معها، وعن قول وكيلها أنهم على استعداد لمنحي امتيازات خاصة، ومضاعفة أجوري في حال موافقتي على التعاقد... وتذكرت كيف أن أستاذاً آخر عرض عليَّ الموضوع نفسه، وكيف أنني أعلمتهما باستعدادي للعمل والبدء بمحاولة جديدة، شرط أن تتحرك جامعة الإمام وترمي بثقلها كاملاً لمعاونتي على تخليص الأمر وفك العقدة في بلدي، وقلت في نفسي: إنها لأحداث وتجارب نفسية وخارجية بيد أنها أخذت تتلاحق بأسرع مما أطيق... وإنها ستعيدني ثانية إلى دوامة القلق والإرهاق... ولكني بعد تجربتي المكثفة في الرياض لم أعد أستطيع التراجع... وقلت بأنني لا بدّ أن أقوم بالمحاولة مرةً أخرى علّها تصل بي إلى ما أطمح إليه.

في الندوة جرى أكثر من حوار مع الرائحين والغادين، وقضيت أكثر من ساعة ممتعة مع حشد من الأدباء في إحدى الغرف، نتناول الأحاديث والنقدات والنكات، ونثير عدداً من المسائل الأدبية... وتم الاتفاق على عقد أمسية أدبية بعد يومين... توجهت إلى بيت أحد الأقرباء حيث تناولنا عشاءً طيباً وتبادلنا الأحاديث... ثم ما لبثت أن قفلت عائداً إلى الفندق مع أحد الأصدقاء... كنت متعباً مرهقاً، وما أن وضعت رأسي على الوسادة حتى وجدتني استسلم لنوم عميق...

الخميس: توجهت صباحاً إلى السوق في جولة مشتريات خامسة استغرقت مني الساعات الطوال... وفي المساء نزلت إلى صالة الفندق بانتظار عويس... وفي الممر التقيت بصديقين جاءا لزيارتي، وكان أحدهما يتكلم عن إعجابه بمسرحيتي (القطيع)... جلسنا في الصالة نتناول العصير ونتحدث عن بعض القضايا، وما أن قدم عويس حتى انطلقنا بسيارته إلى دار الدكتور فتحي عثمان، حيث دارت أحاديث شتى وجرى حوار مكثف عن الإسلام وبعض المسائل التاريخية، وبخاصة الموقف من العصبية القبلية والقدرة على التغيير... اتجهنا بعدها لاستكمال أمسيتنا في دار الشيخ الرفاعي، حيث ألقيت القصائد ودارت الأحاديث، وحيث طلب مني أن ألقي بعض قصائدي ولكنني اعتذرت بسبب عدم تذكري ما يعينني على الإلقاء...

عدت إلى الفندق، وكان عليَّ أن أتابع بعض المسائل، وأعاني القلق إزاء العمل الذي لا ينتهي، أقول في نفسي، ترى أيمكن لي ومستقبلاً أن أنظم أموري بحيث لا يتبقى أمامي، وبشكل مستمر، أي عمل معلّق؟ وأجد الجواب واضحاً: فما دمت قد اخترت طريق الكتابة والإنجاز؛ فإنني سأظل وسط دوامة المتابعات، غارق في بحر قلقها الذي ليس له قرار...

الجمعة: جلسة مع عدد من الأساتذة والأصدقاء في صالة الفندق... أداء صلاة الجمعة وغداء بمعية الدكتور يوسف عز الدين في بيت الدكتور إبراهيم المدرّس... حوار في الفندق مع صديق آخر لدى الرجوع عصراً... أمسية في بيت ابن العم... وحوار... ولعب لكرة المنضدة، وعشاء لذيذ... وعودة مرهقة إلى الفندق.

السبت: استيقاظ قلق بسبب كثرة الأعمال التي يتوجب إنجازها... فغداً هو يوم السفر... الذهاب إلى الكلية ومنها إلى كلية اللغة العربية لتوديع بعض الأساتذة... حوار ووداع مؤثر في قسم الثقافة الإسلامية... تسلم تذكرة العودة وأجور المحاضرات... الذهاب إلى المطار لتثبيت الحجز... التوجه إلى رئاسة الجامعة وإلى كلية العلوم الاجتماعية، حيث جرى توديع عدد من الأساتذة وكبار الإداريين.. إحساس بالندم على غلطتي المالية التي ذكّرني بها عويس حول

عدم المطالبة باعتباري ـ عملياً ـ أستاذاً لا أستاذاً مساعداً... حيث كنت سأستلم مبلغاً أكبر بكثير... زيارة لرئاسة كليات البنات... جولة مشتريات سادسة وأخيرة عصراً...

التوجه مساء إلى الندوة لحضور الأمسية الأدبية وحفل العشاء الذي أقيم على شرفي، حيث جرى حوار مجد حول العديد من القضايا الأدبية... وحيث لقيت من الحفاوة والتكريم والإشادة فوق ما كنت أتخيّل، وحيث أشير إلى دوري كأديب وناقد، وإلى معطياتي الأدبية كأعمال رائدة، أكثر من مرة... وحيث قُيِّمت بعض دعوات كنت قد طرحتها في عدد من الكتب بصدد ضرورة أن يشمر الإسلاميون عن ساعد الجد لإغناء تيار الأدب الإسلامي... وحيث أتيح لي لأول مرة في حياتي أن أقرأ شيئاً من شعري، ولحسن الحظ كانت نسخة من ديواني حاضرة لدى أحد الأصدقاء...

لقد كانت أمسية مترعة حقاً تمكنا خلالها من تحقيق إنجاز طيب كان بمثابة الحلم عبر أكثر من عقد... وهو وضع التأسيسات الأولى لإنشاء رابطة الأدب الإسلامي العالمية، التي سيقدر لها أن تعلن في الهند بعد سنوات قليلة من ذلك التاريخ... وغادرت المكان لكي أودع وداعاً حاراً... وأرجع إلى الفندق لأجد عويس بانتظاري لكي يودعني... وكان وداعاً مؤثراً لست أدري لماذا اجتاحتني عبره عاصفة من الحزن والتشتت والإعياء... ثم صعدت إلى الغرفة حيث كان أمامي عمل مرهق استغرق الساعات الطوال بين استكمال تنقيح إحدى المحاضرات العامة، وتنظيم لسيل من المشتريات في حقائب لم تكد تتسع لها إلا بصعوبة بالغة، وحينذاك أحسست بأني قد تخففت من عبء كبير، وأسلمت نفس للنوم في ساعة جداً متأخرة من الليل...

الأحد ٣/٢٣: الانطلاق إلى المطار صباحاً في حالة من الارتياح والانشراح... توديع الأصدقاء والأقرباء... والتوجه إلى الطائرة التي ما لبثت أن حطت بنا عصراً في مطار بغداد... والحمد لله...

[١١]

رحلة عام ١٩٨٠ م إلى الأردن

مغادرة الموصل وسط إحساس عميق بالسعادة والانسجام، ربما بسبب قصر مدة السفر... ساعات طويلة من الانتظار الممل في المطار، وأخرى طيبة في صالة المغادرين وفرح عميق لدى التأكد من عدم اشتراك أحد من أساتذة كلية الآداب في المؤتمر... إقلاع الطائرة بعد تأخر أكثر من ساعة... الوصول بعد منتصف الليل والتوجه بصحبة المستقبلين إلى فندق تايكي... نوم متقطع...

الجمعة ٤/١٨: جلسة قصيرة في الصالة مع عدد من الأساتذة... أداء صلاة الجمعة والعودة لتناول الغداء في الفندق مع حشد من الأساتذة والباحثين... نومة طويلة ومتقطعة عصراً... النزول إلى الصالة وإحساس بالغربة وسط نماذج الأكاديميين التقليديين والمحققين... شعور حاد بالفارق بين رحلاتي السابقة، حيث النماذج الفكرية التي يمكن التجاوب معها وبين هذه الرحلة.

فرح بطرح بحثي للمناقشة في أول جلسة للجان المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام وفلسطين، مساء السبت، ومعنى ذلك أنني سأتحرر بعدها من أية مسؤولية.

السبت: يوم افتتاح المؤتمر... أستيقظ مبكراً وأكمل سائر أعمالي ثم أنزل مرتاحاً لتناول الفطور... جلسة في صالة الفندق ثم التوجه في الباص إلى نادي الجامعة... كنت سعيداً جداً أتحدث مع عدد من الأساتذة والباحثين... توجهنا إلى قاعة الافتتاح بانتظار حضور الملك لإلقاء خطابه... بعدها غادرنا القاعة لنتناول الشاي والقهوة والعصير... ثم ما لبثنا أن تناولنا غداء طيباً في مطعم الجامعة مع حشد من الأساتذة... وخرجت لكي أتجول في الممرات الحالمة الخضراء... وزرنا معرض الكتاب ووجدت كتابين لي هناك (التفسير الإسلامي للتاريخ) والطبعة الخامسة من (ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز)... وعدنا إلى الفندق...

وفي الرابعة والنصف عصراً عادت بنا الباصات إلى الجامعة... وهناك تعرفت على اثنين من المؤتمرين تقدما إليّ وأشادا بكتاباتي... وكان ثمة شخص ثالث يعمل في الإذاعة الأردنية قد تقدم إلي صباحاً وأشاد بكتاباتي، وطلب مني أن أسجل حديثاً إذاعياً، فاعتذرت عنه...

ألقى ولي العهد كلمته... ثم انقسمنا إلى لجان أربع، وذهبت أنا إلى اللجنة الثالثة... بدأ مستشرق أوربي بإلقاء بحثه معززاً بسلايدات ملونة... ولما جاء دوري كنت متردداً بين أن ألقي موجزاً ببحثي ارتجالاً وبين أن أقرأه، ولما وقفت وراء المنصة وجدتني متمكناً تماماً من الارتجال... وطرحت الخطوط العريضة للبحث، ثم تحولت لقراءة بعض الصفحات... وبعد تناول الشاي عدنا ثانية للاجتماع وألقى أستاذ آخر بحثاً مشابهاً... ثم بدأت المناقشة... وأشاد رئيس الجلسة الأستاذ الدكتور ناصر الدين الأسد بالبحثين، فمنحني هذا معنوية بالغة... وعندما توجهت إلى المنصة للرد على الأسئلة كنت متمكناً تماماً... وغادرنا القاعة وأنا أحسّ بسعادة غامرة، فها أنا ذا قد ألقيت عن كاهلي عبئاً ثقيلاً وخرجت من المعركة منتصراً... وما تبقى من أيام فسأحضر الجلسات مستمعاً ومناقشاً... ويمكنني كذلك أن أتسلل لقضاء بعض الأعمال...

تناولنا عشاء لذيذاً في بناية ارتباط جامعة اليرموك، وتوجهنا إلى صالة السينما لمشاهدة فيلم عن جامعة اليرموك... عدنا بعدها إلى الفندق لكي أقرأ قليلاً... وأنام...

الأحد: توجهنا صباحاً إلى أعمال اللجان في الجامعة... وشاركت في جلسات لجنتين... اعتذرت عن إجراء حوار تلفزيوني قصير... توجهنا إلى فندق الأردن لتناول غدائنا بدعوة من وزارة الإعلام... ثم خرجنا إلى نصب الشهيد، حيث شاهدنا عدداً من الأفلام التسجيلية وتجولنا في المتحف الحربي... ومنه إلى إحدى الثكنات العسكرية، حيث شهدنا عرضاً موسيقياً عسكرياً رائعاً... وعدنا إلى الفندق... كنت أحسّ بإعياء شديد، وندم على فوات وقت صلاتي الظهر والعصر، فيما لم أفعله من قبل إلا نادراً... وما أن صعدت

إلى الغرفة حتى دق جرس التلفون... أحد طلبتي من خريجي كلية الآداب جاء يزورني ويقدم لي هدية تذكارية... بعد مغادرته نزلت إلى صالة الفندق لأستمع إلى نشرة الأخبار... ثم لنتجه إلى نادي البساط الطائر لتناول العشاء بدعوة من شركة عالية... كانت جلسة سعيدة مع عدد من الأساتذة... عدنا بعدها إلى الفندق.

الاثنين: حضور جلسات اللجان صباحاً... الغداء في متحف عمان... وجولة في القلعة... وبعد راحة قصيرة في الفندق، عدنا ثانيةً إلى اجتماعات اللجان... بعد الخروج اتجهت وجماعة من الأصدقاء التونسيين إلى مطعم الجامعة لحضور حفل عشاء ولي العهد... وقفة مع هذا الأستاذ أو ذاك، ثم مصافحة لولي العهد الذي يقول لي بأنه لم يسبق وأن تعرف عليَّ من قبل!! تناول العشاء مع أستاذ للأدب الحديث جرى بيني وبينه حوار طويل حول الأدب الإسلامي، وتبادل للعناوين... حوار مع شيخ سوداني، وتوديع للأصدقاء التونسيين، وجلسة طويلة في صالة الفندق مع حشد من الأساتذة المصريين والتونسيين والفلسطينيين... وجرى حوار شيق حول العديد من القضايا المتعلقة بالإعارة والتاريخ والنشر والمجلات العلمية... وسألتُ عن إمكانية النشر في مجلة (عالم الفكر) الكويتية فأُجبت بالإيجاب ووعدت بتهيئة بحث للمجلة علّي أحظى بعطائها السخي الذي قد يبلغ مائتي دينار!!

الثلاثاء: كان عليَّ أن أنزل إلى السوق صباحاً لشراء بعض الحاجيات... تناولت فطوري مع الدكتور محمود زايد والدكتور عليّ عطية (رحمه الله) الذي أشاد بكتاباتي... ذهبت أولاً إلى الجامعة، وعدت من هناك إلى وسط عمان حيث قمت بجولة مشتريات موفقة، وعدت إلى الجامعة فرحاً سعيداً لكي ألتحق بالوفود قبل الغداء... تلقيت عدداً من الكتب هدية من صديقين أحدهما أديب مذيع والآخر طالب ماجستير.

في الرابعة والنصف عصراً عدنا إلى أعمال اللجان... التقيت بالدوري وتحدثنا قليلاً ثم أهديته أحد كتبي... التحقت بإحدى اللجان لمتابعة بحث عن

العراق والقضية الفلسطينية... ثم خرجنا لتناول الشاي... وأنا أقف إلى جوار الباب تقدم مني أحد الحاضرين تصحبه امرأة ذات ملامح فرنسية رقيقة ظننتها امرأته... وناداني باسمي وأعلن عن رغبته في التعرف عليَّ بعد أن قرأ كتابي (تهافت العلمانية) وأعجب به... دخلنا في حوار حول الموضوع وتقدمت المرأة لكي تناولني قدحاً من الشاي... بينما جاءني طالب جامعي يعرب عن رغبته في التعرف عليَّ بعد أن قرأ عدداً من كتبي... وسألتها عما إذا كانت زوجة الشاب فقالت أنها أخته وأنها تكمل دراستها للماجستير في اللغة الفرنسية...

دخلنا القاعة ثانيةً واستمعنا لموضوع آخر عن العراق والقضية الفلسطينية... ثم ما لبثت أن انتقلت وصديق آخر إلى قاعة ثالثة لمشاهدة عرض بالسلايدات حول القدس... بعد انتهاء المناقشات التقى بي أحد الأساتذة الأدباء وضرب معي وصديق آخر موعداً غداً مساء لجلسة أدبية... وتقدمت من الدكتور شاكر مصطفى، رئيس قسم التاريخ في جامعة الكويت وسلمت عليه وعرفته بنفسي، وجرى حوار قصير حول آخر مؤلفاتنا وحول محاولتي الأخيرة الفاشلة لإعارة خدماتي.

اتجهنا إلى صالة مدينة الشباب لتناول العشاء بدعوة من وزير الشباب... ومرّ الوقت وأنا أجلس مع هذا وذاك... وأتحدث إلى هذه المجموعة أو تلك، وأزدرد الطعام والأصناف التي يعجز الوصف عنها، دون أي قدر من التلذّذ...

الأربعاء: توجهنا إلى اللجان... استمعت لمناقشة عن الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وخرجنا لشرب الشاي، ثم استأنفنا السماع في قاعة أخرى... تناولنا غداءنا وعدنا إلى الفندق... وبعد نومة العصر نزلت إلى الصالة لكي ألتقي بعدد من الأساتذة، ونذهب سويةً لزيارة المستشفى الإسلامي... جلسنا قليلاً في صالة المستشفى حيث ألقيت بعض الكلمات وجرى التعارف وقمنا بعدها لتناول الفاكهة والشاي... وعلى المائدة تقدم مني الدكتور مصطفى الزرقا والأستاذ محمد المبارك (رحمهما الله) وأثنيا على كتاباتي بصيغة يعجز عنها

الوصف... وشعرت بثقة متزايدة وأنا أستمع لتقييم اثنين من شيوخ العلماء... وقال أحد الحاضرين، وهو أستاذ في الجامعة الأردنية بأنه قرر كتابي (تهافت العلمانية) على الطلبة، وقال آخر بأنه كان يدرّس التاريخ صباحاً، وأشار على الطلاب بقراءة كتابي (التفسير الإسلامي للتاريخ)، وعلق ثالث بأنني المؤرخ الإسلامي المعروف (كذا...)... وقلت في نفسي ها أن الله ﷻ قد وفقني كل هذا التوفيق، وها هي كتبي تؤدي دورها في الصراع ضد الباطل.

اتجهنا إلى الفندق، حيث جرى حوار شيق مع عدد من الأساتذة، ثم غادرناه إلى مطعم الجامعة لتناول العشاء بدعوة من رئيس الجامعة... وعدنا إلى الفندق... كان عليَّ أن أعمل كثيراً... وكان النوم يغريني بترك كل شيء... ولكني قررت أن أواصل العمل.

الخميس ٤/٢٤: اتصل بي هاتفياً الأستاذ المبارك (رحمه الله)، وقال أنه والدكتور الزرقا (رحمه الله) في صالة الفندق بانتظاري لكي (يشبعا) مني، شكرته ونزلت إلى الصالة... سألا عن الدكتور شاكر مصطفى فبحثت عنه واصطحبته إلى حيث جلسنا دقائق معدودات نتبادل الأحاديث... توجهنا إلى الجامعة وحضرنا جلسة الختام وقراءة التوصيات... وانطلقنا بعد توديع عدد من الأساتذة الأصدقاء إلى الغور في رحلة بالباص إلى دير علا... حيث انطلق الباص في طريق ربيعي جميل... وتبادلت مع أحد الأساتذة أحاديث ونكات شتى، حتى إذا ما وصلنا المكان المرتفع المشرف على وادي الغور، والذي يفيض روعةً وجمالاً... جلسنا هناك بعض الوقت نتأمل الطبيعة المعجزة ونتبادل الأحاديث...

وبعد تناول الغداء اللذيذ، حيث دارت أحاديث شتى مع عدد من الأساتذة من هذا البلد أو ذاك... قفلنا عائدين لكي نلقي نظرة على البحر الميت... وعدنا إلى الفندق. وكان عليَّ واثنين من الأساتذة العراقيين، بما فيهم الأستاذ الدكتور صالح أحمد العلي (رحمه الله) أن ننتظر الساعات الطوال، دون نوم حتى يحين موعد ذهابنا إلى المطار، إذ تغير موعد الإقلاع إلى الثانية بعد منتصف

الليل بدلاً من الثامنة... فلما ذهبنا إلى هناك قالوا بأن تأخيراً قد حدث، وأن الإقلاع سيكون في السادسة صباحاً.

عدنا إلى الفندق لكي ننام ساعتين أو ثلاثاً... ثم نقفل عائدين إلى المطار، لكي ما تلبث الطائرة أن تنطلق بنا في رحلة خفيفة ممتعة إلى بغداد.

[١٢]

رحلة عام ١٩٨٠ م الثانية إلى السعودية

الجمعة ١٢/١٩: الوصول إلى عمان... تثبيت الحجز صباحاً وإرسال برقية للجامعة بموعد الوصول... الانطلاق بالطائرة صبيحة اليوم التالي حيث الإحساس الغامر بالارتياح والانسجام... الوصول والاستقرار في فندق زهرة الشرق... والاتصال بالدكتور عبد الحليم عويس وأخذ موعد منه... ثم ما يلبث أن يجيئني حيث تدور أحاديث شتى، ويخبرني عن تسليم بحثنا المشترك لأحد الناشرين الطيبين، وعن قرب ظهور دراسة نقدية حول كتابي (تهافت العلمانية) في مجلة كلية العلوم الاجتماعية.

في صباح اليوم التالي أتجه إلى الكلية لتنظيم جدول المحاضرات، ومنها إلى كلية العلوم الاجتماعية فرئاسة الجامعة في محاولة لترتيب محاضرات إضافية بأجور مستقلة، ولكن دون جدوى... موجة من القلق والاكتئاب والهواجس حول الأهل بسبب عدم التمكن مخابرة العراق... إلقاء أولى المحاضرات في قسم الدراسات العليا وإحساس عميق بالارتياح لإنجازها بشكلٍ مرضٍ، وشيء من القلق بصدد طريقة تثبيت المحاضرات للطلبة لأغراض الامتحان... أمسية طيبة في الفندق مع تصفح المجلات.

الاثنين: لقاء مع صديق من حلب في غرفة الفندق... حضور ندوة عن تاريخ البحر الأحمر في كلية العلوم الاجتماعية، حيث يشيد مديرها بي ويرحب بوجودي، ويقيم كتابي (التفسير الإسلامي للتاريخ)، ويدعوني لإلقاء محاضرة عن الموضوع.

الثلاثاء: ارتياح في الصباح لحسم موضوع محاضراتي المزدوجة بالرفض... زيارة لكلية اللغة العربية... وأخرى للندوة العالمية للشباب... عروض مغرية لتقديم حلقات إذاعية بأسعار خيالية تنتهي بالرفض الصعب... في المساء ألقي محاضرتين تسجلان بجهاز الكاسيت فيؤثر ذلك على بلاعيمي بعض الشيء... أمسية شاي في بيت صديق... محاورات في الفندق مع عويس حول إخراج العمل المشترك...

الأربعاء: البقاء في الفندق صباحاً، وإحساس عميق بالارتياح لإنجاز الكثير من المتعلقات... دعوة عشاء دسمة في بيت صديق وأخرى في بيت أحد الأقرباء... قلق ليلي بصدد الأهل ووضع علاء خال الأولاد في الجبهة...

الخميس: لقاء مع عويس في الغرفة وحديث عن مشروع مشترك آخر... اتصال من رئيس قسم الثقافة الإسلامية حول كتابة كلمة عن التضامن لمؤتمر القمة الإسلامي، وانفتاح جبهة صراع نفسي جديدة بين الاستجابة للإغراء وبين الرفض... تهيئة الخطوط العريضة للمحاضرات في صالة الفندق... زيارة مسائية من قبل عويس والناشر العشماوي والاتفاق على طبع العمل المشترك ومؤلفات أخرى... أمسية طيبة في ندوة الرفاعي الأسبوعية... أحد الناشرين يعرب عن إعجابه بكتابي (دراسة في السيرة)... عشاء في بيت صديق من اللاذقية وارتياح عميق لحديثه عن محبتهم هناك لي... تزايد القلق والاكتئاب بصدد الأهل والأطفال بسبب إخفاق الاتصال الهاتفي...

الجمعة: ارتياح لإنجاز المتعلقات... أداء الصلاة مع عدد من الأقرباء... وجبة مشويات في بيت ابن العم هشام الطالب... وعدة أشواط ممتعة من لعب كرة الطاولة... فرح وأطمئنان لنجاح محاولة هاتفية للاطمئنان على الأهل... وشيء من القلق على الصغيرة (مها) بسبب فطامها الصعب... أمسية في بيت صديق آخر ومبادرة في الحوار كالعادة حيث التدفق والانسياب.

السبت: إقناع رئيس القسم بعدم الكتابة عن موضوع التضامن، وشيء من التأثر وعدم الارتياح يبدو في وجهه... دقائق مع الدكتور عبد القدوس أبو

صالح وحديث سريع عن الندوة الأدبية... محاضرتان ناجحتان في أصول البحث... ارتياح لقلة محاضراتي عما كانت عليه في الرحلة السابقة... أمسية مع عويس في الفندق... وبرقية من عاشور بوصوله قريباً... وحضور رضوان دعبول يحمل كتابي الجديد: (الإمارات الأرتقية...).

الأحد: صباحاً في الكلية... مساءً: محاضرتان في الكلية، وجلسة طيبة مع رضوان في الفندق... تصفح ممتع لكتابي الجديد عن الأراتقة.

الاثنين: زيارة لوكيل الجامعة، ودعوة منه لتمديد البقاء... إحساس بالسعادة والانسجام عبر النهار... زيارة مسائية في الفندق من قبل محمد حسن بريغش... حضور محاضرة عامة للقطان... زيارة للدكتور محب أبو صالح... أمسية ممتعة مع رضوان دعبول... وحديث عن صعوبة كتابي (دراسة في السيرة) وأكاديميته...

الثلاثاء: شيء من القلق والاكتئاب لدى الاستيقاظ... ارتياح لتثبيت الحجز على عمان... وجدّة لأغراض العمرة... زيارة لكلية أصول الدين... إعلانات لمجلة الأمة القطرية وتقييم مشجع لمقالي فيها... اعتذار عن الاشتراك في مناقشة رسالة للماجستير... انسجام ممتع بسبب إنجاز عدد من الأعمال في الفندق... نصف ساعة مع دعبول وحديث عن بيع حقوق مؤلفين له... استقبال عاشور... ولقاء مع الدكتور صابر طعيمة ومدير مكتبة المعارف للنشر في الرياض وتقييمهما لكتبي ومكانتي، وعرض بالنشر لدى مكتبة المعارف... وفرح بالفرصة الجديدة.

الأربعاء: استلام كتابي الجديد عن (نور الدين محمود: الرجل والتجربة)... جولة مسواق صباحية... غداء في بيت عويس... زيارة لطعيمة والمزيد من التقييم... أمسية طيبة في بيت أديب الصالح.

الخميس: افتتاح العام بعمرة موفقة مع محمد حسن بريغش إلى بيت الله الحرام... أمسية منفردة في صالة الفندق.

الجمعة: انزعاج بسبب الحضور المبكر لسائق السيارة... دعوة غداء لدى

صديق وحديث حول اعتماد كتابي (دراسة في السيرة) في عدد من الكليات... حوار مع دعبول وحيرة بصدد عروضه المالية لنشر بعض كتبي أو إعادة طبعها... أمسية طيبة في بيت ابن العم وشيء من القلق بسبب إخلاف موعدي مع عاشور.

السبت: صفقة نشر مريحة مع مكتبة المعارف بصدد بحثين أحدهما عن ابن خلدون والآخر عن المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي... محاضرتان في الكلية... حضور مناقشة رسالة في الماجستير في الصحافة الإسلامية... إطراء وتقييم من الدكتور أحمد الطيب... جلسة طويلة مع عاشور وتصفية المشاكل المعلقة.

الأحد: استعداد للمحاضرتين في صالة الفندق... محاضرتان في الكلية عن المسألة الحضارية... زيارة في الفندق من قبل الدكتور العتر وتقييم لبعض أعمالي... عشاء شعبي لذيذ لدى صديق من اللاذقية وأحاديث ذوات شجون.

الاثنين: جلسة في الفندق مع عدد من الناشرين... دعوة غداء في فندق قصر الرياض... زيارات في الفندق لعدد من الأصدقاء... اختزال محاضرتي العامة بسبب التباس في الموعد ودعوة عشاء في دار عميد الكلية... أرق مزعج ربما بسبب القهوة...

الثلاثاء: قلق بصدد متابعة تذكرة العودة والأجور... وجبة سمك لذيذة في بيت دكتور طعيمة وحوار شيق... تسلّم من دعبول عن حقوق التأليف وارتياح لحسم صيغة الاتفاق حول بحثيّ الجديدين... دعوة عشاء لدى فياض... توديع عويس وعاشور في الفندق...

الأربعاء: توديع في الجامعة والاعتذار عن دعوة أخرى من الوكيل للعمل في الجامعة بإعارة خدماتي إليها... استلام أجور المحاضرات وتحويلها... جولة مشتريات مرهقة صباحاً ومساءً... توقيع عقد نشر كتابين مع مكتبة المعارف وجلسة طيبة هناك أتلقى فيها المزيد من التقييم... عشاء ممتع وأمسية طيبة في بيت ابن العم... فرح واعتزاز بنبأ عن منع كتابي (لعبة اليمين واليسار)

في السعودية وجمعه من الأسواق... تنظيم الحقائب بعد لأيٍ استعداداً للسفر صبيحة يوم غد.

الخميس ١/٨: التوجه إلى المطار... الوصول إلى عمان وفرح عميق بالحصول على مقعد في المنشأة... والتوجه إلى بغداد...

[١٣]

رحلة عام ١٩٨١ م إلى الإمارات العربية المتحدة

الخميس ١١/٢٥: الإقلاع إلى أبو ظبي من عمان في رحلة طيبة... وارتياح لوجود المستقبل والسيارة في المطار... التوجه إلى فندق الهلتون، والوصول في ساعة متأخرة من الليل.

الجمعة: جولة في الفندق... جلسة في الصالة مع الدكتور عدنان زرزور رئيس قسم الثقافة الإسلامية في جامعة العين، والمفكر المصري الدكتور محمد البهي... عودة من جديد إلى إغراءات العمل في جامعة الإمارات... صلاة الجمعة والغداء... نومة عصر طويلة وقلقة... أمسية في الفندق مع زرزور والبهي وحديث ذو شجون... عشاء من (الجمبري) اللذيذ ولحظات من الصفاء دون قلق... حفلة عروض فولكلورية في حدائق الهلتون.

السبت: صباحاً: إلى إدارة الجامعة... مقابلات وفرح بالموافقة على تمديد إقامتي وببرنامج المحاضرات في مختلف أنحاء الإمارات... العودة للفندق وارتياح لوضع الخطوط العريضة لمحاضرتي العامة عن التراث والمعاصرة... غداء بوفيه... وقت طيب خلال الاطلاع على مؤلفيَّ الأخيرين (فصول في المنهج والتحليل) و(أضواء جديدة على لعبة اليمين واليسار)... استعصاء النوم عصراً بسبب الصداع المزعج... أمسية في الفندق وسط إحساس بالملل ثم استكمالها في بيت صديق وأحاديث طيبة ذوات شجون... مكالمة من صديق موصلي يدعوني للعشاء مع حشد من الأقرباء، ويذكر سماعه نبأ المحاضرة في أحد المساجد.

الأحد: مكالمة من أحد مسؤولي التربية يلتمس فيها إلقاء عدد من المحاضرات في الثانويات... دعوة على الغداء من مدير الجامعة مع حشد من الأساتذة... وسط تقدير المدير الخاص... زيارة لعدد من الأصدقاء في الغرفة... ارتياح غامر وثقة عميقة عبر المحاضرة بسبب تمكني المعهود منها، وردود الفعل الطيبة التي تمخضت عنها... عشاء وجلسة ممتعة في بيت أحد المعارف.

الاثنين: جلسة صباحية ممتعة مع الدكتور البهي في البوفيه... مكالمة من دكتور عدنان حول تأكيد موعد محاضرة البنات... ويخبرني عن تمديد بقائي وعن تقديم مكافأة في نهاية الأمر... المحاضرة والإحساس بالتمكن والفرح... تقييم من البهي أمام حشد من الضيوف بصدد فكري ومحاضراتي...

الثلاثاء: مكالمة من دكتور مصري عصراً للعب المنضدة، زيارة من قبل الدكتور عدنان وجلسة وجولة ممتعتين ليلاً... وفرح غامر بكشفه عن حجم المكافأة غير المتوقع... وتناول عشاء يقطين لذيذ في بيته يغسل معدتي من زفت البوفيه، ولكن إحساساً بالغثيان بدأ منذ عدة أيام يشتد عليَّ سيَّما في فترات المساء، هذا إلى إزعاجات السعال المتواصل سيما خلال النوم... مطالعة في المجلات حتى ساعة متأخرة من الليل.

الأربعاء: جولة في السيارة مع الدكتور البهي في مدينة العين... شيء من القلق خلال أوقات الفراغ بسبب نداءات العمل المتواصل... مساء في الفندق ووجبة عشاء شهي من الجمبري في الغرفة.

الخميس: جولة في حديقة الحيوانات... وارتياح لتثبيت الحجز على يوم ١٢/٢٢... عصراً مع الأصدقاء في الفندق... مساء دعوة عشاء في دار الدكتور عبد الرحمن الحجي... استكمال الأمسية لدى صديق آخر يعمل لإكمال دراسته في الباكستان هو الشيخ عبد الرحمن السنجري (ﷺ).

الجمعة: جلسة استرخاء مريح في صالة الفندق... صلاة الجمعة... دعوة

غداء في بيت الدكتور حمد الكبيسي (رحمه الله)... مساء: عشاء شهي في الغرفة ثم مطالعة في أطروحة دكتوراه في فرنسا تعتمد في مراجعها أحد كتبي.

السبت: صباحاً: محاضرة موفقة في ثانوية العين، ولقاء بحشد من المدرسين وحوار حول التاريخ الإسلامي... مساء: جلسة نكات وضحك وحوار في الفندق مع الدكتور البهي... قلق عبر الليل لدى تذكر نشر مواعيد محاضراتي في الصحف، وما قد يسببه من متاعب في العراق...

الأحد: محاضرة موفقة أخرى في ثانوية البنات... غداء بوفيه مزعج... وخبر من دكتور راجي حول الإعلان عن محاضراتي في التلفزيون... إحساس بالارتياح بعد تثبيت المواعيد القلقة للمحاضرات والسفرات ووسائط النقل مع دكتور عدنان... جلسة مع حشد من الأساتذة العراقيين في الفندق.

الاثنين: دعوة من الجامعة بمناسبة زيارة ملك إسبانيا... ساعات طيبة في قاعة الاستقبال مترعة بالامتلاء، وتوزيع لصحيفة تتضمن حديث عن محاضرتي عن التراث والمعاصرة... وحوار مع حشد من الأساتذة والأصدقاء، ومزيد ثقة بسماع عبارات التقييم لمحاضراتي من أكثر من أستاذ... مساء: جلسة مع حشد من الأساتذة في صالة الفندق، ونكات طيبة مع الدكتور البهي وتقييم آخر لمحاضراتي عن التراث مع أحد الأساتذة.

الثلاثاء: تناول الفطور اللذيذ مع أحد الأصدقاء، وحديث يملؤني ثقة حول اعتبارهم إياي خليفة لسيد قطب... وأدعو الله ﷻ أن يمنحني القدرة على التوحد المرتجى حتى أكون عند مستوى الظنون... رحلة إلى أبو ظبي... وتجوال في شوارع المدينة، وعثور على نسخ من دواويني في إحدى المكتبات، وغداء لذيذ من السمك بصحبة صديق ثالث وحوار طيب في شارع الكورنيش... ثم استكمال الجلسة في بيت الصديق المذكور وفرح لدى مفاتحته برغبتي في تقديم بعض البرامج لإذاعة القرآن الكريم في أبو ظبي، ووعده إياي بأنه سيفاتحهم في الموضوع... الذهاب بعد المغرب لزيارة عدد من الأصدقاء في شقة أخرى... حوار ممتع وعودة إلى العين في ساعة متأخرة.

الأربعاء: فطور وحوار مع رئيس الجامعة... الانطلاق إلى الإمارات الشمالية في سيارة خاصة أعدت لهذا الغرض... محاضرة في ثانوية عجمان وضجيج من الطلبة يدفعني إلى وقف المحاضرة والمناقشات في الدقائق الأخيرة رغم تأثر المدير... التوجه إلى الفندق في الشارقة... غداء ونوم متقطع واستيقاظ قبيل المغرب... زيارة مدير الثقافة في غرفتي... قدوم مسؤول المركز التعليمي وجولة تخطي باتجاه قاعة إفريقيا... إحساس عميق بالفرح والانشراح والثقة لحضور عدد جم من المستمعين... محاضرة ناجحة... وعشاء طيب من المشويات برفقة عدد من الأصدقاء ورجوع إلى الفندق...

الخميس: زيارة من قبل دكتور عدنان... ومخابرة من أحد المستشارين في تلفزيون أبو ظبي، يطلب إجراء لقاء حول (التفسير الإسلامي للتاريخ)... إحساس بالثقة والانشراح، وجولة في السوق لشراء عدد من الحاجيات... محاضرة ناجحة وانسجام عميق وحوار شامل في ثانوية دبي، وتقييم من أحد المدرسين لكتابي (دراسة في السيرة)...

غداء وقيلولة، ومن ثم التوجه إلى رأس الخيمة وسط إحساس عميق بالارتياح... الوصول ومحاضرة ناجحة عن العلم والقرآن مترعة بالتمكن والثقة وردود الفعل الطيبة من الحاضرين... ثم دعوة من قبل أحد الحضور وعشاء طيب، وحوار مفتوح في كافة المجالات الثقافية وبخاصة الأدب والتاريخ... الرجوع ليلاً إلى الشارقة وشيء من الأرق قبيل النوم.

الجمعة: فطور وحوار مع صديق ثم الانطلاق إلى العين... دعوة عشاء في دار دكتور عامر الكبيسي مع الدكتور أحمد عبد الستار الجواري (رحمه الله) وحشد من الأصدقاء... عشاء وحوار متنوع.

السبت: مكالمة مبكرة من المستشار الثقافي في تلفزيون أبو ظبي، حول تسجيل حلقتين عن (التفسير الإسلامي للتاريخ)، والانطلاق بسيارة أرسلت خصيصاً إلى هناك... بعض الصعوبات الفنية تلجئنا إلى التأخير وإعادة تسجيل الحلقة الأولى... إنجاز العمل بتمكن، وإعلامي بأن هنالك مبلغاً من

المال سيرسل إليَّ بالبريد مكافأة عن البرنامج... أسأل المستشار عن إمكان كتابة حلقات لإذاعة القرآن الكريم فيعطيني عنوان المدير... أرجع إلى العين سعيداً، أتلقى دعوة على العشاء من الدكتور محسن غياض مع حشد من الأساتذة... جلسة ممتعة وعشاء طيب وحوار مفتوح.

الأحد: يأتيني صديق من إدارة الجامعة لكي يقلني إلى هناك لإنجاز بعض الأمور المعلقة... زيارة لمساعد الأمين العام بسبب مرضه... التأكد من إلغاء محاضرتي في الفجيرة!! مساء يبعث إلي الصديق (الغضبان) بسيارته لكي يقلني إلى بيته... نتجه من هناك لحضور محاضرة الكس هيلي مؤلف كتاب (جذور) وسط مشاعر الازدواج وعدم الارتياح التي ذقتها مراراً في الموصل، في بعض المناسبات... خاصة بعد أن أُطلعت على موقف الطلبة الرافض لسماع المحاضرة بسبب زيارة صاحبها لإسرائيل... لكن قيام مدير الجامعة بإنقاذ الموقف من خلال حواره الحار المترع بالإخلاص والذكاء أشعرني وأشعر الجميع بارتياح عميق...

أعود إلى الفندق فيزورني دكتور عدنان ويعرض عليَّ أن نصعد إلى المدير، لكي نعرض عليه بعض المسائل بصدد المحاضرة، بما فيها وجهة نظري حول ضرورة إلغاء محاضرة يوم غد من أجل رتق الشق مع الطلبة، ولكنني أعتذر بسبب تأخر الوقت... ثم ما يلبث الندم القاسي الذي أعرفه جيداً، والذي يتجسد بأكبر من حجمه الحقيقي مئات المرات؛ أن ينفجر ويحول أمسيتي في الغرفة إلى جحيم مشبوب... لماذا لم تصعد فتساهم في حل مشكلة من أجل ما تؤمن به، ولكنك ضيعت الفرصة... فذق!

الاثنين: تناول الفطور في الكافيتريا وجلسة طويلة وحوار ممتع مع الدكتور البهي... أصعد إلى الغرفة وأتصل بمدير إذاعة القرآن الكريم في أبو ظبي، فأحظى به، وأعرض عليه برنامجاً إذاعياً من ثلاثين حلقة قصيرة، فيرحب بي ونتفق على الموعد السبت القادم... وكان عليَّ أن أشمر عن ساعد الجد، وأن أهيئ ثلاثين حلقة مكتوبة خلال أربعة أيام فحسب... تنتابني لمسات من

الاكتئاب والهم، ولكني ابدأ العمل متوكلاً على الله، وأظل في الغرفة الساعات الطوال، لكي ما ألبث أن أنجز الحلقات الخمس الأولى وأشعر بارتياح عميق... ولولا زيارة أحد الأصدقاء من بنك دبي وأستاذين آخرين؛ لكنت قد أنجزت عدداً أكبر من الحلقات... ولكني ما لبثت أن واصلت العمل حتى ساعة متأخرة من الليل...

الثلاثاء: العودة إلى الغرفة بعد تناول الفطور لإنجاز عدد آخر من الحلقات... ثم دعوة غداء في بيت الدكتور الصديق محمود رشدان، حيث الكوسة الأردنية اللذيذة والمقلوبة والحوار المفتوح... مواصلة العمل بعد نومة العصر حتى منتصف الليل وإحساس باهظ بالإعياء...

الأربعاء: أتناول الفطور وألتقي عَرَضاً بمدير الجامعة، الذي يودعني ويعلمني بأنني قد تركت أثراً طيباً بزيارتي ومحاضراتي لدى الجميع، وأنهم جميعاً يتحدثون عن هذا الأثر... أشعر باعتزاز كبير... ثم ما ألبث أن أتلقى مكالمة هاتفية يدعوني فيها مسؤول في التربية لحضور ندوة المعهد العلمي في عجمان، حيث يطلبونني لإلقاء محاضرة، ولكني أعتذر بسبب ارتباطاتي... أظل في الغرفة لمواصلة كتابة الحلقات وأتغدى فيها... ثم أواصل العمل وأنا أشعر بسعادة بالغة لاستكمال بضعاً وعشرين حلقة منها، رغم آلام الظهر التي سببها الانكباب المتواصل على الكتابة... وثمة مكالمة هاتفية مع عدد من الأصدقاء ودعوة غداء يوم الجمعة في بيت أحدهم...

الخميس: جولة في السوق وشراء كاميرا رائعة وحوار ممتع في الغرفة مع صديق زائر... ثم دعوة غداء لذيذة في حدائق الهيلي لتوديع بعض المسافرين، وتجوال في الحديقة الرائعة التي ليس لها شبيه في العراق...

الجمعة: ساعة من العمل في تبييض الصفحات الأولى من بحثي لمؤتمر الهند عن الاستشراق... ثم جولة في صالات الفندق، حيث احتفالات الأطفال بمناسبة أعياد رأس السنة الميلادية... الكبيسي يأتيني فنصلي الجمعة ونتناول

في بيته غداء عراقياً شهياً... ثم أرجع إلى الفندق لكي أنام وأستيقظ بعدها لأقطع شوطاً طيباً في تبييض بحث مؤتمر الهند.

السبت: مكالمة تطمئنني على استكمال المعاملة المالية في الجامعة... وأخرى مع أحد مفتشي التربية بصدد المحاضرة المعلقة في ثانوية أبو ظبي... أغادر الفندق منطلقاً إلى أبو ظبي... أصل إلى هناك فأقضي الوقت الذي يفصلني عن موعد تسجيل الحلقات في إذاعة القرآن الكريم في مكتبة أحد المعارف حيناً وفي المطعم حيناً آخر... وفي شقة أحد الأصدقاء حيناً ثالثاً، وأتلقى من الصديق عبارة تقييم لكتبي، وأنّ اسمي على الغلاف أصبح بمثابة جذب للقارئ وهو الذي يتولى الدعاية للكتاب...

أتجه قلقاً إلى دار الإذاعة فأنا لا أعرف الطريق جيداً، والوقت متأخر، وقد يكون مديرها قد نسي الموعد، إلا أنني أصلها وأجلس أصحح بعض الوقت، وما تلبث الأمور أن تنفرج... يجيء المدير مرحباً أجمل ترحيب، ويبدأ فريق العمل بتسجيل الأحاديث، ويرحبون بتسجيل خمس وعشرين حلقة دفعة واحدة...

إلّا أنني ما أن بدأت بتلاوة اثنتين من الحلقات حتى ضيّقت أزمة ضيق النفس خناقها علي، ورحت أكافح بصعوبة بالغة لمواصلة القراءة... ولأكثر من مرة شعرت بوخزات في قلبي وألم شديد في صدري، ورحت أجأر إلى الله ﷻ أن يوفقني لاستكمال العمل، حيث كنت ألتقط أنفاسي بصعوبة هائلة يعجز التعبير عنها... ووجدتني في ظرف أستطيع القول بأنه من أصعب الظروف في حياتي على الإطلاق... وواصلت القراءة وأنا أتوقع في كل لحظة أن الضغط التنفسي ربما يؤدي إلى حدوث جلطة في القلب... ولكن الله سلّم وتمكنت من قراءة عشرين حلقة... وما أن حصلت على وعد من فريق العمل باستقبالي فيما بعد لقراءة العشر حلقات المتبقية حتى شعرت بارتياح عميق... وأوصلني اثنان من الموظفين في الاستديو إلى موقف السيارات، وكانت فرحة أخرى أن أجد مقعداً في آخر سيارة تنطلق إلى العين...

الأحد: اتجهت مع أحد الأصدقاء إلى إدارة الجامعة، وتمكنت بعد جلسة طويلة من القبض على شيك الأتعاب. لقد بلغ بحساب العملة العراقية أكثر من ألفي دينار... يا الله!... ولتوفيقه ولرزقه الذي لا يحسب له الإنسان حساباً... سأوفي ديوني كلها بإذن الله ويبقى مزيد... بعد النوم واصلت العمل في كتابة الحلقات الأخيرة من البرنامج الإذاعي... بانتظار حلول موعد محاضرة بنت الشاطئ، وجاءني صديق حيث ذهبنا إلى قاعة المحاضرة... لعبنا كرة المنضدة في نادي الطلبة، ثم استمعنا للمحاضرة الممتعة وقفلنا عائدين.

الاثنين: إنجاز التحويلات المالية في بنك أبو ظبي... ولقاء بالدكتور عدنان، حيث تم الاستفسار عن كافة الأمور المعلقة بصدد السنوات القادمة، كما تم التوديع... غداء بمعية الدكتور البهي... توديع مع عدد من الأساتذة... ولقاء بالدكتور تقي الدين الندوي يحضني فيه على ضرورة حضور مؤتمر الهند، وأنهم سيرحبون بي هناك وسيقدرون ذلك.

استكمال حزم الحقائب بحضور عدد من الأصدقاء المودعين، والتوجه إلى كراج أبو ظبي... رحلة مريحة وحط الرحال في شقة أحد الأصدقاء... التوجه إلى مبنى الإذاعة حيث كان سروري عميقاً بتهيئة كافة المسائل لتسجيل الحلقات العشر الأخيرة، حيث تم الأمر بصعوبة رئوية أقل بكثير من يوم العناء الأكبر ذاك... أمسية طيبة وعشاء في شقة الصديق...

الثلاثاء ١٢/٢٢: الانطلاق صباحاً إلى المطار وشيء من القلق بسبب تكليفي بإيصال عائلة صديق من أم وثلاثة أطفال إلى عمان ثم بغداد... رحلة طيبة... والوصول إلى عمان... ارتياح للحصول على فندق وضمان الحجز واستقرار العائلة... الانطلاق إلى المطار وانتظار الساعات الطويلة قبل التوجه إلى بغداد... الوصول إلى بغداد وساعات أخرى من الانتظار... تفتيش الحقائب وسحب الكتب وفرح غامر بتجاوز محنة النقود... تسلم العائلة من قبل أقربائها... وارتياح لحصولي على سيارة تاكسي تقلّني مباشرةً إلى الموصل وتخلصني من مصاعب المبيت في بغداد... خطأ قاتل يمارسه السائق بعد

مغادرة بيجي كاد أن يودي بنا لولا أن الله ﷻ سلّم... الوصول صباحاً وساعات حلوة مع الزوجة والأطفال والأهل وعرض الهدايا والمشتريات...

[١٤]

رحلة عام ١٩٨٢ م إلى السعودية

السبت ٤/٣: سفرة مريحة إلى الرياض... واستقبال ثلاثة من مندوبي الجامعة... الاستقرار في الفندق... مقابلة صلاح الخالدي لمناقشة خطة بحثه لأطروحة الدكتوراه... النزول إلى المطعم وصدمة البوفيه... ليلة مؤرقة مع ضيق النفس...

الأحد: زيارة حشد من الأساتذة في كليتي العلوم الاجتماعية وأصول الدين... الوكيل يبدي إعجابه... زيارة لكلية الشريعة وترتيب جدول المحاضرات... عودة للفندق ثم زيارة لمعرض الكتاب الإسلامي، حيث يجتمع لحسن الحظ معظم الناشرين الذين أتعامل معهم... استلام كتبي الجديدة والطبعات الجديدة من رضوان دعبول... محاضرة بعد المغرب لطلبة الدراسات العليا مريحة وحيوية لولا بعض الإرهاق... إحساس بالغ بالإعياء بعد عودتي للفندق... استلقاء مريح في الصالة وتصفح لكتاب (خمس مسرحيات إسلامية)... ووضع رؤوس نقاط طيبة للمحاضرة العامة ليوم غد... ليلة قاسية جداً مع الحمى الشديدة وانسداد النفس والصداع والتهاب الجيوب، والقلق على مصير محاضرة الاثنين التي أعلن عنها والتي يصعب عليَّ الاعتذار عن إلقائها...

الاثنين: استيقاظ قلق بسبب المرض... حل بعض المسائل المعلقة وإحساس بالارتياح... الذهاب إلى المستشفى مرتين والبدء بتناول الأدوية... إحساس نسبي بالارتياح يمكّنني من أداء المحاضرة العامة على أحسن ما يكون... ليلة قاسية أكثر هولاً من سابقتها.

الثلاثاء: مع الدكتور عبد الحليم عويس إلى معرض الكتاب... استلام مبلغ

طيب من رضوان عن حقوق التأليف... والالتقاء بحشد من الأصدقاء الذين كنت أطمح في اللقاء بهم... العودة المرهقة إلى الفندق... عدم الشعور بأي تحسّن وأضيفت إلى المتاعب حساسية أمعائي بسبب تناول إحدى الحبوب حيث رحت أعاني الأمرَّين... انعدام الشهية للطعام بسبب الغثيان الدائم... التحامل على نفسي والذهاب لإلقاء محاضرتي مساء على طلبة الدراسات العليا... اختزال المحاضرة والعودة إلى الفندق، حيث تزداد هجمة المرض عنفاً وشراسةً... أتصل بالسائق عدنان فيأتيني ليلاً فأشعر بارتياح لمجيئه، وأتفق معه على موعد غداً للذهاب إلى طبيب مختص... ليلة هائلة في قسوتها وبخاصة بسبب تمزق الأمعاء بشكل لا يرحم.

الأربعاء: استقبال اثنين من الأصدقاء من قطر، وطرح فكرة دعوتي إلى هناك لإلقاء محاضرة للموسم الثقافي، وتقديم بعض أعمالي للدار التي أنشأها مؤخراً... البحث عن طبيب مختص دون جدوى... والعودة ثانية إلى مستشفى الملك عبد العزيز حيث عرضت حالتي على طبيب الأنف والأذن والحنجرة، وطلبت منه تغيير الكبسول الذي أحرق أمعائي... العودة إلى الفندق والصعود إلى الغرفة في أشد حالات الغثيان والإعياء... ولكن آلام الأمعاء اختفت بعد توقفي عن أخذ الكبسول وبعد خروج معدتي ثلاث مرات... زيارة لاثنين من الناشرين في غرفتي: رضوان دعبول والحبيب اللمسي... والأخير يعدني بأنه سيطلب من لجان المؤتمرات في الشمال الإفريقي أن يوجهوا لي دعواتهم مستقبلاً قبل وقت مناسب يمكّنني من الحضور... الإحساس بشيء من التحسن بحمد الله... اتصالات هاتفية من العديد للاستفسار عن صحتي... زيارة أستاذين مساء وأحاديث طيبة حتى العاشرة... نوم عميق لأول مرة منذ مغادرتي العراق.

الخميس: البقاء عبر اليوم كله في الغرفة... إحساس بالملل لولا ما بدأت أشعر به من تحسن بحمد الله... زيارة صديق صباحاً... البهريز وطعام الفندق يسببان لي القلق وعدم الارتياح... مخابرة من إحدى قريباتي وإعلامها إياي

عن إعجاب العديد من النساء بمؤلفاتي... شيء من الاكتئاب بسبب عودة بعض مظاهر المرض مساء... ليلة مترعة بالقسوة بسبب الأرق الذي اشتد حتى الصباح... وبسبب عودة تمزق الأمعاء الذي لا يطاق عند الفجر... لقد عاد المرض مرةً أخرى...

الجمعة: زيارة عدد من الأصدقاء... ودعوة أحدهم وهو ممثل جمعية إسلامية في إسبانيا لحضور إحدى المؤتمرات في الصيف القادم... أداء صلاة الجمعة بصعوبة بالغة، والاعتذار عن دعوتين للغداء بسبب الغثيان الشديد... العودة إلى الفندق وألتقيؤ الذي خفف عني بعض الشيء... عزوف معدتي عن الأكل رغم الضعف الشديد الذي أخذت أعاني منه... عصرية قاسية من القلق والحيرة والاتصال بعدد من الأصدقاء دون جدوى... بينما الغثيان والإعياء وتمزق الأمعاء تطحنني بشكل لا يرحم... وأستلقي على السرير وأجأر بالدعاء وأنا أبكي... وأخيراً يزورني صديق أستاذ في كلية الإدارة فتكون معونة الله، حيث يقلني بسيارته إلى أحد أصدقائه، فآخذ هناك حقنة وحفنة من الأدوية بعد فحص دقيق، وأعود إلى الفندق وسط ارتياح نفسي رغم استمرار الغثيان... وأتقيأ مرةً أخرى... وأجد هناك الحاج حسن عاشور حيث صفينا عدداً من المشاكل، وتم استلام مبلغ متواضع عن حقوقي التأليفية... وأصعد كالعادة إلى الغرفة لكي أسجن نفسي هناك ويسيطر عليَّ الهم لعدم الإحساس بأي تحسن... ثم أنام نومة طيبة... لكن الحمى تقطعها بإلحاحها وأخيلتها التي لا تطاق...

السبت: أستيقظ على الإعياء والغثيان المعهودين فينتابني الهم والحزن، لكنني ما أن أتناول فطوري بكمية طيبة بحمد الله، وآخذ الأدوية الجديدة حتى أحسّ بتحسن طيب لم أعهده طيلة الأسبوع، مكّنني من كتابة رسالة وإنجاز عدد من الأعمال... اتصلت بحشد من الأصدقاء ورتبت معهم مواعيد لإنجاز الأمور المعلقة، الأمر الذي أشعرني بارتياح عميق... أمين ندوة الحوار حول الأدب الإسلامي يتصل بي من المدينة بصدد الندوة... العودة لتناول الطعام

في البوفيه... التوجه قبيل المساء مع عويس إلى الكلية... إلقاء محاضرتي في مناهج البحث وإحساس بإعياء شديد... زيارة لندوة الشباب وسط إحساس فائق بالإعياء والتشنج وضيق النفس... زيارة لبيت أحد الأقرباء... عميد الكلية يزورني في الفندق فلا يجدني... نومة طيبة...

الأحد: الاستيقاظ على هم مركز واكتئاب عميق بسبب عودة الإحساس بالغثيان... فطور سيئ... التوجه إلى البريد لرمي عدد من الرسائل والعودة للفندق لاستقبال صاحب دار القلم... الغداء في البوفيه... ثم نومة عصر أستقبل بعدها مدير المركز الإسلامي في مدريد، حيث يتم ترتيب شؤون حضوري للمؤتمر هناك، والقيام بعدها بإلقاء محاضرات في عدد من العواصم الغربية... أقدم له بعض كتبي فيشير إلى أنه سيتولى ترجمة (دراسة في السيرة) للإسبانية نظراً لأهميته... إلقاء محاضرتين في الكلية عن (الإسلام والرؤية الحضارية) أتمكن منهما تماماً، ولا أحسّ بإرهاق يذكر وسط انسجام الطلبة واهتمامهم... زيارة من قبل الدكتور عبد الله الجبوري... فرحة لدى الاطلاع على طبعة ثانية لكتاب (ملامح مأساتنا في إفريقيا)... شيء من الحنين للأهل والأطفال يداعبني بين الحين والحين...

الاثنين: النوم حتى الحادية عشر صباحاً... استلام أجوري عن المحاضرات بواسطة السائق... استمرار الغثيان... جلسة صباحية في صالة الفندق لقراءة الصحيفة وانتظار الغداء... نومة حتى قبيل المغرب... زيارة لمحمد بريغش والدكتور عبد الرزاق السامرائي... السؤال عن الحجز وظهور بعض التعقيدات... التوجه إلى الكلية... حالة الغثيان على أقصاها... نجاح باهر للمحاضرة العامة عن (التطور الفكري) وردود فعل مشجعة، وتوديع حافل في ختامها... نومة عميقة حتى الصباح.

الثلاثاء: قضاء الصباح في الصالة مع الصحيفة وتنقيح فصل من كتاب (في التاريخ الإسلامي)... غداء قاسٍ مع الغثيان وسقوط حشوة الضرس الأعلى... الذهاب إلى محاضرتي في القسم... التوجه إلى الوحدة الطبية لتناول

الحقنة واستشارة الطبيب حول دواء لوقف الغثيان... إنهاء المحاضرة بشيء من الإرهاق... العودة إلى الفندق مع حالة لا تطاق من الغثيان... عشاء قاسٍ بسبب تصاعد الغثيان... إنجاز طيب مع التنقيح في الصالة حتى ساعة متأخرة.

الأربعاء: الاستيقاظ على الغثيان المزعج... قضاء بقية ساعات الصباح في الصالة مع الصحف والتنقيح... غداء قاسٍ بسبب الغثيان... جولة عصرية مع عويس في السيارة، وساعة طيبة في صالة فندق السعودية، ثم عشاء لذيذ من المشويات في مطعم شرقي وحوار طويل... تنقيح طيب في الصالة وإحساس لأول مرة بالتحرر من الغثيان... استمرار العمل في الغرفة حتى ساعة متأخرة...

الخميس: العمل صباحاً في الفندق... استمرار الغثيان... دعوة من صديق لاذقي على غداء شهي... نومة ظهر واستيقاظ على مطر غزير... أمسية في بيت السامرائي... عشاء واستكمال الأمسية في بيت دكتور أحمد التوتنجي.

الجمعة: مكالمة من صاحب دار القلم حول رغبة ناشر قطري بلقائي... مكالمة من الدكتور نعمان السامرائي وزوجته لتثبيت موعد للدعوة... أداء صلاة الجمعة ثم التوجه لبيت ابن العم لتناول وجبة غداء طيب من المشويات... البقاء إلى ما بعد المغرب... دعوة من عدد من الأصدقاء لحضور مخيم نيروبي في كينيا، واعتذار بسبب تحديد سفري في الجواز... إحساس قاسٍ من الحيرة والندم بصدد هذه الدعوة سيما وأنها لا تؤثر على أعمالي هنا، وأنها بصحبة حشد من المعارف والأصدقاء... زيارة في الفندق من دكتور صابر طعيمة وصاحب مكتبة المعارف والدكتور الربيع مدير مركز البحوث... إحساس قاسٍ بالاكتئاب لا أدري لماذا... أجابهه بساعتين من العمل تمتصان الكآبة وتعيدانني إلى التوازن، ويزيدني انشراحاً استمرار هطول الأمطار... اختفاء الغثيان بحمد الله وفضله...

السبت: الالتقاء في الصالة بأستاذ أردني واثنين من طلبة الماجستير... زيارة لرئاسة الجامعة للمدير والوكلاء... إحساس بالغثيان بعد الغداء، ربما

بسبب زفت مطعم زهرة الشرق المعتق... ودوار عنيف خلال نومة الظهر... مكالمة حول محاضرة في بريدة... زيارة في غرفتي لمحمود شاكر وصاحب دار القلم مساء... محاضرة طيبة حول موضوع طرق البحث... أمسية في الفندق، وإنجاز بعض الأعمال... وإحساس مرير بالصداع يكفّني عن العمل ربما بسبب امتناعي عن شرب الشاي.

الأحد: استيقاظ مبكر بسبب موعدي في الكلية... ترتيب الحجوزات لبريدة... زيارة للمكتبة الدولية وعرض بالنشر لديهم... شراء عدد من الحاجيات والعودة إلى الفندق... جولة عصرية طيبة من التخطي في الشوارع المحيطة بالكلية، مع الشاي الصومالي والتسالي اللذيذة وشارع التميري... محاضرة عن نظرة الإسلام الحضارية تتحقق فيها أقصى درجات التجاوب والعطاء... لقاء بعميد الكلية وترتيب موعد الذهاب لبريدة لإلقاء عدد من المحاضرات في كلياتها... أمسية في صالة الفندق مع الدكتور منافيخي وأستاذ أردني.

الاثنين: التوجه صباحاً بسيارة مركز البحوث لمقابلة مدير المركز، حيث يسلمني تكليفاً رسمياً بتأليف كتاب لسلسلة سيصدرها المركز يتعلق بمنهج للتاريخ الإسلامي... الذهاب بعدها إلى مكتبة المعارف لقضاء وقت طيب هناك، ومنها إلى السوق لشراء بعض الحاجيات... ثم إلى الكلية لحل بعض القضايا المعلقة والعودة إلى مطعم (طليطلة)، حيث أتناول سمكة لذيذة بعيداً عن أكل الفندق المقرف... الدكتور محمد الهاشمي يقلني إلى حيث الاجتماع الأدبي تمهيداً لندوة الحوار، وحيث يتم تقييم حار لإنتاجي الأدبي وتطرح آراء شتى... بعدها يوصلني صديق إلى كلية الشريعة، حيث ألقي محاضرة عامة بتمكن تام كالعادة، في موضوع (التراث والمعاصرة)...

الثلاثاء: شيء من الحيرة بين البقاء في الفندق وبين المغادرة... واختيار الثانية... لقاء بصاحب المكتبة الدولية وتقديم ثلاثة كتب لغرض إبداء رأيه في نشرها لديه... التوجه للكلية والفرح بخبر ينقله الشيخ سيد رجب مقرر قسم

الثقافة، عن الموافقة على تمديد زيارتي لأيام أخرى، واحتمال تعويضي عن الفارق بين درجتيّ العلميتين لمدى زياراتي الثلاث... سكرتير القسم يوصلني إلى الفندق حيث انتظار الدكتور فريز منافيخي ليصحبني إلى داره لتناول الغداء وقضاء عصرية طيبة في حوار متشعب، يقلني بعدها إلى الكلية لإلقاء آخر محاضرة على الطلبة في مناهج البحث...

أتجه بعدها إلى مكتبة المعارف حيث يسلمني صاحبها شيكاً بثلاثة آلاف ريـال كجزء من حقوقي عن كتاب (المقاومة الإسلامية)، وحيث دعوة على العشاء مع دكتور صابر طعيمة ومدير مركز البحوث وصاحب المكتبة في فندق الكونتننتال، وحيث عشاء البوفيه المقرف والجلسة الممتعة مع الأحاديث والنكات في صالة الفندق.

الأربعاء: مكالمة مبكرة من الدكتور سعد أبو الرضا الأستاذ في كلية اللغة العربية في بريدة حول ترحيبهم بزيارتي وتهيؤهم لاستقبالي وتنافسهم على استدعائي... التوجه صباحاً إلى الكلية، استلام تذكرة بريدة وحجوزات العودة، سؤال حول موضوع اصطحاب الزوجة وارتياح لوجوب أن تكون التذكرة على حسابي... رفض محاولة المطالبة باعتباري أستاذاً ودفع الأجور على هذا الأساس... زيارة المكتبة الدولية والالتقاء باثنين من الدكاترة وكلام حول الحوار عني في الإمارات وألمانيا وتبادل في العناوين... استكمال المسواق في جولة سريعة... وجبة غداء من السمك اللذيذ في بيت دكتور صابر طعيمة... العودة للفندق والذهاب عصراً مع السامرائي لحضور مناقشة رسالة ماجستير حول الشعر والقضية الفلسطينية... التوجه إلى دار السامرائي لتناول العشاء... أمسية ممتعة وحوار طيب حول المسائل الأدبية وآخر أعمالي المسرحية... وإحساس مرير بالحزن والقهر لدى سماع خطاب مسجل حول جرائم العلويين في حماة... العودة للفندق فإذا بورقة من الدكتور عبد القدوس أبو صالح تطلب الاتصال به... إنجاز بعض الأعمال ثم النوم المترع بالأرق.

الخميس: مكالمة من دكتور صقر أستاذ الاقتصاد الأردني، وأخرى من

دكتور عبد القدوس حول موعد اجتماع اللجنة الأدبية... لقاء في الصالة مع دكتور صقر وإعلامه إياي بأن الدكتور مالك بدري أستاذ علم النفس السوداني يرغب في لقائي... الدكتور الهاشمي يصطحبني إلى الندوة الأدبية حيث الاجتماع الثاني للجنة، وحيث التقييمات تنهال عليَّ، وحيث يشير أستاذ الأدب في جامعة المدينة إلى اعتماده بعض فصول كتابي الجديد (محاولات جديدة في النقد الإسلامي) لطلاب السنة الرابعة...

أمتلك زمام المبادرة وألعب دوراً رئيسياً في تحديد مسؤوليات اللجنة الأدبية إدارياً... تثبيت الحجز إلى المدينة وموافقة أمين الندوة على تأجيل موعد سفري ثلاثة أيام لحضور كافة أنشطة الندوة... اتصال بالراشد صاحب مكتبة المعارف وصحبه لدعوتهم على العشاء بعد عودتي من بريدة بإذن الله... أمسية طيبة في بيت الدكتور أديب الصالح بمعية محمود شاكر حيث يدور حوار متنوع... العودة للفندق وجولة عمل في التنقيحات تقطعها زيارة للدكتور عبد الله الجبوري ثم استئناف العمل... مكالمة من الدكتور أحمد الأحمد في المدينة المنورة يرحب زيارتي ويعرض عليَّ فكرة العمل الطويل في الجامعة الإسلامية...

الجمعة: تنقيح في الغرفة بانتظار مجيء ابن العم الدكتور هشام الطالب... مفاجأة سارة لدى نزولي للصالة: لقد وصلتني الرسالة التي كنت أنتظرها من زوجتي بفارغ الصبر... أداء صلاة الجمعة وتناول الغداء في بيت الدكتور هشام... نومة العصر ثم العودة بعد المغرب إلى الفندق... زيارة من محمود شاكر والقضماني، حيث يهديني أولهما اثنين من كتبه... دعوة على العشاء من الدكتور مالك بدري حيث التوجه مع حشد من الأساتذة: مالك والصباغ وصقر والدكتور سليم العوّا إلى فندق السعودية، ويلحق بنا هناك مدعوان آخران... ويجري تقييم طويل لمنجزاتي ومكانتي... العودة إلى الفندق في ساعة متأخرة وإحساس بأن الوقت هنا ليس ملك الإنسان، فها أنا لا أستطيع أن أواصل عملي لحظة واحدة وها أن عليَّ أن أستيقظ فجراً للسفر إلى القصيم.

السبت: الاستيقاظ فجراً بعد نوم قلق... رحلة طيبة إلى بريدة... استقبال حار من قبل ثلاثة أساتذة... التوجه إلى فندق ممتاز... ساعة ثم يأتي الدكتور سعد أبو الرضا لكي يقلني إلى الكلية... استقبال حار من العميد وحشد من الأساتذة... محاضرة عن الأدب الإسلامي لطلاب اللغة العربية، يقدمني فيها دكتور سعد رئيس القسم فيسهب في الحديث عن مكانتي ومؤلفاتي وإخلاصي... الخ...

دعوة على الغداء في بيت دكتور أحمد... نومة عصر عميقة في الفندق وزيارة لحشد من الأساتذة... التوجه بعد صلاة العشاء إلى صالة المحاضرات... حشد كبير من الحضور أساتذة وطلاباً يجعلني ـ كالعادة ـ أقدم محاضرة متألقة أتدفق عبرها وخلال الأجوبة على الأسئلة التي أثارتها كالنهر بتمكن وبداهة وإمساك بالموضوع (إعادة تشكيل العقل المسلم)... دعوة عشاء في دار دكتور حسن ثم التوجه إلى الفندق بمعية معاون عميد الكلية.

الأحد: سائق الوكيل يقلني صباحاً إلى الكلية، حيث ألقي محاضرة عن (الرؤية الحضارية للإسلام) على طلبة التاريخ والشريعة والثقافة لا تقل عن سابقتها تدفقاً وتمكناً وسرعة بديهة، وطرق على المواضيع ذات الأهمية والإثارة، حيث يقدمني رئيس قسم التاريخ فيشيد بمعطياتي ويقف عندها طويلاً... حفلة استقبال وشاي في القسم وحوار شيق مع حشد من أساتذته...

دعوة غداء في بيت دكتور سعد وحوار أدبي عن علاقة الأدب بالأديب يستغرق أكثر من ساعة ممتعة... اعتذار لرئيس النادي الأدبي في بريدة عن إلقاء محاضرة عامة في النادي... نومة قصيرة في الفندق، ثم مجيء ثلاثة من الأساتذة على رأسهم الدكتور أحمد العسال (رحمه الله) لكي يقلوني إلى المطار... التغلب على التباس في الاسم كاد يؤخر سفرتي ووداع حار مؤثر للأصدقاء الأساتذة... رحلة جوية يهبط قلبي عبرها من الخوف مراراً بسبب المطبات الهوائية الحادة... الوصول إلى الفندق وتلقي عدد من الاتصالات الهاتفية... واتصال بالدكتور عبد الباسط بدر في المدينة حول تغيير مواعيد الحجز.

الاثنين: التوجه إلى الكلية لحل بعض المعلقات... شراء بقية المطالب...

قبض أتعاب فترة التمديد... التوجه إلى المطار وارتياح عميق لإنهاء مشكلة الحجوزات بمعونة موظف هناك وسكرتير القسم... زيارة الناشر القضماني وشاكر عصراً... وتسليم بحثي (ابن خلدون ودراسات تاريخية) وارتياح عميق لإلقاء العبء عن كاهلي... عمل متواصل في تنقيح الكتب المتبقية... مكالمة هاتفية يعتذر فيها الراشد عن الحضور... ساعة مع دكتور صقر ثم الخروج إلى الغرفة لمواصلة العمل حتى ساعة متأخرة من الليل...

الثلاثاء: غبار كثيف يضرب الرياض ويضيق نطاق الرؤية... استيقاظ قلق بسبب المطالب العديدة، وتكاثف الغبار... سائق الكلية (ابن المهيدب) يأتيني في اللحظة المناسبة، ويوصلني إلى البطحاء لتحويل النقود وشراء حقيبة إضافية... استلام البطاقة جاهزة وتوديع العميد والأساتذة والتوجه إلى ندوة الشباب، حيث طلبت إرسال بعض الكتب التراثية... ومن هناك إلى بيت الدكتور أحمد التوتنجي لتناول غداء طيب وسط دوامة من القلق بسبب إقفال المطار واحتمال تأجيل السفر إلى المدينة... العودة إلى الفندق وساعات من القلق والتأرجح والاتصالات بسبب غموض الموقف... ثم مكالمة مستعجلة بضرورة التهيؤ للذهاب... اثنان من الأصدقاء والأساتذة يأتياني فنتوجه إلى المطار ونحظى بالأوكي بعد يأس... إحساس غامر بالارتياح ونحن نجلس في صالة الانتظار، ثم ما تلبث الأمطار العنيفة أن تتساقط وسط أجواء رائعة... رحلة طيبة إلى المدينة المنورة واستقبال حار، ثم التوجه إلى الفندق في ساعة متأخرة...

الأربعاء: قلق لدى الاستيقاظ بسبب ضيق الوقت... استكمال التهيؤ والانطلاق إلى الجامعة الإسلامية... زيارة لرئيس الجامعة الذي يستقبلني وعميد الكلية بحرارة بالغة... العميد يطلب مني إلقاء كلمة الوفود، وارتياح لقبوله اعتذاري... التوجه إلى صالة الاحتفالات... لقاء بالدكتور أحمد الأحمد وعدد من الأساتذة، حيث يحيطني التقييم والتكريم أساتذة وطلاباً... حوار وشعر مع الشيخ حسن حبنكة الميداني... جلسة الافتتاح والتوجه بعدها إلى صالة الحوار لبدء جلسة إجرائية... الأستاذ محمد قطب يقترح ترشيحي نائباً

لرئيس الندوة... أشعر باعتزاز وثقة بالغين... ثم أعتذر لأسباب عديدة وأحسّ بارتياح عميق لقبول اعتذاري...

العودة إلى الفندق وتناول الغداء مع حشد من الأصدقاء... التوجه بعد نومة الظهر إلى قاعة الحوار حيث نوقشت بعض الأبحاث... العودة إلى الفندق لتناول العشاء ومنه إلى بيت الدكتور عبد الباسط بدر، حيث دخلنا حواراً طويلاً حول إنشاء رابطة للأدب الإسلامي في الهند بعيداً عن هيمنة واحتواء النظم العربية، وكان الأستاذ محمد قطب أحد المتحدثين... نومة قصيرة ثم أداء الصلاة فجراً في الحرم النبوي الشريف...

الخميس: التوجه بعد الفطور إلى قاعة الحوار... مناقشات طيبة وإحساس مترع بالامتلاء من جراء كلمات التقييم والتكريم التي كانت تنهال عليَّ من هنا وهناك... ثم ألقي بحثي عن (وظيفة الأدب) بتدفق وتمكّن فيزداد التقدير والتكريم وأحسّ باعتزاز وثقة بالغة... نعود إلى الفندق لكي ما نلبث أن نرجع لاستئناف المناقشات، حيث أتولى رئاسة الجلسة... أتجه وصديق آخر لتناول العشاء في دار دكتور عبد الباسط، ثم يجيء الأستاذ محمد قطب وبقية الأساتذة لكي يستأنف الحديث عن (رابطة الأدب الإسلامي) في الهند، وتوضع لمساته النهائية تقريباً... العودة إلى الفندق في ساعة متأخرة من الليل.

الجمعة: الاستيقاظ في وقت متأخر... جولة في الأسواق ثم أداء صلاة الجمعة فالغداء والنوم والتوجه عصراً إلى قاعة المناقشات... ملاطفات وتحميضات مع رئيس الجلسة وبعض الأساتذة... وتقييم سخي من رئيس الجلسة وعدد من الأساتذة يزيدني ثقة... الدكتور نجيب الكيلاني يرشحني لعضوية لجنة المناهج... وتعليق مركّز مني حول ضرورة اعتماد القيم الأكاديمية في ضبط المعطيات.

تناول العشاء في الفندق... حوار سريع مع الدكتور أحمد الأحمد والدكتور محمد حرب، ثم التوجه إلى دار الدكتور عبد الباسط لقضاء واحدة من أجمل الأماسي تتأرجح بين الجد، حيث إنهاء المناقشة حول (رابطة الأدب)، وحيث

تلقيت المزيد من التقييمات، وبين الهزل حيث استمعنا إلى سيل من النكات الشامية أشبعتنا ضحكاً... العودة إلى الفندق في ساعة متأخرة... ساعة من النوم القلق ثم أداء صلاة الفجر في الحرم الشريف وساعة أخرى من النوم القلق غير المشبع.

السبت ٥/١: التوجه إلى قاعة المناقشات... إحساس بالغ بالإعياء والرغبة في النوم... قلق بسبب مطالب لجنة المناهج وارتياح لتأجيلها... إنجاز لعدد من المتعلقات ثم جولة مع حشد من الأساتذة في المناطق الآثارية والعودة إلى الفندق... الغداء ونومة عصر طيبة ثم العودة إلى الاجتماع... ارتياح لإرسال برقية إلى الأهل حول موعد عودتي... إلقاء محاضرة أخرى عن (وسائل دعم الأدب ومعضلاته) تفتح مناقشات واسعة، وتقييمات كانت تنهال عليَّ كالمطر وتشعرني بالمزيد من الثقة... ثم يكون ردّي المركّز لعدد من المناقشين مجالاً آخر للمزيد من التقييم، فيما اعتبره رئيس الجلسة الدكتور مصطفى هدارة مدير جامعة أسيوط؛ مسك الختام، وحيث تنهال عليَّ كلمات الثناء من معظم الأساتذة...

التوجه إلى صالة قريبة لتناول عشاء لذيذ... ثم أعود إلى الفندق للجلوس مع حشد من الأصدقاء ثم الصعود إلى الغرفة لكتابة المذكرات المتراكمة وإنجاز عدد من المتعلقات حتى ساعة متأخرة من الليل.

الأحد: مناقشة التوصيات صباحاً... زيارة توديعية لمدير الجامعة والعميد... زيارة للدكتور أحمد الأحمد في قسم التاريخ، ووضع مفردات منهج التفسير الإسلامي للتاريخ... أداء صلاة الظهر في الحرم الشريف، والتوجه إلى فندق الهلتون لحضور دعوة غداء رئاسة الجامعة... استقبال حافل وحوار مع مدير الجامعة والتوجه إلى صالة الغداء، والجلوس في صدر القاعة وأحاديث ودية عبر الغداء... جلسة شاي وحوار في بيت الدكتور أكرم العمري... نومة عصر طيبة، ثم التوجه مساء إلى قاعة الجامعة لقراءة التوصيات وسماع عدد من الشعراء... اعتذار عن إلقاء الكلمة التوديعية...

ويحدث بعد الانتهاء من تلاوة القصائد أن أدعى إلى المسرح لإلقاء كلمة

تلبية لرجاء الطلاب... كانت مفاجأة لي... لكني قدرت على أن أجد موضوعي: كلمات من النثر الشعري أخاطب فيها الرسول العظيم الذي أتيحت لنا فرصة الحضور قريباً منه... لكنني بعد إنهائها أُخبرت أنني طرحت صيغاً لا يرضى عنها السعوديون بسبب مبالغتهم في النزعة التجريدية... العودة إلى الفندق والدكتور النعمان القاضي يقول إنني في حديثي هذا اليوم على المسرح صفت شعراً... جولة مع عدد من الأساتذة الأصدقاء عبر أطراف المدينة في سيارة أحدهم حتى الثانية ليلاً يتدفق عبرها حوار لذيذ يتأرجح بين الجد والهزل.

الاثنين ٣/٥: تناول الفطور مع الدكتور جمال عطية بعد استكمال ترتيب الحقائب... حوار مع مندوب الجامعة حول أساليب المطالعة المجدية... لقاء طيب بالأستاذ زين العابدين الركابي، رئيس قسم الإعلام في جامعة الإمام يعلمني فيه عن اعتماد كتابي (فوضى العالم في المسرح الغربي المعاصر) وتقريره على طلبة الإعلام...

التوجه ظهراً إلى المطار وتوديع حار من قبل اثنين من المندوبين... رحلة طيبة إلى عمان... ومنها إلى بغداد، حيث الانتظار الطويل المرهق للحقائب، وارتياح من موظف التفتيش بعد إعلامه أنني عائد من مؤتمر رسمي ووضع (الباج) على صدري... الاتفاق مع سائق تاكسي للسفر إلى الموصل مباشرةً من المطار، بمبلغ كبير... وساعات صعبة من الحذر والانتباه المركّز والمخاطر بسبب إرهاق السائق وحاجته الشديدة للنوم، وعناده بعدم التوقف قليلاً لأخذ قسط منه...

[١٥]

رحلة عام ١٩٨٩ م إلى مصر

شهر من المطحنة النفسية بسبب صعوبات التوفيق بين مطالب الوزارة والجامعة والجهة الداعية... ثم بسبب اكتشاف تغيير الموعد قبل يوم واحد من السفر.

الأربعاء ١٨/١٠: مغادرة الموصل صباحاً في رحلة جوية إلى بغداد ومنها إلى المطار مباشرةً... ساعات طيبة في صالات المطار، وتناول الغداء، وشيء من القلق حول الحصول على مقعد بسبب زحمة المصريين على الطائرة نفسها... الانطلاق مساء في رحلة مريحة... الوصول وتخلّف الحقيبة الرئيسية، وساعات طويلة من الانتظار القلق والمملّ للطائرة القادمة دون جدوى... مغادرة المطار على مضض... والنزول في فندقي القديم أيام دراستي للدكتوراه (جراند أوتيل) والغرفة المريحة لولا قلق الحقيبة الضائعة ونقصان الأغراض... النزول إلى سوق التوفيقية وارتياح للحصول على بعض الحاجات الضرورية... تناول العشاء ثم النوم العميق.

الخميس: فطور في صالة الفندق... جولة في شارع سليمان وشراء بعض الحاجيات... تاكسي إلى روكسي وساعات طيبة في مكتبة النور والشوارع المحيطة... شراء تشكيلة من القرطاسية للأطفال... والاطلاع على آخر إصداراتي ومتابعة حقوقي المالية... الذهاب إلى المطار بمعية صاحب المكتبة وساعة مرهقة من المتابعات تنتهي بتسلّم الحقيبة، والإحساس العميق بالارتياح... التوجه عصراً إلى دار الاعتصام... غداء شهي من الكباب المصري والمانجو اللذيذة، وحديث ذو شجون مع الحاج حسن عاشور (ﷺ)، وارتياح لمكالمة هاتفية مع الموصل والاطلاع على العديد من الإصدارات...

العودة إلى الفندق في جو ماطر ممتع... عشاء وتجوال في الشوارع المحيطة بالفندق... اجتياز لشارعي الرائع ذي الذكريات: سليمان باشا... وشراء العديد من الحاجيات... العودة إلى الفندق...

الجمعة: تثبيت حجز العودة، وجولة في شارع سليمان وتناول لفات لذيذة من الطعمية، واستكمال بعض المشتريات، ثم الصلاة في مسجد سفري هناك... انتظار مساعد الدكتور عبد الحليم عويس في الفندق والتوجه إلى حلوان بسيارته... مجيء عويس وعشاء وأمسية رائعة وأحاديث ذوات شجون.

السبت: الاستيقاظ مبكراً، والانطلاق بسيارة عويس إلى الزقازيق عبر

رحلة ممتعة وفطور لذيذ... الوصول ضحى والاستقرار في مضيف كلية الآداب كلٌّ في غرفة خاصة... ثم النزول للمشاركة في حفل افتتاح مؤتمر مناهج التاريخ الإسلامي... احتفال كبير وإحساس عميق بالتحقق، حيث أشار مسؤولو الحفل: العميد وعويس إلى أهمية مشاركتي في المؤتمر... فالحمد لله وحده...

مقابلات ومواعيد صحفية وإذاعية... وتناول الغداء في صالة الكلية والعودة لبدء الجلسة الأولى ومشاركة فاعلة في النقاش... أمسية وعشاء في المضيف وأحاديث وتقييمات لا حصر لها... مقابلة وحوار مع مندوبي أربع صحف مصرية... وعمل حتى ساعة متأخرة وإحساس بالإعياء ثم نوم عميق...

الأحد: الاستيقاظ وفطور لذيذ في المضيف ثم التوجه إلى قاعة المؤتمر... إلقاء محاضرتي بتمكن تام وإحساس عميق بالتحقق بسبب كثافة الحضور وتعاطفهم معي، وبالتقديم الوفي لعويس... غداء وارتياح في المضيف ثم التوجه إلى القاعة مساء للمشاركة في جلسة عمل أخرى، تسبقها جلسة في غرفة العميد وتقييم منه ومن عدد من المشاركين... عشاء لذيذ في المضيف وحوار حتى ساعة متأخرة من الليل.

الاثنين: العميد يختارني بدلاً عنه لإدارة الجلسة الصباحية بنجاح... وعويس يقتبس ملاحظاتي التي طرحتها في المحاضرة لاعتمادها في توصيات المؤتمر... إنهاء المؤتمر ظهراً بقراءة التوصيات... ثم التوجه إلى أروقة الكلية، حيث يزدحم الطلاب والطالبات سائلين محاورين طالبين العنوان وتعميق التعارف...

الذهاب إلى إحدى الكازينوات الجميلة لتناول الغداء وجلسة مترعة بالتعليقات والضحك والطرائف... التوديع والعودة بسيارة عويس إلى القاهرة في رحلة ممتعة مترعة بالضحك والنكات المتواصلة والحوار مع عدد من مندوبي الصحف والإذاعات... الوصول مساء إلى حلوان... وأمسية رائعة مع عويس ومساعده حتى ساعة متأخرة من الليل... مكالمة من الأديب أحمد رائف يمنحني فيها تقويمه السخي... قراءة في الغرفة حتى ساعة متأخرة...

الثلاثاء: الانطلاق صباحاً مع مساعد عويس إلى القاهرة... زيارة طيبة للمعهد العالمي، وحوار مع دكتور جمال عطية ومعاونيه... ومكالمة من إحدى الطالبات في جامعة المنيا وتقويم سخي... ثم الذهاب بالسيارة إلى الموسكي لقضاء ساعات متواصلة في جولة مشتريات ناجحة والحمد لله... الغداء... والعودة إلى مكتبة دار الصحوة... لقاء بالزميل مصطفى طه... وتجوال في المكتبة والشوارع المحيطة... ثم عودة بمعية مساعد عويس إلى حلوان... عشاء لذيذ وواحدة من أروع الأمسيات مع عويس ومساعده والدكتور جمال عطية وأحاديث ممتعة حتى ساعة متأخرة.

الأربعاء ١٠/٢٥: التوديع... والانطلاق في سيارة مساعد عويس صباحاً عبر شوارع القاهرة باتجاه المطار... وقفة وحديث عند المنصة حيث قتل السادات... ساعات ممتعة ومشتريات أخرى في المطار... رحلة مريحة في الطائرة... والوصول ظهراً، ومغادرة المطار باستئجار سيارة خاصة بسعر عالٍ بسبب التظاهرات وانقطاع الطرق الداخلية، لتواجد زعماء مجلس التعاون العربي في بغداد.

رحلة مريحة إلى الموصل... والوصول إلى البيت في أجواء شتوية رائعة... والاطلاع الممتع على الهدايا...

[١٦]

رحلة عام ١٩٩٠ م إلى السعودية

شهر من المطحنة النفسية المدمرة بسبب صعوبة التوفيق بين مطالب الوزارة والجامعة، وموعد الجهة الداعية الذي ظل معلقاً حتى قبيل السفر... لولا وضعهم أمام الأمر الواقع ومداخلة الدكتور عبد القدوس أبو صالح التي جاءت بإرادة الله لتحل الإشكال... فرح عميق بترتيب الأمر، يزيده عمقاً وامتداداً مكالمة ناجحة مع الدكتور عبد الباسط بدر في المدينة المنورة للاتفاق على موعد مناسب لإلقاء محاضرة عن رحلتي مع النقد في نادي

المدينة الثقافي... فحمداً لله وحده... التوجه صبيحة الجمعة ٣/١٦ في رحلة مريحة إلى بغداد.

السبت ٣/١٧: تسلم الجواز من السفارة السعودية والانطلاق إلى الخطوط الجوية السعودية وإنجاز الحجز والتحويلات المالية... ثم التوجه بعد الغداء إلى المطار... وساعات ممتعة في قاعة المغادرة... وتعرف على صديق نصف عراقي ونصف سعودي، وأحاديث ذوات شجون... رحلة ممتعة مع لحظات الغروب ثم الوصول بعد شيء من التأخر في الظهران وارتياح لوجود المستقبلين: عبد القدوس وغدير وبريغش... اجتياز الرياض في سيارة عبد القدوس عبر واحدة من أروع الساعات المترعة بالتعليقات والضحك واسترجاع الذكريات والسؤال عن كثير من الأمور... النزول في فندق بديع حيث يتركني الأصدقاء على أمل اللقاء في اليوم التالي... والإحساس المعهود بالقلق وعدم الارتياح والضيق، والتشتت...

الأحد: الاستيقاظ صباحاً وتناول فطور شهي في مطعم الفندق... ثم جولة في سيارة حيدر الغدير في أجمل مناطق الرياض، الجامعة والقصور والمؤسسات... الخ... وجلسة ارتياح في بيته... ثم العودة إلى الفندق... النزول إلى بقالة مجاورة لشراء بعض الطعام مع موجة من التشتت والانقباض... بدء دوامة القلق الطاحنة المعهودة في جلّ السفرات... ها هنا حيث ضرورة زيارة الأقرباء في وقت قد يتزامن مع وصول العم الحاج يحيى الطالب وأبنائه... هناك أيضاً ترتيب مطالب السفر إلى المدينة المنورة، وتنظيم حشد من المواعيد بما فيها مع مدير الجامعة... فضلاً عن حضور أمسية ثقافية في بيت أحد السعوديين... قيلولة مترعة قلقاً ثم حسم القلق بمكالمة الأقرباء وارتياح لعدم وصول العم وأبنائه...

الاتفاق على انتظار سيارة تقلني إلى البيت، وهناك ألتقي بالدكتور أحمد التوتنجي والدكتور جمال البرزنجي، وأقضي ساعة ممتعة في حوار خصب أشعر خلاله بالتحقق العميق، بعد ذلك القلق الهاصر... حيث تعرض عليَّ دعوة ملحّة

للعمل في ماليزيا، ويعطيني مديرها استثناء خاصاً من شرط الإلمام بالإنكليزية، وحيث أعتذر عن إعطاء كلمة نهائية في الموضوع ريثما أرجع إلى بلدي وأدرسه... هناك أيضاً تسلّم نسخة من كتابي عن «حول تشكيل العقل المسلم» بطبعته الأنيقة، التي أصدرها اتحاد الطلاب العالمي في أمريكا... فحمداً لله... أغادر البيت وأنتظر غدير لكي يقلني إلى الأمسية، حيث يحتفظ بمكاني في صدر القاعة، وحيث الترحيب والتقويم الحار، وطلب التعليق على المحاضرة وإسهام في الحديث والتعليقات... مع تناول لقيمات لذيذة عبر اللقاء... عودة إلى الفندق ونوم عميق هناك.

الاثنين: زيارة بمعية عبد القدوس وغدير للأمين العام لمؤسسة الملك فيصل، الذي دعاني لإلقاء محاضرة في موسم المؤسسة الثقافي وتثبيت لموعد المحاضرة في الاثنين القادم، وأحاديث ثقافية ونشرية شتى... زيارة لشقة الأستاذ عمر عودة الخطيب، حيث لم يكن موجوداً... وعودة إلى بيت الدكتور عبد القدوس، حيث واحدة من ألذ دعوات الغداء: المائدة العامرة والطعام اللذيذ والتعليقات الشيقة والنكات المضحكة حتى الأعماق، وتبادل القراءات الشعرية ثم العودة إلى الفندق...

تثبيت الحجز إلى المدينة فجر غد الثلاثاء... التوجه مساء إلى مركز الملك فيصل للاستماع إلى محاضرة لعبد الوهاب المسيري عن هجرة اليهود السوفييت إلى فلسطين... ساعة طيبة مع الدكتور محب أبو صالح، واستكمال الأمسية في بيت عبد القدوس... نوم متقطع بانتظار موعد المغادرة في أعماق الليل.

الثلاثاء: عبد القدوس يقلني قبل الفجر إلى المطار... إحساس بالارتياح بعد ترتيب إجراءات المطار وأداء صلاة الفجر في صالة المطار... رحلة بديعة وفطور لذيذ... واستقبال مع الفجر في المطار من قبل مدير نادي المدينة، حيث يقلّني إلى فندق الرحاب الرائع ويتركني أرتاح ريثما يأتيني فيما بعد...

نوم صباحي متقطع ونزول إلى السوق لشراء بعض الحاجيات... قدوم مدير النادي والدكتور عبد الباسط وتناول الغداء في مطعم الفندق... ارتياح

في الفندق وصلاة في المسجد النبوي الشريف... يجيء بعدها مدير النادي لكي يقلّني إلى النادي حيث ألقي محاضرتي في الهواء الطلق، وحيث الحضور المشجع والحديث المتدفق عن تجربتي مع النقد... تجري بعدها مناقشات ثم نغادر المكان لحضور دعوة عشاء لذيذة في بيت الدكتور أكرم العمري، وتدور أحاديث ذوات شجون حتى ساعة متأخرة من الليل.

الأربعاء: في السوق مرةً أخرى، ومشتريات عديدة، بعد جولة بمعية الدكتور الخراط في معالم المدينة التاريخية: أُحُد والمقابر والمساجد العريقة، وبعد ذهاب للبريد وإرسال برقية اعتذار عن التأخر في الرجوع إلى رئاسة جامعة صلاح الدين وإحساس عميق بالارتياح... تناول الفطور في مطعم شعبي أنيق... وصلاة مترعة في الحرم النبوي الشريف... بعدها يلقي صهر الدكتور أكرم القبض عليَّ ويأتي بي إلى بيت دكتور أكرم في دعوة على الغداء... مع ثلة من الأحبة، حيث الطعام الموصلي اللذيذ والأحاديث العذبة في شتى مناحي الثقافة... ثم المغادرة لأداء صلاة العصر في الحرم المدني وشراء ساعة قيمة هدية لي من الدكتور أكرم... وعودة إلى الفندق للراحة قليلاً ثم استقبال الدكتور عبد الباسط لأداء الصلاة في الحرم النبوي، والعودة إلى الفندق لاصطحاب مدير النادي، الذي يسلمني مظروفاً مع الاعتذار عن التقصير يتضمن مبلغاً طيباً من المال.

توجهنا إلى بيت الدكتور الخراط، حيث قدم أبوه من الشام، وحيث لحظات اللقاء المؤثرة والإلحاح على تناول العشاء... غادرنا بعده لحضور أمسية جماعية في بيت أبي الفتح البيانوي، حيث الاستقبال الحار والإحساس العميق بالتحقق وسط التقويم المنهال من الحاضرين، وحيث يطلب مني أن ألقي كلمة فأختزلها اختزالاً تاركاً هامشاً زمنياً لتلقي العديد من الأسئلة في شتى مناحي الأدب والتاريخ، وحيث تناولنا الفاكهة اللذيذة، ثم مغادرة المكان إلى الفندق لاستكمال بعض المطالب حتى ساعة متأخرة... فنوم متقطع... فصلاة الفجر العذبة في الحرم.

الخميس: بانتظار الدكتور عبد الباسط والقيام عبر ساعتين فحسب بأسرع جولة مسواق في التاريخ، تم على أثرها شراء الكثير مما كنت أبغيه، بما في ذلك عقد من اللؤلؤ لزوجتي، وسط دوامة القلق بسبب ضيق الوقت وضرورة التهيؤ للتوجه إلى المطار بعد تناول الغداء في بيت عبد الباسط... أداء الصلاة في الحرم... ثم استكمال المشتريات والعودة إلى الفندق لتكديس الحاجيات في الحقائب وحملها سريعاً إلى السيارة ومنها إلى بيت عبد الباسط لتناول غداء شامي رائع، ومنه إلى المطار حيث يودعني الإخوة، وحيث تغادر الطائرة إلى جدة في رحلة ممتعة سعيدة لولا أن نغّص عليَّ تخلف حقيبتي الكبيرة التي تضم جلّ المشتريات الغالية، والتي كلفتني من أمري عسراً... بما في ذلك حاجياتي وملابسي الشخصية...

يبدو أنه مكتوب عليَّ أن أتجرع عذاب ضياع الحقائب عبر معظم أسفاري... فلا بأس... اثنان من الإخوة أحدهما فاروق البطل ينتظراني في المطار، وبعد جولة بالسيارة ننزل قليلاً لنرتاح في بيت أحد الأصدقاء وأنا بملابس الإحرام تهيؤاً للعمرة... وهناك ألتقي الشاعر الكبير بهاء الأميري، حيث يتحفني بتقويماته السخية وبعدد من دواوينه الأنيقة وبنكاته الرائعة...

نغادر المكان إلى بيت آخر لأستمع إلى القصة الدامية لابن صاحب الدار في الشام واللحظات المفجعة لدى تلقي النبأ، وموقف الأب والأم المتجلد الذي يرغمك على البكاء... تناول الحلويات والتوجه عبر رحلة ليلية عذبة إلى مكة المكرمة... وضع الحقائب في بيت أحد الإخوة، والانطلاق إلى الحرم المكي لأداء العمرة على أمل العودة لتناول العشاء واستكمال الأمسية...

واحدة من أبدع العمرات في حياتي، حيث هواء الليل العذب والشعائر السهلة، وعدم الزحمة، والإحساس العميق بالتخفف والفرح... العودة إلى البيت لتناول عشاء شهي وسط الأحاديث الخصبة، وحيث التقويمات السخية لمعطياتي... والقراءة الشعرية في ديواني (جداول الحب واليقين)، وحيث الحوار في أمور شتى حتى ساعة متأخرة من الليل، نغادر بعدها إلى منزل الأخ

سداد العقاد، لكي نخطف عدة ساعات من النوم ولا نستيقظ إلى ضحى اليوم التالي.

الجمعة: التوجه إلى الحرم المكي لأداء صلاة الجمعة، والعودة لتناول الغداء وإجراء لقائين صحفيين مسجلين مع سداد، ومحاولات هاتفية مع مطار جدة حيث لا شيء عن الحقيبة الضائعة، وحيث يفترسني إحساس عميق بالقلق والتشتت لأنها تتضمن حاجياتي الضرورية وكدحي ومكافآتي كلها... أتجه عصراً بالإحساس نفسه إلى جدة بمعية عدد من الأصدقاء، ونبدأ بالمطار حيث خيبة الأمل والإحساس بالمرارة... نصلي العشاء في أحد المساجد ونتجه إلى بيت أحد الإخوة حيث تقام أمسية شعرية يلقي فيها الشاعر محمد وليد بعض قصائده...

كنت سعيداً وزادني سعادة أن الشاعر لدى بدئه الحديث اعتمد فقرة من إحدى مؤلفاتي، ثم قال إنه لم يكن يعرف أن صاحبها سيكون حاضراً، وتلك هي من الواقعات السعيدة... لكن ما كان يقلقني هو الحقيبة... فضلاً عن أني اضطررت للبس ثوب صديق لم يكن على حجمي تماماً... وجاء الأميري مقيماً هو الآخر... وبعد الانتهاء من القراءة الشعرية تحدث الأميري وطلب مني الحديث، فتدفقت الكلمات المترعة حزناً على لساني وأحسست بالمزيد من التحقق... ثم قمنا لتناول العشاء في حديقة البيت: الخرفان المشوية مع الحلويات والفواكه والشاي وأحاديث شتى مع الأميري والشعراء الآخرين... ثم المغادرة بمعية فاروق البطل إلى شقته... في أعماق الليل وشيء من الإحساس بالانقباض والتشتت... ونومة عميقة.

السبت: ما أن أستيقظ صباحاً حتى أتصل هاتفياً بالمطار فيعلمني المسؤول أن حقيبتي الكبيرة وصلت... ثمة فرحة يصعب وصفها استمرت ترافقني اليوم كله فالحمد لله... تناولت فطوراً شهياً وجاء مدير دار القلم الأخ محمد علي دولة لتوديعي، فكانت أحاديث ممتعة وتوجه مشترك إلى المطار. تم

توديع البطل ودولة ودخول الطائرة وسط إحساس غامر بالفرح والاستقرار: فها أنا ذا أقع على ضالتي التي عذبتني طويلاً...

أصل مطار الرياض ظهراً فلا أجد أحداً في استقبالي، ربما لتأخر الطائرة عن موعدها، فآخذ تاكسياً تقلّني إلى فندق الخزامى الفخم... أستقر فيه قليلاً ثم أطلب غداء وأرتب حاجياتي وأنفذ سلسلة من المكالمات الهاتفية... مساء يجيئني دكتور عبد القدوس لقضاء أمسية مع حشد من الإخوة الأدباء، وهي واحدة من أعذب الأمسيات في السفرة كلها، حيث شاركنا فيها الشاعر الإسلامي المتألق عبد الرحمن العشماوي... تناولنا عشاء لذيذاً وتبادلنا أحاديث ونكات وملاحقات شعرية حتى لكأن الساعات تحوّلت إلى دقائق وذابت كما تذوب رغوة الصابون.

الأحد: زيارة بمعية الدكتور عبد القدوس لكلية الآداب، ومحاضرة لطلبتها عن الأدب الإسلامي، والأستاذ المقدم يسخو بتقييمي... حوار في قضايا الأدب في غرفة الأساتذة... عودة إلى الفندق لتناول غداء سيئ على طريقة مطاعم الدرجة الأولى... القيلولة التي يقطعها ـ كالعادة ـ سيل من المكالمات الهاتفية... التوجه مساء إلى أمسية الأحد في بيت دكتور مبارك، حيث الغدير يلقي محاضرته، وحيث التقييم من الحاضرين واللقاء بالدكتور عبد الحليم عويس بعد غياب طويل... وثمة لقيمات لذيذة تدور على الحاضرين خلال المحاضرة ومناقشات خصبة... أعود بعدها بصحبة عويس فيرغمني على شراء العديد من السكاكر واللبان هدية منه، ونجلس قليلاً في صالة الفندق ثم يودعني ويمضي.

الاثنين: زيارة بمعية الغدير لمركز الملك فيصل، والاطلاع على مركز المخطوطات وتقنياته العالية... غداء بوفية متخم في الفندق... التهيؤ مساء لإلقاء المحاضرة... عبد القدوس يقلني إلى هناك... المدير يستقبلني... الحضور مزدحم يغري بالعطاء... إلقاء المحاضرة وتدفق الأفكار... أفاجأ خلال المناقشة بلمسة سيئة من المبارك فأرد عليه بقوة، فيهتف عبد القدوس

مستحسناً... أسئلة ومناقشات أجيب عليها بتمكّن... يعلن عن دخول شهر رمضان المبارك... أدعى وعدد من الإخوة إلى دار الدكتور زيد مدير المركز لاستكمال الأمسية وتناول السحور... يقول الرجل إنها أروع محاضرة سمعها في باحات المركز... نتناول عشاء لذيذاً ونتحدث حتى ساعة متأخرة من الليل... أعود إلى الفندق وأظل مستيقظاً أتابع بعض المعلقات ريثما أصلي الفجر وأنام.

الثلاثاء: مقابلات صحفية في غرفتي في الفندق مع مندوب (المسلمون) الأخ الدويك... أنزل لمتابعة صرف بعض الصكوك والجلوس مع أحد الإخوة في الصالة ثم أصعد لأنام... يحين وقت الإفطار وأنا منشرح النفس... أصلي المغرب ثم أتجه للإفطار في المطعم المجاور في الدور السابع... الصنوف كثيرة كثيرة وأنا آكل بغير استمتاع كعادتي مع البوفيه، حتى التخمة، وأغادر المكان فيتناوشني الإحساس بالقرف والاشمئزاز...

يجيئني عبد القدوس وزوجته ونهرع إلى أسواق الرياض لشراء بعض الحاجيات النسائية والساعات... والوقت يلاحقنا... فثمة دعوة في بيت محمد حسن بريغش (ﷺ) بعد الصلاة مباشرة... نشتري على عجل... ثم نصلي ونتجه إلى البيت لكي نحظى بأمسية لا تقل روعةً ومتعةً عن تلك التي شهدها بيت الهاشمي يوم السبت الماضي... أحاديث ونكات وقراءات شعرية وتقويمات ثم سحور لذيذ... وأتمنى لو ترجع عقارب الساعة ولكن هيهات، وأعود إلى الفندق لكي أنتظر صلاة الفجر في المسجد القريب وأنام...

الأربعاء: جولة مشتريات صباحاً من السكاكر والمملحات... وتصفية القضايا المعلقة في المركز... الحجز والمكافأة والتحويلات والمحاضرة المطبوعة وتبادل العناوين... أرجع إلى الفندق لأخذ قيلولة رمضانية أستيقظ بعدها قبيل الغروب منشرحاً سعيداً... الإفطار في المطعم نفسه... مع التخمة نفسها والقرف والاشمئزاز... يجيئني عبد القدوس لتصفية الأمور المعلقة: التحويل النقدي، وزيارة الندوة العالمية للشباب لتسليمهم الكتب التي بحوزتي كي يشحنوها لي... والاستفسار عن مصير كتابي (قالوا عن الإسلام) وأمور أخرى...

بعد حوار ممتع مع أمين الندوة نتجه إلى بيت الدكتور إبراهيم بمعية عدد من الإخوة الجزائريين القادمين من أوربا من مسؤولي الاتحادات الطلابية، وعدد آخر من المثقفين السعوديين الأحرار... أمسية حافلة بالحوار... حضرها رجل الفضاء السعودي وحكى عن تجربته... وطلب الجزائريون أن أتحدث وأن أجيب على العديد من الأسئلة، ثم تناولنا سحوراً شهياً وأعادني سائق الأخ الداعي إلى الفندق... لأتهيأ صبيحة اليوم التالي للعودة... أسهر حتى ساعة متأخرة في حزم الحقائب، وأستقبل النوم متعباً مهدوداً...

الخميس ٣/٢٦: يجيئني الدكتور عبد القدوس وحيدر الغدير والبريفش (رحمه الله) ليقلّوني إلى المطار ويودعوني... ساعة طيبة مترعة بالعذوبة... ولحظات وداع مؤسية لأحب الناس إلى قلبي هناك، ثم أتوجه إلى الطائرة في رحلة مريحة إلى بغداد، ومنها آخذ سيارة من المطار لكي تقلني إلى الموصل في رحلة مريحة هي الأخرى... رغم متاعب الصيام... أصل بلدي في موعد الإفطار تماماً، وطبق الدولمة اللذيذ ينتظرني... بعدها جلسنا لكي نستعرض الهدايا والمشتريات التي عذبتني طويلاً وافترست من أعصابي وجيبي الكثير... وها هي ذي متعة التقديم لا تستغرق أكثر من ساعة أو ساعتين!!

[١٧]

رحلة عام ١٩٩٠ م إلى إنكلترا وفرنسا

أسابيع من العذاب والقلق والشد النفسي، بسبب ضرورة التوفيق بين مطالب الجامعة والوزارة وظروف الدكتور أنس صديق الشيخ عليّ المستشار الأكاديمي للمعهد العالمي للفكر الإسلامي في لندن... ومشاكل الحجز... فضلاً عن جبهة القلق المرّ بصدد اقتراح الأقرباء السفر إلى أمريكا لإجراء فحوصات القلب هناك، وصعوبة الحصول على الحجز المؤكد وضرورات الترانزيت، وأن أكون في أكسفورد في الموعد المحدد... ثم ما ألبث بعد تسويف الخطوط الجوية أن أستقر على الاكتفاء بالسفر إلى إنكلترا وإجراء

فحوصاتي فيها... فضلاً عن المشاركة في مؤتمر المنهاجية الذي أقامه معهد أكسفورد للدراسات الإسلامية بالمشاركة مع المعهد العالمي للفكر الإسلامي...

الأحد ٧/٢: المغادرة صبيحة يوم عيد الأضحى المبارك وسط أجواء نفسية وعائلية مؤثرة... رحلة مريحة بالطائرة إلى بغداد... مغادرة الفندق لتأكيد الحجز والحصول على المطلوب بعد قلق...

الاثنين: التوجه صباحاً إلى المطار وشيء من القلق والتخوف خشية عدم الضمان النهائي للحجز بسبب الازدحام الكبير... مفتشة التذاكر تتردد بعض الشيء فأجفل، ثم تعطي الأوكي فأدخل الصالة في غمرة من الفرح والارتياح... المغادرة في موعدها المحدد... وخمس ساعات من السفر المريح ووجبات الطعام والعروض السينمائية والاسترخاء مع شيء من القلق خشية ألّا أجد من يستقبلني هناك... الوصول واستكمال المغادرة ولحظات اللقاء المؤثر مع دكتور أنس ثم التوجه إلى بيته... التعرف على أخيه (خلدون) وتناول الطعام، وأحاديث ممتعة ومشاهدة مثيرة لكأس العالم ونوم عميق...

الثلاثاء: صبيحة ماطرة... ساعات في مكتب لندن للمعهد العالمي... وبدء دوامة القلق بسبب كثرة المطالب وخشية عدم الإمساك بزمام الأمور: هناك المتابعات الطبية... والحجز إلى ندوة باريس... ومتابعة بحوث المؤتمر... والتحويل المالي... وغيرها... العودة إلى البيت وقضاء أمسية سعيدة مع كأس العالم والأحاديث الممتعة.

الأربعاء: تحويل في أحد البنوك... ساعات في المكتب... زيارة لطبيب مختص، وفحص للحالة، وتأكيد لمعطيات أطباء الموصل بضرورة القسطرة والمداخلة الجراحية... قلق بصدد تحديد موعد القسطرة، وتخوف شديد من معاناتها خاصةً وأنها قد تقترن بويلات ضيق النفس، الأمر الذي يدمّر سعادتي بالرحلة، هذا إلى ضرورة متابعة الحجز إلى فرنسا استكمال الأمسية في البيت مع الأحاديث والقراءات وكرة القدم...

الخميس: ساعات في المكتب... ثم عودة إلى البيت لاستكمال الأمسية.

الجمعة: صلاة الجمعة في مسجد بنغالي... وجولة في إحدى الغابات وسط أجواء شاحبة، وعودة إلى البيت، والانطلاق مساء لإلقاء كلمة وسط جمع من المستمعين في مسجد وسط لندن... ثم جولة ليلية رائعة مع أحد الأصدقاء في معالم لندن الأساسية، وعودة إلى البيت.

السبت: جولة صباحية في لندن وسط أجواء غائمة... وجلسة في أحد المتنزهات بمعية الدكتور أنس... التوجه إلى مدرسة ابنته للعودة بها إلى البيت... أمسية طيبة مع كأس العالم والأحاديث وأطايب الطعام...

الأحد: توديع خلدون في المطار في جو ماطر... العودة للبيت لاستئناف النوم... رحلة جميلة في لندن عبر معالمها الأساسية في جو صاحٍ وجميل... التقاط الصور وتناول الآيس كريم، والتجوال عبر الجسور والشوارع والحدائق... ثم العودة للبيت ومغادرته ثانيةً إلى متنزه جميل مطل على البحيرة في رحلة عائلية نتناول فيها الغداء على ضفاف البحيرة، ثم استأنفنا التجوال إلى إحدى ضواحي لندن التاريخية، حيث إحدى القلاع الملكية... ثم العودة إلى البيت للانغمار مع كأس العالم في اللعبة النهائية والتحمس الممتع لألمانيا ضد الأرجنتين.

الاثنين: الإعداد لمطالب الرحلة إلى أكسفورد، والانطلاق إلى هناك وسط جو شاحب... الوصول وإلقاء الرحال في أحد الأقسام الداخلية الأنيقة للبوليتكنيك... إحساس بالاكتئاب والندم وعدم الانسجام... المشاركون يغادرون القرية إلى أكسفورد ويتركوني وحيداً... محاولات صعبة للحصول على سيارة تقودني إلى هناك وأحظى بالمطلوب... غداء خفيف ثم تبدأ الجلسة الأولى... وإلقاء محاضرتي عن (إسلامية المعرفة) حيث المساحة الواسعة للموضوع تجعلني أفقد القدرة على الإمساك بتلابيب المفردات... ورغم نجاح المحاضرة إلا أنني كنت أحسّ بأني غير مقتنع بها تماماً... نقاش بعد المحاضرة ودعوة عشاء لذيذة، وأمسية طيبة وأحاديث ذوات شجون في بيت الدكتور بسام

الساعي... والرجل يعرض عليَّ أن أكون عضواً مؤسساً في المجمع العلمي، فأعده خيراً.

الثلاثاء: إلى مركز الدراسات والاستماع إلى محاضرات الدكتور محمود أبو السعود (ﷺ) والدكتور مالك بدري وآخرين... غداء خفيف ومناقشات في حدائق المركز... وجولة في شوارع أكسفورد الجميلة وكلياتها التراثية بين جلستي الصباح والمساء... ودوّامة من القلق تتآكلني بصدد انتظار تقرير الطبيب، وضرورة إعطاء نسخة منه لأبي السعود، كي يستفسر من أطباء متمرسين في أمريكا، لأخذ رأيهم بصدد حتمية المداخلة الجراحية ومكانها... وهناك مشكلة ضمان الحجز في الموعد المحدد إلى باريس وضرورة الحصول على الفيزا... الخ... تحيل أيام أكسفورد إلى جحيم مشبوب من الهم والقلق... وفي المساء، وبعد تناول العشاء في القرية أذيب همومي واكتئابي مع الدكتور موئل السامرائي في جولات طويلة في أطراف القرية... وقبلها، خلال العودة، كان حديث أبي السعود عن المداخلة الجراحية يفجر قلقي وتشتتي واكتئابي.

الأربعاء: محاضرتي الثانية عن (ضوابط كتابة التاريخ الإسلامي) أكثر نجاحاً من سابقتها... الاستماع لمحاضرات أخرى... ونقاش في الهواء الطلق... وجولات في شوارع أكسفورد... وإحساس متزايد بالتحقق من خلال التقويمات المنهمرة بغير حساب... ولقاء مع رئيس تحرير مجلة (الغرباء)، والتقاط للصور... ثم عودة إلى القرية لتناول العشاء كالعادة وقضاء الأمسية هناك.

الخميس: الاستماع لمحاضرات المشاركين صباحاً ومساء... والإسهام في المناقشات... وجولات في أكسفورد... وبعض المشتريات... ودعوة عشاء موصلي لذيذ في بيت الدكتور محمد النجفي، وأحاديث ونكات حتى ساعة متأخرة من الليل... والعودة مع مدير المركز الهندي المسلم الدكتور اقبال.

الجمعة: المحاضرة القمة عن (ابن خلدون)، حيث التفوّق في الأداء والمعطيات وأسلوب الطرح، وحيث أتلقى التقييمات المترعة بالتثمين من الدكتور أنس، الذي يطبع على خدي أكثر من قبلة ويقول إنها أروع محاضرة يسمعها

في حياته... ومن كافة الحضور... حتى أن إحداهن تقول أنها لا تعرف العربية، ولكن أدائي شدها للمحاضرة إلى آخر لحظة... الحمد لله... وثمة إحساس عميق بالانشراح والتحقق يبلغان القمة، لولا القلق الذي يدب في كياني من جراء الأمور المعلقة والتخوف المتزايد من القسطرة القادمة بعد أيام قلائل...

السبت: محاضرات أخرى... دعوة عشاء من مدير مركز أكسفورد في إحدى الكليات العتيقة القادمة من القرون الوسطى، حيث ندلف عالم التقاليد الإنكليزية فنجتاز الحدائق الأنيقة، ونصعد إلى صالة معتمة، تضيئها الشموع الخافتة، وينهض مدير المركز لإلقاء كلمته مشيراً إلى حضوري أكثر من مرة... مركّزاً عليَّ أكثر من سائر المدعوين... مانحاً إياي قدراً أكبر من التحقق... وحيث نتناول العشاء (السيئ) على طريقة التقديم المتدرّج... وحيث ألتقي بعدد من المدعوين من شتى الأقطار وأتحاور معهم، وأتلقى منهم المزيد من التقييم حول كتاباتي... ثم نغادر المكان إلى القرية.

الأحد: تلقي المكافأة المالية لتذكرة السفر والجهد المبذول دون ما كنت أتوقع... ولقاء مع مدير المركز الهندي البروفيسور إقبال، حيث أتلقى تقويماً سخياً وعرضاً بالتعاون في المستقبل... توديع للدكتور مالك بدري في محطة قطار أكسفورد، ووقت طيب نقضيه في صحبته، وتقديم سخي من قبله لمكانتي كمفكر إسلامي... رحلة جميلة مع عدد من الأصدقاء وعوائلهم إلى أحد المتنزهات بين أكسفورد ولندن، حيث الغداء والحوار واللعب والتخطي والإطلالة على البحيرة واليخوت والسوائم البشرية!! ثم عودة إلى بيت الدكتور محمد النجفي لتناول العشاء، وتصفية الحجز والفيزا إلى باريس، حيث أحسّ بارتياح عميق ثم العودة إلى القرية، حيث اكتشف ضياع إحدى حقائبي الملأى بالأوراق والوثائق المهمة، فأقضي ساعات قاسية ذكّرتني بتلك التي قضيتها في رحلة السعودية.

الاثنين: أستيقظ فجراً بحثاً عن الحقيبة في عدد من السيارات دون

جدوى... وبعد ساعتين يجيئني بها الدكتور موئل من سيارته، فتغمرني فرحة يصعب وصفها فالحمد لله... أتجه إلى مركز الدراسات ويكون وداع مؤثر، ثم أستقل سيارة أحد الأصدقاء وننطلق إلى مطار هيثرو وأنا أحسّ باسترخاء لذيذ وتجاوز القلق وفرح بزيارة باريس... لولا شبح التخوف من القسطرة القادمة الذي يكدر عليَّ هنائي بين الحين والحين.

رحلة مريحة إلى باريس... وأطمئنان لدى رؤيتي لمستقبل جزائري يقلني بسيارته إلى الفندق عبر شوارع باريس الفارهة والأحاديث المتنوعة. أصل فندق القرية الخضراء في إحدى ضواحي باريس وألقي رحالي وأحاول الاتصال بالموصل دون جدوى... أتناول غداء من الأجبان الفرنسية الشهيرة وآخذ قيلولة خفيفة ثم أنزل عصراً لألتقي بالمشاركين ولنبدأ جلسة العمل الأولى...

مناقشات خصبة حول مناهج الكلية الأوربية وإحساس بالتحقق، وعشاء فرنسي سيئ لولا الحلويات والفواكه والمملحات والعصائر... ثم استئناف الجلسة... والخروج لأداء الصلاة... وجولة تخط على الكورنيش مع الدكتور محسن عبد الحميد، حيث تصفعني الكآبة وأتمنى لو أطير عائداً إلى بلدي!!

الثلاثاء: فطور شهي في مطعم الفندق... استئناف المناقشات عبر تناول المملحات اللذيذة... الغداء... القيلولة... ثم جلسة مسائية حيث يطرح مشارك من تونس فكرة جعلي في مجلس الأمناء بسبب المكانة التي أتمتع بها بين الإسلاميين، ودور مؤلفاتي في بناء الجيل الإسلامي الجديد... ومصداقيتي لدى الإسلاميين... لكنني أعتذر بسبب صعوبة الحضور المستمر ومشاكل السفر في بلدي العراق... وأكتفي بعضوية الهيئة العلمية...

العشاء وجلسة عمل أخرى تخترقها زيارة الأخ عبد الله الطنطاوي... وحوار مع عدد من الشباب، حيث أتلقى المزيد من التقييم، ويتكشف أكثر فأكثر حضوري في ساحة أوربا وإفريقيا الشمالية... ومن جهتي أطرح على أحد الإخوة التونسيين فكرة إشرافه على طبع سائر مؤلفاتي في الجزائر هدية مني للقراء هناك فيعدني الرجل خيراً...

الأربعاء: فطور جماعي لذيذ وأحاديث ممتعة، ثم استئناف المناقشات وتصميم المفردات المنهجية... الغداء... ثم التوجه في رحلة عذبة بالباص عبر باريس: الشانزلزيه... قوس النصر... حدائق إيفل... المركب النهري الذي يخترق السين، حيث معظم المعالم التاريخية الشهيرة في باريس مثل نوتردام واللوفر وغيرهما...

عودة إلى برج إيفل والصعود إلى فوق ورؤية من هناك لباريس الجميلة... تناول المرطبات والعودة عبر شوارع باريس والقراءات الشعرية والشوارع الفارهة... نصل الفندق لكي نواصل العمل، ويصعد الجميع إلى غرفهم، فهم على موعد يوم غدٍ للقيام برحلة جميلة إلى الكلية الأوربية في وسط فرنسا... أما أنا فقد كتب عليَّ أن أبتر الفرص من منتصفها، إما لأسباب نفسية، أو لارتباطات خارجية، وهكذا أعتذر عن الرحلة المشتركة وأقرر السفر يوم غدٍ للحاق بلندن وإجراء القسطرة... وأظل في صالة الفندق أعمل وأكدح حتى ساعة متأخرة من الليل، من أجل إنجاز الأقسام المتعلقة بي من المنهج وقوائم المراجع وغيرها من المطالب الملحّة... أتلقى مكافأة طيبة (حوالي ١٧٠ دولاراً) ثم أصعد إلى الغرفة لأنام...

الخميس: أستيقظ صباحاً فأودع المشاركين وأتجه مع صديق حميم عبر شوارع باريس إلى المطار، وأصل إلى لندن في رحلة يقطعها القلق من ألا أجد أحداً في المطار... وألا أجد دكتور أنس قد ثبت موعد القسطرة، لكن الأمور تسير بشكل جيد والحمد لله، فيوصلني المستقبل إلى بيت أنس، الذي أجده في انتظاري لتناول وجبة غداء شهية بعد زفت باريس. ونتجه مساء إلى أكسفورد، حيث اللقاء الجميل بالدكتور طه العلواني والتوجه إلى أحد المطاعم لتناول وجبة مقبلات ومشويات لبنانية لذيذة، ثم نعود للقسم الداخلي للبوليتكينك... حيث نتخطى إلى ساعة متأخرة من الليل، ويطرح العلواني العديد من المشاريع ويتم الاتفاق على أمور شتى.

الجمعة: الاستيقاظ الكئيب المتخوف من القسطرة... رحلة جميلة في

القطار مع الداعية الجزائري رشيد إلى لندن... التوجه إلى مستشفى كرومويل واستكمال الإجراءات... القسطرة والإحساس الغامر بالفرح والارتياح لدى تبين أنها لا تنطوي على أية متاعب، فيما عدا ألم خفيف لدى فتح جانب من الجلد عند المثانة.. أغمض عيني وتمضي العملية بيسر كامل، ثم أنقل بالمحفة إلى غرفة عليا، حيث ترعاني ممرضة نيوزيلندية والأخ رشيد... أتناول طعاماً خفيفاً بشهية وأفرغ مثانتي في إناء خاص... عصراً يجيء الطبيب ريتشاردز... يعطي الإذن بمغادرة المستشفى بعد دفع الأتعاب التي لا تتجاوز الأربعمائة باون، فأغادرها والأخ المصري وصفي، حيث نستقلّ تاكسياً يوصلنا إلى غير المكان المطلوب بسبب خطأ في العنوان... لحظات مترعة بالكآبة عند الغروب ووصفي يذهب لكي يبحث عن المكان، يرجع فنستقل سيارة أخرى إلى البيت... نتعشى هناك ثم نسلم أنفسنا لنوم عميق.

السبت: نتناول الفطور ويودعني وصفي، وأظل في البيت الساعات الطوال بانتظار مجيء أنس والعلواني... أقضي الوقت في الكتابة وصياغة المقترحات وحلّ القضايا المعلقة... مساء يجيء أنس والعلواني... نذهب إلى بيت أنس لتناول عشاء لذيذ وتلقي مكالمة من زوجتي تمنحني الكثير من السعادة والارتياح، ثم يوصلنا أنس إلى الشقة وسط لندن... ساعات من الحوار وصياغة المشاريع حتى وقت متأخر نسلم بعده أنفسنا للنوم.

الأحد: الفطور وتوديع العلواني في مطار هيترو... المفاجأة السارة بعرضه فكرة تسديد مصاريف المستشفى ليس على سبيل المنحة، وإنما باعتبارها أجوراً عن استشارات وجهود كنت قد قدمتها للمعهد عبر السنوات الماضية...

يعيدني أنس إلى الشقة ويذهب لقضاء مطالبه على أمل اللقاء غداً... أجدني وحيداً مرة أخرى، فأغادر الشقة في جولة رائعة عبر الشوارع المحيطة، حيث كنت أحسّ بسعادة غامرة تذكّرني بأيام تجوالي في أمسيات الخميس في بغداد... كنت أكتشف وأشاهد وأدخل المكتبات والأسواق المركزية وأجلس في المتنزهات، وأتناول غداء شهياً من السمك والبطاطا ثم الآيس كريم

والجبس... ألتقي بمعيدين من جامعتي... نذهب سوية إلى الهايد بارك... نتخطى عبر الشوارع المحيطة ثم أودّعهم... فأرجع عند الغروب وسط حالة مركزة من الاكتئاب إلى الشقة... أتجه إلى المنام وسط إحساس بالخوف والرهبة، ولكني ما ألبث أن أحظى بنوم عميق...

الاثنين: يجيئني أنس صباحاً فنتناول الفطور، ثم نبدأ جولة عمل بصدد مشاريع المعهد ومطالب العلواني وتثبيت حقوقي المالية، حيث عرض عليَّ أن أكون مستشاراً أكاديمياً للمعهد في العراق لقاء أجر شهري قدره خمسمائة دولار، فأعتذر خشية ألا أفي بمطالب العمل، وتحسباً من أن يفتح علي باباً للقلق والمتابعات التي تشغلني عن مشاريعي التأليفية، وأكتفي بحساب الربح على الإنجازات التي أقدمها للمعهد... نغادر الشقة لقضاء بعض المعلقات، ثم نتجه إلى المكتب، حيث أبدأ بمعاملة فتح حساب جارٍ لي في أحد البنوك، وأتناول ورشيد وجبة خفيفة في أحد المطاعم الأنيقة... نرجع إلى البيت بالمترو الأرضي ونواصل الكثير من المعلقات هناك.

الثلاثاء: جولة مشتريات مع أنس من السكاكر واللبان ولعب الأطفال وغيرها بالحركة السريعة خشية أن يسرقنا الوقت... التوجه إلى المكتب ومنه إلى البنك لاستكمال المعاملة... مساء نتجه وعدد من الأصدقاء إلى إحدى المتنزهات لتناول العشاء هناك... كنت في غاية الضيق بصدد الموقف من المداخلة الجراحية، وحتميتها، ومكانها المناسب... ولحسن الحظ يصطحبنا إلى المنتزه طبيب متمرس، فأساله ويجيبني بضرورة العملية وبأسرع وقت ويبين لي التفاصيل والأسباب، فأحس بسعادة غامرة وبأني أزحت عن نفسي هماً كبيراً ظل يجثم عليَّ طيلة أيام السفرة وها هو ذا يتلاشى... ولكن متى؟! في الساعات الأخيرة لرحلتي المنكودة... فيا للعجب... نرجع إلى البيت وأنا أحسّ بسعادة وانشراح فها أنا ذا قد رسيت أخيراً على قرار... وغداً سأقفل عائداً إلى بلدي... حيث سيتاح لي أن استرخي طويلاً بعد شد عصبي ونفسي دام الأسابيع الطوال... أرتب الحقائب حتى ساعة متأخرة ثم أستلقي مرتاحاً لأنام...

الأربعاء ٧/٢٦: التوجه المريح إلى المطار... الالتقاء بعدد من أصدقاء الكلية، حيث يعينونني على حمل الحقائب... فطور خفيف في المطار وتجوال في صالاته، وشراء للمشتريات والحاجيات الأخرى ثم التوجه إلى الطائرة، حيث تتأخر عن الإقلاع الساعات الطوال، فأحس بالضيق، ولكنه الاسترخاء الذي يوازن الأمر، والذي حظيت به بعد أسابيع التوتر والعذاب...

تغادر الطائرة عائدة إلى بغداد في رحلة مريحة... وهناك أفاجأ بخروج الأهل لاستقبالي فيكون الفرح مضاعفاً، ونستقل سيارة أجرة في طريقنا إلى الموصل لكي نصلها فجراً... فالحمد لله وحده...

[١٨]

رحلة عام ١٩٩١ م إلى الأردن

الثلاثاء ٨/٦: مغادرة الموصل في الحافلة... الطريق الطويل...

الأربعاء: الوصول صباحاً إلى طريبيل... ومنها إلى عمان... النزول في فندق ريجنسي ثم التحول إلى فندق القدس، تناول العشاء بدعوة من الأخ وضاح خنفر في مطعم (البستان) الرائع مع ثلة من الأصدقاء.

الخميس: زيارة دار البشير واكتشاف عدد من الطبعات الجديدة لمؤلفاتي... غداء مع الملكاوي (المستشار الأكاديمي للمعهد العالي للفكر الإسلامي في الأردن) وآخرين في مطعم جبري... توديع بعض الأصدقاء في المطار... عمل وعشاء في الفندق.

الجمعة: في بيت نسيب الأخ عبد الله الطنطاوي مع ثلة من الأصدقاء...

صلاة الجمعة ثم تناول الغداء... العودة للفندق... وجولة ليلية في عمان مع وضاح خنفر وأصدقائه... مكالمات هاتفية من دكتور أنس والعلواني... إجراء جملة من الفحوصات... تلقي مبلغ نقدي طيب من أنس.

السبت: استيقاظ كئيب وقلق... الذهاب إلى المعهد وقضاء بعض الأعمال... سفرة غداء إلى جرش مع الأصدقاء... عودة إلى الفندق... أمسية

وحوار حول الإنتاج الفني... عشاء في بيت حيدر قفة... رسالة لزوجتي... القلق المزمن بسبب المطالب التي لا تنتهي... تقييم متزايد في كل المناسبات... اكتشاف نشر بحثي عن (منهجية ابن خلدون) في مجلة (الإنسان) التي تصدر في باريس...

الأحد: استيقاظ كئيب وقلق... الذهاب إلى المعهد وتثبيت المسائل المتعلقة بندوة التاريخ مع الملكاوي... دعوة غداء في قصر الصنوبر مع دكتور إسحق الفرحان ودكتور عدنان زرزور والملكاوي وآخرين... عودة للمعهد لتثبيت إطارات الندوات والمحاضرات العامة... تقييم يصعب وصفه من المحاضرين.. وتكليفي بالعديد من الأعمال... عودة مرهقة للفندق وإحساس بالغرق في بحر المطالب... قيلولة قبيل الغروب... تشمير عن ساعد الجد لتصفية العديد من المطالب... شيء من الاكتئاب، وامتصاصه بالعمل إلى ساعة متأخرة من الليل.

الاثنين: صباحاً: رسائل في البريد... تصفية معلقات في دار عمار والمكتب الإسلامي... اكتشاف طبعة رقم ١١ لكتابي (دراسة في السيرة)... شراء أدوية والعودة إلى الفندق... جلسة مع المشاركين في ندوة التاريخ... التوجه إلى المعهد وبدء الطرح والنقاش غير المجدي بسبب تناقض التوجهات الفكرية للمجتمعين في الندوة...

مساء: غداء في الفندق مع دكتور فتحي الملكاوي ومصارحته حول لا جدوى المناقشات... عودة للمعهد وبدء الجلسة الأولى لندوة الفن الإسلامي... وتقييم من عدد من الحاضرين حول نشاطي المسرحي... تفرّد أحدهم واستئثاره بالحديث... فها هي الندوة الأخرى تتعرض للفشل... عودة مرهقة للفندق... وعدة اتصالات هاتفية... زيارة كمال رشيد وابنه وزوال الإعياء، وإحساس بالارتياح والانسجام.

الثلاثاء: استيقاظ مبكر على اكتئاب مركّز... الانغمار في العمل واستكمال مقالتي (الوعد الحق) لمجلة (فلسطين المسلمة)... مكالمة من الدكتور عويضة حول تقديم محاضرة السبت في الجامعة ليوم غد... زيارة كادر (فلسطين

المسلمة) وحوار وصور وتقييم...وأشارة إلى دعوتي لمشاهدة إخراج مسرحيتي عن (المغول)... غداء خفيف وقيلولة.

مساء: في صالة الفندق وزيارة مجموعة من المعارف الموصليين... إحساس بالانقباض... جولة تخط مع الدكتور فائز الربيع ومناقشة منهجية كتابة التاريخ وإحساس مع الغروب باكتئاب مركّز... أمسية في بيت الدكتور إسحق الفرحان مع عدد من المثقفين الكبار... وتقييمات متواصلة من الحضور... وفسح المجال لحديث طويل أحسّ عبره بتحقق عميق... العودة إلى الفندق، وهموم الإعداد لمحاضرة يوم غد حتى ساعة متأخرة... ونوم عميق...

الأربعاء: قلق وهموم الاستيقاظ... مراجعة للمستشفى الإسلامي بمعية الدكتور الملكاوي والترحاب والتقييم البالغين من الأطباء... الفحص الأولي والنتيجة الطيبة... الذهاب للجامعة الأردنية، والترحيب البالغ والحضور الطيب... ومتاعب الجهد الكلامي... غداء في بوفيه الفندق مع الملكاوي ومطالب جديدة تمتص الوقت... محاضرة وحوار خصب حول المعمار الأدبي في حدائق المعهد لولا متاعب ضيق النفس...

قادم من أمريكا يطلب على لسان المعهد سفري إلى أمريكا ويعرض ترشيحاً للجنة العليا المشرفة على الأنشطة الثقافية، فأعرب عن موافقتي ثم يلفني القلق... أمسية، وعشاء طيب مع الأصدقاء الشباب في مطعم القدس... العودة إلى التخطي اليومي السريع لنصف ساعة بناء على نصيحة الأطباء... كثرة المشاغل في الغرفة والعمل إلى ما بعد الثانية ليلاً... ارتياح للحصول على كلمة من الملكاوي بإعطائي المبالغ الموجودة في القاهرة وشيء من المبالغ الموجودة في لندن حتى في حالة عدم وصولها خلال وجودي.

الخميس: فرح بالاتصال بدار البشير ووصول رضوان دعبول والاتفاق على موعد... اتصال بدار الثقافة دون جدوى... اجتماع مع الربيع والشوابكة في كلية القدس لمناقشة المنهج، وتقييم من قبل عميدها، وتكليفي بعدد من المهام... جلسة وحوار طيب في الفندق مع الشوابكة حول الصهيونية

والعثمانيين... اللقاء برضوان وحل الكثير من المعلقات... عشاء وأمسية ممتعة مع الحوار في الشؤون الأدبية والتقييمات الغنية لي كأديب، وحول أعمالي التي تمتد عمقياً وأفقياً، وقدرتي على الاختراق رغم الظروف الصعبة. واعتباري رائداً للأدب الإسلامي... الخ وذلك مع حشد من الأدباء والأصدقاء... تخطي سريع حتى الواحدة ثم جلسة استرخاء في صالة الفندق، واستكمال المعلقات، فالنوم في ساعة متأخرة.

الجمعة: استيقاظ على قلق وكآبة المطالب... العمل في ملفات المناهج حتى الحادية عشرة... الذهاب إلى دار حيدر قفة وحوار في قضايا النشر، فصلاة الجمعة... فتناول الغداء ثم العودة للفندق، فقيلولة عميقة ثم اعتقال في الغرفة للعمل المتواصل الساعات الطوال... واعتذار عن دعوة خروج للعشاء من الأخ وضاح خنفر... تعريف ببحث مترجم إلى الإنكليزية في مجلة علماء الاجتماعيات بأمريكا... جولة تخط ثم الجلوس في الصالة ثم النوم في ساعة متأخرة.

السبت: صباحاً: التوجه إلى المعهد... جملة من الاتصالات الهاتفية بدور النشر... حل العديد من القضايا العالقة مع الدكتور فتحي الملكاوي... العودة المسرعة إلى الفندق للاجتماع بثلاثة من أساتذة التاريخ والاتفاق على ترتيب أطر ومحاور ثلاث من الندوات المعنية بأسلمة التاريخ... غداء مشويات لذيذة في الغرفة... قرار بالبقاء مساء في الغرفة وإنجاز عدد من الرسائل التي تتضمن المقالات والاقتراحات لأكثر من جهة، تقطعها زيارة ابن العم إنعام الطالب، والحسناوي (ﷺ) (حيث كانت لحظات سعيدة ومؤثرة)، وشلّة وضاح خنفر وهي تحمل معها الآيس كريم... عودة للعمل... وعشاء في صالة المطعم وإحساس بالندم بسبب كثرة ملحه... جولة تخط وسهر حتى ساعة متأخرة من الليل...

الأحد: شيء من القلق والاكتئاب لدى الاستيقاظ كالعادة... ارتياح لترتيب موعد مع دعبول عصراً... مجيء فايز الربيع والقيام بزيارة للدكتور عبد العزيز الدوري، تميزت بالودية والحديث في المواضيع التاريخية والجامعية والشخصية، وموافقته على التعاون مع مكتب الأردن بصدد ندوات التاريخ...

العودة إلى الفندق وارتياح غامر لإنجاز معظم الريبورتاج الخاص بمجلة فلسطين المسلمة، والذي يتضمن أربعة عشر سؤالاً... غداء في الغرفة فقيلولة... التوجه عصراً إلى دار البشير، وحل الكثير من المعلقات المطروحة عليه في اللقاء السابق. وتسلّم كتابي الجديد (الفن والعقيدة) وارتياح لوعده إياي بتسليمي يوم غد مبلغاً من حقوقي لديه...

التوجه إلى بيت أحمد رمضان وقضاء أمسية طيبة وعشاء لذيذ، حيث تم التقييم الموجه لي من عدد من الأدباء والصحفيين... ودار الحديث عن المسرح وأدب الأطفال والصحافة ومسألة الغناء... العودة إلى الفندق وإذا بالملكاوي ينتظر مكالمته، وإذا بالمكالمة تتضمن أعباء وأنباء جديدة... تغيير موعد محاضرة يوم غد إلى الأربعاء لكي تتاح الفرصة للإعلان عنها في الصحافة... ضرورة حضور ندوة الماليزيين... وصول بحثي عن الإسلامية من لندن مترجماً إلى الفرنسية والإنكليزية... اتحاد الكتاب الأردنيين يطلب مني إلقاء محاضرة يوم الخميس... تمديد فترة بقائي لإجراء المزيد من الفحوص الطبية...

الاثنين: صباحاً: فطور مع ملكاوي في صالة المطعم... ساعات طويلة مع الحلقة الدراسية الماليزية في الصالة العليا للفندق... وتقييم مترع عبر الحوار ذكّرني بندوة أكسفورد... عززه وصول بحثي المترجم إلى الإنكليزية والفرنسية من لندن... وطلب مدير الحلقة إلقاء محاضرة عن الموضوع... وزادني فرحاً وصول كتيب مكتب القاهرة عن إسلامية المعرفة... غداء مع الحلقة في مطعم الفندق، ثم التوجه إلى المستشفى الإسلامي وارتياح لإجراء كافة الفحوصات المتبقية والمتعلقة بالجلدية والمرارة... الاتفاق مع دار البشير على تسلّم أربعة آلاف دينار، ألف منها عن حقوقي في الدار وثلاثة آلاف عن أحد القسطين الموعودين عن كتابي لندوة الشباب (قالوا عن الإسلام) فالحمد لله...

هذا وقد تم تجديد التعاقد على اختصاص دار البشير بطبع أو إعادة طبع كافة كتبي لديهم... وأرجع إلى الفندق سعيداً لولا زحمة العمل، التي

ترغمني على البقاء في الغرفة وتجاوز إغراءات الأصدقاء بالخروج، بما فيها مكالمة من كمال رشيد، وأخرى من الملكاوي للذهاب معه إلى المعهد وقضاء الأمسية مع مجموعة من الأصدقاء... العمل المتواصل حتى الإعياء... ولكن عند العشاء يفاجئني الدكتور عمر الساريسي (ﷺ)، ويقتحم عزلتي ويعرض عليَّ إلقاء محاضرة في جمعية الكتاب الأردنيين، فأتردد ثم أميل إلى الموافقة على أن أعطيه رأيي النهائي يوم غد بإذن الله... جولة التخطي اليومي السريعة في شارع الجامعة، والجلوس قليلاً في صالة الفندق، والعودة للغرفة والعمل المتواصل حتى ساعة متأخرة من الليل.

الثلاثاء: اعتذار للملكاوي عن الحضور المبكر لحلقة الماليزيين التربوية... التوجه إلى البلد وإنجاز جملة مطالب لدى المكتب الإسلامي ودار عمار، والمشتريات المطلوبة، ومطالب البريد... والإحساس بالارتياح والتخفف ثم العودة إلى الفندق واللحاق بالحلقة الدراسية للماليزيين، حيث يتاح لي المجال للحديث العميق المستفيض عن خصائص النظرية الإسلامية للمعرفة، وعن مصطلحي الحضارة والتراث، فأبلغ حدّ التفوق، وينهال عليَّ التقييم من رئيس الجلسة ومن المشاركين، حتى إن إحدى النسوة الماليزيات تهديني قطعة قماش ماليزية... ويطالب آخرون بالتوقيع على عرض إحدى الأفكار على اللوحة لنقلها معهم إلى هناك فحمداً لله...

تناول الغداء في مطعم الفندق، قيلولة قصيرة وعميقة... التوجه إلى مقر المعهد العالمي وبدء المناقشات المملة الطويلة، حيث ينقض أحدنا ما بناه الآخر... ونتفق على عدة صيغ ثم ما نلبث أن نمحوها بصيغ جديدة... وهكذا حال اللجان والعمل الجماعي الذي يقتل العطاء...

هذا إلى أن أحد المناقشين كان يطرح أفكاراً تدل على عدم هضمه للمنظور الإسلامي، ورفض الاقتناع به تشبثاً منه بالمنظور القومي... ولذا قررت ألّا أشارك مستقبلاً بأي نشاط غير مجد من هذا القبيل، وأن أكتفي بتقديم الأفكار والملاحظات والبحوث وبإلقاء المحاضرات، والمشاركة في الندوات...

أعود إلى الفندق أحمل هموماً ثقيلة بسبب تفجر المطالب واندلاعها كرةً أخرى... فأحبس نفسي في الغرفة وأعتذر عن دعوات عديدة للخروج، وأنجز محاضر جلسات (أسلمة التاريخ)، وتقريراً عن رحلتي إلى الأردن... وتعميقاً لخطوط محاضرتي ليوم غد... وغيرها من الأعمال... وأحسّ شيئاً فشيئاً بأنني أزيح عن كاهلي أوقاراً وأوقاراً... هذا إلى أنني حسمت موضوع محاضرة رابطة الكتاب الأردنيين بالاتصال بالساريسي والموافقة عليها.

الأربعاء: لقاء بالملكاوي على الفطور، وحل القضايا المعلقة، وتسليمه أصول كتابي الكبير عن إسلامية المعرفة... التوجه إلى دار البشير فإذا بصاحبها يعتذر عن الألفي دولار ويقلصها إلى النصف... حجز لباص العودة على يوم الجمعة... عودة إلى الفندق وارتياح لبلورة خطوط المحاضرة في ذهني... قيلولة سريعة... ثم الذهاب بصحبة حشد من الأصدقاء إلى مركز عبد الله، حيث ألقيت محاضرة متألقة بحمد الله، تلقيت بعدها العديد من التهاني والكلمات المخلصة، وتعرّفت على العديد من الإخوة والتقيت بالعديد من الأصدقاء القدامى...

مقدّم الحفل الدكتور عزت العزيزي يغرقني بثنائه وبدوري المتشعب، العمقي والأفقي، في خدمة الفكر الإسلامي بسمة أساسية هي الإخلاص.. وإعلان في الصحف عن المحاضرة، يتضمن تقييماً لصاحبها ككاتب إسلامي... وإشارة من قادم من إندونيسيا إلى ترجمة كتابي (ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز) وكذا كتابي الآخر (دراسة في السيرة) الذي اعتمد ككتاب منهجي، إلى الإندونيسية... فحمداً لله وحده...

إحساس بالإعياء بعيد المحاضرة بسبب كثرة الحديث والجهد وانفجار المطالب والدعوات والأسئلة... التوجه مع حشد من الأصدقاء والشباب في جولة ليلية إلى مشارف الغور، ثم عودة لتناول الدوندرمة والجلوس في كازينو سنترال، ومنها إلى الفندق في حالة همّ وتشتت وقلق لكثرة المطالب...

ارتياح لإنجاز عدد من المكالمات، وبخاصة مع الدكتور أنس في لندن،

حيث طالبني بإرسال المزيد من المقالات، وأن أختصه بكل ما أقدر على إنتاجه... الانصراف المكثف في ساعة متأخرة من الليل إلى إنجاز المطالب الملحّة حتى الإعياء... وثمة قلق جديد يسببه إلحاح الدكتور الملكاوي والشباب في البقاء يومين آخرين، ومشاركتهم برحلة سياحية جميلة إلى جنوبي الأردن حتى العقبة!!

الخميس: رزمة هدية من رئيس تحرير جريدة اللواء، وتعريف في أحد الأعداد مترع بالتقييم... تصفية بقية المعلقات مع الدكتور الملكاوي وارتياح لوعده بتهيئة المبلغ المطلوب... اتصال برضوان وتأجيل موعد اللقاء إلى العصر... حضور إحدى جلسات الندوة الماليزية... النزول إلى الغرفة ضحى وإنجاز ترتيب عدد من البحوث والمقالات لإرسالها كوجبة ثانية إلى دكتور أنس في مكتب لندن... زيارة مدير إدارة المحاكم الشرعية في قطر وأحاديث ذوات شجون... الذهاب لتلبية دعوة غداء بمناسبة زواج صحفي فلسطيني... نومة عصر قلقة تقطعها مكالمة أحد الباحثين!!...

يأتيني الساريسي بسيارته ونذهب إلى اتحاد الكتاب... يدور حوار طيب ومتدفق ويتم التعارف واللقاء بالصديق القديم الشبول، وبرئيس جامعة اليرموك... ثم يقدمني الساريسي فيغرق في مدحي، وأبدأ محاضرتي حول ضوابط منهجية لإعادة كتابة التاريخ الإسلامي... وتتدفق الأفكار، وأصعّد في الحديث... فتكون واحدة من المحاضرات المتألقة يعقبها نقاش خصب...

أعود بعده إلى الفندق بمعية كمال رشيد (رَحِمَهُ اللَّهُ) والشاعر الجيتاوي، الذي يقدم لي هدية قيمة... بعدها ألتقي الملكاوي ويدور حوار حول مطالب الدكتور طه العلواني بخصوص منهجية التاريخ... وأتسلّم هدية أخرى يقدمها الملكاوي من الماليزيات، ونقوم سويةً بإعلام إدارة الفندق بمغادرتي غداً، ويقوم ملكاوي بالتوقيع على القوائم بما فيها مكالماتي الخارجية دون أن أتكلف أي مبلغ من جيبي الخاص فحمداً لله... ثمة إحساس بالدوار يصيبني مرتين مساء هذا اليوم... ومع ذلك أصعد إلى الغرفة لكي أواصل القراءة حتى الثالثة ليلاً...

الجمعة ٨/٢٣: استيقاظ غير قلق ولا كئيب، لأول مرة منذ سفري، فها أنا ذا قد تجاوزت محنة الانفجار في المطالب، بعد أن نفذت معظمها بتوفيق الله ﷻ... وها أنا ذا أتهيأ للمغادرة عصر اليوم، ولم يتبق سوى استقبال عدد من الأصدقاء، وترتيب بعض المسائل وبخاصةً مع أدباء مشروع (أصوات)... ثم أصلي الجمعة وأعود لترتيب الحقائب في سباق متشنج مع الزمن، ثم أتناول غداءً لذيذاً ولكن بسرعة كبيرة... بعدها يجيئني بلال كمال رشيد لكي يقلني إلى موقع الباص، وأغادر عمان وسط إحساس عميق بالتخفف والارتياح... رغم ضيق الباص وبطئه... وكنت أحسّ أنني أنهي واحدة من أقسى الرحلات في حياتي وأكثرها جهداً وقلقاً ونصباً... وأنني ـ كذلك ـ أنجز حشوداً من المطالب لم أكن أحلم بإنجازها في هذه الفترة القياسية.

وبعد اجتياز طريبيل الحدودية دون أية متاعب كمركية سوى التأخير، أحسّ بالمزيد من الفرح، وأغرق في نوم عميق لا أستيقظ بعده إلا على مشارف بغداد... وهناك قدرت على الحصول على تاكسي دون أن أبذل أي جهد في حمل الحقائب، وأحظى بقسط آخر من النوم لكي ما ألبث أن أصل البيت بحمد الله...

لكن... إضافة إلى أحاسيس التشتت والقلق التي تنتابني في أعقاب كل عودة... كان هناك إحساس هائل بالإعياء، وآلام ممضّة في الصدر... وكانت هنالك قيلولة كاد نَفَسي فيها أن يغيب أكثر من مرة... وهناك بعد هذا كله... أكداس أخرى من المطالب تنتظر التنفيذ... فيا عون الله جلّ في علاه!!

[١٩]

رحلة عام ١٩٩٢ م إلى الأردن

الأحد: الانطلاق فجراً إلى بغداد... غداء وقيلولة في بيت الدكتور محسن عبد الحميد... التوجه سويةً إلى كراج الحافلات والانطلاق إلى الأردن... متاعب الوقوف الطويل في طريبيل...

الاثنين: مواصلة السفر المرهق والوصول عصراً... إحساس بالاكتئاب... التباس الحجز في فندق القدس... التوجه إلى شقة الدكتور فتحي الملكاوي... عشاء رائع في مطعم الصنوبر... نوم مشبع في الشقة.

الثلاثاء: تناول الفطور... الذهاب إلى المعهد... التحوّل إلى الفندق والإحساس بالاستقرار... الغداء... الذهاب عصراً إلى الندوة التي يقيمها المعهد العالمي للفكر الإسلامي / مكتب الأردن... وحديث عن (البعد الفكري في المشروع النهضوي الإسلامي)... تمكّن وإجابة على الأسئلة... أمسية في بيت عذيبات... حديث مؤثر مع السودانيين.

الأربعاء: لقاء في صالة الفندق مع مدير دار الثقافة (محمد سعيد المبيض)... ثم عمل في الغرفة... مكالمة من الدكتور أنس في لندن يحل فيها الكثير من المعلقات... غداء... قيلولة... إلى الندوة ومحاضرة عن (أزمة المثقفين)... تعليق من الدكتور فتحي لدى المغادرة يضعني في دائرة الثقة والانسجام... عشاء ممتع في الفندق... أمسية في بيت أبي أنس.

الخميس: الحضور في ندوة تدريس علوم الشريعة وتنفيذ مشاركة فاعلة... الغداء... والقيلولة... مساء: البقاء في الغرفة لإنجاز العديد من المعلقات... تناول العشاء في الغرفة... جولة تخطي مريحة... واسترخاء في صالة الفندق.

الجمعة: رحلة جماعية إلى إربد واليرموك ومساجد الصحابة والبحر الميت... العودة وحل المعلقات مع الدكتور الملكاوي وارتياح عميق... زيارة لكهف أهل الكهف، ومهاجمة الزكام وربما الجيوب بعنف... عشاء وجلسة استرخاء مع الدكتور محسن في صالة الفندق.

السبت: إحساس بالتحسن بحمد الله ﷻ... الذهاب مع عبد الله الطنطاوي ومحمد السيد إلى سفارة تركيا للحصول على تأشيرة دخول لمؤتمر النورسي... زيارة لجريدة اللواء... التجوال في السوق والمكتبات وسط عمان...

إحساس بالضيق بسبب الزكام والنفس وتعثر الأعمال... ثم الإنجاز والارتياح والعودة للفندق... زيارة الزعاترة وأحمد رمضان ومنير شفيق وجلسة

في بيت أحدهم... حضور الندوة... أمسية في بيت الدكتور مأمون جرار بمعية الصديق القديم فالح... العودة للفندق والإحساس القديم بالتشتت والضيق والقلق بسبب كثرة المطالب... السهر حتى ساعة متأخرة لإنجاز المعلقات.

الأحد: فطور وتوديع لأحد الأساتذة... ورسالة لمجلة (المسلم المعاصر)... الذهاب إلى المعهد وارتياح عميق لتصفية الاستنساخ، وإرسال بحث (منظور غربي) للدكتور أنس، وترتيب إصدار عدد جديد من (أصوات)... وتصفية معلقاتي مع الدكتور فتحي، ومكالمة الدكتور أنس في لندن... غداء شهي في الفندق.

عصراً إلى الندوة حيث محاضرتي عن (العقل المسلم) والإقبال المكثف، والتألق بحمد الله، ثم الإجابة على الأسئلة... أداء صلاة المغرب... والوقوف مع حلقات الأصدقاء والسائلين... تعليق متوازن من الملكاوي حول المحاضرة...

دعوة عشاء في حدائق المعهد، وتقييمات ودعوات عشاء وطلب محاضرات وحضور ندوات من عدد كبير من المعنيين بالهم الإسلامي من مختلف الأقطار... أحاديث شيقة مع النخبة وإحساس غامر بالتحقق... العودة إلى الفندق... وحوار مع اثنين من السودانيين... انتظار مكالمة من العلواني دون جدوى... العمل حتى ساعة متأخرة ثم ما تلبث مكالمة العلواني أن تجيء فتفتح عليَّ جملة من المطالب الجديدة... مكالمة هاتفية قبيل الفجر يطلب صاحبها إلقاء كلمة في أحد المساجد!!

الاثنين: صباحاً إلى السفارة التركية لاستخراج الفيزا... إجراء مقابلة صحفية مطولة مع جريدة اللواء... غداء في الفندق... عصراً محاضرة مشتركة مع الدكتور محسن عبد الحميد عن التراث... اللقاء بأحمد الحسو وهشام الطالب... إلحاح من الطلبة والقراء بعد صلاة المغرب إلى حد الإعياء... أمسية في بيت الدكتور عودة أبو عودة وحديث عن الأدب... ساعة مع ابن العم هشام الطالب في غرفته.

الثلاثاء: الفطور... زيارة للصباغ... زيارة لمعجبين من إربد يعرضان عليَّ

وعلى الدكتور محسن الذهاب إلى هناك، وأنهما سيتوليان تهيئة سيارة لإيصالنا إلى العراق... فنعتذر... ثم يلحان على استضافتي لدى مروري بعمان بعد أسبوعين في طريقي لحضور مؤتمر النورسي في إسطنبول فأعرب عن موافقتي...

جولة في السوق لاستكمال المطالب والحجز لسيارة العودة لم نوفق فيها... الذهاب ثالثة للسفارة التركية والحصول على الفيزا بعد انتظار ونفاد صبر.. غداء مع الدكتور إسحق فرحان وهشام الطالب وآخرين في مطعم الفندق... رئيس جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية الدكتور أحمد علي الإمام (ﷺ) يعرض دعوة لزيارة السودان فنقترح العطلة الربيعية.

الذهاب عصراً للندوة للمشاركة في محاضرة عن المرأة والخطاب الإسلامي، حيث الحضور المكثف... والمغادرة إلى المسجد وتجمع المشاركين وأسئلتهم، وطلب العناوين، وتلقي حشد من التقويمات وكلمات المودة والتقدير... ارتياح لتدبير أمر العودة مع أحد الأصدقاء... دعوتان للعشاء، إحداهما مع أسرة (فلسطين المسلمة) ومنير شفيق، حيث جرى السماع لتجربته العميقة التي آلت به إلى الإسلام، وأخرى في بيت طارق التل، حيث النخبة والتقييم والتوديع والإحساس بالتحقق... عودة إلى الفندق بمعية فاروق بدران...

إحساس بالإعياء المعهود والتشتت كما هو الحال في كل السفرات... فضلاً عن تزايد في آلام الأمعاء... مطالب عديدة تنتظرني قبل أن أحظى بالنوم، فأصفي بعضها وأترك الآخر ليوم غدٍ، رغم أننا مطالبون باستقبال المودعين في صالة الفندق وهم ليسوا بالقليل...

الأربعاء: هاتف مبكر وزيارة من طارق التل مع سلّة فاكهة!! حلّ العديد من القضايا المعلقة هاتفياً، وأخرى مع الدكتور زيد أبو الحاج... وثالثة مع عبد الله الطنطاوي... وإحساس بالارتياح... هدية وحوار مع هشام الطالب... وإحساس شديد بضيق النفس... جلسة في الصالة مع الطنطاوي وحيدر قفة...

حلويات من الدكتور الملكاوي... الصعود إلى الغرفة لترتيب الحقائب واستكمال المكالمات...

خطأ مني ومن الدكتور محسن عبد الحميد في التسرّع لتناول الغداء بسبب تقديم موعد السفر مع أحد الأساتذة، قبل حضور المدعوين المودّعين... لكننا ما نلبث أن نتدارك الخطأ بالنزول ثانيةً إلى المطعم وتناول الغداء بطريقة مرنة وعفوية... تلقي مكافأة نقدية وكتاب شكر على الدور الذي قمت به والدكتور محسن... التوديع ومغادرة الفندق في سيارة مريحة... ورحلة ميسرة غير مرهقة... الوصول إلى بغداد فجراً... مغادرة دار الدكتور محسن والتوجه إلى الكراج، والعثور السهل على سيارة إلى الموصل في رحلة كاد النوم المتواصل ألا يشعرني بها.. فرحة الوصول والاستقرار...

[٢٠]

رحلة عام ١٩٩٢م إلى تركيا

الأحد ٢٠/٩: الانطلاق فجراً... الرحلة المريحة... الوصول... ردّ الفعل من الاكتئاب والندم على المبيت لدى صديق من إربد... الاستقرار... العشاء وحوار خصب... والنوم العميق...

الاثنين: إلى عمان... التذاكر والتعقيدات... السفارة التركية ومعاملة تأشيرة الأخ أديب الدباغ المدعو معي لحضور مؤتمر النورسي... الحصول على التذاكر... المعهد العالمي والاتصال بملكاوي وموعد على الغداء ليوم غد... جولة في السوق وصرف عملة وشراء هدايا وتناول الغداء... زيارة للناشرين.. اتفاق مع دار عمار لنشر بحثي عن (القرآن الكريم من منظور غربي)... العودة إلى إربد... حوار متوتر مع صاحب الدار... ونوم غير عميق...

الثلاثاء: إلى عمان... وضغط العمل والرسائل، والارتياح العميق لإنجازها قبيل الغداء... غداء رائع من السمك في قصر الصنوبر، حيث يجتمع التحرر من المشاغل والطعام والانسجام والتحقق... موعد ليوم غد مع الدوري وطلبة

الدراسات العليا... العودة المريحة إلى إربد وأمسية مترعة بالحوار وطرح وجهات النظر العميقة، وارتياح لاستعادة الألفة مع المضيف... نوم متقطع...

الأربعاء: فطور ثم زيارة لمدرسة الأقصى وحوار خصب... زيارة لوالد المضيف... التوجه إلى عمان في سيارة شقيقه... ساعات طويلة في السفارة بانتظار تأشيرة أديب الدباغ... الإحساس المرّ بالإحباط... العودة إلى المعهد وإجراء شبكة من الاتصالات لحل الإشكال... حوار متدفق مع طلبة الدكتوراه لولا قلق الفيزا... العودة إلى إربد مع ملكاوي... حوار آخر حتى منتصف الليل.

الخميس: بشرى من صديق حول مكالمة للسفارة التركية من الصالحي... الذهاب إلى السفارة وفرحة طاغية بالحصول على تأشيرة أديب الدباغ... حوار حول الأدب مع أديب شاب... مكالمات وتقويمات وإحساس بالتحقق والسعادة... الحصول على عدد من الأشرطة والأناشيد... وارتياح لاحتمال صدور (أصوات) في موعدها المتفق عليه... المغادرة بالتاكسي إلى المطار ومطحنة الطرق المسدودة بسبب احتفالات استقبال الملك العائد من أمريكا... ثم فرحة إيجاد منفذ والوصول إلى المطار بعد شد قاس للأعصاب... رحلة جوية مريحة... استقبال حار في مطار إسطنبول... لقاء في بيت إحسان الصالحي... الفندق ونومة عميقة.

الجمعة: قلق التردد بين البقاء أو التحول لشقة في أطراف إسطنبول... جولة ممتعة في سلطان أحمد... أيا صوفياً... الحمام الروماني... صلاة في الفاتح... غداء في بيت إحسان... ساعات من الحوار... جولة في إسطنبول والسور ومسجد الأنصاري وساحل البحر... اشتداد البرد ليلاً وإحساس بالغثيان... لقاء طيب لدرس عن النورسي واستقبال للمدعوين المصريين... الفندق ونومة متقطعة...

السبت: جلسة انتظار في صالة الفندق... توزيع مائتي دولار لكل مدعو والذهاب إلى محل كبير للتحافيات، ولحظات صعبة من الحيرة والتردد بين الإسراف في الشراء وعدمه، بسبب الغلاء من جهة، وإغراءات التخفيض من

جهة أخرى... التوصل إلى حل وسط بدفع نصف المبلغ بعد ساعة من التوتر لاختيار مطاليب القائمة الطويلة، ثم إحساس رائع بالارتياح لشراء هدايا رائعة جداً...

صلاة الظهر في أحد الجوامع ثم غداء رائع في مطعم سعيد... جولة في عدد من الصحف: تركيا، الزمان... وحديث مؤثر ومفرح من أحد رؤساء التحرير... العودة للفندق وانفجار التلفونات والزيارات والمواعيد فيما ذكرني برحلاتي السابقة... طلب من إحسان بتقديم كلمة في حفل الافتتاح... حضور (درس) آخر للنورسي ومشاركة واسعة فيه... زيارة سريعة لبيت إحسان واللقاء برشدي عبيد ثم العودة إلى الفندق ونومة عميقة...

الأحد: فطور لذيذ وحديث ممتع من عاشور... عودة للغرفة لاستكمال المطالب الكتابية... متاعب في الجيوب الأنفية وضيق في النفس... المغادرة إلى قاعة جلسة الافتتاح... استقبال حافل... التنبيه على الوقت والحساسية الملحّة تجاه الزمن... كلمتي وردود الفعل الإيجابية وتعليقات عاشور وأحمد بهجت والدكتور عبد الرحيم... تعليقات الشباب حول بكاء المستمعين...

المغادرة والإحساس بالتحقق من خلال العديد من لقاءات التعارف... مندوب صحيفة الرفاه يطلب لقاء... وصحفي تونسي يطلب لقاء آخر... أحد أصحاب المزارع يدعوني وأديب الدباغ لزيارة مزرعته في الجبال... رجل تركي يشير إلى ترجمة عدد من كتبي إلى التركية ويعدني بنسخ منها... المغادرة إلى الفندق... صلاة، ثم التوجه إلى العشاء في منتدى السليمانية... أمسية وعشاء وحوار رائع في أجواء ودية... توزيع الهدايا وتكريم باسم كل مشارك ومزيداً من التحقق... العودة إلى الفندق واستكمال الأمسية في صالته مع المدعوين حتى ساعة متأخرة... الجيوب تتحول إلى زكام على ما يبدو...

الاثنين: فطور ممتع مع أديب والدكتور عبد الودود شلبي... الجلسة الأولى الصباحية وأجواء ودّية... الغداء في صالة المطعم مع أحمد بهجت ورفاقه وحديث في الكتب والفكر والصحافة... العودة إلى الجلسة المسائية والتحقق

بواحد من أروع الانتصارات في حياتي الفكرية بإلقاء محاضرتي عن النورسي ارتجالاً، وتلقي ردود أفعال إيجابية لم تخطر على بالي... تهنئة وتقييم من المعقبين، وقبلات وتبادل للعناوين، وإبداء لأعمق مشاعر المحبة والدعاء بالموفقية والقبول، والحمد لله أولاً وأخيراً...

صور تذكارية عقب الجلسة... مواعيد مع ثلاثة من الصحفيين... حديث عن ترجمة أعمالي إلى التركية... وعن حضوري الفكري في دوائر حزب الرفاه... صحفي تونسي يرتب معي أسئلة للجريدة التي يعمل فيها... رئيس مؤسسة الثقافة الراعية للمؤتمر البروفيسور فارس قايا يجيء للغرفة ويبدي تقييمه وشكره وامتنانه للمحاضرة... أستاذ في الإدارة يجيء خصيصاً لإبداء تقييمه للمحاضرة، وتأكيده على أولويات الموضوع الجمالي... دعوة من صاحب معمل على العشاء ووعد بتقديم بدلة هدية لكل زائر... عشاء مع أديب وعبد الرحيم في مطعم الفندق، ثم نزول إلى الصالة وتقويم حار من الأساتذة المصريين.

الثلاثاء: الفطور وحضور جلسات الصباح... إعداد الحقائب... الغداء ثم استئناف جلسة المساء... انتهاز الفرصة للإجابة على الأسئلة الصحفية المعلقة على قصاصات من الورق... في الاستراحة تسلُّم كتابين مترجمين لي من دار نشر تركية وأتفق على ترجمة (ملامح الانقلاب)... لقاءات وتقويمات ومزيد من الإحساس بالتحقق... تنفيذ لقاءين صحفيين مع مجلة (درب التبانة) الطلابية وجريدة الزمان اليومية...

مغادرة الفندق لتنفيذ دعوة عشاء في مصنع للأقمشة والملابس... ساعات طيبة من الحوار، وعشاء لذيذ، وجلسة ضحك مع أحاديث دكتور عبد الودود شلبي... تسلم البدلات والسجاجيد الرائعة هدية من الداعين... ثم التوجه إلى بيت أحد الإخوة النورسيين في قرية كوزولجة الجميلة على حافة البحر للمبيت هناك... شيء من عدم الارتياح بسبب انقطاع الماء والكهرباء، ونومة تقطعها متاعب الأذن اليمنى وضيق النفَس.

الأربعاء: فطور لذيذ وإطلالة حلوة على البحر، ثم التوجه بالسيارة إلى إسطنبول ولحظات مؤثرة مع التواشيح التركية الإسلامية... زيارة لمريض... وجولة في شوارع الفاتح، وصلاة في أحد المساجد، وأحاديث ذوات شجون مع رشدي عبيد وأديب، ثم عودة إلى فندق سلطان، حيث نستصحب المصريين في زيارة لإحدى المدارس الرسمية النورسية...

تناول الغداء اللذيذ... ثم صعود إلى قاعة الاستراحة لتناول الفاكهة والاستماع إلى شرح حول المدرسة، ثم زيارة لأحد الصفوف حيث يعرّف بنا الدكتور سعاد، ويبدأ بي مقوماً ومشيراً إلى كتبي... جلسة ممتعة في الصالة العليا لأداء الصلاة وتناول الشاي، وأحاديث شتى مع عاشور وبهجت عن المؤلفات والنشر... الخ وسماع مؤثر لأناشيد تركية من اثنين من الأتراك...

زيارة لمدرسة أخرى في الجانب الآسيوي، حيث أعلى جبل في إسطنبول... الاستماع إلى شرح المدير، وفعاليات قرآنية ونشيدية للأطفال والتلامذة، وتناول الفاكهة والحلويات والجرزات... ولحظات مؤثرة مع نشيد للأطفال يجعلني وعدد من الحاضرين نبكي بصمت...

نصف ساعة حالمة في حدائق القمة المطلّة على البسفور والجانب الأوربي من إسطنبول، وحيث لحظات الغروب الحالمة والهواء المنعش والمنظر المؤثر... المغادرة لأداء الصلاة في جامع قريب، ثم العودة لفندق سلطان للاستراحة قليلاً، ومنه في السيارة إلى قرية كوزولجة، حيث يقوم اثنان من ذوي الأصوات العذبة بتقديم العديد من الأناشيد المؤثرة... الوصول والمفاجأة بتدفق الماء، بسبب الصنبور المفتوح لساعات طويلة ولكن الله سلّم غرفتنا وحقائبنا من الأذى... أمسية وأحاديث حول الإسلام والمسلمين، وعشاء خفيف، ثم نومة عميقة تقطعها متاعب الأذن وضيق النفَس ولكن بشكل أخف من ذي قبل.

الخميس: الاستيقاظ والإحساس بالقلق، الذي أخذ يتناوشني حول مدة البقاء واحتمالات المتاعب مع الكلّية والقسم... اتفاق على موعد أولي في منتصف الأسبوع القادم، وعلى رحلة إلى بورصة قد تستغرق يومين بإذن الله...

أحاديث شتى مع رشدي وآخرين، ثم تناول الفطور في الثانية عشرة، والنزول إلى الغرفة لكتابة هذه المذكرات وإنجاز تبييض اللقاء الصحفي مع التونسي... الاعتذار عن لقاء تلفزيوني موجه إلى أذربيجان لأسباب مبررة...

جلسة في كازينو القرية وسط جو شتوي جميل... رحلة في الباص إلى إسطنبول... جولة في شوارع الفاتح وتناول (الإسكندر كبابي) في أحد المطاعم الأنيقة... معارض الشارع تثير الشهية ببضائعها المدهشة... ساعة في (سوزلر) وحسم موضوع الإجازة المرضية... إهداء كتاب مترجم إلى التركية لمدير سوزلر (البروفيسور فارس قايا)... التوجه إلى فندق سلطان وأحاديث مع المدعوين المصريين وآخرين...

جلسة نقد وتقويم مع مدير مؤسسة الثقافة لأعمال المؤتمر، وطرح جيد ينال التقدير... وتقويم من أحمد بهجت لبحثي في المؤتمر... تناول الدوندرمة والحلويات في صالة الفندق، وحوار شيق عن النورسي مع تلميذه البار (سنجر)، الذي يختارني وآخرين لإيصالنا بسيارته إلى القرية، وحديث شيق عن ذكرياته مع النورسي... شيء من الصداع والتشرّح في الحلق، وشك في انتقال عدوى الزكام من أديب ولكن الله سلّم... نومة عميقة ومشبعة لأول مرة... هاجس القلق اللعين بصدد موعد العودة لا يزال يتعبني.

الجمعة: ارتياح لاتصال هاتفي مع زوجتي وإحساس بالانشراح... التهيؤ للنزول إلى إسطنبول، والتوجه من هناك في رحلة إلى بورصة... صلاة في جامع أنيق مع الأصوات التركية المؤثرة... جولة ناجحة في أسواق بايزيد والقبغلي ومشتريات جيدة... غداء في مطعم شعبي، ثم عودة بالتاكسي إلى الشقة النورسية التي سنبيت فيها... جولة تخط ممتعة مساء في شارع الفاتح وقبالة معارضه الفنية الأنيقة مع اثنين من الأصدقاء وتناول الأيس كريم...

عودة أخرى إلى الشقة وجلسة طيبة في الصالة الأرضية مع الحوار والفاكهة... جولة ليلية في السيارة مع عدد من الأصدقاء في أنحاء إسطنبول... وتخط على الكورنيش... وموافقة عجيبة بالالتقاء باثنين من الدعاة أشاروا إلى

اسمي، وتبين أننا كنا قد التقينا منذ زمن بعيد...جلسة ممتعة وحوار واعد حول رحلتهما إلى آسيا السوفياتية... استكمال الجولة في السيارة حيث الموشحات التركية العذبة... نوم متقطع والأخ أديب تجتاحه الأنفلونزا فيظل نائماً...

السبت: فطور في حدائق أمركان... رحلة إلى بورصة... السيارة... المركب... الصلاة... الانطلاق إلى بورصة... زيارة دار نشر سوزلر... الصالة العليا وحوار بانتظار الغداء... التوجه عبر بورصة لتناول العشاء... الصلاة والمطعم وإحساس عميق بالفرح والانسجام والتحقق... العودة لحضور حلقة نورسية وإشادة سخية من الصالحي حول دوري في تنبيه القراء العرب إلى النورسي، حيث بدأ يتلقى بعد مقالٍ في مجلة الأمة واسعة الانتشار سيلاً من الطلبات والرسائل... حديث محكم ومؤثر... حلقة أخرى وإعادة للكرة... تجوال في الليل في شوارع ومتنزهات بورصة... تقييم سخي من رشدي وعبد الكريم أبي آية...

الأحد: صلاة الفجر... نوم عميق واستيقاظ سعيد... اتفاق على احتمال تقديم موعد العودة بسبب انتهاء تأشيرة أديب... تناول الفطور وإلقاء قصيدة من رشدي وقصيدة (النار) من قبلي، حيث تلقى تقييماً سخياً... رحلة التلفريك الجميلة والسعيدة والمخيفة إلى أعالي الجبال... التجوال والصلاة والغداء اللذيذ من الشواء وسط الغابات والعودة إلى بورصة... جولة في بورصة مع عضو مجلس الشعب... تشغيل موشح (شفاعة يا رسول الله) والبكاء الصامت وتدفق سيّال الشعر... العضو يهديني كاسيت (شفاعة)، وآخر يهديني دليل بورصة الجميل... وثالث يدعوني لحضور افتتاح في بورصة في مايس من العام القادم... وداع مؤثر، وعودة مريحة في الليل إلى إسطنبول وشيء من التأخر بسبب الزحمة... قلق بصدد الاتفاق النهائي على العودة بين الاثنين والخميس... في ساعة متأخرة يتم اتخاذ القرار في ضوء عدم تجديد تأشيرة أديب... نوم متقطع ومتاعب مع الأذن اليسرى...

الاثنين: استيقاظ قلق... ارتياح لترتيب الحقائب... الفطور... جولة مشتريات أخرى في سوق بايزيد وقبغلي... إحساس غامر بالسعادة لاستكمال كافة المطالب المعلقة، وتسلم الإجازة المرضية وشريطي الكاسيت وتصفية قضايا العملة والديون... الخ... وداع مؤثر لم أشهد له مثيلاً من قبل وهدايا من العسل والحلويات والقبلات... جلسة في صالة الانتظار... رحلة مريحة في الطائرة...

سائق التاكسي يختار لنا فندقاً في عمان... إحساس بالتشتت والضيق والقلق لدى دخول الفندق... التوجه للحجز في السيارة ومتاعب الطريق والزحمة... الاتفاق مع سائق ضحى يوم غد... العودة إلى مركز عمان لتناول العشاء... جلسة في مقهى مطل على الشارع... عودة مرهقة على الأقدام بسبب تضييع الطريق... نومة متقطعة ومزعجة بسبب الحر وأصوات السيارات.

الثلاثاء ١٠/٦: التوجه لتناول الفطور في صباح جميل... ارتياح لاستكمال المشتريات المعلقة... اتصالات هاتفية وزيارة لعدد من المكتبات وتصفية القضايا المعلقة... ثم عودة بالتاكسي إلى الفندق... سباق مع الزمن لترتيب الحقائب وإحساس عميق بالارتياح لدى مغادرة الفندق... السائق ينكث وعده والعثور على سيارة بديلة... إحساس غامر بالارتياح ونحن ننطلق عائدين... صلاة وغداء في رويشد... رحلة هادئة ومريحة وأحاديث ممتعة عبر الطريق... عشاء في هيت وشيء من التخوف عبر طريق حديثة ـ بيجي المقفر... الوصول إلى مشارف الموصل ورجل التفتيش يقوم بإثارة كادت أن تسبب المتاعب لولا إبرازي لكتاب الإيفاد... الوصول في الساعة الرابعة والاستقبال السعيد.

[٢١]

رحلة عام ١٩٩٣ م إلى السودان

الأحد: ١/٢٤: ليلة قاسية في الباص مع البرد والانتظار في طريبيل لطلوع الصباح... تعقبها ست ساعات أخرى من الانتظار لغرض التفتيش، أبلغ فيها حدّ التوتر ونفاد الصبر ووجع الصدر... البحث عن سيارة بديلة وتحويل

الحقائب، واكتشاف عيوب خطيرة في إطاراتها، ومع ذلك يركبني العناد... إنهاء التفتيش بعد فترة أخرى من الانتظار وعطب جديد في الإطار... البحث دون جدوى عن إطارات احتياطية... الانطلاق ليلاً في طريق مشاكس مع التخوف من عطب الإطار دون وجود احتياط... العثور أخيراً على إطار سيئ والانطلاق ثانية... عطب آخر في الإطار الأمامي، والله سبحانه وحده سلّمنا من ضربة مدمرة من حافلة كبيرة وراء السيارة بسبب التوقف المفاجئ... العودة إلى مدينة قريبة وإصلاح العطب، والانطلاق إلى عمان دون احتياط، والوصول بحمد الله وحده بعد ساعات من القلق وشد الأعصاب خشية البقاء مع الليل والبرد حتى الصباح... النزول في فندق الكونكورد ونوم عميق...

الاثنين: استيقاظ قلق بسبب كثرة المطالب وضيق الوقت، وشبكة اتصالات هاتفية مع الخطوط الجوية والسفارة السودانية دون الحصول على جواب قاطع بصدد التذكرة... اطمئنان لتأخر موعد الإقلاع، ولوجود مقاعد شاغرة كثيرة... الاتصال بعبد الله الطنطاوي... التوجه إلى الخطوط وارتياح للحصول على التذكرة... العودة إلى وسط المدينة مع متاعب الفقرات... مغادرة الفندق لتناول غداء طيب في بيت الطنطاوي... التوجه عصراً إلى المعهد وإنجاز الطرود البريدية بخصوص بحثي لليونسكو، وإحساس عميق بالتحرر والارتياح...

حوار معمق عن الدراسات العليا في التاريخ مع الدكتور زيد أبو الحاج... الانطلاق من دار الطنطاوي إلى المطار، ورحلة جوية مريحة إلى الخرطوم، يعكرها إحساس عجيب من التخوف بسبب حلم مزعج قبل أكثر من شهر يتعلق بحادث جوّي، ولكن الله ﷻ يسلّم... مضيفة الطائرة تطلب في المذياع التعريف بشخصي، حيث ألتقي بالمسؤول الطلابي على نفس الطائرة وأطمئن على موضوع الاستقبال والحجز في الفندق... الوصول إلى الهلتون عند حافات الفجر، حيث تأخذني سنة من نوم عميق.

الثلاثاء: مكالمة من مسؤول العلاقات في جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية يعلمني أنه قادم، فأحزم حقائبي وأتحول إلى فندق (الغابة

الخضراء)... زيارة لمدير الجامعة الدكتور أحمد علي الإمام (ﷺ)، وترحيب غامر منه ومن الإداريين والتدريسيين... الصلاة في الجامع وأحد الأساتذة يعرف بقدومي وبرنامجي الثقافي ويسخو في التقديم... تجوال في المكتبة المركزية للجامعة وعرض بعض وجهات النظر التي تُلقى بالترحاب...

التوجه إلى الفندق لتناول الغداء... الاستقرار في الغرفة وإحساس بالارتياح بسبب الهدوء والاسترخاء لولا شيء من الإحساس بالوحشة... زيارة مدير الجامعة للفندق وطرح عدد من المطالب الثقافية بما فيها ترتيب تقرير عن دراسات عليا للتاريخ، ويعلمني أنه يريدني أن أقوم سنوياً بزيارة كهذه للخرطوم... تناول العشاء في مطعم الفندق، وحديث ذو شجون مع تاجر فلسطيني، ثم عودة للغرفة لترتيب عناوين المحاضرات، وتوزيعها... النوم وسط شيء من مضايقات البرد.

الأربعاء: الفطور ثم جولة في الخرطوم لدى التوجه إلى الجامعة... لقاء بالعديد من الأساتذة والمعنيين بالأدب الإسلامي... ترحيب وتقويم سخيان وإحساس بالتحقق، واتفاق على برنامج العمل الثقافي بما فيه المحاضرات والندوات والحوار المفتوح والأمسية الشعرية والمسائل المنهجية مع وزارتي التربية والتعليم... ترتيب محاضرات أخرى لاتحاد الطلاب والمجاهدين...

أحد تدريسيي الأدب الإسلامي يعرب عن إعجابه واعتماده على مؤلفاتي في تدريس المادة... رئيس الاتحاد يرحب ويرتب أمر محاضرة جماهيرية واسعة... دعوة على الغداء الجمعة في بيت الدكتور محمد صالح مساعد مدير الجامعة... اتفاقات على مواعيد أخرى للقاءات تلفزيونية... ارتياح لوجبات مطعم الفندق الصحية والمحددة واللذيذة... ولإشباع الشوق للسمك والموز بعد حرمان طويل... أمسية طيبة في صالة المطعم ثم مع التلفزيون، والعمل في الغرفة حتى ساعة متأخرة.

الخميس: السيارة تقلني إلى مركز بحوث الإيمان... استقبال مترع وتقييم سخي، ولقاء بالعديد من الأشخاص من مختلف الأقطار، وترتيب لعدد من

الأنشطة الخاصة بالمركز والمناهج، وتلقّي العدد الأول من مجلة المركز حيث ينشر أحد بحوثي... توجه بسيارة أزهري إلى وزارة التربية، حيث عدد من الشباب يؤكدون تواصلهم الفكري وتلقّيهم على كتاباتي، وحيث يشير أزهري إلى ترتيب لقاءات للمناهج... يحضرها عدد من الوزراء... التوجه إلى الكلية لتنسيق المحاضرات والندوات، ولقاء بأستاذ للأدب يشير إلى اعتماده على كتاباتي... حوار طيب وترتيب لمواعيد المحاضرات وعودة إلى الفندق...

قيلولة متقطعة، أخرج بعدها إلى الشارع العام لكي أتخطى ثم أبدأ رياضة المشي السريع، وأرجع إلى الغرفة لمتابعة الأعمال بانتظار العشاء... ارتياح لإنجازات كتابية عديدة... وجلسة على العشاء مع التاجر الفلسطيني وأحاديث أخرى ذوات شجون... وزيارة لعاملين في مركز بحوث الإيمان...

الجمعة: إنجازات كتابية أخرى صباحاً، ودعوة على الغداء لدى الدكتور محمد وكيل مدير الجامعة، وأداء الصلاة في جامع القوات المسلحة، حيث يرحب الخطيب ويطلب إلقاء كلمة فأكتفي بدقائق معدودات أتحدث فيها عن أهمية الأخذ بالأسباب، وأشير إلى مشروع حفر ترعتي النيل وعيون مسلمي العالم المعلقة بتجربة السودان... الخ. وأغادر الجامع غير مقتنع تماماً بإحكام كلمتي... وفي دار دكتور محمد نتعرف على عدد من الإخوة الشاميين والسودانيين، وتدور أحاديث شتى وأتلقى تقويمات سخية، وأتلقى عبر الطريق رشقات من الغبار يصيبني بالإعياء والضيق. وأعود إلى الفندق لكي أحاول عبثاً الاتصال بالموصل... وأبيّض بعض المعلّقات... ارتياح وإحساس بالسعادة للاتصال بالموصل يعقبها عشاء لذيذ وجلسة طويلة في المطعم، ثم استكمال الأمسية في الغرفة.

السبت: صباحاً إلى الكلية لقاء بأمجد محمد سعيد وحديث ذو شجون. المحاضرة الأولى لطلبة الدراسات العليا حول شروط إعادة كتابة التاريخ، أحقق فيها نجاحاً لم أكن أتوقعه بحمد الله... إعلان عن زيارتي في الصحف تزيد من ضغوط الطلبات عليَّ لإلقاء المحاضرات: واحدة لرابطة النساء، وأخرى

للشرطة الشعبية، وثالثة لطلبة التدريب جنوبي السودان. وأحسب محاضراتي فإذا بها توشك على العشرين... عودة إلى الفندق وسط الإعياء والحّر وبطء السير والجوع... التهيؤ بعد الغداء للذهاب إلى طلبة التدريب عبر طريق ترابي مزعج... الاعتذار في البدء بسبب وجود الضيوف، ثم الترحيب ووضع مكان لكلمتي بين كلمات الوفد الزائر... تمكّن في الإلقاء والإيجاز يملؤني غبطة، وقبول طيب، وإلحاح في إلقاء محاضرة أخرى أتردد في الموافقة عليها، ثم أعطي الموافقة في نهاية الأمر.. العشاء في الفندق وكتابة المذكرات وشيء من التلفاز والمطالعة وسط الأصوات المزعجة في الغرفة من جراء حركة الماء في الأنابيب...

الأحد: فطور بمعية السائق، ثم توجّه إلى الجامعة وإلقاء محاضرة أخرى عن إعادة كتابة التاريخ لطلبة الدراسات العليا بتمكّن وحيوية وتنويع، ولكن بجهد يضعني على حافة الدوار وضيق النفَس... جلسة في غرفة نائب المدير لترتيب جدول المحاضرات واللقاءات المكثفة وارتياح للسيطرة عليها... عودة إلى الفندق من طريق طويل تجاوزاً لزحمة الجسر، واطلاع على الخرطوم بحري... الغداء ومحاولة فاشلة للقيلولة تقطعها مكالمة من أمجد محمد سعيد ووعد باللقاء... جولة تخطّي قبيل الغروب في هواء رقيق تمنحني انشراحاً... الصديق الفلسطيني يهديني وجبة أخرى من الموز... السائق يجيء لكي يقلّني إلى دعوة العشاء في نادي الضباط...

هواء رقيق وحدائق أنيقة وجلسة ودّية مع حشد من الأساتذة السودانيين وأستاذ أمريكي مسلم... حوار متنوع وشيء من عدم الارتياح لتأخر أزهري ومدير الجامعة، حيث نقوم إلى العشاء على احتمال عدم مجيئهما... وسواس آخر بسبب الطعام وتنوّعه، وعدم الاستمتاع به يذكرني بلازمات السنين الخوالي إزاء الطعام... حلويات شهية، ثم تعريف بي من قبل نائب مدير مركز أبحاث الإيمان يسخو فيه ويغمرني بالتقويم... وأرد عليه بكلمة موجزة.

وما يلبث مدير المركز ومدير الجامعة أن يأتيا، ويتم تعريف آخر من قبل

أزهري مدير المركز، يشيد فيه بإسهاماتي في شتى الحقول وبدراساتي المعمقة في فلسفة التاريخ، وفاعلية العقل المسلم، والأدب، وبما جئت أحمله معي من مقترحات بصدد المناهج... أردّ عليه بكلمة أخرى، ويجيء عضو في البرلمان فيتم التعارف، ويدور حوار مؤثر نغادر بعده المكان وأنا أحسّ بانتشاء وتوحد على النقيض من زمن المعاناة المبهظة في رحلاتي السابقة، حيث أعود وسط حصار الإعياء الجسدي والنفسي مشتتاً محطماً... فالحمد لله وحده... استكمال الأمسية في صالة التلفزيون لمشاهدة الأخبار، ثم في المطعم لشرب الشاي والحوار الممتع مع الصديق الفلسطيني...

أرجع إلى الغرفة سعيداً منسجماً لأصلي وأكتب المذكرات وآكل الموز وأقرأ قليلاً وأنام... نسيت أن أشير إلى ورقة وجدتها في الاستعلامات، حول زيارة مجموعة من الأصدقاء بمعية دكتور عدنان بشير وشخص أردني للفندق بحثاً عني، فلم يجدوني فيطلبون لقاء تعويضياً... وأن أشير أيضاً إلى أن مسؤولاً في جامعة إفريقيا الإسلامية طلب محاضرة، ثم الاتفاق على أن تكون في الأسبوع التالي بإذن الله... وإلى أن أحد الأساتذة أشار وهو يعرّف بنفسه إلى أنه تتلمذ علي يدي أيام محاضراتي في الخليج لطلبة الدراسات العليا... نسيت أيضاً أن أشير إلى أن العديد من المثقفين والمسؤولين والأساتذة السودانيين أشاروا أكثر من مرة أنهم تتلمذوا على كتبي... وأن الصحف نشرت إعلاناً عن مجلة بحوث الإيمان ومشاركتي فيها على رأس القائمة، فحمداً لله وحده...

الاثنين: صباح رائع في رقة هوائه... زيارة لمركز الإعلام في منظمة الدعوة، ومشاهدة لعروض تلفازية عن أنشطة المنظمة، وحلقة من (ساحة الفداء) تدفعني إلى البكاء...

زيارة لمركز أبحاث الإيمان لاستكمال تنقيح ملاحظاتي حول المنهج... بحث عن مقرّ نقابة المحامين للاعتذار من نقيبها عن عدم حضوري الندوة، ولكنها تضيع علينا... التوجه إلى الفندق... جولة التخطي قبل الغداء... الغداء

وقيلولة يستعصي فيها النوم العميق أسوةً بسابقاتها وحتى نوم الليل لا أدري لماذا...

زيارة لعدنان بشير... شاي في المطعم... انتظار للسائق للذهاب إلى لقاء مناقشة مناهج التربية ولكنه يتأخر، ويمضي الموعد، فأقوم باتصالات هاتفية بأكثر من جهة دون جدوى، فما يلبث دخان الصدر أن يداعبني ولكن مجيء نائب مدير المركز يعيدني إلى التوازن، ويتبين تأجيل موعد اللقاء، كما أن السائق يعيقه عطل في السيارة... جلسة طيبة على الهواء الطلق مع وكيل وزارة التعليم وأزهري التيجاني، نتبادل فيها الأحاديث وأزهري يشير إلى أن أسلوبي من بين ثلاثة مفكرين هم سيد والترابي يمكن تميّزه بمجرد قراءة أسطر فيه، فأشكره على تقويمه... يطلب أيضاً رحلة إلى شمالي الخرطوم (بخت الرضا) لمناقشة خبراء المنهج هناك، فأعدهم خيراً. وأعرض على أزهري طبع مؤلفاتي كافة في السودان دون أخذ موافقتي متنازلاً عن نسبة ربحي لحساب التخفيف عن القارئ، فأتلقى ترحاباً وتقديراً ينزلان برداً وسلاماً على قلبي، فالحمد لله...

أسأل أزهري عن زيارة الشيخ الترابي فيشير إلى أنه أعرب عن ترحيبه العميق ووعد بترتيب موعد قريب... يطلب أزهري إصدار سلسلة كراريس صغيرة سهلة التناول مستلّة من مؤلفاتي فأرحب بالفكرة.. وعلى مستوى الصحف نشرت اثنتان منها إعلاناً على الصفحات الأولى والأخيرة عن محاضرتي في المركز عن (أسلمة المعرفة) تطبيقاً على دراسة التاريخ والحضارة...

تناول العشاء في المطعم، وإحساس ملحوظ بالجوع يقودني إلى تجاوز الحدود التي رسمتها لنفسي، وتناول أنواع شتى أحسّ بأنني أثقلت فيها على نفسي... إنجاز الخطوط العريضة لمحاضرتي عن (أسلمة المعرفة) تطبيقاً على التاريخ والحضارة، وكتابة المذكرات وقراءات خفيفة، ثم نوم متقطع أسوةً بالليالي السابقة لا أدري لماذا...

الثلاثاء: الفطور... وترتيب خيوط المحاضرة في ذهني وإحساس عميق بالارتياح لتمكّني منها واقتناعي بها... جلسة استرخاء تحت الشمس في حدائق المطعم بانتظار السائق... التوجه إلى الجامعة وترتيب موعد مقابلة تلفازية يوم غد مع الدكتور عباس محجوب...

الذهاب إلى عمادة كلية البنات وترحيب حار، ثم بدء المحاضرة عن الإنجاز في عصر الرسالة، قبالة حشد كبير من طالبات الكلية... تقديم مترع بالسخاء من عميد شؤون الطلبة، ومحاضرة ناجحة بحمد الله، وتعقيب مترع بالتقييم من عميد الكلية، ثم أسئلة عديدة وإجابة عنها، ومغادرة للكلية حيث تصاب السيارة بعطل في الطريق فنضطر لركوب التاكسي. وأضطر في الفندق إلى استدانة مبلغ من المال لدفعه لسائقها ولسائق آخر لغرض إيصال مرافقي... الغداء وقيلولة يستعصي فيها النوم، وتناول للشاي في المطعم، ثم توجه بمعية مدير بحوث الإيمان إلى قاعة الشارقة، حيث الاستقبال الحار وتدفق أعلام السودان في الفكر والسياسة والعمل الجامعي والطلابي... لمسة حوار مع بعضهم ومع الأخ أمجد محمد سعيد...

التوجه إلى الصالة حيث يتم تقديمي من قبل مدير المركز بسخاء منقطع النظير، وحيث أبدأ المحاضرة بتمكّن تام وعرض محكم دون لجوء إلى الورقة كالعادة، وحيث أتلقى بعدها تقويمات سخية مترعة من مدير المركز وعدد من الحاضرين، تطرح بعدها أسئلة تثري المحاضرة في أجواء سمحة ودية. وأغادر القاعة لكي أتلقى المزيد من التهاني، ولكي أستمع لمعاون مدير الجامعة يقول أنها أروع محاضرة سمعها في حياته... والحمد لله وحده...

مدير جامعة إفريقيا العالمية يطلب محاضرة في جامعته فألبي الدعوة وأحدد موعداً، كما تم تحديد موعد للأمسية الشعرية... أعود إلى الفندق بصحبة معاون مدير الجامعة، حيث يثني على اقتراحاتي بصدد إنشاء قسم للدراسات العليا في التاريخ... ويطلب مقترحات لقسم التاريخ للدراسات الأولية، فأعده خيراً... أتعشى وأعود للغرفة استعداداً لمطالب القراءة والنوم...

الأربعاء: الاستيقاظ مبكراً والذهاب إلى الجامعة، ومنها إلى التلفاز بمعية دكتور عباس محجوب مدير شؤون الطلبة ودكتور محمد صالح معاون المدير، لتسجيل حلقة عن (إسلامية المعرفة)... كان لقاءً طيباً وغير مجهد، ووُعدت بتسليمي نسخة من شريط الفيديو، كما طلب مني ومن دكتور عباس تسجيل حلقات أخرى فوعدنا خيراً...

محاضرة مع طلبة الدراسات الجامعية تتضمن نبذة موجزة عن مفهوم الإنجاز، ثم حوار مفتوح أتلقى فيه كمّاً جيداً من الأسئلة الطيبة، أجيب على بعضها ثم ما يلبث ضيق النفَس والتشنج العضلي أن يبلغا بي حافة الإعياء فأعتذر عن الاستمرار... أتجه مجهداً إلى الفندق، حيث أتناول الطعام وأرتاح فأحس باستعادة سويتي... قيلولة عميقة نوعاً ما ثم جولة تخطي سريعة في الهواء الرقيق وشرب الشاي... والتوجه إلى قاعة الجامعة لإلقاء محاضرة عامة بترتيب من اتحاد الطلاب عن (الحضارة الإسلامية: البحث عن المغزى)...

أُستقبل بترحاب بالغ ويتدفق عدد من الأساتذة يسخون في تقييمهم لمكانتي ومؤلفاتي... وما يلبث الكهرباء أن ينقطع فننتظر أكثر من ساعة، ويبدأ القلق والتوتر يداعباني، وأدخل في حوار مع أستاذ سوداني وأحد الحضور الجزائريين، وأحسّ بشيء من ضيق النفَس والإعياء وأعتذر عن إلقاء المحاضرة دون جهاز تكبير، ثم ما يلبثون أن يشغلوا المولد وتبدأ المحاضرة التي أتدفق فيها رغم أن إحساساً بعدم الإبداع يهمين عليَّ، ووهماً مزعجاً بعدم شد الانتباه يحيك في نفسي، فضلاً عن الإيقاع السريع الذي آليت على تجاوزه فلم أقدر.

ولكن تعقيب الأساتذة يلغي كل هذه الظنون ويقيّم المحاضرة تقييماً سخياً حاراً فيما لم أكن أتوقعه، ويقول أحدهم أنه أستمع إلى أروع محاضرة في حياته، وقال آخر أنها وضعته لأوّل مرة على الطريق الصحيح في فهم فقه الحضارة، وضرورة اعتماده في الدراسات المختلفة، وكلمات عديدة أخرى من جامعيين ذوي مراكز، فضلاً عن تقويمات المشرفين من الطلبة على الحفل...

وأغادر القاعة وسط توديع حار من الحاضرين، وأعود مرتاحاً منسجماً إلى الفندق... أتناول العشاء وأعود إلى الغرفة لاستكمال بعض المطالب وممارسة شيء من القراءة ومشاهدة فلم (أفواه وأرانب) وسط إغراء النوم.

الخميس: الفطور بشهية وجلسة مسترخية تحت الشمس عند النافورة بانتظار محرّري جريدة الإنقاذ ومجلة الملتقى، حيث يجيئون ويجري لقاء صحفي ودي وهادئ ومتنوع ومترع بالحوار الخصب في سياقات التاريخ والمنهج والأدب والحياة الشخصية. ويتم تبادل العناوين وأطلب منهم بعد إذ عرفت توجهاتهم الأدبية المشاركة في (أصوات) فيرحّبون...

جولة التخطي قبل الغداء، ثم التهيؤ للرحلة إلى محاضرة القطينة، حيث تقلنا سيارة ممتازة عبر طريق مشاكس مزعج إلى المكان على بعد ثمانين كيلومتراً... نصلي المغرب في جو بارد وأبدأ المحاضرة وسط تقطع في القوة الكهربائية عن (الإنجاز في عصر الرسالة) يأخذ سياقاً تأثيرياً، ويقابل بالتكبير، ثم تعقبه بعض المناقشات أعلن عن وقفها خشية أن تقودنا إلى تفاصيل مرهقة ولا لزوم لها.

نغادر المكان بتوديع حار، وأصل الفندق على قدر كبير من الإعياء ومتاعب في جلد الوجه بسبب الجلوس في الشمس الساعات الطوال... ألتهم بعنف دجاجة مشوية بنهم، حيث يقتحم عليَّ العشاء عدنان بشير وأصحابه، فندخل في حوار منوع خصب، ثم أودعهم وأتجه إلى الغرفة تهيؤاً لكتابة المذكرات والقراءة والنوم... وأنا عبر هذا كله لا أزداد إلا اقتناعاً بأن هذه من أروع الرحلات الخارجية في حياتي، فحمداً لله...

الجمعة: أمجد محمد سعيد يقتحم عليَّ الفطور، وتدور أحاديث ذوات شؤون وشجون ثم يجيء عدنان وصديقه فنتفق على موعد الغداء عند أمجد... ونتجه لجولة طيبة في مناطق الخرطوم، التي بدا أنني أخذت أسيطر عليها... الصلاة في مسجد الجامعة وسط مداعبات النوم والمغادرة إلى الفندق، حيث يجيئنا أمجد فنتجه إلى بيته لتناول غداء دسم وإدارة أحاديث شتى... أعود

إلى الفندق للقيام بجولة المشي السريع، والعودة للارتياح في الغرفة لحين موعد مجيء عدنان، والذهاب إلى الشقة لتناول العشاء والتحدث في مواضيع شتى...

أعود بسيارته إلى الفندق وأنا أحسّ بشيء من الإعياء والملل، بسبب حديثه المتواصل الذي لم يعطني فرصة للارتخاء... نسيت أن أقول بأن أمجد أشار إلى دعوة ستوجه إليَّ من مؤتمر عن الفن الإسلامي ستقيمه مؤسسة إعلامية في الربيع القادم، وأنه طرح اسمي لمسؤول المؤتمر فأعلمه بأنه سبق وأن رشحني للأمر... أقول لأمجد إنني أعتذر مقدماً بسبب مشاق السفر، لكنه يعارضني ويقول أن الأفضل أن أقبل الدعوة، ويمكن فيما بعد أن أعتذر عنها إذا لم تسنح الظروف...

ثمة دعوة أخرى تلقيتها لدى عودتي ظهراً إلى الفندق من أحد منظمي ندوة الزكاة ستفتح غداً في قاعة الصداقة، أوافق عليها وأتفق مع مسؤول العلاقات في الجامعة على موعد محدد غداً صباحاً لحضورها بإذن الله... فضلاً عن محاضرة سيحدد موعدها مستقبلاً إن شاء الله... نوم متقطع وعودة المتاعب مع آلام الأذن اليمنى...

السبت: الذهاب إلى قاعة الصداقة لحضور حفل افتتاح مؤتمر الزكاة، حيث أُستقبل بحفاوة بالغة، ويصرّ المستقبلون على أن أجلس في الخط الأول، ثم يأتي من يطلب مني التحوّل وأحد كبار المشاركين إلى القاعة التي يجلس فيها الوزير، حيث يجري حوار ودي، ثم نتوجه للقاعة للاستماع إلى الكلمات، حيث يشار من قبل اثنين من المتحدثين إلى ترحيبهم بحضوري شخصياً من بين سائر الحاضرين، فالحمد لله على فضله ومنته.

أغادر القاعة بمعية السائق الذي لحقني إلى هناك صوب الجامعة لإلقاء محاضرة في منهج البحث تتسم بالنجاح التام والانسجام والمشاركة، لولا أن تحاصرني متاعب الإعياء وضيق النفس والتشنج العضلي، فأغادر القاعة بعد ساعتين في أشدّ حالات التوتر والإعياء...

بعض الوقت في غرفة مسؤول الشؤون العلمية، حيث يؤكد طلب الجامعة تقديم اقتراحاتي بصدد مناهج قسم التاريخ المقترحة لمرحلة البكالوريوس... لقاء بأكثر من تدريسي وتقويم سخي، وترتيب لموعدين جديدين أحدهما إلقاء محاضرة في جامعة الخرطوم وآخر محاضرة أخرى في جامعة إفريقيا، حيث أتحدث مع مديرها هاتفياً لتحديد عنوان المحاضرة، فيلتمس مني كلمة أخرى بعد صلاة الظهر ودعوة على الغداء... مدير شؤون الطلبة الدكتور محجوب يقول أنني أتعبت من سيجيء بعدي بما قدمته من عطاء، فحمداً لله...

العودة إلى الفندق وتناول الغداء تعقبه قيلولة يقطعها أمجد محمد سعيد بدعوة من السفارة لحضور حفل عشاء بصحبة وفد علمي قادم من بغداد... أقلق بعض الشيء لاحتمال تعارضها مع اجتماعي بأساتذة التاريخ في مركز بحوث الإيمان... وبالفعل فإن المركز سرعان ما يتصل بي ويطلب حضوري بمعية السائق الذي أرسله، ولكن وبعد وقت من القلق ومحاولة الاتصال الهاتفي الفاشل بأمجد لتحديد الموعد يتبين أن معظم المدعوين لم يحضروا بسبب مصاعب الطريق فأحمد الله. واكتفيت بكلمة موجزة لعدد من الأساتذة والحضور لغرض النقل التلفزيوني...

أتناول الفاكهة والمرطبات، وأدخل في حوار ودي مع عدد من الأساتذة، ثم أغادر المكان بمعية مديره الجديد إلى الفندق، لكي ما يلبث أمجد أن يقلني إلى دار السفير، وسرعان ما أحسّ بارتياح عميق إذ يتبين أن الدعوة اجتماعية صرفة... وحيث يتم التعرف على السفير وتناول عشاء لذيذ، وتبادل الحديث مع عميد كليتي الذي قدم مع الوفد... وآخرين...

أعود إلى الفندق في حالة انشراح نفسي وأواصل العمل في استكمال المقترح بصدد مناهج التاريخ لجامعة القرآن، والذي كنت قد بدأته بعد صلاة المغرب. وثمة ما أود أن أشير إليه وهو قيامي بجولة تخط سريع قبيل الغروب، وحديث لأحد العاملين في مركز البحوث عن تهيئتهم لي نسخة فيديو مصوّرة لمحاضرتي عن (إسلامية المعرفة) فحمداً لله...

الأحد: الذهاب إلى الجامعة وارتياح لحلّ قضية الدراسات العليا لاثنين من الذين توسطوا بي حول الموضوع... تعقبها المحاضرة الأخيرة لطلبة الدراسات العليا عن (الأدب الإسلامي)، يحضرها عدد من المعنيين من خارج الجامعة، وأشعر فيها بتمكن تام وبعرض عميق ومؤثر وبتجاوز للإعياء المعهود، الذي طالما تناوشني في محاضرات كهذه، فحمداً لله...

لدى المغادرة ألتقي بالعديد من الأساتذة والطلبة وأتلقى تقويماتهم السخية... وثمة يمني يطلب لقاءً... وأستاذ يهديني اثنين من كتبه ويحضر المحاضرة المذكورة... وثمة وعد من مسؤول العلاقات بتوفير كافة الأشرطة المسجلة للمحاضرات لكي آخذها معي إلى العراق... ودعوة أمانة مجلس الوزراء للقيام بزيارة لهم... وإعلان كبير عن الأمسية الشعرية يتصدره اسمي (بحمد الله وحده)

كما أنني أقوم بترتيب كافة المواعيد وتنسيقها في جدول العمل مع مدير العلاقات، وأحسّ بارتياح عميق، فضلاً عن أنني نجحت في اعتذاري عن محاضرتي خارج الخرطوم وما تنطوي عليه من متاعب الطريق والإعياء... أسلّم ورقة المقترحات الخاصة بالدراسات الأولية لشعبة مقترحة للتاريخ والحضارة الإسلامية، وأثبت موعد لقاءين تلفزيونيين آخرين في مواعيد مناسبة... وأجلس قليلاً في غرفة مدير الجامعة ثم أصلي الظهر في مسجدها الأنيق، وأغادر إلى الفندق في أقصى حالات الانسجام والارتياح النفسي...

أتناول الغداء وآخذ قيلولة متقطعة، ثم أستيقظ لأقوم بجولة التخطي صوب الجهة الجنوبية من برّي هذه المرة، وأنا أقول في نفسي إن هذا لهو أسعد يوم في رحلتي كلها بحمد الله...

أرجع لأداء صلاة المغرب والاتصال الهاتفي بأزهري لتصفية الأمور المعلّقة، فيعطيني وعداً معلّقاً بسبب كثافة مشاغله... أشرب الشاي في الصالة وأهيئ نفسي بسهولة لمحاضرة يوم غدٍ في جامعة إفريقيا، ثم أخرج لجلسة

استرخاء عذبة في حديقة الفندق عند النافورة، حيث أسترجع القصائد الأربع اللواتي سألقيهن غداً إن شاء الله...

بعدها أتناول عشاءً طيباً من (الكبدة) و(الموز)، ثم أجلس كرةً أخرى في الحديقة لكي أستعرض رحلاتي الإحدى والعشرين، وأحدّد اللواتي ارتحت فيهن من اللواتي احترقن عليَّ لسبب وآخر، فيتبين أنهن لم يتجاوزن السبعة!

في العودة ألتقي بأحد مسؤولي مؤتمر الزكاة فيسلمني دعوة للقاء بالمشرفين عليها لكي يشرحوا لي أبعاد التجربة... ثم أعود إلى الفندق لكي أتابع التلفاز وأصفي المعلّقات الكتابية...

الاثنين: جلسة تحت الشمس بعد الفطور بانتظار سيارة جامعة إفريقيا... يجيئني السائق ونتجه إلى الجامعة... استقبال حارّ مترع بالتقييم والودّ من رئيس الجامعة والأساتذة كافة... إلقاء محاضرتي عن الأدب والتاريخ أمام طلبة الدراسات العليا وعدد كبير من الأساتذة ورئيس الجامعة بتمكن وربط محكم واقتناع تام بالأداء فالحمد لله، تعقبها تقويمات سخية من الأساتذة والطلبة ومناقشات ودية خصبة نتجه بعدها لشرب الشاي وتعميق التعارف مع التدريسيين، لكي ما تلبث السيارة أن تقلني للاطلاع على منشآت الجامعة: المكتبة والمطبعة وورشة الفنيين...

قبلها كنا قد أدينا صلاة الظهر، حيث طلب مني إلقاء كلمة موجزة أمام الطلاب، فألقيت الكلمة عن الإنجاز وأهميته الحضارية بتمكن تام فالحمد لله وحيث قوبلت بترحاب بالغ...

بعد الجولة في منشآت الجامعة عدت إلى غرفة رئيس الجامعة لأتبادل معه الحديث بانتظار الغداء... كان الجوع قد هدّني، وهناك في الصالة قبيل تناول الغداء تعرّفت على المزيد من التدريسيين والرجالات ذوي المراكز المهمة في السلك الخارجي ومؤسسات الدولة القيادية... تناولت الغداء بشهية وعدنا لنشرب الشاي، ولكي يصطحبني أزهري إلى الفندق حيث يؤكد ترحيب

الشيخ الترابي بزيارتي، وإعراب أمين مكتبه عن تتلمذه على كتاباتي وقراءاته لها كافة...

تحدثنا في أمور كثيرة أخرى وأهديت مركز الأبحاث عدداً من مؤلفاتي (التفسير، والسيرة، وإطار عام)، واقترحت عليه اعتمادها في مشروع تأصيل الكتاب الجامعي فرحب بالفكرة...وأشار إلى محاضرتي عن (إسلامية المعرفة)، وأن أسلوبي في المحاضرات يعكس أسلوبي المكتوب نفسه دون أي خلاف...

جاءني السائق وأقلني إلى الجامعة بانتظار موعد الأمسية الشعرية، رأيت عدداً قليلاً من الحضور فاكتأبت بعض الشيء وعندما توجهت إلى قاعة الأمسية لم أجد هناك عدداً يذكر، وما لبث رد الفعل أن منحني الاستسلام للفرح وبعدم التشبث مستقبلاً بأنشطة كهذه... ولكن الحضور ما لبثوا أن تدفقوا وازددت ارتياحاً لإقناع مدير الأمسية بإبقائي كآخر من يقرأ شعراً. وبدأ الشعراء: إمام الشيخ ودكتور محمد صالح ودكتور محجوب. وكنت في أقصى حالات الانسجام والفرح...

وعندما جاء دوري لم أكن أتوقع أنني سألقي القصائد الثلاث بهذا التمكن والأداء الموسيقي والقدرة التأثيرية دونما جلبة ولا صراخ... كنت أتشرب الإحساس بالانتصار لحظة بلحظة...

عندما انتهيت تلقيت التقويمات السخية... وانهال عليّ الحضور: مندوبو مجلة الأمة الفلسطينية يطلبون موعداً للقاء صحفي... ومثقف فلسطيني يطلب لقاءً... وأحد معاوني مدير الجامعة يطلب تحديد موعد المحاضرة في فرع الجامعة في مدني، وأستاذ ثان يطلب تقديم مقترح بصدد تدريس التاريخ في كلية اللغة العربية... وأستاذ آخر يطلب تحديد موعد للمقابلتين التلفزيونيتين ورابع عن الموعد مع أمانة رئاسة الوزراء... بلغت حد التشتت رغم أنني رتبت المواعيد جميعاً...

أعود إلى الفندق مشتتاً مكتئباً بعض الشيء، وأتناول سمكاً غارقاً في الدهن السائل فتشمئز نفسي، ثم أعود إلى الغرفة وأنا أتوقع أن أقضي

الساعات مع أكداس الأعمال الملحّة، فيما ذكرني بجحيم رحلتيَّ المضنيتين إلى الأردن... لكنني ما ألبث بعد ساعتين من العمل أن أسيطر على الموقف وأن أحجّم المطالب جميعاً... ويبدو أن شوقي للعودة إلى الديار والاسترخاء هناك وبدء صفحة جديدة من منح نفسي مساحات أوسع في الراحة، وتجاوز الشد العصبي؛ يبدو أنها بدأت تداعبني رغم أنني لا زلت مقتنعاً بأن هذه الرحلة هي واحدة من أجمل الرحلات وأخصبها وأكثرها تحققاً في حياتي...

الثلاثاء: أستيقظ بعد نوم متقطع مترع بالأحلام المضطربة وآلام الأذن اليمنى... أنجز بعض الأمور الكتابية بعد الفطور بصدد مقترحات أزهري الطلابية، فأحس بارتياح بانتظار السيارة التي ستقودني إلى أمانة الوزراء لإلقاء محاضرة هناك... استقبال طيب وحوار بانتظار بدء المحاضرة التي حضرها معظم الموظفين وهم عدد جم... ألقي محاضرة اخترت لها عنوان (حديث في التحديات الحضارية) بتمكن وهدوء وتسلسل محكم، وأحسّ تماماً بتحقق عميق وأجيب على الأسئلة بالصيغة نفسها...

أتلقى تقويمات سخية، وأصلي الظهر، ثم يعيدني السائق إلى الفندق لأتناول الغداء وأخطف قيلولة متقطعة بسبب الحر الذي ألاحقه بالايركندشن، ثم أتجه بسيارة أخرى لإلقاء محاضرتي في مخيم الشرطة الشعبية... حديث خصب عن الاقتصاد وأمور أخرى عبر الطريق، ثم استقبال بالتهليل والتكبير لدى الوصول، وتقديم سخي يعتبرني صاحبه من مؤسسي هذه التجربة في سياق الدفاع عن الذات وهتافات أخرى تضعني للسبب إياه في دائرة الضيق والحرج..

وأبدأ المحاضرة التي أعدتها مراراً بالنظر لعلاقتها بصميم المطلوب مضيفاً إليها هذه المرة البعد التأميني... ثم تدور أسئلة شتى ونصلي العشاء ونعود إلى الفندق... كنت سعيداً منسجماً، وقمت بجولتي في المشي لأول مرة في الليل مع الهواء الطلق توجهت بعدها للعشاء، وثمة مكالمة من عدنان بشير لتحديد عنوان محاضرة الجمعة... أعود إلى الغرفة وأجد في الكتابة والعمل

الباب الذي ألجأ إليه دائماً ليتجاوز بي القلق والتشتت وكل المنغصات الأخرى، فحمداً لله...

الأربعاء: نوم عميق غير مسطح منذ زمن بعيد... أستيقظ مبكراً فأنا على موعد مع تسجيل تلفازي... أتناول الفطور بمعية السائق وأتجه إلى الجامعة ومنها بمعية دكتور عباس إلى التلفزيون، حيث نفاجأ بعدم تثبيت موعد مسبق. ولكن أحد المعنيين يتنازل عن دوره مشكوراً، فنتجه إلى الاستوديو وهناك يلحق بنا دكتور محمد ونبدأ تسجيل حلقة أخرى عن (الحضارة والتاريخ والمنهج والأدب)...

أعود إلى الجامعة وجلسة ودية في غرفة المدير وقراءات شعرية من عدد من الأساتذة المتمرسين وتقويمات سخية، وتسلّم لعدد من مجلة فلسطين المسلمة يتضمن مقالاً لي... وثمة اثنان من العاملين في كلية مدني يصلان ويؤكدان معي موعد ذهابي إلى هناك يوم السبت. وإذ كنت قد ملت إلى السفر إلى مدني واستبعاد السفر المجهد إلى بخت الرضا بسبب بُعد الشقة؛ فإنني وعدتهم سعيداً بذلك، وازددت سعادةً بإقناع دكتور عباس على اصطحابنا في السفر. والرجلان يعربان عن الترحيب بي ولهفة الطلبة على زيارتهم...

السائق يخبرني أن إعلاناً في التلفزيون وآخر في الإذاعة أشارا إلى محاضرتي في رابطة النساء، وأن المكان تغيّر بسبب زيارة البابا... والمسؤولة النسائية ترتب مع مدير العلاقات لافتات عن المحاضرة... والأخير يعلمني بأنه ثمة موعد لتسجيل آخر في التلفزيون... ثم أغادر مع السائق عائداً إلى الفندق، لكنني ما ألبث أن أتلقى رشقة من الندم الشديد، فأقول للسائق أن يتريث، وأعود إلى مدير العلاقات فأصطحبهما معي إلى التلفزيون قائلاً إنني آليت على نفسي ألّا أرفض طلباً لأنني لا أضمن عودة أخرى إلى السودان...

هناك في أروقة مديرية التلفزيون أجلس بانتظار تهيئة الاستوديو، وألتقي بعدد من الأخوة السودانيين ذوي الماضي الدعوي والعسكري والعطاء الشعري، فأسمع منهما شيئاً من الشعر، وأتفق مع مقدم البرنامج على تسجيل عدة

حلقات بما فيها حلقة قراءات شعرية. ولكن انتظار إعداد الاستوديو يطول كثيراً فيبدأ صبري بالنفاد، ثم ما يلبث المعدّ أن يصطحبني إلى هناك حيث نسجل حلقة عن (الإنجاز في عصر الرسالة)، وأخرى عن (التحديات الحضارية)، وثالثة عن (إعادة كتابة التاريخ).

لكن الذي أزعجني وأقلقني ووقف حائلاً دون تقديم حلقات مبدعة، أن التسجيل توقف لأكثر من مرة بسبب تلقي أخبار من الأقمار الصناعية بخصوص زيارة البابا، فضلاً عن إعياء الفريقين وعدم رغبتهم في التعاون مع المعدّ... ثم إذ ما لبثوا أن طلبوا الاكتفاء بتسجيل آخر حلقة تتضمن قصيدتين فقط من الشعر قرأتهما على عجل وغادرت الاستوديو غير مرتاح.

ثم ما لبثت أن بدأت معاناة أخرى: انتظار السيارة التي ستعيدني إلى الفندق بعد مقابلة مع وزير الإعلام، وحديث معه حول البرامج التلفزيونية، وضرورة عدم تغييرها الفجائي، والتدرّج مع المواطنين ومسائل أخرى عديدة من مثل الاكثار من البرامج الترفيهية، لكي لا يرتبط الإسلام بالجد والصرامة، ومن مثل ضرورة تقليص المساحة الزمنية للبرامج التي تعتمد الحوار وحده... الخ.

رحب الوزير بي أشد الترحيب ثم ما لبث أن ودعني وانصرف إلى أحد مواعيده... بعد أن عرفني بالمدير العام... بعدها انتظرت السيارة طويلاً وراح الجوع يفتك بي والعصبية تتناوشني وتحفز وجع الصدر للانقضاض، فقمت ثائراً أقول إن لم يكن بمقدور المعد أن يجيئني بها فسوف أرجع وحدي...

وجاء أخيراً برفقة أحد كبار المعنيين، حيث أوصلني إلى الفندق عبر جولة من الحوار في شتى الأمور... تناولت غدائي واتجهت إلى الغرفة مرهقاً وأخذت قيلولة خاطفة بعد مكالمة هاتفية من وضاح خنفر تّم الاتفاق فيها على موعد مساء يوم غدٍ...

جاءني السائق وأقلني إلى صالة المحاضرة في الجامعة... لم يكن عدد النساء كبيراً، وزادني انزعاجاً عدم إحكام جهاز التوصيل. لكنني ما أن بدأت

الكلام بالصيغة الهادئة غير المتسرعة، التي قررت أن اعتمدها بدلاً من أن يجرفني الكلام السريع كشأني في معظم الأحيان، حتى بدأت النسوة تتقاطر. كما جاء عدد من الأصدقاء والأساتذة؛ الأمر الذي دفعني إلى حالة الإبداع وتقديم محاضرة محكمة، لولا الانزعاج الذي كانت تسببه دخول المدعوات بين حين وآخر؛ الأمر الذي يضطرني إلى التوقف...

أنجزت محاضرة من أشد المحاضرات إحكاماً، وكنت مقتنعاً بها بحمد الله ولقيت تقويماً سخياً، وأعربت لهم أنني بسبب إعيائي فلن أجيب على أكثر من ثلاثة أسئلة... وغادرت القاعة بعد أن أعلنت لهم عن تلمّسي العذر لهن بعد التأخر بسبب تغيير المكان وصعوبة المواصلات. لكنني ما لبثت بعد مغادرة القاعة أن ندمت على إلحاحي عليهن باللوم.

وثمة دعوة وُجهت إليَّ من دكتور خاشع الراوي لتناول العشاء بمعية عدد من الأصدقاء... كانت الجلسة طيبة أعادني بعدها إلى الفندق، وعدت إلى غرفتي وأنا أحسّ بالقلق والتشتت والاكتئاب، الأمر الذي ذكّرني بأيام الرحلات القديمة القاسية، وانفجر ندم آخر على إجابتي القاسية لأحد السائلين عن الفتنة في التاريخ بعد أن اطلعت على بقية سؤاله المترع بالتقويم... لكنني ما لبثت أن انغمرت في كتابة المذكرات والعمل فنسيت كل همومي...

يبقى أن أشير إلى منبع قلق جديد، وهو إشارة الراوي إلى ضرورة تناول قرصين ضد الملاريا لأنها تصيب معظم القادمين إلى السودان!!... تصفّح لمجلة الأمة الفلسطينية لاتخاذ قرار بصدد المقابلة الصحفية، وارتياح للميل إلى الاعتذار عنها بسبب ما تتضمنها المجلة والدورية المرفقة بها من مؤشرات حاسمة تدفعني للاعتذار...

الخميس: التوجه صباحاً إلى جامعة القرآن وجلسة ودية في غرفة مسؤول الشؤون العلمية، ثم التوجه إلى كلية آداب جامعة أم درمان لإلقاء محاضرتي، حيث أُستقبل بحفاوة بالغة من قبل العميد ورئيس قسم التاريخ وعدد من التدريسيين... وبعد حوار منوع نتجه إلى القاعة لإلقاء محاضرتي عن رؤية

جديدة لتدريس (الحضارة الإسلامية)، التي كانت واحدة من أروع ما قدمته في حياتي، والتي كنت مقتنعاً بها تماماً؛ والتي أعقبت تقويمات سخية، حيث أشار معظم الأساتذة إلى أنها أروع محاضرة سمعوها في حياتهم،وأشار آخرون إلى أنهم كانوا ينتظرون طرحاً كهذا، وأنهم سيتخذونه منهاج عمل في أنشطة الدراسات التاريخية الحضارية. وقال آخرون أن رؤيتها المنهجية تحتم أن تمضي إلى سائر المعارف الإنسانية...

لكنني إذ أنجزت المحاضرة كنت أحسّ بإعياء شديد وضيق في النفس وثمة دوار خفيف كاد أن يداعبني، ولذا اعتذرت عن الإجابة عن الأسئلة... فيما عدا اثنين أو ثلاثة... غادرت القاعة لأودّع بحفاوة يصعب وصفها، وأتجه بمعية مدير الشؤون العلمية إلى الجامعة، حيث صلاة الظهر واللقاء بمندوبي كلية (مدني)، الذين أكدوا بأنهم حشدوا عدداً ضخماً لمحاضرتي يوم السبت... وأن معظمهم من قرأ لي...

يدعوني مدير الجامعة ليعتذر عن كثرة مشاغله التي منعته من كثرة اللقاء بي... ويعرض عليَّ الإشراف على عدد من طلبة الدراسات العليا على أن أزور السودان عدة مرات في العام... كما يدعوني للمجيء بعائلتي أستاذاً زائراً لعام كامل، فأعتذر عن الثانية، وأوافق على الأولى شرط أن تستأنف الرحلات الجوية من بلدي العراق بسبب مصاعب السفر في البر...

وثمة محاولة لتغيير موعد محاضرتي في جامعة الخرطوم بسبب سفري إلى مدني، تنتهي بالإخفاق لأن التدريسيين يوم الأحد لا يتواجدون في الكلية... أتجه بمعية السائق (مقبول) إلى الفندق وينفجر الإطار الأمامي في الطريق، ولكن الله يسلّم بمنةٍ منه وحده... أتناول الطعام وأنا أحسّ برغبة عاتية في النوم، ثم ما تلبث قيلولة عميقة أن تسلمني للنوم أستيقظ بعدها لأقوم بجولة مشي في طريق الفندق، وأعود لأنتظر السائق كي يقلني إلى دعوة العشاء التي يقيمها مدير جامعة أم درمان... يجيئني طالبان يمنيان لتأكيد موعد للقاء بمجموعة منهم فأجد في الأحد متسعاً... كما يتصل بي أزهري حول تثبيته

موعداً مع الشيخ الترابي يوم السبت فأعلمه بارتباطي وأطلب تغييره إلى وقت آخر فيعدني باللقاء مساءً لترتيب الأمر...

أصل إلى استراحة الجامعة فأجد المكان قد أعد في الهواء الطلق فيتلقاني المدعوون ومدير الجامعة بترحيب عميق، وأدخل في حوار مع أستاذ جراح حول النبوءات التاريخية في السنة الشريفة... ثم يجيء أستاذ زائر من آل الزحيلي هو الدكتور محمد مدعواً هو الآخر فيعرب عن تقديره من خلال قراءته لكتاباتي. نتناول عشاءً لذيذاً ثم يجيء دور الكلمات، حيث يبدأ مدير الجامعة بتقويم سخي يصعب وصفه ويثني بي لألقي كلمة هادئة تناولت فيها العديد من الأولويات المهمة وتحدثت عن «المحبة السودانية»، و«أبعاد التجربة» وأحسست لسعادتي بالاقتناع بها والحمد لله...

تحدث الضيف الزحيلي واستشهد بي أكثر من مرة، ثم أعقبه مدير جامعة القرآن الكريم فأشاد بي وسخى في تقويمه... كنت أحسّ بصفاء نفسي وسعادة عميقة وإحساس بالتحقق نادراً ما استمتعت بها، وزادني سعادة هذا الدفق من المحبة لي ولكتاباتي وهذا التأكيد على دوري في الساحة الفكرية، والذي أعتبره أعظم هدية أتلقاها لأن محبة الناس من محبة الله ﷻ وأي ناس؟ إنهم طليعة الفئة المثقفة إسلامياً، فالحمد لله...

طلب مني أيضاً أن أقرأ قصيدة فألقيت (والموعد لله) بتمكن وهدوء... ثم أعقبت بوصلات وقصائد أخرى من آخرين. وقمنا لنغادر المكان، فعرض عليَّ مدير جامعتي أن أرشح كتاباً لكي يهديه لي فوقع اختياري على القرطبي، فوعدني بإرساله على عنواني بوسائله الخاصة فأجبته أنها هدية العمر... أستاذاً آخر قادم من أمريكا أشار إلى كتاباتي وقال مؤكداً أن كل الذين قرؤوها أبدوا تقويمهم ومحبتهم فحمداً لله...

أزهري قام بزيارة عابرة ليسلمني فيديو محاضرتي في قاعة الشارقة ويعد بلقاء آخر... أودع المدعوين بالحفاوة نفسها، ويتحفني الشيخ حسن (الضرير)

ذو الصوت المترع نداوةً والماضي الإيماني العميق، بمحبة فأحتضنه بدوري وأنا أحسّ بدفق الإيمان يسري في كياني...

يعود بي السائق إلى الفندق لتستقبلني مكالمة من مندوبي مجلة الأمة لتثبيت موعد اللقاء صباح الغد إن شاء الله... أظل لابساً بدلتي لأنني على موعد مع وضاح خنفر وأزهري تيجاني، لكن الوقت يمر فلا يأتيان... أذهب للمطعم لتناول طبق من الفاكهة ثم أعود إلى الغرفة لمواصلة الكتابة والقراءة حتى ساعة متأخرة من الليل...

الجمعة: الذهاب لتناول الفطور، وعودة إلى الغرفة لمشاهدة اللقاء التلفزيوني حول (إسلامية المعرفة)، ولكنه يتأخر عن موعده لأكثر من ساعة، ويتزامن مع مجيء مندوبين عن مجلة الأمة، فأدخل دائرة الانفعال ولكني ما ألبث أن آخذ المندوبين إلى صالة الفندق لمشاهدة الحلقة التي لم أدرك بداياتها الأولى، وأحسست بارتياح عميق وأنا أتبين توفيقي في الطرح على خلاف ما كنت أتصوّره...

نجلس في حديقة الفندق، وتدور أحاديث خصبة في التاريخ والأدب والنشر، وأتلقى أسئلة شتى أجيب عليها بإيغال بعد أن بينت لهما رغبتي في عدم النشر واقتنعا بها، كما تمت ترتيبات عديدة حول دورية (أصوات). وعرضا عليَّ الموافقة على دعوة من إحدى المراكز الثقافية في الغرب فاعتذرت عنها، كما التقطنا صوراً عديدة...

ومن بين الأسئلة التي طرحت: الأسباب التي دفعتني إلى كتابة (دراسة في السيرة) هذا الكتاب المناسب للطالب الجامعي الذي يدرّس الآن في فلسطين وغيرها من البلدان... وسؤال عن الكتابات التي أثّرت فيّ، وعن الدوافع الأساسية لتوجّهاتي الإبداعية، وعن الروائي والقصاص الأوّل في الساحة الأدبية، وعن درويش والملائكة والسياب والشعر الحرّ، وعن أكبر شاعر عراقي معاصر... وعن أهم كتاب لسيد أثّر فيّ، وعن الشروط الأساسية للتعامل مع التاريخ الإسلامي، ومسألة الرد على هجمات الاستشراق... وعن تقويمي لحركة

الأدب الإسلامي المعاصر ونقاط قوته وضعفه، وأشار أحدهما إلى احتمال نشر بحثي عن (الإسلام والمستقبل) من قبل مركز دراسات المستقبل، كما طلبا عنوان الناشر لإرسال كتبي إلى السودان... الخ

جاءني السائق للذهاب إلى مسجد الجامعة لسماع خطبة الجمعة وأخرى للدكتور الزحيلي... سلام على الشيخ الترابي الذي لقيته هناك، ثم أتوجه إلى حدائق الزهراء المجاورة وحوار متنوع بانتظار الغداء... مفاتحة مدير الجامعة بطلباتي المعلّقة والاتفاق عليها جميعاً... يعرض عليَّ الرجل أن أقبل هدية أخرى... صندوقاً من الكريب فأعتذر بسبب ثقله ويشير إلى أنه ربما يرتب أمر سفري من عمان بسيارة السفارة فأشكره...

نؤدي صلاة العصر ونتوجه لمائدة الطعام، حيث اعتصرنا الجوع فنلتهم الطعام بشهية، ثم يتم التعارف ويطلب مني إلقاء كلمة، فأحكي عن المحبة السودانية والحلم القديم بزيارة البلد الشقيق. كما يطلب إلقاء قصيدة أخرى فألقي (المحطات الأخيرة) بتمكن وهدوء فتنال التقدير... نستمع إلى قصائد ومقاطع من آخرين في جلسة عذبة في الهواء الطلق ثم نتوجه لزيارة الوزير دكتور إبراهيم أحمد عمر، الذي يستقبلنا بالودّ والتواضع، وأناقشه في عدد من الأمور وتدور أحاديث شتى دون أي إحساس بالتكلف. ويتحدث عن دعوة ستوجه إلي لإعداد ورقة عمل حول القرآن والعلم الحديث من قبل المعهد العالمي الذي سيعقد حلقة دراسية في الخرطوم في الصيف القادم، فأعرب له عن ميلي إلى الاعتذار واحتمال مشاركتي عن طريق المراسلة...

نودعه على عجل للحاق بموعدي في الفندق ومنه إلى مسجد في الرياض لإلقاء محاضرتي... لم أجد عدنان بشير فأتصل هاتفياً، وفي النهاية أطلب من السائق أن يقلني إلى هناك... أصل متأخراً ولكني أتدارك الأمر وينسحب المتحدث لكي يقدّمني فيتدفق كلامي عن ضرورة الأولويات والمنهج والبرمجة وعما تقدمه خبرة الرسول (ﷺ) في هذا السياق في بناء الإنسان والجماعة والدولة والجيش والوحدة ثم التحول إلى العالمية...

وفي النصف الثاني من المحاضرة أتحدث عن مفهوم اللحظة التاريخية وخطأ الإسلاميين في التعامل مع التاريخ بالمسطرة... كما أتحدث جواباً على سؤال أحدهم عن الوحدة والتنوع ومفهوم الخلافة الواحدة والسلطات العديدة والأممية الإسلامية... الخ. يقوم أستاذ جليل فيعرّفني بسخاء ويشير إلى وضعي نظرية في التفسير الإسلامي قبالة التفسير المادي... وإلى محاضراتي الخصبة عبر الأيام الأخيرة... أتلقى سيلاً من التحيات الحارة والتقويمات السخيّة ودعوات بالبقاء أكثر وأخرى، بإلقاء محاضرات أخرى ولكني أعتذر لضيق الوقت، وأغادر المسجد بمعية وضاح خنفر، لكي نجلس في حديقة الفندق في جلسة حوار؛ كان يداعبني فيها شيء من الكآبة والقلق والحنين إلى البلد... أحاول أن أسجّل نداءً هاتفياً دون جدوى... أتناول عشاءً من الكيك والفاكهة، وأعود إلى الغرفة لكي أغرق في العمل فهو الإسفنجة، التي تمتص كل الهموم وتعيدني إلى التوازن والعطاء، بانتظار الاستيقاظ فجراً للتوجه إلى مدني لإلقاء محاضرتي هناك إن شاء الله...

السبت: الانطلاق فجراً إلى مدني في سيارة مريحة بمعية دكتور عباس (عميد اللغة العربية) والمصوّر التلفزيوني لمركز بحوث الإيمان... الاستقبال الحارّ وتناول فطور لذيذ من السمك وغيره... التوجه إلى مكان المحاضرة، حيث أقيمت السرادقات ومكبرات الصوت وبدأ المدعوون يتوافدون... تقديم مترع بالتقويم ثم محاضرة عن (رؤية جديدة في منهج التعامل مع حضارة الإسلام) أحسّ في أخرياتها بإعياء شديد وضيق في النفس، وثقل في الساق الأيسر؛ الأمر الذي يضطرني للاكتفاء بالإجابة على سؤالين أو ثلاثة... وثمة حشود من الأسئلة المكتوبة أتلقاها وتعليقات قيمة وإشادات سخية من مدير جامعة الجزيرة والعميد وعدد من الأساتذة... يطلب مني أن ألقي شعراً فأقرأ ثلاث قصائد بتمكن وانسياب، وترسل إليَّ طالبتان تلتمسان إرسال نصوص القصائد إليهما، وأتلقى تقويماً طيباً بصدد القصائد...

نتجه إلى مشروع الجزيرة لمشاهدة فيلم عنه والاستماع إلى شروح حول

معطياته، وأحسّ حتى الأعماق بالمزيد من التحقق... نمضي بعدها إلى معسكر للطلبة المتدربين، حيث نستقبل بالهتاف والتهليل والترحاب الحار، حيث يقدّمني عميد الكلية بسخاء، وحيث ألقي كلمة دافئة قبالة المقاتلين تليها دقائق من الأهازيج والأناشيد الحماسية، نشارك فيها جميعاً وسط لحظات من الانفعال والإعجاب...

نرجع إلى الكلية لأداء الصلاة وتناول الفواكه والتوجه بعدها إلى صالة أحد الفنادق الممتازة لتناول طعام العشاء اللذيذ، ثم نقفل عائدين لكي نزور في طريقنا إحدى (الخلاوي) المخصصة لتحفيظ القرآن الكريم لحشود الأطفال والصبيان... أصل الفندق متأخراً لأجد في انتظاري وزير إعلام سابق يسألني عن إمكان العمل الوظيفي في العراق، ويبدي إعجابه بكتاباتي، ثم ما يلبث أن يجيء أمجد محمد سعيد السكرتير الصحفي لكي يودّعني...

أحاول أن أسجل مكالمة هاتفية للموصل... ويزورني في الغرفة اثنان من المعارف ويعلماني بوصول الأقرباء إلى عمان... ينفتح الخط على الموصل فأتحدث مع زوجتي وأحسّ بشيء من الارتياح والاطمئنان... لكن مكالمة من أزهري تدفعني هي الأخرى إلى دائرة التوتر والندم، حيث أنه رتب موعداً مع الشيخ الترابي دون أن يعرف بأنني مسافر إلى مدني... وثمة مطالب شتى يتوجب إنجازها قبل النوم، وبخاصة تنقيح المقابلة الصحفية مع الإخوة السودانيين... أسهر إلى ساعة متأخرة ثم أسلم نفسي لنوم عميق...

الأحد: أستيقظ مبكراً لأداء الصلاة وأميل إلى عدم النوم ثانية انتهازاً للوقت وأنجز التنقيح فأشعر بارتياح، وأجري عدة مكالمات ثم أتناول الفطور وأتجه إلى وزارة التربية لتصفية المعلقات مع أزهري، ومنها إلى إدارة الجامعة لحلّ المعلقات بصدد الدراسات العليا، والتذكرة وتسليم الأوراق المتبقية والخاصة بجهات عديدة... وثمة جلسة مريحة في غرفة مدير الجامعة تدور فيها أحاديث عن العقاد وتقرأ فيها قصائد شتى...

يدعوني مدير الجامعة لمشاركته في محاضرته قبالة طلبة الدراسات العليا

بصدد الحوار الإسلامي ـ المسيحي، فأنتهزها فرصة لتقديم خلاصة خبرتي في الموضوع بعمق وتمكّن أحسّ بهما بارتياح عميق. ويطلب المدير إلقاء بعض قصائدي فألقيها بتمكن وهدوء وأتلقى من الطلبة، ومن المدير وعميد اللغة العربية تقويمات سخية أحسّ معها بتحقق عميق، هذا إلى ورقة مكتوبة تودّعني فيها إحدى طالبات الدراسات العليا بأسلوب مترع بالتقدير والدعاء...

نتجه ثانيةً إلى غرفة المدير، لكي ما ألبث أن أفاجأ بسيلٍ من الهدايا: حقائب من جلد الأفعى... ولوحة من جلد الغزال، وصندوق يتضمن تفسير القرطبي، وآخر من فواكه شتى. ثم ما ألبث أن أتلقى مظروفاً عرفت أنه يتضمن مكافأة نقدية أفتحها فإذا بها ألف دولار وعشرة آلاف جنيه سوداني مع كتاب شكر وتقدير... أحاول أن أعتذر فيقطع المدير عليَّ الطريق ويرغمني على قبول المكافأة الرمزية... أفرح بها في سري والحق يقال فهي تعادل ما يقرب من أربعين ألف دينار فحمداً لله...

نتجه لزيارة الشيخ الترابي وأنا في أقصى حالات الفرح والتوازن والانسجام... ويزيدني تمتعاً أن تتاح لي الفرصة على مصراعيها للتحدث مع الشيخ في الهاجس الذي كان يلّح عليَّ منذ زمن بعيد، وأن يفتح الشيخ صدره وعقله لملاحظاتي ويدوّنها واحدةً واحدة... مع قدر كبير من التقدير والقبول... أحسّ بأنني أزحت عن صدري عبئاً كبيراً... أودع بالحفاوة نفسها وأتلقى دعوة على العشاء من مدير الجامعة... يوصلني العميد إلى الفندق فأتناول الغداء على عجل وأنتظر عدداً من الشباب اليمنيين ليقلوني إلى المكان الذي سألقي فيه كلمة وأتبادل معهم الأحاديث...

وكان لقاء طيباً آثرت فيه أن يأخذ صيغة الحوار المباشر... أعود إلى الفندق بانتظار السيارة التي ستقلّني إلى دار مدير الجامعة... أتصل من هناك هاتفياً بعدنان وأزهري لتصفية آخر المعلقات... يدور قبل العشاء حوار خصب حول التاريخ ودور الخبرة التاريخية في النشاط الدعوي... نتناول عشاءً دسماً

لذيذاً ونستمع إلى قصيدة وداعية من معاون المدير كان قد كتبها للتوّ بطلب من المدير وحمّلها محبته بسخاء وسمّاها (وداع عماد)...

كنت على إحساسي بالتحقق أحاصر بشيء من الاكتئاب والقلق، فاليوم ليلاً هو موعد مغادرتي، وكم كنت أتمنى أن تكون دعوة كهذه قبل يوم الرحيل... أودع الضيوف وأتجه مع العميد إلى الفندق فأودعه بحرارة وتأثر عميق، وأرتب الحقائب وأحسّ بعد دوامة القلق، بارتياح عميق... لكن معاون العلاقات يتأخر عن موعده، فيحاصرني القلق، ثم يزداد التأخر ويبدأ الوقت يضيّق الخناق عليّ، وهاجس عدم اللحاق بالطائرة وما يترتب عليه من ضرورة بقائي أسبوعاً بأكمله يدمّر أعصابي...

لا أستطيع البقاء في الغرفة فأخرج أذرع الفناء لا أدري ما أفعل، ثم يدور بخلدي أن أوقظ المدير من نومه فيجيئني ويطلب مني التريث ربع ساعة أخرى وبعدها أتصل به... أهرع إلى بدايات الشارع الخارجي مشدود الأعصاب وأنا أدعو الله من أعماقي أن تجيء السيارة... وما تلبث أن تجيئني بحمد الله، فنحمل الحقائب على عجل ونغادر إلى المطار.

وفي الطريق نلتقي مدير الجامعة بسيارته فيلحق بنا... أدخل بمعيته إلى صالة الشرف، لكي ما ألبث أن أجد السفير العراقي يودع وفداً من العسكريين، أجلس بمعية المدير والسفير، بينما يذهب معاون العلاقات والسائق لاستكمال الإجراءات... أودعهما وأتجه إلى الطائرة بعد أن وضعني في دائرة حيرة من نوع آخر... إذ صادف وأن كان مسافراً الملحق العسكري السوداني، وطلب المدير منه أن يقلني بسيارة السفارة إلى بغداد لحظة الوصول...

احترت كثيراً بين الذهاب مباشرةً إلى بغداد وبين البقاء ليوم في عمان... فثمة مطالب عديدة وتوصيات بمشتريات شتى، يصعب أن أعود بدونها وأن أحمل قلق المطالب إلى الموصل، حيث الاتصالات الهاتفية بالخارج أمرٌ مرير... لكن البرد، وكثرة الحقائب والصناديق تغريني بالاستفادة من الفرصة... وأخيراً وبعد الوصول مع مطالع الصباح وتبيّن ألّا سيارة هناك.

الاثنين: أجدني مرغماً على البقاء وأحسّ بارتياح عميق بعد إذ تجاوزت الحيرة. وتقلني سيارة تاكسي إلى عمان وأضع خطة لليوم: أن أودع حقائبي وأغراضي في جمعية البحوث، وأنطلق إلى مركز عمان لاستكمال المشتريات ومطالب الناشرين والاتصالات الهاتفية، لكني أصل المكان والمحلات جميعاً مقفلة والبرد شديد، ثم ما يلبث المطعم المجاور أن يفتح، فأجازف بوضع أغراضي عنده وأتجه قلقاً إلى مركز عمان... أشتري عدداً من الحاجيات وأزور الناشرين وأتصل بطنطاوي متفقاً معه على موعد وأحسّ بشيء من الارتياح...

ثم أقوم بجولة شراء أخرى أنجز فيها معظم المطالب، وأعود إلى الناشرين، لكي أجد صعوبة بالغة في اختراق المراجعين حول الحج هناك وصولاً إلى الداخل... أتفق مع دار عمار على إعادة طبع كتابين لي (ولاة السلاجقة) و(الشمس والدنس)، وأطمئن على بدء العمل في مؤلفي الجديد (القرآن من منظور غربي)، ويجيئني طنطاوي لكي نتجه إلى جمعية البحوث حيث أتصل هاتفياً بأنس لحل الكثير من الأمور المعلقة وبخاصة المالية، فأحس بارتياح عميق.

ويزيدني فرحاً وارتياحاً مكالمة أخرى، بعد عدة ملاحظات للصالحي في تركيا، حيث يعلمني بردّ الفعل الرائع لمقالي (الرحيل إلى إسطنبول) في الدوائر النورسية، حيث دفعهم لأكثر من مرة إلى البكاء... وثمة أمور معلقة شتى أصفيها مع الصالحي بما فيها وعده باستئناف العمل في دراستي (الجمالية) في كتابات النورسي... يرتب زيد موعداً مساء اليوم مع عدد من طلبة الدراسات العليا، وآخر يرتبه طنطاوي مع حشدٍ من الإسلاميين ليلاً...

نتجه بمعية زيد إلى بيت طنطاوي لتناول غداء لذيذ واستكمال سلسلة أخرى من المكالمات... أعود بمعية زيد إلى الجمعية، فأستقبل بحفاوة بالغة ثم ما ألبث أن أفاجأ بمجيء أولاد العم وهشام الطالب... لقاء حارّ... ثم ما ألبث وهشام أن نعقد ندوة قبالة طلبة الدراسات العليا، يتحدث فيها عن الدعوة وأتحدث عن الحضارة، وأشعر بأننا قدمنا خلالها عرضاً طيباً... تأجيل الحوار

إلى ما بعد صلاة المغرب، وأسمع من ابن العم عز الدين تقويماً سخياً فأزداد ارتياحاً...

نعود لتلقّي عدد من الأسئلة والإجابة عليها بتمكّن، ثم أميل إلى ضرورة زيارة القريبات في فندق المقصورة، ثم التوجّه من هناك إلى موعدي الآخر مع الإسلاميين... لحظات مؤثرة من البكاء الصامت وعز الدين يحكي عن سفر ابنه مروان... استقبال حار في الفندق وأحاديث شتى وإحساس بالارتياح والتحقق، حيث أتولى زمام الحديث، وتتاح الفرصة للقاء بأحمد التوتنجي وملكاوي... أودّعهم جميعاً وأتجه وزيد إلى الموعد، فما نلبث أن نجد أنه لا أحد غير الطنطاوي الذي يقول بلهجة العتاب أننا تأخرنا كثيراً، وأنه كان علينا ـ على الأقل ـ أن نتحدث بالهاتف لإيضاح سبب التأخير، وأن القلق احتوشهم ثم ما لبثوا بعد أن ملّوا الانتظار أن تفرقوا...

أحسّ بندم عميق حتى العظم على ضياع الفرصة وعلى وضع طنطاوي في موضع صعب، فأعتذر وأقول له أنه ليس ثمة ارتياح أو صفاء مطلق، وأن هذه الرحلة علّمتني أنه ما من فرحة في يوم ما إلّا ويوازيها منغّص يمتص دفقها... نلجأ إلى حلّ وسط أن نتصل بقفة وأبي غسان وعدد من الإخوة لكي نقضي الأمسية معهم... يجيئون ويدور حوار ذو شجون، ولكن النوم يحاصرني، فينهضون مغادرين، ويسلّمني أحد محرري (فلسطين المسلمة) مظروفاً بشيء من الخجل والاعتذار، أعرف من ملامح الوجوه ما يتضمنه... أطلب منه ألا يغادر المكان قبل معرفة ما فيه، فإذا به ينطوي على مائتي دولار ورسالة تقدير من هيئة تحرير فلسطين، أحاول أن أرد المبلغ لكنهم يصرّون... أحسّ بشيء من الارتياح في سرّي فها هو مبلغ طيب آخر يضاف إلى الرصيد... أسلم نفسي لنوم عميق مشبع فحمداً لله...

الثلاثاء ٢/١٦: فطور لذيذ مع طنطاوي وشراء الأدوية وتوديع طنطاوي والتوجه إلى جمعية البحوث... ارتياح عميق وإحساس غامر بالفرح والتوافق بعد استكمال شبكة الاتصالات الهاتفية وترتيب الأمور المعلّقة وتنظيم الحقائب

والصناديق... ويزيدني فرحاً وتخففاً أنني سأرجع إلى بلدي وقد تحرّرت من هموم الاتصالات والأعمال المعلقة وبخاصة معضلة بحث اليونسكو فحمداً لله...

التوجه إلى كراج السيارات وشيء من القلق بسبب عدم العثور على سيارة للموصل بسعر مناسب... وما ألبث بعد نصف ساعة أن أجد بغيتي في سيارة متجهة إلى بغداد...

رحلة مريحة وعشاء في رويشد... وساعات قاسية مع البرد وحرب الأعصاب بسبب مخالفة السائق، والعقاب الذي فرضه المفتش الحاقد بتأخير تفتشينا... ارتياح للتفتيش الميسّر والانطلاق إلى بغداد والحصول على قسط طيب من النوم... الوصول فجراً في جوّ بارد كالسكين، وارتياح بالغ للعثور على تاكسي آخذها بمفردي إلى الموصل، وأحظى بقسط آخر عميق من النوم فلا أحسّ بطول الشقة... حوار وانسجام مع السائق...

الوصول إلى الموصل والاستقبال الدافئ... ودوامة القلق الذي لا بدّ من أداء ضريبته في أعقاب كل رجوع لدى عرض الهدايا والمشتريات، فضلاً عن الإحساس بالتشتت عبر اليوم كلّه، حيث لا أتحقق بالتوحد والاستقرار إلّا في اليوم التالي...

[٢٢]

رحلة عام ١٩٩٣ م إلى المغرب

الخميس ٩/٣٠: إنجاز المعلقات بعد قلق أسبوعين، والسفر بالباص وسط احتمال عدم قيامه بالرحلة... اكتشاف انتفاخ للفتقة في بيجي... فحص في الرمادي والتأكد من الفتقة... نوم عميق حتى الفجر... تزايد متاعب الفقرات.

الجمعة: ساعات الانتظار القاسية في طريبيل... هموم الفتقة... متاعب الفقرات... الوصول في منتصف الليل... نوم عميق في الباص...

السبت: التوجه إلى الخطوط الأردنية وسط إحساس بالاكتئاب وضيق الصدر ونفاد الصبر... الحصول على البطاقة والمفاجأة بعدم وجود OK ثم

محاولة تؤول بالنجاح وإحساس بالارتياح... زيارة رضوان دعبول وحل الكثير من المعلقات... توديع الدكتور عبد الواحد ذنون المرتبط بمؤتمر في جامعة اليرموك والتوجه إلى المعهد العالمي...

ساعتان من القلق بسبب عدم القدرة على الاتصال بالمغرب لضمان الاستقبال، ثم الحصول على أحدهم والاطمئنان للمسألة... إنجاز معظم المعلقات وإجراء عدة اتصالات وغداء لذيذ... مغادرة المعهد في الخامسة وسط إحساس عميق بالتخفف والارتياح لولا آلام الفتقة... ساعة ممتعة في أجنحة دار البشير واكتشاف طبعة جديدة لكتابي (مقال في العدل الاجتماعي)... التوجه إلى دوار سكينة في جبل الحسين وتجوال ممتع هناك بانتظار عبد الله الطنطاوي... أمسية طيبة في بيت أحمد رمضان وعودة كئيبة إلى الفندق.

الأحد: نوم متقطع... استيقاظ قلق... ثم إنجاز كل الأمور والتوجه إلى المطار وسط ارتياح عميق... رحلة جوية ممتعة رغم طولها... الاستقبال والتوجه بالسيارة إلى فاس، حيث يقام مؤتمر المستقبل الثقافي لعالم الإسلام، عبر الرباط، وارتياح لموافقة اثنين من المدعوين، ثم إحساس قاس بالغثيان والإعياء وضيق النفس وآلام الرجلين حتى الوصول... فندق فاس الرائع وعشاء طيب ثم صعود إلى الغرفة وسط إعياء بالغ ورغبة شديدة بالنوم.

الاثنين: فطور في الغرفة... نزول إلى الصالة... ارتياح لإنجاز ترتيب جديد لملخص محاضرتي للمؤتمر... التحول للجلوس مع عدد من المدعوين... وانزعاج لآراء الدكتور عاطف العراقي الذي ينفي وجود حضارة إسلامية أصلاً... جولة تخط ممتعة في شوارع فاس... غداء سمك جمبري لذيذ بمعية الدكتور علي القاسمي سكرتير المؤتمر... قيلولة لا تأتي بطائل... القيام بترتيب الأوراق... إحساس بالاكتئاب يدفعني للهروب إلى التخطي... اللقاء في الوقت المناسب مع الدكتور الخطيب واثنين من المغاربة... جولة في السيارة بمعيتهم ثم تجوال ممتع في فاس القديمة لولا ضغوط ضيق النفس... العودة واستقبال

حار من التويجري مدير عام المؤتمر وإعلامي بأنه أكد على الاهتمام بي بشكل خاص... عشاء وسط جلسة طيبة وحوار ممتع مع المغاربة... جولة تخطي أخرى في الهواء الطلق... الصعود للغرفة وإنجاز المذكرات اليومية.

الثلاثاء: فطور في الصالة... التوجه إلى افتتاح المؤتمر... حوار مع الدكتور فتحي الدريني... الافتتاح... لقاء حار بالناقد المغربي الصديق علي لغزيوي (ﷺ)... شاعر شاب يهديني ديوانه ويحدد موعداً للقاء صحفي... عدد من المثقفين يبدون تقييمهم... لقاء حار بالدكتور أحمد علي الإمام (ﷺ) مدير جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية في السودان، ودعوة منه لزيارة أخرى للجامعة، واعتذار لهذا الموسم وموعد مبدئي للصيف القادم...

غداء مغربي لذيذ في صالة النجمة من القوزي والدجاج والكسكس والفاكهة الرائعة والحلويات النادرة... العودة المرهقة للفندق... استراحة غير مجزية... ومحاولة مكالمة للبشير ـ المستشار الأكاديمي للمعهد العالمي في الرباط... وملاحقات من قبل الدكتور أنس الشيخ علي في لندن... جلسة في الصالة وتكهرب الأعصاب لدى الاطلاع على بحث عاطف العراقي المترع حقداً وكراهية... والذي يصبّ فيه الشتائم الرخيصة على الإسلاميين ويستدعي البوليس المصري لملاحقتهم... فيما يخرج بالبحث عن صفته الأكاديمية...

عرض لمشكلة البحث على اثنين من المغاربة دون استجابة جادة... زيارة لمكتبة القرويين وفاس القديمة وصلاة في جامعها... العودة للفندق وإنجاز عدد من المعلقات واستقبال الغزيوي وصديق آخر، والذهاب لأمسية في بيت الدكتور عباس الجراري بمعية الدكتور أحمد علي الإمام... أحاديث متنوعة لدى تحليل المواقف، والدكتور أحمد علي يطلب قراءة قصيدتي (المحطات الأخيرة)... اتفاق على خطة محكمة لإسقاط عاطف العراقي... العودة إلى الفندق... والإحساس إياه بالتشتت، فضلاً عن القلق الحاد بسبب المطالب المعلقة.

الأربعاء: الاستيقاظ مبكراً وأداء صلاة الفجر... الفطور ثم التوجه إلى قاعة المؤتمر وسط قلق متزايد باحتمال عدم نجاح محاولة إبعاد عاطف

العراقي... إلقاء البحوث وتبيّن نجاح المحاولة وإحساس عميق بالارتياح ومشاركة خصبة في المناقشات... غداء مغربي رائع في بيت أحد الوجهاء: القوزي على البخار... البصطيلة المغربية من الخبز المرقّق المحشو بالمكسرات واللحوم... ثم الدجاج المحمّر مع السلاطة ووجبة فاكهة رائعة وحلويات...

حوار حول الفكر مع اثنين من الجامعيين... العودة إلى الفندق والانطلاق في السادسة إلى مكتبة قصر سودة لحضور مائدة مستديرة حول الجامعة والمناهج والتنمية... مداخلة خصبة تلقى قبولاً حسناً... العودة إلى الفندق ومنه مع الفزيوي إلى دار أحد الأصدقاء، والمفاجأة السارة بمجيء الدكتور حسن الأمراني والشاعر الرباوي من وجدة للقاء بي... أمسية طيبة وحوار ذو شجون ثم عودة إلى الفندق ونوم عميق بسبب الإعياء الشديد.

الخميس: الاستيقاظ المبكر وإنجاز العديد من المعلقات والتوجه إلى صالة المطعم لتناول الفطور، وارتياح للقاء معاون مدير منظمة التربية والثقافة والعلوم الإيسسيكو الدكتور علي القاسمي وتقديم العديد من التوصيات، وإعلامه إياي برئاسة إحدى الجلستين الصباحيتين... الوصول إلى القاعة والمفاجأة بقبول كلمة عاطف المصري بسعي من معاون المدير... ولكن بعد تشذيبها وجعلها أقرب إلى الطرح الأكاديمي... التنازل عن رئاسة الجلسة للأخ الدكتور أحمد علي الإمام...

تتعاقب الكلمات ويجيء دوري فأقدم كلمتي بصيغة متماسكة وأغادر المنصة سعيداً مقتنعاً بفرحي، وأتلقى تقويمات عديدة من الحضور... ثم تبدأ المناقشات وأجدني أطلب فرصة للكلام أرد فيها بمنطق قوي وأدلة خصبة على ادعاءات الدكتور عاطف... لكنه يطلب الإذن ويرد عليَّ فيما كان يمكن دحضه لولا أن الإجراءات لا تسمح باستمرار الجدل... نغادر القاعة لاستراحة الشاي... يدعوني محرران صحفيان للإدلاء برأيي عن فلسطين والقدس فأجيبهم بصراحة ووضوح... نعود إلى القاعة للاستماع إلى التوصيات...

نغادر بعدها للقيام بجولة في فاس التراثية: أسوارها وأبراجها وضريحا لسان الدين وابن العربي... ونستمع لشرح لأحد المغاربة عن تسلسل الدويلات المغربية وصولاً إلى العصر الحديث... نتناول الغداء في دار أحد الوجهاء... ويطلب الدكتور أحمد علي الإمام إلقاء قصيدتي التي أعجبته كثيراً (المحطات الأخيرة)... نغادر المكان وأنا أحسّ بارتياح لقيام أحد مسؤولي المؤتمر بترتيب حجز العودة على الاثنين بدلاً من اليوم الخميس، وبتهيئة سيارة تقلني وأستاذين آخرين إلى فندق في الرباط على حساب المنظمة... وأشعر بزوال القلق بخصوص العودة...

أصعد للغرفة فيجيئني صحفي لإجراء حوار في الثقافة والتاريخ والأدب، أجيبه على نصف أسئلته، ثم ما يلبث إسماعيل الخطيب والأمراني والرباوي أن يجيئوا فيتوقف الحوار... ثم ما ألبث أن تفتح عليَّ جبهة قلق جديدة، حيث يدعوني الخطيب للذهاب بمعيته إلى تطوان والاطلاع عليها وعلى طنجة، فضلاً عن تزامن ذلك مع انعقاد ندوة أدبية هناك، حيث سيرحب بي المشاركون... ولكن هذا يقتضي عودة بالقطار تنطوي على قلق بصدد ضمان الاستقبال في الرباط، وربما الإعياء بسبب طول الطريق... هذا إلى أن هناك احتمال وجود ارتباطات في الرباط مع مندوب المعهد العالمي تقتضي وجودي ليومين أو أكثر... وفي كل من التوجّهين إغراءات ومتاعب أشعر معها أنني أعاني من التمزق بين اثنتين دون أي ترجيح... أحاول أن أميل إلى إحداهما فتسحبني الأخرى...

أتوجه مع الأصدقاء إلى أحد البيوت، حيث يستقبلنا هناك مجموعة من المدرسين الجامعيين المختصين باللغويات، ويدور حوار مكثف حول اللسانيات والنقد الحداثي... نتناول العشاء... ثم ألقي قصيدتين عليهم: (النار) و(ابتهالات في زمن الغربة) تلاقيان الإعجاب، ويأخذهما الأمراني لنشرهما في (المشكاة)... نستمع إلى قصائد من الآخرين ثم أعود إلى الفندق مؤجلاً حسم موضوع الرحلة ليوم غدٍ... وثمة نوبات من الألم الخفيف عادت لكي تزعجني في منطقة الفتقة.

الجمعة: استيقظت لكي ما ألبث أن أجدني أميل إلى الرحلة إلى الرباط مباشرةً... إذ لم يبق لدي استعداد لقلق جديد بصدد ضمان الوصول إلى الرباط من تطوان في الموعد المحدد الذي يسبق العودة... وأحسست بارتياح عميق باتخاذ القرار. وتناولت فطوري سعيداً على مائدة الدكتور الجراري، وخرجت بعد كتابة تعليق عن المؤتمر لعمادة آداب فاس، بمعية الخطيب عبر جولة ممتعة في شوارع وأسواق فاس... ثم ما لبثت والدكتور فتحي الدريني والموريتاني أن ركبنا السيارة عائدين إلى الرباط، عبر رحلة جميلة وانسجام عميق مع الموريتاني وقراءات شعرية وتبادل للنكات... وشربنا الشاي على الطريق ثم انتهى بنا المطاف في الرباط التي دهشت لروعتها وازددت اقتناعاً بصواب قراري...

نزلنا في فندق أنيق... وما لبثت أن غادرته لكي أنزل إلى الشارع وأشاهد موكب الملك الحسن الثاني عائداً من البرلمان... ثم أقوم بجولة تنتهي بصلاة المغرب في جامع السنة الكبير... وأواصل التجوال في الشوارع المحيطة بالفندق حيث المكتبات والمطاعم والمقاهي... أعود بعدها لتناول وجبة عشاء شهية في مطعم الفندق والجلوس قليلاً في صالة التلفاز... لكن ما كان يعذبني هو انفجار آلام الفتقة بين الحين والحين على شكل سكين حادة عند خط الاتصال بين الفخذ الأيسر والمثانة... وأقول في نفسي: هل سأجتاز المحنة وأرجع إلى بلدي بسلام؟

السبت: أستيقظ فجراً بعد نوم لا بأس به... أصلي الفجر وأعود للنوم... أتناول فطوري في مطعم الفندق... أتصل هاتفياً بالبشير فلا أجده فأضع اسمي لدى أهله... وأنطلق في جولة تخط عبر شارع محمد الخامس من أقصاه إلى أقصاه، حيث المكتبات والبقالات والباعة والمحلات الكبرى وأكشاك الصحف والأبنية التراثية والأحياء الأصيلة... أصل إلى مقبرة على حافة الأطلسي... اجتازها... فأجدني قبالة المحيط الرهيب... أقف بعض الوقت ثم أجلس على حافة أحد القبور المغلفة بالفسيفساء... أشعر بارتياح...

وأعود إلى الفندق عبر نفس الشارع... أجد بانتظاري رزمة من الكتب الخاصة بالتفسير العلمي للقرآن ورقم هاتف مؤلفها... يدق الجرس فيعلمني المتحدث أنه وصديق آخر جاءا لزيارتي، وإذا بأحدهما هو أحد العاملين بالمعهد العالمي للفكر الإسلامي... مبعوثاً من البشير. فأحس بارتياح عميق وألبي دعوته لحضور لقاء في كلية الآداب مع تدريسيي قسم الثقافة الإسلامية... أودعهما وأصعد لتناول الغداء مع الموريتاني... أطلب الكسكس والفاكهة وأتعرف على أحد العاملين في السفارة الموريتانية...

أنزل لأنام... بعد قليل يدق الهاتف... ها هو ذا الدكتور الخرشان مؤلف الكتب العلمية يجيئني، ندخل في حوار عميق حول العلم والقرآن... وأتلقى منه وممن سبقه (ممثل المعهد) تقويماً ونقلاً لرأي النخبة المغربية المعجبة بكتاباتي والمتابعة لها... بعد قليل يجيء البشير ومساعده لكي يقلاني إلى كلية الآداب... بعد جولة في بعض معالمها، أجتمع بعدد من الأساتذة بما فيهم المثقف المعروف المهدي بن عبود... يشرح البشير طبيعة عمل قسم الثقافة الإسلامية وبرامجه الواعدة... وأقوم بالمقابل بتقييم التجربة ومقارنتها بسلبيات المشرق في مجال التعليم الجامعي والقطيعة بين الشرعي والإنساني...

بعدها يدور حوار عام حول أوضاع العالم الإسلامي، وأتلقى من العديد من الحضور تقويماً سخياً فحمداً لله... بعد صلاة المغرب يعيدني البشير بعد أن أتفق على موعد عصر غد للقيام بجولة في أنحاء الرباط... أجد بانتظاري في صالة الفندق الأخ مصطفى الموكل بإدارة شؤون الموفدين لمؤتمر الإيسسكو... أرتب معه مطالب رحلة العودة إلى عمان، ويعلمني بدعوة غداء من مدير الثقافة في الإيسسكو: علي القاسمي... يودعني...

وقبل أن أصعد إلى غرفتي يتقدم شاب مغربي ويطلب الجلوس معي دقائق معدودات يتبعه شاب آخر يحمل الدكتوراه في الشريعة... يدور حوار خصب ويعرب الشاب المغربي عن إعجابه بأعمالي ومتابعته الدقيقة لها صفحة بصفحة، وينقل إعجاب ومحبة النخبة الإسلامية في طول البلاد وعرضها...

فأحمد الله وأقول إنها الهبة العظمى التي تمسح على جراح الإعياء والجهد. ويسألني عن أعمالي القادمة فأحدثه عنها، وأعطيه الإذن بطبع أعمالي في المغرب كلما اقتضى الأمر... يغادراني بعد الاتفاق على موعد مساء الغد للاجتماع بعدد من النخبة الإسلامية والقيام بجولة في الرباط...

أصعد للمطعم وأتناول عشاء طيباً فيلحق الموريتاني بي ويدور حوار ممتع ونحن نلتهم الآيس كريم والفاكهة... ونكمل الأمسية في صالة التلفزيون...

أتجه إلى الغرفة وآلام الفتقة تدغدغني بين الحين والحين... أقرأ قليلاً ثم أسلّم رأسي للنوم وأنا أقول مع نفسي: إنه واحد من أنظف أيام السفرة كلها...

الأحد: كان يوماً أروع من سابقه وأكثر عطاءً... بعد الاستيقاظ صعدت لتناول الفطور... في العودة إلى الغرفة قرع الباب الصحفي الشاب تاج الدين لاستكمال الحوار... بعدها جاءني أستاذان ليوصلاني إلى جمعية الإصلاح، حيث استُقبلت بحفاوة بالغة من قبل رئيسها (عبد الإله بنكيران)، وألقيت كلمة مركزة مترعة بالشواهد الفكرية والقرآنية، محكمة التماسك بحمد الله... غادرتهم لتوصلني السيارة إلى الفندق، حيث ينتظرني علي القاسمي والموريتاني والدكتور إبراهيم... اتجهنا إلى فيلا على ساحل المحيط الأطلسي في واحدة من أجمل بقاع الرباط...

هناك حيث البيانو واللوحات والكتب والشرفة المطلة على البحر والغداء اللذيذ من السمك المشوي والفاكهة المنوعة والحوار الممتع والشاي اللذيذ ومشاهدة كرة القدم بين المغرب وتنزانيا... وتصفح دواوين الشعر... ساعات حلوة عذبة... توصلني السيارة بعدها إلى الفندق حيث ينتظرني عدد من الإخوة المعنيين بالأدب والفكر... نقوم بجولة منوعة في سلا حيث الآثار المرينية والرومانية، تحاصرني عبرها متاعب الفتقة والإعياء وضيق النفس... توجهنا إلى صومعة وجامع حسان (الموحدي) المطل على مصب ترابي رقراق في المحيط، وهو يعدّ واحداً من أوسع الجوامع في عالم الإسلام، وحيث صومعته هي أكبر منارة في الدنيا، رغم سقوط أقسامها العليا...

بعدها، عبر المدينة، توجهنا إلى أحد المتاحف حيث يقام معرض للتصوير... أدينا الصلاة واتجهنا إلى مقهى يطل على المحيط، ودخلنا في حوار خصب حول الأدب الإسلامي، أداره الأخ الأديب محمد إقبال عروي... غادرناه إلى المقر الجديد لجمعية الإصلاح، حيث كان ينتظرني مجموعة من الأساتذة المعنيين بالفكر والأدب، وطلبة الدراسات العليا واثنتان من الأخوات... كان الترحيب والتقويم يفوق الوصف... والكلمة التي ألقيتها حول استراتيجية الأدب للمرحلة القادمة كانت محكمة متدفقة بحمد الله...

بعدها طلبت التعريف بأنفسهم... فكان كل واحد منهم يضمّن حديثه التأكيد على تلقيه عن كتاباتي، ويقوّم دوري الريادي في حركة الأدب والفكر الإسلامي إلى آخره... من كلمات التقويم التي أعجز عن الإلمام بها... بحمد الله وحده... وكانت الكثير من الرسائل تعالج أعمالي الأدبية والفكرية لمرحلتي الماجستير والدكتوراه... بعدها عرّفت بحياتي الشخصية بإيجاز، ثم استمر الحوار إلى ساعة متأخرة... تناولنا بعده العشاء وودعنا بعضنا، وأقلتني السيارة إلى الفندق وسط حالة من التشتت بسبب ضرورة التهيؤ للمغادرة غدا على بركة الله، وكثرة الكتب التي حملت بها، رغم حذري...

الاثنين ١١/١٠: استيقظت بعد نوم متقطع، في الخامسة صباحاً، وانطلقت مع الدكتور الدريني والدكتور إبراهيم بسيارة الإيسسكو في رحلة طيبة إلى المطار... كنت أحسّ بارتياح متجاوزاً كل قلق... في الصالة قضينا أكثر من ساعة وبعدها انطلقت بنا الطائرة في رحلة الساعات السبع إلى عمّان...

[٢٣]

رحلة عام ١٩٩٥ م إلى قطر

الأربعاء: ٣/٨: الانطلاق بالحافلة إلى عمان... تأخر الحافلة ومتاعب الانتظار... تعقيدات التفتيش في طريبيل... الارتياح للوصول صباحاً.

الخميس: الاكتئاب المركّز والمعتاد لدى الوصول... تاكسي إلى الفندق...

التشتت ثم الإمساك بالموقف... سيارة إلى المعهد... قلق بسبب كثرة المطالب يقابله ارتياح لإنجاز العديد منها... مع الدكتور محمد زكي محمد خضر في جولة لدى الناشرين، وتثبيت الحجز على العودة... الرجوع إلى المعهد واتصالات ناجحة بالدوحة للإعلام بموعد الوصول... وبالموصل لطمأنة زوجتي... حوار حول النظام المعرفي... غداء... إنجازات أخرى مع ماجد أبو غزالة، وتصفية العديد من المكالمات وإحساس بالارتياح... دعوة عشاء في دار الدكتور فتحي الملكاوي... حوار طيب... ثم عودة إلى الفندق... جلسة في الصالة ونومة مريحة...

الجمعة: اتصالات هاتفية وتصفية مطالب أخرى... التوجه مع الدكتور محمد زكي إلى موقف باص المطار... تأخر في انطلاق الطائرة... ساعات طيبة في مطار البحرين... السوق الحرة... تناول الطيبات في صالة ركاب الدرجة الأولى... تأخر آخر لدى إقلاع الطائرة... الوصول والتعرف على المستقبلين... التوجه إلى فندق الدرجة الأولى.

السبت: تناول الفطور مع ولدي الروحي مصطفى طه وأحاديث شتى... سيارة إلى الوزارة... استقبال حافل... لقاء بالعديد من المعارف... جولة في الدوحة... العودة للفندق... ومجموعة من البوارد والنساتل من الكواري مسؤول وزارة الأوقاف... غداء لذيذ في مطعم الفندق... قيلولة ثم استيقاظ على الكآبة والتشتت... متاعب الفتقة تتواصل منذ الصباح دون انقطاع... تدفق الهواتف... ارتياح لحسم مكالمة زوجتي... زيارة لغرفتي يقوم بها عدد من الأخوة الشيشانيين... جولة قاسية مع متاعب الفتقة في شارع الفندق والاضطرار للعودة... زيارة لعميد كلية الشريعة وأحد الأساتذة...

والكواري يحلّ العديد من المطالب المعلقة ويعرض بعضها على الضيوف ويعد بإنجازها... ارتياح عميق للتحرر منها... أمسية طيبة في بيت أبي ياسر وحوار في أمور شتى بحضور الشيخ القرضاوي والدكتور القره داغي في جو

ماطر... تدفق في الحديث عن العلاقة بين الكرد والعرب عبر التاريخ الإسلامي... عودة للفندق ونومة عميقة.

الأحد: استيقاظ على اكتئاب مركّز يثير دهشتي... زيارة للأخ أحمد رمضان وتكليفه بتهيئة الأدوية الضرورية المفتقدة في العراق ووعده بالتنفيذ... السائق ينقلني إلى رئاسة المحاكم الشرعية... استقبال حار وقهوة لذيذة... التوجه إلى الوزارة وحوار مع الشاعر أحمد الصديق... جولة في الدوحة لدى الذهاب لزيارة القرضاوي...

استقبال حار... وإهداء كتب... وحوار متمكن... أداء صلاة الظهر والعصر... جولة أخرى لدى التوجه لدار وكيل الوزارة تلبية لدعوة على الغداء... أحاديث ممتعة وغداء لذيذ من السمك والرز والدجاج... حوار حول قضايا معلقة مع عمر حسنة... العودة للفندق وقيلولة يقطعها هاتف مصطفى يعلمني فيها أنه يجب أن يراني... محاولة للعودة للنوم دون جدوى... وصوله وهو يقول أنه جاء بأخبار مؤلمة وأخرى طيبة: سرقة كتابي (التفسير الإسلامي) من قبل أحد الإيرانيين تثيره مجلة الحياة اللندنية... فصله من العمل وطلب وساطة مع الكواري... وفاة الكيلاني... مجموعة من المجلات والجرائد تتضمن مقالات لي أو عنّي... ترتيب موعد لحل الأمور المعلقة مع دار الثقافة... زيارة مبيّض وابنه... زيارة الكواري واثنين من ندوة الشباب القطري، وترتيب أمور الأمسية الشعرية مساء الأربعاء...

التوجه بسيارة الكواري إلى الجامع الكبير... قلة الحضور تدهشني!!... تقديم سخي عني ينفذه الصديق... البدء بالمحاضرة بقدر كبير من السيطرة لولا الانزلاق بين الحين والحين باتجاه السرعة... ارتياح عام بسبب استكمال معظم مفردات المحاضرة وتقبلها بترحاب... جملة من الأسئلة بعد الانتهاء منها... لقاءات ودية مع الحضور وعدد من الزملاء.. العودة للفندق بمعية الكواري ومصطفى، وارتياح لاستعداد الكواري التوسط لعمل مصطفى. يعود

معنا أيضاً محمد رمضان والصديق وعمر عبيد ورأفت السيد وطالب الماجستير والباحث أبو عمير... قلق وعدم ارتياح بسبب ما تصورته خطأ مع رمضان...

رأفت يطلب عناوين مؤلفاتي في السيرة... أتبين أن عدداً من الأساتذة السوريين في جامعة قطر اعتزموا ترشيحي لجائزة فيصل... أعلن رفضي للترشيح لسببين... ومن وراء الرفض إحساس قاسٍ بالندم والتضييع، وأقول في نفسي لو لم تجدد الجروح... فإلى متى؟... أنغمر في حديث عن اختيار موضوع للدكتوراه لأبي عمير... وترتيب موعد مع حسنة للحديث حول سلسلة كتاب الأمة...

وعبر الأمسية أتلقى مكالمة من أحد الإعلاميين لتثبيت موعد لغرض تسجيل حلقتين تلفزيونيتين، أوافق على إحداهما وأطلب تبديل موضوع الأخرى... وثمة مكالمة أخرى من أحد القضاة الشرعيين يصرّ فيها على دعوتنا على العشاء يوم الخميس... وثمة دعوات أخرى ليومي الثلاثاء والأربعاء في دار مبيض والقره داغي... الإحساس بالجوع وطلب عشاء لذيذ من السندويج... وقرار بمواصلة العمل حتى ساعة متأخرة من الليل فيما يذكرني بأيام عمان إياها... أكتشف أنني لم أدون شيئاً من المذكرات، فأسارع لكتابتها خشية نسيان التفاصيل وأحسّ بارتياح عميق... أقرأ في عدد من الصحف والمجلات وأشرب البارد وأسلم نفسي للنوم.

الاثنين: أستيقظ مبكراً رغم عدم ارتباطي بموعد مبكر... أتذكر قضية الترشيح للجائزة، فتصفعني كآبة مركزة، ومع الترشيح قضية زيارة مدير الجامعة... أحاول أن أغفو فلا أستطيع... بعد الفطور تزحف الغيوم وتسقط أمطارٌ هائلة في عنفها وغزارتها... المنظر رائع جميل ولكن النفس مترعة بالهموم والقلق... أصل حدّ القرف... وأقول في نفسي إنها رحلة رائعة لولا رباعية الفتقة، وزيارة مدير الجامعة، وتجدد إغراء الترشيح للجائزة، والندم على عدم الإتيان بالوصفات الطبية لكي يدبرها لي أحد الأصدقاء مجاناً وبسهولة بالغة...

يجيئني مندوب عن صحيفة (الراية) يجري معي لقاءً صحفياً عن التاريخ والمنهج والأدب والنظام العالمي ونهاية التاريخ. أتدفق في الإجابة وأقول في نفسي لولا المنغصات إياها لازددت إبداعاً وتوافقاً... ولكن مكتوب عليَّ الدخول في قنوات الحيرة والندم والتردد، والتي أصبحت لا أطيقها، وأنتظر اليوم الذي أرجع فيه إلى بلدي لكي أتحرر من كل شيء... أنزل إلى الصالة لتهيئة خطوط عريضة لسيمنار يوم غد مع أساتذة القانون والشريعة، والمطالعة في الصحف والمجلات... أتناول غداء شهياً في المطعم، ولكن النفس المنقبضة التي يزيدها التنغص للزوجة والأولاد اكتئاباً يحيل الوجبة إلى عذاب... أصعد لأنام فلا أستطيع، وأنهض لكي أتهيأ لموعدي مع مصطفى لأغراض المسواق...

أناقش في أصول بحث عن مالك بن نبي ونتجه إلى السوق... اشتري العديد من الحاجات المطلوبة فأحس بارتياح عميق... نتجه إلى دار الفتح وأعرض همي على المبيض بصدد الجائزة فلا يعطيني المطلوب، رغم أنه يشير إلى ترجيح التبرع بالمبلغ كحل وسط... أحسّ بقدر من الارتياح لأن المحصول الكبير في كل الأحوال لن يكون لي... نتجه إلى بيت مصري مثابر ليعرض علينا محاولاته التوثيقية النادرة... نخرج بعدها لاستكمال المسواق فيمنعنا ارتفاع مستوى الماء في الشوارع... نتجه إلى دار الثقافة في محاولة لتصفية الحسابات المعلّقة... أتسلم مبلغاً هزيلاً، وأقنعهم بإمكان تسليمي بقية حقوقي لكي لا يظل معي أي ارتباط بالموجودات المتبقية... يدعونا الأخ المصري إلى وجبة فول فأطلب سندويتشاً وأرجع إلى الفندق لأجد تأكيداً لدعوة أحد الشيوخ على الغداء يوم غد... ومكالمة من رمضان... أتصل به وأطلب منه نوعين آخرين من الدواء فيعدني خيراً...

يجيء زرزور وأستاذ من الشريعة لزيارتي... أقضي معهما وقتاً طيباً في الغرفة في حوار شيّق... نتفق على صيغة ذهاب جماعي لمدير الجامعة... وأعرض عليه ترددي بصدد الترشيح للجائزة وامتناني لوفائه وترشيحه إياي... نتفق على مناقشة الموضوع في لقاء آخر... أتصل هاتفياً وبعد تردد بالدكتور

الشجاع في صنعاء، وأعرض عليه نتائج محاولاتي ورغبتي في تلقي دعوة جديدة على الشهر الحادي عشر أو الثاني عشر... فيرحب ولكنه يقول إنه لن يكون بمقدوره إرسالها قبل بدء الدوام في الشهر العاشر... أقفل السماعة فتلفني الحيرة كرةً أخرى: إن الدعوة لن تصلني بالبريد قبل أقل من شهر، ومعنى هذا أن المدة المتبقية للمعاملة لا تكفي وسأبدأ رحلة أخرى مع العذاب... أتجه إلى المنضدة لتصفية أكداس من الأوراق والمطالب المعلقة، وأعمل كيوم أمس حتى ساعة متأخرة من الليل.

الثلاثاء: الاستيقاظ المترع بالكآبة كالعادة... قلق بصدد تأخر الدكتور الذي سيوصلني إلى الجامعة لمقابلة المدير ولقاء السيمنار... اتصالات هاتفية ثم مجيئه... الانطلاق مسرعين إلى الجامعة... التوجه إلى غرفة الأساتذة لاصطحابهم يؤخرنا دقائق أخرى عن الموعد... استقبال حار من الأساتذة... التوجه إلى المدير... دقائق كانت كافية لمفاتحته في الموضوع الذي أقلقني كثيراً ثم تبيّن ألّا مبرّر للقلق... ثم التأكيد على تقديم المعونات العلمية على مستوى النشريات والأجهزة لجامعة الموصل... لم أتحدث في أية مسألة أخرى حتى بصدد تبادل الأساتذة...

غادرنا المكان وأنا أحسّ رغم اختياري الموقف الصحيح تماماً بانقباض ليس بالقليل... نتجه إلى قاعة السيمنارات الفخمة المعدة إعداداً جيداً... يقدمني دكتور جمال عطية تقديماً سخياً، ثم أبدأ بإلقاء محاضرتي عن منهجية علم الشريعة إزاء التحديات بتمكّن تام وسيطرة كاملة على الأداء، وأتلقى تقييماً لدى تعقيبات الحاضرين من الأساتذة وإحدى الدكتوراة... وعدداً من الأسئلة أجيب عليها بتمكّن هي الأخرى...

أغادر القاعة وأنا أحسّ بارتياح عميق... دقائق لشرب الشاي والحديث مع مدير الجامعة السابق وعدد من التدريسيين... الدكتورة تطلب لقاء بالمدرسات وأعتذر بسبب زحمة أعمالي... لكن أحد الموجودين يذكرني بإمكان اعتماد الفترة بين (١٢ ـ ١)، فأجدها مناسبة وأتفق على الموعد، ثم أتجه مع أحد

الأساتذة إلى دار الشيخ عبد العزيز مساعد رئيس المحاكم الشرعية لتناول الغداء... وأُستقبل بحفاوة بالغة جاوزت كل حد... القرضاوي كان أحد الموجودين... نتناول غداءً سخياً ولذيذاً... ألتهم بعده قطعة مانجو كبيرة... العديد من أصحاب الداعي يتسابقون إلى تقديم ما أشتهي..

لحظات أحسّ فيها أنني أمارس التحقق الضائع... يزيدني تحققاً ـ لدى العودة إلى غرفة الضيوف لتناول البخور والقهوة والشاي ـ أنهم يطلبون مني قراءة إحدى قصائدي يسبقهم إلى الطلب القرضاوي... فألقي قصيدة (المحطات الأخيرة) بعد أن أقدم لها... أطلب من القرضاوي ومن كان شاعراً إلقاء قصائدهم، نستمع إلى اثنتين وسط أجواء يسودها الانسجام والمحبة... نودع المدعوين وأعود بصحبة أحد الأساتذة إلى الفندق.. لا أستطيع أن أنام فأنهض قائماً لكي أستكمل بعض الأمور المكتبية.. وأتصل هاتفياً برمضان لاستكمال مطالب الأدوية والاتفاق على صيغة لإرسال وجبات أخرى بعد تزويده بالوصفات التي أخطأت فسلّمتها في عمان...

أحسّ بارتياح... يجيء مصطفى وندخل في حوار حول جملة أمور، ويعرض عليَّ عناوين العديد من المجلات التي يمكن أن أكتب فيها مستقبلاً، ويطلعني على صحيفة الشرق التي تناولت تقريراً عن محاضرتي ليوم الأحد... يجيء الكواري وأسأله عن الأمور المعلقة فيعدني بأنه سينفذها جميعاً... نتجه إلى أحد الجوامع لأداء الصلاة ومنها إلى النادي الأهلي... بناية رائعة تتضمن كل المرافق الخدمية... كنت أحسّ بارتياح عميق بسبب تخففي من مسألة زيارة مدير الجامعة، والأكثر من ذلك بسبب ميلي لعدم الترشيح للجائزة... نتجه إلى قاعة المحاضرات... قاعة فارهة مترعة بالأضواء... لم يكن الحضور كبيراً لكنني ما أن بدأت محاضرتي بالطريقة المتأنية المحكمة التي طالما حلمت بها حتى بدأ المدعوون يتدفقون على القاعة بما فيهم الدكتور القرضاوي فشجعني ذلك على المزيد من الإبداع...

وما ألبث أن أنجز واحدة من أكثر المحاضرات التي ألقيتها في حياتي

نجاحاً بفضل الله... أعقبها سيل من الأسئلة المكتوبة بإخلاص... أجيب عليها بالتمكن نفسه واحدة بعد أخرى، ثم ينتهي اللقاء ويتدفق عليَّ الحضور مصافحين ومهنئين... كنت أحسّ بسعادة بالغة، خاصةً وأن ذلك كله جاء في أعقاب إحساسي بالتحرر من قضية المقابلة ومصيبة الترشيح...

أتجه مع الكواري إلى حيث دعينا إلى العشاء في بيت أستاذ قطري... تقدم منا أحد الحضور وطلب ترتيب لقاء مع مجموعة من المثقفين فاعتذرت، ولكن الكواري أقنعني بإمكان إيجاد فرصة مناسبة... نتجه إلى الدار وسعادتي تزداد إيغالاً ونستقبل هناك بحرارة... وأجد نفسي وسط جمع من المدعوين أعرف بعضهم ولا أعرف بعضهم الآخر... سعيداً متحققاً...

وبعد العشاء يدور الحديث في موضوع تاريخي، ويطلب مني القرضاوي والآخرون الإسهام فيه، فأقدم كلمة بالتمكن نفسه مختاراً الموضوع المناسب... نغادر المكان بعد واحدة من أعذب الأمسيات... يتقدم مني الكواري لكي يقدم لي مظروفاً أحسست أنه مبلغ آخر... أحسّ في أعماقي بفرح غامر، رغم أنني أحاول أن أقول له أن المبلغ الأول يكفي... أعود بصحبة صديق سوري يحكي لي عن واقعة تؤكد ارتباط المملكة إياها بأمريكا فأحس بالمزيد من الارتياح لأنني وجدت دافعاً آخر للاعتذار عن المشاركة في الجائزة... أدخل صالة الفندق وأجلس، ربما لأول مرة منذ مجيئي، باسترخاء مريح في الصالة أفتح المظروف فإذا به ألفان وخمسمائة ريـال أخرى... الحمد لله... سأشتري كثيراً وسأعود بمبلغ دسم يجعلني لا أجهد في إيجاد فرص أخرى على الأقل في المدى المنظور... أخرج إلى الغرفة لكي أصفي المعلقات، وأكتب وأقرأ إلى ساعة متأخرة من الليل...

الأربعاء: أستيقظ على الاكتئاب المركّز إياه... يبدو أنه قدر لا مفرّ منه... لا أدري كيف أتذكر الموصل وأشتاق إلى مقاهيها... إلى جلسات طويلة بدون هم أو قلق أو عمل... لقد طحنتني المتجددات وعوامل القلق منذ تموز الماضي وحتى الآن... أتذكر أيضاً أنني أحتاج لعدة أيام في الموصل قبل أن أجفف

بقايا المنابع!: مقابلة رئيس الجامعة... سيمنار قسم التاريخ... وربما مطالب بيتية شتى... يجيئني الإعلامي عبد السلام البسيوني مع المخرج وكادر العمل لتصوير حلقتين تلفزيونيتين... إحداهما عن الأدب والأخرى عن السيرة... بانسجام وتمكّن وألفة وحوار خصب تعين عليه ثقافة المحاور وتمكّن المخرج... نمضي لاستكمال العمل في ثلاث ساعات لم أشعر عبرها بالإعياء أو التكلف والحمد لله... ووعدوني بإرسال الشريطين فور إنجازهما...

يتصل بي الدكتور يوسف من كلية الشريعة للذهاب إلى هناك لإلقاء محاضرة عن الخطاب الأدبي والفني على طالبات الكلية... عاملٌ جديد يتدخل فيرغمني والأساتذة الذين معي على تقديم موعد المحاضرة وإيجازها إلى عشرين دقيقة... ذلك أن ثمة دعوة على الغداء في دار الكواري في الواحدة تماماً... جلسة استقبال في الكلية مع عدد من الأساتذة ثم التوجه إلى قاعة المحاضرات... لم يحضر سوى قلّة من الطالبات، يبدو أنه ليس ثمة اهتمام ثقافي كالذي يجده المرء في العراق أو الأردن... وجدتها فرصة مناسبة للإيجاز... قدّمني الدكتور جمال عطية... تدفقت كلماتي بتمكّن تام واستطعت بسهولة بالغة وإحساس بالانسجام إيجاز المحاضرة وضغطها بعشرين دقيقة...

أغادر القاعة وأتجه والدكتور يوسف إلى دار الكواري... دقائق من الأحاديث الطيبة ونتجه إلى الغداء... آكل بشهية، ولكن سرعان ما يصيبني القرف إياه من جراء كثرة الطعام والتهام كميات كبيرة منه، تعقبها وجبة دسمة من الحلويات والفاكهة... أغادر الدار بمعية عمر عبيد، يلحقني الكواري لكي يقول بأنه سيسلمني مساء اليوم رسالة من مدير جامعة قطر إلى رئيس جامعة الموصل... أتأرجح بين الارتياح والقلق... أرجع إلى الفندق مرهقاً مشتتاً كالعادة... أحاول أن أنام فتقطع نومي ثلاث مكالمات هاتفية... أنهض قبيل الغروب فتصفعني الكآبة مرةً أخرى...

يا سبحان الله!... المنظر الذي ينفسح أمامي رائع إلى حد الدهشة: البحر والسماء والعمران والشوارع المغسولة... لكني منخور بالقلق والاكتئاب

حتى العظم... فلا فائدة... يجيئني مصطفى، أغرق معه في أحاديث شتى... أنقل عنه عناوين مجلات شتى تدفع مكافآت سخية... يجيء الكواري فنذهب بعد أداء الصلاة إلى جمعية الشباب... استقبال حار وقلة من الحضور... أصعد وأستاذ آخر في التاريخ الإسلامي من جامعة قطر... يتم التقديم السخي وأبدأ كلمتي عن قيمة التاريخ... بالتدفق نفسه والقدرة غير المتوترة على استدعاء المفردات... واحدة من الكلمات أو المحاضرات التي اقتنعت بها تماماً والحمد لله... يعقبني الدكتور ثم نتلقى أسئلة وُجِّه معظمها إليَّ، فتتم الإجابة الطيبة عليها...

يصدر مني تعليق حول مرافقة توفيق الحكيم لسارتر أيام زيارته للقاهرة، وأن ذلك لم يكن يليق بالحكيم، ثم ما لبثتُ أن حوصرتُ بندم عميق وإحساس متوهم بأن العبارة آذت الكواري وظل الإحساس القاسي يحاصرني حتى نهاية الأمسية التي قضيناها بصحبة حشد من المعارف في بيت مبيّض، حيث الحلويات الشامية اللذيذة والحوار الطيب والإحساس السعيد بالتحقق... وزادني سعادةً تلك الأحاديث التي دارت حول ضرورة عدم توظيف المفكر من قبل السلطة، وأن الاعتذار عن المشاركة بمهرجان الجنادرية بالرياض من قبل العدد من المدعوين يعدّ ضرورة بالغة، وكذا الحال ما حدث للقرضاوي في المغرب...

فأزداد اقتناعاً بالميل صوب رفض الترشيح للجائزة، ويزيدني هذا بعداً عن دائرة القلق والتردد اللعين... أغادر الأمسية بصحبة عمر عبيد... حديث مؤلم يدور عن المعهد ومصيره المتوقع... أسأله وأنا أهمُّ بمغادرة السيارة عن موقفه من الترشيح فيما لو كان مكاني فأجاب بقطع أنه يُكبر فيَّ موقفي وأن عليَّ أن أمضيَ على الطريق كما بدأت... أحسّ بسعادة غامرة وأنني رسيت على البّر الذي قاومت كثيراً للوصول إليه... أصعد إلى الغرفة مترعاً بالقلق من جراء الأعمال التي تتطلب الترتيب قبل أن أسلم نفسي للنوم...

الخميس: أذهب إلى مصرف السدّ مع السائق، وأحسّ بارتياح لإنجاز

معاملة دكتور محمد قاسم بسهولة... أتجه مع مصطفى ومحمد إلى مطعم مصري لتناول الفطور عبر جلسة وحوار ممتع... نيمّم وجوهنا صوب أسواق (العالم الجديد) لكي أجد هناك الكثير مما كنت أود شراءه وبأسعار مناسبة..

تهيج عليَّ الفتقة ولكن وبحمد الله ما تلبث الأوجاع أن تتوقف بعد وقت قصير... نواصل تجوالنا في الأسواق وشراء حاجيات أخرى... وندخل أحد السوبرماركتات المدهشة في غنى موادها وأناقة عرضها...

نتجه إلى بيت محمد وأنا أعاني من الإعياء وشيء من القلق، خشية ألا يكفي الوقت المتبقي لاستكمال المطالب... أحاديث شيقة عن المجلات وكتابة منظومة بعناوين عدد منها التي تدفع مكافآت نقدية سخية... نتناول الغداء والفاكهة، وأحاول أن آخذ قسطاً من النوم، ولكن حالة غياب النفَس تفاجئني على حين غرة وبعنف فأنهض قائماً...

نتجه ثانيةً إلى السوق، ونوفَّق في شراء بدلة مناسبة وحاجيات أخرى... نتحول إلى دار الثقافة لكي ما ألبث أن ألدغ بموقف (ناشف) من المحاسب المصري... لكنني لم أدعها تمرّ، وقمت كعادتي بهجوم مضاد أعربت فيه عن احتقاري وتجاوزي للمال... وأرغمته على تقديم الاعتذار أكثر من مرة... ولكن ومع ذلك ظل في النفس شيء من الحقد راح ينتفض بين الحين والحين...

أحوّل المكافأة إلى الدولار لدى صراف قريب، ثم نقفل عائدين إلى الفندق، حيث تبدأ ملحمة من نوع آخر: اثنان من المتابعين جاؤوا إلى الفندق عصراً بناء على موعد مسبق فلم يجداني، وليس ثمة هاتف للاتصال بهما والاعتذار عن نسيان الموعد...

جرس الهاتف يدق بإلحاح خلال صلاة المغرب يرافقه قرع على الباب... أقطع الصلاة وأرفع السماعة فلا أجد أحداً... أفتح الباب فإذا بعدنان زرزور يعلمني أنه جاء لكي يأخذني إلى بيت عمر حسنة، وأنه بالانتظار بناء على موعد مسبق، وأن علينا أن نهرع إليه بسبب ضيق الفترة بين المغرب والعشاء... كنت قد تلقيت مكالمة وارتبطت بموعد من الشابين المذكورين، وها

هما قادمان بإلحاح عجيب على طرح بعض الهموم الثقافية، وليس ثمة فرصة أخرى، فغداً سأسافر... أحاول أن أجيب على سؤالهما الأول والقلق يتآكلني وعدنان يحدّق في ساعته، وما يلبث أن يذكرني بضرورة مغادرة الفندق... أعتذر لهما وأعرض عليهما فكرة العودة للفندق بعد تلبيتي لدعوة على العشاء لدى رئيس المحاكم الشرعية مساء اليوم، فيعداننى خيراً...

أغادر وعدنان الفندق على عجل، وأتذكر فجأة أن عليَّ أن أنتظر لدقائق أخرى الشيخ الكواري حسب موعده المعتاد... ثم أقنع نفسي بالاتصال الهاتفي به من بيت حسنة... أتذكر أيضاً أن اصطحاب مصطفى دون دعوة موجهة إليه لا من حسنة ولا من رئيس المحاكم أمراً غير مقبول، فأصرفه بأدب رغم أن ذلك حزّ في نفسي حتى الأعماق... أتجه إلى سيارة عدنان فإذا بمحمد يهرع عائداً لكي يعلمني بمجيء الكواري فأتحفز للعودة، لكنه يقول إنه أعلمه أنه سيلتحق بنا على دعوة العشاء... أحسّ بندم شديد لأنني لم أقدّر مجيئه وهو الرجل المترع أدباً والتزاماً...

ننطلق بالسيارة لكي ما ألبث أن أتلقى مطرقة أخرى أشد هولاً من كل ما تلقيته من قبل... الدكتور عدنان زرزور يعرض عليَّ بإلحاح الترشيح لجائزة فيصل، ويقول بأنه وعدد من أعضاء قسم الشريعة في جامعة قطر قد رتبوا كل شيء، بما في ذلك التكتم على إعلان الجائزة، وعدم اشتراط الحضور بسبب الحالة الاستثنائية... ها أنا ذا أجد نفسي كرةً أخرى في دائرة العذاب، وأجد أحد المبررين الأساسيين للرفض ينهار تماماً، لكنني أستجيش كل طاقتي وقدرتي على التشبث بالموقف، الذي عرفت كيف أمسك به في معظم الأحيان... يقتنع الدكتور عدنان بعض الشيء لكنه يترك الأمر مفتوحاً، فهناك شهور أخرى قبل إقفال باب الترشيح... أوافقه على ذلك وفي نفسي مرارات كالعلقم...

نصل بيت عمر عبيد حسنة، وأنتهز أول فرصة لمفاتحته في الموضوع، فما يلبث أن يوافقني بحزم على رفضي، ويقول أن عليَّ أن أتشبث به، وأنني

لست كالآخرين، وأن أموراً كهذه لا مهادنة فيها... كأنه يصب ماء بارداً على أعصابي التي تكاد تلتهب، وأحسّ فجأة بارتياح عميق... بفرح كنت قد ألفته كلما اجتزت مطحنة كهذه... تمرّ الدقائق التالية وأنا سعيد... وأتناول شيئاً من الحلويات اللذيذة، ثم أسلمه أصول كتابين للنظر في إمكان نشرهما في سلسلة كتاب الأمة، فيعدني خيراً... فأزداد إحساساً بالسعادة، ونتجه سويةً إلى دار رئيس المحاكم لكي أُستقبل هناك استقبالاً قلّ نظيره من قبل كبار المفكرين والإداريين والأصدقاء... أقوم إلى العشاء لكي يُطلب مني الجلوس في صدر المكان باعتبار الدعوة على شرفي... نتناول عشاء لذيذاً، وتدور أحاديث شتى، ثم نخرج إلى المجلس المقام في الحديقة... يطلب الشيخ يوسف القرضاوي أن أتحدث في موضوع ما، وينادي بالإنصات... أقدم عبارات الامتنان للإخوة القطريين وأرسم انطباعاتي عن محبتهم... ثم ما ألبث والشيخ يوسف أن نردّ على سيل الأسئلة التي توجه بها الحاضرون.

الجمعة: حان موعد المغادرة... يجيئني الكواري ومدير متحف قطر وعدد من الأصدقاء لكي يودعوني في المطار... إحساس غامر بالسعادة والاسترخاء وأنا أجلس في الطائرة التي تقلني في رحلة مريحة إلى عمان... أمسية وعشاء في بيت حيدر قفة بمعية عبد الله الطنطاوي وآخرين...

السبت: الملكاوي يصطحبني لجامعة الزرقاء... استقبال حافل... محاضرة وحوار مع طالبات من جنوب إفريقيا يحقق نجاحاً كبيراً... تناول الغداء بدعوة من رئاسة الجامعة... العودة إلى الفندق وبعد قيلولة سريعة أتجه إلى المعهد لإلقاء المحاضرة القمة عن منهج جديد لدراسة حضارة الإسلام... تقييم سخي لم ألقه في حياتي... ملكاوي الذي لا يجامل يبدي إعجابه البالغ وآخرون كثيرون... النساء يطالبن بلقاء خاص فأوافق بعد تردد... حوار وتحلق الطلاب والسائلين... تقييم وزير يمني سابق... مكالمة من أمريكا مع الدكتور طه العلواني... حوار مع الدكتور نزار العاني... العودة إلى الفندق وعمل متواصل حتى الثانية ليلاً...

الأحد ٣/١٩: الملكاوي يأخذني إلى المعهد... استكمال المطالب المعقدة والكثيرة مع ماجد أبو غزالة... الدكتور محمد أبو سل، مدير المعهد، يبدي إعجابه بمحاضرة يوم أمس ويقول أنه لم يشهد لها ولا للجمهور الكبير الذي حضرها مثيلاً... جلسة عمل أخرى مع الملكاوي بخصوص المشاريع والإنجازات الفكرية والتأليفية... محاضرة أمام عدد من الطالبات والنسوة عن العقل المسلم بتمكّن تام والحمد لله... التوجه إلى بيت عبد الله الطنطاوي بمعية الدكتور محمد زكي وحوار شيق وعشاء لذيذ وقراءة لقصيدة من الشعر... العودة للفندق والعمل المتواصل حتى ساعة متأخرة من الليل... استعداداً للعودة إلى الموصل يوم غد بإذن الله...

[٢٤]

رحلة عام ١٩٩٥ م إلى تركيا

الأربعاء: ٩/٢٠: الانطلاق المريح مع أديب الدباغ بالسيارة والجو الماطر... تأخيرات في الطريق... الوصول ليلاً... نوم مشبع في الفندق.

الخميس: التوجه إلى المعهد وإنجاز جملة من المعلقات مع الملكاوي وأبي سل... غداء ممتع... وعودة أخرى إلى المعهد لاستكمال العمل... ارتياح لقطع التذاكر والاتصال الهاتفي بالموصل... دعوة في فندق المطار...

الجمعة: رحلة مريحة إلى إسطنبول... الاستقبال الحار... الفندق... اللقاء بعبد الحليم عويس (رحمه الله)، وحل بعض المعلقات بخصوص الموسوعة التاريخية... عشاء في الفندق وأمسية طيبة مع حشود المدعوين.

السبت: جلسة في الصالة... جولة في إسطنبول الآسيوية... غداء... أمسية نورسية وعشاء... استكمال الأمسية في الفندق وارتياح لإقناع عويس بكتابة مواد أخرى للموسوعة.

الأحد: إنجاز بعض المعلقات في الغرفة... حضور حفل الافتتاح... المشرفون على الحفل يطلبون من عويس التحوّل من مكانه في الصف الأول

إلى الخلف بسبب مجيء عدد من الشخصيات... عويس يتأثر للموقف فأسعى لتداركه مع إحسان الصالحي بما في ذلك التنازل له عن إدارتي لإحدى الجلسات تطييباً لخاطره، وارتياح لحلحلة الأزمة... أمسية في صالة الفندق ولقاء تلفزيوني حول الحضارة والتاريخ... استكمال الأمسية في الغرفة لإنجاز بعض المعلقات، وإحساس عميق بالسعادة والارتياح...

الاثنين: تناول الفطور مع البوطي وعويس وآخرين... الجلسة الأولى والأداء المقنع... ارتياح لترتيب إدارة الجلسة مع عويس وإحسان الصالحي... اللقاء بالعديد من الطلبة والدارسين والأساتذة... الغداء والاستراحة ثم العودة إلى الجلسة المسائية... عرض من أساتذة في ماليزيا لزيارة جامعتها العالمية، وترتيب الأمر مع الدكتور قطب سانو أحد كبار مسؤولي الجامعة... حل معلقات أخرى مع عويس... لقاء صحفي مع جماعة من كلية الإلهيات في قونية، واعتذار عن حضور مؤتمر هناك... حديث عن العديد من كتبي المترجمة إلى التركية وترتيب الأمر لترجمات أخرى...

عودة للجلسة المسائية... أمسية في جريدة الزمان... الإحساس بالغثيان عبر الطريق الطويل... العشاء... ودعوة لمؤتمر في إسطنبول عن البوسنة بعد شهرين، أعتذر عنه... العودة مع الأمراني وحوار حول الأدب ومجلة (المشكاة)... إحساس بالإعياء وقلة النوم والقلق المتواصل من جراء كثرة المطالب المعلقة... العمل في الغرفة حتى الثانية ليلاً...

الثلاثاء: حضور جلسات المؤتمر... تسليم صورة من موضوع سرقة كتابي (التفسير الإسلامي للتاريخ) من قبل أحد الإيرانيين وطبع باسمه... إلى أحد المتابعين... تحرّك الفتقة وعودة سوفان الركبة... الغداء وحل المعلقات مع عاشور... الأمراني يفتح باباً للقلق: إعطاء مساعدات مالية لي وللمحتاجين من العراقيين... أعتذر عن قبولها بالنسبة لي، وأسأل الآخرين فيعتذرون، ويستقر الأمر لحكمت صالح ربما... تصفية المعلقات مع عويس وتسليمه عدداً من مواد الموسوعة... مقابلة صحفية مع إحدى الصحف التركية...

الذهاب لزيارة الأستاذ المصري حسن عباس زكي في فندقه، وتقييمه السخي لي كمؤرخ، وإعرابه عن رغبته لدعوتي والدكتور محسن عبد الحميد إلى القاهرة... التوجه بالسيارة لحضور دعوة جامع السليمانية، وعودة الغثيان عبر الطريق... العشاء اللذيذ واستقرار المعدة بعض الشيء... قلق بصدد تحديد موعد السفر والتردد بين الجمعة وبين البقاء لعدة أيام أخرى حسب رغبة أديب والصالحي، والتخوف من ألا نحصل على الأوكي يوم الجمعة، ومعنى ذلك اضطرارنا إلى البقاء حتى الأربعاء...

العودة إلى الفندق واستكمال الأمسية في صالة الفندق مع الأمراني وبن حمزة والصالحي... قراءة قصيدة عليهم وحوار في شؤون الأدب... الخروج المرهق القلق إلى الغرفة والعمل حتى ساعة متأخرة من الليل.

الأربعاء: استيقاظ غير قلق بسبب تصفية الأعمال... توزيع المعلقات على أصحابها وإحساس أكثر بالارتياح... سعادة بالغة بسبب حسم الحجز على يوم الجمعة بعد قلق وتردد... فطور ممتع... جولة رائعة في البسفور... واحدة من أجمل الجولات في حياتي... تعليقات وإحساس بالتحقق... الصلاة وعودة للمركب... غداء خفيف... زيارة للمتحف والجوق الموسيقي ولحظات التأثر العميق... الدكتور قطب سانو يحاورني في أعز مؤلفاتي... جولة عند السلطان أحمد وصلاة المغرب... عشاء في مطعم مجاور...

الرجوع إلى الفندق وعودة للقلق والحيرة بسبب ميل أديب ومحسن الصالحي للبقاء أكثر، لكنني أحسم الأمر بالإصرار على الجمعة متذكراً مواعيد المحاضرات، والمستشفى الإسلامي في عمان، وحساسية جامعتي تجاه التأخر، والأذى النفسي لزوجتي في حالة التأخر، فضلاً عن أنه لم يبق ثمة ما يستحق البقاء، واحتمالات الملل والاكتئاب في حال تحولنا إلى إحدى دور النورسيين...

الصديق الجزائري لعرابة نصر الدين يزورني ويحكي لي عن انتشاري الواسع في الجزائر وتربّي جيل الصحوة على كتاباتي وشعبيتي لدى القارئات!! وحديث ذو شجون وأن وكيل وزارة الأوقاف كان يوصي بمؤلفاتي ودعوتي

للمؤتمرات هناك... كما أن عميد أصول الدين في جامعة الجزائر عرض أكثر من مرة فكرة دعوتي أستاذاً زائراً...

استكمال الأمسية في صالة الفندق ثم صعود للغرفة... وإحساس بالقلق للأعمال المعلقة ومواصلة العمل حتى ساعة متأخرة من الليل...

الخميس: الفطور... جلسة مع عويس... مبلغ آخر من مكافأة الموسوعة... فراغ وإحساس بالملل وارتياح لحسم موعد السفر غداً... جلسة وداعية قصيرة مع عاشور وبهجت، والأخير يطلب إرسال بعض مؤلفاتي لكي يكتب عنها في الأهرام... توديع المصريين... جولة تخطي... شيء من القلق بصدد المسواق ثم صرف النظر عنه... غداء طيب في صالة الفندق...

ننطلق بالسيارة إلى محلّات ايدنلي لاختيار البدلات، وأعدّد في الطريق منغصات الرحلة فإذا بها تبلغ قريباً من خمسة عشر... ارتياح لاختيار بدلة مناسبة... عودة للفندق واسترخاء في الصالة... التوجه بعد صلاة العشاء إلى مطعم رائع على ساحل البسفور... عودة الغثيان خلال الطريق... حوار ممتع على مائدة العشاء قبالة البحر ووجبة مقبلات وسمك لذيذ... العودة إلى الفندق... جلسة أخرى في الصالة مع عدد من الزوار، وحديث مع أحدهم عن ذكريات رحلة العين في الإمارات عام (١٩٨١م)... إحساس بالإعياء ورغبة في النوم. العودة إلى الغرفة والعمل حتى الثانية عشرة.

الجمعة ٩/٢٩: الفطور... ترتيب الحقائب... جلسة في الصالة مع الزملاء بانتظار صلاة الجمعة... توديع بقية المصريين... أداء الصلاة في جامع الفاتح... الانطلاق إلى المطار في جو ماطر... شيء من التأخير في المطار بسبب الزحمة... الوداع المؤثر... الطائرة تتأخر قليلاً عن موعدها... الانطلاق إلى عمان بجوار الدكتور محسن... الوصول ليلاً إلى عمان، وبعض الملابسات بصدد السيارة التي ستقلنا إلى الفندق... أحد المدعوين يصرّ على نزولنا عنده، أقابله بإصرار على الاعتذار... إصرار قطب على اصطحابنا إلى الفندق يثير بعض العراقيل بسبب ضيق السيارة التي ستقلنا... دكتور زياد يقلنا بسيارة

أخيه إلى الفندق... المفاجأة الطيبة بنزول دكتور محسن والشيخ عبد الوهاب السامرائي في الفندق نفسه... النزول إلى العشاء في مطعم القدس، ليلة مزعجة مع الحرّ والمروحة الكهربائية...

السبت: الاستيقاظ المفعم بالقلق والحيرة والهم بسبب مطالبي العديدة التي يتوجب حسمها، وبخاصة مسألة مراجعة المستشفى واتخاذ القرار النهائي بصدد العملية... تناول الإفطار في مطعم القدس... الانطلاق لصرف العملة، والتوجه إلى شركة الجت لضمان الحجز... الاتفاق على أن أتجه أنا إلى المعهد كسباً للوقت، بينما يتولون هم مسألة الحجز... دكتور زياد يستقبلني بمحبة ويعاتبني على التأخر عن الموعد الذي ضربه مع الجراح... إحساس بالندم... ثم اتصال هاتفي بالمستشفى يتبين منه أن الجراح قد دخل قاعة العمليات مضطراً بسبب حالة ملزمة، وأن عليَّ أن انتظر خروجه قبل الذهاب إلى المستشفى...

محسن وأديب يعودان في أقصى درجات التوتر ويقولان بأن الحجز ليوم الثلاثاء مستحيل بسبب الزحمة، وأن الخيار الوحيد هو المغادرة ظهر اليوم أو الانتظار للسبت القادم... محاولات من أبي زياد على الهاتف للحصول على وعد أو ضمان دون جدوى... محسن وأديب والسامرائي يقررون السفر ظهر اليوم، فيما يضعني في دائرة الوحشة والاكتئاب، والإحساس العميق بالتألم لموقف أديب الذي اختار أن يتركني وحدي قبالة إشكاليات المستشفى... يغادر أديب والسامرائي إلى الجت لضمان الحجز ويظل محسن، حيث ما يلبث الملكاوي أن يجيء ويحل الإشكالية بسرعة كعادته، بأن يعدنا بتوفير سيارة خاصة بنا تقلنا إلى بغداد فجر الثلاثاء...

أحسّ بقدر من الارتياح... أتجه مع المحاسب إلى المستشفى الإسلامي وأحمد الله على أن أجد الجراح قد عاد إلى غرفته... عرض الأوراق والتقارير عليه... يحيلني إلى طبيب الباطنية عصر اليوم قبل اتخاذ رأي نهائي... ثم ما يلبث أن يسألني عن حصى المرارة فأؤكد وجودها... فيقول أن بمقدوره

عبر عملية واحدة أن يخلصني من الحصا والفتقة في آن واحد... لحظات مترعة بالقسوة والحيرة والمرارة تجتاحني... أغادره وأنا ألعق جراحي، محاولاً تعليق القرار الأخير لما بعد فحص طبيب الباطنية، فها أنا ذا قبالة فرصة ذهبية طالما حلمت بها للخلاص من متاعب المرارة والفتقة معاً...

وهي فرصة لا تتكرر مرةً أخرى... ولكن ماذا بشأن عدم ضمان النتيجة بالنسبة للعمليتين وفق طريقة الناظور، فيما حذرني منه جراحو الموصل؟.. وماذا بصدد ضرورة البقاء فترة قد تطول في عمان في أعقاب العمليتين؟..

أعود إلى المعهد وأنا في تلك الحال التي لا أحسد عليها، وأميل شيئاً فشيئاً إلى عدم الاستجابة لعرض الجراح، والاكتفاء بعملية الفتقة وفق الطريقة الاعتيادية في مدينتي... أسأل المحاسب عن إمكان فتح حساب لي فيقول أن بمقدوره أن ينجزه لي الآن، لكني ما ألبث أن أتذكر تحذير محسن حول إعدام كل من يفتح له حساباً في الخارج، فأترك الموضوع على مضض...

في المعهد أقدم أوراقي ومستنداتي للمحاسب للعثور على مبلغ ضائع لي في حساباتهم كان قد أرسل من دار المنارة، وأنصرف لإنجاز أعمالي المعلقة في غرفة مجاورة... بعد ساعتين يجيئني المحاسب لكي يقول أنه قد عثر على الحق الضائع: أربعمائة دولار، وسوف يدبرها لي غداً... فالحمد لله...

وثمة ارتياح آخر بالاتصال الهاتفي بزوجتي وطمأنتها عليَّ وإعلامها بالموعد التقريبي للسفر... دكتور زياد يدعوني وقطب إلى الغداء فأعرض عليه مطعم القدس... غداء طيب هناك وعودة الإحساس بالتنغيص بسبب غياب الزوجة... العودة للفندق بسبب الأخ قطب لأخذ حقائبه... الزمن يضيق الخناق عليَّ حيث يتوجب أن أكون في المستشفى عصر اليوم... ولحظات قاسية من انتظار التاكسي دون جدوى.. العثور على واحدة منها أخيراً...

التوجه إلى المستشفى وإجراء فحوص عديدة خلال فترة قصيرة، وارتياح حتى الأعماق للنتائج الطيبة والمشجعة على إجراء العملية في الموصل... تسلّم التقرير التفصيلي من الطبيب... ودفع مبلغ كبير غير متوقع، لكن الفرحة كانت

تغمرني لتجاوز القلق والحيرة واتخاذ قراري الأخير، تشجعني عليه نتائج الفحوص فالحمد لله... أغادر المستشفى فرحاً منشرحاً وأنا أردد: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥ ـ ٦] مقارناً بين حالتي المترعة بالتعاسة صباح اليوم ووضعي السعيد الآن...

أتجه إلى المعهد وأنجز العديد من المعلقات، وأدخل دائرة الحيرة لدقائق بين الذهاب مع ملكاوي إلى المطار لتوديع قطب وبين البقاء لإنجاز أبحاث أخرى.

أميل إلى الأولى هروباً من العمل... جولة طيبة إلى المطار وأحاديث شتى، وترتيب زيارة لجامعة ماليزيا عبر أحد أشهر الصيف القادم يحملها قطب إلى إدارة الجامعة... العودة إلى الفندق ودعوة على العشاء مع أحد أصدقاء محسن... عشاء طيب في مطعم القدس واستئناف الأمسية في بيت الصديق... وعرض بدعوتي والدكتور محسن أساتذة زائرين لجامعة آل البيت التي يعمل فيها الداعي... ليلة مزعجة مع الحرّ وصوت المروحة الكهربائية...

الأحد: التوجه بمعية محسن إلى المستشفى، وارتياح غامر لوجود الجراح وعرض التقرير عليه وطمأنتي بسهولة العملية... نغادر المستشفى وأنا أحسّ بفرح عميق... نتجه إلى دار البشير فلا نجد (رضوان) إنما ابنه، حيث يتم الاستفسار عن جملة أمور، ولا أحظى بدولار واحد، وحيث أقع على بغيتي الضائعة ديوان القرضاوي... ونتجه إلى المعهد لكي أتلقى بشرى أخرى: تهيئة مبلغ الأربعمائة دولار الخاصة بدار المنارة من قبل المحاسب فالحمد لله...

ويزيدني سعادةً إجراء اتصال هاتفي مع لندن وحديث مطول مع أنس والعلواني للاستفسار عن كافة القضايا المعلّقة... أعود لمواصلة حلّ المعلقات في إحدى الغرف وأقطع شوطاً طيباً، وأجري سلسلة من المكالمات الهاتفية...

دعوة على الغداء من قبل ملكاوي، أقترح أن تكون بعيداً عن قرف مطعم القدس وبدلاً عنها في مطعم جبري: واحدة من أجمل وأعذب الدعوات في هذه

الرحلة مع الطعام اللذيذ والدوندرمة الرائعة والأحاديث والنكات والتعليقات والإحساس بالتخفّف من هموم الأعمال ومطالب المستشفى.

نرجع إلى الفندق لكي نرتاح قليلاً، ثم نتجه إلى المعهد لإلقاء محاضرتي عن (تكوّن الحضارات ونموّها في المنظور القرآني)، حيث حضر حشد طيب، وحيث أتيح لي بفضل الله وحده أن أقدم واحدة من أكثر المحاضرات في حياتي إحكاماً وتدفقاً، وكنت مقتنعاً بها بخلاف العديد من المحاضرات. ودارت بعدها مناقشات خصبة، ثم غادرنا المكان مدعوين لدى أحد أصدقاء دكتور محسن، حيث تناولنا عشاء طيباً، ورتبنا أمر التاكسي التي ستقلنا إلى بغداد، ثم قمنا بزيارة للدكتور طارق العوسج، الذي أجرى عملية في الشرايين، وعدنا إلى الفندق لكي نعاني من المتاعب إياها مع الحر وصوت المروحة الكهربائية وقلة النوم...

الاثنين: الاستيقاظ على هموم المشتريات التي يتوجب عليَّ أن أنجزها جميعاً هذا اليوم... وزادني قلقاً إصرار محسن على اصطحابي، حيث سيعرقل هذا سرعة حركتي... ولكنني عبر عدة ساعات وبحركة لولبية سريعة، وعبر دوامات القلق والصعود والهبوط النفسي التي طالما عانيت منها في جولات كهذه أنجزت معظم المطالب... ووقعت ملابسة كادت تلحق بي دماراً صحياً لولا أن الله سلّم، عبر شجار مع بائع مجنون شك في أني ربما أكون قد سرقت منه شيئاً، فلما رددت عليه سلّط عليَّ سيلاً من الشتائم، فرددت بمثلها ثم بصقت في وجهه فتقبلها دون رد، ولو أنه فعل لكان يمكن لقلبي أن يتوقف...

وثمة انفعال آخر مع بائع ثانٍ بسبب سحبة الهدية والدجل الذي احترفه معظم البائعين... أجلس أكثر من مرة في المكتب الإسلامي لتجميع الأغراض وحل عدد من الأمور النشرية... ثم أتغدى بمعية دكتور محسن الذي يقفل عائداً إلى الفندق. وأنطلق أنا لاستكمال المشتريات، ثم ما ألبث بعد قلق حمل الأغراض أن أعود إلى الفندق سعيداً بعد إذ نفذت معظم المطالب...

أستحم فأسترجع استرخائي، ثم نتجه إلى المعهد لحضور محاضرة دكتور

محسن عن مناهج التفسير. يتلقاني دكتور فتحي بحصوله على خيوط العملية فأحس بسعادة غامرة لضمانها. ولكن يقلقني الحصول على حبوب احتياطية أخرى من الدولستوب حيث يمتنع الصيادلة عن بيعها دون ترخيص... أزداد فرحاً بتلقي مبلغ الثلاثمائة دولار الذي أرسلها أنس ومبلغاً أردنياً تغطية لتكاليف التاكسي إلى بغداد...

جلسة استرخاء ممتعة مع المحاضرة، وطلب من ملكاوي بأن أكون أول المعلقين، وفاكس من عبد القدوس يؤكد وصول معظم إرسالياتي، وأسئلة تحريرية من دكتور رشدان... وأجواء طيبة، وما ألبث أن أدخل دائرة الشد النفسي بعد المحاضرة. فالطنطاوي يريدني أن أسرع للعودة معه إلى منزله، دكتور محمد زكي ينتظر هو الآخر، وأحد الشباب يريد توصية مستعجلة إلى اليمن، ومجموعة من طلبة الدراسات العليا يلحّون على جلسة ضرورية للتباحث في قضاياهم، وزعاترة ونسيبه يجيئان للسلام، فأعرض عليهما الحصول على دولستوب إضافي فيبديان استعدادهما، ثم ما يلبثان أن يجيئاني به والحمد لله... وزكي يعاون في رزم الكتب المبعثرة... وأسارع بلقاء الطلبة وأتحدث بإيجاز بعد أن تم الاتفاق على ترتيب موعد عبر زيارتي القادمة إن شاء الله لإقامة ورشة عمل ليومين أو ثلاثة حول الموضوع...

أغادر المعهد بعد توديع دكتور فتحي متجهاً في سيارة محمد زكي إلى بيت طنطاوي، وأنا أحسّ بارتياح عميق للتخفف من المطالب التي لا تنتهي... نصل البيت فأفاجأ بحصول أحد الأطباء على كمية من خيوط العملية فالحمد لله... عشاء لذيذ وحوار في قضايا إسلامية لم أشأ أن أدخل طرفاً فيها لأني كنت أريد الاسترخاء... العودة إلى الفندق بعد تسلّم مجموعة (فلسطين المسلمة) لعام (١٩٩٥م)، وإلحاح رئيس التحرير على استمرار الكتابة وإبداء أحد محرريها القدماء إعجابه بمقالي (الرحيل إلى الخرطوم)، وأنه أعيد نشره في إحدى الدوريات السودانية في لندن... نرجع إلى الفندق لكي أستكمل ترتيب الحقائب استعداداً للانطلاق فجر غدٍ بإذن الله...

الثلاثاء: ١٠/٣: الانطلاق فجراً في سيارة صديق دكتور محسن إلى موقف التاكسيات، ومنها ننطلق إلى بغداد عبر رحلة مريحة... حيث تم شراء المزيد من الحاجيات من صفاوي... تناولنا غداءً مزعجاً في رويشد وتجاوزنا متاعب التفتيش وفحص الإيدز بسهولة، وبعد تقديم باكيتين من الجبن... وثمة غداء آخر في محطة استراحة عراقية ثم الانطلاق إلى بغداد... حيث بدأ القلق يتناوشني من مخاطر الطريق في الليل بين بغداد والموصل، وزادني قلقاً إصرار محسن على أن أبيت عنده الليلة وألا أسافر إلّا مع الفجر، لكن الإصرار ركبني.

وأحسست بارتياح عميق وأنا أعثر على سيارة بسرعة بالغة وأحجز المقعد الأمامي وتنطلق السيارة وسط مشاعر الفرح والارتياح والاسترخاء... ولكن أيضاً مع التخوف من احتمالات الأمن الضائع، وسط أحاديث السائق حول حوادث السيارات التي جاوزت كل تصوّر... وأحسّ بشيء من الاطمئنان وأنا أرى أحد الركاب يصطحب مسدساً، ويتعرف عليّ باعتباره طالباً في كلية الإدارة والاقتصاد... أصل الموصل في الساعة الثانية عشرة لكي أحط الرحال بحمد الله وتوفيقه...

[٢٥]

رحلة عام ١٩٩٥ م إلى اليمن

الأربعاء: ١٢/٦: استيقظت فجراً... وجرت الأمور بيسر وسهولة وغادرت الدار إلى الكراج، حيث ركبت إحدى السيارات المتجهة إلى بغداد وسط إحساس غامر بالفرح والانسجام والتحرر من شد الأعصاب الذي دمرني لأسابيع طوال... ووصلنا بغداد عبر رحلة مريحة، لكي ما ألبث أن ألتقي بعلاء نورس في كراج المنشأة، وتتم إجراءات الحجز ثم أودّعه وأتجه إلى الباص، الذي انطلق إلى عمان في موعده وكنت أحسّ بمزيد من الارتياح بسبب استقلالي بمقعدي في الباص...

ومضت الرحلة هينة مريحة وأنا ألتهم غذائي أو أغرق في تداعياتي... ثم

ما لبثت المتاعب أن فرضت حصارها: البرد الشديد، ونقل الحقائب الثقيلة للتفتيش في نقطتي طريبيل ورويشد هذا إلى تأخر المعاملات لساعات طويلة، ولكن هذا خدمني بجعل الوصول إلى عمان صبيحة اليوم التالي، فوفر عليَّ ليلة في عمان فضلاً عن متاعب الوصول في أعماق الليل...

الخميس: استيقظت بعد نوم عميق على الباص، وهو يوشك أن يصل إلى عمان وسط أجواء ضبابية باردة، وصفعتني الكآبة إياها والتي اعتدتها لدى كل وصول. ثم ما لبثت أن وجدت تاكسياً أقلني إلى الفندق وأحسست بارتياح وأنا أتجاوز حلقة الوصول والاستقرار في الفندق... ثم ما لبثت أن توجهت إلى الخطوط اليمنية، فإذا بالتلكس قد وصل، وإذا بالتذكرة تسلم لي خلال دقائق معدودات...

وغادرت المكان وأنا أحسّ بسعادة بالغة، ثم اتجهت إلى المعهد العالمي لكي أبدأ مطحنة نفسية مع شبكة من المطالب والأعمال: متابعة حساباتي لدى المعهد، المصرف الإسلامي، كتابة العديد من الرسائل والفاكسات المستعجلة، الاتصال الهاتفي بالعديد من الأصدقاء... الخ. وأحسست بإعياء بالغ وبضيق في النفَس، وكانت فترة الغداء فرصة في مطعم المنقل مع الملكاوي، رغم أنني أحسست بالندم على إلحاحي في تناول المشويات المتبلة والأرغفة المترعة بالسمن... وعدنا إلى المعهد وخلال ذلك صفيت مع الملكاوي الكثير من المعلقات، وتلقيت العديد من الإجابات المعلقة خصوصاً في المسائل المالية...

وبعد العشاء توجهت ودكتور محمد زكي إلى بيته لقضاء أمسية طيبة وتسليمه الرسائل الخاصة به، وطلب معاونته في متابعة بعض التوصيات...

الجمعة: استيقظت صباحاً في حالة من الانشراح والسعادة... وغادرت الفندق لاستبدال العملة دون جدوى بسبب إقفال المحلات في هذه الساعة المبكرة، وعدت إلى الفندق لكي أحمل حقائبي وأتجه إلى موقف باصات المطار... وهناك استرجعت استرخائي وسعادتي، وانطلقنا إلى المطار عبر شوارع عمان الجميلة، لكي ما تلبث الطائرة أن تنطلق متأخرة عن موعدها

بعض الشيء... وقد انتابني للحظات التخوف من ركوبها بعد إذ رأيت صغر حجمها... لكنني توكلت على الله، حيث مضت الرحلة في أجواء مريحة، اخترقتها في المراحل الأخيرة اهتزازات ارتجف لها قلبي، بسبب من الجيوب الهوائية...

ووصلنا مطار صنعاء وأنا قلق من ألّا أجد أحداً، ولكنني ما لبثت أن وجدت شخصاً يمنياً يبحث عني... إنه موظف العلاقات العامة... أحسست بارتياح عميق وأنا أستقل معه الباص حيث أعلمني بأنني سأنزل في فندق حدّة بدلاً من دار الاستراحة بسبب عدم وجود مطبخ فيها... وكان الباص يجتاز شوارع صنعاء والموظف يشرح مواقعها المختلفة... ووصلنا الفندق... وللحظات وأنا أعاين روعته وتيسيراته اكتنفني كالعادة شيء من الانقباض، لكنني بمجرد أن وضعت متاعي في الغرفة، أحسست بارتياح فجائي، وقررت أن أتجاوز كل المنغصات القديمة التي افترست عليَّ رحلاتي السابقة، وأن أجعل من هذه الرحلة واحدة من أنجح الرحلات... ونزلت إلى الصالة لكي أتجول قليلاً وأتناول عشاء لذيذاً ثم أجلس في الصالة مسترخياً الساعات الطوال وأتناول الحلويات اللذيذة، ثم ما ألبث أن أغادرها إلى غرفتي لاستكمال بعض الأعمال، ومشاهدة بعض برامج التلفاز، ثم ما ألبث أن أسلم نفسي لنوم عميق.

السبت: ١٢/٩: استيقظت في الثالثة ليلاً على ألم قاسٍ في جنبي الأيمن سرعان ما تبيّن لي أنه الكلية... وأنه قد يكون أعراض مغص كلوي فأين المفر! وكيف أجد حقنة البسكوبان لإسكات الوجع الذي لا يطاق؟ أدعو الله من أعماق قلبي أن يخفف عني... بعد دقائق يجيء الجواب، ويسكت الوجع...

يا الله... لك الحمد حتى ترضى... لك الشكر بما يكافئ نعمك التي لا تعدّ ولا تحصى... أنهض إلى التواليت لكي أتبوّل فإذا بي أفاجأ بأنني أبول دماً قانياً... يتملكني الخوف كيف سأوقف النزيف إذا ما حدث؟ إن الجرح الخارجي عندما يحدث أجد صعوبة في وقف سيال الدم الذي ينبجس عنه

بسبب تناولي للوارفارين؛ فكيف بالنزيف الداخلي وبهذه الكمية المخيفة التي تملأ حوض التواليت؟!!

أدعو الله مرةً أخرى وأنام... والخوف يتقاذفني من أن يصيبني مكروه وأنا بعيد عن أهلي وعائلتي... وتتملكني الشفقة عليهم للاحتمالات السوداء... وأتذكر... لعلّ هذا كله بسبب تناولي لوجبة المشويات المشؤومة مع دكتور فتحي والمترعة بالمتبلات... كيف فاتني هذا؟ لكن الندم لا يجدي... وتأخذني سنة من النوم وأستيقظ بعدها لأجد البول لا يزال يختلط بالدم ولكن بدرجة أقل... أستبشر بعض الشيء... وبمرور الوقت يخف اللون حتى يرجع الإدرار إلى قريب من وضعه الطبيعي... الحمد لله... ها قد منحني الشفاء دون اللجوء إلى طبيب!!

أنتظر بقلق رئيس القسم... أكثر من ساعة وأنا أنتظر دون أن يأتي... يتملكني نفاد الصبر وأضطر إلى مكالمته على القسم والبيت، وأحظى به بعد لأي في القسم. إذن لم يكن في نيته أساساً أن يأتي لكي يصطحبني إلى الكلية... وأتذكر ما قاله علاء النورسي... فليست هذه الأولى والآخرة عن الإخوة اليمنيين... أضطر لاستئجار تاكسي تكلفني مبلغاً كبيراً... وأدخل القسم لكي أتعرّف على الموجودين في جلسة ودية... وتم ترتيب جدول المحاضرات... وكانت تقلقني مسألة البقاء في الفندق وتحمل متاعب الطريق الطويل ومصاريفه الباهظة. وقد تبين لي عبر حوار بين رئيس القسم وأحد التدريسيين أن رئيس الجامعة طلب إقامتي في الفندق، حيث أن مطبخ دار الاستراحة قد أقفل...

تراوحت مشاعري بين الانزعاج والقبول فلكل عيوبه ومزاياه، ولكن وبعد أن شرح لي رئيس القسم صيغة رخيصة للوصول إلى الكلية والعودة منها بواسطة الباصات الصغيرة؛ أحسست بارتياح عميق. فها أنا قد تخلصت من السكن هناك حيث قلة النظافة والصراصير والوحدة... ومخاطر الطعام... وعوّضت عن ذلك بفندق غاية في الروعة والبهجة ووجبات الطعام اللذيذة والنظيفة... فالحمد لله...

أوصلني رئيس القسم بسيارته... وتناولت وجبة غداء لذيذة من الجمبري

وأنا أحسّ بسعادة بالغة وأقول في نفسي لعلها تكون واحدة من أروع الرحلات في حياتي، وعليَّ ألّا أدمرها بوساوسي وحرصي وعملي المتواصل...

أخذت قيلولة عميقة... وجاءني عند الغروب الدكتوران ضرغام وأنيس الليلة، حيث قضينا في صالة الفندق ساعات طيبة، وأنهيت العديد من المعلقات، وتلقيت الإجابة على العديد من الأسئلة... وبعد مغادرتهما الفندق تناولت وجبة قاسية من الدجاج والخضار المسلوق رغبة في تجاوز متاعب الكلية واحتمالاتها، ثم بدأت العمل في جدولة المحاضرات وتحديد موضوعاتها، وتم ذلك بيسر وسهولة شعرت معها بارتياح عميق وغبطة بالغة، وثنيت باستكمال مذكرات الأيام الأخيرة من رحلتي فازددت ارتياحاً، ونزلت إلى صالة الفندق في جلسة استرخاء وتناول للحلويات استغرقت فترة طويلة... بدأت بعدها رياضة المشي السريع داخل ممرات الفندق المريحة، وأنهيت الأمسية بجلسة طيبة مع التلفاز، ثم أسلمت نفسي للنوم...

الأحد: استيقظت سعيداً غير قلق بسبب عدم التزامي بموعد محدّد... ونادراً ما يحدث هذا لدى الاستيقاظ عبر رحلاتي جميعاً، وتناولت فطوري في البوفيه، ثم اتجهت إلى الكلية، حيث تمكنت من الحصول بسهولة على باص وآخر حسب شرح رئيس القسم، ولم يكلفني سوى عشرين ريالاً... دخلت القسم وسط إحساس بالغبطة وسلّمت الجدول لرئيس القسم، وقمنا بزيارة تعرّف على عميد الكلية، حيث التقينا هناك بالعديد من التدريسيين بما فيهم وزير العدل اليمني، وتلقيت ثناءً سخياً من معظمهم على مكانتي كمفكر وأستاذ فالحمد لله... ثم جلست في الغرفة لاستكمال جدولة المحاضرات وإعداد أوراق المكافأة... حيث وعدني رئيس القسم بتقديمها يوم غدٍ بإذن الله. وعدت بالباصات إلى الفندق سعيداً لأتناول وجبة الغداء، وأخرج إلى الغرفة لأنام بعض الوقت، وغادرت المنام وسط دوامة من القلق. ثم ما لبث أن انغمرت في العمل وترتيب الأوراق والمحاضرات والمطالب المتبقية وتدوين المذكرات... فها هنا الدواء الذي يعرف كيف ينتشلني من القلق والتشتت والاكتئاب...

تناولت عشاء بوفيه لذيذ... وقضيت الأمسية في صالة الفندق مع رئيس جامعة العلوم وأحد الأساتذة، حيث دارت أحاديث شتى وعرض عليَّ المعاونة في توصيف مناهج التاريخ، وزيارة الجامعة وإلقاء محاضرة فيها... كما عرض القيام برحلة إلى مأرب... ثم ما لبثت أن عدت إلى الغرفة لأقوم بمحاولة أخرى للاتصال بالموصل دون جدوى، الأمر الذي أورثني قدراً من القلق والاكتئاب... وبعد مشاهدة للتلفزيون أسلمت نفسي للنوم الذي كانت تقطعه متاعبي مع ضيق النفس...

الاثنين: استيقظت مبكراً لكي ألحق محاضرتي الأولى في موعدها، وتناولت إفطاري في البوفيه، ثم توجهت إلى الكلية بواسطة الباصات الصغيرة وبسهولة بالغة ووقت قصير. وكان عليَّ أن أنتظر أكثر من ساعة قبل بدء موعد المحاضرة، حيث كان رئيس القسم ينتظرني قبالة الطلاب وقدّمني بسخاء بالغ مؤرخاً ومنظراً ومفكراً...

وبدأت المحاضرة عن خصائص الحضارة الإسلامية قبالة طلاب جيدين، وبتمكن، وقدرة على التنويع والإثارة وشد الانتباه. لكن التشنج اللعين في النفَس والقلب سرعان ما أحكما قبضتهما عليَّ وجعلتا الأقسام الأخيرة من المحاضرة صراعاً قاسياً، كما هو الحال في معظم الأحيان...

غادرت القاعة مع حشد من الطلبة، حيث وجهوا أكثر من سؤال، ودخلت الغرفة لأجد رئيس القسم منغمراً في حل مشاكل الطلبة، فلم يتح لي الوقت الكافي لمفاتحته بموضوع المكافأة وضرورة التعجيل بها قبل فوات الأوان... وقلت في نفسي إن هناك (رضوان) في إدارة الجامعة سألجأ إليه لكي يحقق المطلوب بإذن الله... وتلقيت دعوة من طلبة القسم لحضور حفل توديع العميد واستقبال الطلبة والترحيب بقدومي...

ثم عدت إلى الفندق لأتناول غدائي وآخذ قسطاً من النوم ثم أتجه مع الدكتور عابد الهاشمي لمركز البحوث، الذي استُقبلت من قبل مديره الشيخ الزنداني بحفاوة بالغة، وجرت مناقشات حول مقارنة الأديان استغرقت الساعات

الطوال، وعرض عليَّ إلقاء محاضرة اعتذرت عنها، لكنني ما أن عدت إلى الفندق حتى أحسست بالندم. وبأنها قد تكون فرصة مالية طيبة (!!) ولذا أسرعت بعد تناول العشاء للاتصال ببعض مدرسي الجامعة لمفاتحة مديرها برغبتي في إلقاء ثلاث محاضرات في الفقه الحضاري فوُعدت خيراً... وثمة طالب ماجستير جزائري يطلب موعداً ويقول بأنه وحشد الجزائريين من قراء كتبي، وأنها كانت منذ بدايات بعيدة إحدى عوامل الصحوة هناك فالحمد لله...

ضربات خفيفة من الألم في الكلية اليمنى وتوجس من وجبات الطعام، ومحاولات أخرى غير مجدية للاتصال بالموصل... وعودة إلى الإحساس بالاكتئاب والقلق، إذ يبدو أنه لا بدّ أن أجد نفسي في المنغصات حتى ولو لم تكن هناك في الحقيقة... تلك هي طبيعتي...

أمارس رياضة المشي اليومية داخل ممرات الفندق... أجلس إلى التلفزيون بعض الوقت، ثم أسلم نفسي لنوم يجثم على صدري فيه ضيق النفَس فلا يكاد يدعني أنام...

الثلاثاء: أستيقظ مبكراً، فأنا على موعد لزيارة جامعة العلوم والتكنولوجيا... أحاول الحصول على مكالمة للموصل فلا أوفق... أتناول فطوري وأنطلق مع عميد آداب جامعة العلوم إلى تلك الجامعة عبر شوارع صنعاء والأحاديث الممتعة... أُستقبل بحفاوة بالغة ويمضي بي رئيس الجامعة عبر مختبراتها وأقسامها شارحاً معرّفاً، وتلتقط الصور التذكارية بكامرة مدير العلاقات... وأودّع بالحفاوة نفسها عائداً مع العميد إلى قسم التاريخ لألقي محاضرة موفقة عن شروط إعادة كتاب التاريخ، وأسبقها باستكمال محاضرة يوم أمس عن خصائص الحضارة الإسلامية... ويدور نقاش خصب ومشاركة طلابية جيدة لولا أن يقطعها طالب من المنحلّين فكرياً، أولئك الذين لا يجدون أية أهمية للتاريخ، ويساوون بين المسلم والمسيحي واليهودي... ويرون في البحث عن الصفحات البيضاء في تاريخنا عملاً يعوزه الدليل...

أردّ عليه بتدفق معزّز بحشود من الشواهد وأخرسه... وأواصل المحاضرة

إلى حد الإعياء الذي أعرفه جيداً... ضيق النفَس والتشنج مضافاً إليه هذه المرة ثقل في الساق اليسرى... ويلحقني بعض الطلبة خارج القاعة لكي يواصلوا أسئلتهم وحوارهم... أصعد إلى غرفة القسم وأرتمي محطماً على الأريكة... بجوار مقبول الذي جاء لزيارتي، وأشعر بوجوده بارتياح عميق... ويدور حوار أتلقى فيه أجوبة على الكثير من المعلقات، وأزداد ارتياحاً لحل مشكلة تمديد موعد الحجز على العودة مع رئيس القسم، حيث تمّ الاتفاق على الجمعة (١٢/٢٩)، وأعرب رئيس القسم بأريحية بالغة عن سعادته بخدمتي، وأنه سيحجز لي في الأيام الثلاثة الأخيرة في فندق سبأ ذي النجوم الخمسة بسبب حجز فندق الحدّة من قبل وفد كبير...

كما يعرب عن استعداده لتسريع معاملة المكافأة، التي أخذت تسبب لي بعض القلق خشية تأخرها... يطمئنني مقبول بأنه سيتولى أمر إيصالها إليَّ حتى لو لم آخذها خلال بقائي، كما يصطحبني إلى السنترال حيث نتمكن من الحصول على الموصل، فأكلم زوجتي وأطمئنها وأتلقى ما يطمئنني أنا الآخر...

ورغم الثمن الفاحش للمكالمة فانني شعرت بارتياح عميق، فها قد تحررت من ملاحقة سنترال الفندق دون جدوى... يرافقني مقبول بالدباب إلى الفندق ويتفق معي على جولات قادمة في صنعاء: معالمها وأسواقها... وعلى زيارة في الفندق مساء اليوم... ثم أمضي لتناول واحدة من أشهى الوجبات منذ مجيئي: الجمبري مع الرز والمايونيز... وأم علي!! أصعد إلى الفندق لكي أتناول قيلولة عميقة حتى الغروب، ثم أستيقظ لأصلي وأتناول الشاي وأعدّ محاضرة يوم غدٍ لطلبة الدراسات العليا، وأنجز المذكرات وبعض الأمور الكتابية...

عند تناول العشاء يزورني مقبول، فأقضي معه في صالة الفندق ساعات طيبة في أحاديث شتى، ثم أمارس جولة المشي السريع وأجلس إلى التلفزيون أكثر من ساعة، وأسلم نفسي لنوم متقطع يجثم عليَّ خلاله ضيق قاسٍ في النفَس. ولدى الصباح أتذكر أن السبب ربما يكمن في الارتفاع الكبير لصنعاء، وأن نزيف الكلية ربما كان للسبب نفسه، وما لبثتْ لحظاتٌ من الخوف أن

اجتاحتني، فها أنا ذا ـ ربما ـ على بعد خطوات من احتمالات نزيف قد يكون في الدماغ، فهل أواصل تناول الوارفارين؟

الأربعاء: أستيقظ صباحاً وأتناول فطوري في البوفيه ثم أتجه إلى الكلية... لم يكن ثمة ما يقلقني ولكن لماذا الاكتئاب؟ وأين الفرح الذي انتظرته طويلاً؟ يبدو أن نفسي لم تعد تصلح لتقبُّل الفرح والصفاء. فثمة حالة يصعب إجلاؤها أو السيطرة عليها، هي مزيج من الاكتئاب والقلق وعدم الإحساس بطعم الأشياء... حالة أصبحت بالنسبة لي هي القاعدة وغيرها الاستثناء... أذهب إلى مجلة المنتدى لتسليم رسالة لصديق فلا أجد أحداً هناك... أتجه إلى القسم وألتقي برضوان، موظف الجامعة، وأكلّفه بمتابعة حقوقي المالية فيبدي ترحيبه... أسأل في قسم اللغة العربية عن إمكان قبول دكتور علي كمال الدين، فيقولون إن الدرجات لن تعلن إلّا في الصيف...

أتجه إلى القاعة التي سألقي فيها المحاضرة الأولى على طلبة الدراسات العليا، فإذا بأحد الطلبة يتقدم مني ويقول بأن صديقاً له أخبره يوم أمس عن حصولي على جائزة الدولة التقديرية في قطر عن كتابي (رؤية إسلامية).

تصدمني المفاجأة وتفتح عليَّ جبهة همّ جديد كم أنا في غنى عنه، إذ قد يكون أساء مصدّر الجائزة، ولعلها تكون جائزة عويس نفسها... فأين أذهب بالمبلغ الأسطوري؟ وكيف أهرب من حسد الناس المدّمر؟ إذا صحت توقعاتي؟ وكيف أتجاوز الإحساس القاسي بالازدواج لقبول جائزة من بلد لا يزال فيه أحد كبار الدعاة معتقلاً... يعتصرني الهم والقلق، وأدخل القاعة على الحالة التي ذقت مرارتها كثيراً: مزيج من القلق والاكتئاب والتوتر والخوف من المجهول... من حصولي على مزايا هي أكبر بكثير من قدرتي على استيعابها والتحقق بها.. ومع ذلك فإنني أتجاوز محنتي النفسية وألقي محاضرة مترعة متدفقة عن الوحدة والتنوع...

وعند ختامها أفتح باباً للأسئلة، فإذا بخبيث يوم أمس يفاجئني بوجوده ويبدأ بطرح إسرائيلياته، التي يحاول من خلالها أن يساوي بين الفتح الإسلامي

والغزو الصليبي والاستعمار.. أردّ عليه بعنف وأمطره بالشواهد وأضعه في خانة أولئك الذين فقدوا الاحتفاظ بالذات، وأصبحوا صيداً سهلاً للتطبيع والنظام العالمي الجديد الذي يستهدف تعويم الأمم والشعوب، من خلال فك ارتباطها بعقيدتها وتاريخها ووضعها تحت رحمة الآلة الاقتصادية التي تمسك أمريكا والصهيونية بأعنّتها... يحاول أن يردّ فأمنعه من الكلام، وأعطي الفرصة للآخرين، وأغادر القاعة وأنا أعاني من الإعياء القاسي في أعقاب ساعتين من الكلام المجهد، وأحسّ كما لو أن قلبي يتشنج وأنفاسي تغيب...

يلحقني الطلبة ويكيلون لي ولمؤلفاتي الثناء والتقويم ويمطرونني بالأسئلة المخلصة، ويطلبون مواعيد للإجابة على مطالبهم، فأعدهم وأنا أعاني من التشنج وضيق النفَس وأستلقي على أريكة القسم لكي أرتاح قليلاً... أذهب مرتين لإهداء أحد مؤلفاتي لعميد الكلية الجديد فلا أجده... أرجع إلى القسم لكي أجد رئيسه يعرض عليَّ قراءة وتقويم كتاب منهجي له عن السيرة والراشدين، وكتابة مقدمة له... أعرب له عن استعدادي وترحيبي، وأنا أقول في نفسي: وهذه هي الأخرى... وأتلقى منه تقويماً سخياً... أغادر القسم بمعيته، حيث يعرض عليَّ إيصالي إلى الفندق... في الطريق وعبر لحظات انتظاره لكي يجلب أولاده من إحدى المدارس... وعبر حصار الغبار والإعياء والحر... أحسّ بالقرف، وفقدان طعم الأشياء...

وأصل إلى الفندق فأتناول غدائي على الحالة نفسها من عدم الارتياح... وأصعد لأصلي وأنام. فإذا بجرس الهاتف يدق، وإذا بعميد تربية جامعة العلوم الدكتور عبد الغني يقول بأنه فاتح رئيس الجامعة عن ضرورة تخصيص سيارة لي تقلني من الفندق إلى الكلية... وأن عالماً ومفكراً إسلامياً له مكانته المعروفة في عالم الإسلام، يجب ألّا يركب (الدّباب) في الذهاب والإياب... وإذا برئيس الجامعة يعده بتهيئة السيارة وبأنه سيزورني مساء اليوم... وأقول في نفسي: وهذه أخرى... إن انكشافي الزائد وتقويمي على المستويات العليا لا يسعدني... أريد أن أعيش بعيداً عن هذا كلّه أقضم سعادتي بهدوء... ولكن كيف؟

وأحاول أن أنام... فلا أغفو سوى قليلاً رغم حاجتي للنوم وأستيقظ على رشقة من الكآبة التي أعرفها جيداً في رحلاتي، التي تخترقها المتاعب والمطالب فضلاً عن الحنين الخفي... وأطلّ من النافذة عبر المنظر الجميل فما أزداد إلا اكتئاباً... ثمة زيارة أخرى حدثني عنها عميد التربية، تلك التي سيقوم بها الشيخ الواسعي: رئيس تحرير (النور) وواحد من الشخصيات اليمنية المعروفة... وكالعادة فما ثمة لمجابهة الحصار النفسي إلّا العمل...

أنكبُّ على تدوين المذكرات وأُغرق فيها بعض همومي، ولكن يظل هاجس القلق بخصوص الجائزة يستفزني، بانتظار يوم غد حيث أكدت على الطالب إياه ضرورة أن يأتيني بالخبر اليقين فلعل فيه خطأً ما... وأرجو ذلك... وعند ذلك قد أرتاح وألقي عن كاهلي عبئاً ثقيلاً...

يزورني الدكتور عبد القهار العاني وأبناء يوسف ذنون وأقضي في الصالة معهم ساعة طيبة، لولا المفاجأة بمجيء مدير الجامعة وعميد الآداب وجلوسهما قريباً منا مع دكتور عز الدين إسماعيل... أحسّ بقدر من التمزق فأنا لا أستطيع تركهم والذهاب للجلوس مع مدير الجامعة، وأنا لا أستطيع أن أظل معهم، فقد يغادر المدير المكان دون تأدية الواجب معه، خاصةً وأنه جاء إلى الفندق لكي يتصل بي، فضلاً عن دكتور عز الدين... ومرّ الوقت بطيئاً وعين على جماعتي والأخرى على جماعة المدير، وأنا أدعو الله أن يتركني ضيوفي ويغادروا المكان... وعلى حين غفلة ينهض المدير للمغادرة فما يكون منا إلّا أن نتدارك الموقف بالذهاب جميعاً للسلام عليه والجلوس قليلاً عبر حوار سريع في النقد الحداثي، وقد فاتحني بضرورة ترتيب أمر السيارة مع العميد الذي أعرب عن استعداده، واتفقت معه على زيارته يوم غدٍ لترتيب الأمر...

وأحسست بارتياح بعد خروجي من الورطة، ثم ودّعت ضيوفي وقفلت عائداً... وترددت قليلاً بين تناول عشائي في البوفيه وبين تأجيله بسبب عدم إحكام الجوع قبضته عليَّ... وجلست لحظات لأرتاح فإذا بعميد تربية جامعة العلوم يجيئني بملابسه الشعبية فأستقبله ونجلس لحظات، ثم يعرض فكرة

القيام بجولة في أسواق اليمن ومعالمها... واخترقنا الأسواق وأنا أحسّ بارتياح وانسجام وعاينّا عدداً من البضائع، ثم غادرنا إلى الجبال المحيطة بصنعاء والتي تشرف عليها قريباً من الجندي المصري المجهول ومقبرة الصينيين...

كنت أحسّ بقدر من الاكتئاب، ثم قفلنا عائدين لكي أودعه وأهرع إلى المطعم قبل إقفاله لتناول وجبة لذيذة من السندويتشات والمايونيز، ولأتلقى مكالمة من الواسعي تم فيها الاتفاق على زيارتي مساء غدٍ... ثم لأجلس قليلاً في الصالة أطالع إحدى الصحف وما ألبث أن أتذكر ضرورة الإعداد لمحاضرة يوم غدٍ عن المستشرقين، فأخرج إلى الغرفة وأرتب المانشيتات في وقت قصير، وأحسّ بارتياح عميق وبعودة الانسجام إلى نفسي، ثم أخرج لكي أمارس رياضة المشي وأرجع فأقضي وقتاً مع التلفاز وأسلم رأسي للنوم...

الخميس: قضيت ليلة قاسية مع ضيق النفس الذي لم يدعني أنام، وسيطر عليَّ تخوّف من احتمال استمرار الحالة عبر كل الأيام والليالي القادمة وما قد يسببه للقلب والدم... وبدأت أفكر بإمكان تقليص الزيارة لأسبوع آخر...

واستيقظت صباحاً على الرشقة إياها من القلق والاكتئاب والإحساس بالهم والضياع... فهناك متاعب النفَس، وهناك جبهة الجائزة والخبر المقلق بخصوصها، حيث أنتظر بصبر نافد الطالب الذي وعدني بأن يجيئني بخصوصها بالنبأ اليقين، فلعله لا أساس له من الصحة وحينذاك سأرتاح...

قمت بتناول فطوري بدون شهية وتلقيت مكالمة من رئيس تحرير إحدى المجلات الإسلامية، أعلمني فيها أنه نشر نبأ قدومي في صحيفته ورتب معي موعداً... الأمر الذي زاد قلقي وانقباضي، خشية أن يكون الخبر بمثابة الفرصة السيئة التي ستعرف بها السفارة العراقية بوجودي. وقد يتصل بي مسؤولها طالباً زيارته، وقد يحملني بما كاد أن يحملني به رئيس الجامعة لولا أن اجتزت المحنة بسلام وحينذاك سأتعرض للدمار النفسي كرةً أخرى... اتجهت إلى الكلية مترعاً بالقلق وزرت إدارة مجلة المنتدى وسلّمتهم رسالة رعد الحيالي (رَحِمَهُ اللهُ) بخصوص نشر إحدى مقالاته...

ثم يممت صوب القسم حيث كان ينتظرني الدكتور عبد القهار ومنها إلى قاعة الدراسات العليا... وحمدت الله أن الخبيث لم يأت، وإن كان صديقه الذي على دينه قد جاء وقدم طروحاته السيئة لكنني عرفت كيف أكتسحه...

وتدفقت في المحاضرة وجرى حوار خصب مع الطلاب، وأعربوا عن ارتياحهم العميق وإعجابهم بالمحاضرة، وتوسّلوا أن يتلقوا المزيد منها. وبسبب العامل النفسي لم أحسّ بالضيق والتشنج رغم استمراري على الكلام مدة طويلة، فالحمد لله، وغادرت المكان سعيداً منسجماً لكي أجلس قليلاً مع طالب دكتوراه أسدي له النصح، ثم أمرُّ على العميد لترتيب السيارة فلا أجده فأحس بارتياح أكثر. وأغادر المكان إلى الفندق لتناول الطعام والقيلولة بانتظار مجيء رئيس القسم للقيام بجولة في أطراف صنعاء...

وفي الثالثة والنصف غادرنا المكان مجتازين العديد من الشوارع وأنا أحسّ بانسجام وارتياح وانتهى بنا المطاف عند حافة مرتفع يطل على وادي ظهر تقبع فيه قرية تدعى القابل... كان المنظر أسطورياً: الضباب المعلق والوادي السحيق، وحركة الأطفال في أعماقه كالحلم، وبساتين القات والجبال الصخرية الحادة المطلة على الوادي، والقلاع القادمة من عصور التاريخ السحيقة، وأحاديث رئيس القسم عن طقوس القات...

وفي العودة اصطحبنا ثلاثة من المخزنين لكي أراهم عن كثب، ثم ما لبث أن أوصلني إلى الفندق لأصعد إلى الغرفة على الحالة التي ألفتها كثيراً في رحلاتي: القلق والتشتت والاكتئاب، وهموم المطالب المعلقة وحصار المواعيد، وضيق النفَس الذي أطبق عليَّ تماماً...

لكنني ما ألبث أن انغمر في كتابة هذه المذكرات، فأدفن فيها همومي ومشاعري... أنزل إلى الصالة لاستقبال الواسعي، حيث تدور أحاديث شتى عن النشر والمجلات والحياة الشخصية. وما أن يغادرني حتى أسرع بتناول البوفيه قبل أن يدهمني أحد الزائرين، وقد شككت في اثنين جاءا لزيارتي فتسللت خفية إلى المطعم، وعندما غادرته متخماً تبين لي أنني كنت واهماً...

بعد قليل قدم حشد من الضيوف الموصليين، حيث قضينا ساعات ممتعة في أحاديث بديعة وتقويمات لمكانتي الفكرية في العديد من الدول والبرامج التي تتحدث عن أعمالي في العديد من الإذاعات... ولولا صخب الباند لكانت واحدة من الأمسيات العذبة... وبدأت بعد مغادرتهم رياضة المشي، ثم جلست إلى التلفاز، وأسلمت بعدها نفسي لنوم كانت تقطعه بين حين وحين نوبات من ضيق النفَس القاسي...

الجمعة: استيقظت على قدر من الارتياح وأنجزت العديد من الأعمال، وتناولت فطوراً من الموز في الغرفة، ثم غادرت الفندق بمعية أنيس وضرغام، حيث كنت مدعواً على الغداء... وبعد صلاة الجمعة وتبادل التحية مع العديد من سكان الحي الجامعي وتلقي العديد من الدعوات، اتجهنا إلى بيت الدكتور أنيس الليلة لتناول غداء شهي وتبادل الأحاديث والنكات...

ثم خرجنا مع العائلة إلى جولة طيبة في صنعاء، حيث كان الجو في أقصى درجات صفائه واعتداله، وقضينا وقتاً طيباً في إحدى السوبرماركتات، واتفقت على القيام بجولة أخرى للشراء عبر الأسبوع القادم بإذن الله، وأوصلوني إلى الفندق وأنا أكافح لمسات الاكتئاب والقلق لدى دخول الغرفة، لكي ما ألبث أن أغطي عليها بالكتابة قائلاً في نفسي: إنها أصبحت كالدواء المسكّن بالنسبة لي رغم ما في الدواء من مرارة...

وثمة ما أقلقني ظهيرة اليوم ووضعني في دائرة الحرج: مفاتحة أنيس وضرغام الدكتور عابد الهاشمي بضرورة منحي المكافأة التي أستحقها عن محاضراتي لجامعة الإيمان، وأشاروا إلى أن وضع العراقيين يقتضي الانتباه إلى ذلك من الجهات التي تدعوهم... ولم أشأ أن أردّ عليهم وملت إلى السكوت على مضض فيما تصورته نوعاً من الكدية التي لا تليق بي... وقررت مع نفسي أن أتصل بالهاشمي لتوضيح الموقف المحرج هذا... وثمة أيضاً مكالمة ضحى اليوم من رئيس القسم يقول فيها أنه رتب مع العمادة أمر تخصيص سيارة لي تقلني إلى الكلية، فشكرته رغم أنني أميل إلى الاستقلال في ذهابي وإيابي...

أستكمل مذكرات اليوم... وأتلقى دعوة بالهاتف من صديق صحفي على العشاء فأعتذر عنها... وأتابع الاطلاع على بحث رئيس القسم عن السيرة، وأدون بعض الخطوط والملاحظات الأساسية فأحس بارتياح عميق. فها أنا ذا أضع الخطوة الأولى لإنجاز هذه المهمة قبل أن تستنزف وقتي وتسبب لي القلق وترغمني، كما كان الحال أيام الأردن، على الاعتقال في الغرفة الساعات الطوال... وأقول في نفسي: إنها رحلة رائعة حقاً، لولا بعض المنغصات التي يبدو أن لا بدّ منها: مخاوف أوجاع الكلية، ضيق النفَس والأرق عبر الليل، التشنج القاسي عبر المحاضرات، مخاوف الحصول على الجائزة الخليجية التي حدّثني عنها أحد الطلاب... قلق معاملة المكافأة المالية واحتمال عدم إنجازها قبل سفري.. التخوف من وصول إعلان جريدة الصحوة إلى الجهات المعنية في صنعاء، واحتمال استدعائي للزيارة وما قد يترتب عليها من ويلات، لا لشيء إلّا بسبب خطئي بالسماح لأحد المسافرين على الطائرة التي قدمت عليها أن ينقل نبأ وصولي إلى إحدى الصحف الإسلامية... هناك أيضاً لحظات الاكتئاب والتشتت وربما الضجر والرغبة في اقتراب موعد الرجوع والاستقرار في بيتي وبلدي بعيداً عن زحمة المطالب والزيارات والمواعيد والمخاوف والأضواء!

أتناول عشاءً لذيذاً من الجمبري، ثم أجلس باسترخاء في صالة الفندق أنقح في بحث رئيس القسم وأطالع في الصحف مرتاحاً لعدم زيارة أحد... ثم أمارس رياضتي وأقفل عائداً إلى الغرفة...

السبت: ١٢/١٦: لم أنم إلّا قليلاً بسبب ضيق النفَس، واستيقظت لصلاة الفجر وأنا أعاني من التوجس من احتمالات النزيف... عند السادسة والنصف استيقظت مترعاً بالقلق والاكتئاب: فهناك ضرورة الحضور في الثامنة وإلقاء محاضرتين على مدى أربع ساعات... وهناك انتظار جواب الطالب بخصوص الجائزة الخليجية... جاءتني سيارة الجامعة وأقلتني إلى هناك وألقيت محاضرة طويلة في مناهج البحث على طلبة الصف الثاني... رغم إعيائي وضيق نفسي إلّا أن طبيعة الموضوع، واعتماد الأسلوب المتقطع أعانني على اجتيازها بسلام.

وازددت ارتياحاً عندما دخلت على طلبة الماجستير، وأحسست بانسجام عميق أعانني على تقديم محاضرتين عن الاستشراق وهموم الدراسات العليا بإبداع وتمكّن، وبتجاوز لشدّ التشنج وضيق النفَس. وأحسست بانسجام الطلبة التام وعمق المحبة بيننا، وغادرت القاعة لكي ألتقي بالطالب الذي حدثني عن الجائزة، فإذا بها سوء فهم لصديقه حول عبارة وردت في نهاية كتاب الأمة.

وأحسست بالفرح يجتاحني بسبب تجاوزي محنة صعبة فيما لو كانت هناك جائزة كبرى، ورحت أدعو الله ﷻ أن يقيني شر الحصول على جائزة العويس... وزادني انسجاماً أن يتعهد رضوان، موظف العلاقات في الجامعة، بمتابعة جدية لمعاملة الكفالة...

وعدت إلى غرفة رئيس القسم لكي أبدي رأيي في خطتَي بحث لطالبة وطالب بانسجام وارتياح، ولكي أغادر الكلية في سيارة أحد طلبة الماجستير، وأجيء إلى الفندق لكي أتهيأ لغداء بوفيه. لم تكن شهيتي للطعام قد تفتحت له. فكتبت بعض الشيء ثم يممت وجهي صوب المطعم... وخرجت وأنا ألعن البوفيه والإسراف وملء المعدة بألوان لا تعد ولا تحصى دونما شهية حقيقية، الأمر الذي جعلني أحسّ بالقرف وأقرر عدم تناول العشاء تعويضاً عما حشرته في معدتي حشراً من مقبلات وطعام وحلويات فضلاً عن أذى التوابل والملح والسكريات...

استطعت أن آخذ قيلولة عميقة، ولكن ما لبث أن قطعتها عليَّ مكالمة من تعز من أحد الأصدقاء اليمنيين طالت أكثر مما يجب فأذهبت النوم من عيني.

قمت لأداء الصلاة وشرب الشاي واللجوء إلى المسكنات، وهي عندي العمل والإنجاز... ثم ما لبث رئيس القسم أن جاء لاصطحابي إلى جامعة العلوم لمناقشة مفردات مناهج التاريخ... وعندما فاتحته بموضوع المكافأة المالية واحتمالات تأخيرها طمأنني عليها فأحسست بارتياح عميق.

جرت المناقشات، على ما يرام وتم الاتفاق على عقد اجتماع آخر بعد الاطلاع المتأني على المناهج وصياغة المقترحات الدقيقة... وقبل أن نغادر

المكان تم ترتيب التفاصيل المتعلقة بمحاضرتي القادمة في جامعة العلوم، حيث اعتذرت عن نشر الإعلان عنها في التلفزيون والصحف خشية أن تفتح عليَّ الباب الذي يُدخِل عليَّ الهواءَ الباردَ...

وغادرت المكان بصحبة عميد التربية، حيث قمنا بجولة ليلية في سيارته، وانتهى بنا المطاف في فندق الشيراتون، حيث تجولنا في صالاته وحدائقه، وجلسنا لكي نتحدث ونشرب عصير الليمون، وكنت أحسّ بإعياء شديد ورغبة في النوم بسبب سهر يوم أمس والجهود المكثفة عبر هذا اليوم... وأوصلني إلى الفندق، فألقيت نظرة على المطعم فإذا بالبوفيه لا يزال قائماً، تجاوزت قرفه وخرجت إلى الغرفة مشتتاً قلقاً فأمامي بعض المطالب الملحّة، وبخاصة الإعداد للمحاضرة التي ربطني بها رئيس القسم على غير سابق موعد صباح يوم غد... كنت تعباً مرهقاً لكنني ما لبثت أن تناولت كمية من الموز، وقمت برياضتي اليومية، ثم شمرت عن ساعد الجد، فأنهيت المطالب المستعجلة وأحسست بالارتياح...

الأحد: كان نومي على تقطعه بضيق النفَس أحسن من الليالي السابقة، واستيقظت مبكراً لأتناول فطوري ثم أتجه مع رئيس القسم إلى الكلية، حيث ألقيت محاضرة في قاعة جمال أمام حشود كبيرة من الطلبة عن ظاهرة الفتوحات الإسلامية... بعد أن قدمني رئيس القسم بسخاء باعتباري منظّراً للتاريخ الإسلامي وصاحب مدرسة فيه... الخ... كنت متمكناً تماماً وتدفق الموضوع بشمولية وتماسك ولم أعانِ من متاعب التشنج وضيق النفس بحمد الله. وعندما أراد الطلبة طرح أسئلتهم طلبت أن تكون مكتوبة، ثم تم الاكتفاء بأخذ الأسئلة في جيبي وعدم الإجابة عليها!!

زرت المنتدى لمتابعة موضوع رعد الحيالي وتم الاتفاق على موعد مطول لزيارتهم... اتجهت وعدد من الأساتذة إلى حفل قسم التاريخ حيث استُقبلنا بحفاوة، ورحب بي أحد المشرفين على الحفل ودعاني للصعود إلى المنصة... وجّه إليَّ عدداً من الأسئلة فأجبت عليها وتلقيت تصفيقاً حاراً، ثم همست في

أذنه أنني سألقي عليهم قصيدة، ونالت القصيدة (مناجاة في زمن الغربة) استحساناً كبيراً وقوطعت بالتصفيق مراراً... ثم نزلت لمتابعة الحفل حتى الثانية عشرة حيث أعلن عن انتهائه...

استقبلت في القسم عدداً من طلبة وطالبات الدراسات العليا، وأشار أحدهم إلى أنه اشترى اثنين من كتبي يوم أمس، وإلى أن عدداً من مؤلفاتي موجود في مكتبات صنعاء، وطلب الآخر قائمة مؤلفاتي الكاملة بآخر الإصدارات، وقال ثالث أنه من قرأ كتبي وأنه تأثر كثيراً بكتابي عن ملامح الانقلاب... وعرض عليَّ آخرون خطط بحوثهم وموضوعاتهم للماجستير فناقشتهم فيها... وجاءت طالبة من قسم اللغة العربية كانت قد حصلت على الماجستير لتقول أنها تكتب في الأدب وأنها بخصوص كتابة رسالتها للدكتوراه في اللغة... وأنها تتابع كتاباتي وتسألني النصح... وتحاورنا في نظرية الأدب وأمور أخرى، ثم غادرت القسم عائداً إلى الفندق وشيء من الاكتئاب يتناوشني لا أدري لماذا... وتناولت البوفيه بشهية أكثر قياساً على يوم أمس.

وصعدت إلى الغرفة لأقرأ قليلاً، وأرفع سماعة الهاتف وأنام، فأمامي وقت طويل لكنه لم يكن نوماً مشبعاً، كان من النوع السطحي المتقطع، واضطررت إلى القيام وأنا أتلقى رشقات من الكآبة لكي أشمر عن ساعد الجدّ وأبدأ بملاحقة المطالب... فبذلك وحده أستطيع حصار القلق والاكتئاب...

ثمة محاضرتان أضافهما رئيس القسم إلى جدول الأسبوع القادم. وتحديد لمواعيد وعناوين المحاضرة العامة والسيمنار، وعرض للقيام برحلة خارج صنعاء يوم الثلاثاء القادم... أعتذر عنها بسبب ارتباطي بموعد على الغداء، فيطلب تغييره ولكنني لا أحسم معه الأمر خشية إزعاج صاحب الدعوة... أنجز المذكرات وأصفي العديد من المعلقات وأكاد أن أكمل مقدّمتي لكتاب رئيس القسم فأحس بسعادة وارتياح بالغين، وأتصل بالهاشمي وأصفي معه ورطة مكافأة المحاضرات بالشكل الذي أرتاح إليه تماماً، ويتصل بي الدكتور منير البياتي فأرتب معه محاضراتي الثلاث في جامعة الإيمان...

ثم يدق عليَّ الهاتف حيث ينتظرني دكتور طارق وبعض الضيوف، فأنزل اليهم سعيداً متخففاً بعد إذ تناولت ما يمكن تسميته بفاليوم المفكرين والكتاب وهو الإنجاز، ويدور حوار طيب ويلحق بهم دكتور عمار يوسف، حيث أؤكد معه الموعد بسبب إحراجه بالتأخير، فأتجاوز قلق التأرجح بين الذهاب والاستجابة لرحلة رئيس القسم.

وأودعهم عائداً إلى الغرفة لتنفيذ المزيد من الإنجاز وأتناول عشائي في الغرفة: شيئاً من الموز وفستق العبيد تجاوزاً لقرف البوفيه... ثم أخرج لتنفيذ رياضة المشي، وأعود لأشهد التلفزيون، وأسلم نفسي لنوم عميق لم أعرفه منذ بداية وصولي صنعاء!

الاثنين: أستيقظ على الكآبة إياها وأتساءل: أهي حالة مزمنة أم أن وراء الاكتئاب سبب ما؟ لقد صفيت العديد من الهموم والمعلقات، وسددت معظم منابع القلق، فلماذا لا أستيقظ سعيداً؟ وأجد نفسي مرغماً على تذكر مدينتي وأحن إليها وإلى شوارعها ومقاهيها، وأقول لعلّي سأحظى بالفرح الضائع لدى الاستيقاظ عندما أعود بإذن الله، فلا أجد أيما شيء يقلقني، خاصة بعد اعتزامي إعادة ترتيب حياتي والكف عن اللهاث المجنون وراء مطالب الإنجاز التي لا تنتهي، والتي بدأت رحلتها المعذبة منذ عشرات السنين!

أتناول فطوري بدون شهية كالعادة، ويجيئني السائق لكي يقلني إلى الكلية... أتلقى دعوة لحضور مهرجان الطلاب الشعري، ولكن المحاضرة تقف في طريقه فأتجه إليها... أبدأ محاضرتي عن ضوابط إعادة كتابة التاريخ الإسلامي. فإذا بي أتلقى سؤالاً من طالب تبدو عليه آثار التشنج العصبي، وإذا بمفردات سؤاله تنصب في دائرة الكراهية الصفراء لثوابت العصر الراشدي من مثل اعتبار الردة حركة شعبية ومسألة التاريخ الديني!! الخ... أتمالك نفسي لكنه عندما يذكر الرسول (ﷺ) دون أن يصلي عليه أصرخ فيه بعصبية قل (ﷺ). فيقولها بامتعاض.

فما يكون مني إلّا أن أصب عليه حمماً من نار الغضب، وأجدها فرصة

للحديث عن المكانة والشرف اللذين قدمهما لنا رسول الله قبالة عصور الحكام والطواغيت، الذين ضيعوا كل شيء، وأن المرء فيهم ليقف أمام صاحب السلطان مرتجفاً معظماً، ولا يمنح المعلم الأكبر ما يستحقه من تقدير...

كانت كلماتي تتدفق كالحمم، وحاول الطالب أن يرفع يده فلم أعطه الفرصة، ثم ما لبث أن تبين لي أنه يريد مغادرة القاعة، فتركته يخرج وواصلت المحاضرة، لكن حالة التشنج والإعياء وضيق النفَس سرعان ما حاصرتني وحولت بقية المحاضرة إلى معاناة باهظة.

وقال اثنان من الطلبة أن الطالب المذكور قد لا يكون متعمداً، فأبديت لهما تقديري ووعدتهما بأنني سأتكلم معه فيما بعد... ويممت وجهي صوب قاعة المهرجان الشعري، ومنها إلى القسم، حيث تلقيت تقويماً لقصيدتي التي ألقيتها يوم أمس من عميد الكلية الجديد وأحد الأساتذة، وحيث طلب رئيس القسم محاضرة عامة أخرى. أشار به عليها العميد الجديد فأعربت عن استعدادي...

وطمأنني رئيس القسم بخصوص المكافأة وأنني سأتسلمها في وقت قريب، حتى لو اقتضى الأمر تقديمها من الجامعة مباشرة قبل استكمال الإجراءات... فأحسست بالمزيد من الارتياح، وعدت إلى الفندق لكي أكتب قليلاً وأتجه إلى المطعم لتناول بوفيه بقدر من الشهية، وأعود لأحظى بقيلولة طيبة أستيقظ بعدها لمواصلة الإنجاز، الذي لم تبق منه سوى مطالب محددة، قد أتحرر بعدها وأحظى بالمزيد من الجولات، التي عرضها عليَّ رئيس القسم ودكتور ضرغام وحتى طلاب الدراسات العليا... وثمة إحساس بالندم على افتراس أيامي ها هنا بمطالب العمل، حيث لم يتح لي حتى التجوّل في حدائق الفندق والشوارع المحيطة به والذهاب إلى السوبر ماركت القريب... وأقول في نفسي: أتراني أظل أضيع فرص العمر باللهاث وراء الإنجاز فإلى متى؟!.

أحس بارتياح عميق بإنجاز معلّقات أخرى... ويجيئني عند العشاء عدد من الأصدقاء لتناول العشاء لدى دكتور طارق العوسج (ﷺ)، حيث تدور أحاديث

شتى في الطريق. وبعد عشاء طيب نستمع لتفاصيل عن النشاط الإسلامي في أمريكا وعن الانكسارات والشروخ التي تعاني منها هذه الدولة المهيمنة، والاحتمالات المستقبلية التي قد تنزل بها من موقعها العالي.

كان حديثاً خصباً وممتعاً... وتلقيت عبر الأمسية تقويمات سخية عن مؤلفاتي وتأثيرها وتم التعرف على المزيد من الأصدقاء. ثم قفلت عائداً إلى الفندق لأتلقى هاتفياً دعوة من صديق لرحلة إلى مأرب أطلب تأجيلها، ودعوة أخرى صبيحة الخميس لزيارة إحدى المدارس لمشاهدة إحدى الاحتفالات، فأوافق عليها، ثم أنفذ رياضيتي وأجلس قليلاً إلى التلفاز ثم أسلم نفسي للنوم فغدا أنا على موعد مبكر لرحلة صباحية مع رئيس القسم.

الثلاثاء: استيقظت صباحاً وقد فاتتني صلاة الفجر فقد غرقت في النوم...

الخروج أعادني إلى دائرة القلق مرةً أخرى... فها هو ماء المرحاض يميل إلى الحمرة القانية، ثم ما لبث أن تذكرت سلاطة الشوندر فأحسست بقدر من الاطمئنان... تناولت فطوري ورحت أنتظر رئيس القسم الذي ما لبث أن جاء ليقلّني واثنين من منتسبي القسم في رحلة طيبة إلى منطقتي ثلا وكوكبان الجبليتين التراثيتين... اجتزنا القريتين على ارتفاع شاهق ألقى الخوف في قلبي لعدة دقائق، والتقطنا عدداً من الصور التذكارية وجلسنا لتناول الموز والشاي عند حافة المرتفع وجرت أحاديث طيبة، ثم ما لبثنا أن قفلنا عائدين حيث رحت أقرأ عليهم قصيدة (المحطات الأخيرة) بطلب منهم. ولكنهم على ما يبدو لا علاقة لهم بالشعر من قريب أو بعيد... وأخذ القلق يحاصرني بسبب فوات الموعد الذي ضربته في الفندق مع عمار، وقلت في نفسي إنه مكتوب عليَّ أن أتلقى المنغصات بأي ثمن...

ووصلت الفندق لكي أجد ورقة من دكتور عمار تعلمني أنه انتظرني وأنه سيعود إليَّ كرةً أخرى... أسرعت بتجديد الوضوء والصلاة ثم خرجت لاستقبال عمار، وما لبث أن جاء بمعية ضرغام، اعتذرت بحرارة فلم أجد منهم أي لوم.

واتجهنا إلى بيت عمار حيث اجتمع حشد طيب من الأصدقاء وتلقيت تقويمات عديدة، ثم تناولنا غداءً شهياً ورحنا نلتهم الفاكهة وسط الأحاديث والنكات...

وبعد صلاة العصر زرنا دار الاستراحة فلم أجد فيها بأساً. ثم يممنا صوب بيت ضرغام، حيث قضينا وقتاً طيباً ثم ما لبثوا أن أوصلوني إلى الفندق... بعد أن كلفني أحد الأساتذة بكتابة مقدمة لكتاب عن الاستشراق فوعدته خيراً...

ألقيت بنفسي على السرير، فقد كنت في أقصى حالات الإعياء والرغبة في النوم، ولكن كيف والدكتور التونسي سيجيئني بعد قليل؟ اتصل بي دكتور عبد الغني عميد كلية التربية ودعاني لحضور احتفال في ذكرى الانتفاضة، فاعتذرت بسبب الموعد. كما أتصل مسؤول الاتحاد في جامعة العلوم لتأكيد محاضرة يوم غدٍ. وما لبث الدكتور محمد التونسي أن جاء وأقلنا تاكسي إلى بيته، وفاجأني بأن أحداً من أصحابه لن يأتي في هذه الليلة بسبب ارتباطاتهم، ودعاني لبيته مرةً أخرى للتحدث إليهم فاعتذرت... كنت متعباً وتناوشتني الكآبة بعض الشيء ثم ما لبثت أن غرقت في مقابلة حوارية في الكاسيت، حيث أجبت عن العديد من أسئلته وأسئلة زوجته، التي قالت بأنها سترسَل إلي إحدى المجلات اللبنانية...

وبعد تناول العشاء غادرت البيت بصحبته صوب الشارع العام للبحث عن تاكسي، ولكن عمار ما لبث أن فاجأنا بمروره وأعرب عن استعداده لإيصالي...

في الفندق وجدت في نفسي القدرة على إنجاز عدد من الأعمال الكتابية واستعدت حيويتي بحمد الله... وبعد متابعة الأخبار غرقت في نوم عميق...

الأربعاء: قضيت ليلة قاسية مع ضيق النفس الحادّ، ولم يدعني أنام إلّا في الهزيع الأخير، وفاتت عليَّ صلاة الفجر مرةً أخرى... استيقظت على كآبة ثقيلة لا أدري سببها... حاولت دفعها فلم أقدر وقلت في نفسي إلى متى أهدر الفرص الجميلة في حياتي؟ ولكنني ما ألبث أن أجيب بأن الأمر ليس بيدي...

تناولت فطوري وأعدت النظر في الخطوط العريضة لمحاضرة اليوم في جامعة العلوم والتكنولوجيا عن (المنهج الجديد لدراسة حضارة الإسلام). وجاءني السائق لكي يقلني إلى هناك... لم أجد أحداً في استقبالي فانزعجت بعض الشيء، ثم ما لبث أحد الطلبة من الاتحاد أن اصطحبني مرحِّباً إلى القاعة العليا... أحسست بضيق شديد في أنفاسي وتناوشتني وساوس شتى بسبب ما قيل عن قلة الأوكسجين في صنعاء لارتفاعها الكبير، وتخوفت من احتمالات النزيف والنزيف الدماغي، وقلت في نفسي لا عاصم إلّا الله ﷻ...

ما لبث أحد الأساتذة ومسؤولي الاتحاد أن قدموا وحضر عدد طيب من الطلاب، وألقيت محاضرتي بتمكّن ودونما أي قدر من التوتر، لكن ضيق النفَس المعهود ضيّق عليَّ بعض الشيء، وجرت مناقشات مخلصة بعد المحاضرة. ثم ما لبثت أن أعتذرت بسبب ضيق الوقت والإعياء وأنا أقارن في نفسي بين إخلاص هؤلاء الطلبة وتشبثهم بالحق واحترامهم للثوابت، وبين ضياع الكثير من طلبة قسم التاريخ في كلية الآداب وانحلالهم الفكري...

نزلت لتوديع مساعد مدير الجامعة فاستقبلني بحفاوة بالغة ولحقه رئيس جمعية الإصلاح الخيرية ـ التي أنشأت هذه المؤسسة الواعدة ـ الدكتور طارق سنان، الذي حدثني عن مشاريع الجمعية المكثفة ورحب بي بحرارة...

وأعربت لهم عن إعجابي بالتجربة وأن الجامعة واحدة من النماذج القليلة في ديارنا العربية والإسلامية رغم عمرها القصير، وأن أسلوب الخدمات الاجتماعية والعلمية لهو الأسلوب الأكثر عطاءً في دائرة النشاط الإسلامي. وقلت لهم بأن يعتبروني جندياً في جامعتهم هذه. ثم غادرت المكان لكي يقلني السائق إلى قسم التاريخ، حيث لم أجد العميد لتسليمه سيرة الحياة والجدول الأسبوعي بخصوص معاملة المكافأة، فقفلت عائداً إلى الفندق لتناول وجبة غداء شهي من المايونيز والجمبري، حيث لم يرتب البوفيه المقرف هذا اليوم بسبب مغادرة الكروب السياحي والحمد لله.. لكن ثمة ألم خفيف في ضرسي الأيسر بدأ يتناوشني منذ عدة أيام ويسبب لي بعض القلق...

استطعت أن أحظى بقيلولة رائعة لمدى ساعتين. ولما استيقظت في الرابعة وجدتني أتلقى رشقات خفيفة من الكآبة، ما لبثت أن طردتها بالتشمير عن ساعد الجد والبدء بمتابعة بقايا المعلّقات الكتابية... حيث كانت تقطع عليّ العمل مكالمات من العديد من المعارف والأصدقاء، الذين يطلبون موعداً للقاء... تماماً كما حدث في القسم هذا اليوم، حيث طلب أحد الصحفيين إجراء مقابلة معه فأعطيته موافقة مبدئية...

وخلال ثلاث ساعات كدت أنجز كل المعلّقات المتبقية، وأحسست بارتياح عميق ونزلت لاستقبال ضيوفي: الأشقر وأصحابه، حيث جرت أحاديث خصبة وحيث وضعني الرجل في تقويمه السخي في مصاف الغزالي والقرضاوي والبوطي... وما لبث أن جاءني دكتور عصام الكاتب وابنه، حيث امتدت الأمسية حتى الحادية عشرة، وترددت في تسليم أربع مقالات للأشقر لتقديمها لمجلة النور، وذلك بسبب الحساسيات المالية، لكنني ما لبثت أن ملت إلى تقديمها للواسعي نفسه، فعسى أن تجيئني بمكافآت مجزية... أتناول عشائي في الغرفة: وجبة سندويتشات شهية تدعى (تلال حدة) ثم أقوم برياضة المشي وأشاهد نشرة الأخبار وأسلم نفسي للنوم...

الخميس: ١٢/٢١: شدد عليّ ضيق النفَس الخناق في النصف الثاني من الليل واستيقظت وأنا أدافع الاكتئاب... وبعد الفطور جاءني اثنان من الأصدقاء لنذهب إلى مدرسة هايل لحضور احتفال بمناسبة الإسراء والمعراج... كان الاحتفال جيداً وآلاف الفتيان والفتيات منتشرين في الفناء. وجلست مع المدعوين وتم الترحيب بوزير التربية وبي، وقال العريف مرحباً: «إنه ضيف اليمن الكبير» وأنا أردد مع نفسي ذلك من فضل الله يؤتيه من يشاء، وكادت عيناي تدمع وأنا أستمع لأناشيد الطلبة المؤثرة متذكراً مقاطع من حياة رسول الله (ﷺ)... وتم التعرف على أمين العاصمة وعدد من كبار المدعوين، وتلقيت تقويمات سخية ودعوة من عميد كلية التربية لإلقاء محاضرة هناك... وقال أحد مدرسي التاريخ أنه يتابع كتاباتي بشغف...

وقمنا لزيارة المعارض، حيث قُدمت هديتان قيمتان إحداهما لي والأخرى لوزير التربية، وغادرت المكان لكي أقدم اللوحة الجميلة هدية لقسم التاريخ.. وزارني أستاذان من العراق يعملان في اليمن: مدرس تاريخ ومدرس فيزياء، ودعواني لتناول الغداء فاعتذرت... كنت قد بلغت أقصى حالات الإعياء وحصار النفَس.. كما هو شأني دائماً عندما تزدحم المناسبات والتقويمات والزيارات والمطالب وأجد نفسي في مركز الضوء والجهد معاً... وأقول في نفسي: لربّ جلسة منفردة في مقهى عتيق في مدينتي بعيداً عن الأضواء والناس، وحيداً مع الكتابة والكتاب خيرٌ لي من هذا كله... ثم ما لبثت مع رئيس القسم وعدد من التدريسيين أن غادرنا الغرفة ميممين صوب إحدى القاعات لإلقاء محاضرتي في السيمنار المخصص لتدريسيي وطلبة الماجستير...

وفوجئت بوجود كل الخصوم الذين أحمل حساسية حادة تجاههم: الهبو العلماني وأحمد اليساري وفائز النصراني والطالبان الشيوعيان الخبيثان... وتذكرت اللحظات القاسية زمن السيمنارات في كلية الآداب والصراع القاسي ضد خضر الدوري وأصحابه المنحلين فكرياً، وتوجسي المبالغ فيه من الهزيمة، وضرورة أن أخرج منتصراً بأي ثمن، وإلّا عرّضت عقيدتي وقناعاتي لرياح السموم...

قدّمني رئيس القسم بسخاء وبدأت أتكلم عن المنهج الجديد لدراسة حضارة الإسلام، وفتح الله ﷻ عليَّ فانطلقت بتدفق وتمكّن وإمساك بتلابيب الموضوع أعرض وجهات نظري في المشروع المقترح... وبدأت الأسئلة... ولكني رددت عليهم واحداً واحداً بما منحني القناعة والفرح والرضا... ومن عجب أن المذكورين جميعاً أساتذة وطلبة دراسات عليا كانوا من بين المناقشين...

وغادرت القاعة وأنا أكاد أطير على جناح الفرح الطاغي. والتقطنا صوراً تذكارية في حدائق الكلية... إحداها وأنا أضع يدي على كتف أحد الطالبين الشيوعيين، لعلّه يتذكر يوماً أن المحبة الإسلامية هي فوق كل الضغائن والأحقاد...

وغادرت الكلية بمعية رئيس القسم، ولحقني طالب دراسات عليا يريد رأيي في موضوعه للماجستير... وأكد لي رئيس القسم أن مكافأتي التي طالما سببت لي القلق لاحتمال عدم دفعها في الوقت المناسب، مضمونة وأنه لا ضرورة للقلق بشأنها... ودخلت الفندق سعيداً فرحاً... ثم خرجت إلى المطعم لتناول الطعام... كان يقف هناك أحد العاملين فنقل لي تقويم ابن عمه في محاضرتي في جامعة العلوم، فحمدت الله في سرّي على ما حباني من فضلٍ... وتذكرت حديث رئيس القسم خلال العودة حول تعليق رئيس الجامعة، فانقبضت بعض الشيء قائلاً في نفسي: يبدو أن ليس ثمة مكان في هذا العالم يخلو من الحساسيات والصراعات والمنغصات...

لقد اعترض الرجل على لقائي برئيس جامعة العلوم وعميد التربية فيها، كما أعرب عن عدم ارتياحه لإلقائي محاضرة هناك!! وبدأت بتناول الغداء... وأزعجني ألّا أجد في السمك اللذيذ الي أردته بدون صلصة ذرة من ملح، وأحسست بالقرف، وغابت شهيتي، ورجت أكداس الطعام في معدتي دون تلذذ... وقلت لعلها بدايات رد الفعل المعهود في أعقاب كل تجاوز لمعضلة ما... وأخذت عهداً على نفسي ألّا أسرف بعد اليوم في الطعام فأضعها في الحالة إياها... رجعت إلى الغرفة لكي أسلم نفسي لقيلولة عميقة وأستيقظ بعدها دون أي قدر من الاكتئاب. فها أنا ذا اليوم على موعد في بيت دكتور عابد الهاشمي لتناول العشاء وقضاء الأمسية مع ثلة من الأحبة... فأين يكون الاكتئاب سيما وقد أنجزت كل المعلقات تقريباً، وتجاوزت بئر السيمنار العميق!!

أنجزت كتابة مذكرات اليوم والقسم الأخير من مقدمتي لكتاب رئيس القسم عن السيرة والراشدين وأحسست بارتياح عميق... وعند المغرب اصطحبني دكتور عابد إلى مركز البحوث التابع لجامعة الإيمان، فتلقاني مديره الدكتور الزنداني والعديد من الأساتذة السودانيين واليمنيين والسوريين بالترحاب العميق، وأكدت على دكتور منير موضوع محاضرتي المقترحة

للجامعة، كما سلّمت مقالاً لدكتور عباس محجوب ليتولى نشره في إحدى الصحف السودانية.

ثم غادرنا المكان إلى بيت دكتور عابد، حيث تناولنا عشاءً طيباً وقضينا واحدة من أجمل الأمسيات في رحلتي هذه، تم فيها تبادل الجّد والهزل والأحاديث الشيقة في التاريخ والمذاهب والأدب، وانضاف إلينا رئيس قسم الدراسات الإسلامية في كلية التربية رغبةً في التعرّف عليَّ، وأعرب عن إعجابه وتقديره لمؤلفاتي، وتساءل عن أعمالي الأخيرة كما طلب إلقاء إحدى قصائدي. فألقيت قصيدة (والموعد الله) وتناولنا الفاكهة، واستمرت الأحاديث الطيبة وأعرب الحاضرون عن سعادتهم بوجودي...

ووجه دكتور رياض البنّا دعوة على الغداء قبلتها بعد إلحاح، وتسلمت عدداً من الكتب هدية من دكتور عابد، ثم ما لبث أن أوصلني إلى الفندق، لأمارس المشي في ساعة متأخرة وأقضم كمية كبيرة من الفول السوداني، وأشاهد لقطات من التلفاز، ثم أسلم رأسي للنوم بانتظار موعد يوم غدٍ مع دكتور ضرغام للقيام بجولة في صنعاء إن شاء الله...

الجمعة: ١٢/٢٢: استيقظت سعيداً فأنا على موعد مع دكتور ضرغام وحسين الليلة لجولة في صنعاء، وانطلقنا إلى صنعاء القديمة مخترقين أزقتها التراثية، ومطّلعين على أحد دورها العتيقة، ثم زرنا مسجدها الكبير واستمعنا إلى طفلة تحدثنا بذاكرة حادة عن الأحاديث التي قيلت في عليٍّ (رضي الله عنه) والتي أُلصقت به زيفاً وبهتاناً...

تحولنا إلى السوق واشترينا عدداً من الدروع وسألنا عن بضائع أخرى. واتفقنا على القيام بجولة أخرى للشراء بعد إذ أدركنا الوقت... فصلينا الجمعة في جامع الشهداء الذي يمثل واحداً من أروع ما رأيته من الجوامع في حياتي، ثم عدنا إلى بيت ضرغام لكي نتناول مع حشد من الأصدقاء غداء شهياً من الرز والجمبري والفاكهة، ونقضي وقتاً طيباً في أحاديث الجد والهزل، ونستمع

لقصيدة لحسين تعد بإمكانية طيبة... بعد صلاة العصر خرجت وعائلة دكتور أنيس الليلة لشراء الشيكولاتة وبعض الملابس...

كنت متعباً إلى حد كبير، ضجراً من مسألة المشتريات والصبر الطويل لزوجة أنيس في المعاملة والمتابعة.. وقلت في نفسي إن قضية المشتريات هذه لهي واحدة من أتعس الحلقات في رحلاتي... وازددت ضيقاً بعد إذ فشلنا في شراء الدشاديش المناسبة، أما النساتل فقد اشتريت المطلوب وأحسست بقدر من الارتياح لعدم ضياع وقتاً عبثاً... صلينا المغرب في جامع هناك ثم عدنا إلى البيت لنتوجه مباشرةً لزيارة أحد الأساتذة، حيث دارت أحاديث شتى...

ثم توجهنا إلى الفندق، حيث جلسنا نتحدث ونأكل الآيس كريم، وزارني الشيخ الواسعي وسلمته أربع مقالات للنور، وارتحت للتلميح له بالطريقة التي يرسل بها المكافآت، وزادني ارتياحاً أن أتلقى عدة مكالمات تم فيها تثبيت مواعيد محاضرة المعهد العلمي صباح الغد، وزيارة محرري الصحوة مساءً، والذهاب بمعية رئيس القسم إلى إدارة الجامعة لمتابعة معاملة المكافأة ضحى...

وجاءني رعد وأحد أصدقائه فاستكملت الأمسية بمعيتهم... ثم عدت إلى الغرفة متعباً، لكي أسلم رأسي لنوم عميق فوّت عليَّ صلاة الفجر...

السبت: استيقظت على الكآبة إياها وتناولت فطوري ثم اتجهت بالسيارة إلى الكلية، حيث ألقيت محاضرتي للصفوف الثانية عن منهج البحث، وما لبث أن جاءني رئيس القسم لأخذ جواز السفر... وبعد الانتهاء من المحاضرة صعدت إلى القسم، حيث عاد رئيس القسم ليصطحبني إلى إدارة الجامعة...

كنت مشدود الأعصاب بسبب ضيق الوقت وضرورة إنجاز المعاملة والعودة ثانية إلى القسم في غضون نصف ساعة، حيث سيجيئني صديق يصطحبني إلى المعهد العلمي لإلقاء محاضرتي...

وهناك في إدارة الجامعة حدثت بعض التأخيرات، وفوجئت باعتراضهم على المدة وضرورة أن أكمل الشهر كله أو أتنازل عن حقوقي للفترة بين (٢٩/

١٢ و١/٨)، وكدت أتعرّض لخسارة مادية قاسية لولا مجيء العميد السابق في اللحظة المناسبة ووقوفه ومساعد مدير الجامعة ورئيس القسم بإخلاص من أجل حصولي على المكافأة كاملة...

وبعد دقائق من القلق تم الاتفاق على عدم ذكر تاريخ مغادرتي الفعلي واعتبارها شهراً... غادرت ورئيس القسم الإدارة وأنا أحسّ بسعادة غامرة، وقلت له على سبيل الاحتياط أن بمقدوري إذا أصرّت الإدارة على المدة أن أبقى فترة أخرى... اتجهت والصديق إلى بناية المعهد العلمي، حيث استُقبلت بحفاوة بالغة وتلقيت تقويمات سخية. وقال أحدهم أنهم تربوا على مؤلفاتي وأن بعضها كان يقرأ عبر الحلقات والرحلات...

وصعدنا إلى المسجد لكي نجد أنفسنا قبالة حشد كبير من الطلبة، حيث تم تقديمي من قبل أحد المدرسين مشيراً إلى أنني ربيت بفكري جيلاً من الإسلاميين... وكنت في سرّي أحمد الله على هذه النعمة، قبل أن أبدأ بإلقاء محاضرتي عن دراسة الحضارة كأسلوب لاستعادة الثقة، حيث تدفقت الأفكار والكلمات بانسيابية وتمكّن، مع شيء من الإحساس بالجهد.

وأنهيت المحاضرة وأنا أحسّ بسعادة بالغة، وأوصلني عدد من الأصدقاء إلى الفندق بعد أن اعتذرت عن دعوة للغداء...

تناولت غداءً طيباً وفق خطتي الجديدة، التي تعتمد على عدم الإكثار من الطلبات، ثم عدت للغرفة لكي آخذ قيلولة طويلة لكنها متقطعة، ثم أستيقظ عصراً على رشقة من الكآبة سرعان ما امتصصتها بالعمل... وعند المغرب جاءني أحد العاملين في المنتدى، فاتجهنا إلى هناك، حيث دار حوار خصب في مختلف الموضوعات تدفق فيه الكلام على لساني، وقال مدير الصحيفة أن كتاباتي تتميز بالعمق الذي قد لا يدركه القارئ العام، فبينت له الأسباب من مثل تأثيرات الأكاديمية، وعدم إتاحة الفرصة للخصم باتهام الكتابات الإسلامية بالتضحل...

وودعتهم وعدت إلى الفندق لأجد صديقاً من جريدة اليقظة بانتظاري،

واتجهنا سوية إلى إدارة المجلة، حيث التقيت بحشد من الصحفيين والأدباء والمثقفين... وتلقيت تقويمات سخية وحشداً من الأسئلة بخصوص الأدب الإسلامي والوضع العالمي والقضية الفلسطينية، فأجبت بتدفق وعمق ثم طلبت الاستماع إلى قصيدة من أحد الشعراء وكان قد أهداني ديوانه... وانتهت الجلسة بأن يسألوني عن بطاقتي الشخصية ومشاريعي القادمة... وبأن قرأت عليهم اثنتين من قصائدي. ثم قفلت عائداً إلى الفندق وسط إحساس قاسٍ بالاكتئاب لم أستطع دفعه إلّا بعد وقت طويل... استمعت إلى النشرة الإخبارية في التلفزيون، بعد أن تناولت عشائي في الغرفة من السندويتش، ثم انكببت على العمل حتى ساعة متأخرة من الليل...

نسيت أن أذكر بأن هاجس التخوف من احتمالات النزف والمتاعب القلبية من جراء ارتفاع صنعاء حاصرني بعض الوقت...

الأحد ١٢/٢٤: استيقظت على رشقات قاسية من الكآبة والقلق... الكآبة معروفة ولكن لماذا القلق؟ لعل السبب في كثرة المعلقات التي تتطلب حلًّا سريعاً: التوفيق بين تثبيت الحجز على الجمعة واحتمالات طلب تمديد بقائي... احتمال تأخر معاملة المكافأة وضرورة تحريكها بشكل أسرع... الاتصال بعميد التربية لترتيب موعد المحاضرة العامة... محاضرتي عن نشوء الحضارات في كلية الآداب... ضرورة زيارة المقالح رئيس الجامعة... تهيئة دواوين البرذوني لحكمت صالح... استكمال المسواق المعلق... اتخاذ قرار بصدد شراء جهاز التسجيل وتجاوز التردد، معضلة المحاضرات المعلقة في جامعة الإيمان وضرورة حسمها والتردد في مفاتحة إدارييها...

وتناولت فطوري بدون شهية على الإطلاق كمعظم الأحيان، وانتظرت السائق فلم يأت، فركبت الدباب وأنا في أقصى حالات القرف، ونفاد الصبر، والضيق النفسي والرغبة في التحرر من كل التزام، تماماً كالحالة التي بلغتها أيام متابعتي للرحلة في الموصل...

ورغم أنه لم يتبق أمامي سوى أيام قلائل، فإني رحت أتصوّرها دهراً

طويلاً يصعب عبوره... وحلمت بالاستقرار في مدينتي والانعزال في مقاهيها بعيداً عن الهموم والمطالب والملاحقات والقلق، التي افترست من حياتي مساحات واسعة...

وصلت الكلية وبعد قليل توجهت وأحد أساتذة القسم إلى القاعة، ففوجئت بقلة ملحوظة في الحضور... وبدأت محاضرتي بعد أن قدّمني الأستاذ اليساري (!!) ورحت أتكلم بتمكّن وهدوء دونما أي قدر من التشنج أو الإعياء... واحدة من أبدع المحاضرات في حياتي... وتلقيت بعدها أسئلة مكتوبة حسب طلبي، أجبت على معظمها ثم أنهينا اللقاء...

تقدم الكثيرون من الأساتذة والموصليين والشيوخ، كالواسعي وغيره للإعراب عن تقديرهم... واتجهت إلى القسم بصحبة عدد من الأصدقاء من الموصل، حيث حصلت على دواوين البرذوني، والمبلغ الذي استبدله لي حسين، كما رتبت موعد وعنوان محاضرتي في التربية، وأحسست أنني أطفأت منابع عديدة للقلق... وتزاحم عليَّ الطلبة، وراح أحدهم يعرض عليَّ موضوعه للماجستير لكي أبدي رأيي في خطته، وقال آخر أنه سيجيئني غدا ببحثه، وتقدمت طالبتان لكي تبديا إعجابهما بمحاضراتي ومؤلفاتي وأنهما قرأتا الكثير منها، وجرى تعارف مع أستاذ التاريخ الحديث وتبادل للعناوين... وطلب آخر قصائدي لتصويرها...

ووقفت لحظات مع رئيس القسم للتأكيد عليه بضرورة تحريك معاملة المكافأة في الإدارة قبل أن يفوتني الوقت، فوعدني بأنه سيصطحب العميد معه يوم غد لمتابعة الموضوع، أما بخصوص تثبيت الحجز فيمكن إجراؤه ولن يؤثر ذلك على إمكان تمديد بقائي...

وغادرت القسم في سيارة أحد طلبة الماجستير وأنا أحسّ بارتياح وأسترجع بعض فرحي الضائع... تناولت غدائي الذي لم يتجاوز كالعادة الجمبري المقلي الذي بدأت أملّه، وجرى الحوار كالعادة أيضاً مع جارسون المطعم المثقف ذو التوجه الإسلامي الطيب... وعدت إلى الغرفة لكي آخذ

قيلولة متقطعة، وأستيقظ بعدها لإنجاز بعض المهام وشرب الشاي، وإجراء عدد من المكالمات الهاتفية للعديد من أولئك الذين زاروني ولم يجدوني، ولأولئك الذين لا يزالون يلاحقونني لإلقاء محاضرة هنا أو هناك معرّبين عن محبتهم واعتزازهم...

وعند الغروب يممت وجهي وطالب الماجستير إلى جامعة العلوم والتكنولوجيا، حيث اجتمعت واللجنة المشكلة لتوصيف مناهج التاريخ لإنهاء المهمة... وبعد عدة ساعات من تبادل وجهات النظر بألفة ومحبة أنجزنا المطلوب، وسمعت من رئيس القسم ما يوحي بأن هناك مكافأة ما على هذا الجهد...

وعدت بمعية رئيس القسم، حيث أكدت على ضرورة معاونة دكتور عبد الرحمن الحجي ودكتور محسن عبد الحميد لتحقيق فرصة لهما في كلية الآداب فوعدني خيراً، وقدّم لي هدية قيمة: الخنجر والحزام اليماني التراثي، وقطعة قماش وكمية من القهوة اليمنية... وشعرت بأنه أضاف إلى أعبائي عبئاً جديداً في المواد التي سأحملها معي عبر الطريق الطويل...

ودخلت الفندق مرهقاً مثقلاً وأنا أعاني قلقاً من الآلام التي أخذت اليوم تداعب ظهري، ولم أكن أعرف تماماً هل هي الكلية أم الفقرات؟ وكان يستقبلني في صالة الفندق دكتور عمار يوسف واثنان من الأساتذة جاؤوا لزيارتي، أحدهما من اليونسكو الصحية والآخر دكتور في الفيزياء... بعدها تناولت عشاءً في البوفيه ثم جلست قليلاً في الصالة.

وعدت إلى الغرفة حيث ينتظرني العديد من الأعمال... ورحت أصفيها الواحدة تلو الأخرى، وأنا أشعر باستعادة توازني النفسي شيئاً فشيئاً وتجاوز حالة القلق والاكتئاب... واتصلت بأحد الزائرين أعتذر عن عدم وجودي فإذا به في مركز متقدم مسؤولاً عن الثقافة والإعلام في جمعية الإصلاح، فطلبت منه زيارة أخرى فأعرب عن ترحيبه وامتنانه.

كما اتصلت بالدكتور عبد الغني عميد كلية التربية أطمئن على صحته بعد

إصابته بالانزلاق الغضروفي. فإذا به يلحّ عليَّ بضرورة القيام برحلة إلى عدن وحضرموت بالطائرة، وأنه بمجرد موافقتي سيفاتح مدير الجامعة بالأمر. فوعدته خيراً في حالة تمديد بقائي. ثم انكببت على كتابة المذكرات قبل أن أجلس قليلاً إلى التلفزيون لسماع الأخبار... ثم أسلم نفسي لنوم متقطع بسبب حصار ضيق النفَس...

الاثنين: استيقظت على قدر من الارتياح بخلاف يوم أمس... تناولت فطوري ثم اتجهت إلى الكلية، حيث ألقيت محاضرة محايدة عن الأدب والتاريخ لطلبة الصف الرابع، وكانت واحدة من أنجح المحاضرات الصفية، ولم أشعر خلالها بأي تشنج أو إعياء... خرجت إلى القسم لأجد حشداً من الطلبة والمعارف بانتظاري. وكانت البداية السعيدة بشرى رئيس القسم بحسم موضوع المكافأة بمعية العميد واحتمال تسلّمها يوم غدٍ، وتثبيت الحجز وتجاوز إشكالية البقاء لأسبوعٍ آخر، وأحسست أنني أكاد أطير فرحاً بعد سلسلة الضغوط التي تعرّضت لها قبل الرحلة وأثناءها... فالحمد لله القائل: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥ ـ ٦]...

وازددت ارتياحاً بقبول رئيس القسم لتوصيتي بدعوة كل من الحجي ومحسن عبد الحميد، وباعتماد مادة (التفسير الإسلامي للتاريخ) في فصل كامل في جامعة العلوم قبالة دراسة التفاسير الوضعية في فصل آخر، ووعدته بإرسال ما ينقصه من مؤلفاتي التاريخية. كما أنه وافق على تغيير محاضرة الأربعاء في الآداب من (قيمة التاريخ) إلى (اللغة والأدب والتاريخ)...

وانصرفت للإجابة على أسئلة أحد الطلبة بتدفق وارتياح، كما أعدت تصميم خطة بحث لطالب ماجستير يدرس في جامعة الخرطوم. وعرض عليَّ صحفي في (الحرية) إجراء حوار، وأعرب عن استعداده لإيصالي إلى الفندق... كما تم الاتفاق مع رئيس القسم على زيارة لمدير الجامعة، ولم يبق ثمة أية معلقات في الكلية قد تسبب قلقاً أو همّاً...

وغادرت المكان سعيداً فرحاً فيما لم أكد أتذوق طعمه منذ زمن بعيد...

وفي صالة الفندق انتظرت دكتور عمار لكي نذهب سوية إلى دعوة غداء في شقة دكتور رياض البنّا، حيث التهمنا الطعام الموصلي اللذيذ بشهية بالغة... ثم ما لبثت ردود الأفعال اللعينة أن أخذت تتناوشني كما هو الحال دائماً... حديث دكتور عابد ونحن نتوجه إلى بيته بانتظار عودة دكتور عمار ليعيدني للفندق حول احتمال عودة الفتقة، وخطورة رفع أي ثقل يتجاوز الثلاثة كيلوات لمدة عام بأكمله بعد إجراء العملية، وتذكرت، والهم يعتصرني، كيف أنني عبر رحلتي العجيبة هذه رفعت حقائب تفوق هذا الوزن بكثير، ولمرات عديدة عبر مجيئي، وكيف أن عليَّ أن أحمل أضعاف ذلك خلال عودتي بالبضائع والهدايا... وقلت في نفسي من يدري فلعل الفتقة عادت مرةً أخرى وأنا لا أدري...

وعدت إلى الفندق بصحبة دكتور ضرغام متعباً مهموماً. واتفقت معه على جولة المسواق الأخيرة مساء يوم غدٍ واتجهت إلى الغرفة لكي أرتاح قليلاً ثم أشمر عن ساعد الجد لإنجاز المعلقات، حيث أنسى تماماً كل وساوسي وهمومي... وتلقيت مكالمة من أكثر من صديق يريد زيارتي اعتذرت عن إحداهما، وقبلت الأخرى مع مقبول النعمة وجماعته بعد التاسعة من مساء اليوم...

هذا وقد أعلمني دكتور عابد عن تأجيل لقاء (الإيمان) إلى أسبوع آخر بسبب ارتباطات مديرها، وأنه لن تتاح فرصة لقائه إلا بعد أسبوع، فأحسست بارتياح لتخلصي من قلق ترتيب محاضراتي هناك، وبالندم لعدم اهتبال فرصة عرض المدير عليَّ أول مرة إلقاء محاضرة هناك، فقد تكون فرصة لمكافأة طيبة... ولكن ما كان كان...

استمرت آلام الظهر، وربما الكلية تداعبني بهدوء، وتثير بعض القلق، لكنني أقول في نفسي: إن هي إلّا أيام قلائل وأجد نفسي في مدينتي بين أهلي وأطبائي المتمرسين... وليحدث هناك ما يحدث...

دق جرس الهاتف، وإذا بعميد التربية يفتح جبهة جديدة... يبدو أن القلق

والتشتت سيلاحقاني حتى النهاية، قال بأنه أتصل برئيس الجامعة وطلب إعداد سيارة تذهب بي إلى مأرب، حيث سيكون محافظها في استقبالي للتجوال في المتحف والآثار والاطلاع على السد وتناول الغداء... واختار يوم الأربعاء موعداً للرحلة، فأعلمته أنني مرتبط في اليوم المذكور بمحاضرتين عامتين، قال: يمكن تأجيلهما، وإنها لفرصة قد لا تعوض. قلت له: إن أناساً عديدين اعتمدوا الموعد المذكور وإنني مقبل على سفر بري طويل أحتاج فيه إلى ادخار طاقتي... قال: إن بمقدورك أن تؤجل بقاءك في صنعاء أسبوعاً آخر. فأجبته وأنا أتذكر الكآبة والهموم التي تناوشتني عبر الرحلة، وأحلم بالعودة إلى أهلي وزوجتي وأطفالي: هذا غير ممكن، وإزاء إلحاحه قلت: لعلي أجد يوم الخميس متسعاً وسأتصل بك...

أقفلت الهاتف وأنا أحسّ بأنني دخلت نفقاً جديداً. وجاءني مقبول النعمة ورعد ومازن فعرضت المسألة عليهم، فأعرب مقبول عن استعداده للسفر معي ما دام عميد التربية لا يستطيع بسبب مرضه، وقال إنها فرصة يفضل ألّا تفوّت... وأحسست بقدر من الارتياح وانشرح صدري للرحلة وقلت في نفسي ها قد تجاوزت التردد والقلق فالحمد لله... جلسنا نتحدث حتى الحادية عشرة فودعوني واتجهت إلى الغرفة دون أن أتناول عشاءً لأمارس رياضة المشي، وأشاهد التلفزيون وأحظى بنوم عميق...

الثلاثاء: استيقظت مبكراً لأتناول فطوري ولأستقبل صديقي اليمني القادم من تعز لزيارتي وبصحبته دكتور عبد الهادي، وتحدثنا حوالي الساعة ثم انطلقنا بالذهاب إلى القسم، حيث ألقيت محاضرتي الأخيرة على طلاب الصف الرابع عن منهج البحث، كنت أعاني من ضيق شديد في النفس، لكنني بسبب انسجامي في الموضوع وتجاوب الطلبة معي أستطعت أن أدافعه. ثم غادرت الصف صوب القسم وفي الطريق بسبب من الإعياء وضيق النفس انتابني للحظات دوار مفاجئ، اضطررت على أثره إلى الإمساك بالسياج، ثم ما لبثت أن استعدت توازني بحمد الله...

زارني في القسم اثنان من طلبة الإعلام ذكرا أنهما قرآ معظم مؤلفاتي، كما عرض عليَّ طالب ماجستير خطة بحثه وقال إنه يتابع مؤلفاتي بشغف، وزارتني معيدة في قسم اللغة العربية لتطلعني على بحثها الخاص عن الالتزام، وقالت أنها تتابع أعمالي الأدبية باهتمام... وانتظرت رئيس القسم لأعرف مصير معاملة المكافأة بدون جدوى... وجاءني مدرسون من قسم الآثار والعربية لكي يدعوني إلى حفل غداء ظهيرة الخميس لتوديع العميد السابق والترحيب بالجديد، فاعتذرت لاحتمال سفري إلى مأرب... غادرت الكلية وأنا في أقصى حالات الإعياء، وتناولت غدائي من الجمبري والمايونيز، ثم عدت للغرفة لكي آخذ قيلولة سريعة، ثم أركب الدباب اليمني للالتقاء بضرغام واستكمال المشتريات... ومضى الوقت دون أن يأتي...

وأخذت أعصابي تتوتر، ومضى حوالي ثلاثة أرباع الساعة حاولت خلالها الاتصال الهاتفي به، ولكنه ما لبث أن جاء بعد أن انتظرني متوهماً في مكان آخر... اشتريت درعاً وعدداً من الدشاديش النسائية دون اقتناع بها فازددت توتراً، ثم ركبنا الدباب إلى مكان آخر لشراء حقيبة أنيقة، وحسم مسألة الراديو مسجل الذي أقلقني كثيراً... كان رائعاً يتضمن ميزات عديدة لكنني كنت قلقاً مكتئباً لاحتمال تسببه في متاعب عبر عودتي وربما مصادرته... وزادني ضيقاً وهمّاً مسألة تكاثر الأغراض، وصعوبة نقلها عبر طريق عودتي، واحتمالات تسببها في عودة الفتقة ـ لا قدر الله ـ كما حذرني دكتور عابد...

عدت إلى الفندق مشتتاً مكتئباً مهموماً ونظرت إلى الغرفة، حيث تتبعثر الأشياء، فقلت في نفسي: إن التاريخ يعيد نفسه، ولكن هذه المرة مع موجات أشد وأكبر مساحة من الاكتئاب ومع تخوف قاسٍ من عودة الفتقة...

اتصلت بمدير المعهد العالمي للتوجيه للاتفاق على محاضرة غدٍ، فحصلت عليه بعد لأي، وتم ترتيب المحاضرة بعد المغرب... كما اتصلت برعد ومقبول أطلب منهما المجيء للفندق لعلّي أدفع بالجلوس إليهما شيئاً من اكتئابي المركّز... ومراراً حاولت الاتصال بعميد التربية للتفاهم حول رحلة سد

مأرب وحسمها ولكن دون جدوى... أما الدكتور الشجاع، فقد قال عبر مكالمته الهاتفية أن المكافأة قد تدفع غداً...

تناولت دون شهية عشاءً دسماً في البوفيه، ثم جاءني رعد ومقبول فقضينا أمسية طيبة لولا ما كان يحاصرني من اكتئاب. وعدت إلى الغرفة بعد توديعهما لأتلقى مكالمة من عميد التربية رتبت معه خلالها بعض الأمور بخصوص الرحلة المحتملة لمأرب... ثم قمت بإنجاز المذكرات وبعض المعلقات، فشعرت بقدر من الارتياح، وقلت في نفسي: لم يبق سوى يومين وأكون قد تجاوزت دوامات العذاب عبر رحلتي العجيبة هذه، ولم يتبق سوى حلقات ثلاث أو أربع قبل أن ألقي مرساتي في مدينتي: تجاوز مخاطر عودة الفتقة بسبب ثقل الحقائب... إنجاز كافة أعمالي ومشترياتي في عمان بما في ذلك ورشة العمل مع طلبة الدراسات العليا... ثم قطع الطريق البري الطويل ومصاعب التفتيش واحتمالات الراديو مسجل والبرد والتعامل مع الحقائب في الجانبين الأردني والعراقي... فلأتوكلْ على الله وحده وأدعوه أن يحميني من كل سوء أو أذى... كما منَّ عليَّ في بدء الرحلة عبر لحظات الرعب مع نزيف الكلى... فالحمد لله...

الأربعاء: ١٢/٢٧: كان يوماً عجباً... في الليل شدد عليَّ ضيق النفَس الذي عاد سيرته الأولى في بعض الليالي، حيث يجتاحني كموجات متعاقبة، ثم ما لبث عبر النهار أن أضيف إليه وجع في الصدر... وبعد تناول الفطور بحالة من الاشمئزاز من الطعام جاءني ثلاثة من قادة جماعة الإصلاح فرحنا نتحدث في صالة الفندق، وما لبث أن مرّ وزير الإدارة المحلية فجلس معنا قليلاً... غادرت بصحبتهم إلى كلية التربية لإلقاء محاضرتي، وودعوني بحرارة بعد أن وجهوا لي أكثر من دعوة لزيارتهم فأبديت أعذاري... استُقبلت بحرارة في الكلية من قبل العميد وعدد من الأساتذة، وتوجهت إلى قاعة المحاضرات وأنا ألتقط أنفاسي بصعوبة وأحسّ بما يشبه الاختناق...

لم يكن عدد الحضور كبيراً إلا أنهم ما لبثوا أن تقاطروا... قدّمني الأستاذ التونسي بسخاء، وبدأت محاضرتي عن نمو الحضارات في المنظور

القرآني... كان الإعياء والتشنج يحاصرني تماماً رغم تمكّني من الأداء، ورحت أقاوم بما هو فوق الطاقة للوصول بالمحاضرة إلى نهايتها... وبفضل من الله وحده أنجزت ما أريد... وتوجهت ودكتور عابد إلى العميد لتوديعه، فاستقبلني كرةً أخرة بحرارة وطلب قائمة بمفردات قسم التاريخ للاسترشاد بها. كما وجه إلي دعوة لزيارة الكلية.

كان القلق يحاصرني، إذ عليَّ أن ألحق المحاضرة الأخرى بكلية الآداب في موعدها. وتوجهت بصحبة دكتور عابد ووصلت في الوقت المناسب... كنت قلقاً أيضاً إزاء جملة أمور يتوجب إنجازها عبر الساعتين القادمتين وإلّا فاتت الفرصة: ضمان المكافأة، زيارة رئيس الجامعة، ضمان السيارة التي ستقلنا إلى مأرب... تلقيت طمأنة من رئيس القسم، وبدأت المحاضرة عن اللغة والأدب والتاريخ بتمكّن تام ودون أي إعياء أو تشنج، وازددت سعادة باقتناعي بالمحاضرة التي حضرها عدد من كبار الأساتذة ودارت فيها مناقشات طيبة...

عدت إلى القسم وحاصرني الطلاب؛ هذا يريد معاونته على موضوعه، وذاك يطلب عنواني، وثالث يدعوني لالتقاط صورة مع طلبة الصف الرابع. أما رئيس القسم فراح يتابع الموعد مع مدير الجامعة... كنت أركض سعيداً هنا وهناك وازددت سعادةً عندما تمكنت ورئيس القسم من الدخول على مدير الجامعة، الذي تلقانا بالترحاب وجرى حوار طيب ثم خرجنا...

في الطريق إلى الكراج بصحبة رئيس القسم التقينا بالعميد وعدد من المسؤولين، ورتبنا موضوع تهيئة السيارة لرحلة غدٍ إلى مأرب... هذه عقدة أخرى قد حلّت بمعونة الله، قلت في نفسي. وفي الطريق إلى الفندق أكد رئيس القسم أن المبلغ سيكون جاهزاً يوم غدٍ فازددت ارتياحاً، ودخلت الفندق في واحدة من أجمل لحظات رحلتي...

تناولت غداءً لذيذاً من الكانتاكي وأخذت قيلولة طيبة، ثم اتجهت قبيل المغرب بمعية أستاذ ومدير المعهد العالي للإرشاد، لإلقاء محاضرتي هناك... قدمني الدكتور بسخاء بعد أن تلقاني الطلبة بترحاب غامر. وألقيت محاضرتي

عن الدور المنتظر لخريجي المعاهد الشرعية. كنت متمكناً تماماً، وانعكس هذا على ارتياحي النفسي، وانسياب التنفس وتجاوز أي قدر من التشنج. ووُجهت أسئلة طيبة تمت الإجابة عليها. ثم عدت بمعيتهم إلى الفندق لكي ما ألبث أن أتلقى سيلاً من المودّعين وسيلاً من المكالمات الهاتفية...

وكانت أمسية طيبة مع عمار وأنيس وضرغام والواسعي وعصام الكاتب وابنه وعصام يوسف الخ... لولا القلق الذي انتابني بصدد رحلة غد وتهيئة السيارة، ثم ما لبث رئيس القسم أن حدثني هاتفياً حول تهيئة السيارة وزادني سعادة أنها من نوع الصالون، وأن بمقدوري أن أصطحب معي مقبول وضرغام، اللذين سبق وأن أعربا عن الاستعداد للسفر معنا... وذّعت الزوار وعدت إلى الغرفة لأتابع بعض المعلقات، ثم ما ألبث أن أنام بانتظار الاستيقاظ فجراً... وزادني ارتياحاً أن دكتور عصام طمأنني حول الفتقة وأنا أسأله عن إمكان عودتها بسبب بعض الأثقال...

الخميس: استيقظت فجراً على ارتياح وفرح دون أي قدر من الكآبة ربما لأول مرة منذ قدومي إلى صنعاء... تناولت فطوري ثم ما لبث عميد كلية التربية ورئيس القسم أن جاءا، وأعقبهما محمد ناصر الذي أتى بمقبول وضرغام، وبعد جلسة ودية في الصالة انطلقت بنا السيارة إلى مأرب... كنت أحسّ بارتياح عميق... واستقبلنا المحافظ ومعاونوه بحفاوة بالغة وقال لي أكثر من مرة أنه قرأ الكثير من كتاباتي وأنه تتلمذ عليها... أحسست بغبطة بالغة فها هو رجل في القمة في علمه وثقافته ومنصبه يقول هذا... وهو فضلاً عن ذلك عسكري ممتاز ومؤلف وشاعر... فالحمد لله وحده...

بعدها انطلقنا إلى المواقع الآثارية وبقايا سد مأرب والسد الجديد تصحبنا سيارة عسكرية يستقلها العديد من المسلحين لحمايتنا، وقضينا وقتاً طيباً هناك قبالة التاريخ والطبيعة والهواء الطلق...

وكان مدير عام الآثار يشرح لنا بتفصيل دقيق ويجيب على كل سؤال... والتقطنا عدداً من الصور التذكارية... كما قام مصور التلفزيون بتوثيق الرحلة

بالفيديو.. وعدنا إلى المحافظة لتناول الغداء والجلوس بعدها في باحة فندق مأرب الأنيق ذي النجوم الخمسة لتناول الشاي والحلويات... وبدأ القلق يحاصرني كلما مضى الوقت خشية أن نتجاوز الزمن المحدّد للعودة، في طريق أكد الكثيرون أنه عرضة لهجمات القبائل بعد الرابعة... وألح عميد كلية التربية والمحافظ على المبيت، وقال الأخير أن حشود المثقفين رحبوا بمجيئي وأنهم ينتظرون مني محاضرة في مساء اليوم نفسه وأنه رتب معهم الأمر... لكنني أصررت على العودة بسبب ارتباطي بمواعيد مساء الخميس فضلاً عن رحلة يوم غدٍ بالطائرة...

ومضى الوقت وأنا أزداد توتراً، وبلغت أقصى حالات العصبية، وكادت أن تصدر مني مواقف لا تحمد عقباها... ولم أر أحداً من رفاق الرحلة يعينني في محاولة العودة... وأخيراً أعلمتهم أنني عائد حتى لو كان ذلك بعد حلول الظلام... فأذعنوا للأمر الواقع، وغادرنا المكان مودّعين من المحافظ الذي ألح عليَّ بإلقاء عدد من قصائدي قبل المغادرة فلبيّت طلبه... وغادرنا المكان تحرسنا في بدايات الطريق السيارة المسلحة... ثم ما لبثت أن عادت واستقبلنا الظلام والمجهول، ولكننا كنا مطمئنين تماماً لحماية الله ﷻ الذي أوصلنا بأمان إلى صنعاء... ودهمتني الكآبة مرةً أخرى، واتجهنا مباشرةً إلى بيت دكتور فهر غالب حيث ينتظرنا عدد من المدعوين...

تناولنا عشاءً رائعاً بشهية بالغة، ثم جلسنا نتحدث ونتناول الحلويات والفاكهة... لكنني كنت كئيباً قلقاً بسبب ضيق الوقت، وضرورة أن أنجز كل المعلقات وأهيئ الحقائب قبل أن أحظى بقسط من النوم... وعدنا إلى الفندق لأجد سيلاً من الأوراق التي تركها الزائرون، الذين تدفقوا على الفندق فلم يجدوني، وانتظر بعضهم الساعات الطوال... ووجدت هناك هيثم الأشقر المحرّر وأديب الأطفال، وطلب مني الموافقة على قيامه بتحويل بعض كتبي إلى خطاب للأطفال فرحبت بذلك. كما أعرب عن استعداده لنشر أعمالي القادمة

في دار يشرف عليها اليماني، فأعربت عن تحفظي وقلت له لعل ذلك يتم فيما بعد...

وأحاط أصحاب الحاجات بي في تلك الساعة المتأخرة، ورحت ـ وأنا أعاني أقصى حالات الضيق والإعياء ـ أتسلّم رسائلهم ونقودهم وأضع بعضها فوق بعض قائلاً في نفسي: غداً إن شاء الله سأخلو إلى نفسي في فندق بارك في عمان، وسوف أرتب كل شيء... واتجهت إلى الغرفة يحيطني الهم كعادتي في كل ليلة تسبق المغادرة بسبب أكداس الأغراض، وضرورة ترتيبها في الحقائب استعداداً للرحيل... ومرّت ساعات بدأت صعبة محيرة قاسية، ثم ما لبثتُ أن أخذتُ أطوّق المطالب وألاحقها إلى أن تمكنت منها تماماً، وأحسست بارتياح عميق، وفي ساعة متأخرة من الليل أسلمت نفسي للنوم...

الجمعة: استيقظت على صوت جرس الهاتف بعد ساعتين من النوم، وشمرت عن ساعد الجد لإنجاز بقية المطالب، ثم ما لبث رئيس القسم وعميد كلية التربية أن وصلا... كما تلقيت مكالمة من الأصدقاء الذين سيخرجون للمطار لتوديعي... وسلمني عميد كلية التربية ورقتين قائلاً إنها مكافأة جهدي في لجنة المناهج وكتاب شكر من مدير جامعة العلوم... تملكني فرح عميق وزادني فرحاً أن أتسلم مكافأتي عن جهودي في الآداب كأستاذ زائر... فضلاً عن ذلك فقد قدم لي عميد كلية التربية هدية مدير جامعة العلوم والتكنولوجيا، عدة كيلوات من المشمش والقهوة، فضلاً عن الجنبية اليمنية وقطع من القماش... انكمشت بعض الوقت إزاء تزايد الحمل، حيث لم يتبقَّ في الحقائب أي مجال، ثم ما لبثت أن قررت تسليمها لمقبول لإرسالها فيما بعد واستعدت ارتياحي...

واتجهنا إلى المطار حيث تم استقبالي في قاعة الشرف، وقبل دخولها ودّعت الأصدقاء الموصليين، وحللت مشاكلي المعلقة بصدد الأغراض والعملة مع مقبول وضرغام فازددت ارتياحاً... وقام اثنان من العلاقات العامة للجامعة بأخذ الحقائب وإنجاز المعاملة، بينما كنا نحن ننتظر في صالة الاستقبال...

كنت أحسّ بسعادة غامرة لم أذق لها طعماً منذ بداية رحلة اليمن العجيبة هذه... فها أنا ذا أقطف ثمار الكدح الطويل، مبلغاً طيباً من المال، وتوديعاً حافلاً مترعاً بالتقدير... ولحقنا عدد من الشخصيات اليمنية، حيث جرى تبادل التقويم. وقال موظفو العلاقات أن الوزن زاد عن حده وأنهم طلبوا دفع ثمانين دولاراً، لولا أنهم ـ بخبرتهم ـ أقنعوا موظفي المطار بالسماح بها...

وغادرنا المكان لكي تقلني سيارة خاصة إلى مكان الطائرة ومعي العميد الذي أصر على اصطحابي إلى هناك للاطمئنان على حقائبي، واستلقيت على المقعد وأنا أتنفس الصعداء... كانت لحظات مترعةً بالارتخاء والفرح، والإحساس الغامر بالتخففّ من كل الهموم والأعباء، وبالحصول على العديد من المكاسب المادية والأدبية...

وانطلقت الطيارة وأنا أقول في نفسي ها هي ذي إحدى الحلقات الأخيرة المثيرة للقلق: ما قيل عن كثرة الجيوب الهوائية بين صنعاء والحديدة... ولكن ما كنت أخشاه لم يقع، ووصلت الطائرة إلى هناك دون أي خوف أو ارتجاج... ثم مضت في رحلتها إلى عمان حيث وصلناها ظهراً، وبسهولة بالغة استكملت الإجراءات، ووجدت الحقائب الثلاث تنتظرني، دون أن تغيب إحداها كما حدث في مرات عديدة. وجاءني حمال لكي يعينني على الحقائب التي لم أكلف نفسي بها، وأستطعت إقناع المفتش بعدم فتحها، فتعامل معي بسماحة بالغة.

ثم ما لبثت أن اتفقت مع سائق تاكسي أقلني عبر شوارع عمان المغسولة بالشمس إلى الفندق، حيث حصلت على غرفة جيدة، واستلقيت على السرير وأنا أحمد الله وأقول في نفسي تعساً لصنعاء، ومتاعبها وكآبتها... فها أنا ذا قد عدت تغمرني سعادة يصعب وصفها... حاولت الاتصال الهاتفي بالموصل دون جدوى، وأخذت إغفاءة قصيرة ثم ما لبثت أن غادرت المكان للتجوال في عمان وشراء بعض الحاجيات وتحويل مائة دولار. ثم يممت صوب مطعم القدس لتناول وجبة شهية، ثم عدت إلى الفندق في الساعة السادسة والنصف، لكي أحبس نفسي في الغرفة وأقاوم إغراءات النوم، وأنجز على مدى عدة

ساعات العديد من المعلقات الخاصة بترتيب الأوراق وضبط الأمانات النقدية والعينية وإعادة تنظيم الحقيبة، والاطلاع على الصور التي التقطت في صنعاء... ثم ما لبثت أن أسلمت نفسي لنوم عميق لم أذق لمثله طعماً طيلة أيامي في صنعاء...

السبت: ١٢/٣٠: استيقظت صباحاً لكي أنجز المعلقات ثم أغادر إلى شركة الجت، حيث رتبت أمر الحجز للعودة بسهولة بالغة زادتني ارتياحاً، ويممت صوب المعهد يحيطني القلق لكثرة المطالب وكثافتها وأنا أقول في نفسي: ها هو ذا التاريخ يعيد نفسه للمرة العشرين، فإلى متى؟ ثم ما ألبث أن أقول في نفسي: لسوف أعيد ترتيب حياتي وفق معادلات جديدة بإذن الله وإلّا ذهبت حياتي وصحتي بدداً...

واستقبلني العاملون في المعهد بحفاوة بالغة، وقام دكتور محمد أبو سل بأكثر من محاولة للاتصال بالموصل دون جدوى.. ثم ما لبثت أن انعزلت في إحدى الغرف لتصفية المطالب المزدحمة... وللحظات شعرت أنني أختنق وأن ليس بمقدوري البتة السيطرة على المطالب وإنجازها جميعاً... لكنني ـ كالعادة ـ ما لبثت أن تمكنت منها ورحت أصفيها الواحدة تلو الأخرى: فاكسات ورسائل ومقالات للناشرين ومتابعات مالية واتصالات هاتفية الخ...

وبعد صلاة الظهر عدت ثانيةً لأتابع فلول المطالب وأنا أحسّ أنني قد تجاوزت مطحنة نفسية قاسية... زادني غبطة أنني ودكتور محمد أبو سل أرسلنا أحد الموظفين إلى الجامعة لإعلام طلبة الدراسات العليا عن موعدي الجديد معهم بسبب عودتي المبكرة، وقلت في نفسي ها هي ذي حلقة قلق أخرى يتم تجاوزها... وأوصلني دكتور أبو سل إلى مطعم القدس، حيث تناولت غدائي بشراهة، ثم انطلقت إلى السوق لملاحقة المشتريات المزدحمة وأنا أقول في نفسي: ها هي ذي مطحنة نفسية أخرى، ولكن في سياق الماديات هذه المرة. وتمكنت من شراء الكثير من الحاجات واستعصى عليَّ بعضها فأورثني شيئاً من الهم والقلق... وبدأت أحسّ بإعياء شديد وتشتت نفسي، ثم ما لبثت

أن حملت بعض الأكياس تاركاً بعضها الآخر لدى البائعين أنفسهم، ثم جررت خطاي صوب الفندق بصعوبة بالغة، وألقيت نفسي على السرير لأرتاح قليلاً...

وما لبثت وخزات من الألم أن أخذت تداعب منطقة الفتقة، فدهمني الوسواس القاسي المترع بالخوف والكآبة من احتمال عودة الفتقة ربما بسبب السير بالأكياس الثقيلة مسافة طويلة، وتذكرت تحذير عابد الهاشمي فازددت يأساً ومرارة. وجاءني ماجد وإبراهيم العوضي من المعهد وتم ترتيب مواعيد اللقاء بطلبة الدراسات العليا وبالشباب المثقف... وكان المفروض أن أحسّ بفرح غامر بسبب تجاوز هذه الحلقة بكل مداخلاتها، لولا استمرار وخزات الفتقة وتزايد شكوكي، الأمر الذي وضعني في دائرة الاكتئاب والخوف...

وعدت إلى الغرفة وأنا في أقصى حالات القرف واليأس والإعياء، ولكنني ما لبثت أن اتصلت هاتفياً بالدكتور محمد زكي ورتبت معه موعداً على مساء غد... ثم صليت العشاء وشمرت عن ساعد الجد لجولة أخرى من الإنجاز: ترتيب أسعار وقوائم المشتريات، وكتابة مذكرات الأيام الأربعة الأخيرة بكل تفاصيلها، ورغم ما أصابني من إعياء، إلّا أنني بدأت أستعيد توازني النفسي وخاصةً بعد أن اختفت تماماً آلام الفتقة... والأمر لله من قبل ومن بعد...

الأحد: نمت نوماً عميقاً واستيقظت صباحاً على رشقة الكآبة إياها، وقلت في نفسي: إلى متى؟ وهل سأسترجع فرحي القديم عندما أستقر في مدينتي؟ اتجهت إلى دار الضياء وانتظرت طويلاً وجاء مديرها، وبعد حوار طويل وترحيب بطبع مؤلفاتي القادمة اتجهنا سوية إلى دار الفرقان للاستفسار عن جملة أمور، ومنها إلى دار البشير، حيث اكتشفت طبعات جديدة لثلاثة من مؤلفاتي... ودعته وتوجهت إلى المعهد لأحاول الاتصال بالموصل دون جدوى، ولأسأل عن أجوبة الفاكسات فلا أجد جواباً، والاتصال هاتفياً بالدوحة للاستفسار عن مصير مكافأتي عن كتاب الأمة فلا يردّ أحد، ولأتصل كذلك بفرع اللويبدة فإذا بالدوام قد انتهى...

أنجزت عدداً من الأعمال المعلقة وتناولت مع موظفي المعهد غداءً شهياً

من (المسخنة) بعد أن نهشني الجوع... ثم ما لبث طلبة الدراسات العليا أن جاؤوا لحضور الحلقة الأولى والثانية من ورشة العمل حول هموم الدراسات العليا... وبدأ الطرح بصيغة لم أقتنع بها، الأمر الذي قادني إلى التشنج والإعياء. ثم ما لبثت الأمور أن انتظمت وتمكنت تماماً من عرض المفردات وإدارة النقاش فنسيت كل متاعبي... وعدنا بعد صلاة المغرب لاستكمال الطرح، حيث ازددت إمساكاً بالموقف عبر طروح ومناقشات خصبة... وتلقيت من الحاضرين تقويمات سخية ثم غادرت المعهد بصحبة دكتور محمد زكي لقضاء بعض الوقت في بيته وتصفية عدد من المعلّقات...

كنت أحسّ بقدر من الاكتئاب، وازداد كثافة لدى عودتي إلى الفندق، ودفع الفاتورة الأولى ذات التكاليف الباهظة... وعندما نظرت إلى أكداس الأغراض في الغرفة حاصرتني هموم النقل عبر الطريق الطويل ووسط هواجس الفتقة... لكنني ما أن شمرت عن ساعد الجد وأجريت اتصالين هاتفيين بالطنطاوي، الذي أصر على قضاء أمسية غد في بيته، وبمأمون جرار الذي كلفته تحويل مبالغ في الرابطة إلى الحساب الجاري تجاوزاً لضياعها مع حسابات ملكاوي، حتى شعرت بارتياح عميق، ثم انكببت لإنجاز بقية المعلقات، حيث تلاشت تماماً موجة الكآبة والانقباض... فالحمد لله...

الاثنين: ١٩٩٦/١/١: استيقظت والوخزات المقلقة في منطقة الفتقة لا تزال تقلقني، واتصل بي دكتور محمد زكي فأزاح ترددي بخصوص الذهاب إلى منطقة السير للتعامل مع سيارة تقلني مباشرةً إلى الموصل... غادرت الفندق واشتريت عدداً من البضائع المعلقة وحسمت شراء الساعة وغيرها من المطالب، ثم أقلني دكتور محمد إلى الموقف حيث تمكنا من استئجار سيارة بسعر وسط ومع سائق مناسب تماماً، فأحسست بارتياح عميق وأنا أتجاوز التردد وبين الباص والتاكسي. وتم الاتفاق على أن يأتيني مساء غد للتوجه سوية إلى الموقف والانطلاق من هناك...

عدت إلى الفندق أحمل عدداً من الأكياس، واتصلت بماجد فإذا به

يبشرني بأن مبلغ كتاب الأمة قد أرسل منذ زمن بعيد بالبريد المسجل وأنه سيتابع الموضوع لمعرفة التفاصيل... اتجهت إلى الفندق سعيداً تماماً وتناولت غدائي، ثم توجهت إلى السوق لتسلم بضائعي لدى بعض البائعين وعدت ثانية إلى الفندق...

كان يقلقني حديث عابر لدكتور زكي عن إغلاق الحدود العراقية وقلت في نفسي: يا سبحان الله، فها أنا ذا كلما أحسست بالارتياح وتجاوز منابع التوتر والقلق، أتلقى ما يعيدني إليها كرةً أخرى... ولكنني بسؤالي موظفي الجت عن الموضوع أكد عدم صحته، فاستعدت فرحي وتوجهت إلى صيدلية بجوار المستشفى الإسلامي لحسم قلق آخر وشراء دواء السرطان لابنة جارنا...

توجهت إلى المعهد لإجراء لقاءين آخرين مع طلبة الدراسات العليا واستكمال الحوار حول هموم هذه المرحلة، وكانت ساعات طيبة اندمجنا فيها في حوار معمّق متمكن لم أكد أشعر معه بأي إعياء... وودعتهم بحرارة متبادلة وتقديم سخي ثم ما لبثت أن استقبلت حلقة من المثقفين، حيث ألقيت محاضرة مفصلة عن هموم الثقافة بتدفق لم أكد أشعر معه بالإعياء هو الآخر... ثم ما لبثت بعد حديثي في قضايا الأدب مع أم مالك زوجة الملكاوي أن غادرت المكان لقضاء أمسية طيبة في بيت طنطاوي، ولأتلقى مفاجأة سارة أخرى: مائتي دولار عن مقالاتي في مجلة فلسطين المسلمة فالحمد لله... فضلاً عن سبع وستين ديناراً أردنياً عن بحوثي في (الأدب الإسلامي)... وأوصلوني إلى الفندق، حيث دخلت الغرفة دون أي قدر من الاكتئاب، فها أنا ذا أتهيأ للسفر غداً بإذن الله ﷻ وبوسيلة مريحة بعد قلق مرير...

وأمامي فضلاً عن ذلك ساعات النهار كله، لإنجاز بقية المعلقات في المعهد والسوق وترتيب الحقائب، لولا هاجس جديد من القلق يتمثل في تصوّر المخاطر التي قد نتعرض لها عبر الطريق غير المأمون، والذي قيل بأنه شهد حوادث عديدة، لكن ترتيب اجتيازه في ضوء النهار ما يلبث أن يخفف من قلقي فالحمد لله...

ثمة لمسات أخرى عبر أمسية الطنطاوي: تسليمي صورة عن اللقاء الصحفي في جريدة اللواء الأردنية، التي سبق وأن أجراه أحد أصدقاء طنطاوي، وحديث الأخير عن مكالمة له مع دكتور عبد القدوس أكد فيها هذا اعتزام الرابطة نشر مسرحيتي (الهم الكبير) رغم الدسيسة التي فعلها رضوان دعبول ـ لا أدري لماذا ـ إذ قال له أن كتبي قليلة الرواج وأن عليه ألّا يتورط في نشر المسرحية!! فلا حول ولا قوة إلّا بالله...

الثلاثاء: ١/٢: استيقظت على القلق إياه، فأمامي حلقات عديدة من المعلقات عليَّ إنجازها قبل المغادرة مساء اليوم... هرعت إلى المعهد لحل إشكالية مكافأة كتاب الأمة والقضايا المالية المعلقة، واتجهت من هناك بمعية ماجد إلى فرع اللويبدة لإيداع الشيك هناك ومحاولة تشغيله، ولكن الموظف أعلمنا بضرورة متابعة الموضوع في الشميساني... كان الوقت ضيقاً وسيطر عليَّ النزق والضيق ولكن ماجد شجعني على الذهاب، حيث قطعنا خطوات طيبة في المعاملة، ولم يتبق إلا أن يأتي الملكاوي من رحلته للتوقيع. وغادرنا الفرع وأنا أحسّ بارتياح عميق خاصةً بعد أن كلفت ماجد بمتابعة الموضوع بجدية وتحويل المبلغ بأسرع وقت إلى اللويبدة لتشغيله هناك... أما مبالغ المجلات واحتمالات التداخل مع حسابات المعهد فقد كلفت المحاسب السابق بالتأكد منها. كما قررت إرسال عدد من الفاكسات لتحويل المكافآت إلى اللويبدة...

نزلت قريباً من الفندق واشتريت حقيبة كبيرة وعدت مسرعاً إلى الفندق... كان عليَّ أن أرتب ركام المشتريات في وقت محدود، ثم إنزال الحقائب إلى صالة الاستقبال تجاوزاً لاحتساب ليلة إضافية... ورحت أسابق الزمن مشدود الأعصاب، ثم ما لبثت أن سيطرت على المشتريات ورتبتها في الحقائب والأكياس، وناديت على عامل الفندق فأنزلها إلى الصالة دون أن أضطر لرفع أي منها بحمد الله... وأمّنتها هناك ثم انطلقت إلى المعهد لإنجاز بقية المعلقات: الفاكسات والرسائل والاتصالات الهاتفية والتوصيات... كانت أم مالك بانتظاري لتوديعي وتقديم هديّتها القيمة. كنت مشدود الأعصاب كعادتي فلم أرتح لوجودها ولدخول موظف آخر برغبته الجارفة في الحديث...

كان الوقت ضيقاً... واستطعت وسط حصار الحرج والضيق أن أنجز المطلوب بعد جرعات مركّزة من القلق، وأن أودّع الموجودين وأغادر المعهد بمعية أبي زياد، وأنا أحسّ بروعة التحرّر من الشدّ والمطالب التي لا تنتهي... أوصلني إلى الفندق وسط جوّ ماطر ألقى في نفسي إحساساً أكثر تدفقاً بالمتعة والارتياح... كنت جائعاً، فاطمأنيت على الحقائب وهرعت إلى مطعم القدس لأتناول وجبة شهية، ثم أعود إلى الفندق قلقاً على احتمال عدم التزام السائق بالموعد فإذا به في انتظاري... ووضعت الحقائب والأكياس المتزايدة في السيارة دون أن أكلف نفسي عناء رفعها، وانطلقت التاكسي إلى الكراج مع بداية الغروب، وهناك تحوّلنا إلى السيارة التي ستقلني إلى الموصل مباشرة...

وبدأت الرحلة الطويلة... كنت ـ كعادتي ـ أعيش لحظات مترعة بالارتياح والغبطة، فها أنا ذا أبدأ رحلة العودة إلى الأهل والديار بعد كفاح مرير على أكثر من جبهة، عبر حوالي الشهر بل عبر عدة شهور من المعاناة مع ما أسميته (الرحلة اليمنية)... وزادني سعادة الجو الماطر، والخلق العالي للسائق... لكن ما كان يقلقني بعض الحلقات المتبقية عبر الطريق: تفتيش رويشد وطريبيل، ومتاعب إنزال الحقائب في الجو الماطر، فضلاً عن احتمالات مصادرة بعض المشتريات أو التعرض للابتزاز، إضافةً إلى مشكلة المسجل الذي قد لا يسمح بإدخاله... الخ...

نزلنا عند أفران الجواد لشراء البقصم، وفي صفاوي لشراء النساتل والسكريات والأجبان، حيث يتوفّر كل ما يريده المسافر دون عناء... وفي رويشد توضأت وصليت وتناولت الشاي ثم انطلقنا إلى نقطة التفتيش الأردنية...

ارتحت لعدم الاضطرار إلى تفتيش الحقائب لكن معاملة الجوازات استغرقت الساعات الطوال...بعدها دخلنا الحدود واتجهنا إلى التفتيش وأنا أحمل هموم الاحتمالات... ثمة مجموعة من الحمالين أغريتها بأجر طيب لنقل الحقائب وإعادتها، وأبرزت للمفتش أمر الإيفاد فلم يلحّ في التفتيش خاصةً بعد أن قدم طلباً متواضعاً بإهدائه علبة من معجون الأسنان، ورغم ضرورة الذهاب

بجهاز التسجيل إلى الكمرك فإنه لم يكلفني عناء ذلك. ونقلت الحقائب إلى السيارة ثانيةً، واستكملنا بقية الاجراءات بارتياح عميق رغم أجواء المطر الكثيف، وتجاوزت قلق الشراء من السوق الحرّة بعد أن تبيّن إقفالها في هذه الساعة المتأخرة من الليل... أخذت والسائق إغفاءة من النوم لأكثر من ساعتين بانتظار حلول الفجر للانطلاق إلى بغداد بسبب المخاطر المؤكدة للسفر ليلاً... ومع ذلك فقد استأنفنا المسير والظلام لا يزال مخيماً... وأحسست بخوف حقيقي وأنا أحدّق في الأفق خشية حدوث ما لا تحمد عقباه، ورحت أدعو الله ﷻ وأقرأ آية الكرسي وآيات من ياسين...

وما لبث الفجر أن انبلج فبدأت أحسّ بالاطمئنان أكثر فأكثر، وتناولنا فطورنا في مطعم على الطريق ثم انطلقنا، حيث ما لبثت السيارة أن أخذت تعاني من التقطع بسبب الفلتر... بينما استمر المطر في الهطول... وفي نقاط التفتيش كان الشرطة والجنود يطلبون طعاماً فكان السائق يستجيب حيناً ويعتذر حيناً آخر... ولكن القلق كان في الحقيقة من احتمالات الابتزاز في تفتيش تكريت كما أكد السائق، ولكنها مضت بفدية بسيطة.

وفي بيجي أديت الصلاة وتناولت غداء خفيفاً ثم استأنفنا المسير لنصل الموصل بعد تجاوز تفتيش المدخل بسلام وبفضل من الله ﷻ، لكي أفاجئ العائلة بقدومي، ولكي تبدأ حلقات عرض المشتريات واستقبال الزوار لأيام طويلة بعد عودتي من رحلة المعاناة!!

[٢٦]

رحلة عام ١٩٩٧ م إلى الأردن

الثلاثاء: ٤/٢٩: الانطلاق إلى بغداد... الكراج والتوديع... رحلة مريحة لولا الضربة القاسية التي تلقيتها في صدري لدى الصعود إلى الباص... الوصول الكئيب فجراً...

الأربعاء: الاستقرار في الفندق... متاعب مع الانزلاق الغضروفي وآلام

ضربة الصدر... الذهاب إلى المعهد العالمي... حوار حول (دليل الأحاديث) وحل بعض القضايا... تناول الغداء: زيارة قارئ وتقويم سخي... حديث عن ترتيب جامعة الزرقاء لمحاضراتي... زيارة للدكتور عدنان الدليمي... عشاء وأمسية مع الملكاوي... العودة للفندق والعمل حتى ساعة متأخرة... ونومة صعبة بسبب الانزلاق وآلام عظام الصدر.

الخميس: ضربة كآبة معتادة لدى الاستيقاظ... زيارة مؤسسة سجا للإنتاج الفني وتلقي تقويمات سخية... زيارة عدد من دور النشر... غداء في جبري... وجولة وجلسة طيبة في دار الأخ أحمد الجدع مدير دار الضياء... جلسة ودية مع رضوان دعبول... جولة وعشاء في وسط عمان... عمل مكثف ومتاعب مع صليل الجانب الأيمن والحساسية الجلدية.

الجمعة: استيقاظ منشرح... إنجاز طيب... رحلة إلى جرش والعنجرة... صلاة الجمعة... غداء وحوار طيب... قلعة عجلون... زيارة الدكتور سالم الحمداني (رحمه الله) في جرش... أمسية قصيرة في بيت الدكتور محمد زكي... مكالمة مع الدكتور أحمد الحسو... العودة للفندق والعمل المكثف يمتص الكآبة... ارتياح لتصفية معظم المعلقات.

السبت: رشقة كآبة وقلق بسبب كثرة المشاغل وبخاصة المصرف... دار الضياء وتسليم الديوان... المعهد والقلق المعهود ومكالمة دكتور أنس الشيخ علي في لندن وآخرين... تضارب موعدَيْ مجمع اللغة والزرقاء وارتياح لاختيار الثانية... إلى الزرقاء بمعية الملكاوي وغداء في السيارة... حضور ندوة الدكتور محمود رشدان في الجامعة ومشاركة طيبة في النقاش... ترتيب جدول للمحاضرات بعد جدل طويل... العودة إلى المعهد والاطلاع على تقارير خبيرين حول كتاب (دليل التاريخ في الأحاديث النبوية)... التوجه إلى الفندق بانتظار الدكتور مأمون جرار وجلسة طيبة في مطعم جبري... خبر مفرح بقرب طبع كتابي لرابطة الأدب الإسلامي عن النقد التطبيقي في دار البشير... عشاء شعبي وكنافة في مطعم القدس... العودة للفندق ومكالمة الدكتور أحمد الحسّو

وترتيب موعد معه... الوقوف محتاراً ممزقاً قبالة سيل من الأعمال التي تتطلب إنجازاً رغم إيغال الليل... التشمير عن ساعد الجد وإنجاز العديد وشيء من الارتياح...

الأحد: متاعب عبر الليل مع آلام القفص الصدري... واستيقاظ مبكر على قلق المطالب المتجددة... زيارة حيدر قفة وجلسة صباحية في صالة الفندق... الفطور في مطعم القدس في جو ماطر... التوجه إلى دار الفرقان وترحيب مديرها بأي عمل أقدمه للنشر مستقبلاً... التوجه إلى السوق والناشرين الآخرين وسط عمان... دفع أصول كتاب (هموم الدعوة والتحديات المعاصرة) إلى المكتب الإسلامي فرع عمان... ترحيب دار عمار بأحد مؤلفاتي... ساعات من المسواق الهادئ لأول مرة بسبب انفساح الوقت، والتمكن بعد لأي من تنفيذ معظم الطلبات...

العودة إلى الفندق وسط إعياء شديد... قلق البحث عن نظارات مكبرة للدكتور عبد الخالق عبدال دون جدوى... الصعود إلى الغرفة ومسلسل الهواتف المتلاحقة: العوضي... ملكاوي... خالد عثمان (ﷺ)... دكتور محمد زكي... الخ... زيارة الشوابكة وترتيب محاضرات الزرقاء... العوضي يخبرني من المعهد العالمي بترتيب موعد موسع مع طلبة الجامعة يتضارب مع موعدي مع الأدباء، فأقنعه بعد لأي بضرورة تغييره... التوجه إلى بيت الدكتور عدنان الدليمي... أمسية طيبة في داره مع حشد من الأصدقاء وعشاء وتقويمات سخية... العودة للفندق وجلسة استرخاء قبالة التلفزيون لأكثر من ساعة... ثم الصعود إلى الغرفة والتشمير عن ساعد الجد والعمل حتى ساعة متأخرة رغم حاجتي إلى النوم...

الاثنين: ليلة مترعة بالأرق وآلام ضربة الصدر، واستيقاظ مبكر وقلق بسبب الخشية من عدم موافقة المصرف الإسلامي على تمشية معاملاتي... فطور سريع في الفندق... ومجيء ماجد أبو غزالة والذهاب إلى المصرف، وارتياح غامر لإنجاز كافة المعاملات المالية بعد أكثر من ساعة ونصف... وارتياح آخر بحسم الشك بصدد آلام عظام الصدر بالذهاب إلى المستشفى

الإسلامي وأخذ أشعة وإنجاز المعاملة بطريقة سريعة بواسطة عدد من المعارف... استقبال وتقويم سخيين في المستشفى... مغادرة المكان وأنا أكاد أطير فرحاً لسلامة الصدر... التوجه إلى المعهد وإنجاز أعمال أخرى... دعوة غداء طيب وحوار خصب مع ياسر زعاترة وزملائه...

التوجه إلى دار البشير والمفاجأة برحيل رضوان دعبول إلى دمشق... التحول للاطلاع على الكتب واكتشاف طبعتين جديدتين لاثنين من كتبي... العودة إلى الفندق في أقصى درجات الإعياء... مكالمة من ابن العم هشام الطالب في أمريكا... التوجه إلى السوق وإنجاز العديد من المشتريات الأخرى... جلسة استرخاء مريحة في أحد المقاهي... العودة إلى الفندق وجلسة أخرى أمام التلفاز... الصعود للغرفة والمفاجأة السارة بمكالمة هاتفية من الدكتور أحمد الحسو، الذي وصل الفندق وحجز في إحدى غرفه... لغرض زيارتي... جلسة حوارية ممتعة في غرفته.. العودة إلى غرفتي والعمل المتواصل حتى ساعة متأخرة من الليل.

الثلاثاء: الاستيقاظ على قدر من الارتياح... فطور مع الحسو... مجيء مدير علاقات جامعة الزرقاء واصطحابي إلى الجامعة وحوار خصب عبر الطريق... استقبال حار من رئيس القسم وعدد من الأساتذة... تقديم سخي أمام الطلبة من رئيس القسم ومحاضرة خصبة عن الصليبيين... زيارة لرئيس الجامعة واستقبال مترع بالحفاوة... محاضرة أخرى لا تقل خصوبة مع الطلبة حول حضارة الإسلام... سيمنار مع رئيس وأساتذة قسم التاريخ والدكتور الحسو حول طرح وجهات نظري بخصوص دراسة التاريخ والحضارة... وتقييم سخي من الموجودين كافة... دعوة غداء واستقبال حافل من رئيس الجامعة الأستاذ الدكتور إسحق فرحان وعدد من الشخصيات العلمية والنيابية...

التوجه بسيارة الحسو في جولة في عمان وزيارة السيف واي، وتوديع الحسو والتوجه إلى الفندق وسط أشد حالات الضيق والاكتئاب والإعياء... أكداس من المشاغل ترغمني على عدم النوم... وثمة جبهة قلق جديدة فتحها

الدكتور سالم الحمداني عليَّ من جامعة جرش... حيث رتب أمر إلقائي عدة محاضرات هناك ليوم السبت... كان عليَّ أن أؤجل سفري يومين... فأحاول تعليق الجواب ليوم غد... تزايد الانقباض وتذكر بعض المواقف مع أخي المرحوم نبيل فأنفجر بالبكاء... اتصالات هاتفية عديدة... والملكاوي يقلني إلى دار فاروق بدران، حيث الاستقبال الطيب والأمسية الخصبة والعشاء اللذيذ والتقويمات السخية... ترحيب دار الفرقان على لسان مديرها بوعدي إياه بجعل العديد من مؤلفاتي مستقبلاً من نصيب الدار... العودة إلى الفندق مع دكتور داود مدير الفرقان، والعمل المتواصل حتى ساعة متأخرة من الليل رغم إغراءات النوم.

الأربعاء: زيارة مدير العلاقات واصطحابي إلى جامعة الزرقاء... جلسة مع أحد الأساتذة العراقيين الدكتور محمد عياش... المحاضرة الأولى في القاعة الكبرى والمفاجأة برغبة الطلبة ورئيس القسم في التحدث عن حاضر العالم الإسلامي بدلاً من الموضوع الذي أعددته حول ظاهرة الفتوحات الإسلامية، وإلقاء المحاضرة بتدفق وإثارة وإمساك بخيوط الموضوع تلقى ترحيباً وتقويماً... المحاضرة الثانية مع غير الناطقين بالعربية عن (الإنجاز) وتقويم سخي من الدكتور المقدم... استراحة لدى رئيس الجامعة ثم اصطحابه إلى القاعة الكبرى لإلقاء محاضرة عن (قيمة التاريخ) حضرها عدد كبير من الطلبة والطالبات والأساتذة وتدفقت معطياتها بتمكّن تام... وأثارت نقاشاً خصباً ولقيت تقويماً سخياً، فضلاً عن التقديم السخي لرئيس القسم...

خرجت وأنا أحس بغبطة عميقة وبذلك التحقق الذي كنت أحسه في أعقاب كل محاضرة مبدعة... توجهنا مع رئيس الجامعة إلى الغداء وسط التعقيبات المترعة بالتقويم من الرئيس والأساتذة، وتلقيت هناك نداء من الحمداني تجاوزت خلاله قلقي وقررت الذهاب إلى جامعة جرش يوم السبت، وتأجيل سفري يومين لإلقاء محاضرات هناك... جلسة غداء طيبة... ثم تسلّم مبلغ مائتي دينار أردني مكافأة عن محاضراتي... أعود مع سائق الجامعة إلى

المدينة وأصل الفندق وأنا في غاية السعادة والانسجام على خلاف يوم أمس تماماً...

بعد قليل يأتيني الدكتور مأمون جرار فيقلني إلى مقر رابطة الأدب الإسلامي، لألتقي هناك ثلة من الأدباء والأديبات، ولألقي واحدة من أشد محاضراتي تماسكاً وتدفقاً وتغطية لمفردات الموضوع... تدور بعدها أسئلة خصبة في جو مترع بالمودة والمحبة... أتلقى خلاله تقويمات سخية من المحاضرين عن موقعي الفكري والإبداعي والتدريسي، ويتم الاتفاق على موعد لأمسية في بيت الشاعر كمال رشيد (ﷺ) مساء الجمعة، فأستبشر بها خيراً... وأتجه عائداً إلى الفندق ومنه لتناول وجبة الحمص في مطعم هاشم الشهير وسط عمان... والدوندرمة في مطعم القدس ولأعود بعدها لأجلس قليلاً إلى التلفاز ثم أصعد لمواصلة العمل والقراءة حتى ساعة متأخرة من الليل... إنه واحد من أمتع أيامي عبر رحلتي هذه... زاده متعة أن أتلقى مكالمة من جرش تقول أن سيارة للجامعة ستأتي صباح السبت لكي تقلني إلى هناك... فحمداً لله...

الخميس: مكالمات هاتفية وترتيب للمواعيد، ثم النزول لتناول وجبة سمك لذيذة في أحد المطاعم الشعبية، والتوجه إلى مكتب مجلة الأمة التي توشك على الصدور، وحوار خصب مع هيئة تحريرها، وتسليمهم عدداً من مقالاتي... والاتفاق على أن أتولى الكتابة الدائمة للصفحة الأخيرة... أتجه بمعية أحدهم إلى المحطة لتثبيت الحجز على يوم الأحد إن شاء الله... وأعود إلى المعهد لأجد الدكتور الملكاوي هناك، ولأجدها فرصة مواتية لحل سائر الإشكاليات المعلقة، التي طالما أقلقتني وأحسست بعدها بفرح غامر وارتياح عميق...

منابع جديدة للقلق انفجرت أحدها بسبب مكالمة من قطب سانو في ماليزيا، يطلب ايضاحاً حول طريقة توجيه الدعوة لي وللدكتور محسن عبد الحميد، لزيارة الجامعة الإسلامية في ماليزيا... والآخر بسبب اكتشاف معلقات وربما أخطاء كثيرة بخصوص حساباتي في فرع اللويبدة... أجريت اتصالات

هاتفية عديدة، وصفيت المشاكل الأخيرة، والتقطت صوراً مع موظفي المعهد وأحد طلبتي أيام تدريسي في الرياض... صليت العصر وعدت لأتجه إلى صالة المحاضرات التي حضرها عدد طيب من الأساتذة والطلبة والنساء، حيث ألقيت محاضرة مترعة بالإثارة، أمسكت بها انتباه الموجودين، وتلقيت بعدها حشداً من الأسئلة الطيبة والتقويمات المترعة بالصدق والسخاء...

غادرت بعدها مع الملكاوي إلى بيت حيدر وقفة وأنا أحسّ بسعادة بالغة... تناولنا هناك عشاء طيباً وتلقيت تقويمات سخية وجرت مناقشات ودية، ثم ما لبث أن عدت بمعية الدكتور الملكاوي وآخرين إلى الفندق، وأنا أحسّ بإعياء بالغ وقلق على كثرة المطالب، التي سهرت من أجلها إلى ساعة متأخرة من الليل.

الجمعة: ليلة مؤرقة مع صخب آليات الحفر بجوار الفندق واستيقاظ متأخر... ساعة حوار وأحاديث مع الدكتور أبي الوتار في صالة الفندق... صلاة الجمعة وبعض المشتريات وغداء وعودة للفندق لمقاومة إغراء النوم والاسترخاء بسبب كثرة المطالب... في الخامسة أتوجه مع بلال كمال رشيد إلى بيت أهله... جلسة حوار وتعارف طيبة مع حشد من الأصدقاء وتلقي تقويمات سخية... وقراءات شعرية متنوعة...

السبت: التوجه صباحاً إلى جامعة جرش بباص أُرسل إليَّ من هناك... الحمداني والعميد وعدد من الأساتذة يستقبلوني باحتفاء بالغ، ويقدمني الحمداني عبر محاضرات ثلاث بسخاء يفوق التصوّر، متحدثاً عن فكري ومنهجي والندوات التي حضرتها وحضوري المؤكد في العالمين العربي والإسلامي... وتنظيراتي الأدبية والفكرية... والأطروحات التي كتبت عن نتاجي... وما يتميز به فكري من عمق وشمولية وإخلاص...

كانت أولى المحاضرات عن (منهج جديد لدراسة حضارة الإسلام)، وثانيتها عن (قيمة الأدب)... ساعة من الاستراحة في غرفة العميد، حيث التعرف على المزيد من الأساتذة ومعاون رئيس الجامعة والسخاء الملحوظ في

التقويم... وحيث يطلب مني برجاء ملحّ تلبية دعوة الجامعة لأسبوع أو أكثر في كل سنة... نتوجه إلى قاعة المكتبة لإلقاء المحاضرة العامة التي حضرها رئيس الجامعة والعميد والعديد من الأساتذة والطلبة... وحيث تحدثت عن قيمة التاريخ وأدرت المنظور من جوانب عديدة... جرت بعدها مناقشات خصبة، ثم غادرنا المكان وسط تقويمات سخية من الإداريين والأساتذة والطلبة... فحمداً لله...

نتجه إلى بيت الحمداني، بعد أن رتبت أمر العودة وحضور محاضرة مجمع اللغة العربية مع العميد... ودارت أحاديث طيبة وتناولنا غداء شهياً... ثم جاءت لحظات التوديع المؤثرة والتوجه إلى عمان، حيث محاضرة المجمع عن ترجمة المواد الجامعية العلمية إلى العربية ألقاها أستاذ متخصص من آل جرار... وحيث اللقاء بالدوري والسامرائي (رحمهما الله) وعدد من الأساتذة...

توجهنا لأداء صلاة المغرب ومنها إلى كلية الهندسة بمعية الدكتور محمد زكي، للاطلاع إلى عمل الانترنيت، وتوجيه رسالة إلى الدكتور القرضاوي تهنئة بسلامته... عدنا بعدها إلى بيت الدبو لتناول عشاء طيب، ولتسلم عقد جاء به من بيروت أحد الأصدقاء بخصوص طبع (دراسة في السيرة) مع دار النفائس... أعود بصحبة الدكتور محمد زكي وسط إحساس مزيج من الإعياء والغثيان والاكتئاب، والرغبة في النوم الذي أقاومه بصعوبة وأشمر عن ساعد الجد لإنجاز الكثير من المعلقات... إذ أخذ الوقت يضيق عليّ الخناق أكثر فأكثر، وأمامي يوم غد المزيد قبل أن أستقل الباص عائداً إلى بلدي بعون الله...

الأحد: ٥/١١: الاستيقاظ القلق... مكالمات هاتفية عديدة... ترتيب الحقائب وشيء من الارتياح... صرف الأردني وتحويله إلى دولارات... استقرار الرأي على حمل الحقائب إلى المعهد والانطلاق من هناك... دوامة من الملاحقة والعمل وشد الأعصاب والصراع مع الزمن في المعهد يذكرني بيوم مغادرتي زمن الرحلة اليمنية... مجيء العوضي وحلّ جلّ الإشكاليات المعلقة بما

في ذلك التزامه بمتابعة كتابي (التأصيل الإسلامي للتاريخ) في طبعته الجديدة... الانطلاق مع مدير عام مؤسسة سجا ومعاونه (عماد الخطيب) والعوضي لتناول الغداء في مطعم ريم البادية، حيث الإحساس العميق بالتحرر والتخفف والصراع ضد الزمن... واحدة من أجمل الجلسات وأكثرها سعادة لولا ضيق الوقت...

التوجه بسرعة إلى كراج الجت والوصول قبيل دقائق من المغادرة... وتوديع المضيفين والاستقرار السعيد في الباص مخلفاً ورائي تلالاً من الهموم والمطالب والشد النفسي، التي افترستني عبر رحلتي إلى عمان... ها أنا ذا أجدني مسترخياً الساعات الطوال في واحدة من أكثر رحلاتي الخارجية راحة وسعادة... ويزيدني ارتياحاً قلة عدد المسافرين، وعدم تفتيش الحقائب في رويشد، واكتشاف السوق الحرة في طريبيل وشراء قدر بخاري وجهاز راديو مسجل بعد تردد بينهما وبين جهاز الفيديو... نوم طيب في الباص حتى لحظات الوصول إلى بغداد، ثم العثور بسهولة على سيارة فارهة للعودة إلى الموصل وتزايد الإحساس بالسعادة... لحظة الوصول السعيد صباح الاثنين، والأحاديث الطيبة، وعرض المشتريات... والغداء اللذيذ...

[٢٧]

رحلة عام ١٩٩٧ م إلى ماليزيا

الجمعة ١٠/٣٠: يوم الجحيم... ورم القدم... مطالب الموصليين... كآبة ليلة السفر.

السبت ١١/١: ارتياح لتحسن القدم... رحلة مريحة إلى بغداد بجوار طالب قديم... الانتظار القلق في صالة الجت، وقلق الحصول على مقعد في باص الثانية، وفرحة تحقيق المطلوب... رحلة مريحة في الباص... متاعب تفتيش الرسائل... الوصول فجراً...

الأحد: ارتياح الاستقرار في الفندق... اغتمام بسبب سفر صاحب

الدكتوراه وقريبه وعدم الحصول على مكالمة مع الموصل، وتأخر السفر إلى يوم الخميس... التوجه القلق إلى المعهد وإنجاز العديد من الأعمال... انزعاج لعدم وصول تقويمي عن أطروحة الغزاوي إلى محيي الدين عطية، وعدم وصول فاكسين إلى باكستان والإمارات بخصوص الصكوك المعلقة... فرحة غامرة بوصول مجموع حقوقي المالية عن أعمالي للمعهد عبر السنوات الأخيرة...

لحظات من التمزق والحيرة بخصوص عرض دكتور محمد زكي فكرة السعي للحصول على مقعد إلى ماليزيا هذه الليلة، ثم مكالمته بعد قليل بحصوله فعلاً... وإحساس قاسٍ بالندم على الموافقة، حيث تنتظرني في عمان جملة كبيرة من المطالب، وحيث رتبت مع العوضي مبدئياً محاضرتين في المعهد وعدة محاضرات في الزرقاء... إحساس بعد قليل بالارتياح وترتيب العديد من الأمور المعلقة، وتأجيل الباقي لحين العودة بعد برمجة المحاضرات مع العوضي...

ساعات من شد الأعصاب مع المطالب والاتصالات الهاتفية وإحساس بالتخفف شيئاً فشيئاً... ارتياح لوعد مدير دار الفرقان بقرب نشر كتابي عن (التأصيل الإسلامي للتاريخ)، وآخر عن (المرأة من منظور غربي)... وبالاتفاق مع محرري الأمة الأردنية بتحويل مقالاتي القصيرة إلى مجلة الشرق القطرية الأسبوعية، لكي تنشر هناك عبر كل أسبوع لقاء مكافأة طيبة... معنى ذلك أن تتاح الفرصة لنشر الكتاب الأم في منشورات فلسطين المسلمة في وقت قريب إن شاء الله... محاولات عديدة فاشلة للاتصال مع الموصل... إحساس بالاكتئاب بعيد المغرب... والذهاب مع دكتور زكي لأخذ الأغراض من الفندق... جلسة طيبة في مطعم حبيبة... وصالة انتظار باصات المطار... الانطلاق المريح إلى المطار والانتظار الطيب لإقلاع الطائرة... ورحلة مريحة مضت في نوم عميق...

الاثنين: الوصول القلق إلى المطار... نصف ساعة من شد الأعصاب بسبب متاعب الحصول على الفيزا والتخوّف من عدم وجود المستقبلين...

لحظة الانفراج المترعة بالغبطة والانطلاق من المطار حيث ينتظرني العديد من المستقبلين والاستقرار في فندق رائع... زيارة ثلاثة من المعارف وتسليم الرسائل والمتاع، وتلقي وجبة طيبة من الفواكه... أمسية وعشاء طيب في بيت مدير الجامعة الأستاذ الدكتور عبد الحميد أبو سليمان، وأحاديث ونكات متواصلة مع عدد من الأساتذة المصريين والجزائريين الخ... المدعوين إلى العشاء...

الثلاثاء: الاستيقاظ بعد نوم عميق... التوجه مع سائق العلاقات إلى الكلية... جلسة طيبة في غرفة العميد الأستاذ الدكتور جمال البرزنجي وترتيبات مبدئية لعناوين المحاضرات في سياقاتها المختلفة... العودة إلى الفندق وتناول وجبة سمك في المطعم... قيلولة عميقة... ثم شاي وبعض الإنجازات المكتبية... زيارة للدكتور أحمد الكبيسي وأحاديث طيبة... عشاء في الفندق... أمسية مع دكتور منجد ودكتور مجاهد حتى ساعة متأخرة، وتداول في طلبات الموصليين الكثيفة...

الأربعاء: الاستيقاظ القلق بصدد الحصول على سيارة توصلني إلى الجامعة... العلاقات ترسل السيارة... زيارة لمعاون العميد والعديد من الأساتذة... ترتيب المحاضرات بشكل شبه نهائي... رد الزيارة للكبيسي وارتياح عميق لتبيُّن أن الجامعة لا تغطي مصاريف الضيوف سوى لثلاثة أيام فقط، معنى ذلك أنني سأتحرر من أكل الفندق وسآكل كما أشاء فيما كنت أحلم به في رحلاتي السابقة... أمسية طيبة مع دكتور سفيان الأرحيّم وتجوال في السيارة ومشياً على الأقدام، وعشاء طيب في إحدى مناطق العاصمة وأحاديث ذوات شجون... عمل في الفندق حتى ساعة متأخرة...

الخميس: قلق بصدد صيغة الوصول للجامعة... مروان الطالب يتصل هاتفياً فيبشرني بأن الأهل قد أُعلموا بوصولي... وبأنه سيرتب أمر السيارة... التوجه إلى الكلية وإنجاز مطالب الفيزا... تناول الغداء في مطعم الكلية مع مجاهد... قيلولة في الفندق ثم عمل حتى الثامنة... الخروج للبحث عن

بقاليات ومطاعم لتناول العشاء وشراء بعض المطالب... ارتياح عميق للعثور على المطلوب قريباً من الفندق... تناول عشاء طيب وعمل حتى ساعة متأخرة...

الجمعة: مدير العلاقات يأخذني في زيارة للبنايات الجديدة الرائعة للجامعة... صلاة الجمعة في جامع الجامعة... معاناة مع الحر والرطوبة وضيق النفس... أحد الأساتذة يقلني إلى الفندق... قيلولة... ثم جلسة شرب الشاي والعمل حتى موعد العشاء ومنه إلى منطقة المطاعم... تناول وجبة لذيذة من الكنتاكي وشراء عدد من الحاجيات... جلسة استرخاء في صالة الفندق... الصعود والعمل المتواصل حتى ساعة متأخرة...

السبت: التوجه مشياً إلى الجامعة وارتياح لاكتشاف الطريق وقرب المسافة لولا متاعب الحر والرطوبة وضيق النفس... ترتيب موعد قادم مع العميد... جلسة في غرفة أحد أساتذة الشريعة وشرب الشاي هناك... جلسة أخرى في غرفة مجاهد وحل إشكالية أوراق خالد عثمان التي أقلقتني ليومين، وكذلك وسيلة الحصول على سلفة نقدية... لقاءات وتقويمات سخية من قبل العديد من الأساتذة والطلبة... التوجه إلى قاعة الطبري لإلقاء المحاضرة الأولى عن (تجربتي مع النقد) وتقديم مترع بالسخاء من قبل أستاذ سوداني... إلقاء محاضرة في أقصى درجات التمكن والانسيابية والهدوء وتغطية المفردات والخصب والحيوية فيما لم أكن أتوقع أن يكون بهذا المستوى بفضل الله... أحد الأساتذة يهديني عدداً من الأبيات... أسئلة وحوار خصب في صميم الموضوع... مجاهد يكرمني بوجبة غداء سفري وجملة سخية من المشتريات...

العودة إلى الفندق... عبر واحدة من أجمل وأطيب الساعات في رحلتي هذه، وأقول في نفسي إنه لأجمل يوم والحمد لله... تناول غداء طيب ثم قيلولة قصيرة... جلسة شرب الشاي... وكتابة المذكرات بانتظار موعدي مع دكتور سفيان... تناول عشاء متخم هناك... مناقشات عن الحضارة والتاريخ لم أجد فيها الفرصة الكافية للمداخلة... وعندما وجدتها أخيراً رأيتني قبالة أحد

الدارسين في أمريكا المعجبين بالتفوّق الغربي، المستسلمين للأمر الواقع... وعبثاً أحاول إقناعه... كان يناقشني بمنطق الوقائع ويشكك بقدرة الإسلام والحضارة الإسلامية على تأكيد وجودها أو استعادته ويرفض بشكل قاطع أية رؤية تتشبث بالمعطيات العقدية والقرآنية لتنفيذ المطلوب رغم أنه يصوم ويصلي ويعمل في جامعة إسلامية ويتعاون مع معهد إسلامي عالمي!! وكان يعتمد أسلوب الصراخ واحتكار الوقت وعدم منح الآخر الفرصة للانسياب في طرحه...

وتذكرت قول الكبيسي بخصوص النقاش من أن فلاناً لا يعتمد أسلوب الجدل السليم وأن مشكلته أنه يريد التحدث في أي موضوع... نزلت إلى الصالة لأسترخي قليلاً فوجدتني قبالة منظر جنسي لا يسرّ... يثير القرف... عدت ثانية إلى الغرفة... ووجدتني أهرع إلى العمل وممارسة رياضتي اليومية ثم التوجه لكتابة هذه المذكرات...

الأحد: استيقظت مرتاحاً بعض الشيء، فأنا على موعد مع منجد وعائلته للقيام برحلة غداء ومشاهدة بعض معالم كوالا لامبور... اطلعنا على جامع شهير، ثم تجولنا في حديقة الطيور في منطقة مدهشة في جمال طبيعتها وإعجاز خلق الله في عالَمَي النبات والحيوان... لكن الحر القاسي والرطوبة المرتفعة أهاجت عليَّ متاعبي مع النفَس والرجلين، ثم ما لبثنا أن تناولنا غداء دسماً في بقعة من أجمل البقاع في الأرض، وقمنا لكي نتجول ونتبادل الأحاديث... وما لبثت الغيوم أن أنذرت بالمطر العنيف كالعادة فقفلنا عائدين... ودخلت الفندق في الحالة التي كانت تتكرر دائماً عبر رحلاتي: اكتئاب قاسٍ لا يطاق... لكنني جابهته بأخذ حمام ساخن وقيلولة قصيرة قطعتها مكالمة من سفيان جاءت وكأنها انتشال لي من بئر الاكتئاب...

خرجنا لكي نتجول في جامع شاه سلطان المدهش، الذي يعدّ واحداً من أجمل المساجد في العالم... ثم صلينا المغرب وقفلنا عائدين لكي ندخل أحد السوبرماركتات الرائعة... فنتناول المعجنات ونتجول في معارضه ونتبادل

الأحاديث الطيبة، حيث عرض سفيان عليَّ دعوتين إحداهما لتناول الأسماك البحرية، وأشار إلى استمتاعه وبقية المدعوين بمناقشة يوم أمس...

عدت إلى الفندق مرتاحاً لكي أتناول عشائي في الغرفة بشهية، وأجد عند الباب مجموعة كبيرة من قناني الماء الصحي هدية من دكتور عارف، ولكي أنزل إلى الصالة فأسترخي فيها مرتاحاً أكثر من ساعة، وأكتشف ـ سعيداً ـ صيغة لكتابة عشرات الحلقات لمجلة الشرق القطرية مستمدة من مؤلفاتي، وبذلك أتجاوز متاعب كتابة حلقات جديدة، وأحصل على ربح طيب والحمد لله...

وكانت تخترقني بين حين وحين أفكار سوداوية عن زوجتي وابني، فأدعو الله ﷻ من أعماق قلبي أن يحفظهما ويقيهما كل سوء... وخرجت إلى الغرفة لكي أتناول الفاكهة وأكتب بعض الوقت، ثم أمارس الرياضة اليومية وأنام...

الاثنين: تناولت فطوري واتجهت مشياً إلى الكلية... وصلت مكدوداً من الحر والعرق والرطوبة... فوجئت لدى سكرتارية معاون العميد بتعليمات الموفدين وقد انتقصت حقوقي. فآلمني ذلك كما أثقل عليَّ ضرورة ملء الاستمارة الملأى بأسئلة تصعب الإجابة عليها. ذهبت لزيارة المعهد العالمي لإرسال الفاكسات فلم أجد مديره... توجهت إلى المكتبة وقضيت وقتاً مع عدد جديد من مجلة الأدب الإسلامي كثرت فيه الإشارات حولي، كما تضمن مقالي عن أغاريد المسلم الصغير. عدت إلى الكلية وجلست في غرفة دكتور مجاهد، ومنها إلى المطعم لشراء الغداء، ثم العودة إلى الفندق في سيارة دكتور عبد القهار العاني... كنت تعساً مشتتاً وقلت في نفسي: متى أجعل الرحلات تجربة سعيدة بعد إذ أبذل للحصول على الموافقات بخصوصها أشهراً طويلة من أعصابي؟!

تناولت غدائي وأخذت قيلولة خفيفة، ثم استيقظت على رشقة من الاكتئاب ذكّرتني بأيام رحلتي إلى صنعاء... قمت مسرعاً لمجابهة الحصار النفسي بالعمل وأنجزت العديد من الأمور المكتبية... واتصلت هاتفياً بسفيان لإعانتي على ملء الاستمارات فلم يكن في البيت... اتصل بي منجد ليعلمني أن أوراق

خالد قد تم العثور عليها فرقصت فرحاً وقلت في نفسي: ماذا لو سمعت صوت زوجتي وأطمأننت عليها في الهاتف كما كان يحدث في رحلاتي السابقة؟!... ولكن كيف السبيل؟! وكيف أتجاوز الوساوس القاسية التي تنقض عليّ بخصوصها كالمطر فتزيدني تعاسة واكتئاباً؟

إدارة الفندق تتصل بي هاتفياً حول التفاهم معهم بخصوص الإقامة في الفندق... أنصرف إلى العمل لعدة ساعات... وأتناول عشائي في الفندق ثم أصعد لأقضي ساعة طيبة مع الكبيسي، وأنزل إلى الصالة فلا أجد مكاناً، فأرجع إلى الغرفة مع لمسات من الاكتئاب المعهود، الذي أسكته بجولة أخرى من العمل... فعشاء آخر!! فرياضتي اليومية ثم النوم... حيث أسرح قبل أن يأخذني بالأيام التي سأستقر فيها في الموصل، وأستيقظ صباحاً وليس ثمة ما يكدّرني أو يكئبني إن شاء الله!!

الثلاثاء: يوم الجحيمين والنعيمين!! اتجهت إلى الكلية أحمل معي هموم مطالب متشعبة مع العميد ومعاونه ومدير المعهد الإسلامي والمحاضرة الثانية... لم أجد معاون العميد وكذلك مدير المعهد فانتابني الضيق... وزادني ضيقاً أن لم أجد مقعداً على الطائرة الأردنية الوحيدة المغادرة إلى عمان في آخر الشهر... توجهت إلى غرفة دكتور مجاهد وأنا في أقصى حالات التوتر واليأس... وقلت في نفسي يبدو أن رحلاتي إلى الخارج محتوم فيها شد الأعصاب والإحباط وسائر المنغصات التي تحيل أيامها إلى جحيم... ثم الاتصال بالدكتور قطب سانو، فجاءني بنفسه... وعرضت عليه معاونتي في مسألة الحجز، فتسلم التذكرة ووعدني خيراً فأحسست بقدر من الارتياح... شربت السيريلاك عنده وأكلت البسكويت واتجهنا سوية إلى غرفة العميد...

دقائق ودخلنا عليه، حيث استطعت عبر وقت قصير جداً أن أصفي معه العديد من المعلقات، وأن أشعر بارتياح عميق، وزادني ارتياحاً دخول المعاون الدكتور نزار العاني، حيث تمت تصفية معلقات عديدة، ووعد الرجلان بحسم موضوع الحجز...

فغادرت الغرفة أكاد أطير فرحاً واستقراراً، وقلت في نفسي: إن هذه الحالة ستعينني ـ كالعادة ـ على الإبداع في محاضرتي على خلاف ما لو كنت في وضع التعاسة إياها... دخلت قاعة الطبري التي امتلأت بعد قليل بالحضور، وقدمني دكتور ليبي بسخاء قائلاً أنني أحد رواد الفكر الإسلامي المعاصر الخ... وبدأت ألقي محاضرتي بتدفق وتمكّن بفضل الله... ورغم أن سرعتي في الأداء جاوزت ما كنت أتمناه، وسيطرتي على المانشيتات فقدت تسلسلها، إلّا أني قلت أكثر مما كنت أتمناه...

ولقيت المحاضرة تقييماً واسعاً... وأعقبتها مناقشات خصبة أجبت عنها بتمكّن وانسيابية والحمد لله... تلقيت التهاني وتعرّفت على حشود الحاضرين... وغادرت القاعة بمعية دكتور عبد القهار العاني وسط إحساس غامر بالثقة والفرح، ودخلت الفندق وصعدت الغرفة لكي أبدأ بالتهام ما تبقى من كبد الدجاج اللذيذ.

وما هي إلّا دقيقة أو دقيقتين حتى رنّ جرس الهاتف فإذا بمجاهد يخبرني أن قطب حجز لي على يوم الجمعة ١١/٢٨: أي قبل الموعد المتفق عليه مع العمادة بثلاثة أيام، ومعنى ذلك أنني سأخسر هذه الأيام بما فيها من مخصصات مجزية، فضلاً عن تضارب الموعد مع محاضرتي الأخيرة يوم ٢٩/ ١١... طلبت منه أن يبذل جهده مع قطب لتدارك الموقف، وأقفلت السماعة وأنا أحسّ أني أدخل دائرة الجحيم مرةً أخرى، وازدردت غدائي دون إحساس بطعمه وأنا أقول في نفسي: ماذا لو تركني مجاهد أرتشف سعادتي الغامرة وأتناول غدائي بشهية وارتياح؟! أحسست بالقلق والتشتت... حاولت أن أغفو قليلاً فلم أستطع... غادرت المنام لكي أدخل الحمام... دق جرس الهاتف هرعت إليه عرياناً، وأنا أقول في نفسي ماذا لو كان المتحدث الدكتور قطب سانو، الذي اتصلت به مرتين دون جدوى... فإذا به هو وإذا به يبشرني بتغيير موعد الحجز مبدئياً إلى يوم الاثنين ١٢/١.

كدت أطير من الفرح وزادني فرحاً أن يدعوني لحضور سيمنار عن أسلمة

المعرفة بعد يومين... عدت إلى الحمام وأنا أكاد أرقص ورحت أغنّي والماء الساخن ينصبّ عليَّ بسخاء... وقلت في نفسي ها أنا ذا أحقق ما كنت أتمناه وأدخل دائرة النعيم ثانية... وقلت لعلها آخر حلقة من حلقات العذاب في هذه الرحلة... تناولت الشاي بارتياح وأنجزت العديد من الأعمال المكتبية، وغادرت الغرفة ميمماً وجهي صوب مطعم الكانتاكي الأنيق والجوع يعتصرني فإذا بي أفاجأ بانصباب المطر، فجلست أنتظر في الصالة دن جدوى، ثم وجدتني مرغماً على الصعود إلى الغرفة لتناول عشاءً من الجرز والبسكويت والعنب. ثم نزلت إلى الصالة لكي أسترخي هناك أكثر من ساعة أعود بعدها إلى الغرفة لتدوين المذكرات وإنجاز بعض الأعمال الكتابية وممارسة الرياضة ثم الاستسلام للنوم...

الأربعاء: النوم كان عميقاً... ولأول مرة أستيقظ منشرحاً (!!) أتجه إلى الكلية حيث موعدي مع دكتور قطب لضمان الحجز على يوم (١٢/١)، وأجلس طويلاً في غرفة دكتور مجاهد فلا يأتي... يتم الاتصال الهاتفي به... وأتجه إلى إدارة مجلتَي إسلامية المعرفة والتجديد... وأتلقى من الميساوي أجوبة على أسئلتي كافة التي أدّخرتها لمدير المعهد (لؤي صافي) دون أن أحظى بلقائه: مكافآت البحثين، وهوية المستقلة، وإرسال الفاكسات، وتسلّم الأعداد الأخيرة من المجلتين... الخ... ودعوة من مدير تحرير التجديد للكتابة فيها... يجيئني هناك دكتور قطب ليسلمني التذكرة وفق موعدها الجديد الذي لم يعد يحتاج - بحمد الله ﷻ ـ سوى إلى تثبيت... أعود إلى غرفة مجاهد بصحبة طالب ماجستير باكستاني يعاونني في ملء الاستمارة الخضراء بخصوص الأساتذة الزائرين والمترعة بالأسئلة...

أتجه بها إلى دكتور نزار وأجلس هناك جلسة ودية حيث يتم تنقيح الاستمارة وأتحرّر من قلقها، وأزيل آخر حاجز بخصوص تسلّم مكافأتي المالية... ألتقي عبر الطريق بالعديد من الأساتذة وأتلقى المزيد من التقويمات السخية والدعوات بالموفقية... ويشير أكثر من واحد إلى كوني أحد رواد الفكر

الإسلامي المعاصر (فأحمد الله سبحانه على أن آتاني من فضله حيث لا أستحقّ عشر معشاره ولكنه الكرم الإلهي)...

أتناول غدائي من الدجاج المشوي بالتنور مع دكتور عارف واثنين من الأساتذة الطيبين... أتلقى إشعاراً باستضافتي مساء غد الخميس في المعهد عبر جلسة خاصة لطرح تصوراتي عن التأصيل الإسلامي للتاريخ والحضارة، وأتفق مع دكتور قطب حول المجيء إلى الفندق لاصطحابي إلى هناك... أرتب مع رئيس قسم التاريخ موعداً للقاء بأساتذة القسم... حيث يطلب رئيس القسم ويعرب عن ترحيبه وسعادته وأعضاء القسم... ثم ما ألبث أن أؤجل الموعد، بسبب اجتماع مع رئيس الجامعة سيحضره رؤساء الأقسام صباح الجمعة...

أعود إلى الفندق مشياً، وأعاني عبر الطريق من الحر والرطوبة والعرق الغزير... أصل الفندق منهكاً ولكني سعيد... فما دام ليس ثمة ما يقلق فإن المتاعب الجسدية لا تعني شيئاً... آخذ حماماً مريحاً وأصلي الظهر، ثم أحاول أن أنام قليلاً. وما يلبث هاتف من الدكتور جمال البرزنجي عميد الكلية أن يوقظني: دعوة على العشاء في بيته مساء الجمعة... واستفسار عن الطريقة التي يمكن أن نتلقى من خلالها جواب الحاج صلاح المختار حول نوعية الدواء الذي طلبه لزوجته...

أشرب الشاي وأصلي العصر وأقف خلف النافذة ملقياً نظرة على كوالامبور قبيل الغروب... أنجز عدداً من الأعمال المكتبية بانتظار دكتور سفيان، ولكنه لا يأتي ويقرصني الجوع، فأغادر الفندق إلى أحد المطاعم لالتهام الكانتاكي اللذيذ وتوابعه، ثم أغادر المكان لشراء بعض المعجنات وأعود إلى الفندق...

رشقات من الكآبة تصفعني عبر الطريق... لكن ما أن أصل الفندق وأجلس مسترخياً في مكاني المفضل من الصالة حتى تزول كآبتي... لكنّ قلقاً وخوفاً خفياً يتناوشني تجاه الوضع الصحي لزوجتي وابني فأكِلُها لله... وأغادر المكان وأصعد إلى الغرفة حيث أنكبُّ على العمل فأزيل به كل المنغصات،

وأشعر بارتياح عميق وأنا أصغي المعلقات الواحدة تلو الأخرى... وبخاصة ترتيب ورقة مقنعة بخصوص لقاء يوم غد حول التأصيل الإسلامي للتاريخ والحضارة... أتناول شيئاً من الفاكهة وأمارس رياضتي اليومية، ثم أسلم نفسي للنوم بعد جولة من الهواجس المقلقة بخصوص زوجتي، ولكن الله ﷻ هو الحافظ...

الخميس: أستيقظ مرتاحاً فأنا لست ملزماً بالذهاب إلى الكلية... أتناول فطوري وأنزل إلى الصالة لكتابة واحد من البحوث التي قررت إنجاز جانب منها عبر أوقات فراغي لئلا يفترسني القلق والملل من جهة، ولكي لا تشكل عليَّ عبئاً بعد عودتي إلى الموصل إن شاء الله، حيث قررت أن آخذ عطلة لعدة أسابيع...

ورغم نومي الساعات الطوال عبر الليل فقد أخذ يداعبني النعاس، ومع ذلك شمرت عن ساعد الجد وكتبت معظم المطلوب في بحث عن «نشوء الحضارات في المنظور القرآني». وحانت الواحدة ظهراً وأنا أحسّ بسعادة غامرة شأن كل إنجاز... توجهت صوب منطقة الأسواق على بعد ربع ساعة من الفندق لتناول الغداء، لكن الرطوبة والحر أحالا المشي إلى شيء صعب... ووجدتني أدخل مطعماً صينياً شعبياً وأتناول وجبة غدائي على مضض، ثم أغادره إلى السوبر ماركت الكبير لشراء الموز والمنكا...

عدت إلى الفندق والعرق ينزّ من جسدي، وصليت الظهر ثم أخذت قيلولة متقطعة وسط أصوات المطر اللذيذ ثم ما لبث أن أنهاها صوت الهاتف، حيث سمعت أحد المعجبين! يتحدث معي بالإنكليزية ويطلب موعداً للقاء... أنجزت بعض الأعمال بانتظار دكتور قطب... وفي الساعة السابعة وضعت نفسي كعادتي في دائرة القلق وشد الأعصاب دون مبرر، إذ رحت أنتظر قطب أكثر من نصف ساعة دون أن يأتي، فانتابني القلق من نسيانه الموعد. وحينذاك قد لا تتاح فرصة الذهاب إلى المعهد لإلقاء محاضرتي وفق الموعد المتفق عليه...

وهرعت إلى الغرفة للاتصال الهاتفي به، فلم يفتح الباب، فنزلت مسرعاً

لشحن البطاقة والعودة للاتصال، فلم أحصل عليه في المكتب. أو في البيت وما لبث أن تلفن لي وتبين أن الموعد السابعة والنصف.

وهكذا ضيعت على نفسي صلاة المغرب وأتلفت أعصابي دون مبرر... اتجهنا إلى قاعة الشافعي، حيث كان في الانتظار نخبة من المعنيين بالتأصيل الإسلامي من قسم التاريخ والمعهد... وتم الترحيب الحار وبدأت إلقاء محاضرتي... كانت مزدحمة مترعة بالتفاصيل ورغم اضطراري إلى الإيقاع السريع، الذي لا أرتاح إليه، إلاّ أنني كنت أمسك بأعنّتها جيداً... وانتهيت لكي أتلقى بعدها سيلاً من التقويمات من معظم المتحدثين وذلك من فضل الله... وطُرحت الأسئلة وتمت الإجابة عليها...وأشار أكثر من واحد إلى ضرورة الاستفادة من وجودي، كما طلب عميد الكلية بقائي لفترة غير محددة، لكنني أقنعتهم بأن في الأسبوعين المتبقيين متسع لمناقشة العديد من الأمور بخصوص التأصيل الإسلامي للتاريخ، وبخصوص المؤتمر الخاص بالموضوع والذي اقترحه عميد الكلية...

وتم تشكيل لجنة والاتفاق على موعد مستعجل صبيحة الغد... كما تلقيت دعوات لحضور لقاءات مع أساتذة قسم التاريخ... والجمعية الخلدونية والأدباء... فأعربت عن استعدادي... وتناولنا العشاء فلم أحسّ بطعمه ولم أواصل التهامه بسبب كثرة المتحلقين حولي... فضلاً عن شدة توابله... وغادرنا المكان لأجري مكالمة هاتفية مع دكتور أنس... وأرجع بمعية دكتور قطب إلى الفندق بعد أن أنجزت عدداً آخر من المطالب المعلقة التي يبدو أنها لن تنتهي أبداً... دخلت الغرفة وسط الحالة إياها من التشتت والإعياء، فشمّرت عن ساعد الجد ورتبت الأوراق وأنجزت بعض المسائل، وتناولت عشاءً خفيفاً ثم مارست رياضتي وأسلمت نفسي للنوم...

الجمعة: تناولت فطوري واتجهت إلى الكلية بمعية دكتور محسن محمد صالح، الذي حدثني عن تأثره بكتاباتي وتتلمذه عليها وعدد من أصدقائه أيام الثانوية في فلسطين، وعن دورها في بناء الجيل (فحمدت الله ﷻ على فضله

الذي لا حدود له)... التقيت عبر جلسة طويلة بممثل المعهد دكتور لؤي صافي، وتم تبادل وجهات النظر وطرح المقترحات فيما يمكن عمله بخصوص التأصيل الإسلامي. كما تم الاتفاق على اتخاذ بعض الخطوات العملية وإجراء لقاءات أخرى لاستكمال الموضوع... غادرت المكان قبيل صلاة الجمعة وأمامي متسع من الوقت... كنت أحسّ كعادتي دائماً إزاء التبذير في الزمن بالقلق والذنب في أني أفرّط فيه، وأن ساعات اليوم لم توظّف بما فيه الكفاية...

اتجهت لزيارة دكتور مجاهد وأخيه فلم أجدهما. فيممت وجهي صوب المطعم للاطلاع على مأكولاته التي أخذت تزعجني بكثرة توابلها، ثم اتجهت إلى مسجد الجامعة لأداء الصلاة... غادرت المكان بحثاً عن عائد يوصلني إلى الفندق خشية من الرجوع مشياً وما يعنيه ذلك من متاعب الحرّ والإعياء والعرق... ومضى أكثر من نصف ساعة في غرفة دكتور قطب بانتظار الشخص... كادت أعصابي خلالها تنهض واقفة من آثار الجوع ونفاد الصبر...

اطلعت هناك على كتاب جديد من إصدارات المعهد عن سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، وآلمني أن صاحبه رغم إشارته إلى العديد من كتبي في اعتماداته لم يشر بما فيه الكفاية إلى (التفسير الإسلامي للتاريخ)، الذي سبقه في هذا الموضوع، والذي اعتمد على العديد من مقاطعه (بعد تغييرات طفيفة) دون أن يشير إلى الكتاب...

أوصلني طالب ماليزي يتكلم العربية والإنكليزية... ألقيت في الفندق عصا الترحال، وهرعت قبل استبدال ثيابي لتناول غداء خفيف، ثم أخذت قيلولة طيبة واستيقظت لكي أنجز بعض الأعمال، وأرتب قائمة بمواعيد المطالب واللقاءات والمحاضرات التي انهالت عليَّ (من قسم التاريخ، ومنتدى ابن خلدون، والمعهد، وجمعية الثقافة الإسلامية... الخ)... ولأشرب الشاي وأتهيأ والدكتور الكبيسي للذهاب بمعية دكتور سفيان لتناول العشاء وقضاء الأمسية في بيت دكتور جمال البرزنجي.

انتظار أكثر من نصف ساعة عند مدخل الفندق قبالة الأمطار الغزيرة،

وحماية النظر من الوقوع هنا وهناك على المتبرجات القادمات إلى حفل في الفندق، وهن في أقصى درجات العري والتزّين، وتعليقات وقفشات مضحكة مع الكبيسي... الوصول إلى دار دكتور جمال... وبدء الأمسية بحوار حول الفلسفة. وما لبث دكتور جمال أن أشار إلى اللقاء الخصب يوم أمس وطروحاتي المنهجية في تدريس التاريخ والحضارة، وضرورة تطبيقها بسبب أهميتها البالغة، وثنّى عليه بعض الحاضرين.وأشار رئيس الجامعة ومعاون العميد إلى ضرورة الاجتماع بقسم التاريخ لاتخاذ بعض الخطوات العملية، وأكد أحد أساتذة الفلسفة أن طموحات كهذه إن لم تدخل حيز التنفيذ فسوف تضيّع فرصة طيبة...

حمدت الله في سرّي، وأحسست بسعادة غامرة عبر بقية ساعات الأمسية، وبخاصة بعد زيارة اثنين من الدعاة القادمين من ألمانيا، أحدهما مصري والآخر ألماني كان قد أعلن إسلامه وهو من رجال الأعمال، وتم الحديث عن الجهود المبذولة هناك وعن انفساح الساحة الألمانية للدعوة، وإسلام الكثيرين، وعن إنشاء دار نشر إسلامية وترجمة القرآن ومعانيه لأول مرة كاملاً إلى الألمانية... واحتمال تنفيذ ترجمات أخرى إلى الروسية والايطالية والإسبانية والفرنسية وغيرها من اللغات الكبرى... وعن إعلان المتحدث الرسمي بلسان الحزب المسيحي الديمقراطي الألماني إسلامه... وعن الحاجة القصوى لتشجيع المؤسسات العربية والإسلامية لهذه المبادرات بإسنادها مادياً...

أما العشاء فكان أروع مائدة منذ قدومي ماليزيا بسبب طريقته الموصلية، وخلوّه من الفلافل... وتناولته بشهية بالغة... وغادرنا المكان في ساعة متأخرة من الليل لكي نقوم بجولة مع سفيان عبر إيصالي والكبيسي إلى الفندق... ودخلت غرفتي سعيداً منسجماً...

السبت: اتجهت مشياً إلى الكلية... كنت سعيداً منشرحاً... والمحاضرة التي سألقيها في العاشرة عن (عصر الرسالة مشروعاً حضارياً) قد أمسكت بخيوطها... وقدمني دكتور محسن صالح بسخاء، وتحدث عن قراءته المبكرة

أيام دراسته الإعدادية لكتابي (ملامح الانقلاب) وعناصر الجدّة والشد فيه وإغرائه بمتابعة مؤلفاتي بعد ذلك... ألقيت المحاضرة بتمكّن تام والحمد لله، وتلقيت أسئلة طيبة وتقويمات سخية، وتمت مناقشة العديد من الموضوعات...

تحلّق حولي بعد انتهاء المحاضرة الأساتذة والطلبة والطالبات؛ هذا يسال وهذا يعرض موضوعاً لدراسته العليا وذاك يطلب تلبية لدعوته... جلست قليلاً في غرفة الدكتور سلامة البلوي لمعاونة طالبَيْ دراسات عليا في الأدب على صياغة موضوعاتهما... وانتهزت الفرصة، وكان أحدهما أفغانياً والآخر صومالياً، فسألتهما عن الكثير مما جرى ويجري في بلديهما...

خرجت لكي أشتري غدائي المفضل من (معلاق الدجاج) وأرجع بمعية دكتور سلامة إلى الفندق، حيث وجه لي دعوة غداء أو عشاء في بيته وعبثاً حاولت الاعتذار... دخلت الغرفة والجوع يفترسني فتناولت غداء خفيفاً استعداداً لدعوة دكتور مجاهد على العشاء، وأخذت قيلولة قصيرة، وقمت لكي أشرب الشاي وآخذ حماماً وأدوّن مذكراتي هذه، وأتصل هاتفياً بالكبيسي لكي يتهيأ للموعد مع مجاهد، ولكنه اعتذر وأشار في سياق الحديث إلى أن محاضراتي لقيت استحساناً «هائلاً»، وأنها كانت فضلاً عن جوانبها العلمية تعكس أسلوباً أدبياً رائعاً...

فحمدت الله وحده على هذا التوفيق، وأقفلت الهاتف وقد تحققت بثقة أكثر قبالة الوساوس والأوهام، التي تخيل لي أحياناً أن بعض محاضراتي ليست بالمستوى المطلوب!! وخرجت مع مجاهد ومنجد في جولة إلى جامع شاه علم الرائع، وعدنا إلى الفندق لاستصحاب الكبيسي. فاعتذر ويممنا صوب دار مجاهد لكي نتبادل الأحاديث الطيبة ونتناول عشاءً رائعاً... وعدت وأنا أحمل معي عدداً جديداً من مجلة (الأدب الإسلامي)، الذي يتضمن حواراً مع ناقد مغربي حول «المنهج» وخبراً عن محاضرتي في عمان في مايس الماضي... عدت بصحبة سفيان، حيث قمنا بجولة في شوارع المدينة، ثم دخلت الفندق متعباً لكي ما ألبث أن أغوص في نوم عميق...

الأحد: اتصلت بزياد الأرحيم فطلب القيام بجولة إلى برج كوالا لامبور، فأعلمته أنني أرغب في استغلال ساعات الصباح للعمل في الفندق، وأن الأفضل تأجيل الجولة إلى المساء...

نزلت إلى صالة الفندق وأنجزت عبر عدة ساعات من العمل المتواصل معظم المعلقات، وأحسست بارتياح عميق. وصعدت إلى الغرفة وأنا أقول في نفسي ما كنت أردده دائماً: لقد أصبح الإنجاز دائي ودوائي وبدونه لا يصبح لحياتي أي معنى، وسيأكلني القلق والملل والإحساس النادم بالتفريط... تناولت غدائي معلاق الدجاج المتواضع بشهية ثم طالعت قليلاً وأخذت قيلولة سريعة، قمت بعدها لأشرب الشاي وأصلي العصر... وأنا أتذكر الاتصال الهاتفي من رئيس قسم التاريخ ظهر اليوم بصدد موعد جديد للتعرّف على أعضاء القسم، وتحديد موعد لتناول العشاء في داره، وعبثاً حاولت الاعتذار، وكان لا بدّ من تثبيت الموعد...

غادرت الفندق في الرابعة والنصف وانطلقت وزياد في سيارة أجرة عبر شوارع سيلانكور وكوالا لامبور صوب برج المنارة، الذي يعدّ رابع برج في العالم في ارتفاعه الشاهق الذي يبلغ (٤٠٠م)... جلسنا لدقائق في صالة العرض لمشاهدة أعمال البناء التي استغرقت خمس سنوات... ثم حملنا المصعد إلى فوق لكي نطلّ على عمارات كوالا لامبور الشاهقة والكثيفة والتي تعكس أنماطاً مدهشة من الذوق المعماري... التقطنا عدداً من الصور التذكارية، وتناولنا الآيس كريم الرائع بشهية، ثم غادرنا المكان قبيل الغروب... كانت السماء تسحّ مطراً عنيفاً، وانتظرنا التاكسي لأكثر من نصف ساعة لكي تعود بنا عبر شوارع تكاد المياه تغمرها...

وصلت الفندق وهرعت لتغسيل يديَّ والصعود إلى الغرفة لأداء صلاة المغرب وتدوين هذه المذكرات، بانتظار مغادرة الفندق لتناول العشاء في أحد المطاعم القريبة، بعد إذ تبين لي توقف الأمطار... لكن مكالمة أخرى من الداعية عبد الحليم خفاجي تستغرق وقتاً طويلاً، أهرع بعدها إلى مطعم (بيزا

هوت) لتناول العشاء... وأضرب الباب الزجاجي بعنف يكاد يأتي على أنفي لولا أن الله سلّم... وتذكرت كيف أن هذه ليست المرة الأولى... إذ سبقتها ضربة أخرى في جبهتي قبل عدة أيام... ولكنه الجوع الذي لا يرحم... وكان بحق عشاءً لذيذاً. وتوجهت إلى السوبر ماركت لألقي نظرة على عروضه الرائعة، ولأشتري موزاً وخبزاً وأقفل عائداً إلى الفندق، لأجلس أكثر من ساعة جلسة المساء المسترخية في الصالة، وهي الجلسة التي أعتبرها أطيب ساعات اليوم، ثم لأصعد إلى الغرفة فأنجز بعض المطالب، وأمارس الرياضة اليومية وأسلم نفسي للنوم...

الاثنين: كان هذا اليوم مرهقاً، محملاً بالمآزق والقلق... في الصباح انتظرت من يقلني إلى اجتماع لجنة مناهج التاريخ حسب الاتفاق فلم يأت. وانتابني القلق فلم يكن بمقدوري الذهاب إلى الكلية إذ قد يأتي في أية لحظة، ولم يكن بمقدوري الانتظار حيث اقترب موعد الاجتماع... هرعت إلى الغرفة واتصلت بمدير المعهد العالمي، فتبين أنه نسي إرسال السائق، وكان عليَّ أن أهرع إلى الكلية وأن أجد التاكسي التي توصلني إلى هناك...

كان الاجتماع طيباً وتمخض دون جدل عقيم عن الاتفاق على جملة من الأمور، وتلقيت خلاله تقويمات سخية وتقديراً لمشاريعي المطروحة وتبنياً لها... انتهى الاجتماع وكان أمامي متسع من الوقت فذهبت للقاء الدكتور قطب فلم أجده، وتوجهت إلى غرفتيْ مجاهد ومنجد فلم يكونا موجودين، فانتابني الضيق والقلق... توجهت إلى سكرتارية العمادة لترتيب موعد فلم أحصل على شيء مؤكد...

ذهبت إلى الجامع لأداء الصلاة... كنت تعباً إلى حد كبير فاستلقيت هناك مسترخياً وأحسست بقدر من الراحة... بعد الصلاة تمكنت من اللقاء بقطب، وأحسست بفرح عميق وأنا أتلقى منه ورقة تأكيد الحجز في الطائرة على يوم (١٢/١)... الحمد لله...

ولشدة فرحي بالورقة قبّلتها بامتنان... ثم اتجهت لتسلم الأوراق الخاصة

بمناهج قسم التاريخ من دكتور محسن محمد صالح... لم يكن موجوداً فجلست قليلاً في غرفة أحد الأساتذة السودانيين... تلقيت منه تقويماً سخياً وأشار إلى أنني واحد من العباقرة (هكذا) وإلى أنني امتداد لأولئك الأجداد الذين أبدعوا في كل فن... تحدثنا عن مأساة عصر التخصص والعزلة والضمور الثقافي وكيف أن الأربعينيات والخمسينيات كانت مترعة بالخصب بسبب وجود عمالقة رفضوا أسر التخصص مثل طه حسين والعقاد والرافعي... الخ مع التحفظ عن أفكارهم... غادرته إلى غرفة دكتور محسن لأجده بمعية دكتور سلامة حيث أعربا عن سعادتهما بالتلمذة على مؤلفاتي: الملامح ونور الدين والتفسير الإسلامي... الخ وقال دكتور سلامة أنه شوهد يوماً من قبل دكتور نيقولا زيادة يحمل كتاب (التفسير الإسلامي) فحذره منه!! وأحاله إلى الدوري لكي يثنيه بإغراءاته الخاصة عن الوقوع في شباك الإسلاميين!!

عدت إلى الفندق بمعية دكتور سلامة، وانكببت على الغداء المتواضع (معلاق الدجاج والموز) التهمهما بشهية بالغة، ثم أخذت قيلولة عميقة ما لبثت أن قطعتها مكالمة من دكتور منجد لكنني عدت فاستأنفت نومي... استيقظت عصراً على السماء الملبدة بالغيوم السوداء، التي ما لبثت أن أمطرت بعنف كأفواه القرب، وجلست أشرب الشاي وأنا أحسّ بسعادة غامرة... وأنجزت العديد من الأعمال فازددت سعادةً... ثم ما لبث موعد انتظاري للسيارة التي ستقلني إلى محاضرتي عن (دور الشباب في المشروع الحضاري) في جمعية الثقافة الإسلامية... فنزلت لكي أقف عند مدخل الفندق بانتظار القادم، لكنه لم يأت وتجاوزت الساعة الموعد فانتابني القلق والغيظ، ومضت نصف ساعة دون جدوى، فخرجت إلى الغرفة لا أدري ما أفعل. وما لبث جرس الهاتف أن دق، وتبين أنه أحد أعضاء الجمعية جاء لكي يقلني إلى هناك، واعتذر بسبب الأمطار وزحمة الطريق...

ثم انطلق بي إلى الكلية، إلّا أن الاختناق عبر الشوارع الرئيسية كان فوق ما يتصوره إنسان، وكانت السيارة تمشي ببطء كالسلحفاة، وزادنا تأخراً أن

الطالب اختار طريقاً طويلاً جداً بحثاً عن منفذ للوصول السريع، وقد اقتضى ذلك حوالي الساعتين، كنت أصمت حيناً وأتحادث معه حيناً آخر وأنا أكظم غيظي وإعيائي، وطلبت منه أن يعيدني إلى الفندق إذ لا جدوى من الذهاب إلى الكلية... وصلت الفندق وأنا أعاني من الإعياء والجوع، ممتزجين بضيق شديد في النفَس وشيء من الغثيان، كشأني كلما أستقل سيارة لمسافات بعيدة بمعدة فارغة...

انكببت على الطعام القليل المتبقي ألتهمه التهاماً ثم قمت لأداء الصلاة، والنزول إلى صالة الفندق للاسترخاء قليلاً... اشتدت حالة الغثيان وضيق النفَس إلّا أنهما ما لبثا أن انسحبتا بعد قليل... ونهضت بعد ساعة من اجترار الذكريات الطيبة والمريرة لكي أرجع إلى الغرفة، فأشمر عن ساعد الجدّ وأنغمر بالعمل حتى ساعة متأخرة من الليل...

الثلاثاء: أنجزت العديد من الأعمال المكتبية صباحاً فشعرت بارتياح عميق، ونزلت إلى الصالة بانتظار دكتور محسن لإيصالي إلى الكلية. وهناك أنجزت العديد من المعلقات الأخرى مع عبد القهار ومجاهد وقطب والميساوي، والتقيت عبر الطريق بعدد من الطلبة ما بين يمني وصومالي وتلقيت الاعتراف والتقويم... أحسست بالجوع فذهبت إلى أحد مطاعم الكلية وتناولت كمية كبيرة من المعجنات شعرت معها بالقرف... صليت الظهر في مسجد الجامعة ثم عدت للجلوس قليلاً في غرفة مجاهد، ومنها إلى قاعة الطبري لإلقاء محاضرتي الثالثة عن (نحو منهج جديد)... ألقيتها بتمكن رغم شيء من السرعة خشية إفلات بعض مفرداتها ثم جرت مناقشات طيبة وتقويمات سخية... والتمّ الطلاب كلٌّ يريد موعداً، أو يسأل سؤالاً...

توجهت إلى غرفة دكتور عارف لتناول الشاي بمعية دكتور غسان، ومنها إلى غرفة رئيس قسم التاريخ، ويممنا وجوهنا بعد قليل صوب إحدى القاعات للتعرّف على أساتذة القسم، وعبر الطريق لحقتني سكرتيرة العميد وأعلمتني أنه بانتظاري طبقاً لموعدي معه... وهناك أنهيت معه سائر ما تبقى من

معلقات فازددت إحساساً بالتخفف والسعادة... وعدت إلى القاعة التي ينتظرني فيها كادر قسم التاريخ، حيث جرى التعارف وتلقيت التقويمات السخية وتم ترتيب مواعيد وموضوعات اللقاءات القادمة... ودّعتهم واتجهت للاجتماع الآخر في مكتب المعهد العالمي بخصوص المشروع الحضاري، وهناك تلقيت ما زادني غبطة: اتصال ياسر بن إنعام الطالب بالموصل وطمأنة عائلتي عني بحمد الله... تعرّفت على أستاذ من الجزائر كان يعمل في إنكلترا وآخر من السودان، وكلاهما أشار إلى اهتمامه بمؤلفاتي... وبدأ الاجتماع وطرحت عبره وجهات النظر المختلفة...

توجهت وقطب إلى مسجد الجامعة وصلينا المغرب. هناك التقيت بمروان الطالب وتمّ معه ترتيب موعد بديل عن محاضرة يوم أمس في الجمعية الثقافية، فأحسست بارتياح بعد إذ حكى لي أحدهم بأن القاعة اكتظت بالشباب يوم أمس... دعاني قطب إلى تناول العشاء في أحد المطاعم... وجرى حديث عبر الطريق عن البنوك الإسلامية والعمليات الربوية، فأشار إلى أنها مرغمة على الدخول في أعمال كهذه من خلال البنوك الضامنة... فأحسست بانقباض بسبب تورطي في وضعي بعض أموالي في البنك الإسلامي، وقلت في نفسي: ها هو ذا هم جديد فكيف الحل؟!

تناولنا عشاءً من الدجاج والشوربة والرز مترعاً بالتوابل رغم تأكيد قطب أن المطعم لا يقدم وجبات حادة، فتناولت الطعام على مضض وأحسست بشيء من الانقباض خشية أن يستفز ذلك كليتي ومرارتي... وفعلاً بدأت أحسّ بشيء من الألم في أولاهما، فاستعذت بالله... أوصلني إلى الفندق وأنا أحسّ بشيء من الضيق... نزلت إلى الصالة للاسترخاء قليلاً ومطالعة بعض المقالات، فاستعدت شيئاً من ارتياحي صعدت بعدها إلى الغرفة لاستكمال بعض الأعمال، وترتيب مطالب يوم غدٍ، حيث قررت أن أبقى في الفندق لتطويقها... ثم مارست رياضتي وقرأت بعض الوقت قبل أن أسلم نفسي للنوم...

الأربعاء: استيقظت في ساعة متأخرة إذ لم أكن مرتبطاً بموعد في الكلية،

ونزلت إلى صالة الفندق لأمضي أكثر من ثلاث ساعات في العمل المتواصل... صفيت العديد من المعلقات والمطالب وأحسست بارتياح عميق وسعادة بالغة... لكن لا راحة لمؤمن في دار البلاء كما يقولون... فما أن صعدت إلى غرفتي لأداء الصلاة ثم الانطلاق سعيداً إلى مطعم كانتاكي والسوبر ماركت للغداء والتسوق، حتى تلقيت مكالمة هاتفية من مجاهد يعلمني فيها أن فاكساً قد وصلني من السعودية... انقبض قلبي، وتحولت حالة الفرح والارتياح إلى نقيضها... حيث خمنت أن يكون من الرابطة بخصوص التكريم الذي تبناه مكتب المغرب والذي يشهد الله أني لا أريده، وبخاصة وأنه يتعارض مع رغبتي في الحج وصعوبة الحصول على موافقة جامعتي على الرحلتين معاً... يممت وجهي صوب المطعم كئيباً مشتتاً منقبضاً وأنا أقول في نفسي: لقد والله تلفت أعصابي، فأصبح أي مؤثر مهما كان تافهاً ينقلني من حال إلى حال، فلا حول ولا قوة إلا بالله... وتناولت غداءً شهياً من الكانتاكي وكنت أتمنى أن تكون ظروفي على سجيتها... ولكن...

غادرت المطعم لكي أتجول في السوبر ماركت وأعاين بضائعه المدهشة، ثم أخرج لأشتري بعض الأطعمة وأعود إلى الفندق، حيث بدأت الغيوم تتجمع من جديد. ووصلت في اللحظة المناسبة، قبل أن تبدأ زخات المطر اليومي العنيفة...

أخذت قيلولة قلقة ثم ما لبثت أن نهضت لأجد ورقة أسفل الباب تشير إلى وصول فاكس إلى الاستعلامات. انقبضت مرةً أخرى وفجأة تذكرت أن الفاكس ربما يكون من الشبرمي طالب الدكتوراه، الذي يكتب عني، والذي أرسلت بخصوص الموعد معه فاكساً وطلبت الجواب... أحسست بشيء من الانشراح، ثم ما لبثت أن هرعت إلى الاستعلامات لتناول الفاكس... فضضته في الصالة على عجل فإذا به فعلاً من الشبرمي... ليس هذا فحسب، بل إنه يشير إلى أنه سيستقبلني في المطار في اليوم التالي لوصوله عمان قادماً من الرياض، وأنه أصر على حجز غرفتين في الفندق...

يا الله... قلت في نفسي وأنا أكاد أطير فرحاً... إنها بشرى مزدوجة؛ فمن جهة لم يكن الفاكس بخصوص جبهة جديدة ليس في طاقتي تحمّلها، ومن جهة أخرى ها أنا ذا أجد من يستقبلني في المطار ويوصلني إلى الفندق ويضمن الحجز هناك فيوفر عليَّ المشقة والمصاريف الباهظة... فالحمد لله...

وزادني فرحاً أن أتلقى دعوة لحضور محاضرة دكتور لؤي صافي مدير المعهد وأن أحد المعقبين عليها هو الكبيسي، معنى هذا أن حضور هذه المحاضرة ظهر غد إن شاء الله سيحررني من حضور محاضرة الكبيسي مساء اليوم عبر المطر وعدم الاستعداد النفسي... هذا إلى دعوة أخرى على العشاء مساء السبت في بيت دكتور لؤي... دخلت المصعد وعندما انفردت فيه رحت أرقص فرحاً... ودخلت الغرفة وقد استعدت فرحي الضائع بعد أن ضيعت على نفسي ـ كالعادة دائماً ـ ساعات طيبة، وأحلتها إلى شد نفسي قاسٍ لا لشي إلّا لأنني لم أتذكر الجهة التي أرسلت الفاكس!!

رحت أكتب المذكرات وأرتب الأوراق وأتابع المعلقات بانشراح... رغم وخزات من الألم كانت تضرب خاصرتي اليمنى، حيث أرجح متاعب في الكلية كنت قد عانيت منها مراراً... ثم جاء إلحاحي في تناول التوابل وكثرة العرق فأهاجها... ومهما يكن من أمر فإنها لا تثير قلقي ما دام أن الأمر لا يتعلق بالمرارة... فحمداً لله...

زخات من الرصاص تخترق الفضاء على حين غفلة فأبعد عن النافذة الواسعة المطلة على الشارع تجنباً للاحتمالات السيئة... وفي اليوم التالي علمت بأن أربعة من أعضاء المافيا قد قتلوا عند بوابة الفندق تماماً... تناولت عشائي ثم انكببت على العمل... ونزلت إلى الصالة لأرتاح قليلاً ثم أصعد لكي أطالع حتى ما بعد الواحدة، وأسلم نفسي للنوم الذي قطعته وخزات الألم في خاصرتي بين الحين والحين...

الخميس: توجهت إلى الكلية مشياً وبدأت بمراجعة معاون العميد وأحسست بارتياح عميق بعد أن صفيت العديد من المعلقات... توجهت إلى غرفة مجاهد

لكي أهمش على رسالتين للأمراني وعبد القدوس، بخصوص الكتابة في العدد الخاص من إسلامية المعرفة... اطلعت على عدد من مجلة الأدب الإسلامي يتضمن حوار رشدي معي فحملته معي لقراءة العدد على مكث في الفندق... سلّمني مجاهد بحثاً للعدد الخاص بالأدب لغرض تقويمه، وقال بأن مكافأته قد تبلغ المائتي دولار. فحمدت الله وقلت له إنني على استعداد لتقويم المزيد... أشاد الرجل بحضوري المقنع في ساحات الأدب والترحيب ببحثي للعدد المذكور وقبولي مقوماً رغم عدم تخصصي بالمفهوم الأكاديمي...

غادرته لكي أدخل المطعم وأتناول غداء صحياً لذيذاً، ثم أتجه إلى الجامع سعيداً منسجماً لأداء صلاة الظهر، وأعود إلى غرفة دكتور منجد لتناول الشاي والحديث في شؤون شتى بانتظار موعد محاضرة لؤي صافي عن التجزيئية والمنهجية في الاجتهاد...

بعد طرح اعتراضي على إحدى مقولاته بخصوص جهاد القوى المجاورة وسماع المناقشات الحامية، غادرت القاعة للحاق باجتماع لقسم التاريخ حول مناهج البكالوريوس... قدمت عرضاً مركزاً ومحكماً لمرئياتي للمنهج المعتمد عندهم لقيت ترحيباً، وجرت مناقشات وأخذ ورد عبر أجواء غاية في الودية...

غادرنا المكان وأقلني دكتور محسن محمد صالح بسيارته إلى الفندق، واقترح المشاركة في ندوة عن المستشرقين... ترددت بيني وبين نفسي ثم أعلمته برغبتي في الاعتذار بسبب زحمة أعمالي... فآثر الصمت... ومضت بنا السيارة وأعلمني أن تحوله إلى قسم التاريخ، وكان ينتمي إلى فرع علمي، هو بسببي، ومن خلال عشقه لمؤلفاتي، وقال: إن ما أقدمه اليوم من عطاء أرجو أن يكون لك نصيب من أجره عند الله. فحمدت الله ﷻ...

وصلت الفندق وأنا أحسّ بتلك الحالة التي طالما حاصرتني: مزيج من ضيق النفس والإعياء والتشتت... دخلت الغرفة والجوع يكاد يفترسني، وأسرعت بأداء صلاة العصر ثم انكببت على التهام الطعام... كنت متعباً، فاستلقيت على السرير وأخذتني سنة من النوم... وعندما استيقظت دقّ جرس الهاتف... كان

المتكلم هو الكبيسي، أعلمته بأنني سأزوره في غرفته بعد ساعة. وقمت لعمل الشاي وتناوله مع البسكويت استكمالاً لعشائي... كانت الأوراق والمطالب أمامي كثيرة مزدحمة... وها هي ذي قد تجددت كالعادة في كل يوم بعد أن أكون في اليوم السابق قد أجهزت على المطلوب... ولكن لا بأس فلكل أجل كتاب...

خرجت إلى غرفة الكبيسي وتحدثنا في أمور شتى وأشار إلى أننا مدعوون يوم الاثنين لحضور حفل التخرج الكبير، وأحسست بالارتياح لأنني لست مرتبطاً بعمل أو موعد... واتصل دكتور نزار هاتفياً ورتبت معه أمر الموعد المتداخل على العشاء بينه وبين دكتور لؤي، وأزحت بذلك قلقاً آخر... نزلت إلى صالة الفندق وجلست هناك مسترخياً كعادتي... وما لبثت أن نهضت قائماً للعودة إلى غرفتي، فالأعمال كثيرة وهي تناديني لكي أصفي معها الحساب... قبل أن تلحق بها مطالب جديدة قد تنفجر عليَّ يوم غدٍ هنا أو هناك... استطعت أن أنجز الكثير وأن أطوّق المطالب المستجدة... ثم أنصرف للمطالعة في مجلة الأدب الإسلامي إلى ساعة متأخرة من الليل.

الجمعة: جاءني دكتور محسن واتجهنا إلى الكلية... عبثاً حاولت إقناعه بالاعتذار عن المشاركة في ندوة عن الاستشراق، واتفقنا على إعادة الحديث عن الموضوع فيما بعد... دخلت قليلاً إلى قاعة الشافعي لسماع جانب من محاضرة للدكتور خالد الحمداني حول كتاب شعبان عن صدر الإسلام، ثم يممت صوب قاعة الطبري لإلقاء محاضرة عن الخطاب الأدبي، فيما اعتبرته واحدة من أكثر محاضراتي إحكاماً والحمد لله...

وتلقيت بعدها جملة من الأسئلة والمداخلات، ودار حوار طيب خرجت بعده وأنا أحسّ بإعياء شديد وضيق معهود في النفَس... وطلبة الدراسات العليا يحاصرونني حول مطالبهم...

أديت صلاة الجمعة في مسجد الجامعة ثم هرعت والجوع يعتصرني إلى أحد مطاعم الكلية لتناول الغداء، ومنه إلى قاعة الطبري مرةً أخرى لإلقاء محاضرة عن (حركات التغيير في التاريخ الإسلامي)...

كانت القاعة غاصةً بالحضور. ووجدتني ألقي محاضرة متأنية عن الموضوع استطعت خلالها أن أقول أكثر مما كنت أطمح إليه والحمد لله.

وجرت بعدها مناقشات خصبة كانت ردودي إزاءها مما زادني اقتناعاً وارتياحاً... وغادرت القاعة فرحاً سعيداً، وأعرب دكتور محسن محمد صالح عن سعادته بأن يكون أحد تلامذتي... وأوصلني إلى الفندق بمعية طالب دراسات عليا فلسطيني، حدثني كيف كانت كتبي تُعتمد في الساحة الفلسطينية، وكيف كانوا يضطرون لاستنساخ بعضها بسبب منع السلطات الإسرائيلية لإدخال الكتب هناك...

دخلت صالة الفندق والسماء تنذر بمطر عنيف. فاستلقيت على الأريكة هناك، حيث بدأت السماء تنزل أمطارها السخية، في واحدة من أعذب الجلسات عبر رحلتي... ثم قمت لأصعد إلى غرفتي لأداء صلاة العصر، ثم الاستلقاء قليلاً بانتظار أحمد زكي والموصليين...

رن جرس الهاتف فإذا بالدكتور سفيان يؤكد دعوته في نهاية الأسبوع، ويفتح عليَّ جبهة غمّ وضعتني لساعات في دائرة الكآبة، وأنا أقول في نفسي: يا سبحان الله!.. وما أغرب أمر هذه الرحلة التي ما كنت أرتاح فيها عبر حلقة ما إلّا وأتلقى بعدها مباشرة ما ينغصني... إنهم يريدون أن أتولى اصطحاب ابنة ناطق الأرحيم إلى الأردن والموصل... أعلمته أنني سأبقى في عمان ثلاثة أيام فما العمل؟! أجاب بأن هذا لا يمنع وأنهم سيتدبرون أمر سفرها... أقفلت السماعة وأنا ألعق مرارتي... أين سأذهب بها وموعدي في المطار نفسه، حيث سيستقبلني طالب الدكتوراه ويأخذني إلى الفندق الذي حجز فيه غرفتين؟ وكيف سيتاح لي وسط زحمة الأعمال في اليوم التالي أن أدبّر أمر سفرها إلى الموصل؟!...

جاءني أحمد محمد زكي لوحده، وانتظرنا الآخرين فلم يجيئوا... رحنا نتحدث ونتناول بعض ما تيسر... لم أكن سعيداً بسبب الهم الجديد... ثم ما لبث أن غادرني بعد أقل من ساعتين... دق جرس الهاتف وإذا بمحمد ناطق يعتذر عن

عدم مجيئه بسبب المواصلات، فأفاتحه بموضوع أخته وأبين التعقيدات فيقول إنه سيتصل بهم لتبيّن الموقف... بعدها بقليل يتصل صهر ناطق نفسه ويعرب عن اعتذاره هو الآخر بسبب عطل في سيارته، فأسأله عن رحلة زوجته وعن ظروفي المعقدة، فيلمح لي بأن موضوع السفر لم يبتّ فيه بعد... فأحسّ بشيء من الارتياح، وأتلقى مكالمة أخرى يدعوني فيها دكتور عبد القهار العاني إلى الغداء يوم غد في أحد مطاعم الجامعة... أنكب على العمل قبل أن أتهيأ للنزول إلى الصالة، والذي أصبح بالنسبة لي تقليداً لا بدّ منه... ثم أعود لأواصل العمل والقراءة وتناول (الخفايف) حتى ساعة متأخرة من الليل...

السبت: شيء من الاكتئاب عبر الليل بسبب حلم مزعج عن زوجة أخي... شيء من شد الأعصاب بسبب تأخر دكتور محسن صباحاً، حيث موعدي للذهاب إلى محاضرة العاشرة... يجيء أخيراً بعد إذ كدت أن آخذ تاكسياً إلى هناك... ندخل القاعة معاً بانشراح... يجيء المستمعون من الأساتذة والطلبة والضيوف... ألقي محاضرة عن المنظور القرآني لنشوء الحضارات على الطريقة التي كنت أتمناها دائماً: الإيقاع البطيء ذي المفاصل الزمنية، والإمساك الجيد بالمانشيتات المثبتة أمامي... كانت ـ في ظني ـ واحدة من أكثر المحاضرات توفيقاً. ولعل العدد المحدد من نقاط الارتكاز، وعدم انتشارها على مساحات واسعة؛ جعلني ألجأ إلى هذا الأسلوب، الذي سأحاول أن أعتمده وأتعلم منه مستقبلاً بإذن الله... تلقيت جملة من المداخلات الخصبة، وكان ردي عليها بالتمكّن والإمساك الزمني نفسه، اللذين نفذتهما عبر المحاضرة فالحمد لله وحده...

تلقيت ـ كالعادة ـ تقييمات العديد من الأساتذة والحضور قبل أن أغادر بمعية الدكتور ليث إلى بناية المعهد، حيث موعدي مع دكتور لؤي... تحدثنا هناك عن محاضرته أمس الأول عن الحديث الشريف والمنهج النصوصي. وأبديت تحفظي على طرح موضوعات كهذه، وضرورة أن يعمد المعهد إلى درء الشبهات التي تحوم حوله بخصوص الموقف من الحديث بالكف عن الخوض

فيه، واعتماد منهج القرضاوي الأصيل المرن... وكذلك ضرورة إزاحة شبهة العقلانية والاعتزالية بنشر أعمال تتعلق بالخبرة الروحية في الإسلام ومفردات الأخلاق والسلوك...

تلقى الرجل ملاحظاتي بترحاب بعد شيء من الحوار... ثم تحولنا إلى ورقة العمل التي قرأتها عليه بخصوص المراحل الثلاث للتأصيل الإسلامي للتاريخ، وإمكان تنفيذ أولاها بصيغة كتاب منهجي في التاريخ والحضارة على مدى عام أو عامين يترجم للإنكليزية، ويعطى لطلبة الجامعة كافة كمدخل لدراسة التاريخ والحضارة...

أبدى الرجل ترحيبه وصوّر نسخة عن المشروع وعرض عليَّ أن أتولى بنفسي مهمة تنفيذ هذه الحلقة، فأعربت عن استعدادي شرط منحي فترة زمنية كافية، وقلت له: إن ما سيعينني عليه ـ إن شاء الله ـ أن العديد من حلقات الكتاب كانت قد اختمرت في ذهني منذ من بعيد وتم تنفيذ بعضها...

غادرته إلى الكلية لمتابعة بعض المعلقات السريعة مع دكتور مجاهد، ومنها إلى غرفة دكتور عبد القهار بانتظار أداء صلاة الظهر وتلبية دعوته لتناول الغداء في المطعم التركي... كنت أحسّ بشيء من الضيق، والإعياء، والجوع، وحصار الزمن... فقبل قليل سلّمني مدير تحرير مجلة (التجديد) بحثاً لغرض التقويم، وبعدها أشار دكتور مجاهد إلى أنه سيسلمني بحثاً آخر لتقويمه بخصوص العدد الخاص بالأدب من إسلامية المعرفة...

وكنت قد وقفت طويلاً مع دكتور يمني أشاد بمحاضرتي وعرض عليَّ فكرة زيارة عمل لجامعة الإيمان في صنعاء، فأبديت له عذري بسبب ارتفاع المدينة وتأثيرها على القلب... انتظرت دقائق في غرفة عبد القهار وأنا انصت بصبر نافذ إلى حوار حول مناهج التفسير مع عدد من طلبة الدراسات العليا...

صلينا الظهر وعدنا مرةً أخرى إلى الغرفة فإذا بالدكتور سلامة إلياس، أحد أساتذة قسم التاريخ يطلب مني الانتظار قليلاً... وأسأله لم؟ فيقول انه

يريد أن يعطيني نسخة من خطة بحثه لكتاب كُلّف بإنجازه كمدخل لدراسة التاريخ...

يا سبحان الله! قلت في نفسي... فما من إنجاز أو فعل أو فرحة إلّا ويبرز قبالتها ـ عبر رحلتي هذه ـ ما يمتصها (على السريع) كما يقول المثل... انتظرت النسخة فلم تأت، ولم أطق صبراً فأعتذرت منه وذهبت مع عبد القهار لتناول الغداء... بعد عروض قدمها بخصوص إمكان العمل في الجامعة كأستاذ زائر لمدى موسم بكامله، فأبديت له أعذاري...

غادرنا المطعم وتحدثنا طويلاً عن التغييرات الإدارية في الكلية ودوافعها، ثم أوصلني عبد القهار إلى الفندق... دخلته مرهقاً، وأسرعت بالارتماء على السرير وتصفح أحد الأعداد الجديدة لمجلة الأدب الإسلامي، وأحسست بارتياح وأنا ألحظ الاعتمادات العديدة على نصوص مؤلفاتي الأدبية والتنظيرية عبر المقالات والبحوث التي تضمنها العدد، فضلاً عن الحوار الذي أداره أديب جزائري معي...

استيقظت بعد أقل من ساعة، همّت موجة الاكتئاب المعتاد أن تجتاحني، لكني ما أن نظرت إلى السماء الملبدة بالغيوم، كشأن كل مساء، حتى أحسست بالفرح والانسجام كما هو الحال حتى في الموصل... وقلت في نفسي رغم كل الملابسات وحلقات الشدّ عبر هذه الرحلة إلّا أن ما يميزها هو انحسار مساحة الكآبة عبرها، على خلاف ما كان يحدث في صنعاء على وجه الخصوص، هذا إلى أن الرحلة خلت من قلق شراء الحاجيات الذي كان يأكل أعصابي كالمنشار عبر الرحلات السابقة...

هيأت الشاي وجلست أشربه قبالة الغيوم والأمطار، وهذه حلقة أخرى أجد فيها سعادتي... ثم رحت أرتب الأوراق وأدوِّن هذه المذكرات بانتظار مجيء دكتور قطب قبيل العشاء، لكي يصطحبني إلى بيت دكتور لؤي تلبية لدعوته... وتمكنت من إنجاز تقويم بحث عن (التأصيل الإسلامي للأدب في كتابات الندوي) وملأت استماراته فأحسست بالمزيد من الارتياح... ونزلت لكي انتظر

قطب عند مدخل الفندق كان المطر ينهمر بغير حساب فشعرت بانشراح ومتعة، وجاء قطب لكي يجتاز شوارع مغسولة بالأمطار ونتبادل الأحاديث قبل أن ندلف إلى دار دكتور لؤي، حيث سبقنا إلى هناك قلة من المدعوين لا تتجاوز الأربعة... تناولنا عشاءً حلبياً رائعاً ورحنا نتبادل الأحاديث الطيبة عن الجامعة ونظام الدراسة والأساتذة الوافدين ومحاضراتي في الكلية وعالم الحيوان...

وعدت إلى الفندق بصحبة دكتور جمال عميد الكلية الذي ما لبث أن أجرى اتصالاً هاتفياً من السيارة بهشام الطالب، وتمكنت من التحدث إليه بصعوبة بسبب خفوت الصوت، ووصلت إلى الفندق لكي أسترخي قليلاً في الصالة، ثم أغادرها إلى الغرفة لإنجاز عدد من المعلقات... ثم المطالعة حتى ساعة متأخرة من الليل...

الأحد: مكالمة هاتفية في التاسعة صباحاً تنتزعني من منامي... إنها من محمد ناطق يطلب موعداً للقاء، فأتفق معه على السادسة مساء في الفندق... أحاول أن أنام ثانية ـ فاليوم يوم عطلة ـ فلا أستطيع، فأنهض لأغسل وأتناول فطوري وأنزل إلى الصالة... وتمكنت من إنجاز تقويم بحث عن مفتي فلسطين لمجلة (التجديد) وأحسست بارتياح عميق... جاءني مجاهد ومنجد في الواحدة، اتجهنا إلى بيت دكتور غسان، وصلينا الظهر في جامع الحي ثم عدنا إلى الدار وكان هناك دكتور منير البياتي تبادلنا التحيات والقبلات... وما لبثت أن تذكرت أنه مصاب بالزكام فأحسست بندم عميق خشية أن تصيبني العدوى... تحدثنا قليلاً وقمنا إلى الغداء... لم تكن شهيتي على ما يرام، بخلاف كل الدعوات السابقة، ناهيك عن الأحاديث المقرفة التي دارت قبيل الغداء، والتكديس المبالغ فيه لأنواع اللحوم على المائدة، أكلت على مضض واضطررت إلى ترك الطبق مليئاً بالطعام الذي لم أستطع الإجهاز عليه...

عدنا إلى مجلسنا في الصالة... تناولنا الفاكهة والحلويات، التي قدمت بسخاء هي الأخرى ولم أحسّ لها بطعم، فهذه هي طبيعتي، وغادرنا المكان وأنا أجد نفسي أزداد ضيقاً من جراء الحصار القاسي... أوصلني مجاهد ومنجد

إلى الفندق، فدخلت الصالة وأنا أكاد أترنح ـ كالعادة ـ من ضيق النفَس وتوتر الأعصاب وهرعت إلى المغسل فأحسست بشيء من الارتياح... أغراني الجلوس في الصالة قبالة المطر، لكن الوقت والرغبة في النوم، والإحساس بالتشتت دفعتني إلى غرفتي...

أخذت حماماً ساخناً فاستعدت توازني وصفائي... صليت العصر، وأخذت إغفاءة قصيرة ما لبث أن قطعها جرس الهاتف... انه الدكتور خالد الحمداني يريد زيارتي... ويضعني أمام الأمر الواقع الذي طالما آذاني... إنه يتحدث من صالة الفندق فاضطررت إلى التحدث معه بشيء من الجفاء، وطلبت تأخير صعوده إلى الغرفة لعشر دقائق ريثما أتجهز...

ها قد ضاعت عليَّ لحظات الاستمتاع بعمل الشاي وشربه... جاءني على استحياء فعرفت بحرارة الاستقبال كيف أزيل الحرج... وجلسنا نتحدث عن التاريخ، وخالد العسلي، والدكتور العلي الذي أشار إلى كثرة إشادته بي من بين معظم المختصين في التاريخ في العراق الذين كان يسميهم الأميين... بعد قليل جاء محمد ناطق، فاعتذر خالد وغادر المكان. ثم ما لبث زياد الأرحيم أن لحق بابن عمه ورحنا نتحدث في أمور عائلية، والتجربة في ماليزيا... وأحسست بالارتياح وأحدهما يشير إلى أن زوجة طلال عدلت عن فكرة اصطحابها إلى الأردن والموصل فحمدت الله في سرّي...

صلينا المغرب، ثم ما لبثا أن ودّعاني على أمل لقاء آخر... ثم نزلت مسرعاً لانتظار دكتور محسن كي يقلني إلى دعوة العشاء في بيت رئيس قسم التاريخ...

كانت الأمسية طيبة، وتناولنا عشاءً لذيذاً... ودارت أحاديث في مختلف السياقات... عدت إلى الفندق في جو ماطر ممتع وتمنيت أن أسترخي في الصالة قبالة المطر، لكن القلق والتشتت وكثرة المطالب أرغمتني مرةً أخرى على الصعود... اتصلت بالكبيسي وتم ترتيب موعد وطريقة الذهاب إلى حفل التخرج بمعية دكتور نزار معاون العميد... كما تمكنت من ترتيب الأمر مع

منجد... وأحسست بالارتياح وتذكرت وأنا أتجه إلى المنضدة ما يشبه رحلة يوم غد والانطلاق فجراً من صالة الفندق... إنها رحلتي من صنعاء إلى مأرب مع عدد من الأساتذة والأصدقاء... وانعصر قلبي لقد تذكرت أنني يومها كنت أحلم بالعودة إلى الموصل واليوم أحلم كذلك، ولكن شتان... يومها عدت لكي أجد أخي المرحوم وأمي ـ عليها رحمة الله ـ. أما الآن فإنني سأرجع وقد غيّبهما التراب... فلا حول ولا قوة إلا بالله...

الاثنين: لم أستطع أن أحظى بنوم حقيقي بسبب ضيق النفس الذي جثم على صدري الليل كله، فضلاً عن ضرورة الاستيقاظ فجراً لحضور حفل التخرج في كوالا لامبور... استيقظت عند السادسة وتناولت الفطور على عجل... كان التخوّف من الزكام لا يزال يداعبني، وتأكد لي أن هناك شيئاً من هذا بسبب التزايد الملحوظ في ضيق النفس...

نزلت إلى الصالة حيث ينتظرني منجد والكبيسي، وما لبث أن انضاف بعدٌ آخر: أني لم أتسلّم بطاقة دعوة، وقد يحرجني هذا لدى الدخول، فانقبض قلبي... بعد موعده بنصف ساعة جاء دكتور نزار لكي يقلنا إلى هناك... كان الطريق في بدء الصباح رائعاً... رائعاً... بما يعجز عنه الوصف: أية خضرة تنتشر على جانبي الطريق، وأية تشكيلة مدهشة من الأشجار والتسريحات والزهور؟! حقاً إن ماليزيا لهي واحدة من أجمل بقاع الأرض لولا رطوبتها القاسية... وصلنا إلى هناك ودخلنا دون أي سؤال أو اعتراض... تناولنا فطوراً آخر في صالة أعدت لهذا الغرض، يتكون من مهرجان بديع من المعجنات...

ثم دلفنا إلى القاعة الكبرى لمشاهدة الحفل... كان جلوسي وسط منجد والكبيسي، ودارت الأحاديث والنكات والتعليقات والعروض الطلابية والموسيقى الفولكلورية الرائعة والممتعة... وحينما بدأ الملل يدب في نفوسنا غادرنا القاعة لكي تقلنا سيارة منجد عبر طريق العودة إلى أحد مطاعم الكلية، حيث اشترينا غداءنا وعدنا إلى الفندق...

كنت جائعاً جداً، فأسرعت باستبدال ثيابي والتهام غدائي من الكنتاكي

البارد وكبدة الدجاج... والموز... ثم أخذت حماماً ساخناً، وخرجت لكي آخذ قيلولتي وسط بعض المتاعب في أعلى الأنف، فيما تبين لي والحمد لله أنه شيء من التهاب الجيوب وليس الزكام...

قرأت في أحد أعداد «الأدب الإسلامي» المقابلة التي أجراها معي المدني العدادي حول منهج الدراسة الأدبية، وسعدت بحضوري على صفحات المجلة في أكثر من موضع، بما في ذلك تقويم سخي من عبد القدوس في رسالة له إلى بشرى حيدر حول مجموعتها القصصية التي سبق وأن كتبت مقدمتها... نمت قليلاً ثم نهضت لكي ألاحق القضايا المعلقة والتي يبدو ألّا نهاية لها سواء في مدينتي أو عندما أرحل بعيداً، ومع ذلك فقد أحسست بأنني قدرت على خلاف الرحلات السابقة من السيطرة عليها وتصفيتها الواحدة تلو الأخرى...

تلقيت مكالمة هاتفية من أحد أعضاء جمعية الثقافة يؤكد فيها موعد محاضرة اليوم... شربت الشاي قبالة النافذة المطلة على المدينة، حيث بدأت الغيوم تتجمع في موعدها اليومي وتنذر بمطر غزير، وقلت في نفسي عساها لا تمنعني هذه المرة أيضاً من الوصول إلى حشود الطلاب الذين انتظروني الاثنين الماضي، وها هم اليوم ينتظرون!

وقفت في مدخل الفندق أنتظر دكتور محسن لكي يقلني إلى الكلية... تأخر نصف ساعة عن موعده ربما بسبب المرور... وصلنا الكلية في جو ماطر... سألته عبر الطريق عن البنوك الإسلامية، وهل ثمة شبهة ربوية في معاملاتها؟ فقال: إن مؤسسات كهذه تحتاج إلى الدعم لأنها الحلقة الضعيفة في واقعنا الإسلامي، والذي يحدث أن الكثيرين لا يهمهم سوى التشكيك بمؤسسات كهذه... أحسست بقدر من الارتياح خفف عني ما ذكره الدكتور قطب قبل أسبوع... صلينا المغرب في مسجد الجامعة واتجهنا إلى قاعة الطبري، لم يكن ثمة سوى اثنين من الطلاب... أحسست بشيء من الانزعاج ولكنهم ما لبثوا أن جاؤوا بعدد طيب ملأ القاعة... وقدمني مروان الطالب حيث ما لبثت أن بدأت محاضرتي عن الشباب والبناء الحضاري...

كانت المفردات كثيرة، فاضطررت إلى الصيغة الأخرى في الطرح... السرعة التي لا أرتاح لها، ومع ذلك تمكنت من لم الخيوط وتقديم محاضرة محتشدة بالمفردات، وتلقيت تقويمات طيبة وكمّاً كبيراً من الأسئلة في صميم الموضوع... أجبت عنها بإيجاز حيث لم يكن الوقت يسمح بالاستفاضة، وارتحت تماماً لأداء مروان وإخلاصه... وتلقيت بعدها هدية من المشرفين على الجمعية، ثم خرجنا لنؤدي صلاة العشاء ولأعود بمعية دكتور محسن إلى الفندق وسط أمطار غزيرة... صعدت إلى هناك والجوع يعتصرني فما لبثت أن انكببت على التهام الخبز وكبدة الدجاج والموز والعصير... تلقيت هاتفاً من الكبيسي يعلمني فيه أن موعد دعوة دكتور نزار قد تقرر مساء يوم غد. فأحسست بالارتياح حيث لا ارتباط لي في الموعد المذكور... نزلت إلى الصالة لأسترخي قليلاً وأشاهد الغادين والرائحين... ثمة مناظر كادت أن تخترقني سلباً، لكنني صرت أعرف كيف أتحصّن بقوة فلا يقتحمني شيء والحمد لله...

داعبني النوم، فنفضته عني وخرجت إلى الغرفة لكي أواصل العمل والقراءة حتى ساعة متأخرة من الليل... وثمة فاكس تلقيته مساء اليوم من مكتب الأردن، يشير إلى ترتيب محاضراتي في جامعة الزرقاء والمعهد، ويؤكد ذهاب الشبرمي إلى المطار لاستقبالي وحجزه غرفة لي في أحد الفنادق...

أسارع في الردّ على الفاكس وتعديل عنوان إحدى المحاضرات، وأحمد الله على أن الأمور تجري على ما يرام وأقول في نفسي: إن هذا اليوم لهو واحد من أروع الأيام عبر رحلتي هذه... فالحمد لله...

الثلاثاء: استيقظت على غير قليل من القلق المعهود، الذي أجدني في دائرته عندما تكون هناك مطالب كثيرة متشعبة على مستوى المكتب أو المتابعات... تناولت فطوري وبدأت أعمل بانتظار موعدي مع دكتور محسن في الحادية عشرة والنصف للذهاب إلى الكلية...

أنجزت العديد من المعلقات وبخاصة ترتيب محاضرات الأردن، وشعرت بارتياح عميق بعد أن تغلبت على هذه العقبة الجديدة... اتجهت إلى الكلية مع

دكتور محسن وفاتحته في موضوع تداخل اقتراحي بتأليفي مدخل إلى التاريخ والحضارة للجامعة الإسلامية، ومدخل الدكتور السوداني أحمد إلياس، فأجابني بأنه لا تعارض على الإطلاق فازددت سعادةً وارتياحاً... وصعدت إلى غرفة دكتور مجاهد لكي أصفي معه عدداً من المعلقات. ومن هناك تم الاتصال بمكتب العميد للاستفسار عن إنجاز معاملة المكافأة المالية، فأجابت الموظفة بأنها جاهزة... فقلت في نفسي يبدو أن هذا اليوم هو يوم الأفراح والإنجازات.

نزلت إلى مكتب العميد وتسلمت الصكوك ثم يممت صوب المعهد وتمكنت من إرسال أحد الفاكسين إلى الأردن، بينما ظل الآخر معلقاً لسبب ما، كما استنسخت بعض الأوراق... خرجت سعيداً، ومررت لزيارة دكتور نزار في موقعه الجديد فلم أجده، فتركت عند سكرتيرته خبراً ثم توجهت إلى مكتبَي تحرير (التجديد) و (إسلامية المعرفة) للاستفسار عن بعض الأمور فلم أجد المسؤولين... عدت لكي أبحث عن دكتور أحمد إلياس لتسليمه أصول بحثه عن السيرة فلم أجده... التقيت عرضاً بالدكتور جنيد الصالحي وتم الاتفاق على تحديد موعد لأمسية نورسية معه ومع زياد الأرحيم وآخرين مساء الجمعة...

في الطريق التقيت بنوزاد موظف معاون العميد، ورتبت معه مسألة الهوية واسترجاع الجواز... ثم توجهت إلى المطعم لتناول غداء خفيف قبل أن تدركني صلاة الظهر...

بعد الصلاة عدت إلى الكلية لتناول الشاي في غرفة دكتور منجد، ثم توجهت والدكتور خالد الحمداني إلى قاعة الطبري لإلقاء محاضرتي عن ضوابط إعادة كتابة التاريخ... سلمني دكتور سلامة بحثاً عن الموضوع اعتمد فيه على كتاباتي، وما لبث الأساتذة والطلبة أن بدؤوا يتدفقون... وألقيت محاضرتي بتمكن تام وبالإيقاع الذي أرتاح إليه بحمد الله... وقدمت أكثر مما كنت أتوقع. فتلقيت في ختامها تقويمات سخية وعدداً من الأسئلة أجبت عنها بما زادني اقتناعاً...

وقام رئيس قسم التاريخ لكي يسلمني هدية تقدير على جهودي في

المحاضرات باسم ندوة السيرة النبوية... وانهال عليَّ طلبة وطالبات الدراسات العليا يريدون إعانتهم على مهماتهم، وتقدم مني اثنان من محرري المجلات أحدهم عن مجلة في بنغلاديش، فاتفقت معهما على صيغة للحوار... غادرت المكان إلى المعهد بصحبة دكتور سلامة والتقيت هناك بالمدير الدكتور لؤي صافي، الذي بادرني بالقول بأن المعهد والجامعة رحّبا بقيامي بتأليف المدخل، وعرض عليَّ تقديم طلب بالتغطية المالية التي أحتاجها لإنجاز الكتاب، فأعلمته أنه لا داعي لذلك، يكفي أن أتسلّم مكافآتي بعد إنجاز الكتاب، فأعلمني بأن التعليمات المعمول بها تقتضي هذا، وذكّرني بأنني سأستخدم الكمبيوتر والدسك.. الخ... فاتفقت على موعد آخر لترتيب الموضوع... وجاءتني السكرتيرة لكي تعلمني بأن الفاكس الآخر أُرسل إلى عمّان...

غادرت المكان، وكالعادة فقد دهمني ردّ الفعل وأحسست أنني أكاد أغرق وأن الفرص التي فتحت أمامي أكبر من قدرتي على تلقيها دفعة واحدة... وإذا بي أحسّ بالاكتئاب والضيق... وتوجهت إلى غرفة اجتماع القسم، وبدأت أسترجع شيئاً فشيئاً فرحي الضائع... ولكنني كنت قلقاً من أن يرتطم مشروعي مع محاولة دكتور أحمد إلياس، أو أن يسبب إلغاء مشروعه فأكون أنا السبب... كما كنت أخشى من مداخلات أساتذة القسم وجدلهم حول الموضوع، والذي طالما أدى إلى عرقلة طموحات كهذه... لكن المناقشات سارت على ما يرام والحمد لله...

وأكدت من جهتي أكثر من مرة أنني لم أكن لأقدم على المحاولة لو أحسست أنها تقطع الطريق على مدخل الأستاذ السوداني... وأيد دكتور محسن ورئيس القسم مشروعي بحرارة، وتمت أخيراً الموافقة عليه والتوصية برفعه إلى عمادة الكلية... وأحسست بسعادة بالغة، فها هي آخر عقبة تتفتت أمامي...

وانتقلنا إلى موضوع الدراسات العليا فأمسكت بزمام الحديث، الذي أعرف كيف أمسك بناصيته عندما أكون سعيداً، وأقرّ رئيس القسم والأساتذة كافة سلامة وجهات نظري، وأنهم سيعتمدونها في التخطيط لمستقبل الدراسات العليا...

غادرت المكان بمعية دكتور محسن عائداً إلى الفندق... كنت أحسّ بسعادة بالغة وقلت في نفسي هذا هو يوم آخر من الأيام الرائعة في رحلتي هذه... وقلت أيضاً بأنني قد أتلقى رد الفعل القاسي في أية لحظة قبل أن أتهيأ لصلاة العصر... دُقَّ عليَّ الباب وإذا بالكبيسي يطلب الإسراع في النزول لحلول موعد ذهابنا إلى بيت دكتور نزار ... أسرعت في الصلاة وغادرنا الفندق بمعية دكتور منير البياتي... دار الموضوع حول الحرمان الجنسي، ولعنة الاكتفاء بواحدة، والوضع الاستثنائي للمسلم في هذا العصر بصدد مسألة الإشباع الجنسي، وصدرت تعليقات طريفة وضحكات من الأعماق...

وصلنا دار نزار... كان الجوع يحاصرني... وراح المدعوون يجيئون على تباعد في الزمن، بمن فيهم مدير الجامعة الأستاذ الدكتور عبد الحميد أبو سليمان، الذي دخلت معه في حوار حول المشروع الحضاري ومرئيات المدير بخصوص العمل في ميدان الواقع. ثم قمنا لتناول العشاء اللذيذ... بشهية بالغة، حيث دارت الأحاديث والنكات والضحكات بمودّة وانسجام... وجرت مناقشات طريفة حول آدم والإنسان القديم وعمر التاريخ البشري... إلى آخره، لم نصل فيه. إلى نتيجة. وغادرنا المكان بصحبة دكتور سفيان عائدين إلى الفندق... صعدت إلى الغرفة وأنا أحسّ بثقل المطالب التي تنتظرني، وترددت قليلاً في النزول إلى الصالة كالمعتاد، لكنني آثرت البقاء وشمّرت عن ساعد الجد لإنجاز بعض المطالب والمطالعة حتى ساعة متأخرة من الليل...

الأربعاء: كان يوماً هادئاً عرفت كي ألتقط فيه أنفاسي رغم أن نومي لم يكن عميقاً، وأني استيقظت على ألم في البلعوم لكنه ما لبث أن خفّ إلى حد كبير بفضل من الله وحده... تناولت فطوري من كبدة الدجاج هذه المرة وانكببت على العمل حتى الثانية عشرة ثم نزلت إلى الصالة لاستكماله هناك...

أنجزت اللمسات الأخيرة من تقويمات البحوث الثلاثة، ولم يتبق أمامي من الأعمال سوى القليل والحمد لله... ألقيت نظرة على الصكّين اللذين تسلّمتهما يوم أمس، فإذا بالحصيلة ما يقرب من ألفي دولار كما قيل لي فالحمد لله...

ترددت كثيراً بين الانطلاق إلى منطقة السوبر ماركت القريبة من الفندق وتناول الكانتاكي هناك وشراء الحاجيات والتجوال اللذيذ في السوبر بعيداً هذه المرة عن قلق الأسبوع الماضي...

لكنني ملت إلى البقاء في الفندق أولاً للإجهاز على ما تبقى من طعام، وثانياً لترك شيء ما من شهيتي، فلعل أمسية اليوم في بيت دكتور منجد تتضمن عشاء؟! عدت إلى الغرفة وتناولت غدائي وما لبث النوم أن داعبني فقرأت قليلاً، ثم أخذت واحدة من أعمق وأطول القيلولات في رحلتي هذه لم يقطعها شيء والحمد لله... استيقظت على هدير الرعد وتساقط الأمطار بغزارة فأحسست بارتياح عميق، وآثرت أن أظل في منامي وأنا أحصي بؤر التعاسة التي كانت تفترسني عبر رحلاتي جميعاً. أما هذه المرة فقد استطعت أن أضيق عليها الخناق، فازددت توحداً وإحساساً بطعم الإيمان واستمتاعاً برحلتي...

جلست لكي أشرب الشاي قبالة النافذة والمدينة والمطر... وتلك من أجمل اللحظات عبر رحلة اليوم كله... آثرت هذه المرة أن أجرب الشاي بالليمون فإذا به لذيذ حقاً، وقررت أن أشتري كمية منه وأعود به إلى العراق إن شاء الله!!

يرن جرس الهاتف... فإذا بالدكتور عارف يأسف لتغيير موعد ندوة السبت إلى الاثنين ويسأل إن كان في الإمكان ـ رغم سفري في اليوم نفسه ـ أن أشارك بمحاضرة فيها، فأرد عليه بالإيجاب. وكي لا أدخل دائرة القلق حسمت معه الأمر باختيار عنوان المحاضرة عن (ثقافتنا والغرب: صراع أم حوار)... ولحسن الحظ فإنني كنت قد أنجزت ترتيب خطوطها العريضة استعداداً لإلقائها في جامعة الزرقاء ـ بإذن الله ـ وأحسست وأنا أتمها بارتياح عميق، إذ لم يتبق أمامي سوى إعادة ترتيب خطوط محاضرتين أو ثلاث مما سألقيه في جامعة الزرقاء ومكتب الأردن، وأكون قد أنجزت معظم المطلوب بحمد الله...

وثمة ورقة ألمحها مرمية عند الباب، أفتحها فإذا بها من إدارة الفندق بخصوص وصول فاكس إليَّ... توجست قليلاً ثم أسرعت بالنزول لتسلمه وفتحه وإذا به من أزهر الطالب رداً على الفاكس الذي سبق وأن أرسلته إلى أمريكا... الحمد لله ـ قلت في نفسي ـ فإنه لم يفتح عليَّ باباً جديداً للعناء... عدت إلى الغرفة لإنجاز معلقات أخرى ثم نزلت إلى بوابة الفندق بانتظار دكتور منجد...

وهناك في بيته قضينا أمسية طيبة وتناولت بشهية ـ كعادتي ـ الطعام المتواضع الذي قدمه بإلحاح مني... ثم جرت أحاديث شتى، كما أنهيت معه ومع أخيه الكثير من المعلقات بعد جهود متواصلة لكفِّهما عن الحديث المتواصل والمتشعب، الذي لا يعطي لحظة واحدة لالتقاط الأنفاس...

أجريت اتصالات مع دكتور جمال لترتيب الموعد، الذي سبق وأن ألمحنا إليه معاً، فلم يكن في البيت... وهاتف آخر مع دكتور قطب اتفقت خلاله على اللقاء به غداً صباحاً لمتابعة الجواز والحجز ودعوة محسن عبد الحميد وربما صرف الصكوك... وازددت ارتياحاً بإنجاز معاملة محسن، وبأن هناك دعوة على العشاء غداً مساء في بيت دكتور جمال البرزنجي، وأن قطب سيمر إلى الفندق لاصطحابي والكبيسي إلى هناك... تمكنت عبر مكالمة هاتفية من إقناع الكبيسي بحضور الدعوة... ثم ما لبثت أن تسلمت من منجد ثلاثة أشرطة فيديو عن محاضراتي... وطبقاً من السنبوسك والمعجنات. وعدت بصحبته إلى الفندق لكي أنجز العديد من المطالب وأطالع قليلاً قبل أن أسلم رأسي للنوم في ساعة متأخرة من الليل...

الخميس: أيقظني هاتف مبكر من دكتور عبد الله الجبوري، وكنت قد نمت متأخراً وقررت أن أعوض في الصباح، لكنه قدري مع الأصدقاء، وأصحاب الحاجات، إنه يريد توصيل رسالة وأمانة لأولاده في بغداد... وقلت في نفسي ها هي ذي تجربتي في صنعاء، عبر الأيام الأخيرة تعود مرةً أخرى... وقلت إن رحلاتي تبدأ بمطالب الأصدقاء التي لا ترحم وتنتهي بها... وعبثاً حاولت أن

أرجع إلى نومي ووجدتني مرغماً على النهوض، لكي ما ألبث أن أتلقى مكالمة أخرى من حسان رزو؛ إنه هو الآخر يريد توصيل رسالة وكتاب إلى أخيه في الموصل... كنت قلقاً ـ كما هو الحال ـ عندما أجدني قبالة مطالب عديدة وملحّة يتحتم عليَّ إنجازها في ساعات قلائل... توجهت إلى الكلية مشياً وبدأت بلؤي صافي فلم أجده، فثبتُّ موعداً للقائه وتوجهت إلى العميد، واستطعت أن أحصل على فرصة للدخول المباشر...

كان عليَّ أن أصغي معه العديد من المعلقات عبر عشر دقائق لكي ألحق بموعدي مع قطب... لكن الوقت طال، وأخرجني إلى موضوعات جانبية اخترقتها مكالمات هاتفية طويلة، بلغتُ معها حالة الشد العصبي والتوتر الذي أعرفه جيداً في لحظات كهذه. وقلت في نفسي ما الذي ورّطني في الدخول عليه؟ استطعت بصعوبة أن أحظى بأجوبة حول عدد من المسائل وأؤجل أخرى إلى لقاء آخر... وتلقيت منه (ساعة العصر) هدية لم أكن بحاجة إليها إذ يوجد لدي اثنتان منها... كما أنه حمّلني بمطالب جديدة لدى عودتي إلى العراق... وثمة أطروحة عن تاريخ الأكراد في صدر الإسلام، عرض عليَّ إبداء الرأي فيها وكتابة مقدمة لها، وتوصيات إلى الناشرين. فاعتذرت عن كتابة المقدمة ووعدت بإبداء الرأي وكتابة التوصيات رغم ضيق وقتي وكثرة مشاغلي... ودخل ياسر إنعام الطالب لكي يدعوني إلى بيته، فاعتذرت وقبل عذري بسهولة...

غادرت المكان مسرعاً إلى قطب فوجدته لحسن الحظ في مكانه... كانت ثمة مطالب عديدة تنتظر معاونته: استعادة الجواز، والتأكد من عدم تغير موعد الطائرة، وتثبيت الحجز على التذكرة، وصرف الصكوك، وتسلم دعوة دكتور محسن عبد الحميد وتسليمه الأوراق الخاصة بدعواتي للمستقبل... أجرى الرجل، بنشاطه وإخلاصه المعهودين سلسلة من الاتصالات الهاتفية... وكلما اجتاز حلقة أحسست بارتياح، وكلما وجدت مسألة ما عراقيل في طريقها توترت أعصابي ودخلت دائرة الشد والارتخاء لأكثر من ساعة... ثم ما لبث الجواز أن

جاء بواسطة أحد الموظفين فأحسست بارتياح عميق، ثم ما لبثنا أن غادرنا المكان لمتابعة الصكوك والتذكرة وتلبية دعوته على الغداء... تبين في مصرف جامعة مالايا أن الصكوك في حاجة إلى بعض التحويرات لكي يستطيعوا الدفع، فقفلنا عائدين وتناولنا غداءنا في مطعم K.F. للكانتاكي...

التهمت الغداء بشهية، وكان يحز في ضميري بين لحظة وأخرى موافقتي على تناول الطعام في هذا المطعم، بعد إذ بيّن لي قطب أنه وسلسلة المطاعم الأخرى بالاسم نفسه ليهودي من أمريكا... عدنا إلى الكلية وتطلّب الأمر انتظار يوم آخر لإنجاز التذكرة وصرف الصكوك... كنت رغم قلقي الخفيف أحسّ بارتياح عميق، خاصة بعد إذ تبين لي أن موعد الطائرة لم يتغير والحمد لله، وأن أحد أساتذة الكلية سيرجع إلى عمان بصحبتي على نفس الطائرة، وأن كثيراً من المعلقات استطعت إنجازها هذا اليوم...

وعدت إلى الفندق مع سائق قطب... لكي آخذ قيلولة؛ ما لبث هاتف سكرتيرة العميد أن قطعها عليَّ قبل أقل من نصف ساعة... وعبثاً حاولت العودة إلى النوم، فنهضت لكي أصحح بروفات مقالي عن الأدب الإسلامي لإسلامية المعرفة، وآلمني أن أجده مترعاً بالأخطاء المطبعية بشكل مكثف لم أر مثله في حياتي... وغدا عليَّ أن أبذل جهداً ووقتاً إضافيين أنا في أمس الحاجة إليهما لإنجاز المعلقات...

صلّيت المغرب مع الكبيسي ونزلنا لانتظار دكتور قطب... كانت الأمطار تسقط بغزارة، وجاءنا قطب بعد نصف ساعة من موعده... اتجهنا إلى بيت دكتور جمال، وبعد قليل قمنا لتناول وجبة عشاء رائعة... لم أكن جائعاً تماماً فلم أستمتع بها كالمرة الأولى. وأتيحت لي الفرصة أن أسأل دكتور أنس الزرقا الخبير الاقتصادي بالبنوك الإسلامية عن احتمال وجود شبهة في التعامل مع البنك الإسلامي الأردني، فطمأنني إلى حدّ كبير وأحسست بارتياح عميق... وجرى نقاش حول الأطروحات الاقتصادية لم أجد ميلاً للمشاركة فيه... وكالعادة كان ثمة ما يقلقني: أن أرجع مبكراً إلى الفندق للاتصال بمنجد حول

موعد يوم غد... فضلاً عن ضرورة تحديد موعد جديد مع دكتور جمال لتصفية المعلقات...

عدنا إلى الفندق مع دكتور سفيان وسط تعليقات الكبيسي وطرائفه... وصعدت إلى الغرفة لكي ما ألبث أن أتلقى مكالمة من منجد يتم فيها الاتفاق على الموعد، وأحسست بارتياح عميق، وزادني ارتياحاً أن أقوم بترتيب أوراق ومطالب يوم غد، وأن أجد نفسي قبالة بقايا أعمال محدودة قد لا تقتضي أكثر من جلستين أو ثلاث... وها أنا ذا أوشك على تصفية المعلقات كافة وأتهيأ للعودة لكي ابدأ جولة ملاحقة مكثفة مع الزمن في عمّان إن شاء الله... ولكنها أيام وتنقضي... ولعلي بعدها أحظى بفترة من الاستجمام والاسترخاء وتجاوز القلق والشدّ، اللذين طالما فرضا حصارهما عليّ عبر رحلاتي جميعاً، لكنهما هذه المرة لم يترافقا مع ضربات الكآبة المركزة. ولذا قد أعتبر رحلتي هذه من أكثر الرحلات نجاحاً وتوفيقاً على المستويات كافة بما فيها المكاسب المالية... فحمداً لله وحده...

الجمعة: ذهبت صباحاً مع دكتور منجد، واستطعنا بعد لأي صرف الشيكين، بعد أن مررنا بالعميد عرضاً بحثاً عن استمارات الدراسات العليا، جرى خلالها حوار متشنج بينه وبين منجد... وعرضت على الأخير نتائج حواري مع العميد بخصوصه ودكتور مجاهد... بحثنا أيضاً ـ دون جدوى ـ عن بطاريات السمع والورد الخاص بضيق النفَس... سألنا أحد الصّرافين عن سعر الصرف فتبين أن الدولار ازداد ارتفاعاً...

دخلت لبعض الوقت دائرة القلق في ضوء فكرة لمنجد حول الإبقاء على العملة الماليزية التي تسلمتها لديه بانتظار استعادتها قوتها السابقة... عدنا إلى الكلية لكي نستمع قليلاً إلى محاضرة للدكتور طارق العوسج (رحمه الله) عن الأدب والعقيدة، ثم لأغادر القاعة إلى العميد حيث موعدي مع دكتور لؤي... أعلمته بموافقة القسم على اقتراح تأليفي للمدخل، ثم تسلمت منه الاستمارات الخاصة بالنفقات المالية على المشروع، كما سلمته الورقتين بخصوص دعواتي في

المستقبل ـ إن شاء الله ـ ... ذهبت قليلاً إلى دكتور عثمان حيث أطلعني على مكتبته، وتناقشنا بخصوص أطروحة عن الفتح الإسلامي... اتجهنا لأداء صلاة الجمعة في مسجد الجامعة، وغادرته في طريقي إلى المطعم...

التقيت عرضاً بالدكتور أحمد الدبو مدير العلاقات الذي كنت بانتظار عودته من المغرب... أشار بإسهاب إلى تقييم الساحة المغربية لكتاباتي وانتشاري الواسع هناك... وثنى على كلامه الدكتور أنس الزرقا... حمدت الله الذي بفضله وحده بلغت هذا الذي ما كنت أحلم به... وطلبت من دكتور أحمد تحديد موعد لتصفية حساباتي مع الفندق، فأعلمني أنه سيتصل بي يوم الأحد بعد عودته من رحلة داخلية... تناولت غداءً بسيطاً في مطعم الطلبة ومرّ بي أحد الطلبة الأفارقة وقال مبتسماً: هذا تواضع العلماء... غادرت المكان إلى الكلية لمتابعة عدد من القضايا، ثم قفلت عائداً إلى الفندق بصحبة دكتور عبد القهار العاني...

أخذت قيلولة مترعة بالتوفز، وما لبث الهاتف أن قطعها... إنه من دكتور مجاهد يعلمني باستكمال التذكرة وتسلمه إياها، فحمداً لله، هذه معضلة أخرى تم التغلب عليها... حاولت أن أرجع إلى نومي فلم أستطع، نهضت لكي أبدأ العمل في استكمال تنقيح بحثي عن الأدب الإسلامي لإسلامية المعرفة... كانت أخطاؤه المطبعية فوق ما يتصوره إنسان وبلغت وأنا ألاحقها حدّ القرف... ولم أستطع أن أكمل العمل، إذ كان عليَّ أن أنزل إلى الصالة بانتظار زياد ودكتور عبد القهار لقضاء الأمسية النورسية لدى دكتور علي جنيد...

كان اللقاء حاراً، والأحاديث طيبة، ووجهت لي جملة من الأسئلة في سياقات شتى، حيث تدّفق الحديث على لساني بفضل الله... تناولنا المعجنات والفاكهة ثم غادرنا المكان إلى الفندق... كان أمامي عمل كثير... كثير جداً... فشمرت عن ساعد الجد ورحت أواصل تنقيح البحث الخاص بالأدب، وأكتب المذكرات وأرتب الأوراق حتى ساعة متأخرة من الليل...

السبت: موعد العودة يقترب ووتائر الشدّ النفسي والقلق تزداد كالعادة

بسبب ضغط الزمن وكثرة المطالب، وحاجات المغتربين إلى أهاليهم... قضيت ليلة متوفزة واستيقظت جائعاً فتناولت فطوري قبل أن أحلق وجهي... رنّ جرس الهاتف فإذا بالدكتور محسن محمد صالح يعلمني أنه سيمّر عليَّ لكي يقلني إلى الكلية، شكرته... هذا الرجل الرائع المترع وفاء ومحبة... وعرض عليَّ في الطريق ان أكتب مقدمة لطبعته الجديدة المنقحة من كتابه (الطريق إلى القدس)، فرحبت رغم كثرة مشاغلي وضيق الوقت. ولذا عرضت عليه أن أؤجل كتابتها لحين عودتي إلى الموصل فأعرب عن موافقته...

دخلت قاعة الطبري أوّل الداخلين، ثم ما لبث الأساتذة والطلبة والطالبات أن راحوا يتدفقون، وألقيت محاضرة متمكنة عن ظاهرة الفتوحات الإسلامية، وتلقيت بعدها جملة من الأسئلة أجبت عنها جميعاً هذه المرة حيث سمح لي الوقت بذلك...

وما لبث الطلبة أن تحلقوا حولي كل يسأل سؤالاً أو يطلب شيئاً... كنت أحسّ بالإعياء والضيق كالعادة وبأني أكاد أغرق، ولكن دكتور سلامة البلوي هذا النموذج الرائع الآخر، أخذني من المعمعة، ودعاني لتناول الغداء، وزادني ارتياحاً أنني اتفقت معه على الذهاب يوم الاثنين سويةً لصرف العملة لدى تاجر يعرفه جيداً... وأن يتولى أمر إيصالي إلى المطار في حالة تغيّب مدير العلاقات... كان يصحبنا دكتور غسان، الذي سلمني عدداً من الرسائل والأمانات... وعرض دكتور سلامة أن نتغدى في أحد المطاعم خارج الكلية لكني آثرت المطعم التركي الذي يخلو طعامه من التوابل، وتناولنا هناك وجبة طيبة، ثم غادرنا المكان إلى غرفة دكتور سلامة لكي يلحق بنا دكتور محسن...

وبعد حوار ودّي توجهنا إلى دكتور مجاهد لتسلم البروفات المصححة لبحثي عن الأدب، وقفلت عائداً بصحبة دكتور محسن...

صليت الظهر وأخذت قيلولة متقطعة لكنها عميقة... استيقظت بعدها على حالة القلق إياها عندما تكون أمامي أعمال شتى، في ظروف زمنية ضيقة، وصفعتني موجة من الكآبة... وتذكرت كيف أن خيال أخي وأبي وأمي الراحلين

تلحّ عليَّ عبر السفر، وتضعني في دائرة الحزن والحسرة، ولكني أحاول بالعمل المتواصل حتى الإعياء، أن أدفعها إلى طبقة بعيدة من الوجدان...

تمكنت عبر ثلاث ساعات أن أنجز استمارات تغطية المدخل المالية، وبروفات البحث عن إسلامية الأدب، وعدداً من المسائل الأخرى... ثم غادرت الفندق لتناول عشائي وشراء بعض الحاجات من منطقة الأسواق... تجولت في السوبرماركت والأسواق المحيطة به... لست أدري لم كنت قلقاً رغم أنه لم يتبق أمامي سوى القليل... لكنه الطبع... والطبع غلاب...

واكتسحتني مرة أخرى ذكرى الأب والأخ والأم، فدافعت اللوعة بصعوبة وانغمرت في عالم الناس والأشياء... ثم تناولت عشاء خفيفاً طيباً في مطعم فرنسي، ثم خرجت لشراء بعض الحاجات من بقالة هناك، وعرّجت على محل للآيس كريم لكي أتناول طبقاً سيئاً للغاية، ووجدتني أدخل دائرة الضيق مرةً أخرى، وأقفل عائداً إلى الفندق لمواصلة العمل الذي لا يرحم... وتلقي مكالمة هاتفية طويلة من دكتور منجد والاتفاق على رحلة يوم غدٍ إلى حديقة الحيوان... هذا وأخوه هما الوجهان الآخران للنماذج الرائعة التي تفيض محبة ووفاء وإخلاصاً... بعدها جاءني حسان رزو لكي يجلس بعض الوقت في الغرفة تبادلنا عبره الأحاديث، وأحسست بالضيق وأنا أتسلم منه عدداً من الكتب والمشتريات الثقيلة لكي أوصلها إلى أخيه حسن رزو... ولولا علاقتي الوثيقة بالأخير لاعتذرت ولكن لا بدّ مما ليس منه بدّ... عدت بعد مغادرته إلى العمل حتى ساعة متأخرة من الليل وأنا أقول في نفسي يبدو أنه قد كتب عليَّ ألّا أرتاح عبر أسفاري مهما حاولت وتمنيت... وأن ذلك هو قدري!!

الأحد: جثم عليَّ ضيق النفس فلم يدعني أنام إلّا قليلاً... استيقظت مرتاحاً حيث اليوم عطلة وأنا على موعد مع دكتور منجد وعائلته للذهاب إلى حديقة الحيوان... ازددت ارتياحاً لمفاتحة إدارة الفندق حول المصاريف وبتسلّم قوائم الحسابات، حيث تبيّن أن المبلغ الذي يتحتم عليَّ دفعه هو بضع ومائة رنكه وهو مبلغ متواضع... لم يعد يهمني أن أتمكن من الاتصال بمدير

العلاقات أو... لا... بعد إذ تبين الموقف وأصبح بمقدوري أن أغادر الفندق غداً بسهولة، وأن أعرف ما الذي يمكن أن أحوّله إلى دولارات...

انطلقنا إلى الحديقة لكن وخامة الهواء، وقلة نومي أطبقت على أنفاسي وجعلتني أجاهد ضيق النفس والإعياء لأكثر من ساعتين... اطلعنا على حيوانات شتى وحاولنا عبثاً أن نعثر على مكان الأفاعي... كان التعب والجوع قد نالا منا فآثرنا مغادرة المكان لنتناول غداءنا خارج الحديقة... وغادرنا المكان بعد أن أخرجنا السيارة من ضيق المكان بصعوبة، وواصلنا الطريق إلى المدينة...

وصلت إلى الفندق وأخذت حماماً ساخناً ردّ إلي الكثير من الارتياح والاسترخاء، لم يكن لدي الوقت لكي آخذ قيلولة ولو لدقائق معدودات... دق جرس الهاتف وإذا بمدير العلاقات، وقلت في نفسي ها هي ذي مشكلة أخرى تنحل... وبعد حديث طويل وعرضه عليَّ العمل هنا لسنة أو عدة سنوات، تم الاتفاق على أن يأتيني غداً إلى الفندق لكي نتناول فطورنا في مطعم فرنسي، ثم نتجه إلى مديرية العلاقات لترتيب أمر مغادرة الفندق والتوجه إلى المطار... بعد قليل دق جرس الهاتف مرةً أخرى... انه دكتور جمال هذه المرة، وقد كنت بأمسّ الحاجة لأن أصفّي معه بقايا المعلقات بعد ملاحقات مضنية في الكلية... وقال إنه سيزورني بعد قليل في الفندق حول الموضوع...

وما لبث أن جاء وتمكنت من تصفية المعلقات والحديث عن مشروع تأليف كتاب (مدخل إلى التاريخ والحضارة الإسلامية)، حيث أعرب عن غبطته به وأكد على ضرورة الإسراع بإنجازه نظراً للحاجة الماسة إليه، وأنه سيدرّس على مستوى الجامعة كلها...

سلّمني كمية كبيرة من النقود لكي أنقلها إلى العراق كزكاة للمحتاجين. ثم ما لبث أن دق جرس الهاتف، فإذا بأحمد محمد زكي يجيئني برسائله وأغراضه، التي لم أرتح لها أول الأمر، ثم تبين أنها للأردن وليس للعراق...

وغادرنا المكان بمعية دكتور الكبيسي ونزار وسفيان وزياد، لكي نقضي أمسيتنا في مطعم صيني للسمك على طريقة الطبخ بأيدي الزبائن... والموائد

المفتوحة، والزمن الطويل في تناول الوجبة.. كانت تجربة جديدة، ولم أرتح في البداية لمنظر السمك والسرطان والجمبري الذي لم تنزع منه القشرة والأرجل... ناهيك عن الروائح المزعجة، لكنني آثرت أن أتجاوز هذا وأن أندمج في تناول الوجبة، وما لبثت شهيتي أن انفتحت على الجمبري، حيث رحت أقشر واحدة واحدة وازدردها باستمتاع... أكلت كمية كبيرة، وأعقبتها بطبقتين من الخضار والفاكهة... ودارت أحاديث طيبة... ثم ما لبثنا أن غادرنا المكان لكي نودعهم والدكتور أحمد الكبيسي عند مدخل الفندق...

صعدت إلى الغرفة وسط حالة قاسية من القلق والاكتئاب ذكرتني بكل ليالي العودة في أعقاب رحلاتي... وقلت في نفسي: يا للعجب يبدو أن كل رحلة تبدأ بالكآبة ليلة السفر، وتنتهي بها ليلة المغادرة ولكن لا بأس فلكل شيء نهاية... أما القلق فقد كانت مبرراته أكثر بكثير، إذ أن أمامي جملة من المطالب والأعمال الكتابية، ناهيك عن ترتيب الحقائب التي تتطلب العمل حتى ساعة متأخرة من الليل، وأنا بحاجة إلى النوم، حيث لم تكن ليلة أمس قد منحتني حاجتي، كما أنني لم آخذ قيلولتي المعتادة.

هذا إلى أن عليَّ أن أستيقظ غداً مبكراً للذهاب مع مدير العلاقات... فضلاً عن كثافة مطالب يوم غد وضيق الوقت وضرورة المشاركة بمحاضرة في اليوم الثقافي... وشمرت عن ساعد الجد... وأستطعت أن الاحق المطالب وأن أصفي الواحدة بعد الأخرى...

ومع ذلك فثمة بعض المعلقات لم أستطع حلّها بسبب مضي الوقت والإعياء... وأحلتها إلى الأردن حيث تنتظرني أيام لا تقل هولاً وسهراً لكثافة المطالب هناك... ولكن لا بأس مرةً أخرى...

الاثنين ١٢/١: يوم الشدّ والارتخاء كان هذا اليوم... استيقظت صباحاً على صوت مدير العلاقات دكتور أحمد الدبّو يدعوني لتناول الفطور... حاولت الاعتذار بسبب ضيق الوقت وزحمة المواعيد، فأقنعني بأن ذلك لن يستغرق أكثر من ربع الساعة... اتجهنا إلى بوفية فرنسي وتناولنا فطوراً خفيفاً شهياً ثم

انطلقنا إلى الكلية... التقيت بمدير المعهد دكتور لؤي وصفيت معه معلقات العقد بخصوص كتابي (مدخل إلى التاريخ والحضارة) وأحسست بارتياح عميق... ويممت صوب قاعة الطبري لإلقاء محاضرتي في يوم الكلية... قُدّمت من قبل العميد الدكتور جمال بسخاء وكنت أوّل المتحدثين...

تكلمت عن موضوع (حضارتنا والغرب: صراع أم حوار) ووجدتني أتدفق في الحديث وأمسك بفضل الله وحده بتلابيبه... ثم تلقيت عدداً طيباً من الأسئلة والتقويمات أجبت عنها بالأسلوب نفسه، ثم ما لبثت أن غادرت المكان لكي يلتمّ حولي أصحاب المطالب والرسائل والحاجات والأمانات...

كانت الدقائق تمرّ، وأكداس الأمانات والرسائل تنهال عليَّ... ولولا أن قيض الله لي دكتور سلامة ودكتور محسن، هذين الأخوين المترعين وفاءً وإخلاصاً؛ لسرقني الوقت وفقدت فرصة تحويل العملة الماليزية إلى الدولار...

انطلقنا بسيارة دكتور سلامة إلى السوق على عجل وتمكنا من تحويل العملة، فأحسست بالمزيد من الارتياح... عدنا إلى الكلية لكي أجتاز ساعتين من شدّ الأعصاب بسبب كثرة المطالب وتداخلها وضيق الوقت، وملابسات تهيئة السيارة التي ستقلني إلى المطار...

وازداد الشدّ بسبب كثرة مطالب دكتور جمال وكثافة أماناته النقدية إلى العراق، وتأخر بعض ما كنت قد طلبته منه من أدوية واستمارات قبول... ولكنها استكملت بفضل الله خلال ساعة واحدة.

وكان عليَّ أخيراً أن أودّع المدير الدكتور عبد الحميد أبو سليمان وأخذ توقيعه على دعوة دكتور محسن عبد الحميد، وأما توديع قطب سانو فقد أغناني عنه بمجيئه إلى ديوان الرئاسة...

وأما توديع المدير وتوقيعه، فقد أعرب عن ضرورة الانتظار وسيجيء بنفسه إلى الديوان، وطال الوقت ووجدتني مرةً أخرى في دائرة الشد، حيث كان سائق العلاقات قد غادر إلى الفندق لنقلي إلى المطار... فهرعت إلى

مدير العلاقات لكي أعلمه بضرورة العودة ثانيةً إلى الكلية ريثما أنجز أعمالي...

وأخيراً التقيت بالمدير الذي اعتذر عن دعوة دكتور محسن بسبب المصاعب المالية... وودعني والعميد بحرارة... وغادرتهما إلى غرفة دكتور محسن الذي وعدني بالانتظار، لكي ما يلبث أن يذهب بي إلى الفندق ويعينني في إنزال الحقائب التي رحت أرتبها على عجل، وفي تصفية حساب الفندق... وما لبثت حلقة شد أخرى أن وضعتني في إسارها... اتصل بي دكتور سفيان وقال إنه سيجيء لنقلي إلى المطار خلال عشر دقائق...

كان السائق قد جاء هو الآخر وبدأ الوقت يضيق الخناق، وكدت أن أغادر الفندق بمعيته وأترك سفيان لولا أنه جاء في اللحظة الأخيرة فركبت معه، وطلبت من السائق أن ينطلق خلفنا بالحقائب التي انتابني بعض القلق بخصوصها... وصلنا المطار في وقت مناسب تماماً ووجدت هناك لتوديعي أستاذ آخر ودكتور نزار العاني وعائلته، ودكتور عارف الذي أهداني كمية من الفستق الرائع... أكملت بمعاونة دكتور نزار إرسال الحقيبة إلى الطائرة... وأحسست بشيء من الندم بسبب حملي إياها بعض الوقت. وحاصرني الوسواس اللعين بخصوص الفتقة لفترة من الوقت، كاد إحساسي بالسعادة والارتخاء فيها أن يضيعا... تمت لحظات التوديع المؤثرة، ودخلت صالة الانتظار وأنا أحسّ بأنني سعيد... سعيد... وأن حلمي منذ شهور طوال بالاسترخاء قد تحقق هذه اللحظات... ورحت ألتهم الفستق بشهية... وأحاول أن أجد فرصة لتجديد الوضوء والصلاة فلم أجدها...

وبعد تأخر قصير انطلقت الطائرة في رحلة هادئة طيبة تخللها النوم المتقطع وتناول وجبات الطعام... والأحاديث الطيبة مع دكتور حكمت الأستاذ العائد إلى الأردن لإجراء عملية جراحية... وبعد عشر ساعات وصلنا عمان... كانت الإجراءات بسيطة... وقلقت بعض الشيء على الحقيبة لكنها ما لبثت أن جاءت والحمد لله... ولم يكلفني الموظف فتح الحقائب، وغادرت المكان لأجد

طالب الماجستير (الشبرمي) وأحد أصدقائه وطالب دكتوراه في جامعة أم القرى في انتظاري... والحمد لله... تعانقنا بحرارة، وانطلقنا إلى فندق عمرة الرائع لكي نجلس قليلاً في الصالة، ونرتب المواعيد بخصوص رسالته للماجستير عن معطياتي النقدية... وأخرج بعدها إلى غرفتي البديعة، فأرتب المتاع والأوراق، وأتناول بعض الحلويات والموالح، وأسلم نفسي لنوم عميق...

الثلاثاء ١٢/٢: استيقظت مبكراً على القلق المعهود بسبب كثرة المطالب وضيق الوقت... تناولت فطوراً خفيفاً في الغرفة وانطلقت في سيارة تاكسي إلى المعهد... سلّمت على الموظفين وجلست أعمل في تصفية بعض المعلقات، وما أكثرها كالعادة دائماً... قبل أن تجيئني سيارة جامعة الزرقاء لكي تقلني إلى هناك...

استُقبلت بحفاوة بالغة من قبل مدير العلاقات والعميد ورئيس القسم وغيرهم... واتجهت إلى إحدى القاعات لإلقاء المحاضرة الأولى عن (تراكم الخبرة في المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي)، وأعقبتها بمحاضرة أخرى في القاعة الكبرى عن المعرفة التاريخية وتحديات الحاضر والمستقبل، حيث حضرها العديد من الأساتذة وتم تقديمي بسخاء، وطرحت أسئلة خصبة في خاتمتها... حيث كنت أحسّ بالإعياء المعهود بسبب سرعة الأداء وضيق النفس... ومع ذلك فقد قررت أن ألقي محاضرة ثالثة أمام إحدى الشعب في موضوع (حوار أم صراع) بتمكن وارتياح... ثم ما لبثنا أن توجهنا إلى مطعم الكلية لتناول غداء لذيذ من السمك، ما لبث أن قطعه قدوم رئيس الجامعة ورئيس مجلس إدارتها، اللذين رحبا بحرارة وشاركا في تناول الغداء...

وغادرت الجامعة تقلّني سيارة خاصة إلى المعهد... لإتمام المعلقات التي لا تنتهي ولأجد نفسي في دائرة القلق والتشتت المعهودين... وخطفت رجلي لزيارة شقة المرحوم ابن العم، وتثبيت موعد للغداء هناك... ثم رجعت إلى المعهد لكي ما يلبث دكتور محمد زكي أن يجيء لكي نتحدث قليلاً، ولكي يوصلني إلى الفندق، حيث كان بانتظاري طالب الماجستير وصديقه... وبعد

قليل من الوقت كانت كامرة الفيديو قد نصبت في غرفتي وجهاز الكاسيت قد أخذ يدور، وبدأ واحد من أكثر الحواريات في حياتي طولاً وتشعباً أجبت خلاله على العديد من الأسئلة المتعلقة بحياتي، وفكري، ومعطياتي الأدبية ورحلتي مع النقد... حتى ساعة متأخرة من الليل... وغادرني الطالب على أمل لقاءٍ آخر مساء يوم غدٍ بإذن الله...

الأربعاء ١٢/٣: لم أنم سوى ثلاث ساعات استيقظت بعدها لأجد نفسي مرغماً على عدم العودة للنوم بعد الصلاة من أجل إنجاز تنقيح أصول كتابي (قضايا ساخنة)، وكتابة تقديم لكتاب دكتور محسن صالح عن (الطريق إلى القدس) بسبب ضيق الوقت، وضرورة تسليمهما في الموعد المناسب...

اتجهت قبيل الثامنة ـ بعد تناول تمراتٍ في الغرفة، وقليل من الفستق ـ إلى العبدلي حيث كنت على موعد مع هيئة تحرير مجلة الأمة... انتظرت نصف ساعة قبل مجيئهم واستطعت أن أنجز معهم العديد من المعلقات، كتسلّم حقوقي من المقالات المنشورة في الأمة، والتأكد من مصير مقالاتي الأخرى... والاتفاق على كتابة مقالات أسبوعية قصيرة للشرق القطرية لقاء أجور طيبة... وتسليم رسالة لمجلة قضايا دولية بحقوق مالية قديمة... وجرت أحاديث طيبة أحسست بعدها بتخفّف واسترخاء نفسي، ثم غادرت المكان سعيداً إلى دار البشير، حيث التقيت بجمال عمرو وأبي معاذ وتلقيت من أولهما أجوبة دقيقة عن حشود الأسئلة والمعلقات الخاصة بي وبدكتور حكمت صالح... كما أستطعت أن أحصل على وعدٍ بمتابعته كتابي الآخر (متابعات في دائرة الأدب الإسلامي)، وأن أتلقى خبراً طيباً بقرب صدور طبعة جديدة من مسرحيتي (الشمس والدنس)...

واتجهت إلى المعهد حيث كانت سيارة الجامعة بانتظاري... وانطلقنا إلى هناك في واحدة من أطيب اللحظات في رحلتي هذه... وهناك استرحت قليلاً في غرفة العميد، وخرجنا إلى إحدى القاعات لإلقاء محاضرة في الفقه الحضاري... ولنتناول بعدها غداءً طيباً في مطعم الجامعة مع ثلة من

الأساتذة... ثم ما لبثت أن أستأنفت العمل فألقيت محاضرة عن (قيمة الخطاب الأدبي والفني) وجدتني فيها أمسك تماماً بزمام الموضوع وفق الأسلوب الهادئ الذي أرتاح إليه... وتلقيت بعدها عدداً من التقويمات السخية والمداخلات الطيبة... ثم تحولت بصحبة رئيس القسم إلى شعبة أخرى، لكي يقدمني أحد أساتذة الثقافة الإسلامية في محاضرة عن قيمة التاريخ...

غادرت بعدها الجامعة بمعية السائق الذي طلبت منه إيصالي إلى تجمع باصات الجت لتثبيت حجز العودة على عصر الجمعة، ومنها إلى منطقة الجامع الحسيني لاستكمال ما أقدر عليه من المشتريات...

وقد بدأت بزيارة للمكتب الإسلامي وتلقي الأجوبة على العديد من المعلقات، ثم صليت الظهر والعصر وانطلقت في جولة مسواق ناجحة، وهادئة، بعيداً عن السباق مع الزمن وشد الأعصاب، واستطعت أن أشتري العديد من الحاجيات، وأن أستكمل معظم مطالب قائمة الأدوية، وأشرب قدحاً كبيراً من عصير الكوكتيل ثم أستقل التاكسي إلى المعهد، حيث كان بانتظاري أستاذ في علوم القرآن دعاني وعدد من الإخوة إلى تناول العشاء في أحد المطاعم...

وكانت واحدة من أعذب الجلسات عبر رحلتي هذه بأحاديثها ونكاتها، ومداخلاتها وعشائها الطيب... غادرنا بعدها لكي يوصلني أحد الإخوة إلى الفندق... حيث كان بانتظاري طالب الماجستير، وبدأنا بعد قليل جلسة طويلة أخرى لتصفية العديد من المعلقات بخصوص رسالته، واستكمال الحوار حول هموم الأدب ورحلتي معه...

كنت أحسّ بارتياح عميق لولا القلق الذي سببه تلقي فاكس من الرابطة يشير إلى رغبة دكتور عبد القدوس بمكالمتي هاتفياً... كنت أخشى من أن تنفتح عليَّ جبهة دعوة المغرب وحفل تكريمي الذي دعت إليه أمانة الرابطة هناك... وبعد محاولات تمكنت من العثور على (أبو صالح) في البيت فأكد لي الموضوع... وتم الاتفاق على ضرورة الاتصال بالأمراني لاختيار موعد مناسب عبر العطلة الصيفية بدلاً من نيسان، الذي يصعب الحصول على الموافقة

فيه... ولكن محاولات الاتصال بالأمراني ذهبت عبثاً... وفي ساعة متأخرة من الليل غادرني الطالب وصديقه... لكي ما ألبث أن أرتمي على السرير متعباً للحصول على ساعة إضافية من النوم!!

الخميس ١٢/٤: استيقظت قلقاً كشأني كلما وجدتني قبالة مطرقة الوقت الضيق وسندان المطالب العاجلة الملحّة... كان عليَّ أن أنجز رسالة للزعاترة وأبيِّض تقديمي لكتاب (الطريق إلى القدس)... وأن أنطلق بعدها للتفتيش عن بطاريات للسمع كلفني بها دكتور يسار التمر مدير العلاقات في جامعة الموصل... في عدد من المجمعات الخاصة بأجهزة السمع... ودق جرس الهاتف فإذا بأحد الإخوة يريد زيارتي... انزعجت في بادئ الأمر بسبب ضيق الوقت، ولكن ما لبث أن تبين لي أن مجيء هذا الرجل يخدمني في البحث عن البطاريات بسيارته في أماكن متباعدة... وأعرب الرجل عن ترحيبه، وانطلقنا بمعية ماجد أبو غزالة للبحث، فلم أعثر سوى على نوعية أخرى، وقلت في نفسي: لا بأس. فهي أفضل من الرجوع بخفي حنين...

واتجهنا إلى المصرف الإسلامي... وكانت مسألة فتح حساب بالعملة الأردنية لأغراض تسهيل الإجراءات المالية عقدة أخرى في طريقي... تمكنا من حلّها بعد حوالي الساعة، ودّعت بعدها صاحب السيارة وماجد، وانطلقت في العبدلي لشراء بعض الأدوية الناقصة، ولزيارة دار الضياء التي رحب مديرها العام بي ترحيباً حاراً ودعاني للغداء، لكني اعتذرت ورحت أسأله عن مصير مؤلفاتي الثلاثة لديه. فأكد أنه بصدد طبع أحدها في وقت لاحق... غادرته مرتاحاً لكي أعود إلى المعهد، وأتمكن من الاتصال الهاتفي بعبد القدوس، حيث رتبت معه أمر تغيير الموعد مع الأمراني بالنسبة لدعوة التكريم...

وأحسست بالمزيد من الارتياح، وانطلقت بعدها مع صفوان ووالدته لزيارة مدير مدارس الأقصى يوسف العظم (رحمه الله) الذي استقبلنا بحرارة، وجرت معه أحاديث مؤثرة كان يقطعها بكاؤه الصامت المؤثر حيناً بعد حين... وتمكنت من طرح مشاكل صفوان بوضوح وتلقي وعد منه بالمساعدة، ثم ما لبثنا أن قفلنا

عائدين، لكي أدخل لأكثر من ساعة دوامة ملاحقة المعلقات في المعهد... ثم أتحول بعدها إلى شقة أم مروان لتناول غداء طيب وتبادل الأحاديث... كنت أحسّ بارتياح وسعادة بالغة لولا ما كان يقطعها بين لحظة وأخرى من قلق بخصوص دعوة المغرب، واحتمال وجود بعض الثغرات التي لم أستطع متابعتها عبر مكالمتي الهاتفية مع عبد القدوس... وغادرت المكان مكتئباً، وزادني هماً أن أم مروان حمّلتني بأثقال إضافية إلى الموصل رغم اعتذاري عن بعضها...

وهرعت إلى المعهد ولم يكن بيني وبين السيمنار والمحاضرة التي ستعقبه سوى ساعة أو أقل منها، فدخلت الغرفة وأقفلت الباب عليَّ، وأنجزت عدداً من المطالب بما في ذلك فاكس توضيحي للدكتور عبد القدوس استكملت فيه ثغرات المكالمة... أحسست بارتياح وأنا أجده يمضي في الجهاز إلى هدفه...

كانت هناك مطالب ملحّة كثيرة، لكن العوضي مدير المعهد كان يقطع عليَّ الخلوة بين لحظة وأخرى، مؤكداً ضرورة التحاقي بالسيمنار حول (المصطلح) بأسرع ما أقدر، وأنهم لن يبدؤوا قبل حضوري... فما كان مني إلّا أن أترك ركام الأوراق المبعثرة وأن ألتحق بهم، حيث بدأ السيمنار وألقى أحد المختصين بالعلوم الشرعية موجزاً لبحثه، أشاد عبره بتأثره بكتاباتي ورحب بي بحرارة... ثم ما لبث العوضي أن طلب مني البدء بالحوار...

كنت قد دوّنت بعض النقاط على عجل، حيث لم يكن الوقت الضيق قد أتاح لي قراءة نص البحث... ثم ما لبث الدور أن جاء على الآخرين لكي تتم المناقشة بعد ساعة واحدة... هرعت بعدها لانتهاز الدقائق الفاصلة عن محاضرتي في موضوع (العولمة وضرورة التأصيل الحضاري)...

دخلت القاعة فوجدتها غاصة بالحضور رجالاً ونساءً، فحمدت الله... وقدمني العوضي بسخاء... وبدأت محاضرتي بهدوء وإمساك محكم بخيوط الموضوع وتدفق في المفردات الكثيفة التي عالجتها المحاضرة... وتلقيت بعدها مداخلات مكثفة تمت مناقشتها بالسرعة التي يتطلبها الوقت الضيق...

وما لبثت أن نهضت قائماً لكي أتلقى سيلاً من التقويمات السخية،

ومصافحات الإخوة والأساتذة والمفكرين والباحثين... ولكي أتمكن من الاعتذار عن لقاء مع مجموعة من الشباب كنت قد وعدتهم قبل يومين... بالاشتراك معهم في مناقشة سبل العمل... من خلال ورقة عمل كانوا قد أعدّوها سلفاً...

كنت مرهقاً... وكان الطنطاوي يحفزني على الإسراع باللحاق به لقضاء الأمسية في بيته... ولكن حصاراً آخر كان عليَّ أن اخترقه... عدد من الحاضرين من بينهم زوجة القرضاوي الثانية التي تعدّ بحثاً للدكتوراه... كان عليَّ أن أفتح صدري للإجابة على أسئلتهم... واستطعت أخيراً الفكاك... لكن مكالمة هاتفية من لندن من دكتور أنس، أرغمتني على البقاء فترةً أخرى، دار عبرها حديث ذو شجون...

غادرت بعدها المعهد، مودّعاً الدكتور أحمد الحسّو، ومنطلقاً بسيارة دكتور محمد زكي إلى بيت طنطاوي، وأنا أحسّ أنني قد ألقيت عن كاهلي عبئاً ثقيلاً... وكانت الأمسية هادئة طيبة حضرها زعاترة وأبي الحسن... وداعية شامي عرض عليَّ ترتيب موعد معه بدعوة خاصة للمناقشة في العديد من الموضوعات الفكرية والدعوية فوعدته خيراً...

ثم ما لبثت والدكتور زكي أن غادرنا المكان لكي يوصلني إلى الفندق... حيث فوجئت بأن طالب الماجستير وصديقه لم يغادرا الفندق بعد وأنهما سيمكثان حتى يوم غدٍ... واتصلا بي وأعربا عن رغبتهما في استكمال الأمسية في غرفتي، فرحبت بهما على مضض بسبب كثرة أعمالي وضرورة ترتيب الحقائب والأوراق استعداداً للسفر يوم غدٍ...

وسهرنا حتى ساعة متأخرة من الليل... وتبادلنا الأحاديث ثم ودعاني بحرارة... لكي ما ألبث أن أشمّر عن ساعد الجدّ لإنجاز وترتيب الحقائب والأوراق، وأجري مكالمة ناجحة مع الأمراني في المغرب لترتيب الموعد الجديد، حيث أحسست بارتياح عميق... وتمكنت بعد أكثر من ساعتين من إنجاز ترتيب كل شيء. واستلقيت على السرير منهكاً وسعيداً في الوقت نفسه،

فها هي ذي الحلقة قبل الأخيرة من رحلة المعاناة والكدح هذه... وبعدها سأتحرر... سأتحرر... سأتحرر!!

الجمعة ١٢/٥: استكملت لمّ المتاع، وتناولت فطوراً خفيفاً، ثم نزلت إلى الصالة، حيث ما لبث ماجد أن جاء بسيارة أجرة لكي تقلني إلى المعهد.

وضعت حقائبي في المعهد وتناولت قدحاً من الشاي ثم انطلقت إلى مركز المدينة لاستكمال المشتريات واستطعت أن أنجز المطلوب وأن أصلّي الجمعة، وأخرج بعدها لاستكمال ما تبقى، وتناول الغداء في مطعم القدس، والتوجه إلى المعهد لانتظار دكتور محمد زكي لكي يقلّني إلى كراج الجت...

وقلت في نفسي ها هي ذي ساعات السفر الطويل ستتيح لي لأوّل مرة منذ أكثر من شهر فرصة للاسترخاء... الاسترخاء!! وجاء دكتور محمد زكي، وأقلّني إلى الكراج... ووقفنا هناك نتحدث، وزادني ارتياحاً أن أرتب معه أمر الأمانات التي حملتها معي من ماليزيا... ثم ودّعني، لكي أستقل الباص، فينطلق بي في رحلة العودة المنتظرة، عبر الطريق الطويل، الذي سيمكنني من استعادة الشريط المترع بالمعاناة، وتصفية حلقاته الكدرة الواحدة تلو الأخرى...

كانت حقاً رحلة طيبة... حيث وقفنا قليلاً في صفاوي لشراء العديد من المواد الغذائية المتبقية... وفي رويشد لتناول العشاء والصلاة... ثم ما لبث القلق أن تناوشني بخصوص إنزال الحقائب وتفتيشها، ولكنها لم تفتش في الأولى... ومرّت في الثانية بسهولة تامة... حيث رحت بعدها أتابع بقية الإجراءات وأنا أحسّ بارتياح عميق... ثم ما لبث الباص أن يمم صوب بغداد، لكي تأخذني بعد قليل سنة من النوم العميق، فلا أستيقظ إلا عند أطراف بغداد... وشيء من القلق يتناوشني خشية عدم السيطرة على الأكياس والحقائب التي بلغت حوالي العشرة... ولكني تمكنت منها أخيراً وبعد جهد جهيد وبمعاونة اثنين من الحمالين، اللذين نقلاها إلى سيارة كانت متهيئة للسفر إلى الموصل...

فاستأجرت الحوض الخلفي كلّه، وأطمأنيت لوضع المتاع في الصندوق، ثم ما لبثت السيارة أن انطلقت إلى الموصل في رحلة مريحة وسريعة... ودخلت البيت وسط الإحساس السعيد إياه لدى كل عودة، لكي تستقبلني زوجتي وأطمئن على أوضاع الأقرباء جميعاً... ثم أدخل ـ كالعادة ـ دوّامة القلق والتشتت... وأنا أعرض الهدايا والبضائع التي جلبتها معي... لكنها إذ كانت قليلة محدودة هذه المرة؛ فإن ردود الفعل المعهودة كانت ضيقة المساحة هي الأخرى...

وانطلقت عصراً إلى الكلية لألقي محاضرتي في السيرة على طلبة الدراسة المسائية بتمكن وانسيابية رغم إعيائي، ولكي أعود إلى البيت وأنا أحسّ أني أضع عصا التسيار في مكانها... بعد أسابيع تقلّبت فيها مائة مرة ومرة بين النعيم والجحيم...

[٢٨]

رحلة عام ١٩٩٩ م إلى الأردن

الأحد ٢/٥: في السيارة إلى بغداد ـ في الجت إلى عمان.

الاثنين: الاستقرار في الفندق ـ الفطور ـ انتظار مملّ دون أن يأتي أحد ممن طلب تحديد موعد ـ غداء مزعج ـ عدد من الاتصالات الهاتفية ـ دكتور صهيب يشير إلى إمكان تسجيل حلقات في سجى ـ إحساس بالتوتر خشية ضياع الفرصة ـ ارتياح للتمكن من الاتصال بعماد الخطيب وعرضه إمكانات التسجيل ـ اتفاق على زيارة للمشاهدة عصراً ـ انفجار الندم وتزايد التوتر إياه بعد دقائق بسبب الأشخاص الذين سأشاركهم الحوار وميل إلى الاعتذار ـ حضور حلقة بائسة عن القضية الفلسطينية وارتياح للاعتذار بعد قلق وتوتر ـ أمسية طيبة مع الأمراني في الفندق...

الثلاثاء: الذهاب إلى الجامعة ـ ترحيب حار وتقويمات سخية ـ زيارة رئيس الجامعة ـ جلسة الافتتاح ـ إدارة الجلسة الأولى ـ إلقاء موجز لبحثي يتجاوز ـ بفضل الله ـ ما أملته من نجاح ـ ردود أفعال طيبة وتقويمات سخية

ـ تناول الطعام في الكلية ـ العميد يفاتحني برغبة رئيس الجامعة بإعارة خدماتي لسنة كاملة فأقترح التمهل ـ مدير الخدمات يعاونني في مسألة إيجاد طبيب جيد للأسنان والاتفاق معه على موعد ـ عودة إلى القاعة لمتابعة الجلسة الثانية ـ استراحة لشرب الشاي ثم عودة للأمسية الشعرية ـ نجاح وردود أفعال فوق ما كنت آمله بخصوص القصيدتين اللتين ألقيتهما ـ عودة مع زيد أبي الحاج وحوار حول مطبات سجى وسلامة موقفي بعدم التسجيل ـ أمسية وعشاء طيب وحوار خصب في دار طارق التل... جلسة وأحاديث ذوات شجون في صالة الفندق بعد العشاء مع الأمراني حتى ساعة متأخرة.

الأربعاء: الذهاب إلى الجامعة ـ الجلسة الصباحية الأولى ـ الدكتور الجبوري يهاجم الحداثة وينقد أطروحاتي، فأردّ عليه، ثم ينتهي الأمر بوفاق طيب وتبادل لمشاعر المحبة ـ فترة للشاي والصلاة... تقويمات سخية...

العودة لجلسة أخرى ومداخلات عديدة للمشاركين تنطوي على تقويمات سخية... الغداء وتلقي المكافأة من العميد ـ الجلسة الأخيرة وقراءة التوصيات وترتيب موعد مع الطلبة لمحاضرة أكاديمية يوم السبت القادم ـ توديع عدد من المؤتمرين ونقل أحد الأساتذة من غزة مشاعر المحبة والتقييم لعموم المثقفين هناك، فأحمد الله... الأمر نفسه مع أستاذ جزائري فالحمد لله وحده... أمسية طيبة وحوار بين الجد والهزل في بيت دكتور عدنان الدليمي... العودة إلى الفندق...

الخميس: رحلة طيبة وصعبة إلى شمالي الأردن بسبب الحرّ. وأحاديث وحوارات ومفارقات شتى عبر الطريق... ثلة من الطلبة الأتراك يلتقونني عرضاً فيعربون عن اعتزازهم والمثقفين الأتراك فالحمد لله... صور مشتركة... وجولة طويلة وغداء يتأخر عن موعده لكنه لذيذ طيب... والطنطاوي يعرض فكرة إصدار أعمالي الكاملة في دار القلم، وأنه عرض الفكرة على صاحبها فوعده بدراستها... الدكتور المناصرة يزورني في الفندق ويهديني كتابه، ويثني على محاضرتي والدكتور الأمراني، وندخل في حوار خصب مع دكتور عودة أبو عودة

حول التفسير الدلالي، ومحاولة شحرور السيئة، وحلقات الحوار في سياق الرأي والرأي الآخر، وتضاؤل المحاور المسلم أمام خصمه... وضرورة أن يكون للمثقف مرجعية... والدكتور عوض يعرض عليَّ صياغة المقترح، وأنه سينقلها إلى بلده فأعده، لكنني أتردد بيني وبين نفسي، ثم ما ألبث أن أصرف النظر عن الموضوع خشية تجاهله هناك... وثمة تقييم من الأصبحي الوزير اليمني السابق حول توجُّهي الموسوعي... أمسية طيبة مع الأمراني في صالة الفندق قبل الصعود للنوم.

الجمعة: الاستيقاظ على جملة من الأمور المعلّقة والمقلقة بما في ذلك مسألة الانتقال من الفندق، والاعتذار عن دعوة غداء عند دكتور عودة أبو عودة... جلسة طيبة مع دكتور فاروق عمر، مجيء دكتور محمد زكي، والتوجه لأداء صلاة الجمعة، ومنها في رحلة طيبة وسط مناخ رائع إلى أحراش زي في محافظة السلط، ومنها إلى جرش لزيارة الدكتور الحمداني والعودة من ثم إلى عمان، حيث يعرض دكتور محمد زكي فكرة عرض مؤلفاتي على شبكة الانترنيت لقاء مبلغ من المال... أتردد قليلاً ثم أميل إلى الموافقة على أن يكون ذلك بعد عودتي إلى العراق والتفرغ لدراسة العرض... بعد قليل يتصل بي زكي لكي يبلغني أنه تمكن من الاتصال بمركز البحوث في ماليزيا حول طبيعة الخلل في الأقراص فأحسّ بارتياح كبير...

ساعة من الانتظار في صالة الفندق لصحفي من جريدة السبيل، ثم يتبين أنه يجلس والأمراني وآخرين في الصالة العليا، حيث يدور حوار حول هموم الأدب الإسلامي يسجل على الكاسيت لكي ينشر في (السبيل)... عشاء مع الأمراني في مطعم الفندق ثم أمسية طيبة وأحاديث ذوات شجون حتى ساعة متأخرة من الليل...

السبت: إجراء جملة من المكالمات الهاتفية، والعوض يخبرني أن الأقراص الخاصة بكتابي (مدخل إلى التاريخ) تعاني من تلف في بعض أقسامها ويعدني أنه سيسعى لتلافي النقص... التوجه إلى جامعة الزرقاء وإلقاء محاضرة

مشتركة مع دكتور الأمراني حول قيمة الخطاب الأدبي ومشاكله، يحضرها رئيس الجامعة وكبار الإداريين وعدد من الأساتذة والطلبة، ويدور بعدها حوار خصب حول الموضوع، أحسّ عبره بالتحقق وبأنني أديت المهمة على أفضل وجه بفضل الله، حيث أتلقى التقويمات الخصبة فضلاً عن التفاف العديد من الطلبة والطالبات يطلبون رأياً أو استشارة ما، أو مداخلة بخصوص خطة بحث أو محاضرة لندوة أو مؤتمر...

تناول الغداء مع عدد من الأساتذة ورئيس الجامعة... وطلب من رئيس الجامعة بإلقاء محاضرة أخرى يحدد لها يوم الاثنين حول (الكتابين المقروء والمنظور)... ومعنى ذلك تمديد بقائي في الفندق إلى يوم الاثنين فالحمد لله... التوجه إلى الفندق وقيلولة سريعة ومنها إلى الصالة بانتظار الدكتور شريدة مدير الخدمات، لكي يقلني إلى مجمع طب الأسنان، حيث يعلمني الطبيب بعد الكشف والتخدير والإيغال في حفر الأضراس ألّا ضرورة لسحب العصب، فأحمد الله وأحسّ بفرح طاغٍ. وأقارن بين هذه العيادة بأجهزتها ونظافتها وتمرس أطبائها وأسلوبهم في التعامل؛ مع ما هو موجود في العراق، فأجدني قبالة فارق يصعب وصفه... ويرحب بي الأطباء ويعربون عن سعادتهم باللقاء وأنهم يعرفونني من خلال أعمالي فحمداً لله...

أتوجه إلى الفندق بعد الاتفاق على موعد عصر يوم غدٍ للحشوة النهائية، ثم ما يلبث دكتور محمد زكي أن يصلنا بعد أداء صلاة العشاء في جامع الملك عبد الله إلى دار الطنطاوي وسط أحاديث دكتور عدنان الدليمي الممتعة... عشاء طيب وحوار خصب ولقاء بثلاثة ممن كنت أتمنى اللقاء بهم، حيث تلقيت الأجوبة على العديد من المعلقات، وحيث تم تحديد المواعيد بخصوص الأمسيات واللقاءات الحوارية القادمة، وحيث تلقيت من محمد جمال عمرو صورة دقيقة عن الوضع في دار البشير، جعلتني أتجاوز الحيرة والتردد بصدد اللقاء بها لغرض حسم العديد من المعلقات... والدكتور عبد القدوس يتصل بي هاتفياً عبر مكالمة طويلة تدور فيها أحاديث شتى عن المؤتمرات

والبحوث والمجلة والإصدارات، ويعرض عليَّ ضرورة حضور ندوتَي القاهرة، فأعلمه بصعوبة ذلك واعتذاري. فيطلب إرسال بحوث على الأقل لأن الأخت المسؤولة عن ندوة الأديبة المسلمة تعتبر ذلك نصراً كبيراً فالحمد لله...

وأعرض عليه فكرتي في تقديم إجازة مرضية بدون راتب من أجل التمكن من حضور الندوات مستقبلاً فيرحب بذلك. ثم ما نلبث أن نعود بمعية الحسناوي (ﷺ)، حيث أواصل العمل إلى ساعة متأخرة من الليل، وحيث أبلغ حافة الإعياء فيما ذكّرني بالعديد من رحلاتي السابقة...

الأحد: صراخ الأطفال وصخب وفد هندي وصرخات الهاتف توقظني مبكراً... حالة من القلق والاكتئاب التي أعرفها جيداً في رحلاتي تحاصرني بسبب كثرة المطالب التي تنتظر حلّاً: زيارة لمجلة (الأمة)، وتصفية بعض المعلّقات، وحوار خصب... أبو الحسن يقلني والأمراني من هناك إلى دار البشير، فنلتقي بمحمد جمال عمرو قبل أن يهم بالخروج. ثم نزور رضوان دعبول حيث يستقبلنا بحفاوة وتكون جلسة ودّية مترعة بالألفة والاستجابة للعديد من المطالب، الأمر الذي يغسل ما تبقى من التراكمات القديمة... نتحول إلى جمال عمرو ونصفي معلقات أخرى كانت تضغط على جملتي العصبية فأحمد الله...

أغادر المكان إلى دار الفرقان، وأحسّ بفرح غامر إذ يعرب مديرها عن ترحيبه بطبع كتابين لي قررت سحبهما من دار الضياء بعد انتظار سنتين... هذا إلى قوله بأنه سيقدم لي مبلغاً من المال في سياق حقوقي لديهم، وأهرع إلى دار الضياء وأحسّ بسعادة بالغة وأنا أتسلم أصول الكتابين وأوقع عقداً على نشر ثالثهما... وأعود سعيداً إلى دار الفرقان، حيث دعيت والأمراني على الغداء، فنتناول وجبة لذيذة من (العرايس)، ثم نغادر المكان إلى المعهد، حيث يتم تصفية معلقات أخرى: توزيع الرسائل، واللقاء بأم مروان وأولادها وترتيب موعد لتناول الغداء... ترتيب صيغة لحلّ معضلة الدسكات الخاصة بكتابَي الدليل والمدخل، عدة اتصالات هاتفية..

ويعرض عليَّ مدير المكتب دعوة وجهت لي من المعهد العالمي لزيارة المغرب وإلقاء عدة محاضرات عن إسلامية المعرفة، فأعتذر وأنا أتذكر المعاناة القاسية لدى تلبية كل دعوة... يقلنا العوضي عائدين، وأدخل عيادة طب الأسنان، لكي ما يلبث الطبيب أن يحشو الضرسين وأغادر المكان سعيداً، لكني ما ألبث أن اكتشف آلاماً في أحد الأضراس لدى كل احتكاك فأعود إلى دائرة الانقباض، وأتجه مشياً إلى الفندق حيث يجيء دكتور عبد الله الخباص وعدد من الأساتذة لكي نتوجه إلى مطعم المضيف، ونتناول عشاء شهياً من المقبلات والمشاوي وسط النكات المتلاحقة من الخباص والتقويمات السخية من الحاضرين، ويودع بعضنا بعضاً بحرارة... ويشير غرايبة إلى أن هناك محاولة لرفع مكافآتي في الشرق القطرية، وعرض فكرة تحويل حسابي إلى مصرف أكثر سهولة... نصل الفندق مرهقين...

وأودع عدداً من الإخوة المغادرين بحرارة، ثم أصعد إلى الغرفة مرهقاً كئيباً بسبب كثرة ما ينتظرني من أعمال رغم حاجتي إلى النوم... النوم العميق...

الاثنين: اتصالات هاتفية... وقراءة في الخطوط العريضة لمحاضرة اليوم عن (الكتابين المقروء والمسطور)... وإكمال الخطوط العريضة لمحاضرة المعهد حول (مرجعية ثقافية لعالم الإسلام)... تناول الفطور مع الأمراني ودكتور عوض وأحاديث ممتعة من تاريخ السودان والمغرب عبر ربع القرن الأخير... التوجه إلى جامعة الزرقاء وجلسة ودية لدى مدير الاستعلامات...

التوجه إلى القاعة وإلقاء محاضرة مكثفة وموفقة بحمد الله حضرها عدد كبير من الطلبة والأساتذة فضلاً عن رئيس الجامعة وكبار الإداريين... أعقبها حوار خصب وتهنئة من العديد من الحضور... ثم جلسة ودية مع رئيس الجامعة ونائبه، فنتوجه لتناول الغداء، ومنه إلى الزرقاء لشراء إحدى الأدوات الاحتياطية للسيارة... وفي الفندق ارتميت على السرير، حيث لم يتبق سوى

نصف ساعة فقط لموعدنا مع دكتور مأمون جرار... واستطعت الحصول على سنة من النوم قطعها الهاتف وصوت أحد الصحفيين يطلب موعداً لمقابلتي...

التوجه مع مأمون إلى مكتب الرابطة الأدبية، حيث شاركت والأمراني في كلمتين وحوار خصب حول الأدب الإسلامي، كانت تقلقني عبره هواجس مع متاعب الضرس المحشو وضرورة إدراك الطبيب قبل مغادرته لعرض الحالة عليه، وإلّا اقتضاني ذلك البقاء ليوم آخر وربما لأيام لو ثبت أن الضرس يحتاج إلى قتل العصب...

قمنا إلى الصلاة وتناول (الكنافة) وكان يزيدني هماً مطلب رعد الحيالي (ﷺ) بخصوص دعوته إلى الأردن بواسطة جهتين ممن لا يعرف الله ورسوله، وتمكنت من تغيير إحدى الجهتين بواسطة الساريسي وإيجاد بديل أكثر اعتدالاً... وكنت قد تجاوزت ظهر اليوم مهمة لا تقل سوءاً وهي حمل رسالة إلى رئيس جامعة الموصل بخصوص إعارة الخدمات، حيث لن يفيد من الفرصة سوى ذوي الامتيازات اللاعلمية، فاعتذرت لمدير العلاقات عن المهمة فقبل عذري...

كان العديد من السائلين يحيطون بي كل يطلب مني شيئاً، وأنا أحسّ بتوفّز عصبي خشية أن يفوتني موعد الطبيب، واستنصرت أحد الإخوة فأقلني بسيارته إلى المجمع الخاص بطب الأسنان، حيث أدركت الطبيب وهو يهم بالمغادرة فحمدت الله. وما لبث أن أعلمني بأن حساسية الضرس أمرٌ طبيعي وأنها ستزول خلال أسبوعين، كما قام بجلخ الحشوة وتسويتها...

ثم غادرت المكان وأنا أكاد أطير من الفرح والارتياح... وفي بيت الحسناوي تناولنا عشاء طيباً ودارت أحاديث ممتعة، ثم ما لبثنا أن تحولنا إلى أمسية في بيت جاره دارت فيها أحاديث شتى وتلقيت تقويمات من معظم الموجودين... ثم ما لبثنا أن ودّع بعضنا بعضاً. وعدت والأمراني إلى الفندق على قدر من الاكتئاب والقلق، فإن عليَّ أن أعمل حتى ساعة متأخرة من الليل لإنجاز المهام التي تتطلب تصفيتها...

الثلاثاء: يوم النعيم والجحيم هو هذا اليوم... قفزات عديدة إلى فوق، وارتكاسات قاسية إلى أسفل وضعتني في دائرة الدمار النفسي والاكتئاب. بعد الاستيقاظ رتبت المواعيد بشكل محكم، وأنجزت العديد من الأعمال في غرفة الفندق، واتصلت هاتفياً بالعوضي، كما اتصل بي أبو الحسن وأعلمني بقبول كتابي (قضايا ساخنة) للنشر ضمن إصدارات فلسطين المسلمة، وقال إنه سيمر عليَّ غداً صباحاً لأخذي إلى (الأمة) للتداول في بعض الأمور...

أحسست بفرح غامر وانطلقت إلى المعهد لكي أفاجأ بتهيئة كشف حسابي لعام (١٩٩٧م)، وأتمكن من الاتصال الهاتفي بالشرق القطرية في الدوحة لترتيب أمر إرسال المكافآت، وحيث أعلمني مسؤول الحسابات بأنهم أرسلوا عبر وجباتهم الأخيرة مبلغ (١٥٠٠) دولار، فالحمد لله...

كما تمكنت من الاطلاع على النسخة المسحوبة من (دليل الأحاديث) فلم أجد فيها أثراً لخطأ فني أو مطبعي فالحمد لله... استطعت أيضاً أن أشتري معظم الأدوية والمطالب البيتية ثم أهرع إلى دار الفرقان لتسلّم مبلغ ثلاثمائة دينار أردني كجزء من حقوقي عن كتبي الثلاثة لديهم... توجهت بعدها إلى دار البشير لتسلم حقوق حكمت، فلم أجد جمال عمرو هناك... قفلت عائداً إلى المعهد وتناولت غدائي في بيت صفوان، ثم عدت إلى المعهد لألتقي عدداً من الأساتذة والمدعوين إلى محاضرتي. وجرى حوار طيب مع معاون مدير سجى للإنتاج الفني ونقلت إليه مرئياتي ونقدي بشكل صريح فقبلها بامتنان...

دخلنا القاعة التي حضرها حشد طيب من الحضور أساتذة وشباباً ونساءً بما فيهم رئيس جامعة الزرقاء وعربيات رئيس مجلس النواب الأردني... قدمني الدكتور محمد صقر بسخاء، وألقيت محاضرتي عن (مرجعية لمثقفي عالم الإسلام)... وكنت مرتاحاً تماماً بأسلوبي في الطرح ومقتنعاً بما قدمته... ثم جرى حوار خصب من عدد من الحضور...

وما لبث العدّ التنازلي القاسي أن بدأ الدور، أحد المتشدّدين يثير

إشكاليات حادة عبر المناقشة كادت أن تسمّم الجو، لولا أن حُسمت برفع الأذان والإعلان عن انتهاء المحاضرة...

غادرنا المكان وتحلّق حولي عدد من الحضور بما فيهم مجموعة من الطلبة البلغار والرومانيين والمقدونيين المسلمين يطلبون بعض مسرحياتي ويقيّمون دوري... والمتشدد إياه يعود فيودعني بحرارة ويطبع قبلتين على خدي ويعرب عن محبته العميقة لي... أهرع إلى إحدى الصيدليات بمعية الطنطاوي لاستكمال شراء الأدوية، وأعود إلى المعهد لالتقاط بعض الصور، ولكي يعلمني ماجد بأنه أرسل نسخة من دسكات دليل الأحاديث إلى ماليزيا... يا للكارثة!! قلت في نفسي... فهذه ضربة موجعة أخرى... إنها ستحدث إرباكاً هناك وتداخلاً مع كتابي المنهجي لجامعة ماليزيا... وتعال يا عماد وابذل جهداً إضافياً لتصفية الموضوع... أما دسكات الكتاب المنهجي فقد تسلمها دكتور محمد زكي ووعد بفحصها وإعطاء النتيجة يوم غدٍ...

اتجهنا بسيارة الطنطاوي إلى بيت قفة لقضاء الأمسية وتناول العشاء هناك... وزادني ضغطاً نفسياً أن عليّ أن أتخذ قراري بصدد السفر هذه الليلة لتصفية حساباتي مع الفندق... وأن عليّ أن أتابع جملة عديدة من الأعمال المعلقة، التي تقتضي وقتاً قد لا يسمح لي بالسفر... هذا إلى أن عليّ أن أسهر حتى ساعة متأخرة لإنجاز العديد من المعلقات ليوم غدٍ، فضلاً عن ضرورة ترتيب الحقائب استعداداً للسفر... يا الله!.. ما أشد تعاسة الإنسان وآلامه التي لا يعرف كيف تحيق به!.. وزادني تعاسة تلك الآلام الخفية التي انبجست على حين غفلة قريباً من ضرسي الذي حُشي قبل أيام...

ودّعت الطنطاوي والأمراني عبر لحظات مترعة بالتعاسة هي الأخرى... وترددت طويلاً قبل أن أصعد إلى غرفتي بصدد حسم الموقف إزاء الفندق... ولكني ما لبثت أن اخترت الاتصال بالسنترال وإعلامهم أنني سأغادر صباح غدٍ... حيث سيوصلني أبو الحسن بالحقائب إلى المعهد...

الأربعاء: استيقاظ لا أحسد عليه، فها أنا ذا قبالة مغادرة الفندق وترتيب

الحقائب والتوجه إلى مكتب الأمة، ومن هناك إلى المعهد لوضع الحقائب، ومتابعة مكوكية إلى حدّ التوتر لإنجاز جملة مشاغل: إشكالية الدسكات في الجامعة العالمية... متابعات حسابات البنك الإسلامي وإمكان إعادتها إلى الجاري... كتابة عدة فاكسات إلى قطر وماليزيا... شراء الحاجيات المتبقية التي تقتضي التوجه إلى قلب المدينة... الحصول على مكافآت حكمت صالح... التوجه إلى المنشأة... الخ...

انتظرت طويلاً الأخ أبو الحسن ليقلني إلى (الأمة) لمتابعة مطالب كتابي (قضايا ساخنة) ومسائل أخرى... وانتابني القلق حيث الحقائب مرمية قبالتي... ولجأت إلى الهاتف أكثر من مرة، ثم ما لبث أن جاء بمعية أحد محرري (فلسطين المسلمة). أعلن الأخير عن قبول كتابي للنشر وطلب التواصل مع فلسطين المسلمة وقال إنهم سيدفعون لي خمسمائة دولار، فاعتذرت عن قبولها قبل تسويق الكتاب... كما طلب المساهمة في طرح مرئيات أو حتى إنجاز مؤلف عن القضية الفلسطينية... أوصلاني إلى المعهد لكي ما ألبث قبل أن ألتقط أنفاسي أن أتلقى مكالمة هاتفية من الدكتور السرطاوي عميد كلية الشريعة بالجامعة الأردنية يدعوني فيها للمشاركة في حلقة في برنامج (اقرأ) التلفازي الفضائي يوم الأحد القادم...

أتردد قليلاً وأنا أعاني (النار) ثم أميل إلى الاعتذار... وأقفل الهاتف لكي ما يلبث الندم أن ينفجر، فأهرع للاتصال به وأعلمه بأني على استعداد شرط أن أتمكن من مكالمة زوجتي لطمأنتها على تأخيري... وبعد جهد فتح الله ﷻ عليّ، وأبدت قبل أن أعلمها بشيء رغبتها الحارة بمواصلة بقائي لأيام أخرى، فأحسست بارتياح عميق وتم الاتصال بالسرطاوي ورتبت بعض المسائل الأولية...

بعد الصلاة اتجهت وماجد إلى البنك الإسلامي، ولحسن الحظ تم الحصول على الأجوبة الخاصة بالعديد من المسائل المعلّقة، وعدنا إلى المعهد وأنا أحسّ بارتياح ورضا عميقين، وتناولت غدائي في بيت والدة صفوان عبر

جلسة طيبة عدت بعدها إلى المعهد لكي أصفي عبر ثلاث ساعات أو أربع العديد من المعلّقات، وأكتب ثلاثة فاكسات يتم إرسالها بنجاح والحمد لله... فأزداد استقراراً وأتجه إلى الجامع لأداء صلاة المغرب، وليس ثمة ما يعكرني وأنا أقارن بين وضعي الآن ووضعي قبل أربع وعشرين ساعة فقط... وصدق الله العظيم القائل: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥ ـ ٦]...

ثمة ما يقلقني أنا الذي يبدو ألّا مهرب له من انبجاس القلق المحتوم كالينابيع: موضوع اللقاء التلفازي القادم الذي ينطوي على معالجة مفردة (الاستقرار السياسي ودوره في الفاعلية الحضارية)... إذ قد يعني هذا نوعاً من التبرير أرفضه رفضاً قاطعاً... ولكنني ما ألبث أن أحسم الحيرة والقلق باتخاذ قرار بإقناع السرطاوي بتغيير الموضوع وإلّا فإنه الاعتذار بحجة أو أخرى...

بعد الصلاة عدت إلى المعهد لكي أتم بعض الأعمال وأدّون هذه الصفحات وأحاور العوضي في بعض المسائل... وأتلقى مكالمة من دكتور محمد زكي نتفق عبرها على رحلة أخرى يوم الجمعة... وأتحدث في الهاتف إلى الدكتور الملكاوي وأتلقى دعوة من العوضي على الغداء في مطعم القدس... ثم ألتهم (الأنكي دنيا) وأقفل عائداً إلى جهة (بارك الجديد) لكي أبيت فيه ليلة واحدة، بعدها قد أتحول وفق الخطة مع برنامج (اقرأ) إلى فندق مرمرة...

ارتحت للفندق قياساً على فنادق الدرجة الأولى، وانتابتني موجة من الشجن المترع بالاعتزاز وأنا أتذكر كيف أنني وزوجتي قضيت فيه عدة أيام قاسية عام (١٩٧٨م).

غادرت الفندق لكي أتخطى وسط عمان... المنطقة التي أحبها وأرتاح إليها... وانتهى بي المطاف إلى مطعم هاشم لتناول عشاء من الفول يمكن أن يكون أطيب عشاء عبر رحلتي هذه!! استرخيت بعدها قريباً من الرصيف في واحدة من أمتع الجلسات وقلت في نفسي: ماذا لو لم يعكرها أمران: دعوة برنامج اقرأ الذي أرغمني على البقاء لعدة أيام أخرى، فضلاً عن دوّامة القلق بخصوص موضوع الحلقة في الجانب المتعلق بالاستقرار السياسي، إذ قررت أن

أطلب تغييره أو أعتذر أساساً عن المشاركة بسبب ما ينطوي عليه من تبرير للسلطات الحاكمة... وقلت: لولا هاتين لكان يوم غد هو يوم العودة إلى الأهل والديار، بعد رحلة أنجزت فيها الكثير وصفيت العديد من المعلقات... ولكن لا بأس فلكل شيء نهاية... تحولت إلى مطعم آخر لتناول الكنافة اللذيذة ثم قفلت عائداً إلى الفندق لأقضي بقية الأمسية في صالته البديعة قبالة قناة الجزيرة الفضائية، لكن النوم راح يداعبني باستمرار فصعدت إلى غرفتي لكي أحظى بأعمق نومة عبر رحلتي هذه...

الخميس: استيقظت على النوبة القاسية إياها من القلق والاكتئاب هذه التي ذقت مراراتها عبر معظم رحلاتي... وقلت في نفسي: سأرجع إلى بلدي بإذن الله، وهناك عبر طلعات الفجر سأستعيد فرحي الضائع بإذن الله... كان عليَّ أن أحسم اليوم مسألة تغيير موضوع اللقاء التلفازي مع الدكتور السرطاوي، ولم يكن الأمر مضموناً، وكان عليَّ أن أشتري العديد من الطلبات المؤجلة... وبعد تناول فطور بائس في الغرفة غادرت الفندق حيث تيسرت مسألة شراء الحاجيات دون عناء... وجلست قليلاً في المكتب الإسلامي للاستفسار من ممثله في عمان عن جملة من القضايا، وازددت ارتياحاً وأنا أتسلّم النسخة الخاصة بكتابي (حاضر العالم الإسلامي) التي خشيتُ أن يتولى المكتب إصدارها بالخطأ بعد إذ تم الاتفاق بصدد الكتاب مع دار النفائس.

توجهت إلى المعهد لأحضر جانباً من محاضرة بائسة أعقبها حوار بالإنكليزية كشف عن حقد المفكر الغربي ضد كل ما هو عربي أو إسلامي... ودعاني دكتور محمد زكي إلى ترك القاعة ردّاً على أطروحات المحاضر الإنكليزي... بعد قليل جاء السرطاوي وفق الموعد المتفق عليه وأبديت له رأيي وألححت على موقفي وإلا فإني أعتذر عن اللقاء... فاستجاب الرجل لطلبي بتحويل الحوار صوب الفقه الحضاري، حيث أعطيته جملة من رؤوس الموضوعات لإدارة الحوار. وانقض عليَّ على حين غفلة وكالعادة أستاذ من جامعة مؤتة مختص بالعلوم السياسية دون سابق موعد معه، وجلست أستمع

إلى كلامه المتواصل على مضض وسائق المحطة التلفازية ينتظرني لكي يقلّني إلى فندق مرمرة. وما لبثت أن غادرت المكان مع بعض حقائبي صوب الفندق.

ما أن وصلت وحططت فيه الرحال حتى أحسست أنني أصبحت منفياً عن عمان وعن أصدقائي، وأنني في البيئة إياها التي يحس المرء بالعداء تجاه نبضها الغربي الذي يعرفه جيداً روّاد الفنادق من الدرجة الأولى... وزادني قرفاً أن أجد الثلاجة الصغيرة ملأى بالمشروبات الروحية... وما لبث ندم عاتٍ أن انقض عليَّ لكي يضعني في دوّامته لعدة دقائق... وقلت في نفسي كان عليَّ أن أعتذر... وتناوشتني الوساوس بخصوص ارتباط الحلقة بجهة ما من أحد البلدان العربية، رغم أنني تأكدت تماماً ألّا علاقة، وإلّا لم أوافق ابتداء... كما انتابني الوهم بخصوص احتمالات التوظيف، ولكنني تذكرت أن مدير البرنامج وشريكي في الحوار الدكتور أحمد نوفل هما من أشد الدعاة نقاءً وإخلاصاً، كما أن صاحب البرنامج من أولئك الخليجيين الذين نذروا أموالهم للعمل الدعوي كالراجحي...

نزلت إلى المطعم لأتناول وجبة بائسة من السمك كادت تصيبني بالغثيان، من ذلك النوع الذي عذبني في فنادق الدرجة الأولى وفي باريس، حيث اللحوم المعتقة التي اختنقت في شرايينها الطعوم المقززة، وحيث الإضافات المقرفة من الكريمة ونكهات لا أدري كيف يستسيغونها!

وعدت إلى الغرفة لكي ما ألبث أن أستعيد توازني وشيئاً من انسجامي خاصةً بعد أن أخذت حماماً طيباً منحني الرضا والاستقرار... وقلت في نفسي كفى حرباً مع نفسك يا عماد فلقد تعبت... تعبت كثيراً وآن لك أن ترتاح.

وقلت أيضاً أن عليَّ أن أحيل هذه الأيام المتبقية من الرحلة إلى فرصة طيبة للتحقق والاستجمام... وزادني ارتياحاً ترتيب موعد مع أخي الغالي الدكتور محمد زكي للقيام برحلة مع الدكتور أحمد الحسو يوم غدٍ إلى منطقة التلال السبعة... وأخذت إغفاءة سريعة ولكنها عميقة استيقظت بعدها لكي أتناول قريباً من النافذة ثلاثة أكواب من الشاي (عدّلت) دماغي كما يقول

المصريون... ولبست بدلتي ثم غادرت الفندق لكي أتخطى في الشوارع المحيطة بالفندق، والتي تطل عليها عمارات وقصور يعجز الوصف عنها...

وزادني سعادةً أن أحظى بجامع هناك افتُتح حديثاً لكي أصلي فيه المغرب والعشاء وأقفل عائداً إلى الفندق... لكي ما تلبث حلقة إزعاج جديدة أن تنكّد عليَّ: آلام في الضرس الأيسر الذي حشوته قبل أيام تروح وتجيء كنوبات المغص وأصابني الاكتئاب ولكني قلت في نفسي لعلها بسبب تخدّش في اللثة القريبة فلأصبر عليها.

جلست قليلاً في صالة الفندق الكئيبة، التي لا تكاد تجد فيها أحداً، وقارنتها بصالات الفنادق الأخرى المترعة حيوية وحركة، فأحسست بالانقباض ورحت أعد الأيام التي تفصلني عن العودة وأنا أقول مرةً أخرى: لا بدّ لكل شيء من نهاية... ولكن لماذا يختارون فنادق نكدة كهذه، غالية الثمن، رغم أن هناك فنادق أفضل بكثير وأرخص بكثير... الويل للمظهرية!!

صعدت إلى الغرفة لكي أدون هذه المذكرات ولكي أجوع قليلاً فأنزل إلى المطعم الغربي البائس لتناول عشائي... وشتان بينه وبين طعام بلدي في الموصل أو حتى المطاعم الشعبية والمتوسطة في عمان نفسها!!

وثمة منغّص آخر: التلفزيون الذي ينفتح على كل القنوات والذي يتطلب مقاومة ضارية لعدم الاستجابة لندائه اللعين... ورحت أردد مع نفسي: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ [الملك: ١٢] لكي أقاوم الإغراء وسأقاوم بإذن الله...

نزلت لتناول العشاء... طلبت شوربة عدس وبيض مقلي تجاوزاً لقرف اللحم... وكنت موفقاً، ثم استرخيت في الصالة لأكثر من ساعة أتذكر جلساتنا الطيبة في الموصل، حيث الإحساس بالقرب والأمن والاندماج وأقول في نفسي، بعد اليوم لن أوافق على أية إعارة طويلة المدى حتى ولو صُفَّتْ نقود الدنيا أمامي...

الجمعة: استيقظت ـ على غير المعتاد ـ على قدر كبير من الانبساط

والفرح ربما بسبب النزهة التي يشاركنا فيها الدكتور أحمد الحسّو، وربما بسبب عدم وجود مطالب معلّقة تنتظر الإنجاز... وزادني ارتياحاً الاتصال الهاتفي مع العوضي وترتيب موعد معه يجيء فيه لكي يقلني إلى المستشفى الإسلامي لإجراء بعض الفحوص والاستفسار عن بعض المسائل بمعاونة أخيه الذي يعمل هناك... هذا إلى أنني تمكنت عبر الفسحة الزمنية قبيل نزولي إلى الصالة من إنجاز اثنتين من المهام، التي كلفني بها مكتب الأردن بخصوص تقديم مرئياتي حول ندوتين قادمتين...

نزلت إلى الصالة بانتظار دكتور محمد زكي وأنا أحسّ بارتياح وسعادة، ولكن الوقت ما لبث أن تجاوز الموعد... وطال الانتظار وازداد القلق، وهرعت إلى الشارع علّي أعثر له على أثر، ثم رجعت إلى الفندق وبدأ القلق يتناوشني لاحتمال وقوع حادث ما لا قدّر الله... وقلت في نفسي: إن كل أيامي عبر رحلتي هذه تلقت دفقات من الكدر ولم ينج منها سوى يوم واحد... ودعوت الله ﷻ... وبعد لحظات جاء زكي وأولاده فقلت الحمد لله... وتوجهنا لأداء صلاة الجمعة في مسجد قريب، ثم انطلقنا إلى منطقة رغدان التي تخرج إليها العوائل في نزهاتها الأسبوعية. وهناك لحقنا دكتور أحمد الحسّو وقضينا وقتاً ممتعاً وتناولنا مشويات لذيذة بشهية كبيرة، ودارت أحاديث عن الموصل والماضي والمستقبل وكانت بحق واحدة من أجمل حلقات رحلتي هذه...

وعرضاً التقينا بالأمراني والطنطاوي وتم تبادل الأحاديث والنكات، ثم ما لبثنا أن قفلنا عائدين، وأقنعني دكتور محمد زكي أن أصطحبه إلى البيت للتداول في أمر ترتيب الخطوط العريضة لتنزيل أعمالي الفكرية وسيرتي على صفحات الإنترنيت... وجرّتنا الأحاديث إلى أمور شتى، وأدينا صلاة العشاء في جامع رائع افتتح حديثاً قريباً من الجامعة، والتقينا بعدد من الأساتذة أبدوا ترحيبهم، وعرض أحدهم علينا الذهاب معه لأمسية مع حشد من الأساتذة فاعتذرت... وفي بيت دكتور محمد زكي تم ترتيب الخطوط العريضة بعد مشاهدة عروض مدهشة على الإنترنيت...

كان القلق يتناوشني كالعادة، وكنت أريد العودة مبكراً إلى الفندق لإنجاز بعض الأعمال المعلقة، ولعلّي أحظى بجلسة الاسترخاء المريحة في الصالة كعادتي، ولكني وصلت متأخراً بعض الشيء والكآبة تضيق عليَّ الخناق كالعادة... ترددت في الجلوس في الصالة ثم اخترت الصعود إلى الغرفة، وأنا أكاد أحسّ بالاختناق من جراء الاكتئاب وأقول في نفسي: لن يكون خروجي بعد اليوم إلّا في الضرورات القصوى... وزادني تعاسةً عودة الآلام إلى الجانب الأيسر بسبب الضرسين اللعينين... وما لبثت أن اندمجت في العمل فنسيت كل شيء... ها هو ذا دائي ودوائي!!

وثمة قلق جديد انبجس صبيحة اليوم: هناك مسافر موصلي بعد يومين وأن بإمكاني أن أنسق معه للعودة مباشرة إلى الموصل... ولقد ترددت طويلاً في الاتصال به ولكني لم أستطع حسم الموقف... وقلت في نفسي: ماذا لو لم يخبرني دكتور محمد زكي عن هذا الرجل، ألم أكن قد ارتحت لقراري بالعودة بالجت إلى بغداد؟!

وقلق ثالث: اللقاء فجأة بطنطاوي والأمراني ألزمني بحضور الأمسية غداً في بيت مأمون جرار، فماذا لو تم فتح إضبارة برنامج اقرأ واكتشفت ما يسوؤني ويعيدني إلى دائرة الندم وشدّ الأعصاب؟!

السبت: على رشقة الكآبة إياها أفتح عيني وأقول في نفسي: هل سأقدر على استعادة فرحي القديم بمجرد رجوعي إلى الموصل والتخفف من أوهاق السفر ومطالبه التي لا تنتهي؟ أتناول فطوراً كئيباً في مطعم الفندق رغم تنوّع البوفيه وعروضه المغرية... القلق يحاصرني خشية ألّا يتمكن العوضي من الوصول إلى الفندق بسبب عدم إعطائه مكانه بدقة... لكنه يجيء ونتجه إلى المستشفى الإسلامي، حيث أجري فحوصات الدم فأعود مع العوضي وأفارقه إلى دار البشير للاطلاع على كتبهم وحل المعلقات مع جمال عمرو... انتقيت مجموعة من الكتب وتمكنت من تصفية كافة المعلقات، وغادرت المكان وأنا أحسّ بقدر من الارتياح... وما لبث العوضي أن جاءني لكي نتجه والعاملون في

المعهد إلى مطعم القدس لتناول غداء طيب ثم نقفل عائدين، لكي أنكب على العمل الساعات الطوال وأنجز العديد من المطالب...

وفجأة دخل عليَّ ماجد وأعلمني بأن هناك جهة أخرى يمكن أن أشغّل فيها نقودي بنسبة أعلى بكثير من الأرباح... فأقول في نفسي: يا سبحان الله!.. هل كتب عليَّ القلق والحيرة حتى في هذه المسائل؟ وكيف برز هذا الرجل من طيّ الخفاء؟ وما لبث أن جاء وأعلمني أنه ذو خبرة واسعة، وأن بمقدوره تقديم أرباح مجزية شهراً بشهر. فما زادني إلّا حيرةً وتردداً... ثم غادر المكان لكي ما تلبث الجماعة الأولى أن تجيء: ثلاثة من الشباب ذوي الخبرة الذين تنضح وجوههم بشراً وإيماناً... فاطمأننت إليهم وبعد حوار طويل أحسست أن وضع مقدراتي في أيديهم أفضل، وإن كنت أميل إلى توزيع المبلغ على الجهتين. وأعلمت ماجد بأني سأتخذ قراري خلال يومين إن شاء الله... والمهم هو سحب إيداعاتي في البنك والإعراض عن ربح قد لا يكون حلالاً، فالحمد لله...

وراحت متاعب الأضراس اليسرى ووجع الرأس تتناوشني بين الحين والحين فتصيبني بالاكتئاب... وغادرت المكان بمعية العوضي ليوصلني إلى الفندق، لكي ما ألبث أن أتلقى من الاستعلامات فاكساً من القناة التي تجري لقاءها معنا يوم غدٍ... وتناوش الاكتئاب قلبي خشية ألّا يكون أصحاب البرنامج قد أخذوا بتحفظاتي، ولكن الله سلّم ووجدتني قبالة العنوان المقترح البديل: فقه العصر...

جاءني ابن دكتور مأمون جرار لكي يقلني إلى دار أبيه، حيث الدعوة على العشاء وقضاء أمسية طيبة مع حشد من الأدباء... كانت متاعبي مع الرأس والأسنان لا تزال تحاصرني، ودخلت البيت وسط غلالة من الاكتئاب، وكان دكتور بهيج ملا حويش ضمن المدعوين، حيث تم الحديث عن الموسوعة العلمية التي شاركت فيها، ووعد بإرسال دورتين منها إحداهما لي والأخرى للجامعة... وتناولنا عشاءً شهياً ثم ساقتنا الأحاديث الطيبة في كل اتجاه.

وما لبثنا أن غادرنا المكان لكي أودّع الأصدقاء وسط مشاعر مترعة بالود

والوفاء، وتقويمات سخية مترعة هي الأخرى وداً ووفاءً... ومن عجب أنني دخلت غرفتي فرحاً منسجماً على خلاف العادة، ثم ما لبثت أن غرقت في العمل حتى ساعة متأخرة من الليل...

الأحد ١٦/٥: عدت قبل قليل من تسجيل حلقة التلفزيون العربي حول فقه العصر... عدت فرحاً سعيداً كيوم أمس، فقد اجتزت تجربة حسبت لها الكثير من الحسابات وقد جاءت سليمة والحمد لله بمضامينها وأمورها الإجرائية وانسجام المتحاورين وتقييم المشاركين... تلقيت في الاستعلامات مكالمة مطولة من هشام، ثم خرجت لترتيب الحقائب، والتهام الكيك الإنكليزي اللذيذ، وإتمام هذه المذكرات، وتلّقي وخزات الألم في الفك العلوي الأيسر بسبب متاعب الأضراس التي استمرت تنقلني بين الجحيم والنعيم في هدوئها وثورتها...

استيقظت صباح اليوم على رشقة الكآبة إياها وهرعت إلى الصالة بسبب مجيء العوضي قبل الموعد بنصف ساعة، ولم أتناول الفطور بسبب ضيق الوقت. وانطلقنا إلى المستشفى الإسلامي لاستلام فحوصات الدم، ولأخذ أشعة للأضراس لم تتحقق إلّا بعد انتظار طويل، وكانت غاية في الوضوح بسبب حداثة الأجهزة التي حرمنا منها في العراق... وقال الطبيب إن الضرسين العلويين ربما تم حشوهما بشكل خاطئ، وأن هناك إصابات أخرى في أنحاء الفكين، وحاولت أن أقنعه بإعادة الحفر من جديد لكنه اعتذر بسبب زحمة عمله... لم يكن أمامي سوى يوم واحد فآثرت ترك الموضوع لحين عودتي إلى الموصل فلعلّ الأشعة الدقيقة تعين أطباءها على اكتشاف سبب المتاعب... واتجهنا إلى المعهد لإنجاز بعض المسائل واللقاء مع العلاونة حول عدد من المسائل التاريخية...

وبعد صلاة الظهر عدت بمعيته إلى الفندق لكي أتناول غداءً مقرفاً من الطاووق كدت أن أتقيأ بسببه، الأمر الذي ذكرني بوجبات زهرة الشرق ومطاعم فنادق الدرجة الأولى... وصعدت إلى الغرفة لتناول قيلولة استعداداً للّقاء التلفازي ولكن النوم استعصى عليّ... وما لبثت أن غادرت المنام في

حالة من القلق والاكتئاب، وقارنت الحال بين ما أنا عليه الآن وبين وضعي في الموصل، فاجتاحني الحنين وقلت في نفسي: مهلاً فغداً يوم السفر... وتذكرت كيف أن رحلتي ستتأخر لثلاث ساعات بسبب عدم وجود حافلة للساعة الثالثة... فقلت لا بأس فما هو إلّا يوم واحد وأجتاز رحلة التناقضات...

كان عليّ أن أحضّر للقاء التلفزيوني... شربت كوبين من الشاي... وركزت في ذهني بعض المرتكزات حول الأجوبة، ثم خرجت لكي أتخطى إلى الجامع القريب وأنا أعاني من الاكتئاب... وعدت بعد الصلاة لكي ما يلبث السائق أن يقلّني إلى الاستديو، حيث تم تسجيل الحلقة بأقصى درجات الانسجام فيما لم أكن أتوقعه على الإطلاق!!

[٢٩]

رحلة عام ٢٠٠١ م إلى فرنسا وإسبانيا

الأربعاء ٦/٢٧ : المغادرة فجراً ـ إشكالية الجواز ـ برودة الطائرة ـ الوصول ـ الاستقبال ـ بيت دكتور زهير عميد كلية الدراسات الإسلامية ـ شاتو شينون.

الخميس: التعرف على الكلية وأساتذتها ـ لقاء مع عدد من الطلبة وتقييم (المدخل إلى التاريخ) ـ لقاء آخر في غرفة دكتورة خديجة ـ جولة في الغابات ـ الانطلاق عصراً إلى ستراسبورغ ـ الانسجام ـ الوصول والانتظار على الـ T.V.

الجمعة: جولة رائعة في ستراسبورغ: الشوارع والقناة والتراث ـ انزعاج من تصرف سائق المركب ـ الصلاة ـ حضور مراسيم الزواج في البلدية - غداء في بيت العريس ـ موكب العرس ـ الحديقة والصور والمشاركة ـ قاعة الاحتفالات والأمسية الفلسطينية والمشاركة في احتفاليات الزواج ـ عشاء في المطعم التركي.

السبت: جلسة في صالة الفندق ـ جولة في الشوارع المحيطة والمكتبة

العربية ـ غداء في سرداب مطعم مغربي بمعية المنشد غسان وزميله المغربي التاجر في إيطاليا ـ دعوة لزيارة إيطاليا ـ الفندق ـ المسجد التركي ـ عشاء ـ احتفالية الزواج والمشاركة.

الأحد: التحوّل إلى فندق آخر ـ جولة رائعة في أطراف ستراسبورغ وعبور إلى الجانب الألماني ـ بقايا ماجينو ـ كافتيريا ـ غداء في السرداب المغربي ـ لقاء وحوار خصب مع عدد من المعنيين ـ جولة ليلية رائعة على الأقدام في ستراسبورغ ـ وعشاء طيب (بيتزا) في المطعم المغربي بصحبة عدد من الأصدقاء... التقاط صور تذكارية... موجات من الاكتئاب بسبب متاعبي مع الأضراس اليسرى...

الاثنين: العودة إلى شاتو شينون ـ هدية لابنة زهير ـ غداء على الطريق ـ جولة في الغابات ـ العشاء ـ المكتبة... مكالمة البيت... ندم على ضياع فرصة الاتصال الهاتفي للدكتور حمدي، وتأخير موعد الفحوصات إلى السبت القادم...

الثلاثاء: الاستيقاظ متأخراً... إنجاز طيب في ملفّ مناهج الكلية ـ غداء ـ قيلولة ـ جولات في الغابات ـ العشاء ـ جلسة طيبة في المكتب عبر تصفح الكتب...

الأربعاء: الاستيقاظ متأخراً... متابعة ملف المناهج... الغداء... القيلولة... جولات طيبة في الغابات... العشاء... ساعات ممتعة في المكتبة...

الخميس: استكمال جانب من الملف... الغداء... قيلولة... رياضة مع دكتور زهير وموظف مغربي في ملعب المدينة... المكتبة...

الجمعة: إعداد الحقيبة للسفر إلى باريس... دقائق من الشدّ النفسي بسبب ضياع أوراق يحيى الذي سيصحبني... واحتمال تأجيل السفرة وموعد الفحوصات... فرحة العثور عليها... الانطلاق في جو ماطر... ركوب القطار في رحلة طيبة... ساعة من الشدّ النفسي بسبب عدم عثورنا على الفندق... الوصول أخيراً... جولة في الشارع المجاور... الانتظار على الـ T.V.

السبت: الاستيقاظ القلق بسبب موعد الفحوصات... سليم يصطحبنا إلى المستشفى... شيء من القلق خشية ألّا نعثر عليها... الوصول وإجراء فحوصات التحاليل... فحوصات التخطيط والإيكو والاتفاق على موعد آخر... اختناق في الطريق والجوع يفترسني بسبب التوقف عن الطعام... غداء وأحاديث طيبة في بيت سليم... الفندق... رياضة المشي في ممر الفندق واستعادة الانسجام... محاضرة وحوار مع مجموعة كبيرة من المعنيين (في الفقه الحضاري)... عشاء وعودة إلى الفندق... ورياضة المشي مرةً أخرى...

الأحد: جولة رائعة مع يحيى في شارع الشانزليزيه وغداء طيب في مطعم على الرصيف... عودة إلى محطة القطار حيث يأخذنا صديق إلى الاتحاد للتعرف واصطحاب دكتور زهير... أمسية وعشاء طيب في بيت محمد بن سالم إلى ساعة متأخرة من الليل...

الاثنين: يوم كامل من المناقشات في مناهج المعهد، في صالة الكلية في باريس... ساعات من شدّ الأعصاب بانتظار مكالمة دكتور حمدي للذهاب إلى المستشفى واستكمال الفحوص... أخيراً يفاجئني بعدم حضور الطبيب وبتأجيل الموعد إلى الأربعاء عصراً... قلق وتخوف من بقائي وحيداً في باريس خشية الضياع هنا وهناك... محاضرة خصبة في الاتحاد مع نخبة من المثقفين وحوار خصب... فرحة وارتياح لفكرة زهير بالعودة بصحبته غداً إلى شاتو شينون ثم التوجه إلى باريس يوم الأربعاء... دعوته على العشاء في مطعم تركي... التحول إلى فندق كليمات...

الثلاثاء: فطور غني في المطعم... لقاء مع تاجر في أحد بوفيهات الشانزليزيه... اللقاء صدفة لدى المغادرة بالملكاوي... ارتياح عميق لتأكيده على ضرورة قيام المعهد بترجمة كتابي في ماليزيا إلى الإنكليزية... جولة في باريس والعودة إلى شاتو شينون... العشاء... وساعات من الكآبة والقلق بسبب عدم وضوح تفاصيل رحلتي يوم غد...

الأربعاء ٧/١١: الاستيقاظ القلق الكئيب في جو ماطر... الارتياح لتأمين

نقودي في الكلية، واتضاح معالم الرحلة، حيث سيقلني يحيى إلى المحطة ويستقبلني سليم في باريس لكي يأخذني إلى المستشفى... رحلة طيبة... العثور بسهولة على سليم والذهاب إلى المستشفى ثلاث ساعات من الانتظار.. لقاء دكتور يسار التمر... بدء الفحوصات وشدّ الأعصاب بسبب عدم قدرتي على التفاهم بالفرنسية... فحوصات الجهد والدوبلر والأشعة... ارتياح عميق للنتائج الإيجابية للفحوصات بصدد القلب... موعد يوم الجمعة لتسلّم النتائج... الأخ الأزهر يقلّني بسيارته إلى الفندق... دوّامة من التخبط بسبب عدم استكمال الحجز في فندق كليمات... الأزهر يعرض المبيت لدى أحد أصدقائه...

الموافقة بعد تردد ثم إحساس بالاكتئاب... مكالمة من أحد أصدقاء غازي تنقذ الموقف بأنه قد تم الحجز في فندق اتياب... غداء في مطعم متواضع... التوجه إلى الفندق وتبيّن ألّا حجز هناك... أضطر لدفع المبلغ... وأرتاح قليلاً... التوجه إلى ندوة جمال البنّا البائسة... القلق يحاصرني بسبب عدم تمكني من الاتصال بحمدي بخصوص أشعة المرارة... الحوار يكشف عن وجود عدد من ذوي الأفكار المضادة وإحساس شديد بالضيق... مغادرة المكان لتناول العشاء في مطعم قريب... حمدي يتصل بي بعد عناء شديد لكي يطلب الصوم عن الطعام وشخصاً ذا معرفة بباريس لإعطائه عنوان طبيب المرارة... التوقف عن الأكل رغم الجوع... حيرة قاسية بصدد العثور على من يعينني على العنوان... ارتياح لإقناع المكني... العودة مشياً إلى الفندق...

الخميس: التوجه صباحاً إلى العيادة بعد رحلة في السيارة... صعوبة العثور على موقف للسيارة... المشي طويلاً إلى العيادة... انتظار أكثر من ساعة... ثم بدء الكشف وارتياح عميق لتحول الحصى إلى أماكن أخرى، وتأكيد الطبيب على عدم ضرورة المداخلة الجراحية... ودعوة المكني على الغداء... المكني يدعو زوجته... غداء من السمك البائس يكلفني ٢٥٠ فرانك... ولكني كنت قد وضعت في جيبي ٨٠٠ فرانك بسبب إلحاح المكني على دفع تكاليف السونر! التوجه إلى الفندق... قيلولة سريعة... الخروج عصراً في واحدة من أجمل حلقات رحلتي

هذه... لممارسة التخطي الهادئ والسريع وتناول الشاي وعشاء متواضع من فستق العبيد والموز واليوسفي... جلسة استرخاء رائعة طويلة في صالة الفندق...

الجمعة: قلق بسبب التخوّف من عدم الوصول إلى المستشفى في الموعد المحدد... مكالمة من زهير تطمئنني إلى أنه سيصل في الوقت المناسب... لقاء صحفي مع المستيري للمجلة التي يشرف عليها... حوار خصب رغم الشدّ النفسي بسبب تأخر زهير والندم على عدم الذهاب بالتاكسي مع المستيري... وصول زهير والتوجه إلى المستشفى... شيء من الانتظار ثم مقابلة الطبيب، الذي يؤكد ألا علاقة للحالة بالقلب وأنه يعمل بشكل جيد والحمد لله، وأن المتاعب تتمركز في سوفان الرقبة والانزلاق الغضروفي... ورغم تحذيره إياي من احتمالات المستقبل الصعبة مع الفقرات وضرورة مراجعة طبيب مختص والعمل بسبل الرعاية اللازمة؛ فإنني أحسست بفرحة طاغية للنتائج الطيبة من جهة، ولتحرّري من المتابعات التي افترست الأشهر الطوال من جهة أخرى...

دكتور حمدي يصل كعادته من التوتر وعدم الاستقرار، يتسلم أوراقي على عجل لا أدري لماذا... ثم يؤكد على ضرورة العودة إلى باريس عبر رحلة إسبانيا لمتابعة بقية المعلقات...عبثاً أحاول إقناعه... جبهة جديدة من القلق يفتحها عليَّ بعد أن أقفلت الأبواب عليه... دعوة زهير والعرسان لتناول الغداء... غداء طيب في أحد مطاعم الشانزليزيه لولا قلقي بسبب عدم وجود النقود الكافية معي والانزعاج لتصرف مدير المطعم... وضرورة شراء حقيبة نسائية للعروس... تمنعني جميعاً من الاستمتاع بالأجواء الماطرة ونحن نجلس في مقهى أنيق على الرصيف... أداء الصلاة في الهولدي إن... ارتياح لشراء حقيبة مناسبة للعروس... جلسة طيبة أخرى في مقهى حيث المطر الغزير... التوجه إلى بيت بن سالم وجلسة طيبة وعشاء لذيذ يعكره عدم الجوع والأكل بدون شهية... العودة إلى الفندق ومكالمة دكتور حمدي الذي لم يأت بالأوراق فكأنه يلزمني بالعودة كرةً أخرى إلى باريس... النوم في ساعة متأخرة...

السبت: تناول الفطور مع عدد من الأصدقاء في صالة الفندق... لقاء مع

مدير مكتبة السلام ومعاونه في باريس، حيث الاتفاق على المسائل المتعلقة بترجمة بعض أعمالي إلى الفرنسية... داعية في إيطاليا يعرض عليَّ دعوته لزيارة إيطاليا... التوجه في جو ماطر إلى الكلية... الجلوس في المكتبة واستغلال الفرصة لتدوين المذكرات وتصفية العديد من المعلقات... نسيت أن أذكر بأني يوم أمس تمكنت من تصفية المعلقات المالية مع دكتور زهير شكر، عميد الكلية، وتلقيت منه تأكيداً بزيارات متكررة للكلية مدة كل منها شهرين فقط، وهي المدة التي أحلم بها، فحمداً لله...

تناول الغداء مع إدارة وأساتذة المعهد في كلية باريس... وتقويمات سخية حول أعمالي... وصور تذكارية... ودعوات لزيارة سويسرا وإنكلترا... وإحساس غامر بالتحقق... ركوب المترو مع صهر زهير وزوجته... جولة ممتعة على حافات السين والحيّ اللاتيني والسان جرمان والمكتبات التراثية الشعبية المطلة على السين... جلسة طويلة في كازينو لتناول الشاي والمرطبات... استئناف التجوال ومشاهدة كنيسة نوتردام... انتظار زهير في كازينو بجوار نافورة السان... عشاء مع زهير والعروسين ومدير المعهد في مطعم لبناني أنيق... شيء من القلق بسبب عدم قدرتي على تنفيذ موعدي مع دكتور حمدي لتصفية المعلقات الطبية... العودة إلى فندق آخر بعد انتظار طويل للمترو...

الأحد ٧/١٥: فرح وانشراح لم أذق طعمهما منذ أمد بعيد، ربما لتخلّصي من جلّ منابع القلق والمطالب التي افترستني منذ أكثر من عام وحتى يوم أمس... ربما لانطلاقنا إلى إسبانيا لحضور المجلس العلمي للكلية... انطلاق القطار في رحلة ممتعة وأجواء ماطرة... جلسة في كازينو بانتظار وصول سيارة المدرّسين التي ستقلنا إلى فلنسية... الانطلاق في رحلة رائعة إلى إسبانيا... غداء بوفية طيب على الطريق... الوصول مساءً والاستقرار في فندق فخم... شيء من عدم الارتياح لوضع كل مدعوَّيْن في غرفة واحدة... الذهاب إلى مقرّ مسجد فلنسية، حيث ستعقد الجلسات صباح الغد وحيث تناولنا الطعام... العودة إلى الفندق...

الاثنين ٧/١٦: بوفية إفطار رائع في بهو الفندق... الذهاب إلى المسجد

وبدء الجلسة الأولى... طلب إلقاء محاضرة وتأجيلها لليوم التالي... المشاركة الخصبة في مناقشات المناهج وعرض محكم لملاحظاتي بخصوص التاريخ والحضارة والسيرة... الغداء... وقيلولة سريعة في الفندق ثم عودة للمناقشات... وصول القرضاوي مساءً... استئناف المناقشات بعد المغرب ثم تناول العشاء وحوار سريع مع القرضاوي... جولة رائعة ليلاً في أحياء فلنسية التراثية، وتداعيات بخصوص مشاهدة آثار الآباء والأجداد... جلسة طيبة في إحدى الكازينوات لتناول الآيس كريم وغيره... العودة إلى الفندق...

الثلاثاء: الفطور العامر... استئناف المناقشات... حضور القرضاوي والمولوي... عرض مركّز آخر لمرئياتي بخصوص التاريخ والحضارة والسيرة... قبول حسن من الحضور وعلى رأسهم القرضاوي... موقف من أحد مدرّسي الكلية لمست فيه خبثاً وكدّر عليّ انسجامي بعض الشيء... الغداء... والقيلولة السريعة... ثم العودة للمناقشات... محاضرة بعد صلاة المغرب عن الإسلام والغرب وفّقني الله ﷻ فيها بفضل منه... العشاء وجلسة في صالة الفندق... وجولة طيبة على حافة البحر المتوسط ثم النوم في ساعة متأخرة...

الأربعاء: فشل محاولة زيارة غرناطة وقرطبة بسبب اعتذار أحد المدرّسين الذين سيتولون قيادة السيارة لارتباطه بمجلس الإفتاء وبقائه في فلنسية... إحساس يتراوح بين الندم على ضياع الفرصة... فرصة العمر... والفرح الخفي لتحرّري من رحلة استثنائية قد تفترسني فيها الهموم فتفقدني أي إحساس بالمتعة على الإطلاق... وداع الأصدقاء بحرارة... والانطلاق بالسيارة في طريق العودة إلى فرنسا عبر رحلة طيبة ومتعبة في آن... بسبب عدم مبيتنا في أحد الفنادق ومواصلة السفر حتى ساعة متأخرة من الليل... وبسبب عدم العثور على مطعم مناسب لتناول العشاء... هذا إلى ما عانيته من متاعب في الساقين بسبب الجلوس الطويل...

الخميس: الوصول في الثانية... ترتيب الأغراض... نومة عميقة ومتقطعة حتى الحادية عشرة صباحاً... التوجه ظهراً إلى الكلية لتناول الغداء... تقييم

سخي من أحد المختصّين المتفوّقين في القراءات (الدكتور أيمن سويد)... عرض من صهر زهير بزيارة متحف هدايا متيران عصراً... لكن ما وضعني في دائرة التعاسة خلال زيارة المتحف عودة ما أسميه بالحالة الإماراتية التي عانيت منها كثيراً: آلام شديدة في الساق الأيسر... وضيق في التنفس... ووجع في الرأس... وشيء من الإحساس بالغثيان... ولم يكفَّ عني الحصار إلّا بعد العودة، والانطلاق ثانية لرياضة المشي اليومية عبر الغابات، حيث أخلو إلى نفسي وأستعيد توازني...

أعود في السابعة لتناول العشاء بمعية زهير وعدد من الضيوف، حيث أتلقى تقويمات سخية... وحيث يتصدى لسعادتي هذه المرة منشاران آخران، متاعبي مع الجانب الأيمن للأضراس... وحفنة من القلق بسبب بعض المطالب المعلّقة مع الدكتور حمدي في باريس بخصوص المراجعات الصحية... وصعوبة التوفيق بخصوص موعد مناسب خاصةً أن زهير سيغادر الكلية بعد يومين في رحلة إلى سويسرا... وأقول في نفسي محاولاً تجاوز ركام القلق والغم: لا بأس... فإن الحلقة تضيق... والأيام تقترب ولا بدّ لكل شيء من نهاية، وها هي نهاية أكثر من عام مترع بحلقات الهموم والمشاكل والمتاعب لم أر مثيلاً لها في حياتي... هي ها هي ذي توشك على الانتهاء بفضل من الله بعد أيام قلائل، ولعلّي بعدها أجد نفسي في الحالة التي طالما حلمت بها بعيداً عن القلق والشدّ والاكتئاب... وأستيقظ صباح كل يوم على الانشراح والفرح الضائع اللذين افتقدتهما منذ زمن بعيد...

أتجه إلى المكتبة لتدوين هذه المذكرات فأحسّ بقدر من التخفف الجميل رغم ظلال من الكآبة والقلق وسط ظروف كان يتوجب أن تضعني في قلب السعادة... ولكن؟!

أُعلم زهيراً بألّا ضرورة لتنفيذ فكرته بزيارة بواتيه للاطلاع على عروضها التاريخية بخصوص المعركة الشهيرة... ولكنه يصرّ فأستسلم على مضض...

أتصل بالدكتور حمدي ـ بعد قلق وتردد ـ فلا تفتح الهواتف عليَّ، ثم فجأة أسمع صوته وتكون مكالمة طويلة يؤكد لي فيها ضرورة الحضور إلى

باريس ظهيرة الثلاثاء لمراجعة طبيب مختص، ثم بعدئذ إجراء المقطعية في اليوم التالي. وأتوجه إليه بعدة أسئلة أتلقى عليها إجابات طيبة وأقتنع بفكرة الذهاب في اليوم المذكور وأحسّ وأنا أحلحل العقدة الأخيرة إن شاء الله في عام القلق والعذاب هذا بتخفف كبير... ولا يبقى سوى إقناع زهير بالأمر... والحمد لله أولاً وآخراً...

الجمعة ٧/٢٠: أكثر من ساعة بانتظار مكالمة من دكتور حمدي لترتيب أمور السفر إلى باريس ومراجعات الأطباء... ولكن دون جدوى... أعتذر عن دعوة غداء في بيت زهير بسبب صلاة الجمعة... الذهاب مع صديقين إلى أحد مناحل شاتو شينون لشراء العسل... جلسة في غرفة دكتور زهير أصفّي معه خلالها المعلّقات المالية، وأقتنعه باصطحاب يحيى معي إلى باريس لتجاوز تعقيدات السفر لوحدي، وأحسّ بأنني قد أزحت عن صدري همّاً كبيراً... فها أنا قد ضمنت رفيق سفر سيذلّل أمامي كل المصاعب في باريس ويوصلني إلى الأماكن المطلوبة بإذن الله... ويزيدني سعادةً أن زهيراً يعلمني بوصول فاكس من دكتور حمدي يؤكد فيه الحجز لدى أحد الأطباء ليوم الثلاثاء، وضرورة الحضور هناك الساعة الرابعة عصر الثلاثاء...

أغادر المكان لأمارس جولة المشي السريع وأنا أكاد أطير نشوةً وسعادةً... ها هي ذي العقدة الأخيرة تتحّل بتوفيق من الله، وما هي إلّا أيام قلائل وأجد نفسي في الموصل بعد غياب طويل فالحمد لله... ويزيدني سعادةً أني أنجز في مكتبة الكلية العديد من المعلّقات الخاصة بمناهج الكلية، ثم ألقي نظرة على صفوف الكتب هناك، حيث متعة التصفّح وتداعي الذكريات... ثم أعود إلى الشقة لكي أطالع حتى ساعة متأخرة من الليل...

السبت: جلسة طيبة لتناول الفطور مع عبد الملك القادم من ستراسبورغ ويحيى...التوجه في العاشرة إلى نيفيل لشراء حذاء للمشي السريع من هناك... جلسة طيبة في حديقة دكتور زهير ثم شراء الحذاء وشيء من القلق خشية ألّا يكون على مقاس قدمي... العودة وتناول الغداء في فناء الكلية مع حشد من

المدرّسين والأصدقاء... حضور جانب من حفل تخريج طلبة التقوية في القرآن الكريم... التوجه مع يحيى وعبد الملك وعدد من منتسبي الكلية إلى بحيرة في المنطقة، حيث نقوم بجولة رائعة في مركب يجتاز البحيرة وسط مناظر رائعة تسحر الألباب... ثم التحول لركوب الدرّاجات المائية وللقيام بنزهة أخرى للمتعة وتمرين عضلات الساقين، حيث أحسّ بفضل الله بقدرة لم أكن أتوقعها على ممارسة التمرين حوالي الساعة...

شيء من الانزعاج من تصرّف ثلاثة من الفرنسيين مع يحيى بسبب حجاب إحدى منتسبات الكلية المرافقة لنا... العودة إلى الكلية... تناول العشاء... رشقة من الكآبة بعد صلاة المغرب أتمكن من طردها بجولة تخطي سريع في الشارع الذي يخترق الغابات وسط الظلمة والهدوء واسترجاع الذكريات... التوجه إلى المكتبة لقضاء أكثر من ساعة مع الكتب وأداء الصلاة ثم العودة إلى الشقة للمطالعة ثم النوم...

الأحد: الاستيقاظ متأخراً... حوار في المكتبة مع طالب وطالبة في قضايا التاريخ... غداء مع زميلين وحوار خصب في قضايا الفكر والقرآن والكون... قيلولة ثم التوجه للمكتبة... أحمل قلقي المعهود بخصوص ضرورة إنجاز القضايا المعلّقة... جولة المشي وعشاء... العودة للعمل وسط دوّامة من القلق بسبب ضرورة الاتصال بالدكتور حمدي لإعطائي عنوان الطبيب في باريس، وبالموصل لإعلام الأسرة بموعد عودتي... أخفق في الاثنتين بعد محاولات عديدة... وأقول في نفسي إن العمل بعيداً عن القلق متعة بالغة مهما كانت كثافته وهو أمرٌ نادراً ما حظيت به... وأقول كذلك ها هي ذي الحلقة الأخيرة من سنة العذاب ولا بدّ لكل شيء من نهاية... أستعرض خطوطاً أخرى من كتب المكتبة دون أي إحساس بالمتعة... ثم أتجه إلى الشقة لكي أطالع حتى ساعة متأخرة، ثم أسلم نفسي لنوم عميق...

الاثنين: أستيقظ متأخراً على قدر كبير من القلق خشية ألّا أتمكن من الاتصال بالدكتور حمدي، أو ألّا يكون قد أرسل الفاكس المنتظر حول

الموضوع... أحسّ بسعادة غامرة وسكرتيرة العميد تعلمني بوصول الفاكس... أنطلق لتصفية جملة من المعلّقات... وأجلس إلى أحد المدرّسين في الكلية حيث يدور حوار طيب... ثم نتناول الغداء بمعية أحد العاملين في الكلية... لقاء آخر وحوار خصب مع زكريا... عودة إلى الشقة وإنجاز جملة من الأعمال... التوجه إلى المكتبة لاستكمال المطالب المتبقية وأداء صلاة العصر... ثم تناول العشاء بشهية...

لقاء صحفي لمجلة (الأوربية) حول المرأة المسلمة وشهادة التاريخ... جلسة نكات مع الشيخ أيمن... جولة مشي سريع وإحساس غامر بالسعادة لتجاوز كل منابع القلق وإنجاز كل المعلّقات، وقرب السفر إلى الأهل الذين أجريت معهم صباح اليوم مكالمة هاتفية زادتني ارتياحاً... جلسة أخيرة في المكتبة بانتظار صلاة العشاء... ترتيب الحقائب... ثم النوم بانتظار صباح الثلاثاء لتناول الفطور مع صهر دكتور زهير والانطلاق إلى نيفيل لتوديع العميد ومنها إلى باريس، حيث الحلقة الأخيرة من المتابعات الطبية إن شاء الله...

كان عليَّ والأخ يحيى المرافق لي أن نركب أكثر من مترو ونحن نحمل الحقائب الثقيلة للوصول إلى طبيب الفقرات في الموعد المناسب... تناولنا غداءً سريعاً في محطة القطار، ثم انطلقنا إلى هدفنا وعثرنا على المكان بفضل الله وخبرة يحيى... ولحسن الحظ استطاع دكتور حمدي أن يلحق بنا في الوقت المناسب... وتم الفحص وفك فقرات الرقبة والغضروفية وتلقي التعليمات... وأحسست بارتياح عميق لإلغاء موعد آخر مع طبيب الأشعة يوم غد بسبب عدم ضرورته... غادرنا المكان لكي يوصلنا دكتور حمدي إلى أقرب محطة للمترو... اجتزنا المحطة بصعوبة بسبب الحقائب... وكدت أتعرض لمحاولة نشل قاسية كادت تأتي على محمولاتي النقدية التي تبلغ أربعة آلاف دولار بفضل الله ﷻ وحذري الشديد...

وجدنا صعوبة بالغة في العثور على المترو الآخر الذي يقلنا إلى الفندق... واجتزنا دقائق من شد الأعصاب بسبب ضيق الوقت وضرورة الحذر من

محاولات النشل... ثم لما غادرناه كان علينا أن نقطع بالحقائب المزعجة مسافة متطاولة مشياً على الأقدام للحاق بالفندق قبل أن يقفل الأبواب... وقد هيّج ذلك آلاماً مبرحة في الفقرات (وقد أحسست بندم مبرّح في اليوم التالي؛ عندما أعلمني دكتور حمدي أن على المرء بعد فك الفقرات ألّا يحمل ثقلاً ولا يتعرض لأي جهد جسدي، ولكن توجيهاته جاءت بعد فوات الأوان).

استرحنا في الفندق بعض الوقت، وخرجنا لتناول العشاء والتجوال قليلاً في الشوارع المحيطة ثم ما لبثنا أن عدنا لننام...

الأربعاء: استيقظت صباحاً على قدر كبير من الارتياح، وخرجت ويحيى بعد الفطور للتوجه بالمترو إلى مكتبة السلام لقضاء الوقت الطويل قبيل موعد الطائرة.

وما لبث دكتور حمدي أن أتصل بنا هاتفياً بعد أن أعياني العثور عليه ليلة أمس وصباح اليوم... وقال بأنه وزوجته حميدة قطب في طريقهما إلى الفندق، فعدنا مسرعين... كنت أحسّ بارتياح عميق لإعطائي فرصة طيبة لتصفية كل المعلقات المتبقية معه... وازددت ارتياحاً عندما أعلمني بأنه سيوصلني إلى المطار... وبعد جلسة طيبة مسترخية هناك ودعت الضيوف واتجهت إلى الطائرة، لكي تقّلني عبر رحلة مريحة إلى دبي، ولكي أجد في استقبالي هناك عبد الحكيم وأبو همام...

الخميس ٧/٢٦: رتبت أمر سفري من عمان إلى الموصل مع أحد السواق بواسطة الهاتف، وقضيت عدة ساعات في ترتيب الحقائب دون لحظة من نوم، وقفلت عائداً إلى المطار بصحبة عبد الحكيم وشيرزاد... لكي ما تلبث الطائرة ان تقلّني إلى عمان في رحلة طيبة لولا ضيق النفس... وهناك وجدت السائق في انتظاري لكي يقلّني عبر رحلة طويلة ولكنها ميسرة بحمد الله ﷻ إلى الموصل التي وصلناها في الثالثة ليلاً...

الجمعة ٧/٢٧: كان استقبال الأهل مترعاً بالشوق والحرارة، وكانت لحظات مؤثرة وطيبة، أخذت بعدها حماماً مريحاً وقسطاً من النوم، لكي ما ألبث عبر

أكثر من ثلاثة أسابيع أن أستقبل سيول الضيوف المتدفقة عليَّ صباحاً وعصراً وليلاً... أو أستجيب للعديد من الدعوات... حيث لم يتح لي أن أجلس مع العائلة إلّا قليلاً...



قائمة بالأعمال الكاملة
للأستاذ الدكتور عماد الدين خليل
وفق تصنيفها الموضوعي

أولاً: الأعمال التاريخية

أ ـ محور المنهج والفلسفة:

١ ـ التفسير الإسلامي للتاريخ (٥ طبعات) (دار العلم للملايين ـ بيروت).

٢ ـ حول إعادة كتابة التاريخ الإسلامي (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٣ ـ ابن خلدون إسلامياً (٣ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٤ ـ في التاريخ الإسلامي: فصول في المنهج والتحليل (٣ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٥ ـ المستشرقون والسيرة النبوية: بحث مقارن في منهج المستشرق البريطاني المعاصر (مونتغمري وات) (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٦ ـ دليل التاريخ والحضارة في الأحاديث النبوية (بالاشتراك مع المهندس حسن الرزو) (طبعة واحدة) (دار الرازي ـ عمان).

٧ ـ المنظور التاريخي في فكر سيد قطب (طبعتان) (دار القلم ـ بيروت).

٨ ـ التاريخ والسنن التاريخية في كتابات النورسي (قيد النشر).

٩ ـ مدخل إلى التاريخ الإسلامي (التأصيل الإسلامي للتاريخ) (٤ طبعات) (المركز الثقافي العربي ـ الرباط).

١٠ ـ مدخل إلى الحضارة الإسلامية (٤ طبعات) (المركز الثقافي العربي ـ الرباط).

ب ـ محور السيرة والتراجم:

١١ ـ دراسة في السيرة (١٨ طبعة) (دار النفائس ـ بيروت).

١٢ ـ كتابات معاصرة في السيرة النبوية (طبعة واحدة) (دار وائل ـ عمان).

١٣ ـ ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز (٩ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

١٤ ـ عماد الدين زنكي (٤ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

١٥ ـ نور الدين محمود: الرجل وتجربته الإسلامية (٣ طبعات) (دار القلم ـ بيروت).

ج ـ محور البحوث والدراسات:

١٦ ـ دراسات تاريخية (٣ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

١٧ ـ المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي: عصر ولاة السلاجقة في الموصل (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

١٨ ـ الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام: أضواء جديدة على المقاومة الإسلامية للصليبيين والتتر (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

١٩ ـ الوحدة والتنوع في تاريخ المسلمين (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٢٠ ـ خطوات في تراث الموصل (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٢١ ـ محاضرات في التاريخ والحضارة الإسلامية (قيد النشر).

د ـ محور قضايا في التاريخ المعاصر:

٢٢ ـ ملامح مأساتنا في إفريقيا (٤ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٢٣ ـ لعبة اليمين واليسار (٥ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٢٤ ـ أضواء جديدة على لعبة اليمين واليسار (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٢٥ ـ مقالات إسلامية (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٢٦ ـ الرؤية الآن: في هموم فلسطين والعالم الإسلامي (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٢٧ ـ أولى ملاحم القرن (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٢٨ ـ مذكرات حول واقعة الحادي عشر من أيلول (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٢٩ ـ أمريكا مرةً أخرى (طبعة واحدة) (دار ابن كثير ـ بيروت).

ثانياً: الأعمال الفكرية

أ ـ محور المنظور الإسلامي للمعرفة:

١ ـ أصول تشكيل العقل المسلم (حول إعادة تشكيل العقل المسلم) (٥ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٢ ـ مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم (٣ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٣ ـ العلم في مواجهة المادية (٤ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٤ ـ مدخل إلى إسلامية المعرفة (٤ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٥ ـ تهافت العلمانية (٧ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

ب ـ محور المنظور الغربي للإسلام:

٦ ـ قالوا عن الإسلام (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٧ ـ القرآن الكريم من منظور غربي (٣ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٨ ـ المرأة والأسرة المسلمة من منظور غربي (طبعتان) (دار الفرقان ـ عمان).

٩ ـ الإسلام والوجه الآخر للفكر الغربي (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

١٠ ـ نظرة الغرب إلى حاضر المسلمين ومستقبلهم (طبعة واحدة) (دار النفائس ـ بيروت).

١١ ـ غربيون يتحدثون عن الإسلام (طبعة واحدة) (دار السلام ـ القاهرة).

ج ـ محور البحوث والدراسات:

١٢ ـ مع القرآن في عالمه الرحيب (٣ طبعات) (دار العلم للملايين ـ بيروت).

١٣ ـ حوار في المعمار الكوني: وقضايا إسلامية معاصرة (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

١٤ ـ رؤية إسلامية في قضايا معاصرة (٣ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

١٥ ـ مقال في العدل الاجتماعي (٤ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

١٦ ـ متابعات إسلامية في الفكر والدعوة والتحديات المعاصرة (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

١٧ ـ كتابات على بوابة المستقبل (بالاشتراك مع الدكتور عبد الحليم عويس) (٣ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

١٨ ـ الله أو الطاغوت: مسائل أساسية في التصور الإسلامي (طبعة واحدة) (دار السلام ـ القاهرة).

١٩ ـ رحلة في عالم الكتاب الإسلامي (طبعة واحدة) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٢٠ ـ محاضرات إسلامية (طبعة واحدة) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٢١ ـ أخطاء في حياتنا الإسلامية (طبعة واحدة) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٢٢ ـ دراسات قرآنية (طبعة واحدة) (دار ابن كثير ـ بيروت).

د ـ محور المقالات الإسلامية:

٢٣ ـ آفاق قرآنية (٣ طبعات) (دار العلم للملايين ـ بيروت).

٢٤ ـ مؤشرات إسلامية في زمن السرعة (٣ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٢٥ ـ في الرؤية الإسلامية (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٢٦ ـ في دائرة الضوء (طبعة واحدة) (دار السلام ـ القاهرة).

٢٧ ـ من النافذة الإسلامية (طبعة واحدة) (دار السلام ـ القاهرة).

٢٨ ـ العالم ينتظر البديل (طبعة واحدة) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٢٩ ـ آيات قرآنية تطل على العصر (طبعة واحدة) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٣٠ ـ أحاديث نبوية تطل على العصر (طبعة واحدة) (دار ابن كثير ـ بيروت).

ثالثاً: الأعمال الأدبية

أ ـ محور الدراسات الأدبية والفنية:

١ ـ الطبيعة في الفن الغربي والإسلامي (٣ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٢ ـ فوضى العالم في المسرح الغربي المعاصر (٤ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٣ ـ الفن والعقيدة (٣ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٤ ـ قراءة في كتابات النورسي: رؤية جمالية (الكلمات) (طبعة واحدة) (دار سوزلر ـ القاهرة).

ب ـ محور التنظير:

٥ ـ في النقد الإسلامي المعاصر (٤ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٦ ـ مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامي (٣ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٧ ـ حول استراتيجية الأدب الإسلامي (الغايات المستهدفة للأدب الإسلامي) (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٨ ـ متابعات في دائرة الأدب الإسلامي (طبعة واحدة) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٩ ـ من يوميات الأدب الإسلامي (طبعة واحدة) (دار ابن كثير ـ بيروت).

ج ـ محور النقد التطبيقي:

١٠ ـ محاولات جديدة في النقد الإسلامي (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

١١ ـ في النقد التطبيقي (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

١٢ ـ في النقد التطبيقي الإسلامي (طبعة واحدة) (دار ابن كثير ـ بيروت).

د ـ محور الإبداع:

ـ المسرحيات:

١٣ ـ المأسورون (٣ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

١٤ ـ الشمس والدنس (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

١٥ ـ المغول (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

١٦ ـ الهمّ الكبير (طبعة واحدة) (دار ابن كثير ـ بيروت).

١٧ ـ التحقيق (طبعة واحدة) (دار ابن كثير ـ بيروت).

١٨ ـ معجزة في الضفة الغربية (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

١٩ ـ خمس مسرحيات إسلامية ذات فصل واحد (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٢٠ ـ العبور (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

ـ الروايات:

٢١ ـ الإعصار والمئذنة (٤ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٢٢ ـ السيف والكلمة (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٢٣ ـ مذكرات جندي في جيش الرسول (ﷺ) (طبعة واحدة) (دار وائل ـ عمان).

ـ القصص:

٢٤ ـ كلمة الله (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٢٥ ـ رحلة الصعود التي لا نهاية لها (طبعة واحدة) (دار ابن كثير ـ بيروت).

ـ الشعر:

٢٦ ـ جداول الحب واليقين (٣ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٢٧ ـ ابتهالات في زمن الغربة (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

ـ أدب الرحلات:

٢٨ ـ من أدب الرحلات

ـ أدب الحوار:

٢٩ ـ ريبورتاج: حوار في الهموم الإسلامية (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٣٠ ـ الطريق إلى فلسطين (طبعة واحدة) (دار وائل ـ عمان).

٣١ ـ لقاءات صحفية (طبعة واحدة) (دار السلام ـ القاهرة).

ـ السيرة الذاتية:

٣٢ ـ السيرة الذاتية:

لا إله إلا أنت (سيرة ذاتية) (طبعة واحدة) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٣٣ ـ من مذكرات طالب جامعي (طبعة واحدة) (دار ابن كثير ـ بيروت).



فهرس الموضوعات

القسم الأول

رحلتي مع الحياة

القسم الثاني

رحلتي مع الكلمة

